دكتور
محمد محمد أبو موسى
أستاذ ورئيس قسم البلاغة
كلية اللغة العربية
جامعة الأزهر

الزُّمَر - مُحَمَّد

وعلاقتهما بآل حم

دراسة في أسرار البيان

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية عابدين
القاهرة تليفون: ٢٣٩١٧٤٧٠
تلفاكس: ٢٣٩٠٣٧٤٦

دكتور
محمد محمد أبو موسى
أستاذ ورئيس قسم البلاغة
كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر

الزُّمَرُ - مُحَمَّدٌ

وعلاقتهما بآل حم

دراسة في أسرار البيان

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة
ت ٢٣٩١٧٤٧٠ فاكس ٢٣٩٠٣٧٤٦

الزمر ـ محمد .. علاقتهما بآل حم
دراسة في أسرار البيان
دكتور محمد محمد أبو موسى
الطبعة الأولى ١٤٣٣ هـ ـ ٢٠١٢ م
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة
٨٥٦ صفحة ١٧ × ٢٤ سم
رقم الإيداع : ٢٠١٢/١١٤٠٥
الترقيم الدولي : I.S.B.N.
977-225-346-1



دار الكتب والوثائق القومية

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

أبو موسى ، محمد محمد .
الزمر ـ محمد .. علاقتهما بآل حم : دراسة في أسرار البيان / محمد محمد أبو موسى .
- القاهرة : مكتبة وهبة ، ٢٠١٢
٨٥٦ صفحة : ٢٤ سم .
تدمك ١ ٣٤٦ ٢٢٥ ٩٧٧

١- القرآن ، بلاغة
أ- العنوان

٢٢٠٥

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

اللهم أعنّى على أن أحْـمَدك حَمْدا يَبْلُغ وُسْـع نفسى، وأوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ وأن أعـمل صالحا ترضاه، وأصلح لى فى ذريتى إنى تبت إليك وإنى من المسلمين.

وأصلى وأسلم على صفوتك من خلقك صلاة وسلاما دائمين ما دام الليل والنهار . . . وبعد.

فإن من أهم ما يجب أن يُكْتَب فى الكتـاب العزيز، هو المحاولات الجادَّة، الواعية لكشف علاقات المعانى بين السور، وكيف كانت هذه العلاقات مُوجبة للترتيب التوقيفى الذى عليه السور فى المصحف، وأىُّ شىء يَحْدُث لو وضعنا النساء بعـد البقرة؟ أو وضـعنا «إنا أنزلناه» موضع «ألم نشـرح؟». أو وضعنا «عبس وتولى» مكان «النازعات»؟ وهكذا.

وهذا الباب مـن أوسع وأغمض وأرفع أبواب البـحث فى أسرار البـيان فى الكتاب العزيز، ويسـتحيل أن ينْجِزَ هذا عالم واحـد، وإنما هو مشروع دراسى واجب أن يشغل به شيوخ العلم الـمُنْقطعون؛ الذين توفرت لهم أدواتُ البحث ودُرِّبوا على دراسة البـيان فى طبقاته المخـتلفة، من شعـر ونثر؛ لأن الذين لم يقـفوا على غـوامض الشعـر، والنثـر، لا يجدون مـا يُعينهم فى دراسـة هذا البـاب. والغريب الذى لايُفْـهم أن يكون علمـاء التفـسيـر بمعزل عن دراسـة الشعـر، وحفظه، وروايته، وبمعـزل عن دراسة فنون النثر، ومـذاهبه، والذين يَنْقطعونَ للتـفسير ويَعْـزِلون أنفسهم عن دراسة البـيان فى طبقاته المخـتلفة هم

مَظَنّة أن يكونوا بمعزل عن التفسّير نفسه، والتاريخ يقول هذا لأن شيوخ التفسير الذين أُخِذَ عنهم هذا العلمُ كانوا من علماء الشعر، وعلماء الأدب، والذى عليه أصحابنا اليوم أمر طارئ. وأجد فى كتب التفسير فهما للشعر لا أجده فى كتب الأدب، وقد كتب القدماء فى أسرار ترتيب السور، وكتاباتهم لا تزيد عن أن تكون فَتحًا للباب أو السير فيه خُطْوةً واحدة، وهو طريق طويل وخِصْب ومليء بالكنوز، والأسرار.

ورحم الله أوائلنا فقد كتبوا فى كل شىء، وفتحوا أبْوَاب العلم وتركوُهَا مُشْرَعةً ونَبَّهواُ إلى أن ما أبانوا عنه قليل جدا من كثير جدا تركوه لمن بعدهم، وهذه هى طبيعة العلم، كلما اتسع الكلام فيه اتسعت مساحات المجهول منه، وليس هناك علم أغلق بَابُه إلا عند الذين غُلّقَتْ أبوابهم، والذين قالوا إن العلم الفلانى نضج واحْتَرق لم يصيبواُ؛ لأنه ليس هناك علم يقال فيه هذا، وإنما يتسع العلم باتساع نظر العلماء الذين هم أهل لأن يقال لهم علماء، لأنك كلما فَتَّشْتَ وَجَدْت خبيئًا؛ ووجدت تحت الخبيئ خبيئًا، ولَوْ لَمْ يُكْشَف الخبيئ الأول لظل الثانى مخبوءا، وهكذا؛ وهذا هو طريق ازدهار العلوم ونُموِّها واتساعها، وهو أيضا مَهْيَعُ إنتاج المعرفة، ويا بعد ما بيْنَهُ وبين استلال المعرفة، الإنتاج هو ضالةُ العلماء والاستلال أخو السطو وله باب آخر. .

وإذا كان العلم متُّصلا بالقرآن العظيم، زيدَ فيه شىء آخر، وهو أن البحث فى أى باب من أبواب الكتاب العزيز باب من أبواب التدبر، والتدبر فى الكتاب باب من أبواب القربَات، وربما كان أفْضلَها، وسوف يَظَلُّ باب القُرُبَات مَفْتُوحًا فى الكتاب العزيز إلى أن ينتهى التكليف، ولن يُغْلق هذا الباب فى وجه أى جيل، ولا فى وجه أى فرد، سواء كان فى هذا الباب فى تحليل لُغَته أوْ فى تحليل بلاغته، أو فى معرفة حلاله، وحرامه، أو فى معرفة أسرار ترتيب سوره، أو ما شئت من أبواب العلم المتَّسعة فى الكتاب العزيز، ولا أشك فى أن قوله

تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩] أقول لا أشك أن ثراء أبواب البحث فى الكتاب العزيز داخل فى كلمات ربى التى يَنْفَد البَحْرُ ويَنْفَدُ مثله وهى لا تنفدُ.

شىء آخر فى الأبواب التى كَتَب فيها أوائلنا، وهو أن نفوس أهل العلم مع تقديرها الكامل لجهود السابقين، تراها تَرُومُ خَوْض التجربة التى خاضوها، لأن مُتْعَتَها فى هذا الخوض، ثم تَنْتَهِى إلى مَا يَنْتهى إليها به هذا الخوض، يَعْنى أن فلانا قال فى سر ترتيب سورة كذا على سورة كذا كلاما خلاصته كذا، العالم الذى مَسَّه ما مسّ أهلَ العلم من حب المكابدة فى الوصول إلى الحقيقة، لا يكتفى بهذا الذى قاله فلان، وإنما يقرأ هو، ويفكر هو، ويحلل هو، بطريقته هو، ويِذَوْقِه هو، وبِنظره هو، ثم ينتهى إلى ما ينتهى إليه، قارب قول غيره، أو باعده، وافقه أو خالفه، هذا شىء آخر لأن الباحث الحق الصادق فى حُبِّه للعلم يَسْتَعْذِبُ ثمرات جهود العلماء وهو لاستعذاب الجهود أشَدَّ منه لاستعذاب الثمرة، يعنى هو يبحث عن الحقيقة ويجد فى البحث عنها لذةً هى أقْوَى من لذة الحقيقة حين يأخذها من فم غيره، وبهذا الطريق الذى طَبَع الله نفوس أهل العلم عليه تَتّسِعُ المعرفة، وتتنوع ولا تكون ثمارا فحَسْب، وإنما تكون جهودا سابقة لهذه الثمار، فرق شاسع بين من يأكل القَمح وبين من يزرع القمح، هذا الزارع يجد لذة الإنتاج، وهى أعلى بكثير من لذة الحصول على ثمرة هذا الإنتاج، زارع القمح أضاف إلى الحياة شيئًا، وآكل القمح أنقص من الحياة شيئًا ويابُعْدَ ما بينهما.

فرق كبير بين أن أقول أو أكتب أو أفهم أن القرآن الكريم مُعْجِز ببلاغته، لأن أعيان علماء الأمة قالوا بذلك، وبين أن أقرأ الشعر، والنثر، وأُحلّل وأتدبَّر، وأن يطول زمن قراءتى، وتَدبُّرى، وتأملى، حتى أقع أنا على الفرق الكبير بين كلام الله وكلام الناس، وأن أجد الإعجاز البلاغى الذى وجده أعيان العلماء، فى هذه الحالة سيكون كلامى فى الإعجاز مختلفا، وحين

أُحدث به طلابى أحـدثهم عن اقتناع، وأُحَدثهم، وحقـيقة الإعجـاز البلاغى قائمة فى صدرى؛ وليست محفوظة فى ذاكرتى، وسيكون لحديثى طَعْمٌ آخر، وسأَقْنِعُ طلابى بما أنا مقتنع به، وسأغْرِيهم بالطريقة الذى سَلَكْتُ؛ وحين أُقْنِعُ بالعلم أكون قد أعدَدْتُ للأمة جيلا يَنْقَاد لما يَقْتَنِعُ به، وليس يَنْقَادُ لما يُقَالُ له، الأول إعداد جيل لا يقـبل الاستبداد لأن الاقتناع عنده أسـاس، والثانى جيل يتعايش مع الاستـبداد، لأنه ينقاد لما يسمع، ويابعد ما بيـنهما، ولذلك تقوى ذاكرة الحـفظ فى الشعـوب المقهـورة، وتَقِلَّ روح التَّدَبُّر والـتفكر، والقـبول والرفض، وعكس ذلك فى الشعوب الحرة.

وقد رأيت أن تكون مقَـدِّمة دراسة سورة الزمر دراسة فى سرِّ العـلاقة بينها وبين سورة «ص والقرآن ذى الذكر» وأن تكون مُقَـدِّمة الطبعة الجـديدة لسورة الأحزاب، بيـانا لصلتها بسورة السـجدة التى تسبـقها وسورة سـبأ التى تأتى بعدها، وهذا حسـبى فى هذا الباب الصعب، وكل الذى قلتـه والذى سأقوله ليس فيه ما يشفى الغليل، ولكنها محـاولات ربما أغْرَتْ من يقول فيها ما يَبُلُّ الظمأ.

وقد بقيت زمانًا وأنا أقرأ سوره ﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: ١] وأنظر فيها ثم أنظر فى الزمر، والرابط بينهما يخفى علىّ ويطولُ النظر، ويطول زمن الغموض حـتى إذا انكشف الغامض رأيت نَفْسِى تنكر علىّ خـفاء هذا، لأنه يظهر كعـمود الصبح، وهكذا العلم تراه يَغِيبُ وُيوغِـل فى المغيب، حتى إذا ظهر صار كالشمس التى غابت ثم ظهرت.

ولم يكن أمَامِى إلاَّ أن أجْـتَهد فى اسـتخراج وتحـديد المعنى الأم للسورة، والذى تولد منه وتفرَّع مـنه كل ما فيهـا من معانٍ كُلِّيّـة أوْ جزئية، ثم أضـعه بإزاء المعنى الأم للسورة التى تليـها ثم أَرْجع البصر مرة بعد مـرة، حتى يتبين لى وجه الترتيب.

وقد ذكرت أن المعنى الأم لسورة الزمر هو إخلاص العبادة لله رب العالمين، وأن ما تفرع منـه، وما قابله من اتخاذ أوليـاء يقربونهم إلى الله زلفى هو من تمام معنى إخـلاص العبـادة، وأن هذين النموذجين نموذج من أخلص العـبادة ونموذج من اتخذ آلهـة قربانا هما اللذان بُنِيَا عَلَيْـهما كل ما فى الـسورة وأنها خُتِمَتْ بسوق أحدهما إلى جهنم زمرا، وسوق الثانى إلى الجنة زمرا.

والمعنى الأم الذى آراه فى سورة «ص والقرآن ذى الـذكر» هو الإفراط فى الرفض، والتـحدى، الذى عَـبّرت عنه الآيات الأولى من أول الـسـورة، إلى قوله تعالى ﴿أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨]، ومن المفيد أن أكتبها وأن أُحَلّلها تحليلا موجزا لأن كل ما جاء بعدها إلى آخر السورة متفرع منها:

﴿صَ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ① بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ② كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ ③ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ⑤ وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ⑥ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ ⑦ أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي...﴾ [ص: ١ - ٨] أقول مرة ثانية كل مـا فى السورة تعقيبٌ وتفريعٌ واستمدادٌ راجع كله إلى هذه الآيات، وهذا أهم مـا اعتمدت عليه فى القول بـأنها جذر مـعنى السورة، وهذه الآيـات جملة مـتتابعـة من الرَّفض، والإصْـرَار على الرفض، ثم الاعـتمـاد فى هذا الرفض وهذا الإصـرار على أباطيل لا يَخْفَى باطلها.

والكلام فى الحروف الهجائية كثـير؛ وقد ذكرتُ منه ما ذكرت، والذى لم أذكـره وربما لم يذكره غـيرى هـو لماذا جاءت هنا ص، وجـاءت هناك حم، وجـاءت هناك الم، أو نون أو ق، وإذا كنا لم نقف عـلىَ سِرٍّ ذكـر حـروف الهجاء فـأولى بنا أننا لم نقف على سر تنوعهـا، وقد ذكر الزمخـشرى كلمة

عـابرة رَوَاها عن العلمـاء فى المراد بحرف ص، وأرانى مَـشْـدُودًا إليه، قـال الزمخـشرى: «وقـيل فيـمن كسـر أراد حرف ص هو من الـمُـصَادَاة، وهى المعـارضة، والمعـادلة، ومنها الصَّـدَى وهو ما يعـارض الصوت فى الأمـاكن الخالية من الأجْسـام الصلبة، ومعناه عارض القرآن بعمـلك، فاعمل بأوامره، وانته عن نواهيه» انتهى كلام الزمخشرى.

وحسبى من المصـاداة المعارضة والصدى الذى يعـارض الصَّوْت، لأن جذر السورة هو المعـارضة والإلحاح فيـها، واجتلاب العلل البـاطلة، التى يعوِّلُون عليهـا فى هذا الرفض، وهذه المعارضـة، وقول الزمخـشرى ومـعناه عارض القرآن بعملك إلى آخره يَلْتقى مع قوله تعالى بعد ذلك ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ﴾ [ص:١٧]، وليس فى القرآن سـورة ابتدأت بكلام عن أحوال الكافرين، وذِكْر مقالاتهم فى الكتاب العزيز، وأطالت الكلام فى ذلك كما أطالت هذه السورة؛ وقد أجملت حالهم فى الجملة المختصرة ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ ثم فَصَّلَتْ بعـد ذلك وموقع هذه الجملة المختـصرة موقع حميد. وقد لفتت كلمة (بل) إلى هذه الجـملة فى موقعها الحميد، وبل معناها الإضـراب، والإضراب هنا معناه انتـقال الكلام من مـعنى إلى معنى، والمعنى الذى انتـقل منه الكلام معنى مـحمـود جدا، وهو القسـم بسورة ص والقرآن ذى الذكر، والمقسم عليه مـحذوف يمكن أن يكون لتُبْعثنَّ أو أنه لحق، أو إنه لمعجز أو ما شئت مما يلائم السياق المتّسع.

وقد فَصَلَتْ جملة ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ بين ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ التى أَجْـمَلَتْ حال القـوم، وبين تفاصـيل موقـفهم، وأنهم عَـجبـوا لما جاءهم منذر منهم إلـى آخره، وهذه الجملة التـى فَصَلَتْ فيـها غـضب، وتهديد، ووعيـد، بعد هذا الإجـمال، وتقديمها على تفاصيل أحوالهـم، دال على شدَّة الغضب، والمبادرة بالوعيد،

والتهديد، ومعنى «فنادوا ولات حين مناص» أنهم نادوا بالتوبة، والرجوع إلى الحق، ولكن بعد فوات الأوان، وهذا من باب قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥] وكلمة «قَرْن» معناها الزمن، والمراد به هنا الجماعة أو الجيل من الناس، وقد عَبَّر القرآن الكريم عن هلاك الأقوام بوقوع الهلاك على المكان، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ﴾ [الأحقاف: ٢٧] كما عبر بوقوع الهلاك على الزمان كما في الآية، والمراد عموم الهلاك، وعموم الاستئصال، والفاء التي في قوله سبحانه (فنادوا) تفيد المعاجلة بالهلال، وذلك من جهة أنها دلّتْ على أن المراد بالهلاك ظهور أمَارَاته القاطعة؛ لأنه لو كان المراد به حقيقة الهلاك، لما صح أن يجيء نداؤهم بعد هلاكهم، وإنما هو من باب قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ [الأعراف: ٤] لأن مجيء البأس لم يَتَرتَّب على الهلاك وإنما ترتب على إرادته، وحال هؤلاء كحال الذين في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥] وقوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ وهذه الجملة فيها ما يَنْقُضُها، لأن مجيء المنذر منهم لا عجب فيه، أولا لأن إرسال الله رسله لخلقه هو مما تقتضيه بَديهة العقل، لأنه سبحانه خلق الخلق بالحق وهو أكرم وأعدل وأرحم من أن يَخْلقهم ثم يتركهم سدى، وإنما اقتضت حكمته ورحمته، وعدله، أن يتعهدهم برسله وكتبه وأنبيائه، ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ووحي الله الذى بعث به أنبياءَهُ نور، ورحمة، وكون الرسول منهم هو أقرب إلى رُشْدهم، وأعرف بأحوالهم، ولو أرسله ملكا لجعله رجلا. لأنّه آنَسُ لهم، والخلاصة أن تعَجُّبهم من أن يأتيهم نذير منهم هو موضع العجب وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ أول ما يلاحظ فيه أنه وضع الظاهر موضع المضمر، وكان الأصل أن يقال وعجبوا أن

جاءهم منذر منهم، وقالوا ساحر كذاب ولكن الكلام عدل إلى ما جاء عليه، ليشعر وضع المظهر موضع المضمر، إلى أن ما سيأتى بعده من الكلام الذى له خطر وله بال، وذلك أنهم لم يقولوا مثلا افتراه أو هو ساحر وإنما وصفوا الذى جاءهم بالحق أنه كذاب، وهو الصادق الأمين الذى لم يشك أحد فى قومه بأنه صادق، وأنّه أمين، وأنه لم يَدَع الكذب على الناس ثم يكذب على الله كما قال هرقل، وكلمة كذاب هنا هى أسوأ ما قالوه، وهى أنكد كلمة فى هذا القسم، وهى الكلمة التى استدعت قوله تعالى بعد ذلك ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ص: ١٧]، وقولهم ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ العجب فيه من تعجبهم، والإنكارُ الذى فى الهمزة هو الذى يجب أن يُنْكر، لأن قولهم هذا ينافى بديهة العقل، لأن المعبود بالحق لا يتعدد، لأن التعددُ يقتضى النَّقْص لا محالة، والناقص لا يُعْبد، وإنما الذى يُعْبَد هو الموصوف بكل كمال والمنزّه عن كل نقص، والكون لا يتسع لاثنين موصوفين بكل كمال، ومنزهين عن كل نقص «**ولو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا**» «**ولو كان فيهما آلهة لعلا بعضهم على بعض**» «**ولابتغوا إلى ذى العرش سبيلا**» ولكانوا كملوك الأرض يأكل القوى الضعيف، والله الواحد متُعال عن ذلك، لأنه قاهر لا يُقهْر، بديهة العقل تقول الخالق، لا يتعددً والذى يحيى ويميت لا يتعددً، والذى يرفع السماء بغير عمد ترونها لا يَتَعَددً، والذى يمسك السموات والأرض أن تزول لا يتعدد.

قوله تعالى: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ﴾ بعد قولهم ﴿هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ فيها دلالة على أنهم واجهوا ما استفزهم، وأزعجهم، وأن هذا الشَّتْم الوَقح فى قولهم سَاحرٌ كذَّاب كانوا فيه فى حالة أخذهم فيها ما أخذهم، حتى قالوا ساحر، وأنهم استشعروا قوة الحق، وصدق الداعى، صلوات الله وسلامه عليه، ثم إنهم أدركُوا أن ما ألَمَّ بهم من انزعاج ظهر فى انطلاقهم وسيرهم على غير المألوف من عاداتهم، فاستَدْرَكوا على أنْفُسهم،

وقالوا «امشوا واصبروا على آلهتكم» ولا يمكن أن أخْلِيَ هذا من الإحساس القويّ الذى خامر نفوسهم، وأنهم يواجهون صادقا، وأنه مَنْصُور عليهم، وإلا فأى مَعْنى لقولهم﴿ وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾ أى شىء حدث حتى صاروا فى حاجة إلى أن يُوصِى بَعضُهم بَعْضًا بالصبر على الآلهة، ظاهر الآية أنهم أعنى الملأ وهم الأشراف والسادة قالوا امشوا واصبروا على آلهتكم لأن إحساسا خامرهم جميعًا، وأنهم لما وجدوا ما وجدوا، وانطلقوا وأسرعوا، وكان ذلك قمينا بأن يَظَنَّ فيهم مَنْ يراهم أن أمرًا ما أزعجهم، كما قلت فاستدركوا، ولا معنى للصبر على الآلهة إلا إذا كانوا قد وجدوا شيئًا يوشك أن يُزيلهم عنها، وقد فسّر الزمخشرى الصبر على الآلهة «بالصبر على عبادتها والتمسك بها حتى لا تُزالوا عنها» وهذا كلامه وهو ظاهر فى الدلالة على ما أريد بيانه، وأنهم كانوا يكابرون أو يدافعون شيئًا وجوده فى القرآن ذى الذكر، وأن هذه المكابرة والمدافعة من العِزّة والشقاق، وقولهم ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ يرجع اسم الإشارة فيه إلى جعل الآلهة إلها واحدا، وهو الأقرب وقد فُسّر بغيرذلك، قال الزمخشرى «إن هذا الأمر لشىء يراد أى يريده الله تعالى ويَحْكم بإمضائه، وما أراد الله كونه فلا مَرَدَّ له، ولا ينفع فيه إلا الصبر، أو إن هذا الأمر لشىء من نوائب الدهر يراد بنا فلا انفكاك لنا منه، أو إن دينكم لشىء يراد أى يطلب ليؤخذ عنكم وتُغْلَبوا عليه» هذا كلام الزمخشرى وكله دال على إحساس خفىّ بضياع ما هم فيه، وإحساس قوى بصدق ما يخاطبهم به القرآن ذو الذكر أى ذو النباهة والتميز والشأن، ومن كلام الرافعى رحمه الله «أن القوم لم تَخْذلهم سيوفهُم فى قتال أحد كما كانت تخذلهم فى قتاله ﷺ لإحساسهم بصدقه وأنه غالب لهم».

وقوله تعالى: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ هو أيضا من أكاذيبهم على أنفسهم، لأن بقايا ملة إبراهيم عليه السلام لم تنقطع عنهم، وكان فيهم الحنفاء، وشعر زهير فيه ذكر للبعث، والحساب،

والثواب والعقاب، ولو أدرك زمن المبعث لكان من السابقين؛ ومن بينهم من طلب الدين فى خارج الجزيرة، ومن بينهم أهل الكتاب، وكان ورَقة ابن نوفل من سادتهم، وكان قد تنصَّر وكان يكتب الكتاب العبرانى، والاختلاق معناه الكذب والافتراء، وحَذْوُ قولهم **«ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق»** كحذو قولهم **«أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشىء عجاب»** وهذا من تصاقب الألفاظ لتصاقب المعانى أعنى أن ما قالوه كلام يشبه بعضه بعضا.

قوله تعالى: ﴿**أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا**﴾ هذه هى الجملة الأخيرة فى كلامهم وما بعدها تعقيب على ما مضى، وهذه الجملة هى أصل الرفض، وراجِعْها مع كل الذى مضى، واسأل لو أنزل الذكر على رجل منهم، هل كانوا يقولون أجعل الآلهة إلها واحدا؟ أو كانوا يقولون ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة؟ هذه الجملة تكررت على ألسنة الأمم السابقة، فقديما قالت ثمود ﴿**أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ**﴾ [القمر: ٢٥]، الرفض إذن راجع إلى بَغْيِهم وحَسَدِهم أن ينزِّل الله من فضله على من يشاء من عباده.

هذه الجملة الأخيرة هى التى عَقَّبت الآيات عليها؛ وذلك فى قوله تعالى: ﴿**أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ**﴾ [ص: ٩] ﴿**أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [ص: ١٠] لأن المقصود إنكار أن يكون اختيار النبوَّة فى أيديهم، لأن النبوة من رحمة الله، وليس عندهم خزائنه، ولأن النبوة من مقتضيات الملك، وليس لهم منه شىء، وقوله تعالى فى الكلام السابق على هذا ﴿**بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ**﴾ [ص: ٨] ليس نَقْضًا لمقالة قالوها، وإنما هو بيان لمجمل حالهم، وتوعدهم بالعذاب، والذى يعنينى هو التأكيد على أن جملة ﴿**أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا**﴾ هى نهاية الآيات التى هى أم معانى السورة، أوجِذْر السورة، أو أصل معنى السورة، وأن السورة تدور حولها، وهى آيات رفض، وعناد، وسوء أدب، وإصرار، واستكبار، ونفور،

وروغان، من عبادة الله وحده، وهى أيضا تشبث جاهل، وأعمى بالآلهة، وأنها لا تكون إلها واحدا إلى آخر ما ترى فى الآيات، وقلت إنه لم تفتتح سورة من سور القرآن بهذا القدر المطوَّل فى هذا المعنى، نعم افتتحت سور كثيرة ببيان موقف أهل الباطل، ولكنه لم يُفصّل ولم يطوَّل كما هنا، ورأس السورة غالبا ما يكون دالا على رأس معناها، وجذر معناها، وقلت غالبًا لأن المعنى الأم أحيانا يأتى بعد آيات من رأس السورة، وتكون هذه الآيات بمثابة تقديم لهذا المعنى الأصلى كما رأينا فى الدخان والجاثية.

وأقول إذا كان هذا هو المعنى الأم للسورة، والذى جاء بعده متفرع عنه ومرتب عليه -وسأبين ذلك إن شاء الله- فقد ظهر الآن أن سورة «ص والقرآن ذى الذكر» التى يدور معناها حول الولع بتعدد الآلهة وإنكار جعلها إلها واحدا هى بمثابة مقدمة للزمر التى يدور معناها حول إخلاص العبادة لله رب العالمين، ونبذ هذا الشرك، وهذا واضح عندى جدا وإذا لم ترضه، وبان لك غيره، فاكتب الذى ترضاه، وأعلم أنى من الذين يرجون من الله أن يرزقنا الصواب على يد من يشاء من عباده، لأن فضل الله أوسع من أن يَحْرِم من قصد إلى الصواب فأخطأه الصواب، وأرجو من الله أن أكون ممن قصد الصواب، وبقى عليَّ الآن ما أن أُبيِّن ما زعمته، من أن كل ما بقى فى السورة هو امتداد واستمداد وتعقيب وتَفْريع على هذه الآيات المولعة بتعدد الآلهة، ولاحظ أن أول جملة تحدثت عن عقائدهم فى السورة هى قوله تعالى: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ لأن ما قبلها من قوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ ليس من وصف العقائد، ومثله قوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾، وكأن الآيات الأم اصطَفَتْ من الجمل جملة أُمّاً ووَضَعَتها فى رأس الحديث عنهم.

وأبدأ بإيجاز بيان كيف كان ما بعد هذه الآيات تفريعا عنها، راجع الآيات من قوله تعالى ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾ [ص: ٨] إلى قوله تعالى:

﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ﴾ [ص: ١٧] تجدها تعقيبا ظاهرا على باطلهم، وأنهم لن يكونوا شيئًا له بال، وإنما يكون حالهم كحال الأمم المكذبة قبلهم، وأن يَحقَّ عليهم العقاب، الذى نزل بهذه الأمم، وفى هذه الآيات كلمات يجب الوقوف عندها مثل قوله تعالى: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحْزَابِ﴾ [ص: ١١] وهذا وصف لهم وكلمة (ما) زيدت هنا وأصل الكلام جند هنالك مهزوم من الأحزاب وزيدت «ما» لتأكيد المعنى الذى هو الاستخفاف بهم، وأنهم جند مهزوم، وهذا شَدٌّ لأزره ﷺ وشد لأزر أهل الحق من علماء أمته، الذين يُبلغون رسالات الله، وأن الباطل مهما شَدَّ واشْتَدَّ وطالت لجاجته، وملأ الذى حولك صَخَبًا لا يزيد عن أن يكون جندا ما مهزوما، ثم إن آية ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ﴾ [ص: ١٢، ١٣] ألحقتهم بالأمم التى أخذها الله، وهى ظالمة فقوم نوح أغرقوا، وقوم عاد أرسلت عليهم الريح، وثمود هلكوا بالصيحة، وفرعون وجنده أغرقوا، وهكذا ربطتهم الآية بهؤلاء الهالكين، ثم أشارت إلى قرب الهلاك بتلك الكلمة النبيلة ﴿وَمَا يَنظُرُ هَؤُلاءِ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ [ص: ١٥] والصيحة النفخة، والفواق ما بين حَلْبتى الحالب، ورَضْعَتَى الراضع، يعنى إذا جاء وقتها لم تستأخر هذا القدر من الزمان كما قال الزمخشرى. وهذا فصل من فصول السورة هو ملحق بالفصل الأول، وتعقيب عليه وعند قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ نجد مفصلاً جديدًا أو فصلاً جديدًا، هو مرتب على الفصل الأول، وقد أمر فيه عليه السلام بالصبْر وذكر داود عليه السلام ثم تكرر ذكر الأنبياء فى هذا الفصل فقال سبحانه واذكر عبدنا أيوب، واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب واذكر إسماعيل وإليسع، وانتهى هذا الفصل بالذكر فى قوله تعالى ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٤٩]، وفى

هذا الفصل الجديد ذكر نعيم المتـقين ثم مآب الطاغين الذى هو شر مآب جهنم يصلونها، ثم ذكرت السورة تنازع أفواج أهل النار وانتهى هذا الفصل عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [ص: ٦٤] ثم بَدَأَ رسول الله ﷺ يتكلم كلامـا يُرِدُّ فيه عَجَـزُ السورة إلى صدرها، وسـأقف عند هذا القسم، وأعود بإيـجاز إلى قوله تـعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ﴾ إلى آخر الـفصل، وأول ما أفـهمـه هو أنه عليـه السلام لمَّا أَمَـرَهُ الله بالصبـر وأمره بذكـر هذه الكوكبة من النبيين كان هذا واضحا جدا لأنه فى حاجة إلى ذلك فى مواجهة شدّة الـعناد والشرك وتعـدُّد الآلهة، ورفض الوحـدانية وخـصوصـا أن الآية الكريمة لما ذكـرت داود عليه السلام ذكـرت وَصْفَـه بالقوة والحـزم، والعزم، والجـلادة، وغيـر ذلك مما يفهم من كـلمة (ذا الأيد) وفُـسِّر بذى القـوة فى الدين، المضطلع بمشـاقه، وتكاليفـه، كما قـال الزمخشـرى. وقد تكرر هذا الوصف فى قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ﴾ [ص: ٤٥] وكل هذا مفهوم فى مـواجهة أهل الباطل، وكل هذا يجب أن يكون حـاضرًا عند الذين ورثوا النبـوة من علماء ودُعَـاة هذه الأمة رضى الله عنهم، ثم إن الآيات ذكـرت عطاء الله لداود وسليـمان، وأيوب، وأن داود عليه السلام كان فى الآيات من أكثر الأنـبياء حَظًّا بذكر النعم، فقد سخـر الله الجبال مـعه ليسبحن بتسـبيحه، وهـذا من أعظم الآيات والطير محشـورة، أى مجتمـعة حول تسبـيحه. وأفاد أهل العلم من قـوله تعالى: ﴿يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨] مشـروعيـة صلاة الضُـحى لأن الضـحى هو المراد بالإشراق، وذكـروا الفـرق فى الصِّيـاغـة بين «يُسبـحن» «ومحشورة» والمضـارع فى يُسبّحْن دال على حدوث التسبيح من الجبـال شيئًا فـشيـئًا، وكـأن السامع مـحاضـر تلك الحـال يَسْمَـعُهـا تُسبِّح، هذا كـلام الزمخـشرى، وقـال أيضًا عن ابن عـباس رضى الله عنهـما: كـان إذا سبح جاوبَتَه الجِبال بالتسبيح، واجتمعت إليه الطير فَسَبحت فذلك حشرها.

وكان لسليمان عليه السلام عطاء ولكنه من نوع آخر لأن الله سبحانه سخر له الريح تجرى بأمره، وسخر له الشياطين كل بناء وغواص إلى آخره، وهذا مُلْك، وتسبيح الجبال والطير مع أبيه شيء آخر، وأفهم من هذا أن تسبيح داود تسبيح مختلف حرّك الجبال فأوّبَتْ معه والطير، وهكذا يقال فى عطاء الله لبقية الأنبياء المذكورين فى السورة.

وأفهم أنه عليه السلام أُمر بالصبر وذكر هؤلاء ليشُدّ ذكرُهم أزْرَهُ عليه السلام فى مواجهة عِنَاد الباطل وأهله وأفهم أيضًا التعليق على المعنى الذى قلت إنه جذر السورة وهو الآيات من أولها إلى قوله تعالى: ﴿أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ والذى التوى علىّ فهمه وبعد عنّى مرامُه هو ذكر الفِتْنة التى فى قصة ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ﴾ [ص: ٢١] ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ وفيها أيضًا: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ [ص: ٢٤، ٢٥] كما جاء فى ذكر سليمان أن سليمان عليه السلام قال: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ [ص: ٣٢]وفيه أيضًا ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤] وأيوب عليه السلام نادى ربه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص:٤١] فلماذا ذكرت هذه الأحوال؟ وما وجه ملاءمتها للأمر بالصبر فى مواجهة الباطل، وذكر النبيين أولى الأيدى؟

لم أجد جوابا شافيا عن هذا السؤال، وقبل أن أحاول البحث عن جواب أُشيرُ إلى أن آية: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ [ص: ٢١] كثر فيها الكلام، ودَاخَلَتها حكايات تتنافى مع خلق وسلوك نبى الله داود، ويلاحظ أن الكتاب العزيز قبل أن يبدأ الكلام فيها قال فى شأن داود عليه السلام أكرم ما يقال فى أكرم أنبياء الله، فقد كرّمه ربه بقوله ﴿عَبْدَنَا﴾ وبقوله ﴿ذَا الْأَيْدِ﴾ وتأكيد الجملة التى وَصَفَهُ فيها بأنه (أواب) وأن الله سخر معه الجبال يسبحن،

وسخر معه الطير محشورة، وكل له أواب وأن الله شدَّ مُلكه، وآتاه الحكمة، وفصل الخطاب، ولا يجوز بعد هذا أن يقال فى شأنه ما قيل؛ حتى إن عليا كرّم الله وجهه قال من حدثكم بحديث داود على ما يَرْويه القصاص جَلَدْته مائة وستين، وهو حد الفرية على الأنبياء، وذكر الزمخشرى شيئًا مما قيل فى شأن داود عليه السلام ثم قال: فهذا ونحوه مما يَقْبُح أن يُحدَّث به عن بعض المتسمين بالصلاح، من أفناء المسلمين، فضلا عن بعض أعلام الأنبياء، وذكر الزمخشرى أن رجلا حدَّث ببعض الحكايات المتناقلة والتى تُحدِّث عن داود عليه السلام فى مجلس عمر بن عبد العزيز، وعنده رجل من أهل الحق، فكذب المحدِّث به، وقال إن كانت القصة على ما فى كتاب الله فما ينبغى أن يُلْتَمس خِلافُها، وأعظم بأن يقال غير ذلك، وإن كانت على ما ذكرت وكفّ الله عنها سترا على نبيه فما ينبغى إظهارها عليه؛ فقال عمر: لسماعى هذا الكلام أحب إلىَّ مما طلعت عليه الشمس، انتهى كلام الزمخشرى.

وقد ذهب بعض المحققين إلى أن المأخذ الذى أُخذَ على داود عليه السلام فى الآية لا شأن ولا صلة له بالنساء، وإنما لأن داود عليه السلام حكم بعد سماع طرف واحد، قال له «**إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب**» فقال داود عليه السلام «**لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه،**» ولم يسمع من الذى له تسع وتسعون نعجة، وأن هذه قصة حقيقية، وأن المتحاكمين إلى داود عليه السلام من البشر، ورُجِّح هذا الفهم بقوله تعالى لداود عليه السلام﴿**يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ**﴾ [ص: ٢٦]، وهذا قاطع فى أن المؤاخذة كانت فى الحكم، وليس فيما قاله الناس، قال ابن المنير رحمه الله بعد ما حكى هذا الوجه من الفهم، (وقد التزم المحققون من أئمتنا أن الأنبياء عليهم السلام داود وغيره، مُنَزَّهون من الوقوع فى صغائر الذنوب، مبرؤون من ذلك، والتمسوا المحامل الصحيحة لأمثال هذه القصة، وهذا هو الحق الأبلج والسبيل الأبهج إن

شاء الله تعالى) انتهى كلام ابن المنبر، وأضيف بأن ذكر الله لنبيه داود قبل القصة بما ذكره به سبحانه لإبعاد اللغو الذى يلغو به العامة حول هؤلاء الكرام، وكذلك قال سبحانه فى شأن سليمان ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]، وقال قبل قصة موسى مع الرجل الذى وكزه فقضى عليه، ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [القصص: ١٤]، وقال فى قصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [يوسف: ٢٢].

وأعود إلى البحث عن سر ذكر هذه الغفلات فى هذا الموضع من السورة..

أقول إن الأكثر جريانا فى الكتاب العزيز حين يذكر القرآن عَنَتَ وَلَجَاجَة وإصرار قومه ﷺ وَيَذْكُر الأنبياء عليهم السلام، أن يُصَاحب ذلك ذكرُ أقوالهم، وعنتهم، ولجاجتهم، وإصرارهم على العناد، وهنا لم يذكر شىء من ذلك، وإنما ذكرت الغفلات، فهل المراد تحذيره صلوات الله وسلامه عليه من الغفلة عن الحدود التى حدَّدها له الكتاب العزيز؟ وأنه عليه السلام ليس عليه إلا البلاغ؟ وأنه لا يَهْدى من أحب؟ وأن الله وحده هو المالك لقلوب خلقه يهدى من يشاء ويضل من يشاء؟ وأن قلوب خلقه بين أصبعين من أصابعه سبحانه؟ وقد أومأ الزمخشرى إلى هذا وهو يُبيِّن الصلة التى بين قوله تعالى ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ﴾ [ص: ١٧]، وأى مناسبة بين ذكر داود والصبر حتى عطف الثانى على الأول؟ أجاب عن ذلك بوجهين الأول «هو أن المراد هو أن يُذكِّر قومه بتعظيم معصية الله، وأن نبى الله داود وهو أواب وتُسبِّح معه الجبال لما غَفَل عُوقب فكيف بكم؟ هذه خلاصة الوجه الأول، وهو بعيد وذلك لأن القوم كذَّبُوه عليه السلام ولم يَنْفَعهم القرآن ذو الذكر، فكيف تنفعهم قصة داود؟ ثم إننا نلاحظ أن الذى قالوه فى المعنى الذى هو الأم يرجع كله إلى التكذيب، ترى التكذيب فى عجبهم أن جاءهم

منذر منهم، والتكذيب فى جعل الآلهة إلهـا واحدا، والتكذيب فى قولهم ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة، وكل هذا يُسْتَبْعد معه الوجه الأول» والوجه الثانى قال فيه الزمخشرى «اصبر على ما يقولون وَصُنْ نَفْسَك وحافظْ عليها أن تزل فيما كُلِّفْتَ من مصَابرتهم وتحمل أذاهم، واذكر أخاك داود، وكرامته على الله كيف زَلَّ تلك الزَّلَة اليسيرة، فلقى من توبيخ اللـه، وتظليمه، ونسبته إلى البَغى ما لقى» انتـهى كلام الزمخشرى، وهو كلام فيـه شدَّة لأنى لم أجد فى الآيات شيئًـا من توبيخ الله لداود، وتظليمه، ونسبتـه إلى البغى، وكل ما فى الآية هو ظَنٌّ داود أنه فُتن فاستـغفر ربه وخر راكعا وأناب، وغـفر الله له، أما قول الله له﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦] فهو من التكليف الذى تجد مثله فى قوله تعالى لرسوله الخاتم صلوات الله وسلامه عليه ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨] ومثله كثير جدا ويبلغ فى الشدة حتى يقول له ل ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وغفر الله للزمخشرى فـقد قال فى قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣] كلاما شـديدا دعا الشيخ تقى الدين السـبكى إلى أن يَتَوقَّف عن إقرائه لطلابه كتاب الكشاف، وكتب رسـالة عنوانها أسباب الانكفاف عن إقراء كتاب الكشاف، ولم يكن الزمخشرى مجترئًا على مقام الأنبياء وإنما هكذا كان يفهم، والوجه الثانى الذى ذكره فيه إشارة إلى معنى جيد وهو أن لجاجة أهل البـاطل تحـتاج إلـى صبـر وثبـات على الحق، لأن أهل البـاطل بأكـاذيبـهم يَسْتَفِزُّون. والمطلوب من أهل الحق ألا يحيدوا قَيْد نملة، وهذا معنى جيد؛ ثم هناك شيء آخـر، وهو أن الله سبحـانه وتعالى ندب رسـوله وأهل الحق من بعده صـلوات الله وسلامـه عليه إلى الصَّـفْح والمسالمة كـما فى قوله تـعالى ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ﴾ [الزخرف: ٨٩] وكما فى قوله جل شأنه﴿ قُل لِّلَّذِينَ

آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤] لأن القلوب بين أصبعين من أصابعه، وليس من الحكمة أن نَحْتَدَّ فى مواجهة المخطئين، وكأن الذنوب كُتِبَت على الناس، وليس فينا أحد بمعزل عنها، وإذا كان داود الأواب الذى أوّبت الجبال معه قد اعترته الغفلة، فكيف بغيره؟ وإذا كان قَوْمُكَ قد بَلَغُوا غاية اللجاجة، وغاية السَّفه، وغاية سوء الأدب، فإن الذى يُهَدِّئُ من غضبك عليهم، أن تذكر داود وسليمان وأيوب وهم من أنبياء الله المكرمين وكان منهم ما عوتبوا عليه.

والخلاصة: أن ذكر فتنة داود وفتنة سليمان وغفلة أيوب التى أفضت إلى مسّ الشيطان له، ذكر ذلك هنا فيه إشارة إلى أن الآيات التى هى أُمُّ معانى السورة بلغت فى تصوير لجاجة القوم وبعدهم فى هذه اللجاجة مبلغا عاليا جدا. فقيل لرسول الله ﷺ اصبر على لجاجة المبطلين وتذكر غفلات الصفوة من أنبياء الله المكرمين حتى لا تذهب نفسك عليهم حسرات، ويرجح هذا أنه عليه السلام لم يَنْتقل إلى الرفيق الأعلى إلا وقد دخل هؤلاء المبطلون فى دين الله أفواجا، وكانوا خير أجيال الأرض، هذا ما عندى فى هذه المسألة وهو غير كاف كما قلت.

والذى يظهر لى جليا وأريد بيانه هو أن السورة كلها بُنِيَتْ على الآيات التى قُلْتُ إنها أم السورة، وقد ظهر الآن ظهورا جليا أن الآيات إلى قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٨]، داخل فى حيز اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود، ثم إن قوله سبحانه: ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٤٩] انتقال إلى معنى هو امتداد لذكر النبيين عليهم السلام، وجملة «هذا ذكر» جملة بالغة النفاسة؛ لأن اسم الإشارة فيه عائد إلى ذكر الأنبياء، ولاحظ المناسبة الجليلة بين اذكر عبدنا داود واذكر عبدنا أيوب واذكر عبدنا إبراهيم واذكر إسماعيل ثم قال هذا ذكر. وكلمة ذكر فى

جملة «هذا ذكر» المراد بها القرآن الذى جاء فى قوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: ١] وتأمل كلمة الذكر وكيف فتحت الكلام فى السورة ثم كيف جرت فيها ثم كيف خُتم بها هذا الفصل، أو هذا الباب، وكان الزمخشرى مدركا لفصول السورة، وأبواب معانيها، وذكر أن كلمة «هذا ذكر» تُغْلِق بابا من أبواب معانى السورة، وتفتح بابا آخر، وهذه طريقة بارعة، قال الزمخشرى فى تعليقه على جملة (هذا ذكر) «أى هذا نوع من الذكر وهو القرآن. لما أجرى ذكر الأنبياء وأتمه، وهو باب من أبواب التنزيل، ونوع من أنواعه، وأراد أن يذكر على عقبه بابا آخر، وهو ذكر الجنة وأهلها قال «هذا ذكر وإن للمتقين» كما يقول الجاحظ فى كتبه فهذا باب، ثم يشرع فى باب آخر، انتهى ما أردته من كلام الزمخشرى، وهذا الباب الآخر هو ثواب المتقين وبعد الفراغ منه قالت الآية ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ [ص: ٥٥] وكلمة هذا كأنها مفصل من مفاصل المعنى، أو نهاية باب من أبوابه، ثم ذكرت عذاب الطاغين، وقوله سبحانه فى باب الطاغين ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ [ص: ٥٧] هو قوله سبحانه فى أول تعقيب على الآيات التى هى أم معانى السورة ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ [ص: ٨] والنفى هناك بكلمة «لما» إشارة إلى أنهم لم يذوقوه وسيذوقونه، وهم هنا يذوقونه، وهذا أيضا من الشوابك. وتأمل تكرار كلمة يذوقوا.

وقد استمر باب عذاب الطاغين إلى قوله تعالى ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [ص: ٦٤] وبدأ باب آخر هو قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [ص: ٦٥] وهنا بدأ العجز يُردُّ إلى الصدر، وبدأ ﷺ يَرد عليهم ضلالاتهم وما بين العجز والصدر امتداد ظاهر جدا وتعقيب ظاهر جدا وترتيب ظاهر جدا كل هذا على الآيات التى قلنا إنها جذر السورة.

وقد لاحظت فيما درست من سور أن نهاية السورة تبدأ من قَبْل آخرها بآيات كثيرة، ربما زادت عن صفحة وقد نبهت إلى ذلك فى مواضعه.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أمر من الله لرسوله بأن يُبَلِّغَهم ما يَدْحَض افتراءهم، وكذبهم، على لسانه ﷺ بعد ما عقب عليه الحق بما يدحضه فى قوله: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ۝ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [ص: ٩، ١٠] وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ﴾ رجوع ظاهر إلى قوله سبحانه عنهم: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ ودحض لقولهم ﴿سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤] وقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ﴾ رجوع إلى قولهم: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [ص: ٥] وكلمة الواحد تشير إلى بطلان اعتقادهم فى الآلهة من جهة بديهة العقل، لأن هذا الملكوت لا يجوز فى بديهة العقل أن يكون فيه إلا إله واحد خالق مالك قادر لا ينازع، وكلمة القهار تهديد ظاهر بالقهر، والغلبة، والنكال، لكل من عبد غيره سبحانه، ولكل من قال بما يخالف الوحدانية.

وقوله: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [ص: ٦٦] إشارة إلى أنه لا يُعْبد إلا من كان ربا لكل شىء، وكلمة العزيز ومعناها الغالب أو المتفرد، إشارة إلى عدم قبوله الشريك، وكلمة الغفار دعوة عامة لكل من ضَلّ أنْ يَسْلُك طريقه إلى العزيز الذى لا يغالب، والذى سَبَقَتْ رَحْمَتُهُ غضبَه، والذى يغفر الذنوب جميعا، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ [ص: ٦٧] رجوع إلى قوله: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: ١] وقوله: ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص: ٦٨] رجوع إلى قوله ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [ص: ٢]، وقوله: ﴿إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [ص: ٧٠]رجوع إلى قولهم ﴿أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨] وكلمة﴿أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ تعنى أن قبولكم للحق هو لأنفسكم، ورفضكم له هو عليكم، وليس على إلا النذير المبين، وإيمانكم ليس بنافعى، وكفركم ليس ضارا بى، فلا تظنوا أنكم تؤذوننى برفضكم، نعم إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم، وهكذا الدعاة من بعده

صلوات الله وسلامه عليه لا يغضبهم ضلال من ضل ما داموا أبانوا بلاغهم عن الله، وإنما يخافون عليهم يَعْنى حين يزداد إصرارُ قومى على الباطل يزداد إشفاقى عليهم، ويزداد خَوْفى عليهم، ولا يجوز أن أقع فى منازعة وصدام، وصراع، هذا والله أعلم.

بقيت قصة خلق آدم وسجود الملائكة له، ورفض إبليس السجود، وعصيانه أمر ربه، وما جرى بينَه سبحانه، وبين هذا اللعين، ثم بعد هذه القصة تأتى الخاتمة ملخصة تلخيصا آخر فى ثلاث آيات، وهذا وذاك محتاج إلى بيان.

واقول إن قصة خلق آدم، وسجود الملائكة له ورفض إبليس تَكرَّرت كثيرا فى الكتاب، وكنت دائما وأنا أقرأها أتطلَّع إلى معرفة ملاءمتها لموقعها، لأننا حللنا البيان تحليلا مُفيدًا جدا، وأغْفَلْنَا البحث فى الملاءمة بين الكلام ومواقعه، وكنت لا أجد إلى ذلك سبيلا، لأنى على يقين من أن معرفة سرٍ الموقع لا يتأتى إلا إذا كان توزيع معانى السورة على خريطتها ظاهرا بين يدى ظهور الشمس ليس بينك وبينها حجاب.

ولم تصادفنى هذه القصة فى آل حم، ولا فى الأحزاب، ولا فى الزمر، ولا فى القتال، وهذا هو الذى دَرَسْته فى الكتاب، وإنما صادفتنى وأنا أكتب مقدمة الزمر، وبعد مراجعة رأيتها داخله فى رَدِّ العَجز على الصدر، وذلك من جهتين: الجهة الأولى أنها برهان على أنه عليه السلام يوحى إليه، لأنه عليه السلام لم يكن عنده ولا عند قومه علم بالملأ الأعلى إذ يختصون والمراد إخبار الحق ملائكته المقربين بأنه سبحانه خالق بشرا من طين، وأمرهم بالسجود له فسجدوا إلا إبليس ولم يكن منهم، وإنما كان من الجن وصح استثناؤه منهم لأنه كان بينهم، وهذا البرهان المؤكد للوحى هو أيضا مؤكد لدحض قولهم **«أأنزل عليه الذكر من بيننا»**.

والوجه الثانى وهو الأهم أن الله سبحانه يقول لنبيه عليه السلام اصبر على ما يقولون، وكل الذى كان منهم هو أنك بلَّغْتهم وَحْىَ ربِّك فَرَفَضُوا ولك فىَّ

أسوة حسنة، لأننى لم يرفض إبليس أمْرِى كما رَفَض قومُك فحسب وإنما رفض وَعَاند واحتج، وأنا خالقه، ومالك أمره، وهو يعلم ذلك، ويُقرُّ بأننى الذى خلقته من نار، وخلقت آدم من طين، ويحتج علىّ بما فعلت بقدرتى، ويقول لى إن النار التى خلقتنى منها أشرف من الطين الذى خلقتَ منه آدم، وما يجوز له أن يسجد لآدم، راجع يا محمد هذه القصة ليهون عليك ما أنت فيه، ولتُهَوِّن على نفسك ما أنت فيه، لأنك لست إلا بشرا مخلوقا يوحى إليك لتبلغ قومك، وأنا الخالق البارى المصور المالك ومخلوقى يعصينى ويَرُدُّ علىَّ أمرى جهاراً نهاراً، بل إنه لما طلب منى أن أنظره أنظرته، وواجهنى بأنه سيغوى عبادى، ويُضلُّهم عن أمرى، وأن هؤلاء الضالين من قومك هو الذى أضلهم، ومع ذلك أمْهَلْته وأنظرته، وأجد شبها بين مجىء قصة الخَلق، وحكاية إبليس فى سورة ص والقرآن ذى الذكر، وقصة نفر الجن فى آخر الأحقاف، وأن رسول الله ﷺ فى الأحقاف كان قد اشتد عليه ما كان من قومه فبشَّره ربه بانقياد الجن لقرآنه، وأنهم صاروا دعاة فى قومهم لما سمعوا القرآن، وهكذا الحال هنا اشتد الأمر على رسول الله ﷺ وقد سَفِه به قومه فى السورتين هنا قالوا كذاب وهناك كان مرجعه من الطائف وقد أغرت ثقيف به سفهاءها، ورأس معنى ص آيات العناد التى ذكرناها ورأس معنى الأحقاف قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴾ [الأحقاف: ٣] والأصلان متقاربان، هذا والله أعلم.

وأكرر بيان العلاقة العضوية بين سورة ص والقرآن ذى الذكر وسورة الزمر وهذا ما كتبت هذه المقدمة له، وقلت عضوية لأنها تعنى روابط كروابط أعضاء الجسم الواحد، فلا يجوز أن تُوضَع غافر موضع الزمر كما لا يجوز أن توضع العَيْنُ موضع السَّمْع، ولا أن توضع اليد موضع القدم، وهو باختصار شديد أن ما وَجَده رسول الله ﷺ مما كان عليه قَومُه من الأحوال التى وصفتها الآيات الأم، واقتضى أمره ﷺ بالصبر وذكر عباد الله المخلصين

من الأنبياء الكرام يـنتقل بنا إلى إخلاص العبادة للـه رب العالمين وهو الوجه المقابل لما تضمنتـه آيات جذر السورة؛ ويزيد هذا جلاءً أن الأمـربالصبر الذى اقترن هنا بذكر الأنبياء كثيرا مـا يأتى فى الكتاب العزيز مقترنا بخلوص العبادة لله رب العالمين كمـا فى قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾[الطور: ٤٨، ٤٩] وهذا التسبيح الشامل للأوقات هو ذاتـه إخلاص العبادة لله رب العالمين ومثله كثير فى الكتاب العزيز.

بقى فى السورة كلمـات ختمت بها وهى من وجه راجـعة إلى الآيات التى هى أصل السورة ومن وجه آخر مهيئة للآيات التى هى مطلع سورة الزمر.

هذه الكلمات هى قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٦- ٨٨].

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ راجع إلى قوله سبحانه عنهم: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ راجع إلى قولهم ﴿هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾وإلى قولهم: ﴿أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ راجع إلى قوله تعالى: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ وكأن الذكـر كان فى أول آية وفى آخر آية وبيـنها ما بينهـما من الذكر، وقـوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ إشارة إلى أن الـله سبحـانه سيظهره على الدين كـله ولو كره الكافرون، وهذه الكلمات إذا وضعـتها بإزاء تنزيل الكتاب، من الله العـزيز الحكيم، إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعـبد الله مخلصـا له الدين وجدتها مـلتئمـة جدا ولو أغفلت البـسملة وانتقلت من قوله تعالى﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٧، ٨٨] ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ

الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ١، ٢] لوجدت الكلام واحدًا.

وهناك معان أجملتها سورة ص والقرآن ذى الذكر وفصلتها الزمر منها قوله تعالى ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [ص: ٥] وقد جاء مفصلا ومكررًا فى الزمر ابتداء من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] ومن ذلك قوله تعالى فى سورة ص ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [ص: ٨٧] وقد جاء ذلك مفصلا ومكررا فى الزمر من ذلك قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، ومنه ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٧، ٢٨] ولو قلت إن قوله تعالى فى الزمر ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣] نداء للذين عجبوا أن جاءهم منذر منهم وقالوا ساحر كذاب، وهكذا لم تكن قد تجاوزت، هذا والله أعلم.

مكة المكرمة فى ٢٣ من ذى الحجة ١٤٣٢

الموافق ١٩ نوفمبر ٢٠١١

محمد أبو موسى

***

سورة الزمر

كان لابد من المراجعة الدقيقة لسورتَىْ الزُّمَر والقتال؛ لأنهما المحيطتَان بآل حم، ولما كان المقصود من دراسة آل حم هو بيان المعنى الجامع بينها حتى صارت بمثابة عائلة واحدة، وأشارت كلمة «آل» إلى هذه الرحم التى بَيْنَها، أقول لما كانت دراسة آل حم مُتَوخّيّةً بيان الرحم التى بينها لزم أن أراجع الزمر التى انتقل الكلام منها إلى آل حم؛ لأتبين مسافة القرب والبعد التى بين الزُّمَر وآل حم، وكذلك وجبت مراجعة القتال لأنها هى التى انتقل إليها الكلام بعد آل حم.

وهذه المراجعة تسمح لى بالتخفف فى الدراسة والتدقيق، وألا تكون كدراسة آل حم مع أننى لم أتخَفّفْ فى دراسة القتال، لأن أمرا آخر رأيته فى القتال، فلم تكن دراستها خالصة لبيان ما بينها وبين آل حم، وهذا الأمر الآخر هو أن موضوعها القتال يعنى الحرب، وقد علَت فى مصر أصوات إبعاد الدين عن السياسة، وأنا أكتب آل حم وسكَتَ مَنْ كان يجب عليهم أن يتكلموا، وأوشك الناس أن يعتقدوا صواب الدعوة إلى إبعاد الدين عن السياسة، وقد تولى النظامُ الفاجرُ إثم هذه الدعوة ثم ظهر أن قياداته من رأسها إلى قدمها ومن شبابها وشيوخها كل هؤلاء لصوص وقتلة وحوكموا بهذه التهم، والمهم أن فكرة إبعاد الدين عن السياسة شاعت حتى قال بها خصومُ النظام، واقتنع بها شباب الصحفيين والإعلاميين ممن لا يصدرون عن مذهبية معارضة للدين كل ذلك وغيره دعانى إلى الاستقصاء فى دراسة سورة القتال، وليس الأمر كذلك فى الزمر، وأوشك أن يكون المقصود من مراجعتها قد ظهر لى من أول الأمر، لأنى رأيت مطلعها يؤكد ذكر الكتاب، ويرتب على إنزاله وجوب إخلاص العبادة لله رب العالمين، وقد تكرر ذكر الكتاب

فى السورة وتكرر وجوب إخلاص العبادة لله رب العالمين، وتكاد تكون السورة مؤسَّسَة على الأدلَّة الموجبة إخلاص العبادة، ولم أجد فرقا بين أن يكون ذكر الكتاب هو المعنى الأم للسورة، وأن يكون إخلاص العبادة لله رب العالمين هو المعنى الأم، لأن أول كلام فى السورة رتب وجوب إخلاص العبادة على إنزال الكتاب، فَرَبط بين المَعنَيَيْن ربَاطًا لا ينفكُّ، ولذلك لا أجد فرقا بين أن يكون المعنى الأم للسورة هو إنزال الكتاب أو إخلاص العبادة لله رب العالمين.

وآل حم بنيت على لجاجة أهل الباطل التى صَرَفَت عَنْ إخلاص العبادة؛ سواء كانت هذه اللجاجة مجادلة فى الحق كما هو الحال فى غافر؛ أو كانت تفصيلا لهذه المجادلة كما هو الحال فى فصلت، أو كانت حَصْرًا لكُفريَّاتهم كما هو الحال فى الزخرف، إلى آخره، فإن هذه اللجاجة قد تطوَّرت فى القتال وصارت صدا عن سبيل الله فكان لابد من مواجهتها بالسيف وهذا شأن القتال.

قامت الزمر على وجوب إخلاص العبادة، وقامت السورة على بيان الأدلة الموجبة لهذه العبادة وهذا الإخلاص، قامت آل حم علم نقض المجادلين فى الحق لهذا الإخلاص، وأدلة هذا الإخلاص، ويمكن أن نختصر العلاقة بين هذه الأبواب الثلاثة، باب الزمر وباب آل حم وباب القتال وأن نقول أن الزُّمَر دعت الذين أنزل الله فيهم الكتاب إلى إخلاص العبادة، فعارضوا معارضة مُتعسِّفَةً ومتنوعة ألمَّت بها آل حم، وانتهى الأمر إلى الصدام بين الفريقين كما هو فى القتال، هناك دعوة وهناك معارضة وانتهى الأمر بينهما إلى المقاتلة وانتهت المقاتلة إلى الفتح، والآن أبدأ مراجعة الزمر.

قوله سبحانه **﴿تنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (٢) أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**

﴿إنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ١، ٣] أول ما يجب أن أنبه إليه هو أن أول الزمر ممسك بآخر «ص» بصورة ظاهرة فقد انتهت سورة «ص» بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٦-٨٨] والآية تتحدث عن القرآن الذى ابتدأت به الزمر، وقوله سبحانه فى الزمر ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ٢] بيان لحقيقة الأَجْرِ المنفى فى سورة «ص» لأن الانقياد لما أنزله الله فى الكتاب له أجر ليس بعده أجر دل عليه قوله سبحانه ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ [الزمر: ٢٠] وليس هذا أجرا على الكتاب وإنما هو أجر من الذى أنزل الكتاب لمن انقاد، وعَبَدَ الله مخلصا، يَعْنى أنت أمام نِعْمَتَيْن: نعمة هى الكتاب الذى أكمل الله به الدين، وأتمَّ النعمة، ونعمة هى أجر آخر لمن تلقَّى أمر ربِّه وقال سمعنا وأطعنا وهذا هو العطاء الإلهى وهو مسلك آخر غير العطاء الذى يكون من الناس للناس، ولو تدبرت مرةً ثانية ستجد بين العطاءين اللذين هما نعمه إنزال الكتاب، ونعمة ثواب من آمن عطاء ليس له مصدر إلا الحق، وهو عطاء الهداية الى الإيمان، بما أنزل، وعطاء الانقياد، والإخلاص، والسمع والطاعة، ثم إن قوله سبحانه فى سورة «ص»﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ فيه إشارة إلى يُسْر هذا الدين، لأنه الفطرة التى يعالجها من سَلِمَ من أمراض القلوب، معالجة لا مشقة فيها وقد كثر فى بيانها كلام علمائنا، ولخص الرازى كلامهم وزاد عليه، وكلامه فى الآية كلام حسن، ومن المفيد أن أضعه بلفظه بين يدى القارئ، قال رضى الله عنه (والمفسرون ذكروا فيه وجوها، والذى يغلب على الظن أن المراد أن هذا الذى أدعوكم إليه دين ليس يُحتاج فى معرفة صحته إلى التكلفات الكثيرة، بل هو دين يشهد صريح العقل بصحته، فإنى أدعوكم إلى الإقرار بوجود الله أولا ثم أدعوكم ثانيا إلى تنزيهه، وتقديسه عن كل ما لا يليق به، يقوى ذلك قوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]،

وأمثاله، ثم أدعوكم ثالثا إلى الإقرار بكونه موصوفا بكمال العلم، والقدرة، والحكمة، والرحمة، ثم أدعوكم رابعا إلى الإقرار بكونه منزها عن الشركاء، والأضداد، ثم أدعوكم خامسا إلى الامتناع عن عبادة هذه الأوثان التى هى جمادات خسيسة، ولا منفعة فى عبادتها، ولا مضرّة فى الإعراض عنها، ثم أدعوكم سادسا إلى تعظيم الأرواح الطاهرة المقدسة، وهم الملائكة والأنبياء، ثم أدعوكم سابعا إلى الإقرار بالبعث والقيامة، «**ليجزى الذين أساؤوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى**»، ثم أدعوكم ثامنا إلى الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة، فهذه الأصول الثمانية هى الأصول القوية المعتبرة فى دين الله تعالى ودين محمد ﷺ. وبَدَائة العقول، وأوئل الأفكار وشاهدة بصحة هذه الأصول الثمانية، فثبت أنى لست من المتكلفين فى الشريعة التى أدعو الخلق إليها، كل عقل سليم وطبع مستقيم، فإنه يشهد بصحتها وجلالتها وبعدها عن الباطل والفساد، وهو المراد من قوله ﴿**إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [ص: ٨٧] انتهى كلام الرازى، وكلامه هذا لحظة فيض وفتوح من الله لأنه رضى الله عنه من الذين صدقوا وصبروا.

وجملة ﴿**تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**﴾ مؤذنة بالدخول إلى آل حم، لأنها هى رأس سورة غافر، والفرق أن غافرا ذكرت العزيز العليم بدل العزيز الحكيم وهى رأس الجاثية، والأحقاف، والجملة التى بعدها ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ**﴾ قريبة جدا من رأس الزخرف ﴿**إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا**﴾ [الزخرف: ٣] ورأس الدخان ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ**﴾ [الدخان: ٣] وتبقى الشورى ذات مطلع يميزها لأن لها مهيعا آخر هو أن ما أُنْزِل إليك امتدادٌ لما أُنزل على النبيين من قبلك، وبهذا افتتحت ﴿**كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ**﴾ [الشورى: ٣] وبهذا اختتمت ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا**﴾ [الشورى: ٥١] ﴿**تَنزِيلُ الْكِتَابِ**﴾ مبتدأ و﴿**مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**﴾ خبر والجملة معقودة على هذا المعنى وهذا أصل الدين،

ولهذا استحسن الرازى هذا الوجة من الإعراب على وجه آخر أجازوه وهو أن يكون ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ﴾ خبرا لمبتدأ محذوف أى هو تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم، وابتداء السورة بهذه الآية دال من أول الأمر على أن للكتاب العزيز شأنا فى هذه السورة وقد تكرر فيها ذكر الكتاب كثيرا وذكر فيها من أحوال الكتاب ومن أثره فى أهل الإيمان، ما لم يذكر فى غيرها، وذلك قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣] وكلمة ﴿تَقْشَعِرُّ﴾ التى انعقد عليها كثير من معنى الآية لم يردْ فى الكتاب العزيز إلا فى هذا الموضع.

ثم إن الكتاب الذى أنزله العزيز الحكيم هو كتاب عزيز حكيم ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: ٤١] والعزيز هو الغالب الذى لا يُغلب، والمتفرد الذى لا يُزاحم وهذه صفات الحق، وصفات الكتاب، فالكتاب غالب لا يُغْلبَ وما شادَّه أحد إلا غلبه، وهو كتاب واحد متفرد، ودليل هذا أنه ليس على الأرض كتاب عبر هذا الزمن من يوم أن نزل ولم يضع منه حرف واحد، ولم يضف إليه حرف واحد، ثم هو حكيم فليس فيه أمر أو نهى أو حدث أو قصص أو موعظة أو عبرة إلا ووراءها حكمة. وهذه الحكمة سياجُه وحِصنه فلم يهتزّ فيه أمر، ولا نهى، ولا خبر، ولم تستطع الأيام والأحداث والأطوار أن تتجاوز منْه أمرًا ولا نهيا، فلم يقع الناس فى كل الأمم وفى كل الأطوار على أصل أو فرع فى حياتهم وآدابهم وسلوكهم يمكن أن يكون منازعا لأمر فيه، أو لأدب فيه، أو لسلوك فيه؛ ولهذا كانت الدعوة إلى تطبيقه دعوة لصلاح الحياة، ولو نظر إليه غير المسلم الطالب بتطبيقه، وتخوّف أهل الأديان الأخرى من تطبيق الشريعة ناشئ من جهلهم لهذه الشريعة، وناشئ أيضًا من عجزنا عن الوصف والعرض الواعى لما فى هذه الشريعة من بر وعدل، ورحمة، ومساواة ومسامحة، وتضامن، وتآزر. وإذا

كانت الكتب تقاس أقدارها بأقدار من كانت من جهتهم فهذا الكتاب العزيز أنزله الموصوف بكل كمال والمنزه عن كل نقص، وحسبنا أن يكون بين أيدينا كتاب موصوف بكل كمال ومنزه عن كل نقص ثم هو كتاب شامل لمصالح الدين والدنيا ما فرطنا فيه من شيء ولكنها الغفلة وسوء التقدير الناشئ من نظرة الناس إلى الدين من خلال من يرفعون شعارات الدين ولو طرحوا هؤلاء ورجعوا إلى الدين فى أصلَيْه الكريمين: الكتاب والسنة لفوجئوا بغير ما يتوهمون. ولفظ الجلالة فى قوله تعالى ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ فيه إشارة إلى معنى التنزيه والتقديس والبعد عن أى نقص فى كل ما أشار إليه وفى كل ما أبان عنه، وفى كل ما أبان به، ثم فيه إشارة إلى الكمالات المطلقة، فى كل ما أشار إليه، وفى كل ما أبان عنه، وفى كل ما أبان به، لأن لفظ الجلالة جامع للكمالات المطلقة، وجامع للتنزيه المطلق، ولهذا كان مقترنا بلفظ التنزيل فى الزمر وفى ثلاث من آل حم، ومجىء الرحمن الرحيم فى أول فصلت ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ٢] إشارة إلى ما فى التنزيل من رحمة وبر وعدل بالناس أجمعين وبكل ذات كبد رطبة، وهذا لفت إلى ما فى سورة فصلت من هذه المعانى كما فى آية﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩] وما فى آية ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [فصلت: ٣٣] وقبلها آية ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت: ٣٠] وما تدبّر أحد هذا الكتاب بنفس بريئة من سخائم النفوس إلا قال هذا الذى أقوله لأنى أقول ما أقول بما رأيت وليس بما اعتقدت فحسب، ومجىء العزيز الحكيم بعد لفظ الجلالة فى الجملة الشريفة للتنويه بصفتى التفرد والحكمة وهما ظاهرتان فى الكتاب ظهورا لا يخفى.

قوله سبحانه﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ٢] هذه الجملة الثانية نصفها من الجملة الأولى لفظا ومعنى والنصف الثانى معنى جديد، فقد تكرر فيه إنزال الكتاب مسندا إلى ضمير العظمة وفيه معنى الجلال والكمال والتقديس والتنزيه والتفرد والحكمة وغير ذلك مما يفهم من إسناد التنزيل إلى ضمير العظمة، وهذا هو نصفها المؤكد للذى مضى، أما

النصف الذى جاء بمعنى جديد فهو «إليك». . «بالحق» وأول ما يلتفت إليه هو خطابه عليه السلام وأنه جل وتقدس أنزل الكتاب إليه صلوات الله وسلامه عليه، ووراء ذلك من إكرام نبينا صلوات الله عليه ما وراءه، ووراء ذلك من إغرائنا بالأخذ عنه عليه السلام واتباع سنته ما وراءه، وناهيك عن مَنْ يخاطبه ربه ويقول له إنه أنزل إليه الكتاب ملتبسا بالحق، ويكون عليه السلام أول من كُلف بهذا الحق، وكل الأمة من ورائه صلوات الله وسلامه عليه.

جملة ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ جملة مستأنفة، والاستئناف يُفْرِغُ على الجملة معنى العناية، والاهتمام، وقد يكون فى الجملة الأولى التى تقف عند بيان أن تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم، مُثيرة لسؤال يبين إلى من أنزل هذا الكتاب فاستؤنفت الجملة الثانية لبيان معنى ليس فى الأولى وهو أنه أنزل إليك ويلاحظ تكرار كلمة ﴿الْكِتَابَ﴾ ووضع الظاهر موضع المضمر لأنه سبق ذكره فى الجملة قبلها وكان يمكن أن يقال إنا أنزلناه إليك بالحق كما قال فى أول الزخرف ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، وكما قال فى الدخان ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ وذلك لأنه تقدم فى قوله سبحانه فى السورتين ﴿حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ ووضع الظاهر موضع المضمر فى الجملة التى معنا يشير إلى مزيد عناية بالكتاب لأن الضمير لا يعمل فى النفس عمل الاسم الظاهر، لأن إعادة اللفظ بجرسه أفعل وأنفع كما قالوا فى قوله تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥]، وهذا ظاهر فى الإشارة إلى أن للكتاب فى السورة شأنًا أى شأن، وقد سبقت الإشارة إلى أن ما وصف به الكتاب العزيز فى السورة وصف متميز، مع أن تكرار ذكر الكتاب فى الكتاب العزيز من عروق الذهب الجارية، وبعض الذكر أنبه من بعض، ثم إن تقديم الجار والمجرور ﴿إِلَيْكَ﴾ وإقحامه بين الفعل والمفعول لا يتأتى معه ذكر الضمير، وإنما كان يكون ذكر الضمير لو تأخر الجاروالمجرور، وقيل إنا أنزلناه إليك،

وتقديم الجار والمجرور فى الجملة الشريفة له شأن فى تكريمه ﷺ وتحميله مسؤولية البلاغ وإيثاره بالنبوة وحسن التلقى عن الله رب العالمين..

وكلمة ﴿بِالْحَقِّ﴾ من الكلمات التى تتوافر تحتها المعانى الكثيرة، لأنها صالحة لأن يكون المراد بها إن كل معانى الكتاب ملتبس بالحق، وأنه لا يتطرق باطل أى باطل إلى كلمة أو معنى من معانيه، فأمره حق، ونهيه حق، وقصصه حق، ووعده حق، ووعيده حق، **«لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد»** ولو ذهبت تستقصى هذا لرأيت أنك فى فضاءات ومجالات من المعانى وحقول من الأحوال والأحداث لا حدود لها.

ويحتمل أن يكون أنزلناه إليك مقترنا بدليل أنه من أمرنا، لأنه لا يجوز أن تكون له جهة غير مصدره الإلهى، وهذا الدليل هو عجز الثقلين عنه، وأنكم وأنتم الأمة المتميزة فى الأرض بالولع بالبيان العالى لا تستطيعون أن تأتوا بأقصر سورة من سوره، ولو وُضعَتْ ألسنَةُ فُصَحَائكم جميعًا فى فم واحد منكم، وهذا يعنى أنه لا يتردد فى الإيمان بأنه كلام الله ولا يتردد فى الانقياد له إلا مكابر معاند، لأن هذا الذى أنزلناه إليك استقرت نفوس كل من سمعوه من قومك أنه ليس من كلامهم وأنه لو كان من كلامهم لعرفوه، ولو عرفوه لعارضوه، ولو عارضوه لأبْطَلوا حجّتك وكل ذلك لم يكن، وهذه المكابرة عمرها قصير وفى هذ إشارة خفية وغامضة إلى أنك ستراهم يدخلون فى دين الله أفواجًا، وعلّل الرافعى تخاذلهم فى حَرْبه ﷺ. بهذا الإحساس لأنهم رأوا أن ما أنزل الله عليه ملتبسا بالحق أى بالدليل القاطع بأنه من عند الله فلانَتْ قبضتُهم على سيوفهم وهم يحاربون رجلا معه من الله برهان صلوات الله وسلامه عليه.

قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ﴾هذه الفاء ترتب معنى على معنى والمعنى المرتب هو العبادة الخالصة لله رب العالمين، والمعنى المرتب عليه هو إنزال الكتاب عليه بالحق، وهذا الترتيب تحته وجوه، فقد يكون الملاحظ فيه نعمة إنزال الكتاب إليه عليه السلام وأن هذه النعمة توجب شكرها وأن شكرها

هو إخلاص العبـادة لله رب العالمين، ثم إن هذا الشكر متلائـم مع النعمة لأن الكتـاب يدور أمـره كله علـى إخـلاص العـبـادة لله رب العـالمين؛ لأن هذا الإخلاص هو ثمرة برهان الوحدانية، وقد أقام الكتاب هذا البرهان على وجوه لا تحتمل شَـكّاً، وهذا الإخلاص هو ثمرة برهان النبوة، وثمـرة برهان المعاد، وثمرة برهان الثواب والعقاب إلى آخـره، وكل هذا يوجب إخلاص العبادة لله رب العالمين؛ لأن سبيل إخلاص العـبادة هو الإيمان بأن الله حق، وأن محمداً حق، وأن الجنَّة حق وأن النار حق إلى آخره، والوجه الآخر من وجوه الترتيب لا يكون ناظرًا إلى شكر نعمة إنزال الكتـاب وإنما يكون ناظرًا إلى الانقياد لأمر الله ونهيه فى الكتاب، وأنّك أول من يقوم بهذه التكاليف التى هى شريعة الله التى أنزلهـا عليك، وأنك لا تُبلِّغ له سبـحانه أمـرا إلا إذا كنْتَ قد قـمت بما يوجبه عليك هذا الأمـر، ولا تبلغ له نهيا إلا إذا كنت قد كَفَفْت نـفسك عما نهاك عنه، ووراء ذلك مـا وراءه مما يجب أن يكون عليه دعاة الخيـر فى الأمة وأنهم لا يُبَلّغـونُ عن الله شيئـا إلا إذا ذاقوا حلاوة الانـقياد، والإذعـان لهذا الشىء، فلا تحدث عن الصدق إلا إذا وجـدت حلاوته فى نفسك، ولا تحدث عن الكذب إلا إذا وجدت مرارته فى نفسك، وهكذا لا تأمر ببرٍّ وتَنْسَى نفسك ولا تَنْهَ عن جور وتنسى نفسك، ولو كان هذا لتغيّرت أشياء كثيرة.

وقوله سبحانه: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ﴾المقصود الأهم فى هذه الجملة هو الحال ﴿مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ﴾ وكأن الجملة الأم ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ﴾ جىء بها تَوْطِئة لهذه الحال، لأنه لا عبـادة إلا بهذا الإخلاص، وكل عبادة لا يتوفـر فيها هذا الإخلاص فـهى ملغاة، وهى هَدَرٌ وهى من بُطل الأعمـال، ومن علمائنا من يتشدد فى بيانِ الإخـلاص، حتى إنك لو عَبَدْتَ الله خَوْفًا من عـقابه وطَمَعًا فى ثوابه لم تكن مـخلصًا لأن الإخلاص لا مـعنى له إلا توجه العـبادة لله، وليس لطمع فى شىء من ثوابه ولا لخـوف من عقـابه، ويزيدون فى ذلك أنه لو كانت العبـادة لله وخالطها أى شىء من خارج هذه الجهة فـهى لغو، وقد

أوجز الرازى هذا المعنى وأضَعُه بين يديك بلفظه قال رضى الله عنه، «واعلم أن العبادة مع الإخلاص لا تُعرف حقيقة إلا إذا عرفنا أن العبادة ما هى؟ وأن الإخلاص ما هو؟ وأن الوجوه المنافية للإخلاص ما هى؟ فهذه أمور ثلاثة لابد من البحث عنها: أما العبادة فهى فعل أو قول أو ترك فعل أو ترك قول. ويؤتى به لمجرد اعتقاد أن الأمر به عظيم يجب قبوله.

وأما الإخلاص فهو أن يكون الداعى إلى الإتْيَان بذلك الفعل أو الترك مجرد هذا الانقياد، والامْتِثَال؛ فإن حصل منه داع آخر فإما أن يكون جانب الداعى إلى الطاعة راجحًا على الجانب الآخر، أو معادلا له، أو مرجوحا، وأجمعوا على أن المعادل والمرجوح ساقط، وأما إذا كان الداعى إلى طاعة الله راجحًا على الجانب الآخر فقد اختلفوا من أنه هل يفيد أم لا؟ . . . وأما بيان الوجوه المنافية للإخلاص فهى الوجوه الداعية للشريك وهى أقسام: أحدها أن يكون للرياء والسمعة فيه مدخل، وثانيها أن يكون مقصوده من الإتيان بالطاعة الفوز بالجنة والخلاص من النار، وثالثها أن يأتى بها ويعتقد أن لها تأثيرًا فى إيجاب الثواب أو دفع العقاب».

ومن المهم أن تراجع هذا وأن ترى أن علماءنا جعلوا مداخلة الرياء والسمعة فى العمل قرينا للطمع فى الثواب والخوف من العقاب؛ لأن حقيقة الإخلاص تنافى الرياء والسمعة، كما تنافى الطمع فى الجنَّة، والنجاة من النار، والمطلوب هو أن يكون الداعى للعبادة التى هى فعل أو ترك هو الانقياد والامتثال لأمر الله من غير أى نظر إلى داع آخر، ولو كان هذا الآخر هو الطمع فى الرحمة أو الخوف من العذاب وهذا يجعل للإخلاص مذاقًا آخر، وأن الذى ذاق الإخلاص يقول لربه إن كنت أعبدك طمعًا فى جنَّتك فاحرمنى منها، وإن كنت أعبدك خوفا من عذابك فأنزله بى، وإذ كنت أعبدك ابتغاء وجهك فلا تحرمنى من وجهك، ولمزيد من البيان لهذا الأمر المهم الذى يقلق أهل الله والسالكين فى طريق مرضاته وأنه ربما داخلت نفوسهم خطرات ليست

من باب إخلاص التوجه إلى الله، أقول من أجل مزيد من البيان أذكر ما ذكره الطاهر بن عاشور الذى أورد تعريف الغزالى للإخلاص، وأنه تجريد قصد التقرب إلى الله عن جميع الشوائب، ثم ذكر أنه لو كان الأصل فى العمل هو التوجه إلى الله ثم خطرت خطرات فى النفس تجعل لهذا العمل حظا فى الدنيا فإن هذا لا يضرّ العمل، قال «إن كان للنفس حظ عاجل وكان حاصلا تبعًا للعبادة وليس هو المقصود فهو مغتفر وخاصة إذا كان ذلك لا تخلو عنه النفوس أو كان مما يعين على الاستزادة من العبادة».

ثم قال: حدّث العتبى عن عيسى بن دينار عن ابن وهب عن عطاء الخراسانى أن معاذ بن جبل قال لرسول الله ﷺ **«إنه ليس من بنى سَلِمَة إلا مقاتل فمنهم من القتال طبعه، ومنهم من يقاتل رياء ومنهم من يقاتل احتسابًا فأى هؤلاء الشهيد من أهل الجنة؟ فقال يا معاذ بن جبل من قاتل على شىء من هذه الخصال أصل أمره أن تكون كلمة الله هى العليا فقُتل فهو شهيد من أهل الجنة»**.

قال ابن رشد فى شرحه: «هذا الحديث فيه نص جلىٌّ على أن من كان أصل عمله لله وعلى ذلك عقد نيته لم تضرُّه الخطرات التى تَقَعُ فى القَلْب ولا يَمْلِكُ.

وأكتفى بهذا، وكله يدور حول قوة القصد والتوجه إلى الله ثم لا تَضره الخطرات التى لا تملك».

قوله سبحانه ﴿**أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ**﴾ جملة مستأنفة لبيان علة الأمر فى قوله سبحانه﴿**فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ**﴾ وفى الاستئناف دلالة على مزيد العناية بالجملة المستأنفة، ثم إن هذه العناية زادت بأداة الاستفتاح التى ابتدأت بها الجملة، وأن من شأن أداة الاستفتاح هذه أن تجمع شراشر النفس حول معناها كما قال الطاهر طيّب الله ثراه، وكل هذا أن الدين الخالص هو ما كان لله وليس لغيره منه شىء، وتكاد تكون هذه الجملة مبينة لمعنى ﴿**فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾ [غافر: ١٤] تأمل كلمة ﴿**مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ**﴾ وكلمة

﴿لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ ستجد الكلامين كلاما واحدًا وإنما أعيدت صياغة ﴿مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ وقدم فيها الجار والمجرور ووضع لفظ الجلالة مكان الضمير فصارت لله الدين الخالص، والجملة الأولى تدعو إلى إخلاص العبادة لله، والثانيةُ تقول لا يكون لله إلا من كان خالصًا له، وهذا نمط من البيان قلما نجد له شبيهًا فى كلام الناس.

ويلاحظ أن جملة ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ أمر له عليه السلام بإخلاص العبادة وهذه الجملة الثانية فيها تعميم وبيان للأمة وللناس أنه لا يكون لله إلا ما كان خالصًا له، لأنه سبحانه غنى عن الشركاء، ولأنه من سوء الأدب مع الله أن تشرك عبدًا من خلقه معه فى الذى تتوجه به إليه.

ومن تعادل البناء ووجوه بلاغته أنك تلاحظ أن جملة تنزيل الكتاب من الله استؤنفت بعدها جملة﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ وانتقل الكلام فى الجملتين من العموم الذى هو تنزيل الكتاب إلى الخصوص الذى هو تنزيله إليك وأن جملة ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ استؤنفت بعدها جملة ﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ وانتقل الكلام فى الجملتين من الخصوص الذى هو اعبد الله إلى العموم ألا لله الدين الخالص يعنى من كل عابد ، وهذا الوصف وهذا التركيب وهذا التجويد مؤذن بأننا هنا نواجه رأس السورة وأصل معناها وأصل جُذَيلها المحكّك، والكلامان فى الكتاب وفى إخلاص العبادة، وهما كلام واحد وأصل واحد لأننا إذا قلنا إن إخلاص العبادة لله هو المعنى الأم فإن هذا الإخلاص بيّنه وفرضه الكتاب، وإذا قلنا إن الكتاب هو المعنى الأم فإن أبرز ما يبرزه الكتاب فى هذه السورة هو الإخلاص لله رب العالمين، وقد رأيت فى كلام الطاهر ما يشير إلى أن رأس المعنى فى السورة هو العبادة لله، قال رحمه الله فى أول تعقيبه على جملة ﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾، «استئناف للتخلص إلى استحقاقه تعالى الإفراد بالعبادة وهو غرض السورة».

قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ

زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

هذه جملة واحدة نسجت نسجا خاصاً هيأها لأن تكون معطوفة على قوله تعالى: ﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ الذى هو تأكيد لمعنى ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ والنّسْجُ الخاصُّ الذى أردته هو ما تركَّبَ منْهُ وتألَّفَ منه المبتدأ، الذى هو الاسم الموصول وما تبعه من قولهم ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ والخبر قوله سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ والخبر الثانى ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾.

وقد تكرر فى الكتاب قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ ولم يأت قوله تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ إلا فى هذه الآية وهى مقول قول محذوف أى قائلين أو قالوا، وهذا القول فيه تأكيد بطريقة القصر وبالنفى والاستثناء أنهم لا يعبدون الأولياء الذين اتخذوهم من دون الله إلاَّ لشيء واحد هو أن هؤلاء الأولياء يقربونهم زلفى أى تقريبا يزدلفون به لله رب العالمين، وكأنهم ينفون عنهم أهلية أن يكونوا مُسْتَحقِّين للعبادة لذات أنفسهم، وإنما هم وسائط بينهم وبين الله، وخصوصية هذا البناء فى مقول القول لأنه يعنى إحساسهم ويَقِينهم بأنهم ليسوا أهلا لأن يقتربوا من الله، وأن يَزْدَلِفُوا إليه بعبادته من غير هذه الوسائط، وكلمة زلفى التى معناها التقرب لم تأت فى سياق عبادة غير الله إلا فى هذا الموضع، نعم جاءت مع ذكر الأموال والأولاد ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ﴾ [سبأ: ٣٧] وجاءت فى ذكر النبيَّيْن الكريمَيْن داود وسليمان قال تعالى فى ذكر داود عليه السلام ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٢٥] وفى ذكر سليمان ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٣٩، ٤٠].

وهذه الخصوصية فى الحديث عن الذين اتخذوا من دون الله أولياء يجب أن تلاحظ فى عَطْف هذه الجملة على جملة ﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ لأن هؤلاء يؤمنون بالله ويجتهدون فى الزلفى من الله، واعتبرتهم الآية مِنْ مَنْ هو كاذب كفَّار ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ لأنهم كدروا عبادتهم لما صرفوها لغير الله ولم ينفعهم أنهم أرادوا بها أن يُقَرِّبَهُمْ المعبود بالباطل إلى المعبود بالحق، رغم أنهم يستشعرون أنهم ليسوا أهلا للاقتراب من المعبود بالحق إلا بهذه الواسطة، ولو قلت إن الذين اتخذوا من دون الله أولياء لَيْسُوا أقرب إلى الله من الذين قالوا ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ لم تكن مخطئًا، وقد جاءت هذه الجملة مرتين فى سورة الشورى ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ [الشورى: ٦] وفى قوله جل شأنه ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ [الشورى: ٩] وشىء آخر فى بناء المسند إليه وهو أن القول المحذوف بمقوله بدل من الذين اتخذوا من دونه أولياء وكأن الكلام والذين قالوا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى. وهؤلاء أقرب إلى أهل الإيمان. قال الرازى فى خلاصة معتقد هؤلاء: «وحاصل الكلام لعباد الأصنام أن قالوا إن الإله الأعظم أجلُّ من أن يعبده البشر لكن اللائق بالبشر أن يشتغلوا بعبادة الأكابر من عباد الله مثل الكواكب ومثل الأرواح السماوية ثم إنها تشتغل بعبادة الإله الأكبر، فهذا هو المراد من قولهم ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى». وهذا كله من الكفر يستوى فيه من اعتقدوا أنهم يقربونهم من الله ومن لم يعتقدوا ذلك، لأن العبادة التى يقبلها ربنا هى العبادة الخالصة وهى الدين الخالص، وأن ما يكدر هذا الخلوص يَمحق هذه العبادة، ويُلْحِقها بعبادة الطاغوت وهذا هو فقه هذا العطف.

والاسم الموصول المبتدأ فيه معنى أنهم عرفوا بهذه الصلة وشُهروا بها؛ وفيه إيماء إلى وجه الخبر، وأنَّهُ من باب الغضب ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ والضمير

فى قوله تعالى ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ راجع للمعبود بالباطل وإنما عبروا عنهم بضمير العقلاء لأن منهم العقلاء كعيسى عليه السلام والملائكة ومنهم المنزل منزلة العقلاء كالأصنام المصنوعة من الحجارة المنحوتة أو من الخشب المنجور وأنهم يتوسَّلُون بها إلى جلب المصلحة ودرء المفسدة، ولأنها أيضا تماثيل لرجال صالحين، فهى رموز دالة على هؤلاء الصالحين، وهذا هو إضلالها لعباده، وقد استعاذ أبونا إبراهيم عليه السلام من عبادتها ودعا ربه أن يجنبه وأن يجنب أبناءَه عبادتها وقال ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦] وإنما أضلت لأنهم توهموها تماثيل لأرواح صالحة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ تهديد ووعيد وقد جاء مؤكدا بإن، وبتقديم المسند إليه على الخبر الفعلى، المفيد هنا للاختصاص، لأن الحكم فى هذا لله وحده والفعل المضارع دال على الاستقبال، الذى هو زمن الحكم يوم يقال ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] والضمير فى قوله ﴿بَيْنَهُمْ﴾ عائد على الذين اتخذوا من دونه أولياء، وهم الذين قالوا ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ والسؤال هو أى شىء بينهم يحكم الله فيه؟ قال علماؤنا يحكم الله بينهم فيما اختلفوا فيه، لأن منهم من يعبد الشمس، ومنهم من يعبد القمر، ومنهم من يعبد الجن، ومنهم من يعبد الملائكة، ومنهم من يعبد المسيح، ومنهم من يعبد الطاغوت، وهذا هو اختلافهم، وكل فريق ينازع الآخر فى اعتقاده، وأن حكم الله بينهم لا يعنى أن الله يحكم لأحدهم، لأنه ليس فيهم من هو على الحق، وإنما هو حكم بين أهل الباطل يُبيِّنُ لهم باطلهم، والمهم أن أهل الباطل ليسوا على دين واحد وإنما لما ضلوا صراط الله المستقيم تفرقت بهم السبل، وهذا شأنهم فى الزمن الأول وشأنهم فى زماننا نرى أهل النصرانية فرقا يكفر بعضها بعضا، وأهل اليهودية فرقا يكفر بعضها بعضا، وأهل العقائد والمذاهب الفلسفية فرقا يكفر بعضها بعضا، أو يرفض

بعضهـا بعضا، وهكذا الحال فى القَدْيـانية والبهائية، ومـا شئت من مذاهب، والله يحكم بينهـم فيـما ضلوا فيـه وأضلوا، وقد ألـفْنَا أن يكون حكم الله وقضاؤه بين أهل الإيمان وأهل الكفر وأن الـكفر مِلة واحدة، وأن تصور الحكم والقضـاء بين فِرَقِـه ونحله، ومذاهبـه يكتنفه الغـموض، وأن خلافـهم فيـما يختـلفون فيـه ليس بين حق وباطل، وإنما هو خـلاف بين باطل وباطل، وفى الكتاب جمل أخرى تتـجاوز هذا وتقول إن الله يحكم بين عباده فيـما اختلفوا فيه، سـواء كان الاختلاف بين أهل الحق وبعضـهم من بعض أو كان بين أهل الباطل وبعضهم من بعض أو كان بين أهل الحق وأهل الباطل لأن الله سبحانه يقضى بين خلقه حتى أنه يقتص من القرناء للعجماء.

وقد رأى الشيخ الطاهر رأيا آخر وإن كان ذكـره بعدما يدل عليه ظاهر الآية وهو أن الله يحكم بين أهل البـاطل الذين اتخذوا من دونه أوليـاء هذا الوجه هو أن الله يحكم بينـهم وبين الذين أخلصوا ديـنهم لله فيـمـا اختلفـوا فيـه وحذف الفريق الثانى لدلالة المقام عليه.

قال رحمه الله: «ويجـوز أن يكون على تقدير معطوف على ﴿بَيْنَهُمْ﴾ مماثل له دلّت عليه الجملة المعطوف عليها وهى ﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ لاقتضائها أن الذين أخلصوا الديـن لله قد وافقـوا الحق فالتقـدير يحكم بينهم وبين المخلصين على حد قول النابغة:

فـمـا كـان بين الخـيـر لو جـاء سـالما ... أبو حُـجْـرٍ إلا ليـال قـلائل

تقديره بين الخـير وبينى بدلالة سياق الرثاء والتلهف، انتـهى كلام الطاهر- ويبعده ولا يمنعه أن جملة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ خبر عن الذين اتخذوا من دونه أوليـاء، وهى الجزء المتم فـائدتهـا، وهذا يرجح أن المقصـود يحكم بين الذين اتخذوا من دونه أولياء، والله أعلم

وقوله سبـحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أخت الجملة التى

قبلها فى حذو بنـائها فكلاهما مبتدئ بأداة التوكـيد الداخلة على لفظ الجلالة، واسم إن جـملة فعليـة فعلهـا مضـارع، وهذا الفـعل المضارع يتـعلق به اسم موصول، هو فى الأولى (فيما هم) أى فى الذى هم فيه يختلفون، وفى الثانية ﴿هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أى الذى هو كاذب، وهذا السَّمْـتُ مما لا يجوز أن يُهْمَل فى دراسة أسرار البـيان لأن هذا التعاقُبَ فى المبانـى وراءه تعاقب فى المعانى، فهـذه الجملة يمكن أن تكون خـبرًا عن الذين اتخذوا مـن دونه أولياء، وتكون أخت الأولى فى الموقع الإعرابى أيضـا ويكون الكلام والذين اتخذوا من دونه أولياء مـا نعبـدهم إلا ليقـربونا إلى الله زلفى إن الله لا يهدى مـن هو كاذب كـفار، ويمـكن أن تكـون جملة مستـأنفة لبيان أن شـأن الحق جـل وتقدّس أنـه لا يهدى الكاذب الكفار ويُفْهَمُ من هذا بطـريق الكناية والتعريض أن الذين قالوا ما نعبـدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى كـذبوا فى قولهم هذا، لأنه ليس عندهم سلطان من الله يعـتمدون عـليه فى أن هذه المعـبودات بالباطل تقـرب إلى الله وتشفع عـنده سبـحانه، لأنه لا يـقرب إليه ولا يَشْفَعُ عنده إلا من ارتضى وهذا لا سبيل لنا إلى الاضطلاع عليه. إلا بخبره جل وتقدس، وهو سبحانه لم يخبر بأن الطواغيت ممَّن ارتضى شفاعتها، لقد كذبوا لما قالوا إن شفاعتها لترتجى.

والمفعـول به وهو ﴿مَنْ هُوَ كَـاذِبٌ كَفَّـارٌ﴾ يَدُلُّ اسم الموصول وصلـته التى هى جملة إسمية على أنه عرف بذلك وشهر به لأن الصلة قصة معلومة عند المخاطب.

والكاذب هو الذى يخبر الخبر لا يطابق الواقع ولا يطابق اعتقاده، يقول كان كذا وهو لم يكن، أو يقـول لم يكن كذا وهو كـان، أو أنه مُصَدّق وهو غـير مُـصَدّق، والهـداية لا تكون إلا مع من يُصَـدِّق الذى يهديه لأن الهـداية هى الدلالة على الطريق وهذا أصل معناها، وحـين نفسر الهداية بأن الله سـبحانه يقذف الإيمان فى قلب من أراد هدايته إنما نُفَسِّر الهِدَاية بنهايتها لأن بدايتها هى أن يفكر فيما يسمع وفيـما يرى، وهذا التفكير، وهذا التدبر لما يسمع من أدلة ومـا يرى من شواهد هو الذى يـنتهى به إلى الإيمان وبهـذا يكون آمَنَ بعـقله

وفكره، واكتسب الإيمان بجهده، وهذه هى المرتبة العالية وهذا هو شأن الصادقين الذين استقام سلوكهم على الفطرة وليس الكاذب من هذا فى شىء، والكفَّار كاذب، وزيادة لأنه يضيف إلى الكذب سَتْر الحق وطَمْسه، وصيغة المبالغة هنا فيها إشارة إلى هذا وموقع الجملة هنا له دلالة وهى أنهم قالوا ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ بعد ما سمعوا قوله تعالى: ﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ ولو كانوا من أهل الحق والصدق والانقياد لرجعوا عن اتخاذهم أولياء من دون الله، ولكفوا عن عبادتهم ليقربوهم إلى الله؛ لأن الله سبحانه دعا عباده إليه وأن يُخلِصُوا العبادة له جل وتقدس، والتقرب بعبادة أولياء من دونه سبحانه بعد هذا هو بمثابة الكذب على الله، ثم إنهم كذبوا لما قالوا الملائكة بنات الله ثم إنهم كذبوا لما قالوا اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى كل ذلك بنات الله بدليل قوله سبحانه﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٢١].

الصادق هو الذى من شأنه أنه يبحث عن الحق وينظر ويتدبر ويَسْتَنْبط وهذا الصنف يجد الله معه يهديه، ويأخذ بيده على طريق الحق، حتى يقع عليه فيمسك به، والكاذب ليس هذا من شأنه، لأنه يعرف الحق ويحدِّث بالباطل ويعرف الصدق ويحدث بالكذب، ومن كان هذا شأنه فلن يجد الله معه لأنه ليس باحثا عن الهدى ولأنه إذا عرف الهدى سلك غيره، وإن رأى سبيل الرشد لا يتخذه سبيلا.

والآية الكريمة ذكرت معتقدهم (وأنهم يتخذون من دون الله أولياء يعبدونهم ليقربوهم إلى الله)، ثم عقبت بالحكم بينهم، وأن الحكم بين هؤلاء يقتضى العذاب لا محالة، ثم ذكرت أن هذا الصنف لن يكون الله معه، ولن يهديه لأنه لم يطلب الهداية، وكل من طلب الهدى وجد الله بجواره، وكل من طلب الهدى فقد أناب، وكل من أناب أسْلَم وانقاد، واهتدى، وليس فى الكلام إلى هنا ما يفيد أنهم اعتقدوا أن ما يعبدونهم بنات الله وأن لله ولدا وتأتى آية ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لاَّصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤] لتُبيِّن بموقعها هذا أن هؤلاء الذين اتخذوا من دون

الله أولياء والمقابلين لمن أخلصوا دينهم لله كانوا يعتقدون أن لله سبحانه ولدًا، لأن مجيئها هنا دال دلالة ظاهرة على أنها تعالج وجهًا من وجوه فساد عقائدهم، وهذا الفساد مع مخالفته للمعقول لا يزال قائمًا فى عقائد كثير من الناس، ودلالة هذه الآية على اعتقادهم فى الآلهة التى عبدوها أنها بنات الله، أو أن الله سبحانه ولدها هى من باب أن القرآن يفسر بعضه بعضًا، وهى تشبه آية ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣] من جهة دلالتها على الوعيد غير المصرح به فى الآية قبلها ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

وآية ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ تحاماها كثير من المفسرين لغموض فى بيان جواب «لو» لأن الظاهر أنه ﴿لاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ وأن اللام واقعة فى تأكيد الجواب وليس محذوفًا، ويرد عليه أن اصطفاء الولد واختياره وتقريبه لا يكون إلا بعد أن يولد وهذا لا يؤدى إلى امتناع الولادة، وإنما يؤدى إلى امتناع الاصطفاء، وفسّر كثير من المفسرين الاصطفاء الممنوع اصطفاء البنات دون البنين وأنتم أيها المخاطبون تصطفون البنين على البنات فلو أراد أن يتخذ ولدًا فلن يصطفى البنات والأصنام التى هى من حجارة منحوتة أو من أخشاب منجورة.

قال الطاهر ملخصا هذا الوجه: «ومعنى الآية لو كان الله متخذًا ولدًا لاختار من مخلوقاته ما يشاء اختياره أى لاختار ما هو أجدر بالاختيار ولا يختار لبنوّته حجارة كما زعمتم، لأن شأن الاختيار أن يتعلق بالأحسن من الأشياء المختار منها؛ فبطل أن يكون اللات والعُزّى ومناةُ بنات الله تعالى وإذا بطل ذلك عنها بطل عن سائر الأصنام بحكم المساواة أو الأحرى، فتكون لو هنا هى المُلَقَّبَةُ «لو» الصُّهَيْبِيَّة. . أى التى شرطها مفروض فرضًا على أقصى احتمال وهى التى يمثلون لها بالمثل المشهور «نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه» فكان هذا إبطالا لما تضمنه قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿كَفَّارٌ﴾» انتهى كلام الطاهر.

وكلمة ﴿أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ التى جاءت فى الرد على قولهم بنات الله لا تُفِيدُ أن القوم كانوا يعتقدون أن الآلهة ولدها الله سبحانه وتعالى، لأنه لا يقال فى مَن ولد ولدًا اتخذ ولـدًا، وإنما يقال هذا فى من تَبَنَّى ولدًا فكأن القـوم كانوا يعتـقدون أن الملائكة والأصنام من الله سـبحانه بمنزلة الابن المُـتَبَنَّى وأن الله اصطفاها، لأنهم مع فساد اعتـقادهم يعلمون أن الله الواحد لا جنس له حتى يكون له ولد، والولد من جنس أبيه، ولا صاحبة له، لأن الصاحبة تكون من جنس الصاحب، وهو سبـحانه واحد أحد ليس كمـثله شىء، وأن المسألة فى الآية مسألة «اتخاذ» وليست ولادة.

والاصطفاء الواقع فى جواب «لو» ليس ممنوعـا، لأن الله سبحانه يصطفى ويَجْتَبَى ويُقَـرِّب من عباده من يشاء وذكر سبـحانه أنه اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عـمـران على العـالمين، وقـالت الملائكة لمريم ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢].

ولعل هذا هو الذى جـعل الزمخـشرى يقـول: «إن جواب «لو» مـحذوف والتقدير لو أراد الله أن يتخذ ولدًا لكان محالا لأنه سبحانه يصطفى من خلقه ما يشاء وليس فى حاجة إلى اتخاذ ولد.

قال: يعنى لو أراد اتخاذ الولد لامتنع ولم يصح لكونه محالا ولم يتأت إلا أن يصطفى من خلقـه بَعْضَـهُ ويختصـهم ويقرّبهـم كما يخـتص الرجل ولده ويُقَرِّبُهُ وقد فَـعَلَ ذلك بالملائكة فافتتنتم به وغـركم اختصاصُه إياهم فـزعمتم أنهم أولاده جهلا منكم به وبحقيقته المخـالفة لحقائق الأجسام والأعراض كأنه قال لو أراد اتخـاذ الولد لم يزد على ما فعـل من اصطفاء ما يشـاء من خلقه وهم الملائكة إلا أنكم لجهلكم به حسبتم اصطفاءهم اتخاذهم أولادًا ثم تماديْتُمُ فى جهلكم وسـفهكم فجعـلتموهم بنات فكنتم كـذابين كفارين متـبالغين فى الافتراء على الله وملائكته غالين فى الكفر» انتهى كلامه.

قلت: إن المفسرين اختلف كلامهم فـي الآية وذكر الطاهر أنها أوْقَعَتْهم فى حيرة، وتَعسَّف بعضهم فى معناها ونظمها وموقعها، وذكر الطاهر كلامًا لابن عطية ملخصه أن اتخاذ الولد قد يكون تَبَنّيًا وتقريبًا له وتشريفًا، وقد يكون نَسْلاً يعنى ولادة، وهذا الثانى مستحيل ويبْعدُه فى الآية كلمة ﴿ **لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ** ﴾ لأن مما يخلق يعنى من خلقه الذى أوْجَدَهُ سبحانه وأحْدَثَه ويستحيل أن يكون ولد النسل من المخلوق المحدث، وهذا يؤكد أن الاتخاذ المذكور هو الاصطفاء والتبنِّى وهذا جيد ووجه الرد عليهم بالآية أنه سبحانه هو الذى يصطفى لنفسه ولستم أنْتم الذين تَصْطَفون له من خلقه.

قوله سبحانه ﴿ **سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ** ﴾ كلمة سبحانه معناها التنزيه والتقديس والتعظيم، وموقعها هنا يعنى أن اتخاذ الولد الذى جاء على سبيل الفرض مع لو الصُّهَيْبِيّة يعنى نَقْصًا؛ الله مُنزه عنه، لأن الولد لا يكون إلا لحاجة ومثله الأموال وحب الشهوات كل ذلك لحاجة، والله سبحانه وتعالى مالك كل شيء، وخالق كل شيء، ومن كان كذلك فهو لا محالة مُنَزَّه عن الحاجة والولد لا يكون إلا مع صاحبة، و﴿ **أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ** ﴾ [الأنعام: ١٠١] والله سبحانه منزه عن الصاحبة،وليس كمثله شيء، وكل ما تراه فالله سبحانه بخلافه والتسبيح والتنزيه من جوهر التوحيد لأن الواحد الأحد منزه عن كل نقص وحاجاتنا نحن الأحياء هى وليدة ما نحن فيه من نقص؛ وبمقدار إحساس النفس بالكمال يكون استغناؤها، والغنىّ منا من استغنى بالله عن كل من سواه.

وتنزيه الله المستفاد من كلمة (**سبحانه**) معنى لا حدود له وهى كلمة حين ينطق بها لسان المؤمن المواطئ لقلبه تكون له غرسًا من غراس الجنة.

وموضع التنزيه هنا هو اتخاذ الولد، وليس الاتخاذ المطلق لأن الله سبحانه اتخذ إبراهيم خليلا، وموضع التنزيه هنا هو أن يصطفى ولدًا وليس الاصطفاء لأن الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس.

وقوله سبحانه ﴿هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ تأكيد للتنزيه وبيان وبرهان لبطلان اتخاذ أولياء من دونه، ووجه التوكيد هو أن الجملة مَعْقِدُها ورأسها «هو الله» وما بعدها وصفان للفظ الجلالة والجملة تفيد قصر الألوهية عليه سبحانه والألوهية تتنافى مع اتخاذ الولد وتتنافى مع عبادة غيره، لأنه لا يستحق العبادة إلا من تفرَّد بالألوهية، ولفظ الجلالة دال على الكمالات المطلقة ودال على التنزيه، وأنه سبحانه مُنَزَّه عن كل نقص، وليس عن نقيصة اتخاذ ولد فحسب، وهذه الجملة المكونة من كلمتين خفيفتين على اللسان إذا زرعت فى قلب وكَتَبَهَا الله بيمينه فى قلب عبد؛ وعمل العبد بمقتضاها صار مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا، ولو رزق العبد تكرارها ساعد هذا التكرار على غرسها وتثبيتها، ونفت عنه شواغل الحياة، ومشكلاتها اليومية التى تتهالك فيها القلوب، لأن مقتضاها أن الأمر أمره، وأنه لا حول إلا بحوله ولا طول إلا بطوله، وهى كلمة التقوى وهى أفضل ما قاله عليه السلام والنبيون من قبله، وفسر بعضهُم قوله تعالى فى أول السورة ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ بكلمة التوحيد، وهذه الجملة تعنى أنه لا إله إلا الله، التى هى كلمة التوحيد، وكلمة الواحد تأكيد لهذا المعنى، ونفى لاتخاذ الولد ونفى لاتخاذ غيره سبحانه معبودًا، وهذا التوكيد بكلمة الواحد يعنى أن الوحدانية فى دين الله عنده سبحانه بمكان ، وأنها يجب أن تكون خالصة ، وألا يكدر صفوها شيء، والسياق هو سياق ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ وهذا التوكيد يرجع بالجملة إلى هذا الجذر وأن هذه الوحدانية الخالصة يقتضيها ويَحْرُسها ويَصُونها التعقُّل والتدبر، والتفكر، وتفسدها الغفلة، والأهواء، وأن الذين يتوهمون أن ثَمَّة وسائطَ بينهم وبين الله، ويعبدون هذه الوسائط لتقربهم إلى الله هم أهل غفلة، وأهل جهالة، لأن باب الله مفتوح والطريق إليه مسلوك، والزاد إليه هو شيء واحد هو عملك، الذى لا تبتغى به إلا وجهه، ولست فى حاجة إلى شيء من خارج نفسك.

وكلمة «القـهار» لها هنا موقع لا يسـده إلا هى، فلو قلت هو الله الواحد العزيز أو الحكيم أو العليـم لم تصب مغزى كلمـة (القهار) لأن المقصـود بها تهديد ووعيد الذين اتخذوا من دونه أولياء، وأنَّ تقربهم إلى الله بعبادة هؤلاء الأولياء مـوجب لأشدِّ العـذاب، وأشد النكال، لأن كلمـة القهـار، تعنى أنه سبحانه يقهر أعداءه، ويقهر من يصرفون عبادتهم إلى غيره، ولو وهموا أنهم يعـبدون من له عند الـله مكان كالملائكة، ثـم إن كلمة القـهـار فيـها مـعنى الوحدانية، لأن الذى يقهر ولا يُقهر هو الواحد الأحد، وكل صفة من صفات الله فيها معنى الوحدانية، لأنها تعنى الـكمال المطلق فيما تَدُلّ عليه، فالرحيم رحمة مطـلقة لا يتسع الوجود لغـيرهْ، والعليم علمًا مطلقًا لا يتـسع الوجود لغيره، وهكذا. قـوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ [الزمر: ٥] هذه الآيات إلى قوله تعالى ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَـا رَبَّهُ﴾ كـأنهـا جـملة واحـدة، وهى داخلة فى قـوله ﴿هُوَ اللَّهُ الْوَاحِـدُ الْقَهَّارُ﴾لأنها حديث عن الله الواحد القهار، ولك أن تعتبرها خبرا بعد خبر، ولك أن تعتبرها جملة حالية إلى قوله ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وما تعلق بها وهى جملة مـستأنفـة إلى قوله ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ وهكذا ترى الشبكة ظاهرة جداً بين هذه الآيات المَاضيَةِ فى طريق واحد لبـيان فساد اتخاذ أولياء من دون الله، الذى هو الوجه الثـانى لخلوص العبادة لله رب العـالمين، وكأننا فى هذا القسم من السورة أمام حقيقتين، حقيقة أصلية ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ (٢) أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ وحقيـقة فرعية جىء بهـا لتمحيص هذه الحقـيقة وهى المقابل لها من الذين اتخـذوا من دونه سبحانه أولياء، ثم امـتدَّ الكلام وتفرع لبيان بطلان هذه الحقيقة المقابلة، وبيان البطلان هذا يقرِّرُ من وجه آخر الحقيقة الأم لأن خلق السموات والأرض وتسخير النيـرين هما المبرِّر لإخلاص العبادة للذى له الدين الخالص.

وهذا مهم جداً فى بيان ترتيب المعانى وبيان وجه بنائها، وقوله سبحانه: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ فيه أمران الأول خلق السموات والأرض وليس أدَلَّ على الواحد القادر الصانع من خلق السموات والأرض لأنها أعظم الأجرام البادية للأعيان، ولأننى لم أعرف ضالا أنكر أن الله خالقها، والموغلون فى الوثنيَّة من أهل الجزيرة الذين لم يأتهم نذير قبله صلى الله عليه وسلم من زمن أبَوَيْهم إبراهيم وإسماعيل كانوا إذا قيل لهم من خلق السموات والأرض قالوا الله وإذا قيل لهم لمن ما فى السموات والأرض قالوا لله وإذا قيل لهم من رب السموات السبع قالوا الله.

فالاستشهاد بخلق السموات والأرض على أنه الواحد القهار الذى لا يجوز أن تُتخذ من دونه أولياء استشهاد يجد آذانا تسمع، وهذا هو المعنى الأول والمعنى الثانى هو كلمة (بالحق) وهذا معنى آخر يحتاج إدراك سرِّه إلى تدبر ومراجعة لأنه يفيد أمرين: الأول أن السموات السبع والأراضين السبع وكل ما فى السموات من أفلاك وكل ما فى الأرض من إنسان ونبات وحيوان وطير وبحار وجبال كل ذلك قائم على غاية الدقة وغاية الحكمة، والعلوم تتسع وتتفرع فى دراسة النَّبات، أو الحيوان أو الإنسان أو أى كائن حى، أو غير حىّ فى هذا العالم وكل هذه العلوم المتفرعة إنما هى غارقة فى بحار الحكمة التى بُنِيَتْ عليها هذه الكائنات، وهذا هو الوجه الأول لقوله سبحانه ﴿بِالْحَقِّ﴾.

والوجه الثانى حاصله أن الله سبحانه وتعالى أعلى قدر الإنسان فى هذا الوجود، وجعل كل ذلك مُسَخَّراً له، وجعله خليفته سبحانه فى عمارة الأرض، وأودع فى نفسه فجورها، وتقواها، وأوصاه بكل ذات كبد رطبة فى البر والبحر، وسخر له كل ما فى البر والبحر وسخر له الشمس والقمر والنجوم ولم يكن من الحكمة فى شىء أن يترك هذا الإنسان سُدى، وإنما أرسل له رسله وأنْزَل إليه كُتُبَه، وقاده بالشريعة التى تَرْسُم له طريق الحياة، وجعل البَعْثِ والحساب، والجنة، والنار، ليُقِيمَ بذلك العدل، والبر،

والرحمة، في هذا الكون، فالبعث حق واجب لازم لهذا الوجود، والحساب والجزاء والجنة والنار وإلا تحول هذا الكون إلى غابة لا تطاق فيها الحياة، وهذا هو المعنى الثانى لكلمة بالحق، والخلاصة أن هذا الوجود قام فى تكوينه على الحق وفى سلوك الإنسان فيه على الحق، والباطل ضد هذا الوجود سواء فى تكوينه وفى غاياته وسلوك الإنسان فيه، وقوله جل شأنه ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾هذه الجملة مظهر آخر من مظاهر القدرة التى لا يتسع الكون لقدرة أخرى تنافسها، وهى من أبلغ البيان وظنّى أنَّها من مبتكرات القرآن لأنى لم أقع على ما يشبهها فى كلام الناس، والتكوير معناه اللىّ واللَّفُّ؛ من كوّر العمامة أى لف بعضها على بعض، وكل لَفَّة أوليَّة تُخْفِى التى قبلها، وتكوير الليل على النهار يعنى أن الليل يُخْفِى النهار، وتكوير النهار على الليل يعنى أن النهار يُخفى الليل، وهذا يعنى أن الليل موجود أبدًا وأن النهار موجود أبدا ولكن أحدهما يخفى الآخر فى شق من الأرض، ويبقى الذى أُخْفِى هنا ظاهرًا هناك، والذى ظَهَرهُنَا خافيًا هناك، ومثله قوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١]، يعنى يُدْخل الليل فى النهار، فيظهر النهار، وفى باطنه الليل، ويدخل النهار فى الليل فيظهر الليل وفى باطنه النهار، ومثله قوله سبحانه ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ [الرعد: ٣] يَعْنى يغطّيه، ويبقى النهار مُغَطَّى، تحت الليل، وهذا من أحكم البيان ولا يهتدى إنسان لمثل هذا وإنما يقوله الذى خلق لأنه يَعْنِى أن الملوين اللذين هما الليل والنهار سرمَدَيْن لا يَغيبُ أحدهما عن هذا الوجود، وإنما هما باقيان أبدًا ولَيْلُ قَوْمٍ هو نهارُ قومٍ آخرين، والنجوم لا تغيب عن الأرض أبدًا والشمس لا تغيب عن الأرض أبدًا، والقمر لا يغيب عن الأرض، وإنما الكل يغيب من مكان ويظهر فى مكان آخر، ولا تجد كلمة تدل على ذلك إلا هذه الكلمات الثلاث يكوِّر ويولج ويُغْشِى، وأكرر أن هذا لا يكون إلا كلام الذى خلق ولم تأت كلمة (يكور) فى الكتاب العزيز إلا فى

هذا الموضع، ولم تقع كلمة يولج أو تولج إلا مع الليل والنهار، ولم تقع كلمة يُغشى بضم أوله إلا مع الليل والنهار، وهذا يعنى أن هذه الكلمات تقع فى العزيز النادر وإنما جاءت هنا لأنها تكشف معنى لا يقع فى نفوس أهل البيان.

قوله سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ تسخير الشمس والقمر كثير ما يأتى بعد هذا المعنى، ولم أعرف السر فى تقديم أحوال الليل والنهار على تسخير الشمس والقمر، مع أن أحوال الليل والنهار هى نتائج تسخير الشمس والقمر، لأن الشمس هى أم النهار، والقمر ابن الليل ونَيِّره، فهل ذلك لأن المقصود ليس جعل الليل والنهار؛ ولا تسخير الليل والنهار، وإنما المقصود هو هذا التدبير اللطيف المحكم الذى ترى فيه الليل يكوِّر على النهار والنهار يكوَّرُ على الليل؟ وهذا هو المظهر الأجلى والأوضح، ليس لخلق السموات والأرض فحسب وإنما لخلقها ملتبسة بالحق والحكمة فى تكوين كل شىء فيها؟

وهل يمكن أن يكون سِرُّ التقديم هو أن توارد الليل والنهار وتكوير النهار على الليل وتكوير الليل على النهار ألصق بحياة الإنسان وأظهر من تسخير الشمس والقمر وجريانهما لأجل مُسَمًّى؟ لأنه محتاج احتياجًا ظاهرا لأن يسكن بالليل، ويبتغى رزقه بالنهار؟ أم ترى سراً آخر لهذا الترتيب؟ لا شك أن وجوه ترتيب مظاهر القدرة، وأدلة التوحيد، محتاج إلى مراجعة وبيان فى الكتاب العزيز، وهو متَّسِع جداً لأن الذى أنا فيه ليس فقط تقديم الملوين على تسخير النيرين، لأن هنا أشياء أخرى؛ لماذا قدم السموات على الأرض؟ تقول لأن السموات فيها الملائكة وحملة العرش والساجدون حتى لا ترى فيها موضع قدم إلا وفيه ملك ساجد، وأقول مرة ثانية لماذا قدم تكوير الليل على النهار على تكوير النهار على الليل؟ ولك أن تقول لأن تكوير الليل على النهار يعنى حضور الليل وغياب النهار، وهذا هو الأصل الذى تبدأ منه الأشياء لأن الظلمة عدم، والعدم مُقدَّم لأنه الأصل، ولماذا قدم الشمس على

القمـر؟ وتقول لأن الشمس ضيـاء والقمر نور والإضاءة قـرط الإنارة، ولهذا قلت لو فتحنا هذا الباب لاتسع لأنه يشمل تقديم المفردات ثم تقديم الجمل ثم تقـديم الآيات ثم تقـديم الفصـول، وهذا هو علم الإعـجـاز الذى دعا إليـه الرازى، ولم يؤلف فيه أحد.

ويلاحظ أن التسـخير نعمة تعـادل نعمة الخلق، وتزيد لأن الله سـبحانه لما سَخرَّها لنا أودع فينا الإمكانات التى نَسْتطِيعُ بها أن نَـنْتَفِع بهذا التسخير، وإلا كان التسخـير غير نعمة، والآيات الثلاثة فيـها أولا خلق السموات والأرض، يعنى الإيجاد مـن العدم، ثم فيـها حركـة الأفلاك المنتجـة لتكوير الليل على النهار والنهار على الليل، ثم فيها تسـخير النيِّرين، الشمس التى هى أم النهار والقمر الذى هو فَرْقَدُ الليل.

ولو ذهبت تحلل وجوه الانتفـاع فى الشمس والقمر، وهى المرادة بالتسـخير لوجدت منافع لا حدود لهـا، وهذا ما نعلمه وما لا نعلمه من فـوائد سخرها الله لنا فى الشـمس والقمـر أضعـاف ما نعلم، وهذا الـتسخـير قـائم لأجَل مُـسَمّى، وهو يوم ينفخ فى الصـور وترى الشـمس كُوِّرَتْ والنجـوم انكدرت والسماء فُرّجَت، وهذا التسـخير باب مفتوح لاجتهادات الأجيـال المتعاقبة إلى هذا اليوم، وهذا حافز لأهل الدين لأن ينشطوا ويعلموا ويتـعلموا حتى ينتفعوا بما سـخره الله لهـم لأن علمهم الذى يُعـيِنُهم على ذلك هـو من شكر نعمـة التسخير لأن شكر النعمة أن توضع النعمة فى الموضع الذى يرضاه المنعم، وقل مـثل ذلك فى كل مـا سـخره الـله لنا، ولا أعـرف السر فـى أننا نْمِنَا وأدلج الناس.

وقولـه سبحـانه: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ التنوين فى كل عوض عن المضاف والمقصود كل من الشمس والقمـر، ولو نزعت هذه الجملة من سياقها وتمثلت بهـا فـى كل شىء حـولك لرأيت كل مـا فى الـكون يجـرى لأجل مسـمى، وأنا أجرى إلى أجل مسـمى وأنت تجرى إلى أجل مـسمى، والليل

والنهار يطلب بعضه بعضًا طلبًا حثيثا إلى أجل مسمى، وهذا الطاغية الأعمى الذى يشرب من دماء أحرار شعبه يجرى إلى أجل مسمى، والكل يجرى والكل ينتهى جريانه إلى أجل مُسمًّى ولو لم يكن فى القرآن إلا هذه الجملة لكانت دالة على صدق من بلَّغها صلوات الله وسلامه عليه.

قوله سبحانه: ﴿أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ الاستفتاح بأداة الاستفتاح مؤذن بأن ما يأتى بعدها له فى سياق الكلام شأن أى شأن، وكلمة «هو» بعد أداة الاستفتاح تعنى أن فاعل ما تقدم لا يجوز فى العقل أن يكون غيره سبحانه العزيز الغفار، وهذا الطريق من طرق البناء شائع فى الكتاب العزيز، وأعنى به أن تذكر الآيات التى يتجلى فيها جلال الألوهية، والتى لا تكون إلا من الحى القادر القاهر جل وتقدس، ثم تأتى جملة الفاصلة لتؤكد هذه الوحدانية وهذه الألوهية بجلالها وصفاتها وأسمائها الحسنى، وقريب من هذا جداً قوله تعالى: فى سورة فاطر﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ [فاطر: ١٣] موقع ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ هو موقع ﴿أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ واسم الإشارة فى فاطر له موقع جليل لأن هذا الذى مضى لا يكون إلا من ربكم الذى له الملك وترون فيه ربكم الذى له الملك؛ والضمير فى آية الزمر كأنه يشير إلى شىء من هذا وهو أن خلق السموات والأرض بالحق وتكوير الليل على النهار وتكوير النهار على الليل وتسخير الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى كأن هذا هو الله لقوة دلالته على العزيز الغفار.

وتقرأ فى الحج قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ إلى أن قال سبحانه ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج: ٥، ٦]، وفيها أيضًا ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ

النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الحج: ٦١، ٦٤]. راجع هذه الآيات وكأن كل آية تعرض عليك الدليل والبرهان ثم تستخرج منه الحقيقة الدالة عليها الدليل، فالذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة إلى آخره يستحيل إلا أن يكون هو الحق والمعبود بالحق والذى ينشركم ويحاسبكم.

وآيات تجليات الألوهية أخت آيات التسبيح والتنزيه وفاصلة كل من الفواصل الـمُمْعِنَة فى الدلالة على الوحدانية، وأنه سبحانه المعبود بالحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل، وهذا هو سر الشبه الواضح بين هذه الجملة الفاصلة وجملة الفاصلة فى الآية قبلها، ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾، راجع جملة (هو الواحد القهار) وضع بإزاء (ألا هو العزيز الغفار)، تجد المبنى واحدًا والمعنى واحدًا، وقال هناك الواحد ليناسب اتخاذ الولد وأن الواحد لا يتخذ ولدًا؛ وكلمة القهار تلويح بعذاب من اعتقد أنه سبحانه اتخذ ولدًا.

والعزيز الغفار فى هذه الفاصلة الثانية لم أتوقف فى معرفة سر «الغفار» وأنها تفتح باب المغفرة للذين سلكوا غير طريق إخلاص العبادة لله وهم الذين اتخذوا من دونه أولياء ما يعبدونهم إلا ليقربوهم إلى الله زلفى، وأنهم لو حذفوا هذه الواسطة وعبدوا الله واقتربَتْ قلوبهم منه اقترابًا مباشرًا فإنهم سيجدونه سبحانه غفارًا، يَسْتُر ما فات، وكأنه لم يكن؛ أمَّا كلمة ﴿الْعَزِيزُ﴾ قد وقفت عندها وقلت إن المقام الذى هو مقام هذا الخلق الأعظم الذى هو خلق السموات والأرض وتكوير الليل على النهار وتكوير النهار على الليل وتسخير الشمس والقمر يُرشّح أن يكون المذكور من أسمائه جل وتقدس

القادر أو الخالق فلماذا جيء بالعزيز؟ وبعد مراجعة لم أجد ما أركن إليه إلا أمرًا واحدًا؛ وهو أن كلمة العزيز سَبَقَتْ فى بيان تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم، والعزيز هنا يربط تنزيل الكتاب بخلق السموات والأرض بالحق لأن الكتاب هو الحق الذى لا غنى لخلق السموات والأرض عنه؛ نظرًا لأن خلق السموات والأرض مُتَضمَّن لخلق الإنسان ولا حياة لهذا الإنسان بغرائزه ونوازعه وشهواته إلا بكتاب من الخالق العليم به، يقول له افعل ولا تفعل لأنه لو ترك له الفعل والترك لتهالك الناس لتصادُمِ أهوائهم فكانت كلمة العزيز فى الآية جَذْبًا لكلمة العزيز فى تنزيل الكتاب وربطا للآيتين العظيمتين والنعمتين الجليلتين نعمة خلق السموات والأرض وتكوير الليل والنهار وتسخير الشمس بنعمة إنزال الكتاب لأن الله سبحانه قال لنا وإن تعدوا نعمة الله لا تُحْصُوها ثم قال لنا ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] هذا ما ركنت له نفسى والله أعلم.

قوله سبحانه: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [الزمر: ٦].

هذه الآية متَضَمَّنَة فى الآية قبلها وهى من ذكر الخاص بعد العام لأن خلق الأرض متضمن لخلق الإنسان والأنعام كما أن خلق السموات متضمن لخلق الشمس والقمر، ولذلك ذكرت الشمس والقمر لا من جهة الخلق وإنما من جهة التسخير، والتسخير يكون بعد الخلق أى أن الله خلقها وسخرها لكم، وهذا هو الربط الوثيق بين هذه الآية والآية قبلها، ولابُدَّ أن تذكر أن الآية التى قبلها هى دليل على أنه سبحانه الواحد القهار الذى هو فاصلة اتخاذهم لله سبحانه ولدًا والذى هو من تمام الحديث عن الذين اتخذوا من دونه أولياء ما يعبدونهم إلا ليقربوهم إلى الله، وهذا كما قلت وكررت هو

المقابل لإخلاص العبادة لله رب العالمين الذى هو جذر السورة، وجُذَيلها المحكك وجَذْمُها المُرَجَّب، وهذا واضح من أن هذا المقابل فرع تمدد وسيظل يتمدد إلى قوله سبحانه: ﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ﴾.

والآية هنا آية تبهر وتقهر وهى أن هذا الإنسّ الذى تراه كعَدَد الحَصَى فى هذا الكوكب أصله واحد، ومن أجل أن تتحقق هذه الوحدانية فى أصل هذا الوجود الإنسانى لم يشأ الحق جل وتقدس أن يخلق حواء من تراب كما خلق آدم، وبذلك يكون سبحانه خلقنا جميعًا من زوج وليس من واحد، وإنما خلق حواء من لحم آدم ودمه لتكون بَضعةً منه أولا وليظل حَنِينُه إليها حنين الشىء إلى نفسه، ثم تتحقق وحدة الوجود الإنسانى وأن أصله واحد هو آدم عليه السلام.

وقد تكرر هذا المعنى كثيراً فى الكتاب العزيز لأنه ليس آية فحسب وإنما هو نعمة وأى نعمة فوق نعمة الخروج من كَتْم العدم كما كان يُعبِّر الرازى رضى الله عنه، وترى فروقًا فى الكلام المعبّر عن هذا المعنى، فإذا قارنت آية الزمر بأول النساء وجدت شيئًا هو أن أول النساء قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١] وخَلْقُنا جميعًا من نفس واحدة حقيقة واحدة فى السورتين، وقال فى النساء (وبث منهما رجالا كثيراً ونساء)، لأن هذا رأس المقصود فى سورة النساء، وسورة الأرحام وسورة الميراث وسورة ما أحل الله وحرم من النساء وهذا البثّ لم يكن من النفس الواحدة التى هِى نفس آدم عليه السلام وإنما كان من الزوجين الذكر والأنثى ولابُدَّ من إحضارهما، ولا يجوز إغماضها لأن المقام مقامها، ولَعَلَّ هذا يفسر قوله سبحانه فى النساء ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ولم يقل ثم جعل منها زوجها كما قال فى الزمر، لأن الخلق أدخل فى التكوين من الجعل لأنك تجعل الشىء بعد وجوده كما يقال جعلت الطين إبريقا يَعْنِى صيرْته، وجعل الحسناء بدراً يعنى صيَّرها، وهذا

بخلاف الخلق الذى يكون من العدم فقد خلقها ربنا من قصيرى أبينا آدم عليه السلام فصارت أُمُّنَا جزء أبينَا وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النحل: ٧٢]، فزوجى من نفسى وزوجك من نفسك وهذا هو التراحم الذى نتساءل به، وهذا أرفع وأنبل وأرحم من كل ما يقال فى حقوق المرأة وكلمة (ثم) فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ لم ترد فى النساء وموقعها هنا لافت لأن جعل الزوجة من النفس الواحدة لم يكن بعد خلقنا من هذه النفس الواحدة وإنما كان قبل خلقنا منها لأننا خلقنا من زوجين الذكر والأنثى فالذى بعْدَ كلمة ثم لم يكن فى ترتيب الوجود بعد الذى قبلها، وإنما كان قبله؛ لأن الترتيب هو أن الله خلق آدم، ثم جعل منه حواء، ثم خلقنا من آدم وحواء، ولا يزال كل مِنَّا فيه إرث من أبيه آدم ومن أُمّه حواء، والناس الذين نودوا فى أول النساء جميعًا شركاء فى هذا الإرْثَ وهذا هو التراحم الذى بين البشر جميعًا، وإن كانوا قد دمَّرُوه بحروبهم وأَطْماعهم، والذى أريده الآن أنها هنا فى الزمر تميّز جعل حواء من آدم عليه السلام وتشير إلى أننا أمام آيتين آية الخلق من نفس واحدة، وهى آية عظيمة ومألوفة، وتراها عيوننا فى كل يوم ولا نُعْطيها من التدبر ما يُثْرِى قلوبنا واعتقادنا بها؛ وآية ثانية حَدَثَتْ مرَّة واحدة وكثيراً ما تغيب عنا وهى جعل أمنا حواء من أبينا عليهما السلام، والسؤال هو لماذا خصت آية الزمر هذه بهذه الإشارة الدالة عليها كلمة (ثم)؟ والجواب والله أعلم أن المقام مقام إظهار القدرة وجلال الألوهية، وعز الربوبية وإنطاق الآيات الناطقة بهذا كله لبيان خَطَلِ وجَهْل وعمَايَةِ وسفه الذين اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم ليقربوهم إلى الله زلفى، وتأكيد وجوب خلوص العبادة لله رب العالمين، هذا والله أعلم. وللزمخشرى ملحظ جليل فى الآية أوجز لفظه ووسّع معناه ومن أجل حُبِّى لعبارته المحكمة الرَّصِينة أَضعها بين يدى القارئ، قال رضى الله عنه «فإن قلت ما وجه قوله «ثم جعل منها زوجها» وما يعطيه من معنى

التراخى؟ قلت هما آيتان من جملة الآيات التى عدّدَعا دَالاً على وحدانيته وقدرته، تَشْعيبُ هذا الخلق الفائت للحصر، من نفس آدم، وخلق حواء من قصيرى رجل، فكانت أدخل فى كونها آية وأجلب لعجب السامع فعطفها بثم على الآية الأولى للدلالة على مباينتها لها فضلا ومزية، وتراخيها عنها فيما يرجع إلى زيادة كونها آيه، فهو من التراخى فى الحال والمنزلة لا من التراخى فى الوجود» انتهى ما أردته من كلامه رضوان الله عليه.

قوله سبحانه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾الأنعام الثمانية التى أنزلها ربنا لنا هى المذكورة فى سورة الأنعام، وهى من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين والاثنينية تعنى الذكر والأنثى، ولست أدرى لماذا سكت هنا عن الخيل والبغال والحمير التى ذكرها فى سورة النحل؟ هل المراد الأنعام التى نأكل منها؟ والمقام مقام منٍّ بنعمة الخلق والإيجاد ومايكون به هذا الوجود؟ ولماذا عَبَّر عن إعْدَادها لنا هنا بالإنزال وعبر عنه فى النحل بالخلق ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ﴾ [النحل: ٥]؟ والذى فى الكتب التى بين يدىّ هو بيان صحة التعبير بالإنزال هنا، وأنه سبحانه قضاها لنا، ونزَّل الأمر بقضائها لنا من اللوح المحفوظ والذى فيه كل شىء قبل كل شىء، هذا وجه ووجه آخر وهو أن هذه الأنعام لا تحيا إلا بالماء الذى أنزله الله من السماء لأن ماء السماء تحيا به الأرض وتُنْبِتُ الكلأ والعُشْب فتأكله الأنعام، وتُسْقَى بماء السماء ولولا ذلك لما وجدت. فعبَّر عن وجودها بالإنزال الذى هو إنزال الماء من السماء، أو أن الله أنزلها من سفينة نوح التى كان فيها من كل زوجين اثنين، أو أن الله خلقها فى الجنة وأنزلها إلى الأرض، وقد ذكر الطاهر أن الإنزال فيه معنى التذليل كما فى قول الشاعر (أنزلنى الدهر على حكمه) وتقول نزل فلان على أمر فلان أى بعد ما كان أبِياً، وهذا القول يُعِينُ على معرفة سر الاختيار والمناسبة وهو أن إنزال الأنعام مسبوق بتسخير الشمس والقمر والشَّوْبُ الذى فى كلمة (الإنزال) من معنى التذليل يكون هو المرشح لهذه الكلمة وأن المراد ليس خلقها وإنما المراد تسخيرها وتذليلها وانقيادها،

والواو التى فى قوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ﴾ عاطفة على قوله ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وهى لا تقتضى ترتيبًا فـقد يُعطف بها السابق على اللاحق؛ لأن الأصل أنه يوجد ما به يعيش الإنسان، وهى الأنـعام التى لنا فيها دفء ومنافع ولا توجد الأنعام إلا إذا وجد النبات، ولا يوجد النبات إلا إذا وجد الماء، وقد شرحت آية الفـرقان هذه المراحل بهـذا الترتيب فى قـوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٩] قال أهل العلم بكلام الله قـدَّم الأنعام على الناس لأنـها ضـرورة لحيـاة الناس، وقد أومـأ إلى هذا الترتيب بتقديم الرياح على إنزال الماء الطهور، وإنما قدم خلقنا من نفس واحدة على إنزال الأنعـام وتذليلها وتسـخيـرها لأن خلقنا أظهـر وأبين لأنه نظر فى أنفسنا ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

قولـه سبحـانه ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ هذه جملة حالـية من جملة ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ مع ملاحظة ما ارتبط بهـا مما عطف عليها، ويمكن أن تكون بدلا مـن جملة «خلقكم من نفسٍ واحدة»، ومهما يكن فالمقصود بها بيان وتفصيل هذا الخلق وأنه بدأ فى ظلمات ثـلاث، وأخذ طَوْرًا من بعد طَـوْر، وهذا التفصـيل هنا هو بالنسـبة لجملة خلقكم من نفس واحدة وهو إجمال بالنسـبة لآيات كثيرة، ذكرت هذه الأطوار كآية المؤمنون التى تبدأ من نطفة فعلقة فمضغة ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ [المؤمنون: ١٤] وهذا وإن كان فى الكتـاب كله حديثا عن الإنسـان فإنه مطابق مطابقـة كاملة للأجنة فى الأنـعام وإنما خوطـب بها الإنسـان وتحدثت عنه هو لأنه هو الذى يخـاطب بالدليل ويخـاطب بالنعم، وأن الله الذى سخـر له الشمس والقـمر وذلّل له الأنعـام هو الذى رعَاه ونمّاه وكوّنه وأوجده من يوم أن كان نطفـة أو من يوم أن كان فى صلب أبيه وقبل أن

يكون فى رحم أمه وذكر الظلمات الثلاث هنا للإشارة إلى مزيد من العناية الإلهية والنعمة التى أنعمها الخالق المبدى المعيد على عباده وإلى أى مدى كانت القدرة وكان العلم وكان اللطف يخترق هذه الظلمات الثلاث ليرعى هذا الإنسان من يوم أن كان نطفة فعلقة فمضغة مكسوة عظامًا إلى آخره، والظلمات الثلاث قالوا هى ظلمة الرحم أو الصلب، وظلمة البطن وظلمة المشيمة وهى الغشاء المحيط بالجنين وهو فى بطن أمه، كيف امتدت يد الله له واخترقت هذه الحجب؛ وهيأت له الرعاية ومَدَّت له سبل البقاء، والغذاء، والنمو، لم تذكر هذه الظلمات الثلاث فى الكتاب العزيز إلا هنا مع أن مراحل الخلق وتطور أحوال الجنين فى بطن أمه ذكرت كثيرًا فى الكتاب؛ وحين أجد إشارة قرآنية لم تذكر إلا فى هذا الموضع أتوقف عندها لأبحث عن الذى فى هذا الموضع اقتضاها، وأنا هنا معى أمران لم يذكرا إلا فى هذا الفصل من فصول معانى السورة والأمران داخلان فى بيان القدرة والنعمة، أولهما قوله تعالى ﴿**يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ**﴾ [الزمر: ٣]، والثانى ذكر هذه الظلمات الثلاث، وكلاهما دال على مزيد العناية بمظاهر القدرة ومزيد العناية بتفرد العزيز، وتفرد الواحد الأحد وجذر المعنى أيضا فيه خصوصية وهى أن الكلام فى حكاية القوم الذين اتخذوا من دونه أولياء، وهذا وإن ذكر كثيرًا فى الكتاب العزيز إلا أن هؤلاء الضلال تميزوا عن غيرهم بقولهم ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، والخصوصية من تكوير الليل على النهار، وتكوير النهار على الليل، وأختها التى هى ذكر الظلمات الثلاث لتأكيد باطل هؤلاء المؤمنين بالله والذين يعبدون غيره ليقربهم إليه؛ لأن المطلوب الأصلى هو خلوص العبادة لله رب العالمين لأنه سبحانه له الدين الخالص وأى شائبة تعكِّرُ هذا الخلوص تجعل الدِّينَ كأنه لم يكن؛ ولا فرق بين من أَشْرَكَ بأىِّ شائبة ومن أنكر، والخلاصة أن تأكيد معانى الألوهية وبيان تجلياتها وتدقيق هذه التجليات سواء فى التكوير أو النفاذ فى الظلمات الثلاث لتأكيد نفى أى شائبة شرك فى عبادة الله لأنه سبحانه لا يعبد إلا بعبادة خالصة له، هذا والله أعلم.

ثم إن جملة ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ [الزمر: ٦] تُرَى وكأنها اعترضت بين ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ و ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾لأن الخلق فى بطون الأمهات موصول وَصْلا ظاهراً باكتمال الزوجين، ولهذا عدَّها الطاهر بن عاشــور جملة معتــرضة، وأرى فيها رأيا آخــر، وهو أن ذكر إنزال الأنعام من تمام ذكــر الوجود الإنسانى المعــبَّر عنه بقوله سبــحانه ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ لأنه يكاد يكون من المستــحيل أن يعيش الإنسان من غــير أنعام يأكل من لحمهــا ويشرب من ألبانها وله فــيها منافع؛ لا تقوم حــياته بدونها؛ وإذا كــانت الأنعــام لا توجد فى أرض مــوات وإنما يوجب وجــودُها مَــرْعى وخصوبةً وماء إلى آخره فإن الإنسان توجب حياتُه وجودَ هذه العائلة الحيَّة من الأحْياء بمعنى أنه لا يوجــد إنسان فى أرض ميِّتَة وإنما يكون حيــا مع الأحياء؛ وأول هذه الأحيــاء هو الأرض التى يمشى عليها، وبمقــدار حياتهــا وحيويتــها تكون حياته وحــيويته، والشأن فيــه أنه يحيا بالأرض الحيَّــة وتَحْيَا به الأرض الحيَّة، وهذا هو سر وجوده وسر عمارته للأرض، هذا شىء.

والشىء الآخر هو أن الخلق فى بطون الأمهــات طَوْراً من بعد طور عام فى الإنسان والحيــوان كما قلت، وإنمّا نُبِّه إليه الإنســان لأنه هو المكلف وهو سيد هذا الكون الذى سخــره الله له سبحــانه، وحين يُحَدِّثُه ربُّه عن هذه الأطوار ويجعلها أطوار وجوده هو، يكون ذلك أفعل وأنجح، وقد سبقت الإشارة إلى هذا وإنما ذكرته ثانية لأبيِّن أن جملة إنزال الأنعام واقعة فى موقعها.

قوله سبحانه: ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾.

اسم الإشــارة الذى للبــعيــد راجع إلى فــاعل الخلق سبــحــانه، الذى خلق السموات والأرض وكوَّر الليل على النهار، وســخر الشمس والقمر، وخلقكم من نفس واحدة، وأنزل لكم من الأنعام إلى آخــر الآيات، ولَفْظ الجلالة خبر، واسم الإشارة دال على أنه حقيق بما يأتى بعده، لأنه صانع لما جاء قبله، فالذى

خلق هذا الخلق وتصرَّف فى الوجـود هذا التصرف، ونَفَذَ علْمُـه ونَفَذتْ قدرته إلى ما فى الأرحام ورعاه وأمدّه بالبـقاء طوراً من بعد طور فى ظلمات ثلاث، هو الله المتصف بكل كمـال و،المنزَّه عن كل نقص، والشريك نَقْص وقدح فى الوحدانية، وفى الجلال، والتنزيه، وكلمةُ ﴿رَبُّكُمْ﴾ وصف للفظ الجلالة، تذكر بالنعم بعد ما ذكر لفظ الجلالة بالجلال، وجملة ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ تأكيد لجملة ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾لأن فاعل ما تقـدم من الخلق والإنزال والرعاية لا يكون إلا من مالك يتـصرف فى ملكه؛ ومسـتحيل أن يَـخْلق ويَمْلكَ غَيْرُه كـما أنه من المسـتحـيل أن يخلقنى وأعـبدَ غـيره لأن كل هذا من الاخـتلال الذى لا تَقـرُّه الفطرة، فـقوله ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ هـو مـن سـيـاق العَقْل وإقـرار الفطرة، وجـمله ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ خلاصة الجملتين السـابقتين ونتيجتهما، وهى كلمـة التوحيد، ولهذا فصلت عما قبلها كما فصلت مـا قبلها عما قبلها وأصل هذه الجمل قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ وهى من الذى قبلها بمثـابة النتيجة من مقـدماتها، وقد ذكرت أن هذا مهـيع يتكرر كثيرا فى الكتاب العـزيز، تجد بعد الآيات التى يتجلَّى فيها عِزُّ الألوهية وينطق فيـها جلال الربوبية فواصل هى خلاصات لهذه الآيات وذكرت لذلك شواهد. وأريد أن أراجع فواصل الآيات التى يتجلى فيها الجلال وأولها قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ وثانيها قوله تعالى: ﴿أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ ثالثها ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾.

والفاصلة الأولى ردت بكلمة الواحد على الذين اتخـذوا له سبحانه ولداً؛ وأشارت بكلمـة القهار إلى الوعـيد والتهـديد لمن قال هذا، والفاصلة الثـانية أشارت بالعزيز إلى أنه المتـفرد بالخلق والتكوير والتسخير، وبكلـمة غفار إلى فتح باب الأوْبة والتَّوبْة والقَبُول لمن رجع إلى الحق.

وهذه الثالـثة فاصلة تكـليف وتلخيص وتمحـيص؛ وأن الوحدانيـة وكلمة التقوى هى التكليف الذى أوْجَبَـهُ ليس خلق السموات والأرض وتكوير الليل

على النهار وتسخير الشمس والقمر فحسب وإنما أوجبه أيضا خلقكم أنتم من نفس واحدة، وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم فى بطون أمهاتكم فى ظلمات ثلاث، وهذه الآية هى أقرب الآيات وأقرب النعم إلى الإنسان؛ لأنها نعمة وجوده، ولهذا جاءت معها كلمة التوحيد التى هى أصل العبادة التى لم يُخْلَق الإنسان إلا لها، وجاءت كلمة التوحيد مسبوقة بجملتين، جملة تُلخص الأعمال والنعم، ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ وجملة تؤكد أن الملك ملكه وجملة تَنْطِق بالوحدانية ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ وليس بعد الخلق إلا الملك وليس بعد الملك إلا كلمة التوحيد.

وقوله سبحانه ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ جملة متمكنة جداً لأن الآيات التى أنْتَجَتْ ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ آيات لا يحوم حولها شك، وهى مُفْضِيَة إفضاء لازما لهذه النتيجة المؤكدة، والتى هى من أطول الفواصل التى تكرَّرُ وتؤكد حقيقة واحدة، وهى الوحدانية ولك أن تَضَعَها بإزاء هو الله الواحد القهار، وبإزاء ألا هو العزيز الغفار، وكلاهما جملة واحدة وهذه جمل ثلاث وكأنها تستجمع كل الذى مضى، وكل جملة من هذه الجمل الثلاث تفيد القصر، ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ تفيد القصر بتعريف الطرفين والمعنى قصر لفظ الجلالة على اسم الإشارة من حيث هو فاعل الخلق وهذا يؤول إلى أن لفظ الجلالة لا يمكن أن يكون إلا للذى خلق، وجملة ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ تفيد القصر بطريق التقديم، يعنى أن الملك له لا لغيره وجملة ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ تفيد القصر بالنفى والاستثناء الذى هو رأس باب القصر، وتأتى جملة ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ وترتب بهذه الفاء الأفكار والرفض والتهديد والوعيد كل ذلك لمن صرِف أو يُصْرَفُ عن هذه الآيات، ويسلك غير طريق الرشاد. ويترك سبيل الرشد ويتخذ سبيل الغى، وكلمة ﴿أَنَّى﴾ التى يسأل بها عن الحال، كما تقول أنَّى يكون ذلك يعنى كيف يكون ذلك، تفيد هنا كيف تصرفون عن

الهدى الذى تضىء آياتهُ وتسلكون طريق العماية والضلال؟ وفيها معنى أى شىء دَهَاكُمْ وأضلكم وأعْماكم؟ وأين أحلامكم؟ وأين عقولكم؟ وفيها معان كثيرة كلما تأملتها بَدَتْ لك وأطلّت عليك هذه المعانى من أغوار هذه الجملة، وبناء فعل «تصْرفون» للمجهول فيه دلالات رفيعة منها أن أمْراً مجهولا غير معلوم، وغير مَعْقُول وغير مُتَوَقَّع هو الذى صرفكم عن دلائل الحق الساطع، وكأنكم أسْلَمتُم مقادتكم إلى هذا المجهول المنكر، فقادكم إلى حيث يريد، وما يريد بكم إلا الشر؟ هل هو الشيطان الذى صرفكم وأغواكم؟ هل هو الكبرياء فى الأرض؟ هل هو حب الرياسة؟ هل هو حب الفجور ورفع التكاليف الواجبة فى حياة الإنسان؟ علامات استفهام كثيرة حول هذا البناء للمجهول، ويظل المجهول معها مجهولا، وفى صيغة المضارع إشارة إلى أن صرفكم عن الحق الساطع سيظل بابا مفتوحا لا ينحرف عنه إلى طريق الرشاد إلا من هداه الله.

وإذا كان الغضب يطوف حول هذه الجملة التى يغلب عليها التنبية والتوجيه والدعوة إلى الخير فإن الجملة بعدها تعود عليها بزيادة غضب، والدلالة اللغوية وحدها هى جزء دلالة الجملة، ويبقى جزء مُبهمٌ هو ما تنتشر به الدلالة اللغوية من الجملة المجاورة لها والمتماسَّة معها، وهذه المعانى المُشْربة كما يسميها علماؤنا من أصفى المعانى وأنقاها، وقد أردت بذلك أن أهيئ لهذه الجملة المفعمة بالغضب وهى قوله تعالى﴿إن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ [الزمر: ٧] وأن مجيئها بعد التعجب والإنكار والتجهيل الذى فى جملة ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ تُشْرِبُ جملةَ الاستفهام هذه الجملةُ بعدها معنى الغضب، ثم هو ليس الغضب الذى يهدِّدُ بالعذاب فلم يقل سبحانه إن تكفروا فمأواكم النار، وإنما الغضب الذى يهدِّدُ بانصراف صاحب هذه النعم عنكم، لأنه غنى عنكم، ولم يُنعم عليكم لأنه فى حاجة إلى عبادتكم، وتوحيدكم. وإنما أنعم لأنه هو المنعم، ولاحظ أن كل النعم المذكورة هى نعم لمن خلق مؤمنا كان أو كافرا فخلق

السموات والأرض وتكوير الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر إلى آخره كل ذلك لكم جميعا؛ وهو دائم لكم جميعا، سواء من آمن منكم ومن كفر، فليس كُفْر الكافر صاداً عن نعمْة الله عليه وهذا هو معنى جملة الشرط ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾وقوله سبحانه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ ليس جواب الشرط، لأنه غير مقيد بالشرط، فالله هو الغنى كفروا أو لم يكفروا وهذه الجملة دالة على الجواب، والجواب من مثل قولنا إن تكفروا فعليكم كفركم، كما قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ [الروم: ٤٤]، وهو المناسب لقوله سبحانه بعد ذلك ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وجملة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ يَدُلّ توكيدُها على معنى ليس هو تقرير هذه الحقيقة؛ لأنها مقررة عند من آمن ومن كفر، ولأن الذى خلق السموات والأرض وكور الليل على النهار والنهار على الليل، وسخر الشمس والقمر وخلقكم من نفس واحدة وكل ذلك مُسَلَّمْ عند من آمن، ومن كفر لا يُتَوهَّمُ أن تكون له حاجة فى إيمان من يؤمن أو أن يُنقصَ من ملكه كفرُ من يكفر، والمعنى الذى يمكن أن يستشف من هذا التوكيد هو الغضب، لأن الآيات السابقة تجلت فيها القدرة، وتجلت فيها الوحدانية، وتجلت فيها النعم، ومن كفر بعد ذلك فليس له من المنعم جَلَّ وتقدس إلا الغضب، وأنه سبحانه ليس له حاجة فى إيمان من يؤمن. ويلاحظ أن الآية قالت ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ وليس عن إيمانكم فحسب، وقد جاء هذا المعنى فى قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام يخاطب قومه فى أول سورة إبراهيم ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨] وهذه من أعظم الآيات وهى ناطقة بعز الألوهية وقد أضاف موسى عليه السلام ﴿وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ وذكر ﴿حَمِيدٌ﴾ يعنى المحمود فى السموات وفى الأرض وهو محمود سبحانه لا ينقص شىء من حمده لو كفرتم أنتم ومن فى الأرض جميعا، وأَنَا أحب تكرار هذه الآية لأنها تريح نفوسنا ونحن نواجه أمواج الإلحاد تتدافع فى أرض الإسلام، وازن بين آية

الزمر وآية إبراهيم لتدرك الفـرق بين العموم والخصوص، وحاول أن تسـتخرج مقام العموم فى سياق آيـة إبراهيم لأن مقام الخصوص هنا ظاهر لأننا مازلنا مع الشريحة المقابلة للذين أخلصوا عبادتهم لله.

وقوله تعالى ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ جملة حـالية وموقعهـا هنا موقع حمـيد ويخفف من الغـضب الذى فى قوله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ لأن الآية تذكرهم بصفتهم «عباده» وأنه سبـحانه لا يرضى الكفر لعباده، وأكثر ما تأتى فيه كلمة «عباد» مضـافة إلى الحق يكون المراد بها الذين آمنوا والذى نحن فيه من القليل، وإن كـانت الجملة عـامة يَعْنِى لم يقل سـبحـانه ولا يرضى لكم الكفر، وإنما عمَّم ليشملهم مع غيرهم، وهذه الجملة تنطق بالغضب وبالرضى معا لأن الله سبحانه حين يُخْبِرُنَا بأنه لا يرضى فعل كذا يكون فى ذلك وعيد لمن ارتكبه، ويكون فيه أيضا تحـذير منه وفى التحذير رِضًى لأنه يخوِّفك لتبلغ الأمن، وفى الآية كلام لعلماء العقائد لأنهـا تعنى أنه يقع فـى مـلكه سبحانه ما لا يرضاه وكثير من العلماء يفرق بين الإرادة والرضى لأنه لا يقع فى ملكه إلا ما يريد وهذا لا يتنافى مع الآية لأن الإرادة غير الرضى.

وقوله سبحانه ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ هذه الجملة تقابل الجملة السابقة وقـد قـابل الكفـر بالشكر وليس بالإيمان، لأن الشـكر لا يكون إلا من الذى آمن، وإيثـار الشكر هنا -والله أعلم- ليناسـب النعم السابقـة وهى تسـخيـر الشـمس والقمـر وخلقكم من نفس واحـدة طورا من بعد طور فى ظلمـات ثلاث وإنزال الأنعام الثمـانية، وهذا يُشْرِبُ كلمة الكفـر فى قوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ معنى سـتر النعم يعنى كـفر النعم، وليس كـفر المنعم فحسب، ومن جـلال الألوهية وتفرُّدها ومخالفتـها للحوادث وأنه ليس كـمثلهـا شيء أن تظل النعم تتـوافى من الـمُنْعِم مع كـفر المـنعَم عليه بهـا، والشرط الـثانى مـذكـور جـوابه وهـو يرضاه، وفـى هـذا الذكـر وعـد جليل

لأن الله سبحانه يرضى من عباده العبد الذى أرضاه جَلَّ وتقدس، ثم هو سبحانه غنى عن من كفر ومن شكر، ولكنه سبحانه أشعر عَبْدَه الشاكر بأن شكره عند الله بمحل الرضى ليزيد العبد قُرْبًا منه بفعل ما يُرْضيه سبحانه، ولم يَقُل هناك إن تكفروا لا يرضاه لكم، لأن هذا ليس فيه من الزجر عن الكفر ما فى قوله سبحانه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ولأن كفر النِّعْمَةِ وكفر الـمُنْعم ليس الإثْمُ فيه محصورا فى هذا الكفر، وإنما مع هذا الكفر سوء أدب مع الله سبحانه، وفيه إعراض عن المنعم جل وتقدس وفيه غرور، وأنه أُوتِىَ ما أُوتى لعلم عنده كما قال قارون ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨] ويلاحظ أن كل الذى يُرضى الله هو من صميم مصلحة العباد وكل الذى لا يرضاه الله هو ضد مصلحة العباد.

وقوله سبحانه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ هذه الجملة معطوفة على ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ وما عطف عليها من قوله سبحانه﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ وكأنها نَتَجَتْ من هاتين الجملتين لأن الأولى إن تكفروا فعليكم كفركم وليس على أحد سواكم وإن تشكروا يرضه لكم ويجازيكم به لأنه سبحانه يَرْضى عَملَ من يرضيه ويزيد من يَشكُر ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] وهاتان الجملتان تؤكدان عقاب من كفر وثواب من شكر ويبقى بينهما حقيقة متضمنة من المفيد أن يُنَصّ عليها وهى أنه لكل نفس ما كسبت، وكل نفس بما كسبت رهينة وكل نفس مُبْسَلَة بالذى اجترحت وهذا من أكرم القيم وأعدلها وأبرها بالناس، فلا يُثَاب أمير لأنه يجرى فى عروقه دم العائلة المالكة، ولا يُعْطَى ابن الوزير لأنه ابن الوزير وإنما يُعْطى كل بمقدار ما أنجز ليس هناك عطاء لعاطلين، ولا رفعٌ لأقدار من قَعَدَتْ بهم همتهم، لأنهم أبناء الملوك، هذا كذب ولو فعله من يرفعون المصحف فى الليل والنهار، هذا باطل ولو فعلوه الذين يُصَدّعُون رؤوسنا بأنهم يطبقون شرع الله، وأن القرآن هو دستورهم.

وعجيب من هذه الجملة الكريمة التى صِيغَتْ صياغة تُؤَهِّلها للحفظ وتُيَسِّر سبيلها إلى كل لسان لأنها يجب أن تشيع؛ ويجب أن تَضْرِب الشعوب على هذه الأيْدى المُبْطِلة، حين تمتد إلى ثروات البلاد، لأن لها مُخَصَّصات استحقتها بالنسب والولادة، هذا زمان آخر ليس زمان شرع وليس زمان دين وإنما هو زمان النهب والسلب ويُصِرُّ اللصوص على أن يظلوا يعيشون فيه، قلت إن الجملة الشريفة صيغت صياغة تجعلها أقرب لأن تحفظ وذلك لأن الفعل والفاعل والمفعول من مادة واحدة، الفعل تزر والفاعل وازرة والمفعول وزر كما تقول لا تأكل آكلةٌ أكْلَ أُخْرَى ولا تشرب شاربة شرب أخرى، وهذا من أسْلَسِ الكلام وأسهله لأنه معنى يجب أن يشيع، والوِزْرُ بكسر الواو الثقل وسمى الذنب وزرا لأنه يثقل صاحبه ويعاقب به؛ والوازرة جاءت على صيغة التأنيث لأن المراد بها النفس لتشمل الذكر والأنثى وسميت وازرة لأنها اقترفت الوزر الذى هو الذنب على سبيل المجاز والمراد بوزر الأخرى ذنب الأخرى، ولاحظ أن فى هذه الجملة معنى زائدا عن قوله تعالى ﴿**كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ**﴾ [المدثر: ٣٨] وقوله جل شأنه ﴿**وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ**﴾ [النجم: ٣٩] وكل الآيات التى فى معناها، وهذا المعنى الزائد فى كلمة (وازرة) لأنه ليس المراد بها النفس فحسب وإنما النفس التى اقترفت إثما حتى عُرِفت بأنها نفس وازرة أى تجترح الوزر كثيرا حتى صار وصفا ثابتا دائما لها، وأن هذه النفس الموغلة فى اقتراف الوِزْر لا تَزِرُ وِزْرَ أخرى، ولا يحمل عليها شىء من كسب نفس أخرى وإنما تُصان وتحفظ وتُبعد عن أن يُتَزيَّد عليها؛ ولا يكون إفراطها على نفسها سببا لتحميلها ما لم تصنع، وهذا هو العدل الذى لا تقوم الدنيا إلا عليه، وكانت هذه الجملة الكريمة من وحى الله لأنبيائه جميعا لأنها أساس العدل قال تعالى: ﴿**أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ (٣٧) أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ**﴾ [النجم: ٣٦- ٣٨]، وقد تكررت فى الكتاب العزيز لتنبه صغار الضالين الراكضين وراء كبار الضالين، وتقرع لهم العصا وتقول لهم إنهم لن يُغْنُوا عنكم من الله شيئًا ولن يحملوا أثقالكم

فانظروا بعيونكم واهتدوا بعقولكم وخالفوا ووافقوا للذى تراه عقولكم وليس عقول غيركم، هذه الجملة ضدٌ ثقافة القطيع، وضد سياسة القطيع، وضد أسراب الطير التى يتبعُ بعضها بعضا وإن قادها غراب أعمى، الجملة الكريمة تفتح عقول الناس وعيونهم وتحمل كل واحد مسؤوليته، حتى لا يَتْبَع أحد أحدا. إلا فيما يقره عقله، وتراه بصيرته، لأنه لا تزر وازرة وزر أخرى.

قلت إن الجملة تستقى من محيطها وهذه الجملة فى موقعها هذا مع من كفر وشكر تفيد أن باب الكفر والشكر من الأبواب التى يكثر فيها التقليد وتكثر فيها التبعية، وأن مذاهب الإلحاد تأخذ صُوراً متعددة تبتعد بها عن الإلحاد وتُعْزى الهلافِيت مثل الليبرالية والعلمانية والتقدمية، وأن هذه المذاهب ستُضَاء حولها اللآلِئ، وستجد كثيرا من المهملين علميا، وعقليا، ينضون تحت هذه الأسماء ليقال فلان ليبرالى، وفلان علمانى، وفلان تقدمى، والله يعلم أن فلانا هذا لا هو فى العير، ولا هو فى النفير، وإنما رأى سِربْا يطير، ويقوده غراب أعمى فطار فيه.

قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ راجع الترتيب وراجع الصفاء والخلوص من كل زائدة، بعدما بين الآيات والنعم التى لا يتوقف فى الإقرار بها قلب حى؛ ذكر موقف الناس منها، وبدأ بمن يكفر، لأن القطب يدور حول الذين اتخذوا من دونه أولياء، ثم بمَنْ يشكر ثم انتزع الحقيقة التى أوحاها إلى النبيين من قبله ﷺ، كل ذلك فى جمل موجزة جدا ثم جاء بكلمة ﴿ثُمَّ﴾ المؤذنة بأن ما يأتى بعدها إما فى زمان متراخ عن الذى قبلها وإما فى مرتبة أعلى من الذى قبلها، وإما أن يكون له فى سياق الكلام شأن زائد، وهو هنا له هذا كله، لأنه أولا انتقال من الدنيا التى تزر فيها الوازرة وزرها، إلى الجزاء والرجعة المخوفة، واللحظة التى لها وجلت قلوب العارفين، ثم هى مَرْتبة أخرى لأنها أشق من الذى نزاوله، ثم هى أعلى من كل الذى مضى، لأنها حساب الذى مضى وعقابه، ولو ذهبت تستقصى دلالة «ثم» هنا لقلت الكثير، لأنها حرف تحته ما لا يحاط به، وبعد كلمة «ثم» هذه

يواجهك جار ومجرور ﴿إِلَىٰ رَبِّكُم﴾ ومتعلقه مؤخر ﴿مَّرْجِعُكُمْ﴾ لتقف هُنَيْهة تواجه كلمة ﴿إِلَىٰ رَبِّكُم﴾ وتراك وجها لوجه مع ربك إن كنت ممن كفر أو كنت ممن شكر، ذلك أن تتأمل حال من صار فى مواجهة ربه وهو ممن كفر، وحال من صار فى مواجهة ربه وهو ممن شكر ولن أشرح هذا لأن عليك أن تتمه، وإنما أُنَبِّه إلى أنه سبحانه لم يقل إلى الله مرجعكم، وإنما ذكر لفظ الرب الذى هو مصدر الإنعام ولم يذكر لفظ الجلالة الذى هو مصدر الجلال، لأن الكلام فى النعم والذى سيواجه هذا الموقف هو من كفرها وكفر المنعم، ومن عرفها وشكر المنعم، وهذا هو سر كلمة إلى ربكم فيما أرى وكلمة ﴿مَّرْجِعُكُمْ﴾ تعنى أنكم رجعتم إلى حيث كان ابتداؤكم كما يقال رجع إلى داره ورجع إلى صوابه ورجع إلى قومه، وما كان يمكن أن تكون كلمة المصير هنا سادة مَسَدّ المرجع لأننا هنا رجعنا إلى الذى خَلَقَنَا من نَفْس واحدة، ثم جعل منها زوجها، وأنزل لنا من الأنعام ثمانية أزواج؛ وخلقنا خلقًا من بعد خلق، وأنه لا ينصرف عنه سبحانه من له قلب يعقل، وهذا هو إيثار كلمة المرجع وسر وجودها فيما أرى والله أعلم، ثم إن فيها شيئا آخر وهو أن كثيرا مِنْ مَنْ ذرأهم وخلقهم طَوْرًا من بعد طور شردوا كما تشرد الإبل الضالة، ثم رجعوا بالموت بعد الطِّوَلِ المُرْخَى، وثنياه فى يد الذى برأ، لأن الناس جميعا بين أصبعين من أصابعه جَلَّ وتقدّس. وقوله سبحانه ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ معطوف ومرتب على قوله ﴿إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ وداخل فى حيز كلمة ﴿ثُمَّ﴾ الدالة على تميز ما بعدها عن الذى قبلها من حيث الأهمية فى الغرض المسوق له الكلام؛ وهو الحث والحض على النظر فى الأدلة الساطعة، والنعم الناجعة، لتكونوا فى فريق من شكر، ولتحذروا فريق من كفر، و﴿يُنَبِّئُكُم﴾ من النبأ وهو الخبر الذى له شأن وله بَال، كما قال تعالى على لسان الهدهد لسليمان عليه السلام ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ﴾ [النمل: ٢٢] وليس المراد الإنباء وإنما المحاسبة والمجازاة وإنما عبر عنها بالإنباء لأن عدل الحق جل وتقدس يمنع وقوع عقوبة إلا بعد الإنباء بالذنب،

وإثبات هذا الذنب، وقد وضَّحت آيات كثيرة المعنى الذى أجملته هذه الجملة؛ من ذلك قوله تعالى فى سورة الجاثية: ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٨، ٢٩]، وهذا إنباء لا يحوم حوله شك لأنه كتابهم ينطق عليهم بالحق، وسوف توضح سورة الزمر الكثير من هذا المشهد فى آخرها فى قوله تعالى: ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (٧٠) ﴾ [الزمر: ٦٩، ٧٠]، ويقول لهم خزنه النار حين تفتح لهم أبوابها ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ ﴾ [الزمر: ٧١] وفى سورة فصلت ﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [فصلت: ٢٠] نُطْقُ كتابهم إنباءٌ وشهادة سمعهم وأبصارهم وجلودهم إنباءٌ، وكل هذا تأكيد لمجازاتهم بما كانوا يعملون وحين أراجع هذا العدل من الذى خلق وأنعم، وأنه سبحانه لايوقع عقوبة على الذى كفر به، وكفر بنعمه، إلا بعد هذه البينات، وأقارن ما نحن فيه من تعذيب وقهر، وقمع بلا ذنب، أو بتهم ملفقة أشعر كأن الحق ذكر لنا هذا لنرفض الذى نحن فيه؛ ولا نسالم الظلم والعسف، ولا نعايشه، فضلا عن أن نكتب له شعرا ندعو فيه الحق جل وعلا بطول عمر ولى الأمر، وإخوانه وأعوانه، وليس أبشع فى حياة الناس من الظلم إلا الرضى بالظلم، وليس أبشع من القمع إلا قبول القمع، وليس أحْقر من الظالم إلا الذى يدعو للظالم بطول العمر.

قوله سبحانه: ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ هذه الجملة تأكيد للجملة قبلها وأنه سبحانه﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ إنباء العليم بخفايا النفوس وهى جملة مستأنفة للبيان، والتوكيد، مفصولة عن التى قبلها لأنها ليست غيرها، ومؤكدة بإنَّ. والاستئناف وحده أمر لافت والتأكيد بإن يزيد اللفت إلى مضمون الجملة، ومضمون الجملة وصف للمُنْبِئِ جل وتقدَّس

والوصف راجع إلى معنى الفعــلَ الذى هو فاعله وهو الإنباء ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤] وتأمل بناء الجـملة بعد الاستئناف والتـوكيد تجد صـيغة المبالـغة ﴿عَلِيمٌ﴾ وكلمة ﴿ذَاتَ﴾ وهذه مـهمـة جدا لأن «الذات» مـؤنث ﴿ذُو﴾ وذو بمعنى صاحب كـما تقول فـلان ذو مال أى صاحب مـال وفلانه ذات مال، وذات الصدور تعنى صاحبات الصدور وهى وصف للأعمال أعنى جذر الأعمال الذى يترتب عليـه المؤاخذة، والمجازاة، والمكافأة، لأن الذى فى الصدر لـيس هو العمل، وإنما النيـة التى انعقـد عليهـا العزم، لأن الأعـمال بالنيات؛ والنيـات ما انعقدت عليهـا الصدور، وهذا تعبيـر بليغ ونافذ ولكن طول الإلف رَانَ على الآذان فلم تعد تفاتش معناه.

قلت إن ذات الصدور هى النوايا التى انعقدت عليهـا الصدور وهذا التعبير فيه رحمة من الله سبحانه بعـباده لأنه يؤاخذهم على ما انعقدت عليه نواياهم وليس على ما هجس فى صدورهم وخـواطرهم، والإثم ما حاك فى الصدر، وزاد فضل الله على الناس فأسقط عنهم الهَمَّ بالسيئة التى لم يفعلوها، وكتب لَهُم الهَمَّ بالحسنة التى لم يفعلوها، ولا يهلك على الله إلا هالك.

وراجع الآية من أول قوله سـبحانه ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ تجد هذه الجـملة مـزروعـة فى كل الكلـمات الـتى فى الآية، فـالكفـر فى ذات الصدور؛ والشكر فى ذات الصدور؛ والوزر فى ذات الصدور، الكلمات كلها من عائلة ﴿ذَاتِ الصُّدُورِ﴾ وهذا من أرفع صور مناسبة الفاصلة للآية قبلها.

وهذه الجملة التى هى فاصلة هذه الآية هى فاصلة الفصل كله الذى بدأ من أول السورة لأن الذى سيأتى بعد ذلك كلام له منزع آخر ليس بعيدا عن منزع هذا الفصل وليس هو، لأن الفصل الأول بدأ بإيجاز وجـوب إخلاص العبادة لله رب العـالمين، واقتضى هذا ذكـر المقابل وهم الذين اتخـذوا من دون الله أوليـاء، ثم انجر الحـديث من الذين اتخـذوا من دونه أولياء إلى الذين قـالوا اتخذا الرحمن ولدا، ثم امتد الكلام لإبطال هذا القـول الفاسد، وأنه سبحانه

هو الله الواحد القهار؛ ثم فُصِّلَتْ هذه الجملة، وذكرت الآيات خلق السموات والأرض؛ وتكوير الليل على النهار، وتسخير الشمس والقمر؛ وخلق الناس من نفس واحدة، إلى قوله تعالى ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ ثم عُقِّب على ذلك بآية ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾، وهذه الجملة فاصلة هذا الفصل كله لأن إخلاص العبادة من بنات ذات الصدور؛ واتخاذ الولد من بنات ذات الصدور؛ إلى آخره، وإذا كانت آية إن تكفروا تعقيبا على ما مضى وجملة إنه عليم بذات الصدور هى فاصلة الآية المُعَقِّبة كانت هذه الجملة فاصلة للآية وما عقبت عليه الآية والله أعلم.

وتقسيم السورة إلى فصول تقسيم فيه كثير من المسامحة أو هو تقسيم مبنى على المسامحة لأن هذه الفصول متداخلة وإنما أردت فقط أن ألتمس فرقا بين مجموع آيات تتكلم فى موضوع؛ ومجموع آيات تتكلم فى موضوع هو من الأول بسبيل متين، وإن كان غيره؛ والفصل الذى أبدأ فيه الآن مكون من آيتين: آية تتكلم عن الإنسان، وأنه يسكن فيه اليقين فى الله، وأنه لا يكشف الضر إلا هو سبحانه، وأنه إذا مسه الضر استخرج هذا المسُّ منه هذا اليقين، فإذا كشف الله الضر عنه وأعطاه نعمةً من عنده ذهب هذا الضر وذهب معه هذا اليقين فى الله واستخرجت منه النعمة خسيسة الفَرْعَنَة فساء أدبه مع الذى كان يدعوه بالأمس وجعل له أندادا.

والآية الثانية تتكلم عن الإنسان السوىّ الذى عرف ربه وعرف حق ربه عليه فأسهر له قانتًا وساجدًا وقائما، ثم انتهت الآية بعقد مقارنة سريعة بين النموذجين: الذين يعلمون والذين لا يعلمون وأنه لا يتذكر إلا أولو الألباب.

وبهذا ينتهى هذا الفصل الثانى ويبدأ فصل نداء الحق لعباده.

قوله سبحانه ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ هذه الآية الكريمة ترى فى بنائها

موضعا يشبه أن يكون مَفْصِلا ظاهرا وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً﴾ وما بعده، لأن هذا تعقيب على وصف سَبَق، وهذا الوصف الذى سبق بيَّنته جملتان الثانية فيهما معطوفة على الأولى، وهى وجه ثان لمعنى الأولى، ويبدأ هذا الوجه الثانى عند قوله ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾.

والآيات يحدثنا فيها ربنا بطريق الغيبة وليس بطريق التكلم وقد بدأ هذا الطريق من أول السورة، ولم يتكلم فيها الحق جل وتقدس بطريق التكلم إلا فى آية واحدة هى قوله سبحانه ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [الزمر: ٢] ثم انتقل فى بقية الآية إلى طريق الغائب فقال عز من قائل ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾، وقد انتقل إلى التكلم من الغيبة فى قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝١ إِنَّا أَنزَلْنَا﴾ وهذا يعنى أن آية ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ هى التى حدث فيها الالتفات ولها فى سياق الكلام شأن أى شأن وظل الطريق طريق الغيبة إلى قوله سبحانه ﴿لَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الزمر: ٢٧]، ثم انتقل إلى الغيبة فى قوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ [الزمر: ٢٩] وهذا باب.

والذى أريده الآن هو جملة الشرط وما عطف عليها فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ وكلمة «إذا» تفيد فى كلامنا أن الشرط بعدها متوقع، وتأتى فى مجىء الحسنة أكثر من إتيانها فى جانب السيئة والضر، وهى بخلاف «إن» التى هى أختها للشرط فى المستقبل وإن كانت «إن» تكون فى الشرط النادر كما مضى فى قوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ لأن الكفر بعد بيان الأدلة الساطعة، والآيات النيِّرة، الشأن أن يكون غير متوقع؛ وجاءت بعدها فى قوله تعالى: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ للإشارة إلى أن شكر الله بعيد المنال ليس فقط من قلة الشاكرين وإنما أيضا من جهة تحصيل الإخلاص والخلوص والصدق فيه.

وقد قوبلت هذه الآية هناك التى جاءت فيها الأداة «إن» فى الجملتين اللتين عطفت ثانيتهما على الأولى بالأداة (إذا) التى جاءت فى الجملتين عطفت أيضا ثانيتهما على الأولى، وهذا من التصاقب فى الحذو.

والذى سوّغ مجىء «إذا» فى قوله سبحانه ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ﴾ هو استعمال كلمة المس الذى هو أدنى قدر من الإصابة ثم تنكير كلمة ﴿ضُرٌّ﴾ الذى يعنى ضرا أى ضُرٍّ ثم ذكر الإنسان الذى هذا وصفه وأنه جدير بأن يكون مسّ الضر له أمرا متوقعا، وهذا كلام الكملة رضوان الله عليهم وهو كلام جيد. هذه الجملة لها نظائر كثيرة فى الكتاب العزيز منها قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢] وفيه دلالة واضحة على أن الحق جل وتقدس لا تخلو من معرفته نفس برأها سبحانه وإن غشَّاها مَا غشَّى وأن الضراء التى لا يستطاع دفعها كأنها حفَّار يَحْفُر فى قاع النفس ليخرج ما طُوِيَتْ عليه فطرتها يوم برأها ربها وأسكن الإيمان فى فطرتها، كما أسكن الإيمان فى كل ما برأ وسبَّح كل شىء بحمده سبحانه، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨] ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [الصف: ١] ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤] ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ [الرعد: ١٣] ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾ [النور: ٤١] ومثل هذا كثير جدا فى الكتاب العزيز ويؤكد أن كل ما مسَّته يد الله يسبح بحمده وليس فى الكون شىء يوجد بغير يد الله، وراجع جملة الجواب فى الشرط الأول ﴿دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ تجد فيها شيئين مهمين الأول قوله ﴿رَبَّهُ﴾ يعنى أنه دعا المنعم الذى رباه وحفظه،

وصانه؛ وإيثار كلمة (رب) مع الإضافة إلى ضمير الإنسان، يدل على أن ربه وكالئه وراعيه، ساكن فى ضميره وعلى مقربة منه أبدا والثانى كلمة ﴿مُنِيباً إِلَيْهِ﴾ والإنابة إلى الله تعنى الرجوع إليه رجوع المنيبين إليه سبحانه وهو رجوع فيه من الصدق والإخلاص وفرط القرب ما فيه؛ وهذا يعنى أن مَسّ الضر لهذا الإنسان ارتفع به إلى لحظة عالية لو أنها دامت لكان من المنيبين الذين اتقوه، ومن المنيبين الذين وعد الله بهدايتهم، ويهدى إليه من أناب، ولكن هذه اللحظة التى كانت بمثابة فرصة ينتهزها المبرأ من الخبث كانت مرتبطة بمس الضراء، وما إن امتدت له يد المنعم بالنعمة حتى ساء أدبه مع ربه.

قوله سبحانه ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ﴾.

هذا الشرط الثانى يصف الحالة المقابلة؛ وقد كان الشرطان السابقان فى قوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾، ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ يصفان أيضا حالتين متقابلتين وهذا من تشارب حذو بناء السورة.

وكلمة «ثم» التى ابتدأت بها هذه الجملة تشير إلى أن ما بعدها ما كان ينبغى أن يترتب على ما قبلها؛ لأن الذى قبلها إنابة إلى ربه؛ وما بعدها جعله لله أندادا ليضل عن سبيله، والبعد الذى بينهما كالبعد الذى بين السماء السابعة والأرض السابعة، وكلمة «إذا» مع هذا الشرط واقعة على أصل استعمالها لأن تخويل الله لعباده بالنعم أمر متوقع مع صرف النظر عن عقائدهم، لأنه سبحانه ينعم على من خلق، والخلق شركاء فى العبودية، وهذا هو أصل نعيمهم فى الدنيا، وكلمة ﴿خَوَّلَهُ﴾ نفسرها بأعطاه، أو أنعم عليه نعمة منه، وفيها معنى زائد هو أنه سبحانه أعطاه عطاء وَفْراً حتى صار خَالَ نِعْمَةٍ كما يقال خالُ مَال له مال يرعاه، وله نعمة يرعاها، ومنه ما روى عن رسول الله ﷺ أنه كان يتخوّل أصحابه بالموعظة؛ أى يتعهدهم بها، قاله

الزمخشرى، وقـال أيضا يمكن أن يكون من خال يخول إذا اختـال، وافتخر، والمعنى أنه أعطاه الكثيـر لأن المرء لا يختـال ولا يفتـخـر بالقليل من المال، والكلمة فيها عطاء وفر من الله بعد مس الضر؛ وقد قابلت الآية الضر بالنعمة ولم تقابل الضراء بالسـراء لأن النعمة أوسع فى الدلالة لأن فيـها معنى التنعم بالعطيَّة، وأنها عطية تجعل صاحبـها فى نعيم بعد ضراء، وكل هذا تدقيق فى بيان الذى يجب أن يكون وهو الشكر والانقياد، والإخبات، ودوام الإنابة لله رب العالمين؛ وتجد هذا أيضـا فى ذكر الجار والمجرور ﴿مِّنْهُ﴾ لأنه لو قال ثم إذا خوله نعمة نسى ما كان يدعو إليه لفهم المعنى لأن فاعل خوّله ضمير يعود إلى ربه، وإنما قـال منه ليلفت إلى أن الذى جـعل له أندادا، أساء إسـاءتين. الإساءة الأولـى أنه نسى ما كـان يدعو إليـه، وليس المراد بالنسيـان النسـيان الحقيقى لأن النسيـان الحقيقى يرفع المؤاخذة، ولو نسى نسيانًا حـقيقيا لم يكن قد أذْنب وإنما المراد أنه تـعامل مع النعمـة التى هى رفع مس الضراء مـعاملة الناسى يعنى أهملها، و«ما» التى فى قوله سبحانه ﴿مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ﴾ هى ما الموصولة والمراد بها يصح أن يكون رفعَ مسّ الضر الذى دعا ربه منيبا إليه فى شأنه، ويصح أن يراد بها من رفع إليـه دعاءه، وهو الحق جل وتقدّس وتكون بمعنى مَنْ وليس ذلك بعزيز فى الكتـاب ومنه قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ [الليل: ١- ٣] والذى خلق الذكر والأنثى هو الله سبحـانه وعبّر عنه بما التى بمعنى من، والمراد والله أعلم اللفت إلى الصفة أعنى صفات الحق سـبحانه وليس اللفت إلى الذات. وقوله سبحانه ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ﴾ هى الكبيرة الأكبر التى سقط فيها وهى جملة مـعطوفة على جملة الجـزاء، وغير مُـرتّبة عليهـا؛ لأنها تصلح أن تكون هى الجزاء، ويكون المعنى حتى إذا خوله نعـمة منه جعل لله أندادا ليضل عن سبيله فـليست من باب إذا جاء فلان سلمت عليـه وخرجت، لأن الخروج ليس مرتبـا على المجىء وإنما هو مرتب على السـلام، وقد مـضى مثله، وهذا العطف أكسب المعطوف عليـه معنى ما كان ليكون فـيه لولا هذا العطف وذلك

لأنه جعل النسيــان ليس تَرْكًا وإهمالا لدعائه ربه وإنابته إليــه أو لدعائه ربه حال كونه وهو فى هذا الدعاء منيــبا وراجعا ومخــبتا إليه؛ وإنما جعل النسيــان نقضا لهذا الدعاء، وهذه الإنابة، لم يـعد ناظرا إلى ربه من جهة قدرته ســبحانه على رفع الضر، فى حال إنابة عبده إليــه، وإنما هدم هذه الحالة التى هى حالة توحيد ودعاء وعبــادة، وضراعة، وتهيأ بهــذا النسيان الذى هو هدم للاعتــقاد فى حال الدعاء والإنابة إلى الشرك، وأن يجعل للــه أندادا مع أنه منذ لحظة كان موحدا، ولهذا فــهم العلماء من هاتين الجـملتين الشرطيتين المتــعاطفــتين حالة اضطرابه، واختلاله، وتناقضه، وكلمة (أندادا) هنا واقعــة موقعا حسنا جدا لأن الذى خوَّل النعمــة هو الواحد الأحــد ولأنها فى محــيط السيــاق الأوسع الذى يدور حول إخلاص العبادة لله وحده. والأنداد ضد هذا الأصل كما أن الأنداد تتناسق بها الآية مع أول الحديث عــن النمط المقابل للذين أخلصــوا دينهم لله وهم الذين اتخذوا من دونه أوليــاء ما يعبدونهم إلا ليــقربوهم إلى الله زلفى، ثم إن هذا الذى نُكس على رأســه لم يكتف بهــذا النُّكس وإنما زاد علــى ضلاله إضــلال الناس عن سبيل الله الذى كــان منذ قليل يدعوه منيبا إليــه؛ وهذا ما دل عليه الجار والمجرور ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ﴾ الذى أضاف إلى معنى شــركه معنى آخر صار به أوغــل فى الضلال لأنه صــار به مُضلا أيــضا ولذلك جاء عــقب هذا الخذلان وهذا التغيُّــر والانقلاب إلى الضد جملة فيهــا من الغضب ما لا يقادر قدره، وهى قوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ وكلمة «قل» فى الكتــاب العزيز يكون وراءها إشــارة فى مثل هذا المقــام إلى انصراف الحق عن مخاطبــتهم وإلى أن الحق سبحانه يخليهم لأنفــسهم ويخذلهم وتزيد الآية هنا أنه ســبحانه يأمــرهم بما يوجب مزيد غــضبه، ومــزيد انتقــامه؛ وأن دعوتهم إلى الخير لم تعد نافعة، لأنهم عرفوا الله، وأنابوا إليه، ومدوا أيديهم إليه؛ فــأكرمهم؛ كرامــتين: كرامة هى رفع الضر عنهم؛ وكــرامة أوسع وأنجع وهى تخويلهم من العطاء والنعم مــا يكفيهم ويزيد، وما يقومــون برعايته ثم

كان الجزاء أنهم جعلوا له سبحانه أندادا، ومثل هؤلاء لا يؤمرون بما يفتح لهم باب الرحمة وإنما يؤمرون بما يفتح عليهم باب الجحيم، ولا أجد فى الغضب غضبا يزيد على ما فى هذه الآية، ومثلها فى منزع المعنى وإن كانت دونها فى الدلالة على الغضب قوله تعالى فى سورة الإسراء: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً﴾ [الإسراء: ٥٦] انصرف الحق عنهم ولم يخاطبهم وأمر المصطفى عليه السلام أن يبلغهم رسالة ربهم إليهم، والرسالة هنا أمر بفعل ما يوجب الغضب يعنى أمر بما كان ينهاهم عنه، لأنه سبحانه دعاهم إلى الإيمان، وإلى أن يقولوا التى هى أحسن، ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣] وبين لهم الدليل الساطع، وهم ينكرون البعث، ويقولون من يعيدنا فيجيبهم ربهم إجابة لا تلتبس على أحد وهى قوله تعالى: ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥١]، ثم يصرون على الشرك، والإنكار، فيقول ربهم ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ﴾ وهؤلاء دعوا الله وكشف الضر عنهم، فلم يقل لهم ربهم هنا كما قال للذين فى الإسراء وإنما قال ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً﴾ وهذا شىء آخر، ومزيد الغضب فيه هو أن المأمور بهذا الأمر البالغ فى الدلالة على الوعيد أصبح المطلوب منه أن يكثر من الذنب الموجب لمزيد من العذاب، وأن الحق الذى يوقع به العذاب يطالبه بأن يزيد من أسوأ الأعمال، حتى يزيده بأسوأ العذاب، وهذا هو الذى جعلنى أقول إننى لا أذكر جملة دالة على غضب أكثر من الغضب الذى فى هذه الجملة وكلمة ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ﴾ وإن كان معناها تمتع بما يبيحه لك كفرك من اتباع الشهوات والغرائز من فساد وظلم وبغى وفجور، إلا أن العبارة فيها إشارة إلى أنك عاشق لكفرك ومحبّ له ومتمتع به كما يتمتع الإنسان بما يحب؛ وأن هذه الخسيسة التى هى التمتع بالكفر؛ الذى هو ستر للحق؛ وستر للصواب؛ ودفن لكل ما تقتضيه الفطرة؛

صار عندك لفساد طبعك متاعا حتى إنه أغراك بأن تجعل أندادا اللذى مددت يدك إليه، وأَنَبْتَ له وطلبت منه كشف الضر، فأجابك وكشف الضر وزادك وخوّلك نعمة؛ ولا يكون هذا منك إلا إذا كان لك حُب وولع وصحبة وتمتع بكفر النعم، وكفر المنعم، وكفر كل ما لا يجوز لذى طبع سليم أن يكفر به.

وكثير من الآيات التى تذكر الأنداد تشير إلى رفع الضر وكشفه؛ وأن هذه الطواغيت التى تدعونها لا تملك من ذلك شيئًا؛ ولا تملك من غيره؛ ولا تنفع ولا تضر، وليس لها شرك فى الأرض ولا فى السماء، وكان رفع الضر هو الأظهر فى أمثال هذا السياق؛ لأن الإنسان لا يخلو من مواجهة مسّ الضر فى صحته أو فى ولده، أو فى ماله، فكان خطابه من هذا الجانب خطابا يوشك أن يلفته إلى الصواب، لأنه بطبعه يرفع يديه إلى الله ويوجه وجهه إليه، ويدير ظهره إلى الطواغيت إذا مسّته البأساء، فإذا رفع الله عنه البأساء اتجه إلى الطواغيت مرة ثانية، وفى الإسراء بعد آية ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ جاء ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُورًا (٦٧) أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً (٦٨) أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ [الإسراء: ٦٧- ٦٩].

والحق جل وتقدس فى هذه الآيات يقترب من عباده بقدرته ورحمته وأنكم مُعَرَّضون لمسّ الضر فى البر، والبحر، وأنه لا يكشف الضر عنكم إلا الله، فأقبلوا عليه، واتركوا ما أنتم فيه، وكونوا مع الله، ليكون الله معكم، وهكذا تجد فى آيات الغضب لوامع من الرحمة، وأطيافا من الرضى، وكلمة ﴿قَلِيلاً﴾ فى قوله سبحانه ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً﴾ تشير إلى أنه مهما طال بك العمر فى هذه الأرض وفى الباطل الذى أنت فيه؛ فإن تمتعك هذا حين يأتيك الموت سيكون أقل من القليل، وكأنك لم تلبث إلا ساعة من نهار، وهذا

المعنى يهيئ لقوله بعد ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ لأن هذه الجملة لا تدل فقط على عذابه فى النار وإنما تدل على طول مكثه وطول صحبته وأنها صحبة تطول أبدا؛ كما أن أصحاب الجنة فى صحبة ممتدة أبدا؛ وجملة ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ جملة مستأنفة ومؤكدة وانتقل الكلام فيها وفى الجملة التى هى علة لها، وهى قوله: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً﴾ من الغيبة التى فى قوله﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ﴾ إلى الخطاب وقد انتقل الكلام هنا لبيان مزيد الغضب وليواجه بهذا الوعيد وليمتلئ سمعه بكلمة ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾هذا والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

هذه هى الصورة المقابلة للإنسان المراوغ؛ المتناقض، المختلط، الذى مضى ذكره؛ وتقلبه؛ واقترابه الشديد من ربه إذا مسته الضراء؛ ثم المعاندة الفاجرة والباغية بجعل الأنداد وإضلال خلق الله عن الله.

الصورة هنا مختلفة؛ لأنها صورة إنسان سوى عرف الله وآمن به، وآمن بالبعث والحساب والجنة، والنار، فقام ليله قانتا لله، يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، وهذه الآية تأتى بعد الآية السابقة والصورة السابقة المثيرة والمستفزة، والتى تصور النمط الردىء الذى يعكر الطبع، ويكدر النفس، وهنا صورة طيبة، رضيَّة، صافية، صادقة، وقد بلغت الآية ذروة البيان فى توضيح الصورتين ووضع كل واحدة بإزاء الأخرى، وهذا الطريق فى وضع المتقابلات من أظهر طرق البلاغة فى الكتاب العزيز، وقد قابلت الإسراء صورة دعاء الذين لا يملكون كشف الضر بصورة الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة يرجون رحمته ويخافون عذابه.

وكلمة ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ﴾ هى أم التى بمعنى بل والهمزة، دخلت على من الموصولة والإضراب الذى فى أم إضراب انتقالى، من صورة إلى صورة مقابلة، والاستفهام فيها معناه الإنكار، وقرئ أمن بالتخفيف، والهمزة فيه للاستفهام الإنكارى، دخلت على من الموصولة، وليس هذا إضرابا، وصلة الموصول (هو قانت) وهى جملة إسمية دالة على الثبوت والدوام، والقنوت العبادة أو طول الوقوف فى الصلاة، قال الزمخشرى: «القانت القائم بما يجب عليه من الطاعة؛ ومنه قوله عليه السلام «أفضل الصلاة طول القنوت» وهو القيام فيها ومنه القنوت فى الوتر، لأنه دعاء المصلى قائما» انتهى كلام الزمخشرى.

وروى عن ابن عمر رضى الله عنه أنه قال: لا أعلم القنوت إلا قراءة القرآن وطول القيام وتلا ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ﴾ وعن ابن عباس القنوت طاعة الله لقوله ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ أى مطيعون [الروم: ٢٦] ذكر ذلك الرازى رحمه الله، وهذا يرجع بعضه إلى بعض؛ لأن القائم بما يجب عليه يعنى القائم على الطاعة والعبادة الواجبة عليه؛ ودعاء المصلى قائما، هو الطاعة التى ذكرها ابن عباس، وقراءة القرآن وطول القيام الذى ذكره ابن عمر، هو ما جاء فى الحديث. وآناء الليل ساعاته، أوله ووسطه وآخره، وآناء جمع أنًى كأمعاء جمع مَعًى ويقال فى المفرد إنًى كما يقال مِعًى؛ وقيام آناء الليل لا يعنى قيام كل الليل وإنما يعنى قيام آناء منه وكان عليه السلام يقوم الليل وينام، «وساجدا وقائما» حال من «قانت» وهذان الحالان يصفان صورة القانت الحسِّية وبعدها حالان يصوران حالته الروحية، ﴿يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ وتأمل صورة هذا التقىّ النقىّ القائم الساجد الملازم للعبادة والقانت المطيع المنقاد وتأمل حالة قلبه وهو بين الخوف والرجاء، وكلمة ﴿يَحْذَرُ﴾ تشير إلى توقع الأمر المخوف لأن المرء لا يسلم من المعصية هو يحذر عقاب الذنب ويطمع فى رحمة ربه، وراجع دلالة المضارع فى قوله يحذر ويرجو، وكيف قابل الإخبار بالاسم فى قوله ﴿سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾

وأن دلالة الاسم فى الحالتين الأولين هى الثبوت والدوام يعنى طول السجود وطول القيام ودلالة المضارع فى الحالتين الأخيرين هى التجدد والحدوث فالحذر معنى يتجدد فى القلب والرجاء معنى يتجدد فى القلب ثم إن المضارع يحضر الصورة وكأن الآية تقول ها هو انظر إليه ترى الحذر والخوف المتجددين بادين عليه وكأنك ترى الحذر والخوف مقترنا برؤيتك له لأنه لا يرى إلا حذرا خائفا راجيا طامعا. وهذا نمط رفيع جدا، وقلت ما يناله اللسان وعليك أنت أن تعاود التأمل فى صورة هذا الولى الصالح وأن تضعه بإزاء هذا المراوغ الكذاب لترى عينك رجلا من أهل الجنة ورجلا من أصحاب النار.

والمكونات الأساسية لصورة ولى الله الصالح تجدها فى الإسراء﴿ **يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ** ﴾ [الإسراء: ٥٧] ضع قوله سبحانه ﴿ **يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ** ﴾ بإزاء ﴿ **وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ** ﴾ تجد تقاربا شديدا وتباعدا شديدا أيضا وهذا من أسرار هذا البيان، لأن حذر الآخرة وإن كان قريبا من خوف العذاب إلا أن بونا بعيداً بين الحذر والخوف، لأن الحذر فيه معنى التوقى؛ والعمل الذى يبعد صاحبه عن توقع العذاب، والخوف ليس فيه هذا وإنما فيه الوجل الذى يعترى قلوب الذاكرين، ويرجو رحمة ربه فى الزمر هى يرجون رحمته فى الإسراء، وقد تغير الموقع فقدم الرجاء على الخوف فى الإسراء، وقدم الحذر على الرجاء فى الزمر، ولا أعرف سر الترتيب فى الإسراء، وربما كان تقديم الحذر فى الزمر ناظرا إلى قوله سبحانه قبل الآية ﴿ **تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ** ﴾ وهذه آية تبعث الخوف وتوجب الحذر؛ ولك أن تقول فى سر الترتيب فى الإسراء إنه ناظر إلى السياق الأقرب: أعنى قوله سبحانه ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ** ﴾ قد هيأ لتقدم يرجون رحمته لأن ابتغاء الوسيلة من رجاء الرحمة.

والموصول فى قوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ مبتدأ وهو مكون من خبر الصلة ﴿قَانِتٌ﴾ وظرف هذا الخبر ﴿آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ وحال هذا الخبر ﴿سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ وحال من حال هذا الخبر ﴿يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ لأن هذين الحالين حالان من «ساجدًا وقائمًا» يعنى ساجدًا وقائمًا حالة كونه فى سجوده وقيامه يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، وخبر هذا المبتدأ محذوف والتقدير كمن ليس كذلك؛ أو كالذى إذا مسه ضر دعا ربه منيبًا إليه إلى آخره، وإنما حذف لدلالة الكلام عليه، ولأن الحذف فيه معنى الطرح والإسقاط وهذا الخبر يستحق أن يطرح وأن يسقط وأن هذا النموذج المراوغ الفاسد لايستحق أن يوضع فى المقارنة بإزاء هذا النموذج الصادق التقى النقى، وليس لعارف بالله مطلب أرفع من أن يكون بسبيل من هذا القانت الساجد القائم بحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، وإنما يتمنى أن يكون بسبيل منه إذا لم يمكنه أن يكون منه.

قوله سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ هاتان جملتان الجملة الأولى تعقيب على الكلام قبلها؛ والجملة الثانية فاصلة الفصل الذى بدأ بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا﴾ ثم هى تعقيب على جملة ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ لأنها جملة تسأل سؤالا تدرك بديهة العقل جوابه؛ ويدركه ويتذكره كل من له عقل ولب يرجع إليه، ومحض معناها التعريض كما سنبين لأن جواب السؤال لا يتوقف فيه عالم ولا جاهل، ولأن مضمونها وهو أن التذكر لا يكون إلا من أولى الألباب مضمون لا يحتاج أحد إلى معرفته لأنه من المعلوم من العقل بالضرورة، وأمثال هذه الجمل التى اتفق الناس على العلم بمدلولاتها، لابد أن يكون لها دلالات أخرى غير هذه الدلالات الظاهرة، وإدراك هذه الدلالات الأخرى يحتاج إلى مراجعة وفضل نظر،

وأبدأ بالقـول بأن مـوقع جـملة ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ موقع سـديد جداً وأنا أكرر هذه الكـلمة لأنى أرى تناسقـا عجيـبا وترتيبـا عجيبـا وتوالدا وتناسلا عجيـبا بين المعانى؛ وليس بيـانى بمحيط به، والذى هنا هو أنها جاءت بعد عرض نموذجين متـباينين أشد التباين، والفرق بينهمـا أظهر من الفـرق بين الليل الأسود، والنهـار المضىء، أحدهمـا يُمثِّل الظلمة الغبـيَّة الداكنة، لأنه يعرف الله ويمد إليه اليدين نائبًـا فى الشّدَّة؛ فإذا أعطاه الله عطاء يوجب أن يقتـرب هذا البائس من ربه تراه معـرضًا عن ربه إعراضًا يصل فـيه إلى نهاية شوط المحادّة لدين اللـه، لأنه ليس بعد الضلال إلا الإضلال وليس بعدد الكفر إلا الدعوة للكفر، وليس بعد الظلم إلا الدعوة إلى الظلم، فهـذا لم يكن كافراً ضـالا فحسب، وإنما كان رسـول الشيطان؛ داعية إلى الكفـر والضلال؛ ونموذج آخر لو وضعته فى ناحـية والدنيا بكل ما فيـها فى ناحية، وسـألت عارفًا بالله أى الجـهتين تحب أن تكون؟ يعنى لو وضعنا الدنيـا فى يمينك وفتحنا لك باب الله حتـى تكون قانتا ساجـدا وقائما تحذر الآخرة وترجـو رحمة ربك، وخيرناك بين الدنـيا كلها، وبين أن تكون هذا الصالح؛ لما تردد عـارف بالله فى أن يختـار أن يكون هذا الصالح، لأنه هو الإنسان الذى تتجلى فـيه الروح الإنسانية، بكل صدقهـا، وكل أمانتها، وكل مكارمها، وليس أفضل عند الإنسان من أن يكون إنسانًا.

ثم تأتى هذه الجـملة لا لتسأل هل يسـتويان مـثلا؟ وإنما لتنحـرف بالسؤال انحرافة تفيد معنى جـديداً وهو هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون. والذى معنا ليـس عالما وجاهلا، وإنما الذى مـعناه ضال وعـابد، والسؤال عن هذين بالذى يعلم والذى لا يعلم فيه أن الضال لا يعمل، وإن كان يعلم، وأن العالـم هو الذى يعمل، الضـال المذكور يعلم أن الله وحـده هو الذى يكشف مس الضر بدليل أنه دعاه منيبا إليه، ولكنه لما لم يعمل بما يعلم صار لا يعلم، والقانت العابد لم تعـبر عنه الجملة بعبادته وقنوتـه وإنما عبرت عنه بأنه يعلم،

وهذا يعنى أن علما من غير عمل جهل وأن العلم عمل وقد فطن الزمخشرى إلى هذا المعنى وعمَّمَهُ وذكر العلماء غير العاملين، وأن توقف عملهم إلغاء لعلمهم، وهذا ما أردته حين قلت إن الجمل التى تفيد معان يعلمها كل من له عقل يكون وراءها شىء آخر، لأن جملة هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ليس المقصود ظاهرها لأنه لا خلاف فيه، وإنما المقصود الربط الأكيد بين العلم والعمل وأنهما يمثلان حقيقة واحدة، فإذا غاب العمل انتقض العلم، والطرفان وإن كانا فى الظاهر ضال ومهتدى هما فى الحقيقة عالم لم يعمل وعالم عمل.

وهذه الجملة أخت جملة ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ﴾ من جهة أن كل واحدة بدأت بأمره ﷺ أن يبلغنا هاتين الحقيقتين والذى بعد كلمة (قل) فى الجملة الأولى هو نهاية الغضب؛ والذى بعدها فى الجملة الثانية هو نهاية الإنكار والتعجب. وشىء آخر فى هذه الجملة هو أن فعل ﴿يَعْلَمُونَ﴾ فعل مُتَعَدٍّ ونُزِّل هنا منزلة اللازم لأنه ليس المقصود معلوما معينا؛ وإنما المقصود أن يكون أهلا لأن يعلم، أىَّ شىء يُعْلم، وهذه إشارة جيدة إلى أن النمط المظلم الذى قال له ربنا تمتع بكفرك فاقد لأهلية أن يعلم، ما دام قد أدار ظهره لما يعلم، وأن من له أهلية أن يعلم علم المعبود الحق، لأن معرفة الله ليست فى حاجة إلى تنطس، وتفلسف وإنما هى الفطرة، ومناط التكليف فيها هو العقل وحده، وهو كاف، وهذا هو سر روعة، وجلال هذا الدين، وأنه قريب جداً من الفطرة الإنسانية، وأنها وحدها هادية إليه، ثم فى تنزيل المتعدى هنا منزلة اللازم معنى آخر هو أن المطلوب أن تَعْلَمَ مع صرف النظر عن المعلوم ما هو؟ اعلم علم الدين أو علم الرياضة أو علم الأفلاك أو علم الأراضين، وهذا يشبه كلمة اقرأ فى أول ما نزل لأنها لم تحدِّد المقروء وإنما قالت اقرأ ما يقرأ، وإن كان سبب نزولها يعنى اقرأ ما تَسْمعه مما أنزله الله عليك، ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ قلت إن هذه الجملة التى لا يختلف فى معناها اثنان؛ هى بمثابة الإشارة إلى جواب السؤال السابق الذى لا يختلف على جوابه اثنان؛ لأن كل من له لب يعلم أنه لا يستوى الذى يعلم، والذى لا يعلم، وكلمة إنما التى بنيت عليها الجملة تفيد القصر لأنها بمعنى ما وإلا والمعنى ما يتذكر إلا أولوا الألباب، وهذا القصر فى هذه الجملة وفى هذا الموقع يكسب كلمة إنما معنى التعريض، الذى هو أحْسَنُ مواقعها كما قال عبد القاهر رحمه الله، ورده العلماء بعده، وهذا التعريض أتاها من جهة أنها داله على أنه لا يتذكر إلا من له لب، وهنا فريق لم يتذكر، وهم الذين ختم الحق حديثه عنهم بقوله للمبلغ عنه صلوات الله وسلامه عليه ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ هذا الذى ذُكِرَتْ أحواله لم يتذكر؛ والآية تفيد بطريق النظر والمراجعة معنى أنه ليس من أولى الألباب، وهذه الجملة من شواهد عبد القاهر على هذا المعنى، ويبقى أن تراجع تدرجا فى المعنى؛ عرض الحق حالة من جعل لله أندادا بعدما خوَّله سبحانه نعمة منه، وأظهرت الآية أن عقله يقبل إثبات الحقيقة ونفيها، ويعتقدهما معا، ولا يجد فى ذلك غضاضة، فهو يؤمن بالوحدانية، والأنداد، ويتوزع ذلك عنده على وفق أحواله، فهو فى الضراء موحِّد مُنِيبٌ وفى السراء يدعو أندادا ويضل الناس، هذه حالة والحالة الثانية لا يستوى من يعلم ومن لا يعلم يعنى هذا النموذج فى هذه الجملة لا يعلم والحالة الثالثة أنه ليس من ذوى الألباب، والخلاصة حالة اختلال ثم حالة نفى العلم، ثم حالة نفى اللب، وهذه أحطها وأسفلها، لأن المختل عقليا يمكن أن يتنبه والذى لا يعلم يمكن أن يعلم، أما الذى لا لب له فهو البعير وقد عظم البعير بغير لب.

وهذه هى سلسلة الحديث عن إنسان هذا الفصل، وأكثرها يدور على المبطل الذى هو امتداد للذين اتخذوا من دونه سبحانه أولياء.

وقبل أن أطوى صفحة هذا الفصل أُنَبِّه إلى لفتة وَدِدْتُ لَوْ أن لى بها حُمْرُ النِّعم، وهى لفـتة من الرازى طيـب الله ثراه، لحظ رحمـه الله مغـايرة فى جملة ﴿يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ وأن الحق جل وتقدس لم يضف المحذور إليه كمـا أضاف المرجو إليه يعنى لم يقل يحذر عـذاب ربه كما قال يرجو رحمة ربه، ويستخلص من هذا أن الله سـبحانه يشير بهذا إلينا ويقول اجعلوا رجاءكم فى رحمـتى أغلب فى نفوسكم من خوفكم من العذاب، لأن الرحمـة لى، يعنى هى رحمتى ورحـمتى وسعت كـل شىء فَقِفْ على باب الرجـاء وإن ثقل ظهرُك بأوْزارك، لأنك علـى باب رحمـة الرحمن، ورحـيم الدنيا والآخـرة، وكان الشـيخ وهو ينظر فى هذه الآية فى لحظة صـفاء، لأنه قال قبل ذلك إن قوله تعالى﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً﴾ يشير إلى المواظبة على الطاعة؛ وقوله سـبحانه بعد ذلك ﴿يَحْذَرُ الآخِرَةَ﴾ يشير إلى أن المواظبة على الطاعة تَنْقُلُه إلى مقـام الخوف، وقوله جل شأنه ﴿وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ تشيـر إلى أن القانت المواظب على العـبادة ينتـقل من مقـام الخوف إلى مقـام الرجاء، وقوله سبـحانه ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ ينتهى بالعمل والعامل إلى مقام العلم والكشف، وأن الكشف أو المكاشفة كما قال هى النهاية، ومن حقك أيها القارئ أن تقـرأ كلمات صاحب هذه البصيرة التى قلت لك عنهـا إننى وَدِدْتُ لو أن لى بهـا حُـمْـرَ النعم، يعنى وددت لو هديت إلى مثلها ولو فَرغَتْ يَدِى من حُمر النعم، قال رحمه الله: «واعلم أن هذه الآية دالة على أسرار عجيبة، فأولها أنه بدأ فيها بذكر العمل، وختم فيها بذكر العلم، أمـا العمل فكونه قانتا سـاجدا قائما، وأما العـلم فقوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾وهذا يدل على أن كـمال الإنسـان محـصور فى هذين المقـصودين، فالعـمل هو البداية؛ والعلم والمكاشـفة هو النهاية»، انتـهت هذه الفقرة، وراجع كـمال الإنسان وحصـر هذا الكمال فى

العمل والعلم وأن الكشف هو النهاية، والمراد بالكشف الذى أفهمه هو الوصول إلى حقائق العلم، وأصول العلم فى هذا الوجود لأن الوصول إلى حقائق العلم فى الكائنات يورث العالم الخشية كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] وهذا لا يمنع المكاشفة بالمعنى الصوفى الذى هو مرتَبَةُ الإحسان التى تعبد الله فيها وكأنك تراه؛ لأن هذه هى الصوفية الحقَّة وليست صوفية دراويش البيارق.

والفقرة الثانية كتبها الشيخ تحت عنوان الفائدة الثانية وقال فيها: إنه تعالى نبَّه على أن الانتفاع بالعمل إنما يحصل إذا كان الإنسان مواظبًا عليه؛ فإن القنوت عبارة عن كون الرجل قائما بما يجب عليه من الطاعات، وذلك يدل على أن العمل إنما يفيد إذا واظب عليه الإنسان، وقوله ﴿سَاجِداً وَقَائِماً﴾ إشارة إلى أصناف الأعمال، وقوله: ﴿يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ إشارة إلى أن الإنسان عند المواظبة ينكشف له فى الأول مقام القَهْر، وهو قوله ﴿يَحْذَرُ الآخِرَةَ﴾ ثم بعده مقام الرحمة، وهو قوله ﴿وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ثم يحصل أنواع المكاشفات، وهو المراد بقوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ انتهى كلامه رحمه الله.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠) قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٠- ١٥].

يمكن أن نَعُدَّ هذه الآيات فصلا واحدا، واقعا بين فصلين الأول: الحديث عن الإنسان الذى له هذه الخليقة المنحرفة والشاذة، وأن إيمانه

وكـفره لا يرجـعان إلى حـقائق راسـخـة عنده، وإنما إذا أصابتـه البأسـاء والضـراء مـدّ يده إلى الله وأناب، وإذا رفع الـله عنه البـأسـاء جـعل لله أندادا، وقد استتبع هذا الفصل ذكر النموذج المخالف، وهو القانت آناء الليل ساجدا وقائما، والفصـل الآخر الذى بعد هذا الفصل هو حديث الله لنا عن الآخرة ومـا أعده الله للفريقين، هؤلاء لهم ظلـل من النار وهؤلاء لهم غرف من فـوقها غـرف، وهذا الفصـل بينهمـا يقارب الحق فـيه عـباده، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ويحثهم على التقوى، التى تـفضى بهم إلى الإحسان، وأنه لايجوز لمن عرف الـله أن يعلو على قلبه شىء أفـضل من تقواه؛ والإحـسان فى هذه التـقوى؛ لأن الحسـنة القليلة من الله لا يعادلهـا شىء، ولا يجـوز لأحد أن يعتذر عن تقوى الله، والإحسان فى هذه التـقوى؛ بأن البلاد التى يعيش فيها والأقوام الذين يعـيشون معـه، والبيئات التـى هو فيها لا تُمكّنُه من تحـصيل التقوى والإحـسان، لأن أرض الله واسعة، وكل هذا تقـديم للمعنى الأم فى السورة وهو أمره عليه السلام بأن يعـبد الله مخلصا له الدين، وأن يكون أول المسلمين؛ وأنه إن لم يفعـل ذلك يخاف عذاب يوم عظيم، ثم ينتـهى الفصل بأن الرابح من يربح الإخـلاص فى عـبـادة الله، والخـاسر من يخـسـر هذا الإخلاص، وهذه هى نهاية هذا الفصل، وفاتحة باب معنى الفصل الذى يليه.

هذا هو السياق العام لهذه الآيات التى نَعدُّها فـصلا على وجه من المسامحة لأن المعانى السـابقة تجرى فى أوصال الفـصول كلها، وإنما نلتـمس معنى تدور حوله جملة من الجمل يختلف اختلافا ما أو يبرز شيئًا ما يتميز به.

ونقترب قليلا من البيان لنرى أن قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هو امـتداد للذين هم من أولـى الألباب، الذين يتـذكـرون؛ وهم امتـداد للذين يعلمـون، الذين هم امتـداد للقانت آناء الليل سـاجدا وقـائما يحـذر الآخرة ويرجو رحمـة به، وهكذا تجد هذه الآيات امتدادا لهـذا النموذج الكريم الذى بدأ بقوله سـبحانه ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾

والذى يُرتِّبُ الإخــلاص فى عبادة اللــه وحده إخلاصــا لا يكدره شىء، على نزول الكتاب، لأن الكتاب لا يدع شبهة حول إخلاص العبادة لله إلا اقتلعها، وأن الذين خالفوا هذا واتخــذوا من دون الله أولياء ما يعبــدونهم إلا ليقربوهم إلى الله جمــاعة متناقضة، لأن هؤلاء الذيــن تقربوا بهم إلى الله ليس لهم فى صدورهم قيمة، بدليل أنه لما مســتهم البأساء، تجاوزوها ومدوا أيديهم إلى الله وتقربوا هم إلى الله وأنابوا إلى الله ثم ارتدوا بعد مــا كشف الله الضر عنهم، وهؤلاء هم الذين انتــهت الآيات بهم إلى أنهم لا يعلمــون؛ وأنهم ليســوا من أولى الألباب، وهذا أيضا محاولة منى لبيــان حركة المعنى فى السورة ومحاولة للاقتــراب من المعنى المكوِّن لها، وبيــان علاقاته، مــا يتفق منه ومــا يختلف، وكيف يتقابل؟ وكيف يسلك كل نوع منه مسالكه فى نسيج بيان السورة؟

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ افتتحت بكلمة ﴿قُلْ﴾ وقد ذكرت أن الذى يأتى بعد هذه الكلمة من المعــانى التى لها عند الله شأن، والتى يريد الحق جل وتقدس أن تتــهيأ أسمــاعنا إليها، قــبل أن نتلقَّاها، وهذا شىء من دلالة هذه الكلمة التى شاعت فى الكتاب العــزيز شيوعا يوشك أن يكون أبرز ما فيه من خصوصيــات بيانية، ومن أهم ما تدل عليه كلمة ﴿قُلْ﴾ بشيوعها هذا هو أنها تثبت وتؤصل حقيقــة فى عقل وقلب ودين الأمة وهى أن محمدا صلوات الله وسلامه عليه وهو أكرم من خلق الله وبرأ ليس له فى هذا الدين إلا أنه قيل له قل فــقال، ومقول القول فى هذا الدين له قــائل واحد هو الله وحــده، وقــد تكررت هذه الكلمــة الــعظيــمــة فى هذا الفــصل أربع مــرات وسأحــاول أن أتبين شيــئا من دلالتــها فى كل مــوقع، وهى هنا داله على أن مضــمون هذه الآية عند الله بمكان، وهذه كلمــة عامة وتفــاصيلها تفــيد أولا استرعاء مزيد اليقظة للتنبه إلى مناداة الله عباده الذين آمنوا؛ وياء النداء بعدها تنبيــه آخر واسترعــاء آخر للأسماع والامــتداد فى نداء البعــيد يدخل فى هذا الاســترعاء ثم ذكــرهم بقوله ﴿عِبَادِ﴾ وإضافــتهم إلى ضــمير العــظمة جلَّ

وتقدس واتفاق القراء على حذف ياء الإضافة للإشارة إلى أن إضافة الذين آمنوا إلى الله لا تحتاج إلى بيان لأنهم معروفون بعبوديتهم لله لما آمنوا بالله، ثم إنه سبحانه وتعالى جمع لهم فى هذه الجملة تكريمين، تكريم بأنهم عباده، وهذا تكريم لأن من كان عبدا للذى له ما فى السموات وما فى الأرض يسْتَحْيِى أن يكون عبدا لغيره؛ لأن الإخلاص لا معنى له إلا أن تخلص عبوديتك لله رب العالمين، وليس لأحد عندك شيء، ولا ترتفع رأس فوق رأس رفعها اليقين فى الله، ولا يدخل خوف إلى قلب دخله الخوف من الله.

وقوله سبحانه ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بدل من عبادى، وذِكْرُهم بالإيمان فيه من التشريف والتكريم ما فيه؛ وإنما ذكرهم باسم الموصول ليدل على أنهم عُرِفُوا بالإيمان بالله وشهروا به، وراجع الإكرام الذى فى هذا القسم من الجملة قبل تمامها الأول الابتداء بكلمة ﴿قُلْ﴾ ثم النداء بحرف النداء الذى ينادى به البعيد والله سبحانه قريب من كل منادى، وإنما المقصود بيان ما ينادى العبد من أجله واسترعاءُ سمعه ثم وصفهم بأنهم عباده، ثم ذكرهم بالإيمان، والإيمان بالله هو السَّنامُ الأعلى الذى يحرص أهل الله عليه، ويدعونه سبحانه أن يثبتهم عليه، وهو شأو بعيد المنال، لأنه باب إذا دخل منه العبد صار إنسانا آخر، ﴿قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ وكل هذا ليتلقى العبد أمر الله بالتقوى ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾، وهنا سكْته انتهت عندها الجملة؛ التى فيها ما ذكرنا وأفضل مما ذكرنا، ويلاحظ أن هذه الكلمة ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ انتقل فيها الكلام من التكلم فى قوله سبحانه ﴿يَا عِبَادِ﴾ إلى الغيبة فى قوله ﴿رَبَّكُمْ﴾ وهذا الانتقال دال على أن هنا سِراً يجبُ أن يُبحث عنه، وهذا السر يكمن بعضه فى كلمة ﴿رَبَّكُمْ﴾ وما فيها من رجاء للعبد العارف؛ لأن لفظ الرب هو لفظ الدعاء، لأنه هو مصدر الرعاية، والحفظ، وكأنه قال اتقوا الذى رباكم،

واقتـربوا منه لأنه لارب لكم سـواه، ولا يرعاكم سـواه، وله عليكم المنُّ والعطاء؛ وتقواه من شكره على منِّه، ورعايته، وعطائه، ثم إن التقوى أن تجعلوا بينكم وبين غضبه وعـذابه وقاية، ووقاية عذاب المعطى المنان الرازق الكافل ليـست كوقـاية عذاب القهـار الجبـار، لأنكم بالإيمان اقتـربتم من مصـدر المن والعطاء، وابتَعَدْتُم عن مصـدر الغضب، والانتقـام، فعليكم بهذه الخطوة السهلة، لأنكم بالإيمان قطعتم أكثر المسافة، وهذا كله مُؤسَّس على أن التقوى المحصلة من الإيمان تحتاج إلى تقوى أخرى يحصلها العبد، بالبُعْدِ عن الذنوب، وفـيه إشارة إلى أن من آمن جدير بأن يتوقى ويَبْـتَعِدَ عن الذنب وما يفضى إليـه، وقد استشهد العلمـاء بهذا الأمر للذين آمنوا بأن الإيمان يبقى مع المعصـية، وأن الكبائر لا تحبط الإيمان بخـلاف المعتزلة الذين يَتَشَـدَّدُون فى ضرورة حفظ الإيمان باجـتناب الكبائر، لأن اجـتنابها يُـبقى لهم ثواب الإيمان وارتكابهـا يُحْبطُ لهم ثواب الإيمان، وإنما ذكـرت ذلك لأبين أن الأمر بالتقوى فى هذه الآية يعنى تحـصيل مَرحلةٍ أعلى بعد توفيق الله وهدايتـه بالإيمان، لأننى لاحظت أن الجملة بعد الأمرِ بـالتقوى وهى قوله تـعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ هى دعوة إلى مرتبـة ثالثة هى أعلـى المراتب، وهى الإحسان الـذى معناه أن تعبـد الله كأنك تراه فـإن لم تكن تراه فإنه يراك، وأن الدعوة إلى هذه المرتبة الـثالثة هى دعوة من الله لنا بعد إكرامه وتقريبه لنا، ودعائه لنا بأننا عباده، وبأننا آمنا به، وأن علينـا أن نخطو خطوتين، خطوة هى التـقـوى، وخطوة هى الإحسان لنصل إلى التوفية بغير حساب، وليس بعدها شىء، ولبيان مكانة هذه التوفية بغـير حساب أومأ الحق إيماء ولم يصرح بأنها تسـتحق الهجرة وترك الأوطان وترك الأهل والأحبـاب والأقران وإنما أومأ سبحـانه بقوله: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ ولم يقل هاجروا وإنما دل على سـعة أرضه وأن أى مكان فى الأرض هو أرضه.

ثم علينا أن نراجع مـرة أخرى لنتـبين شيـئًا فى اللغـة وهو أن الأمر يَـقْوَى بأمرين: الأول أن يُسْبق بـنداء للتنبيه، والإيقاظ؛ والثانى أن يؤتـى بعده بعلته، كمـا فى قوله تعـالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١] والعلة هنا هى قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ وإنما أردت أن أضيف هذا إلى ما اشتغلتُ به وهو الابتداء بكلمة ﴿قُلْ﴾ والنداء بوصف عـباد، وبوصف الذيـن آمنوا وذكر البـدل، والمبـدل منه، للدلالة على الأمرين معا، لأنه كان يمكن أن يكون الكلام قل للذين آمنوا اتقوا ربكم.

وكل الذى قلته لم يصب مـا أجده لهذه الآية، وكيف يقـترب الحق بجلاله من عباده، ويفـتح لهم باب التوفية بغير حـساب، وهو غَنِيٌّ عن العالمين، ولو كان الناس جميعا على أتقى قلب رجل منهم ما زاد ذلك فى ملكه شيئًا وعليك أنت أن تصيب من الآية ما لم يـصبه قلمى بالتدبر، والمراجعـة، سواء كان هذا لعناصر الإيقاظ والتنبـيه التى بنيت عليها الآية؛ أو كان ذلك باختـيار الكلمات والأوصاف التى لا يقـترب من قلب المؤمن شىء أحب إليه منهـا، وانتقل إلى جملة ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ وقد قلت إنها بمثابة الاستئناف الذى يُبيِّنْ سـر أمر الله عـباده الذين آمنوا بالتقـوى، والجار والمجـرور خبر المبـتدأ؛ والمبتـدأ كلمة ﴿حَسَنَةٌ﴾ والجار والمجـرور الذى بينهما فتـح للجملة بابين من أبواب المعنى، وإنما قـدّم الجار والمجرور الخـبر، لأن الكلام عن الذين أحـسنوا لأنهم هم عـبـاده، وهم الذين آمنـوا، وهم الذين اتقـوا، وعُـبّـر عنهم باسم الموصول للإشـارة إلى أنهم عُرِفوا بالإحـسان وشهـروا به؛ كما عـرفوا بالإيمان وشهروا به، وإنما ابتدأ الكلام بالإيمان لأنـه الأصل، ثم بالتقوى لأنها لا تكون إلا بالإيمان، ثم بالإحسـان لأنه الشاطئ الذى يَضَعُ العـارف بالله عنده «عِصِيَّ الحاضر الـمُتخيم» كـما قال زهير، والتنكير فى كلمة ﴿حَسَنَةٌ﴾ يـعـنى حـسنة لا يقادر قدرها، ولا يقادر كنهها، لأنهـا من يد الله، وما كان من يده سبحانه

لا يحاط بكنهه، ولابد من ملاحظة الجناس الذى بين أحسنوا وحسنة، وأن وراءه إكراما آخر هو أن الحق يقول سبحانه بأن الحسنة التى هى جزاء الإحسان إنما هى من إحسان من أحسن، وليست مَنًّا مِنِّى ولا عطاء مع أنها فى الحقيقة مَنٌّ وعطاء، وفى الحقيقة أيضا أن الإحسان مَنٌّ وعطاء، لأن الكل من الله، وبتوفيقه، وهدايته ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] وليس هناك نعمة أعلى من الإحسان، وهذا الجناس الذى فيه هذا المعنى مُرشح ومهيئ لكلمة (الأجر) فى قوله سبحانه ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم﴾ وكأن الله حين يثيبنا إنما يثيبنا ويعطينا أجْرَنَا مَعَ أن الثواب والعطاء والجنة كل ذلك مَنٌّ منْهُ وعطاء، والصبر نفسه مَنٌّ منه وعطاء، لأن الصبر نعمه، والطاعة نعمة، وليس لنا جهة تعطينا نعما إلا الله جل وتقدّس، قلت إن وقوع الجار والمجرور ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ بين الخبر المقدم والمبتدأ المؤخر، وسّع دلالة هذه الجملة وجعلها صالحة لأن تعطى عطاءَين لأنها يجوز أن تكون متعلقة بالصلة ﴿أَحْسَنُوا﴾ فتُفيدُ مَعْنى أنهم أحسنوا فى هذه الدنيا، وأن إحسانهم فيها كَفَاؤُهُ حَسَنَة فى الآخرة، يعنى الجنة، ويجوز أن يكون الجار والمجرور متعلقا بـ ﴿حَسَنَةٌ﴾ والمعنى أن الذين أحسنوا لهم حسنة فى هذه الدنيا، وأن الله سبحانه يُحْسِن إليهم فى الدنيا التى أحسنوا فيها، ويدخر لهم من الثواب فى الآخرة ما يدّخر.

هذا هو وجه تعلقها بما قبلها أو بما بعدها.

ولك أن تسأل وتقول لو قلنا إنها متعلقة بما قبلها وأن المعنى للذين أحسنوا فى هذه الدنيا يعنى كان إحسانهم فيها لو قلنا هذا لكان هذا القيد خاليا من الفائدة لأنه من المعلوم أن هذه الدنيا هى دار التكليف، وأن الآخرة دار الجزاء وأنه ليس لأحد أن يحسن فى الآخرة، ولو حذف هذا القيد لفهم معناها؛ فما وجه ذكره؟ مع ملاحظة أن تعلقه بأحسنوا هو الأصل وهو المتبادر، وليس محتاجا إلى توجيه لأن تعلقه بحسنة، قالوا لا يصح أن يكون صفة لحسنة لأنه

تقدم عليها ولذلك قالوا هو بيان لحسنة، وليس صفة، هذا قول الزمخشرى، وقال الطاهر: هو حال، والجواب الشافى الكافى ليس عندى وإنما الذى عندى هو أن الكتاب العزيز يُصرِّح كثيرا بالمعانى المفهومة ضِمْنًا، ولا يكتفى بهذا الفهم الضمنى مع وضوح دلالته، لأن فى التصريح والتكشيف ما ليس فى الفهم الضمنى، ويُرَادُ بذلك غالبا والله أعلم هو تأكيد المعنى الذى صرح به مع فهمه فهما ضمنيا، والذى أراه هنا أن الكتاب العزيز صرف الوجوه والقلوب إلى الآخرة الباقية وحذَّر من الافتتان بالأولى الفانية وأن هذا قد يوقع فى الوهم الانصراف عنها، وتركها، والاستعداد للباقية بضروب العبادة المعروفة من صلاة وصيام، وذكر، ونَفْض اليدين من هذه الدنيا الغرور، فنبَّه الحق جل وتقدس إلى حقيقة لا يجوز أن تغيب، وهى أنها دار الإحسان، وليس للإحسان دار سواها، واحذروا من طَرْحها واحذروا أن تُصيِّروها دار إساءة، هى مزرعة الآخرة، ومن زرع هنا حصد هناك، ومن لم يزرع هنا ليس له شىء هناك، ومن زرع فيها الشر والباطل وجد هناك جزاء الشر والباطل، ومن زرع فيها الخير والإحسان وجد هنا توفيه بغير حساب، نعم الكتاب العزيز ينهانا ويحذرنا من أن نصرف وجوهنا إلى الدنيا، بمقدار ما يحذرنا، وينهانا عن أن نصرف وجوهنا عن الدنيا، لأن المطلوب أن نجعل جهادنا فيها، وعمارتنا لها ذخرا ندخره للآخرة، وأن من الذنوب ذنوبا لا يكفرها إلا السعى فى هذه الأرض، وأن الساعى فيها بإيمان وتقوى وإحسان أفضل من المنقطع فى المحراب، هذا والله أعلم.

وإذا اعتبرنا الجار والمجرور ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ متعلقا بحسنة وبيانا لها أو حالا منها كانت هناك إشارة أخرى وهى أحسنوا فيها لتصيبوا الحسنة فيها، واحذروا أن تُسيئوا فيها، ويحسن غيركم فيأخذ حسنتها، وتأخذوا سيِّئها، والجزاء فى الدنيا من جنس العمل إذا نمتم وأدْلَجَ الناسُ وصل المدلِجُ وتأخر الذى نام، وقانون الحق هو أن من أراد الدنيا يؤته منها، ولو لم يرد غيرها، ومن أراد

الآخرة يؤته منها لأنه لا ينجز للآخرة شيئًا إلا على هذه الأرض، وأنتم الأمة الوسط التى تريد الدنيا والآخرة، وتعمل فى الدنيا للآخرة، أحسنوا فى الدنيا يُحْسِنُ الله ثوابكم فى الدارين، ولو نزعت جملة ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ لرأيتها قائمة بنفسها تؤدى معنى جليلا جداً يدور حول عمارة الأرض، وأن الحسنة فيها لمن أحسن فيها، مؤمنا كان أو غير مؤمن.

وقد ذكر الطاهر أن موقع الجار والمجرور بين الخبر والمبتدأ فى هذه الآية من أساليب القرآن التى يظهر فيها الإعجاز وذلك لتنوع المعنى مع تنوع المتعلق، وذكر أنه مما اختص بأساليب القرآن، قال رحمه الله: «وتوسيط قوله ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ بين الذين أحسنوا وبين حسنة نظم مما اختص به القرآن فى مواقع الكلم، لإكثار المعانى التى يَسْمح بها النظم، وهذا من طرق إعجاز القرآن» انتهى كلامه رحمه الله.

قوله سبحانه ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ معطوفة على جملة ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ وتلاحظ التقارب الشديد بين آمنوا واتقوا وأحسنوا لأنها من باب واحد وبينها مراعاة نظير أو هى من تأليف المؤتلف، وتأتى جملة ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ من باب بعيد لشدة مغايرتها لما قبلها؛ لأنها مختلفة وهى من المختلف الذى يأتَلِفُ بشريف النظم كما يقول الباقلانى.

وهذه الجملة لا تَتَحَدَّث حديثا مباشرا عن الهجرة إلى أرض يتاح لهم فيها آداء شعائر الله، والانقياد لأمره ونهيه، ومضمونها أن أرض الله واسعة، وهذه حقيقة معلومة، وهى بهذا تعرض بالهجرة ولا تدل عليها، يعنى أن الهجرة تفهم عند هذه الجملة لابها، كما قال الزمخشرى فى بيان معنى التعريض، وأنه المعنى الذى يفهم عند اللفظ لابه، وهذا كلام جيد ونافذ، ولذلك كانت عند نزولها إرْهاصًا بالأمر بالهجرة، وهى الآن تشير إشارات واضحة إلى أن الآخذين بحبل الله المُمْسكين به سيجدون فى كثير

من البلاد تَعَسُّفًا واضطهادا، مهما استقاموا، فى هذه المجتمعات، لأن اضطهادهم راجع إلى شيء واحد هو أنهم مسلمون. وأعداء دين الله سواء كانوا فى أرض الإسلام أو فى ديار الكفر، بدت البغضاء لدين الله من أفواههم وأقلامهم وما تخفى صدورهم أكبر، وقد نهانا الله عن اتخاذهم أولياء، لأن هذه البغضاء التى فى صدورهم لا تزول ولا تحول، وهى حاجز يحجز إخلاصهم عنا، ونحن نتعامل معهم على أنهم أولياء، وأصدقاء كما نسمع الآن؟ كلمة أرض الله واسعة وراءها إشارات كثيرة مما سيجده المسلمون فى مجتمعات الذين كرهوا ما أنزل الله، ونقرأ ونسمع الآن محاولة إغراء المسلمين فى المجتمعات الأخرى بالاندماج فى حضارة المجتمعات التى هم فيها، والأخذ بقيمها وبثقافتها وسلوكها، وأن يُحرِّموا ما تحرم هذه المجتمعات، ويحلوا ما تحله هذه المجتمعات، وألا يكونوا فيها نشازا، والجملة الكريمة تقول ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ وسورة الزمر مكية ولهذا كانت هذه الآية إرهاصا كما قلت، وهى لا تزال تشير إلى هذا المعنى ولا تصرح به وإنما تُنَبِّه كل من يجدُ صعوبات فى أدائه لحق الله عليه، وفى سورة النساء المدنية كشف أبين وأظهر، وقد وصف الحق سبحانه الطائفة التى عاشت وهى غير متمكنة من آداء حق الله عليها واستسلمت ورضيت واندمجت فى حياة الأمم غير المسلمة بأنهم ظلموا أنفسهم، وأنهم توفتهم الملائكة وهو ظالموا أنفسهم، لأنهم قهروا معتقدهم فى داخلهم، ومن إنصاف النفس أن تكون فى حياتك وسلوكك كما يمليه عليك معتقدك، وكما تراه الحق والصدق، يعنى أن تكون متوازنا مع نفسك، وهذا التوازن هو إنصاف النفس، وهو واجب عليك نحو نفسك، وخلاف هذا ظلم لنفسك، وإذا ظلمتها أنت كنت من طائفة المستضعفين فى الأرض، لأن الأقوياء هم المنصفون لأنفسهم، والمستضعفون هم الظالمون لأنفسهم، وهذا معنى جيد ينتهى إلى الفرد وأن قوته تَعْنِى إنصاف نفسه، وضعفه واستضعافه لا معنى له

إلا ظلمه لـنفسه، وهنا تظهـر القيـمة الإنسـانية العُليا لـكلمة ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ لأنها هى العون المعين على إنصاف النفس، والعون المعين على رفع الظلم عنها.

قوله جـل شأنه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ هذه الجملة مفصولة عـما قبلها لأنها بمثابة التـعليل لكل ما فى هذه الآية التى تناولت الإيمان والتقوى والإحسان، وأومأت إلى مواجهـة المصاعب، والمشقات فى سبيل تحقيق هذه الثلاثة؛ وأن من حـافظ على هذه الثلاثة واستـمسك بها وواجه الصـعوبات وانتقل من أرض إلى أرض لـيَعْبُـد الله حق عبادته انتـهى إلى هذه التوفـية التى يغترف فيها من فضل الله وثوابه بـغير حساب لا بكيل ولا بوزن، ومجىء كلمة إنما وبناء الجملة عليها يعنى تأكيد معنى قصر توفية الأجر على غير حساب؛ لأن هذا القيد هو المقصور عليه، ثم التعـبير عن الذين آمنوا واتقوا وأحسنوا وهاجروا فى أرض الله الواسعة بـالصابرين، يعنى أنهم وجدوا فى مرضـاة الله والتمسك بأمره ونهـيه من العنت والقَهْـر والظُّلم ما يجده من يُوصـف بأنه من الصابرين، وأن هذا إن لم يقع فهو متوقع، وأن الله سـبحانه لا يقبل منا الإيمان إلا إذا كان هذا الإيمان أحبَّ إلينا من أنفسنا، ومن أهلنا، وديارنا وأوطاننا؛ وأن من بلغ هذه المرتبـة بلغ مرتبـة الصـابرين؛ وأن الصابرين هم الـذين يوفون أجـورهم بغيـر حساب، والبناء للـمجهول فى قوله سـبحانه ﴿يُوَفَّى﴾ للإشارة إلى أن مـقصود الكلام هو بيان التوفيـة التى هذا وصفها، وأنه متُوفـر على بيان ذلك، والبشارة به؛ وكلمة «الصـابرون» كما يشـير سيـاقها؛ تعـنى الصبر على تحـقيق الإيمان، والتقوى، والإحسـان، وكما يشير لفظها بإطلاقه تعـنى كل من صبر على أمر، قدَّره الله عليه سواء كان فى ماله، أو نفسه، أو ولده، أو ما شئت مما يتعرض له المسلم من ابتلاءات واختبارات، وهذا كثير ووجوهه كثيرة جدا، وهؤلاء وحدهم هم الذين يتجاوز عطاءُ الله لهم هذا التجاوز الذى يتجاوز كل حدٍّ فالحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعـمائة ضعف ثم يزيد الله من يشاء، وهذا هو أصل عطاء الله مع

عباده الصالحين، فإذا جاءت فئة الصابرين أُلْغِيَتْ هذه الحسابات وصار العطاء بغير حساب، لا سبعمائة ولا ما هو فوق السبعمائة، قال الزمخشري في بيان معنى قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ «قيل بغير مكيال وغير ميزان يغرف لهم غرفا، وهو تمثيل للتكثير، وعن ابن عباس رض الله عنهما لا يهتدى إليه حساب الحُسَّاب ولا يُعْرف، وعن النبى ﷺ «ينصب الله الموازين يوم القيامة فيؤتى بأهل الصلاة فيوفون أجورهم بالموازين، ويُؤتَى بأهل الصدقة فيوفون أجورهم بالموازين، ويؤتى بأهل الحج فيوفون أجورهم بالموازين، ويُؤتَى بأهل البلاء فلا يُنْصَبُ لهم ميزان، ولا يُنْشر لهم ديوان، ويصبُّ عليهم الأجر صبّاً قال الله تعالى ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ حتى يتمنى أهل العافية فى الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل».

وقد عقب الزمخشرى على قوله تعالى: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ تعقيبا حسنا فيه زيادة على ما قلناه، قال رحمه الله: «ومعنى أرض الله واسعة أن لاعذْر للمفرطين فى الإحسان البتة، حتى إن اعتَلُّوا بأوطانهم، وبلادهم وأنهم لا يتمكنون فيها من التوفر على الإحسان، وصرف الهمم إليه، قيل لهم فإن أرض الله واسعة وبلاده كثيرة فلا تجتمعوا مع العَجْز؛ وتحوَّلوا إلى بلاد أخر واقتدوا بالأنبياء، والصالحين فى مهاجرتهم إلى غير بلادهم، ليزدادوا إحسانا إلى إحسانهم وطاعة إلى طاعتهم» انتهى كلامه، والزيادة التى فيه أن المطالبة بالهجرة لا تكون فقط لتحقيق أصول الدين من الإيمان والتقوى، وإنما تكون لمن توفر له ذلك ولم يتوفر له الإحسان، وهذا يعنى أن أى عائق يعوق المسلم من الترقى إلى أعلى درجات العبادة، فالواجب أن يهاجر بسبب هذا العائق، والأمر الثانى هو الإشارة إلى أن الأنبياء هاجروا، وأن الصالحين هاجروا، وأن الهجرة إلى الله، من شأن هذه الطبقات وهذا يعنى أن إقامة الحدود والحواجز والإجراءات النظامية التى تتخذ الآن بين أوطان المسلمين ليست هى الأصل وإن كان لها مايبررها.

ولن أدعَ هذه الآية قبل أن أشير إلى شىء وهو أن فاصلة الآية السابقة هى ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ وفاصله هذه الآية هى﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وبينهما من التصاقب ما ترى فقد بُنيت كل منهما على كلمة ﴿إِنَّمَا﴾ وبعدها فعل مضارع وفاعله وهذا القدر من التصاقب وراءه قدر آخر وهو أن الذى قبل الجملة الأولى ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ وهذه غاية وهذا هو المؤمن المتقى المحسن. والذى هنا هو الإشارة إلى ما قد يعرض له من افتتان فيُوفى أجْره بغير حساب، هذا والله أعلم.

قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الزمر: ١١- ١٣].

تكاثر الأمر بقوله تعالى ﴿قُلْ﴾ فى هذا الفصل من فصول معانى السورة وفيه من الاسترعاء والتنبيه والإيقاظ ما يدل دلالة ظاهرة على أن مقوله عند الله بمكان، ولنراجع الآيات التى بدأت بهذا الأمر، نجد أول أمر فى قوله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ ثم بعده الأمر الذى فى الآية التى نحن فيها وهو ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾، وهذا يعنى أن الحق جل وتقدس بعد ما وَجَّه إلينا الأمر بالتقوى والإحسان بين لنا أن أمرا مثله سبق من الله إلى نبيِّه المأمور بالبلاغ بقوله ﴿قُلْ﴾ وأن أمْره ﷺ بأن يَعْبُدَ الله مخلصا له الدين وإن وقع فى الآية بعد أمركم بالتقوى والإحسان اللذين لا معنى لهما إلا الإخلاص لأن التقوى والإحسان لا وجود لهما فى القلب مع أى شائبة من الشرك، أقول إذا جاء أمركم قبل أمره فى الآية، فقد كان فى الحقيقة والواقع مأمورا قبل أمركم، بدليل قوله سبحانه، ﴿وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وهذا قاطع فى أنه أُمِرَ بالذى أُمِرْنا به قبل أن نؤمر به، وهذا

أصل من أصول الدين، وأصول الدعوة إلى الله، فلا تأمروا الناس بالبّر وتَنْسوا أنفسكم، وهذا وجه ترتيب هذه الآية على ما قبلها.

وقل الثالثة هى قوله تعالى ﴿**قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾ ووجه ترتيبها على ما قبلها ظاهر لأنها ترتب الخوف من عذاب يوم عظيم على معصية ما أمرنا به، وإذا كانت آية ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ قد بَيّنَتْ فيض العطاء لمن اتَّقى وأَحْسَنَ فإن هذه بَيّنَتْ العذاب العظيم لمن خالف وعصى، ويلاحظ هنا شيء، أن الثواب الذى فى جملة ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ**﴾ ذكر فيه من اتقى وأحسن وصبر من أمته ﷺ وكانوا هم المبشرين بهذا العطاء الذى يتجاوز قدْرُه الحسَّابَ لأن ابن عباس فَسّر بغير حساب بأنها تَعنِى أن حساب الحُسَّاب لا يدرك هذه التوفية، وأن ذاكرة الحساب لا تَلْحَق بها، مهما اتسعت أرقام الحساب وتجاوزت ما تجاوزت فى زماننا لأن الذى هناك لا يدخل فيما تراه العيون ولا فيما سمعته الآذان، والمهم أن البشارة التى لا حدود لها وُجِّهَتْ إلى الأمة الصابرة على التقوى والإحسان، وعذاب اليوم العظيم هنا كان مُسندا إليه ﷺ؛ وفى هذا ما فيه، وأول ما فيه أنه أبْعَدَنَا عن هذا الخوف وكأنه لطف بنا، ودلنا عليه بطريق التضمين وثانى ما فيه أنه عليه السلام إذا خاف عذاب اليوم العظيم لو عَصَى ربه فكيف بنا؟ وإذا كانت النبوة وشرف نزول الوحى وشرف البلاغ وشرف الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، لا تمنع وقوع العذاب عليه إذا عصى، فكيف بالذين ليس لهم شيء من ذلك؟ ومما فيه أيضا أن مقام الألوهية شيء ومقام النبوة شيء آخر، وأن خاتم رسل الله وخير خلق الله لا يعصمه من عذاب الله عاصم إذا أمر بأمر ربه ولم يأتمر بما أمر به، ثم أدع هذا ولك أن تَسْتخرجَ ما تراه فى هذا الكلام الجليل لأقول إن الأمر الرابع كان رجوعا إلى أصل المسألة وهذا الأصل هو إخلاص العبادة لله رب العالمين ﴿**قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ**

مُـخْلِصًـا لَّهُ دِينِي﴾ وهو الأصل الذى بنى عليـه هذا الفصل، وهو راجع إلى جذر معنى السورة التى أفصح عنـه مطلعها فى قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾، ثم جاء الأمر الخامس لبيان حال الذين أداروا ظهـورهم لأمر الله سـبحانـه وما أنزل، وإذا كانـت آيات الأمر بإخلاص العبـادة راجعة إلى قوله سبـحانه فى مطلع السورة ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾، فإن الحديث عن الخاسرين راجع إلى قولـه سبحـانه فى المطلع ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ وبهـذا الأمر الخـامس فى قـوله تعـالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ أغلق باب هذا الفصل وفـتح باب فصل آخر انتـقل إلى أحوال الآخرة والذين لهم ظلـل من النار ومن فوقهم ظلل ومن يقـابلونهم ممن لهم فى الجنة غرف تجرى من تحتها الأنهار.

هذا هو الوصف العام لهذا الفـصل ووجه ترتيب معانيه ووجـه ترتيبه على الفصول التى سبقته وبقى تحليل الصيغ.

قوله سبـحانه ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ ابتداء الجملة بأداة التوكيد بعد افتتاح الكلام بكلمة ﴿قُلْ﴾ يشير إلى أهمية ما دخلت عليه هذه الأداة ولا أراها فى كـلام الله ولافى كـلام رسـول الله ﷺ دخلت على معنى أعـلى وأرفع وأدخل فى جوهر الدين من هذا المعنى الذى دخلـت عليه هنا لأن عبادة الـله وإخلاص العبادة لله هى الحـقيقة المركزية الـتى دار حَوْلَها هذا الوجود، وبُنِى عليهـا، لأن الله سبحانه ما خلقـنا إلا لنعبده، ثم إن بناء «أمرت» للمـجهول فيـه إشارة إلى أن هذا الأمر الذى يعلو رسول الله وخـير خلق الله لا يأتيه إلا من جهة واحدة هو الله، لأنه عليه السلام ليس فَوقَه فى هذا الكون إلا الله جل وتقـدس، وفى هذا البناء للمجـهول أيضـا إشارة إلى توفر الأمر على وقوعه على المأمـور به، وهو عبادة الله وإخلاص الدين لله،

ثم إن توجه الأمر إليه عليه السلام يعنى تأكيد المأمور به لأنَّنَا مأمورون بما أُمِرَ به عليه السلام؛ والتأكيد ليس منصَّبًا على العبادة وإنما هو منصب على إخلاص العبادة، وفى قوله تعالى ﴿أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ﴾ كلمة مخلصا حال وهى ضرورة هنا لأن الله سبحانه عبد فى رأس السورة عبادة ليست مخلصة له، وهم الذين اتخذوا من دونه أولياء ليقربوهم إلى الله زلفى، هؤلاء عبدوا الله عبادة ليست خالصة وقوله سبحانه ﴿وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ تكررت كلمة ﴿وَأُمِرْتُ﴾ وكان يمكن أن يقال قل إنى أُمِرْتُ أن أعبد الله مخلصا له الدين، وأن أكون أول المسلمين، وفى هذا التكرار إشارة مهمة إلى أمور: أولها أن الأمر الأول الذى هو عبادة الله أمر أُمر به عليه السلام، وأُمِرَ ببلاغه لأُمته، وأن هذا الأمر أنفذه الذين آمنوا واتقوا وأحسنوا وصبروا، وأنه عليه السلام أولهم، ولا تجد معنى لقوله وأُمِرْتُ أن أكون أول المسلمين، إلا إذا كان أمْرُه بالعبادة الخالصة أمْرًا موجها إليه وإلى أُمَّته من ورائه، وأن هذا الأمر الشامل أنتج جماعة إسمها المسلمون، وأنه عليه السلام أولهم، وهكذا تجد الكلام العالى يطوى بين طرفيه معانى تُفصِحُ عنها أطرافه، وكلمة «المسلمين» هنا دلت دلالة ظاهرة على عموم الأمر الذى وُجِّه إليه ولو كان هو المأمور وحده، لما وُجِدَتْ كلمة ﴿الْمُسْلِمِينَ﴾ وهو عليه السلام أول من أسلم من أمته لأنه هو الذى تلقَّى وحى الله، ثم إن كلمة «المسلمين» التى فيها معنى الاستسلام والانقياد هى أولى بهذا المقام لأنها أظهر فى دلالتها على إخلاص العبادة بما فيها من معنى الانقياد والإذعان والاستسلام، وأن هذا الانقياد وهذا الإذعان، وهذا الاستسلام إنما هو لما أُمِرْتُ به وقد أُمرتُ بالعبادة الخالصة.

وكان علماؤنا رحمهم الله يطيلون النظر فى معانى الكلمات ويستخرجون بهذه الإطالة معانى جليلة تفوت من النظرة العَجْلَى، وأعنى بذلك أن كل أنبياء

الله من المسلمين ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨] وإذا كان عليه السلام أول المسلمين أفاد ذلك أنه أول الأنبياء جميعا وإن كان خاتمهم ولهذا الملحظ استشهد بعضهم بهذه الجملة ﴿وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ على فضله عليه السلام على جميع الرسل والأنبياء. والأولية هنا ليست أولية الزمان وإنما هى أولية السبق، والتقدم، والجملة تحتمل ما ذهبوا إليه وتقبله وتدل عليه، ولا يجوز أن نهمل دلالتين مهمتين فى هاتين الآيتين الدلالة الأولى: أنه عليه السلام مبلِّغ وليس له من الأمر شىء، وأن الدين كله لله وكله وصلنا تحت عنوان ﴿قُلْ﴾، الدلالة الثانية: هى أنه عليه السلام مأمور بما نؤمر به وأنه أول من يُنَفِّذ الأمر ويذعن له، وأن هذه هى القاعدة الذهبية فى حياة الناس الكبار والصغار فلا تدعو إلى طهارة اليد إلا وأنت طاهر اليد، ولا تدعو إلى العمل إلا ويدك ممسكة بالآلة، ولا تدعو إلى الصدق وأنت كذاب ولا تدعو إلى شرف النفوس، وأنت خسيس النفس إلى آخر ما نرى مما أنتجت مخالفته الفساد الوبيل الذى نحن فيه، فكم دبج المدبجون لخطاب السادة حديثا عن الطهارة وحب الوطن والإخلاص وشرف النفس إلى آخره ثم كان ما كان مِمَّا ترى وتسمع، وما خفى كان أعظم.

وكلمة اللام فى قوله ﴿لأَنْ أَكُونَ﴾ قال فيها الزمخشرى «ولك أن تجعل هذه اللام مزيدة مثلها فى أردت لأن أفعل، ولا تزاد إلا مع أن خاصة دون الاسم الصريح، كأنها زيدت عوضا من ترك الأصل إلى ما يقوم مقامه، كما عُوض السين فى استطاع من ترك الأصل الذى هو أطوع، والدليل على هذا الوجه مجيئه بغير لام فى قوله ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١] ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٤] ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ [الأنعام: ١٤] وفى معناه أوجه أن أكون أول من أسلم فى زمانى ومن قومى لأنه أول من خالف دين آبائه وخلع الأصنام وحطّمها. وأن أكون أول

الذين دعوتهم إلى الإسلام إسلاما. وأن أكـون أول من دعا نفسه إلى ما دعا إليه غيره، لأكون مُقْتَدًى بى فى قولى وفـعلى جميعا، ولا تكون صِفتى صفة الملوك الذين يأمـرون بما لا يفعلون» انتـهى كلامـه رحمه الله، والمراد بـقوله عوضـا من ترك الأصل، أن كلمة «أن» تؤوّل مع ما بعـدها بمصدر وهو المراد وإنما وضع المصدر المؤول موضع الأصـل وزيدت اللام عوضا عن ترك الأصل الذى هو المصدر الصريح، وأصل قولنا أردت لأن أفعل، أردت الفعل فوضع المؤول موضع الصريح وزيدت اللام لذلك، وقد نبـه الزمخشرى فى الآية إلى معنى جليل وهو ارتباط السـبق المراد بالأولوية بالإخلاص وأن الإخلاص ينتج السـبق، وهذا جـيد لأنه كـذلك فى الدين والدنيـا، والمخلصـون هم الذين ينتجـون الخير فى كل فرع من فـروع الحياة، فى العلم والعـمل، وليس أضرّ بحـياة الناس من افـتقـاد الإخـلاص فى أى فرع، فـرق بين المدرس المخلص لطلابه وغـيـر المخلص، وهكذا حـتى تصل إلى الفـرق بين الرئيس المخلص لقومه والرئيس المخلص لعائلته، هذا والله أعلم.

قوله سبحانه ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

جاءت هـذه الجملة الشـريفة التى تمثل آية بعـد أمرين مـوجهين له علـيه السلام. الأمر الأول: أن يعـبد الله مخلصا؛ والأمـر الثانى: أن يكون أول المسلمين؛ وهذه الجملة تصور موْقفه عليـه السلام من تلقى أمر ربه سبحانه، وأن أمر الله واجب الطاعـة، وأن من عصى أمره سـبحانه يُعـذَّب عذابا فى يوم عظيم، وهذا تـرتيب واضح، لأن الشـأن فـيـمن يتلقى أمـرًا أن يقـوم بإنفاذه، والمهم هنا هو أن الأمر بالإخلاص والأمر بالسبق الموجهين إليه عليه السلام موجهان لنا، وأن من لم يخلص فى عبادته يتوقع هذا العذاب، ومن لم يخلص فى سبْـقِه فى دِين الله يتوقع الغـذاب، لأن الأولية من معانيـها السـبق، والسـبـق فى الإخـلاص لله رب العـالمين هو الذى فـيـه يتنافس المتنافسـون، وهذا حَثٌّ ظاهر على معان جليلة لأن الوصـول إلى الإخلاص

فى العـبادة يُفْضِي إلى الإخـلاص فى كل ما يبـاشره الـمُـسلم، لأن المسلم مسـؤول عن كل ما يزاولـه من أعمال، لأن الـعبادة ليـست هى الواجـبات الشرعـية فحـسب، لأن عملى عبـادة، ومَتجرى عـبادة، ومصنعى عـبادة، ومعملـى عبادة، وقاعة درسى عـبادة، وقلمى عبـادة، إلى آخره، وإذا كان المرءُ لا ينطق من قول إلا عليـه رقيب عتـيد، كذلك لا يعـمل من عمل إلا وعين الله تراه، ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ١٠٥]، وهذا هو المعنى الرَّحْب لقوله عليه السلام ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾؛ وكان الجـيل الصالح ولا يزال يراقب الله فى كـل ما يزاول من عمل، ولهذا جـاءت جملة أخاف إن عصيت ربى شـاملة هذا الشمول لأن المعصية ليست فقط فى ارتكاب المنهـيات، وإنما منها وربما كان من أهمها ما يقع فى العمل من مخالفات، فإذا أهملت فى درسى وقعت فى معصية، وإذا تهاونت فى صنعتى ومزرعتى ومعملى وقـعت فى معصية؛ لأن مصالح الناس متعلقة بـذلك كله، وحصر المعصية فى المهنيـات المعروفة مثل الكذب والغيبة والنميمة من تقييد المطلق، وتخصيص العام، وراجع كلمة ﴿عَصَيْتُ رَبِّي﴾ وضَعْـها بإزاء كل عمل لم تتُـقَنه، وتتعلق به مصلحـة الناس، وخذ أقرب الأشياء وهو الدرس، وراجع مـاذا يترتب على إهمالى للإخلاص فى درسى، والمضرة التى تقع على الطلاب، وآباء الطـلاب، وأمهات الطلاب، والمجتمع الذى ينتظر إعـدادهم لأيام لا ندرى ماذا يُوَاجهون فيـها، وإذا كان هذا لا يدخل فى المعصيـة فأى شيء يدخل فيها؟ ولا شك أن المعـصية التى تُؤذى الآخرين أشـد وأهول من المعصـية التى لا تؤذى إلا صـاحبـها، لأن المعصيـة الأولى فيها ضياع حق الله بسـبب الجرأة على مخالفة أمره، وفـيها ضياع حق الآخـرين ويصبح العاصى مطالبا بحـقين لا بحق واحد، ويدخل فى هذا فسـاد المصنوعات والمزروعات، وتأخر البـحث العلمى، وكل ما به تكون له آثار سلبية على حياة الناس، وهذا ما أفهمه والله أعلم.

وكان لعلماء العقائد والفقهاء نظر فى استنباط معان دقيقة تغيب عن عين غيرهم، ومن ذلك أن كلمة أخاف فى قوله عليه السلام «إنى أخاف إن عصيت ربى» استخرجوا منها أن المعصية لا توجب العذاب ولو كانت توجبه لما ذكر رسول الله ﷺ كلمة ﴿أَخَافُ﴾ وإنما كان يقول إن عصيت ربى وقع علىَّ عذاب عظيم، وهذا يدل على أن الله جلت قدرته ووسعت رحمته يغفر من المعاصى ما يشاء لمن يشاء بالتوبة وبغير توبة، وهذا مذهب أهل السنة والأشاعرة بخلاف المعتزلة الذين يرون أن الذنوب لا تغفر إلا بالتوبة، وقد سبق ذكر ذلك فى قوله تعالى ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ [غافر: ٣] ولو كانت لا تغفر إلا بالتوبة لما قال سبحانه ﴿غَافِرِ الذَّنبِ﴾ وإنما أراد والله أعلم بمراده أنه يغفر الذنب من غير توبه ويقبل التوبة وأن باب الرحمة يتسع للأمرين، والذى يعنينى هنا هو دقة تحليل الكلمات وأن الخوف يعنى توقع العذاب وليس القطع بوقوعه.

قال الرازى رحمه الله (دلت الآية على أن المرتب على المعصية ليس حصول العقاب بل الخوف من العقاب وهذا يطابق قولنا إن الله تعالى قد يعفو عن المذنب، والكبيرة، فيكون اللازم عند حصول المعصية هو الخوف من العقاب لا نفس حصول العقاب) انتهى كلامه رحمه الله. وإدراك هذه الفروق فى الدلالات من أفضل ما يعين دارس الشعر والأدب على استخراج أغمض المعانى وأخفى الأسرار ومن الغريب أن الذين يقال إنهم نقاد وعلماء بالأدب يُبعدون كتب التفسير، والحديث عن حقل فهم وتحليل الأدب، ويغرقون الجيل بالنظريات الغربية التى صاغها غرباء ليس بينهم وبين طرائق العربية فى الإبانة ما يعين على شىء، وأظن أن أمر الشعوب إذا عاد إليها فلن تتردّد فى إحياء مناهج علمائها وتقطع بذلك التبعية المزرية بأعداء الأمة، وإن غدا لناظره قريب، ويؤكد هذا المعنى عندى أن النظم السياسية العربية الموغلة فى التبعية لأمريكا والغرب هى التى فيها مبالغات فى التبعية الفكرية والثقافية والمنهجية للأقطاب التى تدور حولها سياستها.

قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ۝١٤ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾ [الزمر: ١٤، ١٥] أهم وأول ما أَلْتَفِتُ إليه هو بيان تسلسل الآية مع الذى قبلها، وليس هذا مناسبة فحسب وإنما هو محاولة كشف حركة المعنى والوجه الذى يَقْصِدُ إليه فى هذه الحركة.

وألاحظ أن الآية الأولى إخبار منه عليه السلام بأنه أُمِرَ أن يعبد الله وأن يكون أول المسلمين. وبعد ما تلقى عليه السلام هذا الأمر أخبرنا أنه يخاف معصية هذا الأمر، وهذه هى الخطوة الثانية لمن يتلقى أمرا، وأنه فيها يخبر أنه يخشى عدم الامتثال، والخطوة الثالثة التى هى هذه الآية يخبرنا عليه السلام أنه ينفذ هذا الأمر، وها هو يَعْبُد الله مخلصا له الدين، ثم إنك تلاحظ أن الذى جاء بعد ذلك هو الاتجاه لمن عصى وعبَدَ غيرَ الله وزَجْره وتهديده إلى آخره، وهذا التوجه إلى من عصى يفسر أن توجيه الأمر بالعبادة والإخلاص إليه صلوات الله وسلامه عليه المقصود به توجيه الأمر بالعبادة والإخلاص لمن أرسل إليهم وإنما خص هو ليكون ذلك أدعى إلى الامتثال، وعموم الأمر، وعموم التهديد لمن خالف الأمر، وإذا كان عليه السلام يخاف عذاب يوم عظيم إن عصى فكيف بغيره، وهكذا نجد الالتفات إلى الخاسرين، وقوله ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾ راجع إلى الكلام من أول قوله ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ﴾ وشارح للمقصود منه؛ وأن المعنى قل إنكم جميعا وأنا أولكم أمرنا أن نعبد الله مخلصين له الدين، وهذا من تفسير القرآن بعضه لبعض، قلت إن قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي﴾ إخبار بالامتثال بعد الخطوتين السابقتين كما بيّنت ولهذا لم يكن تكرارا، وكان تقديم المعبود بالحق لأن تقديم المعبود بالحق يؤكد معنى الاختصاص، وقد نبه الزمخشرى إلى هذا وكانت له بصيرة نادرة فى فهم المعانى قال رحمه الله: «فإن قلت ما معنى التكرير فى قوله: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾؟ وقوله: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي﴾؟ قلت ليس بتكرير لأن الأول إخبار بأنه مأمور من جهة الله بإحداث العبادة والإخلاص، والثانى إخبار بأنه يختص الله

وحده دون غيره بعبادته مخلصا له دينه، ولدلالته على ذلك قدم المعبود على فعل العبادة وأخره فى الأول، فالكلام فى الأول واقع فى الفعل نفسه وإيجاده؛ وثانيا فيمن يَفعل الفِعْل لأجله، ولذلك رتب عليه قوله فاعبدوا ما شئتم من دونه» انتهى كلامه رحمه الله، وخلاصته أن الجملة الأولى إخبار بأنه مأمور بفعل، والثانية إخبار بأنه يفعل ما أمر به، ومن أجل الإعلان من أول الأمر عن اختصاص الله بالعبادة والذى هو محض الأمر الأول قدم لفظ الجلالة لإفادة هذا المعنى، ولاحظ أن هذه الآيات راجعة إلى قوله تعالى فى مطلع السورة ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ ② أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ كما أن ما بعدها من قوله تعالى ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾ راجع إلى ما فى المطلع من قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾، وهذا يؤكد ما استخرجته من أن المعنى الأم فى السورة هو إخلاص العبادة لله رب العالمين، وأن هذا الأصل هو الذى أفضى إلى آل حم لأنها كلها بنيت على المجادلة فى هذا الأصل ابتداء من غافر وانتهاء بالأحقاف التى ختمت بإيمان الجن بما سمعوا، ولم يبق بعد ذلك إلا السيف الذى بنيت القتال عليه، هذا والله أعلم.

ولو كان المقصود من الجملة هو بيان اختصاص الحق بالعبادة وقصرها عليه لاكتفت الجملة بقوله ﴿اللَّهَ أَعْبُدُ﴾لأن تقديم لفظ الجلالة يفيد الاختصاص كما فى قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] ثم إن لفظ الجلالة الدال على الاتصاف بكل الكمالات والتنزه عن كل نقص، يعنى أنه لا يعبد سواه، ولكن الجملة الشريفة أضافت ﴿مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي﴾ فأفادت كلمة مخلصا الواقعة حالا معنى آخر هو أننى أخصه سبحانه بالعبادة فى حال الإخلاص، وهذا معنى آخر لأن الإخلاص فى هذا المقام له فقه بَعِيدٌ؛ ومن معانيه الصدق، والاقتراب، وخلوص النفس والقلب، والخواطر من كل ما يشوب، ومن كل ما يصرف، فأنا أخصه بالعبادة وأخصه بقصر القلب، والعقل، والخواطر عليه، وأحذر

الآخرة، وأرجو رحمته وفى هذا اقتراب شديد وحب شديد وفناء النفس فى هذا الاقتراب وهذا الحب، وهذه الحميمية فى قصر العبادة على الله لها مذاق آخر؛ واقْتَضَى هذا الاقترابُ وهذا الحبُّ ألا يقول عليه السلام مخلصا له الدين، وإنما قال ﴿مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي﴾ فأضاف الدين الذى أخلصه لله إلى نفسه، فقد أخلص له دينه، الذى يحمل إلى ربه نفسه وقلبه وعقله، فرق شاسع بين أن تَقُول أخْلَصْتُ لفلان الوُدَّ وأن تقول أخلصت لفلان وُدِّى، أنت فى الثانية تودع فلانا جزءا من ذات نفسك، ومن أجل هذه المعانى الرقيقة التى تدل عليها هذه الجملة جاء الغضب فى قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾ يعنى هذا شأنى مع الله وقد تبين الرشد من الغى وهذا ما اخترته وهذا ما دعوتكم إليه، فإذا كنتم مصرين على الخلاف فاعبدوا ما تشاؤون من دونه، وهذه الفاء التى تفرع وترتب ما بعدها على ما قبلها فيها من نَفْث الغضب والضيق الذى أصابه عليه السلام من قومه بعد ما بذل لهم كل شىء ليُبَيِّنَ لهم طريق الهُدَى وهم مصرون على ما هم عليه، وهذا الأمر معناه الزجر والتخلية والغضب حتى كأنه عليه السلام وهو الذى تذهب نفسه عليهم حسرات صار يأمرهم بما يوجب لهم أشد العقاب وأنكل العذاب، وكلمة ﴿مَا شِئْتُم﴾بإبهام دلالة الصلة تعنى كل معبود بالباطل من الأصنام والجن والملائكة وغير ذلك، وتعريف الموصول بالصلة ﴿شِئْتُم﴾ تعنى أنكم تتخذون معبودكم بهواكم ومشيئتكم ولا ترجعون إلى عقل ولا إلى نقل وإنما هى المشيئة والهوى وهذا تقديم خفى للخسران المبين، وأنهم رأوا سبيل الرشد فلم يتخذوه سبيلا ورأوا سبيل الغىّ فاتخذوه سبيلا.

وهذه الاية الكريمة ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾ تُعَدُّ كوكبا دُرِّيّاً ينير لنا طرق حياتنا وأن الذى علينا هو أن نبحث جاهدين جادين صادقين مخلصين عن طريق الرشاد فى أى شأن من شئون حياتنا فى الفكر والأدب والعلم والسياسة والاجتماع، وما شئت، ثم نسلك

طريق الرشاد بعد ما يتبين وندعو إليـه فإن أبى فريق منا إلا سبيل الغىّ فليس لنا عليه سلطان وإنما نرفع أيدينا عن الناس بعد أن نُبيِّن الهدى لنا ولهم، وألا نقف كثيرا فى مـحاجتهم ولجاجتهم لأن هذا الوقـوف يعنى تبديد الطاقة التى يجب أن تُبذل فى السير على طريق الهدى، الذى تبيَّناه لأن طول الوقوف مع أهل الباطل غمط للحق، وتعطيل لركبه، وهذا ما أوصى به أهل العلم، وقد أخبـرتنا الآية أنه عليه الـسلام رأى طريق الحق فسلـكه ودعا الناس إليـه فلما أصروا على ماهم عليه قال لهم اعبدوا ما شئتم.

وفى الآية شىء آخـر وهو أن طريق الحق هو الطريق الجامع لأهل الـرشد من الأمة وأن أهل الـباطل الذين قال لهـم رسول الله ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم﴾ جمعهم شىء وهو عبادة غير الله ثم تفرقت بهم السبل، فاتخذ كل من الآلهة ما يشاء؛ وهذا قـريب جدا مما نحن عليه، اجتـمع أهل الإخلاص حول دين الله، وتفرق الباقون وجمعهم شىء هو المعارضة لدين الله، ثم ذهبوا مذاهب شتى، فهذا يسارى وهذا علمانى وهذا ليبرالى، وهذا بهائى إلى آخر ما ترى، ومن الضرورى تبَيَنٌ ما تقع عليـه الآيات فى حياتنا لأن الآيات لم تَنْزِل لزمن الوحى وإن كان زمن الوحى أعظم تجربة للتغييـر والتصحيح فى تاريخ البشر، هذا والله أعلم.

قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾.

هذه الآية فاصلة لكل من ذكـروا فى السورة من الخاسـرين، ابتداء بالذين اتخذوا من دونه أوليـاء ليقربوهم زلفى إليه، والكاذب الكفـار، والذين قالوا اتخذ الله ولدا، والذين قـال لهم الله إن تكفروا فـإن الله غنى عنكم، والذى نسى ما كان يدعـو إليه، وجعل لله أندادا ليضل عن سـبيله، وهم الذين قال لهم الله قل تَمتعْ بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار.

هذا شيء من ارتباط الآية الكريمة بالمكونات العامة للسورة ثم هي أيضا مرتبطة بالنموذج المقابل، وهم الذين عبدوا الله مخلصين له الدين ومنهم القانت القائم الساجد آناء الليل يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه؛ لأن بناء السورة جعل هذين النموذجين وجهين لحقيقة واحدة هي موقف الناس من رب الناس، أو قل ربطت بين هذين النموذجين المتقابلين لأن الكفر وفساد مسالكه يتجلى به الحق وسداد مَذَاهبه؛ وهكذا تتميز الأشياء بأضدادها:

وحسنُ دَراريِّ الكواكبِ أنْ تُرَى طوالع فى دَاجٍ من الليل غَيْهَبِ

ثم إن هذه الآية تعلمنا الدعوة بالتى هى أحسن فى الدين والدنيا وفى كل ما نختلفُ فيه؛ لأنها انحرفت عن خطابهم المملوء بالغضب هذا الغضب الذى نشأ عنده عليه السلام من شدة حرصه على قومه ولم تقل الآية خسرتم أو أنتم الخاسرون، وإنما تَفَادَتْ إسناد الخُسران إليهم؛ وعَرَضَتْ الموضوع عرض القاعدة العامة يدخل فيها كل من خسر؛ مع صرف النظر عن أشخاصهم، الآية تتحدَّث عن الخسران المبين، ما هو؟ وكأنها انتقلت إلى الحديث عن حقائق دينية عامة، ويقوم كلامها على التعريف بهذه الحقائق الكلية، والتعريف بالماهيّات الشاملة.

وقد بدأت الآية بقوله تعالى: ﴿**قُلْ**﴾ وهى كلمة تستدعى انتباه السامع وتومئ إلى أن الذى يأتى بعدها له عند الله شأن، وقد تكررت فى هذا القسم من معانى السورة مما يرشح أن معانى هذا القسم لها عند الله شأن، وكان ذلك مما رشح أن هذه المعانى هى قلب السورة، ثم غابت هذه الكلمة بعد ذلك وظهرت بعد آيات كثيرة، وكان المعنى الذى جاءت معه هناك ليس بعيدا عن معناها هنا، وهو قوله تعالى: ﴿**قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾ [الأنعام: ١٣٥] وهم الذين قال لهم هنا ﴿**فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم**﴾.

وكلمة إن التى بعد قوله تعالى: ﴿**قُلْ**﴾ تؤكد إسناد الخبر إلى المبتدأ الذى هو قلب الآية وهو أن الخاسر ليس من خسر مالا ولا من خسر جاها لأن كل

هذه أعراض تأتى بعد النفس؛ وإنما الخاسر من خسر نفسه، وهذا كلام عجيب جدا لأن خسران النفس هو الخسران الحقيقى، وهنا يحسن أن أشير عند مفترق هذا المعنى إلى أن من باعوا نفوسهم ونافقوا أهل الباطل من حكام السوء، وحصَّلُوا من أموال الشعب المنهوبة مَا حَصَّلوا هم الخاسرون لأنهم خسروا أنفسهم، وكل أهل الرذائل خسروا أنفسهم، لأنهم خسروا شرف النفس، وليس أنفس على الكريم من شرف نفسه، وأعود وأتابع الكلام الذى ليس فوقه كلام، وأقول إن خسارة النفس والأهل الذى هو وراء السلوك المنحرف عند أهل الخساسة فى الدنيا لا تكون أنكى ولا أبشع ولا أفظع من أن تقع فى ظرف هو أحرج الظروف وهو يوم القيامة، لأن خسارة أى شىء فى غير هذا الظرف يمكن أن تعوض، وتُتدارك ويَسْتَيْقِظُ الندل الخسيس ويغسل نفسه من النذالة والخساسة وينزع نفسه من ذل النفاق والكذب كالذى تراه من تسمية أبناء الإماء شيخ لصوص مصر (بطل الحرب والسلام) يمكن لابن الأمة المنافق أن يجد نفحة رجولة وكرامة ويخلع نفسه من هذا الذل وينطق كلمة الحق ويجد لذتها، كل ذلك ممكن إلا ما كان خسارة فى يوم القيامة.

والألف واللام فى ﴿الْخَاسِرُونَ﴾ تفيد معنى الكمال أعنى الخسران الذى هو جدير بأن يسمّى خسرانا والذى تتوفر فيه المعانى التى إذا توفرت فى شىء سمى الشىء خسرانا، وتعريف الخبر بالاسم الموصول يفيد القصر يعنى قصر الخسران على الذين خسروا أنفسهم كما تقول الكريم الذى يعطى من غير مسألة، فقد قصرت الكريم على من هذا شأنه، والتعريف بالصلة دال على أن الصلة معنى معروف ومشهور ولهذا صح التعريف بها، وهذا يعنى أن ثمة جماعة عرفت بأنها خسرت نفسها وأهلها يوم القيامة، وأن مُجْتَمَع الصالحين يَجْتَمِعُ على العلم بهم وتحديدهم لأن سلوك الخاسر ومواقف الخاسر وعقائد الخاسر كل ذلك دال عليه، وقد تعدد كلام العلماء فى بيان المراد بخسارة أهليهم فقالوا إن كان أهلهم من أهل النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم يعنى يوصفون

بخسرانهم كما يوصفون بخسران أنفسهم، وإن كان أهلهم من أهل الجنة فقد خسروهم لأنهم ذهبوا عنهم ذهابا لا رجوع بعده أو لأنهم إذا كان أهلهم من أهل الجنة فقد خسروهم لأنهم لم يدخلوا مدخلهم، هذا كلام الزمخشرى ونقله الرازى وزاد عليه قولا عن ابن عباس قال: إن لكل رجل منزلا وأهلا وخدما فى الجنة فإن أطاع أعطى ذلك وإن كان من أهل النار حرم ذلك فخسر نفسه وأهله ومنزله وورثه غيره من المسلمين، انتهى كلام ابن عباس.

ولك أن ترى فى الآية ملمحًا آخر، وهو أن الله سبحانه حثّنا على أن نأمر أهلنا بالخير وبالصلاة وقال فى أبينا إسماعيل عليه السلام ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ﴾ [مريم: ٥٥] وأمرنا سبحانه أن نقى أنفسنا وأهلينا نارا وقودها الناس والحجارة ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦] ولن نستطيع أن نقى أهلنا النار إلا بالدعوة الحسنة قولا وسلوكا، حتى ينشأ ناشئ الفتيان فينا على ما كان عوّده أبوه، وأن الآية الكريمة تحذرنا من خسارة أنفسنا لأنه ليس بعد الإحراق والخلود فى الجحيم شىء، وتذكرنا أهلنا لأن حرصى على نجاة ولدى وحفيدى ووالدى وأمى يدعونى إلى رعايتهم، وتعهدهم، ولا يفعل القول فى نفوسهم ما يفعله السلوك، والعمل، وهؤلاء ملازمون وعيونهم تَرانى وآذانهم تسمعنى، وقلوبهم تعرف صدقى وكذبى، واستقامتى وانحرافى، إلى آخره، وبعيد أن يراك ولدك مُنافقًا كذّابًا لصاً مخادعًا تمدح اللصوصَ وتأكل من فَتاتهم، بعيد أن يكون ولدك رجلا وقد رآك على هذا المستوى من الخساسة، والنفاق، والحقيقة هى أن أكون رجلا ليكون هو رجلا وأن أكون نظيف اليد ليكون هو نظيف اليد، وهذه داخله فى معنى ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ﴾، وداخله فى معنى ﴿خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾ هذا والله أعلم.

قوله جل شأنه ﴿أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾. قال الزمخشرى: «ولقد وصف خسرانهم بغاية الفظاعة فى قوله ﴿أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ حيث استأنف الجملة وصَدَّرَهَا بحرف التَّنبيه وَوَسَّط

الفَصْل بين المبتدأ والخبر وعرّف الخسران، ونَعَتَهُ بالمبين» انتهى كلامه رحمه الله وهو كلام جامع لبناء الجملة.

واسم الإشارة من دلالاته الثابتة أنه يميز المشار إليه أكمل تمييز، ولا يكون هذا إلا لمزيد من العناية بالمشار إليه؛ وبالخبر عنه؛ وهو هنا راجع إلى الجملة قبله ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾وذلك يعنى خسران الأنفس والأهل يوم القيامه هو الخسران المبين، ومعنى هذا أن هذه الجملة الثانية طَوَتْ فى داخلها الجملة الأولى، بواسطة اسم الإشارة، وميزتها أكمل تمييز، حتى يقع الحكم الذى بعد اسم الإشارة عليها بعد هذا التمييز، والبعد فى اسم الإشارة يشير إلى بعد المشار إليه، فى فظاعته، وهوله، ولو وقف الكلام عند قوله تعالى: ﴿أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ﴾، لكانت الجملة الثانية توكيدا لمعنى الجملة الأولى، لأنها تفيد أن الخسران الذى هو خسارة النفس والأهل يوم القيامة هو الخسران، وإضافة كلمة «مبين» غيّرت معنى الجملة الثانية، وجعلت المقصود الأصلى فيها هو أنه الخسران المُبين وليس الخسران فحسب، وهذا يجعل كلمة «مبين» هى معقد الجملة لأن كلمة مبين اسم فاعل من أبان، وأنه خسران مُبين خسارة ذلك الخاسر، أو خسارة هؤلاء الخاسرين، أو يكون مبينا عن نفسه وأنه هو الخسران المبين فى خسرانه، ثم إن وضع كلمة (الخسران) مكان مصدر ﴿خَسِرُوا﴾ وهو الخسر أفاد زيادة المعنى لزيادة المبنى، والجملة الأولى ابتدأت بقوله سبحانه ﴿قُلْ﴾ وحرف التوكيد إلى آخر ما قلناه مما يؤكد معنى الخسران فيها؛ لأنه لا خسارة فوق خسارة النفس والأهل، وطَرْحُها وَمَنْ مَعَها فى صَالِ الجحيم طَرْحًا تمكث فيه أبدا، ثم تأتى هذه الجملة وتستفتح بأداة الاستفتاح، ثم بالإشارة، ثم بضمير الفصل إلى آخره، وكل هذا يؤكد ويقرر فظاعة الخسران، وهوله، وكأن هاتين الجملتين وما تدلان عليه من هول وفظاعة يضعهما ربنا سداً بين عباده وبين

الجحيم، ولا يهلك على الله إلا هالك، وقد أشار قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ إلى هذا المعنى الذى هو حاجز يضعه الرحمن الرحيم بين عباده وبين الجحيم، ومرة ثانية لا يهلك على الله إلا هالك.

قوله سبحانه: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٦].

قلت إننى حريص على أن أستكشف نمو المعنى، وحركته، ووجهته، وأرى هذا النحو ظاهرا جدا فى هذه الآية، وأنها خطوة تالية للآية قبلها، وقد حاولت أن أكشف هول وفظاعة الجملتين قبلها، وها هى هذه الآية تشرح لنا فظاعة الخسران المبين، الذى سقط فيه الخاسرون الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، والظلل جمع ظُلَّة، وهو ما علاك، وأظلك، كما فى قوله تعالى ﴿غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾ [لقمان: ٣٢]، والمراد هنا طبقات النار، وأن ظُلَلَهُمْ من النار وعليك أن تتدبر، وتتصور، ظُلَّة النار التى فوقهم، وظلة النار التى تحتهم، والخاسر وأهله بين هاتين الظلتين، وهذا قريب مما فى سورة العنكبوت ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥] وهذه الصورة أفظع من صورة العنكبوت لأن النار هنا ظلة من فوقهم وظلة من تحتهم، وهى أكثر تجسيما من غشيان العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم مع ما فى هذا من الفظاعة؛ لأن التغشية معناها التغطية فالعذاب محيط بهم، وكأنه لباس من نار، أو ثياب قطعت من نار كما فى سورة الحج، والسياق مختلف لأن الظلل فى الزمر جاءت تفسيرا للخسران المبين وتغشية العذاب من فوقهم وتحت أرجلهم جاءت فى العنكبوت فى سياق استعجالهم بالعذاب، ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٤، ٥٥] ولاحظ ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ ثم تأتى بعدها التغشية وهى ضرب من الإحاطة كما يحيط الغطاء بصاحبه، وقدم الخبر هنا

﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ على المبتدأ ﴿ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ﴾؛ لأنهم هم المقصودون؛ لأن الآية فى بيان الخاسرين، واللام فى قوله سبحانه ﴿لَهُم﴾ فيها معنى أنها أعدت لهم؛ وأنها صارت ملكا لهم تلازمهم، وهنا معنى لا يهمل وهو أن هذا الخاسر الذى ضَلَّ وأضلَّ أهله وأولاده، وعاش فاجرا ينهب ويظلم ويجدُّ فى أن يعمل جاهًا ومَالا لأهله، وأولاده، هذا حاله وحالهم وهذا ما انتهى إليه هو وهم، وهذه ثمرات الخطف والسلب والنهب والكذب، والنفاق، والتزوير، هذه الظلل التى أعدت لـه ولهم هى النهاية الحقيقية التى عَمِى عنها وعاش ضالا يزرع الضلال فى نفوس من حوله؛ وهذه الآية من أخوف آيات الكتاب العزيز، وليس فى القرآن ظلل من النار إلا فى هذه الآية، وفيه ظلل من الغمام: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وفيه ﴿عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: ١٨٩]، وليس فى القرآن من فوقهم ظلل ومن تحتهم ظلل إلا فى هذه الآية، وراجع اختصاصها بمزيد من التخويف ثم موقعها مما قبلها أعنى جملة ﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ ثم موقع هذه الجملة مما قبلها، وهى ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لتدرك امتداد التخويف والتفظيع والترهيب؛ لأنـى كُلَّمَا زِدْتُ فى بيان ذلك رأيت نفسى بعيدًا أكثر من دلالتها التى لا تنتهى؛ وفى مثلها تعرف وتدرك معنى أن تحت كل كلمة من القرآن ما لا يتناهى من المعانى.

قوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ هذه جملة مستأنفة لبيان المقصود من الجمل الثلاثة التى قبلها، من أول قوله جل شأنه ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ وقد بُنِيَتْ جُمَلُ هذا القسم على الاستئناف، والاستئناف كما يقول أهل العلم له دلالة ظاهرة وأن المعنى الذى استؤنف لـه الكلام معنى له شأن وله بال وأن الحق سبحانه حين يأتى كلامه مَبْنِيّاً على الاستئناف يقول لنا استقبلوا هذا المعنى الذى استأنفه الكَلامُ بما ينبغى أن يكون استقباله وتلقِّيه، واسم الإشارة هنا لا يفسر

بمعزل عن اسم الإشارة فى قوله تعالى: ﴿أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ لأن اسم الإشارة هنا راجع إلى قوله جل شأنه ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ وهذه الجملة بيان لقوله تعالى: ﴿أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ وهذه توكيد لقوله تعالى ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ فإذا قلنا إن اسم الإشارة راجع إلى﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ﴾ فلابد أن نلاحظ روابط مرجع اسم الإشارة بما قبله، وأن يكون معنى ذلك هو قوله تعالى «قل إن الخاسرين الذين خسروا» وأن ذلك هو الخسران المبين، وأن جزاءه ظلل من النار، ثم إن اسم الإشارة يميِّز ذلك أكمل تمييز، وكأنه يضع تحت العين كل هذه المعانى ويبرز المعنوىَّ منها فى صورة المحسوس، مثل خسران الأنفس والأهل، وأنه الخسران المبين، ويحضر ما كان محسوسا فى صورته، فيحضر ظلل النار من فوقهم ومن تحت أرجلهم، كل ذلك ينهض به اسم الإشارة وأنه يلخص الذى مضى أكمل تلخيص؛ كما يميزه أكمل تمييز ولا أعرف فى العربية كلمة تنازعه فى هذه الدلالة، ثم نرى أطيافا تحوم حوله لأن اسم الإشارة فى الحقيقة هو كلمة (ذا) واللام للبعد والكاف حرف خطاب، «وذا» هذه هى التى تنهض بذلك كله، ولام البعد معها تتلون دلالاتها على حسب السياق، والبعد هنا بعد فى المعنى المقصود بالكلام، وهو بعد فى التهويل، والتفظيع، والترهيب، والخطاب خطاب لى ولك ولكل من قرأ هذه الجملة؛ أو سمعها من يوم أن نزلت إلى يوم يتيبَّس لسان الخلق فلا ينطق، وتُوقَرُ آذان الخلق فلا تسمع، لأن كل خطاب فى القرآن خوطب به من نزل عليه الكتاب صلوات الله وسلامه عليه، هو خطاب لنا ما لم يكن أمر مما خُصَّ به المصطفى ﷺ وإنما خص فى الكتاب بالقليل جدا مثل حلٍّ من وهبت نفسها للنبى ﷺ، ولو لم نَقُلْ بهذا نكون قد عطلنا كل أساليب الخطاب التى خوطب بها صلوات الله وسلامه عليه من يوم أن دعاه ربه فأجابه ولحق بالرفيق الأعلى، وكلمة ﴿يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ جملة أولها رهبة وآخرها رغبة؛ وهى خبر اسم الإشارة العائد على ما ذكرنا، وأن هذا الذى ذكرنا يخوف

الله به عباده، وإنما كان أولها رهبة لأنها افتتحت بالتخويف، وبصيغة المضارع الدال على التجدد والحدوث، فهو تخويف متجدد، أبدا، ثم أسند التخويف إلى لفظ الجلالة وهو الدال على الكمالات المطلقة، والجامع لأسماء الله الحسنى، ومنها العزيز الجبار المتكبر القادر القاهر المهيمن، وكان الترغيب فى آخرها لأن كلمة ﴿عِبَادَهُ﴾ تؤنس، وأننى حين أكون فى قبضة الجبار المتكبر ويذكرنى هو سبحانه أننى عبده، فإن هذا التذكير يؤنسنى وخصوصا أننا لازلنا فى دار التكليف؛ وأن الرجعة ممكنة، والإنابة ممكنة، والتوبة ممكنة، ولا يزال باب الرحيم الرحمن مفتوحا لم يغلقه فى وجوهنا بعد، وإنما يُغْلَق عند الغرغرة وعند حضور الموت، وحينئذ لا يقبل أن أقول تبت الآن وهذه هى الوحيدة التى لا تقبل فيها التوبة، وماعدا ذلك كله زمان للتوبة.

وكلمة ﴿عِبَادَهُ﴾ بإطلاقها تشمل المؤمن والكافر، والسياق يرمى بها إلى الكافر أكثر مما يرمى بها إلى المؤمن، لأنها خبر «ذلك» الذى ضمن عائلته الدال عليها الخاسرون الذين خسروا أنفسهم وأهليهم، ولهم ظلل من النار، والكل خلقه والكل عباده، نعم تكثر كلمة العباد مضافة إلى الحق فى حديثه عن الذين آمنوا، ولا شك أن التخويف لبلوغ الأمن من دلائل القرب والحرص والربوبية، ومن خوَّفك لتبلغ الأمن خير مِمَّن أمنك لتبلغ الخوف، والله عز وجل يخوفنا ويخوفنا ويكرر تخويفنا لنبلغ الأمن، وما دمنا نخاف أو ما دمنا نُخوَّف فنحن أحياء وفى فسحة، وبعيدين عن لحظة إغلاق باب التوبة، ونحن فى هذا العمر المديد وهذا الوقت المفتوح نخوف ونُخوَّف، ويتكرر ذلك ويتجدد لَعلَّ هذا يوقظ ونَفْطِن لحظة واحدةً ونَسْمع نداءه ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦] ولذلك أجد رحمة الله تغلب غضبه فى آيات العذاب والوَيْلَ والثبور وظلل النار وهم يصطرخون فيها، لأن كل ذلك تخويف لنبلغ الأمن، وحين أقول إن هذه

الجملة أولها ترهيب وآخرها ترغيب إنما أعنى الدلالات الظاهرة، ولاشك أن قوله تعالى: ﴿يُخَوِّفُ﴾ أرْعبُ للنفس وأن قوله تعالى: ﴿عِبَادَهُ﴾ آنس للنفس، قوله سبحانه: ﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ هى عكس الجملة التى مضت لأن أول هذه رغبة وآخرها رهبة، والرغبة فيها أعلى صوتا لأن الحق ينادينا، ولم يقل يا أيها الناس، ولا يابنى آدم وإنما خصنا هنا بوصف العبودية له، لأن سياق الكلام إخلاص العبودية لله رب العالمين ولهذا كثرت كلمة ﴿عِبَادَهُ﴾ وراجع انتقال الكلام من ظلل النار التى من فوقهم ومن تحتهم، وأنهم هم الخاسرون الخسران المبين ثم فجأة يتجه الحق إلى هؤلاء وهم فى قلب الظلل، ويناديهم ويقول «يا عبادى» نجد فرقا شاسعا بين غاية الغضب، وغاية المَقْت على الذين عبدوا ما شاءوا من دونه وخسرانهم ورميهم بين ظلل النار من فوقهم ومن تحتهم، وغاية الملاطفة التى نراها فى الالتفات إليهم وندائهم بوصف العبودية لله، لأن هذا الوصف هو الذى خلقوا له، ولن تستطيع أن تدرك ما أريد أن أقربه منك إلا إذا راجعت الكلام، ووضعت لسانك عليه وذقت دلالته، وأن الكلام قبل قوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ كان الأسلوب أسلوب الغائب أعنى المتكلم نراه ظاهرا فى قوله ﴿يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ ولم يقل سبحانه نخوف كما قال فى الجملة الأخيرة ﴿فَاتَّقُونِ﴾، ولم يقل فاتقوه لأنه هو المنادى سبحانه يعنى أن الالتفات كان فى كلمة يا عبادى، ثم قذوق شيئًا آخر هو أن المخاطبين فى قوله: ﴿يَا عِبَادِ﴾ هم الغائبون فى قوله: ﴿عِبَادَهُ﴾ وهذا التفات آخر وكأن هذه الجملة فيها التفاتان أو عدولان عدول فى المتكلم وعدول فى المخاطب وهذا يعنى المزيد من اللفت والاسترعاء والإيقاظ، والتّطْرِية كما قال الزمخشرى أسكنه الله الغرف مع الصالحين من علمائنا الذين علمونا، ويختص موضع الالتفات هنا بشىء هو أن هذه الجملة خلاصة ومحض الكلام الذى مضى، وقد لخصته الجملة فى كلمة واحدة وهى ﴿فَاتَّقُونِ﴾ وهذه الفاء واقعة جدا لأنها ترتب الأمر بالتقوى على ما مضى

مبتدئا من «فاعبدوا مـا شئتم من دونه» الذى هو امتداد لهذا العرق الغالب فى السورة لأن أكـثرها فى خطاب العـابدين لغيـر الله، وتخويفـهم، وإنما يُذْكَرُ العابـدون الذين أخلصوا عـبادتهم لله من حـيث إنهم صورة مـقابلة ناصـعة ناصحة لإغراء الـضالين وكأنهم نجوم يهتدى بهـا فى الظلماء، قلت إن كلمة «فاتقون» تلخيص بارع لكل الذى مضى، ولا يمكن أن تعزل كلمة ﴿فَاتَّقُونِ﴾ عن كلمة ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يعنى اتقوا عـذابى فى هذا اليوم العظيم الذى لا يفلت منه كافر معاند، والذى يخـافه خير من خَلَقْتُ واصطفيت وأرسلت وأنزلت عليـه أحـسـن الحـديث؛ وكـذلك لا نسـتطيع أن نتـكلم فى قـوله تعالى: ﴿يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ بمعزل عن قوله عليه السلام ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ﴾ والله سبحانه وتعالى أمره بأن يقول لنا إنه يخاف ثم أخبرنا سبحانه أنه يخوفنا ثم أمرنا سبحانه بأن نتقى عذابه فى اليوم العظيم، وهكذا نرى الكلام بناء حيّاً متماسكا إذا نطق منه عضو تناغت معه سائر الأعضاء بمثل ما نطق.

قلت إن بونا بعيدا بين الرعب الذى يرعبك فى قوله تعالى ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾، والونسة التى تعـروك وأنت تسمع ﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ وأقول إن كلمة ﴿عِبَادَهُ﴾ التى قلت إنها الآخر الذى فيه رغبة ويقابل الأول الذى فيه رهبة وهو قوله تعالى: ﴿يُخَوِّفُ﴾ أقول إن هذه الكلمة هيأت النفس إلى الانتقال مـن الحـالة الأولى إلى الحالة الثانية، وقد اسـتدعت كلمة ﴿يَا عِبَادِيَ﴾ وأمـسكت بها وجـعلتـها تسـبق الفاء التـى فى قوله سـبحـانه ﴿فَاتَّقُونِ﴾ لأن هذه الفاء رتـبت الأمر بالتقـوى على ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ وأصل الكلام ذلك الذى يخـوف الله به عباده فـاتقوه يا عـباده، ثم انتقل الكلام فيها إلى طريق التكلم بَدَلَ طريق الغيبـة فصار فاتقون، كما تحول الكلام مع العباد من طريق الغيبة فى قوله «عباده» إلى طريق الخطاب فى قوله فاتقون كما مر، ثم تقدمت كملة ﴿يَا عِبَادِيَ﴾ فاصلة بين الفاء وما بعدها من

جهـة وما ترتبت عليه من جـهة أخرى، وجـاء النداء فى موقعـه مع مثل هذا التركـيب فى قوله تعالى فى سورة البـقرة: ﴿**الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ**﴾ [البقـرة: ١٩٧] آخر النداء فى البقرة وقال «**يا أولى الألباب**» ولم يقل يا عباد، لأن المقـام مختلف جدا؛ هذا حديث مع ركب الحجيج الذى يهلل ويكبّر ويفعل الخير ويتزوّد خير الزاد، وهذا حديث مع الذين اتخذوا من دونه أولياء وعبـدوا ماشاءوا وخسروا أنفسهم وأهليهم ولهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل، وكل هذا مما يخلع القلب وسيـاق البيان سيـاق تأليف ومقاربة لأن الله يخـوفهم بكل ذلك ليخافوا ويرجعوا عن هذا الخسـران المبين، ولم تكن كـلمة عباده ممسكة بكلمة يا عبادى من حيث التكرار اللفظى، وإنما كـانت ممسكة بـها مـن حيث مـا فيها مما يُؤْنِسُ ويُقَـرِّبُ ويُذْهب الرَّوْع وَيَنْفِي اليـأس ويَحْدو إلى التى هى أحـسن. وقبل أن أنتقل من هذه الآية، أدعوك إلى أن تراجع ﴿**ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ**﴾ لتتأكد أن قـوله سبحانه «**يا عبادى فـاتقون**» هو قوله سبحانه «**ذلك يخوف الله به عباده**»، وكأنه سبحانه لما أخبر أنه يخوف عبادة الْتَفَتَ إلى عباده؛ وقال «**يا عبادى فـاتقون**»، وفى هذا ما فيـه من الرحمة والوُدّ لأن الله سبـحانه رحيم ودود، وهـذا وصف مطلق تُقُيِّد فـيه الرحـمة والوُدُّ بمن آمن، وقوله يا عباد فاتقون بيان لشأنه مع خلقه جل وتقدس.

قوله سبـحانه: ﴿**وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ (١٨) أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ (١٩) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ**﴾ [الزمر: ١٧- ٢٠].

هذا فصل آخر من فصول معانى السورة، ولابد أن نذكر أننا حين نقسم السورة إلى أبواب أو فصول إنما نفعل ذلك على سبيل المقاربة، والمسامحة، لأن الكلام فى السورة كلها ممسك بعضه ببعض، وإنما أردت جمع الآيات التى كأنها تدور حول محور واحد، ليسهل إدراك ما بينها من تماسك، ثم إدراك ما بين الباب والباب من تماسك، وإلا فالذين اجتنبوا الطاغوت هم المقابلون للذين فوقهم ظلل من النار؛ ولأن هذه الظلل إنما كانت لما عبدوا ما شاؤوا، وخسروا أنفسهم وأهليهم، وكان يمكن أن يكون هذا الفصل من أول قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾، ولكننى وجدت عروة قوية بين ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي﴾ وقوله: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾ فأدخلت هذا القسم وما اتصل به فى الفصل الذى بدأ بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ ولا عليك إن خالفت.

وهذه الآيات امتداد لقوله تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ ﴿إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ ثم هى صورة مقابلة ومضاده للذين اتخذوا من دونه أولياء، والذين كفروا والذين خسروا أنفسهم وأهليهم، وهذا تَشَارُبُها مع مكونات السورة، وأنها من هذه العائلة من المعانى المكونة للسورة.

وابتداء الكلام باسم الموصول فيه أنهم عرفوا بذلك وشهروا به، كما عرفوا بالإيمان وشهروا به، فى قوله سبحانه ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾، واجتناب الطاغوت تفسير للإيمان؛ وإيماء إلى أنهم من أولى الألباب الذين يتذكرون، والإيماء أيضا إلى أنهم أهل نظر وتدبر يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وكلمة ﴿أَن يَعْبُدُوهَا﴾ بدل من الطاغوت وهى المقصودة بالحكم، لأنها أصل معنى الجملة، وإنما ذكر الطاغوت وهو فى نِيَّة الطَّرْح للإشارة إلى أن معرفة الحق من الباطل فى العبادة ليست غامضة وليست

محتاجة إلى تنطس لأن الطاغوت الذى هو الصنم أو الذى هو الشيطان أو كل معبود بالباطل لا يحتاج تجنبه إلا إلى شىء واحد وهو أن يكون الإنسان عاقلا؛ يعنى له عقل يعيش به فى الناس، ويعرف به شماله من يمينه؛ وهذا العقل فى أول صُوَره؛ وأول درجاته يأنَفُ أن يعبد الطاغوت، ويدعو إلى اجتنابه لأن عبادة الطاغوت، لا تكون إلا مع الإضلال وافتقاد التمييز، وافتقاد أقل قدرة على التذكر، وهذا السلوك السهل جدا والذى لا صعوبة فيه، هو الذى يُبَشّر الله به عباده الذين سلكوه، ثم إننا نلاحظ أن مادَّة العبادة تلقانا كثيرا فى السورة، وكلمة ﴿أَن يَعْبُدُوهَا﴾ تَلْتفتُ بلا شك إلى أخواتها فى السورة، والتى كان جذرها ورأسها ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ﴾ و﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ﴾ وليست بعيدة عن كلمة «عباد» التى تكررت أيضا، ثم إن موقع هذه الآية من الآية قبلها التى صورت ظلل النار من فوق الخاسرين، ومن تحتهم، هم وأهلوهم، فيها إشارة إلى أن النجاة من هذا الهول الذى لا يقادر قدره، وهذا العذاب المزلزل، وهذه الفظاعة التى يروع الحِسُّ الإنسانى من تصورها لشدة بشاعتها، النجاة من هذا كله والانتقال إلى الغرف التى تجرى من تحتها الأنهار، لا يحتاج إلا إلى أن يكون المرء فيه بصيصٌ من العقل والحكمة؛ لأن بصيص العقل يهدى إلى اجتناب الطاغوت، وأن الطريق المستقيم الهادى إلى الغرف التى من فوقها غرف مناراته لا تُخْطِئُها عين ترى؛ ولو كانت ذات رمد؛ وهل يحتاج من يأنف العبودية لحجر إلى فلسفة، وطول تدبر؟ ولو أن الله سبحانه كلف الأنعام بعقلها الذى تعرف به الطريق فقط بالعبادة لأنفَتْ الأنعام أن تسجد للطاغوت، أقول إن عَرْض الآيات فيه هذا المعنى، وأن اختيار الغرف والهروب من ظلل النار هو الموقف الذى لا يقبل صاحب الفطرة السهلة القريبة أن يسلك غيره، وأن الله سبحانه وتعالى كلفنا بما يلائم هذه الفطرة؛ وأن هذا الدين هو هذه الفطرة، وأن ثواب الجنة ونعيمها الذى لا تَعْلم نفس

ما أخفى للصالحين فيها من قرة أعين هو فقط لسلامة الفطرة، ورفض المهانة التى يُرى فيها الإنسان قد دمّر إنسانيته وانكسر أمام الطاغوت، ثم إن كلمة الطاغوت من الطغيان والألف التى فى الطاء أصلها واو أو ياء وفعله طغى فهى آخر الكلمة ونسميها فى الصرف لاما لأنها تقابل اللام فى الميزان؛ لأن طغى على وزن فعل، ثم قدمت هذه اللام على العَين وقُلِبَتْ ألفًا، فطاغوت وزنه الصرفى فلعوت، وليس فعلوت، والطاغوت مصدر مثل الرحموت والملكوت ووزن الرحموت والملكوت فعلوت، وهذه المصادر تدل على سَعَة المعنى فالرحموت واسع الرحمة، والملكوت واسع الملك، والطاغوت واسع الطغيان وسمى به الشيطان أو الصنم أو كل معبود بالباطل مبالغة، لأن التسمية بالمصادر تفيد المبالغة فى معناها، وهذا ظاهر والذى أردته من هذا التحليل هو أن الجملة الكريمة يمكن أن تكون دلالتها أوسع من السجود للأصنام، والتّقرب إلى الطاغوت بالعبادة والعقيدة، وأن يكون من معناها الركوع للطغيان، ونفاقه، والوقوف بين يديه وإنى أرى من حولى طواغيت لهم ألقاب فخمة، والقوانين تُحرِّم العيب فى ذاتهم، والمساس بهم، وهم جِبْتُ هذا الزمن وطاغوته، فإذا كانت اللات والعُزَّى طواغيت الزمن القَديم، فإن أصحاب الفخامة هو طواغيت زماننا، وكانت اللاتُ والعُزَّى مسالمة فهى لم تَقْتُل ولم تبطش ولم تنهب ولم تُلَفِّق التهم للشرفاء، ولم تدمر الأوطان، ولم تُسلِّم تراب الأرض للعدو يقيم فيه بعسكره وتحرم مقاومته، وتعطيه أجرا على احتلاله للأرض، وتُهادن الذين استعمروا البلاد، والذين طردونا من ديارنا، ما أسعد الجاهلية الأولى بطواغيتها، وما أشقانا بطواغيتنا، والآية تقول لنا اجتنبوا طواغيتكم أن تعبدوها واجتنبوا أن تقولوا لها شعرا، وتدنسوا أقلامكم، ولغتكم بالثناء عليها، فإذا عجزتم عن كسر أنوفها فلا أقل من أن تجتنبوا عبادتها، لأن العبادة ليست ركوعا وسجودا فحسب وإنما منها مُداهنة الطواغيت، وممالأتها ونفاقها والركون إليها، وقد حذرنا ربنا من الركون إلى الذين ظلموا والطواغيت الذين هم أهل الطغيان من الذين ظلموا.

قوله سبحانه ﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾ هذا هو الشق الثانى من الصلة وهو معطوف على ﴿اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ﴾ وثمة مناسبة ظاهرة بين طرفى الجملتين فالإنابة تطابق الاجتناب ولفظ الجلالة يضاد الطاغوت ولفظ الجلالة هنا أوقع من أن يقال وأنابوا إلى ربهم لأن لفظ الجلالة فيه كل الكمالات، وهو جامع للأسماء الحسنى، وهذا مقامه، لأن الأنابة إلى الموصوف بكل كمال والمنزه عن كل نقص هى إنابة المتذكرين من أولى الألباب، وإنابة الفطرة التى لم تُكَدَّر بما يكدِّرها، وفى هذا العطف معنى آخر ليس هو فقط أنهم لم يحصلوا البشرى إلا بهما، وإنما لأن فيها معنى أن من اجتنب الباطل لايَسْتَحقُّ من الله البشرى إلا إذا دخل فى الحق، وكان من رجاله، واجتناب الباطل موقف جيد، ولكنه سلبى أو هو من التّخلية، والإنابة إلى الله هى الموقف الإيجابى وهو من التحلية، وأنك حين تنفض يدك من الباطل، وتَغْسِلُهَا منه، ثم تبتعد، فأنت لم تَفْعَل ما تستحق به البشرى، ولابد من أن تدخل فى الصالحين كما كان يدعو الأنبياء والصادقون، فى الأمة، و﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩] وأن يكون من المسلمين ومن المؤمنين إلى آخر الآيات التى تحثُّ على الانخراط فى الجماعة الصادقة الصالحة التى تجتنب الباطل والطاغوت، ومَنْ حول الطاغوت، ثم تدخل فى الاتجاه المقاوم للطاغوت ولو تعمّقْتَ غير متكلّف؛ وقلت إن قوله جل شأنه ﴿اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ تَسْتحضرُ بطريق التضاد، الذين لم يجتنبوا الطاغوت، وهم الذين اتخذوا من دونه أولياء، والذين قالوا اتخذ الله ولدًا، والذين قال لهم ربنا ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ إلى الذين من فوقهم ظلل لم تكن مخطئا، ولو قلت إن قوله سبحانه ﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾ تستحضر الذين أخلصوا دينهم لله، والذى كان قانتا آناء الليل، والذين أُمِرُوا بالتقوى والإحسان إلى آخره لم تكن أيضًا مخطئا، وأن شِقَّىْ هذه الصلة شاملة للسورة كلها، وأنه كان يمكن أن يقال والذين أنابوا إلى ربهم لهم البشرى لأن من أناب إلى الله مجتنب للطاغوت لا محالة وإنما جاءت على ما جاءت عليه لتكون ذات

يدين يد تشيـر إلى الذين اتخـذوا من دون الله آلهة، ويـد تمسك بالذين أنابوا وتَشْتَرِط فيمن يبشره ربه شرطين الأول تطهير النفس من الطاغوت واجتنابه، ثم إنابة النفس إلى اللـه وحده والدخـول فى عـباده الصـالحين. وألاحظ أن ذكـر الصالحين فى كل ما مـضى فيه معنى إخلاص العـبادة لله رب العالمين، لا أريد من وُصِفوا بهذا صراحـة، وإنما أريد القانت آناء الليل، والذين اتقوا وأحسنوا، والذين أنابـوا، لا يكون القنوت إلا مـع لذة الإخـلاص ولا تكـون التـقـوى والإحســان إلا مع لذة الإخلاص، وكـذلك الإنابة وهذا يعنى جـريان إخلاص العبادة فى كل موضع يذكر فيه هذا النموذج الصالح.

وقوله سبحانه ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾ أول ما يلقاك فى هذه الجملة الواقـعة خبرا عن هذا الموصول هو تقـديم الجار والمجرور الدال على ضمـيرهم لمزيد العناية بهم وتَقَدّمُـهم وسبقـهم إلى الله فَسَبَق الكلام بـذكرهم، وهذه اللام تعنى أن البشرى خاصة بهم، وأنها لهم لا لغيرهم، وأن الحق جل وتقدس أعدّها لهم، وتعريف البشرى بالألف واللام يعنى حقيقة البـشرى، وماهية البشرى، وكمال البشرى، وقد ذكر الرازى أن البشرى التى يُبَـشِّر الله بها عباده الصالحين ليست مما سبق الإخـبار به، فليـست الجنة التى لهم فيـها ما تشـتهيـه الأنفس والتى سيُـحدِّثنا ربنا عن غرفـها المبنية التى من فوقـها غرف، وليـست رؤية الله عز وجل، وليست الرضوان، لأن كلمة البشرى تعنى الخبر الأول، وهذا يعنى أنها شىء غير ذلك كله، وأن كل مَـنْ بَشّرهم ربنا لهم عند ربنا شىء لا يدخل فى شىء مما وصف به نعيمهم، وهذا كلام عجيب، وعبارة الرازى هى:

«فـرق بين الإخبـار وبين البشـارة، فالـبشـارة هى الخبـر الأول بحصـول الخيـرات، إذا عرفت هذا فنقـول كل ما سمـعوه فى الدنيـا من أنواع الثواب والخير، أو سمعوه عند الموت أو فى القبر فذلك لا يكون إلا إخبارا، فثبت أن هذه البشارة لا تتحقق إلا إذا حصل الإخبار بحصول أنواع أخر من السعادات فوق ما عرفوها وسمعوه فى الدنيـا نسأل الله تعالى الفوز بها قال تعالى ﴿فَلا

تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]» انتهى كلامه رحمه الله، وإنما ذكر هذه الآية ليؤكد أن البشرى داخلة فيما لا تعلمه النفس لأن النفس علمت ما حكاه القرآن من الأرائك والسرر والحور العين والفاكهة والحرير إلى آخر ما ذكر، وهذا الفهم مما يرزقه ربنا للمخلصين من علماء هذه الأمة الذين يُسَمِّى فكرَهم وعلمهَم قِرَدَةُ هذا الزمن قديما وتقليديا، وجمودا أيضا، وهذا الخَبَرُ ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾أو هذه البشرى من الله للذين أنابوا وطهَّرُوا نفوسهم من الطاغوت فيه من العطاء والمَنِّ والإكرام، والقرب والرضوان ما فيه الكفاية وفوق الكفاية لأنه عطاء ممَّا لا تعلمه نفس؛ وقد أضافه الحق مَحَبّةً ومَسَرَّةً وليدخل المسرة على قلوب هؤلاء وقال لأكرم خلقه ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ وهذه الفاء ترتب أمره ﷺ بالبشارة إلى خبر الله بالبشارة يعنى أنا بَشَّرْتُهم وبشرهم أنت، وبلغهم أنت لا لتتأكد البشارة لأنه ليس بعد خبر الله توكيد، وإنما هو إظهار المنِّ والفَضل والقرب، وأن خزائن رحمة الله مفتوحة لأهل الإنابة، وأهل الرجوع وأهل الإخلاص، وليسوا هم الذين لم يعبدوا الطاغوت وإنما هم الذين اجتنبوه وفرق كبير بين من لم يعبد الطاغوت وبين الذى اجتنبه لأن الذى اجتنبه عافته نفسه وجعل مسافة بينه وبين الوادى الذى هو فيه؛ وجعل مسافة بينه وبين أسباب القرب منه، ولا تنس اشتقاق الطاغوت من الطغيان وأن أهل الطغيان من فجرة الناس حكاما أوخَداما للحكام هم من الطاغوت بسبيل ملعون؛ وأن الصالحين لم يجتنبوهم فحسب، وإنما دخلوا فى الصف المعاند لهم لأن مواجهة الطغيان من أكرم صور الإنابة إلى الله، وأفضل العبادة كلمة حق عند سلطان جائر يعنى طاغ يعنى قريب الطاغوت ومن جذره، ويمكن أن يكون المأمور بالبشارة فى قوله سبحانه ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ هو كل من تتأتى منه البشارة ويكون المراد عموم المخاطب الصالح فى تلقى أمر ربه ويكون عليه السلام داخلا فى هذا العموم وهو سيد هذا العموم كما قال عليه السلام بشر المشائين إلى المساجد بالنور التام يوم

القيامة، وكلمة ﴿عِبَادِ﴾ مما وضع فيه الظاهر موضع المضمر لأن عباده هنا هم الذين اجتنبوا الطاغوت وأنابوا إلى الله والأصل أن يقول فبشرهم ولكن كلمة عباد مضافة إلى الحق جل وتقدس فيها معنى ليس فى الضمير، أولا لأنهم أخلصوا عبوديتهم له سبحانه وثانيا أن الله سبحانه شرفهم وقربهم بالإضافة إليه، وثالثا أن عطاءهم من الله لا يُحدّ لأنهم أهل خاصته، وأهل قربه، والمنيبين إليه ووراء كل ذلك ما وراءه مما لا يناله لسانى ولا قلمى.

وقوله سبحانه ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ داخل فى وضع الظاهر موضع المضمر، وهو وصف لعباد وفيه أن من أبرز صفات عباده المنيبين إليه أنهم يُحْسِنون الاستماع، ويحسنون الانتقاد، وأن آذانهم إذا سمعت ما تسْمعه الآذان وقعت على خياره، وأحاسنه وأطايبه، فاتبعوا الأحسن لأن طباعهم بَرِئَتْ من الكدر، وتاقت إلى الأفضل، والأحسن، وفى سوس طبع النفس الميل إلى الحسن، وترك القبيح، فإذا رأت الأحسن مالت إليه وتركت الحسن، لأنها تستشرف بطبعها إلى كل ما هو أسمى؛ فى السلوك، والخلق، والعلم، وكل ما تباشره مما تراه أو تسمعه، والذى يستمع القول فيتبع أحسنه هو الذى يرى الفعل فيتبع أحسنه، وليس أفضل من نفس تستشرف دائما إلى الذى هو أحسن.

والله سبحانه يدعونا إلى الذى هو أحسن، وقد أنزل علينا ولنا أحسن الحديث، وهذا هو الدين وهذه هى الفطرة. الدين ضد كل قبح ومع كل حسن وأحسن ما ترك خيرا إلا أمر به وما ترك شرا إلا نهى عنه، ومعلوم أن كلمة ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ غير كلمة «يسمعون» لأن المستمع هو القاصد إلى السماع المُحْتَشِد له، والذى أخْلى نفسه من كل شاغل حتى يحسن الاستماع، وحتى ينتقد ما يستمع إليه، وحتى يتخيّر منه أطيبه، ولابد أن تلاحظ أيضا أن المفْعُول به هو ﴿الْقَوْلَ﴾ وأنه ليس مقيدًا، بقول ما فى أمر

أو نهى، أو كتاب أو سنة، أو ما شئت، من مذاهب القول، وفنونه، نعم إن الخبر ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ يجعل هذا الأحسن كلام الله وكلام رسوله، والأحسنية هنا إنما أصابها هذا المستمع بفعله، ولم يقل له ربنا فى هذه الجملة إن الأحسن هنا هو ما أنزلته إليكم، وستأتى بعد هذا آية ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا﴾ [الزمر: ٢٣] ولو قلت إن هذه الجملة إرهاص بالآية المُقْبلة لم تخطئ؛ والذى يعنينى هنا هو بيان الإطلاق فى القول لأن الآية تُعلّمنا كيف نقرأ؛ وكيف نتعلم؟ وكيف نُسْكِن المعرفة فى قلوبنا وعقولنا وكيف نتخيّر ما نبنى به أنفسنا بناء علميا، وما نبنى به ثقافتنا، وثقافة مجتمعاتنا، والآية بإطلاقها أقرب إلى هذا. من الذى يُتوهَّم صَرفها إليه؛ وقد فطن علماؤنا إلى السخاء الذى فى هذه الجملة وأنها داعية إلى تدقيق الفكر؛ وتدقيق المذاهب وصقل المعرفة، وجمعوا فى معناها بين الاختيار الأحسن، واتباع الأحسن، فى أمور الدين واختيار واتباع الأحسن فى أمور الدنيا، ذكر الزمخشرى أن الحق سبحانه وَصَفَ عباده الذين لهم البشرى بأنهم اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها، وأنهم أنابوا إلى الله، وأنهم نقادٌ من الدين «يميزون بين الحسن والأحسن والفاضل والأفضل فإذا اعترضهم أمران واجب وندب اختاروا الواجب، وكذلك المباح والندب، حراص على ما هو أقرب عند الله، وأكثر ثوابا» ثم قال «ويدخل تحته المذاهب واختيار أثبتها على السَّبْك وأقواها عند السَّبْر، وأبينها دليلا؛ أو أمارة وأن لا تكون فى مذهبك كما قال القائل: (ولا تكن مثل عَبد قيد فانقادا، يريد المقلد، وقيل يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن، وقيل يستمعون أوامر الله فيتبعون أحسنها، نحو القصاص والعفو، والانتصار، والإغضاء، والإبداء، والاخفاء، لقوله تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧] ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١] انتهى كلامه رحمه الله.

ويستنبط الرازى من الآية ثناء الكتاب العزيز على الحجة العقلية، وثناءه

على أهل الاستنباط، والنظر، والقياس، ووجه ذلك عنده أن السماع والاستماع معنى عام يشترك فيه الناس، والأذن لا تميز الحسن والأحسن وإنما الذى يميز هو مراجعة العقل، والنظر فى المعانى، والأحوال، وقياسها، وتمييز فاضلها، ومفضولها، وكل هذا لا سبيل له إلا العقل، والآذان كلها سواء، قال رحمه الله «فثبت أن تمييز الأحسن عن سواه لا يتأتى بالسماع وإنما يتأتى بحجة العقل، وهذا يدل على أن الموجب لاستحقاق المدح والثناء متابعة حجة العقل، وبناء الأمر على النظر والاستدلال» انتهى كلامه، وهو كلام جيد جدا، ولما كان الرازى كلفا بالاحتجاجات العقلية رفع له هذا الكلف هذا الدليل من الآية، والكلام العالى تتوارد عليه القراءات وكل قارئ له هم غالب عليه فيكون استنباطه من الكلام العالى أقرب إلى هَمِّه والمهم أنهم جعلوا هذه الجملة نبعا يعلمنا كيف نبنى الفكر والعلم. ولما ذكر الزمخشرى أن أحسن المذاهب أثبتها على السبك وأقواها عند السبر إلى آخره أحسَّ الرازى أنه يعرض بغير مذهب المعتزلة فذكر من صور اتباع الأحسن فى المذاهب صورا تنازع مذهب المعتزلة، منها أن الإقرار بأن الله تعالى لا يجرى فى ملكه وسلطانه إلا ما كان على وفق مشيئته أولى من القول بأن أكثر ما يجرى فى سلطان الله على خلاف إرادته، والقول الأول قول الأشاعرة، والقول الثانى قول المعتزلة لأن المعتزلة يَنْفُون عن الله سبحانه إرادة الشر؛ الذى فى هذا الوجود، والأشاعرة يقولون لا يقع فى ملكه إلا ما يريده، ولو كان لا يريد الشر ما وقع الشر فى ملكه ويقول الرازى أيضا «القول بأن الله رحيم كريم قد يعفو عن العقاب أولى من القول بأنه لا يعفو عنه البتة» والأول مذهب الأشاعرة الذين يقولون إن الله سبحانه يَغْفِرُ الكبائر بالتوبة وبغير التوبة، وهذا هو معنى أن الله رحيم كريم قد يعفو عن العقاب، والمعتزلة يقولون إن الله لا يغفر الكبائر إلا بالتوبة، وهذا هو معنى أن الله لا يعفو عن العقاب البتة، وهذه من لطائف المحاورات التى تكون بين أهل العلم وإن تباعد الزمان والمكان.

قلت إن قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ من وضع المظهر موضع المضمر، يعنى هم الذين اجتنبوا الطاغوت وأنابوا إلى الله، وأفهم من هذا أن من سَمْت من أناب إلى الله أن يكون حيَّ العقل نقادا يسمع ويعقل ويقيس ويستنبط ويفاضل، وهذا شأن من شأنه أعنى القدرة على النقد والتمييز والاختيار، ثم إن من شأنه أيضا أنه إذا عرف الأفضل اتبعه، يعنى هو باحث عن الأفضل لا يعلمه فحسب، وإنما ليعمل به، ويتبعه، واتباع الأحسن يعنى ترجمة العلم إلى عمل، فى كل باب من أبواب العلم والعمل، وهذا يفيد أن عباد الله الذين أنابوا إليه وأخلصوا قلوبهم له فى حركة دائبة وهذه الحركة حركة ذات شقين شِقٌّ منها نَقَّابٌ عن الفكْرَة السديدة؛ وشق منها مجتهد فى تطبيق هذه الفكرة السديدة، وترجمتها إلى واقع يعيش فى الأرض، ولا ترى للتقدم والتنمية والبناء الحضارى المتجدد صورة أفضل من هذه الصورة، وتعجب أن يكون هذا بيننا نحفظه فى العقد الأول والثانى من عمرنا، ثم نعيش عالة على الأمم الأخرى، ونُعَدَّ من العالم الثالث المتخلف، والذين يدعون الأمة إلى الرجوع إلى دينها لتتقدم يفهمون هذا ولا يدعونها للدعاء والصلاة فحسب، وإن كان هذا مُخَّ العبادة؛ لأنه المدد للإنسان وإنما يدعونها أيضا للبحث عن الأفضل، وتحويله إلى واقع أفضل على الأرض، هذا والله اعلم.

قوله سبحانه ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ اسم الإشارة الذى للبعيد راجع إلى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه والذين اجتنبوا الطاغوت وأنابوا إلى الله؛ واسم الإشارة وإن كان يرجع إلى هذا كله فإن هذا كله يمثل حقيقة واحدة، وتَرَى اسم الإشارة يَرْكن إلى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه؛ لأنه هو الجار الصاحب بالجنب؛ ولأنه سَمْت وشأن الذين أنابوا إلى الله؛ لأن الإنابة إلى الله تعنِى التقدم فى عمارة الأرض الذى هو المقصود من خلافة الله فى الأرض، ومعنى البعد فى اسم الإشارة، بعد

المنزلة، وبعد المكانة، والله سبحانه وتعالى لا يرفع منزلة المتخلفين، ولا يرفع مكانة الذين يعيشون على حساب ما تنتجه عقول الآخرين، ثم إن هذه الإشارة مع دلالتها على تمييز المشار إليه أكمل تمييز ومع دلالة البعد فيها على بعد المنزلة تفيد أن ما يأتى بعدها حق مستحق لمن تدل عليه، وذلك لأن الذى قبلها من أحواله وصفاته وأعماله وإنجازاته يؤهله لهذا الاستحقاق، وبصيغه أخرى أقول اسم الإشارة يدل على أن الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه جديرون بالهدى يعنى أن أهل عمارة الأرض وبناة التقدم الإنسانى الذين يجتنبون الطاغوت وينيبون إلى الله هم الجديرون بالهدى، وهذه دلالة اللغة، ولو ناقشت هذه الدلالة، لقلت إن الذين هداهم الله هم الذين سَعَوا إلى معرفة أحسن القول فلما عرفوا الأحسن اتبعوه، وأن هذا هو سلوك الفطرة وأن الله سبحانه يهدى من سلك سلوك الفطرة، أما من انحرف وحاد وضادّ فليس داخلا فى الهدى إلا أن يشاء الله له هذا الهدى، فيرجع، ولو ناقشت هذا أيضا لقلت إن الذين يحسنون الاستماع إلى أحسن القول يعنى الذين انطفأت فى صدورهم ملكة النقد، والاختيار، وعاشوا فى أمِّيَّة وجهالة وما داموا ضلوا معرفة الأحسن فلن يكون منهم اتباع للأحسن لأن الأحسن نفسه مَفْقُودٌ وليس بين أيديهم. أقول هؤلاء ليسوا داخلين فى الهدى، لأنهم افتقدوا سَمْت المنيبين إليه، لأنه لا يتوب إليه إلا من فى عقله نور يهديه إلى الله سبحانه، وهذا شىء وجحافل الأمية والعامية شىء آخر، فإذا كان قوَّاد الأسْراب هم أيضا من الأُمِّيين ومَنْ لهم بصيرة فى الأمة يرون الانتكاس والارتكاس، ويكتبون شعرًا للأميين من قواد أسراب الأميين، ولم يَفْتَحوا أفواههم بكلمة صواب ترشد إلى الخروج مما نحن فيه إما خوفا من سيف الطاغية، أو طمعا فى ذهب اللص الأبْله، أقول إذا كان هذا فالقول بأننا من الذين هداهم الله محتاج إلى مراجعة.

والشىء المخيف أن جملة ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ جملة معرفة الطرفين

يعنى تدل على قصر الهدى على الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وإذا كنا لسنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه خرجنا من هذا الخبر وهذه مصيبة، ولا أستيطع أن أخدع نفسى وأقول إننا مع هذه الحالة التى نحن فيها، داخلون فى حيز من يستمعون القول فيتبعون أحسنه، لأنها ليس لها معنى عندى إلا المعنى الذى شرحته وهو باختصار الوعى اليقظ لكل فكرة صالحة ثم ترجمة هذه الفكرة وتحويلها إلى عمل صالح على الأرض، هذا والله أعلم.

ولك أن تقول إن الهدى المقصور على هؤلاء هو الهدى الكامل التام الذى يترتب عليه الفوز فى الدارين والفوز فى الأولى لا يكون إلا مع القوة والمنعة والغلبة لأن الذى يعيش تحت حماية قوة عدوه الألد لا يعد من الفائزين لأن أهل الإسلام حين تحميهم قوة أعدائهم فهم مقهورون مغلوبون وإن كذب السلاطين وقالوا إنهم أصدقاء هذا العدو التاريخى، لأننا لا يجوز أن نتعامى عن عدونا التاريخى وألا يلهينا قول خَدَمه من سلاطيننا أنهم أصدقاؤنا، وأننا حلفاؤهم، هذا أكذب يُروّجه سيف الطاغوت، وتحويل القصر من الحقيقى إلى الادعائى يؤذن بدخول جحافل الأميين المتخلفين بقياداتهم التى ليست مختلفة فحسب وإنما فيها ما فيها، أقول هذا التحول يؤذن بدخولنا فى الذين هداهم الله ورحمة الله أوسع.

وقوله سبحانه ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ فاصلة أخت فاصلة ﴿أَلا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥] من جهة تزاحم عناصر توكيد المعنى المراد لأن هنا اسم الإشارة الذى للبعيد والذى يميز المشار إليه أكمل تميز والذى تكرر فقرر؛ ثم ضمير الفصل ﴿هُمْ﴾ ثم تعريف المسند، وهذه العناصر جعلت هذه الجملة آكد من الجملة التى قبلها ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ لأنه زيد فيها ضمير الفصل، وهذا يعنى شيئًا مهما جدا وهو أن الذين أنابوا إلى الله والذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه والذين هداهم الله، الأصل فى

ذلك كله أنهم من الذين يتدبرون ويتفكرون ويتذكرون ويُعملون عقولهم، وهذه الألباب هى التى جعلتهم يعافون الطاغوت وهى التى هدتهم إلى الذى دلّ على وجوده وعلى أنه الحقيق بالعبادة بأدلَّة منصوبة فى السماء والأرض، وغرس فينا عقولا تهدينا إليه، وإذا كانت البعرة تدل على البعير والأَثَرُ يَدُل على المسير أفلا تدل سماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج على الواحد الأحد المعبود بالحق، الألباب هى أصل كل الذى مضى من الرجوع إلى الله واتباع أحسن القول، والهداية إلى الله سبحانه، وهذا مهم جدا لأن قبس الضياء الهادى إلى الله وإلى التى هى أحسن إنما هو فى فطرتنا وهو من غرس الله فينا؛ وحين نهتدى به إنما نكون قد هدانا الله لأننا اهتدينا بغرس الله فينا، وراجع ﴿ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ وضعها بإزاء ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ٩] وتبيَّن حقيقة عظيمة وهى أن العقل المعبر عنه باللب إذا تيقظ وتدبر وتفكر وبحث عن الأحسن واتبعه تقدّم وتطور وقوى واشتد وإذا تَحَدّر وافتقد حيويته وتذكرَّهَ وتدبُّرَه استوى عنده العلم والجهل ومن يعلم ومن يجهل، وصار الإنسان وهو فى حالة الضياع هذه كأنه يعيش من غير لب، وقد يعظم هذا الإنسان كما عظم البعير بغير لب، ولكنه عِظَمٌ لا قيمة له، كعِظَم بعيرنا وسيدنا، هذا والله أعلم.

قوله سبحانه ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ﴾.

هذه الآية اقتحمت تسلسل الكلام لأنه كان يتسلسل فى بيان حال الذين اجتنبوا الطاغوت وأنابوا إلى الله وأن لهم فى الدنيا البشرى ولهم فى الآخرة الغرف التى من فوقها غرف مبنية، ثم دخلت هذه الآية بعد الكلام عنهم فى الدنيا وقبل الكلام عنهم فى الآخرة؛ يعنى دخلت فى مفصل من مفاصل الحديث عنهم، وهذه الآية من عرق وجنس آيات مضت فى السورة، كانت تلتفت إلى رسول الله ﷺ وتخاطبه وتأمره مرَّة بقوله ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ ﴾ ومرة بقوله ﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ومرة بقوله ﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ ﴾ ومرة بقوله ﴿ قُلْ إِنَّ

﴿الْخَاسِرِينَ ..﴾ إلى آخره، والكلام فيها مختلف لأنه كان هناك يؤمر بالعبادة الخالصة لله ويؤمر بالبلاغ وهو هنا عليه السلام يعاتَبُ وينكر عليه ربه ما هو فيه صلوات الله وسلامه عليه، وهذا العتاب وهذا الإنكار إنما هو لفرط حُبّه لله ولحبه دين الله، ولحبه لقومه، وإلحاحه الشديد الذى زاد عن الحد على قومه ليدخلوا فى دين الله، وليكونوا من الذين أنابوا إلى الله كما أناب، وليكونوا من الذين اجتنبوا الطاغوت كما اجتنب ، وليأنسوا بالبُشْرَىٰ يُسَرُّوا بها كما أنس وسر بها من آمن، هذا الإنكار إنكار من الله لرسوله على فرط حرصه على دخول الناس فى دين الله، وكأنه عليه السلام بهذا الإفراط وهذا الحرص كمن ينقذ قوما من النار، وهو قريب من الإنكار فى مثل قوله تعالى ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزخرف: ٤٠].

وإنما كان موقعها هنا لأنها جاءت بعد بيان قصر البشرى على من أناب، وقصر الهداية عليهم، وقصر أولى الألباب عليهم، وهذا يضاد الطمع فى إيمان غيرهم، والشأن فى هذا أن يزيد أساه صلوات الله وسلامه وحُزْنُه على قومه، وهو الذى قال له ربه سبحانه ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، وقال له فى سورة الشعراء ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] ولم ترد كلمة ﴿بَاخِعٌ﴾ ولا مادتها فى الكتاب العزيز إلا فى هذين الموضعين وكأن هذه المادة اختصت به ﷺ ولمَ يحدث بها القرآن عن غيره، ومثل هذا العتاب وهذا الإنكار يفيدنا نحن فائدة جليلة، وهى أننا لابد أن نترك لله ولأمره وقضائه وقدره حيِّزًا بعد أن نبذل غاية المجهود، وهذا الحيز هو الذى لا تناله أيدينا، لأنه مما اختص الحق به، والمطلوب منا البيان المبين للحق، الذى لا يترك شبهة إلا أزالها، ولا غامضا إلا كشف غموضه، ولا دليلا إلا أقامه، ثم يترك القلوب لأنها بين أصبعين من أصابع الرحمن، ولأن هناك منطقة فى حياتنا الحولُ كلُّه فيها لله رب العالمين، وكل حولنا من حوله، ولكنه سبحانه لم يمنحنا الحول ولا شَيْئًا منه فى بعض

أحوالنا كهداية من حولنا، وقال لسيدنا ورائدنا ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

هذا هو تشارب الآية فى محيطها من سياق السورة، وصلتها بما قبلها وهو قوله تعالى ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ يُنَبِّهُ إلى وجه من وجوه قراءة البيان وهو أن الجملة تُعَبِّرُ بألفاظها وتراكيبها على معنى ظاهر، وتَحْتَ هذا المعنى الظاهر معنى خفى هو المقابل للمعنى الظاهر، فقوله سبحانه ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ تحته الذين خذلهم الله سبحانه وأضلهم وقوله ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ تحته الذين أهملوا عقولهم ولم يستعملوها فيما خلقت له كأنهم ليسوا من أولى الألباب، ثم يأتى الكلام بعد ذلك ليس مُرَتَّبًا على المنطوق الظاهر وإنما هو مرتب ومرتبط بالمفهوم الخفى المتحرك تحت سطح هذا الظاهر، وهذا وجه ربط ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ بالجملتين قبلها لأن الهداية وراءها ضلال، والذين هداهم الله تحته الذين أضلهم الله، وإذا كان من هداه الله فلا مضل له، كذلك من أضله الله فلا هادى له، وهذه الجملة تتحدث عن من أضله الله فلا هادى له، لأن كلمة العذاب حقت عليه وانتهى أمره.

وهمزة الاستفهام دخلت على الفاء فى رأس الجملة، وهذه الفاء دالة على معطوف محذوف، وقد قدره الزمخشرى بقوله أأنت مالك أمرهم فمن حق عليه العذاب فأنت تنقذه، وهذا تقدير مقارب وجيّد والذى يعنينى فيه أن الزمخشرى استخرجه من تحت أولئك الذين هداهم الله، وأن الضمير فى قول محمود بن عمر ﴿أَمْرُهُمْ﴾ راجع إلى ما لم يذكر صريحا فى الكلام، وإنما ذكر بطريق المفهوم الذى شرحته، وهذا من سخاء فهم الكملة للكلام، وحسن قراءتهم له، وكأن النص الذى أقرؤه فى الشعر أو الآية التى أقرؤها فى الكتاب تحت كل سطر منها سطر آخر غير مقروء، وهو الوجه المقابل

للسطر المقروء، فـالذى يمدح الكريم الشهم الذى يرعى النـاس فى القحط فى كلامه المقروء يهـجو البخيل النَّدْل المنكفئ على نفسـه ولا ترى عينه أصحاب الحاجات من حوله.

وحق عليه العـذاب ثبت وتحقق، لأنه ضيّع فرصـة الرجوع إلى الله، ولم يخف بما خوّف اللـه به عباده، وجـاء فعل ﴿حَقَّ﴾ بدون تاء التأنيث مع أن الفـاعل «كلمة» وهى مـؤنثة لأن «كلمـة» المؤنثة مـضافـة إلى العذاب المـذكر فتـشربت منهـا معناها فصـارت الكلمة مـشربة معنـى العذاب وهذا من أدق وسائـل اللغة فى الإبانة وفى تذكـير الفـعل أيضا، إشـارة إلى أن المعنى هو أفمن حق عليه العـذاب، وإنما أضيفت ﴿كَلِمَةُ﴾ للإشارة إلى أنه حق عليه العذاب بكلمة الله، والله سبحـانه لا تبديل لكلماته، وهذا يؤكد الإنكار فى قوله ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ﴾ لأن إنقاذ من حـقت عليه كلمـة العذاب، تبديل لكلمـة الله، والله لا مبدل لكلمـاته، وتوكيد الإنكار فيـه إشارة إلى فرط حرص الحبيب المخـتار على إيمان من دعاهم، ويدعوهم إلى الله، لأنه عليه السـلام لا يزال يدعو إلى الله بما أنـزله الله عليه وبما أوحـاه إليه، من سنته ﷺ، وبما هيأ الله لدينه من ورثة مخلصين صـادقين كما كان هو عليه السـلام مخلصـا وصـادقا، وأن من هَدْيه وسُنَّتـه أن يجـتهـد فى أن نخلص إخلاصا نَبْلُغ به العذر لأننا لن نستطيع أن نخلص إخلاصه.

ومَنْ فى قوله سـبحـانه وتعالى: ﴿فَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ هى من الشرطية وجـواب الشرط هو ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ﴾ والفاء التى دخلت عليها الهمزة هى الفاء الواقعة فى الجواب، والهمزة الداخلة عليها تأكيد لمعنى الهمزة التى ابتدأت بها الجـملة، يعنى تأكيد لمعنى الإنكار، لأن مصب الإنكار فى الهـمزة الأولى هو جـواب الشرط، يعنى إنكار أن تُنْقـذَ من حقت علـيه كلمة العـذاب، وبعضهم اعتـبرها توطئة للهمـزة الثانية، وعلى هذا التـوجيه تكون الآية جملة واحدة هى جـملة شرطية، وذكر الزمخشـرى مع هذا وجها

آخر وهو أن يكون جواب الشرط محذوف، وأن تكون جملة ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ﴾ جملة أخرى وتقدير الكلام أفمن حقت عليه كلمة العذاب فأنت تحميه أو فأنت تخلصه، وإنما حذفت لدلالة قوله: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ﴾ عليه، وتكون الجملة الثانية تأكيدا للجملة الأولى وإنكارا لأن ينقذ من فى النار، وتقديم الاسم فى قوله ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ﴾ لتوجه الإنكار إليه، لأن هذا لا يكون منك، وإنما يكون من الله، وعليك وعلى من بعدك من أهل دينك أن يدركوا ما يستطيعونه وما لا يستطيعه إلا الله، وحسبهم من الأمر ما يستطيعون، فلا تذهب نفسك ولا نفس من بعدك حسرات حين ترون أهل الضلالة، وأهل الباطل من حولكم، ولَهُمْ غلبة فى أرضكم. وهذا معنى جيد جدا لأن رسول الله ﷺ كان يحزن على ضلال من ضل، ونحن نواجه الأشد وهو أن أمر الناس كاد يكون فى يد الأضل الأضل، وأن ثروات الشعوب ومستقبل البلاد فى يد أفذاذ اللصوص، وعصابات قطاع الطرق، ومن عجيب بيان هذه الآية أن كلمة ﴿تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ﴾ أحدثت تحوُّلا ظاهرا فى زمان الجملة، وفى حدثها، أما تحولها فى الزمن فإن حرص رسول الله ﷺ الذى بلّغ فيه أمر ربه وزاد، وأفرط فى الحرص على إيمان من دعاهم حتى أنكر عليه ربه هذا الإفراط، وأن نفسه تذهب حسرات عليهم، وخفف عنه بهذا الإنكار ما كان يجد وأنبأه بأنه بلّغ أحسن البلاغ، كل هذا فى الدنيا وأن القوم الضالين والموغلين فى الضلال هم أيضا فى هذه الدنيا وعنادهم ورفضهم فيها، فهذا الزمن فى الدنيا وهذا الحدث هو الرفض والعناد، وكلمة تنقذ حوّلت ما عليه رسول الله ﷺ من الإلحاح فى الدعوة لمن لن يستجيبوا لأن كلمة الله حقت عليهم، حوّل هذا بطريق المجاز إلى من يغامر ويقتحم النار لينقذ الذين فيها كما حوّلت رفضهم وعنادهم الذى هو سبب دخول النار إلى الدخول فى النار، وأن ما هم فيه هو العذاب فى النار، وليس سببه فحسب، فقد شبه حاله عليه السلام وهو يلح فى دعوة المعاندين وهم مصرون على الرفض بحال من يحاول أن ينقذ قوما من النار،

وهم يتهافتون فيها، ووجه الشبه أن هدايتهم مستحيلة كما أن إنقاذك للذين فى النار مستحيل.

وهذه الصورة مغايرة لنظائرها من مثل قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ [يونس: ٤٢] وإن كان المراد تصوير حاله وهو يُصر على أن يُسْمع قومه بحال من يحاول أن يسمع الصم أو يهدى العمى أو يسمع الموتى، والفرق أن الصورة التى معنا انتقلت إلى النار، وفرق بين من تكون حاله كحالة من يسمع الصم، وبين من تكون حاله كحالة من ينقذ من فى النار، ولابد من ملاحظة ظُلَلِ النار التى فوقهم والتى من تحتهم التى سَبَقَتْ الآية وأن هذه الظلل هى التى استدعت النار فى المثل الذى معنا.

وللزمخشرى كلام يوضح أكثر، قال رحمه الله «نُزِّل استحقاقهم العذاب وهم فى الدنيا منزلة دخولهم النار حتى نُزّلَ اجتهاد رسول الله ﷺ وكدّه نفسه فى دعائهم إلى الإيمان منزلة إنقاذهم من النار، وقوله ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ﴾ يفيد أن الله تعالى هو الذى يقدر على الإنقاذ من النار وحده، لا يقدر على ذلك أحد غيره فكما لا تقدر أنت أن تنقذ الداخل فى النار من النار لا تقدر أن تخلصه مما هو فيه من استحقاق العذاب بتحصيل الإيمان فيه» انتهى كلامه رحمه الله، وفيه أن الاستعارة فى تنقذ من فى النار، مرتبة على تنزيل استحقاقهم العذاب وهم فى الدنيا منزلة دخولهم النار، وجاءت الاستعارة فى أفأنت تنقذ بعد هذا التنزيل الذى صاروا به وهم فى الدنيا كأنهم فى النار وبنيت الاستعارة على تقدير الادعاء والتنزيل واقعا وصار كده عليه السلام فى دعوتهم إلى الإيمان إنقاذا لهم من النار فالإنقاذ من النار مشبه به استعير لكدّه عليه السلام فى دعوتهم، بعد ما صار استحقاقهم العذاب بمنزلة وقوع العذاب عليهم، لأنه استحقاق لا ريب فيه، لأنه كان بكلمة الله وكلمة الله لا تتبدل، ولهذا صارت هذه الجملة غنية بالاعتبارات البلاغية، هذا والله اعلم، قوله سبحانه: ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ [الزمر: ٢٠].

الاستدراك الذى بدأت به الآية الكريمة مشعر بأن ما يأتى بعده مغاير لما جاء قبله، ولا يصح أن يكون استدراكا من الجملة الأسبق التى هى «**أولئك الذين هداهم الله أولئك هم أولو الألباب**» لأن الكلامين كلام واحد، وإنما هو استدراك من قوله جل شأنه ﴿**أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ**﴾ وما تأسس عليه من قوله سبحانه ﴿**أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ**﴾ لأن الذين اتقوا ربهم هم المقابلون للذين حق عليهم كلمة العذاب، وأن الكلام انتقل من هؤلاء الذين أغضبوا خالقهم ورازقهم والمنعم عليهم وهو واسع الرحمة حتى حقت عليهم كلمته، إلى هؤلاء المجيبين لربهم والوجلين من عذابه، والذين يجعلون فى كل وقت وقاية بينهم وبين عذابه بما يشغلون قلوبهم من ذكره وتسبيحه وتحميده سبحانه.

ثم إن ذكر الغرف التى من فوقها غرف ترجع بالآية إلى ما يقابل ظلل النار التى من فوقهم ومن تحتهم، ويضع الحق جل وتقدس الصورتين بين أعيننا وقبل ذلك هدانا النجدين ثم قال ولكل نفس ما كسبت، وهذا ارتباط ظاهر بين الذين اتقوا ربهم وما أعد لهم من غرف، والذين خسروا أنفسهم، وما أعد لهم من ظلل، وهكذا يمكنك أن تعود بالآية إلى الذين ناداهم ربنا وقال لهم ﴿**اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ**﴾ [الزمر: ١٠]، والذين قال لهم ﴿**وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ**﴾ [البقرة: ١٩٧] وهكذا تتلاقى خيوط النسيج فى البيان العالى تلاقيا قريبا أو بعيدا أو تلاقيا كالتلاحم الذى تراه بين ﴿**لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ**﴾ وبين ﴿**الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ**﴾ لأن الفريقين من أهل الحسنى الأولون يحسنون والذين من بعدهم يبحثون عن الأحسن، وكأنها الفكرة تَمْتَدُّ وتتطور.

وهذه الروابط التى بين الجزئيات المكونة للسور إذا استطعنا أن ننفذ من جزيئاتها إلى كلياتها، رأينا سمتا ظاهرا للسورة، وهَيْأة وصورة تختلف بها عن سمت وهيأة وصورة أخواتها من السور، ورأينا ما يتقارب

وما يتباعـد من هذا السَّمت وهذه الهيأة، وهذا مهم جدا وقـد أردته كثيرا وأخطأته كثيرا أيضا.

ونلاحظ أن السورة إلى الآن لم تذكّرهم موقفا من مواقفهم المعارضة للنبوة كـمـثل قـولهم: ﴿افْتَرَاهُ﴾ [يونس: ٣٨] أو قـولهم: ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٧] أو ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥] هذا المعـجم وأصوله فى موقف قريش لم تشـر السورة إلى شىء منه كما أنها لم تَعْرض شـيئًا من إنكارهـم الـبعث كـقـولهم ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [المؤمنون: ٣٧] أو قولهم: ﴿أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا﴾ [الإسراء: ٩٨] وإنما قامت الثنائية فى السورة على من أخلصوا عبادتهم لله، ومن اتخذوا أولياء من دونه تقربهم إلى الله، وليس فـيها ذكر لقصـة قوم من أقوام الأنبياء، وليس فـيها تهديد لـهم بعذاب الاستـئصـال، وقد قامت آل حم على هـذه الأصول التى غابت هنا، ويا بعد ما بين سَمْت وهيأة وصورة الزمر، وسمت وهيأة وصورة غافر بعدها وهذا مما أحب مـتابعته، وأريده كثيرا وأخطئه كـثيرا أيضا، ولعل الله يفتح بابه لمن يختاره من علماء هذه الأمة العاملين، اللهم آمين.

وقوله سبحانه ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ حرف الاستدراك وصلنا بما وصلنا به واسـتـدعى مـا ذكرناه، واسم المـوصول، راجع إلى أخـواته من أسـمـاء الموصول، وهم الذين اجـتنبوا الطاغـوت والذين آمنوا، والذين أنابوا إلى الله والذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وراجع العلاقة بين ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ وبين ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ تجـد أنهم هـناك أُمـروا بالتقوى، وأنفذوا أمر ربهم، واتقوا ربهم، وعُرِفـوا بهذا واشتهروا به، وبعدما أمرهم هناك بالتقوى وعدهم سبحـانه بثواب الطاعة وإنفاذ أمره جل وتقدس، لأنه لا يَعْصى أمـرَه سبـحانه من خلقـه إلا خسيس فـاجر، ومن أنفـذ أمره فلينتظر وعده، وفـرق بين اتقوا ربكم واتقوا الله، الأولى فـيها تذكير بـنعمه

الداعية إلى تقواه، والثانية فيها تذكير بالجلال والرهبوت المخيف من معصيته، وكلمة ﴿رَبَّهُمْ﴾ هنا واقعة موقعا حسنا؛ لأن ما فيها من رعاية وعناية وإفضال يهيئ للوعد بعدها؛ لأن الذى أنعم فى الدنيا وأعطى ومنح لن يمنع فى الآخرة عطاءه عن من مد إليه يده فى الدنيا، وأنفذ أمره سبحانه.

وقوله سبحانه ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾ ليس فى القرآن ذكر للغرف التى من فوقها غرف مبنية إلا فى هذه الآية، وهى من أفضل صور النعيم الذى يمنحه ربنا لمن أخلصوا العبادة له، وهذا يُغْرى بأن الإخلاص فى العبادة هو المعراج الذى بنيت عليه السورة، وأقرب آية ذكرت فيها الغرف إلى هذه الآية قوله تعالى فى سورة العنكبوت ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٨] فقد جاءت الغرف جمعا وذكر جريان الأنهار من تحتها ولكن السورة لم تبين أنها غرف من فوقها غرف، ثم ذكر أنه أجر نعم الأجر، وجاءت الغرفات جمع مؤنث فى سورة سبأ فى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧] وأكثر صور النعيم فى الجنة تدور حول ذكر الجنات والعيون وأنهار الجنة والأرائك والسرر المرفوعة وصحاف الذهب وأباريق الفضة وقليل منها يُفَصِّلُ أحوال المساكن وأنها غرف، أو غرفات، أو غرف من فوقها غرف كما هنا، وقد ذكرت أن هذا خاص بهذه السورة؛ كما أن ظلل النار التى من فوقهم ومن تحتهم خاص بهذه السورة ولو سألنا وقلنا لماذا ذكر نعيم الصالحين هنا بالغرف التى من فوقها غرف قلنا لأنه يتلاءم مع الظلل التى من فوقهم ومن تحتهم، وإذا سألنا وقلنا لماذا اختص عذاب الخاسرين هنا بظلل النار لم نجد جوابا شافيا، وإذا قلت فى الجواب إن ظلل النار التى من فوقه ومن تحته له ولأهله الذين خسرهم

وأهلكهم معــه وأنهم من حوله يصطرخون من تحــت الظلل ومن فوق الظلل وهذا أوجع وأدعى إلى أن يراجع نفســه وهو فى فسحــة من أمره، قلت لك يمكن أن يكون هذا ولكنه سر من الأسرار وليس كل الأسرار ولا أَشُكُّ فى أن ملاءمــات صور العذاب لسيــاق السور وكذلك مــلاءمات صور النعيم لسـياق السور لا يـزال غائبا إذا طـلبنا من ذلك ما يُشْبِعِ ويُقْنِعُ ورحم الله شيــوخنا الذين كانوا يقولون فى مثل هذا والله أعلم بأسرار كلامه.

وقوله سبــحانه ﴿مَّبْنِيَّةٌ﴾ أظهر مــا قيل فيــها أنها لنفى المجــاز عن الغرف وتأكيد أنها غرف مبنية كمــا تبنى الغرف وهذا احتراز من أن ينتقل إليها المجاز من المقابل لها فى الظلل لأن ظلل النار مجاز، وأصل الظّلة ما أظَلَّك لأنها من الظـل والـذى فـى النار نار تعـلـوهــم وتُظِلُّهـم ونار تُقِلُّهــم وهم بين هذين، ولا يعنى هذا أنها غرف كغرفنا لأن الغائب لا يقاس على الشاهد فليست أنهار اللبن فى الجنة من اللبن الذى نعرف وهذا عام فى كل أحوال الآخرة.

وقوله سبحانه ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ﴾ هو من وعد الله لعباده وليـس بيــانا للبشرى لأن البشـرى كمــا قال الرازى نعيم آخر، خارج عن كل مــا وعد الله من الجنــات، والأنهار، والغــرف والفــواكه، والرَّفْـرَف الخَضْــرِ والعبقرى الحسان، لأنها تعنى خبرا بنعـيم لم يخبر عنه قبلها، وقد سبق بيان ذلك وأنـه داخـــل فى قــوله ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] وقوله تعالى: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ الضمير راجع إلى الغرف المبنيــة، وداخل فيه الغــرف التى فوق الغرف وأن الأنهــار تجرى من تحت الغرف الأولى، والغــرف التى فوقها، وهذا أيضــا مما لا تعلمه نفس، ولا يقاس على الشاهد، وجريان الأنهار من تحت الجنات، ومن تحت المساكن الطيبة، ومن تحت الغرف، وشيوع هذا المعنى الذى هو ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ فى نعيم الجنة يشـير إلى أن أمتع ما يتمـتع به الصالحون فى رحمـة الله هو جريان

الأنهار، ولـك أن تسأل عن السر الـذى فى الأنهار، حتـى جعلها ربنـا بهذه المثابة، وبهـذا المكان؛ هل هو الطهور الذى فى المـاء؟ وهل هو إشارة إلى أن أهل الطهر فى الدنيا هم أصحاب هذا الطهور فى نعمة الله؟

وهل هو إشارة إلى أن الحق جل وتقـدّس لما جَعَل من الماء كل شىء حىٍّ أشار إلى أن مصدر كل حىّ هو الطهور الذى هو الفطرة؟ وأن من دنَّس هذه الفطرة بالضلال والفجور والفسوق والكفر هو المحروم منها يوم القيامة؛ ومن حافظ عليها هو الذى يراها تجرى تحت كل نعـيم أنعمه الله عليه فى الآخرة، وأن هـذا الماء الذى يجـرى تحت الغـرف والجنات هو الطهور، الذى حَـفِظْتَهُ فها هو يجرى حولك؟ وقد قالوا إن الأنهار لا تجرى وإنما يجرى ماؤها وأسند الجريان إليـه من باب إسناد الفعل إلى مـحله كما تقـول أسرع بهم الطريق، وأن هذا يفيد المبـالغة فى جرى الأنهار وهذه دلالة اللغـة، والسؤال لماذا كان الماء يجرى؟ ولماذا المبـالغة فى جـريه؟ وأى نعمة لنا فى ذلـك؟ أما أنا فليس عندى جواب وإذا قلت لى إن جـريان الماء من تحتهم بالصورة التى صـورتها الآيات والتى يَشْتَـدُّ فيها الجريان أكـثر متعة من المـاء الساكن، أو الماء الجارى ببطء، أقـول إذا قلت هذا قلت لك نعم ولكنه ليس كـافيا، وكـأن فى الماء وفى جريان الماء فى الجنات التى يسكنـها الصالحون من عبـاد الله أسرارا لا تزال مخبوءة وربما كان فى الآية التى بعد ذلك ما يشير إلى أن ثمة أسرارا مخبوءة وإن كانت الآية لا تفصح عنها، وأعنى قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لأُولِي الأَلْبَابِ**﴾ [الزمر: ٢١] وقبل أن أبدأ فى الآية أذكر قوله تعـالى فى فاصلة الآية السابقة ﴿**وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ**﴾ وكلمة وعد مـصدر مؤكد لما يفهم من مـضمون الكلام قبله، لأن قوله تعالى ﴿**لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ**﴾ هو الوعد المذكـور فى قـوله تعـالى ﴿**وَعْدَ اللَّهِ**﴾ وقـوله جل شـأنه ﴿**لا يُخْلِفُ اللَّهُ**

الْمِيعَادَ﴾، تكرر فيه لفظ الجلالة ووضع موضع المضمر، ولفظ الجلالة فى كل موقع من مواقعه يفيد تربيـة المهابة والجلال، والمهابة والجلال هنا لا تعنى توكيد الوعد، لأن الذين يستمعون إلى كلام الله وهم مـؤمنون بأن ما يسمعونه كلامه سبحانه لا يحـتاجون إلى أى توكيد؛ لأن كل ما يكون من الـله من وعد وغير وعد فهو مؤكد، وليس فى حاجـة إلى أى وسيلة من وسائل التوكيد التى يؤكد الناس بها كلامهم، وكان يمكن أن يقـال وعد الله لا يخلفه ويستغنى عن تكرار لفظ الجلالة كما يستغنى عن كلمة المـيعاد، ولكن الكلام جاء على ما جاء عليه لتكون إشارة من الله سبـحانه إلى عنايته وحفاوته واقترابـه وحبِّه ورضاه للذين اتقوه؛ والذين أعد لهم غرفا من فوقها غرف مبنية تجرى من تحتها الأنهار؛ وأن هؤلاء المكرمون عند الله بمكان، ولا أفـهم من توكيد وعـد الله للذين أخلصوا دينهم لله إلا هذا، ولا أرى فى نفسى قبـولا لأن يؤكد الله وعده لنا لأن وعده سبـحانه وخبره جل وتقـدّس لا يحتاج إلى توكـيد، ولأهل البصيـرة فى قراءة كلام الله لمحـة فى هذه الآية ونظائرها التى أكد الله سـبحـانه فيهـا وعده بمثل قوله: **﴿لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾** هذه اللمحة هى أن الله سبحانه لم يقل مثل هذا فى وعيـده بالعذاب للعصـاة، يعنى لم يقل وعيد الله لا يخلف الله وعـيده، للإشارة إلى أن رحمته سبحـانه أرجح من غضبه، وليس للإشارة إلى أن وعيده يتخلف، لأن من حقت عليه كلمـة العذاب لا ينقذه أحد من النار، قال الرازى رحمه الله: وفى الآية دقـيقة شريفة: وهى أنه تعالى فى كـثير من آيات الوعد صرح بأن هذا وعد الله، وأنه لا يخلف وعده، ولم يذكر فى آيات الوعيد البتة مثل هذا التأكـيد والتقوية، وذلك يدل على أن جـانب الوعد أرجح من جانب الـوعيد، بخلاف مـا يقوله المعتزلة، فإن قالوا أليس أنه قـال فى جانب الوعيد **«ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد»**؟ قلنا قوله ما يبدل القول لدى ليس تصريحا بجانب الـوعيد بل هو كلام عام يتناول القسمين أعـنى الوعد والوعيد فثبت أن الترجيح الذى ذكرناه حق، والله أعلم.

وأبدأ فى آية ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ﴾ وأذكرك بمحاولة فهم الصلة بين الماء الجارية به الأنهار تحت الغرف والماء هنا الذى فيه سر من أسرار الله سبحانه وفيه دليل القدرة القادرة القاهرة وليست المسألة أنه ينزل ماء من السماء مع أهمية ذلك وجلاله، وإنما أنه جعل الماء يسلك ينابيع فى الأرض، وجعل فيه سر الحياة الذى تحيا به الأرض بعد موتها، وجعل فيه سرا عجيبا وهو أن هذه الأرض الميتة تحمل فى أحشائها الميّتة أسرار الحياة، لأن ما فيها شيئًا ما إن يصل إليه الماء حتى يصير زَرْعًا ونباتًا وشجرا وفاكهة وحدائق غلبا؛ يأكل منها الناس والأنعام، راجع الشيء الذى فى أحشاء الأرض الميتة، والذى يخرج مع المطر زرعا، مختلفا ألوانه ومختلفا ثماره، تأمل فى هذه الآية لأنها من أعظم آيات الله؛ ولو لم ينزل ربنا على نبيه المصطفى إلا هذه الآية لكانت حُجَّة كالشمس فى الظهور، وأقرب خطوة تقربك إلى هذه الآية العظيمة أن تضعها فى سلك نظائرها وأعنى بنظائرها آيات دلائل الوحدانية، وقد شغلنا بالمقابلة الثنائية بين الذين أخلصوا عبادتهم لله والذين اتخذوا من دونه أولياء وتَنَاقُلِ الكلام بينهما من أول السورة؛ وفى السورة قسم آخر هو مشترك بين السور كلها، وهو الآيات التى لا يخطئ الإيمانَ بالله من قرأها؛ إلا إذا كان مدخول النفس؛ فاسد الطبع، وقد بدأت فى السورة من قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ وهذا ليس برهانا نظريا، فلسفيا، وإنما هو واقع نعيشه لا يحتاج إلى نظر واستدلال، لأنه يوشك أن يكون من المعلوم من المنطق بالضرورة، إذا كان من المنطق ما هو معلوم بالضرورة، ثم انتقل البرهان إلى خلقكم من نفس واحدة، وجعل منها زوجها، وأنزل من الأنعام ثمانية أزواج، وكأن الترتيب بدأ بخلق السموات والأرض، ثم بخلق الإنسان، والأنعام، ثم غاب هذا البرهان بعد قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ وهذه جملة دالة على أن مَنْ يَنْصَرِف عن هذا فليس له طريق يذهب إليه؛ لأن

من ضل هذا الطريق فلن يهتدى إلى طريق، ولذلك جاءت بعد هذه الآية آية الغضب الناطقة بعز الربوبية وكبرياء الذى له الكبرياء فى السموات والأرض، وهى قوله تعالى ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ [الزمر: ٧] ثم جاءت هذه الآية العظيمة؛ وأردت من هذا كله أنها فى الترتيب الحياتى المعاش تأتى بعد الآيتين السابقتين، الأول خلق السموات والأرض، والثانى خلق الناس والأنعام، والثانى خلق ما يأكل منه الناس والأنعام، وما كان لها أن تتقدم على خلق السموات والأرض، وهذا ظاهر ولا أن تتقدم على خلق الناس والأنعام، وراجع وتأمل وتدبر هذا الترتيب الذى هو من الأصول التى يُبْنَى عليها عمود السورة.

وشىء آخر يزيدك النظر فيه فهما وفقها للآية الكريمة، أعنى آية ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ وهو أنها جاءت بعد ذكر عذاب الله للذين أساؤوا، وذكر ثوابه للذين أحسنوا؛ فأشار ذلك إلى أن الثواب والعقاب كان من القادر القدرة المطلقة، التى تُخْرِجُ الحياة من الأرض الميتة، والمنعم الإنعام الأعظم والذى أخرج لكم من الأرض رِزْقا لكم، وجعلكم فيه شركاء وأعطى المسىء كما أعطى المحسن من عطاء الدنيا، وارتباط الثواب والعقاب بالملك المطلق كثير فى آيات الله ومنه قوله سبحانه فى سورة النجم ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١] فهو سبحانه مالك لكل ما فى السموات والأرض غنى عن الانتقام، عادل العدل المطلق فالذى أساء يجازى بما عمل لا يزيدُ جزاؤُه شيئًا، والذى أحسن يكافأ بالأحسن ويزيده الله من فضله.

وهذا موقع متمكن للآية أعنى مجيئها بعد ذكر المجازاة للذين أساؤوا والذين أحسنوا.

وقوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ الخطاب فيه لرسول الله ﷺ أو لكل من يتأتى منه الخطاب كما فى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ

تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ﴾ [السجدة: ١٢] والمرجع واحد لأنه إذا كان الخطاب موجها له عليه السلام، فالمراد أمته من ورائه، لأن الأمة مطالبة بكل ما طولب به رسول الله ﷺ إلا فيما كان خاصا به وهو أقل من القليل، وإذا كان المراد عموم الخطاب وكان الكلام موجها لكل من تصح منه الرؤية فالمصطفى صلوات الله وسلامه عليه داخل فى هذا الخطاب، لأنه أكرم من تصح منهم الرؤية.

وهذه الصيغة ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ﴾ جاءت فى لسان الجاهلية وفى سياق ذكر ماء السماء وأوس بن حجر يقول «ألم تر أن الله أنزل مزنة» وأراد الشاعر مزنة أنْبَتَتْ عُشْبًا ومَرْعى أغرت القبائل بالغارة عليها فحمتها سيوف بنى تميم، وهذا باب والآية باب آخر لأن الشعر مرّ على هذا الحدث مرورا خاطفا، لا يَعْنيه منه إلا أنه مَرْعًى حَمَتْها سيوفهم، والآية تتغلغل فى الحدث ويتغلغل معها عقل الذى يتدبر، وتذكر قصة الماء، وأنه مسلوك ينابيع، وأنه يكون باعثا الحياة فى الأرض الميتة إلى آخره، وقلما كان الشعر ينفذ إلى هذا الباب وترى لفظ الجلالة يذكر فى أكثر الشعر الجاهلى، وأبعد الشعراء عن الإيمان كامرئ القيس، ولا يعصمهم من الوثنية، فأوس يذكر الله ويذكر الأصنام والنابغة يعظم البيت ويُعَظِّم الصنم، ولم ندرس عقائد الجاهلية دراسة شاملة، وواعية، لندرك حقيقة التماس الذى نجده بينها وبين الكتاب العزيز، نعم عرض لنا الكتاب العزيز كثيرا من عقائدهم التى قاوموا بها ما أنزل الله عليهم، وبقيت فى القرآن إشارات لكثير من العقائد التى لم يَشْرَحها الكتاب فبقيت غامضة وخصوصا علاقتهم بالأنعام، وتبتيك آذان الأنعام وغير ذلك مما ذكر فى سورة الأنعام.

قلت ذلك لأننى أهتم اهتماما ظاهرا بما جاء فى الكتاب العزيز مما جاء فى شعر القوم، وهو قليل جدا ومنه ما نحن فيه، ووصف السحاب فى الكتاب والمطر والرعد والبرق والأنواء ومقارنة ذلك بأوصاف الجاهليين باب من أبواب

الإعجـاز، يَقْرُبُ إدراكـه لظهور منازع الكلام المتـباعـدة بين الشعـر والكتاب العزيز، وافتتـاح هذه الآية بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ فيه اقتراب شـديد من الخالق لخلقه؛ وتنبيه بارع لنعمة عـامة من أعظم نعمه، وهى قريبة جدا منهم، وهم بعيـدون جداً عنها؛ وتلفتهم الآية إلى تَدَبُّرِها لأن تدبرها يدخل أهل البـصر فى عالم من عـوالم القدرة المبهـرة، وفى عالم من عوالم النعمـة التى لا يحاط بها، ولا يقادر قدرها، وتابع قـصة هذا الماء وقد بدأت بأن الله سبحـانه أنزله من السماء، وأغمضت مـا قبل ذلك، وهو كيف كان فى السماء؟ ومن أين يتوافى على السماء؟ وكيف استمر ويستمر تَدَفُّقُه من السماء؟ وما هو مصدره الذى جعله لا يغيض؟ كل ذلك سكتت عنه الآية لأن مصـدر العلم به هو العلم والدرس؛ والقـرآن العظيم يتـرك هذا ليبـحث عنه الناس، ويعـرض مـا تحت أبصارهـم مما يستـوى فى العلم به عـامـة الناس، والمرحلة الثـانية من مـراحل الماء هى سلوكـه وذهابه ينابيع فى الأرض، وهذا يكون بعد نزولـه مباشـرة فجاء بالفـاء فى قوله سبـحان: ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ﴾ وهذه جملة لا تشبع منها النفس لإيجـازها الشديد وكلماتها السهلة، وتصويرها البارع، وثراء معناها ثراء لا حدود له وراجع كلمة فسلكه وكأن الماء حبـات لؤلؤ مـسلوكة فى سلك يحـملها فـلا تضيع منه حـبه، وكـذلك الماء الذاهب فى عروق الأرض سلكه ربنا حالة كونه فى سلكه هذا ينابيع، والينابيع جمع ينبوع وهو عين الماء يَستـقى منها الناس، والأنعام والزرع، وراجع كلمتى ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ﴾ وتأمل ما وراهما مِمَّا فى باطن الأرض، وظاهرهما مما دلت عليه هاتان الكلمتان، وما وراءهما من خير وريٍّ وعطاء وسُقْيا، ولا تنسى أن النازل من السماء ماءٌ طهورٌ وأن الله سبحانه يسقى الأناسى والأنعام والزرع بماء طهور.

قلت إن الله سبحـانه يقـتـرب مـن عبـاده اقترابا شديدا فى هذه الآيه بعد ما ذكر ظلل النار للذين خسروا أنفسـهم وأهليهم، وذكر الغرف للذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها، وأنابوا إلى الله، وهو هنا سبـحانه يقترب من الفريقين

على مسافة واحدة، لأن هذه النعمة العظمى التى قامت عليها عمارة الأرض، لا يخص الله بها فريقـا دون فريق، وإنما تركها لعبـاده المؤمن والكافر، يأخذ كل واحد منها بحظه على قدر اجتهاده.

ثم إن الآية فى صياغتـها تَضَعُ تنْبيهات وعلامَات، لـيتوقف عندها من شاء من خلقه، وليـأخذ منها العبرةَ، قلـت هذا لأن قوله سبحانه بعـد هذه الجملة التى لا حدود لبلاغتهـا وخِفّتِهَا وفَصَاحتها ورشـاقتها قال: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ وكلمة (ثم) هنا هى العـلامة الـمُنَبِّهة إلى جـزء من المقصود، وذلك لأنها دالة على أن ما يأتى بعدها له شأن أى شأن فى سياق المقصود من الآية، وذلك لأن العبرة به أدَقُّ وأخْفَى وإذا كنا نرى الماء وهو ينزل من السماء فإننا لا نرى الماء وهو يفعل الفعل المـذهل فى الأرض الميتة حين يلامس باطنها الميت وحين يقع على ما استكن فى هذا البـاطن الميت من بذور وبقايا وجذور ما إن خـالطها الماء حـتى دبَّتْ فيهـا الحيـاة، وكأنها هى نفـسهـا رُفَاتُ الموتى وعظامُهم تنتـفض حين يلامسـها أمر ربهـا؛ وتسمع الزجرة الواحـدة فإذا هى بالساهرة، أو تسمع الصيحـة بالحق ذلك يوم الخروج، ولاحظ أن كلمة يُخْرِج فى قوله تعالى ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا﴾هى ذاتها المستعملة فى البعث ومن أسماء يوم البـعث يوم الخروج، والـزرع فى هذه الآية ليس كل مـا يخرجـه الماء من الأرض، وإنما يُنبتُ الماء النبات والجنات والـنخل الباسقات والزيتـون وحدائق غُلْبًا وفاكهةً وأبّاً إلى آخر ما فى الكتـاب، واكتفى هنا بالزرع لأنها كلمة عامة والمقصود ليس تعداد النعم، وإنما المقصـود أخذ العِبَر وكلمة ﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ تفيد أمرين الأول أخذ العبرة بمعـرفة القدرة المعجزة التى تسقى الزرع بماء واحد وبعضه غير بعض فى الأكل وهو مـتباين الألوان، والأشكال والطعوم، والأمر الثـانى هو تعداد النعـم لأن حيـاتنا وحيـاة الأنعـام وحيـاة كل حىّ على هذا الكوكب متـوقفة على الزرع المخـتلف ألوانه، وإخراج الزرع واخـتلاف ألوانه باب من أبواب الاعـتبـار نُعطيه القليل مـن النظر؛ ونكتفى بالاعـتبـار بخلق

الأشيـاء، مع أن تسخـير الأشـياء لما سـخرت له أكبـر من خلقهـا، بمعنى أن القدرات التى جعلهـا الله سبحانه كامنة فـى الأرض؛ وكامنة فى الماء، وكامنة فى النبات، والتى يتـفرع عنها أن الماء إذا تغلغل فى الأرض أخـرج منها الزرع المختـلف فى الألوان، هذه الطاقات هى أهم مـا فى المخلوقات، فـالبحـر آية وتسخـيره لحمل الفلك آية أكـبر، ثم خلق الطاقـات فى هذا الإنسان الذى له كانت كل النعم وإعداده لاستثمارها، والانتـفاع بها، أكبر من خلقه مجردا من هذه الطاقـات، ولذلك تأتى كلمـة (ثم) فى قوله تعـالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ لتلفت إلى هذه الطاقات ولتلفت الإنسان إلى ما أودعه الله فيه، وسخره فيه، لدراسة وتحليل هذه الطاقات والانتفاع بها، وهذا الذى قلته لا يمنع من التراخى الزمنى بين إنزال الماء وإخراج النبات لأن الأسرار لا تتزاحم.

وقوله تـعالى: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾كلمة ﴿ثُمَّ﴾ هنا الأظهـر فيـها التراخى الزمنى وأيضا الترقِّى فى الرتبة لأن كلمة ﴿يَهِيجُ﴾ معناها يبلغ الغاية فى نموه، وشـدته، وازدهاره، وما بعـد الفـاء فى قوله سـبحـانه: ﴿فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾ داخل فى حكم يهيج، يعنى هو مرتب على يهـيج، ومعطوف عليه وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ تعطف يهـيج وما عطف عليه عـلى قوله: ﴿يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا﴾ وإضافة هذا القـسم الذى هو تعقيب الهيـجان بالاصفرار له مدخل كـبير فى الاعتـبار، وفى بيـان القدرة فى الآية، ولهذا قـلت إن كلمة ﴿ثُمَّ﴾ فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ فيـها أيضا التـباعد الرتبى، لأن بـلوغ الزرع الغاية فى الشدة والازدهار أكثـر إثارة وأكثر لَفْتًا مـن خروجه زرعا مخـتلفا ألوانه، فإذا أضفنا إلى ذلك سرعة اصفراره، وبداية هلاكـه، بعد بلوغه غاية الشدة، كان الأمر أبعد وأدَل، ثم إن كلمة ﴿يَهِيجُ﴾ أضفت على الزرع معـنى من معانى الإنسان، لأن الـهيجـان الذى هو الإحسـاس بالقوة واكـتمـالها من صـفات الإنسـان، ولاشك أنك ترى وراء هذه الصـورة من أولهـا إلى آخرها صـورة

الإنسان، ودورات حياته، فإخراجه طفلا تراها فى إخراج الزرع، وبلوغه الأشد تراها فى كلمة يهيج، وصورة شيخوخته تراه فى كلمة ﴿فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾واقرأ قوله تعالى فى سورة الحج: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ ومن أجل أن يلهمنا الذكر الحكيم العلاقة بين الحالتين ذكر فى سورة الحج بعد هذا الذى هو خاص بالإنسان ما هو خاص بالأرض، فقال سبحانه: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥] والصلة بين أطوار حياة الإنسان وأطوار حياة النبات فى الكتاب العزيز أظهر من أن نشير إليها، ومجيء الشيوخة بعد بلوغ الأشد جاء فى سورة غافر ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ [غافر: ٦٧] وهو هنا كما قلت مجيء الاصفرار فى الزرع بعد الهيجان.

وكلمة يهيج لم تذكر فى الكتاب إلا فى فعل الزرع كما هنا وكما فى سورة الحديد ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ [الحديد: ٢٠] وكلمة ﴿مُصْفَرًّا﴾ لم تأت وصفا للزرع إلا فى هاتين الآيتين وجاءت فى الروم وصفا للريح ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ [الروم: ٥١].

ولابد من ملاحظة وحدة الفعل فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا﴾ كما قال فى قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾، وكان يمكن أن يقال ثم نُنْبِتُ به زرعا، ولكن فعل نخرجكم فى الحالتين مؤذن بالمشابهة بينهما، ثم إن إخراج الزرع الحى المختلف الألون من بطن الأرض الميتة فيه إشارة إلى البعث؛ الذى هو إخراج الموتى، ويلاحظ أيضا أن الأفعال مسْنَدَةٌ إلى الحق فهو سبحانه الذى أنزل الماء، وهو الذى سلكه ينابيع فى الأرض، وهو الذى يخرج به زرعا، ثم أسند الفِعْل إلى الزرع فى قوله ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ ثم عاد الإسناد إلى

الحق فى قوله ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾، ومثل هذا تراه فى دورات حياة الإنسان، فالحق سبحانه يخرجه طفلا، ثم يبلغ الإنسان أشده فى قوله ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ [الحج: ٥] وبلوغ الأشد كما قلنا هو المقابل لقوله فى الزرع ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾، ويلاحظ ملاحظة أخيرة فى سورة الحديد وهى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ وتقابل فى الزمر ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾، وإنما أسند الجعل حطاما إلى الحق فى الزمر لأن الآية بنيت على هيمنة الحق على هذا العطاء، وبدأت بقوله﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ فهى تحدث عن القدرة والنعمة معا، وآية الحديد بدأت بذكر الحياة الدنيا وأنها لَعِبٌ ولهو وزينة، وأن مثلها كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون هو حطاما، يعنى أن هذا النَّبَاتَ الذى أعجب الزراع كما يحمل فى طيّه عوامل اكتماله ونموه المتمثل فى كلمة ﴿يَهِيجُ﴾ يَحْمِلُ أَيْضًا فى طيِّه عوامل فنائه المتمثل فى كونه هو يكون حطاما، آية الحديد تحذر من الاغترار بالفانية التى كما تحمل فى طيها أسْبَابَ طغيانها، تحمل أيضا فى طيِّها عوامل فنائها، وهذا غير الذى معنا، وختمت آية الحديد بقوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠] يعنى متاع خادع لأنها وَهْمٌ كما تقول وكنت فى غرور يعنى مخدوعا لأن الحياة الدنيا فى طيّها فناؤها، وختمت آية الزمر بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ واسم الإشارة راجع إلى قصة الماء، وما أنْتَجه من زرع بلغ أشده، وبلغ أناه، ثم جعله الله حطاما، وهو سبحانه الـمُنْعِمُ به، وهو سبحانه الذى جعله حطاما؛ إيذانا بالفناء الذى ضربه الله على كل حيّ، من إنسان وحيوان ونبات، وتلحظ شيئا لا يجوز إغفاله وكأنه تنبيه لهذا الذكر وهو أن القصة بدأت بقوله ﴿أَلَمْ تَرَ﴾والخطاب لكل من يتأتى منه الخطاب وقَبْل لحظة النهاية المتمثلة فى قوله ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾ قال سبحانه ﴿فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾ والخطاب هنا أيضا: لكل من يتأتى منه الخطاب،

وكـأن الآية حَثَّتْ على الرؤية بالعـين والقلب فى أول الكلام، وقبل آخـره، حتى تقع النهاية الدالة على كمال القدرة وهى جعل الله له حطاما موقعها من نفس يقظى وفهم متـسارع، ثم تجد القطع والاستئناف والتـوكيد كل ذلك فى جملة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ ثم تجد التوكيد باللام المزحلقة التى أبقاها فى مكانـها داخلة على المبتـدأ تقديمُ الخبـر الجار والمجرور لأن العـبرة والذكرى فـيه لأنه مـوضعهـا، والجار والمجـرور فى قوله ﴿لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ متعلق بالذكرى، لأنها لهم لا لغيـرهم، وكأنها ناظرة إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩] وأن الذى لا يتـذكـر ليس من أولى الألبـاب وليس من الذين يعلمـون، وهى ناظرة أيضـا إلى أولى الألبـاب الذين هداهم الله والذين يستـمـعون القـول فيتبعون أحـسنه ولهـذا نجـد هـذه الفـاصلة الـمسكة بهذه الآية راجعة للذين لا يعلمون، وهم الفـريق الذى اتخذ من دون الله أولياء، وراجعـه إلى فريق الذين اتقـوا ربهم واجـتنبـوا الطاغوت أن يعـبـدوها وأنابوا إلى الله، وهمـا المتقـابلان اللذان بُنِيَتْ عليهـما الآيات السابقـة، وأن هذه الآية مع أنها بدأت بالحديث عن دلائل الوحدانية الملتبسة بفيض النعمة، ورجعت بذلك إلى آيات خلق السموات والأرض بالحق وتكوير الليل على النهار وخلق الناس من نفس واحدة إلى آخره، رجـعت بها هذه الفاصلة إلى بقيـة مكونات السورة، وهذا من أفضل مـا تراه من إمسـاك المعانى بعضـها ببعض، ومن تشـكيل وتصوير وحدة السورة ومن بيان هيئتها وعمودها، وسمتها، هذا والله أعلم.

وجملة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ فيها شىء آخر غير الذى قلته وهو أن مـا يعود إليـه اسم الإشـارة ليس ظاهره فـقط هو المراد، وإنما المراد ظاهره ومـا يقاس عليـه من كل ما يـشبـهه، وأنه كـما أن النبـات الذى فى الأرض ترعاه الأنعام ويأكل مـنه الناس كله فى قبضة الله من لحظة مـلامسة

ماء السمـاء لطينة الأرض وإخراج النبات منه وهيجانه ثم تحطيـمه كذلك كل شيء في هذا الوجود ليس الإنسان فحسب، وإنما كل ما على هذه الأرض في قبضة الحي القادر وهو سبحانه آخذ بناصية كل شيء؛ وكل شيء بين أصبعين من أصابعه والأرض جميعا قبضـته، والسموات مطويات بيمينه، فأنى يصرف هؤلاء الذين اتخذوا من دونه أولياء؟ الذكرى معناها التذكر واستحضار الصور وقيـاس بعضها على بعض، الذكـرى معناها إعمـال العقل واستخـراج ما لم يذكر مما ذكر، وأن هذا الاستحضار وهذا القياس وهذا الاستنباط كل ذلك من لوازم العقل الذي عَبَّرت الآية عنه باللب؛ الذي هو لباب الإنسان، ومحضه، وأن من لم يزاول هذا النظر وهذا التـذكر وهذا القـياس وهذا الاستـنباط في حكم من ليـس له لب، والآية التي بعـد هذه الآية تؤكـد هـذا المعنى لأنهـا ذكرت الذي على نور من ربه يعني اهتدى بما يَهْدِي؛ وصار على الحجَّة وصار على النور، كمـا أن هذه الجملة إرهاص بالمثل الذي ستضـربه الآية بعد آيات من هذه الآية وكأنها تعد العَقْل لتلقي الأمـثال لأن الأمثال المضروبة للناس في الكتاب العزيز من أقوى عوامل الاستنفار للطاقة الإنسانية والعقل الإنساني.

قوله سبـحانه: ﴿ **أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾ [الزمر: ٢٢].

موقع الآية من أهم مـا يعين على الفهم الأدق لها، وآيات الكتـاب صالحة كل واحدة منهـا لأن تستقل بمعناها، وأن تكون في إفـادة هذا المعنى غنيّة عن التي قبلها والتي بعدها، فإذا انْـتَزَعْتها من موقعها ونظرت فيـها وجدت كلاما تاما ومعنى عاليـا، لا يقاربه غموض، فإذا رجعت بها إلى موقعـها وسلكتها مع ما قـبلها وما بعدها، وجـدتها في هذا الموقع تضيء إضاءات جديـدة غير التي كانت تشـرق بها وهي مفـردة، وهذا الكلام الذي أقوله هو واقع البـيان القرآني والذي لفتنا إليه أبو بكر بن الطيب رضي الله عنه وأرضاه.

ومن المفيد أن ترجع البصر كرة واحدة إلى الآية التى قبلها لِتَسْتَحْضِرَ أهم ما بنيت عليه، وهو البرهان الساطع على أن هذا الوجود فى قبضة حىٍّ قادر، وأن هَيْمنَةَ الحق على أقرب الأشياء إلى عينيك هيمنة ظاهرة، فهذا الماء النازل من السماء هو عطاؤه سبحانه وهذه الطاقات الكامنة فى الأرض والتى تُنْبتُ الزرع المختلف ألوانه هى عطاؤه سبحانه؛ وتلاحظ أن الآية كرَّرَت الرؤية فذكرتها فى أولها ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ وكررت الرؤية فى آخرها ﴿فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾ وهذا يعنى نهاية التَّجلِّى فى البرهان ثم تأتى هذه الآية وتبدأ باستفهام إنكارى وفيه تعجيب وتجهيل للذى يرى ما تقدم ثم يتوهم أن من دخل فى الدين بحب ونشاط نفس وشرح صدر كمن كره الدين وضاق صدره بذكره، وأنه كمن وَهِمَ أن أصحاب الظلل فى النار كأصحاب الغرف فى الجنة، وأنّ مَنِ اجْتَنَبَ الطاغوت أن يعبدها وعبد المعبود بالحق، كمن عبد الطاغوت وكره أن يعبد المعبود بالحق، وفى قلب هذا المعنى تجد ذكر التذكر وذكر الألباب وأصحاب الألباب، لأن من يُسوى بين من شرح الله صدره ومن جعل الله صدره ضيقا حرجا لا يمكن أن يكون من أولى الألباب.

الآية كأنها خلاصة لما سبق: هى لا شك موصولة بمن هو قانت آناء الليل وموصولة بمن يعبد الله مخلصا له الدين، والذين اجتنبوا الطاغوت، والذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وكل هؤلاء شرح الله صدرهم للإسلام كما هى موصولة بالذين اتخذوا من دونه أولياء، والذين كفروا، والذين خسروا أنفسهم، وتُبين أن التسوية بين الفريقين المتباينين أشد التباين لا تكون إلا من الإنسان الذى يضيق صدره عند ذكر الحق، أعنى الإنسان الذى أهدر قيمة العقل.

والفاء التى بعد همزة الاستفهام ترتب ما بعدها على كل ما قبلها ممن ارتبطت بهم الآية الشريفة، وهذا لا ينافى ما اخترناه من رأى الجمهور وأنها عاطفة على محذوف بعد الهمزة لأن الهمزة الداخلة على الفاء فى اللفظ هى فى الحقيقة داخله على محذوف هو الذى ترتب عليه ما بعد الفاء، قلت هذا

لا يتنافى مع القول بترتيب ما بعد الفاء على كل ما سبق لأن الذى نقدره لابد أن يكون تلخيصا مركزا لما سبق، والهمزة تنكر أن يترتب على كل التجليات التى تجلى فيها الحق فى الآيات السابقة، وبلغت ذروتها فى الآية الأخيرة التى صيرت برهان الحق برهان كل من تأتَّى منه الرؤية، تنكر أن يترتب على هذا التسوية بين من شرح الله صدره ومن لم يشرح الله صدره.

وتقدير الكلام والله أعلم هو: أعميت العيونُ وضلّت العقولُ واستوى البرهان ونقيضه فمن شرح الله صدره كمن لم يشرح الله صدره، قلت كثيرا إن تقدير هذا المحذوف الذى بين الهمزة والفاء أو الواو من أصعب ما يواجهه الدارس لكلام الله، وهذا ما عندى ومُبْلِغُ نَفْسٍ عُذْرَهَا مثل منجح.

وشرح الصدر فى سياق الآية يعنى أن من أكرمه الله بهذه الكرامة نظر فيما يقوله ربه وتدبر وبَحَث عن الحق بنفس ليس لها مَطْمَع إلا معرفة الصواب، فاستمع القول وتدبره واتبع أحسنه، وهذا الصنف سَيَجدُ يَدَ الله ترفعه إلى مقامات الحق، لأنه طلب الهدى فاهتدى، فشرح الصدر للإيمان الذى هو عطية من الله يكون مع سلامة القصد، وخلو النفس من الضلالات التى ترى سبيل الرشد فلا تتخذه سبيلا، وترى سبيل الغى فتتخذه سبيلا، والذى يرجح هذا المعنى وهو أن شرح الصدر يقترن بطلب الحق حتى فى مسائل العلم، هو أن المقابل المحذوف أيضا مدلول عليه بقوله تعالى: ﴿**فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ**﴾ وهذا مضاد لمن طلب الحق ونفسه بريئة من كراهية الحق وأن نفسه لا تتوتر وتغضب وتعنف ويرتكبها أخس شياطينها عند سماعه ذكر الله، وهذا هو الذى يضله ربنا، ولو برئ من هذا لشرح الله صدره، وهُدَى الله عَطِيَّةٌ لمن أناب، ورجع إلى الحق، حين يتبين له الحق، وقد ذكر الكتاب العزيز فى مواطن كثيرة الذين يرتدون على أدبارهم من بعد ما تبيَّن لهم الهدى، الإنسان الذى يختار طريق الهُدَى يَهْديه الله، والذى يَرْتد عن الهدى يضله الله، ونعمة شرح الصدر من النعم الخاصة ليست

كنعمة العافية والرزق والخَلْق، وإنزال الماء الذى يخرج الله به زرعا مختلفا ألوانه، لأن هذه نعم عامة وهى مبذولة لكل من مد يده إليها، بخلاف شرح الصدر والهدى لأنها من النعم الخاصة التى لا تتصل بمد اليد، وإنما تتصل بالروح والقلب والعقل فمن استشرفت إليها نفسه، وعقله، قذفها الله فى قلبه، ومن ضاق بها لا تقذف فى قلبه.

وقوله سبحانه ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ الفاء عطفت الجملة الإسمية على جملة الصلة، وفيه بيان تفسير وشرح للشرح، والنور هو الهدى، والجار والمجرور فى قوله سبحانه ﴿مِّن رَّبِّهِ﴾ راجع إلى إسناد الشرح إلى لفظ الجلالة وأن شرح الحق للصدر هو هداية العقل الطالب للهدى بنور الحق الذى وضع المنارات لخَلْقه على طريقه المستقيم الواصل إلى دار السلام التى يدعو سبحانه عباده إليها، وكلمة ﴿عَلَىٰ﴾ هى أخت «على» التى فى قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [لقمان: ٥] وأنها دالة على التمكن من الحق، ومن النور، ومن الهدى، لأنه بَيِّن ودليلُه بَيِّنٌ وكل من عَاداه تَبَيَّنَهُ وعاداه بعد ما تَبَيَّنَهُ. وراجع نصف الجملة ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ لأن النصف الآخر الذى هو الخبر محذوف، وتدبر صورة هذا الحىّ القلب السوى الفطرة؛ الذى استعان فأعُين واستهدى فَهُدِىَ، وقد اغتبطت نفسه بشرح الصدر للحق، وبرد اليقين بالحق، والحق جل وتقدس يَمُدُّ يَدَهُ إليه ويجعله على نوره متمكنا منه ملازما له، لا يحول عنه ولا يزول. ثم تأمل حذف المقابل وفى الحذف معنى الطرح والإهمال، وأن شرح الصدر يقابله ضيق الصدر، ويشتد هذا الضيق حتى كأنه يصَّعد فى السماء.

وجملة ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ دالة على المحذوف من ناحية، ومرتبة معنى جديدا على المعنى الذى قبلها من ناحية أخرى، أما دلالتها على المحذوف، فإن من لم يشرح الله صدره للإسلام هو الذى يقسو قلبه عن ذكر

الله فلا يذكر الله أو يقسو قلبه من ذكر الله كما فى قراءة أخرى؛ يعنى إذا سمع ذكر الله قسا قلبه ونبا، وتطيَّر، وهذا يوشك أن يكون صورة ثانية للتعبير عن من لم يشرح الله صدره، أو من يجعل الله صدره ضيقا حرجا كأنما يصعّد فى السماء، وسيأتى تعبير آخر عن هذا المعنى وهو قوله تعالى ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ [الزمر: ٤٥] وجمع هذه الصور المعبرة عن أصل واحد وتحليل ما بينها من فروق وربط ذلك بالمقامات من الأعمال التى تكشف مزيدا من أسرار البيان فى كلام الله؛ وتعين على إدراك مثله فى كلام الناس؛ ثم إن وجه دلالتها على معنى آخر هو أنها لا تَنْعقد على بيان أن قلوبهم تقسو من ذكر الله أو تقسو عن ذكر الله وإنما انعقدت على بيان أن لهم الويل وكأن من أسرار حذف خبر المبتدأ المسارعة إلى ذكر الويل لهم ووراء ذلك من الغضب ما وراءه، والويل العذاب والهلاك وظلل النار التى من فوقهم ومن تحتهم؛ وهذا الوعيد وما فيه من غضب يمنح هذه الفاء معنى آخر، وهو سرعة المكافحة والتهديد لمن يتساوى عنده الإقبال على الإسلام والإعراض عنه، ثم إن فى الآية سُرْعة خِذْلان الله لهم وأنهم كرهوا ما أنزل الله، بل إنهم كرهوا لفظ الجلالة، وأنهم تعتريهم أحوال من القسوة، والغلظة والعُنْف عند سماع ذكر الله، وهذه الحالة لا تزال قائمة، ولا يزال يعيش بيننا من إذا ذكر الله اشمأزت نفسه، وإذا سمع الآذان كأن حية لسعته، ويرى أن الاعتقاد فى الغيب مرحلة تاريخية انتهت بالتقدم العلمى، ويوهم بذلك أنه مفكر حُرّ مع أنه من أخسّ المنافقين للطواغيت، والجبت المتطور على أرضنا، وقلت متطور لأن الجبت والطاغوت القديم كان حجرا يُعْبَدُ وهو لا ينفع ولا يضر، والجبت المعاصر يطافُ حوله؛ ويقتل، ويسرق؛ ويعذب المعارضين، وينكل بهم، ويعمل لصالح العدو، وهؤلاء المتنورون من خدمه، وتحت غطائه الفاجر يهاجمون الدين، والتدين، ويُعَرضون بالظلام، والظلاميين، أصبح اعتياد المساجد تهمة؛ وبشر المشائون إلى المساجد بالمعتقلات

والتعـذيب. وقد بدأ هذا الـظلام ينقشع واسـتيقـظ النائم وأخذت الشـعوب المبادرة بأيديها والله غالب على أمره، والذى أريده من هذا أن كلمة ﴿لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ كأنها نزلت اليوم.

ولاحظ شيئًا مهما فى أسرار البيان وهو أن كلمة القاسية قلوبهم عن ذكر الله كما كانت مشيرة إلى المحذوف المقابل لمن شرح الله صدره فهو على نور من ربه وهو ما ذكر قبلهـا فهى أيضًا تشير إلى مذكور أنت أيـها القارئ فى الطريق إليه وهم الذين تلين جلودهم وقلوبهم إلـى ذكر الله؛ وحسن جـدا أن يكون الكلام ممسكا بالذى قبله، وحسن أيضا أن يكون فاتحا طريق الذى يأتى بعده.

وقوله جل شأنه ﴿أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ الويل المذكور فى الجمـلة قبلها منصرف إلى عذاب الآخـرة، وهذه الجملة منصرفة إلى بيـان حالهم فى الدنيا لأن الآخرة ليس فيـها هدى ولا ضلال، لأنها ليـست دار تكليف، والضلال فيهـا ضَلال الضُّلاَّلِ عن آلهتـهم التى عبدوها لتشفع لهـم، وكأن هذه الجملة تعلل تهديدهم بالثـبور والهلاك والويل، وأنه كان ذلك لضـلالهم فى الدنيا، وقد قادهم إلى الضـلال كبر فى صدورهم، جعلهم يضيـقون عند ذكر الله؛ وليس فقط يضـيقون بالذكـر فلا يذكرون، وإنما يضـيقون إذا ذكـره الذاكرون سـبحـانه، ثم إنهم ليـسـوا من الذين غـفلوا عن ذكـره، وإنما هم من الذين يضيقون عند سماع ذكره من عباده الذين خلقهم كما خلقهم، وفى أرضه التى جـعلها لهم مـهادا، وفى رزقـه، وفى كـونه الذى سخـره لهم، وهذا أبشع وأخـبث وأخس الطباع، هـؤلاء بدأت الجملة الكريمـة ذكرهم باسم الإشـارة الذى يميز المشـار إليه أكمل تميـيز؛ ويدل البعد فـيه على إبعادهم عن حـضرة الخطاب؛ وإبعادهم فى الضلال، ثم أخبر الحق عنهم أنهم فى ضلال، وليسوا ضالين فـحسب، لأن حـرف الظرفيـة يفيـدُ أنهم كائنون فى الضـلال، وكأن الضلال لهم سكن، ومـقام، وأنه من حولهم ومن فوقهـم ومن تحتهم، وأنه

بين أيمانهم وشمائلهم، ومن خلفهم ومن ورائهم، وهذا شأن من يقسو قلبه عند ذكر الله، وكلمة (مبين) اسم فاعل يفيد أنه ضلال مبين هو عن أنه ضلال، يعنى ضلال ينادى عن ضلاله؛ فليس من الضلال الذى تكتنفه جوانب من الريب والشُّبه والشكوك وإنما هو ضلال تُقر العقول كلها على أنه ضلال مَحْضٌ لائح لكل من به مسٌّ من عقل، وهذا المعنى يرجع إلى قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ والذين لا يعلمون هناك هم الذين يُسوُّون بين من شرَحَ الله صدره للإسلام ومن جعل صدره ضيقا حرجا؛ وهم القاسية قلوبهم عن ذكر الله ومن ذكر الله، وتفسير المبين بأنه ضلال مُعَبِّر ومبين هو عن ضلاله يعنى أن الواقع فيه والـمُستهلَك فيه والذى جعله مسكنا يعيش فيه ليس من ذوى اللب.

ثم إن هذه الفاصلة أعنى جملة «**أولئك فى ضلال مبين**» ليست راجعة إلى كل الآية لأن رأس الآية من شرح الله صدره للإسلام، وإنما هى راجعة إلى ما بعد المبتدأ، وهو الخبر المحذوف، وراجعة إلى جملة الويل والوصف بقسوة القلوب وضلالها، وتوترها، واشمئزازها عند ذكر الرحيم الرحمن المنعم بالنعم كلِّها، وهذا من أخس ما توصف به النفوس؛ لأنى لا أعرف فى باب الخساسة وهو باب متسع جدا أخّسَّ من كفران الخسيس للذى بات فى نعمائه يتقلب، ومنه يتفرع العقوق الذى هو من أكبر الكبائر؛ ورأس الآية الذى يتحدث عن من شرح الله صدره للإسلام كانت الفاتحة التى فتحت ذكر هذا النموذج.

قلت هذا لأنى أجد شبها قويا جدا بين هذه الفاصلة وفاصلة آية ﴿ **وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨] ضَعْ ﴿ **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴾ بإزاء ﴿ **أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾ تجد جملة الضلال المبين هى الصورة

المضـادة لجـملة ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ وتجد جـملة ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ داخله تحت كلمة «مبين» يعنى مناد على نفســه بأنه ضلال لا رَيْبَ فيه؛ ووجه دخولهـا تحت هذه الكلمة أنه لا يضل ضلالا ينادى الضلال على نفسه بأنه ضلال مبين إلا مَنْ لا لُبَّ له، وهذا ظاهر، ونجـد أيضا تَقَارُبًا مُلْتَّما بين يستمعون القول فيتبعون أحسنه؛ والقاسية قلوبهم من ذكر الله، لأن الذى يصغى إلى القول بعناية، - وهذا هو معنى يستمع وهو غير يسمع - ثم يتفقد ما يســمع ويوازن بين ما يســمع ويُعوّل على عـقله فى ترجيح مـا يترجح ثم يَخْتَارُ مـا يرجحه العقلُ ويَشْـهدُ له الدليل، هذا نموذج مضاد لهـذا الهَلفوُت الذى كلما سمع ذكر الله اشتط فى العناد والجلافة والقسوة والغلظة وولى كأن لم يسمـعهـا كأن فى أذنيه وقـرا، وتوهم أنه بذلك يكون مُفكرًا ومـتفلسـفا ومتنوراً وأنه تجاوز ما عليه العامة والبسطاء الذين تخشع قلوبهم لذكر الله.

بقى شىء ليس عندى فـيه من العـلم إلا المسألة، وهى لماذا وصف المعـاند عند سماع الكتاب فى أول الجـاثية بقوله تعالى ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ [الجاثيـة: ٨] ووصف فى فصلت بـقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت: ٥] ووصف فى الزمر بقـوله تعالى ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾؟ هل ناسب ما فى الجاثية قـوله سبحانه ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الجاثية: ٧]وناسب هنا قـولـه تعـالى ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمـر ٢٣]؟ والغـريب أن هذا كله فى آل حم، الذى شُـغلْتُ به زمنا ليـس بالقليل؟ ولم أستطع أن أقتنع بأن هذا من باب التفنُّن. كما يقول بعض أهل العلم الفضلاء وأظنهم يستريحون إلى ذلك حين يبلغ بهم الجهد والله أعلم.

قال الزمخشرى فى بيان الفرق بين القراءتين ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾، «فويل للقـاسية قلوبهـم عن ذكر الله»: «فإن قلت مـا الفرق بين من وعن فى هذا؟ قلت إذا قلت: قسا قلبه من ذكـر الله فالمعنى ما ذكرت من أن

القسوة من أجل الذكر وسببه، وإذا قلت عن ذكر الله، فالمعنى غَلُظ عن قبول الذكر وجفا عنه ونظيره سقاه من العَيْمَة أى من أجل عَطَشه، وسقاه عن العيمة إذا أرْوَاه حتى أبعده عن العطش» انتهى كلامه رحمه الله.

قوله سبحانه: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

هذه الآية الكريمة لها صلات قوية بالكلام الذى قبلها وأهم هذه الصلات صلتها بجملة ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ لأن هذه الآية كأنها تفسر لنا سِرَّ الغضب الذى تراه فى كلمة ﴿فَوَيْلٌ﴾ وأن سِرَّ هذا الغضب هو أن الكلام الذى تَقْسُو قلوبُهم من ذكره، وعن ذكره، هو أحسن الحديث الموصوف بما فى الآية، وأهم ما يَتَّصل بقسوة قلوبهم هناك قوله سبحانه هنا ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ واقشعر الجلد تَقَبَّض تَقَبُّضًا شَدِيدًا من شدة الخوف وهو فى البيان كناية عن هذا المعنى، قال الزمخشرى: «واقشعر الجلد إذا تقبض تقبضا شديدا وتركيبه من حروف القَشْع، وهو الأديم اليابس مضمومًا إليه حرف رابع، وهو الراء ليكون رُبَاعِيّاً ودَالا على معنى زائد، يقال اقشعر جلده من الخوف، وقف شَعْره وهو مَثَل فى شدة الخوف فيجوز أن يريد به الله سبحانه التمثيل، تصويرا لإفراط خشيتهم، وأن يريد التحقيق»، والزمخشرى خير من يؤخذ عنه تحليل الكلمات والتراكيب وإن كان هنا يتسامح لأنه ليس فى مقام التدقيق وأعنى بالتسامح هو الجمع فى توجيه الجملة بين التمثيل والتصوير من جهة، والتحقيق من جهة أخرى؛ لأنها ما دامت تخلو من القرينة المانعة من إرادة الحقيقة فهى بين أمرين إما الحقيقة، أو الكناية، وقد يجمع بينهما ويكون حدوث القشعريرة وقف الشعر واقعا، ثم هو كناية عن شدة الخوف. والتمثيل والتصوير لا يقوم إلا على المشابهة وهى بعيدة هنا.

والمهم ليس هو هذا، وإنما المهم أن مَنْ قَسَتْ عنه ومنه قلوب هؤلاء الضائقة صدورهم من ذكر الله يُحْدِث هو ذاته بلفظه ومعناه هذا الأثر فى قلوب أهل الفطرة، الذين ينقادون للحق إذا تبين لهم، وهنا إشارة خفية إلى أن الناس يختلفون فى تلقى البيان والأحْدَاث والوقائع تبعا لما بقى فى نفوسهم من صفاء الفِطْرة ونقائها، فمن بَرِئَتْ نفوسهم من الخسائس تَقْشَعِرُّ قلوبهم عند سماع الحق؛ ومَنْ تكدّرتَ نفوسهم وفسدت خباياهم تضيق صدورهم عند ذكر الحق، وعن ذكر الحق؛ ولم تذكر كلمة ﴿تَقْشَعِرُّ﴾ فى الكتاب العزيز إلا فى هذه الآية، ولم يحدثنا ربنا عن كتابه الكريم حديثا أطول من حديثه عنه فى هذه الآية، قلت وأؤكّد أن هذه الآية مع صلتها بكثير مما سبق تراها وأراها أكثر التصاقا بجملة ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ حتى لو قلت إنها خارجة من لحمها ودمها لم تكن مخطئًا، ويرجح ذلك أن أكثر الآيات التى تحَدَّثَتْ عن المحادين لدين الله عند سماع القرآن تذكر توليهم عند سماعه كما جاء فى لقمان ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ [لقمان: ٧] وكما جاء فى الإسراء ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦] أو يذكر الكتاب قولهم ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]، ولم تذكر قَسْوَةُ القلوب من الذكر أو عن الذكر إلا فى هذه الآية، وناسبها فى الوجه المقابل القاصد إلى بيان فسادها وضلالها كلمة ﴿تَقْشَعِرُّ﴾ التى لم تذكر أيضا إلا فى هذه الآية وهذه القشعريرة ليس لها من سبب إلا شدة الوجل والخوف من الله، فالآيتان وصفتا حالة الضلال عند السماع وصفا مُنْصباً على حالة القلب، وحالة المهتدين عند السماع وصفا منصباً على نَقَاء الفطرة والإخبات وَوَجل القلب وَجَلا تقشعر له الجلود، ثم إنك تجد تكراراً فى كلمة ﴿ذِكْرِ اللَّهِ﴾ فريق تقسوا قلوبهم من ذكر الله وفريق تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله.

وهذا حسبى فى بيان صلة هذه الآية بقلب الآية التى قبلها، لأن قوله سبحانه ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ يوشك أن يكون هو المقصود الأظهر من الآية قبلها كما يوشك أن تكون قشعريرة الجلود ثم لينها ولين القلوب من ذكر الله هو المقصود الأظهر من هذه الآية، وكما كان رأس الآية هناك وهو قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ مَدْخلا مضيئًا للمقصود كذلك يمكن أن نقول إن قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ﴾ مدخلا مضيئا للمقصود لأن المقصود من هذا الكتاب العظيم هو فعله فى القلوب الذى أحسنت الآية الإبانة عنه، وكشفته كشفا لم يتكرر فى الكتاب العزيز، نعم ذكر القرآن الكريم وَجَل قلوب المؤمنين وخوفهم فى آيات كثيرة ولكنه لم يذكر أنه خوف تقشعر منه الجلود إلا هنا وهذا حسبى.

بقى شىء أتلمسه فى السورة العظيمة لأؤكد به ما قلته من أن رأس معناها هو إخلاص العبادة لله رب العالمين، والذى أؤكد به هنا أنك لا تجد وَصْفًا أبْلَغ فى بيان حال الذين أخلصوا دينهم لله من أن يكونوا من الذين تقشعر جلودهم من خشية الله، ثم تلين قلوبهم، وجلودهم، وينكشف عنهم الخوف إذا ذكروا رحمته وكأنهم لا يَبْرَحون مَقامَيْن مقام الخوف الذى تقشعر منه الجلود، ومقام الرجاء الذى تلين له الجلود والقلوب، ويذهب عنها ما تجد وتعود إلى حالتها المألوفة، وتَفَرُّدُ السورة بهذا الوصف يؤكد أهمية المعنى الذى جاء فيه هذا التَّفَرُّد، وهو إخلاص العبادة، ويقابله تفرد الفريق الآخر ووصفه عند سماع الحق بِقَسْوة القلب وليس بالتولى أو بقولهم هذا سحر مبينٌ، أو لو نشاء لقلنا مثل هذا أو أساطير أو غير ذلك مما ذكره الكتاب العزيز، كل هذا شىء وأن تتحرك القلوب فى الاتجاه المضاد للفطرة وتسلك سبيل القسوة، والغِلظة والجلافه، والغباوة شىء آخر هؤلاء هم النمط الذين اتخذوا من دون الله أولياء.

ثم إن الآية الكريمة لها أذرع تمدها لأول السورة، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ٢] ولو قلت لك إن الفاء فى قوله ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ﴾ تطوى تحتها ﴿كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ لم أكن متكلفا، لأن تَرَتُّب إخلاص العبادة لله رب العاملين على إنزال الكتاب لا يكون إلا إذا كان هذا الكتاب على الحد الذى وصفته الآية، يعنى متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم إلى آخره، قلت إن الآية الكريمة تَمُدُّ ذراعًا إلى الوراء فيمسك بآية المطلع، وذكرت ما أفهمه من هذه الفاء، وأقول إن لها ذراعا آخر يمتد إلى نظائر أو أخوات لها فى السورة جاءت سابقة لهُنَّ وذلك قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٧، ٢٨] والمثل من أحسن الحديث فى الكتاب، ثم قوله تعالى ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ﴾ [الزمر: ٤١] وهى أخت جملة المطلع ولكنه سبحانه قال هنا ﴿عَلَيْكَ﴾ وهناك ﴿إِلَيْكَ﴾ ثم جاءت الفاء التى رتبت هناك الأمر بإخلاص العبادة على إنزال الكتاب وهى هنا تتجاوز الأمر بإخلاص العبادة إلى الإخبار عن نتائج هذا الأمر وأن هذا الأمر كان الناس منه على فريقين فريق اهتدى وفريق ضلَّ، والكلام هنا يُحمِّل كل فريق كَسبه وأن المهتدى اهتدى لنفسه، وأن الضال ضال عليها، وهذه خطوة تتبع خطوة الأمر فاعبد الله مخلصا له الدين وهذا ظاهر إن شاء الله.

ولن أرجع بالآية إلى العرق الذى هى منه فأقول لك إن الذين تقشعر جلودهم هم الذين شرح الله صدرهم للإسلام، وهم الذين اجتنبوا الطاغوت، إلى آخره، وإنما أكتفى ببيان الطريق وعليك أنت أن تُتمَّ، والمهم هنا هو هذا التشابه اللفظى الظاهر بين قوله تعالى ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ

يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١] و﴿نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا﴾ وآية الماء فيها شيء تنفرد به كما تفردت هذه الآية بذكر ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ﴾ هذا الشيء هو كلمة ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ﴾ فلم يوصف الماء فى موقع من مواقع ذكره فى الكتاب وهى كثيرة بأن الله يَسْلكه أو سلكه ينابيع فى الأرض إلا فى هذه الآية، ولو قلت لك إن سلوك الماء ينابيع فى الأرض فتحيا به الأرض وتنبت زرعا مختلفا ألوانه ليس بعيدا عن سلوك القرآن إلى القلوب فَتَوْجَلُ منه وَجلا يُحْدِث فى جلدها ما وصفت الآية فلا تعجب وراجع سلوك الماء ينابيع فى الأرض فتحيا وسلوك الوحى ينابيع فى القلوب فتحيا، ولا يجوز لى ولا لك أن تدفع تشابها ولو كان بعيدا فضلا عن أن يكون قريبا كما ترى.

وقد ذكر المفسرون أن مجىء آية تنزيل الكتاب عقب آية إنزال الماء من السماء للدلالة على أن الحق سبحانه أنزل الماء الذى جعل منه كل شىء حى من نبات وحيوان وإنسان وبه لا بغيره قوام حياة الأبْدَان، ثم نزّل الكتاب الذى به وحده لا بغيره قوام الحياة فى جانبه الأخلاقى والروحى والنفسى، وأن الحالة الأولى هى عمارة الأرض بالعَيْشِ وبالإنسان والحيوان والحالة الثانية ضرورة لهذه العمارة، لأن الكتاب يدعو دعوة واحدة هى الدعوة إلى الأخلاق الجامعة لكل خير والمانعة لكل شر، لأن الله جلَّت كلمتُه ما ترك خيرا إلا أمرنا به، وما ترك شرا إلا نهانا عنه، فعمارة الأرض بالخير وخلوها من الشر هى هدف الكتاب كما أنه بالماء تكثر خيراتها، ويكثر التنازع والتنافس، والأثرة والتَّحاسُد، والكتاب للقضاء على ذلك كله، والذى قلته فى الشَّبه بين سلوك الماء ينابيع فى الأرض الذى لم يذكر إلا هنا، وبين سلوك الوحى ينابيع فى القلب، داخل لا شك فى هذا الربط بين الآيتين، وهو رَبْط مقرر عند كافة المفسرين، وعند كل من له فهم فى البيان.

وقد بقى شىء، وهو ما أراه من إشارة خفية وجليلة تقول إن هذا الوجود كما أنه لا يَصْلح إلا بالماء الذى أنزله الله سبحانه من السماء كذلك لا يصلح

إلا بهذا الوحى الذى أنزله الله سبحانه بعلمه المحيط بمن خلق جل وتقدس، وكل المحاولات التى تُقْصى شرع الله سبحانه عن تدبير شئون خلقه هى فى الجانب الإنسانى فى حياة الناس، بمثابة المَحْل والجَدْب والقحْط فى جانب الوجود، لأن كل هذه المذاهب الأرضية لا توفر الروح الإنسانية للناس فى أى مجتمع، والمجتمعات التى بلغت من العلم ما نراه هى فى الجانب الإنسانى شديدة التخلف، وربما كان فى شرائعها ما يهين الإنسان، ويخالف الفطرة، هذا فضلا عن ما نراه من توحش وسعار فى السيطرة والغلبة والنهب وتدمير الشعوب وهذا وحده دال على افتقاد الروح الإنسانية فى هذه الحضارات، والخلاصة أن الآيتين تدل الأولى منهما دلالة لا يختلف عليها أحد وهو أن ما به قوام الحياة لا يكون إلا من الله، والثانية تدل على أن قوام النظام فى هذه الحياة، وقوام السلوك، وقوام العلاقات الإنسانية والعدل الإنسانى، والروح الإنسانية، لا يكون فى هذه الأرض إلا بوحى الله؛ لأن وحى الله هو الرحمة التى تعم كل ذات كبد رطبة، والذى يقف بالعدل فى وجه الظلم، وبالأمانة فى وجه الخيانة، وبالصدق فى وجه الكذب، وبالإيثار فى وجه الأثرة، وبالوفاء فى وجه الغدر، وبهذا ومثله تكون عمارة الأرض التى أعمرها الماء النازل من السماء فى جانبها المادى، وأعمرها الوحى النازل من اللوح المحفوظ الذى هو علم الله الذى كتب فيه ما كان وما يكون قبل أن يكون ماكان وما يكون، أعمرها الوحى فى جانبها الأخلاقى والسلوكى والروحى، هذا والله أعلم، والآن نتدبر الكلمات والتراكيب ونستخرج منها ما يأذن به حوله وطوله سبحانه:

قوله تعالى ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ﴾.

لحظ الكملة من علمائنا أن ابتداء الآية بلفظ الجلالة، الجامع لأسماء الله وصفاته مؤذن بجلال الكتاب، وتنزيهه، ولفظ الجلالة يُرَبى المهابة فى القلوب وهذه المهابة تعنى تربية المهابة فى الذى أنزله الله؛ ولفظ الجلالة دال على

الاتصــاف بالكمالات المطـلقة، وهذه الكمـالات المطلقـة لابد أن تكون فى الذى أنزله الله. ولفظ الجلالة، دال على التنزيه عن كل نقص، وهذا التنزيه للكتاب الذى أنزل، وهكذا ينتقل ما لا حصر له من الكمالات وما لا حصر له من التنزيـه الذى فى لفظ الجـلالة إلى الكتـاب، وذكـروا أن تقـديم لفظ الجلالة على الخبـر الفعلى يفيد التوكيـد، وأنه لا محالة أنزله الله وليس من غيره سـبحانه، ويفيد أيضـا الاختصاص لأن الكمالات المـطلقة فى الكتاب الذى أنزل لايمكن أن تكون من غير الله سبحانه، يعنى الجملة فيها معنى أن الذى له بصيره يقطع بأن هذا الكتاب القاطع للأطماع والقاهر للقوى والقدر لا يكون إلا من العزيز الحكيم القادر الغالب، وقد أومأ الزمخشرى إلى هذا الذى قلته وأكثر من الذى قلته بلغة موجزة جدا وعالية جدا قال رحمه الله: «وإيقاع اسم الله مـبتدأ وبناء ﴿نَزَّلَ﴾ عليه فـيه تفخيم لأحـسن الحديث، ورفع منه؛ واستشهاد على حسنه، وتأكيد لاستناده إلى الله، وأنه من عنده، وأن مثله لا يجـوز أن يصدر إلا عنه، وتنبـيه على أنه وحى مـعجز مـباين لسائر الحديث» انتـهى كلامه رحمه الله، وراجع هذه اللغة العـالية لأن لغة العلم باب من أبواب العلم وقـد رزق هؤلاء الصادقون الإخـلاص ففـتحت لهم الأبواب. قوله فيـه تفخيم لأحسن الحديث يـعنى أن جلال لفظ الجلالة انتقل منه إلى الذى أنزله سبحانه؛ ولم نبحث مثل هذا فى باب التقديم وإنما قلنا إن التقديم فى مثل هذه الصورة يدل على التـوكيد وهو صالح لأن يفيد الاختصاص بمعونة السيـاق، ولم ننظر إلى دلالة اللفظ المقدم فاستوى عندنا أن نقول فى المثال: الكذاب يقول كذا والـصادق يقول كذا، ولم نلتفت إلى أن كلمة الكذاب تنتقل إلى قوله فَتَخْفِضُه وتَسْقُط به وأن كلمة الصادق تنتقل إلى قـوله وهكذا، مـع أن رشح دلالة الكلمـات على الكـلمـات التى من محيطها ممَّا نبَّه إليه أهل العلم، وقالوا: إن ذكر الأرحام فى سياق عبادة الله وحده، دالة على أن الأرحام من الله بمكان، وقوله (واسـتشهاد على حسنه)

كلمة جليلة وكأن الآية تقدم الدليل ليس على الذى مضى وإنما على الذى هو آت، ولو لم يقل ربنا ﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ لفهم هذا من لفظ الجلالة وما فيه من كمالات مُطْلَقَة وهذا يعطى للآية مذاقا آخر، لأن كلمة أحسن الحديث لم تذكر بعد دلالة الكلام السابق عليها إلا لأن لها عند الله شأنا أى شأن، وقوله (وأن مثله لا يجوز أن يصدر إلا عنه) فيه دلالة على أن المفيد للقصر فى الجملة ليس هو التقديم، وإنما لأن الفعل وما تعلق به لا يكون إلا من الفاعل كما تقول: ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [يونس: ٥٦] فليس القصر هنا مفادا من التقديم فحسب، وإنما هو مفاد أيضا من أن ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ لا يكون إلا منه، وفى كل هذا توكيد لحقيقة بالغة الأهمية، فى عقائد أهل الحق وهى أن هذا الكتاب لا يجوز عقلا أن يُفْتَرى، وكما أنه من المستحيل أن ينزل غير الله الماء من السماء ويسلكه ينابيع إلى آخره، كذلك يستحيل أن ينزل غير الله أحسن الحديث، ويسلكه ينابيع فى القلوب فَتَقْشَعِرُّ الجلود فى ظاهرها من خوف القلوب فى باطنها، كما يتغيَّر وجه الأرض بعد إنزال الماء من الذى فى باطنها، وهذا خطاب ربنا لنا والواجب أن ندرس أسراره فى كلامه كما ندرس أسراره فى الأرض والزرع والماء، وأكتفى بهذا فى التعليق على كلام محمود بن عمر رحمه الله؛ وأنبه إلى أن تحليل البيان ليس مقصوراً على لغة الأدب، وإنما هو أوجب فى كلام العلماء، لأن الأدب فيه أسرار النفوس وكلام العلماء فيه أسرار العقول، وفى هذه الأسرار ينطوى الفكر الجديد الذى يجب أن نسعى نحوه؛ وكلمة ﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ فى وصف كلام الله لا حدود لمعناها، وقد أطال الرازى وأحسن فى بيان ما أمكنه بيانه منها، ولو نقلناها إلى غير كلام الله لاستطعنا أن نلم بمعناها، فلو قلت أحسن حديث امرئ القيس «قفا نبك» لاستطعت أن أكتب لك مواطن الأحسن فى قفا نبك، وكذلك لو قلت أحسن حديث النابغة فى «يا دار ميَّة بالعليا فالسند»

لاستطعت أنت أن تتبين الذى به كانت أحسن حديث الذبيانى، لأن الحسن فى كل ما يصدر عن الإنسان حسن محدود، ومقيد، وليس فيه شىء أى شىء يوصف بالحسن المطلق، وهذا بخلاف كلام الله، ولهذا كانت قيمة اللغة وقيمة الجملة والعبارة فى الذى وراءها، فالتقديم الذى فى قولنا فلان يفعل غير التقديم فى قوله تعالى ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [يونس: ٥٦] مع أن البناء اللغوى واحد لا يختلف، والوقوف عند التراكيب اللغوية وعدم خوض ما وراءها من معان قتل للبلاغة وقتل للبيان.

وكلمة ﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ أصلها الحديث الأحسن، وقدمت الصفة وأضيف إليها الموصوف للدلالة على العناية بالصفة، والأحسن وصف لكل ما به يكون الحديث حديثا، فاللفظ أحسن اللفظ، والمعنى أحسن المعنى، والتركيب أحسن التركيب، والتشبيه أحسن التشبيه، والتنكير أحسن التنكير، والتعريف أحسن التعريف، والبدل أحسن البدل، والعطف أحسن العطف، والاستئناف أحسن الاستئناف، والطباق أحسن الطباق، وهكذا تتناول كل فنون البلاغة وهى فى القرآن أحسن ما تكون فى أحسن الكلام، وهذا مضطرد ولا يخترم فى شىء أى شىء. والأمر فيه أحسن الأمر، لم يأمر بشىء إلا وهذا الشىء هو الأحسن، ولم ينه عن شىء إلا وكان النهى عن هذا الشىء هو الأحسن، ولم يورد برهانا إلا كان هذا البرهان هو الأحسن، ولم يَسق عظة إلا كانت هذه العظة هى الأحسن، ولم يذكر قصصا إلا كان هذا القصص هو الأحسن، ولم يذكر خبرا إلا كان هذا الخبر هو الأحسن، ولم يذكر وعدا إلا كان هذا الوعد هو الأحسن، ولم يذكر تخويفا إلا كان هذا التخويف هو الأحسن، وهكذا تدور على كل ما فى الكتاب العزيز وتتأمل وتتدبر فلا تجد إلا شيئًا واحدا هو أن هذا الذى تتدبره فيه هو الأحسن.

وقد سخر البحر وهذا التسخير هو الأحسن وجعل الأرض مهادا وهذا الجعل هو الأحسن، وأمر بالنظر فى سير الأولين، وهذا النظر هو الأحسن، وأمر بالتفكر فى خلق السموات والأرض، وهذا التفكر هو الأحسن، وأمر بالسير فى الأرض لننظر كيف كانت الأمم من قبلنا، وهذا الأمر هو الأحسن، وأمر بالسير فى الأرض لننظر كيف بدأ الخلق، وهذا عجيب وهو الأحسن، وأحاول الآن أن أفتح الباب الذى فتحه الرازى بكفاءة نادرة، وللرازى رحمه الله فى رأس حديثه عن هذه الجملة التى تكتب فيها الأسفار كلمة من الكلام الذى يجب أن يقف عنده أهل العلم، لأننا لو أطلْنَا النظر فيها لانكشف لنا منها علم جديد، قال رحمه الله «فى القرآن أحسن الحديث إما أن يكون أحسن الحديث بحسب لفظه، أو بحسب معناه، القسم الأول أن يكون أحسن الحديث بحسب لفظه، وذلك من وجهين: الأول أن يكون ذلك الحسن لأجل الفصاحة والجزالة، والثانى: أن يكون بحسب النظم من الأسلوب، وذلك لأن القرآن ليس من جنس الشعر ولا من جنس الخطب ولا من جنس الرسائل، بل هو نوع يخالف الكل، مع أن كل ذى طبع سليم يَسْتطيبه ويستلذه» انتهى ما أردت من كلامه، وبعد هذا بدأ فى بيان أنه أحسن الحديث من أجل معناه فذكر تنزيهه من التناقض، واشتماله على الغيوب، والعلوم الموجودة فيه، وأهمها الإيمان بالله والعلم بذاته، وصفاته، وأفعاله، وأحكامه، وأسمائه، ومعرفة الذات ومعرفة وجوده، وقدمه، وبقائه، ومعرفة الصفات معرفة تنزيهه عن ما يجب أن ينزّه عنه، ومعرفة ما يجب أن يتصف به، وبدأ فى التفاصيل واستقصى وأفاد، والذى أردته هو ما قاله فى معرفة أحسن الحديث بحسب لفظه فقد ذكر فيه أمرين الأول الفصاحة والجزالة. وأراد بهما كل ما قيل فى علم البلاغة ويجب أن نذكر أنه لخص كتابى عبد القاهر فى كتابه دراية الإيجاز، الأمر الثانى النظم فى الأسلوب وليس مراده بالنظم هنا ما أراده عبد القاهر من توخى معانى النحو على وفق الأغراض والمقاصد الذى هو علم البلاغة، وإنما أراد النظم بالمعنى

الذى شاع قبل عبد القاهر وهو الهيئة التى بنى عليها الكتاب من تكوينه من سور وتكوين السور من آيات، وكان بعض أهل العلم ذكر ذلك وجها من وجوه الإعجاز لأنه فاجأ الناس بطريقة وأسلوب ونظم لم يألفوه؛ فقد ألفوا الرجز والقصيد والخطب والوصايا والسجع إلى آخره ولم يألفوا السور والآيات، والنظم بهذا المعنى مذكور فى كتب المعتزلة والأشاعرة، وقَبِلَهُ من قَبِلَهُ ورفضه من رفضه، ومما يؤكد أن هذا مراد الرازى قوله بعد النظم والأسلوب «وذلك لأن القرآن ليس من جنس الشعر ولا من جنس الخطب، ولا من جنس الرسائل» وكلمة الجنس فى كلام الشيخ تعنى أنه يريد أن الأدب أجناس، وأن كل جنس تحته أنواع، وهذا هو أصل القول الذى قيل فى زماننا إن القرآن ليس شعرا ولا نثرا وإنما هو قرآن، وقد قال هذا المرحوم طه حسين وظنى أنه اقتبسها من كتاب المغنى فى أبواب التوحيد والعدل للقاضى عبد الجبار، وكان قد أشرف على تحقيق أجزاء منه، وقد ذكر القاضى النظم بمعنى الهيئة الشاملة التى بنى عليها الكتاب وناقش القول بأنه بهذا المفهوم وجه من وجوه الإعجاز.

ومراد الرازى بالأسلوب الذى هو وجه من وجوه أحسن الحديث هو ترتيب المعانى فى السورة، وبناء بعضها على بعض، كترتيب قوله تعالى ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ﴾ على قوله جل شأنه ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ وكترتيب الآية التى نحن فيها على ما قبلها، وليس المراد وجوه ترتيب الآيات فقط وإنما أيضا وجوه ترتيب الجمل، ووجوه ترتيب الفصول، فى السورة، وأن كل هذا الترتيب معجز، وأن الرازى يَعْنيه بمصطلح الأسلوب، وهذا كلام بعيد الغور جدا لأنه يتجاوز القول فى المناسبة التى كان الرازى أحد أعيان القائلين بها وإنما المقصود أن وجوه الترتيب فى هذه السورة لا تجد أدق منه ولا أسَدَّ منه وأنه فى إصابته وسداده وبعد غوره مما لا يستطيعه الناس فى كلامهم، وكما أنهم لا يستطيعون بناء جمله كذلك لا يستطيعون بناء هيئته أعنى بناء ثانيه على أوله، وثالثه على ثانيه، لأن هذا البناء أمر

خـارق وقاطع للأطمـاع، وأن آذان من لهم بصـيـرة فى البيـان ترى قَطْعَـهُ للأطماع فى هذا كما ترى قطع الأطمـاع فى بلاغة جمله وآياته، ولهذا قلت هو كلام بعيد الغور لأننى مع كثرة مـحاولاتى للوصول إلى كنهه أجده بعيدًا عنى، لا أعنى أنى لا أجد وجـوه الترتيب ظاهرة لى ولكنى لا أجد قطعـها للأطماع ظاهرا لى، وليس معنى هذا أننى أجد وجـها آخر من الترتيب. لا؛ ليس هذا مرادى وإنما مرادى أننى مثلا أجد فى جملة «**الله نزل أحسن الحديث كتابا متـشابها مثانى تقشعـر منه جلود الذين يخشون ربهم**» عجزا ظاهرا ويغيب عنى هذا العجـز الظاهر فى ترتيبهـا على «أفمن شرح الله صـدره للإسلام» وأقـول فى هذا مـتابعـة لكلام الكملة رضـوان الله عليـهم، وقـد يأذن الله بكشف هذا السر يوما، ولو قلت إن حرف الظرف فى قول الرازى (أن يكون بحسب النظم فى الأسلوب) يفيد أن مراده بالنظم هنا هو توخى معانى النحو كمـا قال عبد القـاهر ولكنه لم يكتف به كما اكـتفى عبد القـاهر وإنما جعله جزءا من كل هو الأسلوب، يعنى أن الإعجـاز ليس بالنظم وحده وإنما النظم حالة كونه واقعا فى الأسلوب، فالمعجـز هو الجملة المقترنة بالجمل والمسلوكة فى سلك الأسلوب، الذى هو تتـابع المعانى فى السـورة، أقول لو قلت هذا لكان مسـتقيـما؛ وهو مما يدل عليه اللـفظ كما كـان يقول الرازى فى رواياته لكلام أهل الفرق فى الآيات الكريمة، ولكن يعكر عليه أن يكون الوجه الأول الذى هو الفصاحة والجزالة قد صار مهملا فى كلام الرازى، لأن النظم الذى هو توخى مـعانى النحـو هو نفسـه، الفصـاحة، والجـزالة، لأن الفصـاحة والبلاغة والبيان والبراعة لا معنى لهذا كله عند عبد القاهر إلا حُسْنُ الدلالة، ولا معنى لحسن الدلالة إلا النظم، هذا والله أعلم.

وقوله سبحانه: ﴿كِتَابًا﴾ بدل من أحسن الحديث، ولو وضعت البدل مكان المبدل منه لقلت الله نزل كتابا، ولابـد أن يضفى لفظ الجلالة عـلى الكتاب ما أضفاه؛ وأفـاضه على أحسن الحديث، على الوجه الذى سـبق بيانه عن الكملة

رضوان الله عليهم وألحقنا بهم كرامة نفس وقرة عين، فالكتاب المذكور مُنَزَّه عن كل نقص مَوْصُوفٌ بكل كمال، وفيه ما فى حسن الحديث من جهة لفظ الكتاب ومعناه وأمره ونهيه ووعده ووعيده إلى آخره، وهو المقصود بقوله جل وتقدس﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [البقرة: ٢] لأن الكتاب الذى لا يتطرق شك إليه من جهة لفظه ولا معناه ولا أمره ولا نهيه ولا إلى أى شىء فيه هو أحسن الحديث، وهو المعجز، ليس فى فصاحته وجزالته، ونظمه فى أسلوبه فحسب، وإنما هو معجز فى أمره ونهيه وخبره وعظته وإشاراته وتصريحاته، وتعريضاته إلى آخر ما فيه، وما به كان كتابا، وهذا هو الواقع لأنه لم يغمز غامز فى الكتاب كلمة ولا معنى ولا حكما ولا خبرا إلى آخره، ودعنا من تلك الهجمات الصهيونية والصليبية فإنها هجمات كذوبة ويعلم أصحابها أنهم يكذبون ويعلمون أننا نعلم أنهم يكذبون، ويعلم قومهم أنهم كاذبون، ولكن كاذب صهيون وكاذب الصليب أحب إليهم من صادق أهل الإسلام ﴿ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ [آل عمران: ١١٨].

قوله سبحانه ﴿ مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ ﴾ كلمتان لهما مقام كبير فى هذا السياق، وذلك لأن الله سبحانه وصف الحديث الذى أنزله بأنه أحسن الحديث وهذا وصف عام شامل لكل فنون بلاغته ولكل فنون معانيه، وكل ما فيه، وهذان الوصفان من باب ذكر الخاص بعد العام، وهذا العام كان رائعا جدا لأنه وصف كل شىء فى الكتاب، بأنه أحسن، فإذا ذكر بعد ذلك بعض مكونات الكتاب دَلَّ هذا الذكر على أن هذا الذى ذكر بعد الوصف العام له شأن أى شأن.

وهذا هو معنى أن هذين الوصفين لهما هنا مقام أى مقام، أما كلمة ﴿ مُّتَشَابِهًا ﴾ فإن فيها عمومًا داخل هذا الخصوص، لأن كلمة (متشابها) تفيد أنه مع تنوع معانيه وتعددها، واختلافها، من أمر ونهى ووعد ووعيد، وأخبار

وقصص وأوصاف لأحوال الجنة، وأحوال النار والحشر والنشر والحساب إلى آخر ما فى الكتاب من تنوع كل ذلك متشابه فى حقيقة واحدة جامعة له وهى أنه مؤسس على الحق والصدق ليس فيه شيء إلا وهو حق وصدق، هذا وجه من وجوه معنى كلمة ﴿مُّتَشَابِهًا﴾ والوجه الثانى أنه على درجة واحدة فى علو لغته، واضطراد صحة معانيه، وأنه ليس فيه باب من أبواب معانيه يعلو على باب آخر، وإنما يجرى كله على ضرب من البيان لا يختلف، ولا يتلون، فهو يشبه بعضه بعضا فى بلاغته، وجزالته، وليس فى كلام الناس كلام يجرى كله على سمت واحد، وطريقة واحدة، وإنما يعلو ويهبط، ويضطرد، ويضطرب، لأن كل ما يصدر عن النفس الإنسانية فيه من أحوالها، وتوارد الأحوال عليها، وتلوُّنها ما فيه، وهذا من معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] والوجه الثالث من معنى كلمة «متشابها» أنك تجد الكلام فى السورة يشبه بعضه بعضا، فى المبنى، والمعنى، تجد هنا ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ﴾ تشبه ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ﴾ وتشبه ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ وكلها خبرها محذوف، وكلها بنى مبتدؤها على سمت واحد من الاستفهام الداخل على المبتدأ، وهكذا فى المعانى، تقول إن الذين تقشعر جلودهم هم الذين شرح الله صدرهم، وهم الذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها، وهم القائمون القانتون آناء الليل، وهكذا ترى التشابه بين مكونات السورة، والتشارب، والتلاؤم، والوجه الرابع أن يكون متشابها كله فى حقيقة واحدة هى مَصْلحة العباد، فلا ترى فيه شيئًا إلا وهو يحقق خيرا للناس، هو كذلك فى كل ما أمر به، وفى كل ما نهى عنه، وفى كل وعد ووعيد، وعظة واعتبار، وكل شيء فى القرآن العظيم متشابه يعنى يشبه بعضه بعضا، وللزمخشرى عبارة جامعة فى هذا المعنى قال رحمه الله «(ومتشابها) مطلق فى مشابهة بعضه بعضا فكان مُتناولا لتشابه معانيه، فى الصحة والإحكام، والبناء على الحق،

والصدق، ومنفعته الخلق، وتناسب ألفاظه، وتناصـفها فى التخير والإصابة، وتجاوب نظـمه، وتأليـفه، فى الإعجـاز، والتبكيـت» انتهى كـلامه، وراجع العبـارة لأنها تعطيك بألفـاظها القليلة ما لا تعطيـك ألفاظى الكثيـرة، وكلمة «مطلق فى مشابهة بعضه بعضا» من الكلمات الضالات التى تبحث عنها أقلام العلماء ثم لا يصيبها من هذه الأقلام إلا قلم كان بين أنامل من يشبه هؤلاء.

وراجع أيضا قوله «وتناسب ألفـاظه وتناصفها فى التخـير والإصابة» وهذه كلمة عـاليه وعجـبت كيف وقع قلمه على كلمـة (التناصف) وكلمة «التمـيز والإصابة» قوله تعالى: ﴿مَّثَانِيَ﴾جمع مَثْنَى، ومَثْنى معناها اثنين اثنين وليس المراد التثنيه وإنما المراد التكرار كـما فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك: ٤] أى كرات كـثيرة، وربما كـانت فائدة التعـبير عن التكرار بالتـثنية للدلالة على الأناة والمراجـعة والتدبر مع هذا التكرار وأن الـتكرار ليس مرادا لذاته، وإنما هو مراد لما يصاحـبه من تدبر ومراجعـة وتدقيق، ولن أستطيع أن أفهم سر كلمة ﴿مَّثَانِيَ﴾ من غير أن أراجع الصفـات الثلاثة التى قبلها وهى أحسن الحديث - كتابا - متشـابها - ثم أراجع السعة المطلقة فى كلمة أحسن الحديث لأن هذا يعنى الحسن الأحسن فى عموم الحديث على حد ما بيّنا، ثم حفظ ذلك مكتوبا فى كـتاب لا ريب فيه، ثم ينتقل الكلام من عـموم الحسن إلى حسن خاص فى الـتشابه، ثم تبقى كلمـة التشابة عـامـة فلا تُقـيَّد بألفاظ ولا بمعان ولا بقصص إلى آخره، ثم ينتقل الكلام إلى حسن خاص فى التثنية بمعنى التكرار المراد منه التَّثَبُّت والمراجعة وتوطين المعانى فى النفـس الإنسانية حتى تكون جزءا منها، وهكذا نجد المعنى بدأ مُتَّسِعًا جدا ثم يُقَيَّد هذا الاتساع بالكتابة ثم يَخُصُّ من هذا الأحسن المتسع شـيئًا هو التشابه ثم يَخُصُّ من هذا المعنى المتسع شـيئًا هو المثـانى، التى تحفظ وتقيـد، وتُسكّن فى القلب، ومن المفيـد أن تنظر إلى هذه الصفات نظرة من جـهة أخرى لتـرى أن الأحسن هو الأصل، الذى بُنِيَتْ عليـه ثم انتُخب من هذا الأصل المتشـابه، لأن الأحسن

حين يضاف إليه المتشابه يكون قد ارتقى درجة أعلى فى الأحسن، لأن هذا التشابه فى تناصف ألفاظه فى التخير والإصابة على حد ما شرح العلماء هذا التشابه درجة أعلى فى البلاغة، ثم يختار المثانى من المتشابه، ويُنْتَخَبُ منه لأن هذه المثانى هى قَصَبَةُ الاختيار التى يراد لها الإقامة الدائمة فى النفوس، من وعد، ووعيد، وأمر ونهى إلى آخره، وكل ما تكرر فى القرآن فهو «مثانى» وليس كل ما تشابه فى القرآن (مثانى) فقد يتشابه فى ألفاظه أو فى معانيه أو فى مبانيه أو فى جريانه على هدى واحد من البيان من غير تكرار، وكل قصص القرآن من المثانى، لأنه تكرر إلا قصة يوسف، فهى من المتشابه، ولم أنَبِّه إلى أن المتشابه هنا ليس هو المُقَابل للمحكم كما جاء فى سورة آل عمران ﴿**هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ**﴾ [آل عمران: ٧] وهذا باب آخر.

ولابد من ملاحظة أن المراد بالتكرار ليس هو تكرار الألفاظ أو المبانى وإنما ما تكرر من وعد ووعيد، ومن أمر، ونهى، ومن قصص، وكل ذلك بألفاظ مختلفة؛ ولصور من المعانى مختلفة، وقد رأينا أن القصة ينتخب منها فى كل سورة ما هو أشبه بسياق السورة، وهناك أحداث فى القصص لم تتكرر مع تكرر القصص، وإنما الذى يتكرر هو المقاصد المقصودة من القصة، فقوله تعالى فى قصة موسى عليه السلام﴿**وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ**﴾ [القصص: ١١، ١٢] لم يتكرر هذا الحدث مع كثرة تكرار قصة موسى عليه السلام، ودراسة القرآن من هذا الجانب لا أعرف أن أحدا استوفاها، وأعْنى أحداث القصص التى تكررت وتفاوت الأحداث فى هذا التكرار، ولماذا كان تكرار هذا الحدث أكثر، والأحداث التى لم تتكرر مع أنها أحيانا فيها من العبرة الشىء الكثير إلى آخره، والمهم أن

كلمتى (متشابها مثانى) تفتحان أبوابا فى دراسة البيان القرآنى لا تزال أسرارها مُحَجَّبة وراءها، وهذه الأبواب تفتح أبوابا فى دراسة البيان كله.

والرازى له ملحظ جيد فى تفسير كلمة ﴿مَّثَانِيَ﴾ لأنه نظر إلى ما فى القرآن من زَوْجِيّه أو ثنائيه مثل الأمر والنهى، والعام والخاص، والمجمل والمفصل، والسموات والأرض، والجنة والنار، والظلمة والضوء، واللوح والعلم، والملائكة والشياطين والعرش والكرسى، والوعد والوعيد، والرجاء والخوف، ثم قال: «والمقصود منه بيان أن كل ما سوى الحق زوج، ويدل على أن كل شىء مُبْتلى بضده ونقيضه وأن الفرد الأحد الحق هو الله سبحانه» انتهى كلام الرازى.

قوله سبحانه: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ موقع هذه الجملة من الكلام قبلها موقع تظهر فيه دقة الترتيب الذى هو الأسلوب، والذى قلت إن فهمه على الوجه الذى هو به خارق للقوى والقدر وقاطع للأطماع فهم عصىٌّ جدا، ولكنه ظاهر لأن الكلام السابق حديث عن الكتاب ووصفه، بأجل، وأبلغ ما يوصف به، وهنا كلام عن الذى يتلقى هذا الحديث، وأن الأوصاف السابقة لا تدركها إلا الأذن الواعية، والقلب الحىُّ، وأن الحسن يحتاج إلى عين تراه، وأذن تسمعه، وعقل يعقله، فإذا افتقدَ هذا الشىء الذى هو خارج عنه تعطّلَتْ كثير من صفاته، وهذا معنى جيد، لأن معناه أن الحق يتطلب أهله، وأن الصدق إنما ينجلى جوهره وحسنه حين يجد أهله، وأن القيم العليا إذا لم تجد أهلها تظل قيما عاطلة معلقة فى الهواء.

وكلمة ﴿مِنْهُ﴾ فى قوله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ﴾ كلمة شديدة السخاء وموقعها موقع حسن جدا لأنها تقدمت على الفاعل والتبست بالفعل وكأنها أولى بالفعل من فاعله، وكل ذلك لأنها بادرت بالرجوع بهذا الحدث وهذا

التأثير وهذه القشعريرة التى يكون الجلد فيها متقبضا مُتجمِّعًا تداخله رِعْدةً وفزع هذا الحدث العظيم منه لا من غيره، ومع سخاء هذه الكلمة فإن غموضا يحيط بها لأننى لو سألت نفسى عن الشىء الذى فى القرآن تَوْجَلُ له القلوب وتخشى وتخشع، إلى حد أن يصاب الجلد بهذه القشعريرة، فلن أجد جوابا واضحا محددا يضع يدى على الشىء الذى فى القرآن يحدث هذا الأثر؛ وإنما ذكر من نأخذ عنهم العلم أنه هو الكلام الوحيد الذى تعترى القلوب عنده خشية، وهذا وصف لواقع يجده من أكرمهم الله بالخوف منه، ووجل قلوبهم عند ذكره، وقد ترى أن ذلك راجع لبلاغته، وإعجازه، وإن كان كذلك فإلى أى بلاغة وإعجاز فيه يرجع هذا الأثر؟ تعوَّدْنا أن نقول إن بلاغة هذه الجملة راجعة إلى تنكير كلمة، أو حذف كلمة، أو تقديم كلمة، فإلى أى بلاغة يرجع هذا الأثر؟ لا تستطيع أن تجد جوابا مُقْنعًا لهذا السؤال إلا جوابا واحدا وهو أن هذا الأثر راجع إلى كل ما فى القرآن الكريم من لفظ ومعنى وتركيب، وهذا أيضا كلام غامض لأنى لو تكلمت عن اللفظ الذى له حظ فى هذا الأثر، لطال الكلام وكذلك لو تكلمت عن المعنى ويمكن أن أشير إلى أشياء لا توجد فى بلاغة الناس، وهى الأمور الإلهية التى يخاطب القرآن بها النفس الإنسانية، وأعنى بها ما لا يمكن أن يكون فى خطاب الإنسان كما فى قوله تعالى: **﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ﴾** [المؤمنون: ١٢- ١٤] وأكثر القرآن بنى على هذا، وهذا من أهم الأسباب التى تعرو النفس بالوجل والهيبة والهيمنة والاستعلاء، والقهر، لأن هذا مقام فى الخطاب ليس له إلا واحد أحد، له كمال الملك، وكمال العظمة، وكمال الكبرياء، والنفس التى تتأمل هذا وينفذ فيها ترجع إلى أصلها وأنها فى قبضة قاهر عزيز لا ينازع، فإن جاء بعد ذلك وعيد بلغ الغاية فى أمره، أو جاء وصف لمشهد من مشاهد الآخرة بلغ الروع والوجل

مبلغه، وهكذا إذا قرأت قوله تعالى: ﴿أَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ [مريم: ٣٩] تجد لهذا الأثر البالغ لأن الأمر يُقْضَى عليَّ وعليك وليس لنا فيه حول ولا طول، كذلك إذا قرأت ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [غافر: ١٥] لا تجد كلاما له عليك هيمنة واستعلاء ولا تملك فى خطابه إلا أن تسكن سكونا تاما فى قبضته؛ وأن تُسلِّم له تسليمًا مطلقًا، وهذا من الذى كان يصفه الباقلانى بعز الألوهية، وهذا الجانب فى الكتاب العزيز هو جانب الغلبة والسلطان، والقهر، والطاعة، وإذا كانت الآية الكريمة ذكرت أن هذا مما يجده الذين يخشون ربهم فإنها لم تذكر أنه مما لم يجده إلا الذين يخشون ربهم، لأن هذا الجانب فى خطاب الحق للخلق جانب عام تجده النفس الإنسانية وهى لا محالة تجده ثم ينقاد من ينقاد ويأفك من يأفك، ولهذا كان الكتاب العزيز هو الداعى إلى الله كما قال نفر من الجن لقومهم يا قومنا أجيبوا داعى الله يعنى الذين سمعوه لما قالوا أنصتوا ثم لما استمعوا ولوا إلى قومهم منذرين.

والذين قالوا لأقوامهم لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه، وما كان رسول الله ﷺ يزيد حين يلقى وفود القبائل على أن يقرأ عليهم ما يقرأ من القرآن، والسيرة الحلبية مليئة بهذا، وطالما راجعت أول سورة طه لأتبين السطور القليلة التى هَدَمَتْ جدار الباطل الذى كان قائما فى صدر سيدنا عمر بن الخطاب؛ وكان من العتاة الجبابرة فى مناصبة الإسلام، وكان إرْث خؤولته من بنى مخزوم ظاهرا فيه، وكان أشبه الناس بابن خاله أبى جهل، ولم أجد فيها ما أركن إلى أنه هو الذى دمّر جدار الباطل فى نفس سيد أهل الجاهلية وأهل الإسلام، إلا قوله تعالى: ﴿تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ④ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ⑤ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ⑥ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ⑦ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [طه: ٤- ٨]

وراجع الآيات تجد الخطاب الذى لا يكون إلا من الذى له الكبرياء فى السموات وفى الأرض، لأننا لم نألف هيبة فى الكلام كالهَيْبَةِ التى فى قوله تعالى: ﴿تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾ ولا هيبة كالتى فى قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ إلى آخره.

وكذلك راجعت الآيات التى استمع إليها عُتْبة بن ربيعة لما ذهب إلى رسول الله ﷺ يعرض عليه ما يشاؤه على أن يدع هذا الأمر، فلم أجد هذا فى قوله تعالى ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت: ٥] لأن عتبة كان من هؤلاء الذين قالوا وإنما وجدته فى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ٩- ١١].

وهكذا حتى وصل قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]، فوضع عتبة يده على فم سيدنا رسول الله ﷺ وناشده الرحم، حتى لا تنزل بهم الصاعقة.

ولو جمعت الآيات التى أسلم عند سماعها فلان وفلان من أصحاب رسول الله ﷺ والتى فتح الله بها أقفال القلوب ثم درست العناصر الغالبة التى فَضّ الله بها هذه الأغلاق، لكان ذلك مقدمة لدراسة باب جليل من أبواب بلاغة القرآن، وإعجازه لأنى أرى أن آية الزمر هذه مما يجب أن يدرس فى علم الإعجاز، لأن الإعجاز وصف شامل للكتاب العزيز وكل آية فى القرآن تتحدث عن القرآن هى من أوصافه التى كان بها الإعجاز.

وإذا أردت أن تعطى الكلام بعض حقه، فى هذه الآية فراجع قوله سبحانه: أحسن الحديث وقوله: متشابها، وقوله: مثانى، وقوله: تقشعر منه جلود الذين

يخشون ربهم، وأسأل هل يمكن أن تعرف أحسن الحديث ما لم تعرف الحديث حسنه وقبيحه، وبأى شىء يكون الحسن حسنا، ويكون القبيح قبيحا؟ فإذا فرغت من هذا وهو علم لم تفرغ منه الأجيال منذ أن تَخَيَّر اللسانُ الكلمة الحسنة، وتعثَّر فى الكلمة القبيحة، وكل جيل من أجيال الأرض يدرس حسن الكلام، مذ كان الكلام إلى يوم الناس هذا، والمناهج والمنازع التى تفيض بها عقول الساهرين على أدْمغة النائمين كأنها شلالات من الفكر، وكل ذلك مفاتيح فهم الكلام الحسن والأحسن، إذن أنت مطالب لفقه هذه الآية أن تدرس علم الكلام الأحسن، ثم تدرس فى الكتاب العزيز علم الكلام المتشابه، على الحد الذى بيناه، وكيف يكون هذا التشابه من عناصر التأثير التى بَلَغَتْ ذروتها فى قشعريرة الجلود، ثم تدرس علم الكلام المثانى، وهكذا نجد الآية تفتح ليس آفاقا من المعانى، وإنما أبوابا من العلوم، ولاحظ أن الآية لما ذكرت أحسن الحديث الذى هو العلم الأوسع وَضَعَتْ منارات على الطريق، وكأنها تشير إلى مفردات مادة علم الكلام الأحسن وقالت: ﴿مُتَشَابِهًا مَّثَانِيَ﴾.

وقوله سبحانه ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ هذه الجملة امتداد للجملة قبلها، وبيان لما تَنْتَهى إليه حالة الجملة الأولى، التى بدأت بقوله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ ومعطوفة عليها، وهما معا داخلتان فى أوصاف أحسن الحديث الذى أنزله الله، ولين الجلود والقلوب معناه سكونها، واطمئنانها، بدليل تعدية الفعل بكلمة إلى التى أشارت إلى أن اللين أُشرب معنى الاطمئنان كما قال تعالى: ﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] وكلمة (ثم) تشير إلى قدر من تباعد الزمانين وأنها حين يداخلها الخوف الشديد الذى منه تتقبض الجلودُ وتقشعر تظل زمانا وهى فى حالة الخوف هذه، وهو خوف أعظم الخوف، وأسناه، وأعلاه، فلم يُرزق العبد العارف بربه لحظة أنفس وأغلى من تلك اللحظة التى يذكر فيها ربه ويخشاه،

ويعتريه الخوف الذى تقشعر منه الجلود، وكأن «ثم» هنا تشير إلى تَمنِّى طول زمن هذه الغِبْطة، لأن الله وعدنا أنه سبحانه لا يجمع على عبده مخافتين، فمن رزقه الله الخوف فى الدنيا رزقه الأمن يوم القيامة، وليس هناك طريق إلى المقام الأمين أفضل من طريق الخوف من الله خوفا تقشعر منه الجلود، وأهل الله لا يُزْعجهم أن يخافوا، وإنما يزعجهم ألا يخافوا.

والجملتان الأولى تذكر حالتهم عند ذكر الوعيد، والثانية تصف حالهم عند ذكر رحمة الله، ولهذا قال العلماء إن المراد بقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ ذكر رحمته، وقالوا لماذا لم تكن الآية إلى ذكر رحمة الله وأجابوا إجابة جَليلة جدا هى أن ذكر الله يستحضر الرحمة والمغفرة واللطف، والإكرام، قبل أن يستحضر الغضب، والعذاب، والانتقام، لأن الله سبحانه وسعت رحمته كل شىء، وسبقت غضبه جل وتقدّس.

ذكرت أن أحسن الحديث الذى أنزله ربنا يَنْفُذ إلى النفس الإنسانية لأنه يخاطب فطرة النفس، وأن الآية لما ذكرت الذين يخشون ربهم لم تذكر ما يفيد نفى غيرهم، وأنَبِّهُ إلى أن كلمة ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ فيها معنى من معانى الحب والقرب والحميمية، وهو أنهم يخشون الذى هو مصدر النعمة والتربية، والرعاية، والعطاء، لأن كلمة (الرب) فيها كثير من المعانى المتعلقة بالتربية، واللطف، والرعاية، والستر، والإكرام، فهم مقرون بكل ما فى هذه الكلمة، ومقرون بأنهم أصابوا من كل ما فيها، وأنهم ذاكرون لنعم ربهم، شاكرون لنعم ربهم، ولكن فَرَطات الهَوَى وضعف النفوس، وما اجترحته مما كتبه الله على الناس يُخيفهُم ويُفْزِعهم، ويخلع نفوسهم، وتقشعر منه جلودهم، فهم ذاكرون نعم ربهم، وذاكرون لخطاياهم، وخائفون من عذاب المنعم الكريم، الذين عاشوا ما عاشوا وهم مغمورون بستره، وعطائه، وكلمة الخشية، وإن كنا نفسرها بالخوف إلا أنه خوف فيه هيبة وفيه استعظام، وفيه

جلال، ولا يمكن أن نضع كلمة الخوف مكان كلمة الخشية، فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] لأن خشية العلماء مشوبة بمعرفة الجلال والكمال، الخوف فيه وجل والخشية فيها مهابة، هذا والله اعلم.

وقد ذكر الزمخشرى أن قوله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ هو مثل فى شدة الخوف، فيجوز أن يريد الله سبحانه التمثيل تصويرًا لإفراط خشيتهم، وأن يريد التحقيق والمعنى أنهم إذا سمعوا القرآن وآيات وعيده أصابتهم خشية تقشعر منها جلودهم، ثم إذا ذكروا الله ورحمته وجوده بالمغفرة لانت جلودهم، وقلوبهم، وزال عنها ما كان بها من الخشية والقشعريرة.

وقال الرازى: «إن المحققين من العارفين قالوا السائرون فى مبدأ جلال الله إن نظروا إلى عالم الجلال طاشوا، وإن لاح لهم أثر من عالم الجمال عاشوا» وهذا من الكلام الذى يؤكل بالفؤاد ويشرب.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ انتهى الحديث عن الكتاب الذى هو أصل المعنى فى الآية الكريمة عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ وهذه الجملة فاصلة الآية وتعقيب على مضمونها، وأن الله سبحانه أنزل أحسن الحديث، وأنه تقشعر منه جلود الذين يخشونه سبحانه، وأن هذه النعمة الجليلة التى هى إنزال الكتاب والهداية به والوصول بمن رضى الله عنهم إلى قمة العطاء والتوفيق لأنه ليس فى الدنيا شىء يساوى رَجْفَةَ القلب وَوَجَلَه عند ذكر الله وأن من أوتى هذه اللحظة فقد أوتى ما لا توزن به الدنيا بكل ما فيها، أقول الآية تبين أن هذا العطاء الجليل هو عطاء الله يهدى به الله من شرح صدره للإسلام، فهو على نور من ربه، وأن المسألة ليست أن ينزل الله أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى، وإنما أن يكون مع ذلك عطاء يفتح الله به القلب، فيسْكُن فيه الوَجَل، وتسكن فيه الخشية،

وأن يكون هذا القلب فى قبضة الكتاب، إذا ذكر المهابه وَجِلَ واقشعر جلده، وإذا ذكر الرحمة سكن إلى رحمة الله ولان قلبه، أوَ قل كما قال الرازى عن أهل الله «إذا نظروا إلى عالم الجلال طاشوا، وإن لاح لهم أثر من عالم الجمال عاشوا» اللهم اجعلنا منهم، المطلوب أن ينتقل الكتاب إلى القلوب الحية وأن يكون ربيعها.

اسم الإشارة فى قوله سبحانه ﴿ذَلِكَ﴾ راجع إلى هذا المعنى ابتداء من قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ والهُدى هو الكتاب وأن الكتاب الذى هو أعظم نعمة أتمّ الله بها النعم كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] هذا الكتاب الذى هذا شأنه خاطب الله به الخلق، والهُدَى به فى يد الله يهدى به من يشاء، ويُضلُّ من يشاء، وهذا قريب جدا من قوله تعالى فى آخر سورة الشورى ﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] ولابد أن نذكر أن الله سبحانه وَعَدَ ووعده الحق أن كل من مدَّ يده إلى الله طالبا الهدى هداه الله، وأنه يهدى إليه من أناب، وأنه لا يُضل سبحانه إلا من يُصرُّ على الضلال؛ الذى إذا تتلى عليه آيات الله ولى مستكبرا كأن لم يسمعها وإذا علم منها شيئا اتخذها هزوا، وأن الله سبحانه يريد بنا اليسر وأنه لا يعذبنا إن شكرنا وآمنا.

ويمكن أن يعود اسم الإشارة على الذين أكرمهم الله بهذا الكتاب وفتح أقفال قلوبهم، واقشعرت منه جلودهم، ومن المفيد أن نذكر أن الآية الكريمة لها بداية، وهى ذكر الكتاب بأوصافه، ولها وسط وهو ذكر الذين أفادوا منه، ولها نهاية، وهى أن الذى أنزل الكتاب وأتم به النعمة لا يفتح به إلا قلوب من يشاء من عباده، وأن الضمير رجع إلى المعنى الثانى أو الحالة الثانية، وهم الذين تقشعر جلودهم، وحينئذ يكون المراد بالهدى آثاره التى صاروا بها فى خشية الله تقشعر جلودهم وهم الذين هداهم الله، وبهذا القسم من الفاصلة

تتم الآية، ثم يأتى الشق الثانى من الفاصلة وهو قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ وهذا الشق هو قسيم الشق الأول، وإذا كان الشق الأول قد أتَمَّ المعنى الذى مضى وأغلق بابه فإن الشق الثانى قد فَتَح باب ما يأتى بعده، وهو قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: ٢٤] وهذا عجيب فى البيان.

وأول ما يلفت فى الآية الكريمة هو مجيئها على حذو جمل سبقت، وهذا التشابه فى الحَذْو يوجب النظر فيما بينها من تشابه فى المعنى، وهذه الجملة شبيهة بالجملة الأسبق ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ﴾ وقبلها ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ وقبلها ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ وهذا يعنى أن هذه الجمل عائلة واحدة لأن الشبه الذى بينها يشبه الشبه الذى بين أبناء الأب والأُم، وليس الشبه فقط هو التشابه فى رأس الجملة ﴿أَفَمَن﴾ وإنما الشبه أيضا فى أنها أنصاف جمل حذف نصفها الآخر.

فكل واحدة منها شِقُّ كلام، حذف شقه الآخر، ثم إنها جاءت فى السورة موزعة توزيعًا منظمًا، فقد بدأت بالصالح القانت ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ﴾، ثم جاء بعدها المقابل له وهو الفاجر الفاسق المعاند ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ ثم جاء الصالح القانت فى ثوب آخر وفى صورة أخرى تبين الأمر الذى له كان قانتا ساجدا يحذر ويرجو وهو شرح الصدر ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ﴾ ثم جاء الذى حقت عليه كلمة العذاب فى صورة أخرى وهو اتقاء سوء العذاب بوجهه ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ وهكذا تجد هذه الوحدات المتآخية تلقاك فى صورة قريبة جدا ومتنوعة جدا. واعلم أن هذا هو المثانى، وهو المتشابه أيضًا، وقد سبق أن ذكرنا أن كل المثانى داخل فى المتشابه، وهذا المتشابه وهذه المثانى يدل دلالة صريحة ومباشرة على المعنى الذى أحاوله فى هذه الدراسة وهو البحث عن العلاقات والوشائج التى بين المعانى الجزئية المكونة للسورة، وأن

هذه الجـزئيـات أو اللبنـات المكوِّنة لبناء السـورة بينـهـا تقـارب، وتناسب، وتطاعم، وتشارب، وأنها تمثل عمود بناء السورة، وتمثل هيأتها وسَمْتَها، وأن هذا قائم فى الشـعر وفى الرسائل وفى الخطابة وفى الكـلام كله، وأننا غفلنا عنه وظلمنا الشـعر وظلمنا النثـر وقلنا إن القصـيدة مكونة من مـعان لا رابط بينها، وأنها أوصال غير متواصلة، وأمشاج غير متماشجة، بل وقلنا فيها أسوأ مما وصف به الجاهليون الشعر الردىء، وأنـه أبناء علات، أو أنه كبعر الكبش إلى آخره، وقـد كثر الكلام فى زماننا بغـير علم، وأحيـانًا بضِدِّ العلم، لأن هناك جهـات تموِّل أقلامًا على أن تكتب مـا تُريد جهات التـمويل وكل ذلك ثابت ومعـروف، وأنا أكتب فى القرآن وقد حـرَّم الله علينا التزيد، ونحن فى الأسواق فكيف ونحن ممسكون بحبله الممدود، واعلم أنى لم أكذبك فى كلمة كتبتها، ولم أتزيّد فى كلمة كتبتـها، وأكتفى بهذا، وصورة الذى يَتّقِى بوجهه سوء العذاب يوم القـيامة، امتداد لعرق جرى فى السـورة من أول قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [الزمر: ٣] وصورة الذى يتقى بوجهه سوء العذاب هى الذى اتخذ من دون الله أولياء بعد ما حكم الله عليه يوم القيامة وكأن الآية راجعة إلى أول السـورة لتبين ما أبْهم هناك، وهو الحكم يوم القـيامة، وهذا ظاهر، والهمـزة الداخلة على الجملة مـعناها الإنكار يعنى إنكار التـسوية بين من يتقى بوجـهه سـوء العذاب، وهو من الذين فـوقهم ظلل من النار، ومن تحـتهم ظلل، وبين الذين هم فى الغرفـات آمنون تجرى من تحتهم الأنهـار، وهذه الجملة التى هى الآية فيها حـذفان حذف قبل رأسها، وحذف هو تمامـها، أما الذى قبل رأسها فـهو الجملة المحذوفـة بَيْنَ الهمزة وبَيْن الفاء ولو أن الآية قـالت أمّن يتقى بوجهه سوء العذاب كآية أمن هو قانت لما كان هناك معنى مسكوت عنه، ومدلول عليه بحرف العطف، وهـذا المعنى المحذوف هو ما عليه أصحـاب سوء العذاب مِنْ عَمًى وعَمه وفساد عقل حتى إنهم يُسَوُّون ليس بين الهُدَى والضلال، ولا بين الذين

اجترحوا السيئات والـذين عملوا الصالحات، وإنما يسوُّون بين من هو فى أسوأ وأهول صـور العـذاب ومن هو فى أرفع وأسمـى وأسْنَا صور النّعـيم والرَّفَـه والغـبطة، هذه الفاء أشـارت إلى هذا المعنى المسكوت عنه وكـأن التقـدير أَبَلَغَ فسادُ الرأى وضَلالُ العقل وإلغاء البصر والبصيرة فمن يتقى بوجهه سوء العذاب كمن هو آمن فى الغـرفات؟ ولابد من ملاحظة المقابلة التى سَـبَقَتْ بين الذين من فوقهم ظلل مـن النار ومن تحتهم ظلل، وبين الذين لهم غرف من فـوقها غرف مبنية، والذى يتـقى بوجهه سوء العذاب صورته تستـحضر صورة الذى من فـوقـه ظلل من النار ومن تحـته ظـلل، لأن هذه أهول أحوال الجـحـيم، والساقط فيهـا لا سبيل له أن يتقى شيئـا من العذاب، ثم إن هذه الصورة من الصور التى تقشعر لهـا جلود الذين يخشون ربهم، وأن من آمن بأن هذا كلام الله، وأنه حق لا يأتيه باطل، ويستحضـر هذه الصورة، يرى هولا فيها يفوق أهوال صور القيـامة، وصور العذاب مع عظم أهوالهـا، وهذه الصورة وحدها فى الكتاب العـزيز لم تتكرر، ووجه الوقوف عـلى حقيقـتها أن تتـأملها، وأن تذكر أن الوجه أكرم ما فى الإنسان، وإذا كانوا يقولون فلان رأس قومه، وهذا رأس المعنى فإن الوجه أكرم ما فى الرأس، وقالوا أيضا فلان وجه قومه وهذا وجه المسألة وقالوا «بيض الوجوه كريمة أحسابهم» وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦] وأعجـبنى كلمة للرازى قال فيـها الوجه (صَوْمَـعَةُ الحواس) وقد وضـعت يدى على وجهى لما قرأتهـا لا تأكد أنه صومعـة حواسى، فوجدت فيه العينين والأذنين والفم والأنف؛ ولما قالوا فلان وجه قومه لاحظوا هذا المعنى يعنى هو سمعهم وهو بصرهم وهو لسـانهم وهو أنفهم وهو أيضًا أَنْفَسُهم، ولما كان الوجه بهذه المثابة كـان الإنسان إذا ألمَّ به مكروه بادر بوقاية وجهه من هذا المكروه، لأنه بذلك يقى عينيه وأذنيه وفمـه فإذا ألمّ به الهول المتمثل فى ظلل النار التى فوقه والتى تحـته لم يجد سبيلا إلى وقـاية شيء؛ والآلات التى كان يقى بها نفسه كـاليدين مثلا صـارت لا حيلة لها فصـار يتقى سوء العذاب بوجـهه، وقد

ذكروا أنه يكون بين ظلل العذاب وهو مسلوك فى سلسلة ذرعـها سبعون ذراعا، ويداه مغلولتان وهو على هذه الحالة يستـقبل بوجهه سوء العذاب وهذا هو الذى تدل عليه الآية بظاهرها. وذكـر أكثر علمائنا أن المراد نفى الوقـاية، وأنه إذا كان تَوَقِّى سوءَ العذاب بالوجه وقاية كـان الذى هو فيه وقاية؛ ولاشك أن توقى سوء العذاب بالوجه ليس من الوقاية فى شىء، وهذا على حد قوله:

وبلـدةٍ لـيس بهـا أنـيس | إلا الـيـعـافـيـرُ وإلا العـيسُ

وقول النابغة:

ولا عـيبَ فـيهم غـيـر أن سيـوفَـهم | بهـن فُلُولٌ مـن قِـراعِ الكتـائب

يعنى إذا كانت الفـلول فى السيوف من قـراع الأبطال عيبـا ففيـهم عيب، والوقاية معناها أن تقى نفسك أو وجهك من مكروه فتجعل شـيئًا بينك وبين المكروه؛ أو بين وجهك وبين المكروه كما قال النابغة أيضا:

سَقَطَ النصيـف ولم تُردْ اسقـاطه | فـتناولتـه واتقـتنا باليـد

يعنى جعلت يدها وقاية بيننا وبين وجهها.

وقد راجعت صور العذاب وتوهمت أن هذه الصـورة أهولها ثم رأيت بعضها أهول من بعض على حد قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ [الزخرف: ٤٨] ثم بدا لى أن كل آية تهتم بجـانب من جوانب العذاب، فـقوله تعالى ﴿مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾، تهتم ببيـان حجم الجحيم، وقوله تعالى ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ تبين هول العذاب وتضع صورته وهو يائس من اتقاء العذاب، وقوله جل شأنه ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ٣٢] تبين حالته وهو بين ملائكة العذاب يعدونه للجحيم، وقوله تعالى ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ﴾ [الحج: ، ١٨ ١٩] تُبين حالة من أحـوال العذاب

المحيط به إحاطة الثياب بلابسه والحميم يصب من فوق رأسه وهكذا، وكذلك يقال فى نعيم أهل الجنة، تجد آية الكهف ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ﴾ [الكهف: ٣٠] تجد فيها أساور الذهب والثياب الخضر، وهذا غير آية الدخان ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ [الدخان: ٥١- ٥٥] وهذا غير الذى فى الزمر ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ [الزمر: ٢٠] وهذا غير الذى فى الدهر ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢) مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً (١٤) وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ (١٥) قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً (١٨) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا (١٩) وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠) عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ١٢-٢١] وهذا أطول وصف لنعيم الجنة وفيه ما ترى، وهكذا قل فى الصورة التى فى النبأ والتى فى الحاقة والتى فى الرحمن وكل له لون وله منزع وله جهة يشبع القول فيها، ومن السهل أن نجمع ذلك وأن نحلله، ومن الصعب جدا أن نبين لماذا اقتضى السياق هذه الصورة أو هذه الصورة لماذا كانت العناية فى الرحمن بوصف الجنتين؟ ولماذا كانت العناية فى النبأ بذكر الحدائق والأعناب والكواعب الأتراب والكأس الدهاق؟ ولماذا لم تذكر الكواعب فى الدهر؟ ولماذا كانت العناية فيها بالظلال، وآنية الفضة، والعَيْنُ التى تسمَّى سلسبيلا؟ وهكذا ولابد أن يكون القلم الذى يجيب عن الأسئلة قلم يهاب أن يتكلم إلا بالذى يراه كفلق الصبح.

وشيء آخر مما أحب أن يُلتَـفت إليه وهو أن المعانى الـتى تتكرر فى السورة أحب أن أنظر إلى صورها التى جاءت عليها فى مواقعها وأن أبحث عن وجه ترتيبها وقد أجد شيئًا يقال، وحين لا أجد أكون قد فتحت الباب ونَبَّهْت الذى عنده القدرة على أن يجد، من ذلك مثـلا فى هذه السورة أن الآية الثامنة جاء فيهـا قوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨] ثم جاء بعد آيات حديث عن أصحاب النار هؤلاء وهو قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦] وهذا بيان للذى جاء مُبهمًا فى الآية قبلها وبعد آيات جاءت هذه الآية ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الزمر: ٢٤] وهذا مـثال يوضح أصحاب ظلل الـنار الذين بدأ الحديث عنهم ببيان أنهم أصحاب النار، وهكذا تجد الكلام أولا ذكر أنهم أصحاب النار، ثم ذكر خبر النار وهى ظلل من فوقهم ومـن تحتهم؛ ثم ذكر خبر هذا الكائن فى قلب هذه الظلل وبين هذا الترتيب آية ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ﴾ وليست صورة لعذاب وإنما هى بيان أنهم لن يُنْقَذُوا من العذاب.

وقد قدَّر الزمخشرى الخـبر المحذوف بقوله (كمن أمِنَ العذاب) وذكر هذا التقـدير كثيـر من المفسرين؛ وهذا جـيد وتقريب للمـعنى، وإذا رُمْت الدِّقة قدَّرْتَ صورة النعيم التى تقابل صـورة الجحيم هذه، فإذا كان هذا من أهول ما فى الجحـيم فَلْنُقَابله بما هو من أرفع صور النعيم كـأن تقول كمن هو فى ظلال وعيون، أو كـمن هو فى الغرفات أو كمن وجـوههم ناضرة إلى ربها ناظرة، وجملة ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ موقع هذه الجملة بعد الجملة التى قبلهـا يشبه جملة ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ بعد التى قبلها ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ وبين الجملتين محذوف وكأن فى حذفه إشارة إلى المبـادرة بذكر الجملة الثانية، والمبادرة إلى تهـديد الذين قَـسَتْ قلوبهم بالويل بـعد ذكـر الذين شـرح الله صـدورهم

للإسلام ظاهرة، لأنهم يمثلون صورة مظلمة غبيَّة بعد صورة مُضيئة للذين هم على نور من ربهم، والذى هنا محتاج إلى بيان أكثر لأنه امتداد للصورة السابقة التى ترى فيها هذا الغبىّ الأطْرَش الأعْمَى أسْقط نفسه فى غضب الله وصار فى صورة تبعث على الإشفاق، وهو كما قلت صورة لم تتكرر فى الكتاب العزيز وظنى والله أعلم أن فظاعة الهول فيها هى التى اقتضت الجملة بعدها لأن جملة ﴿ **وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ** ﴾ فيها دلالة صريحة ومقصودة على ظلمهم فهذا الذى تراه مكتوف اليدين وهو فى قلب الجحيم، وسواء الجحيم، يتقى النار بوجهه، هو الظالم وليس مظلوما وأنه وهو فى هذا الهول الذى تَقْشعِر منه جلود الذين يحدِّقُون فيه إنما يجازى بكسبه لا غير، ولا يزاد عليه شىء أى شىء، ويقال له ذق ما كنت تكسب وليس جزاء ما كنت تكسب مع أنه هو المراد وإنما وضع الكسب مكان جزاء الكسب لنفى ما يتوهم أن فيه مثقال حبَّة من خردل زائدة عن كسبه، وهذا القول لهم ليس المقصود به الشماتة فيهم، وإنما المقصود به أنك لم تُظْلم وإنما أنت الظالم، وقد ذكر علماؤنا أن الجملة معطوفة على الصلة وداخله فى حيزها وأن ﴿ **لِلظَّالِمِينَ** ﴾ وضع موضع الضمير للدلالة على أنه لم يظلم وإنما يذوق كسبه لا غير، وبناء الفعل للمجهول للإشارة إلى أن المقصود هو الفعل، وليس الفاعل، يعنى القول وليس القائل وهذا يؤكد معنى أن المقصود بالجملة هو مواجهة من قد ترقُّ نفسه لهذه الصورة المُفْزِعة وهى صورة من يتَّقى سوء العذاب بوجهه، واختيار كلمة (الظالمين) ووضعها موضع الضمير لتبشيع الظلم والتنفير منه، وكان يمكن أن يقال وقيل للكافرين أو للفاسقين، ثم إن وضعها مع هذه الصورة التى هى أبشع وأهول صور العذاب يشير إشارة واضحة إلى شدة غضب الحق من الظلم، والظالمين، فى كل صور الظلم، ولو قلت لا أعرف شيئًا أبْشع على هذه الأرض من الظلم لم تكن مخطئا ولو قلت إن الظالم لو عذب عذابًا لا حدود لبشاعته فلن يكون فى هذا العذاب

الذى هو أسْوأ العـذاب ظلما لمرتكب شنـاعة الظلم، والعدو اللـدود للإنسان على هذا الكوكب هو الظلم، وإن الله ليمْلى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، والخلود فى أسوأ الجحيم ليس فيه زيادة حبَّة خردل فى جزاء الظالم.

قلت إن صورة من يتـقى بوجهه سـوء العذاب لم تذكـر إلا فى هذه السورة والسؤال الآن لماذا؟ وأى خصوصية فى هذه السورة جعلتها موطنًا لهذه الصورة؟ وجـوابى عن هذا ليس قاطعـا؛ وإنما هو الرأى الذى يحـضرنى الآن وهو أنهـا متناسبة جدا مع ظلل النار التى من فـوقهم، ومن تحتهم وهى الأخرى لم تذكر إلا فى هذه السورة، ومثلهـا غرف من فوقها غرف، ولماذا كـانت السورة موطنا لهذه الصور؟ وهذا هو السؤال المحيِّـر وليس عندى فيه إلا شىء واحد هو أنه لو صَحَّ ما قلته من أن السورة دائرة حول إخلاص العبادة لله رب العالمين فإنها بهذا تكون موطنا لأعلى صـور النعيم لمن أخلص لأن الإخلاص شأوٌ بعـيد؛ وتكون موطنًا لأسـوأ صور العـذاب؛ لمن أشرك لأنه ليس وراء الإخـلاص المفضى إلى أفضل صـور النعيم إلا الشرك المفضـى لأسوأ صور العذاب، والمسـافة التى بين الإخلاص، وعدمه، مـسافة زَلَقٌ جداً فقد يُخْدَع المرء فى لحـظة خاطفة ويسقط فى غواية الـشيطان فينتـقل إلى الرياء، وحب الذكر، ويذهـب عنه الإخلاص، فينتقل من قمة النعيم إلى أحط دركات سوء العذاب وهذه إحدى معاطب طريق أهل الله، ولهذا كثـر دعاؤهم فى طلب التثبيت على الحق وطلب التـثبيت على الطريق المستقيم، لأن السير عليه محفوف بمخاطر، وليس أسوأ من الضلالة بعد الهدى، وعـدوُّ الإخلاص يسرى فـى النفس سريانا خفـيا كالـهَمْس وكمـسرى النَّفَس فى النَّفْس، وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ يمكن أن تعرب حالا بتقدير قد، وتكون قيـدا للصلة وليست معطوفة عليها، وإنما هى من تمامها والمعنى أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب والحال أنه لم يَرِقْ له أحد لأنه مع فرط الهـول الذى هو فيه إنما يجـازى بما كسب كمن هو فى مـقام أمين فى جنات وعيـون، والآية لم تَنْفِ التسـوية بطريق النفى وإنما خاطبـت بها كل من

يـخاطب ليـراجع، ويتأمل، ويرى الفرق الشاسع بين حـالتين، حالة هى أهول ما يُرَى، وحـالة هى أكرم وأفـضل ما يُرَى، وعليه أن يخـتار أسـفل الدركات وأحَطَّها وأعلى الدرجات وأكرمها.

والخطابى لما قال إن للكلام أوصافها متضادة تتوارد عليه كالجزالة والسلاسة ولا تمتزج ولا تلتـقى ولا تتداخل إلا فى كلام الـله لأن الله سبحـانه يسَّرها لكلامه بكمال لطفه، هذا الذى قاله الخـطابى يلازمنى كثيرًا، وأنا أتدبر كلام الله لأنى أحب أن أراه فى كلام الله كمـا رآه الخطابى القرشى العريق، وأرَى شيئًا منه فى هـذه الجـملة التـى طـال وقوفى معها وهى ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ ومع طول وقوفى مـعها أشـعر أن فيهـا شيئًـا لم أستطع توصيله إلى القارئ لأن مجيئها عقب صورة الذى يتقى بوجهه سوء العذاب، أخفى كثيرا من أسرارها، هل المراد مزيد تعذيبهم وتأنيبهم وتعنيفهم وهم فى أسوأ الأحوال؟ أم المراد بيـان أن هذا الأسوأ الذى هم فيه لم يزد حـبة خردل عن استـحقـاقهم؟ أم المراد أنه لا يجـوز لعاقل أن يَرِقَّ لظالم ولـو كان هذا الظالم مكتوف اليدين فى سوء الجحيم يتـقى النار بوجهه؟ إلى آخر ما تحتمله الجملة سواء كـانت حالا أو كانت شريكة فى الصلة معطوفـة عليها، والذى أريده الآن ومن أجله ذكرت مقالة الخطابى: أن كلمة ﴿ذُوقُوا﴾ كلمة ناطقة بأشد الغضب، وسـواء كان القائل هو الحق أو ملائكته بأمـره، فإن المخاطب بهـا أهل النار وهم فى أشد الأهوال، ومـواقعـها غـاية فى التأثيـر وهى من الآيات التى تقشعر منها جلود الذين يخشون ربهم، ومنها قوله تعالى ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠] وقوله ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٤] وقوله: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٨] ومع شدة الغضب الذى ينطق به فعل الأمر فى قوله تعالى ﴿ذُوقُوا﴾ والأمر مُوجّه إلى

من يعانى أهول الأهوال تجد العدل الضابط والكافٌ للغضب والممسك بزمام الموقف حتى لا ينحرف عن الحق والعدل قِيدَ نملة، وذلك فى قوله بعد كلمة الغضب مباشرة ﴿مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ ولم يقل جزاء ما كنتم تكسبون مع أنه هو المراد لأنهم لا يذوقون ما كسبوا وإنما يذوقون جزاء ما كسبوا، والعدل رحمة وبهذا ترى فى الآية الغضب والرحمة مجتمعين وإنما يسَّر الله لكلامه جمع هذين المتباعدين بلطفه، والنفس الإنسانية تتوارد عليها الأحوال ولا تجتمع، هذا فضلا عن أن آيات أهوال العذاب مفعمة بالرحمة لأنها تصور لنا الهول ونحن فى فسحة من الأمر والرجوع إلى الحق ممكن وطلب النجاة ميسور، هذا والله أعلم.

قوله سبحانه: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٥، ٢٦].

هاتان الآيتان جملة واحدة، لأن الآية الثانية ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ﴾ معطوفة على الآية الأولى أى كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب فأذاقهم الله الخزى.

والكلام فيهما استأنف معنى جديداً لأن الآية قبلهما ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الزمر: ٢٤] إلى آخر الآية. كانت نهاية قسم من معانى السورة بدأ بقوله تعالى ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ والذى ترتب على هذا الإنزال أن الناس الذين هم قومه ﷺ صاروا فريقين فريق آمن وخاف وأخبت واقشعرت جلودهم منه وهؤلاء هم الذين هداهد الله، وفريق أضله الله وهم الذين كان مَثَلهُم ذلك المحترق وهو مغلولة يداه إلى عنقه، وهو فى سوء الجحيم يتقى النار بوجهه، يعنى يجعل وجهه درئية يدرأ بها النار أو دَرَقة بفتحتين وهى الترس من الجلد يدفع بها النار، وانتهى الموقف من الذى نزّله الله بهذا.

ثم فتحت الآيات معنى جديداً، وصل حال هذا الذى جعل وجهه درقة يحمى بها نفسه من النار بأحوال الأمم الماضية وبهذا انتقل الكلام من زمن المبعث إلى الزمن السالف ليقول لنا إن الذى يتقى بوجهه سوء العذاب وهو منكم وكل من عاند منكم فهذا حاله وأنتم وهو حلقة فى سلسلة ضلالة ممدودة على طول الأزمنة كلها والأمكنة كلها، والرسالات كلها، فإذا كان رسولكم عليه السلام ليس بدْعًا من الرسل فأنتم أيضًا أيها المكذِّبون الضالون لستم بدعا من الأمم، وفى هذا تسلية لرسول الله ﷺ، وأن الله سبحانه ما بعث نبياً إلا وجد من قومه ما وَجَدْتَ من قومك، فلا تبتئس بما يفعلون، والآية أيضا تقول لنا لا يزعجكم هؤلاء الذين حولكم يعلنون كرههم لما أنزل الله وكرههم لشرع الله، والذين يخوفون الناس من دين الله وأنه ليس فيه إلا تقطيع الأيادى والجلد والرجم وأنه استبداد وتسلط والحاكم فيه نصف إله لا يسأل عما يفعل إلى آخر ما لا تملّ أصوات البوم من حولك من ترديده، ومن الكذب به والكذب فيه، الآية تخاطبنا وتقول هؤلاء الذين حولكم هم حلقات من سلسلة طويلة لم تَنقَطع فى مجتمع، ولم تغب عن أرض الله، ولم تغب عن جماعة موحدة مؤمنة، وحسبكم أنهم كانوا الصوت الأعلى فى أزمنة النبيين وأن مصير البُوم الذين حولكم هو مصير كل البُوم الذى نعب على أرض الله بكل ما يضاد دين الله الواحد، الذى أرسل به كل النبيين رغم أنه العدل والبر والأمانة والرحمة.

قلت إن الحديث عن الظلم وظَلامِه وظُلمته التى يعيش فيها المظلومون وتعيش فى غيابها الشعوب المقهورة من أبرز شواغل الكتاب العزيز، وأقول الآن إن الحض على قراءة تاريخ الأمم وخصوصًا التى ظلمَتْ وبَغَتْ وفَجَرَتْ هو أيضًا من أهم شواغل الكتاب العزيز، ونستطيع أن نحصر الأمم البائدة التى تكلم القرآن عليها، وكل حديث القرآن عنها ينتهى إلى أنها كذبت الحق وردَّته وعارضته فكانت منازعتها للحق ومطاردتها له ومعارضتها له هى سبب

الكوارث التى نزلت بها، والآيات التى يقـول لنا ربنا فيهـا سِيرُوا فى الأرض وانظروا كيف كان عاقبه الذين من قبلكم كلها تُحِيلُنا إلى حقـيقة واحدة هى الحـرص على الحـق، والصـدق، والحـرص على مناصـرة الحق والصـدق، والحرص أيضـا على مُدافَـعةِ الباطل والـكَذب والتدليس، وأنكم إذا عـايشتم الكذب والباطل والتدليس تكونون قد بدأتم المسير نحو الغروب.

ولا شك أن العذاب المرتب على التكذيب وإذاقة الخـزى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة كل ذلك يكون بـتكذيب النبوات والكتب التى هى أحـسن الحديث لأن كل كتب الله أحسن الحديث، وكل كتب الله مـتشابه، ومثان، ولكن لفظ الآية يقول ﴿**كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**﴾ ولم يقيد التكذيب بشىء فأشـار إشارة صريحة وواضحة إلى خطر تكذيب أى حق، وأى صدق، وأى صواب.

وجملة ﴿**فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ**﴾ معطوفـة على كذب الذين من قبلهم ومـرتبة عليها بالفاء الـتى تفيد التعقيب يعنى ما إن كـذبوا حتى أتاهم العذاب، ولفظ أتاهم العذاب وإسـناد الإتيان إلى العذاب، فـيه إشارة ظـاهرة إلى أن العذاب كأنه حىٌّ عـاقل يَرْصُد هؤلاء المكذبين للحق، ويأتيهم وحـده، وكأنه حارس من حراس الله وواحـد من جنوده، يترصَّدُ المحـادِّين لدينه ويُبَاغِتُـهم ويُحيط بهم، وليس هذا من الخيال البـيانى، لأن كلمة العذاب كلمة عامـَّة وجامعة. وإذا أردت شيئًا من بيانها فهى الريح التى هلكت عادا، ودمّرت كل شىء بأمر ربها، وهى الصاعقة التى أهلكت ثمودًا، وهى السماء التى فتحت أبوابها بماء منهمر، والأرض التى تفجرت عينا فالتقى الماء على أمر قد قدر، وكان من أمر قوم نوح ما كـان، وهى البحر الذى انفرق فكان كل فرق كـالطود، وهلك فيه الهالك فـرعون بعد ما ترك سـلالة مُنْحطَّة على أرض الكنانة، وصار الأغبـياء فراعين، وولـدوا فراعين صغـيرة، وبئس الوالد والولـد، وهكذا وتَعْسًا لـلجد الأعلى الذى لا يزال يدنِّس أرض الكنانة، والأمل فى أن يأخذ الله بيد الشعب

حتى يقطع دابر الفراعين من أرض الكنانة، ومن غيرها من أرض العرب التى لا يزال أبو جهل فيها يسود، ويلاحظ أن الآية الكريمة قَرَنَتْ الكذب بالظلم لما انتقلت من قوله تعالى ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ إلى قوله جل شأنه ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وهذا الاقتران مقدمة لدمجهما فى الآية الآتية، «فمن أظلم ممن كذب على الله وكذّب بالصدق إذ جاءه» وهذا من اللطيف فى أسلوب الكتاب وكأن هناك إرهاصا بمعنى قادم، وآية ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ من أعظم آيات الكتاب وكلها أعظم، وأنا من المولعين بجملة، وكذَّب بالصدق إذ جاءه، لأنها تضع الإصبع على موطن أوْبل داء يدمر حياة الناس، لأن تكذيب الصدق من أبشع الأخلاق، ولاحظ التعميم فى التعبير، وإن كان السياق يحوّل كل ذلك إلى الدين، وإطلاق اللفظ يُدخل كل ما فى حياة الناس، حتى إنه ليدخل فيه الحوار فى قضايا الفكر وقضايا السياسة، وقضايا الناس، فإذا رأيت فريقا يرفض البرهان الساطع والحق القاطع، ويُدَلِّس ويشوش، ويُغَبِّر الفكرة الناصعة فاعلم أن هذا نذير فى حياة الناس، وأكثر الصراعات السياسية والحزبية والطائفية تدخل فى هذا الباب.

وقوله تعالى ﴿مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾ كلمة ﴿حَيْثُ﴾ فيها معنى المكان والمراد من حيث لا يتوقعون يعنى أن العذاب يأتيهم من مأمنهم، ويأخذهم على غِرَّة وكأنه يكمن لهم فى الجهة التى لا يظنون أن يأتى منها شر، وكأنه مُهَاجِم مُدَرَّب ومُحارِبٌ مُحنك، وأنا لا أعدّ هذا من المجاز، لأن الله جلت قدرته يخاطب ما لا وجود له فيسمع الذى لا وجود له خطاب ربنا وينقاد، وأنه لم تكن هناك أرض ثم قال لها كونى فكانت، ولم تكن هناك سماء ثم قال لها كونى فكانت، وقوله سبحانه ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧] حقيقة، وأمْره وخلقه بين الكاف والنون حقيقة ولهذا عَبَدْناهُ سبحانه وتعالى. وشأنه سبحانه لا يقاسُ على شأننا ،وقوله جل شأنه ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ﴾ من باب

ذكر الخاص بعد العام لأن إذاقة الخزى بعضُ العذاب، وهذه الفاء تعطف ما بعدها على «فأتاهم العذاب» وهى الفاء التى تكون بين المفسِّر والمفسَّر، بكسر السين وفتحها، وكلمة (أذاق) فى هذه الجملة موصولة بكلمة ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا﴾ ومؤكدة لمعنى الذين كذبوا هم الظالمون، ومهيئة أيضًا لما سيأتى ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ﴾ والمجاز فى كلمة ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ﴾ من أرفع ضروب المجاز، وما أبْشع أن يذوق الإنسان الخزى، وما أغرب أن ترى الخزى يذوقه اللسان، والناس يقولون كأس الذل، وهو الكأس الذى يجب على الكرام الأحرار أن يُطَهِّروا منه أوطانهم، وأسأل نفسى لماذا خَصَّتْ الجملةُ الكريمةُ من ضروب العذاب وهى كثيرة وبَشِعةٌ وأقربُها منا الذى يتقى بوجهه سوء العذاب، لماذا تجاوزت الجملة الكريمة هذه الضروب التى أشرنا إلى بعضها وذكرت ﴿الْخِزْيَ﴾ هل هذا لأن الذى أغراهم بالتكذيب هو الاستكبار؟ وأن كلمة الخزى توجب استحضار الاستكبار؟ وأن الآية الكريمة بدلا من أن تحدثنا عن سبب تكذيبهم وضَعتْ هذه الكلمة لتدل على أن جزاءهم كان من جنس عملهم، وما داموا كُوفئوا بإذاقة الخزى فلابد أن يكون عملهم الذى اكتسبوه هو الكبرياء فى الأرض؟ وأن هذا من مسالك الإيجاز فى الكتاب العزيز، ثم إن الآية كما بشَّعت الظلم وبشَّعت الكذب هى الآن تبشِّع الخزى وتنفرّ منه، وتهوِّله، وأبشع الخزى ما كان بدخول النار ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ و﴾ [آل عمران: ١٩٢] ومن الدعاء ربنا ولا تخزنا يوم القيامة، ويوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه، وخزيهم فى الحياة الدنيا هو هزيمتهم وانكسارهم وانكسار أنوفهم وكبريائهم، وقد وعد سبحانه أنه يَنْصرُ من يَنْصرُه، وأنه يَنْصر رسله فى الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد، والذين كذبوا ليس لهم سند فى اعتقادهم وراء هذه الدنيا ولهذا كانت هزيمتهم فيها خِزيًا وذُلا وهوانًا، وهذا بخلاف أهل الدين فإن الإيمان

بالغيب سَنَد وظهير لهم؛ يعصمهم من الإحساس بالخزى والانكسار واليأس، والآية الكريمة وإن كانت تتحدث عن الذين كذبوا الرسل قبل بعثة رسول الله ﷺ فإنها تُلوِّح بأن ما أصاب الأمم السابقة سيصيب هؤلاء، ولهذا ذكر بعض المفسرين أن خزى الحياة الدينا الذى أذاقه الله لكفار قريش هزيمة بَدْر التى فاجأتهم وأتاهم العذاب بها من حيث لا يشعرون وأذاقهم الله بها الخزى فقتل فيها صناديدهم على أيدى أهل الإسلام الذين كانوا ضَعَفَةً وصاروا بدين الله من أولى القوة، وقَتَل سيدنا ابن مسعود الهذلى سيد قريش الحكم بن هشام، وقال له أبو جهل وقد وطئت قدم ابن مسعود صدره، ارتقيت مرتقى صعبا يا رُوَيعىّ الغَنَم، وهكذا كان الخِزْى، والذين يقرؤون التاريخ يعلمون أن قريشًا كان لها السِّيادَة ليس فى الحجاز وحدها وإنما فى أرض العرب كلها، وكان لها من حرمة البيت حرمة فى صدر كل قبائل العرب، وهذا بعض الذى وراء قول أبى جهل ارتقيت مرتقى صَعْبًا يا رُوَيْعِىَّ الغَنَم.

ثم إن خبره جل شأنه وأنه يذيق أعداء دينه الخزى فى الحياة الدنيا هذا الخبر يشد أزر أهل الحق، ويقوى ظهيرهم وأن الله معهم، وأنه سبحانه ناصرهم وأنه يدهم على عدوهم، ووراء ذلك ما وراءه، وقد شهدنا بعض ذلك وأنا أكتب هذا الجزء الأخير ورأيت فريقا ممن حارب الحق والخير وانحاز للظلم والقمع والتنكيل بأهل دين الله وهم فى خزى الدنيا والله غالب على أمره، رأيت أبا جهل وقدم ابن مسعود على صدره.

قوله تعالى ﴿**وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾.

هذه الجملة موقعها من التى قبلها موقع الحال، وهى مؤكدة باللام ومبتدئة بكلمة (عذاب) وهذا التوكيد والابتداء بكلمة عذاب يدل دلالة ظاهرة على مزيد الغضب وأن غضب الرحيم الرحمن على المكذبين للحق لا يُخَفِّفُهُ أنه يذيقهم الخزى فى الحياة الدنيا، وأن هذا الغضب يبقى كاملا بعد هذه الإذاقة،

ويبقى متوفرا ليوقع بهم العذاب الأكبر فى الآخرة، وبعد البعث والحساب وسوق أهل النار إلى النار، وكلمة العذاب كلمة فيها عموم وإبهام يفسرها السياق الذى وردت فيه وهو هنا من يتقى بوجهه سوء العذاب ومن هو فى ظلل النار من فوقه ومن تحته.

ووراء الغضب والتهديد بالعذاب الأكبر لمن نازع الحق والصدق فى أرض الله ونازع رسالات الله وكتبه ورسله وراء ذلك وَعْدٌ ورضًى وغِبْطة بأهل الله المستمسكون بذلك كله، والمدافعون عن ذلك كله، وهكذا تجد الصراع الدائر والدائم على هذه الأرض بين أهل الحق، وأهل الباطل، وأهل الصدق، وأهل الكذب، وأهل الظلم، وأهل العدل، وأهل الكفر، وأهل الإيمان، ووراءه صوت الحق جل وتقدس يخزى الباطل وحزبه، وينصر الحق وأهله، وهذا من أهم ما يشد أزر أهل الحق ويُثَبِّتُ أقدامهم ثم يدخلهم الجنة عرّفها لهم.

وجملة ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ جملة فاصلة وانتهى حديث الذين كذبوا من قبلهم قبلها، وهو دائر بين أمرين: الأول أنهم كذبوا، والثانى أن الله عاقبهم فى الدنيا بالخزى، وتوعدهم بالعذاب الأكيد فى الآخرة، وانتهى الأمر، ثم جاءت هذه الجملة الفاصلة لتنفى العلم عن هؤلاء المكذبين، وكلمة ﴿لَوْ﴾ للشرط فى الماضى وتدل على نفى الشرط، وجوابها هنا محذوف، والتقدير لو كانوا يعلمون لعلموا أن عذاب الآخرة أكبر، ولرجعوا ولكنهم لم يعلموا، وكلمة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ نزل الفعل المتعدى منزلة اللازم، للدلالة على أنه لو كان منهم العلم وكانوا أهلا لأن يعلموا أى شىء يُعلم، لأدركوا ذلك لأنه ظاهر ظهورا لا يلتبس، ولا يتطلب إدراكه إلا أن يكون الذى يحاوله ممن يعلم، يعنى أول درجات العلم، والذى به يدخل الإنسان فى التكليف، والعَقْلُ مناط التكليف وليس العلم لأنه إذا وجد العقل وجدت الأهلية للعلم فى أولى درجاته، وهذا هو معنى قولهم إن تنزيل هذا الفعل المتعدى منزلة اللازم للإشارة إلى أن المراد أن يكون منه العلم.

وبهذه الجملة ينتهى هذا الفصل الذى لك أن تقول إن رأسه قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ وإذا قلت هذا فالواجب أن تذكر أن هذا المجهول الذى أوبق نفسه فى مَحْرقة لا يموت فيها ولا يحيى كان مثالا لشق فاصلة الآية قبله وهى ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾، وقد أغلق الشق الأول وهو ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزمر: ٣٧] باب الحديث عن الذين يخشون ربهم وتقشعر جلودهم من أحسن الحديث، وهذا يعنى أننا نجعل الفرع الذى يطول قليلا وهو متفرع من أصل نجعل ذلك فصلا والأمر فى النهاية ينتهى إلى الفصل الأم الذى يبدأ بقوله تعالى﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ وفاصل ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ نهاية هذا الفصل الأوسع، وهذا يعنى أن الآية بعد هذه الفاصلة، وهى قوله تعالى:﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الزمر: ٢٧] فصل آخر فى أحسن الحديث الذى أنزله الله جل وتقدس، وهذا الفصل يتحدث عن شىء مهم جدا وهو أن هذا الكتاب العزيز لم يَدَع مخرمًا من مخارم الضلالة إلا أغلقه، ولم يدع سبيلا من سبل الرشاد إلا أضاء للناس مسالكه؛ وبهذا تكون الواو التى فى قوله تعالى﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ﴾، هى الواو التى تعطف معنى ما بعدها على ماقبلها الذى يبدأ من قوله سبحانه «الله نزل أحسن الحديث» وإذا كانت الآيات الأولى ذكرت من حسن أحسن الحديث أنه متشابه وأنه مثان وأنه تقشعر منه جلود الناس الذين هم ناس وهم جديرون بهذا الاسم فإن ما بعدها يذكر من محاسنه ما ضربه الله فيه من كل مثل.

وقد ذكر الشيخ الطاهر رحمه الله أن قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ كلام معترض بين آية ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ وآية ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ والذى قلته راجع إلى أن أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب شطر الكلام فى أحسن الحديث وهو المقابل للذين يخشون

ربهم، وقد قدَّر العلماء الخبـر المحذوف من جنس الذين يخشون ربهم وقالوا التقدير كمن أمن العذاب.

والجـملة التى هى قوله تعـالى ﴿ **وَلَقَـدْ ضَـرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُـرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ** ﴾، مؤكـدة باللام وقَـدْ، وأصل اللام أن تدخل على الفعل وقـد دخلت على حرف التحـقيق لأنه جزء من الفعل، وهذا التوكيـد حين أتأمله من جهة القائل الخالق البارى الذى أنـزل الكتاب أجد فيه شيئًـا آخر يتجاوز عناية الحق جل وتقـدس بمضـمـون الجملـة إلى شىء من الغـضب، والتـعنيف، واللوم والمؤاخذة، لهؤلاء الذين لم ينتفعوا بهذه الأمـثال، ولم يتذكروا بها، والأمثال لهـا فى كلام الله وفى كـلام رسوله ﷺ وفى كـلام الناس شأن ليس بالخـفىّ لأنها تقرب المعانى البـعيدة، وتوضح المعانى الخفية وتـضع لها البرهان، وتقيم عليـها المنار، كـما كان يقـول علماؤنـا، ثم إن الأمثال تـطوى فى مفـرداتها وتراكيبها وكلماتها، وامتداداتها من المعانى ما يكثر ويجل ومما لا يظهر إلا بعد المراجـعة، وخـذ ما شـئت من أمثـال القرآن وقف عند الكلمـات والتراكـيب والأحـوال، وأسأل، لماذا أوُثر هذا اللفـظ؟ ولماذا قدم؟ ولماذا عُـرّف ولماذا نكر وهكذا، وفى الكتاب العـزيز أمثال مـتتابعة بمـعنى أن الكلام الذى يحدِّث عن معنى واحد يأتى بمثل، ثم ينتقل من هذا المثل إلى مثل آخر كما فى أول البقرة فى آية ﴿ **مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَـاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ** ﴾ [البقرة: ١٧] ثم قال الحق ﴿ **أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم** ﴾ [البقرة: ١٩] إلى آخر الآيات، وأول سـؤال أى شىء فى المثل الثانى لم يسـتوعـبه المثل الأول؟ وقد حَلّلْتُ شيئًا من هذه الأمثال فيما كتبت ولا أزال أرى فيها أشياء لم تصبها كلماتى، وأحـيلك على مثل فى سورة النور هو قـوله تعالى ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ**

عندهُ فوفَّاهُ حسَابَهُ واللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٣٩، ٤٠] ما هى العلاقة بين أعمال الذين كفروا والظلمـات؟ ولماذا كانت الظلمات فى بحر لجى؟ ولماذا قال يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب؟ وأى شىء فى أعمال الذين كفروا تُصَوِّرُه هـذه الصورة المركبـة والمتداخلة؟ وأى عـلاقة بينهـا وبين المثل الأم فى السورة وهو مـثل نوره كمشكاة فـيها مـصباح؟ إلى آخـر ما فى هذا المثل من عناصـر وصـور تقـارب عناصـر المثل الثـانى وتبـاعـدها والمهم دلالات هذه الوحدات الصغيرة على معان فى أعمال الذين كفروا، فإذا قلت مثلا أى شىء فى أعمال الذين كفـروا يدل عليه قوله «إذا أخرج يده لم يكد يراها؟ وكل هذا من الدراسات الواجبـة التى تستكشف أسرار الأمثال فى الكتاب العـزيز ومع كثرة ما كتب فى أمثال القرآن فلا يزال هذا الباب مغلقا على أسراره».

وقد نبه بعض علمائنا إلى أن الآية فيهـا إشارة إلى الإعجاز البلاغى وأن القرآن يلفت القـوم وهم أرباب الفصـاحة إلى هذا الجـانب البلاغى المعـجز، ووراء هذه الإشارة إشـارة أخرى هى أن الأمثـال من أبواب البيان الـعصيـة التى لا يَبْرَع فى ضربها مع السـداد والإصابة إلا من أوتوا حظا من بلاغة البـيان هم به أفراد؛ لأن القضية ليـست فقط فى تدريب النفس على ضرب المثل، وإنما القضيـة فى مـعرفة الموضع الذى لا يصلـح فيـه إلا المـثل، والمـوضع الـذى لا يصلح فـيـه المثل، ولذلك لم يستحـسنوا الشعر المبنى على الأمثـال كشعر صالح بن عـبد القدوس، واستحسنوا الأمثـال التى تكون فى الكلام كاللؤلؤ المنثور وتأتى تفاريق فى الكلام ولُـمعًا مضيئة والمعنى الذى انعقدت علـيه الآية هو أن الأمثال مَنْبَهَةٌ للعقول، وأنها توقظ وتثـير، لأنهـا قيـاس وإعمـال عقـل، واستـدلال بالشاهد على الغـائب، واستدلال بالقـريب على البعيد، وبالجلىّ على الخفـى، وبما يدرك بالحاسة والطبع على ما لا يدرك بهـما، ولذلك لم تذكر الآية المعـانى التى ضرب القرآن فيـها

المثل، وإنما قالت ضربنا لهم المثل، ليتذكروا لأن من شأن المثل فى أى باب من أبواب المعانى أن يبعث على التذكر، والأمثال الدالة على نفى الشريك من أعظم أمثال الكتاب، ومنه المثل الآتى بعد هذه الآية ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ [الزمر: ٢٦] وكذلك الأمثال التى تؤكد أهلية المعبود بالحق، كالمثل الذى فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣] وكذلك الأمثال الدالة على البعث، وأن الذى يحيى الأرض بعد موتها كذلك يحيى الموتى، وأمثال الحياة الدنيا، وأنها كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض، وغير ذلك كثير، ومتعدد ومُتَنَوِّع، ولو أُتيح لى أن أصنف أمثال القرآن على موضوعاتها ومحاورها وأن أدرس صورها مثلا مثلا لفعلت.

هذا شىء قليل مما يقال فى قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ وبقى فى أسلوبها مواضع أولها أنه قال «للناس» لأن القرآن خطاب للناس كافة ولأن المثل مَنْبَهَة للعقول كما قلت وهو خطاب للفطرة؛ وللناس من حيث هم ناس؛ وليس خطاب العرب دون العجم، ولو قلت الأمثال لغة الفطرة، وإنما تختلف ألفاظها باختلاف اللغات والأجناس وتبقى مضامينها تخاطب بنى آدم بلغة آدم، أعنى اللغة الإنسانية الأم. لو قلت هذا لم تكن متجاوزا. ثم تلفتك كلمة ﴿هَذَا﴾ ولماذا جىء بها؟ ولو قال ولقد ضربنا للناس فى القرآن من كل مثل لفهم المعنى؛ وكلمة «هذا» أشارت إلى مزيد من التعظيم والرفعة والجلال، والتقديس للقرآن، والكلام فى الآية كما قلت موصول بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ وكل هذا فى الكتاب ولهذا رأى البعض أن أم المعنى فى السورة هو الكتاب، لأن الحديث عنه امتدَّ ووَصَفَ وحسَّن وجوَّد وكلمة هذا ميزت القرآن وكأنه فى علوه وعليائه يشار إليه.

وكلمة ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ دالة على كثرة الأمثال، وتنوعها، كما تقول أخذ من كل بستان زهرة، ومن كل فن طرفا، لا تعنى بذلك الاستقصاء لأن القرآن الكريم لم يستقص كل الأمثال، وإن كان لم يدع بابا من أبواب الضلال إلا كشف ضلاله، ولا بابا من أبواب التوحيد إلا دل عليه، ولا بابا من أبواب الخير إلا سهَّل الطريق إليه، والذى يقرأ القرآن ويحسن تَدَبُّره يراه لم يَدَع طريقا من طرق الإيقاظ والتذكر والتَّعقُّل إلا أثاره، وليس هذا من جهة باب الأمثال فحسب، وإنما من جهات البيان كله، ولاشك أن الأمثال من المتشابه، ومن المثانى، وأنها تتنوع، وفيها من خصوبة البيان وثراء المعانى، ولطائف التوجيهات، ولطائف الإشارات ما يجعلها من أهم كنوز الكتاب العزيز.

ولاحظ أن الحق جل وتقدس يقول فى الآية إنه ضرب للناس فى الكتاب من كل مثل ليتذكروا، وكأنه جل وتقدس يُحِبُّ لهم أن يتذكروا، ويُمَهِّد السبيل لهم ليتذكروا، ويقدم الأمثال لهم ليتذكروا، وكأنه سبحانه يأخذ بأيدى عباده لتمسك على العروة الوثقى، ولتنجوا من النار، ولهذا ذكر علماء العقائد أن فى الآية ما يفيد أن أفعال الحق سبحانه تُعَلَّل وليس هذا الذى أريده وإنما أريد الإشارة إلى الرحمة التى تراها فى طىِّ الآية، وأن الحق يَضْرِبُ الأمثال لتنشط النفوس من الغفلة، ولتتدبر وتتذكّر وتعرف طريق دار السلام التى يدعوها ربها إليه، الآية فيها معنى أن الله سبحانه يُربينا ويأخذ بأيدينا لندخل الجنة إلا من أبى، واستعمال كلمة ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ التى هى للرجاء والرغبة والتعلق بوقوع الفعل والله سبحانه غنى عن العالمين وأمره بين الكاف والنون وإن يشأ يذهبنا ويأت بقوم آخرين ومع كل هذا يقول: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ويخاطبنا بما ألفناه من الخطاب، وكأن أحدنا يقول لصاحبه أو لتلميذه أو لولده لعلك تتذكر أو تتدبر أو تستيقظ، وراجع الآية من زاوية أخرى لتراها تفيد أن المقصود الأول فى الكتاب العزيز هو تنشيط العقل وإيقاظ العقل حتى يكون التدبر والتفكر والتعقل وكل ما هو من قبيل الأعمال العقلية عادة معتادة

وسلوكا متجددا، وحسبك أن تقرأ أن الله سبحانه يخاطبنا بلغتنا ويقول ضربت لكم الأمثال التى هى لغة الاستدلال والاستنباط لعلكم تتذكرون يعنى رجاء أن تعملوا عقولكم، ولابد أن نذكر أن الآية الكريمة انتقلت إلى هذا المعنى الودود القريب الملاطف من معنى مجازاة الذين كذبوا وأن الله سبحانه يُذيقهم الخِزْى فى الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر، وكأن الحق جل وتقدّس يضع تحت عيوننا صورة النكال والعذاب الذى لا يطاق والذى هو الجزاء العادل لمن كذب بالصدق، ثم يقاربنا ويضرب لنا الأمثال لعلنا نتذكر فلا نقع فى الغفلة المفضية بنا إلى أن نَذُوق الخِزْى فى الدنيا والعذاب الأكبر فى الآخرة ولا تستكثر هذا العذاب على المكذبين للصدق، لأن جريمة تكذيب الصدق هى وحدها تدمر حياة الناس، وتحولها إلى سواء الجحيم، ورواجعها ليس على مستوى ما جاء به النّبِيُّون فقط وإنما على مستويات الحياة كلها بما فى ذلك قضايا العلم، والسياسة إلى آخره، تجد أسوأ ما تراه هو أن ترى الحق كفلق الصبح وعصابة الأغبياء والمُنْتَفِعِين بالباطل تنكره، وتضع أكفها القميئة على ضياء الشمس لتحجبه عن الوجود، كل هذا تقربا من الغبىِّ الأطرش الذى جعله الزمن الردىء سيدنا، وأُذكّر بما نبهت إليه كثيرا وهو مهم جدا ورأيت له إشارات فى كلام الأئمة العلماء المهديين، وهو أن كلمة ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ معناها أن الذى تذكروه كان يوما ما معلوما لديهم، وكان من حصائد نفوسهم، ومن معارفهم، ثم غفلوا عنه، ونسوه، والله جَلَّت حكمته ضرب الأمثال فى هذا القرآن لعلنا ولعلهم نتذكر نحن وهم هذا الذى تَاه مِنَّا وطَمَرَتْه الأحوال وذهبت بمعالمه، والتذكر يكون بعد نسيان، والتعلم يكون بعد جهل، والتفكر يكون بعد غفلة، والتعقل يكون بعد طيش، وهذا الذى طمرته فى نفوسنا الأزمان والأحوال هو الفطرة، الذى يعود بنا دين الله إليها، وهى برئيه من الظلم والكذب، والتكذيب، والتدليس، والتهويش، والأثرة، والأنانية، وكل ما تراه حولك مما هو أغلال تعوق حياة الإنسان عن الانطلاق إلى الآفاق

الإنسـانية الأسـمى، الدِّين يذكـرنا بما نسيناه، وهو الفـطرة التى هى إنسانيـة الإنسان التى فطره الله عليها، والتى هى جماع مكارم الأخلاق، التى ما بعث الحبيب المصطفى المجتبى إلا ليتمها، أجد تحت كلمة التذكر فى الكتاب العزيز هذا المعنى النبـيل الذى نبه إليه الـفاضل الطاهر رحمـه الله قال رحـمه الله: «التذكر: التأمل والتدبر لينكشف لهم ما هم غافلون عنه سواء ما سبق لهم به علم فنسوه، وشغلوا عنه بسفساف الأمور، وما لم يسبق لهم علم به مما شأنه أن يستبـصره الرأى الأصيل، حتى إذا انكشف له كـان كالشىء الذى سبق له علمه، وذهل عنه، فـمعنى التذكر يعـنى بديع شامل لهذه الخصـائص» انتهى كلامه رحمه الله، وإنما أردت «حتى إذا انكشف له كان كالشىء الذى سبق له علمه وذهل عنه» والذى سبق لى علمه وذهلت عنه وأمثال الكتاب تسترجعها هو فطرتى التى فطرنى الله علـيها، وهى براءة كـبراءة الطفـولة، ليس فيـها خداع ولا نفاق ولا غطرسة ولا تسلط وإنما فـيها روح أقرب إلى روح الملائكة الذين يسـتغفـرون لنا بظهر الغـيب وهم يقولون لربـنا وهم يحملون عـرشه ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

قوله تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ هذه الآية فرع من الآية قبلها وفضلة من فضلات الآية قبلها أعنى ليست مكونة من ركنى الجملة التى يسـميهـا النحاة العـمَدة وتقـابلها الفـضلة ويوصف بها الحـال والنعْتُ والتـوكيـد، والمفـعول، إلى آخـر الكلمـات المتـعلّقة بالجـملة بعـد الركنين الأسـاسـين المسند إليـه والمسند، وإذا كـانت الآية الأولى أو الجـملة الأولى معقود معناها على أهمية الأمثال، وأن الله سبحانه ضرب فى هذا القرآن من كل مثل يعنى بعضا من كل لأن من هنا معناها التـبعيض، والمثل منكر ليفيد التعظيم أى مثل أى مثل والمعنى ضرب بعضا من أمثـال عظيمة يقال فيها إنها مثل أى مثل، أقول إذا كانت الآية الأولى معقودة على هذا المعنى، فعلى أى معنـى عُقِدَت هذه الآية، والجـواب الذى أراه أنها عـقدت على بيـان بعض

الأوصاف العالية للقرآن العظيم، ولابد أن نتذكر أننا فى محيط تنزيل أحسن الحديث، وأنه هناك كتاب متشابه مثانى، وهو هنا أمثال، وقرآن، وعربى، وكلمة قرآن منصوبة على الحال، وعربى صفة لقرآن، ومن المفيد أن نَضَع هاتين الصِّفَتَيْن بجوار كتابا متشابها مثانى، والقرآن هو الصورة الناطقة للكتاب فالذى أنزله الله مكتوب فى الصدور، ومقروء فى المحاريب، والعربى ليس بعيدا عن المتشابه، والمثانى، لأن كل كلام العرب متشابه، ومثان، وفى كلمة عربى معنى آخر هو أنه لسانكم.

وإذا كانت الأمثال وهى أقيسة واستدلالات تُفْضِى إلى التَّنْبيه والتذكر والمراجعة، فإن التلاوة والترجيع تفضى إلى التّرْقيق والوَجَل والتقوى، والخلاصة أن هذه الآية التى هى فرع الجملة، رجعت إلى القرآن لتذكر تلاوته وعروبته وما يفضى به إلى التقوى.

وعروبة القرآن تعنى عروبة لغته التى أنزله الله بها، أما معانيه ومضامينه فهى للناس كافة، هدى ورحمة، لأنها هى المعانى الملائمة للفطرة، والممتزجة بها، والتى هى شفاء لها، وانعاش لها؛ وتجلية لها، فهو ليس دين جنس دون جنس وإنما هو دين الإنسان ونزوله بهذا اللسان العربى إشارة لا يجوز أن يختلف عليها من آمن أنه كلام الله، هذه الإشارة هى أن هذه العربية أقرب لغات البشر إلى الفطرة الإنسانية، وأن الله سبحانه وتعالى لما قضى بأن يَبْعث دينا واحدا للناس كافة اقتضت حكمته أن تكون لغة هذا الدين هى الأقرب إلى الناس كافة، وقد عبر كثير من علمائنا عن هذا المعنى وقالوا العربية أشرف لغات البشر وأكملها ونزول الكتاب بها شاهد على ذلك، وهو صحيح وجيد، وجيد أيضا أننا ننظر فى ضوء حكمة الحكيم العليم الذى أنزل الكتاب وأنزل أحسن الحديث وخاطب به الناس أجمعين وأن هذا لا يكون إلا لأنه أقرب إلى الفطرة وأن اللسان الذى نزل به أقرب الألسنة إلى الفطرة، وهذا هو الذى نَلْقَى الله عليه وإن عانده المثقفون المتنورون الهلافيت الذين أكرمنا ربنا

ولم يسقط الصَّنم الخشبى الجاهل الذى دمّر البلاد حتى أرانا هؤلاء المناضلين كما يزعمون والمثقفين كما يدعون والمتنورين كما يكذبون وهم خدم له يسعون بين يديه وبين يدى خدمه الذين هم الأعلون من الخدم الموسومين بالثقافة والتنوير، وتأمل لتتأكد وتعلم أننى لم أتزيَّد لأن فلانا المتنور جدا لم يكن خادما مباشرا للصنم الحجرى المتصلِّب وإنما كان خادما لواحد من خدمه الذى سماه الصنم الخشبى وزيرا، والخلاصة أن وصف خالق السموات والأرض للقرآن بأنه عربى يوجب علينا أن نحاول تدبر وتعمق وفقه هذا الوصف، والذى قلته يؤيده أن من لم يؤمن بالكتاب من غير العرب واستمسكوا بدينهم آمنوا بالعربية وتكلموا بها وهجروا لها لغاتهم، وقد ذكر الرافعى كثيرا من هذا وهذا حسبى، واسأل نفسك سؤالا واحدا وقل لماذا قال ربنا ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الأحقاف: ١٢] والكل يعلم أنه لسان عربى؟!! وذكر علماؤنا فى تفسير عروبة القرآن أن ألفاظهم التى أنزل الله بها كتابه هم الذين وضعوا معانيها فكلمة القرآن من كلامهم وهم الذين وضعوا المراد بها وهى مصدر قرأ وكلمة المثل، وكلمة الضرب، وهكذا كل ما خاطب الله به خلقه إنما خاطبهم بما اصطلح عليه العرب، خاطب خلقه كل خَلْقِه من يوم أن أنزل الكتاب إلى يوم أن يبطل التكليف، والمراد بكل كلمة من كلام الله هو ما وضَعَهُ العربُ وتواضعوا عليه، وأن مراد الحق مرتبط بهذا الوضع، وأن أقل زحزحة للكلمة عن ما وضعه العرب يعتبر تغييرا لمراد الحق جل وتقدس، وهذا إن تأملته وجدت فيه مَنا وفضلا وإكراما لهذه العرب، وإعلاء لهذا اللسان وأى محاولة لما يسمى تطور الدلالة اللغوية فى الألفاظ لن تكون لها أى قيمة، ولا أى قبول لأننا لو تصورنا أن كلمات الكتاب العزيز انتقلت عن معانيها زمن النزول، فلابد أن نُسَلِّم أن هذه المعانى الجديدة ليست هى مراد الحق وكفى بهذا اضطرابا، وضياعا لما تعهد الله بحفظه، ولا أجد قيمة أى قيمة لما يكتبه بعضنا فى تطور الدلالة، وأراه

متابعة لما جاء فى لغات أخرى، لأن عقولا كثيرة لم تألف التقليد فحسب وإنما انحصرت فيه وصارت لاتعرف غيره.

ثم إن وضع العرب ألفاظها لمعانيها لو لم يكن مؤسسا على حكمة صحيحة مقبولة لما نزل بها الكتاب، لأن الوضع الذى يداخله عيب لا يمكن أن يبقى بعينه قائما فى الزمان كله، وفى الأجيال كلها، والأمم كلها التى لم يخاطبها ربنا إلا بهذا اللسان، وقلت إن الوضع لو تغيّر قِيدَ نملة لتغيرت أشياء كثيرة.

وكان البحث فى هذه الحكمة هو الباب الذى دخله أبو الفتح بن جنى وراعه وبهره ما وجده فيه ثم أُغلق البابُ من بعد أبى الفتح، ولم يتكلم أبو الفتح ولا غيره فى موضوع تطور دلالة الألفاظ التى يلحٌ عليها كثير من أهل الغفلة، والغريب أنهم لا يجدون أمامهم إلا الكلمات التى استجد الكتاب العزيز لها وصفا مثل الصلاة والحج والصدقة والزكاة والنفاق والإيمان إلى آخره، ثم كلمات عامية لا قيمة له وغفلوا عن حقيقة وهى أن الكتاب العزيز أمسك بكل ما فى اللغة من دلالات الألفاظ والصيغ والصور والأحوال أمسك بها وهى على حالتها يوم نزل فصار لسان جيل المبعث هو لساننا، وكلماته هى كلماتنا، وصيغه هى صيغنا وهذا وحده يدخل باب خرق العادة فى أحوال لغات البشر، وهذا حسبى، وقوله تعالى: ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ العوج بكسر العين ما كان فى المعانى وبفتحها ما كان فى المحسوسات، والعوج المنفى عن القرآن كما ترى عوج عام يعنى ليس فيه عوج فى لفظه ولا فى معناه، ولا فى حكم من أحكامه، ولا فى أمر أمر به، ولا فى نهى نهى عنه، ولا فى خبر ساقه، ولا فى عظة ساقها، ولا فى قصة، ولا فى شىء أى شىء مما بين الدفتين، وهذا وحده أمر إلهى لأن كل ما يصدر عن النفس الإنسانية لا محالة فيه رَشْح من أحوالها، من قوتها، ومن ضعفها، ومن استقامتها، ومن عوجها، وأن ما يصدر عنها إذا قبله زمان، رفضه ما بعده، وإذا قبلته أمة، رفضته أخرى، وهكذا لأن الصواب والسداد مرتبط بأحوال وأزمنة

وأمكنة إلى آخر ما تتأثر به العقول وما تتأثر به المذاهب، القرآن الكريم قيس على الفطرة الإنسانية ونيط بها والفطرة لا تتبدل وكذلك ما قيس عليها ونيط بها.

والآية الكريمة اكتفت بنفى العيب يعنى بما نسميه التخلية، لأن نفى هذا العيب يوجب للقرآن إثبات كل فضيلة، لأن التحلية والتخلية تختلف أحوالها باختلاف أحوال الموصوف، فإذا كان الذى بين الدفتين وهو بيان وأمر ونهى، ودين وشرع، ودنيا وآخرة، وجنة ونار، إلى آخر ما فى الكتاب لا يتسلل إليه عِوَج فى شىء أى شىء دل ذلك على أنه خارق للعادة فى مثله، فليس ثَمَّة كتاب على الأرض يزاحمه فى هذا أو يقاربه.

والقارئ المدقق فى فهم ما يقرأ يجد أن نفى العوج عن الكتاب لم يأت بهذه الصورة التى أتحدث بها، يعنى لم يقل الحق ليس فى الكتاب عوج، وإنما قال فى سورة الكهف ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا**﴾ [الكهف: ١] تأمل ﴿**وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا**﴾وهى غير ليس فيه عوج لأن المعنى فى الآية ليس المقصود به نفى العوج عنه وإنما المقصود أن العوج لن يجد سبيلا إليه، وهذا هو معنى كلمة ﴿**وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا**﴾وفرق كبير بين أن تقول لا عوج فيه وأن تقول ليس للعوج سبيل إليه، لأن هذا ليس إثبات الاستقامة وإنما ضمان باستمرارها، وكذلك الآية التى معنا ﴿**غَيْرَ ذِي عِوَجٍ**﴾ لأن المعنى أن الشأن فيه أنه لا يصحبه العوج، وكلمة ﴿**ذِي**﴾ بمعنى صاحب فهو مغاير للعوج ومضاد له ومنافٍ له فلا يصحبه العوج، وهذا كما تقول فلان غير ذى مروءة، يعنى هو مغاير لأصحاب المروءة وما دام مغايرا لهم فلن تجد له مروءة، وهذا معنى آخر، ووازن بين المعنيين فى الكهف والزمر، تجد الكهف تقول إنه لم يجعل له عوجا فنفت جعل العوج له وهذا تأكيد لنفى العوج كما تقول لا يهتدى بمنارة، تريد تأكيد نفى المنار فنفيت الذى يكون لو كان المنار وهو الاهتداء وهذا نفى للمنار بدليله، وكذلك هنا نفيت الذى يكون

لو كان لكان العـوج وهو الجعل فصـار القرآن العظيم مصـونا من العوج من جهتين جهة هى أنه لم يجعل له عوجا وجهة هى أنه من غير أصحاب العوج كمـا فى الزمر وهذا من حفظ الله له ولم يوصف القـرآن بنفى العوج إلا فى هذين الموضـعين، وقد كـان كما قـال ربنا جل وتقـدس؛ ومضى ما مـضى وتَقَلَّبَتْ الأيامُ والأحوالُ والأجـيالُ والأمكنةُ والأزمنةُ والحضـارات ولم يتسلل إليه من العوج شىء أى شىء.

وجملة ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يقال فى لعلَّ هنا ما قيل فى أختها وهى أنها قياس على ما يـكون من الناس والله سبـحانه ليس كـمثله شىء وإنما يقـارب خلقه ويلاطفهم، ويخاطبهم بما يتخاطبون بـه ويرجو لهم كما يرجون وليس كمثله شىء وهو سبـحانـه فى كل ذلك يدعوهم إلى الحسنى ويأخذ بحـجزهم حتى لا يقعـوا فى النار، ويكرر كلمـة الرجاء مـرة ليتذكـروا ومرة ليـتقـوا. وقال علماؤنا إن الـتذكر سـبق فى الذكر لأنه يسـبق فى الواقع لأن التذكـر والتدبر واليقظة وحضور الوعى هو الذى يفضـى إلى التقوى وهذا كلام جليل وكأنهم لحظوا رحمهم اللـه وألحقنا بهم كرامة نفس وقرة عين أن الـقرآن يَعْنى القراءة والتلاوة ونفى العـوج عنه وهو الإعجاز، قدّم التذكـر الذى هو الإيقاظ، وأن القراءة التى يستشعر فيها القارئ أن ما يدور به لسانه وما تسمعه أذناه وما يقع فى قلبـه من معانيـه هو كلام الله الخـالق البارئ المصـور سبحـانه، هذا هو الطريق إلى المخافة ورقّة القلب والاجتهاد فى صيانة النفس؛ والجد فى الوقاية من عذاب الله، وهذا هو الموقع الطبيعى للتقوى وأنها بفعل التذكر.

قوله سبـحانه: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

هذا مثل من الأمـثال التى ضربها الله للناس فى القـرآن، وهو من أسراها وأعلاها لأنك لو رتبت أمثال القرآن من جـهة الغرض منها فلن تجد أعلى من

الأمثال التى تؤكد التوحيد وتنفى الشرك لأن هذا هو الذى من أجله خلق الله الإنسان؛ ومن أجله خلق السموات والأرض، وسخر الوجود كله لهذا الإنسان وجعله مركز الدائرة فى هذا الوجود الأعظم المهيب.

وهذه الأمثال عالية فى كشفها للحق والباطل، واستقامة التوحيد؛ وأنه الفطرة واضطراب الشرك وأنه مِحْنَةُ الفطرة.

وقوله سبحانه: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً﴾ أول ما فيه أنك ترى إسناد ضرب المثل إلى لفظ الجلالة الذى يستحضر كل جلال وكل كمال وينفى كل نقص فتدرك من أول وهلة أن المثل الذى أنت مقبل عليه موصوف بكل كمال ومنزه عن كل نقص؛ لأن كل كلام هو أشبه بقائله، وهو صورة منه ولما سئل عليه السلام عن الفرق بين كلام الله وكلام الناس. قال هو الفرق بين الله والناس، والمثل معناه الحال والشأن والصفة، والتنكير فى كلمة «مثل» يفيد التعظيم وقد تكررت هذه الكلمة، وجاءت فى عجز المثل كما جاءت فى صدره ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾ وقد فسّر المثل فى الأول بقوله تعالى: ﴿رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ إلى آخره، وبعد بيانه جاء المثل الثانى تمييزا وزيادة بيان، وكأن الكلمة لقيتنا أولا، وهى مبُهمة ثم لقيتنا ثانيا وهى تؤكد بيانها وتميز المراد بها، والشركاء المتشاكسون هم المختلفون اختلافا فيه تنازع وفيه غضب ومُشَاكَسَة، والرجل المشاكس هو المنازع منازعة فَيها سوء خلق، وقد وقف المفسرون عند هذا الرجل المملوك الذى تمتلكه هذه المجموعة المتشاكسة سيئة الأخلاق، وذكروا أنه يكلف من كل منهم بما لا يتحمله، وقد يكلف بأشياء متناقضة، ويجد فى ذلك حيرة، وعنتا، ثم إنه إذا أراد شيئًا من أحدهم أحاله على الآخر، فهو مُثْقَلٌ بالتكاليف، ومحروم من قضاء مآربه، وهذا مثال للذى اتخذ من دون الله أولياء، لأن هؤلاء الأولياء لا يمكن أن يكونوا على وجه واحد، ولابد أن يعلو بعضهم على بعض، ولو وُجِدُوا فى السموات والأرض لفسدتا كما قال سبحانه: ﴿وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١] ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ

﴿اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] فبقاء هذا الوجود على الحالة التى هو عليها من الضبط والحكمة؛ والشمس تجرى لمستقر لها، والقمر قدرناه منازل، والليل يغشى النهار يطلبه حثيثا وَجَعْلُ والأرض مهادا والجبال أوتادا ويمسك الله بيده السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا فلن يمسكهما أحد بعده إلى آخره، هذا كون لا يصلح أن يكون فيه شركاء متشاكسون، والرجل هنا مثل لهذا، والمقابل هو رجل «سلمًا لرجل» أى خالصا له، لا ينازعه أحد فيه، ليس له إلا إله واحد، والفرق بين الرجلين فرق ظاهر جدا، والمثل مُوَجَّه إلى أن الوحدانية فى هذا الوجود هى صمَّام أمانه، واستقراره، واستقامته، وأن التَّعَدُّد لا نتيجة له إلا نتيجة واحدة وهى فساد هذا الوجود،وذهاب كل إله بما خلق، كما صورت عقائد الوثنية القديمة ووصفت حروب الآلهة، والغريب أن وثنية العرب الأميين كانت وثنية تُقِرُّ بأن الله خالق السموات والأرض، وأن خَلْقَهُ لَهُ فهو مالك السموات السبع، والأرض ومن فيهن، وهو الذى يجير ولا يجار عليه، وهذا غير حروب الآلهة التى كانت فى غير العرب، ولما تذكرت واستيقظت وغسلت قلوبها من هذه العلائق صارت ولازالت أمة التوحيد فى هذا الوجود.

وكلمة ﴿مُتَشَاكِسُونَ﴾ لم ترد فى القرآن إلا فى هذه الآية لتظل وحدها دالة على فساد الشركاء فى السورة التى قامت على إخلاص العبادة لله رب العالمين، وترى ريح هذا الإخلاص فى كلمة ﴿سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ يعنى خالصا له، والسلم فيه السلامة والمسالمة، وقد انتهى المثل عند قوله تعالى: ﴿سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ والذى بعده تعقيب؛ وقد جاء التعقيب بثلاث جمل، الأولى: رجوع إلى المثل وتدبره للإجابة عن تساؤل يقول: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾ هل يستوى المثلان أو هل يستوى الرجلان أو هل يستوى الوجودان، وجود فيه شركاء متشاكسون ووجود ليس له إلا واحد أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، والاستفهام استفهام ينكر المساواة بين هاتين الحالتين الظاهرتين ظهورا لا يلتبس، وحين نقرأ فى القرآن هل يستويان أو هل يستوون

ننظر فنجد أن السؤال سؤال إنكار لأمر ظاهر جدا لا ينكره إلا من ينكر اختلاف الليل والنهار، وجملة ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ لم ترد فى الكتاب العزيز إلا فى هذه الآية؛ وفى آية أخرى هى قوله سبحانه فى سورة هود ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَىٰ وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤]، والفريقان هما ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [هود: ٢١] ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [هود: ٢٣] ولو راجعت قليلا وجدت الذين خسروا أنفسهم هم الرجل الذى فيه شركاء متشاكسون والذين أخبتوا إلى ربهم هم الرجل الذى هو سلم لرجل.

وجملة الاستفهام الإنكارى جملة منصفة لأنها لم تقل لا يستويان وإنما سألت الضال والمهتدى والذى فيه شركاء متشاكسون والذى هو سلم لرجل وبتوددٍ شديد، ولطف ومقاربة، وحكمة بالغة فى الدعوة قالت بعدما بينت وأضاءت هل يستويان مثلا؟ ثم تركت الموقف ولم تنتظر الجواب وجاءت الجملة الثانية ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وقعت فى نسق الكلام موقع الجواب وأشارت إلى أنك أيها المسؤول ليس أمامك إلا أن تقول الحمد لله الذى أضاء لنا الطريق وضرب لنا المثل، وكشف لنا شقاء الشركاء المتشاكسين؛ وهم الذين يتخذون من دون الله أولياء، وسعادةِ الموحدين الذين أسلموا أنفسهم وأخلصوها لله رب العالمين، كلمة الحمد هنا إعلان ظاهر على أن الأمر ظاهر وأن الحق أبلج، وأن الباطل لجلج، ثم فى موقع هذه الجملة إشارة أخرى وهى أن أهل الفطرة المستقيمة إذا انكشف لهم الحق نطقوا بالحمد ولو كان فى مسألة إعرابية أو فقهية أو ما شئت كلٌّ ما يتجلى به صواب جزاؤه الثناء والحمد، وأعظم ما ينكشف للقلب ويدخل اليقين هو رؤية الواحد الأحد، ماثلةً ظاهرةً فى الصور التى لا يجهلها جاهل ولا ينكرها منكر، والحمد والثناء فى لحظات تجليات الحق شأن الذى هو سلم لرجل، وجاءت الجملة الثانية ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ

﴿لا يَعْلَمُونَ﴾ لتبين أن الأكثر عددا والأكثر صخبًا هم الذين فيهم شركاء متشاكسون وهم فى حَيْرة، يرضونها ويستعذبونها ولا يرضون بها بدلا، وكلمة ﴿بَل﴾ معناها الإضراب الانتقالى من ذكر المثل الظاهر الساطع الذى وقع فى قلوب عافاها الله من الحسد والكبرياء فسارعت إلى الحمد والثناء إلى ذكر جماعة اللجاجة التى آثرت أن تكون فى قبضة التنازع والاختلاف والتشاكس، وأنهم كثرة، وأنهم فقدوا أهلية أن يعلموا، لأن فعل يعلمون فعل متعد نزل منزلة اللازم ومعنى نزوله منزلة اللازم أنه يتوفر على بيان وقوع الفعل من الفاعل، وأن وقوع هذا الفعل من الفاعل منفى عن هذه الكثرة.

ولا تقل إن أهل الضلالة من حولنا منهم العلماء المكتشفون والأطباء المتفوقون وهم رؤوس الناس فى كل أبواب العلم التى تتقدم وتتطور بها حياة الأمم فكيف يكون المراد نفى الأهلية لأن يعلموا؟ أقول لا تقل هذا أولا لأن الكتاب العزيز لاينطق إلا بالصدق المحض والحق المحض وأنه لا يأتيه عوج من أى جهة من جهاته لأن هؤلاء الذين تذكرهم هم فى أبواب العلوم كما تقول؛ ولكنهم فى الأمور المتعلقة بالعقائد والنظر فى آيات الله ودلائل الوحدانية ودلائل النبوة والباب الذى نحن فيه وهو باب الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وأن محمدا صلوات الله وسلامه عليه نبى الله ورسوله وأنه نبى الرحمة، وخاتم الأنبياء، والمرسلين، هم فى هذا الباب كما وصفهم ربنا وأنهم لا يكون منهم العلم، لأنهم يكرهون هذا الباب، ومن حولى ناس قراء من الدرجة الأولى، ولهم ثقافة عالية ولغة عالية، ومواهب عالية، ولكنهم يكرهون ما أنزل الله، ولا تَبْرَعُ أقلامهم فى باب كما تَبْرَعُ فى حرب الدين ومحاصرة الدين، وأنه يجب أن يكون فى بيتك وأنت وشأنك معه، ولا يجوز أن يخرج من عتبة دارك لأن الشارع ليس للدين فيه موضع قدم إلى آخر ما تقرأ وتتابع وأقول فى نفسى لو أن هؤلاء قرؤوا القرآن لتغيروا.

هذه الآية الكريمة لها أخوات كثيرات فى الكتاب العزيز ولهن صور متنوعة

ومذاقـات متنوعة وأقرب أخـواتها إليهـا ما جاء فى سـورة النحل من قوله جل شأنه. ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٥]، وقد قلت إنها أشبه أخواتها بها لأن الذى جاء بعد المثل هو هو فى الآيتين: ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ والفـرق هو أن النحل جمـعت ﴿يَسْتَوُونَ﴾ والزمر ثنّت ﴿يَسْتَوِيَانِ﴾ ولا أعرف السر، وإن كانت التثنية هى الأصل لأن المثل مكون من رجلين أحدهما فيه شركـاء متشاكسون والثانى سلم لرجل واحد، وكـأن السؤال يَرِدُ على النحل ولا يرد على الزمـر، وهناك لمحة فى النحل ربما هيأت للجمع هى أن الزمر قالت رجلا فـيه شركاء ورجلا سلما لرجل، فذكـرت مفردين فى اللفظ والمعـنى، والنحل قالت عبـدا مملوكا ومن رزقناه فوضعت من الموصولة مكان المفرد المقابل للعبد المملوك، ومن هذه تأتى فى الكتاب العـزيز فى مواضع كثيـرة جدا ويراعى لفظها فـيفرد معـها الكلام ويراعى معناها فيجمع، وقد مـرت آيات كثيرة من هذا وربما كانت هذه واحدة منها، ثم إن آية الـنحل كانت امتـدادا ظاهرا للحديث عن الذين يعـبدون من دون الله مـا لا يملك لهم رزقـا من السـموات والأرض، ثم قـال الحق ﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ [النحل: ٧٤، ٧٥] فتهيأ الكلام بذلك لقوله جل وتقدس ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾.

ومن المفيد أن أبين الفرق بين المثلين وهو ظاهر لمن يراجع لأن مثل الزمر أكد على معنى تعدد الآلهة وأنهم شركاء متشاكسون والثانى سلم لرجل واحد، وآية النحل أكدت على معنى العجـز وقلة الحيلة وأنه مملوك لا يملك وهو وما ملكت يداه لسيـده، وفى المقابل ذكر الذى رزق رزقـا حسنا فتـلقّت هذا الرزق الحسنَ نفسٌ طيبة تُمْطِر الخـير، فأنْفَقَت واتسعت نفـقتها، وصارت هذه النفـقة سرا وجهـرا، وأنه من الصنف الكريم الذى يُعطَى فـيعْطِى ويُكرَم فيـكرِم، يفيض

الله عليه فيفيض هو على خلق ربه، وهذا نموذج مضاد للعبد المملوك الفاقد القدرة على شىء، وراجع كلمة ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ هنا وقابله بـ ﴿رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ تجد أن الاثنين من طبقة المملوكين العبيد؛ ولكن آية الزمر قالت رجلا فيه شركاء وآية النحل قالت عبدا مملوكا، والمنطق مختلف لأن آية الزمر كما قلت تؤكد على معنى مشاكسة الشركاء؛ وأنه كانت تنزل به اللأواء من هذا التشاكس فلم تَنُصّ على أنه عَبْدٌ وإنما قالت رجل وهى جامعة للحر والعبد، للإشعار بأن ما يُصِيبُه كان يشق عليه من حيث هو رجل بخلاف لو قالت عبدا مكان ﴿رَّجُلاً﴾ لأن تحمل العبد للصعوبات من الأمور المألوفة، ثم إن آية النحل قالت: ﴿مَّمْلُوكًا﴾وكلمة عبد تغنى عنها وإنما قصد الكلام إلى إظهار هذه المعانى، وأن المملوك لا يملك، ثم قالت لا يقدز على شىء، وهذا زيادة فى تأكيد هذا المعنى الذى قوبل بفيض من الرزق الحسن بفيض عليه من الحق جل وتقدس ﴿وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٧٥] وتأمل كلمة رزقناه بدل أعطيناه مثلا ثم تكرار كلمة الرزق ثم وصفه بالحسن ثم تأكيد أنه ينفق بصيغة (فهو ينفق) ثم الجار والمجرور (منه) ومعلوم أنه لا ينفق إلا منه، وكل ذلك يفسره لك قوله سبحانه فى الآية السابقة ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل: ٧٣] وتأمل ﴿مَا لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا﴾ وضعها بإزاء ﴿مَّمْلُوكًا﴾ وتأمل ﴿وَلا يَسْتَطِيعُونَ﴾ وضعها بإزاء ﴿لاَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ ثم تأمل كلمة ﴿لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا﴾، وضعها بإزاء ﴿وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ ثم تدبر كيف يتلاءم الكلام وكيف يتشارب وكيف يتطاعم وكيف كان مثل النحل امتدادا لنسيج النحل وقل سبحان من هذا كلامه أو قل أشهد أن هذا كلام الله.

بقى شىء هو أن المثلين اللذين ذكرتُهما جاءت آيه هل يستويان، تعقيبا على المثل يعنى ذكرت الآية المثلين وأبانت عن الفوارق التى بينهما، وأنهما

لا يستويان، ثم جاء التساءل أو السؤال الإنكارى هذا طريق، وهنا أمثال تبدأ بهذا التساؤل كما فى قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ [الرعد: ١٦] وأختها فى سورة الأنعام ﴿قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠] والكلامان من باب واحد أحدهما أُخِّر فيه الإنكار بعد البيان والثانى قدم فيه الإنكار على البيان وهذا أدل على الغضب؛ والمذاقان مختلفان فرق بين أن تقول فعل فلان كذا وكذا من أبواب الخير فهل يصح أن يواجه بما يكره؟ وأن تقول هل يصح أن يواجه بما يكره وقد فعل كذا وكذا؟ هيأة الكلام ونَصْبَتُهُ مختلفة؛ الأولى تبين أسباب الإنكار ثم تُنكِر؛ والثانية تُنْكِرُ وتبادر بالإنكار، ثم تبين أسبابه.

وقد جاءت هذه الأمثال فى صورة الإنكار بلفظ الإنكار وليس بطريق الاستفهام وإنما قرّر الكلام الحقيقة من غير لفت ولا إثارة كما فى قوله تعالى فى سورة فاطر: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ⦗١٩⦘ وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ ⦗٢٠⦘ وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ ⦗٢١⦘ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ١٩- ٢٢]، ومعرفة السياق الذى يقتضى هذه الأحوال من أمتع وأنبل وأنفس ما يُعلم من أسرار البيان، وهذا مسكوت عنه مع أنه جزء من تعريف البلاغة لأنه كله من معرفة مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وقد وقفنا فى فقه هذا التعريف العريق والرائع عند مثل قولنا قام زيد لغير المنكر وإن زيداً قائم للشاك وإن زيداً لقائم للمنكر، وهذا جيد جدا والوقوف عنده ردىء جدا وهذا حسبى.

قوله سبحانه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ⦗٣٠⦘ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠، ٣١] راجع ما قبل الآية لتحكم معرفة موقعها فى سياقها لأن هذا من أول ما يجب أن يفهم فى تحليل أسرار البيان، وما قَبْل

الآية حديث عن رجلين أحدهما فيه شركاء متشاكسون وهو مثل لمن عبدوا من دون الله قـربانا آلهـة، والثـانى رجل سلـم لرجل، وهو مـثل لقـوله تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ والمثلان يمثلان طرفى السورة التى أصلها إخلاص العبادة لله، وطرفها المقـابل من اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، وحوار السورة من أولها قائم على هذين؛ فهذا قانت آناء الليل ساجـدا وقائما، وهذا يتـقى بوجهه سوء العـذاب، وهذا شرح الله صدره فهو على نور من ربه، وهذا قَسَى قلبـه عن ذكر الله، وهذا فيه شركاء متشـاكسون، وهذا سَلَم لرجل، والذى قبل الآية من الفـصل الذى يدور فيه الكلام قولـه تعالى: ﴿نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ وطال الكلام فهـؤلاء تقشـعر جلودهم منه، وهؤلاء ضَلُّوا ولجُّـوا ولم نرهم إلا وهم فى النار يتَـقُون سـوء العذاب بوجوهم إلى آخره.

وتأتى هذه الآية لتـحـسم كل هذا النقاش، وكـل هذه الأمثـال وكل هذه الأدلّة، وتضع الكل أمام حـقيقـة لا يستطيع أحدٌ أن يُجـادل فيهـا، وإن كان الكل يروغ منها لأنـها مخيـفة، ومُفْـزعة، ومزلزلـة أيضا، وحين تلوح هذه الحقيقـة أمام العيون يهتز كل شىء، ويحتـاج الإنسان إلى أن يعيد تنظيم كل شىء، لأنها حـقيقة تجـتاح كل شىء، وتَجْتَـالُ كل شىء، هذه الحقيـقة التى أزاحت كل مـا فى السيـاق ووقفت وحـدها، وقطعت الكلام قبلهـا، قَطَعَتْ ضرب الأمثـال التى هى أحسن الأمثال وأبينها؛ والآية الـكريمة تَقْصدُ إلى كل الذى قُلْتُه وتقـصد إلى أكثـر منه، ودلّتْ على ذلك بإشارة شـديدة الإيجاز، وهى قوله تـعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ ولم يقل إنك ستـموت وإنهم سيـموتون، وإنمـا قالت إنك مـيت يعنى أنت الآن ميِّت وأنا أخـاطبك وأنت ميت وهم ميتون، وأن ثيابكم التى عليكم هى أكفانكم، ولكنكم عنها عمون، ربُّنا سبحانه وتعالى يخـاطبنا فى الآية، ويقول لنا أيها الـمَوْتَى؛ لا يجوز لكم أن تتجاهلوا أنكم مَوْتَى فمن كان يُغْرِيه جاه باللجاجة فى الحق فليعلم أنه الآن

ميت، وأن هذا الجاه قد ذهب عنه، ومن يُطغيه المال وحب الدنيا وحب الاستعلاء، وحب السيطرة، وحب السلطان فليعلم أن كل هذا قد ذهب عنه، لأنه الآن مَيِّت فواجهوا الحق البَيِّن بما يجب أن تواجهوه به. هذا أبلغ منطق، الآية تقول لمن يقتلون شعوبهم ليظلوا حكاما أنتم موتى تقتلون موتى.

مجىء هذه الآية التى تسقط من أيدينا كل شىء لأنها اعْتَبَرتْ أن ما كان للوقوع كالواقع، وأن الموت الذى نَفِرٌ منه لن يلاقينا وإنما لاقانا، وها نحن الآن موتى، أقول مجىء هذه الآية بعد سطوع الحق فى الكتاب الذى أنزل والأمثال التى ضُربت يدل دلالة قاطعة على أنه لا يَحُول بينكم وبين الإذعان، والإقرار، والانقياد إلا أباطيل كلها مرتبطة بالحياة الدنيا، تلك التى اشتريتموها وآثرتموها على الآخرة؛ والآن تخلع الآية عنا ثياب الدنيا، وتضع الأكفان على أكتافنا التى نهزها وننظر إلى أعطافنا، وجاهنا، وثرواتنا، وقدرتنا على الاستبداد والقمع والتعذيب، والقتل والغطرسة، حتى إننا لم نكتف بفرض أنفسنا على الشعوب مع حظنا الموفور من الغباء والجهالة، وإنما نُوَرِّثُ هذه الشعوب لأبنائنا، وكأنها بَقِيَّة من تركت المرحوم الذى لم يكن له تفوق فى شىء إلا القتل والسلب والنهب، وهم فى الحقيقة عصابة من صلب رئيس عصابة، الآية تواجه كل ذلك وتنادينا ونحن فى البرزخ، وتقول لنا أيها الموتى اعلموا أنكم ستختصمون إلى ربكم يوم القيامة. لعلنا نسمع.

وبدأت الآية بالمختار صلوات الله وسلامه عليه، وليس أحَبَّ إلى الله منه، وإنما كتب الموت على كل من خلق، وبرأ سبحانه، وأكد الخبر مع أن خبره جل شأنه لا يحتاج إلى توكيد، وإنما أرادت الآية الدلالة على أهمية هذه الحقيقة، وهى أن تعتبر نفسك وأنت على ظهرها أنك دخلت فى بطنها، وأن تعتبر نفسك وأنت حَىٌّ تتقلب فيها أنك قد سكَنْتَ وفَارَقْت ونَفَضْتَ يدك من كل شىء، ويلاحظ أن هذا لا يَصْرِفُك عن الدنيا لأن هذا ليس مرادا، لأنها هى الوحيدة التى تعمل فيها ما يُقَرِّبُك إلى الله، وإنما المراد أن تأخذ طريق

الخير بدل الشر، والعدل بدل الظلم، والرحمة بدل القسوة، والإيمان بدل الكفر، وأن تَتْبع الحق، وتولى وجهك شطره، وأن تنفض يدك من الباطل، وتصرف نفسك عنه، وهذا هو الهادى إلى الطريق المستقيم، وكلمة «ميِّت» صفة مشبهة وهى دالة على الثبوت والدوام، وجملة «وإنهم ميتون» أعيد فيها التوكيد لأنها أصل فى المعنى المراد، لأنه عليه السلام يعمل لآخرته كأنه يموت غدا، وهؤلاء يعملون لدنياهم كأنهم لا يموتون أبدا، والسياق يرجِّح أن المراد بضمير الغيبة هم المناوئون لدين الله والذين يتخذون من دونه أولياء يعبدونهم ليقربوهم إلى الله زلفى، والذين فيهم شركاء متشاكسون، ولكن لفظ الآية مطلق لأنه سبحانه قال ﴿وَإِنَّهُم﴾ وهذا صالح لأن يشمل من آمن ومن كفر لأن الذى سيأتى بعده ليس خاصا بمن آمن ولا بمن كفر وإنما هو الرجوع إلى الله، وأنه يَقْضِى بين المتخاصمين، وفَسَّر بعض علمائنا الضمير بالرجوع إلى المعاندين وهذا ما يرجحه السِّياق، وذكروا أن البعض حمله على العموم، وأن هذا الحمل على العموم هو فهم أصحاب رسول الله ﷺ، فقد كانوا يحيلُونَ ما عساه يكون بينهم من خلافات على قضاء الله بينهم يوم القيامة، وقد ذكر الزمخشرى أخبارا كثيرة فى هذا، منها قول عبد الله بن عمر: لقد عشنا برهة من الدهر ونحن نرى أن هذه الآية نزلت فينا؛ قلنا كيف نختصم ونبيُّنا واحد، وديننا واحد، وكتابنا واحد، حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف فعرفت أنها نزلت فينا، وقال أبو سعيد الخدرى: كنا نقول ربنا واحد ونبينا واحد، وديننا واحد، فما هذه الخصومة؟ فلما كان يوم صِفين وشَدَّ بعضنا على بعض بالسيوف، قلنا نعم هو هذا؟

والزمخشرى الذى روى هذا يرجِّح أنها خاصة بالمعاندين، ولا يدخل فيها أهل الإسلام ويرى هذا هو الوجه الذى يدل عليه الكلام، وإنما أراد السياق ويرى أن الخصومة بينه ﷺ وبين من عارضوه، وأنه عليه السلام يحتج عليهم بأنه بلّغ فكذبوه فاجتهد فى الدعوة فلجوا فى العناد، وأنهم احتجوا بما

لا طائل تحته كقول الأتباع أطَعْنَا سَادَتَنا وكبراءنا، وقول السادات أغوتنا الشياطين، والوجه ما فهمه أصحاب رسول الله ﷺ.

وجملة ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ مرتبة على الجملة السابقة وهى التى فيها المعنى الذى يراد بلاغه، لأن الإخبار بالموت إخبار بما هو معلوم علم ضرورة، وإنما الذى فى الجملة السابقة هو اعتبارنا موتى وكأننا نمشى على الأرض ونحن رميم، وهذا هو الجانب الصادم فى الجملة الأولى، والموجب استرخاء القبضة على هذه الدنيا، وأنها لا يجوز فى عقل عاقل أن تكفنا عن حق رأيناه رأى عين.

وأول ما يواجه السامع هو كلمة «ثم» المؤذنة فى سياق هول الموت الذى نزل بالمخاطبين، والذى جعلهم يرون أبواب القبور مُفَتَّحة لهم، أقول هذا الحرف مؤذن بأن الذى سيأتى بعد «ثم» أهول فى الباب من الذى سبقها، وذلك لأن مصيبة الموت أم المصائب، ومصيبة الوقوف بين يدى الله ليقتصُّ من الظالم أهول لأن الموت تدمير للحياة، وهذه مصيبة والحساب فتح أبواب الجحيم لمن تجاوز حدود الله، وهذه ألْعَن، وقد أشار القرآن إلى أن للموت مصيبة اسمها مصيبة الموت ﴿فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ [المائدة: ١٠٦] وهى هيِّنة جدا مع هولها أمام مصيبة الحساب لمن غفل، وهذا هو معنى «ثم»، وقوله تعالى ﴿إِنَّكُمْ﴾ خطاب شامل للذى خوطب صلوات الله وسلامه عليه، ومن كانوا غائبين فى قوله تعالى ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ وقد ذكر علماؤنا أنه من باب التغليب يعنى غُلِّب فيه المخاطب على الغائب، وهذا صحيح ولكن يَبْقى ماذا أفاده هذا التغليب؟

وربما كان هذا التغليب لإيجاد شيء من الإثارة، واليقظة، لأنه لا يخلو من معنى من معانى الالتفات الذى هو لفت وتنبيه، ثم إن انتقال الكلام من الغائب إلى المخاطب مُشْعر بمزيد أهمية بهذا القسم من المعنى، وأن المتكلم جَلَّ وتقدّس لا يحدِّث عنه أحد فى هذا الشأن وإنما يحدثك هو سبحانه عنه، ويملأ به سمعك وأن تتلقَّاه من الحق جل شأنه ولا تتلقاه عنه بواسطة الغير،

وقوله جل شأنه ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ظرف قدم عن موضعه لأن الموضع للخبر والأصل ثم إنكم تختصمون يوم القيامة عند ربكم وبين يديه، وقدم لأنه هو موضع العناية وموضع الإنكار ممن ينكرون البعث، وإن كان الذين اتخذوا من دونه أولياء الذين يمثلهم الرجل الذى فيه شركاء يؤمنون بالبعث لأنهم يعبدون الشركاء ليقربوهم إلى الله زلفى، ويتخذونهم قربانا، وذكر اليوم بيوم القيامة مع أن له أسماء كثيرة كيوم الفصل، ويوم التناد، لأن المقام مقام شرك ويوم القيامة هو اليوم الذى يقوم فيه الناس لرب العالمين وهو الواحد الأحد وهو الذى ينادى فيه ويقال «لمن الملك اليوم» لله الواحد القهار.

وكلمة ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾ ظرف آخر، وليس المراد العندية المكانية لأن الله سبحانه مُنزّه عن ذلك، وإيثار كلمة «ربكم» للإشارة إلى أنه سبحانه الذى ربّاهم وحفظهم ومنّ عليهم بالنعم، وأنهم وهم يختصمون عنده سيكونون سواء لا يزيد أحد منهم على ذنبه حبة خردل، وكلمة (تختصمون) بنيت على الافتعال من خاصم وهو دال على الاحتشاد وجمع النفس فى المدافعة عن النفس.

والكلام من أول قوله تعالى إنك ميت بداية فصل جديد بعد الانتهاء من الفصل السابق الذى كان حديثا عن الكتاب الذى ضرب الله فيه للناس من كل مثل وهذا الفصل ممتد إلى قوله ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [الزمر: ٤٠]، ثم يبدأ فصل جديد عند قوله سبحانه ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ [الزمر: ٤١].

ومن الواجب أن نحاول بيان وجوه ترتيب معانى الفصول لأن وجوه الترتيب هذه من جوهر أسرار البيان، ولذلك وجب محاولة التغلغل فيها وكل يبلغ طاقته.

والذى أراه أن فصل ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ بلغ الغاية فى بيان الأدلة الساطعة على التوحيد، وفساد الشرك، وهذا الفصل يبين أن الذين لم ينقادوا لهذه الأدلة الساطعة لم يمنعهم من الانقياد نقص الدليل، وإنما منعهم أنهم

عاضُّون على هذه الدنيا؛ وأنهم متشبثون فيها، ومتشبثون بها، وكأنهم لن يموتوا، وكأنهم خلقوا للخلود فيها، فبدأ هذا الفصل بالصدمة التى بيَّنَّاها، ثم تسلسل الكلام فيه لبيان أحوال ما بعد الموت، وأن أبشع ما يصادفه من مات هو الكذب على الله بدعوى الشفعاء، والآلهة القربان وتكذيب من ظاهرتهم الأدلة، وسَيَظْهر هذا من خلال تحليل آيات هذا الفصل.

قوله تعالى ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٣٢].

هذه الفاء ترتب ما بعدها وهو بيان المكذبين فى موقف الاختصام الذى عند ربنا يوم القيامة، والذى بعد الفاء يبدأ باستفهام إنكارى يقول ليس هناك أظلم ممن كذب على الله، وأن الظلم من أبشع ما بشّعه الكتاب العزيز، والظلم شرك عظيم، والظلم ظلمات وحرم الله الظلم على نفسه، ومع هذه البشاعة تجد الكذب على الله وتكذيب الصادق هو أبشع هذا الأبشع، والسياق ظاهر فى أن المراد الكذب على الله فى ادعاء الشركاء أو فى أن لله البنات، أو فى أن له سبحانه ولدا، إلى آخر ضلالاتهم، التى كذبوا فيها على الله، ومنها أيضا مثل قولهم لو شاء الله ما أشركنا، ومثل قولهم لو رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى، هذا هو السياق ولكن لفظ الآية عام يدخل فيه كل الكذب على الله، وأظهر ما فى زماننا من هذا الكذب على الله هو توجيه معانى الكتاب العزيز توجيها قَسْرِياً لتلائم ما نريد أن نخدع الناس فيه ونقول إنه من الدين ونحن نعلم أنه ليس من الدين، وكثير من محاولات ما يسمى الفهم التَّقدُّمِى للإسلام، يدخل فى هذا، وكذلك محاولات التأويل التى تؤول بمعانى الآيات إلى ما يراد لنا أن نكون عليه، والذى يخرج على ما أجمعت عليه الأمة، وقد نبّهت إلى ذلك فى مقدمة القسم الثانى من آل حم وأظهر ما كان من هذا الفهم الكاذب والتأويل الكاذب لآية الحجاب وآية للذكر مثل حظ الأنثيين وغير ذلك مما يكتب فيه الصِّدِّيق والزنديق على حد عبارة الزمخشرى، وآخر ذلك وأنا أكتب الكتاب القول بحرمة الخروج على الحاكم الظالم القاتل اللص.

وقد أكرمنا الله فى أرض الكنانة كرامتين الأولى هى سقوط نظام اللصوص الأغبياء، والكرامة الثانية هى أن الله سبحانه لم يسقط هذه العصابة إلا لما أرانا سبحانه عصابة المتنورين والمثقفين والمناضلين والنهضويين إلى آخر الألقاب الكاذبة، أرانا الله سبحانه هؤلاء وهم خدم لعصابة اللصوص الأغبياء وأن عصابة اللصوص الأغبياء ملَّكتهم مجلات الثقافة ومجالس الثقافة، وكانوا خدما تحت أقدام العصابة، وهم مناضلون أيضا ثم هم الآن أيضًا مناضلون، ورحم الله الدكتور مصطفى هدّارة الذى فجّر هذه القضية من بداية تاريخ ولاية عصابة الأغبياء لما رأى النظام الغبى الفاشل يصدِّر عصابة المناضلين الكذبة ويضع فى أيديهم منابر التثقيف والتنوير، والذى أريد أن أنتهى إليه أن الكذب على الله سلسلة مستمرة ولم تنته عند الذين قالوا لنا الذكر وله الأنثى، وأن هذا الكذب على الله له فى كل زمن صورة وهو سريع التطور.

والشق الثانى من أظلم الظلم هو ﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ والسياق يوجه هذا إلى الذين كذبوا بِنُبوة محمد صلوات الله وسلامه عليه وقد نزّل الله عليه حديثا هو أحسن الحديث، وأيده بما لا يدخل فيه ريب، وبما اقشعرت منه جلود الذين لم يكذبوا بالصدق، ويلاحظ أن الآية الكريمة قرنت الكذب بالتكذيب ودلت على أن الكاذب يكذّب وهذا شأنه، وحين تراجع جملة (وكذّب بالصدق) تجدها أوسع فى دلالتها من تكذيب النبوة لأن كلمة (الصدق) تعنى كل صدق فى الدين، وفى الدنيا، وفى العلم، وفى السياسة، إلى آخره، والتكذيب بالصدق فى هذه الميادين يدخل فى أظلم الظلم، وهذا أسوأ خُلُق، وهو مضاد لحركة الحياة فى كل هذه الميادين، وأهم ما تعانى منه كل مجتمعاتنا هو تشويه الحق والصدق الذى لا يُماشِى توجهات نظم الجهل والتخلف، والتوريث، والطغيان، لأن توريث الشعوب من الطغيان، وإذا ظهر صوت ينادى بتحرير الشعوب ومواجهة فساد النظام، ونَهْب النظام، ونهب خدم النظام، رمى بالحجارة من كل جهة، واتهم بالخيانة، والعمالة إلى

آخر ما تقـرأ، وكل هذا داخل فى عموم كذَّب بالصـدق إذ جاءه، وليس فى القـرآن كذب على الـله ولا كذّب بالصـدق إلا فى هذه الآية، وفى القـرآن ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِـمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ [العنكبوت: ٦٨] وفيه ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾، [الزمر: ٦٠] والفرق بين آيـتى الزمر هو الجمع والإفـراد. ومن لطيف النسق البـيانى أنك ترى الجـملة الأولى مكونة من شـقين ١- كـذب على الله، ٢- كـذبا بالصدق إذ جـاءه، وتجـد الجـمـلة المقـابلة مـكـونة مـن شقين: ١- الذى جاء بالصدق. ٢- وصـدق به، وكل جملة مكونة من اسم موصـول صلته هذان الشقان. وجملة ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ وإن كانت لم تتـكرر بلفظها تكررت لهـا نظائر فى الكتاب العزيـز من ذلك قوله تعالى فى سـورة الأنعام ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ [الأنعام: ٢١] وضع ﴿افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بإزاء ﴿كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ وضع ﴿كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ بإزاء ﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ والافتراء هو الكذب على الله، والتكـذيب بالآيات هو التكذيب بـالصـدق، لأن الآيات صـدق، مع ملاحظة فروق فى المعانى، لأن الصدق مـصدر والآيات صادقة أو صادق من يُبَلِّغُـها، ثم إن إضـافة كلمـة (إذ) الدال على الظرف تفيـد معنى أنـه كذب بالصدق فـور مجىء الصدق، ولم يتـروَّ ولم يتريّث ولم يراجع وهذه مـعان زائدة، ثم إن الفاء التى افتتحت بها آية الزمـر غير الواو التى افتتحت بها آية الأنعام وقـد تكررت آية الأنعام فى الأعـراف، بالفاء بدل الواو ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِـمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَـذِبًا أَوْ كَـذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ [الأعراف: ٣٧] وجـاء شق هذا المعنى فى آية أخـرى فى الأنعام ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِـمَّن كَـذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ [الأنعام : ١٥٧] وصيغة «فـمن أظلم» بالفاء والواو، والتى معناها -ليس هنا أظلم- جـاءت فى الكتـاب العـزيز كثـيـرًا فى الكذب على الله

وتكذيب آياته، أو الإعراض عن آياته سبحانه، وجاءت مرة فى كتمان الشهادة ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٤٠] ومرة فى منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾[البقرة: ١١٤] والحق سبحانه يقول لنا أظلم الظلم أن يُكذِّب أحد بآياتى، أو يفترى علىّ، فيحل شيئًا حرمته أو يحرم شيئًا أحللته بفتاوى ضالة ثم يلحق بهذا كتمان الشهادة؛ ومحاربة أهل الدين، ومنعهم من مساجد الله، أو تحويل المحاريب إلى مَصْيَدَة أَمْنِيَّة يصطاد فيها الأمن أهل الإيمان، ويلَفّق لهم التهم، وأنهم مشروع خلايا إرهابيَّة كما كانت تفعل العصابة التى خلص الله منها البلاد والعباد، وكما هو الحال فى كثير من بلادنا التى تتأهب شعوبها ولما تتحرك بعد «وكأن قَد»، ولا تنكر علىّ هذا لأن الله لم ينزل كتابه إلا لتكريم الإنسان، والصمت على الذل والسلب والنهب والبطش فى أى بلد ينادى فيها بالشهادتين أخاف أن يكون من كتمان الشهادة.

وجملة ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ يأتى بعدها جملة فيها من صور العذاب ما يفزع كقوله تعالى هنا ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ وكقوله تعالى فى سورة الأنعام ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وجملة **«ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت»** تشير إلى عقاب هؤلاء وأنهم ظالمون كما قال ومن أظلم، وأنهم يقولون على الله غير الحق كما قال **«افترى على الله كذبًا، وقال أوحىَ إلىّ ولم يوح إليه شىء»**، وهذه صورة له وهو فى غمرات الموت، والذى معنا فى الزمر صورة جهنم وأنها مثواه وآية الزمر جاءت بعد **«إنك ميت وإنهم ميتون»** وهم الآن يختصمون عند ربهم وليس بعد هذا إلا الجحيم،

وآية الأنعام التى جاءت بعد قولهم ما أنزل الله على بشر من شىء وهم أحياء يشاكسون ويكذبون ويعاندون فذكرتهم بغمرات الموت وهى اللحظة التى لا يستطيعون السيطرة على شىء فيها وليس لهم فى مواجهتها إلا العجز المطبق، وجملة ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ وضع فيها الظاهر موضع المضمر وأصل الكلام أليس فى جهنم مثوى لهم، وذكر الكافرين إشارة إلى علة العذاب، والثُّوِىٍّ فى جهنم، وكلمة ﴿جَهَنَّمَ﴾ فيها معنى التجهم والغضب، وكلمة ﴿لِّلْكَافِرِينَ﴾ فيها معنى أنه كذب على الله وهو يعلم أنه يكذب، وكذب بالصدق لحظة مجيئه، وهو يعلم أنه كاذب لأن الكفر ستر للحق بعد بيانه، والاستفهام معناه النفى، وقد دخل على النفى ونفى النفى إثبات، والمعنى فى جهنم مثوى للكافرين، وإنما جاء الكلام على ما جاء عليه ليرجع السامع إلى نفسه ويتدبر صورة جهنم ويتدبر المثوى الذى هو الإقامة ويتدبر الكذب المُفْضى إلى المثوى فى جهنم، ثم يرى رأيه، فإن أبى إلا النار فله ما اختار، ولا يَلُومَنَّ إلا نفسه، واللطيف أن صفة ﴿أَلَيْسَ﴾ ستأتى فى آية قريبة ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦] وكأن الصِّيَغَ تراها أحيانًا تَتَنَادى، ومن فقه هذه الصيغة الذى لا أعلمه هو أننا ما دمنا نريد الإثبات فلماذا ننفى ثم ننفى النفى بحرف الاستفهام؟ وأدع الآية لأناقش المسألة مع البيت المشهور، والعلم فى هذا الأسلوب وهو قول جرير:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ من ركب المطايا وأنْدَى العالمين بُطُونَ راح

أراد أنتم خير من ركب المطايا، وهذا هو أصل المعنى وكان يمكن أن أدخل حرف الاستفهام على الإثبات وأقول هل أنتم خير من ركب المطايا؟ والمراد تحقيق أنتم خير من ركب المطايا كما فى قوله تعالى ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ [الإنسان: ١] ، والمراد تحقيق أتى على الإنسان حين من الدهر، يعنى قد أتى على الإنسان حين من الدهر، ولماذا نفى الشاعر المعنى المُحَقَّق ثم أدخل الاستفهام الإنكارى على النفى، يعنى لماذا أدخل حرف الاستفهام

على صيغة لستم خير من ركب المطايا، وجعل الوصول إلى التحقيق من خلال الانتقـال من نفى إلى نفى يعنى من خلال نفى الـنفى، وبعبارة أخـرى إذا كان نفى النفى إثباتا فلماذا لا تذهب إلى الإثبات مباشرة بدل هاتين المرحلتين؟

وطرائق الدلالة لا تخلو من أشـياء يكتنفـها الغمـوض منها مـثلا أن «لا» النافيـة تزاد فى الكلام لتأكيـد الإثبات، كما فى قـوله تعالى ﴿لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [الحـديد: ٢٩] والمراد ليـعلم أهل الكتـاب و«لا» زائدة لتـأكـيـد الإثبات، ومثلها مـا التى تأتى للنفى تزاد لتأكيد الإثبات كـما فى قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ والمراد أن يضرب مثلا بعوضه فما فوقها وهـذا كثير، والسؤال هو كيف تكون زيادة حرف النفى من مؤكـدات الإثبات؟ والنفى والإثبـات ضدان؟ لم ندرس هذا لأننا فـى الغالب ندرس نظريات فى اللغة والأدب وضـعها غيـرنا لغير لغـتنا، وأهملنا ما تقع عليه عيوننا فى لغتنا، ولو أن عين (فيرث) وقعت على هذا فى العربية وتكلم فيه لجمـعنا جراميزنا وشمـرنا عن أسوقنا لدراسة إشاراته لأن التبعـية لم تعد مـذهبًـا وإنما صارت ولَعًـا وصـارت أيضًـا ضالـة المتنور، وأرى هذا الظلام سينقـشع بعد حركة الشـعوب، والذى أراه فى أسلوب ألستم خـير من ركب المطايا وهو اجـتهـاد مقـتحم لبـاب الاجتهـاد من غيـر أهليةّ- هو أن هـمزة الاستفهـام الداخلة على النفى الأصْلُ فيها الاستفـهام يعنى طلب الجواب من المخاطب، ومـعنى الإنكار فـيها هو مـعنى سيـاقى يعنى تَشَـرَّبته من سـياق الكلام، والأصل فى قول الشاعر ألـستم خير من ركب المطايا هو سؤالهم عن نفى أن يكونوا خـير من ركب المطايا، وليس عن إثبـاته، وهو يعلم أنهم لن يجيبوا إلا بالإثبات، لأن المسؤول الـمُنْصف عن هذا النفى لن يجيب بالنفى، وإنما يجيب بالإثبات، ويكون دخول الاستفهام على النفى مفيداً تأكيد الإثبات من هذه الزاوية، وهى أن المسؤول لن يجد سبيلا للإجابة بالنفى، وهذا يظهر أكثر فى الآية التى معنا ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ وكـأن الحـق يـقول

لـو وجـدتم مـا يصحح القول بأنها ليست مثوى للكافرين فأجيبوا بهذا، ولن تجدوا، وكذلك قوله تعالى ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ لو وجدتَ أيها المسؤول ما يُرَجّح لديك أنه سبحانه وتعـالى ليس بكاف عبده فلا عليك أن تقول ليس بكاف عبده، وإن كنت لن تجـد لذلك سبيلا، ومـثله قوله جل شأنه ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] لو وجدتم سبيلا للنفى فلا عليكم أن تقولوا لست ربنا، وهذا فـيه من التوكـيد مـا لا يكون فى الإثبات الصريـح، أو ما يكون بدخول همزة التحـقيق، على الإثبات كما تقدم، فى مـثل قولنا أنتم خير من ركب المطايا، وبمثل أفـى جهنم مـثـوى للكافـرين، وأأنا ربكم، وآلله كـاف عبده، كل هذا بمعـنى التحقيق كالذى فى قـوله تعالى ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾، هذا والله أعلم.

قوله جـل شأنه ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣] قالوا الذى جـاء بالصدق جبريل عليـه السلام، والذى صدق به محمـد صلوات الله وسلامه عليه؛ وقالوا الذى جـاء بالصدق وصدق به هو محمـد صلوات الله وسلامه عليه، وقالوا الذى جـاء بالصدق هو رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، والذى صدق به أبو بكر، وقـالوا علىٌّ إلى آخر ما قالوا، واللـفظ لم يُعيِّن وإنما يحـتمل كل ذلك، ويحـتمل أيضًـا كل الذى جاء بالصدق، وكل الذى صدّق بالصـدق لمَّا جاءه. والـصـدق المحض الذى لا ريب فيـه هـو مـا كـان عـن الله جل وتقدس سـواء كان فى كتـابه الذى أنزل أو فيما أوحـاه إلى رسوله صلوات الله وسلامه عليه، ويتـسلسل الصدق حتى يشمـل كل صدق فى الدين والدنيـا، فكل الذى جاءنا بالصـدق يدخل فى هذه الآية، وكل من يصدق الصـدق يدخل فى هذه الآية، والذى يأتينا بآية من الكتاب أو بحديث من أحاديث المختار صلوات الله وسلامه عليه ويَحُثُّنا على ما أتى به، ويدعونا إليه، ويغرينا به، يقال فيه جاء بالصدق، وكل من

استجاب يقال له صدق بالصدق، وكلاهما من المتقين، وقل مثل ذلك فى كل من يبحث عن الصدق والصواب فى كل باب يوجد فيه الصدق والكذب، ويتحرى الناس، ويبحثون فيه عن الصواب الذى هو الصدق، ليتجنَّبُوا وقوعهم فى الكذب والباطل، كل باحث جاد صادق عن الصدق فى أى باب من أبواب العلم، والفقه والتفسير والحديث واللغة، والعقائد، بل وفى علوم الصناعات والرياضيات والفيزياء والكيمياء وما شئت ما دام قد جرَّد نَفسه للبحث عن الحق وتخليص الصواب من الخطأ ليهدى به الناس، وليقدِّم للبشرية شيئًا ينفعها وهو من أهل الشهادتين، فقد دخل فيمن جاء بالصدق، وهو من المتقين ولا تستبعد هذا فقد أخبرنا المختار صلوات الله وسلامه عليه أنه رأى رجلا يتقلب فى الجنة بسبب غصن شوك أزاله عن الطريق خشية أن يؤذى المسلمين، فما بالك فى الصادق فى درسه، والصادق فى معمله، والصادق فى كل ما يتناول، وليس فى الآية إشارة واحدة تخرج هؤلاء، وكلمة ﴿جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ فيها إشارة إلى أنه كأنه ذهب وخرج وبحث عنه ثم جاء به، وفى هذا إشارة إلى أن للصدق مكامن ومطارح بعيدة تصل إليها عقول العاشقين للحقيقة، والتائقين إليها، وأنهم أهل رحلة، وأهل أسفار، وإن كانوا لم يَبْرَحُوا الحضرة. والعموم الذى فى الآية يوشك أن يكون وَصفًا وشأنا ووَسْمًا لمجتمعات هذه الأمة، وأن هذا وغيره مما كانت وتكون إن شاء الله به خير أمة، وأن كل مسلم يَسكُن فيه همٌّ وعِشْقٌ هو البحث عن الحقيقة الصادقة ولو كان يَحْرُث الأرض، ويبذر الحب، لأن كل شىء فى الوجود منوط به الصواب والخطأ؛ والجد فى تخليص الصواب من الخطأ ضرب من الصدق.

وهذا يقابله الذين يأتون بالأكاذيب، فى كل شأن من شئون الحياة، وإذا كان رأس أمره الكذب على الله، فإن هذا الكذب الذى بدأ بالكذب على الله ستتفرَّعُ منه فروع من الأكاذيب لا منتهى لكبارها، ولا لصغارها، ثم الشأن

فيه أنه يكذّب كل صدق، ويزيف كل حق، وناهيك عن مـجتمع هذا شأنه، وعليك أن توازن بين الجماعتين، وتعلم كـيف أعدّ الله من الناس الطبقة التى تُعْمرُ بها الأرضُ وكيف مهّـد لها الطريق، ووضع لها الضوابط، وكيف حذّر ممن تُخَرَّبُ بهم البلاد؛ والعبادُ، وكـيف أناط بهذه الأمة عمارة الأرض، ولو قـلـت إن الذى وَصَفْتهُ مـن الـصـدق فـى طـلـب الصدق هـو مـا عليه الذين لا يؤمنون بهذا الدين، قلت لك إن أول الصدق أن يَصْـدُق المرء فى اعتقاده، فإذا كذب على نفسـه فى هذا الاعتقاد وكفر بما أنزله اللـه على محمد، وهو حق ساطع فـلا تصدق أن صوابه تعـمر به الأرض، وحسـبنا من شروره هذا السلب وهذا القهر للشعوب، وكيف سلطوا على شعوبنا جهلة أُمّيين يخربون ويقمعـون وينهبون ويدمرون، وكـيف نهبوا ثرواتنا عن طريق هؤلاء الأغـبياء الذين فرضوهـم حكامًا على شعوبنا، وكـيف تسلَّطُوا على كل شىء؟ وكيف هيمنوا عـلى سياسـتنا؟ ومدارسنا؟ ومـعاهدنا؟ وضربوا أسـدادا بيننا وبين أن نعيش أحرارا لنا فى أرضنا كما يعيـشون هم أحرارا فى أرضهم، هذه حضارة كاذبة خربة من الأمانة والأخلاق، وهى حضارة الأثرة والأنانية وهذا متعارض مع الذى جاء بالصدق وصدّق به.

وقوله سبـحانه ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ جملة إسـمية واقعة خـبر الاسم الموصول المكون من معطوف ومعطوف عليه، وهذه الجملة تبدأ باسم الإشارة، الدال على أن المقـصود به وهو الذى جـاء بالصـدق وصدق به جـدير بما يأتى بعده لاتصافه بالذى جاء قبله، والبعد فـيه دال على بعد المكانة وضمير الفصل وتعريف المسند إليـه دال على القصر، وأن التقـوى فى صورتها العاليـة المثالِيّة مقـصورة على أهل الصدق، لا ينازعـهم فيهـا منازع، ومن أراد أن يكون فى هؤلاء الذين يصح أن يكون منهم جبريل ومحـمد صلوات الله وسلامه عليه، ثم أبو بكر وعـمـرو وعلىٌّ وأهل السـابقـة، فليس عليـه إلا أن يكون مع الصادقين؛ سواء كان من الذين يستطيـعون الرحلة إلى الصدق ليعودوا به وهم

العلمـاء المجتـهـدون فى كل فروع المـعرفـة، أو كان من الـذين يصدقـون به ويحسنون تلقّـيه، وكان دَيْدَنُهم وشأنُهم الحـرصَ عليه والولع به، وفى هذا أن النفـوس المحبة للصـدق، والمبغـضة للزيف والكذب، هـى بسبيل مـن نفوس الأنبياء لأن الأنبياء هم أهل الصدق، والنبوات من محض الصدق، وهم النور المبين، والصراط المستقيم، والمتقى هو الذى يقى نفسه من عذاب الله وغضبه، يعنى يجعل وقاية من العمل الصالح تقيـه من العذاب أعنى يضع دَرَقَةً تحميه، كأنها درع يَـتَدرَّعُ به من العذاب وهذا الدرع مصنوع من العـمل الصالح الذى هو هنا ليس إلا الصدق، فـيما أتناول من شـأن؛ أبحث فى درسى مع طلابى عن الصواب بصـدق، وأعلمهم بصـدق، وأكتب بصدق، وأتقلب فى الحـياة بصدق، وآخذ بصـدق، وأدع بصدق، حتى يصير شـأنى هو الصدق، وحتى تصير الوقـاية وصفا ثابتًا دائمًا لى لأن الاسم يـدل على الثبوت والدوام، ولو قلت إن الذى يناسب هذه الفاصلة هو أن تكون أولئك هم المفلحون، لأن هذا الصدق هو سُلَّم الفلاح، والذى يكون فى نهايتـه النجاح، والفلاح والتفوق، وكل ما يروم الـناس الوصول إليه، قلت لـك إن كلمة ﴿الْمُتَّقُونَ﴾ فى هذه الفاصلة ناظرة إلى كلمة «مثوى الكافرين» فى الفاصلة السابقـة، فإذا كان أهل الكذب لا مثوى لهم إلا جهنم فـإن طريق الوقاية هو الصدق، وهذا من أكرم ما فى الكتاب العزيز، وإذا كان الكذب هو الداء المهلك، لكل الأجيال فى كل الأزمان، فـإن الصدق هو الدواء الناجع فى كل الأجيـال، وفى كل الأزمان، والدلالة المتسعة لهاتين الآيتين وما فيهما من نجاعة من براهين النبوة.

قوله سبحانه ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٣٤].

هذه الآية: قَلْبُها كلمة ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ﴾ وما بعده مؤسس عليه وهو معنى جاء فى ترتيب الكلام فى موضعه لأن المـتقين نجوا بتقواهم من النار وهم الآن يفوزون بالجنة، فالجملة الأولى هى النجـاة، والجملة الثانية هى الفَوْز، وتأمل

كلمة ﴿مَّا يَشَاءُونَ﴾ وما فيها من سعة وأن الذى لهم ليس محدودًا وليس وقفا على إرادة أحد، وإنما هو مُتَّسِعٌ باتساع مشيئتهم، فلا يشاء أحد منهم شيئًا إلا وجده بين يديه، وكأن نفسه لا تحدثه بشىء إلا وجده، والمشيئة موضعها النفس، وكأن خطورة الأشياء فى نفسه بمثابة وجود لها، والله سبحانه وتعالى يحيط بكل ما تشاؤه نفوس عباده الذين أكرمهم برضوانه، والذين هم أهل الصدق، والذين شأنهم الصدق، وكل ما يخطر ببال أى واحد فيهم يجده بين يديه، وهذا عجيب وهو فوق كل خيال، وكان أبو العلاء قوى الإحساس بهذا المعنى وأن الذى فى الجنة يتحقق لأصحابها بمجرد الخطور فى النفس، حتى إن الذى يخطر بباله أن يرى سحابة أوس بن حجر التى يقول فيها:

دانٍ مُسِفٌّ فُوَيْقَ الأرض هيدبُه   يكادُ يَدْفَعُهُ من قام بالراح

ما إن يخطر هذا فى نفسه حتى يرى السحابة بين يديه، والذى يشاء فى الجنة شعرًا، له الشعرُ، والذى يشاء فى الجنة فلاحة، له الفلاحة، ومن معانى هذا المعنى أن النفوس التى عاشت وهمُّها الصدق، لم تُؤْت فى الجنة من كل شىء، وإنما أوتيت كل ما تشاؤه، وما دامت تعلَّقَت فى حياتها بالصدق، فلها فى الجنة كل ما تتعلق به، والذى أريد أن أدل عليه هو أن الصدق عند الله بمكان، وأن النفس التى من شأنها الصدقُ يَفْتح الله سبحانه وتعالى لها أبواب خزائنه لا ليعيطها ما يشاؤه هو سبحانه، وإنما ليعطيها ما تشاؤه هى، لأنها نفس عنده بمكان وفى المقابل النفس التى من شأنها الكذب لا يجادل أحدٌ فى أن مثواها الجحيم، وعليك أن تختار ما ترومه نفسك وما تتعلق به، وهذا حسبى.

وقوله سبحانه ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ فيها معنى آخر من التكريم والرضى، وأنه سبحانه لم يقل لهم فى الجنة ما يشاؤون كما أشار إلى ذلك فى آيات كثيرة، وفرق كبير بين أن يقول ربنا لهم فيها أى فى الجنة وأن لهم عند ربهم، لأن عند ربهم تفيد أن الذى يشاؤونه يفد عليهم من عند ربهم، ويفتح لهم سبحانه

أبواب خزائنه إكرامًا لهم، وكلمة ﴿رَبِّهِمْ﴾ فيها إشارة إلى أنه الذى ربَّاهم، وأخذ بأيديهم، وألهمهم حب الصدق فصدقوا، وصدّقوا، قالوا إن الله سبحانه وتعالى ينْزِع الأحقاد من قلوب أهل الجنة، وأن هذا من نعمه الجليلة ولولا ذلك لاشتهى المظلوم أن يرى الذى ظلمه وهو يُصَب من فوق رأسه الحميم، ولا اشتهت شعوبنا أن ترى ساداتها الأغبياء وهم يُسْحَبُون فى النار على وجوههم ثم يسجرون جزاء ما أقعوا بهم من النكال والقمع، وجزاء ما فتحوا أبواب البلاد لعدوهم، وجزاء ما أسكنوه وجُنُوده، وقواعده على تراب أرض البواسل الفاتحين، وأذلوا هذا التراب تحت أحذية أعداء الله الذين يمزقون المصحف ويدمرون بيوت الله ويسميهم سادتنا الأغبياء أصدقاء وهم يسمون سادتنا الأغبياء حكماء ومعتدلون، ولولا أن الله سبحانه ينزع ما فى الصدور من غل لتحولت سماء الجنة إلى جحيم يستمتع أهلها برؤية هؤلاء وفوق رؤوسهم مقامع من حديد، كالمقامع التى يصبونها على من يتكلم بخزاياهم، وقوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾جملة مستأنفة تبين علة هذا العطاء الذى لا حساب له، وقد بدأت باسم الإشارة الذى للبعيد وهو عائد على ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ودَالٌّ ببُعْده على أنَّه شأو بعيد، لأن الصدق مقام كريم، ومَنَالٌ بعيد، ومداخلته للقلب والعقل حتى يكون دَيْدَنَه وشأنَه مقام أكرم وشأو أبعد، وكلمة ﴿جَزَاءُ﴾ فيها إكرام لا حدود له لأن هذا العطاء من محض الفضل، ومن محض الفَضْل أيضا أن يسميه ربنا جزاء، ليدخل المَسَّرة على قلوب أهل الصدق، وأن ثواب الصدق وجزاءه عند ربنا لا حدود له، ثم إن إضافة الجزاء إلى المحسنين، يعنى أن هذا العطاء الذى هو لهم ما يشاؤون جزاء كل مَنْ أحْسَن، وليس مقصورا على الذين تحدثت عنهم الآية، وهم الذين جاءوا بالصدق وصدقوا به، وهذا يرجح عموم اللفظ، وأن المراد كل من جاء بالصدق الى يوم القيامة، ومن صدّق بالصدق إلى يوم القيامة، وأن الآية تفتح هذا الباب لهذه الناس، ثم إن التعبير بالمحسنين عن الذى جاء بالصدق وصدق

به، فيه إشارة جليلة وهى أن الصدق فى الأمر كله يُفْضِى إلى الإحسان فى الأمر كله، فالمعلم الصادق مُحسنٌ لا محالة للذى هو فيه، والصانع الصادق محسنٌ لا محالة للذى هو فيه، والكاتب الصادق محسن لا محالة للذى هو فيه، فالإحسان ابن الصدق، وثمرة من ثماره لأن هذا يضطرد فى السياسة، والاقتصاد، وكل ما يعيش فيه الناس، وكل ما تَنْهضُ به الأمم.

قوله سبحان: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٥].

هذه الآية مبتدئة بلام التعليل، ومعنى الكلام أن الله سبحانه وتعالى أعطاهم هذا العطاء غير المحدود، والذى تتحكم فيه مشيئتهم، وهى مشيئة متجددة فى كل وقت ليكفر عنهم أسوأ عملهم، ولو كان هذا التعليل معكوسًا لكان أجرى على الظاهر، يعنى لو قلنا إن الله سبحانه كفر عنهم أسوأ الذى عملوا وجازاهم على أحسن عملهم ليعطيهم ما يشاؤون لأن التكفير والمجازاة يسبقان الأجر، لكان أظهر، ولكن الكلام جاء على ما جاء عليه ليفيد خصوصية معنى لأهل الصدق، وهو أن الله سبحانه لا يكفر عنهم السيئات ليثيبهم وإنما أثابهم الثواب الذى لا حدود له ليكفر عنهم ولتصبح سيئاتهم مكفورة ومكفَّرة بهذا العطاء الذى يفيض وأن حسابهم حساب يسير، ولهذا ذكر بعض أهل العلم أن تكفير الأسوأ وثواب الأحسن خاص بأصحاب رسول الله صلى الله عليه إكرامًا لشرف الصحبة، وأنهم لا يعطون بعد الحساب وثمرة الحساب، وإنما يُجْزَلُ لهم العطاء ليكون هذا العطاء كفارة الأسوأ، وثواب الأحسن، وهذا ما فهمته من قولهم إن اللام للتعليل، والتقدير وعدهم الله بذلك والتزم لهم ذلك ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا، فالوعد بالعطاء الفيض والالتزام به ليكفر عنهم حتى لا يكون حسابهم أولا مُنْقصًا لهذه الدرجة من العطاء، والذى وعد بأن له ما يشاء كأنه ألْغى حسابه، لأنه ليس هناك ثواب أعلى من أن يكون لك ما تشاء.

وقوله سبحانه ﴿أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ كلمة أسوأ إذا كان معناها التفضيل وأن هؤلاء فعلوا السيئ والأسوأ، والآية تحتمل هذا الوجه، يكون فى الكلام دلالة جليلة وهى أن هؤلاء الذين لهم عند ربهم هذا العطاء وهم الصادقون المصدقون، وهم المتقون، وهم المحسنون، كان يكون منهم السيئ، والأسوأ، وأن هذا الذى يكون منهم لم يحجبهم عن هذه الدرجات العالية والأوصاف العالية، ولم يَحْرِمهم من هذا العطاء من غير حساب، لأن رحمة الله أوسع من أن تضيق بمجترح السيئ والأسوأ ما دام ليس هذا ديدنهم، وما داموا من أهل الصدق الذين يجيئون به، والذين يصدقونه إذا جاءهم من غيرهم، وستَجِدْ فى الجملة التى بعدها ما يفيد أن ارتكاب السيئ والأسوأ من الفَرَطَات التى لم تكن من شأنهم، ويجب أن نذكر تلك القاعدة الذهبية التى تقول «لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار» الجملة الأولى تُخيف وتحذر والجملة الثانية تُريح وتطمئن.

وحمل بعضهم كلمة الأسوأ على الدلالة على أصل الفعل، وأن أفعل التفضيل انتزع منه معنى المفاضلة، كما فى قوله تعالى فى ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣] لأنه ليس المراد أن ما يدعوننى إليه فيه حب، والسجن أحب، وإنما المعنى أن ما يدعوه إليه النسوةُ يكرهه، ويعافه ويَخَافُه وإن كان فى الشر خيار فالسجن أحب إليه.

وحمل بعضهم أفعل التفضيل على بابه ولكن من جهة أن هؤلاء لفرط ورعهم يستعظمون ما يكون منهم، فالسيئ إذا كان منهم يكون عندهم أسوأ.

واللفظ يحتمل كل هذه الوجوه، والواقع يتسع لكل هذه الوجوه، فليسوا جميعًا على درجة واحدة، ومهما علت درجاتهم فإن التفاوت فى الدرجات واقع، وهذا الخبر من الحق، وهذا الوعد فيه دلالة ظاهرة على الرضا، وعلى قبول الحق لهم، ورضاه عنهم، وتكفير ذنوبهم سيئها وأسوأها، وهو قريب

من قـوله عليه السـلام فى أهل بدر وأن الله سـبحـانه اطلع عليهم وقـال لهم افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم، وهم الذين صدقوا بالصدق لما جاءهم.

وقوله سبحانه﴿ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وهذه الجملة مقابلة للـجملة التى قبلها فهنـاك تكفير للأسوأ وَمَحْـو لَهُ، وهنا مكافأة على الأحسن، وليـست المجازاة على الأحـسن، دليلا على المجـازاة على الحسن، فقـد نكافئ نحن على أحـسن الأعمال، ونـدعُ حسنها، وإنما المجـازاة على الحسن هى الدليل على المجازاة على الأحسن لأن المجازاة على الأحسن تكون من باب الأولى، وإنما المراد والله أعلم بمراده أن الله سـبحانـه يريد أن يجزل لهم الثواب فـقصد إلى أحـسن أعمالهم لأنهـا هى التى توجب لهم الأوفر، وكلمة ﴿أَجْرَهُم﴾ فيـها إكـرام لأن العطاء الذى لا حدود له والمدلول عـليه بقوله ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ﴾ هو من محض الفضل، وإنما سمـاه ربنا أجْرًا ليقول لهم إن مـا أنتم فيـه هو أجـر عمل عـملتـوه وأن الذى عملتـوه من المجىء بالصدق والتـصديق به عند الله لا يقادر قدره ولا حـدود لأجره، ولا يهلك على الله إلا هالك، وكلمة ﴿الَّذِي كَانُوا﴾ تفيد كلمـة كانوا أن هذا العمل منهم كان شأنًا من شئونهم، وجُـزْءًا من طباعهم، وأن الصدق دَيْدَنَهُم، ولم تأت كلمة كـان مع عمل الأسـوأ يعنى لم يقل الحق ليكفر عـنهم أسوأ الذى كـانوا يعملون، لأن الأسـوأ لم يكن شـأنَهم ولم يكن المألوف منهم بخـلاف عمل الأحسن، وكان يمكن أن يقال ليكفـر الله عنهم أسوأ الذى كانوا يعملون ويجزهم أجـرهم بأحسن مـا كانوا يعمـلون، أو يقال ليكفر اللـه عنهم أسوأ الذى يعملون ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى يعملون، وبذلك يتعادل الكلام، ولكنه جاء على ما جاء عليه للذى قلناه، هذا والله أعلم.

قولـه سبحـانه ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ﴾ [الزمر: ٣٦، ٣٧].

بيّنتُ ما فى تركيب أليس الله بكاف عبده من مبالغة وأن أصل المعنى الله كاف عبده وأنه كان يمكن أن يقال آلله كاف عبده بمعنى الله كاف عبده وإنما جاء على ما جاء عليه للدلالة على قوة الثقة فى الإثبات وأنه لا يجد منكر سبيلا إلى الإنكار، والذى أريده الآن دلالة هذا الموقع بعد ذكر الكاذب المكذب والصادق المصدق وما أعده الله للأولين من الثواء فى جهنم، وما أعده الله للآخرين من كنوز عطائه التى لهم فيها ما يشاؤون، وموقع الجملة بعد هذا تفيد أن تهديد الكذابين ووعد الصادقين فيه كفاية الله لعباده؛ لأن ما يرجع إلى الكذب والصدق فى حياة عباد الله كثير جدا؛ فلو ذهبت تُحصى ما يَجُرُّه الكذب والتكذيب على حياة الناس من فساد لوجدت أكثر الفساد فى الأرض راجعا إلى الكذب، وتكذيب الصدق، ولو ذهبت تحصى ما يأتى به الصدق سواء كان من الذين يجيئون به أو الذين يصدقونه من خير واطمئنان وازدهار، لوجدت أكثر ما فى الأرض من صلاح وإصلاح راجعًا إلى ذلك وأن الله سبحانه لما توعد الكذابين ووعد الصادقين كان وعيده ووعده هذا كافيًا لإصلاح أحوال البلاد والعباد، وهذا ما أفهَمُه من موقع جملةٌ ﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ**﴾ فى سياقه وأنها تؤكد أهمية الصدق، فى عمارة الأرض، وخطر الكذب وإفساده فى الأرض، الله كاف عبده فى مجازاة الصادقين والكذابين لأنه يعلم الأفاق البعيدة، فى حياة الناس لفضيلة الصدق والأفاق البعيدة فى حياة الناس لرذيلة الكذب، وليس فى القرآن ﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ**﴾ إلا هذه الآية، وقد نبهت إلى أن بناء ﴿**أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ**﴾ [العنكبوت: ٦٨] كأنه منبهة إلى ﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ**﴾ وهو منبهة إلى﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ**﴾ وأنك تلاحظ أن أساليب مُعَيَّنة تظهر فى بعض السور ثم تراها تتلاحق، وهذا باب يجب أن يجمع وأن يدرس، وكأن الكلام فيه يتنادى كما قلت.

وكلمة ﴿كَافٍ عَبْدَهُ﴾ إذا رجعتُ به إلى الكتاب العزيز لأقْتَصَّ مَعْناها يعنى إلى ما يشبه أن يكون مفردات لها، وجدت فى الكتاب﴿وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨] وهذه واحدة من كفاياته عباده، ووجدت فيه﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ [العنكبوت: ٥٢] وهذه واحدة أخرى أعنى كفى به معرفة بذنوبنا وكفى به شهيدًا بيننا، وواحدة ثالثة ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ [النساء: ٨١]، ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٦] وقد كثر ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩] وهذا هو من التخويف، وهكذا إذا أردت أن تحقق معنى﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾لابد أن تستقصى ما أخبر سبحانه فيه أنه يكفى عباده، ومن المفيد أن تعرف معانى كلام الله؛ ومن المفيد أكثر أن تعرف المعانى التى أجملها الكتاب العزيز فى آية وفصلها فى آيات مثل كفاية عباده ونظائرها فى الكتاب، وهذا علم متسع ليس فيه فى كلام العلماء إلا لمع، فإذا كان الحق قد ذكر أنه خلق الأرض فماذا ذكره القرآن فى خبر هذه الأرض؟ أنه أحياها وأنه جعلها مهادا، وجعل لها أوتادًا، وأنه جعل لنا فيها سُبُلا، وكل ما حدَّث به القرآن عن الأرض وكل ما حدث به عن البَرّ والبحر والفلك، وهكذا تضىء فيها آياتٌ آيات.

قوله سبحانه ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾دلالة اللفظ تفيد أنهم يخوفونك أيها المخاطب فى الكتاب العزيز بالذين من دون الله الكافى ويقولون إن المخاطب هو رسول الله ﷺ والذين خوفوه هم قريش وخوّفوه من آلهتم التى دعا إلى نبذها وأنها تلحق به عليه السلام مكروها، وهذا وإن صح فالعِبْرَة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وهذه من القواعد العالية فى فهم أسرار كلام الله.

وبهاتين الجملتين ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ انتهت الدلالة الأم فى هذه الآية والآية التى بعدها، والباقى تعقيب على الله

كاف عـبده، وإذا دَقّقْت أكثـر قلت إن المعنى الأم فى الآية هو قوله سبـحانه ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْـدَهُ﴾لأن جملة ﴿وَيُخَـوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ من تمام الجملة الأولى لأنها حال منها؛ وما بقى من الكلام يفيد أن مَنْ يضلل الله فما له من هاد، ومن يهدى الله فما له من مضل.

وهذا يؤكـد أهمية مـعنى الله كـاف عبده فى سـياق الحض علـى الصدق والكف عن الكذب، ومن الواجب أن نفـهم الكلام من دلالات اللغة وننـتفع بأسـبـاب النزول ولا نتـقيـد بهـا، وإذا كـان ضـمـيـر المخـاطب فى قـوله: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾ مقصوداً به رسـول الله ﷺ فكل ما فى القرآن مما خوطب به صلـوات اللـه وسـلامه عليـه مـوجه إلى الأمة من ورائه إلا فـيما كان خاصاً به ﷺ، ومعنى هذا أن كاف الخطاب فى قوله «يخوفونك» موجهة لى ولك، ولكل من يقرأ الـقرآن، أو يخاطب به من أمـته عليه السـلام ولولم يكن من القراء، ولـهذا معنـى آخر ليس خفـياً وإنما هو جلـيل جداً، ومهـم جداً لى ولك، وهو أن مجىء تأكيد معنى أن الله سبـحانه كاف عبده بعد الحديث عن الصـدق والكذب فـيـه دلالة ظاهرة على أن مـسـؤولية مـواجـهـة الكذب، والكذابين، ومسؤولية تحمُّل مشقـة الصدق، والمجىء به، وتصديقه، مسؤولية أصعب، وأشق وخصـوصًا إذا كانت فى مواجهـة أنظمة السوء التى تعيـشها الأمة فى كل أرض عربية من غير استثناء، وأن قيام هذه الأنظمة مؤسس على كذب، ومخالفة لشرع الـله، ولدين الله، ومؤسس على جهل، وعلى غباء، وأنه لا يشهـد لهم إلا الأعداء الذين اسـتباحـوا عن طريقهم خيـرات البلاد، وثرواتها، واستـباحوا عن طريقهم الأرض، والتراب، وأقامـوا قواعدهم على ترابنا الذى عاش ومـات آباؤنا وهم يحمونه، ويحرسـونه، ويُحَرِّمون ذرة من رماله على غـيرنا، كل هذا استبـاحه العدو وتغوّل حـتى إنه يدخل فى تحديد مناهجنا، وإضـعـاف لغتنا بواسطـة هذا الطوفان من المدارس الأجـنبيـة التى تُسمِّـيها مدارس دوليـة إلى آخره، وهؤلاء الحكام يتمـيزون بالغبـاء الشديد،

والجهل الفاضح، والذى يتحمل مواجهة هذا الباطل والكذب يجد ما لا يوصف كالذى يقول كلمة الحق وكلمة الصدق حتى إنه شاع فى الناس القول الخافت الذى يقول «إن كلمة الحق فيها رقبة» يريدون رقبة قائلها، وهناك بقية فى الناس تقول إنها منتظرة هذا اليوم الذى تقول فيه كلمة الحق وتدفع الرقبة.

أقول إن هذا الجو المرعب الذى نعيش فيه، وفرضه علينا أغبياؤنا الحكماءُ المعتدلون عَلِمَه ربنا فى الأزل، وعلم أنه سيتكرر على هذه الأرض فقال لنا من فوق سبع سموات ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ قالها لى وقالها لك، وقال لى ولك إذا كنت تَعْتَقِدُ أنه كاف عبده فقل للكذب أنت كذب، وواجه الكذب، ولا تخشى فى الله لومَةَ لائم، وقل كلمة الحق، وكلمة الصدق، وقل دائمًا ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ واعلم أنها إذا لم تبعث فيك القوة والاطمئنان فأنت محتاج إلى حسن تَلَقِيك عن الله رب العالمين، والجملة الحالية ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾، هؤلاء الدون لم يكونوا الآن كما كانوا بالأمس أصنامًا من حجارة وإنما هم الآن أصحاب غُرف التعذيب وأدوات القمع، التى أعدها الحكام الأغبياء الجهلة الذين باعوا كل شىء فى مقابلة شىء واحد هو بقاؤهم حكامًا، وإن كانوا فى الحقيقة محكومين لعدونا الألد، وكأنهم يقمعوننا لحسابه وليس لحسابهم؛ قمع دائر فى هذا المحيط العربى ليموت العرب وتحيا إسرائيل، وغرف التعذيب هذه التى آل إليها معنى التخويف بالذين من دونه سبحانه وتقدس نهايتها الرقبة التى هى الشهادة، والله كاف عبده لأن هذا الشهيد له عند الله ما له، فالله كاف عبده إذا نَصرَهُ على الطاغوت، والله كاف عبده إذا تمكن الطاغوت من رقبته، ولذا كانت مواجهة عصابة الكذابين الجهلة من نعَم الله على عباده لأنها تنتهى إما بالنصر، وإما بالشهادة، ونِعمَّا ما تنتهى إليه، قلت إن الآية جاءت بعد أهل الكذب وأهل الصدق لتشير إلى أن ثمَّة صراعًا سيدور بين الفريقين، وأن

جملة ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ هى شَدُّ أزْرِ أهل الصدق فى مواجهة أهل الكذب، وإذا استبعدت هذا المعنى فبيّن لى وجه قوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ وأنا أُحَدِّث عن دلالتها الآن ولا يكفى أن نقول إنهم خوّفوا رسول الله ﷺ من آلهتم؛ لأن دلالة الآية لم تقف عند هذا الواقع الذى انتهى؛ لأنها هى لم تَنْتَه وإن كان الواقع الذى تفاعلت معه قد انتهى وهى متفاعلة مع واقعنا ومع كل واقع يأتى بعدنا وعلينا أن نبحث عن دلالتها المتفاعلة مع واقعنا لأن الله أنزل كتابه ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وكلمة الناس كلمة عامة ولا يراد بها قريش ولا العرب، وإنما الناس كل الناس وفى كل زمان وفى زماننا، أقول اشرح لى معنى ويخوفونك بالذين من دونه وارتباطها بسياق الصادقين والكاذبين، واشرح لى معنى أن الله كاف عبده والله كاف عبده فى الأزمنة كلها والأمكنة كلها، ويخوفونك فعل مضارع دال بوضعه على الحال والاستقبال يعنى يخوفونك الآن ويخوفونك غدًا، ولم تعد عندنا أصنام من حجارة منحوتة، وإنما عندنا الذى تعلمه وأعلمه، وإنى أستعيذ بالله أن أُبْعدَ كلمة من كلامه عن الواقع الذى أعيشه، لأن ربط الكتاب بالواقع الذى نعيشه ليس نافلة، وإنما هو واجب ولا يستطيع أحد أن ينكر اتساع المعنى القرآنى اتساعًا يشمل الزمان كله والمكان كله والناس أجمعين، قلت إن مجىء جملة ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ التى لم تذكر فى الكتاب العزيز إلا فى هذا الموضع عقب ذكر خَلَّتَيْ الكذب والصدق دالة على أن هاتين الخلتين تشغلان مساحة متسعة فى حياة الناس المقصودين بعبده وعباده كما فى قراءة أخرى لأن رذيلة الكذب تتسع مساحة فسادها وإفسادها، وفضيلة الصدق تتسع مساحة صلاحها وإصلاحها، والله كاف عباده فى هذا التنازع الدائم بين الإصلاح والإفساد فى هذا الكوكب، وهذا التنازع لم يخرج عن دائرة البلاغ والحساب من بعد ذلك لله رب العالمين. والذى أريد أن أضيفه هو أن الكذب رذيلة وراءها جملة من الرذائل وكأنه رذيلة أم لأن وراءه

الغش، والخداع، والتزوير، والغدر، والجبن، والخساسة، والأنانية وما شئت مما هو من أوبل أمراض المجتمعات التى تفتك بها، وكذلك الصدق فضيلة وراءها فضائل كثيرة كالأمانة، والشرف، والإيثار، والصلاح، والإصلاح، والوفاء، وغير ذلك مما هو من شيم أهل الصدق، وهذا هو الدواء الناجع لكل ما تجده الأمم، وأُمَّتُنا العربية المسلمة تئن أنينا مفزعا تحت وطأة رذيلة الكذب، والكذابين، ولا سبيل إلى أن نَطِبّ لها إلا بفضيلة الصدق والصادقين.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ جملة «فما له من هاد» التى هى جواب الشرط دخل فيها حرف النفى على الخبر الجار والمجرور فأفاد قصر نفى الهداية على من أضله الله كما قصرنا نفى الغول على خمر الجنة فى قوله تعالى: ﴿لا فِيهَا غَوْلٌ﴾ [الصافات: ٤٧]، ومعنى هذا أن من أضله غير الله يمكن أن يكون له هاد كهؤلاء الذين تضلهم شياطين الإنس والجن ثم يرجعون، وقصر نفى الهداية على من أضله الله يعنى أنه لا يهديه أحد ويمكن أن يهديه الله، ومجىء هذه الجملة بعد قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ فيها توكيد لمعنى أن الله هو الكافى وهو الشافى وكلكم فى قبضته لا حول ولا قوة إلا بحوله وقوته وأن هذا هو شعار الألوهية وأن الإله المعبود بالحق هو الذى يكون الكل فى قبضته، وسيظهر هذا المعنى بصورة أوضح فى الآية المقبلة علينا وهى قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨] ومن أجل أن نتأكد من هذه الخيوط الدقيقة الواصلة بين المعانى راجع قوله سبحانه ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ وضعها بإزاء ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾.

قلت إن مجىء ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ بعد قوله سبحانه: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ فيه توكيد لمعنى الله كاف عبده لأن الأمر أمره وهذا هو معنى من معانى الكفاية.

أما مجيئها بعد ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ فإنها تفيد أموراً منها أن من أضله الله ولا هادى له إلا الله؛ إن شـاء سبحانه هدايته معنى عام يدخل فيـه الأظلم الذى كذب على الله وكذب بالصدق، ومن الذى تفيده هذه الجملة بموقعـها بعد فـمـن أظلم هـو الإشـارة إلى أنكم لا يجوز أن تحاولوا انتـزاعهم من الكذب، والـتكذيب، لأن هذا ليس فى أيديكم، لأن من أضله الله لا هادى له، ولكـم أن تدفعـوا أذى أكـاذيبهم عنكـم، فلا تقـولوا للكذاب لا تكذب لأنه سيكذب وإنما قل له لا تكذب علينا أو لا يؤذينا كذبك، ولا تقولوا للحاكم الكذاب لا تكذب وإنما قولوا له لا تكذب علينا، ولا تقولوا للمنافق لا تنافق وإنما قولوا له لا تضرنا بنفاقك ولا تقولوا للخائن لا تخُن وإنما قولوا له لا تَخُنّا، وهذه هى الحـدود التى ترسُمهـا لنا هذه الجملة فى موقعـها هذا، والكلام فى الكذاب الذى أضله الله، ونـحن لا نعلم أنه ممن أضله الله، وإنما له علامة وهى أن يكون الكذب من دَيْدَنه، ومن سلوكه، ومن شأنه وهذا لا يتعـارض مع الأمر بالمعـروف والنهى عن المنكر، وإنما يتكامل مـعه والمرجع النهائى ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ [آل عمران: ٢٠] ثم ارفع يدك، ومعنى آخر من معـانى مجىء الجـملة بعد ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ وهو أن الكذب يوشك أن يكون من خلق من أضلـهم الله، وأنه لا يجـتـمع مع الإيمـان لأن المؤمن لا يكذب ولا يكذب الكاذب حين يكذب وهو مؤمن، هذا والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ﴾.

هذه جملة من الجـمل التى يتمثـل فيها أكـرم الكرم من الله سبـحانه للذين هداهم، وأن هُدَى الله لا ضلال بعده، وأنه لو اجتمعت شياطين الجن والإنس لتُضلَّ من هداهم الله فلن تجد لذلك سبـيلا، وأنا أسأل نفسى أين هؤلاء الذين لا يَضِلُّون أبدًا، وما هى الخليـقة التى تقربك وتقربنى من أصـحاب هذه المكرمة الإلهية؟ وتقول لى الآيةُ الخليقة هى البحث عن الصدق حتى تصل إليه بنفسك،

والتصديق به إذ جاءك من خارجك، والغريب أو اللطيف أن الجملة حُذِيَتْ حَذْوًا دقيقًا على الوجه الذى حُذِيَتْ عليه الجملة السابقة، هناك ومن يضلل الله، وهنا ومن يهدى الله، وهناك فماله من هاد، وهنا فما له من مضل، وهذا من أسرار البيان التى أغفلناها، وكما قيل هناك كذب على الله وكذّب بالصدق قيل أيضًا جاء بالصدق وصدّق به، ولا تزال الجمل من أُمٍّ وأب، وإذا كانت الجملة الأولى فاصلة ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ فهذه فاصلة ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ [الزمر: ٣٣] وأنا وأنت لا نعرف من الذى هداه الله، ولا من الذى أضلَّه الله، وإنما نعلم علم اليقين أن من طلب الهدى اهتدى، ومن مَدَّ يدًا واحدة إلى الله مدّ الله له اليدين؛ وأن من سعى إلى الله شبرًا سعى الله إليه ذراعًا؛ وأنه سبحانه ما يفعل بعذابكم إن شكرتم، وأنه يريد بنا اليسر وأنه يريد أن يتوب علينا، ويريد أن يُخَفِّفَ عنا، وأنه إلا يهلك على الله إلا هالك، وجملة ﴿فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ﴾ فيها قصر نفى الإضلال على من هداه الله بمعنى لا يُضل أحد من هداهم الله.

وجملة ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ ذكرت بلفظها فاصلة لآية ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ وبعدها ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الزمر: ٢٤] ومجىء ذلك فى سياق الكتاب الذى نزّل سبحانه وأن الذين آمنوا به تقشعر جلودهم، دليل على أن المراد بهم الذين لم يؤمنوا بالكتاب المذكورة أوصافه، وهم الذين كذبوا على الله وكذبوا بالصدق إذ جاءهم، وذكر هذه الجملة بلفظها دليل على أن المُتَحدَّث عنهم جماعة لها مواصفات واحدة، وقد تتعدد وتختلف من زمان إلى زمان؛ ولها ضابط واحد هو أنها من الذين أضلهم الله، ومن يضلله سبحانه لا هادى له، وهذا يعنى استمرار هذه الجماعة الكذابة المكذِّبة، وأن كل جيل سيلقاها، وأن من الأجيال ما تكون هذه الجماعة حافزة له على فعل

الخيرات، والالتزام بالصدق، ومن الناس من يستيئس من علو أصواتها وصخبها واستيلائها على المساحة الأوسع وخصوصا إذا دخل فى مساحتها قصور السادة الحكام الأمراء الوارثين لنا ونحن غائبون؛ المهم أن تكرار جملة ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ نَقولُ إذا تنوعت العبارة وقلنا مرَّة ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ﴾، ومرة ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ﴾ ومرة ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ﴾ فاعلم أن هذا من تنوع الصور وتواردها على حقيقة واحدة، وهذه صفات متنوعة لهم فهم كذابون وهم ظالمون وهم القاسية قلوبهم، وهم الذين عبدوا ما شاؤوا من دونه سبحانه وهم الذين خسروا أنفسهم، إلى آخر ما جاء فى السورة من العبارة عنهم، وبيان أحوالهم من خلال هذه العبارات المتنوعة؛ وأن بناء السورة، وشبكة صيغها وجُمِلها تذكرك بإعادة صياغة أو بإعادة نغمة أو بما شئت مما يفطن إليه أصحاب الأسرار أعنى أن ثمّة معنى عليك أن تلتقطه لأن السورة تحرص على تأكيده. قوله سبحانه ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ﴾ هذه الجملة داخله ضمن المجموعة التى قلت لك إن التكوين الصوتى والبيانى والبنائى للسور لا ينسى أن يرسل لك نغمه متميزة أو يكرر لك جملة متميزة، أو يكرر لك حَذْواً متميزا، ليلفتك إلى أنه وإن كان ينتقل من معنى إلى معنى، فإن خيوطا دقيقة تَشُدُّ كل جزئياته ومكوناته نحو قطب واحد، والصلة واضحة جدا بين ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ وبين ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ﴾، وواضحة وليس جدا بين الجملتين وجملة ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ لأن الله كاف عباده وهم كل من فى الأرض مما كان ويكون وهو كائن وهذا الكافى جدير بأن يجعل جهنم مثوى لمن كفر به، وهكذا نقول فى العزيز المنتقم وصلته بمثوى الكافرين أظهر، ولولا أن أتزيد لقلت إن هذه العناصر المتكررة فى صور مختلفة جديرة بأن تكون ضياءً يهدينا إلى المعنى الأم الذى تدور حوله السورة، والذى دعانى إلى ذلك هو أننى أرى ضرورة إخلاص العبادة للكافي عبده، وضرورة إخلاص العبادة للعزيز ذى الانتقام،

وضرورة إخلاص العبادة حتَّى يقى نفسه الثواء فى جهنم، وأخشى من التزيد لو قلت إن الجمل التى لم ترد فى الكتاب إلا فى السورة، هى موطن مراجعة وتدبرٍ يهدينا إلى المعنى الأم الذى تدور السورة حوله، وإذا كنت ممن يرون أن الوصول إلى المعنى الأم أمرا سهلا كما أقرأ فى الكتب، فإنِّى أخالفك فى ذلك لأنى لم أجد رهقا فى آل حم كالرهق الذى وجدته فى البحث عن المعنى الأم، وحين أقرأ لمن يسارعون فى ذكر المعنى الأم لما يعرضون له من السور أسأل الله المغفرة لى ولهم وأن يوقظهم من الغفلة، لأنهم إما غافلون أو مُغَّفلون مع أن منهم السابق الذى لا يَرَى مثلى غبارَه، وجلال العالم لا يجوز أن يحجب عيوننا عن رؤية غفلاته، وللكبار سقطات لا يقع فيها المبتدئون، هذا والله أعلم، وكلمة (عزيز) فى جملة ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ تشير إلى ما فى الآيات من أنه لا يهدى أحد من أضله الله، ولا يُضلُّ أحدٌ من هداه الله، لأن العزيز هو المتفرد، وهو الذى لا يُغَالب، وكلمة "ذى انتقام" ترجع إلى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ ولذلك تجد هذه الجملة خاتمة وفاصلة للكلام من أول قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ وسيرجع الكلام بعدها إلى حديث عن الذى كذب على الله وكذّب بالصدق إذ جاءه ولكنه من جهة أخرى هى جهة مَا سَكَنَ فى عقولهم من تَنَاقُضَات تعَايَشَتْ، وتَسَالمتْ مع أن الذى بينها من أشَدِّ ضروب التناقض، ويوشك أن يكون هذا القسم فصلا داخل هذا الفصل وهو قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨]، وقد تكرر ذكر سؤالهم من خلقهم، ومن خلق السموات والأرض كما تكرر مثله فى قوله تعالى﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا﴾ [المؤمنون: ٨٤] ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ﴾ [المؤمنون: ٨٦] ولو قلت إن أكثر ما فى القرآن بنى على هذا،

ومثله، لم تكن متجاوزا، وهذا يعنى أن أهم ما يوجَّه إلى هؤلاء فى الخطاب هو مراجعة ما فى نفوسهم من معتقدات، وتحليل هذه المعتقدات وبيان ما تنطوى عليه من تناقضات، لأن المطلوب الأسمى هو أن تَصْدُر العقيدة الصحيحة من داخل قلوبهم، وعقولهم، وليس أن تأتيهم من الخارج، لأن العقيدة التى تأتى من الخارج أشبه بالفلسفة أو العقيدة الفكرية، والدين ليس كذلك لأن الدين له نبع واحد هو الفطرة، وهذه الفطرة لها مَسْكَن واحد هو داخل النفس الإنسانية، ولهذا كان القرآن كثيرا ما يُلِحُّ على طرق باب هذه النفس، وعلى التولج فيها، وعلى تقليب ما فيها من صور، وأفكار، وعقائد هى جزء من فطرتها ليؤسس الإيمان بهذا الدين على هذه الفطرة، لأنه حين يؤسس على هذه الفطرة يكون قد داخلها، وخالطها، ونشب بها، ونشبت به، وإذا كان كذلك فلن تُضلَّهُ، ولن يُضلَّها، ولن يخرج منه أحد دخل فيه، كما قال هرقل الأريب الذى أدرك الحق ثم اختار الضلال.

هذا شىء من أسباب تكرار هذا المعنى فى الكتاب.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ من الكلام الذى اجتمع فيه شرط وقسم، لأن كلمة «إن» للشرط فى المستقبل واللام لام القسم، وهذا الأسلوب له نكهة خاصة، لأنه مؤسس على التوكيد، وأول ما فيه من عناصر التوكيد هو القسم، والمراد بالقسم توكيد جواب الشرط، الذى هو جواب القسم، ولذلك يجب حذف أحدهما، والاكتفاء بالآخر، وكأننا ذكرنا جواب الشرط مرتين، أو ذكرنا جواب القسم مرتين، ثم إن المعنى المُقْسَمَ عليه لابد أن يكون من الأهميّة بمكان، لأنه تواتر عليه التوكيد من جهة التكرار، وإنابة أحد الجوابين مناب الآخر، وأيضا من جهة أنه مقسم عليه، وإذا كان الذى أقسم هو رب السموات والأرض وهو الذى لا يؤوده حفظهما، وهو الذى يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده، أقول إذا كان القسم صادرا من جهة الجلال هذه كان للمقسم عليه شأن أى شأن.

وراجع كل هذا وهو بعض مما فى تكرار هذا السؤال فى الكتاب العزيز، وقف عند المقسم عليه، وهو إقرارهم بأن الله هو الذى خلق السموات والأرض، وخلقهم؛ وهو الذى أنزل من السماء ماء، وهو الذى سخر الشمس والقمر، واعلم أن هذا الجواب هو أساس الوحدانية لأنه ما دام قد خلق هذا فلا يجوز فى العقل والمنطق أن يُعبد غيره، لأن عبادة من خلق هى الأصل، وهى الصواب وكل انحراف فى العبادة عن الذى خلق هو الضلال، وهو ليس ضلال العقل لأن العقل مع المنطق، ولا يقبل ما يخالفه، وإنما هو الهَوَى الذى يغلب العقل ويُغَطِّى عليه - العقل جزء من الفطرة، والهوى مضاد للفطرة، ولذلك وصف الكتاب العزيز أهل الضلالة بأنهم لا يعقلون يعنى غيّبوا عقولهم ولو حضرت لأنقذتهم من الضلالة.

وكان التعقيب على هذا الإقرار بأن الله هو الخالق سبحانه وتعالى بمثل قوله فأنى يؤفكون يعنى إلى أى جهة هم مُنْصرفون بعد ما وضَعُوا أقدامهم على طريق الهداية، الذى هو طريق الفطرة، وقد جاء هذا التعقيب فى سورتى العنكبوت والزخرف.

كما كان يكون التعقيب بقوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [النحل: ٥٩] ويأتى بعدها ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥] كما هو فى لقمان، ومرة ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣] كما هو فى العنكبوت ولماذا جاء لا يعلمون فى لقمان ولا يعقلون فى العنكبوت والجواب بمراجعة السياق الذى اقتضى، والسياق هو الحال، وهو الأمر الداعى، والذى يعنينى هو التعقيب بالحمد الذى أمره الله به، وهذا معناه ظهور الحق وتجليته وظهور آية الله فى خلقه، لأن الحمد يَعْقُبُ ظهور النعم، وأنعم النعم ظهور برهان لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين لأن برهان هذا هو طريق النجاة من النار وطريق الفوز بالجنة.

ولم يأت التعقيب بعد إقرارهم بالإله الواحد الخالق البارئ المصور، بالذى

جاء به فى الزمر إلا فى الزمر، فلم يتكرر قوله تعالى قل ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ [الزمر: ٣٨] إلى آخره، إلا فى الزمر، ولا أستطيع أن أقول لماذا خصت الزمر بهذا التعقيب، ولا بد أن يكون له سرٌّ، ولكنه سر لا يناله لسانى الذى لا يتكلم إلا بما يدركه عقلى، والذى أستطيعه هو أن ثمة شبها قويا بين قوله تعالى هنا: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ وقوله سبحانه فى أول الأحقاف ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ [الأحقاف: ٤]، وأقول إن آية الزمر التى نزلت قبل الأحقاف لم تقل أرونى ماذا خلقوا من الأرض كما فى الأحقاف، لأنها سُبِقَتْ بإقرارهم بأن الله سبحانه هو الذى خلق السموات والأرض، وما كان يجوز أن يُقال بعدها أرونى ماذا خلقوا من الأرض، آية الأحقاف تؤسِّسُ أصل العقيدة والعبادة، وأنه لا يعبد إلا الذى خلق، وملك، وعبادة غير من خلق، وغير من ملك، لا يُقِرُّها مَنْطق، ولا تقبلها فطرة، ويلاحظ أن مناقشة الكتاب لعقيدة الإيمان بالله ليس فيها تفلسف ولا تنطس وإنما هى قريبة جدا وتلقائية جدا لأنه خطاب الفطرة وليس خطاب المُتَنَطِّسين، وآية الزمر تشير إلى أن الذى يُعْبد هو الخالق، وقد أقررتم بأنه الله، وتسأل سؤالا آخر وتقول هل الذى صرفكم عن عبادة الخالق هو أنكم رأيتم غيره، يغْلِبه على ملكه، فيكشف الضر عن من أراد الله ضره، أو يغلبه على ملكه فيمسك رحمته عن من أراد الله رحمته، إن كنتم هديتم إلى هذا فلكم ما عبدتم.

والفاء التى فى قوله سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتُم﴾ عاطفة على محذوف ليس مسكوتا عنه لأن هذه الفاء نَبهتْ إليه، وتقدير الكلام قل أتنبهتم، ووعيتم، وعقلتم، فرأيتم ما تدعون من دون الله آلهة من شأنها كَشْفُ الضر عن من أراد الله ضره؟ وإمساك الرحمة عن من أراد الله رحمته؟ وحين نفسر قوله تعالى ﴿أَفَرَأَيْتُم﴾ بقولنا أخبرونى إنما تقارب وتقرِّب المعنى، مع الفرق الكبير بين

المفسّر والتـفسير لأن المفسَّـر هو إن كنتم رأيتم ذلك بعيونكم وأقـرته عقولكم، فأخبرونى به، ثم إن سَبْق هذه الجملة بكلمة ﴿قُلْ﴾ وليس هذا دالا على أهمية مقـول القول وأن قائله هو الحق، وأن قـوله هو الصدق، أقـول ليس هذا فقط وإنما فيـه إشارة إلى أن الذى يهـدى إلى الله هو الله، وأنه هو الذى يَدُلّنا على الطريق الذى يصل بنا إليه، وأننا لا نعتقد فيـه سبحانه إلا ما هدانا إليه، ودلَّنـا عليه، وأمر خير خلقه أن يقوله لخلقه وإن ضلوا؛ وأمر المبلغين عن رسوله ﷺ أن يقولوه لخلقه، وإن ضَلُّوا، وأمرنى وأمرك أن نقول للمنكرين جلال الألوهية ودَعَوا من دون الله مـا دَعَوْا أرأيتم أن هؤلاء الذين تدعونـهم ينازعون الله فى ملكه فيكشفون عن عباده خيرا أراده أو يمسكون عنهم رحمة أرادها.

وكلمة ﴿مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ راجـعة إلى جـذر السورة وهو قـوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ وهو مقابل لقوله تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ وكلمة "ما تدعون من دون الله" كلمة شـاملة ليس فقط لكل المعـبودين بالباطل وإنما لـكل من نَرْفَع إليه حاجاتنا لأن كلمة ﴿تَدْعُونَ﴾ وإن كانت تصلح لأن تكون بمعنى العبادة أو أن تكون بمعنى طلب الحاجة هى هنا أقرب إلى طلب الحاجة، لأن المذكور بعدها وهو ما يدعون به هـو كشف الضر أو طلب الرحمة، وهـذه حاجة، ولذلك يدخل فى هذا العموم أن تستيقن الـنفسُ أن فلانا يَنْفَع أو يَضُرّ وخصوصا إذا كان صـاحب فخامة أو صـاحب جلالة، أو كان واحـدا من المقربين، والنظم الاستبدادية القهرية المتسلطة على خيرات البلاد تساعد بتَسَلُّطها وسطوتها على هذا الشعـور، وقد تَرى عينُك كـثيرا ممن يزحـفون على ركبـهم حول أصنام العصر من أجل جَلْبِ النفع، أو دفع الضر، والكلمة الكريمة تمحو ذلك محوا وتمحقه محـقا، وتقول إن الوحدانية الخالصة صـانعة إنسانا لا يرفع بصره إلا إلى الله، ولا يمد يده إلا لـله؛ ويؤمن إيمانا خـالصـا أن مـا أصـابه لم يكن

ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وهو ذلك الإنسان الذى يمشى على الأرض وليس فوق رأسه إلا الله، وهذا النموذج من الناس هو الذى يَصْنَعُ البيئة غير الصالحة لوجود أصنام هذا العصر، وفراعنة هذا الزمان، لأنه لو تفرعن فرعون صغير وجد ألف قبضة تضرب أنفه، هذا هو بعض حظنا من الآية لأن الأصنام تغيَّرت وجَرَت فيها الروح وصارت صاحبة فخامة، وصاحبة جلالة، ولكل زمان أنصابه، وأزلامه، وطاغوته، وجالوته.

المطلوب غسل النفس من أن تنظر إلى غير الله سبحانه فى درء المَضَرَّة وجلب المنفعة فى الدين والدنيا وهذا المعنى المستخرج من سعة الكلام هو المذكور الصريح بقوله تعالى: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ولو قصرت الآية على من يدعون أصنام الحجر تكون قد عطلت معنى الآية فى زمن أصنام البشر.

قوله سبحانه: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾، هذه الجملة الشرطية وما عطف عليها هى المقصود من ذكر ﴿مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ فليس المراد أفرأيتم ما تدعون من دون الله هل خلقوا من الأرض أم هل لهم شرك وإنما المراد هل هن كاشفات ضر أراده الله يعنى أن النَّافذَ فينَا مُرادُ الذى خلقنا، وقد تقدمت الإشارة إلى أنه خالقنا فى قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾لأن المعنى أنه خلق السموات والأرض وما بينهما من كل شىء على ظهر الأرض وفى باطنها ومن كل ما فى البر ومن كل ما فى البحر، ومن كل شىء فى جو السماء لأن خالق السموات والأرض هو خالق الناس، وخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، ولهذا كان ذكر كشف الضرّ وإمساك الرحمة مما يأتى بعد الخلق، ومما يفيد أن خلقه فى قبضته، وليس لأحد فى خلقه ضَرٌّ ولا نَفْعٌ وأن إرادته هى النافذة فى خلقه، وليس لأى إرادة ولا لأى قوة صلة بهذا الخلق، لأن خلقه حِمَاهُ وليس لأحد أن يخترق هذا الحِمَى، ويلاحظ أن الآية تفيد أن مراده جل وتقدس لا يتخلف، وذلك لأن الآية

تقول: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ فجاءت بالحديث عن كشف الضر بعد الحديث عن إرادته ولم تذكر وقوعه لأن وقوعه لا يتخلف عن إرادته، وكشف الضر معناه مَحْوُه وإزالته، وكأنه صار واقعا وصار محسوسا يزال، وكلمة ﴿هَلْ﴾ معناها الإنكار، وهو إنكار يؤكد الإنكار المفهوم من الهمزة فى قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُم﴾ والمؤمن بالله إيمانا صادقا لا يبقى فى نفسه شيء من معنى أكَّد الله إنكاره، يعنى لا يبقى فى نفسه خاطر يقول إن فلانا يكشف ضُراً أو يُمسك رحمة، نعم قد يجرى الله كشف الضر عن الناس على يد من يسَخِّرُهُ الله لذلك لأن فعل الله سبحانه وراء كل أفعال عباده، ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] وهو خالق الناس، وخالق ما يفعلون، ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] وهذا هو شأن المعبود بالحق والخالق الحق، والمالك الحق، والمتصرف الحق، ووقوع الاستفهام غير الهمزة فى جواب الشرط يأتى مُجَرّدًا من فاء الجواب كما هنا وكما فى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٤٧] ويأتى مقترنا بالفاء كما فى قوله تعالى ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ﴾ [هود: ٦٣] وإذا كانت الهمزة هى الواقعة فى الجواب فلا تقترن بالفاء كما فى قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٣، ١٤] هذا مقتبس من كلام الطاهر غفر الله لنا وله.

ويلاحظ أن الآية الكريمة بنيت على البسط والتحليل، وأنه كان يمكن أن يقال إن الذين تدعون من دون الله لا يملكوا لكم نفعا ولا ضرا، وإنما جاء الكلام على ما جاء عليه وأمر عليه السلام أن يجرى الأحداث على نفسه ﷺ وأن يقول إن أرادنى الله بضر إلى آخره، ليُناسب قوله سبحانه ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ ثم إن الآية بتمامها توكيد لقوله سبحانه ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾

ثم إن هذا كله لنزع الخوف من القلوب فلا يبقى فيها إلا الخوف من الواحد الأحد، والخوف من الله يطرد من القلب كل خوف، من غيره سبحانه، ومن واجب المبلغين عن رسول الله ﷺ أن يضربوا المثل بأنفسهم كما ضرب الله المثل بالمبلِّغ عنه صلوات الله وسلامه عليه، يعنى علينا أن نقول إن أرادنا الله بضر هل ترون هذه الطواغيت المحيطة بنا قادرة على كشف ضُرّه، وإن أرادنا ربنا برحمة هل ترون هذه الأصنام المتسلطة قادرة على أن تُمْسِك عنا رحمته سبحانه، هذا شىء مهم جداً ويصنع الدعاة الذين ليسوا كتائب من أمن النظام الفاجر، هذا شىء وشىء آخر تراه فى الآية من جهة أخرى وهو أن القمع والتنكيل والتعذيب والقتل الذى تمارسه أسوأ أنظمة السوء على أرضنا بغرض بث الرعب والخوف فى القلوب فلا تنطق ولا تتحرك ولا تطالب، كل هذا فيه منازعة لله سبحانه وتعالى لأن الخوف لا يجوز أن يكون إلا منه وكذلك من يتوهم أنه يضر وينفع ويرسل الخير على من حوله أو يمسك عنهم الشر كل هذا فيه منازعة لله سبحانه، كما قال الذى حاج إبراهيم فى ربه لما قال له إبراهيم إن الله يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت، ومثله الذى يخيف الخلق ويفزعهم، والخلاصة أن الآية تنفى أن يَسْكُن فى القلب اعتقاد نفع أو ضر إلا من جهة الله وهذا هو أصل عقيدة التوحيد، فلا يلتمس صاحب هذه العقيدة الصادق الخير إلا من الله، ولا يطلب كشف الضر إلا منه، وهذه هى الصورة الصادقة للإنسان الحر، الذى لا يخشى فى الله لومة لائم، والذى تبقى قامته مرفوعة لا تطأطئ إلا لله، ومثله لا ينافق، ولا يداهن، ولا يكذب، ولا يستظل بظل سلطان، وأكرر أن فقه عقيدة التوحيد يُفْضى إلى تكوين الصورة الفاضلَة للإنسان الفاضل، والصورة الفاضلَة للمجتمع الفاضل، وهؤلاء هم الذين إذا استنصروا بالله نصرهم، وإذا استعانوا به أعانهم، وإذا أقسموا على الله أبرَّهم، اللهم أكرم أمة محمد بهم وبتكاثرهم، وقوله تعالى ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ جملة واقعة موقعها، لأن معناها أن الله كافينى ومن اكتفى بالله لا يحوم حوله العوز، ولا يحوم حوله العجز،

ومن اعتقد أن الله هو كافيه، لا يتصـور أن يجد لنفسه حاجة عند غير الله، وهذه الجملة تشير إلى أن الذين خوطبوا بقوله تعالى هل هن كاشفات ضره، وهل هن ممسكات رحمـته، ظلوا متـشبثين بمن يدعـونهم من دون الله، وقد سكَتَتْ آية ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ عن موقفـهم من السؤال وعن إجابتهم، وكأنهم لم يجدوا سبيـلا إلى القول بأنهن كاشفات الضر، مع أنهم قالوا ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ ولما سكتت هذه الآية عن جوابهم أشارت جملة ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ إلى المسكوت عنه والقرآن الكريم لا يستقصى أمـثال هذه الأحـوال، وإنما ينتـقل الكلام إلى مـعنى جـديد، وهذا المعنى الجـديد هو الذى يملأ الفراغ بين الكـلامين، وأنا وأنت وكل أمة التـوحيـد مطالبة بهذا الأمر (قل) لأنه ليـس المراد خصوص رسول الله ﷺ والمطلوب أن تغسل قلوب أهل التـوحيد من شوائب التـعلق بغير الله، ثم يزرع فـيها هذا المعنى الأكرم والأجل وهو حسبى الله، ويلاحظ أن هذه الجملة الأكرم لم تُقَيِّد كـفاية المؤمن بربه فى كشف الضر، وطلب الـرحمة، وإنما أطلقت المعنى فلم أقل حـسبى الله فى هذا الأمـر، وإنما حسبى اللـه فى كل أمر، وحسبى الله فـيما كان، وفيمـا يكون، وفيما هو كائن، وأكـتفى بهذا لأن هذه الجملة إلا حـدود لها ولا حدود لآثارها، ولا حـدود لما تكسبه قـائلها الصادق من اطـمئنان ورضى، وإحسـاس بالكفاية، وبـالأمن، وإن كان فى قبضة الكلاب المسـعورة التى يستخدمها السلطان الفـاجر، ولاحظ أننا نفسر حسبـى الله بأن الله كافينى وهذا رجوع إلى قـوله تعالى ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ وليس بعيدا عـن قوله جل شأنه ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ﴾ لأن هذه الجمل فى القرآن الكريم مَوْئلُ يئل إليه أهل الله فيجدون البَرْد والسلام، وإن نَشِبَتْ فى لحـومهم أنياب الكلاب المسـعورة التى تربيّها أنظمـة السوء، وتجعلها تتوحش لحـمايتهم من غضبة الشعوب، ولجـلال هذا المعنى وأهميته جاءت الجملة بعـده مؤكدة له يعنى هو مؤكد لما قـبله حتى إنك لو قلت إن

قوله تعالى ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ هو النتاج الطبيعى للاستفهام الإنكارى فى قوله جل شأنه ﴿هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ لم تكن متجاوزا، ولو قلت إن الجملة بعدها ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ هى نتاج جملة حسبى الله لم تكن أيضا مخطئًا، وهذا التوكيد المتتابع لهذه الحقيقة الجليلة كله توكيد للتوحيد المنتج للإنسان الذى حسبه الله، والإنسان الذى لا يتوكل، ولا يفوض فى شأنه أحدا إلا الله، وَفَصْلُ جملة ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ عن الكلام قبلها لأنها مؤكدة لها فهى موصولة بها من ذات نفسها، وموصولة بها أكمل اتصال، وهى جملة فيها سخاء فى معناها وسخاء فى خصوصية مبناها، ثم هى صالحة لأن تكون داخلة فى حيّز القول والمعنى قل حسبى الله وقل عليه يتوكل المتوكلون، وصالحة لأن تكون من تعقيب الحق على الكلام الذى مضى، والعجيب أن المعانى مُدْمَجٌ بعضها فى بعض، حتى كأن المعنى الثانى هو المعنى الأول، وكأن عليه يتوكل المتوكلون هو الله كاف عبده، فإذا نظرت إلى الكلام من جهة التغاير وجدت تغايرا شديدا جدا وكأنك مع جمل مؤتلفة أشد الائتلاف وهى ذاتها مختلفة أشد الاختلاف، وقد بان أن جملة عليه يتوكل المتوكلون توشك أن تكون هى حسبى الله وهى إنكار أن يكشف الضر غير الله وهى بيان أن الله كاف عبده، ثم هى مختلفة جدا لأنها تفيد شيئًا لم تفده أى جملة قبلها، وهو قصر توكل المتوكلين على الله وتقديم الجار والمجرور ﴿عَلَيْهِ﴾ إشارة إلى هذا القصر وأنهم يتوكلون عليه لا على غيره، وأنه هو الذى يُفوّضُ خلقُه أمرَهم إليه، ولا يفوضونه إلى غيره فإذا فوَّض بعضنا بعضا فى أمر من أمورنا كما تقتضيه حياة الناس فلابد من مراقبة هذا الذى نفوضه، لا لأنه يخون، وإنما لأنه يخطئ أو يقصر أو يعتريه ما يعترى الناس، والذين يفوضون الله سبحانه آمنون من ذلك كله وهذا هو معنى قصر التوكل عليه لأن التوكل بمعناه الحقيقى المطلق لا يكون إلا لله جل وتقدس، ثم إن كلمة ﴿يَتَوَكَّلُ﴾ تفيد

بصيغتها امتداد زمن توكلهم وتجدُّدَه وأنه مفتوح على المستقبل لا ينتهى إلا بانتهاء المستقبل، فهم فى كل حدث يتوكلون وفى كل يوم يتوكلون، وكلمة ﴿الْمُتَوَكِّلُون﴾ جمع متوكل اسم فاعل من توكل، والاسم دال على الثبوت والدوام فهم شأنهم التوكل على الله، وعرفوا بذلك وشهروا به، والألف واللام تفيد معنى دقيقا وجليلا، وهو أنهم هم الذين تتحقق فيهم صفة التوكل، فى صورتها النقية الصائبة، الصادقة، كما تقول هو البطل المحامى وأنت تريد معنى لو أنك أرَدْت أن ترى صورة من يصح أن يقال له وفيه هو البطل المحامى، فانظر إليه فإنه يقدم لك هذا النموذج الصافى لهذه الصفة، وهذا المعنى وصفه عبد القاهر بأنه خفى كالهمس أو كمسرى النَّفَس فى النَّفْس وبهذه الجملة التى تستشرف كل نفس أن تدخل فى معناها، انتهى هذا الجزء من المعنى الذى بدأ بقوله تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ وتجلّى فيها البرهان القاطع على فساد دعوتهم لغير الله، وانتقل الكلام إلى معنى آخر فيه دلالة على رفضهم هذا المنطق العقلى الذى لا يجوز لعاقل أن يرفضه، وفيه تهديد لهم على تشبُّثهم بهذا الموقف، وذلك فى قوله سبحانه ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [الزمر: ٣٩، ٤٠].

وابتداء الآية بقوله تعالى (قل) تعود بها إلى قوله فى الآية قبلها ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ وتدبَّر ما بعد قل فى الآيتين يبينُ العلاقة الدقيقة التى بينهما وأن الثانية وإن كانت انتقالا إلى معنى جزئى جديد هى بمثابة الامتداد للأولى، أو هى نتيجة لها، لأن الاكتفاء بالله سبحانه والتوكل عليه يُفْضى إلى نُصْرَةَ أهل الحق وعذاب وخزى أهل الباطل، وأكرر القول بأننا مأمورون بما أُمِرَ به صلوات الله وسلامه عليه وأننا فى مواجهة الرافضين للبرهان والـمُصرِّين على العناد مأمورون بأن نقول حسبنا الله عليه يتوكل المتوكلون، ومأمورون بأن نقول يا قومنا اعملوا على مكانتكم إنا عاملون.

وهذا النداء ومخاطبة المعاندين وأنهم قومنا فيه معنى ترانا فى أَشَدِّ الحاجة إليه وهو أن معارضة الدين والإصرار على هذه المعارضة، ورفض البرهان القاطع، لا يجوز أن تُنْسينَا اللحمة التى بيننا وبين هؤلاء المعاندين، وأنهم قومنا، وأنهم منَّا وأن الذى علينا هو البيان، والبلاغ، ومن تمام البلاغ والبيان أن نبلغهم وعيد الله وتهديده لمن عارض الحق، وأصَرَّ على المعارضة لأن هذا من تمام النصح لقومنا، وإذا أنزلنا الآية على واقعنا وهذا هو الواجب ترى أن العائلة الواحدة الذين هم أبناء أب واحد، قد يكون منهم أهل الله الداعين إليه، وقد يكون منهم الشارد تحت أى تسمية من تسميات العصر، يعنى قد يكون تقدُّمياً ماركسيا، وقد يكون علمانيا، أو لبراليا أو ما شئت مما يَتَمَذْهب به من حولنا ممن أدخلوا رؤوسهم فى مذاهب صاغها آخرون، ورأوا فى ذلك تنويرا، وتحديثا، ونهوضا، المهم أن الآية تقول إن لحمة الرحم سواء كانت فى أبناء أب واحد، أو أبناء وطن واحد، لا يجوز أن تُدَمِّرها هذه الخلافات ولو كانت الخلافات بين إيمان وكفر، وهذا جيد جدا، وهو برهان على أنه من عند الله؛ لأن كبح جماح النفوس المتنافرة فى العقائد لو دَمَّر العلاقات التى بين أبناء وطن واحد لكانت حياتهم كارثة لا تطاق، هذا ما أفهمه من قوله سبحانه (يا قوم) لأن الله سبحانه يرسم طريق الدعوة فى خطاب رسوله ﷺ، والذين يبلغون رسالات الله من بعده، ولن أكون أنا ولا أنت أكثر إخلاصا لدين الله من رسول الله ﷺ الذى أمره ربه أن يذكر هذه اللحمة وهو فى مَعْمعة إصْرار قومة على الشرك، مع أنه بين ظهرانيهم، وينزل عليه جبريل عليه السلام وهم يعلمون ذلك، ثم هم يرفضون ما يدعوهم إليه حسدا من عند أنفسهم، أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده، هم يكفرون بما أنزله الله عليه حسدا من عند أنفسهم ويُؤْمَرُ بأن لا ينسى أنهم قومه، وأقول مرة ثانية أشهد أن هذا كلام الله.

وشيء آخر وهو أنه عليه السلام فى الوقت الذى لا يجوز له أن ينسى اللحمة التى بينه وبينهم يقول لهم ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ ومكانتكم معناها

مكانكم وهو مجاز عن الحال التى هم عليها من العناد، والرفض، والإصرار، وكأن الأجـواء التى تُغْريهم بالرفض والعناد، صارت بمثـابة المكان الذى يُحيط بهم، والمعنى يؤول إلى أنكم قومى مع لجاجتكم فى العناد، ورفض ما أرسلت به إليكم، وأقول لكـم ستبـقون قومى مع هذا الإلحـاح وهذا الإصرار، وهذا الأمر فى قوله ﴿اعْمَلُوا﴾ فيـه غضب شـديد وتهديد، ووعـيد، وقد انـتقل الكلام من التحليل المنطقى لتنـاقضهم فى اعتقـادهم وسؤالهم عن الذى خلق السموات وإقرارهم بأنه الله، ثم بيـان أن ما يدعونهم من دون الله لا يملكون كشف الضر إلى أمْـرِهم بالعمل على الحال الذى هم عليه، ولما لم يستـجيبوا للبرهان الساطع أمرهم بمحاداة البرهان، ومزيد الغضب يسكن فى هذا، وكأنه يأمرهم بالعمل الموجب عذاب الله، وخـزى الدنيا والخلود فى الجحيم، وكل هذا تحت كلمـة "ياقـوم" وهكذا نجـد أطيـاف المعانـى والخواطر تَتَـضَـارب وتَتَقَاربُ، وكأنها مزيج من المتناقضات وهذا من أرقى صور البيان.

وقوله سبحانه ﴿إِنِّي﴾ يضيف إلى الموقف مزيدا من الشِّدَّة والسخونة، يعنى اعملوا على طريقتكم فى الرفض، وإنا عاملون على طريقتنا فى البيان، والبلاغ، ولاحظ التوكيد بكلمة إنَّ، وإسمية الجملة وحذف المتعلق يعنى لم يقل إنى عامل على مكانتى مع أنه هو المراد وإنما حـذف المتعلق اختصـارا كما قال الزمـخشرى وإشـارة إلى أننا سَنوُسِّع عـَملنا ونزيده وأننا وأنتم على طرفين مـتناقـضين نحن نجتهد فى بيان الهداية إلى الطريق المستقيم ومعنا من الله البرهان، وأنتم تجتهدون فى تيه الضلال، والإغراق فيه، ثم أنتم مع كل هذا ﴿قَوْمِ﴾.

وقوله سبحانه ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ الفاء فـى قوله ﴿فَـسَـوْفَ تَعْلَمُـونَ﴾ رتَّبَتْ علمـهـم الذى سيـقع فى المستقبل على قوله ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ﴾ يعنى هذا الخلاف الشديد بينى وبينكم وأنتم لاَجُّون فى الرفض، والإنكار، وأنا جادٌّ فى البلاغ والبيان،

سوف تعلمون نتائجه فى المستقبل المتسع للدنيا والآخرة، وجملة «فسوف تعلمون» هى نهاية الآية، ومفعول تعلمون فى أول الآية بعدها مَنْ يأتيه عذاب وكان يمكن أن تكون نهاية الآية ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ وهى موضع وقف وتكون الآية التى بعدها ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ وإنما جاءت على ما هى عليه ليكون ترتب ما بعد الفاء على ما قبلها فى آية واحدة، وهذا الترتب هو محض الوعيد والتهديد، والإشارة إلى أن الله ناصرُه وأنه سبحانه يُخْزِيهم فى الدنيا والآخرة؛ ثم إن الوقوف على رأس الآية يُعطى مُهْلةً للمراجعة، والتدبر، فى الوعيد والتهديد التى انتهت إليه الآية، ويعطى مهلة أيضا لتدبر رأس الآية الثانية ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ وهذه الآية الثانية من الكلام المُنْصف لأنه عليه السلام لم يقل لهم يأتيكم عذاب، مع أن هذا هو المقصود من غير شك، وإنما أبهم تفاديا لما يُوحشهم، وترك الأمر فى صورة المحتمل، كما فى قوله تعالى﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤] من غير أن يقول لهم إنا على هدى وأنتم فى ضلال، وهذا مما يعلمنا فيه ربنا أدب الخطاب، وإذا كان هذا مع أشد أعداء دينه ومع أهل الشرك الذين اتخذوا من دونه أولياء فكيف يكون الخطاب مع غيرهم؟ ثم إن هذا لابد أن يُضَمّ إلى قوله ﴿يَا قَوْمِ﴾ لتكون المقاربة أوضح وأبين وكأنه صورة من قوله سبحانه ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥] وأن أهل الحق لا يَنْسُون الفَضَل بينهم وبين مخالفيهم، وفى مقابلة عمل الجماعة يَعْمَل الواحد فى قوله ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ﴾ إشارة إلى أن عمل الواحد الحق الصادق يَرْجَح عملَ الجمع العَرَمْرَم من الكذابين، والمهوشين والدجالين وأن سر النجاح ليس من كثرة العاملين، وإنما فى الذىَ يُسدِّدُ، ويُصيبُ، ويتْقِن ويصدق، وكلمة «يأتيه» فى قوله تعالى ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أُسند الفعل المضارع إلى العذاب، فدل على أن العذاب المُخْزى يترصَّدهم، ويستعظم جرمهم ويتهيأ لمهاجمتهم ومباغتتهم وأنه يأتيهم من كل مكان،

وفرق بين يأتيه العذاب، وله عذاب، وعذَبَهُ الله أو يُعذّبه لأن يأتيه فيه معنى أن العـذاب قصد إليـه، وجاءه، وكـأنه غاضب منـه، وكأن العذاب يَـرْصُدُ الناس، ويميّزُ الـمُـسْتحـقِّين له، ويباغتهم، وفـيه شيء من معنى قـوله تعالى ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢] وله عذاب معناه أنه أُعـدّ له؛ ويعذبه الله ليس فيـه شيء من هذا، ووصف العذاب بأنه يُخْزِيه فيه معنى أن العذاب آتاه ليخـزيه، وأنه قصد خزايته، وهذا بخلاف بناء الجملة المعطوفة عليها، وهى قوله تعالى ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ لأن يَحلُّ عليه غير «يأتيـه»، وحرف الاستعلاء فيه معنـى أنه يعلوه، ويقهره، وأنه يثقل عليه، وحلَّ بالمكان أقام، وهم أهل مَـحَلَّتهُ أى أهل إقامته ولهـذا كانت كلمة ﴿يَحِلُّ﴾ مُشْعِرةٌ بكلمة ﴿مُّقِيمٌ﴾، وفَسَّروا الإقامة بالخلود وقد تكررت كلمة ﴿عَذَابٌ﴾ وهى نكرة، فأفـادت أن ثمَّةَ عذابين كـما قالوا فى قـوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٦] لن يغلب عـسر يسرين لأن العسر تكرر وهو معرفة، فـأفاد أنه عسر واحد، واليسر تكرر وهو نكرة فأفاد أنه يُسرَيْن، ولهذا فسر العلماء عذاب الخزى بأنه عذاب فى الدنيا، وأن الله وعد رسوله النَّصْرَ، ووعـد أهل الحق من بعده، ولو كان ناصرُ الحق فردا واحدا، وناصر الباطل جَمْعًا عَرَمْرما، كما لاحظوا الفرق بين يأتيه يُخزيه وبين يحل عليه ويقيم معه، وأن الثانى هو عذاب الآخرة، وبهذه الجملة تنتهى الكلمات التى عقـبت على رفضهم للبرهان القـاطع الذى فى قوله تعالى﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ وراجع الكلام بعدها إلى رأس السـورة وهو تنزيل الكتاب ليَـعْبُد الله مـخلصا له الدين ويستوى أن تقول إن المعنى الأم فى السـورة هو إخلاص العبادة لله رب العالمين؛ أو هو ذكر الكتاب لأن تنزيل الكتـاب فى السورة اقترن بإخلاص العبـادة كما هو ظاهر فى أول السورة، وكما هو ظاهر أيضا فى ذكر الكتاب من حيث هو موضع لضرب الأمثـال، فقد ذكر مَـثَل الرجل الذى فيه شركـاء متشاكـسون وهو مثل

الشرك وَمَثَلُ الرجل الذى هو سلَمٌ لرجل وهو مثل الإخلاص والحديث فى القسم الذى نحن فيه عن الذين يدعون من دون الله وهم الذين اتخذوا من دونه أولياء.

والآيات التى انتقل إليها الحديث وذكرت الكتاب هى قوله تعالى ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ**﴾ [الزمر: ٤١] وهى أقرب الآيات إلى قوله تعالى فى مطلع السورة ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ**﴾وراجع الآيتين تجد الأولى لم يذكر فيها ﴿**لِلنَّاسِ**﴾، وقيل فيها ﴿**إِلَيْكَ**﴾، بدل «عليك» ولهذا طولب بأن يعبد الله مخلصا له الدين، وفى الثانية ذكر الناس فآذن ذلك بأن يُحدّث عن الناس من اهتدى منهم ومن ضل. وجملة ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ**﴾ وراءها من المعانى ما لا يحاط به، وتأملها لأنها هى أصل معنى الآية وما بعدها متفرع عنها، وكل كلمة فيها لها دلالة محددَّة، وتخلو خلوا تاما من أى حرف زائد. وقد ابتدأت بالتوكيد بأم أدوات التوكيد، واسم إن ضمير العظمة، والمؤكد هو الإخبار بإنزال الكتاب عليك، ولابد من مراجعة الآيات قبلها لأن الحديث هناك كان مع قومه عليه السلام الذين دعوا من دون الله بعد إقرارهم بأن الله هو الخالق، وبعد إقرارهم بالصَّمْت بأن ما يدعونهم لا يملكون النفع المعبَّر عنه بكشف الضر، ولا يملكون الإضرار المعبَّر عنه بإمساك الرحمة، والنص فيها على قومه فى قوله تعالى: ﴿**قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ**﴾ ليتهيأ الكلام لقوله سبحانه إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس؛ أعنى ذكر تخاذل قومه عن إجابة دعوته ليأتى بعد ذلك الإخبار بأنه مبعوث للناس كافة، وأن أصل بَعْثَتِه كتابٌ أنزل عليه، وهو قرآن عربى وأنتم يا قومه أعلم بأنه كتاب صادق، وكان الواجب أن تؤزِّروه لأنه ذكر لكم ﴿**وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ**﴾ [الزخرف: ٤٤] وهذه الحالة المتخاذلة من قومه

عليه السلام لم تَستَمِر طويلا ومـا لبثوا أن انكشفت عنهم الصوارف، ودخلوا فى دين الله أفواجـا ولم أعرف نبيـا لم يلحق بالرفيق الأعلى إلا بعـد دخول قومه فى دين الله أفواجا إلا هو صلوات الله وسـلامه عليه، وكانوا بعد ذلك رسل رسول الله ﷺ إلى الناس كـافة، ودخل دينُ الله مـا دخل عليه الليل، وكلمة ﴿لِلنَّاسِ﴾ شاملة لكل أجناس البشـر من يوم أن نزل الكتاب إلى يوم أن ينفخ فى الصور، ولم يبعث نبى للناس كـافة إلا هو صلوات الله وسلامه عليه، وكل هذا يجب أن يُعْقَل بعَقْل جـديد يراجع ويتدبَّر ويطرح أسئلة علينا نحن قومه ﷺ، وكيف نُبلّغ ذلك للناس كافة، وكلمة ﴿بِالْحَقِّ﴾كلمة متسعة جدا، لأنها تعنى أن كل مـافيه حق، أمره حق، ونهيـه حق، وتشريعه حق، وحكمه حق، ووجوب تطبيق شرعه حق، وأن التباسه بالحق فى كل قضاياه، وفى كل مـا شرعـه للناس، حق عند جمـيع الأمم فليس فيـه شىء هو حق ونافع لقـوم دون قوم، إنما هـو الحق اليقين عند كـل الأمم وفى كل العصـور والأطوار، ومن وجد فى قـضيَّـة من القضايا وَجْـهًا أبر بالناس كـافة مما فى الكتـاب فليحدث بما وجـد، ولن يُحدِّث لأنه لـن يجد، إذا برئت نفـسه من دخن النفـوس، ولذلك أرانى واحدا من الـذين يَعْجَـبُون من فـزع الناس من تطبـيق شرع الله، لأنى مـؤمن بأن الله خلقنا، وأنزل الكتـاب للناس كافـة، لصـلاح دنيانا، وأننا لـو بحثنا فى كل أضـابيـر الأسفـار فى كل شق من الأرض وفى كل زمان من الأزمنة لنجـد فى التشريع والقـضاء والحكم بديلا أفضل لما جاء فى الكتاب فلن نجد، لأن شرع الله هو شرع فطرة الناس، والله هو الذى فطر الناس، وأنزل الكتاب ليخرجـهم من الظلمات إلى النور، ومن سخف الزمن الذى أعـيشه أن النـظام يُحرِّم القول بـأن الإسلام هو الحل، ويرفع شـعار العلمانية هى الحل، وكأن جملة ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ نزلت لهؤلاء ولو أنصف النصرانى لـطَالَبَ بتطبيق الشـريعة، ليس انتصـارا للإسلام وإنما انتـصارا للحـياة الأفضل وانتصـارا للحق والعدل لأن الشريعة عَدْل مَحْض وبرٌ مَـحْض، وإحسان

محض، ووفاء مَـحْض ليس فيها غـدر، ولا خطف، ولا سلب، ولا قمع، ولا نهب، والعجيب أن من يسمون أنفسهم النُّخْبـة المثقَّفة الفارغة تتصالح مع نظام السلب والقمع والخطف والقتل، وتواجه تطبيق الشريعة بكلٍ ما فيها من شراسـة، وربما عذرنا هؤلاء لأنهم يجهلون الشـريعة، ولأنهم رُبُّوا فى تعليم غابت أو غُيِّبت عنه.

ولم يستطع الفقهاء أن يحـسنوا تقديم شرع الله لخلق الله، وأكرر أن كلمة ﴿لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ كلمة لا نهـاية لمعناها، والذى قلته فـيها قـطرة من بحرها، وأخت هذه الآية فى سـورة النسـاء وفيـهـا النّصٌ على أن الله أنزل الكتـاب ليحكم ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥] وكل ما أُمرَ به عليـه السلام نحن مأمورون به، إلا فيما كان خاصاً به كالمرأة التى تهب نفسها للنبى، وهذا لا يحتاج إلى بيان، وراجع ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ وهذا مهم جـدا لأن الفهم الصحـيح الواعى الذى يوصف بأنه مما أراك الله ضـرورى جدا لتطبـيق شرع الله، وإلا طبقنا غير شـرع الله، وتوهمنا أننا نطبق شرعه، وراجع جملة ﴿وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ وكيف نَهَتْ الآية عن مخاصمة القاضى، للطرف الخائن؟ ثم راجع قوله تعالى ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] ولو راجعت تشريعات الأمم الواعيـة غير الإسلامية، لوجدت فى تشـريعاتها ما يطابق شرع الله، لأنها تُصِرٌ على أن تَشْرع ما يـنفع، فتقع على ما شرعه الله، وهى لا تقصـد، والمعركة بيننا مـحتدمـة بين إسلامية إسـلامية، ومـدنية مدنية، ولو فهم هؤلاء الفرقـاء المختلفون لأدركوا أنهم ينادون بشىء واحد لأن إسلامية إسلامية هى مدنيـة مدنية، لأن الإسلام لا يعرف حكومة دينية، وكان أبو بكر رضى الله عنه ملهما حين قـال فى أول كلمة له بعد رسول الله ﷺ، إن رأيتمونى على صواب فأعينونى، وإن رأيتمونى على خطأ فقوّمونى، فأقر

للأمة بأنه يخطئ، وليس ظل الله فى الأرض، وطلب من الأمة أن تفتح عيونها فى مراقبته، وأن تسارع إليه إما متعاونة معه على الصواب، أو واقفة فى وجهه عند الخطأ، وليس بعد هذا قول لمن يزعم أن تطبيق شرع الله يعنى الحكومة الدينية، وإنما هو التزييف والمكابرة أو الجهل وهو شر الثلاثة.

قوله تعالى ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ﴾ معناها ظاهر، ووراءها معنى آخر فى استعمال كلمة ﴿اهْتَدَىٰ﴾ لأنها دالة على أن الذى أنزله الله هدى وأن هذا رأى الهدى فاهتدى بالهدى، ثم إن كلمة «اهتدى» لم تُقيَّد بمثل قولنا اهتدى إلى أن الكتاب حق، وأن الله حق، وأن محمدا عليه السلام حق، وأن البعث حق، وأن الحساب حق، وأن الجنة حق، وأن النار حق، وقد شملت الكلمة ذلك كله، وهو رأس الأمر ثم أفادت مع هذا أنه اهتدى فى كل أمره.. اهتدى فى درسه، واهتدى فى بحثه واهتدى فى معمله، وفى مصنعه، وفى كل ما يزاوله، لأن الكتاب علَّمه الإحسان فأحسن وعلمه الإتقان فأتقن وعلمه الصدق فصدق وعلمه البر فبر فإن كان قاضيا قضى بما أراه الله، وإن كان حاكما حكم بشرع الله، وأقام العدل، وكف يده عن السلب والنهب والقمع والبطش والفتك والقتل، وكل هذا تصلح به الحياة وتصلح به البلاد والعباد ومِلاكُ الأمر فى كل خير هو الهَدى، وعكسه الضلال الذى هو طريق لكل شر وكل خراب، وكل دمار، وإذا لم أفهم كل هذا من كلمة «اهتدى» ففهمى لها فهم ناقص، وهذا معنى أن الكتاب يخرج الناس من الظلمات إلى النور، من ظلمات الجور، إلى نور العدل، ومن ظلمات التخلف، إلى نور التقدم، ومن ظلمات الجهل إلى نور العلم، والضلال موت والهدى حياة، ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وهكذا أفهم كلمات القرآن التى جاءت مُطْلَقَةً وقيدناها نحن مثل الصراط المستقيم وهو كل طريق يصل إلى مرضاة الله، ومنه إتقان الدرس، وإحسانه، وإتقان البَحْث وإحسانه وإتقان العمل فى المعمل وإحسانه، وإتقان العمل فى المصنع وإحسانه، وأن تكون للصانع بَصمةٌ فى صنعته، وللعالم بصمة فى

معمله، وللأستاذ بصمة فى قلوب طلابه، وللباحث بصمة فى بحثه، وهكذا أفهم مثل قوله تعالى ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، ولا أرى مسعاة فى الخير أقرب إلى الله من مسعاة عالم يريد أن يضع بعلمه لبنة فى بناء أمته، ولا من مسارعة أستاذ يجدُّ ويكْدَح ليثير طاقات الأجيال القادمَة، لتكون لهم الغلبة على أرضهم، وهكذا قل فى مثل قوله تعالى ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٧٤] ولا يمكن أن أقبل أن الرضى بالتخلف من اتباع رضوان الله، ولا يمكن أن أفهم أن اتباع رضوان الله أن نقول للناس صلوا صلوا، والناس يأكلون ويشربون ويلبسون ويَرْكَبُون من صناعة اليهود والنصارى، وأن يكتفى من الدين برفع المصحف والسيف، هذا من التغفيل الذى يمارس على الشعوب، وقد انتهى زمانه وبلغ الشعب العربى رشْده فجأة، وعلى الذين يُغفِّلُون شعوبنا أن يبحثوا عن مخدرات أخرى لأن المخدر القديم انكشف سرُّه وصار عند الشعب مناعة ضده، وأنا متأكد أن كل الذى قلته خارج من تحت كلمة ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ﴾ لأنى أرفض أن يكون هدى الله مع التخلف، ومع القمع، ومع الاستبداد، ومع محرقة الكفاءات التى تنهض بالبلاد، وإبعادها، وتقديم الكذبة المنافقين، الذين ولدتهم أمُّ سوء، وهذا حسبى.

قوله سبحانه ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ معطوف على من اهتدى فلنفسه وبينهما مقابلة، لأن الضلال يقابل الاهتداء، وعليها يقابل فلنفسه، كما تقول له كذا وعليه كذا، ويلاحظ أن الجملة الثانية دخلتها خصوصية فى بنائها، وكان يمكن أن يكون الكلام «ومن ضل فعليها» ليطابق الذى قبله فى حذو البناء، ولكن الكلام عدل عن هذا إلى الذى جاء عليه، ودخلت إنما المفيدة للقصر، ودلَّت على أن من ضلَّ فليس ضلالُه إلا على نفسه، بخلاف من اهتدى فلنفسه، فليس فيه قصر، وكأن هداه لنفسه ولغيرها لأن المهتدى يَفيضُ هداه، ويفيض خَيْرُه عليه وعلى من حوله، وعلى كل ما يزاوله، وهذا ينافى القصر، ولعل الكلام جاء على ما جاء عليه ليشير إلى أن المهتدين ينابيع فى

الأرض يستقى منها الناس، ونجوم فى سمائها يهتدى بها الناس، وبأيهم اقتديتم اهتديتم، وذلك بخلاف الضلال فليس له امتداد فى الناس، لأنه ضد الفطرة وما يضلون إلا أنفسهم، وما من حسابك عليهم من شىء، وأن الله لغنى حميد ولن يضروا الله شيئا.

ثم إنك تلاحظ أن الكتاب العزيز يقف عند أهل الضلالة أكثر مما يقف عند الذين هداهم الله، ولذلك تجد الكلام معهم يمتد ويطول كما فى هذه الآية، فلم تكتف الآية بقوله تعالى ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ وإنما أضافت معنى آخر هو ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ وقد تقدم فيها النفى على المسند إليه المتقدم على الخبر الفعلى، فأفاد القصر، يعنى أنت خصوصا لست وكيلا عليهم، ثم فيه توكيد آخر بدخول الباء على الخبر، وتفيد توكيد نفى أن تكون وكيلا عليهم، لأن أمر العباد فى يد الله، وقد فسَّرَه الزمخشرى بنفى الإجْبَارِ على الهدى لأن التكليف مؤسس على الاختيار وليس على الإجبار، والله سبحانه وتعالى لا يقبل الهدى ممن أجبر عليه. والمطلوب منك أن تبلّغهم الكتاب الذى أنزله الله عليك لهم، وأن نبيّنه لهم وهذه هى المهمة، وهى البلاغ، والكتاب حجة عليهم، ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، وهذا أعدل طريق فى بلاغ الدعوة، وهو طريقك وطريق الذين يبلغون رسالات الله معك، ومن بعدك إلى يوم القيامة، وهذا هو طريق الأنبياء جميعا، وقديما قال نوح عليه السلام لقومه ﴿أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [هود: ٢٨] تأمل الاستفهام الإنكارى فى قوله «أنلزمكموها» وقد تكرر هذا المعنى الرائع فى الكتاب العزيز، وأقرب الآيات إلى آية الزمر قوله تعالى فى سورة يونس ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: ١٠٨] والفرق هو أنه جاء فى يونس ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا

يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ وقال فى الزمر ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ﴾، والحق الذى جاءهم من ربهم فى يونس هو الكتاب الذى أنزله الله عليه للناس، وآية يونس خطاب للناس، فناسب أن يقال ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ ليؤكد لهم أن هُدَاهُمْ ليس إلا إلى أنفسهم، وأنه لا يَعود عليه من هداهم شيء، ولا من ضلالهم، وإنما عليهم أن يتدبروا الحق الذى جاءهم، وكل نفس بما كسبت رهينة، وهذا بخلاف ما فى الزمر فإن الكلام إخبار من الله سبحانه، وليس خطابا للناس، وإنما يقول ربنا إنه أنزل للناس كتابا فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، وزاد فى الحديث عن الذى ضل ليومئ إلى وعيده، وعقابه، وجملة ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ هى جملة ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ والفرق هو أن جملة يونس مما أمر أن يقوله عليه السلام، وجملة الزمر إخبار من الله له عليه السلام وهذا مُسْتَوحًى من كلام الطاهر. وليس كل ما فى الآيتين؛ ولا يزال مناسبة كل لسياقها ومقامها فى حاجة إلى نظر، ثم إن آية يونس سبقت بمثل ما سبقت به آية الزمر وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [يونس: ١٠٦- ١٠٨].

ضع قوله تعالى ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ بإزاء ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ ثم ضع قوله تعالى ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ بإزاء قوله ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٣٨] وابحث فى فروق الصياغة وهذا من المعانى التى تتوارد عليها الصور، وأغمض ما فيه هو ملاءمة كل صورة لمقامها، وعبد القاهر الذى

أشبع هذا الباب درّبنا على معرفة الـفروق وكان هذا حسبه، ثم سكت سكوتا مطبقا عن معرفة مطابقة كل فرق لسياقه، وبقى شىء فى سر زيادة (فإنما يضل على نفسه) فى الـزمر وهو أن الذى سَبَق هذه الآية أكـثره حـديث عن من ضَلَّ، راجع آية ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ وتوابعـها من دعـائهم من دون الله من لا يكشف الضر ولا يمسك الرحمـة ثم الوعيـد فى ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ ثم الوعيد فـى العذاب الـمُخْزِى، والوعـيد بالعذاب المقيم، وكل هذا من شأنه أن يطيل الكلام فى شأن من ضَلَّ ،هذا والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢].

وأول النظر فى الآية هو علاقتها بما قبلها، وهذه العلاقة هى علاقة النسيج الواحد الذى يربط الأجـزاء والأعضاء بعضهـا ببعض، لأن الواقع فى الدرس تجاوز ما نُسمِّيه المناسبـة إلى شىء آخر نرى الكلام فيه يتولد بعضه من بعض، ومن المفيـد أن أرجع إلى آية ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾، وأُبيِّن ربْطها بالتى قبلها، حتى إذا ما بينت ربط هذه بآية ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ تكون العلاقة الأوسع قد ظهرت وتجلت، وآية ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ جاءت بعـد بيان ظاهر لتناقض ظاهر تنطوى عليه قلوبهم وعقولـهم، مع أنهم قوم يعقلون كما وصفـهم ربنا، هذا التناقض هو الإقرار بأن الله خلق السـموات والأرض ثم عبـدوا غيره، وهذا الغـير لا يضر ولا ينفـع، وهذه الحالة المختلفـة لا يجوز بقاؤها، ولابُدّ من نزول كتاب للناس، ليصـحح ما تنطوى عليه عقائدهم من فـسـاد، وتناقض، وهذا هو السـر فى أن آية الكتـاب ذكـرت هنا أنَّه للناس بخلاف آيـة مطلع السورة، يعنى للناس الذين هذا حـالهم، ثم ذكرت كـلمة (عليك)، بدل (إليك) الذى فى أول السـورة للإشارة إلى أن بلاغ كـتاب الله

الداعى إلى الهدى والمنقذ من الضلال أمر شاق لأن كلمة (عليك) فيها ما يشعر بالمشقة كما فى قوله تعالى ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ [المزمل: ٥] وهذا بيان لامتداد آية ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ وأن الناس الذين هذا شأنهم فى أشد الحاجة إلى من يخرجهم من الظلمات إلى النور.

أما وجه ربط ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ﴾ بآية ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ فليس الأمر فيه مقصورا على الصلة التى بين فاصلة آية الكتاب، وهى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ والمفيد أن أمرهم موكول إلينا، وأن أمرهم فى أيدينا، وأننا سنحاسبهم لأنهم يموتون كما ينامون، ثم يُبْعثون كما يَسْتَيْقِظون، أقول ليس هذا الوجه وإن كان وجها جيدا.

وإذا كانت آية ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ إلى آخرها هى برهان قريب جدا من كل نفس، يُقَرِّر هذا البرهانُ أن أنفس الناس فى يد الله، وأنه قضى لكل حيّ أجلا، وأنه سبحانه قادر على أن يتوفى النفوس حين يحين موتها، بدليل أنه يتوفاها حين نومها، وأنه قادر على أن يبعثها بدليل أن حالها حين تستيقظ بعد النوم الذى يشبه الوفاة، يشبه حال البعث. أقول إذا كانت الآية تدور حول بيان برهان البَعْث بهذه الطريقة السَّهْلة القريبة، فإننا نستطيع أن نضع هذه الآية بعد الآيتين قبلها فى تسلسل منطقى ظاهر جدا، وكاشف، ليس للمناسبة بينها وإنما كاشف لترتب بعضها على بعض ترتيبا منطقيا لا لَبْس فيه، وبيان ذلك هو أن الآية الأولى التى تبدأ بقوله تعالى﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ تكشف التناقض الذى قام عليه اعتقادهم فى دعوتهم ما يدعونهم من دون الله ممن لا يملكون نفعا ولا ضرا، ثم جاءت آية الكتاب الذى أُنزل من الله للناس ليصَحّحَ عقائدهم، ثم جاءت آية الله يتوفى الأنفس لتبين أن الذى بعد نزول الكتاب وإقامة حجة الله بكتابه على الناس، هو البعث، والحساب، والجنة، والنار، لأنه ليس من المنطقى أن يكون هناك تكليف بالكتاب، ثم لا يكون هناك حساب، وهكذا تجد هذه الحقول الثلاثة من

حقول المعانى تترتب وتتتابع وكأنها جسم مُمْتَدٌّ أو معنى واحد، له رأس هو فساد المعتقد، ثم له وسط هو نزول الكتاب، ثم له نهاية هى البعث والحساب، هذا والله أعلم.

وابتداء الآية بلفظ الجلالة ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ﴾ له فى هذا السياق أهمية جليلة، لأن السياق يحدِّث ويحاورُ ويَسْتَفسرُ ما عليه الذين يدعون من دون الله فجاء لفظ الجلالة من أول الآية الحاسمة فى هذا الشأن ليبْرزَ الحق الذى يروغون منه، ثم أسند فعل ﴿يَتَوَفَّى﴾ إلى المسند إليه المتقدم، فتأكد الإسناد بتكراره، وتأكد الاختصاص، لأن الاختصاص هنا مدلول عليه باللفظ، وهو تقديم المسند إليه على الخبر الفعلى، ومدلول عليه بالفعل لأنه لا يتوفى الأنفس إلا خالقها، ومالكها جل وتقدس، وكلمة الأنفس جامعة لكل الأنفس، ومشيرة إلى أنفس الذين اتخذوا من دونه أولياء، المذكورين فى قوله تعالى ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ﴾ [الزمر: ٣٨] وكلمة (حين موتها) تعنى الأجل المسمى لكل نفس ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤] والتى لم تمت معطوفة على حين موتها، والمعنى ويتوفى التى لم تمت فى منامها، فالكل متوفى إمَّا حين الموت، أو حين النوم، وهذا معناه وضع الكل فى مواجهة الموت، وأن الذى وضعهم فى هذه المواجهة هو الله سبحانه، والكل فى كل يومٍ يتوفى، وكأن النائم على سريره نائم فى قبره، والكل يذوق الموت فى كل يوم، ويزاوله، إما حقيقة وإما مجازا، حتى يأتى وقت الحقيقة، وهو آت لا محالة وكل آت قريب، وقد نبهنا ربنا فى هذه الآية وفى غيرها بأن الموت وفاة، ﴿يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، يعنى ما اكتسبتم، وكأننا مع كل ليلة نمر بتجربة الحساب، لأننا نتوفى فى النوم، وتحت الوساد عِلْمُ الله بما جرحناه فى النهار، وكلنا فى حالة انتظار ملك الموت الذى وكل بنا، ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١] وهذه الآية الكريمة تصوير حىّ لتجربة الموت، والله

سبحانه وتعالى يقول لنا وقوله الحق أنه يتوفانا ونفوسنا بين نفسين نفس حان موتها، ونفس لـمَّـا يحن بَعْد والكل متوفى، ثم يمسك سـبحانه النفس التى حان موتها والتى قضى عليـها الموت أو قضى أجلها ثم يرسل الأخرى ليس مطلقا وإنما إلى أجل، فـالفرق بين من حان موتها والتى أمـسكها ربنا والتى أرسلها إلى الأجل هو فرق فى الزمن لا غيـر، وهذا تصوير دقيق جدا وحيٌّ جداً، ويقول لمن لم يتدبر الكتاب التى تقوم به الحجة إن الأمر جد، ونفسك فى قبـضة الله، وأنت ميت كمـا قالت الآية السابقـة، إنك ميت يعنى وقع الموت عليك وإن كنت حيا تخاطب وتسمع، وإنهم الذين هم أنا وأنت وهو وهى ميِّتون يعنـى ماتوا ودخلوا القبور والمسألة مسـألة زمن لا غير، وما دام الأمـر كذلك فـلابد من أخذ الأمـر بجـدٍّ ولابُدَّ من تدبُّر الآيات ولابد من تطهير النفس، وهى فى فسْحَةٍ من أمـرها، وقبل المباغتة، وكلمة ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ تأخذنى عَنْوة إلى الآلهة الكذوبة التى وصَفَتها الآية الأسبق بقوله جل وتقدس ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ لأن الإمساك منفى عنها، وإمسـاك الأنفس هنا إرسالها، ليس بعده برهان عـلى المعبود بالحق، والإرسال إلى أجل مسمى هو إرسالها إلـى حين موتها وكلمة الإمساك رباط لا يصح أن نتجاهله وقـوله سبحانه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ هذه الفاصلة ترجع بنا إلى الذى سبق لنستخرج منه آيات ليست فى ظاهرها الذى قلناه وأن التفكير المتجـدد فيها ينطقها بمضمـرات فى داخلها، وقد دلّت الفاصلة على أن فى الذى مضى آيات وليست آية واحدة وأنه خبيئ لا يظهر إلا بمراجعة، وتدبُّر، وتفكر فما هو؟ وقبل ذلك ننظر فى بنائها وأنـها ابتدأت بالتوكيد، ثم تقديم الجار والمجرور الذى هو موضع الخبيئ ومدلول عليه باسم الإشارة الذى للبعـيد، ليشـير إلى بعد مناله ثـم ذكر القوم الدال على أن قـوام أمرهم على التدبر والتـفكر وأن هذا شأنهم ثم المضـارع الدال على تجدد التـدبر والتفكر، ومعلوم أن الـتفكير يسـتلزم التعـقُّل والتيـقظ والعلم وحسن الاسـتنباط،

ووراء هذا كله الآيات التى يجب أن تستخرج مما مضى بالنظر والفكر، والذى فيه الآيات هو اسم الإشارة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ واسم الإشارة راجع إلى إمساك كل نفس حان موتها وإرسال كل نفس حتى يأتى أجلها، والآيات تكمن هنا فما هى؟ لاشك أن الإجابة عن هذا السؤال مفتوحة للاجتهاد، وقد أرى غير الذى ترى لأن من أعظم آيات الله أنها متسعة جدا وفوق كل أفق وفوق كل تدبير، والذى أراه فيها أن أول آية فيها هى إعجاز الآية الذى لا يجوز أن يعارض فيه معارض واقرأها ثانية ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وراجع وتدبّر واستحضر صور الشعر والنثر وضع كل شعر، وكل نثر بإزاء هذا السطر، فإن رجح شىء منها عليه فردًّ قولى ولا عليك.

والأمر الثانى أو الآية الثانية التى تحتاج إلى التفكر هى أن كل نفس فى الأرض وفى جو السماء من إنسان وحيوان وطير سواء كانت فى بر أو فى بحر يمسكها ربنا إذا حان حينها أوْ يُرْسلها ربنا إذا بقى من أجلها شىء، وتدبر هذا فى البر كل البر وفى البحر كل البحر وكيف يحيط به ربنا فى كل لحظة، وفى كل زمن وكيف يبسط قبضته على كل ذلك، وما وراء ذلك من علم لا حدود له، ومن قدرة لا حدود لها، ثم راجع تحديد الآجال لكل ذى نفس، والأصل الذى قام عليه هذا التحديد، وما وراء ذلك من حكمة، ثم تدبر أن كل هذا لا يكون إلا من الحى القادر الرحيم، وأن الذى فى إمساك الأنفس وإرسالها كالذى فى خلق السموات والأرض ليس له سبحانه شرك فى شىء، ثم إنه لا يمسك الأنفس إن شاء أو يرسلها إن شاء إلا من خلقها. وشىء آخر وهو أن كل ذى نفس فى بر أو بحر ليس له فى نفسه شىء وإنما هى فى قبضة الله، وأن غدُوّه ورواحه، وقيامه، وقعوده، وحركته على هذه الأرض إنما هى منحة من الله، ومُدّة محدَّدة هو وحده سبحانه يعلم نهايتها فلا يجوز لعاقل أن يُضَيعها سُدًى.

وهنا آية من آيات الرحمة فى مرجع اسم الإشارة هى أن الله سبحانه وتعالى أكرمنا وآرانا بعيوننا تجربة الحياة، والموت، والبعث، ونمر فى كل يوم بصورة واضحة وقريبة لهذه التجربة، فنحن ننام كما نموت، ونستيقظ كما نبعث، وأقل درجة من التعقل تدرك هذه التجربة، تموتون كما تنامون، وتبعثون كما تستيقظون، والمعضلة الأم عند المنكرين للبَعْث هى استبعاده، وعدم إمكانه، ونسى هؤلاء أنهم يمرون بشبيه هذه التجربة فى كل يوم، وأنه كما يذهب الوعى عند النوم، ويعود عند اليقظة كذلك تذهب الروح عند الموت وتعود عند البعث، والقرآن فى الآية الكريمة وفى غيرها سَمَّى النوم وفاة ﴿يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، ليقرب لنا هذه الصورة حتى لا ينكرها إلا مكابر، والآية الكريمة تقول لنا فكروا فيما تُزَاوِلُونَ؛ وحاولوا أن تَنْفُذوا إلى سِرٍّ كل شىء فى حياتكم، لأن حياتكم مليئة بالعبر، وعدوكم الأول هو الغفلة، وليس أبر بكم من الفكر واليقظة، والتنبه المفضى إلى الاعتبار، عليك أن تفكر، وأن تقيس، وأن تستنبط، عليك أن تباشر، وتزاول ما يباشر الفيلسوف ويزاوله، كل ذلك بتلقائية، وعفوية، بعيدا عن التَّنَطُّس، والاستعلاء الفارغ، القرآن العظيم يحدِّدُ ملامح حياة السالكين إلى الله المستضيئين بالكتاب وأنها حياة تعتمد على النظر، واستخلاص الآيات، والأسرار المنطوية فى كل ما يحيط بنا، وليس الإسلام ولا القرآن مسؤولا عن هذه الغفلة، وهذه العشوائية التى يعيشها المسلمون الآن، والدعوة إلى العودة إلى الإسلام، ليست فقط إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وإن كان هذا من الأركان التى لا يقوم الدين إلا عليها، وإنما أيضا العودة إلى مثل قوله تعالى ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]، ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ [النمل: ٦٩] وكلما وجدت كلمة ﴿انظُرُوا﴾ فى الكتاب أحسست أن الحق جل وتقدس جعل لنا محرابين محرابا فى المسجد نَغْسِلُ فيه نفوسنا من أوضار الكذب، والنفاق، والأنانية، ومحرابا هناك فى الصحف،

والمعمل، وحلقات الدرس، وقد سمعت العلم من شيوخ أجلاء كانوا فى الدروس كأنهم فى المحاريب، وهذا هو الذى يجب أن يعود.

قوله سبحانه ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَ لَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ﴾ كلمة ﴿أَمِ﴾ التى افتتحت بها الآية الكريمة معناها بل، والهمزة وبل تعنى الإضراب وهو هنا إضراب انتقال؛ يعنى ينتقل الكلام بها من موضوع إلى موضوع، والهمزة المضمرة فى ﴿أَمِ﴾ معناها الإنكار التوبيخى، يعنى اتخذوا من دون الله شفعاء وما كان لهم أن يتخذوا والفعل ليس منفيا لأنهم اتخذوا، وإنما المنفى هو الانبغاء أى ما كان ينبغى أن يكون. وقد شرحت ذلك لأن موقع أم هنا موقع متمكن جدا، ولم أقع على مثله فى شعر ولا فى نثر، وذلك لأنها جاءت بعد أدلَّة ناطقة بالحق المبين، ودامغة لاتخاذ الأولياء، وقد كشفت الآياتُ دلائل الإبطال وكشفت عن هذا الباطل كل سِتْر يُغَشّيه ثم هو ذاته باطل عُرْيَان، راجع ابتداء من قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ ثم راجع الكلمات الدالة على التمكن والثقة المتناهية فى الحق، الذى يدعو إليه صلوات الله وسلامه عليه، وقوله لهم بأمر ربه ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ﴾ ولو قالها المختار من عند نفسه لكانت دالة على فرط ثقته فيما هو عليه، فكيف وقد أمره الذى يَسْجُد له كل من فى السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب، قالها له ليؤكد لهم أنهم سائرون فى طريق فيه خِزْىٌ فى الدنيا وعذاب فى الآخرة، ثم راجع ذكر الكتاب الذى أنزله سبحانه للناس بالحق، ثم راجع آية ﴿يَتَوَفَّى الأَنفُسَ﴾ وهى آية فيها آيات، ثم بعد ذلك تُصِرُّ هذه العصابة المخذولة على ما هى عليه وتتخذ من دون الله شفعاء، الموقع الذى قلت إننى لم أعرفه فى شعر ولا نثر هو الدلالة على إصرار أهل الباطل على الباطل مهما رُفِعَتْ لهم المنارات وأضاءت لهم

الأنوار، لأن القضية عندهم ليست البحث عن الحق، والصواب، وإنما هى الحسد، والبغضاء، أن يُنَزّل الله من فضله على من يشاء من عباده، يعنى القضية قضية أهواء، ولذلك ينصرف عقلاء الناس عن مناقشة ما يدور حولنا من القضايا التى تثيرها أحقاد هؤلاء لأنه لا يَنْقُصهم الدليل، ولو أنزل الله عليهم كتابا فى قرطاس، ما كانوا ليؤمنوا ولو فتح الله لهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون.

وهذه الآية راجعة إلى آية المطلع ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾وكلمة ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ التى فى المطلع صالحة لأن يكون المراد بها شفعاء، وصالحة لأن يكون المراد بها الأنداد الذين كانوا يحبونهم كحب الله وقولهم ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ صرَفت الأولياء إلى الشفعاء، لأن الذى يقرب إلى الله هو الشفيع، وقد جرى هذا القول على لسانهم، لأن تقدير الكلام قائلين ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾، والكلام فى هذه الآية ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾ إخبار عنهم وليس إخبارا منهم، وكأنهم هناك أقَرَّت ألسنتهم بأنهم يعبدونها لتقربهم إلى الله والكلام هنا خَبَرِ مؤسس على هذا الإقرار، ثم يلاحظ أن السورة ربطت ثلاث معان هى الكتاب وإخلاص العبادة، واتخاذ الأولياء، وجاءت هذه الثلاثة متتابعة فى أول السورة مبتدئه بذكر الكتاب ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ ثم ترتيب الإخلاص فى العبادة على هذا الإنزال ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ ثم تأكيد هذا المعنى ﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ ثم التحذير من ضده ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ ثم الوعيد ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ [الزمر: ٣] وكلما ذكر الكتاب فى السورة كان ذكره فيه دلالة على اصطحاب هذين:

١- إخلاص العبادة.

٢- المقابل لذلك، وهذا يرجح ما قلتـه من أن إخلاص العبادة هو القطب الذى عليـه المدار فى السورة، وأن الذين يسـاقون زمرًا فى آخـرها هم الذين أخلصوا العبادة لله، والذين اتخذوا من دونه أولياء، وهذا ظاهر إن شاء الله، ولما جاء ذكر الذين يتخذون من دون اللـه أولياء فى أول السورة، لم يَقْتَرن بما يدل على فساده وإنما اقـترن بوعيدهم، وهنا اقتـرن بما يَدُلُّ على فساده، ومن لطيف المناسبة بين الآيتين فضلا عن تكرار كلمات اتخذوا ومن ودون إلى آخر ما يؤكد أن الآية الأولى هى مَرَدُّ الثانية، وأن الثـانية لا محالة تأرز إليها أقول بجـانب هذا نجد مـقطع المعنى فى الجـملتين عند الهـمزة الممـدودة ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾ انظر: أولياء شفعاء وليس هذا فحسب وإنما بعـد الأولى القول المحذوف ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ أى قائلين، وما بـعـد الثـانية الـقـول المـذكور ﴿قُلْ أَوَ لَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا﴾وفعل الأمر فى صدر هذه الجـملة له تميز ظاهر، لأن مقول القول يشوبه استخفافٌ وتهكمٌ وسُخريةٌ لأنه مؤسس على سؤال يسأل عن أقل ما يجب أن يَتَوفّر من الذى يُعْبد، وكلمة﴿شَيْئًا﴾ فى قوله: ﴿قُلْ أَوَ لَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا﴾ التنكير فيها يفيد التقليل، والتحقير، يعنى عبدوهم وهم لم يمتلكوا شـيئـا أىَّ شىء وإن تناهى فى القلَّة والحـقارة، ثم إن الجـملة الكريمة أمعنت فى الاستخفاف والسخرية، وانتقلت من نفى ملكية أى شىء، وإن قَلَّ وضَؤُل إلـى افتقـادهم أهليـة الملك، وأهلية كل شىء، لأن العَـقْل هو مناط الاعتبار والاعتـداد والذى فقد العقل فقد أساس الاعتـبار، والاعتداد، ولهذا كان الانتقال من قـوله سبحانه ﴿قُلْ أَوَ لَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا﴾ إلى قوله: ﴿وَلا يَعْقِلُونَ﴾ أقول هذا الانتقال فيه لَذْعٌ أشد؛ واستخفاف أبين، ويلاحظ أن الآية الكريمة لم تَرُدّ الشفاعة، وإنما ردت أهليـتهم للشفاعة، والذين لا يملكون شيئًا ولا يعـقلون الأصنام، والخلل والباطل كان فى عبادتهـا، مع أنها ليست

معبودة لذاتها، وإنما هى صور وتماثيل لرجال صالحين كانوا فى الزمن الأول، وتعلقت بهم القلوب، وانحرف هذا التعليق وصار اعتقادا بأن الله يقبل شفاعتهم فى الذين عبدوهم، ثم صَنَعُوا لهم تماثيل وانحرفوا انحرافا مؤسسا على الانحراف الأول، وهو الاعتقاد بأن التماثيل المصنوعة تُقَرّبهم إلى الله زلفى، وتكون لهم شفعاء عند الله، والعجيب فى هذا الباطل الصريح المحض أنه ابتدأ من نقطة طيِّبة صالحة مُضيئة وهى حب الصالحين، وحب الصالحين مَطلبٌ يدعو أهلُ الله به، والتحاب فى الله من أكرم الخُطَا التى يقطعها السالكون سبيلهم إلى الله وهذا يعنى أن أهل الإيمان على حذر شديد، وعلى خطر شديد، لأن الانحراف قِيدَ نملة قد يُؤَدِّى إلى تغيير شامل للطريق، وتنتقل به القدم من طريق الله المستقيم إلى عكسه، ونسأل الله أن يُسَلّمنا ويثبتنا؛ ومن العجيب أن الباطل المحض يولد من الحق المحض، وأن الخير يأتى بالشر كما جاء فى الأثر، والواو التى فى قوله: ﴿**قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا**﴾ تعطف على مسكوت عنه مقدَّرٍ فى النفس لا يجرى به اللسان، وهذا من عجيب البيان، وتقدير الكلام أيجوز أن يتخذوا من دون الله شفعاء ولو كانوا لا يملكون ولا يعقلون؟ هذا لعمرك فى القياس غريب!!

قوله سبحانه ﴿**قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا**﴾ [الزمر: ٤٤] قل التى ابتدأت بها الجملة أخت قل التى قبلها﴿**قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا**﴾ الأولى تَنْفى أهليَّة شفعائهم، وأنهم ليسوا صالحين، لأن يكونوا شفعاء ولا تنفى الشفاعة فقط وإنما تنفى الصلاحية وهذا أبلغ كما قلت، وقل هذه تنفى عن الذين اتخذوهم شفعاء أن يكونوا أهلا لاختيار الشفعاء، الأولى تنفى الأهلية عن المعبود والثانية تنفى الأهلية عن العابد وتقديم الجار والمجرور فى قوله: ﴿**لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ**﴾ للاختصاص فليست الشفاعة لأحد إلا له وقد أخذ البعض بظاهر هذه الجملة ونفى الشفاعة، وهذا ضعيف لأن الجملة تُثْبتُ الشفاعة لله سبحانه، وهذا لا يمنع أن يأذن سبحانه بها كما قال جل وتقدس ﴿**وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ**

لهُ﴾ [سبأ: ٢٣] وقال: ﴿مَا من شَفيعٍ إلاَّ من بَعْد إذْنه﴾ [يونس: ٣] وقال: ﴿يوْمَئذٍ لاَّ تَنفعُ الشَّفَاعَةُ إلاَّ مَنْ أَذنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضيَ لَهُ قَوْلاً﴾ [طه: ١٠٩]، وقوله سبحانه: ﴿لَّهُ مُلْكُ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إلَيْه تُرْجَعُونَ﴾ معنى الجملتين واضح ومتكرر فى الكتاب العزيز والمهم معرفة سر مجيئها هنا، ومن السهل تحليل بناء الجملة وتحديد معانيها الظاهرة، والخفية، ومن غير السهل معرفة سرٍّ وقوعها فى موقعها الذى وقعت فيه، وهذا هو الذى لم تشبعه كتب التفسير وهو من جوهر علم البلاغة لأنه داخل فى المطابقة، والذى أراه هنا أن هاتين الجملتين من أجَلِّ تجليات الألوهية، ومجيئها بعد الجملة السابقة الدالة على اختصاص الشفاعة بالله رب العالمين يفيد معنى أن الشفاعة أمر إلهى، لا ينازَعُ فيه، كما أن امتلاك السموات والأرض لله رب العالمين لا ينازَعُ فيه، وكما أن الرجوع إليه سبحانه لا يُنَازَع فيه، وكما أن امتلاك غير الله لشىء فى السموات والأرض يفضى لا محالة إلى فسادهما كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فيهمَا آلهَةٌ إلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ منْ إلَهٍ إذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إلَهٍ بمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١] كذلك لو امتلك أحد شيئًا من الشفاعة لاختلَّ الثواب والعقاب، وهما الحق الذى قامت عليه السموات والأرض، ثم إن دليل إبطال الشفاعة فى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَوَ لَوْ كَانُوا لا يَمْلكُونَ شَيْئًا﴾ قائم على نفى الملكية وقابله إثبات الشفاعة لله بإثبات الملكية، هناك لا يملكون شيئًا أى شىء، وهنا لا يفلت من ملكه سبحانه فى السموات والأرض شىء أى شىء، وهناك إشارة إلى أنهم غير مؤهلين لأن يملكوا دل على ذلك كلمة ﴿كَانُوا﴾ وصار المعنى ليس هو أنهم لا يملكون وإنما هو أنهم غير مؤهلين، والشأن فيهم ألا يملكوا، وهذا شىء آخر، ولك أن تلاحظ معنى التعليل فى جملة ﴿لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ وأنه تعليل لاختصاص الشفاعة به سبحانه والمعنى لله الشفاعة جميعا لأن له ملك السموات والأرض، ولك أيضا أن تلاحظ فيها معنى

التوكـيد، لأن مُلك السموات والأرض تدخل فـيه الشفاعـة، وتكون الجملة الثانية مـؤكدة لمعنى الجملة الأولى، لأنها أعم منهـا، ولك أن تقول أيضا إن جملة ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ مفـهوم معناها من الجـملة قبلها لأنَّ المخـاطبين بها داخلون فى عموم ملك السموات والأرض، وما دام هو سبحانه مالكنا، فلن نرجع إلى غيره، لأن هذا الغيـر ليس موجودًا، ودخول كلمة ﴿ثُمَّ﴾ أجرى فى هذه الجملة معنى آخر، هو أن لها عند المخاطبين شأنا ليس للذى سبقها، وذلك لأن تجليات الألوهية فى اخـتصاص الشفاعة بالله، واخـتصاص ملك السـموات والأرض لله يبـعث فى نفوسنا الجـلال والهيـبة، وذلك بـخلاف اختصـاص الرجوع إليه فإنه مع مـا فيه من معنى الجـلال والهيبة فـيه خوف وَوُجُوب قلب، لأن أقـسى ما نواجهـه هو الرجوع إليـه والوقوف بين يديه، «وترى كل أمة جاثية كل أمـة تدعى إلى كتابها»، وهذا هو الذى يجعل الولدان شيبـا، وهذا هو اليوم العبوس، وأهل الله ليس لهم رجـاء يعلو رجاءهم أن يقـيهم الله شـر ذلك اليوم، كلمـة ﴿ثُمَّ﴾ نقلت الحديث إلى حـالتنا التى تَتَزَلْزَلُ فيها نفوسنا عند ذكر اليـوم. وأكَّد هذا المعنى الانتقالُ من طريق الغيبة فى قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾ إلى طريق الخطاب فى قوله ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ هذا والله أعلم، وذكر بعض علمائنا أن كلمة ﴿ثُمَّ﴾ فى الآية للترتيب الـرتبى، وذلك لأن جملة ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تفيد أنه سـبحانه يملك العالم الآخر، وهو أوسع وأشـمل وأبقى من ملك السموات والأرض، وهذا جيـد واللفظ يحتمله وإنما قلت لأن ملك السـموات والأرض يعنى أنه الواحـد الذى لا ينازع فى ملكه والذى لا ينازع فى ملك الدنيـا لا ينازع فى ملك الآخرة.

قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥]

هذه الآية موصولة بـقوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾ لأنها تُحدِّث عن حال من أحوالهم، وتكشف ما فى نفوسهم من ذكر الشفعاء، فلو كانوا صادقين فى أنهم اتخذوهم شفعـاء ليشفعوا لهم عند الله لكان هذا يعنى أن الله هو المرجع، وأنهم يرجـون شفاعة آلهـتهم لهم عنده سبـحانه، ولكان أعظم فى نفوسهم من هؤلاء الوسطاء، والآية تفـيد غير ذلك لأنهم يكرهون ذكر الله وحـده، ويستبـشرون بذكر الآلهـة؛ وهذا رفض للوحدانيـة وتشبث بالشرك. وهذا هو الذى فى كتب التفسير التى بين يدىّ وربما كان القوم لطول مزاولتهم للوثنيـة وعبادة الأصنام التى زعموا أنهـا تشفع لهم عند الله أو أنها تُقَرِّبُهم إلى الله قد ضَـعُفَ إحساسهم بالله، وانصرف إحـساسهم إلى هؤلاء الوسطاء، فكرهوا ذكر الله بدونها، وهذا هو المفهـوم من قوله سبحانه: ﴿إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ يعنى إذا ذكـر الله مع هذه الطواغيت لا تشـمئـز قلوبهم، ويرجّحُ هذا أن وثنيتهم كان وراءها الإقـرار بأن الله خلقهم، وخلق السموات والأرض، وسخر الشـمس والقمر، وأنزل من السماء ماء، وأحـيانا أجد فى شعرهم ذكـرا لله الواحد مع الأصنام ويكفى اصطفاف أصنامـهم حول البيت الذى يحجون إليه وأنه بَنَاهُ أبوهم إبراهيم شـيخ الأنبياء عليه السلام، وأن كل هذا الاختلاط إنما كان لما طال عليهم الأمـد ولم يأتهم قبله عليه السلام نذير، ولم يبعث فيهم بعد أبويهم إبـراهيم وإسماعيل إلا رسول الله ﷺ، وتواترت النبوات على الأمم من حـولهم من يعقوب ويوسف وموسى وداود وسلـيمان وأيوب إلى آخر ما ذكره ربنا وما لم يذكره، وأستبعد أن يكون القوم كذبوا لما قالوا نعبـدهم ليقربونا إلى الله، أو هؤلاء شفعاءنا عند اللـه، وقد كرر القرآن قـولهم هذا، والذى لا يظهـر فى الآية هو قـوله تعـالى: ﴿الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ والذين اتخذوا الشفعاء مؤمنون بالآخرة، والذين عبدوهم ليقربوهم إلى الله مؤمنون بالآخرة، لأن الشفاعة لا معنى لها عند غير المؤمن بالآخرة، وكذلك التقـرب إلى الله، ويبدو أن هذا فريق والمنكرون للبـعث فريق آخر،

ومعلوم أن القوم لم يكونوا على طريق واحد فى الضلال فقد تعددت الأصنام ومنهم من عبد الملائكة ومنهم من عبد الشمس وسجد لها من دون الله وهكذا، وتكون الآية ذكرا لغير الذين اتخذوا شفعاء ويكون هذا الذكر مشيرا إلى التسوية بين من يتخذ الشفعاء ومن ينكر القيامة، هذا ويمكن أن يقال إن المؤمنين بالبعث وبالآخرة لما كان إيمانهم على غير الوجه الذى هى عليه كان كأنه ليس إيمانا، ولعلَّ هذا هو الوجه الذى رآه المفسرون لما سكتوا عن هذه الصلة ﴿الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ ثم إن القرآن أشار إلى عقائد تؤمن بالبعث وإيمانها به كأنه ليس إيمانا كهذا الذى يقول ولئن رُجِعَتُ إلى ربِّى إن لى عنده للحسنى، أو لئن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منها يريد جنته، وقد ذكر الكتاب العزيز أن اليقين فى الآخرة مقصور على من آمن بما أُنْزِل إليه صلوات الله وسلامه عليه، وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤] مع أن اليهود والنصارى مقرون بالبعث، وقالوا فى وجه ذلك إن إيقانهم فى الآخرة لما خالطه الخطأ والفساد صار كلا إيقان.

وعليك أن تنظر إلى التباعد الذى بين ذكر الحق، وأنه مالك الشفاعة، ومالك السموات والأرض، وأن المرجع إليه، ثم ذكر اشمئزاز قلوبهم عند ذكر من هذا ملكه، وهذا جلاله، وهذه مهابته، وإلى أى مدى ذهب هؤلاء فى السَّفه، والعمه، والجهل، والحماقة، وسوء الأدب، مع أنهم منذ سطور سُئلوا من خلق السموات والأرض فقالوا الله، ومنذ قليل قالوا إنهم يعبدون ما يعبدونهم ليكونوا لهم شفعاء، والباحث عن شفيع يشفع له عند القادر المُقْتدر مُوقن لا محالة بأن هذا القادر المقتدر لا يُدْفَعُ عذابه إلا بشفيع، وراجع كلمة ﴿ثُمَّ﴾ مرة ثانية فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وانتقل منها بسرعة إلى آية اشمأزَّت قلوبهم، لتدرك المفارقات الواسعة والمتضاربة التى

يضعها الكتاب العزيز بين يديك، لترى الشّطط الذى عليه أصحاب الجحيم، ووقوع كلمة ﴿اشْمَأَزَّتْ﴾ فى جواب الشرط يفيد سرعة ترتب الجواب على الشرط، وأنه ملازم له لا ينفك عنه، ولا يتخلف، ثم راجع لفظ الجلالة الجامع لكل الكمالات المطلقة، والمنزه عن كل نقص، وهو الذى يُقرُّون بأنه خالقهم، ثم يكون منهم عند ذكره هذا الاشمئزاز؟ وحاول أن تدرك حقيقة هذا النموذج من خلال هذا التعبير، ثم راجع بناء كلمة ﴿ذُكِرَ اللَّهُ﴾ وأن لفظ الجلالة صار نائب فاعل، ودلالة ذلك على أن المعوَّل عليه وقوع الذكر على لفظ الجلالة مع صرف النظر عن الذاكر، وأن المقصود هو الدلالة على تَوَفُّر الكلام على وقوع الفعل على المفعول، ثم راجع كلمة ﴿اشْمَأَزَّتْ﴾ ولم تذكر فى الكتاب العزيز إلا فى هذه الآية؛ وكأنها تفرّدَتْ هنا لغرابة وشناعة هذا الذى يكون منهم عند ذكر جلال الخالق الرازق، وقد أشرت إلى أن الآيات التى ذكرت فيها كلمات لم تتكرر فى الكتاب العزيز فى حاجة إلى دراسة لأن هذه الخصوصية الأسلوبية تَلْفتُ إلى شىء، والذى فى الآية التى أنا فيها لفت إلى غرابة وخساسة، وسوء أدب، ولم أعرف فى سوء أدب الكافرين موقفا أسوأ من هذا، وعجيب أن نرى فريقا إذا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قلوبهم وفريقا إذا ذكر الله اشمأزت قلوبهم، وقد فسّر العلماء كلمة ﴿اشْمَأَزَّتْ﴾ بانقبضت يعنى إذا ذكر الله انقضبت قلوبهم، وفسروها بنَفَرت، والمعنى إذا ذكر الله نفرَت قلوبهم، وفسروها بالذُّعر والمعنى إذا ذكر الله ذعرت قلوبهم، قال ابن منظور: الشّمْزُ التقبُّض، اشمأز اشمئزازا انقبض واجتمع بَعْضُه إلى بعض، وقال أبو زيد: ذُعِرَتْ من الشىء وهو المذعور، والشمزُ نفور النفس من الشىء تكرهه، وقال الزجاج فى قوله تعالى: ﴿إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ معنا نَفَرتْ، وكان المشركون إذا قيل لا إله إلا الله نفروا من هذا، وقال ابن الأعرابى: اشمأزت نَفَرَتْ، وقال قَتَادة: اشمأزت استكبرت وكفرت ونَفَرَتْ، وفى الحديث «فسيليكم أُمراءُ تَقْشَعِرُّ منهم الجلود، وتشمئز منهم

القلوب» أى تنقبض، وتجتمع، انتهى كلام صاحب اللسان، وصدق رسول الله ﷺ وهم الآن كما وصف صلوات الله وسلامه عليه تَقْشَعِرُّ منهم الجلود، وتشمئز منهم النفوس، وكأنه ﷺ رأى بعينه أمراءنا الذين لم نُؤَمِّرْهم وإنما اغتصبوا أمرنا وتَوارَثُوه بعد ما اغتصبوه؛ ومن ورائهم عدونا الذى يزعمون أنه صديقنا، وكذبوا، والذى يعنينى من نصّ صاحب اللسان أن كلمة ﴿اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ فيها كل هذه المعانى وزيادة، ولست متجاوزا إذا وَضَعْتُ بإزاء هذه الكلمة قوله تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨] وهذا الاشمئزاز من هذا الذى تخفيه صدورهم، وقد ذكر الزمخشرى أن اشمئزاز القلوب لا يكون إلا من شِدَّة العداوة، وحِدَّة البُغْض، وأنه يقابل الاستبشار الذى يكون عند غاية الرضى، والغبطة، والمسرّة، وقد نقل المفسرون عنه هذا المعنى، والاستبشار معناه ظهور المسرة على البشرة، لأن كلمة الاستبشار من البشرة، وهذا الوصف بكل دقائقه ما أراه حولى ليس من أعداء دين الله خارج ديار الإسلام فحسب، لأنى لا أنكر ذلك وإنما أتوقعه وإنما أراه من أعداء دين الله الذين هم منّا ويعيشون على أرضنا، وقد حكى لى بعض إخواننا عن هؤلاء أنهم حين يسمعون الأذان كأن حيَّةً لسعتهم، ويكادون يضعون أصابعهم فى آذانهم، وكأن الآية الكريمة نَزَلَتْ فيهم، وهذا من الإعجاز لأن الكتاب كله كأنه نزل اليوم، ولم أقرأ آية بمعزل عن الواقع الذى أنا فيه، وهذا معنى أن الكتاب أنزل إلينا أو أنزل علينا، وهذا أيضا من معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢] ولا يهلك على الله إلا هالك.

وقد ذكر الزمخشرى أن مَدَار المعنى فى الآية على قوله سبحانه ﴿وَحْدَهُ﴾ يعنى أن المشكلة هى التوحيد وأن العداوة والضراوة لعقيدة التوحيد، ولو ذكر الذين من دونه استبشروا سواء ذكر الله معها أو لم يذكر، لأن الاستبشار

مؤسس على نقض التـوحيد، وهذا ما عليه المحـادون لدين الله حتى إن أهل الكتـاب من اليهـود والنصارى يتـقبلون الإلحـاد القائم على إنكار الألوهـية، والنبوات والكتب بما فى ذلك التوراة والإنجيل، وليس لهم عدو إلا التوحيد، مع أن الكتاب العـزيز الذى هو أساس التوحيـد يُقرُّ النبوات السـابقة والكتب السابقـة ويجعل هذا الإقـرار أصلا فى عقـيدة الإسلام لأن من يـنكر التوراة والإنجيل ليـس من أهل الإسلام، ومع هذا التـقارب الشديد هـم أشد الناس عداوة للإسلام، وأهله، وتشمئـز قلوبهم عند ذكر الله وحده، وهذا عـجيب لا يجد له العـقل تفسـيرا؛ ويستـفاد من هذه الآية المصوِّرة لـنمط غريب من البـشر، أن هناك فـريقا من الناس يـكرهون الحق أشد الكره، ويضـيقـون به ويكرهون العدل، ويضيـقون به، ويكرهون الخير، ويضيقـون به، وفى مقابل هذا يَهَـشُّون للبـاطل، ويَغْتـبطون به، ويقفـون مَعَـهُ، ويؤازرونه، ويهـشون للجور، ويغتـبطون به، ويقفون مع الزور، ومع الشـر، ومع الفساد، وهؤلاء هم أسوأ ما تبتلى بهم المجتمعات.

قوله سبـحانه: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٤٦].

قال الزمـخشرى: بَعِلَ رسول الله ﷺ بهم وبـشدة شكيمتـهم فى الكفر، والعناد، فقيل له ادع الله بأسمائه العظمى، وقل أنت وحدك تقدر على الحكم بينى وبينهم، ولا حـيلة لغيرك فـيهم، وبعل بفتـح الأول وكسر الثـانى معناه دُهش، وكلام الزمـخشرى هذا ارتضـاه كرام العلمـاء بعده وأداروا تفسـيرهم للآية عليـه، وهو كلام نفـيس ومنصرف أكـثره إلى الآية قـبلها، وإلـى شدة شكيمتهم فى الكفر، والعناد، لأن الذى يشمـئز قلبه من ذكر الرحيم الرحمن الذى يسجـد له ما فى السـموات وما فى الأرض والشـمس والقمـر والنجوم والجبال والشجر والدواب، والذى يتفجر غضبا عند سماع لا إله إلا الله التى هى كلمة التـقوى، وأفـضل ما قاله ﷺ والنبـيون قبلـه هذا من أغرب خلق

الله، والحق جل وتقدس قال لرسوله بعد ذكر هذا الغريب المنكر ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أعنى ادع الله بأسمائه العظمى كما قال الزمخشرى، والمخاطب هو رسول الله ﷺ وهو رأس النموذج المقابل وهو النموذج المحب للحق والمغتبط بالعدل، والبر، والرحمة، والمؤازر لكل خير والبعيد عن كل شر صلوات الله وسلامه عليه؛ وأفهم الدعاء أنه رجوع هذا النموذج إلى أصول الحق والإيمان، والبر، والعمل الصالح، ليزداد استمساكا بها، ويزداد استلهاما لها، ودفاعا عنها، وحرصا على غَرْسها فى هذه الأرض، حتى لا يُسَيْطر هذا الاتجاه الشرير المُدمِّر، الآية تقول إذا رأيتم أعاصير الشرِّ تدُوِّم حَوَلكم فارجعوا إلى أنفسكم وإلى الفطرة التى فيها وإلى الحق الذى فيها وثَبِّتوه وثَبتوا غرسه، وزرعه، حتى يثمر على الأرض، ويواجه هذه الأعاصير المدمرة، الدين هو الفطرة، وهو الرحمة، وهو البر، وهو عمل الصالحات، والدعاء، والذكر، هو الذى يشحذ عزائمكم ويثبت الله به أقدامكم، والدعاء يأتى فى مواقع المواجهة لأنه عمل إيجابى وفعَّال، وليس دعاء المسترخين أو المتكئين على آرائكهم وإنما هو دعاء الثابتين فى المعمعة، والصابرين الصادقين، والمواجهة والمعمعة، والصبر والصدق لا يعنى الحرب بمعناها الشائع، وإنما المجادلة عن الحق، وبيانه وبلاغه وتَثْبيته، لأن الله أنزل الكتاب، وعلينا بيانُه ومن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، وليس فى الدين إلا هذا، ومواجهة الطائفة الشاذَّة المُفْرِطة فى الشّذوذ والبغضاء والتحدِّى لا يكون إلا بالبيان والبلاغ وبالكلمة وهذا هو معنى قوله تعالى ﴿قُلِ﴾ التى تتكرر فى الكتاب كثيراً لتبين لنا أن الكلمة هى الأداة، وهى الوسيلة، وهى السلاح وهى السِّنان، والخلاصة التى أريد بيانها أن الدعاء الذى أمرنا الله به واستحضار أسمائه العظمى هنا هو شد العَزْم، وتجديد الهمة لمواجهة عواصف الشر، التى تهددُ حياة الناس؛ لأن الآية السابقة التى تصف جماعة الانتصار للباطل، والانحياز للشر وكراهية الحق، وضيق الصدر به أقول ظهور هذه الجماعة خطر يهدّد حياة الناس وأمرنا ربنا أن نواجه خطرها بالدعاء،

ولا يُعْقل مطلقا أن يكون دعـاء المسترخين الذين يطلبون من الله سـبحانه أن يعفيهم من مواجهة الباطل، وأن يحق الحق بكلماته، وإنما هو دعاء من تحتشد نفوسِهم بالدعاء ويشتد عزمهم به، حتى تَقْوَى شكيمة أهل الحق.

قلت إن تكرار كلمة ﴿قُلِ﴾ تعنى أن سبيل دين الله وبلاغ ما أنزله سبحانه إلى خلقه هو الكلمة، وهذا هو الأصل، وقـوله سبحـانه ﴿اللَّهُمَّ﴾ أصلهـا يا ألله، حـذف حرف النداء وزيدت الميم فى آخـر لفظ الجلالة عـوضا عنه، وفى هذا إشارة إلى شدة القرب من الله سبحانه، وإلغاء حرف النداء الذى هو أداة النداء، والالْتِحَام المبـاشر مع لفظ الجلالة وهذا فيـه إيماءة إلى رد ما عليه هؤلاء المبطلون الذين تشمئز قلوبهم لـذكر الله، واعتناق القلب واللسان للفظ الجلالة فى كلمة ﴿اللَّهُمَّ﴾ فيه رَوَحٌ وفيه اطمئنان وفيه أمان، وفيه ارتماء على الأعتاب، وأجد فى الدعاء بـه حَمِيميّة كما فى قوله تعـالى على لسان عيسى عليه السلام، قال عيسى ابن مريم ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ﴾ [المائدة: ١١٤]

وهى دعاء أهل الجنة ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ﴾ [يونس: ١٠] وقوله تـعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ليس له قريب فى الكتاب إلا قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾ [آل عـمـران: ٢٦] وهى من أعظم آيات الذكـر وكذلك الآية هنا، ولهذا كانت هذه الآية أبلغ رَدٍّ على الآية قبلها ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ وعليك أن تداخل قلبين قلب يشمـئز إذا سمع كـلمة الله، وقلب يضرع بقـوله اللهم فاطر السـموات والأرض عالم الغـيب والشهـادة، ويجعل ذلك دواء لِصَـمِّه وتسكينا لقـلبه، وشحذا لعزمه، وحشدا لكل طاقات نفسه. ولم تقترن كلمة فاطر بكلمة اللهم فى الكتاب العـزيز إلا فى هذه الآية، وكلمة فـاطر منادى مضـاف حذف منه

حرف النداء يعنى أن فى الجملة نداءين للحق جل وتقدس، نداء للفظ الجلالة، ونداء لفاطر السموات والأرض، والآمر بهذين النداءين هو الحق جل وتقدس، الذى قال له ﴿قُلِ﴾ وقد ذكرت أن كلمة قل الكثيرة فى الكتاب العزيز تدل على أنه عليه السلام ليس له من الأمر شىء، وإنما هو مبلغ يقال له قل فيقول، وهذا فضله، ومقامه، وناهيك به من فضل ومقام، وكلمة ﴿فَاطِرَ﴾ نفسرها بكلمة خالق، وهذا تفسير مبنى على المسامحة لأن فاطرا من الفِطْرة، والدين الذى أمر الله به كل خلقه هو الفطرة، وما كان له أن يكون للناس كافة إلا إذا كان المعوَّل عليه فيه هو الفطرة ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] والمقام هنا مقام فاطر وليس مقام خالق، لأن الآية الكريمة فى معمعان مناقشة الذين لا يؤمنون بالآخرة، والذين تشمئز قلوبهم من التوحيد، وتهش للشرك، وعبادة الدون، ثم إن خالق السموات والأرض قد مر قريبا فى الآية التى هى رأس هذا الموضوع فى قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ وكلمة الفطرة تعنى ما كان عليه الإنسان يوم خلق، وهو فى صفاء الفطرة ونقائها، وقبل أن تحيد عن طريقه الأول، وتجد هذا المعنى يُطِلّ عليك من كلمة ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ لأنها تعنى أول الخلق حين استخرج سبحانه السموات والأرض من كَتْم العدم، ويقال فطرت نابُ البعير إذا خرجت من اللحم وفطرتُ البئر إذا شَقَقْتُها، واستخرجتُ ماءها، كلمة ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ فيها إشارة إلى أنها حديثة عهد بالله، وهذا ليس فى خالق السموات والأرض، وهذه الدلالات موصولة بآية ﴿إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ لأن الله سبحانه أودع فى كل شىء خلقه فطرته، وهذه الفطرة فى المخلوقات هى التى تذكر الله، وتسبِّحه، وما من شىء إلا يسبح بحمده، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ

وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور: ٤١] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨]، وهؤلاء الذين تشمئز قلوبهم عند ذكر الله هم الذين حق عليهم العذاب، وقوله سبحانه ﴿عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ تعنى إحاطة علمه بكل شىء لأن كل شىء لا يخرج عن الغيب الذى معناه الغائب غير المنظور والشهادة الذى معناه المشاهد المنظور؛ ومقامها هنا تعنى أنك تعلم ما عليه أهل الباطل، وتعلم أحوالهم ما ظهر منها وما بطن، وتعلم أحوال أهل الحق ما ظهر منها وما بطن، وتعلم ما كان وما يكون من كل، وقد تقدم ذكر القدرة فى قوله ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ومجىء العلم فى الدعاء بعد القدرة فيه طلب خفى بالعون والحول، والمؤازرة والنصرة لأهل الحق، ودعاة الخير، والبر، والرحمة، وفيه إحساس بالشعور بالرضى لأن أهل الحق حسبهم ما يعلمه الله منهم، وأنه سبحانه يرى عملهم، ويأخذ بأيديهم، ثم فيه معنى آخر هو أن العاملين فى سبيل الله حين يذكر علم الله المحيط بالغائب والشاهد يجتهدون فى تحقيق الصدق، والإخلاص، والجد، والحكمة، حتى يعلم الله منهم ذلك، وإذا كانت المشكلة الأم هى إخلاص العبادة يعنى العمل لله رب العالمين ومحادّة الشرك ومناقضته فإن الوقوف المستمر مع النفس ومراقبتها حتى لا يَتَسَلَّلُ إليها طيف من أطياف الرياء والنظر إلى الذات هذا الوقوف واجب لأنها تحت عين عالم الغيب والشهادة يعنى ما ظهر وما بطن والحذر كل الحذر أن يستشعر العامل لله فى نفسه ولو للحظة خاطفة معنى من معانى العُجب، ومن أجل وجوب تطهير النفس وتخليص مسعاتها لله رب العالمين، تقدّم فى الآية الكريمة الغيب على الشهادة أى علم ما بطن على علم ما ظهر.

وقوله سبحانه ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ هذه الفاصلة تكاد تكون خيوطها منسوجة من الجملة قبلها لأن الحكم لا يتحقق

إلا بأمرين الأمر الأول القدرة لأنه حكم بثواب وعقاب، ولا يقدر على الثواب والعقاب إلا الذى فطر عباده، وقد دلت الجملة السابقة على أنه سبحانه فطر عباده لأن عباده كائنون فى الأرض وأمرهم، وأقدارهم فى السماء، والأمر الثانى العلم الذى لا تعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض، ثم إن الكلام فيها انتقل من الغيبة فى قوله: ﴿اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ إلى الخطاب فى قوله ﴿أَنتَ تَحْكُمُ﴾. وهذا الالتفات فيه إشارة إلى أن الجملة التى التفت فيها الكلام لها شأن فى الغرض المسوق له الكلام، وراجع وتدبر تجد أن الجملة السابقة كانت موطئة لهذه الجملة لأن إحساس أهل الحق بأن الأمر فى النهاية راجع إلى الحكم الحق العدل، الذى يشد أزرهم ويشحذ عزائمهم، وأن هؤلاء المبطلين الذين فَجروا فى باطلهم واشمأزت قلوبهم من ذكر الحق والعدل أمرهم راجع إليه سبحانه، وهو الذى يقضى بينهم، وشىء آخر فى الانتقال من الغيبة إلى الخطاب وهو أن الداعين الله بأسمائه العظمى كما قال الزمخشرى رحمه الله قد ارتقت نفوسهم بهذا الدعاء وتهيأت للخطاب فى حضرة فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة، وهذا المعنى استلهمته من قول الزمخشرى فى سر الالتفات فى قوله تعالى فى فاتحة الكتاب ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وأن الذاكر لربه قد هيأ نفسه لحضرة الخطاب فى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ بعدما نقَّاها وصفَّاها وأعدها للقاء بالدعاء قبلها، وقوله سبحانه ﴿تَحْكُمُ﴾ خبر فعلى تقدمه المسند إليه فأفاد الاختصاص بمعونة السياق، والمضارع يفيد التجدد بتجدد الخلافات، والأحداث، والأقضية، وأوثر هنا لفظ تحكم على لفظ تقضى، لأن تحكم فيه معنى الحكمة، والقضاء وإن كان مؤسسا على الحكمة، إلا أن لفظ تحكم أظهر فى الدلالة عليها، كما أن لفظ تقضى فيه دلالة على أن كلا من المتخاصمين قضى أمره وانتهى، فلكل لفظ

دلالة يختلف بها وإن كنا نفسر تحكم بتقضى، والمقام هنا يقتضى إظهار الحكمة لأن الفريق المخاصم بالغ فى الإساءة؛ وقد وصف المبطلون بأوْصَاف كثيرة فى الكتاب؛ ووصفهم بأنهم تشمئز قلوبهم عند ذكر الله أبشع أوصافهم، والمولى سبحانه الذى اشمأزت قلوبهم عند ذكره هو الذى أمر بأن نقول هذا ببلاغ رسوله لنا، وهذا غاية العدل لأن الله سبحانه لا يظلم الظالم، والشرك ظلم عظيم، ومن العدل أيضا أن يقول سبحانه ﴿بَيْنَ عِبَادِكَ﴾ فجعل الفريقين الأسوأ والأكرم فى مقام الحكم وقاعة الحكم سواء، فالذين تشمئز قلوبهم عباده، وهو سبحانه يحكم بينهم وهم عباده، ووراء هذا إشارة نبيلة إلى خُلُق نبيل وهو أنه لا يليق بكريم أن يستعدى الحاكم على خصمه، وإنما عليه وهو يَرْفَعُ ظلامته أن يكون منصفا لهذا الخصم، ولا يليق بطالب الإنصاف ألا يكون منصفا، وهذه من قيم الإسلام الضائعة وقوله سبحانه ﴿فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ كلمة ﴿كَانُوا﴾ تشير إلى أن اختلافهم فى الذى يختلفون فيه هو شأنهم، وهو ديدنهم، لأن كلمة كان فى مثل هذا الموقع تفيد أن خبرها جزء من ماهية اسمها، واسمها ضمير يعود على العباد، والذى اختلفوا فيه هو الدين من رافض له، ومُولِعٍ به، وكلمة كان هنا تشير إلى أن هذا لن يتغيّر، وسيبقى الناس مختلفين فى هذا الشأن، وصيغة المضارع تدل على تَجَدُّد هذا الاختلاف وامتداد تجدّده على مد الزمان ومد المكان، ولابد أن يتعايش الناس مع هذه الحقيقة وهى دَوَامُ اختلافهم فى الدين، ولو نقلوا الخلاف من حيز الكلمة المشار إليها بقوله تعالى: ﴿قُلِ﴾ إلى حيز المنازعة والمقاتلة فسيملؤون الأرض بدمائهم، لأن هذا الخلاف يشتد ويحتدّ حتى ترى فريقا لا يكتفى برفضه لدين الفريق الآخر، وإنما تراه يشمئز عند ذكره مع أنه الحق الذى لا يأتيه الباطل، ومع أن هذا المشمئز على باطل لا يشوبه من الحق شيء، وهذا حسبى والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الزمر: ٤٧، ٤٨].

هذه الآية يمكن أن ترجع إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ ﴾ وتكون آية الدعاء دخلت بينهما للإشارة إلى أهمية هذا الدعاء حين يشتد الأمر، وتواجه الأمة الصعوبات، لأن الدعاء كما قلت ليس تَخَلِّيًا عن العمل الجاد، والكاد، فى سبيل الحق، وإنما هو حشد للطاقات، وتهيئة راشدة لنفوس أهل الحق، لمواصلة الدفاع الصادق عن الحق الذى أنزله الله، وقد جعل الله لنا أدْعية مُختلفة على وفق اختلاف الصعوبات التى تواجهها، ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٦] والذين تحت ظلال السيوف يقولون ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٠] والذين يواجهون استهانة بدين الله ويواجهون تكتُّلا مضادا ومستهترا بدين الله يقولون ﴿ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾، وهكذا لكل موقف زاد تُزَوَّد به النفوس المؤمنة التى صَدَقَتْ ما عاهدت الله عليه.

أقول يمكن أن ترجع هذه الآية إلى الآية قبل التى قبلها ويفيد هذا الرجوع شيئًا مما قلته، ويمكن أن ترجع إلى الآية قبلها، وأن تبحث عن الشبكة التى بين رأس هذه الآية، وآخر الآية السابقة وهى قوله تعالى: ﴿ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ ويكون الكلام انتقل من خبر حكم الله بين عباده إلى فريق حُكم عليه وهو الآن يتضور ويصْطَلى حَرَّ الجحيم، والآية الكريمة تدلك على حجم العذاب الذى يجده ليس باللفظ المباشر، وإنما بخبر افتراض يقول إن الذى فى سوء العذاب هناك يصطرخ فى النار لو كان له كل

الأرض ومثل الأرض معها وأمكنه أن يفتدى لافتدى ولاحظ أن هنا إشارة هى أن الذى أضله وكبه على منخريه فــى سواء الجحيم هو طمع فى شىء مما فى هذه الأرض، لا قيمة له إذا قيس بملكية الأرض ومثلها معها يعنى هو باع دينه المفضى به إلى النجاة من النار، والفوز بــالجنة، بما لا يُذكر بالنسبة لما يمكن أن يَفْتَدِى به إذا أمكن الاقتداء.

وحين تنظر إلى الشـبكة التى بين رأس الآية التى معنا وآخــر السابقــة تجد فجوة واسعة، وأحداثا مطوية، آخــر الآية السابقة ضراعة أهل الحق إلى ربهم ليشـدّ أزرهم فى مواجهــة الباطل﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ﴾ ورأس هذه الآية حديث عن قوم فى ســوء العذاب، والفجوة التى بينهمــا فيها قيــام الساعة ثم البعث ثم مــواقف الحساب، ثم القـضاء، ثم سوق أصــحاب النار إلى النار، وآخر السورة شــرح هذا شرحا وافيا، والطىّ هنــا للمبادرة ببيان مـصير الذين اشمأزت قلوبهم من ذكر الله، ولا بد أن نلاحظ أمرا مــهما جدا، فى حديث القــرآن عن أهل الباطــل، وأهل الحق، وأنه يحدِّث عن أصــحــاب عقــائد، وأصحاب سلوك من غير أن يشير إلى أفراد بأعيانهم، وهذا طريقه حين يقول ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقــرة: ٢٥]، والذين كفــروا، واجتــرحوا السيـئات، يعنى طوائف تذكر بأوصــافها واعتــقاداتها وأعمــالها، ووراء ذلك أمران جليــلان، الأول أدَب الكتاب العــزيز فى ذكر أهل الباطــل، وأنه يحفظ لهم أعراضهم، ولا يُشهِّرُ بهم، ولم يكن هذا فى خطيئة الشرك فحسب، وإنما كان من باب أولى مع من وقع فى معصية أو مخالفة من أهل الإسلام، وكان رسول الله ﷺ يقول: «ما بال أقوام» من غير أن يحدد أشخاصا مع أن من كانوا يسمعونه يعلمــون أن مراده فلان وفلان، ولكن لسانه الشريف كــان يحفظ حرمة الناس، ويحفظ أعــراضهم، ولم يذكر القــرآن أشخاصــا بأعيانهم، إلا الأنبــياء، وعددًا مــحدودًا جــدا، من غيرهم كــامرأة فــرعون، ومــريم، وامرأة نوح ولوط وامرأة العــزيز، وهذا أدب رفيع يجب علينا أن نــستمــسك به، وأن نكف ألسنتنا

وأقلامنا عن ذكر الأفراد بأعيانهم، والأمر الثانى الجليل هو التحولات المتوقعة فى مواقف الأفراد فى عقائدهم وفى سلوكهم، وكثير ممن اشمأزت قلوبهم من ذكر الله كانوا من خير أجناد الأرض، وكانوا طليعة الفاتحين، وكانوا من سادة المجاهدين، ومن علماء الأمة، الذين بلغوا عن رسول الله ﷺ، وحسبنا منهم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وأبو سفيان، ومعاوية وغيرهم ممن أوجب علينا رسول الله ﷺ الاقتداء بهم، وليس هذا لأن سورة الزمر مكية ونزلت بعدها غافر، ثم آل حم لأنى لا أعول كثيرا على أحداث زمن الوحى، لأنى أرى الآيات كأنها نزلت لنا؛ وحولى كثير ممن عاندوا دين الله بأقلام قوية، ثم رأيت هذه الأقلام وقد زادت قوتها وهى تدافع عن دين الله، وحولى من جاهر بالكفر وأعلن عداوته لدين الله ثم مات وهو درويش، وكل هذا الذى أقوله من أسرار بيان القرآن.

وحين أتدبر معنى الآية، وزمانها ومكانها، ثم أنتقل إلى الآية التى تليها وأتدبّر المراد بها، وزمانها، ومكانها، وأرى هذه الفجوة وهذا الطَّىّ أرى أننى أمام طريق من طرق الإيجاز فى الكتاب العزيز لم يُدْرس لأننا حين نكتب فى الإيجاز فى القرآن الكريم نستصحب مفهوم الإيجاز عند البلاغيين إيجاز القِصَر، وإيجاز الحذف، وننسى أن فى القرآن إيجازا لم يشمله المفهوم الشائع للإيجاز، حتى إنك لو أدخلته فى إيجاز الحذف ستجد له طرائق، ومذاهب غير حذف المفرد، وحذف الجملة، أو الجمل، وإنما هو طىٌّ له أسراره، وله أحداثه، وهذه الآية وَصِلَتُها بالآية قبلها صورة من هذا الإيجاز الغائب، الجملة السابقة كما قلت يقولها أهل الله وهم فى معمعان مواجهة شراسة وسَفَه الباطل، ثم ينتقل لسانك مباشرة إلى جماعة فى سوء العذاب، ولم يحدِّث القرآن هنا عن صرخاتهم، ولا عن سلاسلهم، ولا عن أنهم يُسْحبون فى الحميم ثم فى النار يُسْجرون، ولا عن ثيابهم التى قطعت لهم من نار، ولا عن شىء من ذلك وإنما يدلك على ما هم فيه بجملة شديدة الاختصار،

واسعة الدلالة، لا يستطيع لسانى ولا لسانك أن يُبين عن الذى وراءها، وهذا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ﴾ [الزمر: ٤٧] ولو حاولت أن تُبيّن ما هم فيه واستخدمت كل الألفاظ الدالة على ما يجدونه فلن تجد أوقع ولا أسَدَّ من هذه الكلمات، واللغة مع هذا السخاء لغة قريبة جداً وواضحة جداً ولا يتعثَّر ولا يتعسَّر فهمها على أحد يعرف هذا اللسان، ولو كان من الأميّين، ومن العجيب أن تضع هذه الجملة العالية كلمة الذين ظلموا مكان الذين لا يؤمنون بالآخرة، لتفيد معنى آخر أوسع وأشْمل لأنها أدخلت الظالمين فى هذا الموقف، والظالمون أكثر عددا من المشركين، لأنه يدخل فيها كل من ظلم وكل من سلب ونهب، وقتل، وقمع، ومن الذى تحتها أن الظالم ما ظلم إلا لطمع زائد فى حُطَامِ هذه الدنيا ولو كان شبرا من أرض ليست له، ثم يصير فى حالة لو افترض أن الأرض كلها ومثلها معها من ملكه لافتدى به، وبين هذا وبين الذين يكنزون الذهب والفضة ولا يخرجون زكاتها تحمى عليهم فى نار جهنم، وقد تكرر هذا المعنى فى الكتاب العزيز وجاء فى صور منها قوله تعالى فى آل عمران ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ﴾ [آل عمران: ٩١] وهذا غير ما فى الأرض ومثله معه لأن ملء الأرض ذهبا شيء آخر، ووراءها ما لا يحاط به من العذاب، ودلَّت هذه الكلمة كما قلت على ما لا يمكن الدلالة عليه بغيرها، ومنه أيضا قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ [يونس: ٥٤]، والذى فى يونس ليس فيه مثله معه، وليس فيه ملء الأرض ذهبًا، وإنما هو أخف هذه الصور، وأقرب الصور إلى الذى فى الزمر قوله تعالى فى الرعد: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [الرعد: ١٨] وقوله تعالى فى المائدة

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦] وراجع الفروق الدقيقة التى تعطى لكل آية مذاقا مع الاتفاق فى الأصل، فرق بين لاقتدوا به، وبين ليقتدوا به، وفرق بين ذكر ما تُقُبِّل منهم فى المائدة وغيابه فى الرعد والزمر، ولكل كلمة مع صاحبتها مقام، وأدع هذا لك كما كان يقول علماؤنا لأنهم كانوا يشرحون الطريق، ثم يضعون أقلامهم فى أيدى قَرَّائهم ويقولون لهم عليكم أن تكملوا ما بدأناه، ونحن نخالف سنتهم حين نستوفى كل المسائل ولا نترك للقارئ شيئًا، وأنا الآن أعود إلى سنتهم.

وهذه الواو التى بدأت بها الآية تعطف معنى على معنى، والمعنى المعطوف هو ما يؤول إليه حالهم يوم القيامة، وهم فى سوء العذاب، والمعنى المعطوف عليه هو وَلَعُهم بالباطل وانهماكهم فى شد أزره، وَوَلَعُهم أيضا بالاستهزاء بالدين وفجورهم فى ذلك حتى إن نفوسهم لتشمئز عند ذكر المُقرين بأنه خالقهم؛ وخالق السموات والأرض إلى آخره، والتقارب ظاهر بين ما بعد الواو وما قبلها مباشرة، لأن ما قبلها حكم الله بين عباده، وما بعدها هو تنفيذ شق من هذا الحكم، ولك أن تعتبر هذه المقاربة، وأن تجعل المعطوف عليه هو ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ﴾ والأول أشمل، لأنه يجعل المعطوف عليه معنىً من رأسه إلى قدمه، وكلمة «لو» تفيد امتناع جوابها لامتناع شرطها، كما تقول لو جاءنى زيد لأكرمته، تفيد نفى الإكرام لنفى المجىء وكذلك هنا تفيد نفى الافتداء أو امتناع الافتداء لامتناع ملك كل ما فى الأرض ومثله معه، وإنما جاء الكلام على سبيل الفرض والتقدير، لأنه لا يمتلك كل ما فى الأرض إلا الله، وشىء آخر يزيد الشرط بعدا ويجعل تحقيقه مستحيلا وهو أن ما فى الأرض أصابه الفناء قبل دخولهم سوء العذاب، وهناك مسافة بين هذا التمنى المستحيل، وفناء ما فى الأرض الذى قام عليه الفرض.

ولاحظ كلمة ﴿جَمِيعًا﴾ وهى تأكيد لكل مـا فى الأرض مما لا يحاط به، ثم لاحظ «ومثله معه» وهو افتـراض آخر لأن مثل ما فى الأرض لا وجود له إلا فى عالم الفـرض، ثم لاحظ اللام التى فى قولـه تعالى ﴿لافْتَدَوْا بِهِ﴾ وهى تؤكد ترتيب الجواب على الـشرط، مع أنه منفى وهى أخت اللام التى فى قـوله تعالى ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ [الواقعة: ٦٥] ولكننا لم نشأ فلم نجعله حطاما، والمعنى فى الزمر لو أن لهم مـا فى الأرض ومثله لافتدوا به، وهذا غـير أصل المعنى فى المائدة لأن أصله فى المائدة لو أن لهم ما فى الأرض ليفتدوا به فـافتدوا به ما تقبل منهم، وكأن المقـصود بيان شـدة الغضب المدلول عليـها بنفى تقبل الافـتداء من العذاب بكل ما فى الأرض جميعًا ومثله مـعه، وكأن الزمر تبين شدة رغبتهم فى الافتداء، والمائدة تبين شدة الغضب المفضـية إلى رفض تقبل الافتداء، الزمر تؤكد أن الذين كانت تشمئز قلوبهم سيجدون ما لا يحاط به، والذى فى المائدة جاء فى مقابلة اقتراب الحق من الذين اتقوا وأنه سبحانه أقبل عليهم، وقال لهم ابتغوا إليه الوسيـلة وجاهدوا فى سـبيله، وقد صـار جل وتقدس فـى مقام من يرجـو لهم الفلاح وليس كمثله شىء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥] راجع لعلكم تفلحون ويقابل هذا الإقبال وهذا الاقـتراب وهذا التـودُّد شدة بغْـضه للذين كـفروا وأنهم لو أن لهم مـا فى الأرض ليفتدوا ما تقبل منهم، جواب لو فى المائـدة ما تقبل منهم، وكلمة ليفتدوا داخلة فى حيز الشرط لأنها تعليل لفرض امـتلاك ما فى الأرض ومثله معه، ولو وضَعْتَ الآيتين مـتجاورتين لرأيت آية المائدة قطعت مـسافة بعد آية الزمـر، الزمر تشير إلى رغبتهم فى أن يفتدوا والمائدة تقول لن يقبل منهم هذا الفداء، وآية المائدة تقترب من آية آل عمران **(إن الذين كفروا وماتوا وهم كـفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به)**، فعمود المعنى فيها على الغضب المدلول عليه بنفى القبـول ولو وضعت آية يونس بإزاء آية الزمـر لوقعت على شىء هو أن آية يونس قالت ﴿لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ [يونس: ٥٤] فالظلم صـفة للنفس،

وآية الزمر قالت ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الزمر: ٤٧] والظلم واقع صلة الموصول، وشتان بين ظلم جاء صفة وظلم وقع صلة، لأن الثانى يعنى أنهم عرفوا بالظلم وشهروا به، وهذه دلالة الصلة أما الصفّة فليس بلازم أن يكون الموصوف عرف بها وشهر بها، وهذا فرق وفرق آخر وهو أن آية يونس تقول لكل نفس يعنى لو كان كل ما فى الأرض ملكا لهذه النفس وحدها لافتدت به كما قال فى آل عمران ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم﴾ [آل عمران: ٩١] وآية الزمر تقول ولو أن للذين ظلموا يعنى لو أن هذه الجماعة التى ظلمت تملك ما فى الأرض لافتدت به، وترتب على هذين الفرقين أن آية يونس لم تؤكد بكلمة ﴿جَمِيعًا﴾ بخلاف الزمر كما أنها لم تضفْ ﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ هذا والله أعلم. وكلمة ﴿سُوءِ الْعَذَابِ﴾ أضيفت الصفة إلى الموصوف كما تقول طيب القلب، وحسن الخلق وكريم الأصل، وكل هذا أصله قلبه طيب، وخلقه حسن، وأصله كريم، وتقديم الصلة وتغيير بناء الجملة يدل على شدة العناية بالصفة، وحين يقول الحق سوء العذاب بدل العذاب السوء يبدل هذا على فرط ما يجده هؤلاء المعذبين من سوء العذاب، ولم يذكر سوء العذاب فى الآيات التى تناولت هذا المعنى إلا فى الزمر، وإنما كان يقال لافتدت به ثم ينتقل الكلام من غير بيان ما يتعلق به الافتداء، وجاء فى المائدة ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة وليس من سوء العذاب يوم القيامة، وهذا وما سيأتى بعده يؤكد قوة الغضب فى آية الزمر وربما كانت شدة الغضب راجعة إلى صفتهم البالغة فى الحمق وسوء الأدب واشمئزاز قلوبهم عند ذكر من تطمئن بذكره القلوب جل وتقدس.

وقوله سبحانه ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ من أشد الآيات وأهولها فى الوعيد، ولم يتوعدهم ربنا بأشد من هذه الآية، وهى مقابلة لأعظم وعد الله للصالحين الذى جاء فى قوله تعالى ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] هذا وعد، ولحظة انكشاف ما أخفى لهم من

قرة أعين لما تأت بَعْد، وقد جاءت لحظة انكشاف الوعيد فى الزمر وبدا لهم فى الآية قبلها، وعقب الزمخشرى على هذه الجملة بقوله وعيد لهم لاكنه لفظاعته وشدته، وهو نظير قوله تعالى ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]، وكان لسان الزمخشرى ينال من المعانى ما يبعد عن ألسنة كثيرة، ولذلك ترى فرائده هذه متناقَلَة فى كتب التفسير، وذكروا فى تفسير ذلك أن أعمالا حسبوها حسنات ووجدوها سيئات، وهذا الوعيد الذى جاء فى آية تعبر عن أشد غضب الله ومَقْته للذين تشمئز قلوبهم عند ذكره كان من الصالحين منا من يراها موجَّهةً إليه، يعنى كان أهل الله يخافون من الآية، وينزعجون عند موتهم مخافة أن يبدو لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، ذكر الزمخشرى أن محمد به المنكدر جزع عند موته فقيل له فقال أخشى آية من كتاب الله وتلاها، فأنا أخشى أن يبدو لى من الله ما لم أحتسبه، وفى الكتاب إشارات إلى هذه المفاجآت كما فى سورة الكهف فى قوله تعالى ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩] قولهم يا ويلتنا وما بعده فيه دلالة على أنهم فوجئوا بما لم يتوقعوا، وكذلك قوله تعالى ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ ويمكن أن يكون من الذى بدا لهم ولم يحتسبوه، شهادة سمعهم وأبصارهم وجلودهم عليهم بما كانوا يعملون وهم على باب الجحيم ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠] ودخول كلمة (يكونوا) فى قوله تعالى ﴿مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ ولم يقل ما لم يحتسبوا كما قال ابن المنكدر "ما لم أحتسبه" للدلالة على أن شأنهم كان أن يحتسبوا لأن الذى بدا لهم فوق الظنون؛ والشأن ألا يدخل فى حسابهم، والشأن ألا يحتسبوه، والواو التى فى قوله تعالى ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾واو الحال. وهذا الموقع الإعرابى يكسب الجملة مذاقا آخر

هو أنهم لو يملكون ما فى الأرض ومثله معه لافتدوا به والحال أنه بدا لهم يعنى أن هذا الذى بدا لهم، كان فيه شدة مَنَ سِـوء العذاب بلغت الغاية التى عبرت عنها الآية بفرض أنهم لو يملكون ما فى الأرض لافتـدوا به، فاقتران ما بدا لهم بهذا التمنِّى واضح الدلالة فى فظاعة مـا بدا لهم وأنه لاكنه لفظاعته، وشدته، ولست مُبْعِـدًا إذا قلت إن هذه المفاجأة بما يغُم قابلت المفاجـأة بما يسر فى حال لَهْوهم وعبثـهم وضلالهم ووَلَعهم بالباطل، وذلك ﴿إِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥] فقد جاءت إذا الفـجائية مع ذكر الذين من دونه واستـبشـارهم بذلك ولم تأت مع ذكـر الله وحده، واشـمئـزازهم من ذلك، وقوبلت مفـاجأة بمفاجأة وكـوفئت مفاجـأة بمفاجأة، قوله سـبحانه ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ [الزمر: ٤٨] هذه الجملة من التى قبلها لفظا وحَذْوًا ومَعْنًى، أما لفظا وحَـذْوًا، فرأس الجملتين فعل واحـد، وبعده جار ومجـرور، وفاعله مؤخر، وأما معنى فإن بدو سيئات ما عملوا جزء من الذى بدا لهم من الله ولم يكونوا يحتسبونه، لأنك يمكن أن تجعل البعث فى بدا لهم ولم يكونوا يحتسبونه لأنهم أنكروا البعث، وهكذا قل فى الذى بعده من حـساب، وكتاب، لا يغادر صغيرة ولا كبـيرة، ووجدوا ما عملوا حاضرا، وشهـادة سمعهم، وأبصارهم، وجـلودهم، إلى آخره، كل هذا مفردات من الذى بدا لهم، ويـبقى فيها ما لا يقادر قدره ولا يدرك كنهـه؛ ثم يلاحظ أن سيئات ما كسـبوا تقابل سوء العذاب يوم القـيامة، لأن سوء العـذاب الذى وَدُّوا بسببـه أن يكون لهم ما فى الأرض ومثله معه ليفتدوا به، إنما كان من سوء ما كسبوا وكأن الحق أراهم سوء كسبهم كما أراهم سوء العذاب، لتكون هذه بتلك ولا يظلم ربك أحدا.

ولو سألتنى وقلت لماذا قال هـنا سيئـات مـا كسبوا، ولـم يـقـل سيئات ما عملوا؟ فلن أجد جوابا إلا أن أقول لا أدرى ومن قال لا أدرى فقد أجاب، ورحم الله شيوخنـا فقد كانوا يرددون هذه الكلمة على أسـماعنا فى السنوات الأولى من الأزهر الشريف أعاده الله إلى الأمة مرة ثانيـة بعد ما خَطَفَتْه أنظمة

السوء، وولّت عليه من كانوا ينظرون إليهم ولا ينظرون إليه، والمهم أن كل ما عندى هو أن رأس الآية، **«ولو أن للذين ظلموا ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به»** يعنى هنا مقايضة، كانوا يرجونها، وهى مقايضة رابحة لهم لو تمت وهذا يناسبه الكسب، لأنه يشبه أن يكون من معجم المقايضة، والبيع والشراء، ويلاحظ أن هذه الجمل الثلاث **«وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون»** - **«وبدا لهم سيئات ما كسبوا- وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون»** - هن أخوات وأن الأولى كُبْرَاهُنَّ، وتأمل لتتأكد الجملة الأولى المعطوف عليها تفيد المفاجأة بما لم يكن فى الحسبان، وهذا معنى شامل لكل ما وجدوا فى يوم القيامة، والجملة الثانية المعطوفة تفيد السبب الذى من أجله كانت المفاجأة التى هى وعيد لهم لاكنه لفظاعته وشدته، هذا السبب هو سيئات ما كسبوا، والجملة الثالثة تفيد وقوع ما لم يكن فى الحسبان، وهو إحاطة العذاب بهم، وراجع مرة ثانية لتدرك الإيجاز البالغ فى هذه الكلمات الثلاث، ثم إن الأولى والثانية مؤتلفتان والثالثة أقرب إلى الاختلاف، وقد ذكرت التشابه اللفظى بين الجمل الثلاث، والذى زَادَ بين الثانية والأولى التى هى من بنائها ثم نَقَص مع الثالثة التى ابتعدت عن الأم قليلا، وراجع تكرار كلمة (ما) فى الجمل الثلاث وما وراء إبهامها من تهويل وموقعها الإعرابى واحد فى الأولى والثالثة، ثم إن كلمة "حاق" هنا استدعاها المقام كما استدعى كلمة (كسبوا) ووجه هذا الاستدعاء أن المقام مقام غَضَب شديد ومقام وعيد لاكنه لفظاعته، وهذا يتطلب ذكر الحق حتى لا يتوهم أن الغضب يزيد العقاب حبَّة خردل، لأن الله يعلمنا فى كثير من الآيات وجوب العدل فى القضاء، وإن كنت تحاكم مجرما ظالما مُتَعَدِيًا حدود الله، مُستخفّاً بدين الله، ومستهزئا بأمره ونهيه، وكل هذه مثيرات قد تَدْفَع إلى المبالغة فى الحكم، ويقول لنا ربنا لو ظلمت الظالم مثقال حبة من خردل صرت ظالما وصار هو مظلوما، وتفتح أبواب السماء لدعائه لأن دعوة المظلوم لا ترد، ومثقال الحبة من خردل زيادة على جزائه تفتح له كل

هذا، وهذا من أكرم المبادئ التى تطيبُ بها الحياةُ وتهدأ ويسعد ويأمن فى ظلها الإنسان، ولو كان مجرما، وكلمة "حاق" تفيد هذا المعنى لأنهم قالوا هى من الحق قلبت القـاف الأولى ألفا كمـا قالوا فى زال أصلهـا من زلّ، قلبت اللام الأولى ألفا، وهذا اجتهاد منى أرجو أن يكون صوابا، ولك أن تخالفه إذا ظهر لك صواب معه برهان، بقى فى هذه الجـمل الثلاث شىء لا أستطيع إهماله، هو أن الجملتين الثانية والثالثة معطوفتان على الأولى وهى حال، وهذا يعنى أن الجـمل الثلاث حـال والمعنى لو أن للذين ظلمـوا ما فى الأرض ومـثله معـه لافتدوا به فى حال أنه بدا لهم من الله ما لم يكونوا يـحتسبون وفى حال أنهم بدت لهم سيئات مـا كسبوا وفى حال أنهم أحاق بهم ما كـانوا به يستهزئون، وراجع المعنى مع مـلاحظة هذا الموقع الإعرابى لأن لـه مذاقا آخـر، وأن هذه الجملة التى تفترض هذا الفرض والتى اختصـرت ما هم فيه اختصارا أدل على المعنى من كل إطناب، إنما كانت وهم فى هذه الأحوال الثلاثة، بدا لهم ما لم يحتسبـوا وبدت لهم سئيات أعمالهم، والعذاب مـحيط بهم، ولا يمكن حسن فهـم الجملة الأولى بمعـزل عن جملة الحـال الأولى كمـا لا يمكن فهـم الحال الأولى بمعزل عن الجملتين الأخيرتين، وظنى أنه سـيأتى جيل يُحلّل البيان كله من خـلال مواقع الإعـراب التى أهملتهـا الدراسـات التى قامت على مـضغ الرجيع، لأن لمواقع الإعراب أسرارا فى البيان أراها أدق من الأسرار التى وراء الفنون البلاغـية، ولاشك أن جملة ولو أن للذين ظلمـوا مع سعة دلالتـها لو أنها لم تقيَّد بالجمل الحالية لنقص كثير من معناها، واقرأها وحدها لتدرك ذلك وتدرك أن هذه القيـود كأنها معـقد المعنى، ثم إن تواتر الجمل الحاليـة الثلاث يحتاج إلى تدبر، ولهـذا كانت الجملة الحاليـة الأولى والأم نهاية آية، وكانت بمثـابة فـاصلة الآية التى بدأت بقـوله جل شـأنه، ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، وكانت الجملتـان الثانية والثالثة آية مسـتقلة وهذا يعنى سكتة خفيفـة بعد قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾، هذه السكتـة الخفيـفة

المستحسنة عند رؤوس الآيات تعنى مراجعة هذه الحال التى هى وعيد لاكنه لفظاعته وربطه بالجملة الأصلية التى هى حال منها، ثم يستأنف النظر والتدبر الجملتين الثانية والثالثة ويعيد ربط المجموعة التى صارت بمثابة جملة واحدة وتبدأ من قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ إلى قوله سبحانه ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾، وكلمة ﴿كَانُوا﴾ تعنى أن الاستهزاء كان من طبعهم وكان من شأنهم، وكان ديدنهم، ووقوعها فى الصلة تعنى أنهم عرفوا بذلك وشهروا به. والمضارع فى ﴿يَسْتَهْزِئُونَ﴾ يعنى أنه كان يتجدد منهم ويحدث فى الوقت بعد الوقت وأنه ظل باقيا وممدودا مع الزمن حتى جاءهم الأجل، ومن انقطع استهزاؤه قبل أجله بالدخول فى الدين غير داخل فى الآية، لأن الإسلام يجب ما قبله، وهذا معروف وإنما أردت التنبيه إلى دلالة المضارع، وأن استمرار تجدد الاستهزاء هو أصل هذه الإحاطة، وأن ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ تعنى أنهم لم يفلتوا، والذى كانوا به يستهزئون قالوا هو العقاب، أو هو النبوة، والدين، ولا فرق بينهما لأن الاستهزاء بالعقاب يعنى الاستهزاء ببلاغه وهذا هو الاستهزاء بالنبوة، وبالدين، وبالكتاب الذى أنزل، ثم إن هذه الفاصلة نهاية فصل والكلام الذى سيأتى بعدها كلام جديد مرتب عليه، وانتهاء هذا الفصل الشامل للذين لا يؤمنون بالآخرة والذين تشمئز قلوبهم عند ذكر الله بهذه الجملة يفيد أن كل ما كانوا فيه من ضلال وظلم وشرك واشمئزاز مرجعه إلى شىء واحد هو الاستهزاء والاستعلاء والتكبر، والآيات الآتية ستضيف إضافات تكشف أسباب اتخاذهم هذا الموقف الباطل، والذى لخصته الفاصلة بالاستهزاء، وهذا حسبنا.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٤٩) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٥١) أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الزمر: ٤٩- ٥٢].

هذه الآيات بابة من بابات معانى السورة، وهى فصل واضح فى تميزه، بخلاف الفصل السابق، الذى يمكن أن يكون ابتداؤه ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ [الزمر: ٤١] ويمكن أن يكون أوله ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] ويمكن أن يكون ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾ [الزمر: ٤٣] ويمكن أن تكون كل هذه البابات بابا واحدا شاملا لهذه المعانى. وارتباط كل معانى السورة بعضها ببعض يجعل احتمالات توزيع هذه المعانى فى فصول أمرا مفتوحا ومحتملا، والفصل الذى تشكله هذه الآيات فصل واضح لأنها تختلف اختلافا ظاهرا عن الذى قبلها، ومن المفيد أن نراجع مرة ثانية التقارب فى اللفظ والمعنى، والحذو، فى الجمل الثلاث الماضية، وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، وبدا لهم سيئات ما كسبوا، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون، وكيف صاغ هذا التقارب ضربا من النغم المتجانس فى الجمل الثلاث، ألفته الأذن وألفه وعى السامع، والقارئ، ثم جاءت هذه الآيات بطريقة مختلفة فى اللفظ، والمعنى، والحذو، وكل ذلك مؤذن بواد جديد من أودية المعانى انتقل الكلام إليه، ومن أجل تأكيد هذا الإحساس عند السامع، والقارئ تقاربت الجمل فى رأس الآيات تقاربا ظاهرا، فبدأت الجملة الأولى بأداة شرط ﴿إِذَا﴾ وفعل الشرط فعل ماض ﴿مَسَّ﴾ وجواب الشرط فعل ماض ﴿دَعَانَا﴾ ويمثل هذا بنية الجملة الثانية وتكررت أداة الشرط ﴿إِذَا﴾ وفعل الشرط ماض ﴿خَوَّلْنَاهُ﴾ وجواب الشرط فعل ماض ﴿قَالَ﴾ ثم تلاحظ أن فعل الشرط فى الجملتين تعلق به فاعل ومفعول وكذلك الجواب، وأصبحنا أمام النسق والتعادل الذى كان بين الجمل الثلاث وهاتان الجملتان هما أساس هذا الفصل، وقد بُنيتا أيضا على المقابلة، التى تهيئُ للغرض المسوق له الكلام، فقد قابل مسَّ الضر بتخويل النعمة، والنعمة المخوّلة هى النعمة التى تأتى من غير مقابل، يعنى هى محض عطاء من الله، كما قابل فى الجواب قوله ﴿دَعَانَا﴾ وما فيها من اقتراب وضراعة ورجاء بقوله هناك ﴿أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ وما فيها من ابتعاد ونكران، وكلمة

«خولناه» التى هى محض عطاء من غير مقابل دلت على الإفراط فى الإنكار، والشطط، والبعد عن الحقيقة فى قوله ﴿أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ وقد كذب وغالط، وهو يعلم أنه يكذب ويغالط لأنه لما مسَّه الضراءُ لم يستطع أن يدفع الضر عن نفسه، وإنما لجأ إلى الله ودعا واقترب، ولو كان قادرا على جلب المنفعة كما زعم وأنه أصابها بعلمه لكان قادرا على دفع المضرة، لأن درء المفسدة مقدم على جلب المنفعة؛ ومقصودى الآن هو الإشارة إلى تَغَيُّر بناء الكلام بتغيُّر أوْدية المعانى، وأن المعانى حين تتغيّر تتغيّر معها الأبنية، والأساليب، ثم تقترب هذه الأبنية والأساليب فى المعانى الجديدة بمقدار تقارب المعانى، وهذا ظاهر جدا فى الكتاب العزيز ولا يزال سره مُلَثَّمًا، وأضع الآن شواهده بين أيدى أهل العلم، نعم هو يدخل فى المطابقة لمقتضى الحال ولكنه لم يُدْرس ولم تُبيَّنُ فيه وجوه المطابقة وما لا يستطاع كله لا يترك كله.

وقد وقف الزمخشرى عند الفاء التى بدأت بها الآيات وذكر كلاما حسنا جدا ومفيدا جدا وقد أشرت إلى شىء منه فى غير هذا الموضع، وأُنبه إليه هنا لأنه أثاره فى الآية ولأنه هو الآخر باب لم تشبعه الدراسات القرآنية مع كثرتها، ونَفعها وأعْنِى به حروف العطف التى تكون فى رؤوس المعانى، وأنها تذهب بالجملة التى هى فى رأسها وما تعلق بهذه الجملة إلى الأصل الذى هو أشبه بها، فى الكلام الذى تقدم، وليس ربط الجمل فى تتابعها هو كل ما فى هذه الروابط، وإنما حين تخترق الواو أو الفاء مساحة سَبَقَتْ لتَعقد الشبكة بين ما بعدها، وهذا الجذر الذى ابتعد عنها، بتفريعات الكلام وتحليلات المعانى وحين نراجع هذا الضرب من العطف نلاحظ أن هذه الفاءات والواوات توثق صلات المعانى فى السورة وتبيِّن الكثير من وجوه وحدتها والكثير من التفاصيل التى تعقب المعانى، وتحللها، حتى يمتد الكلام ويطول، ثم يأتى معنى من المعانى الرؤوس، ويتجاوز هذا الامتداد وهذا الطول ويرجع إلى المعنى الأم الذى امتدت فروعه، وإذا كان الشيخ عبد القاهر ذكر أن مجىء

الواو وتركـها فى الكلام مما لا يكمل فـى معـرفتـه إلا من لهم طبع فى علم البلاغة هم به أفـراد فإن هذا إذا حصرناه فى الذى ذكـره فى الفصل والوصل نكون قد ضيـقناه لأنه يتسع بإضافة مـا نحن فيه؛ وكان المفسـرون فرسانا فى تحليل البيان، حين يرجعـون بـهذه الروابط إلـى الأصـول التى تـفـرع مـنهـا ما بعدها، وقـد يكون الفاصل بين ما بعد هذه الواو وما عطفت عليـه جملا معـترضة، طالـت، ومجىء هذا الاعتـراض وأثره فى طرفى الكلام المعطوف والمعطوف عليه مما يغمض إدراك سره، فإذا صادفه من العلماء من رزق حسن إدراكه وجـدت له مذاقـا مخـتلفا، ووجـدت نفسك بين ضـروب من تأليف الكلام تختلف اختلافا متسعا باختلاف المقاصد، والأحوال، ويجب أن تُدْرس هذه الصـــور وهذه المنازع، والـروابـط فـى الكتـــاب كـلـه، وفـى كـــلام رسـول الله ﷺ وفى رسائل الكتاب وفى شعر الشـعراء، وقد رأيت للشعراء فى ذلك منازع مختلفـة، وأحيانا تجد واو رب فى القصـيدة هى الحادى الذى يحدو أجزاء القصيدة، ويضم نشـرها، ويحشدها لبيان المعنى الأم الذى بُنيت عليه القصيدة، وقد بدأ الزمخشرى الحديث فى الآية بملاحظة الفرق بينها وبين أختهـا التى تقدمت فى السورة ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

والفرق هو أن الآية التى معنا ابتـدأت بالفاء، وأختها السـابقة ابتدأت بالواو فلماذا؟ وقبل الإجابة أشير إلى أن كلمة ﴿خَوَّلَهُ﴾ تكررت من الآيتين، وخوّله أعطاه من غير مـقابل لأن هذا مهم فى عرض الآيتين كـما سنبين إن شاء الله، ويقول الزمخشرى فى الفـرق بين الواو والفاء إن الفاء دلت على أن هذه الجملة بكل توابعـها فى الآيـات ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٢ إلى قوله تعـالى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ مرتبة على قـوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ

قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ [الزمر: ٤٥] والمقصود بيان أنه تشمئز قلوبهم عند ذكره وحده سبحانه ويستبشرون عند ذكر الذين من دونه فإذا مسهم الضر ضل من يدعون إلا إياه جل وتقدس، ورجوع الفاء إلى هذه الآية وترتيب ما بعدها عليه هو معقد المعنى وأنهم يتناقضون مع أنفسهم إلى هذا الحد، وهذا واقعهم الذى يجب أن يراجعوه حتى يُخَلِّصوا عقائدهم من هذا الاضطراب وهذا الاختلال، يعنى أن هذا الترتيب يضع واقعهم المختلط والمضطرب تحت أعينهم، ويدعوهم إلى المراجعة، وهذا جيد جدا، ولو قلت إنها مرتبة على ما قبلها مباشرة من باب ترتيب المعنى على المعنى لضاع هذا المغزى الجليل فى الآية، وكأن هذه الفاء لها عين تبصر بها، وأنها جَالت فى الذى مَضَى فلم تجد أشبه بالذى بعدها إلا جملة «وإذا ذكر الله وحده»، فنقلت هذه العائلة إلى هناك لتحدِّث عن سوء أدبهم مع الله حين تشمئز نفوسهم من ذكره ثم يُبيِّن ضراعتهم إليه حين يمسُّهم الضر، ثم تقول هذه خليقة من خلائق الإنسان كذلك كان وكذلك هو كائن، وكذلك هو سيكون، وأن الله ما أنزل الكتاب إلا ليخلص هذا الإنسان من هذا الفساد، وهذا بخلاف آية الواو لأن المقصود فيها ضم معنى إلى معنى، وليس ترتيب معنى على معنى، ويا بعد ما بينهما، ويشير الزمخشرى إلى أن هذا الترتيب ليس ترتيبًا طبيعيا لأنه ليس ترتيب معنى على معنى يترتب عليه، وإنما هو ترتيب معنى على معنى هو ضده، لأن مقتضى اشمئزاز قلوبهم عند ذكر الله ألا يرجعوا إليه إذا مستهم الضراء، الآية ليست من مثل قولنا زيد مؤمن بربه فإذا مسته الضراء دعا ربه، وهذا هو المستقيم مع المنطق ومع الفطرة، وإنما هى مثل قولنا زيد لا يؤمن بالله فإذا مسته الضراء دعاه وهذا ضد المنطق، وضد الفطرة، ووراء هذا إنكار لموقف زيد الذى لا يؤمن بربه وأنه لو كان منطقيا مع نفسه لما دعا ربه عند مسّ الضراء.

والجمل أو الآيات التى وقعت بين الفاء وما عطفت عليه، جمل معترضة كما يقول الزمخشرى، ثم يسأل ويقول «حق الاعتراض أن يؤكد المعترض بينه وبينه

قلت ما فى الاعـتراض من دعاء رسول الله ﷺ ربه بأمـر منه وقوله ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ﴾ ثم ما عقبه من الوعيد العظيم تأكيد لإنكار اشمئزازهم، واستبشارهم ورجـوعهـم إلى الله فى الشـدائد، دون آلهـتـهم كـأنه قيـل يا رب لا يحكم بينى وبين هؤلاء الذين يجتـرئون عليك مثل هذه الجراءة ويرتكبـون مثل هذا المنكر إلا أنت، وقوله ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ متناول لهم ولكل ظالم إن جـعل مطلقًا أو إياهم خاصة إن عنيتهم به كأنه قيل ولو أن لهؤلاء الظالمين ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به؛ عليهم حين أحكمُ عليهم بسوء العذاب، وهذه الأسرار والنكت لا يبرزها إلا علم النظم وإلا بقـيت محجبة فى أكمـامها» انتهى كلام الزمـخشرى، ومن المفيد أن أحدد مسألة علم النظم فى هذا النص، لأنها ليست إلا الوعى اليقظ فى تحديد المعطوف عليه وأن الفاء لم تعطف ما بعدها عـلى ما قبلها مباشرة، وهو قوله تـعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أو الجملة الأصلـية التى هى صاحبة الحال، وهى قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وأن المعنى لا يلتئم إلا بما قاله الزمخشرى وهو العطف على جملة ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ وأن علم النظم الذى يفـتق أكمام الـبيان عن أزاهيـره هو العلم الذى يجعلنا ندرك أن هذه الآيات من تمام الآيات السابـقة يعنى ترجع إلى الكلام السابق ونفتح عيـوننا عليه حتى ندرك ما هو من معـدنه مما لا يجوز أن يعطف أو يرتب إلا عليه، وكأن علم النظم عند الشيخ هو علم الوعى اليقظ بمعانى الكلام، والعلم اليقظ بالروابط، والتشابك الذى بين أجزاء الكلام، أو هو باحث عن وحدة الكلام المدروس. وهذا فقـه غائب أو شـاحب أو مُقْصى عن الدرس الـبلاغى ويجب أن يعود بنضارته، وطراوته، ودقـة تذوقه إلى الدرس البلاغى، ولا أشك فى أن علم النظم الذى كان فى عقل الزمخـشرى يختلف اختلافًا ما أو اختلافًـا كثيرًا أو قليلا عن علم النظم الذى كان يسكن فى عقل الخطيب، أو الرازى فضلا عن علم النظم الذى فى رؤوس أسـاتذة البـلاغـة الآن، وأقل درجـات هذا الخـلاف هو أن زيدا وعمرا، درسوا التـشبيه واستوعبوا مادتـه العلمية التى فى الكتب وقدرة زيد

فى استخراج أسرار التشبيه فى هذه القصيدة، تختلف عن قدرة عمر لأن أهم ما فى العلم القدرة على استثماره، هكذا الحال من كل علم فقد نجد جمهرة من الأطباء درسوا كل ما فى الكتب عن أوصاب العين ثم تجد فروقا واسعة وتفاوتا شديدا فى استثمار هذه المتون التى اجتمعوا على حفظها وهكذا، وكما أن علم الطب لا تظهر ثمرته إلا فى علاج المرضى كذلك علم النظم لا تظهر ثمرته إلا فى تحليل البيان، ودراسة الشعر، ثم دراسة كلام الله، وكلام رسوله عليه السلام، وحين يتلعثم فى هذا الباب يكون علما أخرس أطرش لا قيمة له، ولذلك وجب علينا أن نقرأ ساعة فى كتب البلاغة ويقابلها عشر ساعات فى كتب الشعر والأدب، والطبيب البارع هو الذى يعيش بين مرضاه أكثر مما يعيش بين الكتب؛ وهكذا قل فى كل علوم العربية، علماؤها الحقيقيون هم رواة الشعر، وحفاظ الرسائل، وأهل الحديث، وأهل القراءات ومن كان صاحب متون بلاغية فحسب فليس بصاحب شىء؛ هذا ما أفهمه من عبارة الزمخشرى، والله أعلم.

قوله سبحانه ﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ كلمة «إذا الشرطية» تدل على أن شرطها كثير الوقوع بخلاف أختها "إن الشرطية" فإنها تدل على أن شرطها نادر ولذلك كثر مجىء إذا مع الحسنة وكثر مجىء إن مع السيئة كما فى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ﴾ [الأعراف: ١٣١] وإنما جاءت إذا هنا مع مَسِّ الضر لأنها تصف رذيلة من رذائل الإنسان، أو تتكلم عن إنسان هذا طبعه، وإذا هنا تشير إلى أن إنسانا هذا مسلكه جدير بأن يكون مسُّ الضر له أمرا متوقعا ولتأكيد هذا المعنى ذكرت الآية المسّ وهو أقل درجات الإصابة؛ ثم نكرت كلمة (ضر) فأفاد التنكير التقليل يعنى إذا مسه قدر أى قدر من الضر دعا ربه، ولجأ إليه، وهذا كلام العلماء الكرام وهو كلام جيد، وكلمة الإنسان هنا كلمة شاملة عامة، ودلالتها اللغوية صالحة لأن يراد بها كل إنسان، وإن كان ليس هذا مرادا وإنما المراد الجنس الذى منه هذا الصنف، ومنه الذى يؤمن بأن ما به من نعمة فمن

الله بدليل قولــه فى الفاصلة ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ يعنى أن منهم من يعلم، وإن كانوا الأقل، ومن المفيد أن نذكر ما قاله الزمخشرى فى الفاء وأنها شدّت الآية ومـا تعلق بها إلى قـوله تعالى ﴿لا يُؤْمِنُونَ﴾ وأمسكت كل هذه العائـلة هناك مع الشذوذ البَـشِعِ من الذين تشمـئز قلوبهم وأضـافت هذا إلى ذلك وكونت أرومة هذه أوصافها، ولو وضـعت هذا مرة ثانية للتأمل وجدت شيئا آخـر يضاف إلى ما قاله الزمخشرى الـذى قال إن هذه الآية تشير إلى أن الذين تشمـئز قلوبهم عند ذكر الـله هم الذين يدعونه إذا مسـهم أقل قدر من الضر، وهذا جـيد، والمعنى الآخر الذى أريده هو أن الذين يرتكبـون أبشع ما يرتكب من سوء الأدب مـع الله واشمئـزاز قلوبهم عند ذكره هم فـصيل من عائلة إنسانيــة عامة يعانى أكثـرها داء نكران الحق وداء ادعاء ما ليس له، وداء الغرور وداء الطغيان إذا استغنى إلى آخر مـا تدل عليه هذه الصفة الموجزة جدا وهى أنه إذا عجـز مد يده إلى السمـاء، وإذا كشف الله عنه الضـر مشى فى الأرض مَـرِحا وبالـغ الجبـال طولا، وهذه صـورة تثـير الإشـفـاق على هذا الإنسان، وتثـير السـخرية منه أيضا، وربما أثارت الضـحك من جهـالته حين عجز عن كشف مس أقل شىء من الضر، ولـمَّا أكرمه الله وكشف عنه الضر وأعطاه نعمة من عنده من مـحض فضل الله، تَفَرْعن وقال ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ وهذا الإنسان الشاذ الذى يشمئز عند ذكر الله فرع من هذه الدوحة التى يغلب على أعضائها الإحساس المادى المنكر لكل فضل والمتبجح بما ليس له.

وقوله سبحانه ﴿دَعَانَا﴾ لم يقل كما قال فى الآية السابقة ﴿دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ وإنما قال "دعـانا" وذكر نون العظمة، ثم جاءت نون العظمـة بعد ذلك فى موضـعين فى الجملة الثانية فى قـوله تعالى ﴿خَوَّلْنَاهُ﴾ وفى قوله ﴿مِّنَّا﴾ والآية السابقة ليس فـيها هذا الضمير كـما أنه قال هناك ﴿دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ وهذا فيه معنى زائد على ﴿دَعَانَا﴾ لأنه ذكر ربه الذى يذكـر فى الدعاء وقال

منيبا إليه، يعنى راجعا ضارعا، صادقا مخلصا، ثم قال هنا بعد تخويل النعمة ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ والجواب هناك الواقع موضع هذا قوله تعالى ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ وفرق بين من نسى ومن قال على الفور ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ والخلاصة أنك تجد الذى هنا أشد غطرسة، وأشد بعدا، وأشد لجاجة فى الباطل، وذلك لأنه فى سياق الذى بلغ غاية السفه، واشمأز قلبه عند ذكر الله واستبشر عند ذكر الأنداد، ولاحظ أنه لما نسى هناك جعل لله أندادا، وسياقه هنا أنه تنبسط أساريره، وتظهر البشارة على بشرته، عند ذكر الأنداد، وهذا فرق، ومجىء ضمير العظمة فى هذا السياق الأشد، والأكثر تحديا، والأكثر سفهًا لتأكيد معنى الألوهية، لأنك تجد عز الألوهية وراء كلمة مسندة إلى ضمير العظمة جل سبحانه وتقدس، ونلاحظ خصوصيات أخرى فى العبارة ترشد إلى أشياء هى محور الدلالة، من ذلك قوله تعالى ﴿مِّنَّا﴾ لأن هذا القيد يمكن الاستغناء عنه بكلمة (خولناه) لأن التخويل فَضْلٌ مَنٌّ من الله سبحانه وإنما أضيفت كلمة منا لتؤكد أمورا، منها أن النعمة التى سيدَّعِى الآن أنها بعلمه وإنجازه هى من الله، وليست منه كما يزعم، وشىء آخر وهو أهم أن هذا الإنسان الذى ليس بمعزل عن من اشمأز قلبه عند ذكر الله هو موضع منٍّ الله وعطائه، وأن من شأن الإله الخالق الحى القادر ألا تنقطع فواضله عن مخلوقاته، وإن ساؤوا وأساؤوا، وأنه يعطى من يحادُّه عطاء فضلا، وتخويلا ومِنّةً، وهذا هو عز الألوهية، ولم أعرف إنسانا غمر بفواضله من يحادُّه، ويعاديه، ويشمئز قلبه عند ذكره، والله سبحانه ليس كمثله شىء، وأهم ما ألحظه ويملأ قلبى غبطة هو أن كفر الكافرين وفجور الفاجرين وظلم الظالمين لم يقابل ربنا شيئا من ذلك بمنع عطاياه، وأنهم مهما فَعَلُوا لم يزيدوا على أن يكونوا خلقا من خلقه، وعبيدا من عباده، وهذا هو مقام الألوهية الذى تجد الكتاب العزيز يتعهدك ببيانه، والخصوصية الثانية قوله ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ وإضافة كلمة «إنما» تفيد القصر يعنى ليس هناك وجه لوصول هذه

النعمة إليّ إلا وجه واحد وهو استحقاقى لها لعلمى ولقدراتى، والمقصود من وراء ذلك بيان شدة إنكاره للنعمة، وإنكار أنها من المنعم الذى كان منذ لحظات يمدُّ يده ليكشف عنه مَسَّ ضُرٍّ؛ ووَضْعُ هذا الدعاء لكشف مس أقل الضر وعجزه عن دفعه عن نفسه بإزاء هذا التَّبَجُّح وهذا الاستفزاز وهذا الادعاء، كل ذلك يراد به تجلية طباع هذا النموذج الذى منه هذا التافه المشمئز عند ذكر الله، وهذا المغزى ليس مقصودا فى الآية السابقة، وهذا هو وجه الفرق بين جواب الشرط فى الجملتين، هناك ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ﴾ وهنا ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الزمر: ٤٩] الكلام هناك مضموم إلى قوله تعالى﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، وليس هناك إنسان مارس سوء أدب مع الله، واشمأز قلبه عند ذكره.

قلت إن قوله تعالى ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ هو نهاية الجملتين المتصاقبتين وأنهما رأس هذا الفصل وأن الذى بعدهما تعقيب على هذا السلوك، وقبل الوقوف مع هذا التعقيب أشير إلى شىء لم يشر إليه القدماء لأنه قارئهم غير قارئنا؛ وهو إنه من المشروع بل من الواجب أن نقول إننا إذا تعلمنا وعلمنا واجتهدنا حصلنا الخير لنا ولأجيالنا، وتوفرت النعم وأن السعى فى الأرض واجب، وأن العلم بأسرار الكون واجب، وأن العلم هو الذى يأخذ بأيدينا ويعيننا على استثمار ما فى الأرض، وما فى الكون، وأن الأمم التى وعت ذلك تقدّمت والأمم التى غَفَلَتْ عن ذلك تأخرت، وما دام هذا حقا، ومن الواجب أن نتكلم به وأن نطالب به، فلماذا يأثم من يقول ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ ثم إننا نقول إن ما نحن فيه من نعم طالما كَدَحْنَا وطالما اجتهدنا، حتى وفَّرناها، ونقول أيضا عن ميراثنا من آبائنا إن هذا الميراث إن كنا لم نَكُدّ فيه فقد كدَّ فيه آباؤنا، وإنما أوتُوه بجدِّهم وعلمهم وصبرهم إلى آخره؟

أقول إنما أنكر القرآن على من يقـول إنما أوتيته على علم ولم ينكر على المؤمن أن يقـول ذلك لأن المؤمن بالله يعلم أن الله سـبـحانه وتعـالى هو الذى هيأ هذا الوجـود، بطاقاته العظيمـة وسخره للإنسان، وهيـأ الإنسان بعقله وفكره وجَهْـدِه العقلى، والبدنى لاستـثمار هذه الودائع، وأن الزارع يبذر الحب فى الأرض وهـو يـعـلم أن الله سـبحانه أودع فـى هـذا الحب ما أودع، وأودع فى الأرض ما أودع، وأودع فى الماء ما أودع، وكل ذلك هو الذى يكون منه وبـه الزرع، وأن الحرث والـسقى والإعـداد الـمُـتَـقَن القائم على العلم كل ذلك يُنْتِج نتائج جيـدة لما أودعه الله فى الحَبَّة والتُّربة والماء، ثم إننا بجـهـدنا من طَـوْلِ ربنا؛ ولا حـول لنا إلا بحـوله، وبذل قصارى الجهـد فى استثمار هذا الوجود مطلب شـرعى، لأن الله سبحانه استخلفنا فى الأرض لإعمارها، واليد العُلْـيا خير من اليد السُّفلىَ والغنى الشاكـر أفضل من الفقيـر الصابر، وهذا وغيره مـحفزات ومُثـيرات لنعلم ونتقدم، والـمُنكرُ الذى يُـنكرُ الله عليه قوله ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُـهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ قد أخطأ خطأ ظاهـرا لأنه يُغـفِلُ إعداد الحـق لهذا الـوجود، ولهـذا الجـهـد الإنسانى، وأنه سبحانه قدَّر فى الأرض أقـواتها يوم قال لها كونى فكانت، وأودع فى الكون أسراره لما هيـأه، وسخره لهذا الإنسان وهـيأ هذا الإنسان لاستثـمار ما أودع، ولذلك كان تَغَلْغل العـقل المؤمن فى العلم وفى أسرار العلم فى هذا الوجـود مُفضـيًا إلى أرقى مـراتب الخشيـة من الله كمـا قال تعالى ﴿إِنَّمَـا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِـبَادِهِ الْعُلَمَـاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] المذهب المادى مـذهب غَبـىٌّ لأنه ينكر الأمـر الإلهى الظاهر فى هذا الوجـود، ولولا هذا الأمر الإلهى ما عـاش على هذا الكوكب حَىّ، نعم يصح ويجوز لمن ينكر الامر الإلهى فـى السماء وفى الأرض وفى الـكون أن يقول: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُـهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ إذا جاء بهذه النعمة من غـير الأرض التى خَلَقَها الله، وإذا فكر هو بغيـر العقل الذى أودعـه الله فيه، ومـشى فى الأرض بغيـر القدم التى

خلقها الله، ورأى بغير العينين اللتين جعلهما الله له، وما دام هذا غير ممكن فلا مفر لمن له عقل من الإقرار بأن كل ما بنا من نعم فمن الله، ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣، ٦٤].. ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨، ٦٩].. ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ﴾ [الواقعة: [٧١، ٧٢] هذا والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ هذه الجملة هى لب التعقيب على هذا الموقف، ومن المفيد مراجعة هذا الإيجاز الشديد فى البيان عن حقائق جليلة فى شأن الإنسان، راجع الجملتين السابقتين وما فيهما من إيجاز، ثم ما فى هذه الجملة من الإيجاز، وكيف أحاطت الجمل الثلاث بهذا الشأن الجلل فى طبيعة الإنسان، وكيف كان رد هذه الجملة على هذا الاستفزاز، وهذا التبجح، كل ذلك فى كلمات معدودة، وكلمة (بل) تفيد الإضراب الإبطالى الذى يبطل ما مضى لتأتى بالحقيقة الناصعة التى تَدْحَضُ الباطل قبلها؛ وكلمة (هى) راجعة إلى النعمة، والضمير فى قول المبطل ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ﴾ راجع إلى النعمة وإنما جاء مذكرا ذهابا به إلى المعنى كما قال الزمخشرى لأن قوله ﴿نِعْمَةً مِّنَّا﴾ شيئًا من النعم وقسمًا منها، وهذا الذى قاله الزمخشرى بيان لصحة عود الضمير بالتذكير، وليس بيانا لسره، وربما أراد المُبْطل بالتذكير صرف الضمير عن كلمة النعمة، لأن النعمة تشير إلى المنعم جل وتقدس، والمبطل يصرف هذا ويقول ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ ويبالغ فى ذلك الصرف باستعمال كلمة (إنما) التى تفيد أن ما أفادته من القصر معلوم لا يجهله أحد، ولا ينكره كما قال المفسدون فى سورة البقرة ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١] ردا على من قالوا لهم ﴿لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾ وكان الرد هناك ﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ [البقرة: ١٢] وهو نقض لادعائهم، وكذلك قوله

تعالى هنا ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ نقص وإبطال لزعم القائل ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ وكلمة (فتنة) كلمة شاملة، وجامعة، لأنها صادقة على كل نعمة أنعمها الله على عباده البر منهم والفاجر، والفتنة معناها الابتلاء، والاختبار، والتمحيص، لأن الله سبحانه يبتلى عباده بالخير والشر، فالصالح يشكر فى السراء، ويصبر فى الضراء، والفاجر لا يشكر ولا يصبر، والشكر يُبقى النعمة ويزيدها ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] والفاجر لا يُقرُّ بأنها نعمة من الله خوله بها، وإنما يزعم أنها بعلمه، قوله تعالى ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ يجوز أن يكون هذا الاستدراك راجعا إلى قوله تعالى ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ والمعنى أن أكثر الناس لا يعلم أن النعم من الابتلاء، وقليل من الناس يعلم ذلك، ويشكر لأن الله سبحانه أنعم على هذا القليل بنعمة هى أجل النعم، وهى نعمة الهداية، فاهتدى إلى الذكر، والشكر، واهتدى إلى معرفة الحقيقة، وهى أن كل النعم من الله، وأن الحول والطول منه سبحانه، وقد أومأت الآية إلى هذا الفريق الصالح ثم انصرفت إلى الفريق المبطل لعله يهتدى، ويمكن أن تكون استدراكا على ما مضى من أول قوله سبحانه ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ وأن هذا شأن أكثر الناس، والصالحون وهم القليل على غير هذا، لأنهم يدعون الله فى الضراء والسراء، ويشكرون ويصبرون، بل ويعلمون أن البلايا عطاء، وأن المصيبات بعض النعم، لأنهم يصبرون فيؤجرون، ثم إن الجملة الكريمة فيها توكيد بتقديم المسند إليه على الخبر الفعلى المنفى فيفيد ذلك توكيد النفى، ثم وهو الأهم أنها لم تذكر مفعولا لفعل يعلمون لتشير إلى أنهم فقدوا أصل العلم لأن من لم يعلم أن النعم من الله لم يعلم شيئًا لظهور ذلك ظهورا لا يلتبس، لأنه لا يوجد فى الأرض إنسان يستطيع أن يوجد نعمة واحدة تخلو من عطاء الله، لأننا لا نستخرج نعمة واحدة من الأرض إلا بالذى أودعه الله فيها، بل ولا نستطيع أن نفكر إلا بالعقل الذى أودعه الله فينا، نعم يستطيع

الإنسان أن يوجد نعمة من غير الله إذا استطاع أن ينفذ من أقطار السموات والأرض، وشيء آخر فى الجملة الكريمة أقوله وليس عندى جوابه وهو لماذا قال أكثرهم وهو يعنى الناس؟ وقد ذكر الإنسان فى رأس الآية؟ أو لماذا لم يقل إذ مَسَّ الناس ضر؟ هل لأن نفى العلم أشبه بالناس الذين كان النسيان فى أصل جِبِلَّتهم، حتى إنهم ينسون أنفسهم؟ وهل ذكر الإنسان أولا لأن هذا السلوك المستفز ينافى إنسانية الإنسان، وأن إنسانية الإنسان تقتضى استقامة سلوكه على وفق المعنى الإنسانى الذى هو فى أصل الجبلة؟ قلت ليس عندى الجواب وإنما قلت ما قلت لأفتح الباب للذى عنده الجواب، ولاشك أن كلمة إنسان تعنى شيئا زائدا عن كلمة الناس، كما أن كلمة الناس تعنى شيئا زائدا عن كلمة الإنسان، والله أعلم بأسرار كلامه، وأخيرا أجد فى هذه الجملة معنى من معانى الإعجاز، وهو أنها تصف وصفا دقيقا الناس الذين يعيشون على أرض الله، وأكثرهم لا يعلمون أنه الحق، وأن كتابه حق، وأن محمدا حق، وأن البَعْث حق، وأن الجنة حق، وأن النار حق، والخلاصة أن الأرض لم يعش عليها أهل الله الذين يعلمون إلا وهم قلة قليلة وأكثر الناس لا يعلمون، والكتاب العزيز حين يجعل العلم بالخالق الحى القادر وبكُتُبه ورسله واليوم الآخر هو العلم، ويَنْفِى العلم عن من يجهل هذا ولو بلغ الذروة فى الصناعة ووسائل الحضارة أقول الكتاب حين يجعل أصل العلم العلم بالله رب العالمين إنما يشير إلى حقيقة وجوهر هذا الوجود، لأن افتقاد العلم بالله وملائكته وكتبه ورسله يجعل الحياة جحيما لا يطاق، ولا قيمة لأن تعلم كل شيء فى المادة ثم تجهل أنها مخلوقة لله رب العالمين، ومشكلة هذا الزمن أنه اتسع فيه علم الضالين وانكمش فيه علم الموحدين والمطلوب أن يَنْهَضُ علماء أمة التوحيد وأن يحوزوا قصب السبق فى العلوم الأخرى إكراما لمكانة أمة الشهداء، ومقامها فى الناس.

قوله تعالى ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أول ما يلفت فى هذا المعنى الجديد هو حرف التحقيق الذى يقرر هذه الحقيقة فى

نفس السامع وهذه الحقيقة تقول إن هذه الضلالة قديمة، وإن تطورت الآن ولَبِسَتْ ثياب الفلسفة، وأن أهل الضلالة يأخذ لاحقهم عن سابقهم، وأنهم مُقَلّدون، وقديما نهى الأعرابى غيرَ المثقف وغَيْرَ المستنير عن التقليد وقال «ولا تكن مثل عَير قيد فانقاد» والعير الحمار وهو أحد الأذلين، الآية تشير إلى أن هؤلاء لم يفتحوا باب الإلحاد، ولم يراجعوه ولم ينظروا فى براهينه، وإنما جعلوه متنا يَرْويه الخَلَفُ عن السلف ويُعيدُونَه بلفظه، وهذا ما أفهمه من قوله تعالى: ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعنى الجملة نفسها التى هى ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ تكررت بلفظها ومعناها ولم يُفتح بابُ فهمها، وتمحيصها وتحليلها، وأن سر بقاء الإلحاد هو هذا؛ أعنى عدم التدبر والتفكر، والمراجعة، ولاحظ أن هذا الترداد لمقولة الكفر، جاء فى سياق أظهر فيه الكتاب التناقض الظاهر فى عقيدتهم، وسلوكهم، وأنهم إذا مسَّهم ضُرٌّ دعوا ربهم، فإذا أنعم بَرَفع الضر أو بما أنعم به أدارت النعمة ظهورهم للحق، الذى صَرفُوا وجوههم إليه بالأمس وتبَجّحواْ وقالوا إنما أوتينا ما أوتينا عن علم، والجملة بلفظها قالها رجل ملحد من بنى إسرائيل من قبل بعثة رسول الله ﷺ بأكثر من عشرة قرون، وهو قارون الذى كان من قوم موسى فبغى عليهم، ولما طولب من عقلاء قومه وقالوا له ابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تبغى الفساد فى الأرض قال لهم إنما أوتيته على علم عندى، وهذا يعنى أن الجملة مغلق لفظها على معناها، والقوم يرددونها كالببّغاوات من غير مراجعة، ولذلك نجد مذاهب وعقائد المبطلين بعضها من بعض، ولو جمعت أصول عقائد المبطلين التى ذكرها الكتاب العزيز، فلن تجد مذهبا ملحدا معاصرا يخرج عنها، وهذا ما أفهمه من حرف التحقيق الذى بدأت به الجملة؛ والضمير فى ﴿قَالَهَا﴾ يعود إلى الجملة ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ﴾.

وراجع ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وضعـها بإزاء ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] تجد شبها واضـحا ووجه هذا الشبه هو إرث أصل من أصول الباطل، والتـشبث به، وجملة ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ كما قلت سابقا يمكن أن يـقولها الموحد ولا تقدح فى دينـه، إذا كان المراد بيان أن الذى هو فيه من خير إنما هو اجتـهاده، وكده، وليس هذا هو المقصود منها فى هذا السيـاق، لأن السياق يُبْـرِزُهَا فى صورة ضلالة، من ضـلالات أهل الباطل، وكُفْرِيَّة من كفـرياتهم على حد تعبير الرازى فى سورة الزخـرف، ولا يستقيم هذا إلا فى حالة واحدة وهى أن يكون المراد بهـا إنكار النعمة، لأن إنكار نعم الله من الكفر، لأن الله سبـحانه وتعالى قال: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] فـإذا قلت ﴿إِنَّمَـا أُوتِيتُـهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ وأنت تعنى نَفْى أن يكون الذى أوتيته من نعم الله فـقد كفرت، نعم تقول أوتيـته عن علم وأنت موقن بأنه من نعم الله لأن تحصيل جهـدى لأى نعمة إنما كان لما أودعه الله فى هذا الوجود، وهيـأه به لإنتاج النعم وما أعاننى الله عليـه وهدانى إليه وأنا أزاول اجـتهـادى وكَـدّى. هذا حـصَّل النعم بجـده وهو مـوقن بأن الله من ورائه بتسديده وعَـوْنه، وأن الله من أمامه بما أودعه فى الـوجود من طاقات، وذاك حَـصَّل النعم بكدِّه وجَـدّه وليس فى يقـينه شىء من الغـيب. وليس لله فى الأرض وجود وليس لله فى نفسـه وجهده وجود، والمعتزلة يقـولون إن العباد يخلقـون أفعـالهم وليس هذا ببـعيـد عن ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُـهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ ولكنهم يعتقدون أن إنبات الأرض للزرع من نعم اللـه، وأن قدرة العقل على التفكير والاجتهاد والتخطيط من نعم الله، وأن أدوات الإنتـاج فينا من السمع والبصر والفؤاد كل ذلك من الله، وهذا حسبى فى هذه الجملة.

وقوله سبحانه: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ هذه الفاء تفيد ترتيب ما بعدها وهو إحبـاط ما كسبوا وأنه لا يُغْنى عنهم شيئـا، على ما قبلها وهذا

لا يقال فى الكتـاب إلا فى شأن المنكرين الثابتين على قـولهم القديم الموروث الذى كرره المذكور فى الآية؛ وهذا التـرتيب يؤكد أن قوله: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ من مقـولات المنكرين كما أن الفـاء التى فى قوله سبـحانه ﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ [الزمر: ٤٩] والتى تربط هذا الإنسان بالذين إذا ذكر الله اشـمأزت قلوبهم يُؤكـد أن هذه جـملة أهل الإلحاد ولا تكون من كـلام أهل الإلحاد إلا إذا أريد بها إنكار النعـمة،وكلمة ﴿كَانُوا﴾ تشير إلى أن الكسب كان من شـأنهم والمضارع فى ﴿يَكْسِبُونَ﴾ يشير إلى أنه فـعل يتجدد وأنهم كانوا منهـمكين فى هذا الكسب وأنه لم يغن عنهم فى الآخـرة يعنى لم يدفع عنهم من عذاب الله من شىء وإن كان أغنى عنهم وأفادهم فى الدنيا؛ والغناء فى الدنيا غناء منقطع لا قيمة له وإنما الغناء يكون فى الباقية.

ومادة كسب التى ذُكرت فى هذه الآية والآية بعدها تعنى أن الشىء المكسوب موجـود قبل أن يكسبـه الكاسب، تقول كسب فـلان مالا، فالمال موجـود قبل كسبه ثم كَسَبَهُ هو بمعنى حازه، وهذا المعنى فى هذا السياق له دلالة؛ لأن المقام أن هذا الإنسان الذى تتحدث عنه الآيات اكتسب النعمة يعنى حصلها وكان لها وجود بالفعل أو بالقوة قبل كسـبه؛ وهذا نقض لدعواه أنه أوتى النعمة بعلمه، وأنه ليس وراءها مُنعم أنـعـم بـهـا بخلاف الـعمل، فـلو قـال فـما أغنى عنهم ما كانوا يعملون كما جاء فى مواضع أخرى لخلا الكلام من هذه الإشارة.

قوله تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أفادت هذه الفاء مـعنى جليلا وهى مرتبة على الفاء السابقة عليها ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ لأن الأولى أفادت معنى أساسيا وهو ترتيب عدم الغناء على اعتقادهم نفى المنعم، وأن أى كسب وراءه هذا الاعتقـاد لا يغنى شيئًا، ثم جاءت هذه الفاء وتجـاوزت مرحلة عدم الغناء إلى مرحلة أخرى وهى العـذاب، لأن ما كسبوه مما ظنوه عملا صـالحا كإغاثة المكروب ومساعدة المحتـاج، والقِرى فى الـمَحْل، وما هو من مكارم الأخلاق

ويظن أنه يغنى فى الآخـرة ليس فيـه غناء، لأن العـمل لا يغنى إلا بالإيمان، وجاءت هذه لتحـدث عن سَيِّئ ما عملوه من ظلم ونهب وقـتل واستكبار فى الأرض وأن هذا الكسب سَتُصِيبُهم سيـئاته وليس جزاء سيئاته، الجملة الأولى ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ نفت النفع، والجملة الثـانية ﴿فَأَصَابَهُمْ﴾ أثبتت الضرر، وكل من أنكر النعم وقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ لا ينفـعه صالح عـمله، ويضره سـيئ عمله، وراجع هذه الجـمل الثلاث التى انتـقلت من واقع الزمن الذى عاشه الذى قال إنما أوتيته على علم إلى تاريخ الإنسان، وأن هذا الإنسان الذى تتـحدث عنه الآية والذى إذا مـسه الضـر دعانا إنما يقـول اليوم مـا قاله الإنســان قبــله، وأن هذه خليـقة مـوغلة فى القـدم، ثم لخـصت الآيات هذا الرجوع، وحصـيلته وما يؤول إليه أمره فى الآخـرة، راجع قوله تعالى: ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وهذا إخبار بأن الذى يكون الآن قد كان مثله فى سالف الدهر، ثم قوله: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ وهذا حديث عن شق أعمالهم التى كانوا يظنون فيها الغناء عنهم، ولابد أن تكون من أعمال بِرٍّ أهل الجاهلية فى الأمم السابقـة لأن النفوس منعطفة مع مكارم الأخلاق من يوم أن قال جدنا الثانى الصالح لجدنا الثانى الطالح ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ [المائدة: ٢٨] ثـم الجملة الـثـالثـة التى تـنـاولت ما زاولوه من اجتراح السـيئات، أصابهم﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ جملة أدخلتنا فى الزمن الأقدم وجملة لخصت الأعـمال التى يظن أنها تُغنِى عنهم عند الله شيئًا، وجملة لخصت أعمـالهم السيئة، كل هذا فى الإيجاز الشديد الذى تراه، وكـمـا انتـقلت الآيات إلى الـزمن الأقـدم وطبّت الآيات للداء القـديم والأقدم عـادت الآيات من هذا الزمن القـديم إلى الواقع مرة ثانيـة ونقلتنا من الحديث عن الذيـن من قبلنا إلى الذى نعيشـه، وقالت ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر: ٥١]

وتستطيع أن تشير بإصبعك إلى من حولك وتقول والذين ظلموا من هؤلاء، وإن كان الظاهر أنها تعنى أهل مكة، ولكن هذه العناية ليست مقصورة على أهل مكة وإنما عَنَتْ أهل مكة ومن يكون على مد الزمن على شاكلتهم كما عنت كلمة الإنسان فى رأس الآية أهل مكة، ومن كان فى الزمن الأقدم على شاكلتهم، وظاهر أن كلمة ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ تعنى الذين يقولون مثل مقالة الذين من قبلهم ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ وإنما عبر عنهم بالذين ظلموا لأن الظلم معنى متسع جدا وأصله وضع الشىء فى غير موضعه واشتقاقه من الظلمة لأن الذى فى الظلمة لا يرى موضع الشىء فَيَضَعُه فى غير موضعه والشرك ظلم، لأن وضع العبادة فى غير موضعها ومجىء الكلمات المتَّسِعة فى مثل هذا المقام لتشمل مساحة متسعة من التخويف والوعيد والتهديد، وتصبح الآيه دالة على أن كل ظالم سيصيبه سيئات ما كسب؛ سواء كان كسبه من باب إنكار النعمة، أو كان من أى باب كان، ولو ظلم طالب علم مثقال حَبَّة من خردل، وهذا من أرفع آيات الكتاب العزيز؛ تراها تحدثك عن رذيلة من رذائل النفوس، ثم تفاجئك بوضع كلمة مكان كلمة فَتَخْرج الدلالة عن الحيِّز الضيق المحصور فى هذه الرذيلة إلى أفق أرحب يشمل ما دَقَّ وما جَلَّ، وراجع شدة الغضب والوعيد فى قوله سبحانه ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ وفى الإصابة معنىَ الشدة، ومنها المُصيبة ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ [الحديد: ٢٢].

ثم قال: ﴿سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾، والمراد جزاء السيئات وإصابة السيئات نفسها أشد وأهول وأعدل ثم إن السيئات صفة للذى كسبوه، وموضعها التأخير وأصل الكلام سيجازون جزاء ما عملوا من سيئات، ولكن الكلام جاء على ما جاء عليه ليشير إلى أهمية الصفة، وهى السيئات، لأن العمل الذى يجازون عليه الأهم فيه هو الأسوأ، وكأن المراد ليجزونَ أسوأ ما عملوا وفى هذا غضب شديد.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ تقدم فيه النفى على المسند إليه والخبر اسم مشتق وهذا يفيد الاختصاص غالبا، وشاهده فى كتب البلاغة ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أى بخلاف رهطك بدليل قولهم: ﴿وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ [هود: ٩١] وهو هناك لا يفيد الاختصاص، وإنما يفيد تأكيد أنهم لا يعجزون الله سبحانه لاهم ولا غيرهم، ولا من فى الأرض جميعًا، ولـمَّا ذهب الزمخشرى إلى القول بالتأكيد فى إفادة التقديم فى قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧] اتهم رضوان الله عليه بأنه يوجِّه الآية على وفق مذهبه لأنه لو قال بالاختصاص لكان نفى الخروج من النار خاصا بالمنكرين بخلاف مرتكب الكبيرة فإنه يخرج من النار، ومذهب المعتزلة خلاف هذا لأنهم يرون أن مرتكب الكبيرة يُخَلّد فى النار، وقد ظلموا الرجل لأن كلام العرب ملىء بمثل هذا التركيب غير الدال على الاختصاص وهذه الآيه منه.

وقوله سبحانه ﴿أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الزمر: ٥٢].

هذه الآية نهاية هذا الجزء من المعنى ولها دلالات، أولها أنها رَجَعَت إلى رأس معنى هذا الجزء، وهو الإنسان الذى إذا مسه ضر دعا ربه، فإذا أنعم عليه قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ﴾ وبيَّنت الآية أن مسألته مسألة رزق، وأنه إذا قَدَر عليه رزقه دعا ربه، وإذا بسط له رزقه نأى بجانبه، وقال هذا لى، وأنا جدير به، مع أن رأس الآية قال مسّه ضر ففتح المعنى ووسعه، تشمل كل ضُرٍّ وإن قل فى مال أو نفس أو ولد، أو ظلمه ظالم فاجر، أو ما شئت مما يدخل المساءة على النفس، وكذلك أطلق النعمة التى خوّلها ربنا فدخل فيها نعمة العافية، ونعمة المال، ونعمة الولد، ونعمة الجاه وما شئت مما يدخل فى هذا الباب، ثم جاءت الآية الأخيرة، وأشارت إلى أن القبض والبسط فى الرزق من الله ولك أن تقول إن القبض والبسط فى الرزق يشمل النفس والمال والولد وغير

ذلك، ولك أن توجهها إلى الرزق الذى هو الثروة وما يعاش به مما زُيِّن للناس حبه؛ وقصةُّ الإنسان المذكورة فى هذا الجزء من المعنى تكررت وتكرر معناها كثيرا من الكتاب العزيز، من مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٢٧]، وملَخصَةً أكثر فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق: ٦، ٧] والمسألة راجعة إلى هذا النموذج من الناس، وهو أكثر وهو الذى تطغيه الثروة؛ ويطغية الجاه، وتطغية السلطة، فإذا توفرت له الثروة والجاه والسلطة فقد توفر له الطغيان من جهاته كلها، ولذلك تجد الشعوب الواعية لا تمكن أحدا من السلطة أكثر من زمن محدد، حتى لا يَطْغَى فضلا عن أن يبقى حتى يكبه الموت على منخريه ثم يخرج لهم من ضِئْضِه من هو أسوأ منه، ودخول همزة الاستفهام على الواو فى قوله سبحانه ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ تعنى هذه الواو أن الهمزة الواقعة خلفها ليست جَارَةً لها وإنما هناك كلام مسكوت عنه تعطف هذه الواو ما بعدها عليه وأن الاستفهام الذى معناه الإنكار داخل على هذا المحذوف، وأن هذه الهمزة تنكر مما فى النفس ما لم ينطق به اللسان، وهذا شىء جليل وله مذاق حسن، وهو من محاسن هذه اللغة الشريفة، والتقدير أغَفَلوا ولم يَعْلموا أن الله يبسط الرزق ويقدُره؟ أو أجهلوا أو أعموا أو ما شئت مما يوحى به هذا الفراغ الصامت قبل هذه الواو وبعد هذه الهمزة.

والذى له قلت هذا هو حديث السياق، لأن السياق يقول إن هذا الإنسان الذى طغى وقال هذا لى هو ذاته الإنسان الذى مد يديه، وضرع ودعا ربه منيبا إليه، لـمَّا قدر عليه رزقه ومسته الحاجة، ومسته ضراؤها. ثم أعطيناه وخولناه فهو يعلم أن القبض والبسط، بأيدينا، وإنما غَفَل أو جهل أو عَمِى. وهذه الهمزة التى تُولّيها الواو ظهرها داخلة على ذلك وليست داخلة على الواو، لأن الواو ولّت وجهها إلى ما بعدها؛ هذا شىء، وشىء آخر وهو أن الإنسان بفطرته يتجه إلى الله فى الشدة. إذا أحاطت به اللأواء، قال من غير أن يفكر

يا رب، وإذا أحاطت به اللأواء ذهب من نفسه كل شيء إلا الله ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] وهكذا حين يكون فى جانب البر ويحيط به قاصف من الريح يفتش فى قلبه فلا يجد إلا الله.

ولا أشك فى أن هذه هى كلمة الله التى سمعها وهو فى الذر يوم أخذ الله من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وقال لهم «ألست بربكم قالوا بلى»، ثم غابت كلمة ﴿بَلَىٰ﴾ هذه وطمرتها الأحداث والأحوال والأهواء فإذا أطافت بنا اللأواء سمعنا كلمة ﴿بَلَىٰ﴾ تُدَوِّى فى نفوسنا، وقلنا بلى يا ربنا؛ أنت ربنا ونحن الآن نمد أيدينا راجينا النجاة والرحمة وكأن قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ مرجعه إلى نداء الذر، هذا والله أعلم.

وقد تكررت جملة يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر فى الكتاب العزيز ولم تذكر معها جملة ﴿أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا﴾ إلا هنا، وذكر شبيه لها فى الروم، وهو قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الروم: ٣٧]وقد سبقت جملة الروم بمثل ما سُبِقَتْ به جملة الزمر مع اختلاف يسير فى المبنى والمعنى لأن الذى فى الروم ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٣] وهذه قريبة جدا من الزمر، وإن ذكر فيها الناس بدل الإنسان، وذكر أذاقهم منه رحمة بدل خولناه نعمة ثم جاء بعدها فى الروم، ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٦] وهذا عكس ترتيب الأولى، من جهة ذكر إذاقة الرحمة أولا ثم ذكر إصابة السيئة ثانيا، وهى تقابل مس الضر الذى ذكر أولا، ثم جاء بعد ذلك قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الروم: ٣٧]، والكلام بعد ذلك فى الآيتين كلام واحد، ولم يتكرر هذا فى الكتاب إلا فى هذين الموضعين والله أعلم بأسرار كتابه.

ثم إن تكرار معنى أن الله سبحانه وتعالى يبسط الرزق ويقدره على وفق علمه بأحوال خلقه له دلالة ظاهرة على شدة عناية الكتاب العزيز بالأحوال التى هى أكثر إثارة، وأكثر حضورا فى حياة الناس، وأنها من مكامن الصراع المثير، والضّار، بهذا الاجتماع البشرى لأن تنافس الناس فى البحث عن الثروة والبسطة تنافس عام، وشامل، حتى لا تكاد تجد موضعا فى الأرض يخلو من هذا الصراع، ولا تكاد تجد جماعة لا تشتد بينها المنافسة فى البحث عن بسطة الرزق، أو البحث عن الثروة، ثم إن وجود هذا البيان الإلهى من شأنه أن يُهَدئ جوانب كثيرة فى هذا التنازع، وتَقْوَى هذه التهدئة بمقدار قرب الجماعة من كلمة الله، وتحتد وتشتد بمقدار بعد الجماعة عن كلمة الله، وإذا تركت الأفراد فى داخل المجتمع، ونظرت إلى الدول وجدت الصراع المحموم على الثروة، ووجدت توحش الأقوياء فى هذا الصراع، ونَهْبهم المُعْلن لثروات الشعوب التى لا تملك القوة فى الدفاع عن ثرواتها، إلى آخر ما نجده فى هذا الباب ثم تعود إلى تكرار هذا المعنى فى الكتاب العزيز لتتأكد من حقيقة مهمة وهى أن من أهم جوانب هذا الكتاب أنه يَطِبٌّ لداء بنى الإنسان وأنه سبحانه يعلم أحوالهم ويضع الهناء مواضع النَّقْبِ ولله المثل الأعلى.

ولا أشك فى أن هذا المعنى من أبرز مقاصد جملة الفاصلة التى بنيت على القطع والاستئناف والتوكيد وبُنيتْ بناء دالا على أن إدراك هذا السرٍّ هو شأن القوم الذين يؤمنون، ومرجع اسم الإشارة فى قوله: ﴿ذَلِكَ﴾ يعنى البسط والتقدير فيه آيات أعنى أدلة الألوهية لأن من عباد الله من لا يُصْلح إيمانه إلا الفقر ولو أغناه ربنا لأفسده ذلك، ومن عباد الله من لا يُصْلح إيمانه إلا الغنى ولو أفقره لأفسده ذلك، وهذا لا يكون إلا ممن خلق وعلم ما خلق، وطَبٌّ لما خلق، والمتابع للكتاب العزيز يجد تحذيرات كثيرة من فتنة الأموال، والأولاد، وأن فتنة الأموال تقدم على فتنة الأولاد، كما فى مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥] وليس معنى أن أموالنا فتنة أن الله

سبحانه يصرفنا عنها، لأنه لم يصرفنا عن الأولاد، وهى أيضا فتنة، وإنما نأخذها بحقِّها، ومن أخذها بحقِّها بُورِكَ له فيها وأن يكون يقينه عامرا بأن هذا المال هو نعمة الله عنده، وأنه مستخلف فيه، وأن يُحْسِنَ جوار هذه النعمة لأنها إن ذهبت عن قوم قلما عادت إليهم، كما قال عليه السلام لإحدى نسائه «أحسنى جوار نعم الله فإنها إنْ ذهبت عن قوم قلما تعود إليهم» وأن يعرف حق اللهفيما استخلفه الله فيه، ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧] والمؤمن الصادق إذا أعْطِى شكر، وإن منع صبر، هذا والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزمر: ٥٣- ٦١].

هذا الفصل من فصول السورة ممسك بعضه ببعض، لم أجد سبيلاً إلى تقسيمه، وأرى الكلمة الجامعة له هى قوله تعالى: ﴿لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ لأنها هى مقول القول الذى أمر عليه السلام أن ينادى عباد الله الذين أسرفوا على أنفسهم ليبلغها لهم، وراجع ما بعدها تجده تعليلاً لها، ثم أمْرًا بالإنابة إلى الله، والإسلام له سبحانه من قبل أن يأتيهم العذاب، ثم تصْوِيراً لما يؤولون إليه لو أنهم لم يتوبوا ولم يسلموا، وهذا التصوير بيان لما يقولونه لأنفسهم لو سقطوا فى العذاب، ثم صورة سريعة وموجزة ومعبرة لمن كذبوا على الله،

هذه الصورة الموجزة والمعبّرة هى سواد وجوههم، ولك أن تتدبر ما وراءها ثم لمحة موجزة للفريق الذى استجاب، واتقى، وأنه لا يمسُّهم العذابُ ولا يخافون، وراجع أنت وتأمل لتدرك الترابط بين الآيات وأن جِذْر هذا الباب هو النهى الحاسم عن اليأس من رحمة الله.

وهذه الآيات من أوْسع آيات الرحمة، ولا أعرف آية أوسع منها، وتعالج أخْطَر ما يواجهه الإنسان، الذى أسرف على نفسه، حين يستشعر عظم ذنبه، ويَتَسرَّب إليه اليأس من الرحمة وتُحصِّن نفوس الناس من اليأس وتملؤهم يقينا أن باب الله مفتوح، وأن تعاظم الذنوب وتعاظم الإفراط فيها، لا يمنع من القصد إلى باب الله، وإنما عليه فقط أن يؤوب ويرجع، وأن تُحط كل خطاياه عند هذا الباب وأن يَدْخُل باب الرحمة ويُنجِّيه الله فلا يَمَسَّه عذاب، ولايقاربه خوف، ولا يهلك على الله إلا هالك.

وقد ذكروا من أسباب نزولها أن فريقًا من الذين أوْغلوا فى الباطل وعبدوا الأوثان وقتلوا الأنفس، استعظموا آثامهم، وداخلهم اليأس، وقنطوا فنَزَلَتْ فَسَارَعوا إلى الدخول فى دين الله، وقالوا نزلت فى وَحْشِىٍّ قاتل حمزة ابن عبد المطلب ولما رأى دخوله فى دين الله استعظم جُرْمه وتردّد فنزلت،فأسلم، وجاهد، وقالوا نزلت فى نفر من قريش منهم عباس بن ربيعة، والوليد ابن الوليد، وغيرهم كانوا دخلوا فى دين الله ثم عُذِبُوا من قريش وفتنواُ فافتَتَنواُ، وارتدوا، وقال أصحاب رسول الله إن الله لن يقْبل منهم الدين بعد ما ارتدوا عنه، فنزلت، فكتب بها عمر إليهم فدخلوا فى دين الله، وهاجروا، والعِبْرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، وإنما كتبت ما قيل فى خصوص السبب لأبين أن الآية فتحت أبواب الرحمة على مصارعها فدخل فى دين الله خلق كثير، وكان منهم رجال من كبار المجاهدين، وأنها لا تزال تفتح هذا الباب، وتدعو من أسرفوا على أنفسهم، وأثقلوها بالمعاصى، والآثام فى كل عصر، وفى كل أرض، تدعوهم إلى الدخول فى رحمة الله، وأن الذنوب مهما

عظمت فلا يجوز أن تكون حاجـزة عن الأوبة إلى الله، وهذا شيء جيد جدا، ولم أعرف آية تَهْـدِم جدار اليأس كهذه الآيـة، كما لا أعرف شيـئًا أخطر على النفس الإنسانية من أن تَستَعْظم ذنوبها فـتيأس من الرحمة، وتبقى فى سراديب العصيان، والتمـرد، والظلم، والضلال، والسلب، والنهب، هذه الآية تصفِّى سراديب أهل البـاطل، وأوكار أهل الفجـور، وتقول لهم إن اليأس من رحـمة الله هو الخطر، الذى يجب أن تحذروه، وأنه هو الذنب الأكبر من كل ذنوبكم، والكبيرة الأعظم من كل كـبائركم، باب الله مفتوح لمن ضل، وفـجر، وكفر، وعاند، وحـارب، فاخـرجوا من سراديـب اليأس، الذى يُدمِّر نفـوسكم، إلى فُسْحة الأمل، ورجاء المغـفرة، وحينئذ ستجدون ربا غفورا رحيـما، إذا سَعَيتم نحوه شبرا سَعى نحوكم ذراعًا.

وقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ما أُحبُّ أن لى الدنيا وما فيها بهذه الآية**» ورسول الله ﷺ غفـر الله له ما تقدم من ذنبه ومـا تأخر، وإنما كانت الآية أحب إليـه من الدنيـا وما فـيهـا، لأنه عليـه السلام يحب هذه الأمـة، ويحرص عليـها ويشق عليه مـا تواجه من عنت، ثم هو عليه السـلام محب لقومه، ويحرص على دخولهم فى دين الله، ثم هو عليه السلام محب للناس كل الناس، ويحرص على دخولهم فى رحمة الله، وهو عليه السلام سيّدُ أمة فيـها من كل أجناس الأرض، وقد فرض اللـه عليهم جميـعا حبَّه ﷺ كـما فرض عليهم طاعته والآية تفتح أبواب رحمة الله للخلق كل الخلق.

وكلمة عبادى المنادى المضاف إلى ياء المتكلم المقصود به كل من يَنْطبق عليه اللفظ مؤمنا كان أو كافرا، فالكل عباده، وقد رأى الرازى أنها خاصة بالمؤمنين لأن القـرآن جرى على إطلاق لـفظ العبـاد على المؤمنين؛ هكذا قـال الرازى واستُدْرِك عليه بقوله تعالى: ﴿**يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ**﴾ [يس: ٣٠] ورأى الطاهر أنها خاصة بالمشركين، بدليل السياق،

وهذان القولان المتبـاينان يرشحان استعمـال الكلمة فى المؤمن والكافر، وهذا يعنى أن مـحمدا صلـوات الله وسلامه علـيه أمر من ربه بـقوله: ﴿قُلْ﴾ أن يقـول للخلق كل الخلق الذين أسـرفـوا على أنفـسهـم، وأثقلوها بالذنوب، وبالغوا فى اجتـراح السيئات، وأولعوا وانهمكوا وتهـالكوا فى ذلك أمر عليه السلام أن يقول لهم لا تقنطوا من رحمة الله، وهذا كلام لو مرَّ من غير تدبر سيكون كلاما كأىٍّ كلام، وإذا تدبرناه وجدنا فـيه أمر إلهيا، لأن الله سبحانه يعلم خطر اليـأس على النفس الإنسـانيـة، وعلى الجمـاعـة الإنسانيـة، وأنه سبحانه يأمـر المبلغ عنه بلاغه لخلقه كل خلقه،أن يقول لهم اجتـراح السيئات سوء، والكفر أسوأ والظلم والقهر سوء، والأسوأ من كل أسوأ أن ترتكب كل ذلك ثم تيأس من رحـمة الله، لأنه ما من ذنب يعظم على مغـفرة الله، لأن رحمة الله أوسع، الآية قـالت أسرفوا على أنفسهم من غـير أن تَخُصَّ ضربا من المعاصى فيدخل فـيها كل معصية ابتداء من الـكفر بالله، وكفر نعم الله، وقول من يقول: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ﴾، كما يدخل فيها الذين إذا ذكر الله اشمأزت قلوبهم، والذين كرهوا ما أنزل الله، والذين قـالوا وما الرحمن؟ إلى آخر مـا ذكر الكـتاب من أنواع المعـاصى وأنواع الكفـر، وقـابل هذا الإطلاق فى اجتـراح الآثام إطلاق فى مغـفرة الذنوب، فـقال تعـالى فى تعليل نهـيه عن القنوط ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ ومع أن هذا الإطلاق هنا مُقـيد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] إلا أن لفظ الآية المطلق هو الذى مَـعَنا، وهو الذى نراجعه وهو الذى نتـذوقه وهو الذى دعا رسـول الله ﷺ إلى أن يقول: **«ما أحب أن لى الدنيـا وما فيـها بهذه الآية»** ولو أنه عليه السلام استحضر القيد وهو يتلوها لوجدها كغيرها من آيات الرحمة ولم يكن هناك ما يـدعو إلى قوله هذا، ثم إن كلمة ﴿جَمِيعًا﴾ التى جاءت مؤكدة فى الآية لعـموم الذنوب لم تذكر فى الكتاب إلا فـى هـذه

الآية، فليس فى القرآن إن الله يغفر الذنوب جميعا إلا هذه الآية، وليس فى القرآن قل يا عبادى إلا فى هذه السورة وقد جاء مرتين مرة فى قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ [الزمر: ١٠]، ومرة هنا، نعم دخلت كلمة قل على حرف النداء فى مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٩٨] وعلى غير حرف النداء فى مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾ [الأنعام: ١٥١] ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الزمر: ٤٦]، ﴿قُل لِّعِبَادِيَ﴾ [إبراهيم: ٣١] وقد ذكرت أن استفتاح الآيات بقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ فيه إشارة إلى أن مقول القول له عند الله شأن ولذلك تجد لكلمة ﴿قُلْ﴾ فى كل موقع سراً يخصها، وهذا السر نابع من جملة مقول القول، فرق بين ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا﴾ [آل عمران: ٦٤] و﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾ الأول أمر يدعو أهل الكتاب إلى البحث عن الأمر المشترك بين أتباع الأنبياء لتضيق مسافات الخلاف، وهنا دعوة المغالين فى اجتراح السيئات إلى أن يتجنبوا خَطَر اليأس من رحمة الله. وكلمة ﴿أَسْرَفُوا﴾ لم تأت إلا فى هذه الآية وقد شغلنى اختصاص هذه الآية بما لم يتكرر فى الكتاب العزيز، وكل الذى أصَبْته هو الرجوع بهذا إلى أن أسوأ صور الإسراف تمثلت فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ وأن كلمة ﴿اشْمَأَزَّتْ﴾ لم تتكرر فى الكتاب العزيز، والعجيب أن تأتى الآيات التى تفيض بالرحمة، والتى تفتح أبواب الله فى وجه المسرفين فى الذنوب سواء كانت هذه الذنوب معصية، من أهل الإيمان، أو كانت ذنوب كفر، أو كانت ذنوب كراهية الإسلام، أو كانت ذنب الاشمزاز من ذكر الله وهو أبعدها فى سوء الأدب مع الله، قلت عجيب أن تكون أوسع آيات الرحمة فى عقب أسوأ آيات الكفر، وليس العجيب فى أن تختص كلٌّ بما لم يتكرر فقط وإنما العجيب هو موقع هذه الآية بعد الآيات السابقة، التى لم تكن فقط للكارهين لدين الله

ولا للمنكرين لنعم الله، وإنما كانت شاملة لأبغض صور الكفر، والعناد، وسوء الأدب مع الله، وتدبر هذا الترتيب وهذا النسق، وكيف يدعو ربنا عباده بلفظ عبادى إلى الحذر من اليأس من رحمته، بعد ذكر هذه النماذج التى هى أسوأ أعراق البشر، وخصوصا هذا العرق الخسيس الذى إذا مسته البأساء ضرع فإذا أصابته النعمة تَفَرْعَن وقال إنما أوتيته على علم، أقول إنك تلمح أمرا إلهيا معجزا فى هذا الترتيب لأن هذا يعنى عدم صدور هذا عن النفس الإنسانية التى إذا ذكرت سيئات من يسيئون إليها غضبت، وهدَّدَت وتوعّدَت، ويبعد جدا أن تعلن عن العفو والصفح، وأن تقارب الذين أساؤوا، وتدعوهم إلى الاقتراب، والمسالمة، وتجعل تحذير المغالين فى الإجرام من اليأس أصلا من أصول الدين، وأقول مرة ثانية إن وجوه ترتيب المعانى وبناء بعضها على بعض واستدعاء بعضها بعضا يجب أن يُدْرَس دراسة مستقلة، لأنه من أبواب الكتاب العزيز، الدالة على استحالة صدوره عن النفس الإنسانية، التى لا يساعدها طبعها على غاية التسامح المترتب على غاية الفجور، وهى قادرة على أن تواجه السيئ بالسيئ، قلت إن كلمة ﴿اشْمَأَزَّتْ﴾ لم ترد إلا هنا، وقوله ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ﴾ لم يرد إلا فى هذه السورة مرة فى نداء الذين آمنوا ومرة فى نداء الذين أسرفوا، وأن اختصاص اسم الموصول بالصلة ﴿أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ لم يرد إلا هنا، وأن لا تقنطوا من رحمة الله لم يرد إلا هنا، وأن جملة ﴿يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ لم ترد إلا هنا، والذى أريده الآن هل هذا التفرد فيه إشارة إلى خصوصية المعانى التى تفردت فيها هذه الصيغ؟ وأن كثرة هذه الخصوصيات لافتة إلى معان فيها جعلت خَيْر الخلق لايحب أن يكون له بها الدنيا وما فيها؟ وهل يمكن أن يكون هذا بابا من أبواب درس البيان، يؤسَّس على الكلمات التى لم تتكرر؟ وقد سمعت ممن يشغلهم العلم والبحث أن كلمة ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ [يوسف: ٨٥]

لم تأت فى القرآن إلا فى هذا الموضع، وعقَّب رحمه الله بقوله وقصّة يوسف بهذه التفاصيل لم تتكرر وليس فى القرآن ذكر لأبناء نبىّ وَجَد منهم أبوهم ما وجده يعقوب عليه السلام من أبنائه، وكل هذا مما يجب أن يراجع والذى يظهر لى فى اجتماع هذه الخصوصيات فى هذه الآيات هو التأكيد على سعة رحمة الله، وأنه لا ييأس أحد من رحمته، حتى الكافر الفاجر، الظالم الكاره لذكر الله، وهذا ظاهر وإنما أردت شيئًا آخر هو المحافظة على المجتمعات الإنسانية من تكوين جماعة إجرامية يائسة من أن تعود إلى الاستقامة؛ وأسوأ الأشرار هو الذى إذا رام أن يكف عن الشر وأن يرجع إلى الاستقامة وجد فى وجهه السدود التى تحول بينه وبين الاستقامة، هذه الآيات ليست فقط رحمة بهؤلاء الذين أسرفوا، وإنما هى رحمة بالمسالمين الصالحين الطيبين وتطهير المجتمع من هذا النموذج اليائس، هذا، ثم إن فكرة مطاردة اليأس فى كل صوره من أنبل ما تقوم عليه حياة الناس، وأن أخطر طريق لتدمير كل وجوه الحياة هو سيطرة اليأس على الناس، الباحث الذى لا ييأس هو الباحث المنتج لما يفيد، وعدد مرات التجارب الفاشلة فى حياة العلماء الذين غيروا فى الحياة الإنسانية لا حصر لها، وهناك صواب لا تناله أقلام العلماء إلا بعد إخفاقات كثيرة، وهذا الصواب الواحد كفَّارة لعشرات الإخفاقات. وهكذا كلما نظرت فى هذه الآيات وجدت عطاء، ولو فتحت باب ما يستفاد من الآيات مما هو بعيد عن أصل المعنى لاتَّسَعَ الكلام جدا وتكاثرت الفوائد، ورأيتك تنتقل من أنها تفتح باب الأوبة لمن يكرهون الدين، إلى أنها تَفْتَح باب الأمل للعالم الباحث عن الحقيقة سواء كان فى معمله أو كان فى مكتبته. وأن نفوس العلماء لا تعرف اليأس حتى تصل إلى الحقيقة التى تنشدها، وكلمة ﴿عِبَادِ﴾ مضافة إلى الحق أو غير مضافة حين يذكر الله بها خلقه، لا تخلو فى أى سياق من معنى الملاطفة، والمقاربة، وإيجاد

الإحساس بالرحمة، لأن المقصود بالعبودية لله ليس معنى الرِّق لأن الله خلقنا أحرارا، وإنما المقصود معنى أن الله سبحانه تعبَّدهم أى خلقهم لعبادته كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فأنا عبد الله بمعنى أن الله خلقنى لعبادته، ولذلك أجدها مُبلَّلَةً مُنَدَّاةً بعطاء الله ورحمته، فى كل مواقعها، وقد ذكر الرازى -كما ذكرت آنفا- مُعبِّرا عن أصحابه الأشاعرة «أن عرف القرآن جار بتخصيص اسم العباد بالمؤمنين، قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] وقال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦]، ولأن لفظ العباد مذكور فى معرض التعظيم، فوجب ألا يقع إلا على المؤمنين وإذا ثبت هذا ظهر أن قوله يا عبادى مختص بالمؤمنين» انتهى كلامه.

وكلمة (إذا ثبت هذا) من الكلمات التى يجريها الحق على ألسنة أهل العلم ليخرجوا من العهدة لأنه علق القول بأن النداء خاص بالمؤمنين على ثبوت أن كلمة عباد فى عرف القرآن أو فى معجم القرآن خاصة بالمؤمنين، وقولى إن لله كلمات يجريها على ألسنة أهل العلم ليس دَرْوشة، وإنما هو حقيقة، والكلمات التى هزت عقولنا ونفوسنا فى كتب العلماء هى من هذا، وقد ثبت أن كلمة عباد فى استعمال القرآن ليست خاصة بالمؤمنين، وجلّ من لا يسهو، وقد علق ناشر الكتاب فى الهامش بقوله: «الصواب أن يقال تخصيص اسم العباد بالمؤمنين إذا أضيف إلى الله كما فى الآيتين اللتين استشهد بهما الرازى، وإلا فإن هذا يعارضه قوله تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠] فالذين يستهزئون برسل الله ليسوا بمؤمنين» انتهى كلامه.

وصاحب الحاشية يَعُدُّ كلمة عباد فى الكتاب مضافة إلى الله سبحانه خاصة بالمؤمنين وإذا انقطعت عن الإضافة صح أن تكون لهم ولغيرهم، وأقول مرة

ثانية جل من لا يسـهو، وقد جاءت كلمة عـباد مضافـة إلى الحق وهى خاصة بالكافرين كمـا فى قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ [الفرقان: ١٧] وفى سورة سبأ ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] وكلمة (من) بيانية وعباد الله سبحانه منهم الشكور ومنهم الكفور، وفى سورة الزمـر التى نحن فيها ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ والمقصود الاختـلاف فى الإيمان والكفر، لأن الذى قبل الآية ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ [الزمر: ٤٥] ورحم الله صاحب المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الـكريم، فقد فَتَح لنا أبوابا كثيرة؛ ومن الذى يحسن التَّنْبـيه إليه أن الآية التى هى أخت هذه الآية وهى نداء الله عـباده الذين آمنوا الذى سبق فى السورة سُبقت بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ﴾ وهذه الآية التى معنا سبـقت بنظيرتها وهى قـوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ والذى فـصل بين الآية الأولى وآية مسّ الإنسان الـضر حَديث عن عـباد الله القـانتين ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ وقد مـهَّد هذا الفاصل لنداء عـباد الله الذين آمنوا، وفصل بين الآية الثانية ومسّ الإنسان الضر قولهُ تعالى: ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: ٥٠] وقد مهّد هذا إلى نداء الذين أسرفوا على أنفسهم وراجع وتدبّر لتدرك شيئًا من حكمة البيان.

ومن الغفلة أن ندع هذا دون أن نسأل سؤالا يقول أى شىء فى الزمر أهَّلها لأن يقول الله فيها قل يا عبادى مرتين ثم لا يقال هذا فى غيرها؟ ولاشك أن حكمة الكتاب العـزيز الحكيم التى افتتحتْ بها السـورة تقول إن هنا سِراً ولو

غاب عنكم والذى عندى فيه هو أن هذا يرجح ما استخلصته من أن المعنى الأم الذى دارت عليه السورة هو إخلاص العبادة لله رب العالمين، وأن نداء الحق لعباده الذين آمنوا والذين أسرفوا، ودعوتهم إلى الإنابة وإخلاص العبادة مناسب جدا لهذا الأصل، وخصوصا أن كلمة «عباد» ترجع إلى ما فطر الله الناس عليه وأنه سبحانه خلقهم لعبادته، ثم وهو أهم أن كلمة عباد فى الموضعين مضافة إلى الحق جل وتقدس وما داموا عباده فلا يجوز أن يشركوا به أحدا، وما داموا خالصين له ليس لأحد فيهم شرك فيجب أن يُخلصوا العبادة له سبحانه، ولا يكون فى عبادتهم شرك، وأظنك لا تنكر علىّ أن أقول إن تكرار كلمة ﴿عِبَادِيَ﴾ سواء كتبنا الياء أو لم نكتبها ترجع بنا إلى المثل الذى ضربته السورة، ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾؟ وكلمة ﴿عِبَادِيَ﴾ مثال واضح لقوله تعالى: ﴿وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ يفيد اسم الموصول معنى أنهم عُرِفوا بهذا الإسراف وشهروا به، والإسراف فى الشر ولا سرف فى الخير، وفسر الزمخشرى الصلة بقوله جَنَوْا عليها بالإسراف فى المعاصى، والغلو فيها، والآثام لا تحملها نفس عن نفسٍ ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] «وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء»، لا يجزى عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئًا، وهذا أنبل طريق وأسدّ طريق، تُرَبَّى عليه الأجيال ويجب أن يشيع فى الجيل القادم هذه الحقيقة ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١] وأنك حين تعمل وتنشط إنما تعمل وتنشط لنفسك، وحين تركن وتكسل إنما تركن عليها وتكسل عليها يجب أن تُغْرس هذه القيمة فى نفس كل ناشئ، حتى يَفْطِنَ إلى مسؤوليته عن نفسه، وهذا القيد فى الآية الكريمة فيه معنى آخر هو أن الله سبحانه وتعالى يُنقِذُنا من أنفسنا، ويقول لنا إذا كنتم أثقلتم نفوسكم بفجوركم، ومعاصيكم،

وكفـركم، فلا تقنطوا، لأن باب رحـمتى أوسع؛ لا يضـيق بذنب وإن جلّ، وليس هناك ذنب يجل عن الغفـران، وهذا عطاء ليس فوقه عطاء، واقـتراب من خلقـه، ولطف بهم، وتلطف معـهم، وكلما تـأملته وجـدت فيـه الأمر الإلهى، لأن هذا لا يكون إلا من الله، وخصوصا إذا كـانت كلمة عبادى فى هذا النداء شاملـة للذين تشمئـز نفوسهم عند ذكـر الله، والذين إذا مسـتهم الضراء أنابوا فإذا منحهم العطاء تَشَيطنواْ وتَفَرْعَنُوا.

والقنوط أشد اليأس، ويأتى فى التـرتيب التصاعدى للصفـات بعد اليأس، كما فى قـوله تعالى: ﴿لا يَسْأَمُ الإنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ [فصلت: ٤٩] وهذا كـما تقول شـجاع باسل، وقـد حذّرنا ربُّنا من القنوط، وجـعله دليل الضـلال، قال تعـالى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾ [الحجـر: ٥٦] والذى ضلّ هو الذى لم يعـرف الطريق الواضح، والطريق الواضح هو أن رحمة الله لا يجوز لأحد أن ييأس منها، لأنها غَلَبَتْ غَضَبه ووسـعت كل شىء وكل مـا فى القرآن دال على أن الله يأخـذ بأيدى عبـاده حتى لا يَقَـعُوا فى المعاطـب، ويدعوهم إلى دار السلام، ويفـتح لهم أبواب الرحمـة، ثم إنه حين يحدِّثهم عن الجـحيم وعذابه المهين إنما يخـوفهم ويأخذ بتلابيبهم أن يسقطوا فيه.

وليس النهى عن أبلغ اليأس خـاصاً باليأس الأبلغ، ولا يدخل فـيه اليأس الذى دون الأبلغ وإنما هو قريب من مـثل قوله تعالى: ﴿لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠] ليس معناها أنـنا نأكله إذا كان دون الأضعاف المضاعفـة، وإنما أحْضَرَ الكلامُ الصورة التى تتجـسَّد فيها بشـاعة الفعل المنهىّ عنه لتَسْتَجيب النفـسُ إلى الكف عن الفعل كله، وهذا مَهْيع فى الكلام ومنه قوله تعالى: ﴿وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور: ٣٣] ليس معناه أنهن إن لم يردن التحـصُّن جاز الإكراه، وإنما اتجه النّهْى إلى أبشع

صور الإكراه وهو أن تريد الفتاة التَّحصُّن ثم يكرهها السيد الذى كان أجدر بأن يحفظ العفاف.

ثم إن كلمة ﴿لا تَقْنَطُوا﴾ لها إشارة أخرى هنا، وهى الإفراط والمغالاة والولَعُ بالمعصية حتى إن هذا الموغل والمولَع والمتهالك فى أبواب الرذائل لم ييأس فقط وإنما صار من القانطين.

وكلمة ﴿مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ فيها انتقال من طريق التكلم الذى فى قوله: ﴿يَا عِبَادِيَ﴾ إلى الغيبة فى ذكر لفظ الجلالة، وهذا الانتقال فيه إشارة إلى مزيد عناية بهذا المعنى، الذى هو الرحمة، لأن مدار الكلام على أنه لا يجوز لأحد أن ييأس منها، ولو كان من الذين أساؤوا الأدب مع الله وكره ذكره سبحانه وتعالى، وراجع هذه المعانى لأن غورها أوسع من أن يناله قلم، وقد ذكر كرام علمائنا أن لفظ الجلالة جامع لكل الذى فى أسماء الله الحسنى، وفيه كل المعانى التى فى الرحيم الرحمن العليم الخبير القادر القاهر الباسط إلى آخره، ولذلك قالوا هو أعظم أسماء الله، وأجلُّها، والرحمة المضافة إليه يجب أن تكون أعظم أنواع الرحمة، والفضل، وهذا لفظ الرازى، وهو سِرُّ العدول عن قوله لا تقنطوا من رحمتى ليتلاءم مع قوله يا عبادى.

وقد استخراج الرازى من هذه الجملة بيانا لجملة ينابيع لفيض الرحمة منها أن كلمة العبد تعنى المسكين المحتاج، الذليل، وما دام قد ذكره الكريم بهذا الوصف الدال على هذه المعانى، فلابد أن تتوقع من الكريم عطاء لهذا الذليل المحتاج، ومنها أنه سبحانه أضاف العباد إلى نفسه، والذى يضاف إلى الكريم الرحيم الحامى المجير لا يُضام، ويأمن من الخوف، ومنها أنه سبحانه لما قال ﴿عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ أفاد أن ضرر هذا الإسراف عائد عليهم، وحسبهم منه ضررا، وهذا يعنى ألا يقع عليهم بسبب الإسراف ضرر آخر، ومنها أنه سبحانه لما قال لهم ﴿لا تَقْنَطُوا﴾

نهاهم عن القنوط وحثهم على الرجـاء، والكريم إذا أمر عباده بالرجاء منه لا يليق به إلا إكـــرامـــهم، وهكذا أخـذ الرازى يتـدسَّسُ فـى الكلمـات والتراكيب ويتلمس منها وفيهـا ينابيع الوعد، بالرحمة، والعطاء، واقتراب الخالق الرازق من المخلوق المشاكس المعاند.

وقوله سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ جملة مستأنفة ومبنية على التوكـيد، والاستـئناف يشيـر إلى أن المعنى المستأنف؛ لـه فى سياق البـيان مقام، ومكان، ثم البـناء على التوكيد، والذى يؤكد هو الـله الخالق البارئ المصور، والذى يؤكد له ربنا هو الـمُسرف الـمُفْرط الذى يُحمِّل نفسه أوزارا تنوء بها، ثم إن موقع الجملة موقع التـعليل للنهى قبلها وإتباع الأمر والنهى بعلَّته من أقـوى دواعى توكيده، والعنـاية به، ومثل ذلك أن يَسْبـقه النداء، فرق كبيـر بين أن توجه أمرا أو نَهْيًا بعد النداء، وأن توجـهه من غير النداء وفرق كبـير بين أن تتبع الأمر والنـهى بعلته وأن تسكت عن ذلك وكل هذا يؤكد فى هذا المقام ضرورة البُعد عن اليأس مهـما كان حجم الجرم؛ ومهما كانت بشـاعة نوعه حتى لو كان كـفرا، وظلما وسوء أدب فى التـعامل مع الله، وقد اجتمعت هذه الثـلاثة هنا أما الكفر فـقوله تعالى: ﴿قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ وأمَّا الظلم فقـوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾، وأما سوء الأدب مع الله فـقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْـدَهُ اشْـمَـأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِـرَةِ﴾ مع حـجم ونوع هذه الكفريات يَفْتَحُ ربنـا باب الرحمة بصورة لم أعرف أفـضل منها فى الكتاب العزيز، حتى إن سيد الخلق قال **«ما أحب أن يكون لى بها الدنيا وما فيها»** كل هذا لابد أن يكون حـاضرا وأنا أذكر الاسـتئناف والتوكـيد ومـوقع الجملة، وأنهــا تعليل للـنهى عـن اليــأس، لأن ذكـر هـذه الـدلالات، وهـى جـذاذات مـفصـول بعضـها عن بعض غـير ذكـر هذه الدلالات وهى كل

متشابك متواصل آخذ بعضه بحُجْر بعض، ثم إن الجملة المستأنفة رأس معناها لفظ الجلالة، وكان يمكن أن يقال إننى أغفر الذنوب جميعا وذكر لفظ الجلاله بجلاله، وكماله قاطع فى إنجاز ما أسند إليه، ثم إنه مقدم على الخبر الفعلى فيفيد التوكيد فى موقعة كما أفاد التوكيد بلفظه، ثم إن الفعل المضارع مُؤْذِن بأن ذلك الغفران حَدَث يتَجدَّد ويقع شيئا بعد شىء، وتجدده لا ينقطع، ثم إنه لم يكتف بقوله يغفر الذنوب، مع دلالة كلمة الذنوب على العموم، وإنما أكد بكلمه ﴿جَمِيعًا﴾ ولم تقع هذه الكلمة تأكيدا لمغفرة الذنوب إلا هنا، وراجع لأنى لا أبيّن الأسرار وإنما أشير إلى مكامنها وعليك أنت أن تستحضرها، وأن تضُمَّ بعضها إلى بعض، بخيالك أنت، وأن تراجع السياق وأن تراجع وجوه توكيد الحق للخلق، لهذه الحقيقة التى لا تقوم حياة الناس إلا عليها، ولو أغلق باب الأوبة لصارت الأرض ساحة للذئاب الشرسة، اليأس من دخول باب المسالمة والمصالحة مع المجتمع النظيف يدمر النفس، والنفس المدمَّرة تُدَمِّر كُلَّ ما يحيط بها، وهذا جانب من جوانب مقاصد هذه الآية العظيمة.

وقوله سبحانه ﴿هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ تأكيد لجملة إن الله يغفر الذنوب جميعا التى هى تعليل للنهى، وهذا يعنى أن هذه الجملة تأكيد لتعليل النهى، عن القنوط ولكنها لها فى دلالتها منزع آخره هو أنه سبحانه يغفر الذنوب جميعا لأنه سبحانه هو الغفور الرحيم، يعنى هى فى الحقيقة تعليل للتعليل، والمنزع الذى أقَصِدهُ هو بيان أنه لا غرابة فى أنه يغفر الذنوب جميعا، لأن شأنه سبحانه هو المغفرة، والرحمة، ومغفرة الذنوب جميعا حين تكون من الغفور الرحيم لاغرابة فيها، وإنما هى أمر مُتَوقّع، وهكذا يصير البيان بهذا المعنى الشامل وهذا العطاء الغامر، وهذا العفو المتسع إلى أن يكون أمرا مُتَوقَّعًا لا يجوز لأحد أن يرتاب فيه، بل ولا يجوز لأحد أن

يتوقع خلافه، ولهذا تجد هذه الآيات ليس المَنُّ والعطاءُ فيها هو كلمة ﴿جَمِيعًا﴾، التى لم تؤكد عموم المغفرة فى الكتاب إلا فى هذه الآية، وإنما هذا المنُّ وهذا العطاء أيضا فى هاتين الجملتين؛ الجملة التى عللت أولاهما عموم المغفرة، وعللت ثانيتهما جملة التعليل، ومن أجل اللفت إلى القيمة الجليلة لهاتين الجملتين، بنيتا على ما بُنيتا عليه، وقد تكلمنا فى الجملة الأولى أما الجملة الثانية فقد بدئت بإنَّ المؤكدة والتى هى أم أدوات التوكيد، كما بنيت على الاستئناف، وللتأكيد والاستئناف شأن ليس بالخفى فى الدلالة على أهمية المعنى ثم زاد التوكيد بذكر ضمير الفصل، والقصر المستفاد من تعريف الطرفين، والمؤكد بضمير الفصل، وأنه هو وحده سبحانه الموصوف بهاتين الصفتين، المغفرة والرحمة، وتعجب حين تراجع إضافة كلمة ﴿الرَّحِيمُ﴾ التى خرجت بالمعنى من مجرد المغفرة، التى هيأت لها الآيات من أول قوله سبحانه ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾، لأن كلمة الغفور تعنى أنه سبحانه يغفر الذنب ويستره، ومغفرة الذنب نعمة، ومَنٌّ وستره نعمة ومَنٌّ وإكرام، لأن العفو عن الجانى مكرمة وستر جنايته مكرمة، وإكرام، ثم تأتى كلمة الرحيم لتَفْتَح باب عطاء، فالمذنب لا يغفر له فحسب، وإنما يدخل باب الرحمة، وينعم بما ينعم به الذين أحسنوا الحسنى. المغفرة كما قال كرام علمائنا إزالة العقوبات المترتبة على الإسراف، والرحمة تحصيل العطاءات، ولا يَهْلِكُ على الله إلا هالك، وكلكم يدخل الجنة إلا من أبى، ومن المعين على فهم دقائق هذا البيان، أن نتذكر أن هذا حديث الخالق للذين أسرفوا على أنفسهم، والذين مضت منكراتهم فى الآيات السابقة كما بيّنا، ومهما بلغ الفاجر فى فجوره فلا يجوز أن يظن أنه لا مخلص له من العذاب، وهذه الجملة الكريمة من كلام كرام علمائنا.

وبقى فى الكلام فى الآية الكريمة تعقيب هو أن العموم فى قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ حُدد وخُصّص وقُيّد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] وهذا لا خلاف فيه، فقد أخبرنا ربنا أنه لا يغفر ذنب من مات على الشرك، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، وهذا القسم الثانى من الآية الكريمة وهو قوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ أخذه أهل السنة بعمومه وقالوا إن الله سبحانه يغفر الكبيرة لمن مات من أهل الإسلام ولم يتب منها، لأن الآية لم تقيد عموم المغفرة، لغير الشرك بالتوبة، ولأن الله سبحانه قال فى أول سورة غافر ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ [غافر: ٢] فدل هذا على أنه يغفر الذنب بغير توبة ويقبل التوبة، والمعتزلة يرون أن مرتكب الكبيرة الذى لم يتب منها لا تغفر له، وإنما يغفر ربنا الكبائر بالتوبة، ولذلك عقب الزمخشرى على قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ بقوله «يعنى بشرط التوبة، وقد تكرر ذكر هذا الشرط فى القرآن وكان ذكره فيما ذكره فيه ذكرا له فيما لم يذكر فيه، لأن القرآن فى حكم كلام واحد، ولا يجوز فيه التناقض، وفى قراءة ابن مسعود يغفر الذنوب جميعا لمن يشاء، والمراد بمن شاء من تاب، لأن مشيئة الله تابعة لحكمه، وعدله، لا لملكه وجبروته» انتهى كلام الزمخشرى، وأهل السنة يقولون إن مرتكب الكبيرة منَ أهل الإيمان تغفر له الكبيرة فلا يُعذب أو تغفر له الكبيرة بإخراجه من النار بعد العذاب، يعنى أنه لا يخلَّد فى النار.

قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ أَن تَقُولَ نَفْسٌ...﴾ [الزمر: ٥٤- ٥٦] من الواجب أن نُعطِى جهدًا أكبر، ووقتا أطول، للنظر فى وجوه ترتيب المعانى وبناء بعضها على بعض، لأن هذا باب من أبواب أسرار البيان القرآنى لم نُشْبِعْه والذين قالوا إنه وجه من

وجوه الإعجاز يجارى ويحازى ويتكامل مع النظم الذى ذكره عبد القاهر قالوا كلاما صحيحا جدا ولله عطايا يمنحها أهل العلم إذا جدوا وصدقوا وهذا منها.

قلت هذا لأننى رأيت أن الآيات الأولى انعقد معناها على النهى عن القنوط من رحمة الله وأن ما قبل كلمة ﴿لا تَقْنَطُوا﴾ وهى الكلمة الأم كان مهادا لها. وما بعدها كان تعليلا وتوكيدا لها.

وهذه الآيات انعقد معناها على ﴿وأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾، وما بعدها من قوله: ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ وقوله: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم﴾ كله مؤسس على الإنابة، ثم كل شىء فى الآيات تأكيد للإنابة وتأكيد للإسلام له، وتأكيد لا تباع أحسن ما أنزل، وراجع حتى يتضح لك ذلك وترى أن بناء الآيات بناء واحدا من أول قوله: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾ إلى قوله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾.

وهذه خطوة، والخطوة الأهم والتى من أجلها قلت ما قلت، هو أن آيات النَّهْى عن القنوط توطئة ظاهرة للآيات الآمرة، بالإنابة والإسلام واتباع أحسن ما أنزل، فالآيات الأولى وسعت باب رحمة الله، وهدمت خواطر اليأس من هذه الرحمة مهما كان الإيغال فى الفسوق، والفجور، وأكدت ذلك، وانتهت به إلى أن الشأن فى الغفور الرحيم أنه يغفر الذنوب جميعًا، لأنه سبحانه غفور رحيم، يعنى أن المغفرة والرحمة ركن من أركان الحقيقة الإلهية، فلا يُسْتَغْرَبُ أن يغفر الذنوب جميعا، وإنما يستغرب ألا يغفر الذنوب جميعا، وبعد غسل النفس بهذا الطيِّب الطَّيِّب تبدأ الخطوة الثانية وهى ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ وتبدأ التحلية بعد التخلية، ولابد أن نذكر أن الآيات السابقة لم تقف عند المغفرة التى هى إزالة العقوبات، وإنما أضافت الرحمة التى هى فتح باب العطايات، وكأن العبد الذى أسْرف على نفسه يتجه إلى عتبة الإنابة وفى يده من العطايات؛ يعنى ليس مغسولا من آثامه وفجوره ولو كان إساءة أدب مع

الله فحسب وإنما أذيق من الرحمة ذواقا قبل أن ينوب لأن هذا الذواق هو الذى جعله يقبل على الإنابة بكل حب، وكل غبطة، ولحظة الإنابة هذه هى اللحظة التى يكون الله ورسوله أحبَّ إليه من نفسه وليس هناك إنابة مفصولة عن هذه اللحظة التى هى سِرُّ القلب المؤمن.

وبعد الإنابة التى هى المفصل الأساسى فى هذه الرحلة يكون الإسلام الذى يعنى إسلام الأمر لله رب العالمين، ومن إسلام الأمر الانقياد المطلق لأمر الله ونهيه، وكأن الإنابة هى الإيمان، والإسلام هو العمل الصالح، وبعد هذا تكون نهاية الرحلة فى اتباع أحسن ما أنزل؛ والاتباع يعنى إلغاء الابتداع، والدين مؤسس على الاتباع وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه وسيدنا رسول الله ﷺ خير من اتبع، ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٠٦] ونحن نتوسل إلى الله بالاتباع ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣].

والأمر فى قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ كالأمر فى قوله تعالى: ﴿تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨] كله للوجوب، والإنابة الرجوع ومعناه التوبة وقد تضمن الإسلام معنى الانقياد فعدى باللام، ولم يقل سبحانه أسلموا إليه كما قال أنيبوا إلى ربكم، وكما قال ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن، وفيه إشارة إلى أن التوبة الحقيقية أو الإنابة الحقيقية هى التى يَعْقُبها انقياد، واتباع، واستقامة، وقوله سبحانه ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾ العذاب يكون بعد الموت والبعث والحشر والحساب والمدة من الموت إلى العذاب مدة لا يتصور فيها إنابة، ولا استسلام وهذا يوجب القول بأن العذاب لا يراد به ما وضع له، وإنما يراد به الحالة التى لاتنفع معها التوبةُ، وهى حالة الغرغرة، لأن الله سبحانه أطال زمن الرجوع إليه إلى لحظة حضور الموت، والذى حضره الموت إذا قال تبت الآن لا تقبل منه توبة، إنما التوبة

على الله للذين يتوبون من قريب، وإنما عُبِّر عن هذا الوقت بالعذاب للإشارة إلى أن من أخر الرجوع إلى الله إلى هذا الوقت فقد دخل بنفسه باب العذاب، وليس بعد هذا الوقت إلا العذاب، وهذا شيء غير يغفر الذنوب جميعًا التى كانت وعدا لا حدود للفضل فيه؛ وكانت ملاينة لا حدود لها؛ وهنا بدأ الوعيد والتهديد، وما هو فوق المخاشنة، وهذا من الاستعمال القليل، ومثله قوله تعالى فى سورة نوح ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، [نوح: ١] وقد يراد به العذاب فى الدنيا، وعذاب الآخرة أشد، وهو الأقرب فى الآية التى معنا، لأن الله سبحانه رفع عذاب الاستئصال الذى أصاب قوم نوح عن أمة محمد صلوات الله وسلامه عليه، والأجرى فى القرآن أن يقال من قبل أن يأتى أحدكم الموت، أو من قبل أن يأتى يوم لا مَرَدَّ له من الله، أو من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خُلّة.

وقوله سبحانه ﴿ثُمَّ لا تُنصَرُونَ﴾ معناه لا ينجيكم من عذاب الله ناصر لأنه لا ناصر من الله.

وكلمة ثم للتفاوت الرتبى لأن العذاب هول، وليس أهول من الهول إلا الخلود فى الهول، وهذا يعنى أن الآية خطاب لغير المؤمنين، لأن نفى النصرة وإرادة الخلود فى العذاب، يخاطب به من مات ولم يتب عن الشرك، وهذا يعنى أن المقصود بالإنابة التوبة عن الشرك، والمقصود بالإسلام الدخول فى الوحدانية، والإقرار بالنبوة، وأن يخلصوا أنفسهم لله رب العالمين، وأن يعبدوا الله مخلصين له الدين، وأن يكونوا كما قال سبحانه فى المثل ﴿وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾، والذنب يعوق إخلاص العبادة لله رب العالمين، ولذلك قُدِّمَتَ التوبة على إخلاص العبادة، وقال سبحانه وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قولهم سَلِمَ له إذا خلص له، ومن المفيد أن نلتفت إلى الكلمات التى تسلك سبيلها إلى جذر السورة ومنها ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ وتعديتها باللام تفيد مع معنى الانقياد معنى سَلَم له، التى هى من﴿ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٥].

هذه الآية وما بعدها مما هو متعلق بها معطوفة على آية﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ وما بعدها مما هو متعلق بها، وآية وأنيبوا وما عطف عليها معطوفة على قوله تعالى: ﴿لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ وهذا العطف الذى أدخلناه فى النحو بعد ما نَفَضَنا النحو وأفرغناه من الدلالات الخفية على دقائق المعانى ورقائقها أقول هذا العطف لا يزال مفتاحًا لأسرار لا تظهر إلا به، والذى هنا أن الله جلت رحمته نادى عباده الذين أسْرَفُوا على أنفسهم ونهاهم عن اليأس من الرحمة، وأنه يغفر الذنوب جميعًا؛ ثم دلهم على الطريق الذى يصلون منه إلى هذه الرحمة، وحسبهم منه إكراما وكرمًا أنه يَفْتَح لهم أبواب الرحمة على كل مصارعها، وأن يَدُلَّهم على الطريق الواصل إلى هذه الأبواب، وقوله: ﴿لا تَقْنَطُوا﴾ وما بعده هو فتح الأبواب، ولا يليق بمن قيل له لا تقنط إن الله يغفر الذنوب جميعا أن يَقْعد عن السعى لتحصيل هذا العطاء، والآيتان المعطوفتان على ﴿لا تَقْنَطُوا﴾ الأولى منهما ذات جذرين جذر هو ﴿وَأَنِيبُوا﴾ وجذر هو ﴿وَأَسْلِمُوا﴾ والثانية ذات جذر واحد وهو ﴿وَاتَّبِعُوا﴾ وقد أُفرد هذا الاتباع بآية وهذا الإفراد يعطى الاتباع قدرا من العناية، لأنه معنى مُتَّسِعٌ، وفى مقابل هذا تقدمت الآية الأولى بشقيها، الإنابة، والإسلام، والمهم المقدم، ولذلك نجد توزيع العناية على المعانى تتناقلها اعتبارات، وإذا اعتبرنا الإنابة والإسلام عملا قلبيا متجردا لإخلاص العبادة فلنا أن نَعُدَّ الاتباع سلوكا حياتيا خاضعا لأمر الله، ونهيه، واللفظ يحتمل، ولك أن تقول إن الأمر بالاتباع لم يدخل فى الآية الأولى، كما دخل الأمر بالإسلام، ليكون رأس آية وليُعَقِّب عليه تعقيبا مفردا، لأنه لو دخل فى الآية الأولى لكان قوله تعالى ﴿مِن قَبْلِ أَن

يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر: ٥٤] هو فاصلته، ولذهبت الفاصلة الخاصة به وهى قوله جل شأن ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ وحذو الآيتين حذو واحد؛ وراجع الابتداء بالأمر بالاتباع، كالابتداء بالأمر بالإنابة، وقوله جل شأنه ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾ مكرر بلفظه، وهو حاث على الأمر، ومؤكد له، ومحذِّر من عدم المسارعة إلى المأمور به، وفيه من الوعيد الشديد الخالى من الغضب ما تراه، بل إن هذا الوعيد ترى فيه التلطف والتقرب والدعوة إلى النجاة وليس فيه أشد من إطلاق كلمة العذاب على الموت وأنه سبحانه لم يقل من قبل أن يأتيكم الموت كما قال فى موضع آخر، ووراء ذلك أن العذاب لا محالة لاحق بمن لم يتبع؛ وكأن العذاب يسابق الموت ليباغتكم وأنتم لا تشعرون، وقد نبهت كثيرا إلى الآيات المتصاقبة فى مبانيها، ومعانيها، وكأنها تأتى فى المصحف متجاورات، كأنها أخوات، وأحيانا كأنها توائم لشدة التشابة بينها، وقد رأيت ذلك فى الشعر؛ ولكن «ما كل بيضاء شحمة ولا كل سوداء تمرة»، «لا قَطًا مثل قُطىّ» و«لا المرعىُّ فى الأقوام كالراعى».

وكلمة ﴿وَاتَّبِعُوا﴾ قلت إنها جَوْهر الدين وأول كلمة قالها أبو بكر لما ولى الخلافة إنما أنا مُتَّبِع ولست بمبتدع، ولها فى الكتاب العزيز مقامات حسان جدا وأى كلمة تدخل فى الدين من خارج الدين هى مَهْلَكَةٌ أىُّ مَهْلكة لمن أدخل، ثم إن هذا الاتباع له متطلبات وأصول لا يتم إلا بها، لأنه يعنى الفهم الواعى اليقظ المتسع للدين، والفقه والمقاصد الشرعية، والقدرة على الاجتهاد، والاستنباط، وقياس ما لم يعلم على ما علم، وباختصار شديد أقول هذا الأمر بالاتباع يجعل من فروض الكفاية وجود جماعة من المجتهدين فى فهم كل باب من أبواب الفقة، يعنى تكون هناك جماعة من المجتهدين فى المعاملات، وفى العبادات، وتنزيل الأحكام على الواقع بفهم صحيح، حتى لا نستحلَّ ما ليس

بحلال ولا نُحَـرِّم ما هو غيـر محرم، وكل شيء فـي حياة الناس للدين فـيه مدخل لا بد أن تتوفر له عقول فقهية عالية، ومن قصد الصواب هداه الله إليه

وكلمة ﴿أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ قيل فيـها كلام كثـير؛ قالوا المراد القرآن لأن الله سـبحانه وصفـه بأحسن الحديث في قـوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ﴾ وفسرها الحسن بوجوب التزام طاعة الله والبعد عن معصيته، وقـالوا المراد بالأحسن الناسخ، وقالوا إن أفعل التفضيل مُفْرغٌ من مـعنى المفـاضـلة، والمـراد به بلوغ الغـاية في الصفة وكلمة ﴿أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم﴾ دالة دلالة صريحة على أن الذي أنزل إلينا في باب الاتباع فيه حسن وأحسن، وليس المراد وصف بعض أجزاء القرآن بأنهـا حسنة، وبعضها بأنها أحسن، وهذه قضية أخرى؛ كثـر فيها كلام الكملة رضوان الله عليهم، وإنما المراد هنا أن الحق جـل وتقدس قـرر في الجـنايات العَـيْنُ بالعين والأذن بالأذن والسن بالسن وجـزاء سيئـة مثلهـا ثم نَدَب إلى العفـو، وقال: ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، واتباع الأحسن في مثل هذا هو العفو، ومن حقي أن أدفع السـيئة بالسيـئة، فإذا دفَعْت السـيئة بالحسنة، كـان أفضل وأكون دخلت في قوله تعالى ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥]، وهـكذا في العبادات إذا أديْـتَم الفرائض فقـد أدّيْتُمْ وإذا أديتم معهـا السنن والنَوافل كان أحسن، وهكذا نجد الجـملة تدعو الكافة إلى أن يتعـرضوا لنفحـات الله، ومن المفيد أن نـراجع كيف بدأت الآية مع الـمُسرفين وهم الذين يجـترحون المعاصي ويلازمونهـا وكيف أخذت بأيديهم خطوة خطوة ابتداء من الإنابـة، والتوبة عن الشرك، حـتى انتهت بهم إلى أن يكونوا من الذين يتـعرضـون في أيام دهرهم إلى نفحـات ربهم، وهذا درس عظيم في طريق الدعـوة إلى الله، والتـعـامل مع المسـرفين المبطلين، وكلمـة ﴿أُنزِلَ إِلَيْكُم﴾ تُغْـرِي بالاتباع لأنه من المعـقول والمنـطقي والمطابق للفطرة أن

أتبع مـا أنزل إلىَّ لأن الذى أنزل هو الذى خلقنى، وهو الذى يعـرف دائى، وهو الذى يَطِبُّ له، ولا يطب لـلمخلوق أحـد فـوق طب ربه الذى خلقـه، وراجع كلمـة ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ لأن فـيهـا هذا المعنى يعـنى من المنطقى والعقل والمـوافق للفطرة أن أتُوبَ وأرْجع إلى الذى ربَّانى ورعانى وحـفظنى، ثم إن فى كلمة ﴿أُنزِلَ إِلَيْكُم﴾ معنى ظاهر جدا، ومـسهو عنه جدا، وهو أن هذا الذى بين الدفـتين والذى هو كلام الله والذى نزل به جـبريل على سـيد الخلق هذا الذى حاله، أنزل إلينا يعنى لى ولك، وله ولها، والواجب علىّ أن أحرص عليه لأنه لم ينزل إلى غـيرى ثم كلفت به، وإنما أنزل إلىَّ وكلفت به، وقد دعانى ربى إليه، وكلفنى بأن أدعو غيرى إليه، وحين أدعو زيدا إلى الذى أنزله ربه إنما أدعوه للذى أنزل ربه إليـه، ولا يجوز أن أنْفَصِل أنا ولا أنت عن الذى أنزل إلينا، ونحن فى هذا الذى أنزل سـواء وهو أرومتنا، وهو ملة أبيكم إبراهيم يعنى هو النسب، وهو الأهلون كلهـم، وهذا ذرو من الذى وراء كلمة ﴿أُنزِلَ إِلَيْكُم﴾ ولك أن تفتح فيها فتـوحات كثيرة ولك أن تضيف أن كل شىء للكتاب فـيه كلام لا يجـوز لنا أن نتبع فى هذا الشىء غيـر الذى فى الكتاب، وأن جماعات المجتهدين هـم الذين يقدمون الصورة الأحسن لما أنزله الله، فإذا رأى أحد أن غير مـا أنزله الله هو الأنسب، والأفضل، فقد سقط فى كـبيرة، نعم له أن يتخذ من القرارات ما يشاء فى القضايا التى ليس للدين فيها مدخل، أما ما كان للدين فيـه مدخل فلا يجوز تجاوز ما جاء فيـه، ومن اعتقد أن شرع الناس أفـضل من شرع اللـه فقـد كفـر، وهذا يؤكـد ضرورة وجـود طبقـات المجتهدين الذين فى أعلى درجات التميز والفهم حتى لا تقع البلاد فى حرج.

من آيات الكتاب العزيز ما هو خاص بالذين كفروا مثل ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ إذا جاء ومثل قوله تعالى ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء: ١٦٧] ومـثل ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ [يونس: ٣٨] إلى

آخره ،وهو كثير وظاهر، وآيات خاصة بالذين آمنوا وهى أيضا كثيرة وظاهرة، وآيات تحتمل أن تكون خطابا للذين آمنوا أو تكون خطابا للذين كفروا، أو تكون لهما معا كهذه الآيات التى معنا، والتى حملها كرام علمائنا على هذا أو ذاك، ثم تأتى فى الكلام جمل هى أقرب إلى المشركين، فقوله سبحانه ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾ [الزمر: ٥٣، ٥٤]، من الذى يجوز أن يكون خطابا للمؤمنين، وأن يكون خطابا للمشركين، وتأتى جملة ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ ﴾ وهى أقرب إلى خطاب المشركين وبعدها ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ ويجوز حملها على خطاب المشركين والمؤمنين ثم تأتى جملة ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ وهى أيضا يجوز حملها على خطاب الفريقين، وهذا القسم يداخل قلوب المؤمنين مداخلة أقوى لأنى حين أقرؤه أسأل نفسى هل أنا متبع أحسن ما أنزله الله إلينا؟ وذلك بخلاف ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ ﴾ أو ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ ﴾ لأنى حين أقرأ ذلك أحمد الله أن هدانى للإسلام وهدانى لتصديق الصدق، وجعلنى من الذين يجدون الخشية فى قلوبهم عند ذكر الله، وكل الذى أحرص عليه هو أن يثبت الله قلبى على دينه، حتى ألقاه وأنا من المؤمنين.

والآيات بعد ذلك من أول قوله تعالى ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴾ [الزمر: ٥٦] إلى آخره؛ سمّاه العلماءُ القرائن الثلاثة وهى صريحة فى توجهها لغير المؤمنين وقد عوّل عليها من جعل الخطاب فى قوله ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ خطابا لغير المؤمنين، وقد ذكرت ذلك وأقول الآن شيئًا أرجو أن يكون مما يحتمله لفظ الكتاب وهو أن صلاحية الآيات الأولى لخطاب

الفريقين، وتوجُّه الآيات الأخيرة لخطاب المنكرين، ووراءه إشارة إلى أن الإيمان فى القلب محتاج فى الأحوال كلها إلى رعاية كاملة، وإلى عين ساهرة، لأنه يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وأن الغفلة عن رعاية الإيمان خطر عليه، وأن الآيات أشارت إلى هذه الرعاية وأنها إنابة، وتوبة، وتخليص القلب لله، واتباع ما أنزل الله، وأن من لم يُحصِّن إيمانه بها ليس ببعيد أن يكون من الذين يقولون يا حسرتا على ما فرّطت فى جنب الله، وراجع كلمة (فرطت) وأنها ليست بعيدة عن الغفلة، عن رعاية أكرم وأجل ما أودعه الله فى قلب المؤمن، ويدخل فى هذه الرعاية الآيات الكثيرة الحاضَّة على الذكر، وأن يكون اللسان رطبا به، وأن نذكر الله قياما، وقعودا، وعلى جنوبنا، وأن نذكر الله حين نُمْسِى وحين نصبح وحين إدبار النجوم إلى آخر ما فى الكتاب العزيز من الذكر والتسبيح والاستغفار والوضوء، والصلاة، والتكبير، وقراءة القرآن، كل هذا لأن القلب يُغَانُ عليه ويران عليه. وتأمل قوله تعالى ﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾ [الحديد: ١٦]. قسوة القلوب هى الخطر الذى يُفضى إلى القول يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله والدواء الدائم هو ذكر الله الذى تخشع له القلوب، هذا والله أعلم.

قوله سبحانه ﴿ **مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ** ﴾ كلمة بغتة هنا قرينة على أن المراد بالعذاب الموت، وإنما عُبِّر عنه بالعذاب لأن العذاب يعقبه لا محالة، وكأن الموت هو العذاب، ووجه دلالة كلمة بغتة على ذلك أن عذاب القيامة المفهوم من القرائن الثلاث لا يكون مباغتا وإنما يكون بعد البعث والحشر والحساب، إلى آخره، وبغتة معناها فجأة يقال بغته الأمر وباغته، وهو مبغوت، وقال الزمخشرى فى الأساس «ولا رأى لمبغوت، والمبغوت مبهوت» وقال الراغب «والبَغْتُ مفاجأة الشىء من حيث لا يُحتَسب» قال تعالى ﴿ **يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ** ﴾، جملة حالية ومؤكدة

لكلمة بغتة وتقدم فيها المسند إليــه على الخبر الفعلى المنفى، وهذا يفيد توكيد النفى كما يفيد قولنا أنا فعلت توكـيد الإثبات والمضارع دال على تجدد الشعور المنفى، والشـعور يعنى الإحـساس الحـسىّ بالشىء. وهذه الفاصلـة مختلـفة اختلافا واضحا عن فاصله الآية قبلها لأن المعنى فى هذه الفاصلة معقود على كلمة «بغتة» التى أكـدت الجملة الحالية وهو تأكيد باللازم لأن فـقد الإحساس بالموت من لوازم المفاجـأة، والبهت المدلول عليه بكلمة بغـتة، وهذه الفاصلة صالحة لأن تقال للمؤمن والمنكر بخلاف الفـاصلة السابقة فقد بُنيتْ على نفى الناصـر الذى ينصـرهم من عـذاب الله، وهذا خـاص بالمنكرين، وهذه هى المشابكات التى أقولهـا، وأنك تجد جملة صالحة للطائفـتين، وبجوارها جملة تخص طائفة، وإنما خُصّت هذه الفاصلة بالأمر بالاتباع لتؤكد ضرورة المحافظة على هذا الاتباع، وتحذر من أن تتخلله لحظات تفـريط، لأن المباغتة قد تكون فى هذه اللحظات، وخـصت الأولى بـالإنابة والإسـلام لأن من لم يتب من الشرك ولم يخلص العـبادة يخلّد فى النار. لأن نفى الناصـر معناه الخلود فى النار هذا الخلود الذى دلت على فرط هَوْله كلمةُ (ثم) هذا والله أعلم.

قوله سبـحانه: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦- ٥٩] هذه الآيات الأربع واقعة فى موقع المفعول له وتقدير الكلام كما قال الزمخشرى كراهة أن تقول نفـس أو مخافـة أن تقول نفس أو لئـلا تقول نفس وبكل قـال الأئمة، ومجىء هذه الآيات فى موقع المفـعول لأجله يفيد مـعنى جليلا جدا وهو أن الحق جل وتقدّس أخبرنا أولا بأن لا نيأس لأنه يغفر الذنوب جميعا، ثم دعانا إلى الإنابة، وإلى الإسلام، وإلى الاتباع، كل ذلك منه سبحانه حتى لا نواجه لحظة النّدم.

لم تَبْنِ الآيةُ الحثَّ على الاستجابة لأمر الله على تهديد يأتى من الخارج كما فى مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وإنما سلك هنا منهجا آخر هو أن الاستجابة لأمر الله إنما هو لصالحكم أنتم حتى لا تواجه نفوسكم أوقات الحزن، والحَسْرة، والندم، أو التعلل أو تمنى ما لا يكون، ووقوع هذه الآيات مفعولا لأجله، يَشْرع لنا طريقا آخر فى الدعوة إلى الله، وهو أن يقترب الداعى ممن يدعوهم، ويُغريهم بما يقول ليس لأن المخالفة تَنْتَهى بهم إلى الجحيم وإنما لأن الموافقة تنتهى بهم إلى السعادة، فالعدل الذى يدعو الداعى إليه فيه سعادة المدعوين، والصدق الذى يدعو الداعى إليه فيه خير لهم، وهكذا وترى الحق هنا سبحانه يقترب من عباده فى هذه الآيات ويقول لهم احذروا أن تخالفوا حتى لا تكونوا فى مواجهة صَعْبة مع أنفسكم، وحتى لا تقولوا يا حسرتنا على ما فرطنا، فرق بين أن تقول لولدك لا تفعل كذا لأنك إن فعلته عاقبتك، وأن تقول له لا تفعل كذا لأنك إن فعلته ستجد موقفا حرجا من نفسك، أنت فى الثانى تُحيل عقابه إلى نفسه، وأنها هى التى ستعاقبه، وهذا طريق جيد.

وراجع الآيات لترى أنها طالبت بثلاثة أوامر، أمر بالإنابة، وأمر بالإسلام، وأمر بالاتباع، ثم ذكرت ثلاثة أحوال تترتب على عدم الوفاء بهذه الأوامر، الحالة الأولى الحسرة، وهى أشبه بحالة من لم يُنِبْ إلى ربه، والحالة الثانية التَّعلُّل وأنه لم يسلم لأن الله لم يهده، وهى أشبه بالذى لم يُسلم ولو أن الله هداه لأسلم؛ والحالة الثالثة هى تمنى الكرة أعنى العودة ليكون من المحسنين وهى أشبه بالذى لم يتبع وأنه لو رجع لاتبع ولو اتبع لكان من المحسنين.

ولو صح هذا التوجيه لكانت الأحوال النفسية الثلاثة أعنى حديث النفس المذكور فى الآيات مرتبا على وفق ترتيب الأوامر الثلاثة التى سبقتها، وهذا لا يتعارض مع ما قاله المفسرون من أن هذه الأحوال النفسية التى عبَّرت عنها الآيات جاءت على وفق ما يتوارد على النفس فى مثل هذا الموقف لأن

التناسق مع الكلام الذى سبق يزيد هذا الترتيب النفسى تأكيدا وأنه أثير فى النفس على وفق ما تلقَّت من أمر ربها.

وقوله سبحانه ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾ أسند فيه القول فى هذه الآيات إلى نفس بصيغة الإفراد، وكان يمكن أن يقال أن تقولوا يا حسرتنا، ويكون الحديث عن الجماعة الذين هم عباده الذين أسرفوا على أنفسهم، والذين قال لهم أنيبوا إلى ربكم وأسلموا له واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم، ولكن الآية جاءت على ما جاءت عليه للإشارة إلى أن هذا الفيض من سعة العطاء والرحمة وهذا القرب من الحق إلى الخلق من شأنه أن يستجيب له عباده الذين أسرفوا على أنفسهم وتبقى نفس من هذه الأنفس وتتوقف عن الاستجابة، وهذا الإفراد الذى آثرته الآية للإشارة إلى أن الشأن أن تستجيب الأنفس ولا يتوقف إلا الأقل المعبر عنه بالإفراد فَسَّره المفسرون بأن التنكير فيها للتبعيض، يعنى أن تقول بعض الأنفس، والأكثر من البعض لن يقول لأنه استجاب، وقالوا أيضا يحتمل أن يكون التنكير فى النفس للتكثير واستشهدوا له بقول الأعشى:

وربُّ بقيع لو هتفت بحَوِّه ... أتانى كريم يَنْفُضُ الرأس مُغْضَبًا

أراد كراما، والبقيع موضع فيه شجر من ضروب شتى، والحو بالمهملة الشَّجَاع، وذكر الزمخشرى أنه يجوز أن يراد بالتنكير نفس متميزة باللجاجة فى الباطل، والكفر الشديدَ، وقد ذكر البيضاوى الوجهين الأولين وسكت عن هذا الوجه، وعقب الخفاجى أن البيضاوى تركه لأنه لم يرتضه، وأن إفادة التنكير للتكثير فى الآية فيه خفاء ولذلك استشهد الزمخشرى له بكلام العرب، لأن الزمخشرى ذكر مع بيت الأعشى رب بلد قطعتُ ورب بطل قارعت، والمراد التكثير، الذى رفضه البيضاوى أو سكت عنه وفسّر الخفاجى السكوت بالرفض، ذكره المفسرون بعد الزمخشرى، وليس ببعيد، لأن هذا يشير إلى أن النفس التى لم تستجب لهذه الأوامر الثلاثة فى سياق يفيض

بالقـرب والعطاء والرحمـة، حتى إنهم قـالوا هى من أرجى آيات الكتـاب أقول النفس التى لا تستجيب هى نفس مختلفة فى لجاجتها وعنادها، هذا والله أعلم.

ونداء الحسـرة فيه فرط إحسـاس بالنَّدم وكأن الحسـرة عند هذه النفس التى صَدَمها ما رأت قد تجسدت وتأنَّست يعنى صارت إنسانا والنفس تناديها وتقول لها هذا أوانك فاقبلى، وهذا من كلام الزمخشرى فى غير هذه الآية.

وقـرئ يا حسـرتاى بالألف التى هى عوض عن يـاء المتكلم، وياء المتكلم جمـعت القراءة بين العـوض والمعوض عنـه وفى هذه القراءة إحـساس أهول بالحسرة وإحساس أهول بأشد الندم، وقد تَحَسَّر ربنا على العباد وقال سبحانه ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠] والحسرة بالمعنى الذى يجده العباد مستحيلة على الله وإنما عبَّر بها سبحانه عن الذى فى نفس عباده، وسُمّى يوم القيامة يوم الحسرة قال تعالى ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ [مريم: ٣٩] وأحاول بذلك أن أقترب من الذى وجـدته النفس لما قالت يا حـسرتا على مـا فرطت فى جنب اللـه وقال كـرام عـلـمائنا إن ذكـر حـرف الاسـتـعــلاء فى قوله تعالى ﴿يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾ للإشارة إلى قهر الحسرة، وعلوها، واستـعلائها، واستيلائها على هذه النفس، والتفريط معناه التضـييع، وأنه ضيّع حق الله، وقد فسروا جنب الله بذكره وبحقه وبطاعتـه وهذا بيان للمعنى، وليس بيانا لوجه دلالة الكلام على هذا المعنى، ووجهه هو أن الجنب والجانب والجهة والفِناء والدار كل ذلك تُنْسَبُ إليه الصفة والمراد نسبتها إلى صاحب الجنب، والجهة، والفناء، يقولون فلان لين الجانب، وخـشن الجناب، يريدون وصفه بالليونة، والشراسـة، كما يقولون خصب الفناء، يريدون وصفه بالسخاء، وهكذا يقول الشنفرى.

يَبِـيتُ بِمنجـاةٍ من اللَّوْم بيتُـهـا ... إذا مَـا بيـوتٌ بـالملامَـةِ حُلَّت

أراد تبيت هى بمنجاة من اللوم، وقال زياد الأعجم يمدح عبد الله بن الحشرج

إن السـمـاحـةَ والمروءةَ والـنَّدى　　في قُبَّةٍ ضُرِبُتْ على ابن الحَشْرَجِ

أرادوا وصفه بالسماحة والمروءة والندى

وقال سابق البربرى

أمـا تَتَّـقِينَ الله في جنب وامق　　له كـبـد حَـرَّى عليك تـقطّعُ

أراد في حق وامق، والوامق الشديد المحبَّة وحَرَّى ذات حَرٍّ واحتراق.

وقد نسب صاحب شرح شواهد الكشاف البيت إلى جميل بن معمر يَسْتَعْطِفُ صاحبته بُثَيْنة، قال صاحب الكشاف «ومنه قول الناس لمكانك فعلت كذا يريدون لأجلك وفى الحديث من الشرك الخفىّ أن يُصلّى الرجل لمكان الرجل، وكذلك فَعَلْتُ هذا من جهتك فمنْ حيث لم يبق فرق فيما يرجع إلى أداء الغرض بين ذكر المكان وتركه قيل «فرّطت فى جنب الله» على معنى فرّطت فى ذات الله، فإن قلت فمرجع كلامك إلى أن ذكر الجنب كلا ذكر سوى ما يُعطى من حسن الكتابة، وبلاغتها، فكأنه قيل فرَّطت فى الله، فما معنى فرطت فى الله؟ قلت لا بد من تقدير مضاف محذوف سواء ذكر الجنب أو لم يذكر والمعنى فرطت فى طاعة الله وعبادة الله وما أشبه ذلك، وفى حرف عبد الله وحفصة فى ذكر الله، وما فى ما فرّطت مصدرية» انتهى كلام الزمخشرى، والمراد بحسن الكناية فى الآية تأكيد إثبات التفريط فى حق الله لأن إثبات التفريط فى جنب الله، دليل على إثبات التفريط فى حق الله كما أن إثبات السماحة والندى فى قُبَّة ابن الحشرج تأكيد لإثبات السماحة والندى له، والمبالغة فى الكناية ليست مبالغة فى الصفات وإنما هى مبالغة الإثبات.

وفى موقف هذه النفس التى تتحسّر هذه الحسرة فى هذا الوقت الذى لا تنفع فيه الحسرات، وأن مأساتها هى التفريط فى حق الحق جل وتقدس، له دلالة أخرى لأن كل الذى قلته هو تحليل لوجه دلالة اللغة، أما تحليل المعنى نفسه فهذا باب آخر هو أوسع وهو أهم، وقد شغلنا فى التفسير بتحليل

اللغة التى هى المبانى أكثر من الاشتغال بتحليل المعانى المستفادة من هذه المبانى، وأقرب ما تراه فى هذه الجملة من هذا الباب هو أن من آمن بالله يجب أن يكون حق الله وطاعة الله وذكر الله منصوبا بين عينيه فى كل ما يباشر، ويزاول من أعمال، وحق الله متغلغل فى كل شىء نزاوله فى تجارتنا وفى درسنا، وفيما نكتب، وفى معاملنا وكل مواقع أعمالنا، وليس فقط فى المساجد، والمحاريب مع أهميتها، وأن الجهاد حق الله ومواجهة الظلم حق الله، ومواجهة الفساد حق الله، ومواجهة الأنظمة التى توالى أعداء دين الله حق الله، ومواجهة التخلف الذى تفرضه الأنظمة حق الله، ومواجهة انهيار التعليم حق الله، والاشتغال بالشأن العام الذى هو السياسة حق الله، والاشتغال بكل ما تَقْوَى به الأمة، وتتهيأ به للدفاع عن ترابها حق الله، ومواجهة اقتطاع أرض المسلمين ليقيم عليها عسكر الذى يحاربون دين الله حق الله، وكل من فرّط فى هذا فقد فرّط فى جنب الله وسيقول يا حسرتاى على ما فرّطت فى جنب الله، ويجتهد أعداء الدين ومن والاهم منا بإبعاد كل هذا عن الدين وأن الدين صوم وصلاة وكفى، وعبادات فحسب، والذى أفهمه أن هذا من صلب العبادات وأن الصوم والصلاة إنما هى إعداد النفس لمواجهة الفساد، والظلم، والسلب، والنهب، وإطلاق أيدى الأتباع، والأبناء والأحفاد، فى ثروة البلاد، مع إهمال التعليم، والتقدم العلمى، الواجب الذى تحمى به الأمة ديارها، كل هذا من العبادة. ومن مات ولم تحدثه نفسه بالجهاد الذى هذا بابه فقد مات على شعبة من النفاق، وهذه ثقافة الإسلام، وثقافة القرآن، وثقافة التفسير، ومن فرط فى هذا فقد فرّط فى جنب الله، المطلوب أن يكون التفسير والحديث والثقافة الإسلامية صانعة لهذا الإنسان الحىّ، الذى لا يهادن الباطل، على أرض المسلمين وهذه لمحة من تحليل المعانى التى شغلْنا عنها بتحليل المبانى، ومن الخطأ أن يكون تحليل المبانى غاية لأن المبانى ليست غاية، وإنما المعانى التى وراء هذه المبانى، والتى يَسْتَقِى منها المؤمن وينشأ عليها المؤمن، الذى يحمى أرضه، وعرضه، ولا يترك ما لقيصر

لقيصر، لأن قيصر انتهى زمـانه وقد أنزل الله كتابه العزيز ليخرج الناس من جنب قيصر، جنب الظلم، والقمع والسلب، والنهب، إلى جنب الله جنب الحق، والعـدل، والرحمـة، وإعداد القـوة التى تحمى الأرض، والعـرض، وكمـا قال لنا ربنا أقيـموا الصلاة وآتوا الـزكاة قال لنا أيضـا (وأعدوا لهم) وشيوخنا الذين يقولون لنا أقيـموا الصلاة وآتوا الزكاة ولا يقولون لنا (أعدوا لهم) مفرطون فى جنب الله، هذا والله أعلم.

قوله تـعالى: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ «إن» التى بُنيت عليهـا الجملة مُخَفَّفة من الثقيلة وهى مهملة وهذه اللام هى الفارقة بين النافية والمخففة من الثقيلة، وتفـيد تأكيد أنه لم يكتف بالتفـريط فى جنب الله، وإنما سخِرَ من أهل الدين وسَـخِر من الأنـبيـاء، وسخـر من كـتب الله، والجـملة حاليـة مضمونة للجملة الأولى، وهذه النـفس قالت جملة واحدة ومجىء الواو فى الجملة فيه إشارة إلى أن معناها فى نـفس قائلها يوشك أن يكون خبرا وحده ولذلك ذكر بعضهم أنها يمكن أن تكون مستأنفة بالواو، وفيها أن هناك جماعة من الساخرين عـرفوا بهذه الصفة وأنه كـان واحدا منهم، وهذا هو الفرق بين ما جاءت عليه الجملة وبين لو قال وإن كنـت ساخرا، وهى تشبه الجملة التى قالها فرعـون لموسى عليه السلام ﴿لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾[الشعراء: ٢٩] يعنى أن لهذا الملعون سـجنا يطرح فيه أمثال موسى عليـه السلام ممن لَهُم قَدر فى الناس، ولكن الله سبحانه عصم موسى عليـه السلام من أن يتمكن منه هذا الفاجر، ثم إن قوله ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ بعد قوله ﴿يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ فيـه دلالة ظاهرة على أن هذه النفس وقـفت تستحـضر ما أفضى بهـا إلى هذا الموقف، وأنها تذكرت أولا، أنهـا ضيعت حق الله سـبـحـانه، لأن هذه هى المصـيـبة الأم التـى قد يقـع فيـهـا أهل الشهادتين، ثم بدا لها ما هو أبشع مـن ذلك وهو سخريتها من الدين وأهله والسخرية أبشع من الرفض، وأبشع من الاستهزاء مع بشاعته، لأن السخرية

فيها قدر من الازدراء، والاحتقـار، الذى أصله التعالى والاستكبار، وموقف المراجعة والمصارحة موقف جـيد، لو جاء فى الزمن الذى ينفع فيه، يعنى قبل البغتة التى فـاجأتهم وهم لا يشعرون، ولاحظ أن نفى الشعور عنهم فى الآية السابقـة قد انكشف لأن هذه مراجـعة النفس التى صارت تشـعر شعورا حـياً وحسّاسًا، ودقيقا لكل ما كـان منها وأنها لم تكتف بالتفريط وإنما أضافت إليه فظاعة السـخرية، ثم لاحظ أن الحق الغـفور الرحيم الـذى دعاها إلى الإنابة والإسلام والاتباع مع أنها أسرفت على نفسها يعـرض عليها صورتها وحالتها التى ستكون عليهـا لو أنها راغت من أمره، وهذه رحمة ونعـمة ومِنّة، وكأن الحق يقول استجيبوا لما أدعوكم إليه وإلا فهذه صورتكم التى ستكونون عليها، وهى صورة حسرة ليس بـعدها حسرة، وستراجعـون إسرافكم على أنفسكم، فى الوقت الذى لا يصح فـيه التـخلّى عن هذا الإسـراف، نعم يمكنكم الآن التخلى عن هذا الإسراف وأنا أدعوكم إلى هذا التخلى. وهذا كلام صادر من معين الرحمة ومن معين اللطف ولا يهلك على الله إلا هالك.

قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ .[الزمر: ٥٧]

ذكر البيضاوى أن كلـمة (أو) للدلالة على أنها لا تخلو من هذه الأحوال، وقال الخفاجى فى تعليقه على كلام البـيضاوى، «يعنى أنها لمنع الخلو، فيجوز اجتـماع بعضهـا، أو كلها فى بعضهـم» ولك أن تتأمل لغة الخفـاجى وكيف يوجز لأنه أراد أن كل نفس لـم تستجب للأوامـر الثلاثة التى مضت: أنيـبوا وأسلموا واتبعوا، لا بد لها أن تقول قـولا من هذه الأقوال الثلاثة، يا حسرتا لو أن الله هدانى، لو أن لى كـرة، ويجوز أن تقـول نفس واحدة قـولين من هذه الأقوال، ويجوز أيضا أن تقـول نفس واحدة كل هذه الأقوال، والمهم أنه لا تخلو نفس من واحد من هذه الأقـوال، فكل الذين لم يتبعوا سيـواجهون هذه اللحظة التى يقولون واحدا منها أو اثنين أو ثلاثتها، هذا شىء ثم يلاحظ أن النفس هنا انتـقلت من موقف المصـارحة إلى مـوقف المراوغة، كـانت فى كلامها الأول تُحـمِّل نفسها مسؤولية ما هى فـيه. وأنها فرّطت فى حق الله،

وأنها زادت على التـفريط بالانضمام إلى جـماعة الساخرين ثـم فجأة راحت تنقل هذه المسـؤولية إلـى أمر غـيبى ليس عندهـا، ولا عند غيـرها علم به، وتحاول تبرئة نفسها، والرجوع بما هى فـيه إلى قدر قدّره الله عليها، وأن الله أراد بهـا ذلك، ولو هداها لاهتدت، والغـريب أن قولهـا ﴿**لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾ حق لا ينازع فيه من شهد أن الله حق، وأنه سبحانه أخبر أنه يُضل من يشاء، ويهدى من يشاء، وأن من أضله الله فلا هادى له، ولكن هذا الحق فى منطق هذه النفس أريد به باطل، لأنها به تتنصل من الفعل الذى اختـارته بمحض اختيارها، وأفـضى بها إلى هذا الموقف لأن الله سبـحانه لم يعلم أحدا من خلقه أنه يهدى فلانا، أو يضل فلانا، ولا علم لى بما كتبه الله علىّ، ولا علم لك بما كتبه الله عليك، ولو أعلمنا ربنا ذلك لبطل التكليف، ولذهب كل منا إلى مـا قـدّره الله له، والذى حـدث هو أن الله قـال لنا لا تقنطوا من رحـمتى، وقال لنـا أنيبوا إلى ربكـم وقال لنا أسلموا لـه وقال لنا اتبعـوا أحسن مـا أنزله إليكم ومكننا من الفـعل يعنى خلق فينا القـدرة على الإنابة، والإسلام، والاتباع، ولم يضع عائقا يـعوق توجهاتنا فذهب كل إلى ما اختـاره، هؤلاء أنابوا وأسلموا واتبعوا، وبقيت أنفس لم تفـعل وسخرت، وأخبرنا ربنا أن من طلب الهدى اهتدى، ومن أناب وجد الله معه يأخذ بيده، ويمهد سبيله إلى صـراط الله المستقيم، وأخبر أنه لا يضيع شـيئا وأنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله، وأن من مد يديه إلى الله لا يردهما صـفرا حتى يضع فيهـما خيرا وأن من اقترب من الله شبرا اقترب الله منه ذراعا، ومكننا من كل هذا ولم يكلفنا إلا بالذى هو فى الوسع، وفى النهـاية الكل بين أصبعين من أصـابعه والخلق خلقه، والحول حـوله، والطول طوله، ومن اهتدى فبهـداه اهتدى ومن ضل أضله لأن هذا هو شـأن الألوهية وعز الربـوبية، وتمام الملك وتمام التـصرف، ولو لم يكن كذلك لما كان الله الذى نـعبده، لأننا نعبد الذى فى قبـضته هذا الوجود كله، بما فيه أنا، وأنت، وأنه هدانا النجـدين، وألهم نفوسنا فجورها

وتقواها وأخبرنا أننا قادرون على تزكيتها، وقادرون على تَدْسيتها وقال أفلح من زكاها وخاب من دسّاها، وقول هؤلاء لو هدانا الله لا هتدينا حق أريد به باطل، وله نظائر كثيرة فى الكتاب العزيز، أحيانا يرجعون بضلالهم إلى أن الله هو الذى أضلهم، وأحيانا يقول ضعفاؤهم للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين، وأحيانا يقولون إن آلهتهم التى أضلتهم، ﴿رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا﴾ [الأعراف: ٣٨] إلى آخر هذا التعلل البائس، ولا يزال هذا التخبط من شأن أهل الباطل، لأن الباطل ليس له حجة وليس له مُسْتَند وليس له سلطان فيخبط فى كل اتجاه، ويحاولون نقل مسؤولية خسرانهم إلى آلهتهم مرة، وإلى كبرائهم، وهم الآن يحملونها إلى الله سبحانه، وهذا من فجور الضلال، وأن الله ظلمهم، لأنه لم يهدهم كما هدى المتقين، ولو هنا دالة على امتناع جوابها لامتناع شرطها، وقد جاء الرد على هذا القول ولم يأت رد على القول قبله، ولا على القول بعده، وكان الرد تكذيبا له فى دعواه، لأنه وهو فى هذا المقام الحرج كذب على الله، وكان حاله كحال الذين قالوا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك أو الذين أقسموا لو جاءهم رسول ليكونن أهدى من إحدى الأمم، وقد أرسل الله رسله وأنزل كتبه وجاءتهم آياتهم لكى لا يكون لأحد على الله حجة، وهؤلاء الآن يكذبون ويتجاوزون هذا كله.

ولك أن تعتبر قولها ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ مما كذبوا فيه على أنفسهم وهم يعلمون أنهم يكذبون، وقد حكى القرآن الكريم عنهم تخاليط لما رأوا العذاب وأسقط فى أيديهم، وقيل لهم هذه النار التى كنتم بها تكذبون، وأظهر ما كذبوا فيه على الله وعلى أنفسهم وعيونهم مفتوحة حكاية الحق عنهم فى سورة الأنعام ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأنعام: ٢٢ - ٢٤].

ولو قلت إنك تجد شوبا من الحسرة وشوبا من التمنى الذى هو طلب المستحيل فى هذه القرينة الثانية ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾ لم تكن مخطئا، وتكرار كلمة "أو تقول" وكان يمكن أن يعطف على الأولى قوله تعالى ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾ من غير تكرار أو تقول وهكذا الثالثة أقول هذا التكرار مؤذن بأنها مواقف مستقلة، وأقاويل مستقلة، ومع هذا تجد حِسّاً مشتركا بينها، وتجد الحسرة التى كانت رأس هذه القرائن لها أثر راسخ فى القرينتين الثانية والثالثة، لأن التمنى الظاهر فى القرينة الثالثة الحسرة فيه ظاهرة، لأنه تمنى ما لا يكون، ولأن التمنى بكلمة لو التى هى رأس القرينة الثانية مؤذن بأنه قد غَشَّاها من التمنى والتحسّر ما غشَّى؛ ولك أن تقول لماذا قال لو أن الله هدانى لكنت من المتقين، ولم يقل لكنت من المهتدين ليتناسب مع هدانى؟ ولا أعرف لهذا جوابا إلا شيئًا يشبه الجواب، وهو أن المتقى هو الذى يجعل بينه وبين عذاب الله وقاية، والألف واللام الذى فى المتقين يعنى أن قوما عرفوا بذلك وشهروا به، يعنى وقَوا أنفسهم من عذاب الله واستجابوا لقوله تعالى﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦]، ولم يتعلَّلُوا بما تعلَّل به ولم يقولوا لو أن الله هدانا لكنا من المتقين لأنهم هم الذين صَنَعوا هذه الوقاية وكأن ذكر كلمة المتقين فى آخر الآية تنقض قوله فى أولها لو أن الله هدانى، قلت هذا ما عندى وليس كافيا.

قوله سبحانه: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٥٨].

رؤية العذاب هى اللحظة التى تنقطع بأهل النار عندها الأسباب ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦] وقد جاء هذا الظرف هنا ولم يأت فى الآيتين السابقتين لأن قولها ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾ كانت فى هذا الوقت بخلاف قولها ﴿يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٥] وفى

قولها ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾ لأنها قالت ما قالت فى الآيتين فى غير وقت رؤية العذاب، فلا يجوز أن تقول أو تقول حين ترى العذاب يا حسرتى على ما فرطتُ لأنها قالت هذا قبل رؤية العذاب، وبعد كشف الغطاء، ورؤية الحق، وأنها فى مواجهة ما أنكرت، ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢] وفرق بين التَّحسر والتندم الذى فى الأولى، والتعلل الذى فى الثانية وتمنى الرجعة الذى فى الثالثة، وأن تمنى الرجعة لا يكون إلا عند مشاهدة هول العذاب، وجملة ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾ تكررت فى سورة الشعراء ولم تذكر فى الكتاب إلا فى هذين الموضعين، وكلمة (كرة) لم تذكر فى الكتاب إلا فى هذين الموضعين، ومرة ثالثة فى سورة البقرة، وليس المراد بها الرجعة إلى الدنيا ليكونوا من المؤمنين كما فى الشعراء أو ليكونوا من المحسنين كما فى الزمر، وإنما ليتبرؤوا من الذين اتبعوهم ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧].

ويلاحظ أن كلمة (لو) فى هذه الآيات الثلاث مفيدة للتمنى، بدليل نصب الفعل المضارع بعدها ﴿فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾.

كما يلاحظ أن مواقعها الثلاثة فيها رؤية العذاب، إما بلفظ ﴿حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ [الفرقان: ٤٢] كما فى الزمر أو بلفظ ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ [البقرة: ١٦٥] كما فى البقرة أو كان بلفظ ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ

يَنتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ [الشعراء: ٩١-٩٤] كما فى الشعراء، وكل هذا يعنى أن هذه الجملة تمثّل صَرْخَةً من صرخات أهل النار، وهم فيها، ويمكن أن نصلها بنظائرها من مثل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٧] وقوله جل شأنه ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣] وسنجد وفرة من صرخات أو استغاثات أهل النار، وسنجد تنوعا فى المعانى والمبانى، والمطلوب من هذا هو البحث عن مناسبة كل قول لمقامه وسياقه، ولماذا قالوا هنا هل لنا من شفعاء، وهناك يامالك ليقض علينا ربك، أو يامالك ادع لنا ربك ليخفف عنا يوما من العذاب، وهذا خفى جدا، ودقيق جدا، وهو من أجل أسرار البيان القرآنى، وقد يتيح الله لهذه الأمة جيلا أنفذ منا وأقدر وأشف، ورُبى فى بيئة سياسية وثقافية نظيفة، وفى سلطة تحترم العقل والعلم، لأن هذا هو الجو الذى تنبت فيه الكفاءات الأعلى، فرق شاسع بين جيل ينشأ وتحت سمائه الصافية سحابة من دخان أسود يتجسد فيها الجهل والغباء والقمع والسرقة والخطف وسلب البلاد؛ والرأس الأولى يتجسد فيها هذا كله وأسوأ منه من الموالاة لألد أعدائنا، لا يختار حوله إلا من كان من هذا النوع، فرق بين جيل يُقضى عليه فينشأ تحت هذه السحابة السوداء وجيل ينشأ وهو يرى صفاء الوجود، ونقاء الرجال، وطهارة القلوب، والصدق والإخلاص وحب البلاد، والتفانى فى خدمتها، هؤلاء هم الأقدر والأنفذ وحسب الأولين أن يَدلُّوا على الطريق، ولذلك كان تطهير البلاد من دنس عصابات السلطة من أوجب الواجبات، بقى شىء فى الفرق بين آية الزمر، وآية الشعراء، هو أن فى آية الزمر ﴿فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وفى آية الشعر ﴿فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٢] فما مناسبة المحسنين فى الزمر؟ ومناسبة المؤمنين فى الشعراء؟ والذى أقوله هو اجتهاد يؤخذ منه ويترك، وغاية ما عندى هو أن المحسنين فى الزمر نظر إلى قوله تعالى ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ

﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾، وأن المحسنين من الأحسن وأن اتباع الأحسن هو طريق المحسنين وهذا ظاهر، وقد نَبَّهْت إلى صلة الأقوال الثلاثة: يا حسرتا. . . ولو أن الله هدانى. . ولو أن لى كرة بالأوامر الثلاثة: أنيبوا. . وأسلموا. . واتبعوا. . وهذه هى القرينة الثالثة التى هى أشبه بأن ترجع إلى الأمر الثالث، مع التناسب الذى لا يدفع بين اتباع الأحسن والمحسنين.

أما الذى فى الشعراء فلم يكن فيها أمر باتباع الأحسن، وإنما كان المقام مقاما آخر فقد بُرِّزَت الجحيم للغاوين، وإبراز الجحيم يعنى رؤية العذاب ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ [النازعات: ٣٦] ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ [الشعراء: ٩٤] يعنى كُبُّوا على وجوههم، ثم إنهم اختصموا وهم فى النار وقالوا لجنود إبليس تالله إن كنا لفى ضلال مبين، إذ نسويكم برب العالمين، ما أضلنا إلا المجرمون، ومن كانت مصيبته فى الضلال والشرك والذى كَبَّه فى النار هو هذا الكفر كانت رجعته لتحصيل الإيمان الذى هو الأصل، والذى ينجيه من الذى يجد. سياق جملة الشعراء تمثله آيات: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠، ٩١] يعنى مؤمن وكافر، والذين كبكبوا فى النار هم الكافرون والذين تمنوا الكرة تمنوها ليكونوا مؤمنين وهذا أيضا ظاهر.

بقى شىء هو أن آية الزمر، من أول قوله تعالى ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾ [الزمر: ٥٣] تخاطب جماعة، ومن أول قوله تعالى ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾ [الزمر: ٥٥] انتقل الكلام إلى الإخبار عن المفرد وهذا أيضا مما اختلفت فيه آية الزمر عن آية الشعراء، والوجه ما نبهت إليه وهو أن آيات الزمر، فَتَحتْ أبواب المغفرة والرحمة فتحا ظاهرا مبينا، والشأن فيه لا يتخلف عنه أحد، وأن الإنابة والإسلام والاتباع هى جوازات الدخول فى هذه الرحمة التى لا حدود لها، والشأن فى مثل هذا الموقف ألا يتخلف عن الاستجابة

لهذه الثلاثة إلامن شذَّ؛ ومن قلَّ، ومن لهم طابع واحد لا يختلف، وقد تتعددُ النفوسُ ويتوحد الطريق فتصير النفوس المتعدِّدة كأنها نفس واحدة.

قوله سبحانه: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٩] كلمة (بلى) التى فى أول هذه الآية ترجع بها إلى قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾، وذلك لأنها لا تقع إلا فى جواب نفى وليس فى الآيات الثلاث نفى إلا فى قوله تعالى ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾ لأن المقصود أنه ما هدانى، ثم إن الآية ردٌّ ظاهر على قول النفس ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾ لأن المقصود بالهداية مجيء البرهان، والدليل والحجة، وقد جاء ذلك فى آيات الله وكتبه، ورسله، وعليه آمن من آمن، وما أرسل الله من رسول إلا ليطاع، لأن الله سبحانه ما أرسل رسولا إلا ومعه من الله سلطان، وهذه النفس التى قالت لو أن الله هدانى نفس غابت عن المشهد، الذى جعل الله سبحانه فى كل شيء فيه آية، وما من شيء إلا يسبح بحمده، حتى هذه النفس الكذوبة، وكلمة ﴿قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي﴾ قرئت بالتأنيث، والتذكير أعنى بفتح الكاف للمذكر وكسرها للمؤنث، وفى القراءتين معنى جليل هو أن آيات الله ليست آية واحدة وإنما هى آيات قد جاءت كل نفس ودخلت عليها مستقرها، راجع كلمة ﴿جَاءَتْكَ آيَاتِي﴾ وكأنها مرسلة من لدن حكيم خبير إلى هذه النفس خصوصا، لأن آياتى بسلطانها، وبرهانها، دخلت ما دخل عليه الليل، ولم تدع قلبا إلا تولجّت فيه، ودخلت فى شكّه وريْبه وظُلمته؛ فأضاء الله بها قلوب من لم يعاند، ومن لم يستكبر، ومن لم يكذب، ويكذّب، وهذه قيمة الحديث إلى المفرد، وأن الله سبحانه لم يَقل بلى قد جاءتكم آياتى لأن الحديث عن المفرد يتناول الأفراد فردا فردا، ونرى الحق فى هذه الجملة يقول لك ولى وله ولها وكل من عاش على هذا الكوكب من ولد آدم فردا فردا، جاءتك آياتى، ولا عذر لك، ولا حجة لك، ولن أعذب فردا واحدا ليس لى عليه حجة، والفاء

التى فى قوله ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾ ترتب وتعطف كذبت على جـاءتك بلا مهلة، وهذا فيـه إشارة إلى الحـماقة والإصـرار، والعناد لأن شأن العـاقل إذا جاءته الآيات أن يتريث ويدرس، ويراجع، ولايبادر بالتكذيب، وفـيه تكذيب لقوله لو أن الله هدانى، لأن المـعنى أننى هديتك بآياتـى، وحـجتى، وسلطانى، ولكنك لم تهتد وبادرت بالتكذيب، وقـوله سبحانه ﴿وَاسْتَكْبَرْتَ﴾ معطوف على كذّبت، وداخل معه فى الترتيب بلا مـهلة، والواو تفيد مجرد الجمع من غير إشارة ترتيب، وهذا يعنى أنه يمكن أن يكون كـذّب واستكبر، ومُمكن أن يكون استكبر وكذب، وأن هذا الاحتمال يجعل الكلمة مصورِّة لأنفس كثيرة، فمن الناس من دعاه استكباره إلى التكـذيب فاستكبر وكذب، ومنهم من بادر بالتكذيب وأعانه عليـه كبر فى صدره، والجـار والمجرور فى قوله «بها» يـفيد معنى لا يكون لو عُـدِّى التكذيب بنفسه، وقيل فكذبتـها وذلك لأن هذه الباء معناها السـببية والتعليل يعنـى أن مجيء الآيات كان سبب تكذيبك بهـا بغيا وحسـدا أن ينزل الله من فـضله على من يشاء من عـباده، ولم تكن قـريش لتكذب ولم يكن الكذب من أخلاقها ولما نزل القـرآن على محمد ﷺ كذّبت قريش وكَذَبَتْ بسببه، وهذا معنى جيد لهذه الباء، وقوله سبحانه ﴿وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ معطوف على كذبت بها وهذه الجمـلة فيها نهاية الموقف الذى بدأ بقوله جاءتك آياتى وبعد مجيئـها كذبت بها بلا مهلة، واستكبرت، وهذا هو وصف تلقّيه للآيـات وموقفه منها، وجـملة وكنت من الكافرين وصف لما آل إليه الموقف وهكذا حين تراجع هذ ا البيان تجد كلمـات تنبذ بالمعانى نبذًا كأنه وخز الإبر، لا تمرّ كلمة من غير أن يكون لها أثر، وهذه الجـملة الأخيرة فيها إشارات لغوية، إلى مـعان جليلة، منها أن التعريف فى الكافـرين، يشير إلى الجنس الذى عـرف بالكفر وشُـهِر به، ومنها كـلمة ﴿كُنتَ﴾ الدالة على أن الكفر صار طبعا من طبعك، وجزءا من ماهيتك، لأن كلمة كان فى مثل هذا الموقع تدل على أن خبرها جزء من ماهيتها، ووراء هذا إشارة إلى معنى جليل

وهو أن حقيقة الكفر يُفْضِى إليها رذيلتان هما المسارعة بالتكذيب من غير تدبّر، والاستعلاء، والتكبر، الذى يحول دون التدبر، والتبصر، والتعقل، وحيثما رأيت الكفر فاعلم أن وراءه رذيلة الاستعلاء التى تَصيبُ القلب بالعَمَه ورذيلة المسارعة إلى التكذيب التى تخطفُ الحقيقة من تحت نور العقل، وتذهب بها بعيدا فيكذب المكذِّبُ من غير تعقل، ويكذِّب بالصدق، ويكون بذلك من أظلم الظالمين.

وهذه الآية رد على قول النفس ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ والسؤال لماذا لم تقع بعد مَا هِيَ رَدّ لَهُ؟ وتُقَدَّم على قوله تعالى ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾ أو لماذا لم تتأخر آية ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾ وتقدم عليها آية ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾ حتى يكون الرد مقترنا بالذى هو رد له؟ هذه تساؤلات الزمخشرى وتناقلها عنه كرام علمائنا رضوان الله عليهم، وكان الكرام يُصْغون إلى مقالة هذا الشيخ الجليل، مع اختلافهم معه فى قضايا أخرى، وأجاب الزمخشرى وتناقلوا جوابه، وجوابه هو أننا لو قدمنا آية بلى قد جاءتك آياتى على آية لو أن لى كرة لأدَّى ذلك إلى تبتير النظم، وهذه عبارة الزمخشرى وقد كررها فى كتابه، ووجه هذا التبتير هو أن هذه الآيات الثلاث التى هى مقالة النفس، كأنها نَفْثة مصدور فنفثها متلاحقة، وما كان له أن يعزل بعضها عن بعض، بمداخلة الرد مهما كان جوابه، لأن المطلوب أن تسترسل النفس فى هذا المقام الصعب، وهذا الموقف الصعب وتحدِّث بما تجده، وبما تراه أفضى بها إلى هذا الموقف الصعب، من غير حبسه، وقد هيأ لتولد هذا المعانى، وتدافعها، وغزارتها، السياق من أول ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ وتذكر هذه الفرصة التى وسعت مغفرة الله فيها الذنوب جميعا، ثم أفْضَل بعد المغفرة التى هى إزالة العقوبات، بالرحمة التى هى فتح باب العطاءات كما قدمنا، والذى طلبه من المسرفين أمر محدود جدا هو

الإنابة والإسلام، والاتباع، ثم أضاعت النفس هذا كلَه وأهدرته، ثم واجهت الحسرة فى يوم الحسرة، وهذا لو تأملته وجدته يفتح فى النفس ينابيع من التندم وينابيع من المشاعر والأحوال هى التى لخصتها أحاديث النفس فى هذه الآيات الثلاث، والتى لم يكن من المناسب إقحام آية ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي﴾ فى طريق تدفقها وتتابعها، ثم إن الزمخشرى علَّل أيضا عدم صحة تأخير الآية الثانية وتقديم الثالثة عليها بأن هذا فيه هو الآخر تبتير للنظم ولكن من جهة أخرى هى أن معانى الآيات الثلاث جاءت مُرَتبة فى النظم على وفق ترتيبها فى النفس، ولم يزد الزمخشرى على هذه الإشارة، اعتمادا على أن قارئ زمانه مستطيع أن يدرك حقيقة ما أشار إليه، ومراعاة حال القارئ قائم فى كل تصنيف، وفى كل زمان، والذى أفهمه من هذه الإشارة، هو أن الآية الأولى حدثت عن التفريط فى جنب الله، وعن السخرية، بأهل الله، وأن الحسرة ألـمَّت بها من أثر ذلك، وهذا إدانة للنفس، وإقرار بالخطأ ثم جال فيها معنى آخر، وهو أنها خُذِلَتْ ولم يصبها توفيق الله وهداه، وتأمل هذا يُبيّن أنه من الحالة الأولى بمكان لأنه لا يزال مع نفسه، وأنها جمعت بين محنتين محنة التفريط، ومعه السخرية ثم محِنة الخذلان، والحِرمان من كرم الله، الذى أصابَهُ عبادُه المتقون، ولم يبق بعد ذلك إلا تمنى الكرة، لتكون من الصالحين، وهذا ما أراه فى وجه الترتيب وأملى أن ترى ما هو أفضل منه، ولاحظ تنكير كلمة (كرَّة)، وأنه يتمنى كرة أى كرة، المهم أن تتاح له لحظة يُقْبَل فيها عمل منه، لأنه لن يكون له فيها إلا الإحسان، والمحسن هو الذى يعبد الله، وكأنه يراه، ويكفى من هذا لحظة واحدة تغسل الحسرة التى هو فيها.

وبقى الآن أن أضع بين يديك كلام الزمخشرى، لأن من واجبى أن أضع بين يديك أطايب كلام كرام العلماء، قال رحمة الله: «فإن قلت هلا قرن الجواب بما هو جواب له وهو قوله ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾ ولم يفصل بينهما بآية؟ قلت لأنه لا يخلو إما أن يُقدّم على أخرى القرائن الثلاث، فيفرق

بينهن، وإما أن تُؤخر القرينة الوسطى، فلم يحسن الأول لما فيه من تبتير النظم، بالجمع بين القرائن، وأما الثانى فلما فيه من نقض الترتيب، وهو التحسر على التفريط فى الطاعة، ثم التعلل بفقد الهداية، ثم تمنى الرجعة، فكان الصواب ما جاء عليه، وهو أنه حكى أقوال النفس على ترتيبها ونظمها ثم أجاب من بينها عما اقتضى الجواب» انتهى كلامه وتأمَّلْ كيف تذوّق كرامنا أكرم البيان.

وشىء آخر فى ترتيب هذه الآيات الثلاث وهو أن الثالثة معناها واضح فى أنه النهاية، لأن تمنى الكرة هو آخر المعانى، وليس من المقبول أن تتمنى النفس الكرة لتكون من المحسنين، ثم تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين.

قوله تعالى﴿ **وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ** ﴾ [الزمر: ٦٠].

راجع هذه الآية تجد لبناتها مستخرجة من الآية قبلها وأول ذلك «**كذبوا على الله**»، وهذا مستخرج من «**جاءتك آياتى فكذّبت بها**» لأن من كذب على الله وكذّب بالصدق صنوان كما جاء فى الآية الأسبق ﴿ **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ** ﴾ [الزمر: ٣٢] ومن أجل أن تتأكد لنا العروة الممسكة بالآيات جاء هناك ﴿ **إِذْ جَاءَهُ** ﴾ وجاء هنا ﴿ **قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي** ﴾ ثم إن كلمة ﴿ **مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ** ﴾ مستخرجة من كلمة ﴿ **وَاسْتَكْبَرْتَ** ﴾ ومن المفيد أن نستخرج العناصر التى تربط الكلام بعضه ببعض، وهى بمثابة الخيوط التى تشد المعانى وتمسكها فى نسيج بناء السورة، قلت هذا لأنى لما راجعت صلة الآية بالتى قبلها وجدت العلاقات رجعت بى إلى كلام بعيد، وليست المسألة فى علاقة المعنى بالذى قبله، وإنما علاقة المعنى بمكونات السورة، وما أكرم أن يُعلّمك البيانُ أسراره، وأن تدلك بلاغته على البلاغة التى يجب أن نتعلمها منه، وأن نضيفها إلى مَتْن البلاغة الذى فى الكتب، قلت إن قوله تعالى﴿ **وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ** ﴾ مستخرج من

آية ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي﴾، وأضيف شيئًا هو أن آية ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي﴾ التى هى من جذور مبنى ويوم القيامة جاءت ردا على قول النفس لو أن الله هدانى، فهى مرتبطة أشد الارتباط بها لأن الرد على الكلام جزء من الكلام، وبهذا تصبح آية ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾ داخلة فى جذر آية ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، ولك حينئذ أن تعد قولهم لو أن الله هدانى من الكلام الذى كذبوا فيه على الله، ليس لأن الله رده فحسب، وإنما لأنه جذر آية بلى قد جاءتك آياتى التى استُخْرِجَتْ منها آية ويوم القيامة، وهكذا إذا نظرت فى خيط يربط آية بآية وجدت بجواره خيطا آخر يَمُدُّ يَدَهُ إليك.

ومعنى «كذبوا على الله» وصفوه بما لا يجوز عليه تعالى وهو متعال عنه كما قال الزمخشرى فقالوا لله ولد، وقالوا الملائكة بنات الله، وجعلوا له شركاء الجن وخرقوا له، وكل ما يدخل فى الحديث عن الله وهو كذب، وهذه الخطيئة وإن كانت من الكفر البواح ترى فيها شيئًا زائدا عن عبادة الأصنام، التى لا تكون إلا عند سقوط العقل، وسقوط المروءة، لأن الكذب على الله كفر، وإساءة أدب وإلحاق النقص بجلال الألوهية، وهذا بشعٌ جدا، ولذلك خص هذا الذنب بسواد الوجوه، وليس فى الكتاب العزيز ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ إلا هذه الآية، نعم فيه اسودت وجوههم، وفيه تَسْوَدّ وجوه، وفرق بين الإخبار بالفعل «تَسْودّ» و«اسودّت» والإخبار بالاسم ﴿مُّسْوَدَّةٌ﴾ ورحم الله كرام علمائنا فقد ذكر الشيخ عبد القاهر أن هذا الفرق تَمَسّ الحاجة إليه فى علم البلاغة، لأن الوجوه المسودّة، وصف ثابت دائم بخلاف «تسْود» فإن السواد فيها يتجدد وكأن المضارع يقول لنا ها هى تسود، وكذلك الماضى يفيد أن هذا السواد كان بعد أن لم يكن، وهذا كلامهم رضوان الله عليهم، ولا تزال مائدتهم ممدودةً يقتبس منها الباحثون عن الصواب. ثم إن الزمخشرى فى هذه الآية ذكر ما خالف فيه المعتزلة أهل السنة والأشاعرة من مسائل الخلاف

المعروفة، كرؤية الله عز وجل التى ينكرها المعتزلة، ويرى الزمخشرى أن اعتقاد رؤية الله من الكذب على الله، ومثل القول بأنه سبحانه خالق أفعال العباد لأن العباد يفعلون القبيح، والقول بأن الله خالق أفعال العباد يعنى أنه سبحانه يفعل القبيح، ووصف الزمخشرى هذه الأقوال بأنها لا تَبْعد عنهم يعنى عن المذكورين فى الآية. وقد نقض ابن المنير كلام الزمخشرى بالأدلة الظاهرة، وخَشُن عليه كما خَشُن الزمخشرى على أهل السنة واعتذر ابن المنير عن هذه الخشونة وذكر أنها من الغضب لله، وذكر الرازى كل ما قاله الزمخشرى، وأكثر منه منسوبا إلى القاضى، وكان الزمخشرى يأخذ عن القاضى سرا وجهرا ويستبيح علمه، لأنه أوْسع وأشمل مُدَوَّنة استقصت أقوال المعتزلة، وكان شديد الذكاء واسع العلم، وكان أمة وحده، ولم يكن الزمخشرى فى تعصبه للاعتزال إلا صورة هادئة من تعصب القاضى، مع أنه ردّ على كبار شيوخ الاعتزال من أمثال أبى على الجبائى، وأبى هاشم، وكنت أضيق بذكر هذه الخلافات، وخاصة حين يترامى هؤلاء الكرام بالتهم مع أنها من أخصب مواطن العمل العقلى المحض، وبمقدار خصوبتها يكون الرفض وتكون الحدة، وأكرر أننى كنت عزمت على أن أسكت عن هذا ولكن الذى دعانى إليه هو أنه فتح لى باب ما عليه كثير من المنتسبين للعلم فى زماننا، ولا أقول كما قال الزمخشرى أنهم لا يبعدون عن المذكورين فى الآية، وقد أخطأ الزمخشرى لأنهم من أهل الإسلام، وإنما أقول هل نعد إقرار المنتسبين للدين لجهلة الحكام بأن الإسلام لا شأن له بالسياسة من باب الكذب على الله؟ وهل ثناء الكتاب العزيز على الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم، والذين اشترى الله منهم أنفسهم، ليس من السياسة؟ وهل سورة القتال وذكر الأسْرَى وأحكام الفرار، والتولى يوم الزحف، وإن يكن منكم مائة يغلبوا مائتين وغير ذلك من إعداد العدة والنفقة فى الجهاد هل هذا كله بمعزل عن السياسة؟ هذه واحدة، والواحدة الثانية ما هو الرأى الفقهى فى مشايخنا الكرام الأعضاء فى الحزب، والذين يرتقون فيه إلى

الذروة مع أن من أهم مبادئه عزل الدين عن الدولة، اقتداء بما حدث فى غير ديار الإسلام؟ هل هم مسؤولون عن مبادئ الحزب الذى هم من خدمه، مع أنه يحاصر الإسلام فى المسجد كمحاصرة المسيحية فى الكنيسة؟ وأن أصول التثقيف فى الحزب كما يقول فلاسفته ومنظروه هو (دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله)، وهذه كلمة تُسَرِّى عنى الهم، لأنها تطالبنى فقط بأن آكل وأنام وأتزوج النساء، لأن الساحة ليس فيها شىء، بعد الذى لقيصر والذى لله يعنى ليس للشعب شىء، هذا الفساد الذى يمثل سحابة سوداء من القمع والقتل والسلب والنهب هل تَعايُشُ مشايخنا مع رموزه لا يدخل فى باب الكذب على الله؟ وهل يصح أن يكون منهم المفتى، والإمام الأكبر، وشيخ الإسلام، وشيخ الأزهر، إلى آخر الألقاب التى يخدع بها الناس والتى يختارها الأمن مع أن يد الأمن ملوثة بدماء الأحرار، لا بل يقطر منها دم الأحرار، وأكتفى بهذا وعليك أنت أن تتابع، وإذا كان الزمخشرى يرى أن طبقة أبى الحسن الأشعرى لا تبعد عن الذين كذبوا على الله؛ وطبقة الذين قالوا لله يد ليست كأيدينا أيضا لا تبعد عن الذين كذبوا على الله فماذا كان يقول لو بعثه الله بيننا ورأى هؤلاء الكرام يخرجون من لجان الحزْب ويَلْبَسُون العمائم ويَجْلِسُون على كرسىٍّ مشيخة الأزهر الشريف، الذى صيَّره الأغبياء ظلا باهتا لكرسى البابوية، ومرة ثانية أدعك لتكْمِل، واعذرنى لأن يقينى أن مَنْ قرأ هذا الفكر لايطأطئ إلا لله، لأنه هو الفكر الصانع للأحرار، والصانع للكرام، الذين تعمر بهم الأرض، وليس الذين قبلوا أن يكونوا «ورقة توت» تستر عورة اللصوص المتجبرين.

قلت إن مقالة الزمخشرى فى تحديد الذين كذبوا على الله، وأنه لا يبعد أن يكون منهم من وصَفُوا الله سبحانه بما يجب أن ينزه عنه كخلق أفعال العباد وفيها القبيح وكرؤية الله وهى تستلزم التجسيم إلى آخره أصله مقالة القاضى، ورأى الرازى وهو لا يقل قدرة عقلية وسعة ثقافة عن عَلَمَىْ الاعتزال أن الأخذ بقول القاضى يلزمه تكفير الأمة لأنك لا ترى فرقة من فرق الأمة

إلا وقد حصل فيها اختلاف شديد فى صفات الله تعالى، انتهى كلام الرازى، وهو جيد جدا، ثم وضع الضابط الذى لا يجوز إغفاله حتى يُخرج المجتهدين من علمائنا من هذه التهـمة؛ وهو وَضْع ضابط للكذاب وهو أن الكذاب ليس من أخبـر خبـرا مخـالفا للواقع؛ لأنه قـد يخبر بـالخبر المخـالف للواقع وهو معتقده، ثم يتبين خـلافه، وإنما الكذاب هو من قصد إلى ذلك، فالذى يقول لم يأت زيد، وهو معتقد أنه لم يأت، ثم يظهـر أنه أتى، لا يقال فيه كذاب، وانما يقـال إذا قال لم يأت زيد وهو يعلم أنه أتى، وبناء على هـذا أن من قال إن الله سبحانه لم يخلق أفعال العباد أو أنه لن يرى يوم القيامة وهو معتقد أن هذا ما دَلَّ عليه كلام الله وكـلام رسوله، لا يوصف البتَّة بالكذب على الله، وإنما يوصف من عرف الحق، وأخـبر بخلافـه، وهذا يجعل كل علمـاء الأمة بمفـازة من هذه التهم، وهـذا ما أعـتقـده وأقطع بأن من قـال إن الله لا يريد القبـيح، إنما يقول عن اعتقـاد، وأن فهمه للآيـات التى تُحَدِّث عن الله يقطع عنده أنه سبحانه مُنَزَّه عن إرادة القـبيح، ومـن قال إن الله يـريد القبيح لأنه لا يقع فى ملكـه إلا ما يريـد يقـول هذا وهو قـاطع بأنه مـا تدل عليـه الآيات والأحاديث، ولهذا بقى باب الاجتهاد مفتوحا ولا آمن ولا تأمن أنت أن تقول فى الله شـيئـا لا يرضاه ربـنا ولولا أننا نبذل مـا يتطلبـه الاجتـهاد من الجـد والتَّقَصى لسكتت أقلامنا، ولسكتت أيضا ألسنتنا فى دروسنا لأنه ليس فينا من يطيق أن يقول فـى كلام الله كلمة لا يرضـاها ربنا، فضـلا عن أن يقول عن الله، وهذا شيء جيِّد جداً ولست أدرى كيف غـاب عن الذين كانوا يَتَقاذَفون التُّهم، وإن كان قـد بقى فينا من يفعل ذلك، وليس لهذا تفـسير عندى إلا تفسير واحد وهو تبشيع القول بغـير المذهب الذى هو عليه، فالمعتزلى جاد فى صرف الناس عن القول بأن الله خالق لأفعال العـباد، فأوقعه الحرص على صرف الناس عن هذا الذى يراه ضد التنزيه إلى مخاشنة القائلين به، هذا والله أعلم وغفر الله لنا ولهم، وألحقنا بهم كرامة نفس وقرة عين.

بقى شىء هو أن الذين وصفهم ربنا بأنهم كذبوا عليه، لا يصح وصفهم بأنهم كذبوا عليه سبحانه إلا إذا كانوا أخبروا عنه سبحانه بخلاف ما يعتقدون، فالذين قالوا عزير ابن الله كذبوا على الله، لأنهم أخبروا خبرا لا يطابق الواقع، وهم يعلمون أنه لا يطابق الواقع، وكذلك الذين قالوا ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [البقرة: ١٦٦]، والذين قالوا الله ثالث ثلاثة، والذين قالوا الملائكة بنات الله، والذين قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾، أو هؤلاء هم شفعاؤنا عند الله كل ذلك كذبوا على الله، لأنهم يعتقدون خلاف ما يخبرون به عن الله، وهذا يعنى أن الواحد الأحد الفرد الصمد، هو اعتقادهم، وأنهم يعرفونه سبحانه كما يعرفون أبناءهم، وقد وقفت عند هذا التشبيه، ولماذا قال ربنا كما يعرفون أبناءهم، ولم يقل مثلا كما يرون الشمس فى رائعة النهار، وكان الذى هديت إليه هو أننا نعرف أبناءنا من غير نظر، ولا استدلال، نعرفهم ببداهة الفطرة، تدلنا عليهم الفطرة، وهكذا الله سبحانه تدلنا عليه الفطرة التى فطرنا عليها، ولذلك ذهب البعض إلى أن أهل الفطرة يحاسبون على الشرك، ولا يحاسبون على الشرائع لأنه ليست لهم شريعة، لأن الفطرة تَهْدِى إلى التوحيد.

شىء آخر فى تجلية موقف من كذبوا على الله، وهو أن الله سبحانه ما أرسل رسولا إلا ومعه من الله برهان يدل دلالة حسية ظاهرة على أنه رسول الله، وأن الآيات التى يؤيد الله بها أنبياءه لايمكن أن تكون من هؤلاء الأنبياء ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٣٨] لأن الله سبحانه كلف بهذه الرسالات كل من يصح أن يكلف وهو الإنسان العاقل، وليس الإنسان الدارس، فعصى موسى عليه السلام ويده التى أخرجها بيضاء للناظرين آية يدركها كل من يدرك لا تحتاج إلى مستوى علمى معلن، وكذلك عيسى عليه السلام يراه الناس يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا، ورأى الناس ناقة صالح وهى تخرج من الصخرة ورأى الناس الماء وهو يخرج من بين أصابعه ﷺ، واستقى

الناس من هذا الماء ورَويت منه رواحلهم، وكل من كفر بنبيٍّ فهو مكذب لله، كل من كفروا بموسى عليه السلام كذبوا على الله، وكل من كفروا بعيسى وبمحمد ﷺ، وهذا يعنى أن كل الكافرين فى زمانِنا وبعد زماننا وقبل زماننا كذبوا على الله، لأنهم أنكروا ما رأوا وقالوا هذا سحر، أو افتراه أو أساطير، وهم يكذبون فى كل ذلك على الله لأنهم قالوا خلاف ما عرفوا وعلموا وجعلوا لله أندادا وهم يعلمون، وقال لهم ربنا فلا تجعلوا لله أندادا، وأنتم تعلمون، أى وأنتم تعلمون أنه سبحانه وتعالى وتقدس لاندّ له، وقد جاءت هذه الجملة الكريمة فى سورة البقرة بعد أمرين: الأول أنه سبحانه خلقنا لعبادته ﴿خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١] فأشار هذا إلى أن عبادة الله كانت فى أصل الفطرة، الأمر الثانى أنه سبحانه ذكرها بعد آيات له سبحانه لا تخفى على من له أدنى مستويات الإدراك ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، أمران فى كل حيّ يدعوان إلى الله ويقران بالله، الأول فى خلقه وفطرته، والثانى فى آيات الله من حوله - وهذا حسبنا فى بيان قوله تعالى: ﴿تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ﴾.

والمخاطب فى قوله تعالى: ﴿تَرَى﴾ كل من يتأتّى منه الخطاب بمن فى ذلك الذين كذبوا على الله سيرى كل راء منهم وجوههم مسْوَدّة.

وجملة ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ ليس المراد بها ما يدل عليه اللفظ الذى هو سواد الوجوه، وإنما المراد بها ما يدل عليه المعنى الذى هو وراء سواد الوجوه، وهذا طريق الكناية طريق دلالة المعنى على المعنى، وليس طريق دلالة اللفظ على المعنى، الذى هو طريق التصريح، ودلالة المعنى على المعنى لا تتأتى إلا بروابط ولوازم، قد تكون عُرفيَّة مثل دلالة كثرة الرماد على الكرم، وقد تكون عقلية مثل دلالة طول

النجاد على طول القامة إلى آخره، والذى هنا ليس طريق اللزوم فيه من هذه الأبواب وإنما هو من باب عرف القرآن الكريم، الذى قَرَن بين سواد الوجوه وأسوأ صور الكفر، من ناحية، وذوق سوء العذاب من ناحية أخرى كما فى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، وأسوأ أحوال الكفر هو الكفر بعد الإيمان والضلالة بعد الهدى، والفجور بعد البّر لأن النفس التى ذاقت حلاوة الإيمان وذاقت سكون الهُدى وذاقت حلاوة البر، ثم رجعت عن هذا كله نفس لا يجوز أن تكون موضع شفقة وموضع رحمة، فسواد الوجوه هنا سببه أنهم كذبوا على الله، والمراد الدلالة على سوء العذاب وأنهم يذوقون الجحيم، وهذه الجملة إذا راجعتها مرة ثانية وجدتها قائمة وحدها لأنها جاءت عقب الآية الفاصلة لآية أن تقول نفس، ثم إنها مع هذا لم تباشر المعنى الذى أرادته ولم تَسْتَحْوذ عليه وتضعه بين يدى القارئ كما هو الحال فى الأساليب قبلها، وإنما سلكت طريق الإشارة وَفتح باب المعنى، وترك القارئ يخطو الخطوة الباقية ليستحضر المعنى، وكل هذا ظاهر ومدلول عليه بالكلام، ولكن الذى ليس ظاهرا هو لماذا جىء بطريق الكتابة هنا؟ ولماذا عبر بسواد الوجوه عن عذاب الذين كذبوا على الله؟ وإنما سلك البيان هذا المسلك، ولم ينص على ذوق العذاب، واكتفى بسواد الوجوه وأيضا لم ينص على أن المراد بهم جماعة من الذين دعاهم الله ووسمهم بأنهم عباده، وقال لهم لا تقنطوا من رحمتى، إلى آخره لأن شدّة ليونة ونعومة البيان فى الآيات السابقة التى فتحت أبواب الرحمة والمغفرة لكل الذنوب جميعا لا تتحمل الانتقال المفاجئ إلى المخاشنة والوعيد، والتهديد بسواد الوجوه وذوق العذاب واكتفت بسواد الوجوه وسكتت عن ذوق العذاب، وذكرت الذين كذبوا بصيغة الجمع ولم تقل نفس كما قالت أن تقول نفس، وبعد هذه الجملة التى أومأت إلى العذاب ولم تنص عليه والتى أغمضت أصحاب الوجوة السود،

ولم تنص على أنهم من الذين ناداهم ربهم، جـاءت جملة ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ ونجد فراغا ظاهرا بين الجملتين الأولى تقول الكاذبون على الله سيراهم كل من يرى ووجوههم مـسودّة، وهذا معنى سكتت عنده الجملة وبعثت الـنفس لتدرك ما وراء ذلـك، وجملة ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ﴾ تحدث عن حقيقـة لا يجهلها جاهل ولا ينكرها منكر، وهى أن جهنم مثـوى للمتكبرين لأن هذا الاستفهام الداخل على النفى يفيد الإثبات ومعنى الجملة جهنم مثوى للمتكبرين، وهذا هو جوابها يعنى بعد السؤال يقال فى الجواب بلى فى جهنم أقامة ومثوى للمتكبرين، وبين هذين المعنيين معنى مسكوت عنه وهو أن الذين كذبوا على ربهـم فى هذا المثوى وأنهم متكبـرون ولكن بيان القـرآن لا يقول هذا، وإنما يقول كلاما يُوقفْ السامع على مسافة قريبة من هذا، ولا يصل إليه المعنى إلا إذا مدَّ نحـوه يَدَه حتى يكون هذا السامع أو هذا القـارئ له وجود، وله عمل، وله جهد، فى تحصـيل المعنى، وهذا من القيم البلاغية فى الكلام العالى.

وقد أشرت إلى أن هذه الجملة العالية تكرر نمطها فى السورة، فيها ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ وفيها ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ وفيها ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ﴾ وفيها ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ وكل جملة جاءت فاصلة كلام لحمـها ودَمها مَن لحمه ودمـه. وهذه الجملة أخت جملة ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ والفرق هو ذكـر الكافرين هناك والمتكبـرين هنا وقد ذكرت أن المتـكبرين هنا لمناسبة قوله فى الآية السابقة ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ﴾.

ويلاحظ أن جملة ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ﴾ هنا هى جملة ﴿كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ هناك فهى جملة مـشتركة بين الآيتين وجمـلة كذّب بالصدق هناك، تعنى أنه عرف الصـدق وكذّب به، وهذا يناسب الكافر، الذى يسـتر الحق

بعد ما علمه، والذى كذب بالصدق ستر الصدق بعد ما علمه، وهذه هى مناسبة ذكر الكافرين هناك، والمتكبرين هنا، وهذا ما بدا لى والله اعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الزمر: ٦١] هذه الآية هى الوجه المقابل للآية قبلها، وقد ظهر أن آية ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾، مستخرجة من آية ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا ﴾، وأن هذه الآية رد على النفس التى قالت ﴿ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ وأن قول النفس هذا القول جاء فى سياق تحذير الحق لعباده الذين أسْرَفَوا على أنفسهم لما دعاهم إلى سعة رحمته، وقال لهم أنيبوا وأسلموا، واتبعوا كراهة أن تقول نفس كذا إلى آخره، وهذا يعنى أن الكلام خارج بعضه من بعض، وأن الوجوه المُسْوَدَّة يوم القيامة والتى مثواها جهنم هم الذين رفضوا دعوة ربهم، وبهذا يظهر جلياً أن آية ﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ هى ثواب الذين استجابوا لربهم، وأنابوا وأسلموا واتبعوا أحسن ما أنزل إليهم، ولك أن تقول إن آية ويوم القيامة فاصلة للذين لم يستجيبوا، وأن آية وينجى الله الذين اتقوا فاصلة الذين استجابوا، وأننا الآن فى نهاية الفصل الذى بدأ بقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾.

فإن قلت لماذا قدّمت فاصلة الذين لم يستجيبوا على فاصلة الذين استجابوا؟ قلت لأن فاصلة الذين لم يستجيبوا جزء من التحذير الذى بدأ بقوله تعالى أن تقول نفس، وهو تحذير كُلُّهَ رحمة، لأن الله سبحانه يقول أنيبوا، وأسلموا، واتبعوا، قبل يوم الحسرة، أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت فى جنب الله، وهذا محض رحمة، ثم إن الذين استجابوا دلت الآية عليهم دلالة غير واضحة وضوح الدلالة على الذين لم يستجيبوا،

وموضع الدلالة هو قوله تعالى ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾، ولم تأت آيات الله قوما إلا وكان منهم مستجيب، وما أرسل ربنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله، هذا موقع هذه الآية فى سياقها.

وبناء هذه الآية وطريقة بيانها عن معناها يختلف عن بناء الآية السابقة وطريقة بيانها، وذلك لأن الآية السابقة لم تباشر المعنى ولم تستحوذ عليه ولم تدل عليه بطريق التصريح، الذى هو دلالة اللفظ على المعنى المراد، وإنما كَنَّتْ وذكرت الوجوه المسودَّة، وهذا وإن كان آكد فى الدلالة على العذاب الشديد، إلا أن فيه البعد عن إيحاش المخاطب وكفحه بهذا العذاب الشديد ولم تذكر مثلا إنكم إذا لم تستجيبوا فمصيركم النار، لأن المقام لا يتحمل هذه اللغة لأنه مقام رحمة ومقام رجاء، والآية أحب إلى رسول الله ﷺ من أنْ يكون له بها الدنيا وما فيها، فاكتفت بذكر الوجوه الـمُسْوَدَّة، وسكتت ثم استأنَفَتْ معنى يِقرُّه كل من له عقل وهو أن جهنم مثوى للمتكبرين، ولم تقل الآية هذا، وإنما وضَعَتْه فى سياق استفهام وقالت للقارئ ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ والجواب مقطوع به وهو بلى فى جهنم مثوى للمتكبرين، وهذا شأن هذا الأسلوب يعنى حين يقول ربنا أليس الله بكاف عبده يَدلّ هذا الأسلوب على أن كل من يقال له هذا يقول بلى الله كاف عبده وهكذا، ألست بربكم.. أليس الله بعزيز ذى انتقام، وهكذا نرى الآية التى هى فاصلة من لم يستجب أخبرت أن يوم القيامة ترى وجوها مسودة، ثم اعتمدت فى تأكيد هذا المعنى على ما استقر فى النفوس من اليقين بأن جهنم مثوى للمتكبرين.

وهذه الفاصلة بدأت بكلمة ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ﴾ وهذه الجملة من أكرم ما خاطب الله به عباده الصالحين، وتستنهض النفوس إلى التقوى استنهاضا لاتبقى النفس من جهدها جَهْدًا إلا بذلته فى تحصيل هذه الفضيلة التى هى التقوى وذلك لأنها أولا قالت ﴿وَيُنَجِّي﴾ فدلّت الكلمة على أن هناك

أهوالا لأن النجاة لا تكون إلا من هول، ومن كـرب، ومن كارثة، وهذا شىء غيـر قولنا ويدخل الذين آمنوا الجنـة، ويا بعد ما بين الكلامـين، ثم إن مجىء لفظ الجلالة فاعـلا لكلمة يُنَجِّى يشير إلى معـان منها أنه هول لا يُنَجِّى منه إلا الله، وأنه سبـحانه لا ينجى منه إلا أولياءه، ولفظ الجـلالة له هنا دلالة أخرى لأنه جامع للكمالات كلها وهو بمثابة قولنا وينجى الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن إلى آخر أسماء الله الحـسنى وهذا وإن دل من ناحية على أنها نجاة ليس فوقهـا نجاة، وأنها جامعـة للكمالات فهى من جهـة أخرى تدل على الكرامة، والإكرام، وأن هؤلاء كـرام على الله، وأن الله بجـلاله، وسلطانه، وملكوته، وكبريائه هو الذى يَمُدّ يده لإخـراج هؤلاء من الأهوال، والكرامة فى هذا عِدْلُ النجاة، وربما كانت أرْجح لأن سـتر الله لك نعمة وأجل منهـا أن يكون الستر بيد الله، وأن تكون عـند الله لك هذا القدر من الكرامة، والـتكريم، حتى إنه يمد يده ليسـترك بها، ثم إنه سـبحانه من إكـرامه ومنّه وفضله، يقـول لأوليائه الذين نجاهم بيده، إن هذه النجاة ليست مِنّةً لنا عليكم، وإنما نجيتكم «بمفازتكم» مع أن هذه المفازة مِنّه والإيمان مِنّة والتقوى مِنّه وكل مـا بنا فهو نعمة من الله، ولهذا كان هذا الجار والمجرور فيه كرامة أخرى، وتكريم آخر، وهو أنه سبحانه مَنَّ بالعمل الصالح، ومَن بالنجاة من الأهوال، ومَنَّ منة أخرى، وهى أن نجاتنا بعملنا، مع أنه سيـقول بعد هذه الآية ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ والمفازة شىء من الأشياء فهى خَلْقه، وكسْبُنَا لم يكن إلا بتوفيقه، وكلمة (بمفازة) لها هنا دلالات أخرى غـير الذى قُلْتُ وذلك لأنهـا مصدر فـاز يفوز فوزا، والمفـازة تزيد على دلالة المصـدر الدلالة على الزمـان، والمكان، فـالفـوز عـام فى الأزمنة كلهـا والأمكنة كلهـا، والمراد القـيامـة فـهم ناجون بمفـازتهم عند الموت، وناجـون بمفازتهم من أهوال القبـور، وأهوال البعث، وأهوال الموقف، وأهوال الصراط، وأهوال الحـسـاب، إلى آخـره ،كل هذا فـيه نجـاة وفـوز، والفـعل المضـارع ﴿وَيُنَجِّي﴾ يعنى أن النجـاة تتجـدد بتجـدد هذه الأحوال وهذه الأزمـان وهذه

الأمكنة، ثم إن الفوز المراد به هنا العمل الصالح، وسُمِّى فوزا للإشارة اللطيفة وأنك كلما زاولت عملا صالحا تكون قد ظفرت به، وفزت به، لأن الفوز معناه الظفر والسبق، وكأنه فاز بجائزة، فكلما جرى لسانك بذكر الله تكون قد ظفرت وفزت، بهذا الذكر، وهذا هو الذى فيه معنى من قوله تعالى ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣] ومن قوله سبحانه: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦] ثم إن فيه معنى آخر وهو ما يفهم من التعبير عن الطاعة بالفوز، يعنى أن الطاعة تفضى لا محالة إلى الفوز، وهذا هو معنى قوله جل شأنه: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ﴾ [النساء: ١٤٨].

وقوله تعالى: ﴿لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ﴾ لو أعربناها جملة مستأنفة كانت بمثابة تفسير للنجاة، هى والجملة المعطوفة عليها ﴿وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وهذا وجه من وجوه المعنى، ولو أعربناها حالا، لكان المعنى أن الله ينجيهم حالة كونهم لا يمسهم السوء، وكانت النجاة معنى وحال النجاة الذى هو نفى السوء معنى آخر، وهذا أظهر لأن النجاة أوسع، وأشمل من نفى مس السوء، ونفى الحزن، يعنى كان معنا ثلاثة أخبار، خبر هو الأصل، وهو ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ﴾ وخبر ملحق بهذا الخبر، وهو ﴿لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ﴾ وخبر ثالث هو جزء من الخبر الثانى الملحق بالخبر الأول وهو ﴿وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وهذه دلالة الجملة الحالية وليس الخبران الثانى والثالث مفسرين للخبر الأول وإنما هما وصف لحال وقوعه، وهذه الفروق الإعرابية الدقيقة تذهب حين يكون شارح البيان بمعزل عنها، أو حين يعزلها؛ ولم أجد أغرب من كلام رجل لقب يوما فى الزمن الردىء بشيخ النقاد، قال رحمة الله: إن النحو أفسد النقد، وهناك من قال آفة اللغة هذا النحو، وهذا يفسد عقل الجيل لولا أن الله سلم.

ثم إنك لو أردت أن تعود بعناصر هذه الآية إلى القرائن الثلاثة لوجدت

كلمة ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ تعود إلى قول النفس ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ ووجدت كلمة ﴿وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ تعود إلى قول النفس ﴿يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ لأن الحزن المنفى هو الحزن على ما فات، والخوف خوف مما هو آت. ولوجدت كلمة ﴿لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ﴾ راجعة إلى قولها ﴿حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، وهكذا ترى الخيوط يرجع بعضها إلى بعض إذا أزلت عنها غشاوة الإلف، واجتهدت فى أن تنفذ ببصيرتك إلى سرها، المطلوب فقط الاجتهاد والصبر.

وكلمة ﴿لا يَمَسُّهُمُ﴾ تنفى المسّ وهو أقل قدر من الإصابة فإذا كان لا يمسهم فمن باب أولى لا يصيبهم، وتلاحظ فرقا فى اللغة بين نفى مسّ السوء، ونفى الحزن عنهم فالأول جاء بغير طريق التقديم، وإنما بُنيت الجملة على الأصل وهو تقديم النفى على الفعل، وليس على الفاعل، وبُنيت الثانية على تقديم النفى على الفاعل المتقدم، على الخبر الفعلى، وهو يفيد الاختصاص قطعا عند عبد القاهر، وغالبا عند غيره ويفيد التأكيد بالإجماع، فهل نجد لها دلالة؟

وليس أمامى كلام لكرام علمائنا وليس إلا الاجتهاد، والله أعلم بمراده، وأقول أولا نلاحظ صيغة المضارع فى نفى مس السوء، ونفى الحزن وهذا يعنى أن هذا النفى ممتد فى مستقبل لا نهاية له، فالذين اتقوا لا يمسهم السوء أبداً وهم فى عالم الخلود، وكذلك لا يحزنون أبدا، والكلام عنهم فى الآخرة لأن جملة ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ معطوفة على جملة ﴿تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ وأصل الكلام ويوم القيامة نرى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة ويوم القيامة ينجى الله الذين اتقوا بمفارتهم، هذا.

ثم إن نفى مس السوء عنهم بهذه الصياغة يفيد معناه المحدد المنطوق به وهو نفى السوء عنهم من غير أن يتعرض لغيرهم بنفى ولا إثبات، فنفى مسّ

السوء ليس خاصا بهم، وذلك بخلاف ولا هم يحزنون، فإنه يفيد نفى الحزن عنهم وإثبات الحزن لغيرهم، لأن القصر يعنى إثبات ما نفى عنهم بطريق القصر إلى غيرهم، ويلاحظ أن التقوى المذكورة فى الآية حَصَّنَتْهُم من مَسّ العذاب، ومن الحزن وأنها درجة أعلى من الإيمان، لأن كثيرا من أهل الإيمان والعمل الصالح ليسوا بمنجاة من مس العذاب، ولا من الحزن، ما داموا لم يتقوا يعنى لم يجعلوا وقاية بينهم وبين ما لا يرضاه ربنا، فوقعوا فى محارم الله، وظلموا، وكذبوا، وأكلوا أموال الناس، وكانت لألسنتهم حصائد من الحصائد التى تكب الناس فى النار وقد يتحرك اللسان، بذكر الله فيفتح لصاحبه باب الرحمة، وقد يتحرك بالغيبة وأكل لحم أخيه ميتا، والله سبحانه وتعالى يحذّر ويقول ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣] والخطاب لنا وجزاء السوء سوءٌ ومن جوزى بالسوء قد مسّه السوء، ثم إن للعباد حقوقا، ثم إن درجات التقوى والعمل الصالح متفاوتة جدا، وليسوا جميعا سواء، فمس السوء متوقع لأهل الشهادتين، والحزن متوقع لأهل الشهادتين، والمهم أن الآية تقول إن التقوى فى أولى درجاتها، تُحصِّل لصاحبها هذين النفيين، وأن التفاوت فى حظوظ النجاة تفاوت شديد فمن الناس من يصيبه الحزن لا محالة، وهم كل من لم يدخل فى التقوى المذكورة فى الآية وليس كل غير المذكورين يمسهم العذاب، فقد ينجو المؤمن من مسّ العذاب ولا ينجو من الحزن، ولكن مَنْ هؤلاء الذين يحزنون ولا يمسهم العذاب؟ أقول لغة الآية تفيد ذلك، والقرآن يدلنا على أن من يعمل سوءا يجز به وأن من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره، والاعتقاد بأن من يلق الله لا يشرك به لا يحزن ولا يمسه عذاب، اعتقاد يجب أن يراجع نعم هو يدخل الجنة لا محالة بخبر الله ولكنه يستوفى عذابه فى النار فهذا مُضيِّع الزكاة وتحمى عليه فى النار وتكوى بها جباهه، وهذا مغتصب أرضا يأتى مطوقا بها وهذا مغتصب شاة ويأتى يحملها

ولها رغـاء إلى آخره، وأكـرر أن الصيـاغة اللغـوية تفيد أن كل مـن عداهم يحزن، وليس كل من عداهم يمسُّه الـسوء، وهذا يعنى أن الحزن أعم وأشمل من مسّ السوء، وأن من الناس من لا يمسُّه الســوء ولكنه يحزن، وتحديد هذه الأصناف ودرجات أعـمالهم ودرجات إخـلاصهم باب واسع جدا لا يَسْـتوى من آمن وعمل صالحا ولم يجاهد بنفسه وماله مع من فعل كل هذه القربات؛ ودرجات المتصدقين تخـتلف، ودرجات المجاهدين تختلف، هذا والله أعلم، والآية الكريمة تحدثت عن نجـاتهم من مسّ السوء، ومن الحزن، ولم تتـحدث عن نعيمهم فى الجنة، ومعلوم أن كل من زحزح عن النار أدخل الجنة فلماذا؟ والذى أراه - والله أعلم بأسـرار كلامـه - هو أن الآية الأسبق ذكـرت الذين اتقوا وأن لهم غرفا من فـوقها غرف مبنية تجرى من تحـتها الأنهار، وإنما أوثر هناك ذكر الـغرف، وأوثر هنا ذكر النجـاة لأن ذكر الغـرف هناك جاء مـقابلا لذكر ظلل النار التى من فوقهم ومن تحتهم وكـان السياق هناك ذكر الخاسرين الذين خسروا أنفـسهم وأهليهم يوم القيامة، وهم الذين لم يجـتنبوا الطاغوت أن يعبدوها، وقوبل هذا بذكر الذين اجتنـبوا الطاغوت وعبدوا الله مخلصين، والسيـاق هنا مخـتلف جدا لأنه سيـاق دعوة الذين أسـرفوا على أنفـسهم أن يدخلوا فى رحمة الله، الذى يغفر الذنوب جمـيعا، وأن عليهم أن يُنيبوا وأن يُسْلمـوا وأن يتبـعوا أحـسن ما أنزل إليـهم، حتى لا يقـولوا يا حسـرتنا ثم استدعى الكلام ذكر ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ ﴾ ثم ذكر جزاء من هذا وصفـه، ثم ذكرت آية النجاة من الحسـرة ومن الحزن ومن مسٍّ السـوء، وهذا هو مطلوب السيـاق، الذى أصله ﴿ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ وحَـسْبُ من أسْرف ثـم دُعِي وأجاب أن يكون بمعـزل عن مَسٍّ الســوء وعن الحزن، هذا والله أعلم، والرازى يـفسر التقـوى بمن اتقى الكذب على الله، لأن مجيئـها عقبها يفيد أن النجـاة من مسّ السوء والحزن لمن لم يكذب على الله، وأن المفارة التى أظْـفَرتهم بهذه النجـاة، هى أنهم لم يكذبوا على الله،

وأن من لقى الله ولم يكذب عليه، يدخل تحت هذا الوعد، وليس المراد من اتقى كل الكبائر، ويقول الرازى إن المتقى هو الآتى بالاتقاء والآتى بالاتقاء فى صورة واحدة، آت بمسمى الاتقاء، ثم يقول ودلّت الآية على أن المؤمنين لا ينالهم الخوفُ والرعبُ فى القيامة وتأكد هذا بقوله ﴿لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] انتهى كلامه، وهو يعنى أن من لقى الله وليس فى يديه إلا الإيمان به لا يحزن ولا يفزع ولا يمسه السوء ونسأل الله أن يكون المعنى كما قال الرازى، وأن الإيمان يحط عنا كل الخطايا، وأهل السنة ومنهم الأشاعرة يقولون إن الله سبحانه يغفر الكبيرة لمن تاب عنها ومعهم المعتزلة فى هذا؛ ويغفر الكبيرة لمن مات ولم يتب عنها وليس معهم المعتزلة فى هذا.

قوله تعالى ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣) قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٢- ٦٦].

هذا فصل من فصول معانِى السورة، يدور حول إخلاص العبادة لله، والمعبَّر عنه بقوله سبحانه ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾، والفصل السابق دعا فيه ربنا المسرفين على أنفسهم ألا يَقْنطواُ من رحمته وأن ينيبوا إليه، وأن يُسلموا وأن يتبعوا أحسن ما أنزل إليهم، وهذا يدعو إلى تخصيص الحق بالعبادة، ويأتى بعد هذا الفصل فصل آخر يمكن أن يعدً مدخلا ليوم القيامة، وبه تنتهى السورة. وتقسيم السورة إلى فصول عمل اجتهادى يساعدنا فى التحليل، ويمكن أن يُخَالف هذا التقسيم، لأنه مؤسّس على التسامح والتساهل، وإيراد التقسيمات فى سياق التحليل أمر مقبول، وترانا نتكلم عن المبانى والمعانى مع أنهما شىء واحد.

والقسم الأول من هذا الفصل يُرشّح الإنكار الذى فى قوله تعالى ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ﴾ وما كان لهذا الإنكار أن يكون له هذا الثراء لو لم تتقدم آيات ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ثم إن الذى بعد هذه الآية التى هى جذر المعنى، تأتى آية ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ وهذا تأكيد لمعنى الإنكار لأن عبادة الله والنهى عن الشرك به، أمره لصفوة خلقه، وتهديد أهل الشرك هو تهديد عام شامل لا يُسْتثنى منه واحد من خلقه، فلو أن صَفْوة الخلق وهم المرسلون، وصفوة المرسلين وهو محمد عليه السلام تَزَحَزح قدم أحدهم عن التوحيد الخالص لصار من الخاسرين، ثم تأتى الجملة التى هى فاصلة هذا الفصل وهى قوله سبحانه ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ وهى تأكيد لبيان وجوب إخلاص العبادة المعبَّر عنه بقوله «**أفَغَيْر الله تأمرونى أعبد**» ولو وضعت الجملتين متجاورتين لتأكد لك هذا المعنى، قل أفغير الله تأمرونى أعبد بل الله فاعبد، والأولى قَلْبُ هذا الفصل، والثانية فاصلة هذا الفصل.

هذه مراجعة عامة لهذه الآيات التى تسامحنا وجعلناها فَصْلا من فصول معانى السورة والآن نبدأ فى التحليل.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

هذه أربع كلمات الثلاث الأولى منها مؤتلفات، والرابعة مختلفة، والثلاث الأولى من تأليف المؤتلف، والرابعة من تأليف المختلف، والذى يُؤلف المختلف هو شريف النظم، وهذه لغة أبى بكر بن الطيب الباقلانى، وأريد أن أحْيِيَها؛ لأن الباقلانى كنز من كنوز العلم والبيان فى هذه الأمة، وقد غفل عنه الجيل الذى أرادوا له أن يتلهَّى بغير أعلامنا وبغير علومنا، وإذا كنت تخالف الباقلانى فى بعض ما ذهب إليه فى العقائد فاحذر أن تدير ظهرك إلى كنوزه،

وهذا من سخائم زماننا، ثم شاءت المقادير أن الذين أداروا ظهورهم لمن يخالفونهم من علماء العقائد، لوى النظامُ أعناقهم ووجّههم نحو قبْلة الفاتكان فَنَهَلُوا من نهر الثقافة المتفجر من تحت كرسى البابوية، واعرفْ هذا ودَعْه، واحذر أن تعيش أعْمها، واعلم أيضا أن لىَّ العنق هذا سُمّى «مكْرمة»، قلت إن الثلاثة الأولى مؤتلفات، لأن المعانى متداخلة جدا، فوكيل كل شىء هو الخالق لكل شىء، والخالق لكل شىء هو الذى فى يده مقاليد كل شىء، وكأن أصل المعنى واحد وهو عز الألوهية؛ ثم جاءت بعض التفاصيل فهو الخالق، وهو المدبّر وهو الذى بيده مفاتيح كنوز خلقه وتدبيره، ثم تأتى الجملة الرابعة لتشير إلى أن من يكفر بهذه الأدلة الظاهرة فهو الخاسر، وأن وصف الخاسر مقصور عليه فليس خاسرا فى الناس إلا هو، وهذه الجملة المستقلة والمختلفة عن الثلاثة قبلها ذهب بعض المفسرين إلى أنها راجعة إلى جملة ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ﴾ وأن ما بينهما اعتراض، وتحرير القول فى هذا سيأتى ولكننى ذكرته لأؤكد أنها مختلفة عما قبلها، وأن تأليفها مع اختلافها عما قبلها إنما كان بشريف النظم كما قال الباقلانى، وشريف النظم الذى لم يشرحه الباقلانى بكلمة واحدة مع شيوعه واستفاضته فى القرآن الكريم، وفى الحديث الشريف، وفى البيان كله، قد استهولته أول قراءتى له، ثم بان لى الآنَ أنه باب من أبواب العلم، لأنه يعنى بيان الوجه الذى صيّر هذا المختلف مؤتلفا، وهو هنا أن الآية السابقة قدَّمَت أدلّة الألوهية والوحدانية تقديما ظاهرا، لا يدفعه منكر، ثم رتبت على ذلك أن من كفر بهذه الأدلة وغطاها بعد ما علمها فهو الخاسر، الذى لاخاسر غيره، وهذا هو تمكن هذه الجملة فى موقعها، ورسوخها فى مقامها؛ ولَذْع مذاق هذه الجملة فى هذا الموقع أنها نصَّتْ على خلاف المتوقع وصَدَمَتْ القارئ الذى قَرَّت نفسه مع الأدلة الباهرة من خلق كل شىء وتدبير أمر كل شىء وامتلاك مفاتيح كل شىء، والنفس الآن مهيأة إلى أن تكون الفاصلة من مثل قولنا:

والذين يؤمنون بآيات الله أولئك هم العـالمون أو أولئك هم المفلحون، فـجاء بدل ذلك ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ وهذه أيضا نظرة عامة إلى هذه الجمل الأربع.

قوله تعالى ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ هذه الجملة الأم فى هذه الجمل الأربع لأن ما بعدها مؤسس عليـها، وهى جملة مستأنفة، صـالحة لأن تكون تأكيدا للوعيد والوعد الذى مضى فى جملة ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ . . ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ لأن يوم القيامة زمان الوعيد والوعـد، وأنه لا يُسـوِّدُ وَجْـه كل كاذب، ولا يُنـجِّى كل مَنِ اتقى إلا الذى خلق كل شىء، وهو على كل شىء وكـيل، وله مقاليد السـموات والأرض، وإذا نظرت إلى تلاحـم الكلام وتواصلـه من هذه الجهـة رأيت تلاحمـا ظاهرا وتواصـلا باهرا، ورأيت رأس هذا الفـصل ممسكا بفـاصلتى الفـصل السـابق إمساكا لافكاك فيه.

ثم إن آيات دلائل الألوهية تراها فى الكتاب العزيز تَقْـتَحِم كُلَّ سياق، وكل مقـام لأن كل سياق هو سـياقهـا، وكل مقام هو مـقامها، تـراها تتخلل آيات الأحكام، لأن هذه الدلائل تَـقْوى بـها آيات الأحـكام، لأنهـا أحكام من هذه براهينه، وتراها تتخلل أحوال القيامة لأن هذا الغيب فى حاجة إلى أن يتأكد فى النفـوس، ولا يؤكده شىء كـأن يكون خبـر الذى هذه دلائله، وهكذا قل فى القصص وأحوال الأمم الـسابقة، والأمر بالمعروف إلى آخـره. . وهذا معنى أن كل سياق هو سياقها وكل مقام هو مقامها، وأنها تراها فى الكتاب العزيز كأنها النجوم التى يُهْتدى بها، وتراها متفرقة فى المصحف كتفرق هذه النجوم فى أديم السمـاء، من حيث التـفت وجدتهـا، تهدى إليك أضـواء باهرة، ولو قلت إن أمثال هذه الآيات فى الكتاب العزيز هى عـمود الكتاب، لم تكن مخطئا، ولو قلت هى عمود كل كتب الله لم تكن مـخطئا، لأن كتب الله كلها ورسل الله

جميعـا، إنما كانت لأمر واحد هو إخلاص العبـادة لله رب العالمين، وما أرسل الله من رسول إلا لهذا، وما أنزل من كـتاب إلا لهذا، وبهذا وحده تجلّى الحق لعباده كل عباده، ولكنهم هم الغافلون كما قال كرامنا رحمهم الله.

ثم إن هذه الآية التى هى رأس هـذا الفصل تـأخذك وتأخـذ توابعـهـا من المعانى لترجع بك إلى أخواتها فى الـسورة، اللائى هن من معدنها، وهى من مـعـدنهن، نراها ترجع بـك إلى قـوله تعـالى فى الـسـورة ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَـاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ وقد ذكر الزمخشرى أنها اعترضت ما دخلت فيه، وطالت توابعـها حتى فَـصَلَت ﴿وَإِذَا ذُكِـرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْـمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ عن ما ترتب عليـه من قوله تعالى ﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ وترى الآية أيضا ترجع بك إلى قوله تعالى فى السورة ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَـقُولُنَّ اللَّهُ﴾ وترجع بك إلى ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّـهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ ثم ترجع بك ومـعهـا هذا كله إلى الآية التى هى أم كل هذه الآيات وهى قوله تعـالى فى أول السورة ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَـارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَـارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ ووراء هذه الآيات المتناثرة فى السورة، آيات أخرى هـى مِن معدنها، ولكنهـا ليست فى عمومـها لأنها من توابع الخلق مثل قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ﴾ وقـوله سبـحـانه ﴿اللَّهُ يَتَـوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَـوْتِهَـا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ وقوله سبحانه ﴿أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾.

وتختلف هذه الآية عن أخواتها فى الـسـورة بهذا القيد ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ فليس هذا القيد فى أخواتهـا، ثم إن هذا القيد لم يأت فى الكتاب العزيز مُـتعلّقا بخالق إلا فى هذه الآية، وفى آية غـافر ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَـالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَـأَنَّى

تُؤْفَكُونَ﴾ [غافر: ٦٢]، وهى الآية الثانية والستون فى غافر كما هى الثانية والستون فى الزمر، وغافر نزلت بعد الزمر، وهذا الذى لا أعرف له سراً لا يمكن أن يكون ليس وراءه سر، والذى يعنينى هنا أن هذا القيد هو المقصود فى الخبر، فليس المراد الإخبار عن الله جل وتقدس أنه خالق، ولكن المراد الإخبار بأنه خالق كل شىء كما تقول فلان يعطى الذهب ليس مرادك أنه يعطى، ولكن مرادك أنه يعطى الذهب، وهذا واضح ويؤكد هذا المعنى فى الآية الكريمة أن الجملة بعد هذه الجملة، بُنيت على هذا المتعلق، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾، وكأن الجملة الأولى مُوَطئة للجملة الثانية، وبناء هذه الجملة على لفظ الجلالة يضفى الكمال والجلال على كل ما تعلق بها، ثم إننا رأينا أمثال هذه الجملة تتكرر كثيرا فى الكتاب العزيز كما أشرنا، والذى أريده هو أن أصل الدلالة فيها واحد، ثم تراها تتشرب كثيرا من المعانى الجارية فيه فتختلف أطيافها وظلالها، ومذاقاتها، تبعًا لاختلاف ما تشربت فهى هنا تأتى بعد الوعيد للذين كذبوا على الله، والوعد للذين اتقوا ربهم، فيكون فيها معنى أن الله الخالق لكل شىء قادر على إنجاز ما وعد وأوْعد، وفى الآية التى هى الجذر فى أول السورة جاء بعد قوله تعالى ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝٤ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾، المقام هنا مقام تنزيه الحق أن يتخذ ولدا سبحانه، هو الله الواحد، ويأتى خلق السموات والأرض مقترنا بالحق لتأكيد هذا التوحيد، وهذا التنزية، وهذه ظلال أخرى، وأطياف أخرى، وهكذا كل ما تكرر فى الكتاب العزيز، يمتص من مقامه الذى تكرر فيه شيئًا غير الذى امتصه من غيره لأن الكلمة كأنها مزروعة فى تربة نقية تمدُّها هذه التربة بما فيها من صفاء وعطاء.

والآية من الأدلة التى يَسْتَدلُّ بها أهل السنة على أن أفعال العباد مخلوقة لله لأنها شىء والله خالق كل شىء، والمعتزلة يقولون إن أفعال العباد فيها قبيح والله منزه عن خلق القبيح وكلام طويل فى هذا له كتبه التى أشبعته؛ واهتمام هذه الدراسة بأسرار البيان أكثر، والذى يحسن أن أقوله هو أن المعتزلة نقضوا

هذا الدليل بقولهم إن كلمة (كل) تأتى فى الكلام أحيانا من غير أن توجب العموم كما فى قوله تعالى ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣]وقوله سبحانه ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥].

وجملة ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ بُنِيتْ على متعلق الجملة الأولى كما قلت، وهى معطوفة عليها، لأنها تفيد معنى جديدا وإن كان مأخوذا من تحت لفظ الجملة قبلها، ومؤسسا عليه تأسيسا ظاهرا، لأن الوكيل هو المدبِّر والمتصرِّف ولا ينازعه منازع وخالق كل شىء جدير بأن يكون مُصَرِّفًا ومُدَبِّرًا لكل ما خلق، ولا يجوز فى العقل أن يخلق سبحانه ثم يدبر هذا الخلق غيره جل وتقدس، وألاحظ أن الأدلة مؤسسة على حقائق لا ينكرها منكر لأن خلق الله لكل شىء حقيقة مقررة عند المؤمن والكافر ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾، ثم ترتب على هذا الأمر المُسَلَّم أمْر آخر هو مسلم ببديهة العقل، وهو تصرف الخالق فيما خلق، وهكذا تجد المعانى الجليلة العظيمة فى الكتاب العزيز مؤسَّسةً على ما علم من العقل ومن الفطرة بالضرورة وهذه هى عظمة هذا الدين الذى دخل ما دخل عليه الليل.

قوله سبحانه ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ المراد بالمقاليد المفاتيح قال الزمخشرى «ولا واحد لها من لفظها، وقيل مقليد ويقال إقليد وأقاليد والكلمة فارسية، فإن قلتَ ما للكتاب العربى المبين وللفارسية؟ قلتُ التعريب أحالها عربية» انتهى كلام الزمخشرى، والكلمة كناية عن الملك، والحفظ، والتدبير، والتصرف، كما يقال فلان ألقيت إليه مقاليد الحكم، أو مقاليد الأمر، يراد صار مالكا، حافظا مُدبّرا، هكذا قال الزمخشرى أيضا وتناقله المفسرون، وأشار الطاهر إلى أنها تحتمل أيضا أن تكون استعارة مكنية، وأن ما فى الأرض من كنوز وذخائر وما فى السماء مما لا يعلمه إلا الله كل ذلك مُشبّه بالكنوز التى فى الخزائن، وأن حاجة الناس إلى كل ذلك حاجة ماسَّة وحذف المشبه به ورمز له بشىء من لوازمه، وهى المقاليد، وهذا جيد لأن كل

ما يعيش به الناس، والحيـوان، والطير، والدواب، كل ذلك من خزائن الله، ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠٠] وتقديم الخبر الجار والمجرور مفيد للاختصاص، مع أن المعنى دال على الاختـصاص، لأنه لا يملك خزائن السـموات والأرض إلا الله سبحانه، وقدمت السموات على الأرض لأننا نعرف بعض خزائن الأرض ونعيش بهـا، ونتعم بها، ونَسْعَى فى الأرض ونمشى فى مناكبـها، ونأكل من رزقه، فكان تقديم السموات للإشارة إلى أن خزائن الله فى السموات أعظم، وأجل من خزائن الله فى الأرض، وأن مـا لا نعلم من خزائنه أجل مما نعلم، وهذا ما بدا لى والله أعلم.

وقد جاءت الجملة مفصولة، بخلاف ما قبلها، وقد ترى ما أرى وهو أن علاقات هذه الجمل الثلاث علاقات قريبة جدا، لأن من خلق كل شىء هو على كل شىء وكـيل، وكان هذا يوجب حذف الواو لأن جـملة وهو على كل شىء وكيل تؤكـد جملة خالق كـل شىء وإنما جىء بالواو لبيان أهمـية مضمون الجملة، وكأنه مـعنى جديد، كما جىء بالواو فى قوله تعالى﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ [الأحزاب: ٧] الأخذ الثانى هو الأخذ الأول، وفصل بينهما لأنـه لـمَّا وَصِف الميثاق بالغلظ كان كأنه مـيثاق آخر، وهكذا يقال هنـا إنه لما جىء بالواو، صار كـأن قوله ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ غيـر قوله ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ليلفت إلى أهمـية هذا المعنى وأنـه وإن كان مفهوما ضمنًا من الجـملة الأولى لم يكتف بهذا التضمين، ونص عليه لأنه إذا كان كل شىء لى ولك فى يد الله تدبّره وتحفظه فلا مناص لى ولك من أن نخصَّه بالعبادة، وجملة ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ هى بمثابة الثمرة

للجملتين السابقتين، لأنه إذا كان سبحانه خالق كل شيء ومالك كل شيء فلا محالة أن تكون بيده مقاليد كل شيء، هذه نتيجة متوقَّعة؛ ثم هي أيضا توكيد لأن الذي بيده المقاليد هو الوكيل، وهو المالك، الجمل الثلاثة المعنى معها يَنْمو ولكنك تدرك أن جزءا كبيرا من الذي في باطنها يؤكد بعضه بعضا، وكلمة مقاليد لم تذكر في الكتاب العزيز إلا في هذه الآية، وآية الشورى: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الشورى: ١٢] قد سُبقت في الشورى بأنه ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١١] وهذا يعني أن سياق ذكر مقاليد السموات والأرض وأنها في يد الله، ما جاء إلا مسبوقا بخلق السموات والأرض، وأن مقاليدهما لا تكونان إلا في يد خالقهما.

وهذه الجملة ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أخت جملة ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩] ولوحظ استعمال ﴿مَقَالِيدُ﴾ مع السموات والأرض مرتين واستعمال ﴿مَفَاتِحُ﴾ مع الغيب مرة واحدة، وكلمة ﴿مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾مجاز لأن الغيب شُبّه ببيت مغلق ومفاتحه في يد الله فلا يعلم الغيب إلا هو، وحذف المشبه به، ورمز له بالمفاتح التي هي لازم الدار المغلقة.

ولم تأت مفاتح الغيب إلا في هذه الجملة، وجاءت مفاتح بمعناها الحقيقي في قوله تعالى ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ﴾ [النور: ٦١] وجاءت في القصص ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦].

والسؤال لماذا استعملت المقاليد مع السموات والأرض، ولم تستعمل مع الغيب ولماذا استعملتُ المفاتح مع الغيب ولم تستعمل المقاليد؟ وهذا سؤال مشروع وليس عندي جوابه، إلا أن أقول إن خزائن السموات ليست تحت

أعيننا كبعض خزائن الأرض فناسبها ذكر المقاليد الغريبة التى ليست من عربيتنا بخلاف المفاتيح التى نألفها ونألف الخزائن التى تفتح بها، ثم إننا نعلم ونألف أن الغيب باب مغلق وأننا كما قال زهير.

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكننى عن علم ما فى غد عَمِ

فالمألوف أن الغيب مغلق وليس هناك غرابة فى ذلك، فلم يتحمَّل المعنى كلمة (مقاليد) ولم أقرأ مقاليد الغيب وإنما قرأت مفاتح الغيب، وتقول فى يد الله مفاتح خزائن رحمته وخزائن ملكه، ولم تألف أن تقول فى يد الله مقاليد خزائن رحمته، وخزائن ملكه، وهذه حدود علمى وهذه اللغة لا يحيط بها إلا نبىٌّ كما قال الشافعى، وإذا كان الذى قلته ليس هو كل السر فأرجو أن يفتح الله على غيرى ما يكشف هذا السر، الذى هو استعمال المقاليد مع السموات والأرض والمفاتح مع الغيب.

ذكر الزمخشرى بصيغة التمريض «أن عثمان بن عفان سأل رسول الله ﷺ عن تفسير قوله تعالى ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ فقال يا عثمان ما سألنى عنها أحد قبلك، تفسيرها: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، وبحمده، واستغفر الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، هو الأول والآخر، والظاهر، والباطن، بيده الخير، يحيى ويميت، وهو كل شىء قدير، قال الزمخشرى وتأويله على هذا أن هذه الكلمات يوحَّد بها ويُمَجَّد وهى مفاتيح خير السموات والأرض، من تكلم بها من المتقين أصابه» انتهى كلام الزمخشرى، يعنى أن عثمان رضى الله عنه أراد أن يعرف العمل الصالح أو الدعاء الصالح الذى يفتح الله به لصاحبه خزائن رحمته، وهذا يعنى أيضا أن تكون الجملة الشريفة ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ليست من دلائل الألوهية فحسب، وإنما هى مع ذلك تشير وتغرى عباده بطلب ورجاء ودعاء ما فى خزائنه، فرق بين دليل الألوهية فى قوله تعالى ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، وفى

قوله سبحانه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾، وفى قوله ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ الأول فيه سلطان القدرة وهيمنتها، والثانى فيه رجاء أن يدبر أمورنا على الوجه الذى فيه كرامة منه لنا، والثالث فيه الطمع والاستشراف والتعلق بالذى وراء هذه المقاليد، هذا والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

وقَعَتْ هذه الجملة بعد الأدلَّة الظاهرة، والبراهين القاطعة، على أنه لا إله إلا هو وحده سبحانه، وهذا يعنى أنه لا ينكر هذه الحقيقة الجليلة الظاهرة إلا من ينكر الحقائق الثابتة التى لا ينكرها من له عقل وقلب، وهذا هو سر الغضب الذى تراه فى الجملة، وآيات الله التى كفروا بها هى المذكورة فى الجمل الثلاث، الله خالق كل شىء.. وهو على كل شىء وكيل.. له مقاليد السموات والأرض، وهذا الغضب يؤكد معنى ظهورها، وأنها لا تلتبس وترى مظهر هذا الغضب فى قوله ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ وإضافة الآيات إلى لفظ الجلالة الجامع للكمالات المطلقة، والذى ترجع كمالاته إلى هذه الآيات فتكتسبُ الآيات من كماله ما يزيدها جلاء، ثم ترى الغضب أيضًا بإعادة اسم الإشارة ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ﴾ وضمير الفصل، وتعريف الطرفين المفيد قصر ماهية وحقيقة الخسران عليهم وكان يمكن أن يقال، والذين كفروا هم الخاسرون، ولكن إعادة الذين كفروا بلفظ اسم الإشارة الدال على البعيد، فيه معنى تمييزهم أكمل تمييز، قبل الإخبار عنهم بأنهم هم وحدهم الخاسرون، وقد ذكرت أن لهذه الجملة فى مذاقها لذعا آخر لأنها صدمت القارئ والسامع لأن الجمل الثلاث الأولى هيأت لسماع خبر المذعنين لهذه الأدلة، والموقنين بها، ولكن الآية خالفت وفاجأت وذكرت الكافرين لبيان أن من كفر كفر بعد ما جاءته آيات الله التى لا يؤمن أحد على آية أفضل منها، وقد ذكرت أن الزمخشرى يرجع بهذه الجملة إلى قوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ وأصل الكلام

وينجى الله الذين اتقوا والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون، والذى بينهما مـن قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ هذا اعتراض بين الكلامـين، هذا جيد، وطريق مسلوك وأستـحسنه جدا لأنه يعود بما تشـابه من مكونات السورة إلى نظائره، وقد اعترض الرازى على ذلك باعتراضات ضـعيفة، ثم اختار الرازى ارتباطها بالآيات التى جاءت فيهـا، قال الرازى «والأقرب عندى أن يقال إنه لما وصف الله تعالى نفسه، بالصفات الإلهية، والجـلالية، وهو كونه خالقا للأشياء كلها وكونه مالكا لمقاليد السموات والأرض بـأسرها، قال بعده والذين كفروا بهذه الآيات الظاهرة البـاهرة، أولئك هم الخـاسرون» انـتهى كـلام الرازى، وهذا الأقرب الذى رآه الرازى مذكور أيضا فى كلام الزمخشرى، قال رحمه الله لما ذكر مسألة عثمان لرسول الله ﷺ عن تـفسير المقاليد وأجاب رسول الله ﷺ بما أجاب وأثبتناه، قال الزمخـشرى «وتأويله على هذا أن هذه الكلمات يُوَحَّدُ بها ويمـجد وهى مفـاتيح خيـر السمـوات والأرض من تكلم بها من المـتقين أصـابه، والذين كـفروا بـآيات الله وكلمـات توحيـده وتمجـيـده أولئك هم الخاسـرون، انتهى كـلام الزمخـشرى، وتأمل الكلامين: قـال الرازى والذين كفروا بهذه الآيات الظاهرة الباهرة، وقال الزمخشرى والذين كفروا بآيات الله وكلمات توحيده وتمجيده، والكلامان من مشكاة واحدة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ هذه الآية بلاغتها فى موقعها ليست بأقل من بلاغتها فى بنائها ولكننا شغلنا ببلاغة البناء أكثر مما شغلنا ببلاغة الموقع، مع أنهم قالوا لكل مقام مقال، ولكل كلمة مع صاحبتها مقام، وهذا الأخير نَصٌّ فى بلاغة الموقع. لأن المراد بالكلمة ما هو أشمل من المفرد، قال ابن مالك «وكلمة بها كلام قـد يؤم» وبلاغة الموقع هنا هى مجيئها بعد الآيات الثلاث البينات: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، والكفر بعـد ذلك خسران مبين، وقـد نبهت

إلى بعض الغضب الذى فى جمله ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ والغضب الذى فى هذه الجملة زاد وتضاعف فى جملة ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ لأنهم لم يكتفوا بالكفر بالآيات التى لايؤمن أحد من البشر على آيات أجل منها، بل زادوا فجورا وفسوقا، وعتوا، واستهتارا، وأمروا الهادى المهدى صلوات الله وسلامه عليه بعبادة الطاغوت، وهذا ليس كفرا وإنما هو فجور فى الكفر واستخفاف واستهتار بالكتاب وبمن نزل عليه الكتاب؛ ولذلك كان موقع هذه الآية موقعًا يفرغ عليها من الغضب ما لا يحاط به، وتأمل أنت وتذوق أنت لأن الذى يصل إلى قلبك بتدبُّرك وتذوّقك لا يعدله شىء مما تقرؤه لغيرك، واسمع كلمة أبى الفتح بن جنى لما قال لقارئه كن خليل نفسك، وأبا عمر فكرك، وهذا من الكلام النفسى الذى لا يسمع طالب العلم من أستاذه أفضل منه.

واعلم أنه صلوات الله وسلامه عليه لم يؤمر أن يخاطب أحدا بقوله ﴿أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ إلا فى هذا الموقع، وقد ذكرت كلمة الجاهلون ويجهلون فى الكتاب العزيز، ولكنها لم تأت بهذه الصيغة إلا هنا، وتأمل صفة النداء وحذف حرف النداء الدال على المسارعة لقرع أسماعهم بهذا الخطاب، لما زادوا فى فجورهم، وزادوا فى عتوهم، وكانوا كقوم فرعون الذين تعهدهم الرجل الصادق المؤمن، وحدَّثهم برفق وحُبٍّ وإخلاص، وأخيرا دعوه هم إلى الشرك فقال ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ [غافر: ٤١، ٤٢].

قلت إن هذه الجملة فيها غضب شديد لأن موقعها دال على أن القوم بلغوا فى الفجور مبلغا تجاوز كل حد، وكما اختصت فى آخرها بما لم يتكرر فى الكتاب العزيز كذلك ابتدأت فى أولها بكلمة ﴿قُلْ﴾، وقد تكرر هذا كثيرا، والأصل أن كل ما فى الكتاب أُمِرَ عليه السلام ببلاغه سواء قيل له قل أو لم يقل له قل،

وهذا الأمر ملاحظ مع كل آية، وكأنه سبحانه قال له عليه السلام قل بسم الله الرحمن الرحيم وقُل الحمد لله رب العالمين، وقل ذلك الكتاب لاريب فيه وقل أقيموا الصلاة إلى آخره، وهذا ظاهر، وإنما جيء بهذا الأمر صريحا مع آيات كثيرة للإشارة إلى أن مقول القول عند الله بمكان؛ وأن المقام فى حاجة إلى التنبية لذلك، وقد ذكر بعض علمائنا أنها جاءت فاصلة بين عموم الخطاب فى الآيات السابقة إلى خصوص الخطاب فى هذه الآية لأنها خطاب لقريش، وكانوا قد طلبوا منه عليه السلام أن يلتمس آلهتهم، وهذا كلام جيد مع أن الانتقال من العموم إلى الخصوص لا يحتاج إلى كلمة قل، فلو قال عليه السلام أفغير الله تأمرونى أعبد لما كان هناك لبْس، ومع هذا فهذا تعليل جيد لأنه يشير إلى أن هذا الأمر قطع الكلام السابق واستأنف معنى جديدا، وهذا القطع وهذا الاستئناف وراءهما أن الكلام المستأنف له عند صاحب الكلام شأن أى شأن، وهذا ظاهر فى الآية، ولأهمية وغرابة المعنى فى الآية ذكر الشيخ الطاهر أن الآيات من قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾، إلى هذه الآية مقدمة وتمهيد، وأنها هى المقصود وأن هذه الدلائل العظام فى الآيات الثلاث جيء بها لتجلية الفسوق، والفجور، والتهوُّر، الذى كان من القوم لما طلبوا من الصادق المصدوق أن يعبد باطلهم.

وإنما أنكر عليه السلام هذا الباطل بأداة الاستفهام ولم ينكره بحرف الإنكار، يعنى لم يقل لهم لا ينبغى أن تأمرونى بذلك، لأنى لن أعبد إلا الله، وذلك ليرجعوا إلى أنفسهم وينظروا فى الآيات البينات، ويراجعوا ما هم عليه، فلعل نفوسهم ترتدع، ولعل لَفْتَة من لفتات الحق تكون باقية فى الفطرة فتعيى نفوسهم بما تُواجَه وترجع، وهذا الطريق فيه مزيد من التشنيع بهم، لأنه يقول لهم لو راجعتم لارتدعتم ولكنكم لا تراجعون، والفاء التى دخلت عليها الهمزة يصعب علىَّ أن أقدرّ ما عَطَفَتْ عليه ما بعدها لأنها رَتبت الشىء على الشىء لا يترتب عليه، وكأن الكلام أبَعْد ما سمعتم الآيات البينات الموجبة

للإيمان، ترتبون عليهـا ليس رفض الإيمان وإنما طلب الكفر من المؤيد بها؟ هذا الغاية التى ينتهى عندها فجور الفجرة، لأنه ليس بعدها موقع لفجور، وتقديم غير الله وتوجيـه الإنكار إليه، يشير إلى معنى هو أنه يفقـد أهلية ما تدعوننى إليـه، وليس بمثابة أن يُعْـبد، لأن الـذى يُعبَـدُ هو الذى خلق كل شىء، وهو على كل شىء وكيل، وهو الذى له مقاليد السموات والأرض، ومثله لا يجوز فى العقل أن يكون له شريك وليس غيـره أهلا لأن يُعبد وكلمة (ليس بمثابة أن يعبد) كلمة عبد القاهر الجرجانى، ورحم الله كل من غلبت مقالته ألسنتنا فلم نستطيع أن نجد ولا أن نقع على ما يسـد مَسَدَّها، وكلمة «غير» منصوبة بأعبد وتأمرونى اعتراض والشناعة كل الشناعة فى كلمة (تأمرنى) لأن الجرأة والفجور والاستكبار والاستهتار، كل ذلك فى أمرهم للمؤيد بالآيات الظاهرة الباهرة أن يعبد الطاغـوت، ولو قال أفغير الـله أعبد لكان كلاما آخـر، وكان أقرب إلى قوله تعالى قل أغـير الله أتخذ وليا؟ ليس غـير الله بمثابة أن يتخـذ وليا، وقد قال عبد القاهر هذه الكلمة الجليلة وهو يوازن بين دخول الإنكار على المفعول، ودخول الإنكار على الفعل الواقع على هذا المفعـول، فلو قلت أأتخذ غير الله وليا لكان إنكارا لاتخاذ غـير الله وليا، ولكن بُعْد الهمزة عن المفـعول يفقدها الدلالة على خصـوصية فى المفعول تُفْـقِدُه أهليَّه وقوع الفـعل عليه، وهذا من التدقيـق الجيد البالغ، ويلاحظ أن الإنكار فى قـوله تعالى أفغيـر الله تأمرونى أعبد إنكار توبيخى لأنهم طلبوا منـه ذلك والإنكار فى آية أغير الله أتخذ وليا إنكار تكذيبى يعنى لن يكون ذلك.

وهذه الآية بهـذا الشـأن وهذا الموقع وهذا المبنى واقـعـة فى قلب المعنى الأم للسورة لأن كل هذا الذى فيه ينفى نفيا قـاطعا أن يكون غير الواحد الأحد بمثابة أن يُعْبـد لأن العبادة يجب أن تكون خـالصة لله رب العالمين، ولاحظ أن عـبارة أيها الجاهلون خاصة بهذه الآية، والخصـوصية الخاصة بآية لها دلالة وهذه الدلالة أحيانا تظهر حتى لا تخفى وأحيانا تخفى حتى لا تظهر كما يقول البقاعى.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾.

قبل أن أشير إلى ما أدركه من سر موقع هذه الآية أنبه إلى مضمونها وأنها تخاطب رسول الله ﷺ وما خلق الله وما برأ أكرم على الله منه، وتقول له بلغة مؤكدة حاسمة إننا أوحينا إليك، وإلى النبيين، والمرسلين، من قبلك أن من أشرك منكم يحبط عمله، وهو من الخاسرين، ولابُدَّ أن نقف قليلا عند من أوحى الله إليهم بهذا التحذير، وهذا الوعيد، وهذا التهديد، وأنهم صلوات الله وسلامه عليهم صفوته من خلقه، وأنهم حملوا رسالاته إلى خلقه، وحملوا التوحيد، والشرع، والأمر، والنهى، وأنهم هم الذين أنزل الله عليهم كتبه؛ وأنهم هم دعاة التوحيد فى الأرض، وأن الأرض لم تعرف التوحيد إلا منهم، ولم يُعبد الله إلا بدعوتهم، وأنهم هم الذين جاءوا الناس بالحق، وهم الذين جاؤوا بالصدق، وصدقوا به، وأنهم أفضل من الملائكة.

هذه الجماعة التى هذا شأنها يقول لها ربُّنا بأسلوب القسم لئن أشركتم ليحبطن عملكم، وهو سبحانه يعلم أن ذلك لن يكون منهم، وإنما جاء على سبيل الفرض والتقدير كما يفرض المحال، والسؤال بعد هذا ما سر مجىء هذا فى هذا الموقع؟

وهذا يوجب علينا أن نراجع الآيات من أول هذا الفصل، وأوله دليل الوحدانية، وتأكيد هذا الدليل فى جمل ثلاث هى ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ وهو ﴿ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾.. ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾، وهذا يوجب ويفرض ويحتّم إخلاص العبادة لمن هذا شأنه؛ وَمَنْ شَذَّ وكفر بآيات الله فهو الخاسر، ثم يرتقى الحديث فى خبر من شذ منتقلا ممن كفر إلى من يدعو غيره إلى الكفر، يعنى ضل وأصرّ على أن يكون مُضلا؛ وسالكا فى الطريق المعاكس لدعوة الحق عباده إلى دار السلام، فإذا كان الرسول يدعو إلى الله فهذا الشاذ

أو الأشد شذوذا صار يدعو إلى الطاغوت، يعنى هو لم يعبدها فحسب وإنما هو بمثابة نبى من أنبياء الطاغوت، ثم يزداد الفجور فيدعو داعى الطاغوت رسول الله ﷺ إلى عبادة الطاغوت، ويبلغ الفساد مبلغه وتتسع رقعته وتَعم وحينئذ يبرز هذا الأصل الناهى عن الشرك والمُؤثم للشرك، وأن هذا فى أصل النبوات، وفى أقدمها وأعرقها، وفى أولها، وفى آخرها، وأنه الأصل الذى قامت عليه النبوات، وأنه لا مسامحة مع من تسامح فى شىء منه، ولو كان هذا الذى تسامح من الذين أنعم الله عليهم من النبيين، والذين اختارهم ربنا وجعل فيهم رسالاته، هذا شىء، والشىء الثانى هو أن هذه الآية هى التى يبتدئ بعدها مقطع السورة، لأننا بعد ذلك ستنتقل إلى أحوال الآخرة والنفخ فى الصور وما بعده، وهذه الآية المشتبكة مع ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ﴾ ومع ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾ وأنها قائمة بينهما تَنْفِى فجورهم فى دعوة خير الخلق إلى عبادة غير الحق وتؤكد عبادة الحق، هذه الآية مع ما قبلها وما بعدها راجعة إلى مَطْلَعِ السورة ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (٢) أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾وراجع قوله سبحانه ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ﴾ معناه لا أعبد إلا الله مخلصا له الدين، وقوله ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ معناه اعبد الله مخلصا له الدين وقوله: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾ معناه لا يعبد إلا الله مخلصا له الدين، وبهذا يلتقى آخر جزء من السورة متعلق بالتكليف بأول السورة المتعلق بالتكليف، وما بعد هذا فى أحوال الآخرة التى ينتهى عندها التكليف؛ وأول جزء فى السورة هو ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ وآخر جزء فى التكليف فى السورة ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ وهذا يقوى فى نفسى ما قلته من أن الزمر التى هى بوَّابة آل حم موضوعها إخلاص العبادة؛ ثم تأتى آل حم وكلها مناقشات للشُّبه وأباطيل أهل الباطل، ثم تأتى القتال لمواجهة ليس الكافرين فحسب، وإنما الذين كفروا وصدوا عن الحق الذى هو إخلاص العبادة الذى قامت عليه الزمر، ثم نفت عنه كل آل حم كل الشبه، هذا والله أعلم. وليس فى الكتاب العزيز ﴿لَئِنْ

﴿أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ إلا هذه الآية، وليس فيه أشرك مسندا إلى ضمير المخاطب الذى هو رسول الله ﷺ إلا فى هذه الآية، وورود هذا هنا خصوصا يرجح أن المطلوب من وراء نفى الشرك وهو إخلاص العبادة لله رب العالمين إذا لم يكن هو المعنى الأم فى السورة فهو من هذا المعنى الأم بمكان كبير.

والواو التى فى قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ يعطف ما بعدها على قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ﴾ وتؤكد هذا الإنكار بذكر علته، والمعنى كيف أعبد غير الله وأنا خاتم من أوحى الله إليهم، وهم صفوة خلقه، أن من أشرك منهم فهو من الخاسرين، وهذه هى اللحمة التى بين المعطوف والمعطوف عليه، وراجع لتدرك بذائقتك أنت أن إنكار أمرهم أن يَعْبُد غير الله هو امتثاله لأمر ربه باجتناب الشرك، ما ظهر منه وما بطن، ثم إن هذه اللام الداخلة على حرف التحقيق هى لام التوكيد، الأصل أن تدخل على الفعل ولكنها دخلت على كلمة «قد» لأن كلمة قد إذا دخلت على الفعل صارت جزءا منه، فدخلت اللام على جزء الفعل، وهذا يعنى أن كلمة (قد) تجعل التحقيق كأنه جزء الفعل، واللام مؤكدة لهذا التوكيد، وقلت ذلك لتدرك ما وراء ذلك من معنى له عند الحق جل شأنه مقام أى مقام، حتى أكده بهذه الصورة، وتذكر أنه سبحانه يعلم أن ذلك لن يكون، وأنه قال ذلك على سبيل الفرض، والتقدير، والمطلوب هو أن يُعَلِّم خلقه شناعة وبشاعة الشرك به وهو خالق كل شيء، وعلى كل شيء وكيل، وله مقاليد السموات والأرض، والمطلوب أيضا ربط هذا التحذير من الشرك بالأصل الذى أخبرنا ربنا أنه خلق الإنس والجن له وذلك فى قوله تعالى فى سورة الذاريات: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، والشرك مناقض لأصل الخليقة ومناقض لإخلاص العبادة لله، التى من أجلها خلق الخلق كله، لأن كل ما خلق فى الأرض هو مُسَخَّر للإنسان الذى خلقه الله لعبادته، المهم تجلية جريمة الشرك، وأنها مضادة لما خلق الله الناس له، كل هذا وغيره

لا يجوز أن يكون بعيدا عن الغرض الذى وراء توكيد التوكيد فى كلمة ﴿وَلَقَدْ﴾ ثم يكون لهذا أيضا بناء الفعل للمجهول والمتكلم هو الحق وكان يمكن أن يقال ولقد أَوْحَى إليك وإلى الذين من قبلك، ولكن الكلام جاء على ما جاء عليه للدلالة على أن المقصود الأصلى هو الوحى، الذى هو لئن أشركت ليحبطن عملك، وهذا إشارة ثانية إلى العناية بمضمون الجملة، التى قلت إنها لم تتكرر فى الكتاب العزيز، والمراد بالذين من قبلك جميع الأنبياء والرسل؛ من قصَّهم الله علينا ومن لم يَقْصُصْهم، لأنهم هم الذين حملوا رسالة التوحيد إلى خلقه، وكانت الخطوة الأولى هى تبرئتهم هم أنفسهم من الشرك، وتحذيرهم هم منه، وأنه لا مسامحة فيه، وفى هذا إشارة إلى أن من يبلغ عن الله أمرا أو نهيا لابد أن يكون هو أولا منقادا لهذا الأمر أو هذا النهى، ولا يجوز لمن يتهاون فى أمر من أمور مكارم الأخلاق أن يدعو الناس إلى مكارم الأخلاق، ولا يجوز لمن يدعو الناس إلى طهارة اليد أن تكون يده غير طاهرة، وأن الأصل فى دين الله أن ننقاد أولا ثم ندْعُو إلى ما انقادت قلوبنا إليه، وأن الله سبحانه ما أرسل رسولا يدعو إلى التوحيد، إلا وهو منقاد أتَمّ الانقياد؛ وأصْفاهُ وأنقاه إلى هذا التوحيد، ولو تأدبنا بهذا الأدب لتغيّرت أمور كثيرة، وقوله سبحانه ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ هذا بيان لما أوحى إليه وإلى الذين من قبله، وهذا البيان بعد الإبهام مما تتقرر به المعانى، لأن الإبهام الذى فى قوله تعالى «أوحى إليك» يجعل النفس تستشرف لمعرفة ما هو، فإذا جاء البيان صادف النفس وهى مستشرفة لمعرفته، فيقع منها موقعا حسنا، لأنه إخبار بالشىء بعد التهيئة له، وليس إخبارك بالشىء بعد التهيئة له كإخبارك به بغتة غفلا كما قال الأئمة رحمهم الله وهذا يضاف إلى توكيد المؤكد، وإلى البناء للمجهول لأنه دال على أن الكلام الذى جىء به على هذا الوجه له شأن أى شأن، وهو كذلك لأن النبوات كلها والكتب كلها ليس لها غاية فوق إخلاص العبادة للحى

الخالق الذى خلق كل شىء وهو على كل شىء وكيل، وله مقاليد السموات والأرض، وكلمة ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ اللام فيها لام القسم وقد دخل على إن الشرطية فاجتمع الشرط والقسم، والجواب جواب القسم، بدليل توكيده بنون التوكيد؛ واستغنى بجواب القسم عن جواب الشرط، فالذى وراء الشرط جواب محذوف يكرر معنى هذا الجواب المذكور وكل هذا توكيد وهو معروف، ولكننى أردت أن أشير إلى أن الحق جل وتقدس أقسم وأكد هذه الحقيقة، وهى أن الشرك يُبطل ويَهْدِر كل عمل يمكن أن يكون ليس من الإنسان العادى وإنما يبطل ويهدر الأعمال العظيمة التى يقوم بها عظام الناس وكرام الناس وهم النبيون صلوات الله وسلامه عليهم، وكل محاولاتى هى فتح أبواب المعنى، وعليك أن تتمَّ لأن المعنى عميق جدا وهو قضية الوجود الإنسانى، وجملة ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ معطوفة على جملة ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ وكان فى الجملة الأولى ما يكفى لأنه ليس بعد إبطال عمل أكرم الناس شىء، وقد جعل الله سبحانه إحباط العمل عقابا للذين كرهوا ما أنزل الله، وذلك فى قوله تعالى فى سورة القتال ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٩]، وهذه الجملة المعطوفة تعنى أن عقاب النبيين المكرمين على فرض أن يكون منهم الشرك أشد من عقاب الذين كرهوا ما أنزل الله وهم شرّ البرية.

وكلمة ﴿مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ التى تجعل هؤلاء الكرام من الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة تشير مع ذلك إلى شىء، هو أن ثمة تجارة رابحة مع الله سبحانه وأن رأس مال الإنسان فيها هو الإيمان كما قال تعالى فى سورة الصف ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الصف: ١٠، ١١] وأن الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وأن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم، وكلمة

الخاسر أو الخسران أو الخاسرين لابد أن تعترف بهذا كله ليتجلى لنا فقه معناها، والواو التى فى أول قوله تعالى: ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾تفيد أن هذه الجملة فيها معنى جديدا ليس هو إحباط العمل، وهذا المعنى الجديد فيما أرى هو عقاب الشرك، فالشرك له عقابان الأول إحباط العمل، فلا يُنْتَفعُ به، والثانى العقوبة على الشرك وقد قال الزمخشرى فإن قلت ما معنى لتكوننّ من الخاسرين؟ قلت يحتمل أن تكون ولتكونن من الخاسرين بسبب حبوط العمل، ويحتمل ولتكونن فى الآخرة من جملة الخاسرين الذين خسروا أنفسهم إن مت على الردة، وهذا يعنى أن الخسران عقوبة الرِّدَّة وهذا غير إحباط العمل.

ومن الواجب أن نراقب جملة جواب الشرط المحذوفة والتى هى وراء جملة جواب القسم، وأن هناك كلاما غير ملفوظ يجرى فى النفس، وهو إن أشركت حبط عملك، وكنت من الخاسرين، وهذه الجملة المعطوفة على الجواب صالحة لأن تكون جوابا، ولو قلت إن أشركْت كُنْتَ من الخاسرين لكان كلاما صحيحا، أو هذا ليس هو معنى الآية بتمامه، لأن معنى الآية فيه إحباط العمل، وفيه الكون مع الخاسرين، وهذا يعنى أن الجملة الثانية متوقفة على الأولى والكلام على كلامين، والأصل إن أشركت حبط عملك، وإن حبط عملك كنت مع الخاسرين، وكل هذه الاحتمالات وراء لفظ الآية الشريفة، وهذا هو المفهوم من قول الزمخشرى «ولتكونن من الخاسرين بسبب حبوط العمل» يعنى أن الزمخشرى جعل جملة الجواب الأولى سببا فى وجود جملة الجواب الثانية، وهو هنا ينظر إلى قول عبد القاهر إذا جاء فلان سلمتُ عليه وخرجت، حيث جعل المتكلم الجملة الثانية مرتبة على جملة الجواب الأولى، والمعنى إذا جاء فلان سلمت عليه، وإذا سلمت عليه خرجت، وفى الآية حذف آخر، وهو أن الحق جل وتقدَّس قال للمصطفى صلوات الله وسلامه عليه ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ ثم ذكَّره وحيه إليه وسكت عن وحيه للذين من قبله لأن هذا الذى أوحاه الله إليه هو الذى

أوحاه إلى الذين من قبله، وكأنه سبحانه قال: لئن أشركت ولئن أشركوا ليحبطن عملك وعملهم، ولتكونن من الخاسرين وليكونن هم أيضا من الخاسرين، فحذف هذا اكتفاء بخطابه ﷺ لأنه هو عليه السلام الذى فى المشهد الواقع، وأمته هى التى فى المشهد بخلاف النبيين صلوات الله وسلامه عليهم فهم أمة قد خلت، ثم إن رسالته عليه السلام نسخت كل الرسالات قبله، وهيمنت على كل الرسالات قبله، وكان كتابه عليه السلام مُصَدِّقًا لما بين يديه من الكتب ومهيمنا عليها، هذا كلامى، وقد ذكر العلماء كلاما آخر هو ما ذكره الزمخشرى قال رضى الله عنه (فإن قلت الموحى إليهم جماعة فكيف قال لئن أشركت على التوحيد؟ قلت معناه أوحى إليك لئن أشركت ليحبطن عملك، وإلى الذين من قبلك مثله، أو أوحى إليك وإلى كل واحد منهم لئن أشركت كما تقول كسانا حلة أى كل واحد منا) انتهى كلامه، وعلى التقدير الثانى يكون الخطاب فى قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ليس لرسول الله ﷺ كما هو الظاهر وإنما يكون لكل واحد من النبيين الذين أوحى الله إليهم هذا الوحى، ويكون الكلام مَحْكِيّاً بصيغته التى خاطب الله بها كل واحد منهم كما قال الزمخشرى وكل ذلك صحيح واللفظ يحتمله.

قلت إن الله سبحانه وتعالى يعلم أن المصطفين الأخيار مبرؤون من الشرك، وأنهم تقلبوا فى الأصلاب الطاهرة، وأن هذا الكلام بنى على الفرض والتقدير كما تفرض المحالات، وأن المقصود من هذا الفرض والتقدير هو بيان شناعة الشرك، حتى إنه لو وقع من صفوة خلقه لكانوا من الخاسرين، لأن الشرك لا مسامحة فيه، وأقول الآن شيئين الأول هو أنه لابد لنا أن نضع هذه الآية بجوار قوله تعالى فى الفصل السابق ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ وقد ذكرنا هناك أن التوكيد فى قوله تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾ لم يأت إلا هذه

الآية، ومعنى هذا أن الله يغفر ذنب الشرك، وهذا حق ولكن بشرط أن يتحقق قوله ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ فشرط مغفرة ذنب الشرك هو الرجوع عنه لأن الله لا يغفر أن يشرك به، ولأن الشرك لو كان من صفوة الصفوة لأحبط الله أعمالهم، ولكانوا من الخاسرين، هذا شيء والشيء الثانى هو أن الله سبحانه يعلم أن أنبياءه مطهَّرون من الشرك كما قلت وأن هذا الفرض والتقدير لبيان بشاعة الشرك، كما قلت وقال علماؤنا وأضيف هنا معنى قلته فى تفسير سورة الأحزاب فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الأحزاب: ١] والله سبحانه وتعالى يعلم أن رسوله الكريم متق، ولن يكون إلا كذلك، ويعلم أنه لا يطيع الكافرين، والمنافقين، وأنه لن يكون إلا كذلك، وذكرت ما قاله العلماء وأن المراد بالأمر بالتقوى الاستمرار على هذا الفعل الواقع كما فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾» أى استمروا على إيمانكم، أضفت إلى هذا وجها لا أزال مقتنعا به وهو تعميق اليقين بالفرق بين الألوهية، والنبوة، وأن أنبياء الله خلق من خلقه، يتوجه إليهم الأمر والنهى كما يتوجه إلى كل خلقه، وأنهم بشر أوحى إليهم، وأضفت إلى هذا نظائر كثيرة فى الكتاب مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤، ٤٦] ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الاسراء: ٧٤، ٧٥] وكان لهذا وغيره من الأثر فى صفاء عقيدة التوحيد ولم يَطف بخيال أقل المسلمين ثقافة أن لمحمد صلوات الله وسلامه عليه شيئًا من الأمر فضلا عن أن يقول كما قال اليهود عزير ابن الله أو كما قال النصارى المسيح ابن الله، هذا والله أعلم، قوله سبحانه ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ تكاد تكون هذه الآية نهاية السورة من جهة أنها تحدِّث

عن التكاليف لأن ما بعدها بداية القيامة، ونهاية التكاليف، وهذه الآية هى آية المطلع ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ والفاء التى هناك وهى هناك تُرَتِّبُ الأمر بالعبادة لله وحده على إنزال الكتاب، وهى هنا ترتب الأمر بعبادة الله وحده على ما يشبه الكتاب، وهو دليل الألوهية المتمثل فى قوله تعالى: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، وهذا يشبه الكتاب لأن الكتاب برهان النبوة وهذا برهان الإلهية المستحقة للعبادة، والكتاب العزيز يقرن الحجة بالكتاب بالحجة بخلق السموات والأرض، وقد جاء بعد آية المطلع «**خلق السموات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل**»، وهذه حقائق مسلمة والكتاب حقيقة مسلّمة، ومن يروغ عن إخلاص العبادة لله مع هذه الحقائق المسلمة فلا يلومنَّ إلا نفسه، وهكذا ترى العَجزَ يُرَدُّ على الصدر، والصدر هو إخلاص العبادة لله والعجز كذلك، وتكرار الفاء وتكرار كلمة اعبد، كل ذلك يؤذن بأن محض سورة الزمر هو إخلاص العبادة لله رب العالمين ويلاحظ أن لفظ الجلالة جاء مؤخرا فى آية المطلع ﴿أَعْبُدَ اللَّهَ﴾ وجاء مقدما فى آية المقطع ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾ ولما جاء مؤخرا هناك دلت الآية على الاختصاص بقوله سبحانه ﴿مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ﴾ واكتفت هنا بالتقديم الدال على الاختصاص، هذا.

ثم إن كلمة ﴿بَلِ﴾ معناها الإضراب الإبطالى لأنها تبطل الشرك الذى جاء على سبيل الفرض والتقدير، ونسب إلى صفوة خلقه سبحانه وهم رسله، وتبطل أيضا ما أبطله الإنكار فى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾، وتؤكد الأمر بعبادة الله وحده ولفظ الجلالة المقدم مفعول به لفعل محذوف دل عليه الفعل المذكور ﴿فَاعْبُدْ﴾ وما بعد الفاء لا يعمل فيما قبلها وتقدير الكلام بل الله اعبد فاعبد، ومفعول اعبد المذكور محذوف لدلالة مفعول المحذوف عليه يعنى عندنا فعل محذوف وله مفعول مذكور وفعل

مذكور وله مفعول محذوف، وهذا من دقيق الكلام، وقد أفاد التوكيد بالتكرار وأفاد الاختصار بالحذف وهذه الفاء هي التي اقتضت فعلا محذوفا ومفعولا محذوفا وجملة ﴿وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ معطوفة على ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾ وهذا الأمر بالشكر يفيد هنا أن أجل نعمة يَمنُّ الله بها على الإنسان هي إخلاص العبادة، وهي الموجبة للشكر وشكر نعمة الإخلاص شكر له مذاق آخر، لأن من رزق الإخلاص في العبادة فقد رزق الإخلاص في الشكر لأن الشكر عبادة، ومن رزق الإخلاص في الشكر فقد ذاق حلاوة الإيمان.

وهذا الذي قلته في تحليل بناء جملة ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ليس من الصعب وإنما الصعب الذي أحاوله ولا يناله قلمي هو سر موقع الجملة في هذا الموقع، لأن سياقها القريب يبدأ من قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ ثم يأتي خبر يقول إن الذين كفروا بهذه الآيات التي هي آيات الله هم الخاسرون، ثم يأتي حديث عن شناعة من أحطِّ شناعاتهم وهي أمره عليه السلام بعبادة غير الله، ثم تأتي آية مفردة في القرآن كله وهي من أشد آيات الكتاب التي تحذر عن الشرك وتنتقل إلى خطاب كل النبيين، وكأنها تعيدهم إلى الحياة، وتقول لهم من أشرك منكم يُحْبَطُ عمله، ويكن من الخاسرين، ثم تأتي الآية التي معنا ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾ وقد قلت ما قلت ولا يزال عندي إحساس بأن آية ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ لها سر غائب لأن آية ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ هي البرهان الموجب لقوله تعالى ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾ وذكر الذين كفروا إشارة إلى أن البرهان معها كان ساطعا فلن يهتدي به الكل؛ ثم إن الذين كفروا زادوا مع علو البرهان عُلواً في الباطل، وأمَرُوا الخلق بعبادة غير الله، وخير الخلق هذا «قيل له ما قيل لكل الأنبياء قبله» ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾، ثم قيل له﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾ وأكرر أن سر أخذ هذه الآيات بحجز بعض لايزال أكثره مخبوءا.

وهذه الآيات الثلاث ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ﴾ ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾، ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾، المخاطب فيها رسول الله ﷺ، ونحن من ورائه لأن معانى هذه الآيات ليس مما اختص به ﷺ، والقاعدة أن كل ما خوطب به صلوات الله وسلامه عليه فنحن مقصودون بهذا الخطاب، إلا ما كان خاصا به صلوات الله وسلامه عليه، وأرى هذه الآيات الثلاث لها حضور قوى جداً فى زماننا، وإن كانت الصورة دخلها تعديل، فلم يأمرنا أحد بعبادة غير الله وإنما بقى فينا الكتاب والسنة، وأوَّل المؤلون واستخرجوا من الكتاب بتأويلاتهم ما ليس فى الكتاب، وقالوا للناس هذا هو الدين الذى أنزله الله على محمد صلوات الله وسلامه عليه وهذا هو معنى﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾ وتَابْع القراءة الجديدة للكتاب والسنة، وتجديد الخطاب الدينى وسنجد أشياء قالوا هى من الدين وليست من الدين، وهذا باب من أبواب الفساد وأهل الله يواجهون ذلك بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ ويذكرون خطر انحراف القدم عن طريق التوحيد قيد نملة، ويقولون ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ ثم تنهض عزائمهم ويقولون ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾، لأن الله نجاك من حبائل شياطين هذا العصر وشياطين التنوير وشياطين التحديث وشياطين النهضة القائمة على أصول الحضارة الحديثة لأنها مسيحية اللحم والدم، وليس من الغريب أن يكون من خارج بلادنا من يريد أن يُفْسد عقائدنا، كما أنه ليس من الغريب أن يكون من داخل بلادنا من يحاول ذلك، لأننا لابد أن نتوقع أن أحفاد مسيلمة لا يزالون فينا، وأن أحفاد ابن الراوندى لا يزالون فينا، ولكن الغريب أن يكون صوت هؤلاء هو الأعلى، وأن ينحاز النظام السياسى لهم، وأن يمنحهم جوائز الفكر والتفوق.

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

هذه الآية بداية أحوال القيامة التى خُتِمَتْ بها السورة فهى بداية النهاية وهى مرتبطة بالفصل الذى مضى، لأن آيات الله الموجبة لعبادته وحده وهى قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ تَوّلد منها ذكر الذين كفروا بها، وذكر الذين فجروا، وأمروه عليه السلام أن يعبد غير الله، وهذه الآية تبين لنا أن كفرهم، وفجورهم، راجع إلى أنهم تنقصهم معرفة كُنْه جلاله سبحانه وكنه عظمته، وقدرته.

وأفهم من هذا أن معرفة الله وتقدير الله حق قدره هى العاصم للنفس الإنسانية وهى التى تكف فجورها، وتكبح جموحها، وأن حظ النفس من هذه المعرفة هو حظها من مكارم الأخلاق، وهو حظها من عمل الصالحات، وهو حظها من ترك المنكرات، لأن هذه المعرفة هى التى تُذِيعُ الأمن فى الناس، وتنشر العدل، وتَنْفِى الظلم، وتنفى المنكر، وهى الأصل الذى يهدم فَرْعَنَة النفس، ولذلك قال موسى عليه السلام لفرعون ﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ [النازعات: ١٩]، وهذا أصل من أصول التربية؛ وأن من عرف الله أوْجدت هذه المعرفة فى نفسه الخَشْية من الله، ومن يخشى الله لا يعتدى على محارمه، ودماء الناس من محارم الله، وأعراض الناس من محارم الله، وحقوق الناس من محارم الله، وهذه الكلمة ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ كلمة راجحة جدا، ولو شاعت فى الناس لأنْهَتْ وحدها مشاكل الناس، وعذاب الناس، والتوحش الذى يأكل فيه القوى الضعيف، ولن ترى هذا الذى تراه من قتل، وقمع، وظلم، وبطش، وتجبُّر، وأكتفى بهذا وأَقول إن الرازى قال إن هذه الجملة جاءت فى ثلاث سور فى القرآن الكريم فى سورة الأنعام وفى سورة الحج وفى سورة الزمر، ومعناها واحد فى الثلاثة مواضع ولكنها لها فى كل موضع طابع، لأنها جاءت فى الأنعام فى سياق ذكر النَّبيين الذين استتبع ذكرَهم ذكر إبراهيم عليه السلام فى آية ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ﴾ [الأنعام: ٨٣] وهى من الآيات التى ذكر فيها كثير من الأنبياء الذين هم من ذرية إبراهيم عليه السلام وفى النهاية قال تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ (٩٠)

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩٠، ٩١] وقوله سبحانه ﴿إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ هو قدر الله الذى جهلوه، ومعنى هذا أن من أنكر النبوات فقد أنقص قدر الله سبحانه، لأن من كُنْه جلاله وعظيم قدره، أن يتعهد من خلقهم من الناس برسله وأنبيائه وكتبه وشرائعه، وأمره، ونهيه، وأن من تقدير قدر ربنا أن نقدر أمْرَه، ونهيه، وشرعه، وكتبه، ورسله، وهذا يتْبَعُه أن من يهملون شرعه جل وتقدس إنما يهملونه لأنهم لم يقدروا الله حق قدره، وهكذا نجد الآية تربط شرائع السماء بقدر الذى شرعها سبحانه، يعظمها مِنْ خلقه مَنْ يُعظّمُه، وهذا معنى يجب أن يشاع فى الناس حتى يعلموا أنه بمقدار ما فى الصدور من قدر لله يكون ما فى الأرض من قدر شرائع الله، وآية الأنعام واقعة أحسن موقع لأنها جاءت بعد ذكر ثمانية عشر نبيا وقال المخذولون ما أنزل الله على بشر من شىء.

والذى فى سورة الحج له ظل آخر هو أقرب إلى الظل واللون الذى فى الزمر لأنها جاءت بعد بيان المثل العظيم، الذى ذكره ربنا فى آخر السورة للذين يدعونهم من دون الله وأنهم لم يخلقوا ذبابا، قال سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤] وهذه آية جليلة نَسْمَع فيها ربنا وهو ينادى الناس، ويقول يا أيها الناس، ويضرب المثل، ويطلب منهم أن يستمعوا له ثم يذكر الذباب، وأن هذه الآلهه لو اجتمعت لتخلق الذباب ما استطاعت، ثم يقول ودعكم من الخلق فلو أن الذباب سلبها شيئا ما استنقذته، ترى الدليل القاطع تشوبه سخرية سخر الله بها منهم، وهذا بخلاف الأحقاف ﴿أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ [الأحقاف: ٤] الدليل هنا له شِقّان خلق فى الأرض وشرك فى

السموات، وهناله شقان خلق الذباب، واستخلاص ما سلبه الذباب؛ والمهم أن يأتى بعد ذلك مـا قدروا الله حق قدره، يعنى لم يعرفـوا أنه خالق كل شىء، وعلى شىء وكيل، له مقاليـد السموات والأرض، وهذا بعض قدره الذى فى الزمر ويَبْقى من قـدره ما لا يحاط به، فهو يحـيى ويميت وهو الرازق الباسط القادر القاهر الملك القدوس السـلام المؤمن، ولذلك جاء بعدها فى الحج ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَـوِيٌّ عَـزِيزٌ﴾ وهذا القـوى العـزيز فى الحج هو الذى فى الزمـر الأرض جميعـا قبضته والسمـوات مطويات بيمينه، وكلمة (قبضـة) جاءت فى القرآن مرتين واحدة هنا والثانية فـى سورة طه على لسان السامرى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ [طه: ٩٥، ٩٦]، ولم تأت فى القرآن مـضافة إلى الحق جل وعـلا إلا فى هذه الآية، وهى من المتشـابه الذى اختلـف فيـه كلام علماء العقائد رضى الله عنـهم أجمعين، لأنهم جميعا اجتـهدوا قاصدين إلى معرفة مراد الحق جل وتقدّس، ومن أصاب فله أجران ومن أخطأ فله أجر ومن سكت لم يخطئ ولم يصب ولا أجر له.

وقبل الدخـول فى تحليل الآية أُنبه إلى لفـتة قرآنيـة كريمة هى أن هذه الآية وصف لفناء الخلق ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وقبـل ذلك بآيات وصف لخَلْق الخَلْق وأنه سبـحانه خالق كـل شىء وبين هذين صراع عقـائد، تأمرونى أعـبد، بل الله فاعبد، ومجىء آية الفناء بعـد آية الخلق إشارة إلى أنها خُلِقَتْ للفناء، فَضلَّت أُمَّة تحسبـها للبقاء، وكل مخلوق أودع الله فيه يوم خلقـه جرثومة فنائه، وقد خاطب ربنا رسوله وقال له: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ ولم يقل ستموت وإنما قال أنت الآن ميت، ومن جـهل أو نسى موته فقد جـهل أو نسى حياته ومن جهل أو نسى آخرتـه فقد جهل أو نسى دنياه، ولله إشـارات ندعوه أن يرزقنا الفطنة إليها، ولاحظ أن قـوله سبحانه ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ راجع إلى قوله، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾، وما هو منها بسبيل

فى السورة، بل وفى القرآن بل فى تاريخ النبوات، لأن كل من كفر لم يَقْدُر الله حق قدره، من أول ضال ضلت قدمه الصراط المستقيم على هذه الأرض، إلى آخر قدم ضلّت من هذا العَرَمْرَم الذى لا يحاط به؛ إنما أوتى من جهة أنه ما قدر الله حق قدره، كما أن قوله تعالى: ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ يرجع إلى قوله تعالى: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ وهكذا ترى الكلمات تأرز كل كلمة منها إلى ما هى منها بسبيل.

وكلمة ﴿السَّمَوَاتِ﴾ المراد السموات السبع، وكذلك الأراضين السبع، والأرض لم تأت فى الكتاب إلا مفردة، ويدل على السبع بمثل كلمة ﴿جَمِيعًا﴾ وهى حال من الأرض وقد دل القرآن على الأراضين السبع بذكر السموات السبع، ثم قوله: ﴿وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] ولا شك أن ما أثبته الحق إلى نفسه فهو ثابت لايَسَعَ أحدًا أن ينكره، وما نفاه عن نفسه فهو منفى لا يسع أحدا أن يثبته، وقد نفى عن نفسه مشابهة الحوادث وأنه سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وأثبت لنفسه القبضة واليمين والوجه والعين، وسلف الأمة يقولون له قبضة ليست الجارحة وله عين ليست الجارحة وله وجه سبحانه ويفوضون كيفية ذلك إليه سبحانه، وهذا هو الأسلم ولا يجوز أن يقال فيهم إنهم مُشبهة ولا مُجَسِّمة لأنهم يتقون التشبيه والتجسيم ويفوضون العلم بهذه الكلمات إلى الله سبحانه كما قال مالك الاستواء معلوم والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة، وهذا كلام محكم جدا، لأنه يَنْفِى أيضا التعطيل يعنى تعطيل دلالة الألفاظ، لأننى أفهم القبضة التى أفوض علم كيفيتها إلى الله «الاستواء معلوم والكيف مجهول» ويرى الخلف وهم أيضا من أكرم علمائنا أن الأصل أن تحمل اللغة على الحقيقة إلا إذا كان هناك مانع، فإذا وُجِدَ المانع صرف اللفظ عن حقيقته إلى ما يناسبه من ضروب المجاز، وكلمة القبضة واليمين هنا يمنع تنزيه الله عن المشابهة للحوادث أن يكون المراد منها الجارحة وحينئذ ننظر فى استعمالات العرب لهذه

الكلمات على طرائق المجاز لأن اللسان الذى نزل به القرآن فيه حقيقة وفيه مجاز، ولذلك قال الرازى «إنه يقال فلان فى قبضبة فلان، إذا كان تحت تدبيره، وتسخيره، قال تعالى: ﴿إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦]، والمراد منه كونه مملوكا له، ويقال هذه الدار فى يد فلان، وفلان صاحب اليد، والمراد من الكل القدرة، والفقهاء يقولون فى الشروط وقبض فلان كذا وصار فى قبضته، ولا يريدون إلا خلوص ملكه، وإذا ثبت تعذر حمل هذه الألفاظ على حقائقها وجب حملها على مجازاتها صونا لحمل هذه النصوص على التعطيل، فهذا هو الكلام الحقيقى فى هذا الباب» انتهى كلام الرازى.

ويقول ابن عطية: «اليمين هنا والقبضة عبارة عن القدرة، وما اختلج فى الصدر من غير ذلك باطل»..

وهذا التأويل مؤسس على أن المراد بالقبضة القبضة المعروفة، قالوا وتحتمل كلمة قبضة أن تكون مصدرا على وزن المرة، والأصل القبض الذى هو ضد البسط والله سبحانه وتعالى يقبض ويبسط، وإذا قلت هذا قبض الله وبسطه بمعنى منعه وعطائه لم تكن فى حاجة إلى المجاز، لأنه ليس هنا جارحة ومعنى أن الأرض قبضته أنه سبحانه أحدث فيها القبض.

ولا خلاف بين السلف والخلف من أن كلمة (مطويات) مجاز وأن السماء شبهت بكتاب يطوى وينشر كما فى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] ثم حذف الكتاب ورمز له بشىء من لوازمه وهو الطى.

ويرى عبد القاهر أن اليد وما فى حكمها من اليمين والقبضة لا تستعمل فى القدرة إلا عن طريق التمثيل، وأنها وحدها لا تكون مجازا عن القدرة لا عن طريق الاستعارة ولا المجاز المرسل قال رحمه الله (لا تكاد تجدها -يعنى اليد- تراد معها القدرة إلا والكلام مثل صريح، ومعنى القدرة منتزع من اليد مع غيرها أو هناك تلويح بالمثل) انتهى كلامه، وهو كلام جيد والبلاغيون والمفسرون يتساهلون حين يقولون إن اليد أو اليمين مجاز عن القدرة، كما

قال ابن عطية لأن القدرة لا تفهم من اليمين وحدها، ولا من اليد وحدها، وإنما تفهم من اليد، وما تعقلت به، يعنى تفهم هنا من الطى واليمين، وذكر عبد القاهر أن فى الآية مثلين الأول فى قوله تعالى ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ﴾. وشرحه بقوله (فكان المعنى والله أعلم أن مثل الأرض فى تصرفها تحت أمر الله وقدرته، وأنه لا يشذُّ شىء مما فيها عن سلطانه عز وجل مثل الشىء يكون فى قبضة الآخذ له منا والجامع يده عليه).

والمثل الثانى قوله تعالى ﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ وشرحه بقوله: فكأن المعنى والله أعلم أنه عز وجل يخلق فيها صفة الطىّ حتى ترى كالكتاب المطوىّ بيمين الواحد منكم، وخص اليمين لتكون أعلى وأفخم للمثل.

وقد اعتذر عبد القاهر عن الذين فسروا اليمين بالقدرة ومنهم أبو العباس المبرد فى الكامل، وهو من أوسع علمائنا علما ومن أدقهم نظرا، وأبو العباس ذكر أن الذين فسروا اليمين بالقوة هم أصحاب المعانى، وأشار إلى أنه قَبِلَ هذا التفسير قال عبد القاهر مُعَلِلا هذا التفسير وليس عائبًا له (وهذا منهم تفسير على الجملة، وقَصدٍ إلى نفى الجارحة بسرعة خوفا على السامع من خطرات تقع فى نفوس الجهال، وأهل التشبيه، جل الله وتعالى عن شبه المخلوقين، ولم يقصد إلى بيان الطريقة والجهة التى منها يحْصَلُ على القدرة والقوة وإذا تأملت علمت أنه على طريقة المثل) انتهى كلام عبد القاهر.

وهذا نص جيد ومُنْصِف وأن مقصود أصحاب المعانى الذين اعتمد أبو العباس كلامهم، ليس بيان وجه دلالة اللغة على معنى القوة، وإنما الانصراف بسرعة عن كلمة اليمين التى تثير فى نفس السامع صورة الجارحة، وخصوصا إذا كان من العامة، وليست لديه المعلومات التى تحصِّنه من هذه الخطرات، وهذا هو الأصل الذى دعا المتأخرين إلى التأول، وكأنهم يسارعون إلى سدِّ الذرائع، ولهذا أكره المخاشنة التى ألفها بعضنا فى هذا الباب.

وهذا المعنى الكريم الذى اعتذر به عبد القاهر عن الذين يخالفهم نجده فى نصٍ ابن عطية الذى نقلناه وهو قوله: اليمين والقبضة عبارة عن القدرة وما يختلج فى الصدر من غير ذلك باطل، والكل يسعى لمعرفة مراد الحق جل وتقدس ولا يجوز تأثيم أحد ومن أثَّم الخلق فقد أثَّم أكثر علماء الأمة ومن أثَّم السلف فقد أثَّم أكرم علماء الأمة.

وقبل أن أنتقل إلى الزمخشرى الذى قال فى الآية كلاما رَدَّه كثير من أهل البيان أضع البيان بين يديك سطرا واحدا من كلام عبد القاهر الذى قاله وهو يناقش هذه المسألة، وعبد القاهر يشير إلى أن الكلمة إذا انتزعت من معناها الأصلى الذى وَضَعَه لها القوم لم تكن كل المعانى الصالحة لها سواء، وإنما تراها أقرب إلى بعض المعانى فكلمة اليد مثلا معناها الأصلى الجارحة، وتستعمل فى النعمة وفى القدرة وفى غيرهما مما يراد بها فى المجازات، إلا أنها تَنْزِعُ من بين هذه المعانى المجازية إلى القدرة، وتجد لها هوًى إلى هذا المعنى وحنينًا إلى هذا المعنى، قال عبد القاهر: «إذا أريد باليد القدرة فهى إذن أحَنّ إلى موضعها، الذى بُدئت به، وأصَبُّ بأصلها» وهذا هو السطر وقد شرح المرحوم محمود شاكر كلمة «أصبًّ» بقوله أَشَدُّ صبابة وميلا وشوقا، تأمل كيف كان يتذوق عبد القاهر علاقة الكلمات بالمعانى، وأن للكلمات حنينا إلى بعض المعانى وولَعًا بها وصبْوةً إليها، وهذا عجيب فى تراث هذا الرجل وله من هذا كلام كثير، ترى فيه أَرحاما بين الكلمات، وهذه الأرحام مراتب ودرجات وحنين الكلمة إلى أختها أشد من حنينها إلى ابنة عمها!! كلام الزمخشرى فى الآية استفزّ الرازى فردّ عليه وشنّع به مع أن الرازى فى تفسيره كان يتبع الزمخشرى ويُلخّص كلامه، ويطيل الأخذ، والتلخيص، ولست أدرى كيف كنا نرى تفسير الرازى لو لم يوجد تفسير الزمخشرى؟ ثم إن ابن المنيّر الذى كتب حاشيته الجليلة على تفسير الزمخشرى لم يُعقب على كلام الزمخشرى الذى أثار الرازى إلا بكلام مختصر جدا، وكأنه من باب ترك الأولى، وفى النهاية

رأيت الزمخشرى فى هذا النص متأثرا بعبد القاهر تأثرا شديدا، وأقول أيضا كيف كنا نرى تفسير الكشاف لو لم يوجد عبد القاهر؟ وفرق شاسع بين أخذ الرازى من الزمخشرى، وأخذ الزمخشرى من عبد القاهر لأن أخذ الرازى من الزمخشرى أخذ ظاهر، وغالبا ما يكون تلخيصه للزمخشرى بألفاظ الزمخشرى، بينما أخذ الزمخشرى من عبد القاهر يخفى كثيرا، إلا على من له خبرة بكلام عبد القاهر، ومرجع ذلك فيما أرى إلى قوة عقل الزمخشرى، وفرط إحساسه باللغة حتى ليكاد يكون فى شدة تذوقه للبيان نداً لعبد القاهر وكان يضيف كثيرا إلى كلام عبد القاهر ويُوسعه ولم يكن الرازى كذلك.

وسأقسم كلام الزمخشرى إلى ثلاثة أقسام حتى يتسنى لنا وعيه، قال الزمخشرى بعد ذكر الآية: «الغرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو بجملته ومجموعه تصوير عظمته والتوقيف على كنه جلاله لا غير من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أوجهة مجاز، انتهى كلام الزمخشرى، والذى أثار الرازى فى هذا النص قول الزمخشرى من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو جهة مجاز»، لأن القسم الأول من كلام الزمخشرى وهو دلالة الآية على تصوير عظمته والتوقيف على كنه جلاله متفق عليه، وتناقلته كتب التفسير ومنها تفسير الرازى، والرازى يرى -وهو على حق- ضرورة توثيق المعنى القرآنى عن طريق ربْطه بالدلالة اللغوية، وأن معانى الكتاب لا تؤخذ إلا من هذا الطريق، والأصل هو الحقيقة، فإن كان هناك مانع حمل اللفظ على المجاز ولو تَهاونَّا فى هذا واستخرجنا من القرآن معانى من غير أن تكون من دلالات اللفظ على الحقيقة، أو على المجاز لفتحنا بابا من أبواب الشر، ولأسقطنا حجية القرآن ويبدو أن الرازى كان متأثرا بجماعة (حَدَاثِية) فى زمانه تقرأ القرآن قراءة جديدة كالجماعة التى فى زماننا، وأن كلام الزمخشرى الذى يَصْرِفُ فيه النظر عن الحقيقة والمجاز ذكَّره بهذا المنهج؛ لأنّه قال بعد ما بين إنكار هذا الأصل الذى هو ربط المعنى القرآنى باللفظ

القرآنى، رَبْطًا مُوَثَّقًا إمـا بالحقيقة أو بالمجاز (فإن لكل أحـد أن يقول المقصود من الآية الفلانية كذا وكذا فـأنا أحمل الآية على ذلك المقصود ولا ألتفت إلى الظواهر مـثـاله من تمسَّك بالآيات الواردة فى ثواب أهل الجنة وعـقـاب أهل النار، وقال المقـصود بيان سـعادات الـمُطيعـين وشقاوة الـمُـذنبين وأنا أحمل الآيات على هذا المقـصـود، ولا أُثْبِتُ الأكل والشـرب، ولا سائر الأحـوال الجسـمانـية، ومن تمسك بالآيات الواردة فى إثبـات وجوب الصـلاة، فقـال المقصود منه إيجاب تَنْوير القلب بذكر الله فـأنا أكتفى بهذا القدر، ولا أوجب هذه الأعمـال المخصـوصة، وإذا عرفت الكـلام فى هذين المثالين فَقِـسْ عليه سائر المسائل الأصولية، والفروعيـة، وحينئذ يخرج القرآن عن أن يكون حجَّة فى المسائل الأصولية، والفروعـية، وذلك باطل قَطعًا) انتهى كلام الرازى فى هذا القسم، ومعنى إبطـال حُجية القرآن لأنه لا يَثْـبتُ مع هذه الطريقة فرضٌ ولا واجبٌ فإذا كان المراد بالصلاة تنوير القلب بأى طريقة فليس هناك أركان، ولا فرائض، ولا ركوع، ولا سجود، ولا وضوء، ولا وقت إلى آخره، يعنى تنتهى الدلالات القَطْعيَّة فى الكتاب الـعزيز، قلت هذه حَدَاثةٌ قديمة يَرْويها لنا الرازى لأن هذا شـبيـه بتَعَـدُّد القـراءات وتَعَدُّد المناهج الجـديدة التى تجـعلنا نسـتخـرج من القرآن إسـلاما جـديدا غـير إرهابى، وقـد قرأت هذا بنصِّـه للمُتَنَوِّرين ودعاة التجديد، ودعاة القراءة الجديدة، ودعاة التأويل، وكأن الذين فى زمانـنا هم الذين يُحَدِّثنا عنهم الرازى وتـناسخت أرواحـهم، وأن ضلال زماننا ليس حداثة جـديدة وإنما هو عِرْقٌ من الضلال قديم، ومـسألة أن نعيم الجنة هو سعادة الأرواح، ولا أكل ولا شرب مَنْشـور فى كتب وقرأته عينى، ولذلك أقول إنه لا يجوز لدارس الكتـاب والسنة، أن يُغمضَ العين عن الذى يَجـرِى حوله لأن عظمـة الكتاب فى أنه مُـتَغَلْغِل فى الواقع، لأنه نزل لـهذا الواقع، وكـأنه نـزل اليـوم قلت إن الذى سـاعـد على إنـكار الرازى لكلام الزمخشرى هو وجود هذا الاتجاه الـمُنْفلت فى زمن الرازى، والذى يحاول أن

يكْسِر قيـودَ ضوابط استخراج المعانى من الكتـاب العزيز، والذين قرؤوا نص الزمخشـرى مـن غـيـر أن تـوجد هـذه الحالة فى زمانهم لم يعْـترضوا عـليـه ولا أشك فى أن أبا حيـان قرأ كلام الـرازى، وكلام الزمخـشرى، ودَفع عن الزمخشرى بكلمة ليس فيها إلا إشارة غامضة لكلام الرازى، وأبو حيان رجل بعيد الرِّضى قال «والتصوير والتخـييل هو من المجاز»، يعنى أن الزمخشرى لما قال من غـير نظر إلى حـقيـقة أو مجـاز أراد مجـازا معينا لأنـه ما دام أثبت التخييل والتمثيل فقد أثبت المجاز، وكلمة التخييل تكثر فى تفسير الزمخشرى وابن المنيـر يرفـضـها، ويَرَاهـا مُوهِمـةً ولم يَعْـتَـرضْ على شىء من كـلام الزمخـشرى إلا على كلمة تخيـيل، وظنى أن الذى غَرَسَ كلمة التخـييل فى كلام الزمخـشرى هو عبد القـاهر، لأنه كان كثيـر الاستعمـال لها فى تحليل الشعر ويقول خَيَّلْتَ إلى نَفْسِكَ أو تُخيَّل إلى نفسك.

القسم الثانى من كلام الزمخشـرى قوله: «وكذلك حكم ما يُرْوَى أن حبرا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال يا أبا القاسم، إن الله يمسِكُ السـموات يوم القيامة على إصبع والأرَضين على إصْبع والجبال على إصـبع والشجر على إصبع، والثَّرى على إصبع وسائر الخلق على إصبع ثم يهزهن، فيقول أنا الملك فضحك رسول الله ﷺ تعجبًا مما قـال ثم قرأ تصديقا له ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ وإنما ضحك أفصحُ العرب صلوات الله وسلامـه عليه وتعجّبَ لأنه لم يفهم منه إلا ما يفهـمه علماء البيان من غـير تصور إمساك ولا إصبع ولا هزٍّ ولا شىء من ذلك، ولكن فـهمه وقعَ أول شىء وآخره على الزُّبدة والخلاصـة التى هى الدلالة على القدرة الباهرة، وأن الأفعال العظام التى تتحيّر فيها الأفْهام والأذهان ولا تكتنفها الأوهام هينة عليه هوانا لا يوصل السامع إلى الوقـوف عليه إلا إجراء العبارة فى مـثل هذه الطريقة من التخييل» انتهى هذا القسم من كلام الزمخشرى.

وهذا الخَبَـرُ مروى بروايات كثيـرة عن ابن مسعـود كما قال الخطابى وفـيه

إضافة من الراوى، هى قوله (تصديقا لقول الحبر) وقد فهم الزمخشرى من كلام الحبر أن مقصود نَصّه هو الدلالة على القدرة الباهرة وأن الأفعَال العظام هيِّنة عليه سبحانه، وأن وصول هذه المعانى العظيمة إلى الأفهام يقوم على طريق التخييل التى ذكرها فى الآية.

وقد حقق الطاهر هذا الخبر، وبيَّن أن المعنى الذى فهمه الزمخشرى ليس مرادا وأن الحبر لا يقصد التمثيل، والتصوير، وإنما يقصد الحقيقة، لأن عقيدة اليهود هى التجسيم والحبر يريد حقيقة أن الله سبحانه يمسك السموات على إصبع والأرضين على إصبع إلى آخر ما قال، وأن رسول الله ﷺ يعلم مراد الحبر، وأنه ضحك استهزاء واستخفافا بهذا الاعتقاد، وأن قراءة الآية كانت رداً من رسول الله ﷺ على الحبر وأن أصحاب التجسيم ما قدروا الله حق قدره، وقد ذكر بعض المفسرين أن الآية نَزَلَتْ فى شأن اليهود، الذين جعلوا لله هذه الجوارح وجلَّ الله وتعالى عما يقولون، ومما أغرى الزمخشرى بالفهم الذى فهمه، ما أضافه الراوى من قوله (تصديقا له) وقد قطع القرطبى بذلك، وكل هذا ملخص من كلام الطاهر رحمه الله وأثابه، وقد شغل الرازى عن هذا، وإنما نظر إلى كلام الزمخشرى من جهة أخرى لَفَتَهُ إليها عَبَثُ وتهورُّ أصحاب القراءة الجديدة فى زمانه، الذين هم الآباء الأول لأصحاب القراءة الجديدة فى زماننا، ورحم الله الرازى الذى يعلمنا كيف تكون عيون العلماء ساهرة، وكأنها فى رباط إلى يوم القيامة.

القسم الثالث من كلَام الزمخشرى، قوله: «ولا ترى بابا من علم البيان أدقَّ ولا أرقَّ ولا ألطف، من هذا الباب، ولا أنفع وأعون على تعاطى تأويل المشتبهات من كلام الله تعالى فى القرآن وسائر الكتب السماوية، وكلام الأنبياء، فإن أكثره وعِلْيَته تخييلات قد زلتْ فيها الأقدام قديما، وما أتى الزالون إلا من قلة عنايتهم بالبحث والتنقير حتى يعلموا أن فى عداد العلوم الدقيقة علما لو قَدَّرُوه حق قدره لما خفى عليهم، أن العلوم كلها مفتقرة إليه وعيال عليه، إذ لا تحل عقدها المؤربة، ولا يفك قيودها المكربة إلا هو، وكم

آية من آيات التنزيل وحديث من أحاديث الرسول قد ضيم وسيم الخسف بالتأويلات الغثّة والوجوه الرثه، لأن من تأول ليس من هذا العلم فى عير ولا نقير ولا يعرف منه قبيلا من دبير»، وهذا النص يوشك أن يختلط فيه كلام الزمخشرى بكلام الجرجانى وراجع كلام عبد القاهر فى الفرق بين الاستعارة المكنية والتصريحية، وكيف يقع من يجهل هذا الفرق فى التشبيه، إذا نظر فى مثل قوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩] وأن الآيات التى هى أخواتها إذا لم يساعد فيها هذا العلم ولم يُعِنْ على تعاطى التأويل زلَّت فيها الأقدام، ثم إن كلام عبد القاهر على دقته وغموضه وأهمية مسائل هذا العلم شائعة جدا فى الكتابين، وتوشك هذه الصفحة من كلام الزمخشرى أن تكون منتزعة من هذا الباب فى كتابى عبد القاهر.

وفى نهاية هذا الموضوع أقول إن كلام الزمخشرى الذى صَرخ فى وجهه الرازى متأثرا بهلافيت القراءة الجديدة فى زمانه، مأخوذ من كلام عبد القاهر، ولم يكن الرازى متمكنا فى البلاغة كتمكنه فى العلوم العقلية، نعم كانت له بصيرة مذهلة فى ربط الكلام بعضه ببعض، وكيف كانت عينه ترى المعانى وهى آخذة بحجزة ما حولها، وهذا أقرب إلى أن يكون موهبة وليس اكتسابا، ثم هو أشبه بأن يكون ثمرة العقل والفكر.

وأكاد أرى ما قاله عبد القاهر فى أسرار البلاغة فى آية ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ﴾ [الجمعة: ٥] وراء ما قاله الزمخشرى فى آية ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ﴾ لأن عبد القاهر شرح فى آية التوراة موضوع أخذ الزبدة، الذى أغضب الرازى، وقد راجعت كلام عبد القاهر كثيرا ولازلتُ أرى فيه غورا لم أصل إليه وأظن أن كلام الزمخشرى بمثابة شرح لكلام عبد القاهر فى الآية، وكأن شرح عبد القاهر يقوم على ضرورة ارتباط الأجزاء المكوِّنة للصورة، وهى الحمار، والحمل، والأسفار، وضرورة نسيان وإهمال هذه المفردات،

وإذابة بعضـها فى بعض حتى تُمحـى ويتكون منها صورة أخرى كـما تذوب العناصر الكـيماوية وتتـلاشى ويتكون منها مادة أخـرى مغـايرة للأجزاء التى تكونّتْ منها، وإليك عبـارة عبد القاهر قال (فـما لم تجعل - يعنى الروابط - كالخيط الممـدود ولم تمزج حتى يكون القياسُ قـياسَ أشياء يبالغ فى مـزاجها حتى تتـحدَ وتخـرج عن أن تعرف صـورة كل واحد منها علـى الانفراد، بل تَبْطُلَ صورها المفردة التى كانت قبل المزاج، وتحدث صورة خاصة غير اللواتى عُهـدتْ وتحصُلَ مذاقه لو فَـرَضْت حصولهـا لك فى تلك الأشياء، من غـير امتزاج فرَضْتَ ما لا يكون لم يتم المقصـود ولم تحصل النتيجة المطلوبة، وهى الذم بالشقاء فى شىء يتعلق به غرض جليل، وفـائدة شريفة مع حرمان ذلك الغَرض، وعدم الوصول إلى تلك الفائدة) انتهى كلام عبد القاهر.

راجع قوله «وتخـرج عن أن تعرف صورة كـل واحـد مـنهـا على الانفراد» وما بعده، وضـعه بإزاء قول الزمخشـرى (من غير ذهاب بالقبـضة واليمين إلى جهة حقيـقة أو مجاز) وإذا لم يكن كلام الزمخشرى من كلام عـبد القاهر فهو منه بسبـيل لا يجوز إهماله، ثم راجع قـوله «ولم تحصل النتيـجة المطلوبة وهى الذم بالشـقاء فى شىء يتـعلق به غرض جليل إلى آخـره، وإن لم يكن هذا هو الزبدة والخلاصة فهـو منها بسبيل لا يجوز إنكاره»، وقول الزمخـشرى من غير تصور إمسـاك ولا إصبع ولا هزّ ولا شىء من ذلك هو هو قول عبـد القاهر بل تبطل صورها المفردة التى كانت قـبل المزاج، هذا والله أعلم، ونص عبد القاهر منزع فى قراءة صور البيان، وكيف يتخطى العَقل هذه الصور بعدما يحدث فيها هذا التغيير الذى نسـخ مفرداتها وغيبها، وصيـَّرها فى المنسأة كيف يتخطاها إلى المغزى منها والخلاصة المقصودة بهـا، أقول هذا طريق فى قراءة الصور البيانية لم أحكم فهمه إلى الآن، وكلما نظرت فى هذا النص رأيت فيها شيئًا بعيدا ومنزعا فى القراءة والفهم والتحليل لايزال مكفوفا عنّى وليس هذا غريبا بالنسبة لى لأنى أعلم أن هذا الجيل كان يَنْغَلُّ فى جوانـب من جوانب النص هى أفسح وأغْزَر من

كل قراءة جَدَّ فيها المتأخرون الذين جاؤوا بعدهم ورحم الله الأصمعى الذى كان يقول ذهب الذين يحسنون فهم الشعر، وإذا كانوا ذهبوا قبل زمن الأصمعى وأبى عبيدة فكيف تعجب منّى حين أقول إن صور البيان لا تزال مغَشاةً بحواجز ولا تزال دونها أستار مع علو السن وطول المراجعة وطول المزاولة.

قوله تعالى سبحانه ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ السبحان مصدر كالغُفران سدّ مَسَدَّ فعله وأصل الكلام نسبحه سبحانا، ومجىء هذه الجملة عقب قوله تعالى﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ تشير إلى أن شركهم ليس ضلالا، بعبادة غير الله فحسب، وإنما هو سوء أدب مع الله، وكل من يَعْرفُ قدر ربنا سبحانه، وجلاله يسبحه ويُنزّهه عن الشريك؛ وهذه الجملة تقع كثيرا فى الكتاب العزيز، بعد الحديث عن ضلالاتهم، وهى من أكرم الجمل التى تقع فى أكرم المواقع: من ذلك قوله تعالى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[الأنبياء: ٢٢] وقوله سبحانه ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١] وقوله جل شأنه ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨، ١٥٩].

ثم إنه لا يُربىِّ مهابة الله فى قلب أهل الله شىء كتكرار مثل هذه الجملة، ولها مقامات كثيرة تقتضيها، فإذا رأيت ملحدا قلت سبحان الله وتعالى عما يشركون، وإذا رأيت من يقول المسيح ابن الله، أو الله ثالث ثلاثة قلت سبحان الله وتعالى عما يشركون، وإذا رأيت تجليات العظمة فى السموات وفى الأرض قلت سبحان الله وتعالى عما يشركون، وإذا قرأت أن الأرض قبضته سبحانه والسموات مطويات بيمينه قلت سبحان الله وتعالى عما يشركون، وكأنه حِصْنٌ من حصون القلب ودرْع يَتَدرَّعُ به حتى لا تتسلَّل إليه ضلالة من ضلالات المُبْطلين.

وجملة (وما قدروا الله حق قدره) ومعها جملة (سبحانه وتعالى عما يشركون) تعود فى الصورة إلى فريق المبطلين ابتداء من قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ لو قلت بعدها وما قدروا الله حق قدره وسبحانه وتعالى عما يشركون لوجدت الكلام يلتئم، وكذلك لو وضعت الجملتين بإزاء «وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله»، وقلت «ما قدروا الله حق قدره» و«سبحانه عما يشركون» لوجدت الكلام يلتئم، وهكذا «فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق» و«الذين اتخذوا من دون الله شفعاء»، والذين تشمئز قلوبهم عند ذكر الله، كل هؤلاء ما قدروا الله حق قدره، وكل هؤلاء عندما يذكر باطلهم يقول أهل الله سبحانه وتعالى عما يشركون.

وكذلك الآيتان الثانية والثالثة، ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾، تعود إلى ﴿اعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ﴾، لأننا لا نخلص ديننا إلا لمن هذا جلاله ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ وكذلك الذى ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ والذى ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [النمل: ٦٠] وأنزل لكم أحسن الحديث كل هذا شأن الموصوف بقوله ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ﴾ وهكذا ترى هذه الآيات كأنَّها تُلَخِّص كل ما فى السورة ،ثم إن جملة ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ لها إشارة خفية، تتعلق بالجملتين السابقتين عليها، وأنهما من المتشابة الذى اختلف فيه كلام العلماء، وهذه الإشارة فيها ضرورة الحذر الشديد فى تحليل كلام الحق عن الحق سبحانه، وضرورة أن تفهم القبضة واليمين على الوجه اللائق بجلاله، وأنه ليس كمثله شىء وليس لأحد أن ينفى ما أثْبَته سبحانه لنفسه ولا أن يُثبت ما نفاه سبحانه عن نفسه، وكأنها تقول لنا قولوا عند كل ما كان مثل قوله قبضته ويمينه سبحانه وتعالى عما يشركون، هذا

والله أعلم. قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ (٦٨) وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [الزمر: ٦٨، ٧٠].

هذه الآيات وما بعدها إلى آخر السورة ممسكة بقوله تعالى ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ويوم القيامة المذكور فى هذه الجملة هو بوابة النفخ فى الصور، والقضاء العادل، وتوفية الحقوق وسوق الذين كفروا إلى جهنم، وسوق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة، ثم الانتهاء بالحافين حول العرش يسبحون بحمد ربهم، ومعهم الذين آمنوا والنعيم الذى لا حدود له بالحمد، والتسبيح، لأن الحمد والتسبيح الذى كان تكليفا فى الدنيا صارجَنّة الذين آمنوا بعد ما سيقوا إلى الجنة زمرا، فجنة الأرائك والأفنان يعيشون فيها بأجسادهم وجنة التسبيح والتحمد وذكر الله والثناء عليه جنة تعيش فيهم، فهم يعيشون فى جنة، وتعيش فيهم جنة، وهذا من كلام علمائنا وليس لى فيه شىء.

وجملة ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ جاءت رَدّاً على سوء أدبهم لما لم يقْدُروا الله حق قدره، وشناعتهم التى ارتكبوا بها هذه الخسيسة وهى أمرهم الهادى المهتدى صلوات الله وسلامه بأن يعبد غير الله.

ثم إن جملة ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ هى عِدْل جملة **«والأرض جميعا قبضته والسموات مطويات بيمينه»**، لأن هاتين الجملتين هما عزُّ الألوهية فى السموات والأرض، والجملة التى قُطع بها الكلام واستأنفت التسبيح والتنزيه والتمجيد هى عز الألوهية فى قلوب أوليائه الذين قدروه سبحانه حق قدره ثم يأتى النفخ فى الصور، معطوفا بالواو التى تعطف معنى على معنى وكلمة النفخ فى الكتاب العزيز، من أظهر وأبرز دلائل الوحدانية وعز الربوبية، وإنما صارت طينة أبينا آدم بشرا سويا لما سوّاه ربنا ونفخ فيه من روحه؛ وأمر ملائكته أن تسجد

له فسجدوا إلا إبليس فبدأت قصة الإنسان على الأرض بالنفخة، وانتهت بالنفخة، وكان هذا الإنسان المتمرد العاتى على هذا الكوكب، وكانت قصته بين هاتين النفختين، ثم كانت معجزة عيسى عليه السلام أن يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيصير طيرا بإذن الله، يعنى صورة الطين والنفخ فيه كتسوية طينة آدم والنفخ فيها وأنه سبحانه يُجرى آيته على من يشاء من عباده، مع ملاحظة أن عيسى عليه السلام كان بهذه النفخة ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١] عجيب أن يوجد عليه السلام بالنفخة ثم تكون النفخة هى برهان نبوته عليه السلام، وقد جاء النفخ فى الصور فى سورة الأنعام فى آية مقترنا ومندرجا فى جمل كلها من أعظم تجليات القدرة ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ٧٣].

ولم تذكر النفختان متتابعتين فى الكتاب العزيز إلا فى هذا الموضع، ولكل نفخ صورة؛ سواء كان نفخ الفناء أو نفخ الإحياء فنفخ الفناء هنا يتبعه الصعق ونفخ الفناء فى الحاقة يصحبة شىء آخر﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٣- ١٨] تأمل الدكة الواحدة والنفخة الواحدة والسماء الواهية والمَلَكُ على أرجائها واذكر قوله تعالى﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥] وتنوع صور نفخة البعث أكثر، فهم هنا قيام ينظرون وهم فى يسن ﴿مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١] وهم فى النبأ يأتون أفواجا ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ١٨- ٢٠].

ولاشك أن الدراسة التى تكشف أسرار هذا التنوع فى ضوء السياق الذى ورد فيه من أدق وأجل دراسة أسرار البيان وقد أشرت إلى هذا كثيرا.

ثم إن صور الحساب متنوعة فالذى فى الزمر غير الذى فى الجاثية وغير الذى فى الحاقة، وهكذا إذا استقصيت صور الحساب وجدت بين يديك بابا واسعا متنوعًا لأنه فى كل موضع يتناول شيئًا، فالذى هنا قضاء، والذى فى الحاقة صورة ما بعد القضاء، فهذا أوتى كتابه بيمينه، وتبع ذلك ما تبعه؛ وهذا أخذ كتابه بشماله وكان له ما كان، وهكذا، والجاثية تصف الأمم وهى جاثية ويخاطبون ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨] وغافر تحدث عن حالة أخرى ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

فإذا تركت هذا ونظرت إلى أحوال أخرى فى القيامة، وجدت الذى فى الزمر غير الذى فى التكوير، ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ① وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ② وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ١- ٣] وهذا غير﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ① وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ١، ٢] وهكذا وليس هذا تكرارا وإنما هو وصف لأحوال مختلفة ومتنوعة للفناء، يوم ينفخ فى الصور، وكل هذا مما يجب أن يجمع، وأن يدرس دراسة تبين دقائق الفرق فيما تقارب، وفيما تباعد، وعلاقة هذه الفروق بالسياق الذى وردت فيه وليس هذا فى الدراسة البلاغية من النوافل وإنما هو من جوهر الدرس البلاغى.

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ النفخ لم يقع وإنما عبر عنه بالماضى لأن ما هو للوقوع كالواقع، وكذلك الأفعال بعده فصعق - ثم نفخ فيه أخرى، أشرقت الأرض، وضع الكتاب، وجيء بالنبيين إلى آخر السورة جاءت الأحداث فيها وفعلها ماض، وكأن كل ذلك قد كان ودخل أهل النار النار، ودخل أهل الجنة الجنة، وعاش

القارئ كل هذه الأحداث ورآها ماضيا، يُحْكَى لتتأكد هذه الأحداث ويتأكد وقوعها، والناسُ لا يزالون فى فسحة من أمرهم، ليَستْدْرِكَ من يستدرك، وليرجع من يرجع، وباب التوبة مفتوح وقد رأى زمر أهل النار وهم يساقون إلى النار والملائكة يقولون لهم «**ألم يأتكم رسل منكم**».

ثم إن النفخ فى الصور يكون قبل قبض الأرض، وطى السماء، لأن هذا القبض وهذا الطى لا يكون إلا بعد موت الناس، وإنما قدم لأنه أظهر فى الرد على الذين لم يَقْدُرُوا الله حق قدره.

وهذه الآية أخت آية النمل، ﴿**وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ**﴾ [النمل: ٨٧] والتعبير فى سورة النمل بالمضارع الدال على الاستقبال، فليس فيه معنى أن ما هو للوقوع كالواقع، وقوله سبحانه ﴿**فَفَزِعَ**﴾ معطوف على ﴿**يُنفَخُ**﴾، ومرتب عليه، والفاء دالة على أن أول الفزع موصول بآخر النفخ، لأن هذا هو معنى الترتيب بلا مهلة وجاء فعل «فزع» ماضيا لتأكيد وقوع الفزع وكأنه قد كان، وهذا من البناء المحكم الدقيق لأن الفعل الماضى فى اللفظ مرتب على فعل سيكون، وجاء فى النمل فزع وفى الزمر صعق والصعق أشد من الفزع، لأن هذا الفزع سبق فى النمل بالذين كذبوا ﴿**حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨٤ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنطِقُونَ**﴾ [النمل: ٨٥] والذى قبل الصعق فى الزمر الذين كذبوا وأضافوا إلى تكذيبهم أَمْرَ خَيّرِ الخلق بأن يعبد غير الله، فالغضب فيها أكثر فناسب الصعق، ولعلّ هذا الغضب الأشد هو الذى دعا إلى جمع النفختين فى السورة، ولم يجمعا فى الكتاب العزيز إلا فيها، ولاشك أن جمعهما أظهر فى الدلالة على جلال الحق، الذى ما قدروه حق قدره، والصعق والفزع مُفْضيان إلى الموت، والموت بالصعق أشد، وذكر البعض أن ثمة ثلاث نفخات نفخة فزع، ونفخة صعق، ونفخة قيام، وقُدّم صعق من فى السموات لأنه الأغرب، وهم الملائكة

لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وليس فى السماء موضع إلا وفيه ملك ساجد، والكل يصعق والكل يُهال، إلا مَنْ أخبر الله عنهم أنهم لا يحزنهم الفزع الأكبر، وهذا من الفزع الأكبر ونسأل الله النجاة، وذكر السموات والأرض فى هذه الجملة يدل على أن قبض الأرض وطىّ السماء، يكون بعد الصعق، والذين استثناهم ربنا من الصعق اختلف فيهم، قال ابن عباس رضى الله عنهما، عند نفخة الصعق يموت من فى السموات ومن فى الأرض إلا جبريل وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت، ثم يميت الله ميكائيل وإسرافيل، ويبقى جبريل وملك الموت ثم يميت الله جبريل. وقالوا هم الشهداء لقوله تعالى ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «**هم الشهداء متقلدون أسيافهم حول العرش**» وقالوا هو موسى عليه السلام لأنه صعق مرة فلا يصعق ثانيا، وقالوا هم الحور العين، وسكان العَرْش والكرس وقال قتاده الله أعلم بأنهم مَنْ هم؟ وليس فى القرآن والأخبار ما يدل على أنهم مَنْ هُمْ؟ انتهى ملخصا من تفسير الرازى.

والشهداء المتقلدون سيوفهم حول العرش، وأنهم لا يُصْعقُون هذه صورة لها دلالة سخية فهم لا يُصْعقون، يعنى لا يموتون حين يموت كل حىّ؛ لأنهم ماتوا يوم ماتوا من أجل الحياة الأفضل، فكوفئوا بعد استشهادهم بحياة عند ربهم وهى أفضل من الحياة التى دافعوا عنها، ثم إنهم وهم حول العرش كأنهم يقولون لنا إن من مات دون أرضه، ودون عرضه، ودون حقّه كأنما مات دون عرش الرحمن، ولا معنى لأن يكون الشهيد عند حملة العرش وهو متقلد سبعة يعنى هو على الهيئة التى مات عليها إلا الإشارة إلى أن الله هو الحق، وأن عرشه عرش الحق، وأن موتى دون أرضى وديارى ودينى وعرضى هو موت المدافع عن الحق، وأن الحق واحد فى الأرض وفى السماء، وعند العرش، وأن من روَّى تراب ديار أهل الإسلام بدمه ليطهرها من دنس المبطلين

يرفعه هذا التراب حتى يَرْتَقى به إلى الحافين حول العرش، ويرفع معه سَيفَه الذى زاد به عن حوضه وليس وراء ذلك مكان.

هذا مكان من يزود عن أرضنا وأعراضنا ويجعلون دماءهم سداً يمنع العدو من اختراقها، فما هو مكان من يفتحون بوابات بلادنا لأعدائنا؛ ويمنحون من أرضنا قواعد عسكرية لجيوش أعدائنا، ويقولون لنا إنهم هنا لحمايتنا، ونحن عاجزون عن أن نسأل سؤالا قريبا جدا وهو مِنْ مَنْ يحموننا؟ وليس لأرضنا على مدى التاريخ عدو سواهم؟ ثم هم السند والظهير والنّاب والمخلب للذين احتلوا جزءا من بلادنا، وشرَّدوا شعبنا؟ أقول هذا السؤال محرم علينا لأنهم قالوا لنا لا تتكلموا إن الكلام محرَّمٌ، أين يكون هؤلاء يوم القيامة؟ وحول أى عرش يكونون؟ وأى شىء يتقلدون؟ الكلام له منطوق وله مفهوم مخالفة، وأنا لم أزِدْ على شرح ما رواه أبو هريرة ثم السؤال عن وجهه الآخر.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ كلمة ثم تفيد التراخى الزمنى بين النفختين، وليس بين أيدينا ما يحدد الزمن الذى بينهما، وقد روى عن رسول الله ﷺ أن بينهما أربعين، قال الرازى «ولا أدرى أربعون يوما أو شهرا، أو أربعون سنة أو أربعون ألف سنة» انتهى كلام الرازى، والفعل الماضى المعبر عن المستقبل صيَّر هذه الأربعين وأدخلها فى الماضى، وكأنها مَضَتْ وفتحت أبواب جهنم، وأبواب الجنة، وقُضى الأمر، ولا أدرى أنا ولا تدرى أنت أين أنا الآن، ولا أين أنت الآن؟ وفى أى الزمن قد تَمَّ سوقنا وهذه الدلالة اللغوية تشبه الدلالة فى قوله تعالى ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ يعنى نحن الآن ميتون، وكل هذا يجب أن يستوعبه الناس، حتى ينتبهوا، لأن الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا، وربنا جَلت قدرته ووسعتنا رحمته يتوفانا الآن حتى نتنبّه، والبناء للمجهول ليتوفر الفهم على النفخ ويَرفَعُ هذا البناء للمجهول من البين مَنْ هو فاعل النفخ، وتلاحظ فرقًا لا يجوز أن يهمل فى التعبير عن النفختين، أوله أن كلمة «أخرى» صفةٌ لموصوف محذوف وهذا

الحذف مؤذن بالرغبة فى سرعة الوصول لنتيجة النفخة الثانية لغرابتها وأنها هى المقصودة لأنها هى البعث الذى عاشوا يَسْتبْعِدُونه ويقولون ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ [النازعات: ١١، ١٢] وقالوا غير ذلك، ومن أجل مزيد العناية بها جىء معها بإذا الفجائية التى تلفت إلى المعنى الذى يأتى بعدها لَفْتًا قويًا، مع أن الصعق بالنفخة هو الآخر أمر غريب، وآية من آيات الله، وكان يمكن أن يقال ونفخ فى الصور فإذا من فى السموات والأرض يصعقون، ولكن الكلام جاء على ما جاء عليه لأن الصعق مع غرابته هو مَوْتٌ والموت أمر مألوف وكل حىٍّ يموت وغير المألوف هو الحياة بعد الموت، وقوله جل شأنه ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ﴾ لا يمكن أن تسدَّ مسَدَّ فإذا هم أحياء لأن كلمة «قيام» فيها معنى الدهشة التى اعترتهم، وأن الحياة لم تعد إليهم فحسب، وإنما هم قيام وهذا القيام يعنى أن البيان الشريف تجاوز مرحلة عودة الحياة لهم، التى كانت موضع إنكار، ولم يلتفت إليها وإنما تحدّث عن ما بعدها؛ وكلمة ﴿يَنظُرُونَ﴾ صالحة لأن تكون بمعنى ينتظرون ماذا يُفعل بهم، وصالحة لأن تكون ينظرون حولهم ليروا ما لم يروه قبل يومهم وهم بارزون لا يخفى على الله منهم شىء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار، ثم هم حُفاة عراة غُرْلٌ، ثم هم يقولون يا ولينا من بعثنا من مرقدنا، هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون، واجْمَعْ ما جاء عن هذه اللحظة فى الكتاب العزيز، وأنهم جراد منتشر، وأنهم من الأجداث ينسلون، إلى آخره.

ثم لاحظ لَمْحةً لُغَويةً جليلة هى أن التعبير عن قيامهم جاء بصيغة الاسم ﴿قِيَامٌ﴾ والتعبير عن نظرهم جاء بصيغة الفعل المضارع، وقد قال الكملة رضوان الله عليهم إن الفرق بين الإخبار بالاسم والإخبار بالفعل فرق جليل تمسّ الحاجة فى علم البلاغة إليه، وهذه تشْبه قوله تعالى فى موسى عليه السلام لما خرج من المدينة ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢١] جاء الخبر عن الخوف بالاسم لأنه ملازم له، وجاء الخبر عن الترقب بالفعل لأنه

يَحْدث ويتـجدد، وهكذا حال البعث صـفَةُ القيام لهـا الثبوت، وصفـةُ النظر لها التـجدد، والمهم أن لا يغـيب عنى ولا عنك أن هذا حَـالِى وحـالُك وأنك لحظة النفخة الثانية ستكون قائما تنظـر، واحذر أن تستخرج من الكتاب بلاغ الله لعباده وأن تغـفل لحظةً أنه بلاغ لك؛ وآفـة الدعوة إلى اللـه أنْ أُوَجِّه كل هَمِىٍّ لدعـوة خلقه، وأنسى نفـسى، ولاحظ أيضا أن تنوّع الأحوال مع النفـخة الثانيـة بخلاف النفخة الأولى وكل الذى فيـها أنها عبر فيهـا عن الفناءُ أو الموت، بالفزع كما هو فى سورة النمل أو بالصعق كما هنا، ويعنى ليس هو الموت المألوف مع شدة الموت المألوف، وإنما هو فزع يزلزل الروح فيخرج من الجسد، أو صعق وهذا أهول.

ومن ملاحظات الكملة رضوان الله عليهم أن كلمة قيام تستلزم وجود أرض يكونون قياما عليها، مع أن الأرض صارت قبضته سبحانه، ومع النفخة الأولى تتبـدل الأرض غير الأرض والسـموات، لأن النفخة الأولى يَـعْقُبهـا أن تحمل الأرض والجبال فتـدك دكة واحدة، وأن تنشقَّ السماء فهى يومـئذ واهية، وهذه اللمحة فى كلمة ﴿قِيَامٌ﴾ هيأت لقوله سبحانه ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾.

وليس فى الكتـاب العـزيز ﴿وَأَشْـرَقَتِ الأَرْضُ﴾ إلا فى هذه الآية، وهى الأرض غـيـر الأرض، وهى أرض لم يُعْصَ الله عليـهـا، قـالوا وهذا سـر إشراقها، وهذه الجملة بداية إعداد القـضاء والحساب، وهى بداية بالغة الدلالة لأنهم قالوا أشرقت بنور ربها يعنى بعدله سبـحانه، وأن النور مستعار للعدل، وقالوا بنور ربها الذى خَلَقَه فيها، والعدل مفهوم من قوله ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ وأن إضافة الأرض إلـى نور رَبِّـها فيه تشـريف وتعظيم وتكريم لهذه الأرض، واللفظ يحتمل كل هذه المعانى فهى مُشْرِقة لأنها ظاهرة طيبة بريئة مما اجترحه الناس على الأرض التى دُكَّت يوم نفخ الصور، وهى مـشرقة بعدله ورحـمته لأنه سبـحانه حرّم الظلم على نفـسه وإن تك مثقـال حبة من خـردل أتينا بها وكفى بنا حاسـبين، وهو سبحانه لا يظلم مـثقال ذرة، والذى يجب أن يكون

واضحا أن هذه مقدمات الحساب، وأن رنين قوله تعالى ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ لا يزال فى أذهاننا، وأن هؤلاء لم يشركوا فحسب، وإنما أساؤوا الأدب مع الله، وطلبوا من خير خلقه أن يَعْبُدَ غيره مع ظهور آياته، ومع ذلك يُبَلِّغُنَا ربنا قيمة لا يجوز أن نغفلها وهى العدل، مع الظالم الفاجر، ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨] تأمل قوله ﴿اعْدِلُوا﴾ بعد نهيه عن عدم العدل وكيف يؤكد هذه القيمة العظيمة التى إذا سكَنَتْ فى قلب فنعما ما سكن فيه، وهل ترانا دمّرنا شىءٌ كالظُّلْم، والاضطهاد، والقمع؟ قال الزمخشرى رحمه الله (ولا ترى أزين للبقاع من العدل، ولا أعمر لها منه) وعكسه لا ترى أقبح للبقاع من الظلم ولا أخرب لها منه، اللهم ارفع الظلم عن بقاعنا، واقطع دابر القوم الظالمين.

قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ لو وقفت عند مقطع كل معنى لوجدتك فى حاجة إلى أربع سكتات فى قراءة هذا السطر، ولو ضَمَمْتَ إليه الجملة السابقة ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ لكانت السكتات خمسا، وكل جملة تفيد معنى يحسن السكوت عليه، وكل جملة صالحة لأن تكون وحدها معنى غير محتاج إلى ما قبله ولا إلى ما بعده، وكل جملة هى عين رسالة وعين خطبة، وكأنها لؤلؤة تروُق وتؤنِسُ وحدها، فإذا نظمت مع أخواتها رأيت تناسقا، وتلاؤما، وتماسكا، يروق ويروع، واقرأ وتأمل لتدرك أن الذى قلته ليس بشىء للذى تجده، وعُدْ مرَّة ثانية وأحضر جملة ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ وكيف كانت رأسا لهذه الخمس جمل، وكيف دلّت على أن إشراق الأرض بنور ربها يعنى بنور الحق، والعدل يتيحُ لكل عين أن ترى مثقال ذرة من خير أو من شر لأن الحساب يعنى أن من يعمل مثقال ذرة من خير يره ومن يعمل مثقال ذرة من شرٍ يره، وسوف ترى أنتَ وأرَى أنا مثقال ذرة الخير التى هُديتَ وهديتُ لعملها، ومثقال ذرة الشر التى خُذِلْتِ فعملتها، لأن الله سبحانه أخبر بأن كل

واحد منا سيجد ما عمله حاضرا، ثم راجع الاختصار الشديد والاتساع العالى فى كلمة ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ لأن الكتاب صالح لأن يكون كتاب الشريعة الذى نَزَلَت علىّ وعليك، ولكل أمة رسول ولكل رسول كتاب، ولا تكليف إلا بشرع وهذا هو الكتاب الذى هو الشرع، لأن عملى وعملك سيُعرض على الكتاب الذى هو القرآن، ثم إنه بعد إشراق الأرض بنور العدل فى مجلس القضاء لا يكون إلا الكتاب الذى به التكليف، ثم يأتى النبى الذى بلَّغ الكتاب ثم يأتى الشهداء الذين هم الحفظة وكتبة الأعمال، ثم يَقْضى ربنا وهو أعلم بما كان منا ولكنه العدل الذى يقول لاقضاء إلا بتكليف، ولا قضاء إلا ببلاغ ولا قضاء إلا بشاهد، وهذه صورة الحق والعدل الذى أقام الله عليه خلق السموات والأرض، ومن أى جهة تأملتها وجدت فيها ما لا يُحاط به، وما لا يمكن لك أن تستقصيه، وقصاراك أنك تشير إليه كما يُشَارُ إلى مكان الخبيئ ليُسْتَخْرج، وليس فى وسعنا إلا أن نشير ثم يستخرج كل منا بقدر ما مُنح من توفيق، لأن أسرار الكتاب من أسرار الله الذى يعلم السر فى السموات والأرض، لا تستخرجها قرائحُ العلماء فحسْب إنما لا بد أن تضاف إليها قلوب العارفين، وقوله تعالى: ﴿وإذا تُليت عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢] فيه أنها تزيدهم إيمانا بما اكتشفوا من أسرارها، وأن هذه الأسرار يكشفها لهم الإيمان، فالإيمان يزيد المعرفة بأسْرارها، وليست أسرارها مما ينال بالدرس والتنطس وكثرة المزاولة فحسب، وإنما هى أَسرار لها قوم هدوا إليها ودُلّوا عليها ورفعت الحجب بينهم وبينها، ورحم الله الذين علمونا هذا الكلام وألحقنا بهم كرامة نفس وقرّة عين، وعفا الله عن الذين يحجبون كلام الكملة عن أجيالنا ويضعون بين أيديهم كلام من يزدرون ثقافتهم وتشمئز قلوبهم عند ذكر كتابهم ونبيهم.

قلت إن كلمة ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ﴾ لم تأت إلا هنا وأضيف أن هذه المفردات فى مقام القضاء يوم القيامة لم تجتمع إلا فى هذه السورة، إشراق الأرض؛ وضع الكتاب، مجيء النبيين والشهداء والقضاء بالحق، وهم

لا يظلمون، وإنما كان يذكر حال القضاء مختصرا أحيانا، ومكتفيا بواحد منها، كما قال تعالى فى سورة الكهف ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] ذكر وضع الكتاب وتوابعه ولم تذكر هذه التوابع فى الزمر، وإنما ذكر مع وضع الكتاب فى الزمر ما ذكره، وليس فى القرآن وضع الكتاب إلا فى هاتين الآيتين (الكهف والزمر) وقد يكتفى بوضع الموازين كما فى سورة الأنبياء ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] وذُكِرَت حَبَّة الخَردَل مع الميزان، ولم تذكر مع الكتاب والذى ذكر مع الكتاب هم الأنبياء الذين بلَّغوه والحفظة الذين كتبوا الأعمال وليس فى القرآن ونضع الموازين إلا فى هذه الآية.

قوله سبحانه ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ كل نبى شاهد على أمته قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] وأكرر أن البناء للمجهول فى وضع الكتاب وجىء بالنبيين، والشهداء، وقضى بينهم بالحق، كل ذلك ليتوفر الفهم على الحدث، وليس على فاعله، فالمهم وضع الكتاب وليس واضعه والمهم مجىء النبيين، وليس الذى جاء بهم، ومعلوم أن القضاء بالحق هو قضاء الله.

ويلاحظ أن الذى فى الزمر عناية شديدة بالأفعال، وليس بفاعليها، لاحظ وفيت كل نفس- سيق الذين كفروا- سيق الذين آمنوا- فتحت أبوابها، ثم لاحظ أن الحديث عن المحاسبين لا يكاد يشغل الآيات وإنما الأحداث هى التى تشغل الآيات، بخلاف الكهف فقد سمعنا المُجرمين المشفقين الذين يقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب، والمحاسبون هنا لم يُذكروا وهم لا شك حاضرون، واكتفت الآيات ببيان حالهم، بعد نفخة البعث، وأنهم قيام ينظرون ولم يتكلموا، ثم لاحظ المناسبة اللطيفة بين ينظرون وأشرقت الأرض، وكأنهم

بَهَرهُم هذا الإشراق، وأنهم رأوا فيه وفى غيره ما لم يعهدوا، الخلائق فى موقف الحساب فى سورة الزمر مسكوت عنهم، بعد ذكر قيامهم ينظرون، ولم يوجه إليهم كلام إلا وهم يساقون كل إلى داره، فأهل النار قال لهم خزنتها ما قالوا وردوا عليهم بما ردوا، وهكذا أهل الجنة، وذلك بخلاف عويلهم فى الكهف ومشهدهم فى الجاثية ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [الجاثية: ٢٨]، ويقال لهم ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٩] إلى آخره، وسواء كانوا هم الذين يتكلمون أو كانوا يُوَجَّه إليهم الكلام المهم أن لهم حضورا فى المشهد، وهكذا لو تَتَبَّعْتَ مشهد الحساب وحده فى القيامة، لوجدت تنوعا فى الصور، وكل صورة تحكى حالة من حالات هذا اليوم، وجميع الصور هى التى تعطى المشهد الكامل لهذا اليوم، وهذا مما يحتاج إلى أن يفرد ببحث.

وقالوا فى قوله تعالى ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ الشهداءُ هم المُسْتَشْهدون، الذين طلبوا الشهادة، وهم يدافعون عن أرضهم، وديارهم، وأعراضهم، ثم أنالهم الله ما طلبوا، ولما ماتوا فى سبيله أحياهم عنده، وَبدَّلَهُمْ حياةً أفضل، بذلوا حياتهم لوجه كريم فما ظنك بالحياة التى يعطها لهم هذا الوجه الكريم، وليس ببعيد أن تكون حياتهم عنده سبحانه هى حياتهم وهم متقلدون سيوفهم حول العرش، والمهم أن كرامة ثانية لهم، وأى كرامة هى أن يكونوا مع النبيين، وفى معية الله فى مجلس الحساب المهيب الذى ليس قبله ولا بعده مجلس، والذى يدعو كل من شهد الشهادتين ألا يخزيه الله فى هذا المجلس، وأن يَسْتُره بكنفه فيه، وألا يفضحه بما اقترف على رؤوس الخلائق، هؤلاء هم المستشهدون، وهذه هى الشهادة فى سبيل الله، وهذه كرامتها وهذا مقامها، وعلماء الأمة العارفون الصادقون الصابرون المنقطعون، والذين هم سادتها وقادتها يبينون للناس ما بينه المختار صلوات الله وسلامه عليه، ويقودون قاطرتها نحو القوة، والمنعة، والتقدم فى مَعَامِلهم ومباحثهم هؤلاء الذين لايخشى الله أحدٌ خشيتهم ملحقون بالشهداء وغاية ما يصلون إليه أن يوزن

مدادهم بدماء الشهداء، وليس العلمـاء أحياء عند ربهم يرزقون، قلت هذا لأبين قيمة السيف حين لا يكون منه بدٌّ، وقيمة الجهاد الذى يزود عن الأرض والعرض والكرامة، وأبيّن أيضا شناعة من يسمـونه إرهابا من السادة المأمورين بأمر العدو، ولأبين قبل ذلك وبعده خرافة عزل الدين عن الدولة هذا قليل جدا من كثير جدا يفهم من تفسير الشهداء الذين مع النبيين، والذين هم فى معية مالك يوم الدين.

قوله سبحانه ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ الذى أجده من الإيجاز الذى لا أعرفه إلا فى هذا الكتـاب المبين هو الشىء الذى لم أبيـنه كمـا أجـده أو قريبًـا مما أجده، اقرأ الجـمل من أول قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ (٦٨) وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾، وتأمل المعنى الذى وراء كل جـملة وهل يسـتطيع خـيالك أن يحـيط به؟ هذا سطر واحد وراءه من المعانى ما يملأ أسفارا، وخذ الجملة الأخيرة وقضى بينهم بالحق، ومعنـاها أن المكلفين بشرائع الله من يوم أن تلقى آدم من ربـه كلمات إلى يوم أن ينفخ فى الصـور فصعق من فى السـموات ومن فى الأرض وكل البشـر فى كل بقاع الأرض وكل الأنبيـاء والرسل، والكتب، ومن آمن، ومن كفر، ومن عـمل الصالحات، ومن اجترح السيـئات، كل هؤلاء لا يغادر من عملهم صغيرة ولا كبيرة إلا كانت حاضرة فى هذا القضاء، وما عمل أحدهم مثقال ذرة من خير، إلا كوفئ بها بعشرة أمثالها ويضاعف الله لمن يشاء ولهم درجات مختلفة، باختلاف إخلاصـهم وقربهم، وما عمل أحد من مثقال ذرة من شر إلا كوفئ بمثلها لا يزيد شيئًا وإن كان من أشْرسِ الظالمين، هذا المسرح كله بكل غناه وبكل أشـخاصـه وبكل أنبيائـه وبكل شرائعه طوى فـى جملة ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ هل استطاعت اللغة التى تحت لسان أشـعر شعرائنا أن تطوى من المعانى مثل هذا الحجم فى كلمات ثلاث كهذه الكلمات؟ وهل تجد نفس إنسانيـة هذا القدر من المعانى يتـحرك فيهـا وتجيش به؟ أو هل يمكن أن يوجد هذا فى نفس بشـرية أعنى هل هى مهيـأة إلى أن يتخلق فيهـا مثل هذا

المعنى؟ وأترك لك التدبر فى هذا لأنى لا أستطيع استقصاءه وأقول شيئا قريبا وهو أن كلمة ﴿وَقُضِيَ﴾ مُتعينةٌ هنا، ولا تسُدُّ مَسَدّها كلمة ﴿حكَمَ﴾ وقد راجعت مواقع كلمة الحكم فى الكتاب ومواقع كلمة القضاء لأتبين الفرق الذى كان يجب أن يكون بينًا ووجدت المادتين تتداخلان فى البيان عن المعانى فالله سبحانه وتعالى يحكم بين عباده؛ والحكم له سبحانه لا لغيره، والله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون، ووجدت مادة الحكم تأتى فى غير القضاء كما فى قوله تعالى: ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ [هود: ١] ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ [مريم: ١٢] إلى آخره، كما أن مادة القضاء تأتى فى غير باب الحكم والقضاء كما فى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ﴾ [القصص: ٢٩] ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ [الأحزاب: ٢٣] ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٠] ﴿إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ [يوسف: ٦٨] إلى آخره، ولم أستطع أن أضع حدا فاصلا فى المعنى بين المادتين وغاية ما أدركته هو أن القضاء المذكور فى مثل ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ يقتضى وجود ما يؤسس عليه القضاء، وهو البينة والشهود، وأن البيّنة على المدعى واليمين على من أنكر، وأن مقام القضاء وأن تتداخل مع مقام الحكم إلا أن للقضاء خصوصية شرحتها رسالة عمر رضوان الله عليه لأبى موسى فى القضاء، ولذلك نجد كلمة ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ هنا مزروعة فى موضعها بعد وضع الكتاب، والمجىء بالنبيين المبلغين والشهداء الذين شهدوا الأعمال من الكتبة والحفظة ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١].

وهذه الجملة التى لا حدود لمعناها جاءت هنا فى نهاية موقف الحساب، ثم جاءت بلفظها وتكررت مرة ثانية فى نهاية موقف الجزاء، يعنى بعد ما دخلت زمر الكافرين فى جهنم ودخلت زمر المتقين إلى الجنة يتبوؤون منها حيث يشاءون، قال تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ والذى قضى بينهم هو الله سبحانه وهو لا يقضى إلا بالحق، ومع ذلك جاءت كلمة ﴿بِالْحَقِّ﴾ لتأكيد هذا

المعنى لأن حساب هؤلاء جميعا، ومنهم من حادَّ الله ورسوله ومنهم الذين يؤذون الله ورسوله، يحتاج توكيد أنهم لم يُظلموا مثقال ذرة إلى مزيد من التوكيدات والذى قضى هو الله سبحانه وهو موصوف بكل كمال ومنزه عن كل نقص، ولم يكن حربهم إلا معه لأن من حاربوا رسل الله فقد حاربوا الله ومن آذى مسلما فقد آذى الله ورسوله، ولكنه سبحانه وهو الغنى عن العالمين لم يظلم ظالما مثقال حبة من خردل، وكل مواقف الحساب يوم القيامة فيها تأكيدات على هذا المعنى، وقد ذكرت كثيرا منها وخصوصا ما جاء فى آخر الجاثية، وخصوصا العناية الكبيرة بالأدلّة الدامغة من الكتاب الذى ينطق عليهم بالحق، ويوم تشهد عليهم ألسنتهم، وأيديهم، وأرجلهم، كل ذلك شائع جدا فى الكتاب العزيز ومنه هنا كلمة ﴿**بِالْحَقِّ**﴾ وجملة ﴿**وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ**﴾ لأن هذه الجملة تؤكد نفى الظلم عنهم بمؤكد لغوى يدركه المبتدئون فى علم العربية، وهو تقديم المسند إليه على الخبر المنفى وهو يفيد التوكيد كتقديمه على الخبر المثبت، فقولك أنا ما فعلت يفيد التوكيد فى النفى كقولك أنا فعلت المفيد التوكيد فى الإثبات، والفعل المضارع يعنى أن نفى الظلم عنهم متجدد فى المستقبل، الذى لا نهاية له، فإذا كانوا خالدين فى النار فلم تأت لحظة واحدة فى هذا الخلود وقد وقع عليهم ظلم أى ظلم، وما ظلمهم الله ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم، ثم إن اقتران نفى الظلم بالقضاء المفهوم من موقع الجملة الحالية، يعنى قضىْ بينهم بالحق والحال أنهم لا يظلمون فيه معنى آخر، وهو أن كل مراجعات الأعمال التى وجدوها حاضرة من صغيرها وكبيرها، وما جاء منها ووراءَه عَقْد نية وما جاء منها من غير نيّة، وكل هذه الأحوال النفسية التى وراء هذه الأعمال إلى ما لا يحصى مما يلاحظ فى القضاء العادل كان كل ذلك فى حال نُفى فيها الظلم عنهم، ولو كان مثقال ذرة، وهذا المعنى فى الجملة الحالية معنى جليل، جدا ثم إن مجىء هذه الواو مع الجملة الحالية مُشْعِرٌ بأن الخبر الذى تفيده هذه الجملة يوشك أن يكون خبرا غير مُتَعلِّق وغير ملتبس

بالخبر الأول لأن الجملة الحالية تخبـر بخبر ولكنه جزء من الخبر الأول، والواو مؤذنة بأنه خـبر يوشك أن يكون غيـر جزء من الخبـر الأول، وهذا يعنى مزيد عناية بمعنى ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ ومن المهم جداً وأنت تتذوق هذه الدلالة، وهذا التوكيد أن تذكر أن من هؤلاء الذين يحميهم عَدْلُ ربنا عن أن يقع عليهم مثقال ذرةٍ من الظلم، من كانت تشمئز نفسه عند ذكر الله، ومن كان تستبشر نفسه إذا ذكر الطواغيت، لتدرك معنى العدل الإلهى المطلق.

وهذه الجملة الحالية وإن كانت تشـير إلى الذين كفروا وأنهم لم يظلموا فى قضاء الحق الذى عاشوا يعارضونه، فإنهـا أيضا تشمل القضاء بين غيرهم لأن القضاء بالحق كان بـين الخلق جميعا: المؤمن والكافر، والبـر والفاجر، وكان قضاء بالحق فى حقوق الله؛ وفى حـقوق العباد، كان بين الظالم، والمظلوم، والقاتل، والمقـتول، وكان بين من شهدوا بالحق، ومن شـهدوا بالزور، ومن استقاموا، ووقفوا عند حدود الله ومن انحرفوا واعتدوا على حدود الله، كان قضـاء شمل خائنة الأعين، وما تخـفى الصدور، وعليك مرة ثانيـة أن تتدبر السعة التى تشمل كل فرد وكل عقـيدة، وكل عمل صالح، وكل عمل سيئ، على هذا الكون من يوم أن نفخ الله فى طينة آدم إلـى يوم أن نُفخ فى الصور فصـعـق مـن فـى السـمـوات ومن الأرض، وقوله تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ شامل لـنفوس المؤمنين والكافـرين وما عـملت من خيـر وشر، والوفاء يعنى أنهـا تأخذ حقهـا ولا تظلم، وهذا وإن كان يشيـر من وجه إلى القدرة التى لا حـدود لها، والتى توفى كل نفس، ولكل نفس كتاب يـشتمل على كل سلوكها صغيرا كان أو كبيرا وحقا كان أو باطلا، أقول إذا كانت هذه الجملة تشـير إلى القـدرة التى لا حدود لها فـهى من وجه آخـر تفيد توكـيد القضاء بالحـق، ونفى الظلم، لأن التوفية نَفْى صـريح للظلم وفى هذه الجملة إشارة ثانية خفيَّـة إلى فرط العدل، لأن التوفية توفيه جـزاء الأعمال، وليست توفية الأعمال، وحذف المضاف ووضع المضاف إليه موضعه يشير إلى أن الدقة الكاملة فى تقدير الجزاء على وفق الأعمال جعل جزاء العمل كأنه هو العمل.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ ناطق بأن قضاء الحق بالحق كان قضاء بعلْم شامل لكل فعل فعلوه وأن علم القاضى بالأفعال الواقعة من فاعليها يعنى أن قضاءه لهم أو عليهم بحق، لا ظلم فيه، وهذا المعنى أشار إليه الرازى وبهذا صارت هذه الجملة من مؤكدات العدل الذى هو أساس الملك، وأنه لم يكن أساس ملك الناس، إلا لما كان أساس ملك ملك الناس، وخالق الناس، ورب الناس، قال الرازى «إذا كان عالما بمقادير أفعالهم وبكيفياتها امتنع دخول الخطأ فى ذلك الحكم، فثبت أنه تعالى عبَّر عن هذا المقصود بهذه العبارات المختلفة، والمقصود المبالغة فى تقرير أن كل مكلف فإنه يصل إليه حقه» انتهى كلام الرازى.

وفى هذه الجملة وفى موقعها فاصلة خاتمة لمحفل الحساب والقضاء إشارة أخرى لأنها سُبقت بجملة ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم﴾ وتأكد الحق ونفى الظلم، وتوفية كل نفس ما عملت قبل ذكرها، وذلك لأن الحق يعلمنا أن القضاء فى مجالس القضاء لا يؤسس على علم القاضى منكم لأن علمه قد يدخله الخطأ، أو تتسرب إليه الأهواء وإنما يُؤسَّسُ على أصول وأركان أشارت إليها الآية بوضع الكتاب، وهو بمثابة المصدر القانونى الذى يحدِّدُ الفعل ويحدد مقدار مخالفته، ومطابقته أو قربه أو بعده ثم مجىء النبيين، الذين بلغوا التكاليف التى فى الكتاب، ثم شهود الفعل من الحفظة والكتبة الأخيار، ثم يأتى القضاء بعد معرفة الفعل، وسماع الشهود، والتأكد من أنهم شهدوا بما رأوا كل هذا وعلم القاضى لا مدخل له، وإنما يكون الحكم بما بين يديه من وقائع وليس بما عنده من علم، أو ظن، وهذا معنى جليل ودلالة الآية عليه ظاهرة، لأن الله سبحانه وهو يحدثنا عن قضائه بين عباده يعلمنا القضاء، كما أنه سبحانه وهو يحدثنا عن رحمته يعلمنا الرحمة، وهو يحدثنا عن عفوه يعلمنا العفو، وهو يحدثنا عن كرمه يعلمنا الكرم، فليس فى الكتاب شىء إلا وفيه تعليم لنا، وتوجيه، هذا والله أعلم.

وفى الكتاب العـزيز مفاصل مـعانٍ فى السور المخـتلفة تتولد عندها مـعان مختلفة على وفق سياق السور، فنفخـة البعث التى عبّر عنها بالزجرة الواحدة فى الصافات والنازعـات أعقبها مـعان مختلفة، والذى جـاء بعدها فى الزمر ﴿أَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمـر: ٦٩] إلى قوله تعـالى ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾، والذى جاء بعدها فى الصافات قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ (١٩) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٩-٢٣].

ويلاحظ أن إذا الفجائية فى الصـافات جاء بعدها ﴿يَنظُرُونَ﴾ وليس فإذا هم قيام ينظرون كما فى الزمر لأن الذى فى الزمـر هو الحساب الذى يقوم فيه الناس لرب العـالمين، والـذى فى الصـافات هـو رؤيتـهـم لما هالهـم لما رأوا ما يكذبون حـاضرا وهو عنـدهم يوم الدين يعنى يوم الجـزاء فذكـروا أكاذيبـهم وذنوبهم وخطاياهم وناسب ذلك الآيات قبلها وقالوا ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٥) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الصـافات: ١٥- ١٩] وانتقلت الآيات من وَيْلهمْ الذى فـاجأهم إلى العذاب ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾وطوت مشهد الحـساب، فالزجرة فى الصافات تبعـها صراخهم ثم عذابهم، والنفخة فى الزمر تبعها قيامهم ثم حسابهم ثم جزاؤهم وهكذا.

ذكرت هذا لأن الآيات فى سورة الزمر انتقلـت من نهاية موقف الحساب إلى سوق الزمر إلى الجنة والنار، وطوت شـيئًا ذكرته آيات أخرى منهـا آيات الحاقة التى طوت ذكر النفخة الثانية وتخطته إلى ما بعدها بعد ما ذكرت النفخة الأولى التى حملت فيها ﴿الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ [الحاقـة: ١٤، ١٥] وجاء بعـد ذلك العرض ﴿يَوْمَئِذٍ

تُعْرَضُونَ لا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨] واكتفت فى وصف مشهد الحساب بهذه الجملة، ثم انتقلت إلى ما يعقب الحساب، وهو الجزاء وذكرت منه ما لم تذكره الزمر، وهو قوله تعالى ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩] إلى آخره، ثم إن الزمر ذكرت القضاء بعد مجىء النبيين، والشهداء ووضع الكتاب، ولم تذكر من ثقلت موازينه ومن خفت موازينه وقلت وأكرر كل ذلك فى حاجة إلى أن يبحث ويستقصى ويُرَتّب وتعرض صوره فى بحوث جادة تبين سر ذكر ما ذكر وسر طىّ ما طوى، هذا والله أعلم.

قوله سبحانه ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧١، ٧٢].

هذه الآيات التى فتحت باب معنى جديد هى بمعناها الجديد امتداد للآيات قبلها لأنها تحدث عن الحدث الذى يأتى فى ترتيب الواقع بعد الذى قبلها، فإذا كان القضاء قد تمَّ فها هو الذى ثَبَتَتْ إدانته وحُكم عليه بالذنب والجرم يسوقه المنفذون لحكم القضاء إلى ساحة العقوبة، وفى هذا دلالة صريحة على أنه لا عقوبة إلا بذنب ولا ذنب إلا بقضاء.

أما رمى الناس فى المعتقلات بدون تحقيق فهذه هَمَجيَّة يصنعها همج اسمهم حكام.

وليس فى الكتاب العزيز «وسيق الذين كفروا» إلا هنا وكذلك ليس فيه «وسيق الذين اتقوا» إلا هنا، ولم تَرد كلمة ﴿زُمَرًا﴾ فى الكتاب إلا فى هذين الموضعين، وكل ذلك له دلالاته التى تظهر أو تخفى، واختصاص سور بكلمات معينة كثير فى الكتاب، ومن المشروع بل من الواجب أن أقول لماذا اختصت سورة الغاشية وحدها بذكر «النمارق والزرابى» وكان يمكن أن تذكر

فى الرحمن مع متكئين على فرش بطائنها من إستبرق أو مع الرَّفْرف الخُضر والعبقرى الحسان؟ ولو فتحت هذا الباب لتكاثرت عليك ظباؤه، كما تكاثرت على الهذلى الذى قال:

تكاثرت الظباءُ على خَراشٍ فما يَدْرى فراش ما يصيدُ

وكان علماؤنا يذكرون السورة أحيانا بالكلمة التى لم ترد إلا فيها، وهذا يعنى أن هذه الكلمة التى لم ترد إلا هنا لها صلة قوية بمضون السورة، ومعناها الأم، ولا أشك فى أن السَّوقَين والزمَرين فى سورتنا التى نحن فيها موصولان أتم وصل بالغرض الأم والمعنى الأم للسورة، وقد بدأت السورة بإخلاص العبادة لله رب العالمين، وحذرت من الشرك وانجر الكلام من هذه الرأس إلى ما انجر إليه، وانتهى الكلام عند هذا العجز وهو ممسك بالأمرين معا، الذين أخلصوا العبادة واتقوا وهم الذين سيقوا إلى الجنة وهم زمر الصالحين، والذين فجروا واتخذوا أولياء من دون الله ليقربوهم إلى الله زلفى وهم الذين يساقون إلى النار، وهم زُمَر الكافرين، وهذا ظاهر.

ومن المفيد أن نسأل سؤالا آخر هو لماذا قدم الذين يساقون إلى جهنم على الذين يساقون إلى الجنة مع أن المتأخر أشرف الفريقين؟

والجواب أن هذا جزء من كل يجرى فى الكتاب العزيز، أحيانا يتقدم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولهم جنات المأوى، وأحيانا يتقدم الذين قُطِّعت لهم ثياب من نار، وعلل ذلك وأسراره تظهر أحيانا، وتخفى أحيانا، وهذا باب من أبواب أسرار البيان فى الكتاب العزيز، لا يجوز أن يبحث فيه إلا العلماء الذين انقطعوا للعلم وزاولوا البحث فى أسرار بيان العربية عموما، وفى أسرار بيان الكتاب العزيز خصوصا.

والذى أراه فى تقديم الذين كفروا هنا -والله أعلم بمراده- هو أن رأس المعنى فى هذا القسم هم الذين ما قدروا الله حق قدره، وهم الذين عبدوا

غير الله، وزادوا فـي الكفر والفجور والاستـكبار، والاستخفـاف فطلبوا من خيـر الخلق أن يعبـد غيـر الله، وقد بينت الآيات شـيئًا مـن قدر الحق الذى جهلوه، بـيانا شافـيا، يقـول تعالى: ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ وهذا كلام مختصر جدا وقوى جدا فى دلالته، ثم دخلت فى أحوال الآخرة وهو مالكها سبحانه وبدأت بذكر النفخة التى هى نفخـة الفناء وأنه كـما خلق الكون بكلمـة وخلق آدم بنفخـة فى طينة أفناهم جميعا بنفخة ثم أحيـاهم بنفخة وليس أبين فى كمال القدرة ولا أبين فى بيان عز الألوهية من هذا، وهذا اقـتضى تقديم ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لأنهم هم الذين جهلوا هذا القدر وهذه الكمالات وعبدوا غير الله والكلام سيق لهم.

ووجه تقديم الذين كفروا هنا بعد ذكر آيات الله البينات كوجه تقديم الذين كفروا فى الحج، بعد ذكـر آيات الله البينات، وذلك فى قوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ١٩- ٢٣]، وقد سـبـقت هذه الآيات بأعظم آيات تجليـات القـدرة وأعظم آيات تجليـات عـز الألوهية، وذلك قـوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨] .وآيات الكمالات وكمال التجليات موجبة للإيمان ولا يروغ عنها إلا من هو أهل للعذاب، ولذلك يذكر بعدها عذاب أهل الضلالة، وهنا زيادة لطيفة توجب تقديم أهـل العذاب وهى قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ

﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾ وليس من المعقـول أن يأتى بعد ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾.

ومثل هذا تقديم آيات العذاب فى سورة النبأ وذلك فى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ١٨- ٢٠] إلى أن قال سبحانه ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا﴾ [النبأ: ٣١، ٣٢] وإنما قدمت جهنم وأنها كانت مرصادا للطاغين لأن الكلام كان فى النـبأ العظيم الذى هو القرآن وأنهـم اختلفوا فـيه وتهددهم ربنا بقوله: ﴿كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ: ٤، ٥] ثم ذكر تجليات آياته ثم جاء يوم الفـصل الذى فيه سيعلمون؛ وكان هذا مُـقْتضيًا تقديم ما قـدم، ولم يكن من المعقول أن يأتى بعد يوم الفـصل الذى أخبرهم ربنا أنهم فيه سيـعلمون، قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ وهذا سياق قريب جدا من سياق الحج، وقريب أيضا من سياق الزمر، التى اختلفت بذكر مشهد ومحفل الحساب والقضاء وقد طوى فى الحج والنبأ.

وإذا وضعت هذا السياق بإزاء سياق سورة السجدة التى ذكر فيها الذين لهم جنات المأوى نزلا بما كـانوا يعملون مقـدما على الذين فـسقـوا ومأواهم النار وجدت الأمـر مختلفـا جدا فقـد سيق ذكرُ الذين إذا ذُكِّـروا بآيات الله خَرُّوا سُجدا، وأنهم تتـجافى جنوبهـم عن المضاجع يدعـون ربهم خوفـا وطمعـا فاقتضى ذلك أن يُقدم من كان مؤمنا على من كان فاسقا.

والمقامات التى تقـتضى التقديم والتأخـير فى هذا الشأن كثيـرة، ومتنوعة، وأرى هذا ومثله مبحثا من مبـاحث التقديم فى علم البلاغة، ومن دقائق هذه المقامـات ما تراه فى سورة الزخـرف التى قَدّمت خبـر الذين آمنوا بآيات الله وكانوا مسلمين على خبر المجرمين الذين لا يُفَتر عنهم العذاب.

ووجـه ذلك أن الآية التى أنتجـت هذا التقـديم كانت تـتكلم عن العلاقـة

والصداقة والمحبة التى كانت بين الناس فى الدنيا، وأنها تَحولَّت إلى عداوة بين الذين كفـروا يوم القيامة، لأنهـا كانت علاقة ومحـبة وخلة شيطانيـة، تتعاون على الإثم والعدوان بخـلاف المحبّة والمودّة والخلة التى كانت بين المتـقين وأنها كانت مـحبَّة فى الله ومحـبَّة فى الخير والـتعاون على البر والتـقوى، وأن الله سبـحانه الذى هو عالم بأحـوال عباده نظـر إلى هذه العلاقة التى هى عـلاقة المرحمـة، والحب فيه سبـحانه وتعالى فـمنَّ على أصحابهـا وأبقاها بينهم فى الآخرة، كمـا كانت بينهم فى الدنيا؛ وأن الأرواح التى انتـزعت من الأجسام ظَلّت محتـفظة بهذه المحبَّة حتى التقـت هذه الأرواح بعد البعث فكانت الخلة بينهم فى الآخرة كـما كانت الخلة فيهم فى الدنيـا؛ وهذا من أجل المعانى التى تهزُّ نفوس أهل الله وتزيد بينهم مساحات المحبة فى الله وترتفع بأرواحهم عن الأغراض الدنيوية السريعة، والفانيـة، وتتعلق دائما بالملأ الأعلى يعنى بالخير، والبر، والعـدل، والرحمـة فهم الأحْسَن أخـلاقا وهم الموطؤون أكنافـها وهم الأحب إلى رسول الله ﷺ، وهم الأقربون منه مجالس يوم القيامة، جاء ذلك فى قوله تعالى ﴿ **هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٦٦) الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ** ﴾ [الزخرف: ٦٦-٧١] إلى قوله تـعالى ﴿ **إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ** ﴾ [الزخرف: ٧٤-٧٦] إلى قوله تعالى: ﴿ **لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ** ﴾ الزخرف: ٧٨].

وكلامى هنا فى تقديم جزاء فريق على فريق دون أن أتعرض لما جاء فى هذا الجزاء ﴿ **فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ** ﴾ [الحج: ١٩] وفى الزخرف ﴿ **لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ** ﴾ [الزخرف: ٧٥]،

وفى النبأ ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٤]، وهكذا يقال فى نعيم أهل الجنة، والذى فى الزمر كل فريق يساق إلى مقره، ومثواه، دون أى تفاصيل عن الذى فى هذا المقر، وإذا كنت قلت إن بحث التقديم والتأخير باب من أبواب أسرار البيان القرآنى فإنى أقول هنا إن بحث هذا التنوع وصلته بسياق السورة باب آخر، وإن كان الباب الأول دقيقا وغامضا فهذا الباب الثانى أدق وأغمض؛ وإذا كان تقديرنا لكلام الله حق قدره يوجب علينا ألا يدخل هذا الباب أو ذاك إلا أهل العلم المنقطعون، فإنه لا يجوز لأحد أن يتهاون وأن يجلس على أريكته ويشير إلى هذه الأبواب وأن يطالب طلاب العلم المبتدئين بالبحث فيها، لأنى رأيت هذا وهو مزعج جدا لأنه يعنى التفريط فى الأمانة وأن القادرين على حمل الأقلام أسقطوها من أيديهم وهذه حالة من اليأس نرجو الله أن يخلص البلاد من أسبابها.

وكان علماؤنا الكرام من المفسرين والدارسين لكتاب الله مشغولين عن ذلك كله بشواغل كثيرة ولها أهمية عظيمة ولم يقل أحد إن الأول يجب أن يكتب فى كل شىء، حتى لا يترك للآخر شيئا، ولله سر فى هذا الوجود، فلا يزال كل شىء فيه قابلا للنظر والاجتهاد؛ لأن النظر والتدبر والاجتهاد من أعظم القربات، ولم يُؤثر بها سبحانه جيلا من خلقه دون جيل، وإنما هو باب من أبواب الباقيات الصالحات سيظل مسلوكا إلى يوم أن ينفخ فى الصور.

وإذا سألتنى عن الاكتفاء فى الزمر بالذى ذَكَرْتُهُ دون أن تُبيِّن شيئًا من عذاب أهل النار، أو نعيم أهل الجنة، فإن الذى عندى فى هذا لا يَشْفِى الغُلَّة، وتظلمُ أىّ باحث إذا طالبته بما يَشْفِى الغُلة لأن شفاء الغلة لا يُبقى فى المسألة شيئًا وهذا غير مستطاع، وليس هو الأصل، وإنما عليه أن يقول ما يجد، ثم تبقى غلتك فتبحث أنت وتقول ما تجد، ثم يأتى صاحب غُلّةٍ ويَبْحثُ وهكذا، ثم يعود الكتاب إلى ربه يوم القيامة بكرا وكأنه لم يُمَسّ.

والذى عندى هو أنه سَبَق فى الزمر حديث عن عذاب أهل النار مختصر جدا وجامع وشامل وليس فى الهول أهول منه وهو قوله تعالى فى شأن الذين عبدوا ما يشاؤون من دونه وهم شقُّ أهل الباطل فى السورة ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ وكلمة ظلل من النار لم تأت فى الكتاب كله إلا فى هذه الآية، والضمير فى قوله ﴿لَهُم﴾ يعود على الذين كفروا المذكورين فى قوله تعالى ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الزمر: ٧١] ولا أعرف هولا للعذاب فوق هول الذين ﴿مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ ، وكان هذا كافيا فى نهاية السورة والمطلوب هو سوقهم إلى هذا الهول الذى هو ظُلَلٌ من النار.

وتقدم فى السورة أيضا من نعيم أهل الجنة قوله تعالى فى شأن الذين أخلصوا عبادتهم لله وهم المقابلون للذين اتخذوا من دونه أولياء، قال تعالى ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ [الزمر: ٢٠] وقد ذكر الحق أن الذين سيقوا إلى الجنة زمرا هم الذين اتقوا يعنى هم أصحاب هذه الغرف فاكتفى الكلام ببيان أنهم يساقون مكرمون إلى غرفهم، وقد سمَّى وهب بن مُنَبّه رضى الله عنه السورة بسورة الغرف؛ وتناقله المفسرون كما قال الطاهر، وأؤكد ذكر الذين كفروا فى سياق الظلل وذكرهم هم فى سياق السوق إلى النار، كما أنه ليس من المصادفة أن يوصف أصحاب الغرف بالذين اتقوا الذى وصف به الذين يساقون مكرمين إلى الجنة.

وقد وقفت كثيرا عند صور نعيم الجنة وصور عذاب أهل النار وكان يهمس فى نفسى أن أبحث لماذا جاء هنا ثياب قطعت من نار، ولماذا جاء هناك إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلى فى البطون كغلى الحميم، ولماذا جاء فى نعيم أهل الجنة قوله تعالى ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾ [الإنسان: ١٣] فى موضع ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ [الواقعة: ١٧] فى موضع، وما علاقة كل صورة بسياقها، ثم أراجع ولا أقع على سر أقوله

ويقينى أن هناك أسرارا ولكنها تخفى وقد علمنا شيوخنا أنك إذا لم تجد للتنوع سرا أو للتقديم أو للتنكير، فلا تقل ليس له سرٌ وإنما قل له سر ولكنى لا أعلمه، ومن قال لا أدرى فقد أجاب، ومن العلم أن يقول الرجل لا أعلم، ورحمهم الله فهذا هو المنهج القويم، وصراط العلم المستقيم، والبحث الجيِّد ليس هو الذى يَرْوى الغُلّة وإنما هو الذى يزيد الغُلّة أُوَارًا وهو الذى يثير الشهوة، ويطرح الأسئلة على أبواب المجهول، هو الذى يوسّع حاجتى إلى أن أعرف، وليس هو الذى يسدُّ فاقتى إلى المعرفة. قلت إن الذين يساقون إلى جهنم فى آخر السورة ممسكون بحجز المذكورين فى أولها من قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾، وهم الذين قالوا اتخذ الله ولدا وهم الذين جعلوا لله أندادا، وهم الذين عبدوا الطاغوت، وهم القاسية قلوبهم من ذكر الله وهم الذين كذبوا على الله، وكذّبوا بالصدق إذ جاءهم، وهكذا ترى المساقين إلى جهنم مُمْسِكِينَ بكل هذه النماذج، وهى التى كوَّنَتَ زمرهم وهم الذين انقلبت خلتهم إلى عداوة، ومثل هذا يقال فى الذين اتقوا المساقين إلى الجنة، وأن عَجُزَ السورة بهذا راد إلى صدرها، وأن الصور قسمان قسم أخلص العبادة وقسم لم يخلص العبادة، وأن العجز هو النهاية والنتيجة التى انتهى إليها كل فريق، ومن المفيد أن أقول إن العَجُزَ ليس راجعا إلى الصدر وحده وإنما هو راجع إلى الصدر ومعه كل ما هو أشبه به من المتناثر فى السورة، هذا والله أعلم.

وأشير أيضا إلى أن آيات الكتاب يفسر بعضها بعضا وأنه من حسن الفهم للآية أن أضع بجوارها أخواتها، لا لأوازن بين الصور وأرجع بكل إلى سياقه لأن هذا باب آخر؛ وإنما لأجعل بعضها يضىء لى جوانب بعض، فآية ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ يضىء جوانبها قوله تعالى﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَٰذَا﴾[الطور: ١٣-١٥] تأمل الغضب واقرأ الآية مرة ومرة لتفهم معنى سيق وتأمل الدَّع والبناء للمجهول

والمصدر المطلق، والاستفهام والأمر والنهى فى قوله ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا﴾ [الطور: ١٦] وحجم الغضب والاستهتار واحذر أن تظن أن كتابا يعلمك العلم لأنك لن تتعلم العلم إلا إذا كنت أنت بتدبُّرِكَ وتفكُّرِكَ وبعقلك مُعَلّم نفسك، ورحم الله أبا الفتح الذى قال لى ولك كن خليل نفسك، وأبا عمرو فكرك، وأيضا يضيئها قوله تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣] ويبدو أن الزوجة هنا على مذهب صاحبها، وربما كانت هى الأخرى مُثَقّفة مستنيرة، تقدُّمِيّة يساريّة متطرفة، وراجع كلمة اهدوهم إلى صراط الجحيم، وكأنهم بَحَثُوا عنه وضلوه وصاروا فى حاجة إلى من يهديهم إليه، ثم راجع كيف يكون حشر الذين ظلموا وأزواجهم فى قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [فصلت: ١٩] والحشر قد يكون حشر كرامة كما فى قوله تعالى ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٥، ٨٦] وعليك أن توازن بين يُوزعون ويُدَعّون وإن استطعت أن تصل كل ذلك بالسياق فافعل، لأنى لم أستطع، ثم عليك أن تَسْتَقْصِيَ الصور لأنى أخْشى أن أقول هذا باب آخر من أبواب دراسة أسرار البيان فتقول لقد أكثرت علينا بالأبواب التى لم تدرس واسأل نفسك هل يستحق هذا أن يفرد بالدرس؟

وكلمة ﴿زُمَرًا﴾ منصوبة على الحال أى وسيق الذين كفروا إلى جهنم على هذه الحالة وهى أنهم زمر، جمع زُمْرة، وهم الجماعة المتجانسة المتشابهة فى الضلالة وهى إشارة إلى أن الداخلين فى جهنم لهم جوامع تجمعهم، وأنهم ليسوا نمطا واحدا، فمنهم من كفر بالله ورسله، وسالم الأنبياء، ومن أسلم معهم، ومنهم من كفر ونازع الأنبياء ومن أسلم معهم ومنهم من كفر ولم يصد عن سبيل الله، ومن كفر وصدّ عن سبيل الله، ومن كفر وأطعم المسكين وأعان على نوائب الدهر، وأقرى الضيف وأغاث الملهوف، وأجاب

الصريخ، ومنهم من كفر ولم يطعم المسكين، ولم يحض على طعامه، ولم يُعن على نوائب الدهر إلى آخره، وكل هؤلاء جماعات بعضهم من بعض، وكل له فى الجحيم درك كما قال سبحانه فى سورة الأحقاف ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ [الأحقاف: ١٩] وهم يشبهون الجماعات الذين لهم مذهب واحد فى الفكر أو فى السياسة، أو فى الاقتصاد أو ماشئت، يعنى أهل النار مدارس مختلفة، يساقون فى زمر أساسها سلوك متشابه.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ كلمة حتى هى التى تأتى بعدها الجملة، والجملة هنا هى الشرطية، وفعل الشرط ﴿جَاءُوهَا﴾ وجواب الشرط ﴿فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ ووراء كلمة حتى إذا جاؤوها ما وراءها من الدعّ والزّع، والتعذيب، والإهانة، والتنكيل لأنهم يساقون إلى النار دعا، ويوزعون إليها زعا، وتجد لمحة دالة على هذا فى كلمة حتى التى من معانيها الغاية وفى امتداد الصوت فى قوله ﴿جَاءُوهَا﴾ كل هذا إشارة إلى زمن ليس بالسريع، ثم تجد أيضا ما يرشح الإشارة إلى حالة العذاب فى هذا السوق الذى هو دعٌ وزعٌ تجد مجىء جواب الشرط الذى هو المفاجأة يفتح أبواب الأهوال عند نهاية مشوار الزّع والدعّ ثم تجد أيضا المسارعة بفتح الأبواب وراء بناء الفعل للمجهول، وكأنهم ما إن وصلوا الأبواب حتى كانت قوة خفية غاضبة عليهم مسارعة لفتح الأبواب، ثم إشارة أخرى فى البناء للمجهول وهو أن المهم هو فتح الأبواب، لأنَّ المقصود فيه؛ لأنه باب العذاب وليس المهم من فتح الباب وترتب الجواب على الشرط وأن أبواب جهنم لاتفتح إلا عند مجىء أصحابها إليها فيه وإشارة إلى أنها لم تُعَد لغيرهم، وأنهم هم أصحابها، وأن إيقادها وقيام خزنة النار على تحشيتها كل ذلك لهم وأن ما سبَق فتح الأبواب من الدعّ والزعّ والإهانة ليس بشىء حين يهالون بما يرونه فيها عند فتح الأبواب.

وجملة ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ معطوفة على جملة فتحت أبوابها، ومرتبة عليها وليس على ما ترتبت عليه، لأن المعنى لا يستقيم لو قلنا حتى إذا

جاءوها قال لهم خزنتها، لأن الخزنة لا يقولون إذا جاؤوها وإنما يقولون إذا فتحت أبوابها، وهكذا تجد ترتيبا آخر وكأن هنا شرطًا محذوفًا، وتقدير الكلام حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها، وإذا فتحت أبوابها قال لهم خزنتها، وهذا يعنى أن الخزنة الكرام سألوهم هذا السؤال ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾ بعد فتح الأبواب، ورؤية الأهوال، والسؤال فى هذه اللحظة له دلالته لأن هذه الأهوال التى تهالون بها، إنما كانت من أجل هذا الذنب الذى نَسْأَلكَمْ عنه، وسبحان من هذه حكمته وهذا عدله لم يكتف الخزنة بأن هؤلاء قادمون من توقف قضاء عادل قضى فيه ربنا بالعدل وهو سبحانه يعلم ما يفعلون ولكنه سبحانه لم يَقْض عليهم بعلمه، وإنما وَضَع الكتاب، وجىء بالنبيين والشهداء، ووفيت كل نفس ما عملت وقضى بينهم بالحق، ووجدوا ما عملوا حاضرا، وشهدت عليهم ألسنتهم وأيديهم، وأرجلُهم وجلودهم ولم يعد هناك لبس ومع كل هذا لم يكتف عدل ربنا به وإنما أمر الملائكة أن تقررهم بذنبهم لحظة دخول دار العقاب، حتى يتأكد لنا أنه لا عقوبة إلا بذنب ولا ذنب إلا بقضاء، وأن هذا الإنسان المكرم من الله لابد أن يَعْرِف ما يعاقب من أجله، ولابد أن يُقرَّ بذنبه، أو تشهد عليهم شهود لا تُرَدُّ لأنهم النبيون والأخيار من الصالحين والشهداء فضلا عن ألسنتهم وأيديهم فضلا عن إقرارهم لحظة وقوع الجزاء، هذا الإنسان لابُدَّ له من كل هذه الضمانات، وإن كان عاش يُعاند ربّه ويستكبر على رسله وكتبه ويصُدُّ عن سبيله ويشمئز عند ذكر ربه، هذا عجيب جدا وخصوصا إذا وضعته بإزاء ما يجرى حولنا من رمى الناس فى المعتقلات وزنازين التعذيب حتى الموت وخلع أظافر الأطفال، وقطع أصابع الكُتَّاب، وقطع أنامل الرسَّامين كل ذلك يحدث تحت اسم الدولة الحديثة والديمقراطيات الحديثة، وحقوق الإنسان؛ وهذا السيل من الزيف، حتى إن أعرق الديمقراطيات وأكثرها دفاعا عن حقوق الإنسان لها معتقلات ليست سيئة السمعة فحسب، وإنما هى جهنم أقاموها على الأرض، ثم هى تكلف حكامنا لا أكرمهم الله بالإنابة عنها فى التعذيب الوحشى لأنها

تخاف على سمعتها إذا عذبتهم أنا أقرأ الآيات وأنظر إلى الواقع فأجد المسافات البعيدة التى لابد أن تراها عينى وعينك لأنهـا مسافات بين الحق والباطل ولأنها المسـافات التى تجعلنى وتجعلك تشهد أن هذا هو الله، والغريب أن هؤلاء وخدمهم يصفون المطالبة بتطبيق شرع الله بأنه رجوع إلى عصور الظلام.

وهذا السؤال سأله الخزنة لأهل النار ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ﴾ [تبارك: ٨، ٩] وسأله خزنتها لأهل النار لما قالوا لهم ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ (٤٩) قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ﴾ [غافر ٤٩، ٥٠].

وهذا السؤال المتكرر فى الكتاب العزيز قاطع بأن الله سبحانه وتعالى وتقدس لا يعذب أحدا حتى يرسل رسولا وفى يد هذا الرسول الآيات الدالة على أنه رسول رب العالمين، وفى يده أيضًا أمْر الحق للخلق ونهى الحق للخلق، وهذا هو العدل لأن هذا الأمر والنهى هو الذى يقوم عليه الحساب، وهو الكتاب، الذى يوضع وهذه إشارة إلى أنه لابد أن تكون فى حياتكم جملة قواعد وقوانين الكل يلزم بطاعتها ولايستثنى من ذلك أحد وكل من خالفنا يعاقب مهما كان قدره، لأن الله جمع الأنبياء جميعا وقال لكل واحد منهم ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ فليس هناك استثناء لا لأمير ولا كبير ولا لابن كبير، هذا شيء؛ ثم إن علماءنا أخذوا من الآية تلك القاعدة الأصولية التى تقول لا وجوب قبل مجيء الشرع، ثم إن هذا سؤال عام، وليس سؤالا للعصاة من المسلمين ولا للعصاة من غيرهم، لأنه ليس سؤالا عن مخالفات شرعية فليس سؤالا عن عدم إقامة الصلاة ولا عن الفطر فى رمضان، ولا عن الكذب وشهادة الزور إلى آخره وإنما هو سؤال عن الإيمان بما جاءت به الرسل جميعا، لأن هؤلاء الزمر هم الذين كذبوا

الأنبياء من لدن أول نبى بعث فى أول قوم إلى آخر المرسلين صلوات الله وسلامه عليه، وبالمناسبة يمكن أن يراد بالزمر الذين كذبوا أنبياءهم، ثم جاءوا زمرًا هذه كذبت نوحًا، وهذه كذبت هودا وهذه كذبت صالحا إلى آخره.

ويلاحظ أن شرع الله الذى يجب تطبيقه هو الأمر والنهى، وقد أمر الله بأشياء محدودة، ونهى عن أشياء محدودة، وترك مساحة واسعة فى حياة الناس لم يدخلها فى أمْر ولا نهى وإنما تركها للاجتهاد، واختلاف الأحوال، والعادات، ليأخذ الناس فيها بما يرون؛ ونهانا عز وجل عن أن نسأل عنها، يعنى من بين ما نهى عنه السؤال عن الأشياء التى لم يُنْزِل الله فيها حكمًا، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [المائدة: ١٠١]، وهذه الآية من أكرم آيات الكتاب العزيز وكلها أكرم، والإكرام الذى فيه هو طلب الإمساك عن السؤال، لأننا لو سألنا والقرآن ينزل سيكون هناك جواب نُلْزَم به، وهو من تكاليف الشرع، وعدم السؤال يُبعد عنا هذا التكليف ونترك أحرارًا نأخذ فى الأمر بما نشاء، وهذا من اليسر الذى يريده لنا ربنا.

ثم إن سؤال الخزنة هذا يعنى أن الخزنة لهم هم أيضا علم بذنب من يعذبون وأن المعذّب يعرف ذنبه وخازن جهنم يعرف أيضا ذنبه، وأن هؤلاء الخزنة لم تكن مهمتهم التعذيب فحسب كفرق التعذيب الذى صار علما يدرب عليه البشر الذين يصيرون كلابا مسعورة فى تعذيب المواطنين ولا يعرفون لماذا يعذبونهم، وصار التعذيب تُبْعثُ له بعثات خارج البلاد يعنى نحن لم نرسل بعثات فى الفيزياء والكيمياء وما تتقدم به البلاد وإنما نرسل بعثات لتعود ذئابًا شرسة لمواجهة المواطنين الذين يقولون للفساد والقمع والظلم لا.

لفتنى إلى هذا ثقافة الخزنة الذين يقولون لأهل النار ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ وهم الذين سيضربونهم بمقامع من حديد، ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ

أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢] ودخول همزة الاستفهام على النفى فى قوله ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ ليس المقصود بها السؤال عن النفى وإنما المقصود تقرير المخاطب بما يعلمه من مضمون الجملة، فقد يكون لفظها نفيا وهو يعلم الإثبات كما هنا وكما فى قوله تعالى ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾ وقد يكون لفظها إثباتًا والمخاطب يعلم نفيه فيقر بما يعلم كما فى قوله تعالى ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] ويمكن أن توجه الهمزة إلى الإنكار وإنكار النفى إثبات، والمراد أتتكم رسلكم، والله كاف عبده وشرحنا لك صدرك فى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١] وكل هذا معلوم من كلام العلماء والذى أريده هو أن هذا الطريق فى الاستفهام يكون عندما تكون الحقيقة التى دخلت عليها الهمزة ظاهر ظهورا لايسع أحدًا أن ينكره، فجرير حين قال:

ألستم خير من ركب المطايا   وأندى العالمين بطون راح

دل بهذا على أنه لا يسع أحدا أن ينكر أن هؤلاء خير من ركب المطايا، وأنهم أندى العالمين بطون راح، وهذا من أرفع البيان ولا ينبغى أن يُمْدح به إلا خير أهل الأرض، كما قال الجاحظ فى بيت الأعشى:

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره   تجد خير نارٍ عندها خير موقد

وقوله تعالى ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] لا يسع أحدا أن ينكر هذا وهكذا قل فى مثله ولذلك نجد سياق هذا السؤال سياقا لا يسع أحدا فيه الإنكار لأنه جاء بعد إشراق الأرض بنور ربها وهكذا. وكلمة (رسل) جاءت جمعًا لأن السؤال للمكذبين بكل رسول وكلمة (منكم) تعنى ممن تعلمون صدقهم وأمانتهم وحرصهم عليكم، وأنهم من أوسطكم حسبًا ومن أكرمكم أبا وجدا ولبثُوا فيكم سنين قبل أن يُبعثوا وكانوا موضع تقديركم فلما بعثوا فيكم تغير الموقف. كلمة «منكم» وصف للرسل وكانت وحدها كافية لإجابتكم دعوتهم ثم أضاف سؤال الخزنة جملة حالية ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ

رَبِّكُمْ﴾ وهذا تأكيد لوجوب اتباعهم ولوم وتعنيف على تكذيبهم، ومعنى الآيات الدلائل والبراهين والمعجزات التى أيدهم الله بها، والفعل المضارع يعنى أنهم كرروا هذه الآيات وأسمعوكم هذه الآيات سماعا مُتجدِّدًا فى زمن بعد زمن، ثم إن هذه الآيات هى آيات ربكم الذى خلقكم ورزقكم ورعاكم وحفظكم وهو قائم عليكم سبحانه، وتحوطكم رحْمتُه ونعمه وعطاياه، ثم إن الرسول لا يكون رسولا إلا إذا كان مؤيدًا بآية لا تكون الآية داخلة فى طوق البشر، وكلما كَرّرْت هذه الجملة وجدت فيها من الإحكام والإتقان ما تقوم عليهم به الحجة قياما لا يستطيع أحد أن يَدْفعَهُ ولذلك لم يجدوا سبيلا إلى دفعه، وإنما أجابوا إجابة رجعوا فيها إلى قضاء الله عليهم بالعذاب، وسنبين ذلك، وجملة ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾، معطوفة على جملة ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾، وبين الجملتين معنى جليل وهو أن الرسل الكرام الذين يعرفون أنهم كرام بعدما بيّنوا لهم الآيات تركوهم وما يختارون ولم يكرهوهم على شىء وإنما أنذروهم بالعذاب إذا رفضوا الآيات البيّنات؛ وبشروهم بالثواب إذا أجابوا داعى الله، وأنكم أنتم الذين اخترتم ما أنتم فيه، وقد أعْذَرَ من أنْذَرَ، وليس المراد باليوم هنا يوم القيامة وإنما أضيف إليهم لأنه يوم فتحت لهم أبواب الجحيم، بدليل اسم الإشارة، واليوم يستعمل فى أيام الشِّدة استعمالا مُستفيضًا كما قال علماؤنا، وهذا قريب من قوله تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [يس: ٦٣] أو ﴿الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [سبأ : ٤٢]، يعنى أصْبَحْتم فى مواجهة ما أُنذرتم به، وقامت لكم البيِّنة التى لم يؤمن الناس على أفضل منها، فكرهتم الحق وكرهتم ما أنزل الله فلا تلوموا إلا أنفسكم، لم يزد سؤال الخزنة عن أن قالوا لهم أتتكم الرسل بالبينات وأنذروكم يومكم ولم ينطقوا بما كان منهم، لم يقولوا لهم كذّبتم وقلتم ما أنزل الله من شىء أو قلتم هذا سحر مبين، أو قلتم لو شاء الله لأنزل ملائكة أو قلتم لنبيكم إنا لنراك فى سفاهة، إلى آخر ما قالت

هذه الزمر، لأن المراد ليس تنديمهم على ما كان وإنما المراد بيان استحقاقهم لما يواجهون، ثم إن هذه الزمر لم تجتمع إلا على رفض الإيمان، ورفض ما جاءت به الرسل، وما كان للخزنة أن يقولوا لهم مثلا قلتم ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: ٢٧] لأن هذا قاله قوم نوح عليه السلام وما كان لهم أن يقولوا لهم قلتم﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٦] لأن هذا قاله قوم هود عليه السلام، وما كان لهم أن يقولوا لهم قلتم ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ لأن هذا قالته قريش لسيدها وسيدنا وسيد ولد آدم عليه السلام وهكذا، وهذا من الكلام المحتاط.

وقولهم ﴿بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ من النظم العجيب والاختصار البالغ وذلك لأن كلمة ﴿بَلَىٰ﴾ أفادت معنى نعم جائنا رسل منا ومن كرامنا وأوساطنا وتلوا علينا آيات ربنا، ورأينا الحق فيها كفلق الصبح، وأنذرونا لقاء يومنا هذا، واستيقناها، كأننا نراها، واقتضى هذا كله منا الإيمان والطاعة وأن ننصر رسلنا، وننصر دينهم، ولكننا كفرنا بذلك كله، وسترنا الحق الناصع، وحاولنا أن نطفئ نور الله بأفواهنا، لأن كلمة العذاب التى هى قوله تعالى ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣] وقوله جل شأنه ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩] حقت ووجبت علينا، والذى كتب الله عليه الشقاء لا يكون سعيدا، والذى كتب الله له السعادة لا يكون شقياً ولا طاقة لنا بالخروج مما قضاه الله فينا.

أقول هناك كلمتان فى جوابهم هما مَفْصِل الإيجاز البالغ؛ الأولى كلمة ﴿بَلَىٰ﴾ وهى توجب إثبات ما قبلها، وبعدها جملة محذوفة تدل على هذا الإثبات، والثانية كلمة الاستدراك التى تقتضى هنا مستدركا منه محذوفا وهو معنى يقتضى ألا يكون ما بعدها، كما تقول فلان شجاع لكنه بخيل، لأن الشجاعة تقتضى ألا يكون بخيلا، ثم إن قوله ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ ليس هو المستدرك فى

المعنى، وإنما هو سبب أو علة كما يزعمون للمعنى المستدرك، والمعنى المستدرك أننا لم نؤمن، والمعنى المقتضى للإيمان الذى لم يكن منا هو ظهور الأدلّة فى الذى يتلونه علينا رسل منا، ومن أكرمنا، ومثل هذا التركيب وهذه المواقع لا أذكر أنى قرأتها فى شعر القوم وأنا لا أنفى هذا السخاء فحسب، وإنما أنفى الطريقة بدون هذا السخاء لأن هذا السخاء هو الإعجاز الذى لا يكون من الناس.

وتعليلهم عدم الإيمان بقولهم ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ من بقايا ضلالهم، وروغانهم وكذبهم على أنفسهم، كما وصفته آية الأنعام فى قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الانعام: ٢٢-٢٤].

وقولهم ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾كلمة حق لا ريب فيه أريد بها باطل لا ريب فيه، ومن حقت عليه كلمة العذاب لا منجاة له منه، ومن ذرأه الله للنار من الجن والإنس ليس له إلا النار، هذا هو الحق، ولكن من الذى أخبرهم أنهم حقَّت عليهم كلمة العذاب؟ لقد بَعَثَ الله رسله، وأنزل كتبه، ودعانا إلى دار السلام وإلى صراطه المستقيم وأوجد فينا القدرة على الفهم، والقبول، والرفض، والسير إما إلى طريقه المستقيم أو إلى السبل المتفرقة عن سبيله سبحانه، وتركنا وما نختار بعد أن بين لنا الحق كعمود الصبح وبعد ما أوحى إلى رسله وحيًا هو النور، والرحمة، وأمكننا من معرفة أنه وحيه، ونوره سبحانه، ورحمته التى وسعت كل شيء، ووعدنا بأن من أناب إليه هداه إلى الإيمان، وأن من سعى نحوه سبحانه شبرا سعى الله إليه ذراعا، ومن سعى إلى الله ذراعا سعى الله إليه باعا، وأن من اهتدى زاده هدى، وأنه سبحانه لا يظلم أحدا مثقال ذرة ولا يُضيع عمل عامل، وإذا كان هذا هو فكيف أقول إننى فجرت وكفرت واستكبرت وعارضت دين الله وعشت صاداً عن الحق كارها لما أنزل لأنه كتب علىّ الشقاوة؟ إن الشقاوة المكتوبة على الأشقياء

لا يعلمها الأشقياء وكل واحد منا مكتوب له السعادة أو عليه الشقاوة وهو لا يعلم، وليس هذا قيدا على اختياره وإنما هذا القدر المكتوب هو من شأن الألوهية لأن علم الله لا يؤتنف يعنى لم يعلم الله شقاوتى بعد ما أمارس أنا هذه الشقاوة لأنه لو كان ذلك لكان علما مؤتنفا يعنى بعد وقوع المعلوم وبعد الجهل، والله منزة عن ذلك لأن هذا علمنا نحن، أما علمه جل وتقدس فهو علم قديم لا أول له يعلم أحوال عباده قبل أن يكونوا فى الذر وقَبْل أن يخلقوا لأنه هو الذى خلقهم ،العلم بما كان وبما هو كائن وبما سيكون هو علم الله القديم، الشامل لكل ما فى الأرض، وما فى السماء، ولا يجوز لأحد أن يقول إننى كفرت لأن الله كتب علىَّ الكفر كما لا يجوز لفاجر أن يقول إننى فجرت أو قتلت أو سرقت أو غدرت لأن الله كتب علىَّ ذلك هذه سفسطة، وهَرْطَقة، وقد جاء رجل إلى عمر وقال له إنما أشركت لأن الله كتب علىّ الشرك فقال له عمر وسأضربك الآن لأن الله كتب علىّ أن أضربك، وهذا جواب حاسم من عمر وأنه لا يجوز لأحد أن يُعلِّل فعله بأن الله كتبه عليه.

وقول أهل النار ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ولم يقولوا علينا لأن المقصود أن كلمة العذاب حقت على من كفر، وهذا لو فطنوا إليه لكان نقصا لكلامهم، واعتذارهم، لأن كلمة العذاب حقت عليهم لأنهم كفروا، وقد كفروا باختيارهم، وَحَوْلَهُم مَنْ آمن، وهم أكرم منهم وأحكم، وأعقل، وهؤلاء يقولون إنهم استحقوا العذاب بكفرهم يعنى ليس بقضاء الله كما زعموا ثم إنهم ذكروا الكفر الذى هو الستر والتغطية ولا أستطيع أن أدفع معنى أراه فى هذه الكلمة، وهو أنهم رأوا الحق، واستيقنوه، ثم كفروه، بمعنى أنكروه، وستروه، وغَطّوه، والكفر إنكار الحق، وإنكار الحق لا يسمى إنكارا إلا بعد معرفته، لأنى لا أنكر ما لا أعرف، وإنما أنكر ما أعرف، ويؤكد هذا المعنى عندى قول الخزنة لهم ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ واستعمال المتكبرين بدل الكافرين للإشارة إلى أن سبب هذا الكفر ليس هو الجهل بحقيقة ما كفرتم به، وإنما هو الاستعلاء، والاستكبار، الذى فى صدوركم.

قوله تعالى: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ لما سمع منهم الخزنة ما قالوه زاد غضبهم عليهم، لأنهم رأوهم لا يزالون يكذبون ويراوغون، قد رأوا أرضا غير الأرض تشرق بنور ربها، ورأوا مارأوا وكشف عنهم الغطاء، وصاروا أسْمَع وأبْصر ثم عللوا شركهم بالعلة التى علل بها الرجل الذى خاطب عمر، وإن كانوا الآن مستكينين بعد السوق، والدع، والزع، وبعدما رأوا موازينهم تخف، وبعد ما أخذوا كتابهم بشمالهم، أقول قالوا ما قالوا بعد كل هذا، فزاد غضب الخزنة، وأول ما يدل على زيادة الغضب هو بناء الفعل للمجهول، الدال على أن المراد هو المقول، وهو أمرهم بدخول أبواب جهنم والإسراع فى ذلك، وليس الغرض معرفة الآمر بهذا الدخول، لأنه لا مناص لهم منه، ثم إنهم قالوا «أبواب جهنم» وكان يمكن أن يقال أبوابها كما قيل قبل ﴿فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ ووضع المظهر موضع المضمر هنا فيه تهويل وتبشيع لأن كلمة جهنم فيها من الأهوال ما فيها، والكناية يعنى الضمير لا تعمل فى النفس عمل التصريح، يعنى الاسم الظاهر لأن له طرقا فى القلب يثير روابط وأحوالا وظلال لا يثيرها الضمير، كما فى قوله تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥] لم يقل به نزل، ثم إنهم قالوا: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ وليس أهول من الهول إلا الخلود فى الهول، ثم إن الكلام لم يكتف بهذا وفيه ما يكفى، وإنما أضاف جملة تفيض ذماً لجهنم التى أمروا بأن يدخلوها وأن يخلدوا فيها ثم ذكروا كلمة المتكبرين، وهى كلمة تكذب دعواهم أن الذى أوصلهم إلى أبوب جهنم هو أنه حقت عليهم كلمة العذاب، والخزنة يقولون لهم الذى أوصلكم إلى هنا هو استكباركم على الحق، وليس أصغر ولا أضأل ولا أحقر من الذى يستكبر على الحق، هو باستكباره يشعر أنه يكبر وهذا شعور كاذب لأنه فى الحقيقة يَضْؤُل، والكبير هو من يتصاغر ويزعن للحق، والصغير هو من يستكبر. والفاء التى فى قوله ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ هى الفاء التى تُرتب هذا الذم على ما قبلها، وفى هذا الترتيب من الغضب ما فيه، لأنه يقول

لهم ادخلوا هذا العذاب فبئس هذا المثـوى لكم، لأنه مثوى حقيق بالذم، وبأم كلمـات الذم، وهى بئس، والمثوى فـاعل لبئس والمخـصوص بالذم مـحذوف وأصل الكلام ادخلوا أبواب جهنم حالة كونكم خالدين فيها وهى مثوى، فقال له بئس مثوى المتكبرين جهنم.

وإن أردت أن تتحقق ممـا أقوله وأن جواب أهل الجحيم زاد غـضب الخزنة رضـوان الله عليهـم قارن بين خطاب الخـزنة لهم قـبل أن يسـمعـوا منهم، وخطاب الخـزنة لهم بعـدما سـمـعـوا منهم، وأنهم قـبل أن يسمـعـوا منهم لاطفوهم، بهذا الاستفهـام الذى يراد به رجوعكم إلى أنفسكم، وتَبَيَّنوا أنتم، ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾، ثم قولهم: ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ وأن الرسل المخـتارين والمشرَّفين بأنهم رسل الله إلى خلقه، هم منكم وشرفُهم من شرفكم وشرفكم من شرفهم ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] ثم قالوا لهم: ﴿آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾ الذى أكرمكم وأنشأ لكم السمع والأبصـار والأفئدة ورزقكم، وجعل لكم الأرض مهادا، وجعل فـيها سبلا إلى آخر ما تذكَّر به كلمة ﴿رَبِّكُمْ﴾، وهذه الإضافة التى تُضِيفهم إلى ربهم فتكسبهم الشَّرف والكرامة.

أقول راجـع الملاطفة فى خطاب الخـزنة قبل أن يسـمعـوا منهم هَرْطَقَتَـهُم وخطاب الخزنة بعدما سمعوا.

وهذه الطريقة التى يذكر فيها دخول أهل النار النار ثم يعقب هذا بجملة ذم لهذه النار كـثرت فى الكتاب العـزيز منها الآية التى مـعنا وأختهـا فى سورة النحل ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٢٩] الآية هى وفـيها زيادة لام التـوكيد التى دخلـت على فعل الذم وهذه اللام فـيها إشـارة إلى غضب أشـد وراجع آية النحل وقارنهـا بآية الزمر ولاتنس أن المخاطبين فى الزمر هم الجمـاعات التى حوسبت ووُفِّيت كل نفس ما عملت وهذا بخلاف آية النحل التى ذكرت أنهم الذين توفتهم الملائكة وهو ظالموا أنفسهم وأن اللـه يخزيهم يوم القيامة، ويقـول: لهم أين شركائى

الذين كنتم تشاقـون فيهم إلى آخر مـا ترى من تعداد وسرد كـفرياتهم وأنهم يدعون من دون الـله من لا يخلق شيئـا، وأنهم إذا قيل لهم مـاذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين، إلى آخر ما قاله سبحانه وأن هذا جاء فى حُضن الآيات التى تتحدَّث عن نعم المنعم، وأنكم أيها الخلق إن تعدوا نعمة الله لا تحصوها، وأنه يُنعم ويعبد غـيره، وهكذا تبحث حتى تستخـرج سر مجىء هذه اللام هنا، وعلى هذا الحذو جاء قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التغـابن: ١٠]، وقال تعـالى: ﴿النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٧٢] وقوله سبحانه ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾: [ص: ٥٦].

ولا يجوز لنا أن نُغْفِل الربط بين قوله أهل النار ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وبين قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ والمقصود الآية الثانية التى ليست بعيدة عن قولهم وهم على أبواب جهنم ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، ولا أدفع أن يكون قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾ إشارة إلى قولها هذا القول وهى على أبواب العذاب ثم إنه تعالى رد على هذه القـرينـة بقـوله جل شـأنه ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٩] ولا أدفع الشّبه الذى بين قوله جل شـأنه ﴿جَاءَتْكَ آيَاتِي﴾ وقول الخـزنة ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾ ولا أدفع الشبة بين قـوله تعالى: ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ﴾ وما طوى وراء الاسـتدراك فى قـولهم: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ وأن وراء هذا بلى جاءتنا رسل منا يتلون علينا آيات ربنا وظهر لنا الحق كفلق الصبح وكان الأصل أن نؤمن ولكننا كذبنا واستكبرنا، لأنه حقت علينا كلمة العذاب، وأن الكلام يتناوب الدلالات فيـبسط المعنى فى آية ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ﴾

وبفيضه فى آيه ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ وهذا باب من أبواب أسرار الكتاب فى النشر والطىّ ملىء بالأسرار التى لم يُكْشَفْ عنها الحجب بعد.

ثم إننى لا أستطيع أن أدفع الشبه الذى بين قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ وقول الخزنة ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ لأن سواد الوجوه كفر وذوق عذاب، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦] والمتكبرون الذين اسودت وجوههم هم الذين قيل لهم ادخلوا أبواب جهنم، وقوله تعالى هناك ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ هو الذى قاله ربنا هنا ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ وهكذا ترى المعانى ينظر بعضها إلى بعض ويلامح بعضها بعضا ويومئ بعضها إلى بعض، وكأنها تتخاطب تخاطب سرار، هذا والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٣، ٧٤].

هذه الآية والتى قبلها أشبه بالتوأم مع الاختلاف الشديد بينهما وإن أردنا تحقيق الشبه بالتوأم قلنا إن التوأم المطابق يكون مطابقا فى كل ما يتصل بالشكل مما تراه العين ثم بعد بلوغ التكليف آمن أحدهما وكفر الآخر، فتباينا فى الباطن، تباينا أشد من تطابقهما فى الظاهر، ولم أعرف فى الكتاب العزيز آية أشدّ شبها بآية من هاتين الآيتين، نعم آيات كثيرة حذيت على حذو واحد، وزادت هاتان الآيتان بتكرار الكلمات، فالسوق هنا هو السوق هناك، والبناء للمجهول، ونائب الفاعل اسم موصول، صلته فى الأولى كفروا، وفى الثانية اتقوا، وحرف الجر المتعلق بالسوق هو هو، ودخل هناك على

جهنم، ودخل هنا عـلى الجنة، والزمر التى لم تذكر فى الـكتاب إلا هنا هى هى، واللطيف أنها ليس لها موقع ثالث فى الكتاب العزيز، ووُجدت هنا فى موقعين مـتقاربين جداً، و«فتحت» هى هى وهنا زيدت الواو فـأنتجت صورة هائلة ورائعة ومصـوّرة فى سياقها وهذه من أعظم الواوات التى أحـدثت فرقا هائلا بين الكلامين، كلام غابت فيه وكلام حضرت فيه، لأنها لما غابت هناك دلّت على أن فتح الأبواب كان عـقب مجيئهم بلا مـهلة، لأن الجواب يترتب على الشرط بلا مهلة، وأن نفى هذه المهلة يعنى أنهم ما إن جاؤوها حتى رأوا ما هالهم، وأفزعهم وذهب بعقـولهم، ولما حضرت فى الثانية منعت أن يكون الفتح هو الجواب، وأشارت إلى أن الجنة تهيـأت لهم بفتح أبوابها ثم أشارت إلى أن جواب الشرط محذوف لأنه لا يحاط بكنهه، ثم تجد وقال لهم خزنتها هو هو، إلى آخر مـا تراه من اتفاق أو تشـابه وكنت أكتفى فى التـعليق على مثل هذا بقول أبى الفتح العبقرى المسـهو عنه أنه من تصاقب الألفاظ لتصاقب المعانى، وإن كـانت الألفاظ هنا تعنى المفـردة والمركبـة معا يعنى هـنا تصاقب ألفاظ وتصـاقب بناء، وحذو، وهذا من التـعليل الجيد وإن كـان يقف بنا فى مسافة البرزخ بين العلل اللفظيـة والعلل المعنوية وكان الواجب أن تحرك المسألة خطوة بعد أبى الفتح، ونسأل عن سر التصاقب فـيما جاء فيه هذا التصاقب، وهذا السؤال يفتح بابا متسعا من الدراسة للشعر وللنثر وللكتاب العزيز والسنة المطهرة، ولا أشـك فى أنه من أجل أبواب دراسة أسـرار البيان، البـحث فى تصاقب المعانى خفى والبحث فى سـر هذا التصاقب أخفى والذى أراه فى سر التـصاقب هذا هو أن الكلامين فى جـزاء من حوسـبوا وقُـضى بينهم بالحق، ووفيت كل نفس مـا عملت، وقد رأينا إشـارات كثيـرة دالة على تحرى الحق والعدل فى حساب وعقاب وجزاء من كفر، ومن ظلم، ومن نازع الله، وحادَّ دين الله، وكره ما أنزل الله واشمأز قلبـه عند ذكر الله إلى آخره، رأينا كيف أن الحق جل وتقدس يحرِّم علينا ألا نظلم الظالـم مثقال ذرة، وأن من زاد عن

المثل مثقال ذرة فقد أصبح ظالما وأصبح الظالم الأول مظلوما، ووَحْدة هذا الأسلوب أو تصاقب الكلام الذى يعبّر عن سوق الفريقين كلٍّ إلى دار قراره هو متابعة لهذا العدل الذى شهد شهوده من الأنبياء والشهداء ووضع الكتاب والقضاء بالحق وأن الكل سواء فى مشهد القضاء والكل سواء فى مشهد الجزاء، وأن السوق وإن كان دعاً وزعاً مع الذين كفروا، وسوق إكرام ومسارعة نحو دار الكرامة مع الذين اتقوا هو فى هذين من باب الجزاء، وكلام الخزنة مع الفريقين فيه بيان أصل هذا التفاوت المتسع الذى آل إليه الفريقان وأن هذا التفاوت كان منكم لأن الله سبحانه سَوّى بين عباده فأرسل إليهم جميعا رسلا منهم وجعل للرسل جميعًا آيات بينات، وتلى الرسل هذه الآيات على أقوامهم، وأنذروهم لقاء يومهم هذا، كل خلق الله فى ذلك سواء، فآمن من آمن، وكفر من كفر، واختار كل طريقه بنفسه فالذين سيقوا إلى جهنم هم الذين اختاروا هذا السوق، والذين سيقوا إلى الجنة هم الذين اختاروا هذا السوق، أقول فى هذا التشابه فى الكلمات والبناء الذى قلما نجد فى الكتاب نظيرا له دال على فرط التسوية بين العباد، وفرط العدل بينهم، وأن الله سبحانه لم يميز أحدا على أحد، فى الوعد والوعيد، هذا والله أعلم.

قلت إن التصاقب الذى فطن إليه هذا العبقرى الذى جهله أهله، وراحوا يبحثون عن علم اللغة خارج ديارهم، يفْتَح بابا من أبواب أسرار البيان لا يحاط به، وأشير هنا إلى واحدة هى أن سوق الذين كفروا يصاقب ويستدعى بتصاقبه آية فى قلب السورة هى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ وراجع ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ وأنت تقرأ ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ لترى نفسك وأنت تتابع مثواهم إلى جهنم، وذكرت كلمة جهنم فى الآيتين، ولم تذكر كلمة النار أو الجحيم مثلا، ثم تزيدك الآية تذكيرا واقترابا فى قول الخزنة بئس مثوى المتكبرين وتكرر وتفيد كلمة

﴿مَثْوًى﴾ ثم تجد التواصل والتماسك بين آية ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾وهى أخت الآية قبلها مع آية ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ وهى أخت الآية التى قبلها، وتجد كلمة «المتقون» هناك تلقاك هنا فى وسيق الذين اتقوا، ثم إنك وأنت تتابع سوقهم إلى الجنة عليك أن ترجع إلى المتقين هناك وتقرأ ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ وها هم الآن يساقون سوق التكريم والكرامة ليأخذوا ما وعدهم الله به فى قوله ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ﴾ وهناك يقولون الحمد لله الذى صدقنا وعده، وكل هذا ظاهر وإن كان لم يُلتفت إليه.

وزمر أهل الجنة هم الجماعات المتجانسة ويمكن أن يكونوا أتباع الأنبياء الذين آمنوا برسالاتهم، وعزروهم، ونصروهم، ويمكن أن يكونوا متجانسين من جهة ما حُبب إليهم من فضائل الأعمال فهؤلاء الأوابون، وهؤلاء الحامدون، وهؤلاء المجاهدون وهؤلاء المستغفرون بالأسحار، وهؤلاء العلماء العاملون، وهؤلاء الزهاد وهؤلاء النساك، وهؤلاء الشهداء، ولست أدرى هل يراهم أهل الجنة متقلدين بسيوفهم وهم يساقون إليها؟ يعنى كل يُبْعَثُ على ما مات عليه، ويتعارفون ويساقون إلى الجنة زمرا، كل هذا يحتمله اللفظ، ويحتمل أيضا أن تكون هناك زمرة من الذين رفضوا الكذب والزيف والتلبيس، والتدليس الذى يقوم به ساسة كثير من بلاد الإسلام ووقفوا فى وجه الباطل ودافعوا عن الأرض والعرض لما رأوا ساستنا فتحوا أبواب البلاد للعدو وأسكنوه فيها وفتحوا باب الثروات للعدو، وأتَاحُوا لَهُ أن يَمُدَّ يَدَه إلى كل شىء، إلى ثرواتنا وإلى سياستنا ومناهجنا، وثقافتنا، هناك زمرة جمعت هؤلاء وهى أقل الزمر عددا وندعو الله أن يجعلها أكثر عددا.

قال الزمخشرى: «فإن قلت كيف عبّر عن الذهاب بالفريقين جميعا بلفظ السوق؟ قلت المراد بسوق أهل النار طردهم إليها بالهوان، والعنف كما يفعل بالأسارى، والخارجين عن السلطان، إذا سيقوا إلى حبس أو قتل، والمراد

بسوق أهل الجنة سوق مراكبهم لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين، وحثّها إسراعًا بهم إلى دار الكرامة، والرضوان، كما يفعل بِمَنْ يُشَرَّف ويكرَّم من الوافدين على بعض الملوك، فشتان ما بين السوقين» انتهى كلامه.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾، هذه الجمل الثلاث ومقول القول المكون هو أيضًا من جمل ثلاث كل هذا نصف جملة لأنه داخل فى حيز الشرط، والجواب مقدر بعد قوله خالدين، يعنى حتَّى إذا كان هذا كان ما كان من الإكرام والحفاوة والعطاء والمنّ والنعيم مما لا يقادر قدره، ولا تَبْلُغُ العبارة كنه وصفه، وهذا مقتبس من كلام الزمخشرى وهو كلام رجل تمرَّس على ذوق البيان، وإذا أردت أن تطل على المحذوف المقدر راجع ما ذكره الكتاب العزيز من صور نعيم أهل الجنة، من مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾[الدخان: ٥١- ٥٣] وما بعده، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [الطور: ١٧، ١٨] وقوله: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ [النبأ: ٣١- ٣٣] إلى آخره ثم اقرأ ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] إلى آخره، وهكذا تقرأ سورة الدهر، وكل هذا يأتى بعده ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] يعنى مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

والواو التى فى قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ عطفت متقدما على متأخر لأن فتح الأبواب كان قبل المجىء لقوله تعالى فى سورة ص ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ [ص: ٤٩، ٥٠] وهذا من الإكرام وكأن الجنة تستقبلهم بفتح أبوابها، وبناء اسم المفعول للمجهول فى قوله تعالى: ﴿مُّفَتَّحَةً﴾ وصوغه من الفعل (فتَّح) المضاعف وإسناد هذا إلى

الأبواب كل هذا فيه مـزيد من الإكرام، وكأن الأبواب تفتحت هى ولم يفـتحها أحد وهذا فى الجنـة يقابله فى الجحـيم أنهم يسمـعون للنار شهـيقًـا وهى تفور ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ [الملك ٦- ٩] جهنم تكاد تميز من الغـيظ والجنة فتحت أبوابها وربما كانت جملة ﴿ مُفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ﴾ فى سورة ص وأختها فى الزمر وهى ﴿ وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ من الوشائج التى تُعَدُّ من أسـرار ترتيب السور لأن الزمـر بعد ص وهذا باب صـعب ومغلق وأعنى به الأسرار البـيانية فى ترتيب السـور والمهم الآن أن أهل النار لما قال لهم الخزنة هنا﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ وقالوا هناك ﴿ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ ﴾ [الزمر: ٧١] وهذا من البسط والقبض الذى قلت إنه باب وحده.

قلت إن الواو فى قوله تعالى: ﴿ وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾عطفت متقدما على متأخر، وفى قوله تعالى ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾عطفت متأخرا على مـتقدم لأن قول الخزنة كان بعد مجيئهم وهذا معنى قولهم إن الواو لا تفيد ترتيبا ولا تعقيبا.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ من حق كـلام الله علينا أن نتـدبَّره نحن، ولا نـنتظر من يتـدبر نيـابة عنا، ثم يحدثنا بما وَجَد، لأن أهـم ما فى الكتاب من أسرار بيـانه هو أغـمضهـا، وهـو الـذى لا يسـتـطيع قلم أن ينقله إلى الورق، وإنمـا يبـقى يعـتلج فى القـلب ويسكن فـيه، ولا يبرح، وهذه هى لذة البـيان الذى يأبى أن يكون إلاَّ لمن يبحث عنه فى البيـان نفسه، وليس فى كتابات علمـاء البيان، قلت هذا لأن هذه الكلمـات الثلاث: سلام عليـكم -طبتم- فادخلوهـا كلمات متسعة الدلالة جدا مختصرة اللفظ جدا، ولها قدرة فائقة على التغلغل وكل

الذى أستطيع الإبانة عنه هـو أنها بادرتهم عند اللقاء بالسـلام فى يوم الفزع الأكبر، ولا تتطلّع النفوس فيه إلى شىء أفضل وأرفع من السلامة من شقوة الناس فى هذا اليـوم، ثم إنـها بـعد المـبـادرة بالسـلام سـارعت إلى الثناء ﴿طِبْتُمْ﴾ وأصابت كل فـضائل النفـوس ومعانى الخـير بكلمـة واحدة لأن كلمة ﴿طِبْتُمْ﴾ لا تدع معنى من معانى الخير إلا احتوته ولا تدع معنى من معـانى الشر إلا أبعدته، وبعـد الثناء كان الإكرام وكـان العطاء والخلود فى النعيم المقـيم، الذى لهم فيه ما تشـتهى أنفسهم، ويلذ عـيونهم، ولا تعلم نفس ما أخفى لـهم فيه من قرة أعين، هذا ما أسـتطيع أن أحدثك عنه فى بيان هذه الكلمات الثلاث، وأنا واثق أنه قليل جداً من قـشرة بيانية سطحية جدا وأقول إن هذا القول من الملائكة هو فى الحقـيقة قول الله، فالذى قال لهم سلام عليكم هو الله، والذى قال لـهم طبتم هو الله، والذى قال لهم فادخلوها، هو اللـه، لأن الملائكة لا يقولون ما يخـتارون كمـا نقول نحن البشر لأننا كلفنا والتكليف أساسه الاخـتيار، والثواب، والعقاب، على هذا الاختيـار، ولكن الملائكة يفعلون ما يؤمرون، ولا يعصـون الله ما أمرهم، والتنكير فى كلمة ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾ معناه التقليل، لأنه سلام من قبل الله، وبلَّغتـهُ الملائكة والقليل من الله لا يقال له قليل، كـما قال كرامنا رحـمهم الله، وذكـروا ذلك فى بيان قـول عيـسى عليه السـلام ﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[مريم: ٣٣] وكان قد سبق سلام من الله على يحيى عليه السلام كل ذلك فى سـورة مريم فى قوله تعالى: ﴿وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٥] والسلام فى الآيتين على نبيين كـريمين يوم ولدا ويوم يموتا ويوم يبعـثان، وجاء أحـدهما منكرا والآخـر معـرفا لأن السـلام الذى على يحـيى سلام من قـبل الله، والمراد بالتنكير التقليل للذى قلتـه وقالوه وهو أن القليل من الله لا يقال له قليل،

وعليه فهم قوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢] والتنكير فى الرضوان للتقليل، والمعنى أن القليل من رضوانه سبحانه أكبر من كل ما وصف الحق من عطائه لأهل الجنة، وهذا السلام الذى استقبلت به الملائكة زمر الذين اتقوا هو وعد الله لهم ﴿يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨-٧٠] ووعد الله لهم لما قال سبحانه: ﴿لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] ومثله كثير وكله وراء قولهم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾.

وقوله سبحانه: ﴿طِبْتُمْ﴾ توشك هذه الكلمة أن تكون قلب الكلمات الثلاث فى المعنى وهى كذلك فى اللفظ فقد سبقت بكلمة ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾ وأعقبت بكلمة ﴿فَادْخُلُوهَا﴾ وإنما كانت القلب فى المعنى لأن استقبالهم بالسلام والمسارعة بالبشرى إنما كان لأنهم طابوا، ثم المعاجلة بالعطاء والإكرام إنما كان بهذه الفاء التى رتبت أكرم عطاء وأعلاه، والذى لا ينازعه عطاء، وهو النعيم المقيم فى الجنة أقول هذه الفاء رتبت هذا العطاء على كلمة (طبتم) ولهذا قلت إنها قلب هذه الكلمات معنى ولفظا.

ومن أهم ما فى كلمة ﴿طِبْتُمْ﴾ أنها لم تتحدث عن أعمالهم، وأنهم عملوا الصالحات وأنهم آمنوا واتقوا، وأطاعوا الله، ورسوله، ولم تتحدث عن أقوالهم، وأنهم صدقوا، وهدوا إلى الطيب من القول، إلى آخره، وإنما تحدثت عنهم هم: عن نفوسهم وقلوبهم وعقولهم، وكل ما يكون به الإنسان إنسانا وأن هذا الكل صار طيبًا، وأنهم لما طابت أعمالهم وطابت أقوالهم وطاب سلوكهم وطاب رزقهم وطاب تقلبهم وطابت عشرتهم، وطابوا فى كل ما يزاولون، وكل ما يأخذون وكل ما يدعون انتقل هذا الطيب، من القول، والعمل، إلى ذات نفوسهم، وصاروا هم طيبين، ولا يزال الرجل يزاول

الطيب من القول، والفعل حتى يكون عند الله طيبا كما لا يزال الرجل يزاول الصدق من القول والفعل حتى يكون عند الله صديقا، وعكس ذلك لايزال الرجل يزاول الكذب حتى يكتب عند الله كذابا، وهذا كله وراءه شيء وهو أن ممارسة الصالحات بالقلب والإحساس المتوجه إلى الله، والخائف من الله، والمتَحرِّى فى هذه الصالحات لايزال الإنسان يزاول ذلك حتى يصير هذا جزءا من ذات نفسه، ويوشك أن يصدر عنه الخير كما يصدر الطيب من الزهرة والطيب أخو الطهر، والطيب عكسه القبيح والطهر عكسه الخبث، فالطيب لا قبيح فيه ولا خبث، والكلمة هى كلمة الحق، وهى كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها، ومن أكلها أن يقول الله لقائلها (طبت فادخل) ويرفع الله الكلم الطيب ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] سواء قيلت هذه الكلمة الطيبة فى صلاة أو سلوك أو سياسة أو دراسة أو كتاب، هى كلمة مأذون لها بالصعود إلى السماء وهى تعرف هذا الإذن وتَصْعد ليس إلى السماء إنما إلى الله رب السموات والأرض.

وهذه الزمر التى قال لها ربنا طبتم هم ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢] وهذه الآية أخت آية الزمر والعناصر الثلاثة المكونة للآيتين واحدة، وهى أنهم طيبون، وأن الملائكة يقولون لهم سلام عليكم، ويقولون لهم ادخلوا الجنة، والفرق هو أن هذه البشارة التى فى النحل كانت عند الوفاة والتى فى الزمر كانت لما سيقوا إلى الجنة زمرا، حتى إذا جاءوها وكأنهم علموا بمنازلهم لما توفتهم الملائكة، قال الراغب: «الطيب من الإنسان من تعرَّى من نجاسة الجهل، والفسق، وقبائح الأعمال، وتحلّى بالعلم، والإيمان، ومحاسن الأعمال، وإياهم قصد بقوله الذين توفاهم الملائكة طيبين، وقال طبتم فادخلوها خالدين»، انتهى كلامه.

والفاء التى فى قوله: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ رتبت الدخول على طبتم وأن من طاب فى اعتقاده وقوله وفعله دخلها، ومن خبث فى اعتقاد أو قول أو فعل لن يدخلها، وأصعب الطيبات منالا وأشدها بعد الطيب فى الاعتقاد، الطيب فى القول، والطيب فى العمل، وجذرها الطيب فى الاعتقاد، لأنه حين يصح يسهل الوصول إلى الطيب فى القول، والطيب فى العمل، وربما كان سبب كذب الكذاب وظلم الظالم وسرقة السارق وقمع الناس وتعذيبهم والتسلط على ثروات الشعوب ربما كان كل ذلك راجعا إلى خبث داخل الاعتقاد؛ لأن من صح إيمانه بالله وباليوم الآخر كف نفسه عن هذه الشرور التى صار يرتكبها من الناس من ليس لهم من الإنسانية إلا الهيئة، وأنهم فى الحقيقة ذئاب جائعة أو كلاب شرسة، فى صورة آدمى، وليس أشرس من الكلب الشرس إلا هذا الكلب الذى فى صورة آدمى، وليس أبشع من الذئب الغادر إلا هذا الذئب الذى فى صورة آدمى.

وهذه الفاء التى لم نعد نلتفت إليها فى تحليل الشعر استنبط منها أهل العلم بتحليل البيان قاعدة أصولية وأعنى بهم المعتزلة لأنهم رأوا أن ترتيب الدخول على قوله تعالى: ﴿طِبْتُمْ﴾ أن الجنة لا يدخلها إلا من وصف بقوله تعالى: ﴿طِبْتُمْ﴾ وأن مرتكب الكبيرة الذى يموت ولم يتب منها لا يقال له طبت، لأن الكبيرة خبث وقد انتقل إلى الآخرة وهو مُحتَقِبٌ لهذا الخبث، وهذا استدلال قوى لا ينقض، وأصله عند المعتزلة أن الله سبحانه لا يغفر الكبيرة إلا بالتوبة، وأهل السنة يرون خلاف هذا لأن الله سبحانه لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، والكبيرة داخلة فيما دون ذلك يغفرها سبحانه بالتوبة لأنه سبحانه وعد بذلك ويغفرها بدون توبة، والذى يعنينى هنا أن أهل السنة لم ينقضوا هذا الاستدلال الذى استدل به المعتزلة، لأنه كما قلت قوىٌّ لا ينقض وإنما نقضوا كلام المعتزلة وأصابوا من جهة أخرى، وهى أن الله سبحانه إذا شاء أن يغفر لمرتكب الكبيرة التى لم يتب منها غفر له، وإذا غفر

له صار طيبا، فلا منازعة فى أنه لن يدخل الجنة إلا الطيبون، ولكن المنازعة فى أن الله يغفر لمرتكب الكبيرة فيصير طيبا، وهذا كلام الجماعة، أو لا يغفر له ويظل غير طيب، وهذا كلام المعتزلة وكل ذلك تحت الفاء التى فى قوله تعالى: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾.

وكان الزمخشرى يخاف من هذه الآية ويقول (فما أبعد أحوالنا من تلك المناسبة وما أضعف سعينا فى اكتساب تلك الصفة إلا أن يهب لنا الوهاب الكريم توبة نصوحًا تنقى أنفسنا من دَرَنِ الذنوب، وتميطُ وَضَر هذه القلوب)، انتهى كلامه رحمه الله، والزمخشرى الذى يرى سعيه ضعيفا فى اكتساب تلك الصفة هو الذى فتح للأمة باب فهم أسرار الكتاب العزيز وكان ولا يزال كتابه نهرا عذبا يستقى منه كل الناظرين فى كلام الله كما كتب فى اللغة وربيع الأبرار وأساس البلاغة والنحو، قدّم للأمة ما قدّم وكانت له أوراد لا ينام عنها، ثم هو يرى سعيه ضعيفا فى اكتساب تلك الصفة وكيف يكون سعينا وعجزنا؟ ولا منجاة لنا إلا أن يتداركنا الله برحمته.

بقى شىء همَمْتُ أن أتجاوزه ثم رجّحت ذكره، وإن لم يكن عندى جوابه، وهو أن الخزنة الكرام قالوا لأهل جهنم ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ ووضعوا المظهر موضع المضمر، ولم يقولوا ادخلوها كما قيل ﴿فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ وذلك للدلالة على مزيد الغضب كما بينا، وقالوا لأهل الجنة ﴿طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا﴾ ولم يقولوا فادخلوا الجنة فلماذا هذا الاختلاف؟ وقد أجيب بالقول بأن قولهم فادخلوها جاء على الأصل وما جاء على الأصل لا يسأل عن علته، ولك أن تسأل سؤالا آخر وهو لماذا جاء على الأصل؟ وهذا هو الذى ليس عندى جوابه، وهناك فرق بين الجنة والنار من جهة أن كل ضروب العذاب مُعَدَّة فى النار، وليس كل ضروب النعيم مُعدَّة فى

الجنة، لأن كل ما وصفه القرآن الكريم من ضروب النعيم ليس هو كل ما يُنَعّم به الذين قيل لهم «فادخلوها» فالفرش المرفوعة والأرائك والزرابى والنمارق والقطوف الدانية والولدان المخلدون؛ واللائى كأنهن الياقوت والمرجان والمساكن الطيبة كل ذلك مَرْتبة من النعيم وفوقها غيرها كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢] وهذا معناه أن هذا الرضوان باب من أبواب النعيم، ثم هناك رؤية الله عز وجل وهناك لذة التسبيح والتحميد والذكر وأنهم دخلوا هذه الجنة بلذة الذكر وكان كفاؤهم فيها هو لذة الذكر لأنهم يسبحون ويحمدون ويذكرون تلذذا لا تكليفا وأن كل النعيم الذى هم فيه لا يعد تنعمًا إلا إذا وجدوا لذة النعيم، فالذين يدخلون النار ترى عيونهم كل ضروب العذاب، والذين يدخلون الجنة ترى عيونهم بعض صور النعيم ومالا تراه العيون أكبر، ولعلّ هذا هو سر الفرق بين العبارتين لأن كلمة ﴿أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ جمعت كلمة جهنم كل ضروب العذاب ووضع المظهر موضع المضمر لهذا، وكلمة (أبوابها) ليس فيه كل ضروب النعيم فليس هناك ما يدعو إلى وضع المظهر موضع المضمر، هذا والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

كما كان كلام الملائكة مختصرا جدا، كان كلام الداخلين الجنة والذين توجه إليهم كلام الملائكة مختصرا جدا ويوشك أن يكون قريبا منه فى عدد الجمل وعدد الكلمات.

وأول ما يلاحظ هو أن الملائكة وَجَّهُوا إليهم خطابهم، وقالوا لهم ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ وأن أهل الجنة اتجهوا إلى الله بالحمد والثناء، ولم يجيبوا الملائكة كما أجابهم أهل النار، وقالوا لهم ﴿بَلَى﴾ وإنما أدرك

أهل الجنة أن هذا السلام وهذا الثناء فى قولهم طبتهم وهذا العطاء فى قولهم فادخلوها كل ذلك من الله وأن هؤلاء الملائكة المكرَّمين إنما يبلغونهم عن الله، فانصرفوا إلى مصدر العطاء والنعمة والسلام والثناء.

وكان أول ما نطقوا به ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وفى هذا إشارة إلى أن الذى فتح لهم أبوابها وساقهم إليها مكرَّمين هو ذكر الله، وحمده، والثناء عليه، وأنه سبحانه له الحمد فى الأولى، وله الحمد فى الآخرة، وأن أول كلام أهل الجنة هو الحمد، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين.

الحمد هو الفرق بين الإيمان والكفر، فالمؤمن بالله مؤمن بأنه الخالق والرازق والباسط وكل هذا موجب للحمد، وأول آية فى المصحف هى الحمد، وكل صلاة تبدأ بالحمد وكل ركعة تبدأ بالحمد، وأن الله سبحانه أوجب علينا حَمْدَه وجوبا قاطعا سبع عشر مرة فى اليوم والليلة، لأن الله أوجب علينا سبع عشرة ركعة فى اليوم والليلة، ثم تضاف السنن والنوافل ثم يضاف التسبيح والحمد قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ [ق: ٣٩، ٤٠] ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾[غافر: ٥٥]، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور: ٤٨] والتسبيح معناه التنزيه وأنه سبحانه موصوف بكل كمال ومنزه عن كل نقص، وهذا مظهر الجلال، والحمد يكون للإكرام، وهذان هما المذكوران فى قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧] وأيضا فى قوله تعالى فى السورة نفسها فى آخر آية فيها ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨] والتسبيح والحمد مقترنان اقتران الجلال والإكرام وإذا سبَّحت فقد حمدت، وإذا قلت سبحان الله وتعالى عما يصفون فقد حمدته لأن تنزيهه عن كل ما لا يليق به سبحانه وصف له بما يليق به سبحانه، وقد جاء التسبيح وحده فى كثير من

الآيات كفواتح السور المسبحات وكقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧] وإذا حمدته سبحانه نزهته، والآيات تشير إلى أننا نسبحه سبحانه بحمده يعنى نجعل حمده طريقا لتسبيحه.

وإذا رجعنا مرة ثانية إلى أصل كلام الخزنة رضوان الله عنهم وجدناه ثلاث كلمات الأولى السلام وهذا تكريم للوافد وليس حديثا عنه ثم قولهم ﴿طِبْتُمْ﴾ وهذا هو الجذر ثم قولهم ﴿فَادْخُلُوهَا﴾ وهذا ليس فيه حديث عنهم وإنما هو إكرام مرتب على طبتم الذى هو أصل المعنى، وإذا قابلنا هذا بقولهم ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ وجدنا أن أصل هذا المعنى ورأسه هو الحمد، لأن اسم الموصول بعد لفظ الجلالة بدل منه، أو وصف له، وقوله صدقنا وعده صلة الموصول، وقوله وأورثنا الأرض معطوف على الصلة، داخل فى حيزها، وقوله نتبوأ من الجنة جملة حالية من جملة أورثنا الأرض، وهكذا بنى كلامهم على كلمة الحمد لله، وهذا ظاهر والمقصود ما وراءه وهو أن الذين دار كلامهم على قولهم طبتم، سمعوا من الذين طابوا كلاما دار على قولهم الحمد لله فدل ذلك على أن الذى به طابوا هو حمدهم لله، وأن الحمد لله هو القوة الروحية الدافعة لشرور النفس، والقامعة لفجورها، التى ألهمها الله يوم خلقها ﴿نَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٧، ٨] تقواها هو الحمد الذى به تواجه فجورها والحمد هو حصنها وما تزال النفس تردد الحمد حتى تطيب بالحمد، والحمد معها فى كل حال هى حامدة فى السراء، وحامدة فى الضراء، لأنها كما تحمد ربها على ما أنعم هى أيضا تحمد ربها حين يبتليها، لأنها حين البلوى تكون معرضة لمزيد من العطاء وحال البلوى هو حال النفحات، وقوله تعالى: ﴿الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ المراد وعده الذى وعد فيه الصالحين من عباده بأن لهم الجنة كما فى قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً

فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ٧٢] وكما فى قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة: ٩] وأختها فى سورة الفتح: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٩] والفرق هو أنه سبحانه قال «لهم» فى المائدة وقال «منهم» فى الفتح، ومثل هذا كثير فى الكتاب العزيز، وكما كثر ذكر الوعد فى الكتاب كثر ذكر أن وعد الله حق، وأن وعده سبحانه كان مسؤولا، وأنه لا يخلف الميعاد، وإذا كان وعده حقا ولا يتخلف فما المراد بقولهم الحمد لله الذى صدقنا وعده؟ وما معنى قولنا فى الدعاء ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، ومثل هذا كثير؟ ولاشك أن هذا مما تعبدنا الله به كما تعبَّدنا بذكر أسمائه الحسنى، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وكما تعبدنا بمثل قوله: ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الصافات: ١٥٨، ١٥٩] هذا شيء والشيء الآخر أنه سبحانه وتعالى يحمد بفعله الذى لا يليق به سواه يحمد سبحانه وتعالى بكرمه مع أن البخل لا يكون منه، ويحمد بعلمه، مع أن الجهل لا يكون منه، ويحمد بقدرته مع أن العجز لا يكون منه، وكذلك يحمد بصدق وعده مع أن الخلف لا يكون منه، ويمكن أن يفسر قولهم صدقنا وعده بأنه سبحانه لما وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات بأن لهم الجنة، منَّ علينا سبحانه وهدانا إلى الإيمان والعمل الصالح فصرنا فى جملة هؤلاء الذين صدق فيهم وعده، وأننا حين نقول كما أمرنا ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا ﴾ نريد ربَّنَا إننا نمدّ أيدينا إليك طالبين حولك وطولك وهداك فخذ بأيدينا على صراطك المستقيم لنكون من جملة ما وعدتهم، لأن وعدك حق، ووعدك صدق، وأنت لا تخلف الميعاد، إن رجاءنا ودعاءنا فى أن يُعْطينا ما وعدنا هو رجاء ودعاء فى أن يدخلنا فى زمرة ما وعدهم، وإنما يطلب المسبب وتريد السبب لأن الإيمان والعمل الصالح والاستقامة هو سبب العطاء

فإذا قلت يا ربى أعطنى ما تعطى الصالحين من عبادك وارحمنى رحمتك للذاكرين العابدين فأنا فى الحقيقة أطلب وأرجو وأدعو أن أكون من الصالحين، وأن أكون من الذاكرين العابدين لأنه من الحماقة أن أطلب أجر الصالحين ولست منهم، وأن أطلب رحمة الذاكرين وأنا لاه عابث هذا وفى هذا المعنى إقرار بالتخلى عن الحول والطول إلا بحوله سبحانه وطوله.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ المراد بالأرض أرض الجنة التى هم عليها أو الجنة نفسها لأن الأرض المعروفة زلزلت زلزالها وسُيِّرت جبالها فكانت سرابا، وبُدِّلت الأرض غير الأرض، والسموات، وذهب كل عالم الشهود الذى هو عالم الفناء كل ذلك ذهب إلى الفناء وبقى من شاء الله، وجاء عالم البقاء بأرض غير الأرض وكلمة ﴿وَأَوْرَثَنَا﴾ لها موقع سديد لأنها تعنى أن هذه الجنة آلت إلينا بمحض عطاء ربنا، وليست بعملنا كما أن الوارث منا يرث ميراثه، ويؤول إليه بغير جِدِّه وبغير كَدِّه، والملاحظ أن أهل الجنة لم يذكروا عملا لهم ولم يحدثوا عن أنفسهم بشىء فلم يذكروا الليل الذى قاموه، ولا المال الذى أنفقوه، ولا الجهاد الذى جاهدوه، ولا الصوم، ولا الحج، ولا أى شىء، وإنما حمدوا الله الذى أخذ بأيديهم لما مدّوها إليه وسعوا نحوه سبحانه، وهو الكريم الذى لا يردّ يدا امتدت إليه حتى يضع فيها خيرا وهو الكريم الودود القريب الذى إذا سَعَى نحوه عبده شبرا سعى هو بجلاله وعزه وملكه نحوه ذراعا، هؤلاء الذين هم زمر الجنة ليس لهم حول ولا طول، وإنما دخلوا فى وعد الله بمحض فضل الله، وأدخلهم الجنة ليس بعملهم وإنما بمحض فضله وأشاروا إلى ذلك بكلمة ﴿وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ﴾ وكما أن الإرث لا يكون بسعى الوارث كذلك لا ينتزع الإرث من الوارث، وإنما يصير ملكا له، والملك الناجم عن الإرث أعز علينا من الملك الناجم عن سعينا لأن ما ورثناه يشترك مع ما كسبناه فى أنه ثروة لنا ثم يزيد الإرث بأنه هِبَةٌ لنا من الذى ورثنا، وهدية لنا منه وضعها فى أيدينا يوم فارقنا.

وقوله تعالى: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ جملة حالية والتبوأ معناه الرجوع إلى المكان والإقامة فيه، والمعنى أنهم يتنقلون ويقيمون فى غرف الجنان حيث يشاؤون، وأن لهم فيها مُتَّسعًا، ولهم فيها مِلْكا ولهم فيها دورا، وغرفا، قال الزمخشرى «فإن قلت ما معنى قوله حيث نشاء؟ وهل يتبوأ أحدهم مكان غيره؟ قلت يكون لكل واحد منهم جنة لا توصف سعة وزيادة على الحاجة فيتبوأ من جنته حيث يشاء ولا يحتاج إلى جنة غيره».

وإذا كانت الجملة الحالية تبين أن لكل منهم جنة لا توصف فى السَّعة، فإنها تُبيِّن أيضا أن هذه السَّعة عامرة بأنواع النعيم المذكور فى الجنات، فحيثما تنقل وتبوأ وأقام وجد الحدائق، والأعناب، والكواعب الأتراب، والقطوف الدانية، والأرائك والنمارق المصفوفة، والزرابىّ المبثوثة، والولدان المخلدين الذين إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا إلى آخره، كل هذا عطاء ممدود فى هذه السَّعة التى لا توصف، وقد قال أهل الجنة ذلك وهم على أبوابها، لأنهم علموا ذلك من أنبيائهم ورسلهم، وكتبهم، لأن هذا مذكور فى كل كتب الله وعلى ألسنة كل رسل الله، ثم إنهم لما قالوا ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ قالوا ذلك لذة ومتاعا، وحُبًّا وتشوقا، لأن الجنة ليست دار تكليف، والحمد والتسبيح فيها من أرفع درجات متاعها.

وقد نقل الرازى عن حكَماء الإسلام أن اللذَّة بالذكر أرقى وأرفع من اللذات الحسية، الموصوفة فى الجنة، قال رحمه الله: «قال حكماء الإسلام: الجنات نوعان الجنات الجسمانية والجنات الروحانية، فالجنات الجسمانية لا تحتمل المشاركة فيها، أمَّا الروحانيات فحصولها لواحد، لا يمنع حصولها للآخرين» انتهى كلامه. وكأن الحق سبحانه منَّ عليهم بجنَّتَيْنِ جنة حِسِّيةٍ يَتَنَقَّلون فيها ما يشاؤون، وسعتها لا توصف، وجنة أخرى فى داخلهم متاعهم فيها لا يوصف، وليس هذا بعيدًا، لأن الحق سبحانه لما وصف بعض

ما فى الجنة عـقب على الوصف بقوله: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ وذلك فى قوله تـعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢] وهذا يعنى أن الذين اتقـوا نعـموا فى الدنيـا بلذات الحس، التى أخضعـوها لأمر الله ونهيه وبلذات الذكر التى طابوا بهـا فجعل سبحانه نعيمهم فى الجنات نعيم حِسٍّ ونعيم روح، وأنهما نعميان لا يبغيان.

وكانت جنة الروح حاضرةً عند الرازى فى تفـسيره لقوله تعالى فى وصف نعيم أهل الجنة فى سـورة الدخان ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [الدخان: ٥٦] قال الزمخـشرى: «فإن قلت كيف استُثْنيت الموتة الأولى المذوقة قـبل دخول الجنة من الموت المنفى ذوقـه فيـها؟ قلت أريد أن يقال لا يذوقـون فيهـا الموت البتة فـوضع قوله إلا الموتة الأولى موضع ذلك لأن الموتة الماضية مـحال ذوقها فى المستقبل فـهو من باب التعليق بالمحال كـأنه قيل إن كانت الموتة الأولى يسـتقيم ذوقهـا فى المستقـبل، فإنهم يذوقونها» انتهى كلام الزمخشرى.

وابن المنير يرى أن هذا من الاستثناء المنقطع وأنه يفيد توكيد النفى فلو قلت ما فـيها أحـد إلا حمارا، تكون قـد أكّدْت النفى، وقلت إن كان الحـمار من الأحدين فـفيهـا أحد، وعليـه قولهم وبَلْدةٍ ليس بها أنـيس إلا اليعافـير وإلا العيس، والمعنى ليس فـيها أنيس البتـة إلا إذا قلنا إن اليعافيـر التى هى الظباء والعيس التى هى الإبل مـن الأنيس وهذا محال والمهم أنه ذكـر من ذلك قوله تعالى، ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، والمراد إن كان الله ممن فى السـموات والأرض ففى السمـوات والأرض من يعلم الغيب، والله سبحانه وتعالى مُنزه عن المكان، هذا ما قاله أهل العلم وتناقلته الكتب. وقد زاد الرازى قولا يقـول «إن الجنة حقـيقتـها ابتـهاج النفس، وفَرَحُـها بمعـرفة الله

وبطاعته ومحبَّته وإذا كان الأمـر كذلك فإن الإنسان الذى فاز بهذه السعادة هو فى الدنيا الجنة، وفى الآخرة أيضا فى الجنة، وإذا كان الأمر كذلك فقد وقعت الموتة الأولى حين كان الإنسان فى الجنة الحقيـقية، التى هى جنة المعرفة بالله، فذكـر هذا الاستثناء كـالتَّنْبيه على قـولنا إن الجنة الحقيـقية هى حـصول هذه الحالة، لا الدار التى هى دار الأكل والشرب، ولهذا السـبب قال عليه السلام أنبياء الله لا يموتون، ولكن يُنقلون من دار إلى دار» انتهى كلام الرازى، وهذا كله غير مـتناقض مع موقف الرازى وغضـبه على ما قاله الزمـخشرى فى آية ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ وأن الغرض من هذا الكلام إذا أخـذناه بجملته ومـجموعـة تصوير عظمته، والتـوقيف على كنه جلاله، من غير ذهاب بالقبـضة ولا باليمن إلى جهـة حقيـقة أو مجـاز، وأن الفهم فى مثله يـقع أول كل شىء وآخره على الزبدة والخلاصة، رفض الرازى ذلك وقـال «إننا إذا سلمنا له بذلك فإن لكل أحد أن يقول المقصود من الآية الفلانيـة كذا وكذا، فأنا أحمل الآية على ذلك المقصود، ولا ألتفت إلـى الظواهر، مثاله من تمسّك بالآيات الواردة فى ثواب أهل الجنة وعقـاب أهل النار، وقال المقـصود بيان سـعادات المطيعين وشـقاوة المذنبين، وأنا أحمل هذه الآيات على المقـصود، ولا أثبت الأكل، والشرب، ولا سائر الأحـوال الجسمـانية» انتهى كلام الـرازى، وأقول هذا لا يتنافى مع حديثه عن الجنة الروحـية فى الدنيا والآخرة لأنه لم ينف الأحوال الجسـمانية من الأكل والشرب وغيرها.

قوله سبحانه: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾.

هذه الفـاء ترتب ما بعـدها الذى هو ثناء على الأجر، على مـا قبلهـا من صدق الوعـد، وإرث الجنة يتبوؤون فيـها حيث يشاءون، وهذا كـقولنا أعطاه كذا وكـذا وكذا فنعم مـا أعطاه وفعـل كذا وكذا وكـذا فنعم ما فـعل، وهذا رجوع إلى الذى مَضَى وبيان لفضله وأنه أهل لأن يقال فيه نعم هو.

واللفظ صالح لأن يكون هـذا من كلام أهل الجنة، وأنه داخل فى حيـز قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ويكون فيه معنى الثناء على الله سبحانه وتعالى، الذى آجر العاملين أجرا نعم الأجر، وليس فيه تزكية لأنفسهم كما قال الطاهر، وإنما هو من التـصريح بالحـقائق، لأن هذا العـالم الذى هم فيـه عالم الحـقائق الكاملة المجـردة عن شوب النقائص، وليس فـيه أنهم دخلوا الجنة بـعملهم لأن دخول الجنة بالإحسان وليس بالأعـمال، لقوله عليه السلام: «**لا يدخل أحدكم الجنة بعمله قالوا ولا أنت يارسـول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحـمته**»، والأجر المذكور فى الآية وفى نظائرها أجر إحسان وليس أجر استحقاق، ومعنى أجر الإحـسان أن الله سـبحانه وعـد عباده الصـالحين أن يُورثهم الجنة، بما كانوا يعملون، فجعل لهم سبحانه من محض عطائه أجرا ووعد به، ووعده لا يتخلف، وأوجب ذلك عـلى نفسه من مـحض فضله، وما كـان لأحد أن يوجب على الله شيئـا؛ وقد خلق الله الجن والإنس ليعبدوه فمـن قضى عمره عابدا لله فـقد أدّى ما خلق لأجـله، وليس له عند الله شىء، ثم إن نعم الله على عبـاده لا تُحْصَى، ولو قضى العبـد عمره كله عـابدًا، قانتا قائمـا بطاعة ربه، فلن يوفى شكر نعمة واحدة، فكيف بما لا يحـصى؟ وماذا يبقى له حتى يكون له به أجـر؟ ثم إن العبـادة والطاعة هـى نعمـة من أجل النعم، وتوجب الشكر، والشكر نعمـة، يوجب الشكر، والطاعة والشكر ليس نعمـة كنعمة المال والولد والعـافية والسـمع والبصـر، وإنما هى أجل النعم وأعـلاها، لأنها نعـمة الرضى، والقرب وليس بعد الرضى والقرب شىء، وهكذا كلما تأمَّلت تأكدت أن مسألة الأجر فضْل وَمَنٌّ وإحســان وَوَعد؛ وهذا هو إجماع علماء المسلمين والذين يقولون بالوجـوب على الله يقولون إنه هو الذى أوجب على نفســه، وما دام قد أوجب على نفســه وجب علينا أن نقول بما أوجب وأخبـر، والذين اتقوا وسيـقوا إلى الجنة زمرا وأورثهم الله الأرض يتبوؤون من الجنة حيث يشاءون يعلمون ذلك علم اليقين، وذكر الأجر ليس له معنى إلا أجر الإحسان وليس أجر الاستحقاق.

واللفظ يحتمل أن يكون الذى قال فنعم أجر العاملين هو الله سبحانه، وأن يكون سبحانه رتَّب قوله على قولهم الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض، ثم هو سبحانه الذى يحكى لنا ما سيكون وكأنه كان يعنى كأنهم سيقوا إلى الجنة وقيل لهم كذا وقالوا كذا وسمع الحق ذكرهم وثناءهم وحَمْدهم وأتبع قولهم بقوله سبحانه: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ وعلى هذا الوجه يكون فى هذه الجملة ثناء من الله على هؤلاء العاملين وثناء على أجرهم وأنه سبحانه - وهو الأهم- يمنُّ عليهم منّاً آخر، ويقول لهم هذا أجركم وهذا عملكم، وإذا كان أجرا مقولا فيه نعم الأجر فذلك إنما كان لعمل منكم مقولٍ فيه نعم العمل، وطاعةٍ مقول فيها نعم الطاعة، ويكون الحق الذى منّ بالعمل وبالتوفيق وبالحول وبالطول، وبالثواب يقول لهم هذا جزاؤكم وليس عطاء منّى ويكون هذا كالكريم الذى يحبوك ويقول لك هذا حقك علىّ، وليس عطاء منّى وبهذا يعلمنا ربنا ضربا من مكارم الأخلاق، وأن تتفضَّل ثم تحدث بأنك لم تتفضّل، وكأن الفضل إنما هو لمن تفضّلْت عليه، لأنه صنع ما يوجب له هذا الفضل.

والذى قال إن هذه الجملة من كلام الله مقاتل، روى عنه الرازى قال: «ليس هذا من كلام أهل الجنة بل من كلام الله تعالى لأنه لما حكى ما جرى بين الملائكة وبين المتقين من صفة ثواب أهل الجنَّة قال بعده فنعم أجر العاملين» انتهى كلام مقاتل كما رواه الرازى، وفيه فوق الذى قلناه معنى آخر، وهو أن أجْراً قال الله فيه نعم الأجر لابد أن يكون أجرا لا يحاطُ به، وأن ما تبوؤوه فى الجنة ليس هو كل الأجر وإنما لكم فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ولا تعلم نفسٌ ما أخفى لكم من قرة عين. وهذه الجملة فى كلام الحق تقابل قول خزنة جهنم للذين كفروا فبئس مثوى المتكبرين، والفاء هى الفاء ويا بعد ما بين ما قبلها وما بعدها، فى الكلامين، فى جملة خزنة النار الذى قبل الفاء عذاب لا يحاط بكنهه، وفى الجملة الثانية نعيمٌ لا يحاط بكنهه، وكلمة ﴿نِعْمَ﴾ تقابل كلمة ﴿بِئْسَ﴾ وكلمة ﴿الْعَامِلِينَ﴾ تقابل كلمة ﴿الْمُتَكَبِّرِينَ﴾

وهذه المقابلة تفيد أن جماعة المتكبرين، جماعة عاطلة، فارغة، مُستفزة، لأنها تقابل الصالحين الطائعين الذين يعملون الصالحات وهم أهْلُ البرّ وأهل الرحمة، وهذا بخلاف أهل الفجور، والظلم، وأهل الغطرسة، وكلمة ﴿مَثْوَى﴾ تعنى الإقامة فى الجحيم تقابل كلمة ﴿أَجْرُ﴾ والمراد ثواب الجنة، ولاشك أننا نختصر ونختزل معانى كثيرة بكلمة المقابلة، وأن هناك تفاوتا لا حدود له فى الصور التى نَصِفُها بالمقابلة، ولك أن تتدبر التفاوت الذى لا حدود له بين أهل الجحيم، الذين قيل لهم ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ وأهل الجنة الذين قيل لهم ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ وهذا التفاوت الذى وراء هذه المصطلحات هو الأصل فى تفاوت درجات الكلام، فالتفاوت الذى بين الاستعارات لا حدود له، والتفاوت الذى بين التشبيهات لا حدود له، والتفاوت الذى بين صور التقديم، والحذف إلى آخره كل ذلك لا حدود له، والحقيقة أن هذا التفاوت هو البلاغة وأن هذه المصطلحات علامات، ومن وقف عندها كان بمعزل عن البلاغة التى وراء هذه المصطلحات.

قوله سبحانه ﴿وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

ترى أول سماعك لهذه الآية أنها انتقلت من بيان أحوال الناس بعد الحساب إلى بيان أحوال الملائكة، وهذا انتقال واسع لم يألفه القارئ. صورة الملائكة الكرام وهم حافون حول العرش محدقون به هذا ما تراه العين، ثم هم يسبحون بحمد ربهم وهذا ما تسمعه الأذن، ولم تذكر صورة الملائكة الحافين حول العرش فى الكتاب العزيز إلا فى هذه الآية، وقد ذكر حملة العرش فى غافر، وهم يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا كما ذكرت فى سورة الحاقة ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧] ولم يكن التسبيح فى غافر مَظِنّة أن يُسْمع بخلاف التسبيح فى الزمر، لأن كلمة ترى تعنى الاقتراب منهم والاقتراب يعنى السماع.

وهذه الآية داخلة فى السياق دخولا ظاهرا، لأن السياق بيان أحوال القيامة وذكر الطاهر أن السياق ابـتدأ بقوله تعالى ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾، ولو قلت إنه ابتدأ بقوله تعالى ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ لم تكن متجاوزا ﴿وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ من مظاهر قدره سبحـانه الذى لم يَقْدُرُوه، وقد جرت مظاهر هذا القـدر وهذا الجلال وهذا السلطان ومظاهر عـز الألوهية فى كل كلمة قيلت بعد ذلك ترى هذا الـقدر وهذا السلطان وهذا الجلال فى قوله ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ كما نراه فى قوله ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾، وتراه فى قوله ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ إلى هذه الآية.

وهذا يعنى أن الآية من تمام هذا الموقـف الذى تجلّى فيـه قَدْره سـبحـانه، والذى أجمل بيانه جلّ وتـقدّس فى هذه الجملة ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ وهذه من أعظم كلمات عز الألوهية.

والملائكة المكرَّمُون داخلـون فى نفخة الصـعق، وداخلون فى نفخة القـيام، وإذا كان الموقف بيانا للقـضاء بين الخلق، والجزاء بين الخلق، كان مما يقتـضيه السياق أن يذكر القضاء بين الملائكة ويُبـيَّن جزاؤهم، ومكانهم كما ذكر القضاء بين الناس، وذكر جـزاؤهم وذكر قرار كل فـريق فى داره، هؤلاء خالدون فى جهنم وهؤلاء خالدون فى الجنة، وبقـيت الملائكة الذين شملهم صعق من فى السمـوات ومن فى الأرض، وهذه الآية بيـان لجزائهم، والملائكة مـعصـومون ﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحـريم: ٦] وليس بينهم تظالم كالذى بين الناس، والقـضاء بينهم إعطاء كل درجته علـى وفق الأعمال التى أمره الله بها، وجنتهم حول العرش، ونعيـمهم هو التسبيح والحمد، قال

الرازى: «لما قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ ذكر عقيبه ثواب الملائكة فقال كما أن دار ثواب المتقين المؤمنين هى الجنة، فكذلك دار ثواب الملائكة جوانب العرش، وأطرافه، فلهذا قال ﴿وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ أى مُحْدقين بالعرش قال الليث: يقال حف القوم بسيرهم يحفون حفا إذا طافوا به، إذا عرفت هذا فتقول بيَّن تعالى أن دار ثوابهم هو جوانب العرش وأطرافه ثم قال ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ وهذا مشعر بأن ثوابهم هو عين ذلك التحميد والتسبيح وحينئذ رجع حاصل الكلام إلى أن أعظم درجات الثواب استغراق قلوب العباد فى درجات التنزيه، ومنازل التقديس» انتهى كلام الرازى.

وهذا النص الجيد يتضمّن معنى لم يقله الرازى وإنما يفهم من كلامه وهو أنه إذا كان أعظم الثواب فى الآخرة هو استغراق العباد فى درجات التنزيه، ومنازل التقديس، فإن هذا يعنى أن أعظم القربات فى الأولى هو استغراق العبد فى درجات التنزيه ومنازل التقديس، وهذا ما يشير إليه الكتاب العزيز بتكرار الأمر بالتسبيح فى العشى والإبكار، وقبل طلوع الشمس، وقبل غروبها، وإدبار السجود وإدبار النجوم، وبتكرار الأمر بالذكر، قياما وقعودا وعلى جنوبكم، وإذا جدَّ أهل الحق فى الذكر ودخلوا فى جملة الذاكرين والذاكرات وجَدُوا ما أعده الله لهم مغفرة وأجرا عظيما، والأجر العظيم أعلاه وأسناه استغراق قلوب العباد فى منازل التقديس.

والمخاطب فى قوله تعالى ﴿وَتَرَى الْمَلائِكَةَ﴾ رسول الله ﷺ وافتتاح الآية بهذه الكلمة فيه إشارة إلى أنك ترى أمْراً غريبا لم تتوقع أن تراه وهذا مشهد من أعظم مشاهد الجلال، وتأتى هذه الصيغة فى مشاهد غريبة كما فى قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [الجاثية: ٢٨]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: ٩٣] وقوله تعالى ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٣٠].

«وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاد»، وأكثر مواقعها فى مشاهد القيامة من هذا الباب ومشاهدها فى الدنيا مشاهد تحتاج إلى مزيد من اليقظة والتدبر والاعتبار كما فى قوله تعالى ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ [فاطر: ١٢]، ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج: ٥] وفى زلزلة الساعة ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ﴾ [الحج: ٢] وفى السورة من هذا الطريق قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ وهذا من أدق وأخفى آيات القدرة لأنك لو أرَدْت أن تعرف كيف ينزل الماء من السماء وكيف يسلك ينابيع، وكيف يخرج الزرع لاحتجت إلى علوم كثيرة، وقوله تعالى ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾، ودخول كلمة (لم) النافية للفعل المضارع مسبوقة بهمزة الاستفهام كثيرة فى الكتاب العزيز كما فى قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ [لقمان: ٢٩] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [المجادلة: ٧] ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ...﴾ إلى آخره [المجادلة: ٨] وهذا كله يكوِّن بابا خِصبًا جدا من أبواب دراسات معانى الكتاب العزيز لأن لهذا الطريق خصوصية ظاهرة وهى أنه يأتى فى المعانى التى تحتاج إلى رؤية ورأى يعنى تحتاج إلى معرفة وتَدَبُّر.

والمخاطب فى قوله تعالى ﴿وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ﴾ رسول الله ﷺ وهذا لا يعنى أنه وحده عليه السلام يرى الملائكة حافين من حول العرش، لأن كل من أراد ذلك من أهل الجنة يكون له ما أراد لأن أهلها لهم فيها ما تشتهيه أنفسهم، وإنما خُص عليه السلام بذلك لأنه سيد الأمة، وسيد أهل الجنة، وإمام المرسلين، وهذا من إكرام الله له، ثم هو مما يُردُّ به العَجُز على الصدر، لأن السورة خُتِمَتْ بخطابه عليه السلام خطاب

كرامة، كما بدئت بخطابه عليه السلام خطاب كرامه، فى قوله تعالى﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ رأس السورة إكرام بنزول الكتاب، وإكرام بدعوته عليه السلام لإخلاص العبادة، وآخرها إكرام بالحضرة والشهود عند العرش ورؤية الملائكة حافين حوله.

وقد انتقل الكلام إلى خطابه ﷺ فى هذه الآية وعاد بذلك إلى أقرب ما جاء على هذا الطريق، وهو قوله تعالى ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ وبهذا ارتبط آخر السورة بآخر جملة كررت المعنى الأم للسورة، والتى بدأت بقوله تعالى ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ وتكررت فى قوله سبحانه ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ وفى قوله جل شأنه ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي﴾.

وشىء آخر فى علاقة مقطع السورة بمطلعها، وهو أن مطلع السورة لما أوْجَز المقصود منها وهو إخلاص العبادة لله رب العالمين ذكر الذين اتخذوا من دونه أولياء، ثم أعقب ذلك بالإخبار بأن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون، وآخر السورة من أول قوله ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ إلى قوله تعالى ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ﴾ هو الحكم الذى جاء فى أولها، ونفاذ الحكم فى سوق الذين كفروا إلى جهنم زمرًا، وسوق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرًا وآخر المشاهد هو سيد الخلق وهو يرى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم.

وقوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ المراد القضاء بين الملائكة بالحق وذلك إذا كانت الآية تستقصى أحوال يوم القيامة، وأنه قضاء بين من دخلوا فى النفختين من الإنس والملائكة، وأن القضاء كما قال الرازى يعنى إعطاء كل ملكٍ حقه، وأنه كان لكلٍّ عمل لا يتخطاه، وأنَّهم ليسوا سواء فى العمل، فليسوا سواء فى الأجر فليس جبريل الذى عَلَم القرآن قبل أن يعلمه رسول الله ﷺ كغيره من الملائكة، وهذا ما يفهم من كلام الرازى وغيره،

وجملة ﴿قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ هنا ليست تكرارا لجملة وقضى بينهم بالحق فى قوله تعالى ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ وأن كلمة الحمد فى آخر السورة من قول الملائكة، وأنهم سبحوا وحَمَدُوا والتسبيح تنزيه، وهو من الجلال؛ والحمد ذكر للنعمة وهو من الإكرام كما سبق، وذكرنا عن الرازى، وأن التسبيح والحمد راجع إلى الجلال والإكرام.

وجملة الحمد لله رب العالمين، الحمد فيها خالص للمعبود بالحق لأنه هو المستحق للحمد والحمد له من حيث هو رب العالمين، وهذا الحمد الخالص لله من حيث هو رب العالمين غير حمد النعمة الذى هو شكر لله على ما مَنَّ، ونحن مطالبون بحمد النعمة الذى هو الشكر ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] ومن الحمد المرضى عنه أن نقول الحمد لله الذى هدانا لهذا، وقال إبراهيم عليه السلام ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩] ونقول الحمد لله الذى أذهب عنا الأذى، وكل هذا ظاهر ،وقد دلنا ربنا على أن خشيتنا لله سبحانه تنفع ذريتنا من بعدنا قال تعالى﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ٩] نعم أنا لا أخشى الله من أجل هذه الذرية وإنما أخشاه لأنه حقيق بأن أخشاه وهذا هو الأصل، وإذا وجد بجانب هذا الخوف على الضّعاف من حيث أجاز لى سبحانه أن يكون خوفى عليهم من مقاصد العبادة.

قلت هذا لأن الرازى قال كلاما يحتاج إلى إيضاح وذلك فى تعليقه على قول الملائكة ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وأن الله سبحانه لما قضى بينهم بالحق لم يحمدوه على قضائه بينهم بالحق «بل حمدوه بصفته الواجبة وهو كونه رب للعالمين فإن من حمد المنعم لأجل أن إنعامه وَصَل إليه فهو فى الحقيقة ما حمد المنعم وإنما حمد الإنعام وأما من حمد المنعم لا لأنه وصّل إليه النعمة فههنا قد وصل إلى لجّة بحر التوحيد» انتهى كلام الرازى، ولاشك أن الحمد لله الواجب

الوجود الحى القادر المستحق للحـمد فى الأولى والآخرة هو الأصل وهو الحمد الأعلى وهو الحمـد الذى فيه قـرة عين العارفين وهو الحمـد الواجب فى السراء والضراء ولكن حـمد النعمة ليس حـمدا مردودا، وإن كان أقل من هذا الحـمد درجة لأن النعمة فى الحقيقة لا يتـوجه إليها الحمد لأنها لم تصلنى وحدها وإنما حمدها مـصروف إلى المنعم الذى أوصلها إلىَّ، وأنا حين أحمـد المنعم فأنا وإن لم أصل إلى لجة بحر التـوحيد فأنا أحاول أن أصل إلى لجـة بحر الشكر، والله سبحانه وتعالى أمرنا بالشـكر وأخبرنا أنه يرضاه لنا وجعل فى فطرتنا حب الثناء والشكر لمن مدَّ إلينا يدًا بصنيعـة، والشكر حبل من التقى، والكريم هو الذى لا تضـيع عـنده بيض الأيادى وهـو الذى لا يموت وعليـه ديـن من ديون المعروف، وكل هذا من الفطرة ومن الدين ومن مكارم الأخلاق.

هذا كله إذا قلنا إن آية وترى الملائكة بيان لحسـاب الملائكة والكلام يحتمل وجهـا آخر أجازه العلـماء وهو أن تكون آية ﴿ **وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ** ﴾ من تمام الكلام على الذين اتقـوا، وأنهم لما قالوا ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ** ﴾ لم يكن قولهم هذا عبادة ولم يكن تكليفا وإنما كان حبّاً لله وتقرُّبا واغتـباطا وشوقا إليه، ومسرَّة بذكره ولذة ومـتعـة وأن هذا انْغَلَّ فى قلوبهم حـتى صار أرقى التَّنعُّم وأرقى المتـاع وصـار قرة العين والقلب وقـد اسـتدعى هذا ذكـر نظيـره الواقع من الملائكة الحافين حول العرش وأنهم يسـبحون ويحمدون لا تكليفا ولكن مـسرة ومحبَّة ومتاعا ولذة، وأن الصالحين الذين قبل الله منهم طاعتهم وأورثهم الجنة التقوا مع الملائكة المقرَّبين على أصل واحـد هو التنعّم بالحمد والتسـبيح، والاندماج والاستغـراق فى حضرة ذى الجلال والإكرام، وأن قـرة عيونهم فى هذا أعلى من قرة عيونهم بالسُّرر المرفوعـة والأكواب الموضوعة ومـا أعده الله لـهـم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، نعم هم يتمتعون بهذا الجانب الحسِّى مما لايزال فى فطرتهم من الأنس بها ولكن رضوان الله أكبر.

وقالوا إن مما دعا إلى ذكر الحافِّين حول العرش أيضًا أن جانب الجنة ملاصق لجانب العرش، وأن كلمهم الطيب الذى هدوا إليه فى الدنيا والذى كان يصعد إلى الله صار هذا الكَلِمُ الطّيب منهم الآن حمدا وتسبيحا يخالط حمد الملائكة وتسبيحهم وكل ذلك منه ما يحف بالعرش ومنه ما هو فى دار النعيم الملاصقة للعرش وبناء على هذا الوجه يكون قوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ تأكيدا لقوله تعالى﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩] وأن الضمير فيه لا يرجع إلى الملائكة وحدهم وإنما يرجع إلى الخلق جميعا وتكون جملة ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هى التى يقولها الخلق عند الانتهاء مما يكونون فيه كما قال تعالى ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

وكل هذا أصله من كلام الرازى لأنه ذكر أولا الوجه الذى يرى أن آية وترى الملائكة حافين حول العرش بيان للقضاء بين الملائكة، واستقصاء للقضاء بين الخلق جميعا، وأن ما قبلها هو أحوال الناس فى الثواب وأنها هى بيان لأحوال الملائكة قال أما إذا قلنا إنه من بقية شرح ثواب المؤمنين فتقريره أن يقال إن المتقين لما قالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فقد ظهر منهم أنهم فى الجنة اشتغلوا بحمد الله وبذكره وبالمدح والثناء فبين تعالى أنه كما أن حِرفَة المتقين فى الجنة الاشتغال بهذا التحميد والتمجيد فكذلك حرفة الملائكة الذين هم حافون حول العرش الاشتغال بالتحميد والتسبيح ثم إن جوانب العرش ملاصقة لجوانب الجنة وحينئذ يظهر منه أن المؤمنين المتقين وأن الملائكة المقربين يصيرون متوافقين على الاستغراق فى تحميده وتسبيحه فكان ذلك سببا لمزيد التحميد والتسبيح» انتهى كلام الرازى.

ذكرت بعض صور رَدِّ العَجُزِ على الصدر فى السورة وبقى أن أقول إن جملة الحمد لله رب العالمين من أصفى وأنقى وأرفع صور إخلاص العبادة لله رب العالمين لأن الحمد رأس الإخلاص فى العبادة، وقد بُنيت أم الكتاب

عليه، وهذا رجوع ظاهر إلى قوله تعالى ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ② أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾.

ثم إن هذه الجملة كأنها قاعدة أم لقوله تعالى فى أول غافر ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ② غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر: ٢، ٣]، تأمل النعمة فى تنزيل الكتاب وتأمل غافر الذنب وقابل التوب وشديد العقاب وذى الطول ولا إله إلا هو كل هذا يوجب شيئًا واحد وهو الحمد لله رب العالمين.

وهكذا تشتبك السورة التى دارت على إخلاص العبادة لله رب العالمين بالسورة التى هى أم آل حم والتى دارت رحاها على المجادلة فى آيات الله ثم ختمت ببيان حال المجادلين فى آيات الله، وأنه لم ينفعهم النظر، والاستدلال، وإنما ينفعهم البأس ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ⑧④ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤] ثم جاءت فصلت وقد فَصَّلَتْ المجادلة بالباطل وأن قلوبهم فى أكنة، وفى آذانهم وقر، وبينهم وبين الحق حجاب، ثم فَصلَتُ آيات القدرة فى خلق السموات والأرض وَوَصفت ذلك وصفًا لم يتكرر فى الكتاب العزيز ثم فصَّلَتْ شهودَهم وأن هذه الشهود هى: سمعهم وأبصارهم وجلودهم، ثم رجع آخرها إلى أولها فإذا كان أولها ذكرا للمصرين على الرفض وقولهم ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾، فإن آخرها قوله سبحانه ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣]، ولو قلت إن المفعول به فى قولهم «سنريهم» هم الذين قالوا قلوبنا فى أكنة لم تكن مبعدا لأنه إن كان فى اللفظ غيره فهو هو فى المعنى.

ثم أتت الشورى التى تؤكد أن هذا الكتاب واحد مما أوحى الله به إلى أنبيائه، وأن الله أوحى إليك كما أوحى إلى الذين من قبلك، وأنه سبحانه

شرع لكم من الدين ما وصَّى به نوحا، وما وصَّى به إبراهيم وموسى وعيسى وأن أصـول الأديان والكتب والرسـالات أصـول واحدة، وقـالوا كُلٌّ مـا فى الشورى فى كل كتب الله وأن قـومك اختلفوا فى الكتاب كـما اختلف الذين أوتوا الكتاب من قـبلهم، ثم ختمت الشـورى التى هى سورة الوحى بآية لم تذكر فى غيرها، وهى قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]، ورجع قـوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢] وهى من أجل الآيات التى ذكـرت الوحى إلى قـوله تعـالى ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الشورى: ٣] وأغلقت صُحُفَها ثم نُشرت الزخرف مبتـدئة بقوله تعالى ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣] وهى خارجة من آخر الشـورى من قوله جل شأنه ﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] عـدَّدَتْ الزخرف كفـريات القوم، وهكذا جاءت آل حم كل واحـدة من صلب التى تم قبلهـا، حتى انتهت إلى القـتال الذى لم يكن منه بدٌّ، ثم كان الفتح بعد القـتال ثم دخل الكلام مدخلا آخر، واتجه إلى مـخاطبة الـذين آمنوا ونهاهم أن يقدمـوا شيئـا على ما قـدمه الله ورسوله، وأن يرفعوا أصواتهم فوق صوت النبى أو أن ترتفع أصوات سفلتهم فى أمر من الأمور لله ولرسـوله فيه صوت، لا ترفعوا أصـواتكم فوق صوت النبى ولا تجـهروا له بالقـول كـجهـر بعضكم لبـعض ورفع الصـوت بالمعنى المعروف الظاهر كـان يكون زمن النزول ورسول الله ﷺ بينهـم وقد نهى الله عنه أمـا الذى لنا من الآية وللأجيـال من بعـد زمن المبعث إلى يوم أن تقـوم الساعة فهو إعلاء أى شىء لرسول الله ﷺ فيه كلام على كلامه صلوات الله وسلامـه عليه؛ فمن رفع رأيا مـخالفا لسنتـه ﷺ وما بلغّه عن ربه فـقد رفع صوته فوق صوت النبى، فلا يجوز لنا أن نقبل أن يعلو حكم فى أمر من الأمور التى لله وللرسول فيها حكم مهما كان صاحب هذا الحكم، ومهما كان سلطانه

ومهما كان جبروته، ومـهما كانت أدلته. لا يعلو حكم فوق حكم الله، وكل هذا مشروطا بالفـهم والفقه الواعى المتغلغل فى مـقاصد الشريعـة، وأصولها، وفروعها، والمتغلغل فى الواقع بتعقـيداته، وغوامضه، ولا يجوز أن يسمع فى هذا قول تلك الطوائف الغـوغائية التى تتـمذهب بمذاهب إسلامـية كالسلفـية والجهادية ولو سُئِلَتْ عن أصولها أو فروعها لما استطاعت أن تجيب.

هذا ما كتبته فى الزمـر التى هى بوَّابة آل حم، وقد اجتهدت ولم أدخر فى الاجتهاد جـهدا، وأعلم أن سعة المعانى فى كلام رب العـالمين تتيح لوجهات نظر متعددة ومختلفة أن تجدَ لها سَنَدًا فى هذه السَّعة، وهذا ما رأيتُ ولك أن ترى غـيـر الذى أرى، ولن أنكر عليك مـا ترى لأنى على يقين أن الموضـوع يتسع لاجتهـادات كثيرة تتفق وتختلف، نعم أنكر عليك شـيئًا واحدا وهو أن تقول ما يبـدو لك فى أول النظر من غير المراجعـة الواجبة ولو كنت معـتمدا على كلمة قالهـا البقاعى أو الرازى أو غيرهم ممـن تكلموا فى هذا الباب لأن المطلوب منَّا ليس هو أخذ ما قاله أوائلنا وإنما المطلوب أن نخوض المعمعة التى خاضوها ثم نقول كلاما يتفق معهم أو يختلف يقاربهم أو يباعدهم وفرق كبير بين أخذ الرأى فحسب وبين السيـر على الطريق الذى سار فيه صاحب الرأى حتى وصل إليه، وأنا أريد السـير على الطريق فإذا انتهيت إلى مـا انتهى إليه صاحب الـرأى كان ذلك تأكيـدًا لصحـة هذا الرأى، وإذا اختلفـت كان ذلك إيذانا بضرورة أن يأتى ثالث ليبدأ الطريق من أوله لينتـهى إلى ما ينتهى إليه، والله أعلم.



سورة محمد أو سورة القتال

قبل أن أتكلم عن الفروق التى بين القتال وآل حم أشير إلى هذه الصلة القوية بين آخر الأحقاف وأول القتال، وقد ذكرت أن آخر الأحقاف يمكن أن يكون رادا على أول آل حم، فلو وضعت ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ﴾ [غافر: ٤]، وهو أول غافر بجوار آخر الأحقاف ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥] لوجدت رد العجز على الصدر واضحا جدا، راجع قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ وضَعْهُ بجوار ﴿فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ (٤) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [غافر: ٤، ٥] وتأمل الكلام تجد الرابطة الأكيدة وأن الصبر الذى هو كصبر أولى العزم مطلوب لترى بعينيك نهاية تقلبهم فى البلاد، وقوله سبحانه: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً﴾ هو قوله سبحانه فى أول غافر ﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ وقوله جل شأنه (بلاغ) هو كل ما جاء فى آل حم وقوله: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ هو قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [غافر: ٦] قلت هذا لأبين أن الرابطة بين آخر الأحقاف وأول القتال كأنها رابطة بين آل حم كلها، والقتال، وهذه الرابطة من أظهر الروابط وأسلسها، وذلك لأن قوله سبحانه فى أول القتال ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ بيان ظاهر للقوم الفاسقين الذين حقت عليهم الكلمة، وأنهم هالكون لا محالة، وإذا كانت الكلمة الأولى فى القتال وأنا أعنى المبتدأ فقط ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ

اللَّهِ﴾ فيها إيماءة خفية للقتال وذلك فى قوله: ﴿وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لأنهم بهذا الصد قد أعلنوا الحرب على سبيل الله؛ أقول إذا كانت الكلمة الأولى أومأت إلى القتال فإن الجملة السابقة لها وهى جملة ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أومأت إلى نصر المجاهدين، لأن الله سبحانه أخبر بهلاك الفاسقين ثم أذن بقتالهم، والإشارة إلى النصر فى هذا ظاهرة، ومما يزيد ذلك بيانا مجىء سورة الفتح بعد القتال، والفتح نَصْر لا شك فيه ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ٣] وتجد ترتيبا جيدا جدا بين هذه الثلاثة آل حم والقتال والفتح، فآل حم مجادلة باللسان والقتل مجالدة بالسنان والفتح فتح، وهذا هو طريق أهل الحق والمحامين عنه والله ناصر من ينصره، والمرور بهذه الثلاثة سُنَّة الوجود فلابد من صُعوبة الدعوة والصبر عليها، كما صبر أولو العزم من أكرم الدعاة إلى الله، وهم الذين اصطفاهم ربهم، ثم لابد من الاختبار والدخول فى آية ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١]، ثم الوصول إلى الشاطئ وهو الفتح المبين، ومن الجيد أن أَلْفِت إلى أن الذى بعد الفتح هو الأدب الواجب الذى يعرف حق المؤمن على المؤمن فهو أخوه لا يسخر منه ولا يغمزه ولا يلمزه ولا يغتابه، وأن حرمة حق المسلم على المسلم لها عند الله مكان ولذلك بدأها بحرمة حق المصطفى صلوات الله وسلامه عليه على أمته، ثم زاد وأضاف حق وحرمة جلاله وكماله إلى حرمة نبيِّه ﷺ، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١] وكان هذا بعد الفتح حتى يظل عامل النصر وهو التماسك والترابط، يا أيها الذين آمنوا وإن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا، وإن طائفتان اقتتلوا فأصلحوا بينهما والمؤمنون أخوة، والمؤمن أخو المؤمن لا يظلمه، ولا يؤذيه ولا يحقره ولا يبيع على بيعه، وكل هذا تصفية وتنقية لوحدة الأمَّة وكل هذا هو الذى يُفضى بها إلى أن تكون كالبنيان

المرصوص يشد بعضه بعضا والله سبحانه يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص.

الحجرات تعالج أحوال المسلمين فى عيشهم معا وما يمكن أن يقع بينهم، وهذا هو مقتضى وقوعها بعد الفتح، وهكذا كلما تأملت فتح لك التأمل ضروبا من الروابط ووجوها من الترتيب.

والآن أبدأ فى بيان الفروق بين القتال وآل حم.

وأول ما يلقانا من فروق هو بداية السورة فقد أشعرتنا من أول الأمر أنها ليست من عشيرة آل حم، لأن آل حم بدأت حم التى مهَّدَتْ لذكر الكتاب. وهذه بدأت بذكر الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وسبيل الله هو الكتاب، وهو صراطه المستقيم، وكانت هذه المخالفة التى فى رأس السورة مَنَبِّهة لما وراءها من مخالفات، وأظهر ذلك المخالفة فى بناء اللغة وفيما تسمعه الأذن، وفيما يقوم عليه حذو بناء الكلام، فقد كثر التكرار فى السورة، وهو تكرار جمل وليس تكرار كلمات، وتكرار الأبنية فى السورة تكرار يلفت وينبه. وأول هذا أنها بدأت بقوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ**﴾ وهذه الجملة من أسماء السورة، يعنى يقال سورة محمد وسورة القتال وسورة ﴿**الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ**﴾، وهذا الموصول وصلته تكرر فى قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾، وفى قوله جل شأنه ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ**﴾، وفى قوله تعالى وتقدس: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ**﴾، و﴿**الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ**﴾، والذين ﴿**مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ**﴾ والسورة فى مقاتلة الذين كفروا وهذا التكرار مصاحب فى كل موقع لعمل من الأعمال المتصلة بمقاتلتهم، فهم صدوا عن سبيل الله وهذا موجب لقتالهم، وهم شاقوا الرسول وهذا موجب لقتالهم، وهم كرهوا ما أنزل الله، وهكذا، ولاشك أن هذا التكرار له أثر واضح فى تكوين الطابع

الذى بنيت عليه السورة، وأعطاها هيئة وسمْتا، وبهذه الهيئة وهذا السمت، وهذا الطابع كانت مباينة لآل حم مباينة ظاهرة.

ومن التكرار الذى كان له أثر ظاهر فى تكوين صورة الاختلاف بين القتال، وعائلة آل حم تكرار مثل أضل أعمالهم.. وأحبط أعمالهم، وسيحبط أعمالهم، ولا تبطلوا أعمالكم، ولن يتركم أعمالكم.

ومن التكرار الذى كان له أثر ظاهر فى تكوين طابع السورة وحذوها وسمتها تكرار اسم الإشارة وتكرار طريقة البناء والموقع من بناء المعنى فى قوله تعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ وقوله جل شأنه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ﴾.

ومما له أثر ظاهر فى قوة تميز البناء الصوتى للسورة والذى باينت به آل حم مباينة ظاهرة فواصلها وهى ثمان وثلاثون فاصلة كلها منتهية بضمير الجماعة الغائبين، وهذا هو الأكثر أو المخاطبين وهذا هو الأقل، وتستثنى من هذا فاصلتين انتهيتا بضمير المفردة الغائبة وهما:

وللكافرين أمثالها.. أم على قلوب أقفالها، والباقى من مثل أعمالهم.. بالهم.. أمثالهم.. لا مولى لهم.. مثوى لهم، فلا ناصر لهم.. واتبعوا أهواءهم.. وقطع أمعاءهم.. وقليل منه مثل يُثبت أقدامكم.. وتقطعوا أرحامكم.. والله يعلم أعمالكم.. ونبلوا أخباركم، إلى آخره، وكل هذا وغيره فى السورة إعلان ظاهر بأن الكلام انتقل من واد له طابع فى الهيئة والسمت، والبناء، إلى واد آخر له طابع آخر فى الهيئة والسمت والبناء، هذا فضلا عن المعانى والمقاصد، والمطالع والمقاطع إلى آخر ما نحاول بيانه، وإن كان مما يخفى لقلة الكلام فيه، والله المستعان.

وأول ما تحدثنا به هذه السورة هو هذا المسند إليه، الذى جمع الكفر والصد عن سبيل الله، ولم تبدأ سورة من سور القرآن بهذا الموصول الجامع للكفر والصد، وهذا يعنى أن هذا المسند إليه جمع غاية العناد، وغاية التحدى، وفرق بين من كفر وترك الناس يختارون ما يشاؤون، ومن كفر وصَدَّ عن سبيل الله، لأن إضافة الصَّدِّ إلى الكفر إعلان الحرب على هذا الدين ولم يرد جمع الكفر والصد على هذا الوجه فى الكتاب العزيز إلا فى خمس آيات، واحدة فى النساء ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلالاً بَعِيداً ﴾ [النساء: ١٦٧] وواحدة فى النحل: ﴿كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨]، ثم استأثرت هذه السورة بالثلاثة الباقية واحدة فى أولها، والثانية زادت مشاقة الرسول،﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ﴾ والثالثة زادت مصيبة أكبر وهى الموت على الكفر،﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾، وراجع كلمة ثم وكيف دلت على أن المصيبة الأعظم هى الموت على الكفر، لأن من كفر وصد وشاق الرسول أمامه فُسْحةٌ من الوقت والرجوع إلى الإيمان أما من مات على الكفر فقد انتهى إلى أسوأ ما ينتهى إليه الإنسان.

ووجود ثلاث آيات فيها اقتران الكفر بالصد فى هذه السورة من خمس آيات فى الكتاب له دلالة لا تهمل وهى أن القتال كان لهذا الصَّدّ وأنهم آذنوا الدين بالحرب، والتكرار يؤكد هذا الأصل الذى بُنِيَتْ عليه السورة ويلاحظ أن الخبر فى سورة النساء يشير إلى إفراطهم فى الباطل لما جمعوا بين الكفر والصد، وهذا الخبر هو قوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلُّوا ضَلالاً بَعِيداً﴾ وراجع كلمة ﴿قَدْ﴾ المفيدة للتحقيق، ثم التأكيد بالمفعول المطلق، ثم وصفه بأنه بعيد، والخبر فى النحل بين مزيد الغضب عليهم وهو قوله سبحانه: ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ وراجع إضافة الزيادة إلى ضمير العظمة وهو سبحانه الرحمن

الرحيم، ثم راجع كلمة ﴿عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ ودلالة التنكير فى كلمة «عذاب» الأولى ودلالة التعريف فى كلمة «العذاب الثانية».

وقد جاء الكفر كثيرا غير مقترن بالصد، وجاء الصد كثيرا غير مقترن بالكفر، والكلام هنا على اقتران الصد بالكفر على الوجه الذى افتتحت به السورة، وأن الأمة لم تبدأ بالقتال وإنما كتب عليها، ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].

ويلاحظ أن آل حم ليس فيها ذكر للقتال، لأنها مكية والإذن بالقتال كان فى المدينة، وسورة القتال مدنية، وهذا فارق ظاهر وشىء آخر أراه فارقا ظاهرا بين آل حم والقتال وهو أن كل آل حم تشترك فى معنيين كبيرين شغلا جزءا كبيرا من كل آل حم.

المعنى الأول هو بيان وجوه كفر من كفر، ووصف هذه الوجوه والحديث المطوّل عنها، فسورة غافر شاغلها الأول فى بيان أنه لا يجادل فى آيات الله إلا من كفر، يعنى ستَر الحقَّ وغطَّاه لأن الآيات أبين من أن يُجادَلَ فيها، وتستطيع أن تعود بكل جملة فى السورة إلى آية المطلع ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ﴾ [غافر: ٤] لم تفتتح السورة بالإخبار عن الذين كفروا، وأنهم فى الجحيم، ولم تفتتح بالآية التى جاءت بعد ذلك وهى قوله تعالى: ﴿﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أو ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [غافر: ١٠]، وإنما افتتحت بسلوك وعمل لا يكون إلا منهم، وهو المجادلة فى الآيات البينات والحق الظاهر، ولا يزال هذا من البلاء الذى يعانى منه كل زمان، وكل جيل لأنه يحدِّث عن قضية مفتوحة على الزمان كله، والمكان كله والناس جميعا، وأن الحياة لا تخلو من الذين يجادلون فى الآيات البينات ويأبى الله إلا أن يتم نوره، ثم تكرر هذا الجذر أو المعنى الأم فى السورة

واقتضى ذكر جدال فرعون رأس الذين كفروا وانجر الكلام إلى جدال موسى عن آيات الله، وجدال مؤمن آل فرعون عن آيات الله، وهو النموذج الأعلى المقابل لفرعون، ومَنْ حوله وإن كان هذا الرجل الصالح من آل فرعون، وقوله سبحانه: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ [غافر: ٢٨]، وذكر هذا الجار والمجرور فيه رسالة لنا وهى أن لله رجالا يخرجون من صفوف الباطل يدافعون عن الحق، وأنهم إذا عزم الأمر صدقوا الله، ثم انجز الكلام فى السورة كما يقول الرازى إلى ما انجر إليه ثم تأتى سورة فصلت وتقف رأسها بجوار رأس غافر لأن رأس غافر المجادلة فى آيات الله، ورأس فصلت هو تفصيل هذه المجادلة وقولهم ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ [فصلت: ٥]، ثم انتقل الكلام إلى آيات هى من أعظم آيات الله وكلها أعظم، وذلك قوله سبحانه فى محاجتهم ودفع باطلهم ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ٩- ١١] ولا شك أن هذا وشبهه مما كان يتأنق فيه سيدنا ابن أم عبد رضى الله عنهما، وهذه الآيات يظهر فيها عز الألوهية ظهورا كعمود الصبح وعز الألوهية وسلطان الربوبية كما كان يقول الكملة رضوان الله عليهم هو أظهر ما ظهر وبهر وقهر فى الكتاب العزيز كان ولا يزال وسيبقى ما دامت فيه قلوب تعقل، وقد انجر الكلام من هذه الآيات إلى آخر السورة.

ثم جاءت الشورى وابتعدت قليلا عن فصلت ووقفت على مسافات متقاربة من النبيين جميعا - صلوات الله وسلامه عليهم - ومن الكتب جميعا ومن النبوات جميعا ومن الأمم جميعا، وأعلنت أمرا عظيما جدا وهو أن الله أوحى

إليك كما أوحى إلى النبيين مــن قبلك ابتداء مــن نـوح وشـرع لك مــن الـدين ما شرعه للنبيين من قبلك، وكأنها فاصلة تسترجع تاريخ النبوات والكتب والأديان حتى قال علماؤنا إن كل ما فى الشورى فى كل كتب الله وفى كل النبوات، وأنها جمـعت لنا الصفـو المصفى والطيّب المسـتطاب من كل الكتب وكل ما دعـا إليه المصطفين الأخيـار صلوات الله وسلامه عليـهم أجمعين، وكـانت الشورى بذلك مفصلا من مـفاصل آل حم، وهذا هو سر اختصاصها بأشـياء لم ترد فى غيرها، وأظهرها قوله تعالى﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى: ١١] لأن هذه الآية هى قاعدة تعريف الخلق بالخالق، وأنه سبحانه منزه عن مـشابهة الحوادث، وهذا ما قاله كل النبيين ومثل هـذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ﴾ [الشورى: ٥١]، وهذا التفصيل فى بيان مخـاطبة الخالق لخلقـه لم يرد إلا فى هذه السورة الجامـعة لأطراف وحى الله فى كتب الله ولكل أنبيائه وهكذا، ثم إن المعانى الأخرى التى جاءت فيها ولـم تختص بالمجيء فـيهـا هى مـعان فـى كل الديانات والكتب، ومن أهم مـا فى ذلك آية ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى: ٣٨] فقد شـرع الله الشورى فى كل النبوات وفى كل الكتب وعلى لسـان كل المرسلين ليحفظ سـبحـانه خلقه من الاسـتبداد والقهـر وحكم الفرد الذى نعانى منه، والذى يدمـرنا كل يوم، وينزل بنا من درك إلى درك، والبلوى لو كان حكم الفرد الذى يدمرنا ليس صناعة الفرد الحاكم وإنما هو صناعـة العـدو الألد الذى أمـدّ الفرد بوسـائل القـمع والبطش والتـخـويف والترهيب، وأن يكون سيدنا ليس سيدنا وإنما من ورائه سيّد يسوده، وهذا لو صح لكان أبشع من الأبشع.

ثم جـاءت الزخـرف، وأخذت تعـدد صنوف ضـلالاتهم من أول قـوله تعالى ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ﴾ وقوله سبحانه: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا ﴾ [الزخرف: ١٩]، وقوله جل شأنه ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا

عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٣] إلى آخر ما جاء فى السورة وبنيت عليه، وانتهت بهم إلى عذاب جهنم لا يُفتر عنهم وهم فيه مبلسون، ثم جاءت الدخان ودارت رحاها حول قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ⑨ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان: ٩، ١٠] وكانت امتدادا ظاهرا للزخرف، ثم جاءت الجاثية ودارت رحاها حول ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الجاثية: ٧] ويتنقل الكلام من معنى إلى معنى وهو ممسك بسبب من هذا الكفار الأثيم إلى يوم أن ترى كل أمة جاثية وهو من أحفل مشاهد القيامة وأملئها بالتفاصيل، وهذا أيضا مما كان يتأنق فيه سيدنا ابن مسعود.

ثم جاءت الأحقاف ودارت رحاها حول ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ وتسلسل من هذا الإعراض ما تسلسل من بيان إبطال الشرك وإبطال إنكار النبوة وإبطال إنكار البعث وتخلَّل ذلك ما تخلله من ذكر الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا، والذى قال لوالديه أفّ لكما، وذكر أخى عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وبعد هذه المعمعة من وقوف الباطل وإصراره ورفضه لكل الحجج الدامغة والآيات البينة تختم الأحقاف أو آل حم كلها بدهشة مُذهلة وذلك بسماع رجال صالحين من الجن لآيات الله وإيمانهم الراسخ بها فور سماعها وتوليّتهم إلى قومهم منذرين وكانت الدهشة فى هذه الآيات لأن أصحاب اللسان عاندوا وكابروا وكذبوا على أنفسهم وقالوا إفك وقالوا سحر وقالوا أساطير وقالت الجن ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وقد ذكرت هذا وكررته لأنه من أهم مقاصد هذه الدراسة، ثم جاءت القتال وانقطع عندها هذا المعنى الممتد من أول غافر ولم ينقطع امتداده ولا تدفقه فى سورة من هذه السور السبع التى سماها ابن عباس لباب القرآن، وربما كان مراده بهذا اللباب أنها بُنِيَتْ على إبطال الشرك وإبطال إنكار البعث، وإبطال إنكار النبوة، وهذا الإبطال هو لباب القرآن، جاءت سورة محمد ولم تشغل بشىء من ذلك

وإنما سجّلت مـا انتهى إليه الحـوار، وما انتهت إليـه الحجة التى أقامـها الحق عليهم فى هذه السـور السبع، وأنهم أصروا على اتباع البـاطل، وأصروا على كره مـا أنزل الله، وأصروا على اتباع مـا أسْخَطَ الله، وكان هذا واضـحا فى بيان عِلّة مقاتلتهم، وأن الله يخذل أهل الباطل، ويُحْبِطُ أعمالهم، ويخذل من اتبعوا ما يسخطه سبحـانه، وكأن آل حم لما شغلت بتفنيد ضلالاتهم، ودحض وجـوه باطلهم، وأنهم لم يَلْتَـفـتُوا إلى الآيات الواضـحـات، ولم يَنْظروا فى الحجج القاطعات، كانت آل حم بذلك تقـدم لمقاتلتهم وأن رد باطلهم باللسان لم يُفِدْ وليس أمام أهل الحق طريق إلاردَّه بالسِّنانِ، وجاءت سوره القتال عقب آل حم لبيان هذه الحقيقة التاريخية، وهذه الحقيقة الكونية وهى وجوب دحض الباطل، فإذا لم يكن باللسان فبالسنان، هذا والله أعلم. .

الأمر الثانى الذى جرى فى كل آل حم وشغل جزءا كبيرا من كل سورة من السـور السبع العـظام، هو ذكـر آيـات الله الظاهرة فى كـل شىء فى هذا الوجود، وذكر نعم الله المادية والروحية التى تَغْمر الإنسان مؤمنا وكافرا، وبرا وفاجراً من مثل خلق السمـوات والأرض وجعل الأرض قرارا، والسماء بناء، وتسخيـر ما سخر سبحانه لـنا من خلقه، وجعل الليل لباسا والنهـار معاشا، وأنه سبـحانه أنزل لنا من السمـاء رزقا، إلى آخر هذا البـاب وهو كثيـر جدا وشـائع فى الكتـاب كله، وهذه الآيات من أعظم وأكـرم وأسْنى وأعْلَى آيات الله فى الكتاب العزيز تقرأ فى غافر ذلكم الله ربكم خالق كل شىء لا إله إلا هو، والذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء، وصوَّركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فـتبارك الله رب العالمين هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد الله رب العالمين. . رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق يوم هم بارزون لا يخفى على الله مـنهم شىء، لمن الملك اليوم لله الواحد القـهار، ولا أشك فى أن هذه وأمثـالها من الرَّوضات الأنقـات اللائى كان يتأنق فـيهن سيدنا عبد الله بن مسعود.

وقل مثل ذلك فى فصلت راجع آية ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾، وتأمل حجم الإنكار والاستخفاف والتوبيخ بكفر من يَجْعَل أندادا لخالق الأرض فى يومين وهو رب العالمين، وراجع كلمة وبارك فيها، وقدر فيها أقواتها، وكيف كانت الأرض كنز أقوات كل من عليها من إنسان وحيوان وطير وبر وبحر إلى آخر ما يدلك على حجم هذا الإنكار، والتدبر هو السبيل الوحيد لإدراك الحق. وراجع آية ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾، وراجع هذا النهى وهذا الأمر بعده وكيف بُنى على ما تقتضيه الفطْرة وترضاه العقول المَبرَّأة من الباطل، ثم راجع آية ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾، وكيف استْدلت بما تراه العيون، وهو دليل لا غموض فيه ولا يحتاج إلى تنطس ولا إلى فلسفة وهو يُفضى لا محالة إلى إمكان البعث ويقضى لا محالة إلى جهالة إنكاره.

وقل مثل ذلك فى الشورى وحسبك منها ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٤) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ﴾ [الشورى: ٤، ٥]، وراجع قوله تعالى ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١١]، وتأمل كلمة يذرؤكم فيه، وراجع ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ﴾ [الشورى: ٣٣] وتأمل واذكر كلمة الباقلانى وجه الوقوف على شرف الكلام أن تتأمل، وكرر النظر فى كلمة ﴿رَوَاكِدَ﴾ ثم انته إلى قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥١] أمَّا أنا فإنى أكرر هذا وأقلِّبه بلسانى وحِسِّى ولحمى ودمى لعلى أقع على ما وقع عليه لسان ابن أم عبد رضى الله عنهما.

والزخرف تسمع بعد عتبتها بنصف خطوة هذا الفيض من الآيات والنعم ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ⦗١٠⦘ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ⦗١١⦘ وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف: ١٠- ١٢] وتنتهى السورة بقوله سبحانه ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ⦗٨٤⦘ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزخرف: ٨٤، ٨٥].

وتبدأ الدخان بقوله تعالى﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ⦗٦⦘ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ⦗٧⦘ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ [الدخان: ٦- ٨] وتنتهى بآية النبوة الباهرة ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ⦗٥٨⦘ فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ [الدخان: ٥٨، ٥٩].

وتبدأ الجاثية بقوله تعالى﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ⦗٣⦘ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ⦗٤⦘ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ⦗٥⦘ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٣- ٦]، وتنتهى بقوله جل شأنه ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ⦗٣٦⦘ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: ٣٦، ٣٧] وتبدأ الأحقاف بقوله تعالى ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣] وتنتهى بقوله ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

هذه الآيات العظيمة والمتميزة فى حديثها عن الحق وآياته وآلائه والتى شغلت جزءا كبيرا من آل حم لم نجد شيئًا منها فى سورة القتال وكان هذا ظاهرا وحاسما فى الفرق بين آل حم من جهة وسورة القتال من جهة أخرى، وكل سور آل حم تشترك فى هذه الآيات بصورة ظاهرة على حد ما بينت.

وقد ذكرت أن هذه الآيات من الروضات الدمثات التى كان يتأنق فيهن سيدنا ابن مسعود رضى الله عنه، والروضة الدمثة هى الروضة المخصبة اللَّينة السهلة المعشبة كما قال المرحوم محمود شاكر؛ وليس معنى هذا أن غيرها ليس من الروضات الدمثات لأن القرآن كله روضات دمثات ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣] آيات الأحكام روضات دمثات وآيات القصص، ولكن هذه الآيات التى تتحدَّث عن الله وعن قدرته سبحانه وخلقه ونعمه لها سلطان أظهر، وكان بعض علمائنا يشير إلى ما فيها من عز الألوهية، وسلطان الربوبية، وأنها صادرة عن هذا العز وهذا السلطان، وظنى أن الفطرة الإنسانية وهى واحدة من مظاهر عز الربوبية وسلطان الألوهية، تجد للآيات التى تتحدث عن مصدر هذه الفطرة أثرًا أظهر، وأن تلقى هذه النفس أو هذه الفطرة لما يُحدِّث عن خالقها، ويصدر عن عزه وسلطانه أثرا يختلف اختلافا ما عن تلقيها لما يصدر من أمره ونهيه، ووعده ووعيده وأن الذى يعروها حين تسمع ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ غير الذى يعروها حين تسمع ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾ [النساء: ١٢] لأن يقين هذه الفطرة أنها فى قبضة الذى له الكبرياء فى السموات وفى الأرض وأن انقيادها لقوله سبحانه ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾ مرجعه

إلى أنه أَمْرُ من لـه وحده الأمر، وأنه أمـر من له الكبرياء فى السـموات وفى الأرض وأمر الذى يملك يوم الدين، والذى لا يعـزب عنه شىء والـذى يعلم ما تسرون وما تعلنون.

وسواء صحَّ هذا التـحليل أو لم يصح فإن الواقع يؤكـد أنك وأنا وهو وهى حين نسمع قـول الله تعالى ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦] أو حين نسمع﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] يعروننا ما يعرونا.

وأقطع بأن الآيات التى نفـذت إلى قلب سـيدنا عـمـر فى قصـة إسلامـه وهدمت جاهليته التى كانت مُتقلِّبةً هى قوله تعالى من سورة طه ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ④ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ⑤ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ⑥ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ⑦ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٤-٨].

وقد أرسلت قريش عتبة بن ربيعة لرسول الله ﷺ ليكُفَّ عن دعوته فقال عتبـه لرسول الله ﷺ إن كنت تريد رياسة عـقدنا لك اللواء، وإن كنت تريد مالا جمعـنا لك من أموالنا... إلى آخر ما قال، فقـرأ عليه رسول الله ﷺ من أول سـورة فصلت حـتى إذا وصل إلى قوله تعـالى ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣] فوضع عتبة يده على فم رسول الله ﷺ وناشده الرحم ألا يتم وكأن عتبة شهدت عيناه صاعقة عاد وثمود، وأن إعراض قومه عن دعـوة محـمد ﷺ جالب إلـى هذه الـصـاعقة لا محالة، وأن ما يدعو إليه محـمد حق، وأن ما يسمعه منه حق، ولذلك لما رجع مكث فى بيته أياما لا يخـرج لقومه، وقالت قريش لقد عاد عـتبة بوجه غيـر الوجه الذى ذهب به، ولاشك أن أهم مـا يزلزل فى أول فصلـت قوله

تعالى ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ [فصلت: ٩- ١٠] إلى قوله سبحانه ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢]، والآيات التى قبل هذه من أقوال قوم عتبة وهو منهم ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ إلى آخره ولهذا قلت إن الذى زلزل عتبة آيات عز الألوهية ويكفيه منها قوله تعالى ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

وقد ذكر الخطابى فى رسالته فى الإعجاز وجها من وجوه الإعجاز أغفله الناس وذلك بعد ما ذكر الإعجاز البلاغى يعنى أنه عدَّه وجها من وجوه الإعجاز غير الإعجاز البلاغى: وهو «صنيعه بالقلوب وتأثيره فى النفوس فإنك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما ولا منثورا إذا قرع السمع خلص منه إلى القلب من اللَّذَّة والحلاوة فى حال ومن الروعة والمهابة فى أخرى ما يخلص منه إليه» إلى آخر ما قال، وذكر أن رجالا من العرب وفُتّاكها أقبلوا يريدون اغتيال رسول الله ﷺ فلما سمعوا منه القرآن تحولوا تحولا كاملا ودخلوا فى دين الله وصاروا من أنصاره، صلوات الله وسلامه عليه، ثم ذكر إسلام عمر وقصة عتبة، وقد تناقل العلماء هذا النص، ووضعوه موضعه الذى وضعه فيه الخطابى أعنى عدُّوه وجها من وجوه الإعجاز بعد الوجه البلاغى وجعلوه رأسا بنفسه، نقل ذلك القاضى عياض والزركشى وغيرهم، والذى يعنينى من هذا هو قول الخطابى «خلص منه إلى القلب من اللذة والحلاوة فى حال، ومن الروعة والمهابة فى أخرى» لأن هذا يُحَدِّث عن حالين، حال تجد النفس فيها اللَّذة والحلاوة وحال تجد النفس فيها الروعة والمهابة، وإذا قُلْت إن حالة اللذة والحلاوة هى حالة البيان ولذته واغتباط النفس به، وهذا فى الكتاب كله

ويمكن أن يكون من الوجه البلاغى، وأن حالة الروعة والمهابة هى حالة مواجهة النفس المربوبة والمخلوقة والتى هى فى يد الله ومسبحة لله وإن كفر صاحبها لأنها شىء من الأشياء وكل شىء يسبح بحمده لأنه مخلوق بيده سبحانه، وليس فى الوجود إلا ما أوجده وليس له شريك فى الملك، أقول هذه النفس المربوبة والتى سكن فى فطرتها الإيمان بالله وتسبيح الله حين تتلقى من خالقها حديثا عن عز الألوهية التى هى من معطياتها يعتريها الرَّوْعُ والرهبة والوجيب، وليس هذا ببعيد عن قولهم إن تكرار لفظ الجلالة يكون لتربية المهابة، وأن فطرة النفس نازعة إلى الله ونازعة إلى التوحيد. ولم يجمع علماؤنا على أن فى القرآن شيئًا أفضل من شىء، وقد ذهب فريق إلى القول بأن الآيات التى تتحدَّث عن الحق جل وتقدس لها فضل ظاهر كآية الكرسى، وآخر الحشر، وسورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن لكل شىء قلبا وقلب القرآن يسين» وقال الغزالى فى توجيه فضل يس «إن ذلك لأن الإيمان حجته بالاعتراف بالحشر والنشر، وهو مقرر فى هذه السورة بأبلغ وجه، فجعلت قلب القرآن لذلك» قال الزركشى واستحسنه فخر الدين الرازى، قال الجوينى سَمِعْتُه يترحم عليه بسبب هذا الكلام، وتوجيه الغزالى هذا مُؤَسَّسٌ على أن الآيات التى تثبت أصلا من أصول الاعتقاد يكون لها بهذا التثْبيت فضل، وفضل يس بمقدار تثبيتها البعث، ويقاس على هذا أن الآيات التى قلت إنها شاعت فى آل حم من مثل خلقكم وما يبث من دابة وخلق السموات والأرض فى يومين، وله الكبرياء فى السموات وفى الأرض إلى آخره، كلها دلائل الوحدانية والوحدانية رأس الدين، وبهذا يكون لها الفضل وتكون لها المهابة وتكون اللباب كما قال ابن عباس فى وصف آل حم وأنها لباب القرآن وتكون الديباج كما قال ابن مسعود آل حم ديباج القرآن، هذا والله أعلم. وهذا أيضا مما كررته لأنه من مداخل هذه الدراسة. وأبدأ مستعينا بالله فى

دراسة السورة غير مُتَقَصٍّ ما تَقَصَيْته أو ما حاولت أن أتقصّاه فى آل حم وإنما أقول فيها قولا مختصرا لأكشف المغايرة التى بينها وبين آل حم لأؤكد معنى أن آل حم بعضهن من بعض وبينهن وبين ما بعدهن التى هى سورة القتال كالذى بينهن وبين ما قبلهن الذى هو سورة الزمر.

قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ [محمد: ١- ٣].

مقصود السورة الذى هو القتال جاء بعد هذه الآيات وذلك قوله تعالى ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ وهذه الآيات هى مطلع السورة وفيها إشارات إلى هذا المقصود وأول إشارة هى ذكر الصدّ عن سبيل الله الذى هو الدين، وقد نبهت إلى أن هذا الصدّ إيذان منهم بحرب الدين.

ثم إن كل فواتح آل حم تذكر تنزيل الكتاب وفاتحة هذه تذكر الكفر به والصَّدّ عنه وهذا وإن كان يشبه أن يكون امتدادا لمطالع آل حم لكنه امتداد من وجه مقابل، فإن فيه إشارة إلى أن أمرًا ما قد كان وهو الصَّدُّ والصَّدُّ معناه الدفع بقوة وكأنهم يقفون على سبيل الله يَصُدُّون الناس عنه بقوة ويدفعونهم عنه دفعا، ووراء ذلك ما وراءه، ثم إن النظرة الكلية إلى هذه الآيات الثلاث تُرى العين صورة مكوَّنة من فريقين فريق كفر بآيات الله وصدَّ عنها وأحبط الله عمله، وفريق آمن وعمل الصالحات أصْلح الله بالهم، ثم علّلت الآية الثالثة خسارة الفريق الأول ، وفوز الفريق الثانى، بأن الخسارة كانت فى جانب الذين اتبعوا الباطل، وأن الفوز كان فى جانب الذين اتبعوا الحق، وأن هذا التصوير الذى وضع فريق الباطل مُقترنًا بفريق الحق، وأن إبطال أعمال

فريق الباطل يقابلها إصلاح أعمال فريق الحق، هذه الصورة يَضْربها الله للناس مثلا يكون بين أعينهم حتى يتأكد الذين هم أهل الحق ويعملون الصالحات فى الأرض أنهم هم المنصورون، ويتأكد فريق الباطل أنه خاسر، وأعماله محبطة، وهذا التصوير وهذا المثل وراءه ما وراءه مما لا يجوز إهماله وأن الباطل مهما قوى واشتد فهو كالأرزَة لابد من انجعافها وأن الحق وأهل الحق كالخامة من الزرع تميلها الريح ولكنها لا تحطّمها ثم هى تتكاثر وتقوى وهى الباقية فى الأرض، ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧] وكل هذا إيذان بصراع بين فريقين فريق كفر بما أنزل على محمد، وفريق آمن به وهو الحق.

ثم إن تفرد سورة القتال بالابتداء بهذه الجملة التى لم تبدأ بها سورة من القرآن يقابل الابتداء بحم الذى تكرر فى السور السبع قبلها، واسم الموصول يُعَرّف بالصلة لأن الصلة تدل على أمر معلوم، وهذا يعنى أن فريق الكفر والصَّد عن سبيل الله سلوك باق ما بقى التكليف، وما بقى القرآن فى الناس وأنه يقابله فريق المؤمنين بما أنزل على محمد وهو الحق، وأن الصراع بينهما لن ينتهى يوما، وأن كل من آمن بما أنزل على محمد لابد أن يكون فى كل أحواله موقفنا أنه فى صراع مع الذين كفروا وصدوا، وأن يتهيأ لذلك أبدا بإعداد عقله، وفكره، ومهارته، وصناعته، وتقدمه، وأن تكون عينه على هذا الفريق المعادى له حتى لا يكون فى وقت من الأوقات أكثر تمكنا منه، ولا أكثر علما منه، ولا أكثر استعدادا منه، لأن هذا الفريق لن تطفئ عداوته معاهدة، ولا صلح، ولا صداقة، ولا شىء من ذلك لأن موقفه الصاد عن دين الله جزء من حقيقة وجوده، كما أن الموقف المدافع عن دين الله يجب أن يكون جزءا من حقيقة وجود من آمنوا بما أنزل على محمد، وهذا المعنى المستخرج من الصلة استخراجا سهلا رهْوا تراه جاريا فى السورة فى مثل قوله تعالى ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ لأنها دالة على ضرورة تمكنهم واستعدادهم بآلة

الحرب، وأن تأخذوا عدوكم بقوة، وصلابة، وتمكن، وتراه فى قوله تعالى ﴿فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾ والوهن ليس وهن العزائم فقط وإنما التَّفْريطُ فى صناعة آلة الحرب، من الوهن، والتفريط فى شحذ عزائم الأمة للمواجهة من الوهن، والسكوت عن الجهاد من الوهن، وإشاعة السلام مع من لا يعرف السلام من الوهن، وكل هذا يجرى وكل هذا دليل على خيانة الأمة وتخديرها لينال منها عدوها، كما نجده فى تلك الغضبة التى يغضبها ربنا على هذه الأمة حين يدعوها لبذل مالها فى سبيل إعداد قوتها فتبخل فيقول لها ربنا ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ وراجع كلمة «تتولوا» ووضعها موضع البخل على النفقة فى سبيل الله وسبيل الله هنا هو الجهاد وكلمة تتولوا أخت التولى يوم الزحف، ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٦] والتفريط فى إعداد القوة واعداد الجيوش التى تحمى الدين هو من التولى الذى يبوء صاحبه بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير.

ولا يجوز لى ولا لغيرى أن يُحَمِّل كلام الله ما لا يحتمل وإنما ذكرت هذا وهو استخراج واضح ليس فيه تكلف، وأزيد أن كل القيادات فى الدول العربية والإسلامية التى تفرط فى إعداد جيوشها لحماية أرضها، وعرضها، ودينها، هى داخلة فى حكم الآية، وأسوأ من هذا وأخسّ القيادات التى تمنح العدو التاريخى لدينها وأرضها قواعد فى أرضها ليحميها من جيرانه العرب والمسلمين، هذا انحياز للذين كفروا. وكلمة ﴿كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فيها دلالة ظاهرة على أنهم عرفوا الحق وكفروا به لأن مادة كفر تدل على التغطية، والتغطية هنا ستر للحق، وإنكار له بعدما تبين، ولأن الله سبحانه يخاطب بدينه عباده المكلفين على اختلاف مستوياتهم العلمية ولابد أن تكون آياته البينات ظاهرة لكل مكلف يدركها ويتيقنها، وقد خاطب الناس جميعا

وكلفهم بدينه وأمر رسـوله عليه السلام أن يقول ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] يعنى علماءكم وجهالكم ورجالكم ونساءكم وعبيدكم وأحراركم، وهذا قاطع فى أن هؤلاء جـميعا يدركون الآيات البينات التى ينبى عليـها أصل الإيمان بالله وبرسوله وبالـكتاب الذى أنزل، وكل هذا قاطع فى أن كلمـة كافر أو كفـروا، وإن كان أصْبح يراد بهـا الكفر الذى هو ضد الإيمان فإن أصل معناها لا يزال ملاحظا، ولذلك تجد وصف الكفر يومئ أيضا إلى الوصف بالكذب ويوصف الكافر بأنه آفاك أثيم، والإفك من معانيه الكذب، وكلمة (صَدُّوا) فيها إشارة إلى استعمال أقصى القوة، لأن الصد دفع بقوة وغلبة، وليس المقصود بالذين كفروا وصدوا من كانوا زمن النزول، وإنما كل من كفر وصد إلى أن تقوم الساعة لأن الذين كانوا زمن النزول مات منهم على الكفر من مات ودخل فى دين الله من دخل، ولو كانوا المقصودين بالآية لكانت الآية الآن مُعَطلـة وليس فى القرآن حرف واحـد مُعطَّل قلت هـذا لأن ما فى كلمة الصَّدِّ من قوة وغـيظ وبغضاء فى دفع دين الله وحربه تراها اليوم وكأنهـا فى أقوى أحـوالها، وإن كـانت أخذت صـورا أخرى بجـانب صورة السيف، منهـا بقاء الإسلام وتفـريغه من داخله تحت أسمـاء مُغْرية كـالقراءة الجديدة للدين، والفقه الجديد للدين، وإدخال المناهج اللغوية واللسانية الحديثة فى قراءة القرآن، وما تراه إنِ كنت تحـرص على أن ترى ما حولك، وكل هذا داخل فى جملتى الصلة ﴿كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ويلاحظ أن كلمة (سبـيل الله) وضعت موضـع القرآن بدليل مقـابلة هذا فى الآية الثانيـة بقوله تعالى ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ وبدليل ما قلناه من أن المقصود بالكفر هنا هو الكفر بالكتاب الذى كان فى أول كل سـورة من سور آل حم، وأن القتال جاءت لتعلن كفـرهم وحدهم وليس حوارهم ومحاجتهم كـما كان الحال فـى آل حم، ووضع سبـيل الله موضع القرآن لـه دلالات أولها أن هذا الذى بَيْن الدفـتين هو سبـيل الله، ومن أراد أن يعرف سـبيل الله فليـفتح المصـحف،

وإضافة السبيل إلى لفظ الجلالة يعنى أنه سبيل موصوف بالجلال والكمال، وأن له مهابة يضفيها عليه لفظ الجلالة، وأن من يحاده إنما يحاد الله الموصوف بكل كمال والمنزة عن كل نقص، وسبيل الله هو صراطه وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم، صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض. وناهيك عن الصاد عن صراط الذى له ما فى السموات وما فى الأرض، وراجع الموصول وصلته لترى شيئًا آخر هو التشهير بالصاد عن الصراط المستقيم، وهو يعلم أنه الصراط المستقيم، لأن الحقيقة أنه ليس مُنكِرًا وأن الحق لم يَلتبس عليه، وإنما رأى وكفر ما رأى، ولترى أيضا أن كلمة ﴿وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ رجعت إلى كلمة كفروا وزادت من غلوائها، وإفراطها، لأن كفر الكافر المنصرف بكفره عَنْ غيره ليس مثل كفر الذى استنفر قواه للصد والدفع عن سبيل الله، وليس كل كفر كفرا وكثير من الناس فى زمن المبعث كفروا، ولم يخرجوا لحربه صلوات الله وسلامه عليه، وإنما خرج من كان لكفره غلواء وشدة وحِدّة وإفراط..

وقوله سبحانه ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ خبر المبتدأ، ومعنى أضل أعمالهم جعلها ضالة وكأنها حىٌّ تائه هائم لا يهتدى ولا يُهتدى إليه ونحن نفسر أضل أعمالهم بمعنى أبطلها أو أحبطها وهذا تفسير على وجه المقاربة، لأن الإضلال له صورة غير صورة أبطل وأحبط، وضلال الأعمال هنا متلائم جدا مع ضلال الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله، وكما أن الله سبحانه وتعالى أضلهم كذلك أضلّ أعمالهم، ثم إن هذه الكلمة متلائمة جدا مع سبيل الله الذى هو الصراط المستقيم، والسراج المنير، ومن ضله فقد ضل، وأن الصاد عن الصراط المستقيم ضال وأن عمله ضال، فلا هو ولا عمله قادران على أن يطفئا السراج المنير ولا أن يضلا عن الصراط المستقيم، لأنه صراط الله والله سبحانه يحمى صراطه، ويحمى سبيله ويحفظ الذكر الذى أنزل على محمد، والذى هو سبيله، وهذا هو الذى تراه العيون، لأن كل تدابير أعداء الدين من الخارج وكل تدابير

أعوانهم من الداخل من حكام وخدم حكام لا يزداد الدين فى وجه صدهم عنه إلا قوة فى قلوب الصادقين، من الذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد، ورأيت بعينى أن المساجد فى مصر لم تمتلئ بالشيب والشباب كما تمتلئ فى عهد القمع والغطرسة فى مواجهة الإسلام، وأهل الإسلام وإن كانت تتستر بالقول بأنها تواجه الجماعات الإسلامية السياسية وليس من حقها أن تواجه أحدا على أرض وطنه إلا إذا أمسك بسلاح لأن من شهر سلاحه فى وجوهنا فليس منا كما قال ﷺ والنظام هو الذى يشهر سلاحه فى وجوهنا، إن لم يكن سلاح الرصاص فهو سلاح القمع والبطش، والغَطْرسة، والإقصاء، والمبتدأ الذى هو الموصول وصلته مشعر بوجه بناء الخبر لأن الكفر والصدً يشعران بأن الخبر من جنس العقوبة ثم إن العقوبة هنا مشعرة بالحرب والقتال لأن إضلال الأعمال يعنى إبطال التدابير التى كانت تحاك للدين وأهله ولا تزال، وقد فسّر علماؤنا الأعمال بهذه التدابير فآذن هذا التفسير بالإشارة الظاهرة إلى مقصود السورة كما فَسَّرُوا الأعمال بأعمال البر التى كانوا يزاولونها فى الجاهلية، من قرى الضيف، وحمل الكَلّ وصلة الرحم والإطعام فى المحل، وكانوا على كثير من ذلك، فمن مات منهم على كفره ضَلَّ عملَه وضلّه عملُه، ومن أسلم أسلم على ما سلف منه من برّ، وخير، واقتراب كفروا وصدوا وأضل أعمالهم من مقصود السورة الذى هو القتال يرشحه إعادة ذكر الكفر والصد مضافا إليهما مشاقة الرسول فى الآية التى تكرر فيها هذا البناء، بعد هذه الآية وهى قوله تعالى ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا**﴾ ومشاقة الرسول لا معنى لها إلا محاربته، ومنازعته، واضطهاده، وراجع هذا القيد الرفيع ﴿**مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ**﴾ وضعه بإزاء استعمال كلمة كفروا كما بينا.

قوله سبحانه: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ**﴾.

هذه الجملة العامرة بالإشارات معطوفة على الجملة قبلها ومقابلة لها، ويلاحظ أن المبتدأ الذى هو الاسم الموصول جاءت صلته فى ثلاث جمل، وملحقة بها جملة حالية، والجمل الثلاثة الداخلة فى الصلة جُمَلٌ فعْليّة والجملة الحالية الملحقة بها جملة إسمية ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾والجملة الحالية وإن كانت فى الإعراب ملحقة بالجملة قبلها فهى من حيث المعنى معقد معانيها، وسر أسرارها، وقد جاء خبر هذا المبتدأ المكون من هذه العائلة من الجمل فى جملتين الأولى كفر عنهم سيئاتهم، والثانية أصلح بالهم، وكأن الأولى مقدمة للثانية، لأن الأولى تعنى التخلية بتكفير السيئات، والثانية تعنى التحلية بإصلاح البال الذى هو الحال والشأن.

ويلاحظ أيضا أن الجملتين المتقابلتين متفقتان فى حذو البناء، فكل واحدة منهما لها رأس هو الاسم الموصول وتتبعه الصلة ثم يأتى الخبر والصلات جمل فعلية، والخبر جمل فعلية، وهذا التصاقب فى المبانى راجع إلى التصاقب فى المعانى، لأن الجملة الأولى وإن دلت على معنى يحسن السكوت عليه ودلت الثانية على معنى يحسن السكوت عليه فإن اجتماعهما هو المعنى المطلوب، وأن التقاءهما فى هذه المقابلة البيانية يتأتى بعده مباشرة التقاؤهما فى الميدان، وكأن المقابلة فى اللفظ وراءها مقابلة فى المعنى والمقابلة فى المعنى وراءها مقابلة على أرض المعركة، وهكذا ترى اللغة تُجسِّدُ الواقع والواقع يصوغ اللغة.

وراجع المقابلة الكلية وكيف تكونت من متضادات جزئية، فالذين آمنوا يقابل الذين كفروا، وعمل الصالحات يقابل عمل السيئات والشناعات المتمثل فى الصد عن سبيل الله، وأصلح بالهم يقابل أضل أعمالهم، ثم انظر إلى المقابلة بين الفريقين من وجه آخر وهى فريق كفر الحق بعد ما تبين له، وكذب واتبع هواه واتبع غضبه وحقده ووقف فى الصفّ يحارب الفريق الصادق فى إيمانه البَرّ فى عمل الصالحات الذى سمع ما أنزل على محمد واستيقن أنه ليس من

كلام الناس فانقاد وأسلم وَجْهَه واستمسك بالعروة الوثقى، راجع هذه المقابلة الزاخرة بكل المعانى والتى ترى فيها الباطل وحزبه، والحق وجُنْده وأظن أن عينيك ستقف وتتملى وتدبر لأن هذا لا يدرك كنهه إلا بالتدبر كما أمرنا ربنا.

ثم إنه من المفيد أيضا أن تنظر إلى هذين المتقابلين من خلال الروضات الدمثات التى هى خلفية سورة القتال وأن ما دار فى هذه الروضات الدمثات أعنى آل حم كما قال ابن مسعود هو جدال أهل الحق عن الحق وجدال أهل الباطل عن الباطل والحجج البينات الدامغات التى تؤكد الوحدانية فى مقابلة الشرك وتؤكد النبوة فى مقابلة إنكارها، وتؤكد البعث فى مقابلة إنكاره، وأن هذه الخلفية السخية التى وراء القتال أنتجت هذين الفريقين فريق الذين كفروا، وصدوا، والذين أخبرنا ربنا بأنه أضل ويضل وسُيِضلُّ أعمالهم، وفريق الصادقين الذين سمعوا الحق ففاضَتْ عيونهم، وقالوا ربنا سمعنا وأطعنا فاغفر لنا ثم امتلأت قلوبهم باليقين والبر، وامتلأت أيديهم بأعمال الخير والصالحات، وها هم الآن فى المواجهة ووعدهم ربهم بأنه سيصلح بالهم، أقول النظرة إلى الآيتين فى ضوء السياق والمقام أمر واجب وسياق سورة محمد هو كل آل حم، هذا والله أعلم.

وكلمة ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ كلمة شاملة لكل ما يصلح به حال الدنيا وحال الآخرة، وكل ما يصلح به الحال والبال، والسياق يستنفر منها ما هو أشبه به، ومجيئها فى مطلع سورة القتال يوجب أن يكون عمل الصالحات هذا مما له صلة بما يلائم حال القتال، والعمل الصالح فى لقاء العدو، والأمر بضرب الرقاب وشد الوثاق لابد أن يكون منه على الأقل جزء فى إعداد العدة لهذا اللقاء، وإذا كانت كلمة آمنوا أفادت معنى تهيئة النفوس لهذا اللقاء، وأنها دخلت فى الذين اشترى الله منهم أنفسهم بأن لهم الجنة، فإن عمل الصالحات لابد أن يكون فيه ما يدخل فى شأنَ القتال من إعداد السلاح

والعدة اللازمة والمتـغيرة بتغير الأزمان والأحـوال، فإذا كانت فى الزمن الأول السيوف والدروع والرماح والخيل فهى الآن شىء آخر، وغداً شىء آخر، وهى أى أدوات الحرب أسـرع ما يتطور فى حـياة الأمم، ولا يمكن أن أفـهم عمل الصـالحات فى رأس سـورة القـتال بعـيـدا عن هذا، نعم نحن نفـسِّر عـمل الصالحات بالصلاة والزكاة والصيام والبر والصدق إلى آخره، وهذا جانب فى غاية الأهمـية بل هو الجذر لغـيره؛ لأن المسلم ليس غرا وليس خـبّاً وإنما هو بهذا اليقين ذكى يقظ كيِّس لا يسلم نفسـه ولا أرضه ولا عرضه لعدوه بالغفلة عن العدَّة اللازمة لحماية حوضه وحماية حوزته، وحماية الحوض من الفطرة، ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم، وحماية الحوزة من الفطرة لا خير فى من لم يحم حوزته فإذا لم يأمـرنا بها ربنا أمرتنا بها أعرافنا، كـما كان يقول سيدنا عـمرو بن العاص. قلت إن الصلاة والصيام والصـدق والبر إعداد بالغ الأثر للإنسان ليقوم بما هو أشق، وأصْـعب، وهو إعداد القوة والمنعة والسلاح والعتاد والتـصنيع وكل ما يلزم لقوة الأمة، وكل مـا يلزم لهيبتـها فى صدور أعدائهـا وأعداء دينهـا، وقد أخبـرنا المصطفى صلوات الله وسلامـه عليه أن أفضل العبادة أحْمَزُها أى أشقهـا على النفس، وتفسير العمل الصالح بالصلاة والصيام والصدق والبر تفسـير صالح، بشرط أن لا يقف عند هذا ولا يختزل فيـه وإنما نطلق حوابس المعانى فى كلمـة صالح لتشمل كل مـا يصلح به أمر الدين والدنيا، الآية الكريمة وصفت العمل بالصلاح ولم تقيده بأى قيد آخر.

وجملة ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ جاءت فى الكتاب العزيز خبرا عن ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾، وكثرت، وهنا زيادة فى صلة المبتدأ هى قوله تعالى ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ وزيادة فى الخـبر هى قوله تـعالى ﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ وكأن زيادة جملة فى صلة المبتدأ ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ وازنها وعادلهـا زيادة جملة فى الخـبر وهى﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ ومعلوم أن قـوله تعالى

﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ هو قوله سبحانه ﴿وَآمَنُوا﴾ الأولى لأن المراد بالإيمان هو الإيمان بما نزل على محمد وليس الإيمان برسالات الأنبياء قبله فحسب لأن رسالته ناسخة للرسالات قبله ولا ينفع نفسا إيمانها بما لم ينزل عليه، ثم إن الجملة الحالية ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ هى حال مؤكدة وليست مؤسسة؛ لأن ما نزل على محمد عند المؤمنين به هو الحق من ربهم، ولو لم يكن الحق من ربهم لما آمنوا به، فما وجه ذكر ذلك؟ وقبل محاولة الإجابة أقول إن مجيء جملة ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ بعد جملة «آمنوا» لم يأت فى الكتاب إلا فى هذه الآية، ولعل هذا التفرد يعين على توجيه هذا التركيب، وأرى له وجهين أحدهما مختصر، والآخر مطوَّل، وأبدأ بالمختصر، وهو أن جملة ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ راجعة رجوعا ظاهرا لرؤوس آل حم السبع، لأن رؤوسها جميعا حديث عما أنزل على محمد وأنه الحق من ربنا، وهذا من الروابط الظاهرة بين القتال وآل حم ثم هو يرشح ما استخلصناه من ذكر الفريقين فى أول القتال فريق ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا﴾ وفريق ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وأن هذين الفريقين هو ما أفْضى إليهما آل حم من الشواهد البينات والحجج الظاهرات فى أمر الوحدانية، فى مقابل الشرك، وفى أمر النبوَّة فى مقابل إنكارها، وأمر البعث فى مقابل إنكاره، وجاءت جملة ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ لتربط هذا الفريق الصالح بالإيمان بالحجج النيرات، التى قامت عليها آل حم وأرى هذا كلاما لا يدفع.

الوجه الثانى من وجوه التوجيه هو السياق، والسياق نور يُسْتَضاء به، والسياق سياق حرب، ومقاتله ومواجهة بين أهل الحق، وأهل الباطل، وقد قدَّمت سورة القتال الفرقة الباغية ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لأنهم الذين أعلنوا الحرب على دين الله، ليس بكفرهم، وإنما بصدهم عن سبيل

الله، وجاءت هذه الآية الثانية لتحدث عن الفرقة الواقفة فى وجه غطرسة الباطل وأهله، الذين أعْمَتهم الغطرسة والكبرياء فتوهموا أنهم يملكون أمر الناس، فصدوهم عن السبيل وقالوا لهم لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه، وكل ذلك كان قد نزل كما نزل قوله تعالى ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾ [الحج: ٤٠] و ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [غافر: ٥١] ولابد من العناية الشديدة بهذه الفرقة التى تواجه جدار الباطل بكل جبروته وغطرسته ولا يزال جبروت الباطل على الأرض وفى كل المجتمعات ولا يزال من الفرقة المواجهة له بقايا على الأرض هم أهل الله وخاصته، أقول لابد من العناية الشديدة بالإعداد النفسى، والعقائدى لهذه الفرقة، أو هذه الطليعة فى تاريخ الأمة والتى تواجه الباطل، والتى قال رسول الله ﷺ فى أول مواجهتها للطاغوت **«اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض»** وكان تكليف الله لها فى أول الأمر تكليفا صعبا جدا لأنه كان اختبارا للعزائم، فكان كل مسلم لا يجوز له الفرار إذا كان فى مواجهة عشرة من أهل الباطل، وإنما يقف ويَصمُد ويقاتل إما أن يقتلهم أو يموت ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنفال: ٦٥] هذا معناه أن الإعداد الأول للمجاهدين فى هذه الأمة إعداد يفضى بها إلى غلبة عشرة أضعاف عددها، وأنها إن كانت من الصابرين وجدت الله معها، ثم خَفّفَ الله عنها، وصار المسلم لا يحل له الفرار إذا كان فى مواجهة جنديين من أعداء دين الله، ﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٦].

كل هذا يقتضى التأكيد والتذكير بالعقيدة التى يقاتل بها ولها ومن أجلها الجندى المسلم، وأنه لا يقاتل عن دنيا يصيبها، وإنما يقاتل عن إيمان بما أنزله

الله على مـحـمـد، وأنه هو الحق، ولاحظ تـعريـف الطرفين فى الجـملة الحالية، وأن ما أنزله الله على مـحمد هو الحق كل الحق، وأن هذا الجندى تحت راية الحق كل الحق، وواحدٌ فى صفوف أهل الحق، وليس فى الأرض رايه حق إلا رايتـه، وليس فى الأرض جيش يُحِقّ الحق ويبطل الـباطل إلا الجيش الذى هو منه، وهذه عـقيدة ضرورية ولا تقـاتل جيوش فى الأرض إلا عن عقيدة قتاليـة، وأهل الباطل يوهمون جنودهم أنهم جنود الحق حتى لا يسقط السلاح من أيديهم، إذا ذكروا وهـم فى المعمعة أنهم أهل باطل، يقاتلون عن باطل.

وذكـر لفظ ﴿رَّبِّهِمْ﴾ فى قـوله تعـالى ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ ولم يذكـر مكانه لفظ الجلالة ليـتلاءم مع قوله ﴿وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لأن لفظ الرب فيـه معنى الرعاية والعون والمدد ولذلك جـاء لفظ الرب فى آية المدد بالملائكة فى بدر فى قوله تعالى ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩].

لاشك أن تكرار ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ وتكرار ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ إشارة إلى ضرورة إعـلان وإظهار الحقيقة العليـا التى يقاتل المقاتل من أجلها. وضـرورة تأكيد هذا فى نفس الجيش المسلم المجـاهد الذى كان له فى التاريخ وقائع لم تشـهد البشرية مثـلها، وقد قاد حاكم مـسلم عَدَدًا قليلا من المجاهدين لمواجهة جيش كبيـر من جيوش الشرك، ورأى أن وسيلته فى اللقاء بين قوتين غير مـتكافئتين هو أن يقود جيشه وهو لابس كـفنه فاغتسل وتحنط بالحنوط وأدرج نفسه فى كـفنه وحمل راية جنده فتحقق له النصـر وعاد بقائد الجيش الكبير أسيرا فى يده، هذا هو فـعل العقيدة فى نفس المجاهد والذى له بنيت آية القتال على ما بنيت عليه ولم يتكرر بناؤها هذا فى غيرها.

وهذه الآية العظيمة ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ هى

الجملة التى ذكر فيها محمـد صلوات الله وسلامه عليه وسُمِّيت السورة سورة محمد لهذه الجملة.

كما سميت سورة القتال فاقترن اسم محمد صلوات الله وسلامه عليه بقتال الصادين عن دينه، وصار المقاتل يقاتل وهو يقاتل عن دين محمد صلوات الله وسلامه عليه، ولا يَرْجُو المسلم موقفا أعلا وأسنى من معمعة يقاتل فيها عن دين محمده فيقتل أو يُقتل وهؤلاء هم الشراة ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ [التوبة: ١١١] وأكتفى بهذا والله أعلم.

وقوله سبحانه ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ السيئات ضد الصالحات وكفرها غفرها وسترها ولاحظ مادة كفَّر التى جاءت فى الجملة الأولى ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وأن هؤلاء المبطلين يكفرون الحق الذى هو وحده الحق والذى هو أبْلج وأبين من عمود الصبح، وأن رب الناس يكفر السيئات ويغطيها بستره، ومن عادة علمائنا أن يذكروا فى معنى الكلمة القرآنية كل ما تحتمله، وفاء لها، ولذلك فسروا السيئات هنا بسيئاتهم قبل الإسلام؛ لأن الإسلام يُجب ما قبله، وفسروها بالصَّغائر التى يكفرها اجتناب الكبائر، وفسروها بالكبائر التى تابوا عنها قبل الموت، وفسروها بالكبائر التى لم يتوبوا منها قبل الموت، وغفرها الله لهم، لأنهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئًا وثقلَتْ حسناتهم فغفر الله لهم الكبائر، وكل هذه المعانى يحتملها اللفظ، وهو جامع لها، والمهم ما وراء ذلك من قبول الله لهم، وقبول الله منهم، وأنهم عند الله بمكان، وأنهم يدخلون فى عفوه سبحانه، ويستظلون بظل رحمته، ولَيْس بعد هذا فَضل، وهذا الخبر ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ كثير جدا فى الكتاب العزيز، وفيه إشارة إلى أن الذنب ومباشرة السيئات واقترافها ضربة لازب، للعبد لا يستطيع الفكال عنها، مهما قوى إيمانه، وقوى جهاده،

وقويت عصمتُه، وأن المؤمن اليقظ لا يترك هذه الفرطات، تحدث رَانًا على قلبه وإنما يتبعها بالاستغفار وطلب العفو، ويسعى إلى ربِّه غير مُثْقل بها وغير مُتعثر بسببها لأن الإحساس بأن الذنب غام على القلب ولم ينكشف بالاستغفار يبعدُ المؤمن ويجعل خطاهُ تتثاقل فى مرضاة ربه، وكان رسول الله ﷺ يحرص على بيان هذا لأمته وأن من عثر لا يزال فى فُسْحةٍ من أمْره ما لم يصب دما حرامًا فإن أصابه فقد ثقل عليه وزره.

قلت إن مجيء ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ كثير فى الكتاب وهو من أوسع أبواب الرحمة، والذى ليس بكثير قوله جل شأنه ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ ولم يذكر فى الكتاب كله إلا فى هذه الآية، والبال الحال والشأن وما يخطر فى النفس وإصلاح الحال والشأن وما يخطر فى النفس إصلاح عام لأحوال الدنيا والآخرة، وهو مقابل للخبر فى الجملة الأولى ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ ولك أن تلاحظ غاية الغضب فى إسناد إضلال أعمالهم إلى الحق جل وتبارك، وغاية الرضى فى إسناد إصلاح البال إلى الحق سبحانه. ولاحظ أن الضمير الغائب فى أضل أعمالهم وفى كفر عنهم سيئاتهم، وفى أصلح بالهم عائد على لفظ الجلالة المذكور فى سبيل الله الذى يَصُدُّ هؤلاء الأغبياء الفجرة عنه فهم يصدُّون عن سبيل الذى قلوبهم وأعمالهم، وأمرهم فى دنياهم وفى آخرتهم فى يديه، وهذا معنى آخر ثم راجع مرة ثانية إصلاح البال الذى يكون بيد الله جل شأنه وأنه إصلاح ليس فوقه إصلاح، وقلنا إن البال هو الحال والشأن، وهو جامع لأمر الإنسان كله وأمر الجماعة كلها، فى الدنيا والآخرة، وكيف ابتعدنا عن هذا الفضل وهذا الإصلاح الذى ليس فوقه إصلاح؟ ثم إنه فى هذا العموم فى الإصلاح بشارة بالنصر على الأعداء، وهناك لمحة كريمة فى كلام علمائنا معتمدة على أن البال ما يخطر فى النفس كقولنا خطر ببالى كذا، قال الراغب ومنه قول امرئ القيس «وكان عداء الوحش منى على بال»

واللمحة الدالة هى أنهم قالوا لو أن الله أصلح بالهم بمعنى ما يخطر فى قلوبهم وعقولهم، لأفاد ذلك أنه أصلح لهم كل شىء، لأن جذر إصلاح الدنيا وعمارة الأرض وعمل الصالحات وكل ما يُفضى إلى إصلاح الآخرة، جذر كل ذلك ما يخطر فى القلب والعقل، فإذا كان إدراك الصواب والبحث عن الصدق، والحق والعدل، دِيْدَن الناس فذلك صلاح الأمر كله فى السلم والحرب والحياة، والموت، لأن الأصل هو العقل الواعى الذى هو مَوْئل العلم والبصيرة وبه يكون الفهم والتخطيط والسلوك والنظام والجد، وكل ما ينفع، وبهذا يكون إصلاح البال ثمرة العلم الذى أغراهم الله به وفتح لهم أبوابه وحببه إليهم، ومهروا فيه ونبذوا الجهل، والسطحية، والغباء، وهذا المعنى فى الآية الكريمة يعد أصلا لقوله عليه السلام «إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد وإذا فسدت فسد الجسد، ألا وهى القلب» ومعنى صلاح الجسد يدخل فيه صلاح الأمة التى هى كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء، وصلاح الأفراد يعنى صلاح الجماعة والـمُضْغَة التى هى القلب هى البال فى الآية الكريمة، وهذا المعنى سواء فى الآية أو فى الحديث معنى دقيق ونافذ لأن صلاح القلوب والعقول والبال ليس له وسيلة إلا العلم والتعليم، فإذا رأيت النظام يجعل العلم والتعليم فى أول المهمات علمت أنه نظام رشيد، وأهل لأن يقود وأنه محب لوطنه قائم على إصلاح حاله وشأنه، وباله، وإذا رأيته يضع جهاز الشرطة فى أولى مهماته، ويضع التعليم فى آخرها، أو لا يضعه علمت أنه نظام الغبى ومن حوله الأغبياء، وأن همهم وسدمهم فى الكراسى التى اغتصبوها أو جاءوها عفوا ولا يعنيه الشعب ولا يعنيه الوطن وربما كان عمله هذا لصالح عدو بلاده، لأن الجهل والسطحية والغباء لا يحمى أرضًا وإنما يحميها العلم والفهم والصدق، ولذلك أيضا ترى الأنظمة المستبدة تتنافس فى المبانى وناطحات السحاب والملاهى، وتترك عقول الشُعب يسبح بها الشعب فى بحار اللامبالاة وانتفاء

الفهم والسطحية، وربما أوهموه أنه مستهدف حتى يدخلوا الرعب فى قلوب المواطنين ويشغلهم هذا الرعب عن كل شىء لأن المرعوب لا يريد إلا النجاة من الهلكة التى رعبوه بها كما هو الحال فى بلادى التى لم تكن كبلادى التى ولدت فيها، وإنما تغير فيها كل شىء وساء فيها كل شىء، لا يبقى فى قبضة الاستبداد إلا الإنسان الجاهل الفاسد العقل والبال، لأن العلم والمعرفة تعنى الحرية والكرامة فإذا رأيت النظام يحارب العلماء ويضطهدهم، ويحولهم إلى محاكمات عسكرية نتيجة تقارير أغبياء الشرطة ثم يحكم عليهم القضاء العسكرى ثم يودعون السجون وتبقى البلاد فى يد المنافقين والكذابين، وأهل الخساسة، ومن لم تلدهم حرائر النساء، فاعلم أن البلاد على حافة الهاوية وأنها تُعَدُّ لعدو مغامر يتنهز الفرصة، علم ذلك المسؤولون أو جهلوه، النتائج واحدة وهذا ما أخشاه على بلادى، لأنى أرى علماء فى الطب والهندسة والفيزياء فى المعتقلات، والسماسرة واللصوص فى أيديهم أمر البلاد والبلاد لم تتقدم يوما ما بعقل الشرطى، وإنما تتقدم بعقول العلماء فإذا كان العلماء فى غياهب السجون فاسأل الله اللطف.

قلت أشار علماؤنا إلى هذه اللمحة وعبر عنها الطاهر بعبارة واضحة قال فيها «إصلاح البال يجمع إصلاح الأمور كلها لأن تصرفات الإنسان تأتى حسب رأيه، فالتوحيد أصلُ صلاح بال المؤمن، ومنه تنبعث القوى المقاومة للأخطاء والأوهام التى تلبس بها أهل الباطل» انتهى كلام الطاهر.

قلت إن كلمة ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ لم تأت فى القرآن إلا فى هذه الآية وكذلك كلمة ﴿أَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ لم تأت فى القرآن إلا فى هذه الآية وجاء مضارع أصلح فى آية أخرى فى هذه السورة فى قوله تعالى ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ ثم إن كلمة (بال) بمعنى ما يخطر فى القلب لم تأت فى القرآن إلا فى هذه السورة وفى هذين الموضعين، وجاءت كلمة (بال) فى موضعين

آخرين بمعنى يبعد عن معناها هنا كالذى جاء على لسان يوسف عليه السلام فى قوله لرسول الملك ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٥٠] أى ما خبرهن، وجاءت مرة ثانية على لسان فرعون فى خطابه لموسى عليه السلام فى سورة طه ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١] أى ما شأنها وخبرها.

قوله سبحانه ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾.

راجع طريقة بناء المعانى فى هذه الآيات الثلاث وكيف استقلت الجملة الأولى ببيان حال فريق كفر وصد وأضل الله أعمالهم، واستقلت الجملة الثانية ببيان حال فريق آمن وعمل الصالحات وأصلح الله بالهم، ثم جاءت هذه الجملة الثالثة وجمعت ما كان من أمر الله فى الفريقين وعللته بأن الأول اتَّبع الباطل والثانى اتبع الحق وأن إضلال أعمال أهل الباطل، وإصلاح أعمال أهل الحق سنة الله فى خلقه ضربها سبحانه مثلا لعباده ليكون مثلا منصوبا أمامهم فيعلم أهل الباطل الذين لا يجهلون أنهم أهل باطل أن الله سبحانه خاذلهم، ويعلم أهل الحق الذين يعلمون أنهم جادون فى اتباع الحق من ربهم أن الله سبحانه ناصرهم وهذا مثل قائم وباق ما بقى هذا الصراع بين الحق والباطل، والله هو الحق وهو ناصر من ينصر الحق، وخاذل من يخذل الحق، ولن تجد لسنة الله تبديلا.

أقول راجع هذه الطريقة فى بناء المعانى لأنها طريقة متميزة وقائمة على أصل منطقى ظاهر وأن هذا الأصل المنطقى هو تثبيت الحق، الذى هو من ربنا، والعدل، والقسطاس، الذى أقام سبحانه عليه هذا الخلق، لأنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق، أعنى العدل والميزان وأن من أمال ميزان الحق، والعدل فى الأرض، خذله الله وأضله، وأن من أقام الحق والعدل والميزان أصلح الله شأنه كله؛ وهذا معنى رائع جدا وظاهر فى الآية ظهورا لا يلتبس.

واسم الإشارة فى كل موقع يميز المشار إليه أكمل تمييز، وهذا يشعر بأن الذى سيبنى على هذا التمييز كلام له خطر، وله بال، والذى يحتاج إلى تدقيق هو معرفة هذا الشيء الذى يعتنى به البيان، وهو هنا إضلال الله لأعمال الذين كفروا وإصلاح بال الذين آمنوا، لأننا إذا قلنا إن اسم الإشارة راجع إلى الكلام السابق، فالمقصود أنه راجع إلى الإسناد فى الكلام السابق، والإسناد هو مناط الفائدة وكان هذا الإسناد مهماً جداً لأن بيان لحقيقة من الحقائق العليا وهى أن الله يَخْذُل الباطل وحزبه ويَنْصُر الحق وأهله، وهذه من الحقائق العليا كما قلت لأنه ليس المقصود المعنى القريب، الذى يفهمه العامة، وإنما المعنى البعيد وهو أن الله سبحانه يُغْرِى عباده بأن يكونوا من أهل الحق حتى يكونوا مع الله، ويكون الله معهم، وينفر عباده من الباطل حتى لا يدخلوا فى خذلانه، ثم إن البعد فى اسم الإشارة يشير إلى بعد مرتبة ومنزلة، ومكانة المشار إليه، وهو هذه الحقيقة، والباء فى قوله (بأن) هى باء السببية أى أن خذلان الله من خذلهم كان لأن: ونصر الله من نصرهم كان لأن: وهذه الباء دخلت على مصدر مؤول أى لاتباع الذين كفروا الباطل واتباع الذين آمنوا الحق من ربهم وأوثر المصدر المؤول لأن بناء الكلام عليه أورث الكلام توكيدين: الأول أنَّ المفتوحة والثانى تقديم المسند إليه على الخبر الفعلى.

وقد تكرر الذين كفروا والذين آمنوا وذلك لتحديد الفرق بين الكفر والإيمان وزرع هذا الفرق فى نفوس الأمة حتى لا يلتبس عليها أمر دينها، وأن يعلم المسلم صغيرا كان أو كبيرا أن ثمة فرقا بين الكفر والإيمان، وأن الحدود بينهما حدود واضحة، وفاصلة، وأن كل من أنكر أن القرآن كلام الله، وأن الله أنزله على خاتم أنبيائه فهو كافر، وليس هذا موضع مناقشة، فضلا عن أن يكون موضع خلاف، وقد ذكرت هذا لأنى أرى وأسمع وأقرأ اللوم والتعنيف والتخويف والتهديد لمن يكفر النصارى من المسلمين، والقرآن الكريم يقول: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ﴾ [المائدة: ١٧]، ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا

﴿إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] بل إن الأمن يقمع الذين يكفرون النصارى، وهذا فساد كبير، وجهل، وغباء أيضا، لأنهم ظنوا أن قول المسلم للنصرانى إنك مؤمن يكفى لدرء الفتنة فى البلاد، والذى يدرأ الفتنة هو النظام السياسى القائم على الحق، والعدل، والذى لا يتأبد فى الحكم والذى لا يعمل على توريث البلاد من بعده، والذى يأذن بالتغيير وتبادل السلطة واحتضان الكفاءات وأن الكفاءة هى الفيصل وليست الطائفية، ثم إن النظام لا يتعصب للمسلمين بل إنه يضطهدهم، ويدمرهم فى معتقلاته، من غير ذنب ويؤثر خدمه وأتباعه وحواشيه وأولاده وأصدقاء أولاده بخيرات البلاد، وصار أمر البلاد إما فى يد ترتعش بالشيخوخة التى هى ضربة لازب على الخلق جميعا، أو أيدى أبنائهم الذين لا حق لهم يزيد عن حقوق الآخرين، هذا هو الذى يقضى على الفتنة وماعدا ذلك فهو من عبث العابثين، قلت هذا لأن تكرار الذين آمنوا والذين كفروا فى الآية وفى الكتاب كله لفتنى إلى هذا؛ وكأن هذا التكرار يعالج الفساد الذى نحن فيه، وكأنه نزل اليوم، ورجال الشرطة وهم ذراع النظام الذى يقمع بها الشعب ليسوا أهل فتوى، وليس من حقهم أن يؤثموا من يكفر الكافر والقضية ليست تكفيرا وإنما القضية فشل وغباء واستبداد نظام، هذا والله أعلم.

ويلاحظ أن الآية الكريمة لما عَلّلَت وذكرت سبب الخبر فى الآيتين السابقتين اللتين هما إضلال أعمال الذين كفروا وإصلاح بال الذين آمنوا أحدثت تغييرا فى البيان عن العلة فلم تقل ذلك لأن الذين كفروا صدوا عن سبيل الله والذين آمنوا آمنوا بما نزل على محمد وعملوا الصالحات، وإنما عبرت عن الحالة الأولى باتباع الباطل، والحالة الثانية باتباع الحق، فجاءت بحقيقة أوسع لأن الباطل أوسع من الكفر، فالكذب باطل، والفساد والإفساد باطل، والسلب والنهب باطل، واستباحة دماء الناس وأموال الناس باطل، وكل ذلك وغيره موجب للخذلان وإضلال الأعمال، وكذلك الحق أشمل من الإيمان، وأوسع فالصدق حق، والأمانة حق، والوفاء حق، والمحافظة على أموال

الناس ودمـائهم حق، والمحـافظة علـى تراب الوطن حق، وتوليـة الصـالحين المصلحين حق، وإبعـاد اللصوص حق وكف الأقـارب والأبناء عن اسـتبـاحة أموال الدولة حق، وهكذا، ومن سلـك درب الحق؛ ووعى الحق وحافظ على الحق فى كل ذلك أصلح الله لهم بالهم، وهكذا تجد هذا التـغيير خلق وصنع محيطا آخر، وفتح بابا آخر فحواه ارتباط الهزيمة باتباع الباطل، وارتباط النصر باتباع الحق، وكـأن الآية تقول لنا أيها المـسلمون إنكم لن تنتصـروا ولن تجدوا الله معـكم بمجرد إيمانكم، وإنما لابد من اتبـاع الحق، وأن يكون الحق ديَدنكم فى أمـركم كله، نعم الإيمان هو الجـذر، ولابد أن تكونوا صادقين فى القـول والعمل، ولابد من الإخلاص والعمل الدؤوب الذى لا يَفْتُر لتوفير كل عناصر القوة، فى كل وجوه حياتكم، فى السيـاسة، والصناعة، والزراعة، والتعليم، لابد أن يجرى الحق بكل معانيه فى كل شأن من شـؤونكم، وحينئذ ستجدون الله معكم يصلح بالكم، وينصركم على عدوكم، أما إذا انتشرت فيكم الرذائل والغش، والكذب، والرشـا، والوساطة، وحكمـتم من ليسـوا أهلا لسيـاسة الأوطان واسـتبدوا وقـمعـوا، وقهـروا، وطال زمن حكمهـم واستبـدادهم، وقهرهم، وطمعوا فى غرس أبنائهم فيكم بعدهم، وأنتم عاجزون عن المواجهة فلن ينصـركم الله لأن الشَّعْـبَ الذى يعجـز عن مواجـهة الفـساد فى أرضـه وحكامه سيكون أكثـر عجزاٍ فى مواجهة عدوّه يـوم يطمع فيه، والحاكم الذى يقهـرُ شَعـبه لن يَقَهْـر عدوه لأن الحاكـم لا يقهر العـدو وإنما يقهـره الشّعْب والشعب المقهور لا يقهر عـدوا، والعبد لا يحسن الكرَّ، الآية تقول لنا الباطل هو الصاعـقة المدمِّرة لكم فـاحذروه، وطاردوه من حـياتكم، وأولها حـياتكم السياسية، وحكامكم، لأن الذى فى القمَّـة ينحدر إلى السفوح، إن كان كذبا وغشاً وجَهـالة وسَطحية وأنانية رَشَحَ ذلك كله على الشّعْـب، وإن كان صدْقًا وأمَانة ورجـولةً ووفاء، وبراً وإخلاصـا وعِلْمًا وبصيـرة وإيْثاراً رَشَحَ ذلك كله على الشعْب ولا يزال الناس على دين ملوكهم، وإن أرَدْت أن تعرف حقيقة

ما فى القمة فانظر إلى ما يجرى فى السفح لأنه مُتساقطٌ من هناك، والقمة كثيرا ما تتدثر بثياب الزور، وتوصف بالحكمة، وهى جاهلة، وبالانحياز للطبقة الفقيرة وهى ترى من حولها مَنْ يسرقون أموال الشعوب وأقوات الفقراء. الآية تقول: إن أردتم النصر وأن يُصْلح الله بالكم فعليكم بالحق لأنه يد الله فيكم وكل هذا ظاهر فى الآية والله أعلم، راجع التعليل بقوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ﴾.

قوله سبحانه ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾.

قلت إن قوله تعالى فى الجملة السابقة ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ﴾ انتقلت بالمعنى إلى أفق أوسع، مما كان عليه فى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ لأن الباطل أوسع من الكفر والحق أوسع من الإيمان وهذه الجملة تجاوزت هذا الأفق الثانى إلى أفق أوسع وذلك لأن كلمة الناس تشمل المؤمن والكافر، فى الزمان كله والمكان كله، وأن هذا صار مثلا للناس؛ وليس للمؤمنين والكافرين، وصار سُنَّة كونية من سنن الله فى الأرض، كالشمس، والقمر والجبال، لا تزول ولا تحول، وأن اتباع الباطل يُفْضى إلى دَمَار الأمم؛ واتباع الحق يُفْضِى إلى بقائها، وانتصارها وقيام مُلكها، وعِزّهَا، مؤمنة كانت أو كافرة، والضمير فى أمثالهم يعود إلى الفريقين اللذين هما أصل المثل، وأن نصر الله للذين اتبعوا الحق، وخذلانه للذين اتبعوا الباطل، صار مثلا للناس قاطبة، ويُلاحظ أن صلاح البال لم يكن خبرا عن الذين آمنوا فقط، وإنما كان خبرا عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات بمعناها العام، الكلام بدأ بالكفر والإيمان وانتهى إلى الحق والباطل، وكان أول الكلام فى إضلال أعمال الذين كفروا وإصلاح أحوال الذين آمنوا، وعُلّل هذا بأن ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ﴾، ثم ارتقى إلى الحق

والباطل مجردين وصار مثلا مضروبا للناس، أبيضهم وأسودهم، وصار سنة من سنن الله، لأن الأمثال صيغ ثابته يضْرِبُها الناس بعضهم لبعض، ويضربها الخالق لخلقه، هذا المثل الثابت للناس كافة هو أن اتباع الحق يورث النصر، واتباع الباطل يورث الضياع، وأن الذين آمنوا إذا أرادوا الحرص على نصر الله لهم فلابد أن يستمسكوا بالحق، وأن يَعَضُّوا عليه، لأنهم لو ظلموا وسَلَبُوا ونَهَبُوا وشاع الفساد فيهم، وفى كبارهم، وفى مسؤوليهم فلن ينالوا شيئا من نصر الله، لو رأوا الباطل فى ديارهم، والفساد فى ديارهم، ورأوا عصابة فاجرة تظلُّ قابضة على الحكم حتى يكبها الموت على مناخرها ثم تَظَل متشبثةً وهى فى قبورها بكراسى السلطة التى ملكتها لأولادها قَبْل أن يُخرسها الموت إذا رأوا ذلك وسكتوا وكان الفساد والإفساد وموالاة أعداء الله وأعداء المسلمين والطامعين فى أرضهم وديارهم وثرواتهم إذا كانت هذه الموالاة دَيْدَن من كبَّه الموت على منخريه ودَيَدَن من جاء من صلبه إذا رأوا ذلك وسكتوا فإنهم ليسوا أهلا لنصر الله لأن نصر الله عزيز، ولا ينزَّلُ إلا على الرجال الأحرار الكرام، الأقوياء وليسوا أهل الخساسة الذين يأكلون خبز السلطان الذى يسرقه بدوره من شعبه، ومن أجل أن يريهم الله آياته ينصر عليهم أعداءَه، وأعداءهم لأن شعوبهم وقفت فى وجوه أهل الحكم وحاسبوهم، وألزموهم بالعدل، والقسطاس وألا يولوا أولادهم، وأقاربهم، وخدمهم وإنما يولون الكفاءات ويقفون مع الكفاءات وألا يأخذوا شيئا إلا بحقّه فمن زاد عن حقه مثقال ذرة حوسب على مثقال الذرة، ويقابل هذا عندنا إطلاق يد المسؤول الأول وكأن بيت المال هو بيت ماله يأخذ منه من غير رقيب ولا عتيد، ثم هو لا يُسأل عما يَفْعل ثم هو كبيرنا ووالدنا، هذا كله لابد أن يزول حتى يكون المسلمون حقيقين بنصر الله ،هكذا يضرب الله للناس أمثالهم، والكاف التى فى قوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ هى كاف التشبيه وداخله على المشبه به ومَرجع اسم الإشارة هو ما بعد اسم الإشارة السابق، الذى هو اتباع الباطل واتباع الحق،

واسم الإشارة الأول راجع إلى إضلال أعمال الذين كفروا وإصلاح بال الذين آمنوا وهذا هو التدرج الذى كرَّرْته للدلالة عليه، أى أن اتباع الباطل واتباع الحق هو المثل المضروب للناس كافة، وكلمة ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ تكررت بلفظها مرتين وذكرت بمعناها فى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾لأن الإيمان هو اعتقاد الحق من ربنا فما وجه هذا التكرار؟

الذى عندى فيه هو تأكيد وتقرير صلة الحق فى نفوسنا بعقيدتنا، وأن يكون استمساكنا به من باب الاستمساك بعقدائنا، بقى أن يكون الحق الذى نُصِرٌ على وجوده فى حياتنا الخاصة والعامة عقيدة من عقائد نفوسنا وأنه من ربنا، وأننا لا نُفرِّط فيما هو عندنا من ربنا، لأنه عطية ربنا لنا، علينا أن نحارب الباطل الذى هو ضد الحق فى حياتنا العامة، والخاصة، محاربة من ينزع حق ربِّنا من أيدينا، وهكذا كانت الأمة فى زمنها الأول، وفى أيام صفائها، الأيام التى كفّ الله عنها أيدى حكام السوء المتعطشين لدمائها، هذه الدماء التى تراها الآن تراق على أيدى عسكر الظالم الموالى لأعدائنا، تراق على أيدى مغول الأغا، الجار والمجرور فى قوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ بيان لإعزاز الحق، ونصرته فى قلوب أبناء الأمة، وشدة تمسكهم به، وشدة محاماتهم عنه، وشدة دفعهم للباطل، لأن الباطل طمْس للحق وكلما اتّسَعَتْ مساحة الباطل، ضاقت مساحة الحق، وللحق جند هم حماته لأنه من ربهم، ويلاحظ إيثار كلمة ﴿رَّبِّهِمْ﴾ على لفظ الجلالة، مثلا لأن الرب هو مصدر النعم ومصدر العطاء ومصدر الصَّون ومصدر الرعاية، والحفظ، والحق الذى منه سبحانه هو فى حياتنا مصدر العطاء ومصدر الصون، ومصدر الرعاية، والحفظ، لأن دولة الحق إلى قيام الساعة كما قالوا قديما «دولة الباطل ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة»، ومهما طال زمن الباطل على أرْضك الغالية يا أم البلاد فلابُدَّ أن تزول دولته، وأن تقوم فيك دولة الحق، ومن ورائها رجال الحق إلى أن تقوم الساعة.

هذا وجه من وجوه تكرار كلمة ﴿ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾.

ووجه آخر هو الإشـارة إلى أن الله سبحانه ما ترك خيـرا إلا حثنا عليه، ودلّنا عليه وأغرانـا به، ووعدنا المثوبة إن نحن فعلناه، ومـا ترك شراً إلا نبهنا إليه وحـذّرنا مِنْهُ وأنذرنا بعقابه، إن فـارقناه، والحق خير كله، والبـاطل شر كله، وكل حق هو من الله سبحانه فَسَاحَة الحق عندنا مُتّسعة جدا، وكل حق خير، وكل خير داخل فى مرضـاة الله سبحانه، والمطلوب أن تتلقى الأمة كل خَيْر وكل حق تَلَقِّيها للأمر الذى جاءها من ربها الذى ربّاها وراعها.

قوله سبحانه: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾[محمد: ٤].

يؤكد علماؤنا أن هذه الآية نزلت بعد آية الأنفال: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٧- ٦٩]

وأية الأنفـال هذه عـاتبت المسلمين لأنهم لـم يثخـنوا فى الأرض يعنى لم يكثروا القـتل قبل الأسر والمراد يوم بدر ولما انتـصر المسلمون يوم بدر رفـعوا السيوف عن بنى أبيهم وأسروا ولو كانت آية القتال نزلت ما تجاوزها المسلمون وإنما كانوا أنفذوا ما فيها، وهو الإكثـار من القتل قبل الأسر حتى يترك العدو المحاربة وقد نزلت الأنفال قبل القتال بزمن.

وهذه الفاء ترتب مـا بعدها على ماقـبلها والذى بعدها ليس مـفردا وليس جملة، وإنما هو حَدَث كبير، وجملة معانى مكونة لهذا الحدث مبتدئة بالشرط والجواب، وما يَنْجـرُّ إليه الكلام من جذر الآية وهو ضرب الـرقاب إلى قوله تعالى: ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ [محمد: ٥]

ولاحظ يصلح بالهم وكيف تعود إلى قوله سبحانه: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ ولاحظ أيضا الربط بين كفَّر عنهم سيئاتهم هناك ويدخلهم الجنة هنا، لأن هذا من التشابك الذى لا تجده إلا فى الكلام المعجز ثم لاحظ رد العجز على الصدر فى هذا الفصل من فصول معانى السورة.

هذا هو ما بعد هذه الفاء، الذى هو المرتَّب؛ أمَّا ما قبلها وهو المرتب عليه فلك أن تقول إنه كل ما مضى فى هذه السورة، ولك أن تقول إنه هو الجملة الملخصة لكل ما مضى، وهى قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ لأنها مع تلخيصها لما مضى فتحت المعنى، ووسعتْه بكلمة الناس وبيَّنتْ أن اتباع الباطل مهلكة للأمم والشعوب والجيوش، وان اتباع الحق نصر للأمم والممالك والدول، والشعوب والجيوش، وأن هذه هى السنة الكونية، وأنكم لو قعدتم عن مواجهة الباطل، فى بلادكم فلا تنتظروا نصر الله، قلت هذا هو المعنى المرتب عليه، وبقى شىء أهم هو بيان وجه ترتيب حدث لقاء العدو وما وراءه على اتباع الباطل واتباع الحق؟

ووجه ذلك والله أعلم بمراده أن اتباع الباطل أو تركه يُدَمِّر أركان الدولة وينتج نتائج سيئة وأسوأها الهزيمة فى مواجهة العدو، وأن اتباع الحق الذى هو الصدق، والعدل، والحرية، والمساواة ينتج نتائج عظيمة وأعظمها وأعلاها الانتصار على العدو، وأخطر ما تعيشه الشعوب أن تعيش مُتَخلفةً فى العلم وفى السياسة، وفى الصناعة، وكل ما يدخل فى إعداد القوة، وعلى حدودها عدو لاشك فى عداوته، وعينه ساهرة، فلاينى ولا يفتر فى التقدم العلمى، والصدق فى سياسة نفسه، وأن تتولى الكفاءات مواقعها فى الدولة ولا تجد فيه فرعونا يفكر فى زرع ولده مكانه، ولا تجد فيه فرعونا يتشبَّث بموضعه إلى آخره نفس حتى يكبَّه الموت على منخريه، هذا العدو اليقظ دائما والمتقدم دائما، وهذا الشعب الآخر المقهور دائما، والذى يزداد فيه الفقر والجهل

والمرض، يعيش هذا الشعب تحت هذه القيادة الغـبيَّة وعنده إحساس بالهزيمة، أو ينتظر الهـزيمة، لأنه يعلم أن هـذا العدو طامـع كالذئب ولكـنه ينتظر يوم الفريسـة، وإذا كان النظام الغبى يعطيـه كل شىء فلن يستعـجل بالحرب لأنه يأخذ ما يشاء بدون حـرب، وإذا جاء نظام يكف يده عن البلاد بادر بالحرب، والشـعب الذى يَرَى هذا ويَسْكُت لا يلـومَنَّ إلا نفسـه، إذا انتـهكت أرضـه وانتهك عرضه.

هذا هو وجه التـرتيب وإن كنت ترى فى كلامى حـرفا واحـدا يخرج عن دلالة الآية فلك ذلك واعلم أنى لـو علمت أنى أُدخل على كـلام الله حرفـا واحدا من عندى لحرقت أوراقى لأنه لا طاقة لى بأن ألقاه سبحانه وقد تبوأت مقعدى من النار.

بل إن فى الآية معنـى آخر هو أنها تضع تحت عـيوننا الذين اتبـعوا الحق، الذى هو العدل، ومواجهة الظلم، والفساد، والخطف والاستبداد، والبقاء فى السلطة بالقهر والغطرسة، وقد تمكنوا من عدوهم، تمكنا تراه فى هذه الصورة التى تغرى الناس بالنصر، وإعداد القوة، وهى ضرب الأعناق وإكثار القتل فى العدو، ثم شد الوثاق وترينا الآية صورة البـاطل والساكتين عن الفساد، الذى يهلك البلاد، والعباد، وأعناقهم تُدقّ وتُراقُ دماؤهم، ويُشَدُّ وُثَاقَهم، وهم فى يد عدوهم، هذه الصورة تقول لأبناء الكنانة استـيقظوا لأن عدوكم يُعدّ العدة باليقظة، والعلم، والوعى، وأنتم مخدرون تغنون للسلام وتقولون لكل مستبد جاهل غبىّ بالروح والدم نفديك، الآية تقول لنا أفـيقوا رحمكم الله، وانفوا الخبث والجـهل والغش واضربوا على أيدى اللصـوص الكذبة المزورين قبل أن يدق عدوكم أعناقكم هذا أو الطوفان.

بقيت كلمة وهى أنك لا تستطيع أن تعزل كلمة الحق التى تكررت فى رأس سورة القتال هذه عن كلمة الحق التـى كانت جذر معنى الآية التى كانت رأس الأحقـاف، وهى قوله تعـالى: ﴿**مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ**

بِالْحَقِّ﴾ [الأحقاف: ٣] وأن منطق الإيمان والعمل الصالح، واتباع ما أنزل على محمد عليه السلام يقول ما دامت السموات والأرض وما بينهما لم تُخلقا إلا بالحق فلا يجوز لمن آمن بذلك أن يزاول فوق هذه الأرض المخلوقة بالحق وتحت هذه السماء المخلوقة بالحق إلا عملا ملتبسا بالحق، ومن زاول غير ذلك فقد خرج عن سياق الحق، وإذا راجعت اقتران كلمات الحق والعدل والميزان فى الكتاب العزيز اتسع لك البحث ورأيت نفسك وبين يديك عالم آخر.

وكلمة ﴿إِذَا﴾ فى قوله تعالى ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ﴾ تدل على الشرط فى المستقبل وتفيد أن الذى دخلت عليه مُتوقَّع الوقوع، ومعنى هذا أنها تشير بدلالتها اللغوية والواضحة أنكم يجب أن تتوقعوا دائما هذا اللقاء، مع الذين كفروا وأنهم لن يتركوكم يوما، ولن يسالموكم، وأنهم إما أن تكون علاقتكم معهم علاقة حرب وكر، أو علاقة سلب ونهب، فإذا صادقوكم كما تتوهمون الآن كان وراء ذلك سلبهم لثرواتكم، واستحلالهم لترابكم وإقامة قواعد لجيوشهم على ديار الإسلام، وفى قلب ديار الإسلام، وفى الديار التى هى مهد الإسلام الأول، ومهد العرب الأول، وهذا يكفيهم لأنهم أخذوا كل شىء من غير حرب، ولا إثارة ولا إزعاج، والملاحظ أنهم لم يكتفوا بذلك وإنما يُفَرِّغُون أجيالكم من تاريخهم، وعقائدهم، وتراثهم، ويملؤون كل هذا الذى أفرغوه بعلومهم، وثقافتهم، ولغتهم هم، وهذا استعمار أنكى من استعمار الأرض، وكبارکم يوافقون على كل هذا الذى هو نهب الثروة، واستعمار الأرض، وغسل المسلم من إسلامه، وغسل العربى من عروبته لأن التَّضحية بهذا كله هى ثمن بقاء الكبار وثمن غطرستهم، وجبروتهم وكسر عظام شعوبهم، هذه دلالة كلمة (إذا) ومجىء الماضى بعدها والأصل أن يؤتى بالمضارع وسِرُّ ذلك الدلالة على تأكيد وقوع الشرط، الذى هو لقاؤكم وأنه كائن لا محالة، وأن ما هو للوقوع كالواقع، وهذا يعنى أن تكونِ الأمة - لو كان يحكمها أهل رشاد - على استعداد دائم لهذا اللقاء وأن تكون عدتها

جاهزة وسلاحها جاهز وجيشها جاهز واقتصادها جاهز وكل ما يلزم هذا اللقاء، ولاحظ أن الأمر الآن انتكس يعنى انقلب على رأسه لأن حكامنا جعلوا جيش العدو هذا جيش حماية، وبدلا من أن يُعدُّوا من أبناء الديار محامين يَحْمُونَ الديار جاؤوا بجيش العدو ليمحى الديار نيابة عن أبنائها، وكأنهم ليسوا رجال كر، وإنما هم رجال حليب وصر، وهذه إهانة ما كان لنا أن نقبلها، والذين كفروا هم الذين لا يشهدون الشهادتين فمن آمن بالله وكذّب محمدا عليه الصلاة والسلام فهو كافر بنص القرآن وإجماع العلماء، ولا يجوز أن نشوه هذه الحقيقة الإيمانية بالترهيب الذى يمارسه النظام على من يكفر النصارى لأن كفر النصارى لاخلاف فيه، ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧] ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، ومن لم يكفرهم فقد كذب هذه الآيات ثم إن كلمة (لقيتم) تعنى لقاءهم فى الحرب فإذا لم تكن حرب فدماءهم حرام كدمائنا وأموالهم حرام كأموالنا.

وقوله سبحانه ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ الفاء واقعة فى جواب الشرط ومفيدة قوة ترتب الجواب على الشرط، يعنى ما إن تلقوهم حتى تَضْرِبُوا الرقاب، ووراء ذلك الإشارة إلى أن تكون المبادرة بالضربة الأولى منكم، وأن تكون المباغتة منكم، وأن تكون هذه الضربة الأولى قادرة على أن تُحْدث الإرباك فى صفوف العدو، وكلمة «ضرب الرقاب» من إضافة المصدر إلى المفعول، والمصدر هنا ساد مسد الفعل، والأصل فاضربوا الرقاب ضَرْبًا وهذه الفَتْحةُ فى المصدر دالة على الفعل المحذوف، وهذا الحذف واقع جدا لأنه متلائم مع تلك الضربة الخاطفة السريعة، المُربكة لعدوكم، ثم إن كلمة الرقاب ووقوع الضرب عليها ليس المقصود ظاهرها، وإنما المقصود الإشارة إلى أنِ تَتَلَقَّوهم متمكنين منهم قادرين عليهم مسيطرين عليهم، والقرآن العظيم تراه أحيانا يأمرنا بإنفاذ شيء، وهذا الشيء الذى يأمرنا القرآن بإنفاذه لا يكون إلا إذا

أنْفَذَنا شيئا سابقا عليه، وداخلا فى الإعداد له، وتسكت الآية عن الحثّ على الشىء الأول اكتفاء بالحثّ على الشىء الثانى الذى لا يكون إلا معتمدا على الأول، والذى أريده هنا أن القرآن أمرنا بضرب الرقاب حال لقاء العدو، وهذا لا يكون إلا بمزيد من العُدَّة والعَتاد والتدريب والسّيطرة حتى نكون عند اللقاء ضاربين للأعناق، وقد سكتت الآية عن كل ما يسبق ضرب الأعناق، وما هو لازم، وضرورى لضرب الأعناق، اكتفاء بالأمر بضرب الأعناق، وهذا من الإيجاز الذى لا تجده على هذا الوجه الذى هو أشرح من الإطناب، إلا فى هذا الكتاب العزيز.

ويلاحظ أن أسلحة الحروب تتغيَّر وتَتَطوّر بسرعة، وأن أول ما تُطوّرُه المصانع، والعلوم الحديثة، هو آلة الحرب لأنها هى الضرورية للدفاع عن الناس والأوطان والحريَّات، وهى المقدمة على كل شىء، لأن أول شىء أن تعيش وأنت قادر على حماية نفسك، وليس لك قيمة إذا كنت تعيش ويحميك غيرُك أو يحميك نظام مستسلم للعدو، وساع فى خدمته هذا أذلّ من الذل، ومعنى أن أداة الحرب تتغير بسرعة، أن لقاءكم للعدو الذى يجب أن تكون المباغتة بالضربة المربكة منكم يجب أن تكونوا قد أعْدَدْتم لها ما يلزم مما يناسب آلة الحرب فى كل زمان، لأن هذا أمر الله لنا وهو قائم حتى تقوم الساعة، وأعجب من الذين يقولون إن القرآن دستورهم وأنهم يُطبقون شرع الله وليس عندهم من هذه الآية شىء، وليس تطبيق الشرع بقطع يد سارق العنزة الجرباء وتقبيل يد سارق المليارات؛ وترك البلاد بدون حماية تَحميها، ولاتحميها إلا سواعد أبنائها، فإن حَمَتْها سواعد الآخرين فهى حماية الكذابين أو قل هى حماية تحمى اللصوص الذين يسرقون الأوطان.

وهذه هى معالجة الكتاب العزيز لهذا الجانب السياسى، فى حياة الأمة والذين يقولون ليس فى الإسلام سياسة عليهم أن يَحْذفوا هذه السورة وليس هذا هو الذى يعنينى، وإنما الذى يعنينى هو أن هذه الدولة القوية التى يدعونا ربنا إليها هى الدولة الإسلامية، وليست الدولة الدينية بالمفهوم الكنسى كما

يكذب الكذابون فى زفة قداسة الفرعون، والمطأطئو الرؤوس فى مواجهة كبرياء أبناء القردة.

ويلاحظ أن هذه الآية ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ والتى هى قوام وجود الدولة الإسلامية، يَلفتنا ربنا فيـها لفْتةً بالغة الدلالة، وبالغة العمق وذلك حين انتـقل الكلام من طريق الغـيبـة إلى طريق الخطاب، وكـان طريق الغيبة فى الآيات من أول السورة، والذى قلـنا إنه مهاد لهذه الآية، لأنه يؤكد حقيقة خالدة من حقـائق الوجود الإنسانى، وهى ضرورة اتباع الحق، وضرورة الحـذر من الباطل علـى الوجه الذى بيناه وأن الحق يَـعْنِى الصِّدق، والعـدل، والطهارة، والإخلاص، وليس الغش والكذب والتزوير والخطف والقمع، أقول بعد هذا المهاد بأسلوب الغيبة قال ربنا ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ﴾ والخطاب فيه خطاب للأمة كلها حاكـمين ومحكومين فى الزمان كله يعنى خطاب لى ولـك أيها القارئ، والأمْر مُوجَّه للكافة سواء منهم من كان فى الجيش ومن كان منهم فى المصنع، والمزرعة والمدرسة والجامـعة، لأن الكل يجب أن يكون من وراء الجيش المدافع عن الأرض والعرض، الكـل مأمور بإعـداد العدة التى تمكن من رقـاب العدوٍّ المعتدى علينا؛ فإذا رأينا فسادا أو إفسـادا أو إهمالا لكل ما يتصل بإعداد العدة فلابُدَّ من المواجهة مع كل ما يوهن قوتنا، سواء كان الذى يوهنها تدمير التعليم أو إهمال البحوث العلمـية المنتجة لآلة الحرب؛ أو العبث بالحيـاة الاقتصادية، ونَهْبـها المنظم، أو إهمال مـا منه وبه يكون قوت الشعب إلى آخـر ما يجب، لابُدّ من مواجهـة ذلك من الكافة الداخلين فى قوله ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ لأن الآية جمعتنا ورفع الله أقدارنا ووَضَـعنا فى مقام حضرته وخطابه فلابد من تنفـيذ أمره، لأنه سـبحانه يَرْسُمُ لنا طريق النصـر، وصلاح البال والحال وما يُفضى بنا إلى العزّة والكرامـة، لأنه سبحانه أخبر أن العزَّة لله ولرسوله وللمـؤمنين ولا يجوز لنا أن نتقاعس عن طلب شـرف العزّة مع الله ومع المكرمين من أنبيائه، وليس بعد هذا فـضل ورفعة وإكرام وليس من منهج

الإسلام، ولا من سلوك المسلم أن يـدع أمرا كهذا لرئـاسة الدولة وأن ينكفئ على مصالحه الخاصة، وخصوصا فى هذا الزمن الذى يخترق فيه العدو أو يتجه لأن يخترق الرجال الذين هم فى الصفوف الأولى، ليؤلف المؤلفون لهم ثقافة السلام والاستـسلام، والدَّعـة والاسترخاء، ويبـقى العدو بكل صفـوفه وكل شعبه يقظا يُعدُّ نفسه ليوم السيطرة على أرض المرتلين لأحاديث السلام.

نعم لقد أمرنا ربنا بأن نجنح للسلم، وهذا مشروط بصدق العدو فى الجنوح لها، ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١] ويلاحظ أن عـدونا قد وصفه لنا خالقـه بنقض الميثاق ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ﴾ [المائدة: ١٣] وهذه هى ثقافة السلام الحذرة، واليقظـة لعدو لا يعرف إلا السلب والتدمير، وأكرر أننى لا أكتـب كلمة واحدة فى كلام الله خارجـة عن دلالته لأن ذلك يَدْخُل فى باب الكذب على الله.

قوله سبحانه ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾.

كلمة (حـتى) تفيد أن ما بعـدها غاية لما قبلهـا، يعنى يظل ضرب الأعناق الذى هو مجـاز عن السيطرة، والـتمكن، والاقتـدار والغلبة يظل ذلـك زمانا ممتدا، ولا يكون التمكن والاقتدار والسـيطرة على العدو ساعة خاطفة، ووراء هذا الامتداد ما وراءه من العتاد والسلاح، والتدريب، واليقظة والتخطيط حتى لا يتوقف القتال إلا إذا أثخنتـموهم، ومعنى أثخنتموهم أكثـرتم فيهم القتل، وأثقلتمـوهم، وصاروا عاجـزين عن المقاومة؛ وصـار جيشـهم كالرجل الذى أثخنته الجراح فلا ينهض، ويلاحظ هنا أيـضا معنى كلمة «إذا» التى تكون فى المستقبل الممتد إلى أن تقوم الساعة، والتى تكون فى الأمر المتوقع، وأن الشأن فـيكم إذا أنفَذْتم أمْـر ربِّـكم أن تكونوا قـادرين على ذلك؛ وأن يتوقع العـدو منكم ذلك، ولن تكونوا يوما ما جُثةً هـامدة إلا إذا خالفتم النهج السابق الذى ضربه الله للناس مثلا، وكلمة ﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ كلمة مُوجَزةٌ وبُنِيت على غير

ما بنيت عليه كلمة ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ لأن هذه ذكر فيها المصدر سادا مسد الفعل وهذه ذكر فيها الفعل ولم يذكر فيها المصدر، لأن فرقا شاسعًا بين الحَدثَين والوقتين؛ الأولى كانت لحظة لقاء الذين كفروا، والواجب جمع كل الطاقات وكل الإمكانات للضربة المفاجئة المربكة للعدو، وهذه جاءت بعدما أثقلوا العدو وجعلوه كالرجل الذى أثخنته الجراح، فلا ينهض؛ فلم يكن هنا ما يدعو إلى الحذف، والخطف والتوكيد كاللحظة الأولى، وإنما يَشُدُّون الوثاق على مهل، لأن عدوَّهم صار فى قبضتهم، والوثاق بفتح الواو وكسرها، ولم يقرأ بالكسر، ما يُوثق به من حبال أو حديد، وكلمتا «مَنا وفداء» منصوبتان بفعلين محذوفين يعنى إما أن تمنُّوا عليهم مَنّا فتطلقونهم من غير مقابل، وإما أن تأخذوا منهم الفدية وهذه الفاء الداخلة على إمَّا - بدأت مرحلة أخرى غير المرحلة التى دخلت عليها الفاء قبلها، هذه المرحلة هى مرحلة الاختيار، ولم يعد هناك أمْرٌ وحَسْمٌ وطريق واحد. وكأنها تشير إلى أنكم ما دُمْتُم قد أجَبْتُم أمر ربكم وأدَّيْتُم ما أُمرتم به فى المرحلتين السابقتين، مرحلة ضرب الرقاب، ومرحلة شد الوثاق فلكم بعد هذا ما تختارون، وتقدرون على حسب المواقف والمصالح التى ترونها. وكأنهم لما أنفذوا ما أُمرُوا به صارو أهلا لأن يترك لهم الاختيار فى شأن الأسرى، ويلاحظ أن الآية قدمت المَنَّ الذى هو إرسال الأسير من غير مقابل على الفداء، ولم تذكر بقية أحوال الأسرى ومنها القتل إذا رأى أهل الرشد ذلك، وقد ورد قتل الأسير فى السنة ومنها الاسترقاق، وفى شأن الأسرى كلام كثير، وأخْذٌ ورَدٌّ وفى الحكم الذى فى الآية، هل هو منسوخ، أو ناسخ، أو لا منسوخ ولا ناسخ، والمهم أن تقديم المَنَّ فيه معَانٍ: أولُها اقتدار الأمة وتمكنها وثقتها فى نفسها حتى إنها لا تجد حرجا، ولا خوفا من إرسال أسير حمل السلاح فى وجهها؛ وأمر آخر هو الإشارة إلى الرحمة والتسامح والمعانى الإنسانية، وكلمة المنّ تشير إلى هذا؛ لأن فيها معنى الإنعام وليس فى كرم النفس أعلى من أن تُنْعم على من جاء ليقتلك بسلاحه، ولهذا كان الأسير الذى لا يَقْبلُ مُعاوَدَةَ حَرْبِ مَنْ منَّ عليه.

ثم إن فى تقديم المنّ إشارة إلى التفريق بين وقتى المقاتلة والمتاركة وأن أوقات المقاتلة يكون أهل الإسلام فى غاية القوة، والتمكن والاقتدار؛ وفى وقت المتاركة يكون التسامح وتكون المرحمة ويكون الإنعام وهذا شأن الأقوياء.

وأذكر بأن هذا شأن سياسى بحت، والذين يقولون لا سياسة فى الدين يُبطلون هذا أو ينكرونه، ولم تسكت مشيخة الأزهر عن الجهر بفساد القول، بأنه لا سياسة فى الدين ولا دين فى السياسة إلا فى هذا العهد، وكان الشيخ شلتوت -رحمه الله- يجاهر بوجوب الحكم بما أنزل الله، وذلك فى العهد الأول من عهود الاستبداد، والعهد الثانى شكل لجانا لتقنين الشريعة، وهذا العهد قمع كل من يطالب بذلك، واختار للمشيخة من اختارهم ومنهم مَنْ ربِّى فى سراديبهم ونسأل الله أن يعجل بيوم الفصل.

قوله سبحانه ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ لو وضعت ﴿حَتَّىٰ﴾ هذه بجانب حتى قبلها لرأيت كيف ينمو المعنى فالأولى تشير إلى أنهم أثْخَنُوا عدوَّهم قتلا وجرحا حتى صار كالرجل المُثخن أى المثقل بجراحة فهو بطىء يتهاوى، والذى بعد هذه أنه وضع سلاحه ورفع يديه مستسلما لأن وضع الحرب أوزارها يعنى نهايتها والأوزار هى أثقال الحرب وعتادها، وسلاحها، وقوله سبحانه ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ معناه أنهم لا يزالون يزاولون شئون الحرب وتوابعها من شؤون الأسرى حتى تُطْوَى صَفْحَةُ الحرب وفى الجملة تصرف بيانى له دلالة جيدة، هذا التصرف هو أن الذى يضع السلاح ويستسلم هم العدو، وليست الحرب، فلماذا أسْند وضع الأوزار إلى الحرب؟ ولماذا جاء الفعل مضارعا ولم يقل مثلا حتى إذا وضعت الحرب أوزارها كما قال هناك حتى إذا أثختموهم؟ وليس المقصود أن أقول إن هنا استعارة بالكناية لأن الآية شَبهّتْ الحرب بإنسان محاربٍ وإنما المقصود والله أعلم أن المحارب قد

يضع أوزاره اليوم ثم يحملهـا غدا، وذلك إذا كان قد بقِيَتْ فيـه بقيةُ من قوة، أمـا وضع الحـرب أوزارها فـلا يكون من جـهة العـدو إلا إذا انتـهت قـوته ومقاومته، ولم يعد فى إمكانه أن يصنع أو يـستأنف أو يلملم حربًا، ويُحَملها أثقالها، فرق بين وضع فلان سلاحه ووضعت حربه سلاحها، الثانى أبين فى أنه لم يعد قادرا على الحرب وأن عدوه أثخَنَه، وهذا يعنى أن الأمة تتمكن من أعدائهـا الصادِّين عن سبـيل الله، والذين اتبعوا الضـلالة، وما تزال بهم فى حربها معهم حتى تُفرغ كُلَّ قدراتهم على المواجهة، وهذه هى غلبة الذين هم جند الله، وهذا وجه إسناد وضع الأوزار إلـى الحرب أما وجه مـجىء الفعل على صيغة المضارع فإن المضارع يدل عـلى الحال والاستقبال يعنى الحال الذى يَتَمددُّ فى الـمُسْتَقبل، وهذا غـير الأمس الدابر، والآيةُ تشيرُ إلى اليوم والغد، وتُنَبّه إلى أن الحـرب سَتَضَعُ أثقالهـا فى هذين الزمانين المهمين اليـوم والغد، وأمْس قَـدْ فَاتَ فَـالْهُ عَنْ أمَسِ، ويلاحظ أن كلمـة الأوزار وإن كنا نفسـرها بأثقال الحـرب وعدتها وعتـادها فإن فيـها والله أعلم معنى آخـر هو أن أثقال الحرب ليس سلاحـا فحسب وإنما أيضا تكاليف أخرى كـالتخطيط والتنظيم، وهى أعباء عقلية ونفسية وهذه أشـبه بالأوزار منها بالأثقال الحسية، وتأكد أن هذا كان شأن الأمة فى تـاريخها إلى بداية زمن الاستعمار، ومـن دقيق البيان فى الكتاب العزيز أن يذكر أثقـال الحرب بهذه الصفة ﴿أَوْزَارَهَا﴾ من غير أن يذكـر سيـوفا ورمـاحا ودروعـا، لأنه سبـحانه يعلم أن أوزار الحـرب تتطور بسرعة، وأن الرمـاح والسيوف استحـالت إلى رصاص، ثم إلى طائرات، ثم صواريخ، والله أعلم ماذا يكون فى الغـد وأن الأمة إذا لم تلاحق هذا وتَسْبقُ فيه فلا أمان على مستقبل أولادنا وأحفادنا وديارنا، وأعراضنا وأموالنا، ونحن فى مـواجهـة عدو لا تتـسع أرضنا لنا وله وإمـا هو وإما نحن. وذكـر بعض علمائنا أن «حتـى» فى قوله تعالى ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ ليس معناها الغاية وإنما معناها التـعليل يعنى فاضربوا الرقاب وشـدوا الوثاق لتضع الحرب

أوزارها ولتكسروا شوكة العدو، فلا يواجهكم بعد ذلك فهو أمر بالحرب ليس لذات الحرب ولا إثارة الحرب وإنما لنفى الحرب، وفيه معنى كونوا على غاية من اليقظة والاستعداد والقوة حتى تكون قوتكم هذه كافَّة لعدوكم عن الطمع فى أرضكم، وهذا هو السلام الحقيقى الذى يتولد من القوة وليس السلام الذى يُغَنّيه المُغَنُّون والذى نستجديه من العدو الخسيس، وهذا معنى جيد جدا وهذا هو الذى أفهمه من السلام فى القرآن، وفى قوله تعالى ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ لأن الأمر بجنوحنا للسلم مترتب على جنوحهم للسلم ولو وجدوا فينا ثغرة تُطْمِعُهم فى حربنا ما جنحوا للسلم، وإنما جنحوا للسلم لما لم يجدوا سبيلا إلى الحرب.

قوله سبحانه ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٤- ٦].

انتقل الكلام من الحديث عن لقاء الذين كفروا وما يجب أن يقوم به الذين يتبعون الحق من الإعداد للقوة والتمكن، وما يَتبع ذلك حتى تضع الحرب أوزارها وهو القسم الثانى من أقسام السورة، وقد سبقه بالتوطئة إليه من أول السورة كما بينا.

وهذه الآيات حديث الحق إلينا بعد إنجازنا لما أمرنا به ربنا لوضع الحرب أوزارها.

وأوله يبدأ بكلمة عزيزة وعالية، وهى اسم الإشارة الذى للبعيد ﴿ذَلِكَ﴾ وقلت هذا لأنها العُروة التى تربطُ هذا الحديث بالحديث قبله، ثم هى جاذبة ومصورة ومُحْضِرة للحدث الذى قبلها، والذى بدأ من قوله سبحانه ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لأنها عائدة عليه وجذبها له، وعودها عليه، يستلزم لا محالة جَذْب ما كان مُقدّمة له، من أول السورة، هذا شىء والشىء

الآخر أن هذه الكلمة (ذلك) جملة خاتمة للكلام السابق وبعدها واو داخلة على معنى آخر، وإما أن تكون خبرا لمبتدأ محذوف أى أمرنا ذلك أو شرعنا لكم ذلك أو مبتدأ لخبر محذوف أى ذلك ما شرعناه لكم ووراء هذا الإعراب اختصار شديد لمعنى جليل ومتسع، وهو أن شرع الله لنا أو أمر الله لنا يعنى إعداد القوة التى تفوق قوة العدو، وإعداد الآلة التى تفوق آلة العدو، وإعداد الرجال الذين يفوقون رجال العدو، وإعداد الاقتصاد الذى يفوق اقتصاد العدو، وإعداد البحث العلمى اللازم لتطور آلة الحرب إعدادا يفوق إعداد العدو، لأن ضرب الأعناق الذى قامت عليه الآية الراجع إليها اسم الإشارة يستلزم ذلك كله، وذلك كله لا يكون إلا إذا كنتم أحرارا فى بلادكم، إذا رأيتم صلاحا، وصوابا، ومعروفا، أعنتم عليه وشاركتم فيه، وإذا رأيتم فسادا واختلالا، ونَصْبًا وتحايلا وقفتم فى وجهة وأيقن الفراعنة أنهم لا سبيل إليهم يسْلكونه نحوكم، لأن الأحرار الكرام لا يدينون لفرعون غبى، جاهل، يدمِّر الناس ليبقى مسنودا ظهره بعدوه، الشرط الواجب لتحقيق كل ذلك أن يكون أمر البلاد بأيديكم أنتم، تسلمونه لمن ترون فيه الرشد، والكفاءة، والصلاح، والإخلاص.

وهذا خطاب الله لنا ولأجيالنا من بعدنا وهو قائم إلى يوم القيامة ولو أردت أن تستقصى دلالة جملة (ذلك) لقلتَ أكثر مما قلت وكأنها إشارة موجزة لمعان متسعة جدا ولكنى أحاول أن أفتح أبواب الكلمات لا غير.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ هذه الواو الواقعة بعد كلمة ﴿ذَلِكَ﴾ فى مثل هذا الأسلوب تستأنف معنى جديدا بعد كلمة ذلك التى تطوى صفحة معنى سبق، وهذا المعنى الجديد له عُلْقة قوية بالمعنى المشار إليه بكلمة ذلك، وربما كان من تمامه كما فى هذه الآية وجملة ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ مفعول المشيئة فيه محذوف وجوبا لدلالة جواب الشرط عليه، وأصل الكلام لو يشاء الله أن ينتصر منهم لانتصر منهم،

والأصل أن يقال انتصر عليه ووضعت «من» مكان على للإشارة إلى معنى جيد وهو أن هؤلاء المنازلين للذين آمنوا هم المعتدون لأن الانتصار ضُمِّن معنى الانتقام وكأنه قيل ولو يشاء الله لانتقم منهم ولا يكون الانتقام إلا ممن أثم، وبهذا يدل هذا الحرف على أن المسلمين لما لاقُوهم كانوا مدافعين، ولم يكونوا مهاجمين، وإنما هم الذين فرضوا القتال على الذين آمنوا، وأن الباطل هو الذى أثار هذه الحرب وذلك لما صدَّ الباطل عن الحق وصد عن سبيل الله.

ثم إن الجملة الشريفة تأتى عَقِب صورة الانتصار المُبْهر الذى سَلَّم فيه العدوُّ سلاحه، ورفع يديه والمعبر عنه بوضع الحرب أوزارها، وتشير إلى أنكم أيها الكرام الذى حققتم هذا النصر كنتم تحاربون عن الله، وتصدون الصادين عن سبيله، ولو يشاء الله أن ينتصر هو بنفسه جل وتقدس لفعل، ولكنه سبحانه منَّ عليكم بهذه الإنابة وجعلكم فى مواجهة أهل الباطل، ليبلو بعضكم ببعض يعنى لنبتلى أهل الحق بأهل الباطل، ونبتلى أهل الباطل بأهل الحق؛ وتكون المنازلة بين الفريقين، وليعلم أهل الحق أنهم إن غفلوا ساعة وتأخروا ساعة وسبقهم عدوهم فى أى ميدان من ميادين القوة والغلبة سواء فى العلم أو فى التصنيع أو فى الإعداد أو فى الإصلاح أو فى كل ما مِنْ شأنه أى يعود على الناس بالقوة والمنعة فإنه هالكهم لا محالة، وأن الله سبحانه لم يشأ أن ينتقم من العدو لتكونوا معه فى هذه المنافسة، التى تملأ حياتكم نشاطا وصِدْقًا وصَلاحًا وإخلاصًا وعملا صالحا ولو انتصر الله من عدوكم لأخْلدتم إلى الدَّعة والراحة، وغلبكم الجهل وتحوّلت حياتكم إلى موت، وجملة ﴿لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ قريبة جداً من قوله تعالى ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ﴾ [الحج: ٤٠] لأن هذا التدافع الذى هو الابتلاء يَدْفعُ كلَّ فريق إلى إعداد قوته ومنعته وإعداد القوة والمنعة لا يأتى شىء منه إلا بإعداد قوة وراء هذا الإعداد وهى التقدم فى العلم وفى الصناعة وفى الزراعة وفى كل ما من شأنه أن يورثَ الأمَّةَ قوةً ومنعةً وهذا الذى حَمىَ الصَّوامع والبيع والمساجد من أن تهدم لأن كل بيت من بيوت العبادة وراءه قوة تحميه.

قلت إن جملة ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ فى هذا السياق تشير إلى أن المدافع الأول للباطل هو خـالق الخلق، لأنه خلق الخلق كله بالحق وأن الباطل اقتحم هذا الخلق المخلوق بالحق، وأن الذين اتبـعوا الحق حين يواجهون الذين اتبعـوا الباطل ينوبون عن الله فى مـواقعة هذا الباطـل، وهذا هو معنى أنهم جند الله وأنهم حزب الله، وأن الله جلَّت حـكمته وتعالت عظمـته لو يشاء لانتـصر من أهـل الباطل، ولكنه مَـنّ على أهل الحق بهـذا الجهـاد الذى هو أفضل القربات، وأضيف أن فى هذا مـعنى آخر، هو أن كل مدافع عن الحق فى أىّ مـوقع من مواقع حـياة الناس يَسْـتَوى فى ذلك الفكر، والـسيـاسة، والصناعة، وكل ما يتقلب فيه النـاس، ويثار فيه خلاف، هو من هذه الطائفة التى قال لها ربها ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾، يعنى هو واحد من جند الله يرمى بيد الله، ويقف فى الحق بعزيمة يمد الله بها أهل الحق، وبصيرة ينير الله بها الطريق أمامهم، وهذا يعنى أيضًا أنك ترى جند الله مبثوثين فى كل مواقع الحياة وفى كل صور الحياة وطيّات المجتمع.

وشىءٌ آخر، وهو أن حرف الجر (منهم) لما قـام مقام (عليهم) لأن الأصل أن يقال انتصر عليه أفاد كمـا قلت إشراب كلمة انتصر معنى انتقم، وإنما أوثر هذا على قولـنا ولو شاء الله لانتقـم منهم للإشارة إلى أنه نصـر مؤزّرٌ لأهل الحق، ومصحوب بانتقام من أهل الباطل.

وجملة ﴿وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ جملة ليبلو بعـضكم ببعض ليست تعليلا لجملة ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ﴾ وإنما هى تعليل للجملة المحذوفـة المفهومة من الجملة المنطوقة وهـى التى تقدر بعد الاستدراك، والمعنى ولكنـه لم يشأ ليبلو بعضكم ببعض، والابتـلاء يكون بالخير ويكون بالشر، فالله سبـحانه وتعالى يبتلى أهل الحق بأهل الباطل ليرفع الله درجـاتهم بهذا الابتلاء ويميز الصادقين من المنافقين، كما يبتلى أهل الباطل بأهل الحق، ليستمروا فى لجاجة الباطل، وحَوْمَة الباطل، والله من ورائهم، ويُمْهل لا يُهمل، ويملى لهم إن كيده متين

سبحانه وتعالى، ثم إنك تلاحظ أن الجهاد يقترن به تمييز الذين صدقوا والذين نافقوا ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١١] وكأن الجهاد فى هذه الأمة هو (الفرَّازة) التى تميز الصادق من المنافق، وهذا هو وجه ذكر المنافقين فى هذه السورة التى هى سورة القتال، كما ترى حديث المنافقين وأحوالهم مقترنا بذكر الجهاد فى سورة التوبة، وأريد أن أشير إلى أن جهاد الباطل فى غير ميدان الحرب تجده أيضا (فرّازة) تفرز الصادق من المنافق فإذا واجه الناسُ باطلا أو طاغوتا من طواغيت الأرض لا ترى يقف فى وجه هذا الباطل إلا الصادق، وترى الذين طالما تحدثوا عن الصدق والجهاد يتخاذلون، قل هذا كما قلت فى مواجهة فساد الطواغيت، ابتداء من الطاغوت الأول، الذى هو رأس الهرم إلى أصغر طاغوت، حتى ولو كان رئيس فريق من عمال النظافة، وهكذا نجد صوت الحق يميز الصادق من الكاذب، ونَسْأله سبحانه أن يرزقنا العزم والثبات على ما يحب ويرضى.

ولا يجوز أن نهمل هذا التغيير الظاهر فى العبارة عن الفريقين المتصارعين وقد بدأ ببيان أنهم فريق كفر وصدّ عن سبيل الله وفريق آمن وعمل الصالحات وآمن بما نزل على محمد صلوات الله وسلامه عليه، وبهذه الآيات الأولى تحدّدَت المعالم الواضحة للفريقين، وفى هذه الجملة اختفت هذه المعالم اختفاء تاما لأن الجملة جعلت بَعْضَهم بَعْضًا لبعض يعنى هم أبعاض وأجزاء من كل هذا الكل الذى هو الإنسان. وهذه الأبعاض هى الفرق المختلفة فى الدين وبعضها يتبع الحق وبعضُها يتبع الباطل والحرب بينهم محْتدَّة والصراع دائم وفى هذا إشارة حاسمة إلى أن هذا الصراع لا يجوز أن ينسيكم أن بعضكم من بعض، وأن الإنسانية الجامعة بينكم يجب أن تكفكم عن كل ما ليس بإنسانى.

وهذا المعنى الذى رأيته فى كلمة ﴿لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ إن كنت تراه بعيدا فإنى أَدُلُّك على ما يقربه لك وهو أن الله سبحانه حرَّم على المجاهد الذى يجاهد أهل الباطل أن يقتل امرأة أو شيخا أو طفلا أو يجهز على جريح، وهذا هو

الجانب الإنسانى فى حرب أهل الإيمان وهو الذى يُذكِّر المجاهد المسلم أن هذا المقاتل بالباطل له حق إنسانى يرعاه شرف المجاهد المسلم، وهو ألا يقتل له طفلا ولا امرأة ولا شيخا ولا يُجْهِزُ على المقاتل إذا جرحَ وسقط سلاحه من يده ثم لا يجوز للمجاهد أن يقطع شجرا أو يحرق زرعا، أو يهدم دورا، وكل هذا هو المعنى الإنسانى الذى أومأت الآية إليه لما جعلت المتصادمين بَعْضَهم من بعض.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾.

هذه هى الجملة الأخيرة فى آية ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهى أطول آية فى السورة بعد آية ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ يعنى أطول آيات السورة آية لقاء العدو، وآية ثواب الذين لا قوه من جند الله، وجذر السورة هو آية ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأكرم فرع خرج من هذا الجذر هو آية ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾وقد بنيت السورة على الأصل الذى هو لقاء الذين كفروا والفرع الذى هو ثوابهم، وكل ما فى السورة من توابع هذين.

وهذه الجملة ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ تتشابك مع كل الآيات التى مضت، تراها تتشابك مع أول الآية ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ لأن هذا الواقف فى المَعْمعة يَضْرب رقاب الذين اتبعوا الباطل محتاج إلى سند من ربه، وبشارة من ربه، ووعد من ربه، لأنه لا يقاتل لمطمع، ولا لجاه، وليس معتديا، وليس هناك بشارة أفضل من أن يبلغه ربُّه أن موقفه هذا الذى هو لله وفى سبيل الله لن يضيعَ عند الله، وهذا وعد يَشُدُّ العزم، وبشارة تملأ النفس بالأمن ثم إنها تتشابك مع قوله تعالى ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ لأن هذه الجملة فيها إشارة إلى أنكم تنوبون عن الله فى هذه الحرب، ولذلك أخبركم بأنه سبحانه يَرْمى بأيديكم، وأنكم لم تقتلوهم ولكن الله قتلهم، وقد كان سبحانه معكم فى ميدان أولِ حَرْب لكم مع عدوكم لما أنزل الملائكة مردفين يوم بَدْر، وأوحى الله إليهم

أن يثبتوكم، وأنه سبحـانه معكم وأنه سيُلْقِى فى قلوب الذين كفروا الرعب، وأمـرهم أن يضـربوا فـوق الأعناق، وأن يضـربوا منهم كل بنان، مـا دُمُـتم تحاربون أعـداء الله والصادين عن سبيله، وأنه سـبحانه لو شاء لانتـصر على أعدائه، وأهلك الصاديـن عن سبيله وإنما ابتلاكم بهذا لـيعْظم أجْركم. وهذه الجملة أول ثـواب الذين قتلوا فى سـبيل الله، وهذا وجـه تشابكهـا مع قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾.

والصلة التى هى ﴿قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ صلة مبشرة، لأنها تخبر هذا الشهيد بأنه حصَّل أفضل وأكـرم وأرْفع ما يسعى إليه الصالحون العـارفون، وقد قرئت «قاتـلوا» فى سبـيل الله ووسعت هذه القـراءة دائرة البشـارة والمنّ والعطاء لأن القراءة الأولى كان فيها العطاءُ المذكور فى الخبر لمن استشهد، وهذه القراءة تفيد أن هذا العطاء لمن قاتل ولو لم يُسْتَشْـهد، وقراءة ثالثة تقول: ﴿وَالَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ببناء الفعل للمعلوم، وتُضيف هذه القراءة شيئا ليس فى الثانية وهو أن يكون قتل من أعداء الله وغـمَسَ سيفه فى دمائهم، وبهـذا يتحصل أن من مات فى الحرب ولو لم يَقْتُل أحـدًا كان له العطاء المذكور فى الآية، ومن قاتل ولم يَمتْ ولو لم يَقْتُل كان له العطاء المذكور فى الآية وأن من قَتَل ولو لم يُقتل له العطاء المذكور فى الآية، وكل هذا من واسع الرحمـة وأن دخول هذا الميدان يحقق الخير فى الأحوال الثلاثة المذكورة وأعلاها الشهادة بلا ريب.

والفاء التـى فى قوله ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ هى الفاء الداخلة على خـبر الاسم الموصول تشبيها له بالشرط، وكان يمـكن أن يأتى الخبر بدونها ولمجيئها معنى لايكون إلا بها، وهو تأكـيد إسناد الخبر إلى المبتدأ كـما أنها فى الشرط لتأكـيد ترتب الجواب على الشرط، وهذا التـأكيد فى هذا المقام يُشْـعِرُ بأن هذا الخبر له عند الله شـأن، والخبر هو نَفىُ أن يضل الله أعمـالهم، وفيه معنى أن الله يحفظ هذه الأعمال التى هـى المقاتلة فى سبيله، والدفاع عن

دينه، ويرعاها سبحانه لهم ويربيها لهم ويدّخرها لهم، وناهيك عن ثواب عمل يحفظه الله ويرعاه، وكلمة الأعمال يراد به ثوابها، وذكر الأعمال وإرادة الثواب من المجاز المرسل الذى علاقته السببية، وفيه إشارة إلى التنويه بالأعمال وأنها عند الله بمكان، وهذه الجملة تتواصل وتتشابك مع الجملة الأخيرة فى الآية الأولى ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾[محمد:١] والتواصل والتشابك من باب المقابلة بالإيجاب والسلب، فالأولى مثبتة، والثانية منفية، وهذا يستدعى إظهار مقابلة أوسع بين ما كانت الأولى خاتمة وجزاء أعمالهم، وهم الذين كفروا صدوا، وما كانت الثانية خاتمة أعمالهم وهم الذين قاتلوا وقَتَلُوا قُتلوا فى سبيل الله، والفريقان متقابلان على سبيل الله، هؤلاء صادون عنه، وهؤلاء يقاتلونهم عنه، وكلمة ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ تكررت فى الجملتين لتَلْفتَ إلى هذا الربط وهذه المقابلة وبيان غضب الله على الفريق الأول وأن اللَه يُضلُّ عمله، فلا ينْفعُه منه شيء، ورضى الله وقربه من الفريق الثانى وأنه سبحانه يتقبّل أعمالهم، بيمينه، ويضعها عنده فى حرز أمين ويدخرها لهم عنده يوم يلقونه، وفى هذا إشارة إلى أن سبيل الله بينكم وسبيل الله دينه وشرعه، وستظلون حول هذا السبيل فريقين، فريق يصد عنه، وفريق يدافع عَنْه والثواب والعقاب فى الكتاب العزيز دائر بين هذين الفريقين، وأكثر القرآن دائر بين هذين الفريقين، وقد كنت استخرجت الإشارة إلى الحرب من الآية الأولى. وكان ذلك اجتهادا وهذه الجملة الواقعة خبرا للذين قتلوا فى سبيل الله ترشح صواب هذا الاجتهاد، لأن جملة ثواب المجاهدين فى سبيل الله ومقابلتها لجملة خبر الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله، تشير إلى أن الجملة الأولى جزاء حرب معتدية ظالمة، الثانية ثواب حرب مدافعة عادلة، ثم إن هاتين الجملتين ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ دالتان فى موقعيهما دلالة ظاهرة على أن إضلال الأعمال تهديد شديد، وأن نفى إضلال الأعمال ثواب جليل، وإكرام جليل، لأن الإضلال وقع خبرا عن

الذين كفروا، وصدُّو الثانية وقعت خبرا عن الذى قاتل وهذا يعنى أن الإضلال كفاء هذا الجُرم الذى ليس فوقه جرم، وهو الكفر والصد، وأن نفى الإضلال كفاء هذا العمل الصالح الذى ليس فوقه عمل صالح، لأنه الشهادة فى سبيل الله، ولهذا اتُّبِعَتْ هذه الجملة ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ بجملتين شارحتين لها، وكانت كل جملة آية وحدها لمزيد العناية بها، وقبل أن أنتقل إلى هاتين الآيتين الشارحتين أشير إلى أن هذه الجملة وثيقة الصلة بآية التوبة وكأنها جذرٌ لها، أعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١] وهذه الآية من أكرم ما خاطب الله به عبادة المجاهدين فى سبيله، وكلها حُبٌّ ورضًى وقرب، وأكرم ما أكرم الله به عباده المجاهدين ما نجده فى أولها، أنه سبحانه عرض الجنة على عباده الصالحين ثمنا لنفوسهم، التى لا يملكون أغلى منها، فقالوا لك هذه النفوس، ولنا الجنة، وربح بيعنا وبيعك يارب السموات والأرض، ثم إن كلمة ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ فى التوبة تنزع إليها قراءة (قَتَلُوا وقاتلوا وقُتِلوا) فى القتال وقوله سبحانه فى التوبة ﴿بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ أصله هنا فى قوله تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ ويلاحظ ربطًا خفيا جليلا بين ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾، وبين ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾لأن معنى القتل فى سبيل الله أنه خرج مخلصا صادقا مجاهدًا ليس فى قلبه شىء إلا شىء واحد وهو الدفاع عن دين الله الذى هو سبيله، وهذا هو معنى اشترى من المؤمنين أنفسهم لأنه سبحانه ما دام قد اشتراها فهى له خالصة، لا يشاركه فيها أحد وليس فى إخلاصها شوب من أى شىء آخر، هذا والله أعلم.

قوله سبحانه ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ هاتان

آيتان، وليستا جملتين ولا جـملة واحدة وإنما هما من تمام الجملة الأخيرة من آية ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ التى هى أطول آية فى السـورة بعد آية (مـثل الجنة)، وذلك لأن الجملة الأخـيرة فى هذه الآية هى قـوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾وهذا مبتـدأ خبره ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾، وقوله سبحانه ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ من تمام هذا الخبر لأنه بيان له كما قال العلماء، وقوله سبحانه ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ معطوف على جـملة البيان﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ وقوله سبـحانه ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ﴾ معطوف على ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ وجملة ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ حال على تقـدير قد أو بدونه، وكان يمكن أن تكـون هذه الجمل التى هى من تمام الخبر داخلة فى آية ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ﴾ فلماذا جاءت فى آيتين؟ وهذا مما لا يجوز أن يُهمل النظر فيـه فى دراسة تحاول أن تستكشف أسـرار البيان، والذى أراه - والله أعلم بمراده - أن هذه الجـملة التى بدأت بقوله تـعالى: ﴿الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هى بيان لعطاء الله وإكـرامه وقبـوله ومنِّه لهذه الفئـة التى قاتلت دفاعا عن سبيله وكان من المفـيد أن تقع فى آيات حتى يتسنى للقارئ أن يقف عند رأس كل آية ومُنْقطعـها يتـأمل ويتـدبر ويراجع ليتـسنى له التعـرف على وجوه الإكرام، ووجوه القبول، ووجوه العطاء من رب العالمين، لهؤلاء الذين اتبعوا الحق وصدوا الصاديـن عن سبيله، ولابد من ملاحظة شىء هو أنهم لم يكتفوا باتباع الحق، وإنما أضافوا إلى ذلك شيئًا جليلا جدا، وهو الدفاع عنه، وهذا مـقام آخـر، وهذه منزلة أخرى، لأنك تـرى كثـيرا منا يَتـبعـونُ الحق والصواب، يقفون صامتين، وهم يسـمعون صوت الباطل يعلو، وأهل الباطل يَتَـفرَعَنُون، وهذا لا يكفى لأن السـاكت عن الحق شيطان أخـرس، وهو وإن كان أفضل من الشـيطان الناطق بالباطل فإنه لا يزال شيطانا صـامتا، قلت إن الذين قـاتلوا الباطل طبـقة عليـا جاء عطاء الله لهـا فى آيات، وليس فى آية واحـدة ليقف القـارئ عند رأس كل آية ومنقطعـها، ولو جـاءت كل آية من هاتين الآيتين جملة مـستقلة لكان هذا لافتًـا أيضا لأنهما من أقـصر الآيات،

ولكن الذى هو أكثر تنبيها ولَفْتًا أن تكون كل آية جزء جملة، المطلوب أن ندرك وفرة عطاء أكرم الأكرمين لمن قُتل على بابه دفاعا عن باب الله، لأن سبيل الله هو باب الله، وهو الصراط المستقيم الذى بعث به رسله، وأنزل فيه كتبه، وخلق له خلقه، لأنه ما خلق الجن والإنس إلا ليعبدوه، من حسن القراءة أن تقف على رؤوس الآيات يعنى تقف عند قوله تعالى: ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾، ثم تقف عند قوله: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾، ثم تقف عند قوله: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾كل هذا وفى نفسك صورة الشهيد الـمَبْرور الذى له كل هذا العطاء، ولاحظ أن أول خبر هو كلمة ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ ولن تدل على النفى فى المستقبل، والسين تدل على النفى فى المستقبل، وكذلك المضارع فى يصلح ويدخلهم كل هذا الاستقبال ليفتح باب هذه العطايا فى الزمن المستقبل كله، إلى أن تقوم الساعة، وتذكر القراءات فى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا﴾ لأنها تدل على أن مَنْ أعَدَّ راحلته لا ليسلك سبيل الله فحسب وإنما ليدافع عنه فله هذه العطايا سواء قتل أو استشهد أو قاتل يعنى خرج للقتال ولو لم يَقْتل أو يُقْتل أو خرج وقَتَل ولم يُقْتَل هذا العطاء المفتوح على الزمن كله لمن خرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله، وآية النساء ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠] داخلة فى هذه الآية، وتوسع عطاء الله لمن تهيأ أن يدخل فى المدافعين عن سبيل الله ولو لم يصل إلى ميدان المعركة، وأكرر التنبية إلى العُرْوة الوثقى بين سبيل الله الذى خرج الصادقون للدفاع عنه، ونفى إضلال الأعمال يعنى مَعْرفتها للسبيل الذى تصل منه إلى حيث تَنْفَع من دفع الباطل عن الطريق الواصل إلى الله هُديتْ أعماله إلى الطريق الواصل بها إلى باب القبول، وقل عكس ذلك فى الصاد عن سبيل الله، ودفع الناس إلى طريق الضلالة، يكافأ بضلال أعماله الطريق الذى يريدها أن تصل إليه.

وأحاول الآن بيان وجه تقديم الخبر الأول الذى هو ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾

ولو أعـان الله حـاولت بيان وجـه ترتيب هذه الأخـبـار، لاشك أن أهم هذه الأخبار عن ﴿الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هو ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾، لأن هنا معناه البـشارة بالقبـول، ولا يُبشر أهل اللـه والمجاهدون فى سبـيله والعاملون الصالحات والصادقون والصابرون والقانتون والمستغفرون، بأفضل من قبول الله لعملهم لأن الله سبحانه لا يتـقبل إلا من المتقين، والدخول فى المتقين لا يُنَالَ بالهوينا، والـهَمُّ الأوَّلُ لأهل الله الذين يحسنون خلافـة الله فى الأرض ليس هو أن يعملوا فحسب، وإنما أن يقبل الله منهم ما عملوا، ولذلك لا تجد كلمة شائعة بين المسلمين مثل كلمة «تقـبل الله» ومعنى قبول العمل أن يُرْفع إلى الله ويكْتب ويحفظ، ويُدّخر ليوم الحســاب، وهذا هو الفوز الذى ليس فوقه فوز، وقد وصف سبحانه عبـاده الناظرين إليه والموجِّهين وجْهَهم له بأنهم ﴿يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] والوجل شدة الخـوف، وتأتى شدة الخوف هذه مع مزاولة الأعـمال الصالحة من صلاة وصيـام، وصدقة، وحج، وجـهاد، ومـدافعـة للباطل فى كل مـوقع من المواقع الذى يعلو فـيه صـوت الباطل، والوجل إنما يكون من شدة الخوف أن تُردَّ هذه الأعـمال لأن الأعمال المردودة التى لا تُرفَعُ إلى الله أضـعاف مضـاعفـة، من الأعمال التـى يزاولها الناس وظاهرها من الصالحـات وفى داخلها ما تُرَدُّ به. وأظهر مـا قاله العلماء فى شروط قبـول العمل أمرانِ الأول أن يكون على الوجه الـذى أمر به الشرع لأن العبادة اتباع وليس فيهـا ابتداع، وهذا هو معناها الشرعى واللغوى وطريق ذلك معرفة الفقه حتى نـعبد الله على الوجه الذى أمرنا به، وكل ما نزاوله من نشاط فـكرى أو غير فـكرى إذا لم يكن وراءه خلفيـة صحـيحـة من التّعـبد الـمُنْضبط شرعيا فهو على خطر، وقد راعنى أنهم ذكروا الشافعى بعد موته بأنه كان يحسن الوضوء وقلت فى نفسى: لم يجـدوا للشافعى إلا إحسان الوضوء، ولم يذكروه بفقـهه ولا بعلمه بالحديث، ولا بأنه فتح للأمة كلهـا باب استنباط الأحكام الشرعية من كـلام الله وكلام رسوله وأنا أعلم أن الذين ذكروه بأنه

كان يحسن الوضـوء يعلمون من علمه أضعـاف ما أعلم، والوجه أنهم أرادوا أن يُشِيِّروا إلى أن أى جـهـاد فى خـدمة دين الـله لابد أن يكون وراءه هذا الاحتراز الشرعى وهذا التدقيق الـشرعى، وأن من تهاون فى إحسان الوضوء لا ينفعـه ذكر بعلم ولا فقه، وأن الـوضوء والصلاة، وما فـرض الله لا يَسُدّ مسدَّها شىء، والشرط الثانى وهو أبعد منالا من الأول هو الإخلاص الصادق فى التوجـه بالفعل إلى الله سبـحانه، وهذا الإخلاص الذى يبعـد العمل عن شائبـة الرياء، وأن يطوف بالعـامل طائف أى طائف من النظر إلى غيـر الله، المطلوب ألا يكون للعمل مصدر فى القلب إلا الإحساس بجلال الله وقدْسِه، فمن عظم فى صدره جلال ربه، برئ إلى الله من النظر إلى غيره، لأن الله هو الغنى عن الشركـاء، والرياء فى العمل لا يحبط العمل فـحسب، وإنما يجلبُ غضب الله، لأنه سوء أدب مع الله، ودليل قاطع على أن الله جلت قدرته لم يملأ فراغ نفس المرائى، وإنما بقى فيه لغير الله شىء، وتخليص النّفْس من غير الله أمر صعب جدا، ولهذا عزَّ رجال الله وقلوا وخصوصا فى هذا الزمن، ثم إن جملة ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ لها ظاهر، ومن ورائه باطن أمـا الظاهر فقد شرحنـاه، وأما الباطن فـالذى دلنا عليـه هو الجملة بعـدها، وهى سيهـديهم ويصلح بالهم، ومـرادى هو أن نفـى الإضلال عن الـعمل يـعنى أن الله جل وتقدس لطف بهـذا العامل، وهداه، وأكرمه، لما أخذ بيـده على طريق العمل المقـبول فنفى الإضـلال ليس فى الحـقـيقـة وصفـا للعـمل، وإنما هو وصف للعامل، الذى عظمه الـله وأنار لَهُ الطريق فعمل عملا مَبْرُورًا وهذا مهم وله نظائر كثيـرة فى الكتاب العزيز كمـا فى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، وما دام سبحانه لا يخلف الميعاد فـلا وجه لأن أقول ربنا وآتنا ما وعدتنا لأن الذى لا يخلف الميعاد لا محالة يؤتينا ما وعدنا ولهذا قال أهل البصيرة إن المراد ليس هذا الظاهر وإن كان التعبد به قائما وإنما المراد خذ بأيدينا واهدنا وأعنَّا ووجّهنا حتى نعمل ما ندخل به فى الذين وعدتـهم، فإذا دخلنا كان دخولنا هذا بمثابة

من له عندك وعـد وهو يتقاضـاه منك بسعـة رحمـتك، وعظيم منّك، وهذا جيد، وفى الآية مجاز عبّر فـيه عن السبب الذى هو الهداية بالمسبب الذى هو الإيتاء ،قوله سـبحانه: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ قال أهل البصـيرة فى فهم الكتاب هذه الجـملة بيان للجملة قـبلها ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ وهذا جيد لأن نفى الإضلال عن الأعـمال لا يكون البتّة إلا مسـبوقا بالهداية كـما بيّنت وإنما قدم نفى الإضلال لأنه الأهم فى بشارة الأبرار الشهداء أو الذين وقفوا مواقف الشهـداء ولم تكتب لهم؛ وإنما قاتلوا وقتلوا بالبنـاء للفاعل، وهذه السين التى للاستقـبال أخت لن كما قـلت التى للاستقبـال وهذه هى بشارة الله لكل من أعدّ راحلته للدفاع عن سبيله، وهى بشارة الماضى، والحاضر والمستقبل، وهذه السين أخت السين التى فى قـوله تعالى على لسان شـيخ الأنبيـاء إبراهيم عليه السلام ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافـات: ٩٩] يعنى الذى هدانى ويهدينى وسيـهدينى وهؤلاء الذين قتلوا فى سبـيل الله هداهم الله ويهدى من كان على طريقهم وسيهدى السالكين سبيلهم إلى يوم القيامة.

ويلاحظ أن فعل يهديهم لـم يتعلق به مفعول والمقـصود أن يمنحهم الكريم جل وتقـدس الهداية فى كل شـأن من شئـونهم فى الدين والدنيا حـتى إنهم ليكونون فى الناس هداة مـهديين؛ من أحـاسن الناس أخلاقـا، ومن أحاسن الناس عملا، وعلما، وعمارة الأرض، ويحققوا معنى أنهم فى الناس شامة، وهذا نموذج أهل الله فى الأرض، ولاحظ الصلة بين السبيل الذى هو الطريق المستـقيم، والهداية التى هى الهـداية إلى السبـيل، ونفى الإضلال، الذى هو البعد عن الانحراف عن جادة السبيل، والإضلال للذين صَدُّوا عن هذا السبيل، وهذا التآخى بين الكلمات. وقد فسّر بعضهم قوله سبحانه ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ بأنه سبحانه يُعرفهم طريق الجنة، وهذا حـصر للمعنى فى شىء عبرت عنه الآيات بعده فى قوله تعالى ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ والهداية المطلقة غير المقيدة بمفعول أشبه بإكرام الله لمن رحل إليه وهو صادق.

وقوله تعالى ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ البال معناه الحال والشأن والقلب والعقل وكل ما تكون به غبطة النفس، وكل ما يكون به الرضى، وكل ما يكون به اطمئنان القلب كما فى قوله تعالى ﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] وموقع هذه الجملة بعد التى قبلها موقع متمكن لأن من هداه الله لم يعد فى باله شىء يفسد هذا البال سواء كان هذا البال هو الحال؛ أو الشأن، والقلب إلى آخره، والكلمة صالحة لأن تفيد ذلك كله وليس مع الهداية فساد، وليس مع الضلال صلاح، ويلاحظ أن كل هذه الأفعال مُسْندة إلى الحق جل شأنه فهو الذى يحفظ أعمالهم، فلم تضلَّ وهو الذى يهديهم وهو الذى يصلح بالهم وهو الذى يدخلهم الجنة، وهو الذى عرّفها لهم، وهذا وجه من وجوه الإكرام ليس بعده شىء، لم يأت هنا فعل مَبْنى للمجهول ولا مسند لغير الحق جل وتقدس وإنما يقوم هو بذاته وجلاله برعايتهم، وهدايتهم، وإصلاح شأنهم، وهذه وحدها كرامة ليس فوقها كرامة، وأن العناية الإلهية تُظلُّ أهل سبيله، والمدافعين عن الحق، وعن الدين، وعن الحمى، ولا حرج على فضل الله إذا قلت إنه يدخل فى ذلك كل من دافع باطلا، سواء فى العلم، أو فى السياسة، أو فيما شئت فى أىّ شأن من شؤون الحياة، لأن الصواب والحق هو باب الله فى الأرض، وكل من وقف عند صواب يرعاه، وحق ينافح عنه فهو واقف على باب الله، ومحمى بحمى الله، ومرابط على ثَغْر من ثغور الله ومن المفيد أن تراجع الآيتين الأولى والثانية ثم تراجع ما بعدهما إلى ما نحن فيه لتجد أن الآيتين ذيلت كل آية بفاصلة كانت جامعة لكثير مما جاء بعدها، ففاصلة الأولى أضل أعمالهم، وقابلها كما بينت آية فلن يضل أعمالهم، وفاصلة الثانية وأصلح بالهم، وناسبها هنا قوله تعالى ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾، وتوزيع الكلمات فى البيان المعجز وإشارتها إلى الخيوط التى تشدُّ المعانى بعضها إلى بعض وتجعل من الفصل من فصول السورة كلاما متماسكا باب من أبواب البلاغة العالية.

ولابد من مراجعة ثانية لتحليل قوله تعالى ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ لأننا سكتنا فيما مضى عن السياق وحللنا الآيتين من جهة دلالات اللغة وهذا جيد والأجود منه أن تقول هاتان الآيتان ذكرتا فى سياق الحرب، ولقاء الذين كفروا ليس بالله وحده وإنما بالحق والعدل، وذلك لأن الكافر بالله وحده هو الكافر فحسب، أما الذى يتصدى للسبيل الصحيح والطريق المستقيم الهادى إلى الحق والعدل والخير والنور فهو كافر بالمثل العليا، ومكارم الأخلاق، وكافر بالحق والعدل، والخير وكل ما يؤدى إلى أكرم وأفضل، وليس لصده عن سبيل الله معنى إلا هذا ولا بد أن تفهم أن سبيل الله ليس هو الطريق الموصل إلى المساجد فحسب، وإن كان طريقًا نعم الطريق، وإنما هو الطريق الواصل بالإنسانية إلى الرشد، وإلى الكرامة وإلى إقامة الحق والعدل، والمساواة بين الناس والواصل بالشعب إلى آية ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠] فلا تهينوه أيها الفراعنة، بالقمع والفقر والجهل، والمرض، هذا شىء من معنى سبيل الله يجب أن يكون فى الذكر مع السبيل الواصل إلى المسجد.

قلت إن آية سيهديهم الله سياقها سياق حرب ومَعْمَعة، والسؤال ما الذى يهتدى إليه من هداه الله وهو فى سياق العدة لعدوِّه؟

لا يجوز أن تفسّر هذه الهداية بمعزل عن إعداد عدة الحرب وإعداد رجال الجهاد، وإعداد مصانع لصناعة هذه العتاد، وهذا السلاح، وتطوير هذا العتاد، وهذا السلاح، وأن نَسْبق عدونا فى تطوير آلتنا، هذا المعنى هو الجزء الأول الذى يفهم من قوله سبحانه سيهديهم، واعلم أن الذكر والتسبيح والتوجه الصادق إلى الله والإيمان به والإيمان بما نزل على محمد وهو الحق من ربنا كل ذلك ضرورى لإعداد الإنسان الكريم الصادق المخلص الذى يكون فى المعمل والمصنع ومحاريب العلماء. واعلم أن محاريب العلماء الباحثين فى علوم الصنائع لا تقل شيئا عن محاريب العلماء الباحثين فى الفقة والعقائد وكلاهما لا يقل قِيدَ نملة عن محاريب المساجد، واعلم أن الذاكرين لله فى

المساجد ليسوا أفضل من العاكفين فى المعامل والمختبرات يبحثون ويكتشفون ما دام الكل من أهل الشهادتين وما دام الصدق والإخلاص هو ديدن هذا وذاك والأمة الآن فى حاجة إلى المحرابين معا.

لو حذفت هذا المعنى من الهداية المذكورة فى سياق القتال تكون قد حذفت شطر الكلمة الأولى، ويؤكد ما قلته مجىء جملة ويصلح بالهم واختيار هذا التعبير الجامع والذى فيه معنى أوسع مما فسرته به وهو اطمئنان القلوب وصلاحها كما يطمئنها الله بذكره، ولا يمكن مطلقا أن أتصور جماعة على حدودها عدو أخبث من الذئب وهو متفوق عليها فى العلم والصناعة، وأداة الحرب ويكتم أنفاسها نظام غبى جاهل يقيدها بقيود ثقيلة ويفرض عليها الجهل والفقر والتخلف، لا أتصور أبدا أن حيا عاقلا على أرضنا وهذا حالنا يمكن أن يقال فيه أصلح الله باله كيف؟ وهذا عدوى تراه عينى يهددنى كل ساعة وأتعبد بقول ربى الذى أؤمن به ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [النساء: ١٥٥] كيف أطمئن إلى أن اتفاقا يحمينى من الذين نقضوا عهود الله وقتلوا أنبياءهم؟ لا يحمينى إلا قوتى ومنعتى وسلاحى ورجالى وعتادى؟ هذا هو معنى صلاح البال الذى يحدثنا به ربنا فى سياق لقاء العدو ولا أفهم غير ذلك، والله أعلم، وأكرر أن الهداية وصلاح البال تابع فى السياق إلى آية القتال ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ والتى بدأت بوصف الصدام ثم ببيان ما دار فيه ثم بنهاية الحرب التى انتصر فيها الذين يدافعون عن الحق، ثم جاء فى الهداية والصلاح فهل يمكن أن تكون الهداية بعيدة عن ما يؤهل الأمة إلى النصر فى لقاء العدو؟ وهل يمكن أن يكون صلاح البال بمعزل عن اطمئنان الشعب على قوته ومنعته التى تدفع عنه وحشية العدو الرابض على حدودنا، على أرض هى أرضنا، واغتصبها بسلاحه وعتاده؟ هل يمكن أن نعيش فى حال وبال وشأن صالح ولا فرق عند العدو بين أرضنا التى وراء الحدود، والأرض التى اغتصبها، وليس له فيها

حق إلا التزوير والكذب؟ وإذا كان اغتصب أرض فلسطين وليس له فيها حق فهل تحول الاتفاقية بينه وبين أرض مصر التى ليس له فيها حق؟ لو فسرت الآيتين بمعزل عن هذا المعنى أكون قد خرجت بالآية عن موقعها وسياقها. وقد ضاع منا هذا التوجيه الإلهى كما ضاع منا غيره، ولا أشك فى أن أعداء الأمة الذين يخوفون السلطات الجاهلة من دخول الدين فى السياسة يفهمون هذا الذى أقوله، وأنه من جوهر الدين أن تكون الأمة على مستوى الآية من القوة والمنعة، وأن إبعاد الإسلام عن السياسة يعنى إبعاد القوة والمنعة، ومن يقول إن الدين لا شأن له بالسياسة عليه أن يبين لنا لماذا نزلت هذه السورة؟ ولماذا تعبدنا ربنا بتلاوتها؟ وأمرنا بأن ننظر أمره فيها؟

وهذه الجملة التى هى آخر آية اللقاء فيها شىء لم أعهده كثيرا فى غيرها من آيات الكتاب وهو الإخبار بأن الله يهدى فى المستقبل ويصلح فى المستقبل بال وشأن الذين قتلوا ومن قُتل انقطع عمله، ولا وجه لهدايته، لأن الهداية هداية إلى سبيل الله يأخذ الله فيها بيد الصالحين من عباده، وكذلك صلاح البال أما الذى قتل فليس بين يديه إلا عمله الصالح، وثوابه الذى بيَّنتهُ الجملة الأخيرة. ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ ثم ما وجه تَرَادُف هذه العناصر الدالة على الاستقبال من كلمة لن والسين وصيغة المضارع فى الخبر عن قوم قُتلوا، وانْتهى أمرهم ولهم عند اللهِ الجنة التى عرفها لهم، هل يمكن أن يفهم المعنى إلا على الوجه الذى بينته؟ وأن اللقاء بين الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد لقاء متجدد غير مُنقطع وأن الهداية فى الحال والاستقبال وصلاح الحال والشأن هى فى كل ما تحتاجه الأمة من قوة ومنعة؟

قوله تعالى ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ جملة عرَّفها لهم فى ذكر الجنة لم ترد فى القرآن إلا فى هذه الآية وإنما تذكر الجنة بنعيمها وسررها وغبطة أهلها وفاكهتها، وحريرها، إلى آخره، وقد قالوا فى تفسير عرَّفها لهم: المراد هداهم إليها حتى ينطلق أحدهم إلى جنته كما ينطلق إلى مَسْكنه لا يلتبس

عليه، وكأنه كـان يعيش فيها، وأن هؤلاء المكرمـين ينصرفون من الموقف إلى منازلهم فى الجنة كما ينصرف أهل الجمع إلى بيوتهم، وقالوا عرفها لهم يعنى عرّفهم حـدودها فكل واحد يعرف حدود منزله فى الجنة، وقالوا عـرّفها لهم يَعْنى طَيَّبها لهم من العَـرف بفتح العين وهو الطيب واللفظ يحتمل كل ذلك، وإن كنت أكـثر ميـلا إلى المعنى الأخيـر لأن كل أهل الجنة يعرفـون منازلهم فيها، ويعرفـون حدود بيوتهم، والآية الكريمة لم تصف الجنة بهذا الوصف إلا هنا، والسياق يقول إنها جنة الشهداء والأولى أن تكون متميزة بهذا الطيب الذى هو أشبه بطيب دمائهم التى بذلوها فى نصرة الله كما ستبين الآية التالية وكمـا هو السيـاق، وراجع موقع جـملة ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ﴾ ومجيئـها فى الترتيب بعد الجمل التالية الواقعة فى خبر ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وكيف كان الترتيب بين هذه الجـمل؟ وأن آخرها وثمرتها ونهايتـها هو دخول الجنة، وكيف كانت الجملة الأولى ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ جذْرًا لهذه الجمل الثلاث، وأنها فُسِّرت بها، لأن سيهديهم تفسير وبيان لها، ويصلح بالهم معطوفة على سيـهديهم، وكذلك ويدخلـهم الجنة يعنى هذه الجمل الثلاثـة تفسيـر للجملة الأولى والترتيب بينهـا واضح لأن الهداية أولا، وصلاح البال ثانـيا، ودخول الجنة ثالثا، وهو نهاية المطاف، وأكرر أن المضارع من كل هذه الجمل خبر عن الماضى فى (قتلوا) ولو كان المقصود المبالغة لكان الماضى أولى للإشارة إلى أنه واقع قطعا، وأن مـا هو للوقوع كالواقع، كـما أقول من يقتل فى سـبيل الله دخل الجنة بدل يدخل، وهنـا من قتل فى سـبـيل الله يدخل الجنة وإنما جـاء على هذا لأن المراد من قـتل ومن يقـتل إلى يوم الـقيـامـة ويدخل بالمضـارع للإشـارة إلى أن بابها مـفتـوح لهم إلى يوم القـيامـة وأنهم أحيـاء عند ربهم يـرزقـون فـالمـاضـى الواقع صـلـة المـوصـول ﴿الَّذِينَ قُتِلُوا﴾ مـعناه قـتلوا ويقتلون وسيقتلون بدليل السين التى فى قوله ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ لأنه لا يصح حملهـا على المستقبل فـقط وإنما معناها هداهم ويهديهم وسيـهديهم

كـما هو مـعنى السين فى قـول إبراهيم على حـد ما مـر، هذا والله أعلم، وألاحظ أن السبيل جار فى عروق هذا القسم من السورة تجده فى كلمة «سبيل الله» كما تجده فى كلمة «يضل أعمالهم» وفى كلمة «فلن يضل أعمالهم» وفى كلمة «سيـهديهم» وفى كلمة «عرفها لهـم» إذا قلنا إنهم يخرجون من الموقف إلى منازلهم فى الجنة يعرفون السبيل إليها وكأنهم كانوا ساكنين فيها.

قوله تـعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧] هذه الآية تؤسس قاعـدة لنا، وضع ربنا لنا أساسها، وهى نصرته لنا وتثـبيت أقـدامنا إذا نصرناه، وهذا وعـد الله لنا والله سـبحـانه لا يخلف الميعاد، وقبل الدخول فى تحليلها أشير إلى أن الكلام فى لقاء العدو والذى بدأ صراحة من قوله تعالى﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وبدأ تلويحا وإشارة من أول السورة قد انتهى عند قوله سبحانه ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾، وجاءت هذه الآية لتلخص الموقف وتَضَعه فـى قاعدة عامة يصيـر الموقف الذى مضى جزءاً مهماً منها، ولتؤكد أيضا مـا استظهرناه فى معنى نفى ضلال الأعمال والهداية وصـلاح الحال، وأن كل ذلك وإن كـان شامـلا لشؤوننا كلهـا فالأظهـر فيـه الإعداد للقاء العـدو، وأن معنى أنْ نَنْصر الله سبحـانه هنا هو الدفاع عن دينه وشرعه وصراطه المستقيم الذى أكرمنا بالإيمان به، وبعمل الصالحات والإيمان بما أنزل على محـمد وهوَ الحق، وقاعدة هذه الآية هى الشـرط والجواب، وما عطف عليه مترتـب على هذا الشرط، وهذا يعنى أن أهم ما نَهتم به فى تحليل الآية هو قـوله تعـالى ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ﴾ وكلمـة «إن» التى هى أداة الشرط تشير إلى أن نصركم لله ليس أمرا سهلا وإنما يكون بمجهود وبمشقة، لا يتوقع منكم أن تنصـروا الله إلا إذا بلغتم نهاية المجهود، ونهـاية المشقة، وأكاد أقطع بأن نصف الجملة هذه فيها إعجاز لأنها إخبار بغيب، وبيان ذلك أننا لن ننصر دين الله ولن ندفـع عن سبيله إلا إذا توفّرت لنا القـوة والمَنعة، والعتـاد والسلاح، وإعداد الرجـالُ وأن تكون المَنعَةُ والقُـوة مـن صنـاعـتنا

نحن، وأن يكون سلاحنا من صناعتنا نحن، وبأيدينا، وعلى أرضنا، وأن تكون البحوث والاكتشافات العلمية التى يقوم عليها تطور آلة الحرب على أرضنا، وبعقولنا نحن، وهذا هو معنى ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ﴾ وتوجيه الجملة لغير الإعداد للحرب ينافى سياقها، وكلمة النصر مع السياق قاطعة فى أن المراد الجهاد، وحرب الصادين عن سبيل الله، ولا أتصور للنصر هنا معنى غير ذلك، وأداء الفرائض والسنن وذكر الله والعمل الصالح وقيام الليل وقراءة القرآن كل ذلك ضرورى ليؤسس الخلفية الروحية والعقائدية والأخلاقية لما يقوم عليه النَّصر فى الحرب، وليس به وحده يكون النصر فى الحرب، وإنما النصر فى الحرب يكون بالذى قلته فى إعداد القوة والمنعة والسلاح والعتاد، وأن يكون ذلك بأيدينا وأن تكون مراكز البحث والاختراع المؤدى إلى تطور الآلة كل ذلك بعقولنا، وعلى أرضنا، وهذا الذى أقوله هو ما تقتضيه بديهة العقل، وهو الذى يتسارع إليه النظر من غير حاجة إلى طول فكر، ولا إلى تنطس، ثم إنه ليس معجزا لأن الأمم من حولنا سارعت إليه وأنجزت وتسابقت وبقينا نحن خارج السياق، ولو حاولناه لاستطعناه لأن الله سبحانه لم يكتب علينا زمانة العقل؛ بل إنه سبحانه طالبنا به فى هذه الآية وفى غيرها وكلَّفَنَا به وهو سبحانه لا يكلف نفسا إلا وسعها، ثم إنه سبحانه قال وقوله الحق ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ولا يمكن أن يكون الغباء والعجز ضربة لازب على عقولنا ويقول الذى خلقنا كنتم خير أمة، وهذا كله ظاهر ببديهة العقل أيضا والعقبة الحقيقية هى تخلف القيادات ولا أشك فى أن شعوبنا أكثر تفوقا من قياداتنا قلت إن كلمة (إن) فيها إعجاز لأن ما دخلت عليه الذى هو نصرنا لدين الله بالمعنى الذى شرحته والذى لا يقبل شرحا غيره أمر غير متوقع من الجيل الذى أعيشه، لأن عتاد الحرب الذى بين أيدى جيوشنا اشتريناه ليس من جهة محايدة تقف بيننا وبين عدونا على مسافة وسط، وإنما اشتريناه من الجهة التى تحمى عدونا، وتؤكد احتلاله لأرضنا، وتُعلنُ صباحا

ومساء أن أمن هذا العدو هو مسؤوليتها، وأنها تشترط علينا ألا يتجه سلاحهم الذى اشتريناه منهم نحو هذا العدو، هذا الرصاص الذى تبيعه لنا هذه الجهة يجوز للحاكم أن يوجهه إلى صدور معارضيه من أبناء شعبه، ولا يجوز له أن يوجهه إلى صدر العدو الذى يحتل أرضه؛ والذى يهدد أمن الوطن، فهل تتوقع أن ينصر دين الله وأن نواجه أعداءه إذا كان سلاحنا من الجهة التى تحرق المصحف؟ وتهدم المساجد؟ وتحتل أرض المسلمين فى قواعدها التى فى أرضنا؟

ما هو طريقنا إلى نصر الله؟ جواب هذا السؤال الأهم فى حياتنا ليس فى حاجة إلى تفكير لا طويل ولا قصير، وإنما هو ببديهة العقول أن نزيل هذه العوائق التى تعوق أن تكون قوتنا ومنعتنا وسلاحنا وتقدمنا كل ذلك بأيدينا وعلى أرضنا، ولاشك أن هذه مسؤولية الشعوب ولكن ثقافتنا السياسية المغلوطة علمتنا أنه مسؤولية النظام، وهذا حق إذا كان النظام يختاره الشعب اختيارا حرا واعيا. أما إذا كان غير ذلك فالمسؤولية فى إزالة العوائق هى مسؤولية الشعوب وليس هذا استجابة لأمر الله فحسب، وإن كانت الاستجابة لأمر الله ليس فوقها شىء، وإنما هو أيضا استجابة للحاجة الإنسانية للإنسان، وضرورة أن يعيش قويا كريما على أرضه، مستطيعا أن يحمى داره وترابه وأهله وماله، والعدو الملعون الذى على حدودنا إذا غلب فليس له رادع أخلاقى يقف عنده، وإنما ستراه يدخل عليك دارك وإذا كان المواطن تحت هذا التهديد فكيف يكون ممن أصلح الله بالهم؟

ولاحظ هنا شيئًا، وهو أن الله يدعوك لنصرته بحولك أنت الذى هو من حوله وبقوتك أنت التى هى من قوته، ولو تأملت هذا وجدت الله سبحانه منحك الحول والطول والقوة ثم استشارك لتستثير أنت حولك وطولك وقوتك وتفعل وتتفاعل مع الوجود الذى تعيشه وتأخذ مكانك على هذه الأرض التى أمرك الله أن تمشى فى مناكبها، وهذا شىء غير الخنوع والاستسلام للظلم والقهر والقمع الذى نعيشه، ربُّنا يأمرنا بأن نستثير طاقاتنا فى الخبرة ونصرة الحق وعمارة الأرض ونهانا عن الرضى بالذل والقهر والقمع الذى تمارسه الأنظمة وزبانيتها على من يرفع رأسه فى وجه فسادها وطغيانها وتوريثها السلطة والثروة معا لأبنائها.

ثم لاحظ شيئًا آخر وهو أن الذى دعاك إلى نصرته هو الذى لو شاء لا نتصر منهم كما فى الآية الأسبق، وهو الذى فى قبضته السموات والأرض وهو الذى قال للسموات والأرض كونا فكانتا، وهو الغنى عن العالمين؛ وهو الذى لو شاء لمحا الباطل، وأحق الحق بكلماته، وإنما دعاك لنصرته لتستنفر طاقاتك اللازمة للنصر من العلم والتقدم والكشف العلمى والصناعة وحرِّية الإنسان وكرامته، وعمارة الأوطان وتثبيت الحق والعدل، وألا تترك ما لقيصر لقيصر ولو استطعت أن تكسر ذراع قيصر فلا تَتَرَدَّد، ولو استطعت أن تجدع أنفه فلا تَتَرَدّد وأعنى بقيصر كل من يعوق تقدم الشعوب وتقوية منعتها، أو قدرتها، وإذا لم نجدع أنف قيصر اليوم جدع العدو أنوفنا جميعا غدا، ثم هل تتصور أن الحق يعرض علينا الدخول معه فى حلف يتعهد فيه سبحانه بنصرنا إن نحن نصرناه، وهل يجوز لمن يؤمن بأن هذا الكلام كلام الله أن يتأخر عن الدخول فى هذا الحلف؟

قلت إن تحت كلمة إن تنصروا الله دلالة قاطعة على الأمر بإزالة عوائق هذا النصر، وأن كلمات الكتاب العزيز تحتها كلمات أخرى ليست من باب حذف المضاف الذى ذكره البعض هنا وأن المراد إن تنصروا دين الله وإنما كلمات من هذا الباب الذى أقوله وهو أنه سبحانه حين يعرض علينا نصرته جل وتقدس وهو المالك والقادر يأمرنا وراء ذلك بإزالة العوائق التى تعوقنا دون نصره سبحانه، وهو يعلم أن هذه العوائق ثقيلة وصَعبة لأنها أحيانا تكون متمثلة فى أنظمة فرعونية غبيَّة، مراوغة، وكاذبة، ولا مانع عندها من الضرب بالرصاص الحى لمن يرفعون رؤوسهم فى مواجهتها وأن النصر عليها مكلف، لأنها لا مانع أيضا من أن تشن حربا على شعبها وأن هذا النصر المكلف هو مُقدِّمة التحالف والتعاقد مع رب العالمين الذى وعدنا بنصره إذا أنصرناه، ويرجح هذا الذى أقوله أن الآية الكريمة بنيت على أمور لها فى سر البيان شأن، الأمر الأول هو هذا النداء الذى تتزاحم فيه عناصر التوكيد، واللفت والتنبيه، والإيقاظ، وأول ذلك النداء بكلمة «يا» التى ينادى بها البعيد والله

سبحانه قريب من كل منادى والثانى كلمة (أى) التى تفيد الإبهام الذى سيبينه المنادى الذين هم الذين آمنوا، والثالث كلمة (ها) التى هى للتنبيه، وقد ذكر الزمخشرى هذا وقال فى سر شيوعه فى الكتاب العزيز أن الله سبحانه لا ينادى عباده إلا لأمور جلل وهذا منها، الأمر الثانى ذكر هذه الصلة ﴿آمَنُوا﴾ لأنها صلة تشريف، وتقريب، وتكريم، لأن العبد لا يحصل فى دنياه على شىء أفضل من إيمان بالله يقبله الله، ويناديه به ويكون به من أهل الله، والثالث انتقال الكلام فى الآية من طريق الغيبة فى قوله ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ وما بعده إلى طريق الخطاب فى قوله ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ وقد انتقل إلى الغيبة فى قوله ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ من الخطاب فى قوله ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وعاد الكلام الآن إليهم، وقلت إن تحت الكلمات القرآنية كلمات أخرى وهذا شائع جدا وقد نبهت إليه فى قوله تعالى ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ لأن الأمر بضرب الرقاب لا يكون إلا إذا كنتم قد أعْدَدْتُم القُوّة والمنعة والسلاح والعتاد، وقلت إن الأمر فى الآية مستمر فى الأجيال كلها، فإذا طلب منا ربنا ضرب رقاب عدونا، وقد مكنّه من أرضنا من مكّنوه، وجرّدنا من السلاح والعتاد من جردنا، وهدّم تعليمنا من هدَّمه، وهدّم مراكز البحث والقدرة على الكشف الذى يجب أن نسابق بها عدونا ونسبقه من هدَّم. والأمر بضرب الأعناق يتضمن الخلاص من كل من هدم، ثم إننا مثلا حين نراجع قوله تعالى ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ نجد وراءه أنهم مَدُّوا أيديهم إلى الله وطلبوا الهداية لأن الله سبحانه لا يهدى إلا من طلب الهداية، ولا يتوب إلا على من تاب، وهكذا قوله ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ وراءها أنهم طلبوا ذلك، واتخذوا الوسائل، وجدوا وألحوا، وصَبَرُوا وصدقوا ثم مدَّ الله لهم يده.

قوله تعالى ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ من الذى يبُهر ويَرُوع أنك تجد المعانى القرآنية تتسع جدا، بألفاظ قليلة جدا، وكنت أقرأ قول عبد القاهر فى

الإعجاز «إنك تجد ألفاظا قليلة، نُظمت نظما خاصاً، وتحتها من المعانى ما يخرج عن طوق البشر ولا أحسن فهمه، وبممارسة التحليل لآيات الله أدركت شيئًا منه، من ذلك ما أنا فيه، ومشكلتنا أننا نألَفُ جُملا فيها ما يَرُوعُ ويُبْهِر، ولكن كثرة الإلْفِ لَهـا يذهلنا عن الذى فيها، من ذلك جملة «ينصركم الله» وأبواب النصر كثيرة جدا، وإن كان النصر على العدو فى القتال هو أعلاها، ومنها أن تنتصر على من ينازعك فى أى شأن من شؤونك، ومنها أن تنتصر على نفسك، وأن ينصرك الله على من ظلمك. وأن تفوز بما نَصَبْت نفسك للظفر به، وهكذا نُعدِّدُ أمورًا كثيرة يمكن أن ترى نصر الله حليفك فيها وقل مثل ذلك فى قوله ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾، وأخطر تثبيت الأقدام فى لقاء العدو، وتكون كناية عن التمكن والاقتدار، والثقة ورباطة الجأش، ومن دلالات ثبات القدم رسوخك على محجة الحق، والصواب فى كل باب من أبواب السلوك، وهذه الجارحة لـها استعمالات بيانية كثيرة، مثل اليد، واليمين، والإصبع، يقولون لفلان فى هذا الأمر يد، وله عليَّ يد، كما يقولون أخذه بيمينه، ومِلْحُه فى يمينه والحَجرُ يمينُ الله فى الأرض، وتلقاها عرابة باليمين، وهكذا يقولون ثابت القدم، وزلت به قدمه، وله قدم صدق، وترى القدم مختبئة وراء قولنا له فيه سَبْق، وأهل السابقة وسبقك إليها عكَّاشة، ومثله الماء يقولون ماء الوجه وماء الحياء وشعر له ماء وماء الشباب ولو عقدت بحثا عن المجازات التى تجرى فيها هذه الكلمات واستقصيتها فى كلام العرب لكتبت كتابا عاليا فى باب البيان، ومن أكرم ما جاءت فيه كلمة قدم قوله تعالى فى أول سورة يونس ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢] راجع كلمة بشر وتفسير هذه البشارة أن لهم قدم صدق عند ربهم ومعناه أن الذين آمنوا استجابوا وسبقوا إلى الله فصارت لهم عند الله قدم صدق وهذا من أنبل وأنصع البيان، ولم أعرف مثله فى لسان العرب. وكلمة صدق فى الآية أخت كلمة صدق فى قوله تعالى ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥] راجع مقعد صدق بالنسبة للمتقين

وقدم صدق فى بشارة الذين سبقوا إلى الإيمان ولماذا كان القدم فى يونس والمقعد فى القمر وافتح بذلك أبوابا للنظر فى أسرار البيان لا تزال موصدة.

وأقرب ما فى القرآن لقوله تعالى فى سورة القتال ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ قوله جل وتقدس فى الأنفال فى يوم بدر: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١] و﴿يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ﴾ يعلوكم ويغلب عليكم كأنه غطاء وراجع وتذوق بلسانك هذه الكلمات ﴿يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً﴾ ثم راجع ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾، والربط على القلوب يعنى تقويتها بالإيمان وتثبيتها باليقين ثم إمدادها بالقوة، والحكمة المفضية إلى تثبيت الأقدام، وانظر إلى الربط على القلوب، وتثبيت الأقدام، وكيف اقترن هذا بذاك، وكأن الله سبحانه يُفْرِغُ قوة القلب على القدم فتثبت فى اللقاء، وإذا فتحت باب الكلام ووازنت بين صورتى الأنفال والقتال ولماذا اقترن تثبيت الأقدام فى الأنفال بالربط على القلوب، واقترن بكلمة ﴿يَنصُرْكُمْ﴾ فى القتال، لوجدت من الدقائق والخفايا ما يروق ويروع، وأدلك على مفتاح الربط على القلوب فى الأنفال وهو قوله تعالى ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩].

وهذا موقف يحتاج إلى الربط على القلوب التى فزعها ما وجدت وخصوصا أنهم كانوا يودون أن غير ذات الشوكة تكون لهم، والأمر فى القتال مختلف لأن القوم كانوا يضربون الرقاب ويثخنون عدوهم. وهذا وعد مفتوح وليس حادثا قد مضى كحادث الأنفال، وكلمة تثبيت الأقدام جاءت فى الكتاب العزيز فى أربعة مواضع ذكرت منها موضعين فى القتال والأنفال، والموضعان الآخران فى دعاء المجاهدين ربهم أن يثبت أقدامهم عند لقاء عدوهم واحدة فى البقرة فى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ [البقرة: ٢٥٢].

راجع قولهم أفرغ علينا صبرا وقارنه بالربط على القلوب فى الأنفال، لأنه أقرب إليه، والثانية قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦، ١٤٧] لماذا قالوا هنا اغفر لنا ذنوبنا وقالوا فى البقرة أفرغ علينا صبرا؟ هل ترى الفرق فى أن الفريق الأول رأى العدو بعدته وعتاده، ورأوا جالوت وجنوده، ففزعوا فناسب الدعاء بالصبر الذى يفرغه الله عليهم، وأنهم هنا لم يروا عدوا وإنما هم جماعات مختلفة مع الأنبياء المختلفين وأنهم ألِفوا ذلك وما ضعفوا وما استكانوا وإنما يخيفهم الذنب الذى لا يكون معه النصر؟ راجع وفكر وحسبى هذا وضع العين مرة ثانية على الذنب الذى يحجب عن الأمة نصر الله.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾[محمد: ٨].

بُنيت السورة من أولها على المزاوجة بين ذكر الفريقين، الذين كفروا وصَدُّوا عن سبيل الله، والذين آمنوا وعملوا الصالحات، وقد فرغت الآية السابقة من ذكر الصالحين اليقظين، وأصحاب البصيرة الذين لاقوا العدوَّ وكان من أمرهم ما كان، وانتهى الكلام بهذا العرض الكريم من ربنا الذى عرض فيها عَقْدًا لا يضيع وهو ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ وبدأت هذه الآية بذكر الفريق الثانى ولك أن تقول إن هذه الواو عطفت الآية على الآية قبلها من باب عطف المعنى على المعنى، الذى لا يلاحظ فيه خبر ولا إنشاء، أما المناسبة بين المعنيين فظاهرة جدا، ولك أن تقول إن هذه الآية راجعة إلى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ والمناسبة أيضا ظاهرة وخصوصا أن الحديث عن الذين كفروا فى الآية مشعر بأنهم الذين هُزِموا وكسِروا فى الحرب وتعِسُوا، واكتفت الآية الأولى بذكر الشهداء الذين هم أحياء عند ربهم

يرزقون، وذكرت هذه الآية الذى قتل من الكفار والذى لم يقتل لأن الفريقين لا فرق بينهما فى اللعن، والتعس، ولابد أن تذكر أن المعطوف والمعطوف عليه الذى هو الذين قتلوا فى سبيل اللـه والذين كفروا خارجان من أعماق هذه الجملة العظيمة ﴿وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ والذين كفروا هنا هم الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله بدليل قوله سبحانه ﴿يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ فى الآيتين ولاحظ أن أضل أعمالهم هناك كان خبرا عن الاسم الموصول بصلته المكونة من الكفر والصد، وضلال الأعمال هنا خبر معطوف على خبر هو الأصل وهو ﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ لأنهم خاضوا الحرب وانكسروا فيها فقدم الخبر الدال على السقوط على ضلال الأعمال لأنه هو الأهم ولأن ضلال الأعمال هناك قد فُسِّر بأنه إبطال تدابيرهم فى حرب رسول الله ﷺ وهو هنا أثمر التعس فقدم ثم ذكر إضلال الأعمال بعد التعْس ليكون إشارة إلى تدابير يريدونها ضد سبيل الله وأن مصيرها الإضلال.

والفاء التى فى قوله «فتعسا» هى الفاء الواقعة فى خبر الاسم الموصول تشبيها له بالشرط، وتفيد معنى توكيد إسناد الخبر الذى هو التَعْسُ إلى الذين كفروا، ولو قلنا والذين كفروا تعسا لهم بدون الواو لجاز فى العربية ولكن هذه الإشارة الرائعة ستذهب وهى رائعة لأن الفاعل جل وتقدس أشار لنا بها إلى أُن التعس خبرهم لا محالة، ونهايتهم لا محالة وأن غضبه عليهم أظهر، وأن دعاءه عليهم أظهر، ويلاحظ أن كلمة التعس تأتى فى الدعاء وحين يكون الدعاء صادرا من الذى إذا أراد شيئا قال له كن فيكون دل ذلك على فرط الغضب والمقت. والتعس معناه السقوط وفعله تعس بكسر العين كسمع وتعس بفتحها كمنع وهو مصدر ناب عن فعله والأصل تعسوا تعسا، وفى الحديث «تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم تعس وانتكس»، والنكس بضم النون السقوط على الرأس وهو تعس وزيادة، وكان المصطفى ﷺ زاد غضبه على هؤلاء العبيد فلم يكتف فى الدعاء بالتعس الذى هو السقوط فعاد ودعا عليهم

بالنكس الذى هو السقوط على الرأس ويقولون تَعسًا له وفى ضده لَعًا له، وهو من باب سَقيًا ورعيًا، ويقال سقيا له ورَعْيًا له، دخلت اللام بين المصدر وفاعله الذى أضيف إليه، وتسمى لام التبين، قلت إن قولهم تَعْسًا له، دعاء عليه بأن لا ينهض، ولعًا له دعاء عليه بأن ينهض وقد جاءت الكلمتان فى بيت شعر كريم للأعشى قال:

كَلّفْتُ مجْهولها نفسى وشايعنى هَمِّى عليها إذا ما آلها لمعا

بذات لوْث عفرناه إذا عثرت فالتعس أولى لها من أن أقول لعا

الآل السراب وأراد شدة الحر وتوقُّده، واللوث بفتح اللام وسكون الواو الناقة القوية الموفورة النشاط والحركة، والعفرناه بفتح العين الناقة الشديدة القوية الضخمة، وقوله كلفت مجهولها نفسى من كلام الكرام الكبار أصحاب الهمَّة العالية الذين يرون الصعب المجهول المخيف ثم يطرحون أنفسهم فيه، لأنهم يَعْشَقون مزاولة الأمور الصعبة العظيمة الشاقة، وكأن المتنبى نظر إليه لما قال

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الأجسام

وقوله وشايعنى هَمِّى إذا ما آلها لمعا، معنى أكرم لأن فيه أنه لما اشتد الأمر وصَعُب استخرج من النفس عزما وتصميما ورأيا صليبا وهؤلاء هم الرجال وليسوا أصحاب الدعة والهوينا، والذين ألفوا العيش فى ظلال الاسترخاء، وليست المسألة مسألة رحلة فى الصحراء والحر المتوقد والسراب اللامع، وإنما كل هذا إشارة إلى الموقف الصعب الشديد وأنه يكلف نفسه خوضه ومواجهته، والبيت الثانى الذى يصف الناقة هو فى الحقيقة يصف عدته لمواجهة الصعب، وأنه لا يواجهه تهورا واندفاعا وإنما يواجهه بالأدوات والوسائل التى يجب عليه أن يعدها للأمر، وهذا من الشعر الذى أحبُّه لأنى أحب هذا الضرب من الرجال وأكره الضعف والخور، والهروب، وأرْضُنَا اشتاقت إلى هذا الصّنف من الناس، لأنها ملَّت وكرهت وازدرت هؤلاء

الأقزام الأنذال، الذين يُربُّون حول المعبد ليتخرجوا كهنة من كهانه، والمعبد ليس فيه إلا فرعون وآله وصار الكل من كهنة فرعون وبقيت الأرض الغالية من غير كُهان.

ومن الواضح أن ذكر الذين كفروا فى الآية ليس على الوجه الذى يذكرون به غالبا فى الكتاب العزيز، لأنهم يذكرون فى مثل قوله تعالى فى سورة الحج ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ [الحج: ١٩، ٢٠] أو كما جاء فى سورة الزخرف ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧٤] إلى آخر الصور التى يتعدد بها ذكر الذين كفروا والنار؛ والعذاب لم يذكر منه شىء فى الآية، وإنما هو دعاء الله عليهم أن يسقطوا سقوطا لا يَنْهضُون منه، وهو الأشبه بحال الحرب، ومن المفيد فى بيان أسرار البيان القرآنى أن نذكر تعدد صور الذين كفروا وأن نبحث عن ملاءمة كل صورة لسياقها، لأن الدرس الذى لم يشبع فى الكتاب العزيز هو درس الملاءمة بين الصورة والسورة.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٩].

اسم الإشارة هنا يأرز إلى اسم الإشارة فى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ ولا يأرز إلى قول: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ لأن ما بعد اسم الإشارة فى الآية علة لما قبله بخلاف ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ﴾ لأن ما بعده كلام مستأنف.

ولاحظ تطور المعنى هناك اتبعوا الباطل، وهنا كرهوا ما أنزل الله، وهذه مرحلة أخرى أعلى من اتباع الباطل، فقد يغلب على المرء هواه، ويتَّبع الباطل، ولكنه لا يكره الحق، وكراهية الحق هى شر ما يبتلى به الناس، ثم علينا أيضا أن نراجع الفرق بين أضَلَّ أعمالهم، وأحبط أعمالهم، ولماذا وقعت

كل فى موقعها، وهل يجوز أن نقول فتعسا لهم وأحبط أعمالهم، أو أن نقول كرهوا ما أنزل الله فأضل أعمالهم؟

ولابد أن نبين الفرق بين أضل أعمالهم، وأحبط أعمالهم، وإن كان الإبطال هو المآل الذى يؤول إليه المعنى فى الكلمتين إلا أن الإضلال فيه معنى أن الأعمال تبقى ولكنها تضِلّ فلا ينتفع بها؛ كالضالة التى تضل فلا يعثر عليها ولا ينتفع بها وإن كانت القلوب لا تزال تتعلق بالعثور عليها.

والحبط فناء العمل وهلاكه، وأصله من حبطت الدابةُ إذا أكلت أكلا مستوبلا فانتفخت بطنها وهلكت، ومنه قوله عليه السلام، «إن مما يَنْبت الربيعُ ما يقتل حبطا» وفى قوله تعالى: ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ إشارة خفية إلى أنها أعمال وبيلة كالرعى فى المرعى المستوبل، ثم فيه إشارة أخرى إلى أنه إبطال مُعينٌ للأعمال، وأن ثمة فرقا بين أبطل، وأحبط وإن كنا نفسر أحبط بأبطل.

جاءت كلمة أضل أعمالهم بعد ذكر الذين كفروا وفى خبر الذين كفروا، والكفر أخو الإضلال، لأن الكفر ضلال، والكافر ضل الطريق فَوُصِفَتْ أعماله بما وُصِفَ به وهذا ظاهر ولا مشاحة فيه.

وجاء الإحباط هنا الذى هو هلاك بسبب أمر مستوبل بعد الكراهية التى هى حقد وضغينة وحسد، وهذا كله من أوبل أمراض القلوب، وهذه الأمراض تهدم النفوس، وتأكلها، وهو الأشبه بالحبط الذى يهلك الدابة بسبب مرعى مستوبل. وهذا أيضا ظاهر، ولا مشاحة فيه، ولا يجوز بعد هذا البيان أن نذكر الإضلال بعد الكراهية، والإحباط بعد الكفر فى هذين الموقعين.

وضع الغضب الشديد من الحق الذى تراه فى دعائه عليهم بالتعس والسقوط الذى لاينهضون منه بإزاء السبب الذى هو كراهة ما أنزل الله تجد التوازن الشديد بين العلة والمعلول، والسبب والمسبب.

ثم راجع المقابلة بين الفـريقين فريق قُتل فى سبيل الله وفـريق كَرِه ما أنزل الله وراجع عمق محبة من قُتل فى سبيل الله لما أنزل الله؛ لأن سبيل الله هو ما أنزل، ولأن هذا الذى أنزله ربنا صار أحبَّ إليه من ماله ونـفسه فبذل ماله ونفسه فى سـبيل الله وقتل؛ والجود بالنفس أسـمى آية الجود، وهذا كَرِهَ ما أنزل الله واستـعرت البغضاء فى نفسـه فدفعته إلى الصـدِّ عن سبيل الله، والمقاتلة إرادة أن يطفئ ما أنزل الله.

قوله سبحانه: ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ** ﴾.

هذه الآية من تمام الحديث عـن الذين كفروا، وإن كـان المعنى فيهـا انتحى نحوا آخـر. فقـد كان الحديـث فى الآيتين السابقـتين حديثا عن غـضب الله عليهم، وأنه سـبحانه يدعـو عليهم بالتَّعْس، وأنه أضل أعـمالهم، وأن ذلك لكراهيتهم لما أنزل الله؛ وهاتـان الآيتان تحدثان عن معنى آخر، أوبقهم فـيما صاروا إليه، وليس كراهة مـا أنزل الله، وإنما هو جهلهم بتاريخ الأرض التى يعيشون عليـها، وغفلتهم عن الاعتبـار بالقرى التى كانت على الطريق الذى هم عليـه، وأن الله سبحـانه أهلكهم ﴿ **وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ** ﴾ [الأحقاف: ٢٧] وأنهم يمُرُّون على هذه القُـرى، ويَرَوْن آثارها منصوبة يمرون عليها مصـبحين، وهى منهم بسيل مقيم، ومع ذلك لم يعتـبروا. هذا انتقال إلى معنى آخر يكشف الأسباب والعـوامل التى أفضت بهم إلى ما هم عليه، وهذا منهج جيـد فى تحليل الأحداث، والبحث عن العـوامل التى وراء وقوع هذه الأحداث، وكأن الآيـة تعلمنا كيف نقرأ التاريخ، وكـيف نحلل؟ وكيف نداخل نفـوس المخطئين والضالين؟ ونكشف الأسـباب والعـوامل حتى يتـبين الناس الأحوال الخفيَّة التى وراء بـاطل أهل الباطل، وكنت أقرأ تحليل علمائنا للمذاهب الفاسدة وكيف كانوا يقفون كثـيراً ليبحثوا عن الأسباب التى أوقعت من يعتنقون هذه المذاهب الفاسدة؟ وكان أكـثر علمائنا نزوعا إلى هذا الباب،

هو الشيخ عبد القاهر، وقد عرفت الآن أن منهجه هذا هو منهج قرآنى، لأن القرآن العظيم يذكر ضلالة أهل الضلالة، ثم يبين لنا الأسباب التى أفضت بهم إلى الضلالة حتى لا نقع فيها.

وفى هذا الانتقال أمر آخر لابد من ملاحظته، وهو أن الآية السابقة لهذه الآية ذكرت سبب كفرهم وسبب غضب الله عليهم، وهو الكراهية ونزعة البغض والحسد، والاستكبار، وكل هذه أحوال نفسية غير خاضعة لسلطان العقل، وتحليله، وهذا السلطان وهذا التحليل هو الذى يكشف الحقيقة، ويقود الإنسان العاقل إليها، وسلطان العقل وتحليله وكشفه للحقيقة التى يجب أن تقود عقول العقلاء إليها هو السير فى الأرض، وحُسْن قراءة التاريخ، ومعرفة أخبار الأمم التى أهلكها الله، والتى تمرون عليها، وهى على ترابكم، وأحداث حدثت لآبائكم من قوم هود، وقوم صالح، وأهل مدين، وكل هؤلاء عرب أنتم منهم لأن هذا العرق العربى شغل التاريخ أكثر مما شغله عرق آخر وإن كان الآن هذا العرق فى كمون لم يلبث أن يزول.

الآية تنتقل من سلطان الهوى إلى سلطان الفكر، والمعرفة والوعى التاريخى، وتحليل الأحداث، وأخذ العبرة منها، وهذا انتقال جيد، والاستفهام الذى بدأت به هذه الآية المستأنفة أعنى التى تستأنف معنى ثانيا يُضَافُ لأسباب غُلوهم فى الباطل الجالب عليهم التعْس وإضلال الأعمال، وإبطالها تفيد معنى الإنكار الذى يشوبه شوب من التوبيخ والتجهيل، وأنه ما كان ينبغى لكم، ولا ينبغى لأى عاقل أن يترك السير فى الأرض لا ليقرأ التاريخ من كتب المؤرخين، وإنما ليقرأ التاريخ فى الآثار الباقية، التى لا تُخْطئ ولا تكْذب ولا تُحَرِّق ثم إن الآية تخاطبنا بوجه آخر من وجوه دلالتها، وتقول لنا سيروا فى الأرض وانظروا إلى الآثار وأحسنوا قراءتها وتحليلها، ودلالتها على واقع الأمم التى قبلكم، واقرأوا ما تكشف عنه من قوة الأمة وقوة آثارها، وكيف كانوا أكثر منكم قوة وآثاراً وكيف كانوا أمكن منكم، ولا تتوهموا أن حضارتكم التى تعيشونها هى الحضارة الأكبر على هذه الأرض، فقد باد عليها أقوام وأقوام، وعمروا الأرض أكثر مما عمرتموها

وعجيب جـدا أن القرآن كرر هذا وكرر ضرورة دراسة التـاريخ القديم، حتى يكون تاريخ الأمم من قبلكم وتاريخ الأُرض التى تمشـون عليها كتابا مفـتوحا لكم، وللأجـيـال من بعدكم، وهذا ظـاهر جدا وعظيـم جدا، وأهم مـا فى العِبْرة أن الغطرسة، والكبرياء والاسـتعلاء، على الحق ينتهى بالأمم إلى البوار ولو تمكنوا واقـتدروا وعـمـروا الأرض وقالوا من أشـد منا قـوة، ثم إن هذه الغطرسـة لا تهلك المتـغطرسين وحـدهم وإنما تهلك مـعهم الذيـن نافقـوهم وآزروهم، وزينوا لهم ما هم فيه، وليس هذا فحسب وإنما تهلك معهم الفريق الصامت، الذى رأى الفسـاد والاستبداد والظلم والاسـتعلاء على الحق وعلى أمر الله ولم يواجهوا ذلك، وإنما تركوا الأمر والبـلاء السفينة التى يركب فيها الجميع يَخْـرقُها الأخرق، ولم يأخـذوا على يده كما جاء فى حديـث السفينة المشهور، والذى هـو صورة رائعة يدعونا فيـها نبينا عليـه السلام إلى ضرورة الأخذ على يد الفاسد، الذى يؤثر فساده فى حـياة الجماعة، والأخذ على يد القوم المفسـدين، فى حديث السفينة يعنى الوقـفة الحاسمة فى وَجْـه المفسدين والمقصرين والحائلين بين الأمة وبين أن تأخذ مكانها فى العلم والقوة والمنعة.

قلت إن الهمزة التى بدأت بها هذه الآية تفيد الإنكار، أعنى إنكار عدم اعتبارهم بأحوال الأمم من قبلهم، وتفيد التوبيخ وتفيد التجهيل الذى أدى بهم إلى الهلاك، وأشـعر أن فى الهمـزة معانى غيـر ذلك؛ ولذلك أعول على قول الشيخ عبد القاهر إنها لمحض التنبيه أى إيقاظ القارئ ولفته حتى ينظر هو ويراجع هو ويقرأ سـياقها قـراءة واعية، ويستنبط ويسـتخرج ولا يكفيه ما يستنبطه غيره ولا ما يستخرجه غيره.

ثم إن هذه الفاء الداخـلة عليها تعنى أن فى الكـلام حذفا وأن الهـمزة فى الحقيـقة دخلت على هذا المحذوف، والفـاء عطفت ما بعدها عليه، ومـحاولة تصور هذا المحذوف لا تـكون إلا على وجه المقاربة والمسامـحة، قلت وكررت وأن الذى يعين على ذلك هو حسن تأمل مـا بعدها، وما بعدها هو الـسير فى

الأرض، والنظر فى بقايا الأمم ومعرفة أسباب هلاكها، وهذا لا يكون إلا بالوعى الإنسانى الحىّ والعلم بالتاريخ، وحسن الاستخلاص، حتى يتعظ الناظر، ويتفادى الأسباب التى هلكت الأقوام الأولين، وهذا يعنى أن الذى يترتب عليه هذا المعنى وهو المحذوف مما يضادّ هذا؛ وكان التقدير أجهلوا وأهملوا وغَفَلُوا عن الذى ما كان لهم أن يجهلوه، وأن يُغْفلوه، وأن يهملوه، فلم يسيروا فى الأرض، قلت إن هذا المقدر لا يتأتى إلا على وجه من المسامحة وقلت أيضا إن تقدير المحذوف فى الشعر وفى النثر مع الاجتهاد يكون مقبولا ومتلائما مع المذكور، ومناسبًا له فى الفصاحة، بخلاف تقدير المحذوف فى الكتاب، لأن فصاحة الكتاب العالية تجعل المحذوف الذى نقدره يَسْتَخْزِى أمام المذكور من كلمات الكتاب العزيز. والفاء التى فى قوله «فينظروا» عاطفة على «يسيروا»، وتفيد أن المقصود بالسير فى الأرض هو النظر، يعنى الدراسة، والمعرفة بعلم التاريخ وحال الأقوام، وما كانوا عليه من حضارة وتمكن وعمارة الأرض، وما كانوا عليه من عقائد وعلوم، وأفكار، وثقافات، وما كان منهم لما جاءتهم رسل ربهم بالهدى، وما هى الأسباب التى دعتهم إلى رفض الهُدَى إلى آخره، وكلمة النظر والأمر بها واسعة الدلالة جدا، لأن رؤية آثار الأمم ليس لها قيمة فى السياق الذى نحن فيه، وإنما قيمتها تكون بالمراجعة والمدارسة، ثم إن الآية الكريمة لم تأمر فحسب وإنما حدّدت خط السير، ومنهاج النظر، بكلمة واحدة هى قوله جل شأنه ﴿**كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**﴾ والكلمة الواحدة التى أريدها هى كلمة ﴿**كَيْفَ**﴾ يعنى لم يكن المطلوب النظر لمعرفة عاقبة الذين من قبلهم، وكان يمكن أن يكون هذا كافيا، وإنما المطلوب كيف كانت العاقبة، يعنى الحالة التى كانت عليها العاقبة لأن كلمة كيف يُسْأل بها عن الحال، وهذا يشمل الحال التى أفضت إلى العاقبة وهو الاستكبار فى الأرض، وحال العاقبة وهى أنهم أهلكوا بالطاغية أو أهلكوا بريح صرصر عاتية، وهكذا، ولست متكلفا إذا قلت إن كلمة ﴿**كَيْفَ**﴾ تدعو إلى دراسة تجيب عن أسئلة لم أعرف أن أحدا حام حولها من

مـثل لماذا كان هلاك قـوم نوح بالطوفـان؟ ولماذا هلك فرعـون فى اليمّ؟ ولماذا هلكت عاد بالريح وهلكت ثمود بالطاغية؟ وهذه الجملة تكررت كثيرا كما قلت فى الكتاب العزيز ولكنهـا لم يأت معها قوله سـبحانه: ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ إلا فى هذه الآية التى هى فى سورة القتـال، ومناسبة ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ للقتال مناسبة ظاهرة، وإسناد التدمير للفظ الجلالة فيه ما ليس فى غيره لأنه هو الاسم الجامع لكل كمال والمنزه عـن كل نقص، فليس فى تدميرهم ظلم لهم، وليس فى القرآن دمّر الله عليـهم إلا هذه الجملة، وقد تعدّى الفعل بعلى وهو مـتعد بنفسه كمـا فى قوله تعالى: ﴿دَمَّرْنَا الآخَرِينَ﴾ [الصافات: ١٢٦] وقوله جل شأنه ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وليس المقصود فى الآية معنى دمّـرناهم وإنما المقصود كمـا يدل عليه لفظها دمّـرنا عليهم، من غير إشارة إلى الذى دُمّر لتكون الدلالة متسعة لما يحاط به وما لا يحاط به وهذا غير التدمـير الذى فى سورة الأحقاف والذى جاء فى ذكـر عاد وأن الريح تدمر كل شىء، لأن حرف الاسـتعلاء هنا أعطى التدمـير مذاقا آخر وهو أنـه تدمير مُسْـتَعْلٍ قـاهر، وحرف الاسـتعلاء هذا مناسب جـدا لسياق القـتال الذى فـيه فضرب الرقاب فـإذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق لأن هذا من الاسـتعلاء وإن كان بدون حرف الاستعلاء.

قوله جل شأنه ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ الضمير فى أمثالهـا عائد إلى العاقبة التى فسرتها جملة ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ وفى هذه الجملة إشارات دالة على مزيد من الغضب منها وضع المظهر موضع المضمر لأن الأصل أن يقال ولهم أمثالها والضمير يعـود على الذين كفروا فى قوله ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ كما عادت عليـه الضمـائر السابقـة وفى وضع المظهر مـوضع المضمـر إشارة إلى استحقاقـهم هذه العاقبة لأن الكفر فجور وظلم وظلمـات والإشارة الثانية فى قوله سبحانه ﴿أَمْثَالُهَا﴾ وهى جمع مثل وكان يمكن أن يقال وللكافرين مثلها

ولكنه جمع للدلالة على تهويل العاقبة المفسرة بقوله ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ وأنهم يواجهون عواقب وليس عاقبة واحدة، ثم إننا لا يجوز أن نغفل ما فى لفظ الكافرين من دلالة على أنهم رأوا الحق واستيقنوه وجحدوه، بعد ما يتبين كما سبق تفسيرنا لكلمة الكافرين، وأنها مشتقة من الكفر الذى أصله الستر وسمى الكفر المعروف كفرا لأنه ستر للحق والكافر هو الساتر للحق ولا يكون ساترا له إلا إذا رآه وأراد ستره، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون، قلت إن جملة ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا﴾ تكررت كثيرا جدا فى الكتاب العزيز مرة بدخول الهمزة على الفاء ومرة بدخولها على الواو ومرة بدون فاء ولا واو، كما أنه جاء على هذا الحذو آيات كثيرة وتكررت مثل قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾ [الروم: ٨] ولم تأت مع هذه الآيات التى هى أخت الآية ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ التى هى مرتبة على جملة ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ وإنما كانت تكون خواتيم هذه الآيات مثل قوله تعالى ﴿وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ﴾ كما فى فاطر ﴿الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ كما فى غافر، وخواتيم هذه الآيات التى كثرت فى الكتاب يشبه بعضها بعضا كما ترى هنا فى الشبه بين ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٤] وبين ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١١]، وآية القتال تقف خاتمتها وحدها متميزة بين هذه الخواتيم وفيها هذه الشدة وهذا الغضب الذى نراه فى ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ وهذا مناسب جدا كما قلت لسياق السورة ولو جمعت هذا الحذو أو هذه الآيات ونظائرها مثل أو لم يتفكروا أو لم يروا إلى آخره ودرست سياقها وتنوع خواتيمها مع تقاربها وتباعدها وربطت وبينت علاقة ذلك بسياق السورة لكان هذا عملا جليلا ومشاركة جليلة فى كشف جوانب أسرار البيان فى الكتاب العزيز.

قوله تعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾.

رجعت السورة إلى الطريقة البيانية التى تكررت فيها والتى هى سمة من سماتها ونغمة بارزة تغرسها السورة فى نهاية مقاطع معانيها، راجع ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ اسم الإشارة يحضر الحدث الذى سبق بيانه وتأتى بعده باء السببية، ثم يذكر السبب، وسيتكرر هذا الطريق فى موقعين آخرين من السورة وشيوع هذا فى سورة القتال إشارة إلى أن كل شىء فى باب القتال يجب أن يكون مضبوطا بحكمته، وعلته، لأن هذا الأسلوب يعلمنا أن الأحداث والوقائع لها أسباب، وعلل، فقد أحْبط الله أعمال الصادين عن سبيله لأنهم اتبعوا الباطل وكفر عن الذين آمنوا سيئاتهم وأصلح بالهم لأنهم اتبعوا الحق، وهكذا يُبَيّن لنا الحق أن وراء كل فعل حكمة، وأن هذا يجب أن يكون سبيلكم، فلا مكان للعشوائية فى السلوك وصناعة الأحداث، وخصوصا فيما يتعلق بلقاء العدو، هذا شىء.

والشىء الآخر هو أن هذه الآية أشارت إلى كل الذى مضى لان اسم الإشارة راجع لنصرة الذين آمنوا وأن الذين قتلوا فى سبيله فلن يضل أعمالهم، وأنه سبحانه سيهديهم، ويدخلهم الجنة وأن الذين كفروا تعْسًا لهم إلى آخره، وذلك بخلاف اسم الإشارة فى الآيتين السابقتين فقد كان كُلٌّ يشير إلى حدث معين، ولهذا ترى العلة التى هى ولاية الله للمؤمنين، وتخلِّيه سبحانه عن ولاية الكافرين علة جامعة، فهى صالحة لأن تكون علة لهداية الله للمؤمنين، وإصلاح بالهم، وإدخالهم الجنة، وهذا هو أقرب المذكور إلى اسم الإشارة، وصالحة لأن تكون علة لتكفير السيئات وإصلاح البال، وهكذا، وقل مثل ذلك فى القسم الثانى وهو ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ ولو عدت به إلى أقرب مذكور وهو قوله ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾

لاستقام الكلام، ولو رجعت إلى قوله ﴿فَتَعْساً لَّهُمْ﴾ لاستقام وهكذا، وهذا كله فيه إيماءة خفية لانتهاء هذا القسم من أقسام السورة لأن هذه الآية تضع لنا القاعدة العامة التى يقررها لنا الخالق جل وتقدس وأنه سبحانه مولى الذين آمنوا؛ ومن المفيد أن أُنَبِّه إلى أن أقسام السورة تَجِدُ فى نهايتها إشارة إلى أن باب هذا القسم يُغْلق، ويفتح باب قسم آخر كما هنا، لأنك بعد ذلك ستنتقل إلى معنى آخر فى واد آخر وتدع هذه الدنيا بكل صراعاتها، ليلخص لك ولاية الله للذين آمنوا فى الآخرة، وأنه يدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار، وعدم ولايته للذين كفروا، وأن النار مثوى لهم، هذا، ثم لو رجعت إلى هذا القسم الذى انتهى لوجدته مكونا من معان جزئية، لكل معنى منها بداية، ونهاية، فنهاية القسم الأول كذلك ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ وراجع الجملة تجدها تقول لك أنا أغلق باب جزء من المعنى وأفتح الباب لمعنى جديد، هو ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ثم إن هذا يستمر إلى قوله تعالى ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ وتأمل أيضا هذه الجملة تجدها تغلق باب هذا الجزء من المعنى لتفتح باب معنى آخر هو ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ وأردت بهذا أن أضىء حول كلمات يلفها الغموض ذكرها علماؤنا فى سياق بيان الذى أعجز به الكتاب، فقد أشاروا فى هذا السياق إلى مبادئ آية ومقاطعها، يعنى أنك ترى أسرارا بيانية تُبهرُ وتَقْهَرُ فى مبادئ آية ومقاطعها، وأقول لعل الذى نَبَّهتُ إليه كان حاضرا عندهم وهم يتحدثون عن المبادئ والمقاطع، وأن مبادئ الآيات ومقاطعها كمبادئ السور ومقاطعها، والمولى هنا معناه الناصر، والحامى، والمعين، ويلاحظ أن لفظ الجلالة وضع موضع الضمير، وقد سبق قوله عز وجل دمّر الله عليهم، وللكافرين أمثالها، وكان يمكن أن يقال ذلك بأنه مولى الذين آمنوا، ولكنه عدل إلى الاسم الظاهر لأن للفظ الجلالة من

القداسة والمهـابة ما ليس للضمير، وإن كان عـائدا عليه لأن الكناية لا تعمل فى النفوس عمل التصـريح، وشىء آخر وهو أن الاسم الظاهر يجعل الجملة غيـر مرتبطة اللفظ بالجملة قبـلها، وإنما يَمْنَحُها الكثـير من الاستقـلال حتى تكون فى الناس كمـا يكون المثل، لأن شيوعها وتناقلهـا له أثر بالغ فى الأمة لأن الله سـبحـانه إذا كان مـولاك بمعنى ناصرك وحـافظك فأنت من أوليـائه وأولياؤه لا خوف عليهم، وهو وليك فى الدنيا، بالنصرة، والحماية والإعانة، والحفظ، ووليك فى الآخرة بعـفوه، ومغفرته، كما قـال يوسف عليه السلام ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

وولاية الله للصالحين من عباده ذكرت كثيرا فى الكتاب العزيز، وتشترك فى الأصل العام وتَتَنَوَّع ظلالها، تبعا للسياق الذى ذكرت فيه فهى فى يوسف مثلا نجاته من ظلمـة الجب، ونجاته من كيد النـسوة، ونجاته من السجن، وتعليـمه تأويل الأحاديث، وجعله على خزائن الأرض، وقـد أشار يوسف عليه السلام فى ضراعتـه إلى أطياف هذه الولاية بقوله: ﴿قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَـادِيثِ﴾ وهى هنا ولاية النصـرة فى الحـرب، وأن هذه الولاية لهـا مقدمات أفضت إليها أولها الإيمان بالحق الذى أنزل على محمد ومدافعة الباطل الصَّاد عن هذا الحق، وإعداد العدة والمنعة، والقوة التى تجعل هؤلاء الذين كان الله مولاهم قادرين على الدفاع متمكنين من الأخذ برقاب عدوهم وعاملين مع ذلك وقبل ذلك علم نقاء صفوفهم، وتطهيرها من الباطل، والزيف، والظلم، والجور، لأن أى جـماعـة يشيع فـيها الفـساد، والجـور، والسلب، والنهب، والقمع، والجـهل، لا يمكن أن تكون قادرة على دفع عَدُوٍّ فضـلا عن التمكن والأخذ بالرقاب، ثم إن من أهم أعمال الصالحـات التى وُصِفُوا بها الاستجابة لأمر الله ونهيه، ومن أهم الأمر الذى يذكـر فى سياق ولاية الله بالنصر للذين آمنوا هو تحقيق أمـر الله فى قوله ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ

الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠] وراجع كلمة ما استطعتم ومعناها أن تبلغوا نهاية الجهد فى إعداد العُدَّة وإعداد القوة التى هى الآن العلم والبحث العلمى الذى يكتشف الطاقات التى أودعها الله فى الكون، والتى تمكن من القدرة، وتمكن من المنعة، فلا يجوز لجماعة ترى النفاق، والتدليس، والكذب، والبطش فى صفوف قيادتها الأولى، وتمضع الخوف، والصمت، وتتطلع إلى ولاية الله، لأن الله أخبر أنه مولى الذين آمنوا وحقَّقوا الإيمان اعتقادا وسلوكا، وعملا، ولم يخبر أنه يتولى الذين يخافون الناس، ولا يخافون الله، ولم يخبر أنه يتولى الجبناء الذين يَرَوْن المفسدين يدمرون البلاد ثم يكونون بين مصفق لهم وبين صامت مرتعد هَيَّاب؛ أو يُدبج لهم الشعر فى النثر والنثر فى الشعر، لله رجاله فكونوا من رجاله يكن لكم وليا، أكدوا فى نفوسكم خشية الله لأنها إذا سكنت طردت من نفوسكم كل خشية لغيره سبحانه، وولاية الله منها ولاية خاصَّة كولايته للذين آمنوا وولايته ليوسف عليه السلام، وولايته للصالحين من عباده، وهذه الولاية هى المنفية عن الكافرين فى الآية **﴿الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾** ومنها ولاية عامة تشمل الخلق جميعا لأنه خالقهم ورازقهم ومُنْعِمٌ عليهم بنعمه التى إن يَعُدُّوها لا يحصوها، وهذه الولاية دل عليها قوله تعالى **﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾** [يونس: ٣٠] يجب أن يعلم الذين آمنوا أن يد الله لا تَمْتَدُّ للعاطلين وأن ولايته لنا بالنصرة مَرْتَبة ليس فوقها مرتبة، وأنها لا تنال إلا بالمكابدة والتجرد والاجتهاد

قوله تعالى **﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾** [محمد: ١٢].

هذه الآية انتقال إلى معنى جديد لأنها انتقال من أحوال الدنيا إلى أحوال الآخرة، وهذا ظاهر ثم هى شديدة التشابك بما قبلها وبما بعدها، أما تشابكها

بالآية قبلها فلأنها وجه من وجوه ولاية الله للذين آمنوا؛ وكما جاء ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ فى آخر الآية السابقة، جاء بيان هذا الخذلان والحرمان من ولاية الله له فى آخر هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ يعنى رأس هذه الآية ممسك برأس التى قبلها، وآخر هذه الآية ممسك بآخر الآية قبلها وهذا ظاهر وهو ضرب من التشابك له فى البيان شأن.

أما أنها متشابكة بما بعدها فإن مثل الجنة هو وصف للجنات وسقوا ماء حميما هو وصف ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾، وهذا أيضا ظاهر، ورأس الآية السابقة ﴿بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ورأس هذه الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعنى الكلمات يتكرر أكثرها فلفظ الجلالة المسبوق بأداة التوكيد، والذين آمنوا كل هذا مكرر، ثم تراها هى والتى قبلها ترجعان رجوعا ظاهرا إلى الآية الثانية، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾، وراجع تكرار كلمة آمنوا فى هذا القسم من السورة وكيف يشير هذا التكرار إلى أن نبع النصر فى مجاهدة الباطل وقتال الصادين عن سبيل الله هو الإيمان الراسخ بما ينازعه هؤلاء الصادون، ثم ما يقتضيه هذا الإيمان والدفاع عن هذا الإيمان من عوامل القوة والمنعة وتطهير سياسة الأمة من الكذَّابين والمتربحين واللصوص والمراوغين، والواجب ألا نفصل لحظة بين الإيمان بالحق وما يقتضيه من الدفاع عن الحق وما يجب أن يكون عليه أهل الحق من القوة والهيبة والمنعة، كما لا يجوز أن نتكلم عن الحكم بما أنزل الله وليس بين أعيننا إلا قطع يد السارق وجلد الشارب وننسى أمر الله فى الأنفال بإعداد ما استطعنا من قوة نرهب عدو الله، وضع خطا تحت كلمة نرهب عدو الله وقل هذا هو الصعب فى الحكم بما أنزل الله، أما أن يمسك الشرطى بيد السارق، وتقطع فى الميدان وإن كان سارق عنزة، ويُقبِّل الشرطى وغير الشرطى يد سارق المليارات فليس هذا من

دين الله فى شىء، ناهيك عن استباحة أرض المسلمين لجيوش الأعداء التى تحمى الملك ولا تحمى الأرض، وكيف تظن أنها تحميها وقد استولت عليها، ثم ناهيك عن ضَرْب مدائن أهل الإسلام من هذه القواعد ثم تلهِّى الناس بقطع يد سارق العنزة، ولأول مرة فى التاريخ تخرج جيوش عدونا من أرضنا لضربنا واذا لم تستح فاصنع ما شئت. هناك فى الدين والتفسير أشياء لابُدّ أن تَقْترن بما يصحح فقهها، لا معنى لكلمة الذين آمنوا إلا بتحقيق أمر الله فى كل شىء، ومواجهة الفساد والباطل فى أى موقع، أما أن نلوذ بالمحاريب ونَدَعَ الفساد يدمر بلادنا ويستبيحها لمن يحرقون المصحف فإنى مع ثقتى بأن المحاريب هى أطهر وأجل مكان فى الأرض، فإننى أراها بداية الطريق لأنها تُعِدُّ الرجال لصناعة الحياة الأفضل، وليست نهاية مطاف مرضاة الله.

ويلاحظ أن ذكر الجنة فى الآية مختلف عن ذكر الجنة فى الآية التى سبقت، فقد ذكرت جنة واحدة هناك، ولم توصف بشىء، والجملة الحالية ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ لتكريم أصحابها، لأن رأس سياقها هم أصحابها الذين قتلوا فى سبيل الله، وسُبقت بصور من الإكرام لهم ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ بخلاف هذه الآية التى ذكرت لبيان ما أعده الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات بهذا العموم وهذا الإطلاق، وبهذا جمعت ووصفت بأنها تجرى من تحتها الأنهار، وقد تكرر هذا فى الكتاب كثيرا وجاء مرة مع حرف الجر (من تحتها) ومرة بدونه كما أن جريان الأنهار تحتها أو من تحتها يجىء مرة ويغيب مرة ويذكر النهر من غير جرى معطوفا على الجنات، ويغيب مرة، وهذا التنوع الكثير موصول بمقامات اقتضته فلا يصح أن يوجد حرف الجر فى المواضع التى حذف فيها، ولا أن يحذف فى المواضع التى جاء فيها ولا يصح أن يذكر الجَرْى حيث حذف، ولا أن يحذف حيث ذكر؛ وهذا وحده من البحوث التى لا يدرك خباياها إلا من أتوا من لدنه علما سبحانه هو أعلم بأسرار كتابه.

ومن أسرار البيان التى لا أعرف إلا ظواهرها أنك تجد هذه الآية تمد يديها إلى الوراء لتمسك بآية ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾، وقد فصل بينهما ثلاث

آيات من خبر الذين كفروا ثم تجدها تمد يَدَيْهــا إلى الأمام لتتشابك مع آية مثل الجنة التى وعد المتقــون، وقد فصل بينهما آيتان من خــبر الذين كفروا، وهذا التداخل الــذى ترى فيه مــعنى يقطع معنى، ثم يمــتد المعنى الذى قطع بعــدما عزله المعنى الذى دخل عليه، ثم يدخل عليه هذا المعنى مرة ثانية فيقطعه بجزء آخر من معناه، وهكذا يمتد الكلام وهو يتبادل هذا التداخل ثم ترى التواصل؛ بين أجزاء الكلام فى حــالة القطع، والوصل وكأنه ليس فيــه قطع، أقول هذا طريق من طرق بيان الكتاب العزيز قد ترى شيئًا منه فى شعر الكبار وبدلا من أن نحلل هذا الطريق تحليــلا جيــدا نظرنا إليه من زاوية أنه تــفكيك القصــيدة وافتقاد الرابط وهذا نظر سطحى بالغ السذاجة.

قلــت إنى لا أعـــــرف من هذا الطــريق إلا ظاهــرا لا يغنى وهــو أولا هذا التماسك الشديد بين أجزاء المعانى المتداخلة، كالذى تراه هنا من أن قوله تعالى ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ هو واحد من مــعانى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وأن دخول ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ والآيات التابعة له بين الجنتين هو أولا ذكر المــقابل للذين يَنْصرون الله وينــصرهم، ثم وهو الأهم بيان الفرع الثانى الذى تــفرع من قوله تعالى ﴿لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ لأن هذا البعض قسمان قسم قُتلوا فى ســبيل الله أو قاتلوا أو قتلوا على وجوه القراءات، وقسم كــفروا وتعــسوا، وهكذا تجــد هذا التداخل كــأنه فروع مــختلفة الــطعوم والثمــارات، وإن كانت تُولدَ من جذر واحد ويَفْــضل بعضها بعــضا، ولعل هذا النسق البيانى هو الذى أغرى بعض كرام علمائنا بالإكثار، من وصف آيات كثيرة بأنها معترضة حتى إنك ترى مفــهوم الاعتراض اتسع عندهم جدا مع أن التشابك الشديد بين هذه الجزئيات المتداخلة يعكر على القول بالاعتراض.

وقوله سبحانه ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ رأس الجملة التى هذه من تمامها ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ انتقال إلى أحوال الآخرة، وهذه الجملة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ﴾ صَدْرُها رجوع إلى

أحـوال الدنيا وعـجزها ارتداد إلى أحـوال الآخرة، وهذا أيضـا من عجـيب البيان، لأنك ترى أن صدر الآية يحـملك إلى آخر مواقف الآخرة لأن دخول الجنة يأتى بعـد أحوال وأحداث من النشـر والحشـر، وكل أمّة جاثـية ويؤتى بالكتاب والميـزان ويشهد الشـهداء إلى آخره، بعد الجـملة التى ترمى بك إلى آخر أحـوال الآخرة تأتى جملة تعـود بك إلى معمعـان الدنيا، والناس فيـها يأكلون ويتـمتعـون؛ وما إن تنتـهى هذه الجملة حـتى يقذف بك آخـرها عند النهاية التى حـملتك إليها رأس الجـملة ولكنها النهاية الـتى على النقيض من النهاية الأولى لأنك فى الأولى مع الجـنات التى تجرى من تحتهـا الأنهار وفى النهاية الثانية مع النار التى هى مَثْوى لهم.

ومن السهل أن أقول إن هذه الأودية من المعانى التى تقذف بك الجمل فيها وهى متبـاينة، ومتباعدة؛ فـبعضها فى الحيـاة التى نحياها وبعضهـا فى حياة الغيب وبعضها فى الجنة وبعضها فى النار، وأنت أيها القارئ يطوح بك سطر أو سطران من المصحف فى قلب هذه الأحوال أقول إن من شأن هذا أن يوقظ وأن يلفت، وأن يستثير ويستنفر طاقـات النفس، وأنْ يأخذ بها جميعا، وهذا هو الظاهر الذى أدركه من يحدِّث فى تأليف المختلف.

هذا بيـان لموقع هذه الجمـلة من الآية التى هى فيـهـا؛ ثم يقال لماذا حـدّثت الجملة عن الذين كفروا وأنهم يأكلون ويتمتـعون كما تأكل الأنعام، ولم تحدِّث الجـملة السابقـة عن الذين آمنوا، ولماذا لم يقـابل دخول المؤمنين الجنة بدخـول الكافرين النار وإنما أضاف ذكر المثوى، والذى أراه أن القرآن الكريم يكتفى غالبا بذكر المؤمنين بوصف الإيمان وعـمل الصالحات، يعنى صواب الاعتـقاد وصلاح العمل، ووراء هذين من فـضائل النفوس ما لا يحـاط به، وهذا يكفى فى ذكر الثواب والجنات، لأن الثواب والجنات من فضل الله ولا حرج ولا حدود لعطائه سبـحانه، وهذا بخـلاف العقـاب لأن العدل المطلق الذى هو من أوصـافه جل وتقـدَّس والذى أمرنا بأن نأخـذ منه ما وسـعنا الأخذ يقـتضى ذكـر موجـبات

العذاب، فلا يكفى أن يقال النار مثوى للكافرين كما قيل الجنة ثواب الصالحين، وإنما تبين الآية العظائم التى يرتكبها الذين مثواهم النار، ثم إننى لا أستطيع أن أكتفى بالدلالة اللغوية لوصف جرمهم فى الآية، وهو التمتع والأكل بمعزل عن آية ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ لأن التمتع بنعم الله ليس موجبا للعذاب، لأن الصالحين ينعمون بهذه النعم، ومن باب أولى الأكل، وآية ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ تشير إلى انغماسهم فى الغفلة، وولعهم بالظواهر ولَعًا حجب عنهم بواطن الأشياء وحقائقها، فرأوا آثار الأمم البائدة ومروا عليها ممسين ومصبحين ولم تحرك هذه الآثار عقولهم، ولم تلفتهم إلى عواقب اللجاجة فى معاندة الحق لأن كل طاقاتهم انصرفت إلى المتعة المادية والانهماك فى الشهوات التى عزلتهم عن عالم الإنسان العاقل المفكر، إلى عالم الأنعام الذى لا يعرف إلا شهوة البطن، وكأن جناحى الآية يصنعان فى كفتيها نموذجين من الناس، نموذج الإنسان الذى يفكر، ويتدبر، ويتذكر، ويعقل، ويرى الدليل، ويراجعه فإذا صح له أخذ به، وهو الإنسان الأعلى، وهو الذى تعمر به الأرض، لأنه يداخل باطنه اعتقاد وإيمان بالله، وبما أنزل على محمد وهو الحق، وهو الخير وهو العدل وهو البر وهو الرحمة إلى آخر المعانى الإنسانية التى لا يحاط بجلالها وكمالها، والتى لخصها المصطفى عليه السلام بمكارم الأخلاق، وهم الذين ينصرهم الله فى الدنيا ويَرْمى بأيديهم، وهم حِزْبُه وهم خاصَته، وهم أولياءه، وهؤلاء هم الذين يأكلون ليعيشوا وليسوا الذين يعيشون ليأكلوا. والنموذج الآخر هو الفاقد لهذا كله أو هو على العكس من هذا كله، فإذا كان باطن الأول عامراً بالإيمان، فإن باطن الثانى عامر بالكذب على نفسه، وأوّل الكذب على النفس هو الكفر الذى هو ستر الحق بعد ما تبين، ثم هو ظالم فاجر سالب ناهب يَقْمَعُ من غير رحمة ويقتل من غير رحمة ليس له ضابط من خلق، ولا دين، وليس أمامه خطٌّ أحمر يكفه عن حقوق الآخرين إلى آخره، وهو الصنف الذى يعيش ليأكل كما تعيش البهيمة لتأكل.

وإذا قلت لماذا قال ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ﴾، ولم يقل والكافرون يتمتعون كما قال فى الآية السابقة ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾؟ والذى عندى فى جواب هذا هو أن الذين كفروا يختلف اختلافا ما فى دلالته عن الكافرين لأن الكافر هو الثابت على كفره الذى كان عليه قبل أن تَبلُغَه الرسالة التى هى الحق الذى أُنْزِل على محمد، والذين كفروا هم الذين أَحْدَثُوا الكفر بعد أن لم يكن كما هو صريح دلالة الفعل الماضى وهذا يعنى أنهم لما سمعوا الذى أنزل على محمد أيقنوا أنه الحق من ربهم، فانقطع الكفر، ثم عاندوا وستروا الحق فأحدثوا الكفر، وهذا المعنى الذى أراه صحيحا هو المناسب لوصفهم بالبهيمة التى لا تعقل وهو المفضى إلى النار التى هى مثوى أعِدّ لهم وإنما جاء ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ لأنهم أحدثوا الإيمان بعد أن لم يكن وانقاد سلوكهم لما فى قلوبهم، وأنبل ما فى الإنسان أن يعتقد اعتقادا صحيحا ينقاد فيه للحق إذا ظهر، ثم يسلك سلوكا متناغما مع هذا الاعتقاد، فلا يكون اعتقاده فى واد وسلوكه فى واد آخر، وهذا ليس فى الدين فحسب وإنما هو فى المذاهب السياسية أيضا، وقدّمت الآية يتمتعون على يأكلون لأن التمتع هو الجذر الذى يكون الأكل فرعا من فروعه ولأنه أيضا هو الجذر الذى يقوم عليه قوام نفوسهم، وأن كل رذائلهم منبثقة من هذا الجذر الذى هو المتاع، فإذا سلب تمتّع بسلبه، وإذا قتل تمتع بجريمته، وإذا قهر تمتع بقهره، وإذا تسلط تمتع بتسلطه، وإذا هدم بيوت الناس عليهم وعلى أطفالهم ونسائهم وشيوخهم تمتع بما فعل، يعنى ليس مجرما وإنما هو مجرم متمتع بالإجرام وهذا هو شر البرية.

ولم تقل الآية يتمتعون كما تتمتع الأنعام، وللأنعام متاع بوجوه كثيرة من وجوه المتاع حتى أن الجاحظ ضرب لذة البهيمة بالعلوقة مثلا أقول لم تشبه مُتْعَتَهم بالأنعام، لأن متعتهم أوسع مدى من متعة الأنعام، فالأنعام لا تتمتع بالظلم ولا بالخطف، والسلب والنهب.

ووجه الشبه فى قوله تعالى: ﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ﴾ ليس هو النّهم والتهالك فى النَّهمَ لأن هذا ليس من الكبائر ولا ينتهى إلى المثوى فى جهنم وإنما شيء آخر يتلاءم مع شهوة الجريمة وهو أن البهيمة لا تقف فى أكلها عندما يجوز لها أن تأكله، وما لا يجوز، يعنى ما هو حلٌّ لصاحبها يطعمها منه وما ليس حلا له، وإنما كل ما يناله لسانها وفمها فهو حل لها، كذلك هؤلاء الذى غرست فى قلوبهم شهوة الجريمة لا يعرفون الحدود الفاصلة بين مالهم وما ليس لهم، وإنما كل ما تناله أيديهم فهو حلّ لهم.

وقوله سبحانه: ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ جملة حالية وهى التى أجْرَت فى الجملتين قبلها ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ﴾ معنى المعصية والخطيئة التى تُفْضِى بفاعلها إلى النار، وأنهم كانوا يتمتعون تمتعا مهلكا لهم وموبقًا لهم، ويأكلون أكلا مهلكا لهم، وموبقا لهم، ولو أبْعَدت هذه الحال وقلت والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام لما دل التمتع والأكل على أنهما من باب الخطايا الموبقة، ومن باب الكبائر المفضى إلى النار، لأن اقتران التمتع بالثُّوىّ فى النار دال على أنه تمتع موغل فى غضب الله، واقتران الأكل بالثوى فى النار دال على أنه أكل موغل فى غضب الله وهو الأكل الحرام.

وهذه الجملة الحالية التى هى مقطع الجمل متآزرة مع الصلة التى هى مطلع الجملة وهى كلمة كفروا، فَقُدِّم للتمتع والأكل بالكفر، وخُتم بالثوى فى النار، ووجه الفائدة فى الصلة أنهم كفروا بالحق الذى نزل على محمد والذى هو سبيل الله والذى هو البر والعدل والرحمة ومكارم الأخلاق وناهيك عن كافر بالحق والعدل والبر والرحمة ومكارم الأخلاق، إذا ثارت شهوته فى الباطل، ووجد متعته فى البغى والبطش والدماء والأموال والأعراض، وكيف يكون خطره على هذه الأرض، ولا تظن أن أفسر الآية من الخيال، واعلم أنى أفَسِّرها من الواقع، وانظر حولك سواء مما يقع ممن سُمُّوا بأسماء إسلامية، وممن لَيْسوا من أهل الإسلام، ونصبوا أنفسهم للصد عن سبيل الله، لأن الكلام

ليسس فى الذى كفر وسكت، وإنما الكلام فى الذى يعاند الحق ويقاتل من أجل إطفاء نوره، وأُنبه إلى أن من الكفار من لهم ضوابط أخلاقية، وأعراف إنسانية، وليسوا المقصودين فى الآية، لأن هؤلاء كما قلت كفروا فحسب، وإنما كلامنا فيمن كفر وواجه وخطط وحارب وقاتل وسلب ودمَّر وابتهج بالدماء والأشلاء.

والمثوى معناها أن النار دار إقامة وفرق بين «مثواهم» الذى جاء كثيرا فى الكتاب العزيز، ومثوى لهم، لأن هذه اللام الداخلة بين المضاف والمضاف إليه، تفيد معنى أنها أُعِدَّت لهم، وجُهزت لهم وسُعِّرت لهم، وليس هذا فى كلمة مثواهم ثم هى أيضا تحدث تلاؤما فى فواصل الآيات وإن كان ليس هذا علَّة وجودها، وإنما هو ثمرة وجودها، ثم إنها أيضا كما قال الطاهر طيب الله ثراه أتاحت لكلمة﴿ مَثْوًى﴾ أن تنون لأن ما بعد اللام لو أضيف إلى ما قبلها لحذف التنوين من أجل الإضافة، وهذا التنوين يفيد أنه مثوى أى مثوى، يعنى ليس مثوى مما يعتاده الناس؛ ويألفونه وإنما هو مثوى آخر غريب نجانا الله جميعا منه.

قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣].

هذه الآية معطوفة على قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ لأنها من تمام معناها، وهى أشبه بها من الآية التى تسبقها، وهى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ وهذه الواو التى فى أول الآية لو وقَفْت تتأملها وجدتها ليست حرفا منطوقا أو مكتوبا فحسب، وإنما هى بمثابة عين صحيحة نافذة تنظر إلى الكلام الذى قبلها لترى ما هو أشبه بالكلام الذى بعدها، ثم تحمل الذى بعدها لتقربه وتربطه بالكلام الذى هو أشبه به وإن بعد مكانه وإن تجاوزت فى رجوعها إليه آيات كثيرة، وهى بذلك تضم الشبيه إلى الشبيه، وهذا من عجيب الترابط والتماسك فى آيات الكتاب العزيز بل وفى اللسان العربى كله، وقد أغفلنا هذا المعنى فيها

لطول تكرار أنها عاطفة وأنها لا تقتضى ترتيبا وأنها لمجرد الجمع، من غير أن نلتفت إلى مـا فيها من تمييـز واختيار، وأنهـا لا تعطف الشىء إلاعلى ما هو أشبه به، وأنها تكسر لذلك النسق المتتابع، وترحل بالذى بعدها إلى البعيد فى موقعه والقـريب فى معناه؛ وتأبى أن تضيف ما بعدها إلى القـريب فى موقعه والبعـيد فى مـعناه، وتأمل مواقـعهـا إذا كان تأمـلا يقظا له بصيـرة ينفى بل ويزدرى القوى بتفكك القصيدة ويسـتجهل القائل به، ولا يجوز لمن لم يحكم معانى أدوات العطف أن يتكلم فى شعر ولا فى أدب، وأرى هذه الواو أحيانا خبيرة بأنسـاب المعانى عرافة للأرحام التى بينها، وأنها لا تعطف البـتة كلاما على كلام لا رحم بينهما.

وقد ذكر بعض علمـائنا أن الذى بينها وبين ما عطفت عليـه اعتراض واقع بين أجـزاء المعنى الواحـد، وأرى خـلاف مـا رأوا لأنى أرى أن الكلام الذى جاءت الواو بعده كان من تمام الكلام الذى عطفت ما بعدها عليه؛ وبيان ذلك فى الآية التى نحن فيها أن المعطوف عليه وهو قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ كان من تمامـه بعد قـوله تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾، قوله جل شأنه ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ واسم الإشارة رابط قوى بين مـا قبله ومـا بعده وهذا ظاهر، ثم إن قـوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ هو بيـان ظاهر لولاية الله للذين آمنوا، وقوله ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ﴾ من تمام معنى الآية قبله، وبيان لما فى الآية السابقة ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾، والعطف على ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ تجاوز لأعجـاز الآية قبلها وعطف على رأسـها لأن العطف غـالبا مـا يكون على رؤوس المعانى ولـيس على توابعهـا وأعجـازها وهذا ظاهر، ثم إنهـا لما عطفت ما بعـدها على ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ لم تكن ضـامَّة معنى إلى معنى فحسب، وإنما كان ما بعدها جزءا مكملا لما عطف عليه، لأن

آية ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ ذكرت عاقبة الذين من قبلهم، وأن الله دمّر عليهم، ولم تشر إلى أن الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة، وإنما اكتفت بأنهم كفروا كما كفر هؤلاء، ولهذا كانت فاصلتها ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ وأن استحقاق المثلية راجع إلى الكفر، وجاءت هذه الآية لتشير إلى أن الذين دمّر الله عليهم كانوا أشد منهم قوة، وهذا هو الذى أضافته هذه الآية المعطوفة للآية التى عطفت عليها، ثم إن هذه الآية اكتفت بأشد منهم قوة، ولم تذكر ما أُلف ذكره من مثل قوله فى أمثال آية ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ أنهم كانوا أكثر منهم، وأن آثارهم فى الأرض كانت أكثر من آثارهم، وأنهم عمروا الأرض أكثر مما عمروها، لأن السياق هنا مختلف، وأظهر ما يختلف فيه عن غيره أنها جاءت عقب الصدام، واللقاء فى الحرب، وأن الذين آمنوا ضربوا الرقاب وشدوا الوثاق، وأنهم أرغموا العدو على أن يضع أوزار الحرب ويستسلم، فاكتفت فى الأول بأن أمثالهم فى الكفر دمّر الله عليهم، وأن الذين دمروهم فى الحرب هم القوم الذين مولاهم الله، فهم خاصته، وأن هؤلاء المدحورين ﴿لا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ ثم نبهت آية ﴿أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ إلى أن أى لقاء بين الذين آمنوا والذين كفروا سيكون الظفر فيه للذين آمنوا ولو واجهوا من كان أشد من هؤلاء قوة، ومن التشابك الذى لا يجوز إهمال النظر فيه والذى يؤكد أن ما قبل هذه الآية من تمام المعنى الأم الذى عطفت الواو عليه هذا التصاقب فى المعنى والمعنى بين قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ فى الآية السابقة وقوله سبحانه هنا ﴿فَلا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ راجع لا مولى لهم ولا ناصر لهم ولا تهمل هذا التصاقب فى حذو البناء وماله من صلة فى الأرحام والوشائج التى بين المعانى هذا هو موقع الآية وسياقها من السورة.

وكلمة ﴿وَكَأَيِّن﴾ مكونة من كاف التشبيه وكلمة (أىٍّ) بالتنوين والأصل أن تكتب من غير النون لأن نون التنوين تنطق ولا تكتب، ولكن الكلمة لما

رُكّبتْ من الكاف وأيٍّ بالتنوين صار التنوين داخلا فى أصل تركيب الكلمة، وصح الوقوف عليها بالنون، ثم رسمَتْ فى المصحف نونا وهى بمعنى كم الخبرية الدالة على التكثير.

وقد جاء هذا البناء فى ثلاث آيات غير هذه الآية منها آيتان فى سورة الحج والثالثة فى سورة الطلاق، قال تعالى فى الحج: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [الحج: ٤٥] وقال جل شأنه ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [الحج: ٤٨] وقال سبحانه فى سورة الطلاق ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾ [الطلاق: ٨] وجاءت كلمة ﴿وَكَمْ﴾ فى موقع (كأين) مع ذكر القرية فى قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ [الأعراف: ٤] وفى قوله سبحانه: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ [الأنبياء: ١١] وفى قوله جل شأن﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ [القصص: ٥٨].

وقد اعتَدْنا على أن نفسر كأين بمعنى كم الخبرية وهذا صحيح ولكنه لا يعنى أن كأين هى كم، لأن هناك فرقا بين أن تكون الكلمة بمعنى الكلمة، وأن تكون الكلمة هى الكلمة، ورحم الله من علمونا هذه الفروق، ولابد أن يكون هناك فرق بين كأين وكم ولو كانا سواء لكان وجود إحداهما زائدا، والزيادة عبث واللغة منزهة عن العبث، كما يقول علماؤنا، وهذا كلام عجيب جدا لأن تنزه اللغة عن العبث وهى محيط لا يحيط به إلا نبى كما قال الشافعى أمر لافت جدا ومثير، وخصوصا أن أصحابها الذين وضعوا وشرعوا شرعها وأصَّلُوا أصولها قوم أميُّون، وأدع هذا لأقول إننى لم أقع على فرق فى المعنى بين الكلمتين ولماذا جاء فى هذه الآية بكلمة ﴿وَكَأَيِّن﴾ وفى الأخرى بكلمة «كم» وهل يستقيم المعنى لو قلنا وكم من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك؟ ولماذا؟ ولم يكن أمامى إلا أن أجتهد وإن لم تتوفر لدى أهليَّة الاجتهاد وإنما أجزت لنفسى الاجتهاد مع افتقاد الأهلية لأن الذى أقوله ليس ملزما لأحد وإنما هو فتح باب الاجتهاد لمن له لأهلية.

وكل الذى عندى هو أن كلمة كـأين وإن اشتركت مع كلمـة كم فى الإبهام فإن الإبهام فى كلمة «كأين» أكثر لأن كلمـة (أى) التى ركبت مع كاف التشبيه تأتى للاستفهام، والاستفهام طلب إزالة إبهام لقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [المرسلات: ٥٠] وتأتى مـوصولة، والموصول يلفـه الإبهام والصلة هى التى تزيل إبهامه، وتأتى كلمة «أى» وصلة لنـداء ما فيه الألف واللام مثل يا أيها الرجل، وذكـروا أن هذا من باب البيان بعـد الإبهام، لأن المحلَّى بأل، أزال إبهام أى، وتأتى صفة لـلنكرة فتفيد معنى الكمـال كقولنا رأيت رجلا أى رجل، وإنما كان الكمـال لقوة الإبهـام وكأنه مبـهم أمره فى معـانى الرجولة، وكل هذا يؤكد أن الإبهـام الساكن فى كلمة «أى» إبهـام قوى ولم يبرحـها لما ركبت مع كاف التشبية لأن المـعانى الساكنة فى الكلمات تظل مع التركيب وإن استعـملت الكلمة فى غير هذا المعنى، فكلمـة الأسد يسكنها الحيـوان المفترس وإن استعملت فى الرجل الشجاع، وهذا واضح، ولهذا الإبهام احتاجت كلمة كأين إلى تمييـز، والتمييز يكون لإزالة الإبهـام، وهى مثل كم فى هذا لأن كم تحتاج إلى تمييز، وفرق بين التمييـزين لأن تمييز كأين مجرور بمن وذكر بعضهم أنه لازم للجر بمن، ومنْ هذه تفـيد معنى الاسـتغراق، والاسـتقصاء، فـقوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ تفيد كلمة من استقصاء القرى التى أهلكها الله وهى ظالمة، وأنها كثيـرة، وأن الحق سبحانه لم يَدَعْ قرية ظالمة إلا أهلكها، وتمييزكم الخـبرية الأكثر فيه أن يكون مجـرورا من غير ذكر لفظ من، وإن كـانت مقـدرة وقد تظهـر، وقد يأتى مـنصوبا عند تميم، كـما فى قـول الفرزدق كم عمـة لك يا جرير على رواية نصب عمـة وهذا الفارق فى أحوال إعراب التمييز لا يخلو من دلالة، وربمـا أشعر بأن الإبهام فى كأين أشد ولك أن تتلمس فرقـا فى الآيات التى جاءت فـيها كم وكـأين وهو فرق دقـيق جدا ومحدود ولكنـه فرق، وهو أن القُرى التى جاءت مع كأيـن وصفت بأوصاف موجبـة للهلاك، وموجبـة للغضب، وحظها من هذه الأوصاف أكـثر من حظ

القـرى التى جاءت مع «كم» فـهى ظالمة كمـا فى آيتى الحج ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ وموصوفة بالعتو، وهو المبالغة فى العناد والغطرسة كما فى الطلاق ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾، وموصوفة بالشدة كما فى الآية التى معنا وهذا مضطرد فى ذكر هلاك القرى مـع كلمة ﴿كَأَيِّن﴾ وليس مـضطردا فى ذكر هلاك القـرى مع ﴿كَمْ﴾ فـقد جـاء فى قـوله تعـالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ [الأنبـياء: ١١]، وغـاب فى قوله تعـالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ وجـاء وصف آخـر فى قـوله تعـالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ [القصص: ٥٨] وبطر المعـيشة أقل من الوصف بالظلم والعـتوة. والبطر كمـا قال الراغب دهش يعتـرى الإنسان من سوء احـتمال النعـمة وقلة القيام بحقها وصرفها إلى غيـر وجهها، وهذا غير الظلم والعتو والشدة، وكل هذا ينتهى إلى أن «وكأين» غير«كم» وإن فـسرناها بها وأن قوة الإبهام فى كأين جعل سياقها أملأ بالغضب.

قوله تعالى: ﴿هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ هذه الجملة صـفة لقرية وكلمة «هى» مـبتدأ و«أشد قوة» خـبر و«التى أخرجتك» صـفة لقريتك والإضافـة فى قولـه سبحـانه ﴿قَرْيَتِكَ﴾ فيـها تنبـيه إلى العـسف والظلم، والتشنيع، الـذى يكون تحت كلمة «أخرجـتك» لأنهم أخرجـوك من قريتك، وأرض آبائك؛ وأنت سيـد من ساداتها؛ وجدك عـبد المطلب هو الذى أطعم الناس والطير، وجدُّك هاشم سـيد بنى عبد مناف، ومـثلك لا يخرج. ولهذا المعنى الذى فى إضافة القـرية إليه عليه السلام قال صلوات الله وسـلامه عليه لورقة ابن نوفل لما قال له «ليتنى كنت حيّـاً إذ يخرجك قومك» فقال المصطفى منكرا هذا «أوَ مُـخْـرِجِيّ هم» وقـد جـاء اللفظ نفـسـه فى قـوله تعـالى ﴿الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ وكان عليه السلام محبا لقومه، ولم يكن فى مكة بيت إلا لرسول الله فيه رحم، وكل هذا ساكن فى الإضافة وساكن فى بشاعة الصلة ﴿أَخْرَجَتْكَ﴾.

وكلمة ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ التى هى تمييز «كأين» دالة على كثرة القرى التى هى أشد قوة من مكة، وهى قرى لا تستطيع حصرها، لأنها لم تذكر كلها فى الكتاب العزيز، كما لم يذكر فى الكتاب كل رسل الله ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨] وقد ذكر القرآن عادا الذين قالوا: من أشد منا قوة، وثمودا التى كذبت بطغواها وفرعون ذو الأوتاد و﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ⑦ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ﴾ [الفجر: ٧، ٨] ، وكل هؤلاء أشد من أهل مكة قوة، وهذه القوة المادية شىء والقوة الروحية لأهل مكة شىء آخر، وأعنى بالقوة الروحية ما كان لقريش من مكانة فى نفوس العرب، لأنهم أهل حرم الله، ولهم حرمة من حرمة هذا الحرم، وكان العرب فى الجاهلية يعرفون لهم هذه الحرمة، بل كانوا يُنسبُون إلى الحرم ويقال للرجل حرمىّ وللمرأة حرمية، ثم إن قريته هذه هى أول من تلقى نذير الخالق لخلقه فأمر أولا بأن يُنذر عشيرته الأقربين، ثم أم القرى ومن حولها؛ ولم يذهب هذا سُدًى ولم يضيّعه عناد جبابرة قريش، وإنما كان من قريته هذه ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ⑩ أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ⑪ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ⑫ ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ ⑬ وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ١٠-١٤] وكان منهم المهاجرون الذين هم أفضل أهل الأرض.

وكانت هناك بؤر من الضياء تضىء فى أرجاء قريته التى أخرجته مع ما كان يلفها من ظلم وغبن وجور وضلال ووثنيَّة، من بؤر الضوء هذه ما تحالف عليه جماعة من كرام قريته ونبلائها فيما سمى حلف الفضول لما وجدوا أن ظلامات تقع على أرضهم سواء كان المظلومون من أهل مكة من أحرارها أو عبيدها، أو كانوا من القاصدين إلى البيت، وأن بعض ضلال مكة كانوا لا يتورَّعُون من الظلم فتحالفت بطون من كرام أعراق قريش بمكة على ألا يوجد فى مكة مظلوم إلا وقفوا معه، وكان هذا قبل البعثة وقال فيه عليه السلام لو دعيت إليه فى الإسلام لأجَبْت وشعوبنا فى حاجة شديدة إلى حلف الفضول هذا لتواجه هذه الشعوب المقموعة الظلم الذى أظلمت به البلاد.

وإسناد الإخراج إلى القـرية مجاز عن إسناد الإخراج إلى أهلهـا وقد جاء الإخراج إلى أهلها مُـصرَّحا به فى كلام ورقـة وفى كلام رسول الله ﷺ: «أو مخرجى هم» كما جـاء فى قوله تعالى: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التوبة: ٤٠] وإنما أسند الإخراج إلى القرية لإفادة العموم كـما تقـول خرجت المديـنة وكمـا قال تعـالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ [العلق: ١٧] والواقع أنه كـان فى مكة من الذين لم يؤمنوا فـريق لم يُخْرِج رسـول الله ﷺ لأنه كان فى منعـة من قومه ولم يخـرجوا أبا بكر لأنه كان من سادة قـومه، ولكن هؤلاء الذين لم يسلموا وسالموا لم يكفوا أيدى الذين أخرجوا من أسلم فصـاروا فى حكم الذين أخرجوهم، ومن يستطـيع أن يكف الظالم ولم يكفه فقد ظلم ومن يستطيع أن يمنع القمـع والسلب والنهب، ولم يمنعه فقد شارك فى القمع والسلب والنهب، والإسـلام يحرض المسلمين على مواجهـة الفساد والباطل، والسورة سورة قتال، ولو أن كل مسلم اكتفى بصلاته وصيامه وقعد فى بيته وهو يرى الصادين عن سبيل الله والمهاجمين لأرض الإسلام لضاعت البلاد. المشكلة أننا نعتقد أننا إذا لم نشـارك فى الظلم فقد برئت ساحتنا وهذا الموقف السلبى موقف خاطئ لأن الدين يصنع إنسانا مؤمنا بالحق ومدافعا أيضا عنه، ولولا هذا ما أوْجب الله علينا الجهاد، ولاكـتفى منا بالعبادة والذكر فى المحاريب كما يطالبنا بذلك صناع البـاطل والفساد، والسلب والنهب والقمع، وإذا لم تَمُـدّ معنى الآيةِ إلى الزمن الذى تعـيشـه تكون قد حـصرت الـقرآن وأبعدته عن الزمن الذى تعـيشه وهذه خطيئـة، لأنه نزل إلى كل زمان، وترى الآيات حين تضعـها على أحداث زمنك كـأنها نزلت فيـها ونزلت لها ويفـسر علماؤنا وصف القرية بأنها أشد قوة من قريتك بأن المعنى أن القادر على إهلاك الأشـد قادر على إهلاك الذى هو دون الأشـد؛ وقـد قال بهـذا من هم أوسع علما منا واللفظ يحتـمله، وإن كنت أرى أن من آمن بالله ليس فى حاجة إلى هذا القياس لأنه من إيمانه أن الله على كل شىء قديـر وأنه إذا أراد شيئا قال له كن فيكون، فليست قدرة الله على إهلاك أهل مكة مـحتاجة إلى دليل، ثم إن

الكفار أنفسـهم يعلمون ذلك لأنك لو سألتهم من خلقـهم ليقولن الله، ولئن سألتهم من خلق السـموات والأرض ليقولن الله، ومن يعتقـد أن الله خالقه وأنه خـالق السمـوات والأرض لا يحتـاج إلى دليل على قـدرته على إهلاك قرية، ولما استـقر هذا فى نفسى بحثت عن وجه لوصف الـقرية التى أهلكها الله بأنهـا أشد، وتوقفت كـثيـرا فى البحث عن هذا الوجـه ثم بدا لى أمران الأول: أن الله سبحانه وتعـالى يوجه هذا الإنذار ليس إلى أهل مكة وحدهم وإنما إلى كل من طغى وظلم، وتجبر واغـتر بقوته، والله سبحـانه يقول لهذه الفئة الظالمة إن قوتكم لن تكف عنكم أخذ الله لكم، وأن الله يمهلكم ولا يهملكم وأن الفساد فى الأرض ليس له إلا عـاقبة واحدة، وهى التدمـير، وقد يطول زمن الفساد وقد يطول الغرور، وقد يظن المفترون أنهم قادرون عليها حتى إذا جاءهم أمرنا جعلناها حصيدا، هذا وجه.

والوجـه الآخر وهو الأهم أننا نلاحظ أن القـرآن الكريم وصف كل الأمم التى أخذها الله بسـبب عنادها للحق الذى أنزل، وأن هذه الأوصاف لم تكن مقـصورة على القـوة، وإنما وصف كل أمة بما بَرَعَتْ فـيه: فعـاد لم توصف بالقوة فحـسب ولكنها مع ذلك وصفتْ بالتـفوق فى استثـمار الأرض، وأنها ذات جنات وعيون وزروع، ومقام كريم، وأن ثمـود جابوا الصخر ونحتوا من الجبـال بيوتا فارهين، وهذه إشـارات إلى حضـارة صناعية لأن نحت الجـبال يجعلنا نتساءل عن الآلات التى كـانت تنحت من الجبال بيوتا، ولم تكن هذه البيوت كهوفا لأن القرآن وصفها بأنها فارهة، يعنى بيوتا عليها سَمْت الحضارة والثراء، وأنها غرف ذات نظام، وأن فيها ما تتطلبـه الحياة الإنسانية الراقية كما وصف أمة فرعون بأنها أمـة بناء وأنها ذات أوتاد، وهكذا لو راجعت الكتاب العزيز لرأيت الخطوط العـريضة التى جعلها القرآن دالة على حـضارات قديمة بائدة، ولوجدت فى الكتاب العزيز مدوَّنة صـادقة لهذه الحضارات، ومع ذلك أخذها ربنا وأهلكهـا؛ لأن التقدم المادى والحضارى بالغـا ما بلغ إذا خلى من المعنى الأخلاقى، والإنسانى فهو صائر إلى الدَّمار، لا محالة، وأفهم الصدَّ عن

سبيل الله وردّ دين الله أنه رفض للقيم الأخلاقية، والقيم الإنسانية ومعانى الرحمة، والعدل، والمساواة والصدق، وطهارة النفس، ورفض الغش، والتدليس، والكذب، والسلب والنهب لأن الدين قسمان: قسم منه يكون فى دائرة إعداد الفرد إعداداً إنسانيا صادقا وإعدادا وطنيا صالحا فلا يكذب ولا يغش ولا يمد يده إلى فساد، والقسم الآخر تراه فى الجماعة فيقام فيها الحق والعدل والمساواة واحترام الحقوق والأموال والأعراض والعناية بالعلم وإعداد القوة والمنعة، وهذه هى الخطوط العامة للدين ومن رفض هذا فهو مضاد لإنسانية الإنسان؛ والقرآن الكريم يبين لنا حين يذكر أحوال الأمم التى استأصلها عذاب الله لمعارضتها لرسله يقول لنا إن أى تفوق فى الثراء والصناعة والعلم على هذه الأرض يخلو من القيمة الإنسانية لن يعيش عليها طويلا لأن المعارضة للمعانى الإنسانية والمعارضة للحق والعدل يُفضى بهذه الحضارات وبقوتها إلى تخريب الأرض وليس إلى عمارة الأرض؛ لأن الأرض تعمر بالتقدم وبالعدل وبالبر وبالحق وهذا هو وجه حديث القرآن عن الأمم البائدة، والله أعلم.

وقوله تعالى ﴿فَلا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ متفرع ومرتب على قوله أهلكناهم وترتيب نفى الناصر على الهلاك ترتيب ظاهر كما تقول أفحمه فلم ينطق وأقعده فلم ينهض، وكما فى قوله تعالى ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩] والذى بعد الفاء فى هذه الجمل مرتب على ما قبلها ومؤكد له، وقد لحظ علماؤنا المدققون فى دلالات الصيغ أن اسم الفاعل فى قوله ﴿فَلا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ يفيد الحال والاستقبال يعنى لا ناصر لهم اليوم ولا غدا مع أن الله أهلكهم منذ زمن وهذا يعنى التدافع فى معنى المعطوف والمعطوف عليه ولهم إجابات بالغة الدقة والوعى.

أعلاها ما قاله الزمخشرى العرّاف بأساليب اللسان قال إن اسم الفاعل حكاية لحال قد مضت وأراد أن المعنى أهلكهم فلم ينصروا وإنما عبر بناصر الدال على الحال ليحكى هذا الماضى ويجعله كأنه حال وهذا جيد جداً، ووقع الشهاب الخفاجى على هذا المعنى وأضاءه بمثال هو قوله تعالى ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ

﴿لا يُنْصَرُونَ﴾ لأن قوله «لا يـنـصرون» دال على الحال والاستـقبال ومتـفرع على الماضى الذى هو أغشيناهم والمراد حكاية حـال هذا الفعل الماضى وهذا جيد ومن المفيد أن نتعلم كيف نفكر فى دلالات الكلمات والصيغ وقال الطاهر وهو أشبهنا بكرام علمائنا إن لا النافية للجنس جردت صيغة ناصر من معنى الزمن وخلصتها لمعنى الإسمية، وكل هذا جيد، وأريد أن أضيف معنى وأنا حذر وأرجو ألا أُدخل على كـلام الله مـا لا يدل عليـه، ويعلم الله أنى حين أضـيف مـا أراه لا يكون قصدى إلا أن أثير غيرى حتى ينفذ إلى ما لم أنفذ إليه، والذى أراه هنا أن اجتماع الماضى والحال والمستقـبل فى هذا التركيب ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ فيه إشارة إلى أن التـحذير والتـخويف من انتـقام الـله من المحادين لدينه فى أرضـه ليس محصورا على إهلاك الأمم التى بادت وانتهت، وإنما هو قائم فى الحال، ومستمر فى الاستقبال وأن أى قرية تبغى وتظلم وتفـسد فى الأرض لها المصير نفسه الذى لحق هذه القرى، والـقرية هنا إشارة إلى الشـعب أو الأمة، أو الحـضارة، والتى بَغَتْ فى الأمس هلكت والتى تبغى الآن يترصَّدها أخذ ربك، وكذلك التى تبغى فى الزمن المقبل، والتى هلكت لا ناصـر لها والتى يترصدها أخـذ ربك لا ناصر لها، وكل قـوة تناهض العدل والبـر والرحمة والروح الإنسـانية التى هى عـماد الدين والتى عبر عنها المصطفى بقوله «إنما بعثـت لأتمم مكارم الأخلاق» مستعملا أسلوب الحـصر أى مـا بعثت إلا لأتمم مكارم الأخـلاق، أقول كل قـوة تناهض العدل والحق والبـر والخير فى أرض الله فلن تعيش ومـهما طال بها الزمـن فهو طول إمهال وليس طول إهمال، وليعلم أهل هذه الأرض أن البغى والظلم والجور أول مســمار يدق فى نعوش حضـارتهم، وفى نعوش أنظمتـهم وأن قوتهم التى تنصرهم على الشعوب والأمم لن تنصرهم من الله. وأن لله جنودا لا يعلمها إلا هو، وقد أهلك أمما بالريـح الصرصر العاتيـة ولا تزال هذه الريح تناوش أطراف أمم قوية كـالعواصف التى تكتسح مـدنا وتقف القوة الجبـارة عاجزة عجـزا تاما وكالسـيول التى تـهدد شعـوبا ثم تقف القـوة بكل غطرستـها وهى عـاجزة عن المواجهة وكل هذا داخل فى قوله سبحانه ﴿فَلا نَاصِرَ لَهُمْ﴾.

قوله سبحانه ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٤].

هذه الآية متضمنة لكل ما سبق فى السورة، من أول قوله تعالى ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لأن قوله تعالى ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾. شامل للذين كفروا وصدوا عن سبيل الله، والذين اتبعوا الباطل، والذين كفروا فتعسا لهم، والذين كرهوا ما أنزل الله، والذين دمّر الله عليهم، والذين لا مولى لهم، والذين يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام، إلى آخره، كما تجد الذين على بينة من ربهم شاملا للطائفة المقابلة والسورة بنيت على المقابلة بين هذين الفريقين. وكأنها حبل مكون من طاقتين والذين على بينة من ربهم هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم، والذين قتلوا فى سبيل الله، والذين ينصرون الله وهو مولاهم وأدخلهم الجنة عرفها لهم وهداهم وأصلح بالهم، وهذا ظاهر، وكأن هذه الآية جاءت لتمسك بكل ما مضى فى السورة وتهيئ للحديث عن مثل الجنة وللحديث عن الخالدين فى النار يسقون من ماء حميم قطع أمعاءهم، وما بعد ذلك من أحوال الفريقين، وهذا ضرب من التماسك والربط بين أجزاء السورة وبيان لوحدتها وهيأتها وعمودها وسمت بنائها، وراجع هذه المقابلة الظاهرة فى السورة وكأن الكلام فيها يتناقل بين فرقتين أو صفين متقابلين فى ساحة القتال.

وبناء الآية اللغوى يعرض استيعاب الآية لكل ما فى السورة من الذى سبق عرضا بالغ الدقة وبالغ التصوير، وأصل هذا البناء الفذ هو همزة الاستفهام الداخلة على الفاء فى قوله سبحانه ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ وما يقابله من الموصول الثانى، وهمزة الاستفهام تنكر التسوية بين هذين الموصولين الجامعين لما قضى، ونقول لا يسوى بينهما إلا من فقد التمييز ودخل فى غيب

غيـر المعقـول، أو دخل فى التلبـيس والتدليس، والإنكار مـعناه النفى والمراد ليس من كان على بينة من ربه كـمن زين له سوء عمله، ولكن صـياغة الآية عدلت عن هذا الإخبـار الذى يأتى النفس من خارجها إلى طريق الاستـفهام الذى يولد هذا المعنى من داخل النفـس، والمسؤول إذا كان علـى أى قدر من الوعى والإنصاف ورجع إلى نفـسه وفكر فى المعنى لا يتصور أن يجـيب بغير النفى، وأن يقول هو ليس من هو على بينة من ربه كـمن زين له سوء عمله، وهذا شىء آخـر وطريق آخـر فى الخطاب يُلزم من نخـاطبـه بالجـواب الذى تريده، وهذا من أنبل أساليب العـربية، ثم إننا حين نقول إن هذا الاستـفهام للإنكار إنما نتسامح لأن محض المعنى كما قـال الشيخ عبد القاهر هو أن يتنبه السامع وأن يسـتيـقظ وأن يُعمل تنبهـه ويقظته فى المعنى ثم يجـيب أو يعيـيه الجواب، ودخـول الهمزة على الفـاء أفاد أن هذه الفـاء قد سبـقت بمحذوف يترتب عليـه ما بعدها، وأن الـهمزة داخلة فى الحـقيقـة على هذا المحذوف، وهذا المحذوف لا تستطيع تقديره على وجـه قاطع، وإنما نقدره على وجه من المساهلة والمسامـحة، ويحتاج من الدارس أن ينظر ببصيـرة إلى السياق والمقام وأن يدقق فى معنـى ما بعد الفـاء ليستطيع أن يـتصيَّـد المحذوف الذى يرتب عليه، ومـا بعد الفاء تنكر أن يتسـاوى من يقوم موقفـه على البرهان والدليل والتفكير الواعـى المنظم، ومن يتبع هواه وزين له السوء فصـار السوء حسنا، والمساواة بينهما دمار للحياة الإنسانية وإنكار التساوى بينهما من بدائة المعقول، والضابط لحياة البشر على هذا الكوكب هو العقل، والمنطق، وهو المدلول عليه فى الآية بالبـينة لأن البـينة هى الحـجة الظاهـرة والخضـوع للحكمـة والمنطق والصواب، وهذا هو الشىء الـذى يتميـز به الإنسان أو هو إنسانيـة الإنسان، فإذا انهدم هذا فى حياة الناس وتساوت البينة مع الأهواء والغرائز، صار قانون الغاب هو سيـد الموقف، وليس الذى أقوله فى شرح الآية بعـيدا عنها، وإنما تعودنا اختزال المعانى واختصـارها، والآن حان وقت تفصيلها لأن الجيل الذى

نكتب له محـتاج إلى هذا، وهذا المفهوم لما بعـد الفاء مترتب علـى محذوف قبلها لابد أن يكون مناسـبا لترتب ما بعدها عليـه، ولك أن تقول فى تقديره هل التبـست الأوليات والبدهـيات على عقـول الناس فصاروا لا يفـرقون بين المنطق والهوى؟ هل ضاع الوعى، وضـاعت الحكمة، وصار من هو على بينة كمن زين له سوء عمله، وكأن الآية تحذر من أن تأتى اللحظة التى يُغَيَّب فيها العقل وتَغَـيّبُ فيها قيـادته للحياة الإنسـانية ويطلق العنان فى الأرض للأهواء والغـرائز، وياويل الإنسان من هذه اللحـظة، وقد تأتى هذه اللحظة مـغشـاة بأغـشية مـن التضليل، فـقد يُسـمى إغمـاض العين عن الحق بابا من أبواب الحكمة، ومحافظة علـى الاستقرار كما ترى حولك، وقـد ترى أن ما يوجبه الضمـير بابا من أبواب التـهور، وأن قبـول القمع والاستـبداد ونهب ثروات الشعوب من موجبـات المحافظة على أمن البلاد، وأن الخروج على ولى الأمر حرام ولو كان لصا وحوله عصابة من الخونة، وقوله تعالى﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ تقدم فى الآية لشـرفه وتقدمه، وكلمة «كـان» التى جاءت فى الصلة تفيـد معنى جليلا وهو أن البينة والحـجة والدليل والانقياد لهـا جزء من ذات نفسه وطـبعه لأن كان فى مثـل هذا تفيد أن خبـرها جزء من ماهية اسـمها، والبـينة فى معـجم الكتـاب العزيز تسـمى سلطانا يعنى يجب الخـضوع لهـا والانقـياد لهـا، والسلطان يجب أن يخـضع كل الناس له مـا دام قائمـا على الحق، والعـدل، وإذا كانت البـينة سلـطانا يجـب الخضوع له فـالسلطان أيضا لا يكون سلطانا إلا ببـيِّنة يقوم عليهـا وإلا بحجة من الحق والعـدل تسانده، والسلطان الذى لا يقوم على الحق والعدل لايجوز الخـضوع له، لأن الخضوع له خضوع للظلم، والقمع، والسلب، والنهب، ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، والبينة التى من ربنـا هى آيات الله فينا ونحن على بينة من ربنا وهى كتـابه وسنة نبيه ﷺ، والبـينة التى من ربنا بينة معجـزة قاهرة، لا تكون من غـيـره سبـحـانه ولا تـوجـد بينة أبْهر وأقـهر مـن بينة لا تكون إلا من الله،

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [يونس: ٣٧] أى لا يمكن أن يفترى لاستحالة أن يفترى لأنه أمـر إلهى لا يكون من غيره سبحانه، ومجىء هذا القـيد ﴿مِّن رَّبِّهِ﴾ أضاف للجـملة معنى جـليلا جدا وأن هذه البـينة هى الأمر المعـجز، ولو جاءت الآية بدون هـذا القيد لكانت البـينة بمعنى الدليل، ولكانت أخت البينة فى قوله عليه الـسلام «البينة على من ادعى واليمين على من أنكر» ولاختلف المعنى وضَعُفَت دلالة الإنكار.

وقوله تعالى: ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾.

هذا هو المعادل للذى على بينة، وراجع التدقـيق فى تصوير النموذجين كى تبرز لك الفروق الهائلة التى لا تستطيع دفعها ولا تلبيسها، قال هناك كان فأفاد ما قلنـا وقال من ربه فأفـاد ما قلناه وذكـر لفظ ربه ليفـيد أنه يحفـظه ويرعاه ويؤيده بالحجة والبرهان، وقال هنا ﴿زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ فأشار إلى إبطال عقله حـتى أن تزيين الباطل والـسوء لم يكن منه وإنمـا زينه له من زيّنه، وضع هذا بإزاء ﴿كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ وأن طبـعه ومـاهيتـه ملتبس بالبـينة ولا يكون هذا إلا بإعمال العقل بأقصى طاقاته حتى يدرك البرهان والبينة وحتى يدرك أنه برهان، ليس كـبـراهين الناس وإنما هو برهـان من ربه ولا يكون إلا منه، لأنه خـارق للعادة، ثم قال هنا ﴿سُوءُ عَمَلِهِ﴾ والفطرة الإنسانيـة فى أول درجاتها تدرك الحسن والسيئ، وقد تقع فى السيئ وهى تعلم أنه سـيئ؛ وبَعيدٌ جداً أن يعمل الإنســانُ السيئ وهو لا يدرك أنه سـيئ فـضلا عن أن يزين له الـسـيئ، فيـراه حسـنًا، هذا اختـلال بالغ فى الفطرة. والمطلوب ترديد النظر فى النمـوذجين، وجاءا بصـورة المفرد ليـتحقق الناظـر وليدقق لأن أمامـه شخص واحـد يُمثّل النموذج الأول وشخص واحد يمثل النمـوذج الثانى؛ الأول الشأن فيه أن يمضى فى سلوكه وحيـاته على بيّنة، وكلمة على تفيد أنه مـتمكن من هذه البينة واع بهـا، ومتـمسك بهـا، وعاض عليـها، ليـس للعشـوائية مكان فى سلوكـه،

ومزاولاته، وهذا على العكس من ذلك، لأنه تجاوز السلوك الإجرامى لأن المجرم المزاول للإجرام يعلم أنه يزاول عملا سيئًا، وهذا أوغل وتجاوز هذه المرحلة وزاول العمل السيئ وهو يحسب أنه يحســن، لأن السيئ زين له، الآية على اختصارها تختزن من المعانى ما لا يدخل فى مُئن البشر كـما كان يقول الشيخ عبد القاهر، وجملة «واتّبعـوا أهواءهم» معطوفة على جملة زين له سـوء عمله، والأول جاء مفردًا مراعيًا للفظ «أفمن» والثانى جاء جمعا مراعيًا لمعناها، وهذا لا يكفى وإنما الذى يكفى أن تقـول لما جاء هذا مراعـيًا للفظ مَنْ، وجـاء هذا مراعيًـا لمعناها؟ والذى أراه أن أسوأ الأسـوأ هو من زين له سوء عمله لأنـه ليس هناك درك بعد الدرك الذى عليه من يرى الأسوأ حسنًا، ولو أردت شرح هذا أكثر فقل هو الذى يرى الكذب حـسنًا، ويرى النفـاق حـسنًا، ويرى السلب والنهب حـسنًا، ويرى التـسلط حـسنًا، ويباشـر كل هذه المنكرات بمُـتَعَـةِ من زُيِّنَتْ له. يعنى أخـذت المنكرات والكبائر البشعة زينتها له فزاولها بمتعة، وهو المقابل لهذا الذى هو ممسك بالبـينة من ربه يزاول الصدق والعـدل والبـر والحق ويأمَن ويُؤْمَن ويألَفُ ويؤلف ووضع هذين الفردين مفردين متقابلين أدعى إلى إدراك التباين الشاسع بينهما.

ومما يحسن التنبيه إليه أننا نعيش تحت مظلة الأسوأ المزيّن: فالقمع هو الأسوأ ومزين بالحرص على الاستقرار، وخَرْس الألسنة هو الأسوأ ومزين بالحرص على عدم الاسـتفزاز، وسـرقة مـقدرات الشعـوب هو الأسوأ ومزيـن بالحرص على الاسـتثمـار، ولا نجد أخَسَّ من الذين يمارسـون هذا إلا العبـيد المنافـقين الذين يدافعون عن هذا، ويؤكدون أن قطع الألسنة ضـرورى لسلامة الأمن، وأن القمع والاعتقالات العشوائية والهمجـية ضرورة لاستباق تكوين الخلايا الإرهابية، فإذا كان المسؤولون زين لهم سوء عملهم فإن عبيدهم من الكُتَّاب يزيدون سوء العمل المزين تزيينًا، ويبـررون من فـعل الفجـرة، مـا تشيب له الولدان، وإذا صَـرَخ الأحْرارُ قالوا لهم هذا الصراخ دليل على أنكم فى حرية لأنه كان يمكن أن تكتم أنفاسكم أيضًا فاحمدوا الله على مساحة الحرية التى تمكنكم من الصراخ. وكنت أسمع هذا بأذنى من الكتاب وكوادر التثقيف وغيرهم ممن ولدتهم أم سوء.

الآية الكريمة وضعت خير البرية فى مواجهة شر البرية وسألت هل يستويان.

أما الجمع فى قوله تعالى ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ فالوجه والله أعلم أن غلبة الهوى على النفس أكثر شيوعًا وأكثر تابعًا، وربما كان له نفر من أهل الإيمان فناسب الجماعة، ويلاحظ أن الآية الكريمة وإن كان سياقها يفيد أنها تنفى المساواة بين المؤمن الذى هو على بيِّنَة والكافر الذى زين له سوء عمله واتبع هواه فإن لفظها يتحدث على الذى على بينة من غير تحديد معتقده، والذى زين له سوء عمله واتبع هواه من غير تحديد معتقده، ، والآية حين تراها من هذا الجانب تراها حاثة وحاضَّة على البحث عن البينة والتمسك بها، والحث على البينة يعنى التعقل والتفكر والتذكر والتدبر الذى طالما دعانا الكتاب إليه، وأن يكون هذا التفكر والتدبر والمدارسة فى شأنك كله، فلا تخطو قدمك خطوة إلا وقد سبق عقلك بدراستها، ومراجعتها، ومعرفة أولها، وآخرها، وتكاليفها، ونتائجها وهذه هى حياة العقلاء الحكماء المستنيرين، والذين يرون بعيونهم التى لا تكذبهم، ويفكرون بعقولهم التى لا تخدعهم، ويرون الحسن حسنا، ويتبعونه، ويرون السيئ سيئًا ويجتنبونه، وهذا بخلاف الذى يخلع نفسه من هذا كله فلا يتدبر ولا يتذكر ولا يعقل وإنما هو شخصية عشوائية فى السلوك والأخلاق، والممارسات، وأن إهماله لعقله وفكره أصابه بالاختلال؛ فرأى الخير شراً والشر خيرًا، والحسن قبيحًا، والقبيح حسنًا، أقول الآية من حيث الدلالة اللغوية تتناول هذين الصنفين من غير إشارة إلى الاعتقاد وأنك يمكن أن ترى الذى زين له سوء علمه من أهل الإسلام، وقد ذكرت أن هذا النمط الأسوأ اليوم يكثر فى الصفوف الأولى المؤمنة بقمع الشعوب، وترهيبهم وتخويفهم، وقطع ألسنتهم، إلى آخره، وقد نجد النمط الأول من غير أهل الإيمان، ولكن هذا أقل من القليل لأن محب البينة وعاشق الدليل والممسك بالبرهان لا يستطيع إلا أن يشهد بالشهادتين، لأن الدليل يقود إليهما من غير حذلقة، والبرهان قائم عليهما، والبيِّنة فيهما لا تلتبس، ثم إننى لم أعرف مرحلة من مراحل الضلال، وراء الذين زين لهم سوء أعمالهم، وقد وصفتهم سورة الكهف بالأخسرين

الذين بلغوا ذروة الخسران وذلك فى قوله تعالى ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف: ١٠٤] وضلال السعى مع حسبان أنه إحسان هو تزيين سوء العمل، أما اتباع الهوى فوراءه منادح من الباطل وأعلى أحوال اتباع الهوى ووصولها إلى ذروة الباطل هو اتخاذ الهوى إلها يعنى الانتقال من اتباع الهوى إلى عبادة الهوى، وقد تكرر هذا كثيرا فى الكتاب ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾ [الفرقان: ٤٣] ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ﴾ [الجاثية: ٢٣] وهذا مما يرجح تقديم من زين له سوء عمله ومجيئه مفردا وتأخير واتبعوا أهواءهم ومجيئها جماعة والله أعلم.

قوله تعالى ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٥] قلت إن آية ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ متضمنة لكل ما سبق فى السورة وبينت ذلك وأقول الآن إنها نهاية القسم الذى كان جذره ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وما سبق هذه الآية كان تقدمة لها، وما جاء بعدها كان من تفريعاتها وجاءت آية ﴿ أَفَمَن كَانَ ﴾ نهاية فصل من فصول السورة والذى سيأتى بعد هذا أطوله الآية التى سندرسها وهى تفصيل لثواب الصالحين، واختصار لجزاء المخالفين، ثم ينتقل الحديث إلى أحوال المعاندين، وأحوال المنافقين، ولاشك أن هذا كله بعضه من بعض، ولكن التدقيق فى المعانى يدل على تنوعها وتنوع أطيافها، وإنْ جَمَعَها جامعٌ كلى هو موضوع السورة، فتفصيل ما فى الجنة وأنها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من عسل مصفًّى، وإن كان شديد الارتباط بآية ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ فإن التدقيق بين أنها غيره لأن

الأولى خبر ووعد من الله بأنه يدخل الصالحين الجنة، وهذا حديث عن الذى فى الجنة، وهذه الفروق الخفية هى التى نبحث عنها وهى التى نعوِّل عليها حين نقول إن الكلام انتقل وأن قسما من أقسام السورة ختم بآية كذا.

ثم إننا نلاحظ شيئًا قد كررنا ذكره فى هذه السورة، وفى غيرها وهو أن الكتاب العزيز يذكر آية تفيد معنى فائدة تامة، ثم يذكر آية أخرى تفيد معنى آخر فائدة تامة، ثم يذكر ثالثة تفيد معنى شديد الصلة بالآية الأولى، ثم يذكر آية رابعة تفيد معنى فائدة تامَّة ولكنها شديدة الصلة بالآية الثانية، وهكذا، وربما ذكر آيتين يتم المعنى بهما، ثم ينتقل إلى معنى آخر يبعد قليلا عنهما وربما يقابلهما، ثم يعود إلى المعنى الذى سبق، وهكذا، وتوضيح ذلك أنك ترى آية «مثل الجنة» وإن كانت شديدة الارتباط بذكر الجنة فى قوله تعالى﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ﴾ قد فصل بينهما آيتان، آية ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ وآية ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ وكذلك تلاحظ أن آية ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ شديدة التعلق بآية ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ وفَصَلَتْ بينهما آية ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ثم إن هذا التنوع فى بناء المعانى مع تخالفها تجد فيه روابط فى غاية القوة وقد أشَرْتُ إلى كثير من ذلك، فآية ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فتحت بابها جملة ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾التى هى من تمام ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ وآية ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ فَتَحَتْ بابها جملة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ وهكذا، وأقول إن هذا الأسلوب من أساليب البيان القرآنى محتاج إلى مزيد من الدراسة، ومحتاج أيضا إلى دراسة نظائره فى الشعر، ومحتاج أيضا إلى بيان تميزه المعجز عن نظيره فى الشعر، ثم هو محتاج إلى موازنة بينه وبين الخطب والرسائل لأن كثيرا من الخطب والرسائل تتناول المعنى وتستوفيه، ثم تنتقل إلى غيره، ولا تُداخل بين جزئيات المعانى هذا

التداخل، ولولا أننى أتهيَّب من ضرب المثل لبيان الكتاب العزيز لضربت المثل ولكننى أقول إن الصفحة من المصحف أو السورة من الكتاب تجد آياتها قد نُظمت نظما عجيبا، وأن اللآلئ الداخلة فى هذا النظم لم تترتب على وفق ألوانها فتجمع لآلئ كل لون مع بعضها، وإنما تترتب ألوانها فى مواقع غير منظور فيها إلى الألوان، وإنما ينظر فيها إلى الأطياف التى تحدث من تداخل هذه الألوان وتنوعها هذا ولله المثل الأعلى.

وآية مثل الجنة وإن كانت ممسكة بذكر الجنة الذى ورد مرتين قبلها تجدها أقرب إلى آية ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لأنه جاء فيها جنات تجرى من تحتها الأنهار، والذى هنا هو تفصيل الأنهار وأنها أنهار من كذا وكذا، وكأن كلمة الأنهار هناك كانت إشارة أو إرهاصا بهذه الآية، وهذا أيضا من عجيب البيان لأنك تجد لفظة تمر بك من غير أن تلفتك ثم تجد ما جاء بعدها مؤذنا بأنها كانت إشارة إليه، ثم إن هذه الآية التى قلت إنها تفتح فصلا جديدا من فصول السورة يمسك أولها بأول الآية قبلها وهو قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ ويمسك آخرها بآخر الآية قبلها لأن آخرها قوله تعالى: ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ وآخر الآية قبلها ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ وهذا أيضا من عجيب هذا البيان، ثم إنك تجد شبها بين هذه الآية والآية قبلها هذا الشبه هو حَذْوُ بناء الكلام، أو هو منْهاج بناء الكلام وأسلوبه، لأن أول هذه الآية همزة استفهام محذوفة؛ بدليل قوله كمن هو خالد فى النار، ولو قدرت المحذوف وقلت أمثل الجنة التى وعد المتقون كمن هو خالد فى النار لوجدت حذوا كحذو ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾، وإنما حذف حرف الاستفهام أو حرف الإنكار للذى قال الزمخشرى وهو زيادة تصوير لمكابرة من يسوِّى بين المتمسك بالبينة والتابع لهواه، وأنه بمنزلة من يُثْبِتُ التسوية بين الجنة التى تجرى فيها تلك الأنهار، وبين النار التى يُسقى أهلها الحميم، ونظيره قول القائل:

أفـــــــــــرحُ أن أرْزأ الـكـرامَ وأن   أورث ذَوْدًا شــــصـــائصًـــا نَبْــلا

هو كـلام منكر الفـرح برزية الكرام، ووراثة الذود مع تعـريته عن حـرف الإنكاره لانطوائه تحت حكم من قال أتفـرح بموت أخيك وبوراثة إبله، والذى طرح لأجله حـرف الإنكار إرادة أن يصور قبح مـا أُزَنُّ فكأنه قال نعـم مثلى يفرح بمرزأة الكرام وبأن يسـتبدل منهم ذودا يقل طائلـه وهو من التسليم الذى تحته كل إنكار، انتهى كلام الزمخشرى

وهو كلام شاهد للرجل على دقة نفوذه إلى أغمض أسرار الكلام، وإذا كان عبـد القاهر قد أطال الكلام فى ذكر مـعانى الاسـتفهام، وأن من أبرز معـانيه الإنكار فإنك ترى هذا النص يخطو خطوة مـتسعة وهى ليس بيـان سر الإنكار بحرف الاسـتفهـام، وإنما بيان سره إذا غـاب لفظه، وحضـر معناه، وهذا من المعانى التى لا أعرف أحدا حام حولها قبل محمود بن عمر رضوان الله عليه، ومـا أُزَنُّ به يعـنى مـا أتهم به، والذود بـضم الذال: الثـلاثة إلى الـعـشـرة والشصـائص قليلات اللبن، والنَّبل المسَان من الإبل، وقـوله وهو من التسليم الذى تحتـه كل إنكار من التذوق العالى وفـيه نفحـة من قول عبـد القاهر فى الحذف «تراك أنطق ما تكون إذا لم تنطـق وأتم ما تكون بيانا إذا لـم تبن»، وإنما هيأ لهذا المعنى وهذا البناء جملة «أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله» لأن الآيتين تنكران التـسوية بين أمرين لا يسوِّى بينهـما من له أقل قدر من التمييز، ونفى التـسوية فى الثانية أظهر لأنها وضَعَتْ محـسوسين متقابلين الأول صورة النعيم، والثـانى صورة الجحيم، وضعت أنهارا من مـاء لم يتغير طعمـه وأنهارا من عسل وأنهـارا من خمر وفى مـقابل هذا ماء الحـميم يقطع الأمعاء، ثم إن هذا امـتداد لنسق السورة القائم على المزاوجة بين مـتقابلين من أول ﴿ **الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾، وتقـارب السَّـمْت وتصـاقب الحـذْو ظاهر جـدا فى بناء هذه السورة، قال الطاهر فى تعليقه على مـثل الجنة وفيه اطراد أساليب السورة، إذ

افتتحت بالمقابلة بين الذين كفروا والذين آمنوا، وعقب باتباع الكافرين بالباطل واتباع المؤمنين الحق، وثلث بقوله أفمن كـان على بينة من ربه إلى آخر ما قال رحمه الله، وهذا التقارب فى حذو بناء الـكلام أراه يظهر ويخفى فى كثير من السور، وهو باب جدير بأن تتـواتر عليه بحوث كثيرة، والتـصاقب الذى ذكره أبو الفتح وذكر شـواهده من المفردات كان جديرا بأن يلفت إلـى التصاقب فى المبانى والتراكيب ومشكلتنا أننا لم نحاول أن نستـثمر إشارات كبار علمائنا لأننا ولينا وجوهنا فى جهة أخرى ونسأل الله صلاح الحال.

وهذه الآية التى تحدثنا عن نعم الله وإكـرامه للمتقين بنيت علـى بيان الأنهار التى أجـملت فى الآية السابقـة ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ﴾ وهى امتداد لها. وطـولها يشير إلى سعة الرحمـة وسعة العطاء، ومن عجيب ترتـيب الآيات وترتيب النسق أن الآية الفاصلة بينها وبين مـا هى امتداد لهـا، لا تعكّر على هذا الامتـداد، لأن هذه الآية الفـاصلة كمـا قلت نراها من وجه جامـعة لما سبقـها من السورة؛ لأن كل مـا سبق يدخل فى الذين هم على بينة والذين زُين لهم سـوء أعمالهم، ثم هى عنوان لهـذه الآية، ووُصْلة تمسك بآية ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ [الحج: ٢٣] وآية مثل الجنة، هـذه الوصلة هى قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ لأن الجنة وعد الله لهم، وأنهارها عطاء الله لهم، وهكذا نجد التدبر الذى أمرنا الله به يـفتح لنا أسرار بيـانه المعجز، ويلاحظ أن هذا هـو الموضع الثالث الذى ذكـرت فـيـه الجنة فى الـسـورة وقـد ذكـرت أوَّلا عـارية من الأوصـاف ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ ثم ذكرت ثانيـة وهى موصوفـة، بوصف واحد ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ ثم ذكرت هنا بهذه الجملـة العظيمة من الأوصاف، وهكذا ترى المعنى يُذكر مرّة بكلمة واحدة ثم ينمـو خطوة فيذكر بوصف واحد، ثم ينمو أكثر كما هو الحال هنا، وهذه المتابعات تهدى إلى كثير من الأسرار.

وكلمة ﴿الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ هو قوله تعالى فى الآية السابقة ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ وقد ذكروا فى هذه الآية بالإيمان وعمل الصالحات، وذكروا هنا بالمتقين، وفى هذا إشارة إلى الصدق والإخلاص فى الإيمان، وأن هذا الصدق والإخلاص يقود إلى عمل الصالحات، وأن عمل الصالحات يجب أن يكون مشوبًا بالرجاء والوجل والرغبة فى إحسانه وقبوله حتى يكون وقاية بين المؤمن الذى يعمل الصالحات وعذاب ربه، يعنى استحضار الجلال والمهابة والرجاء والخشية لأن هذه هى وسائل زرع التقوى، وكلمة التقوى من أهدى كلمات الله وأسخاها، وأخوفها وأرجاها، لأنها تعنى الإيمان بالبعث وبالثواب وبالعقاب، وبأن الله سبحانه يعلم ما تكن الصدور، وأن المؤمن الذاكر يذكر وهو وجل، ويسبح وهو وجل، ويعمل وهو وجل، ويرجو أن يكون وجله مصاحبًا لذكره، وصلاته، وصومه، وإنفاقه، ودرسه أيضًا، وتقلبه فى حياته كلها لأنه سيحاسب على كل قول وكل فعل وهو يرجو أن يكون عمله لبنات تقيم جدارا يقيه من عذاب ربه، وهذا شأن المؤمن العامل للصالحات، ولا تجد على الأرض مواطنًا أرْجى للخير منه، وأوفى منه، وأصدق منه، وأبعد عن الغش والكذب، والتدليس، إلى آخره، ولو راجعت هذه الكلمة وكتبت ما تطيف به ويطيف بها من معان لطال الكلام وهذا من أكرم أسرار بلاغة هذا البيان، ولو قلت إن المتقى هو الذى يخاف، من أن لا يخاف ويوجل من أن لا يوجل لأصبت.

قوله سبحانه ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ ذكر الزمخشرى أنها يمكن أن تكون خبرا لمبتدأ محذوف أى هى فيها أنهار من ماء غير آسن والجملة بيان لمثل الجنة وكأن قائلا قال وما مثلها. ويمكن أن تكون حالا أى مستقراً فيها أنهار ومثل الجنة أى حالها العجيبة الشأن، والمثل يعنى الحال والشأن و﴿غَيْرِ آسِنٍ﴾ أى لم يتغيّر يقال أسن الماء وأجِنَ أى تغيّر طعمه وريحه قال الشاعر:

لقد سَقَتْنى رُضَابًا غير ذى أسَنٍ ... كالمسك فُتَّ على ماء العناقيد

وماء العناقيد الخمر، أراد ريحه مع طعمه، والشطر الثانى من أكرم الشعر، وقوله سبحانه ﴿غَيْرِ آسِنٍ﴾ يعنى أنه ليس كماء الدنيا ونفى صفة العيب عن الموصوف فى سياق ذكر فضله يدعونا إلى البحث عن شىء وراء ظاهره، وإذا كان ماء الدنيا له أحوال وأوصاف مستحسنة كعذوبته وبرودته، ونقائه وصفائه فإن كلمة ﴿غَيْرِ آسِنٍ﴾ تعنى أن ماء الجنة تجاوز ذلك كله، وانتهى إلى ما لا يحاط بوصفه، فلا يكفى أن تقول فيه أنه عذب، ولا إنه قُرَاح، وصافى إلى آخره، وهذا فهمى وأرجو أن يكون صوابًا، ومثْلُه وصف اللبن بأنه لم يتغيّر طعمه، ووصف الخمر بأنها لذة للشاربين، ووصف العسل بأنه مصفى، كل هذا النفى أوصاف لبن الدنيا، وخمر الدنيا، وعسل الدنيا، هذا شىء وذلك شىء آخر، ولا يقاس هذا على ذلك، وليس بينهما إلا الأسماء، قال الزمخشرى فى معنى قوله تعالى: ﴿وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾.

«فلا يعود قارصًا ولا حاذرا ولا ما يكره من طعوم، والحاذر اللبن الحامض، ولذة الخمر على قراءة الجر يعنى أنها خالية مما فى خمر الدنيا وأنها محض لذة، وليس فيها ذهاب عقل، ولا وَرَهٌ ولا آفَةٌ من آفات الخمر وقرئ لذة بالرفع صفة للأنهار وبالنصب مفعولا لأجله والعسل المصفى هو الذى لم يخرج من بطون النحل فيخالطه الشمع وغيره» وهذا كله ملخص من الكشاف.

ولم يذكر القرآن أنهار الجنة وأنها من ماء غير آسن ومن لبن لم يتغير طعمه إلى آخر ما جاء فى الآية إلا فى هذه الآية، أقول لما يذكرها مجتمعة إلا فى هذه الآية، وأيضًا لم يذكر نهرًا من هذه الأنهار على الانفراد فى الكتاب كله فليس فى القرآن أنهار من ماء، ولا أنهار من عسل ولا أنهار من لبن ولا أنهار من خمر إلا هنا، والذى فى القرآن وهو كثير جداً جنّات تجرى من تحتها الأنهار، كما فى قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٢٥] وقوله سبحانه ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي

مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ [آل عمران: ١٥] وهذا كثير كما قلت، وجاءت الجنات ومعها النهر بالإفراد وهو معطوف على الجنات فى آية واحدة هى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴾ [القمر: ٥٤] ويتصل بهذا ذكر السُّقيا من أنهار الجنة، ومن عيونها، وقد جاء ذلك فى آيات كثيرة، وبأحوال، وأوصاف متعددة، مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ [الإنسان: ٥، ٦]. . ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً﴾ [الإنسان: ١٧، ١٨] وقوله: ﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ ﴾ [الطور: ٢٣] . . ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ [الزخرف: ٧١] ومثل هذا كثير جداً.

والسؤال: لماذا ذكرت هذه الأنواع من أنهار الجنة فى هذه السورة؟ وما هو المقتضى الذى اقتضى ذكرها هنا؟ وليس عندى جواب عن هذا السؤال مع أنه من صلب الدرس البلاغى. والذى عندى وأملى أن يفتح لغيرى باب الجواب هو أن السورة سورة قتال والقتلى فيها من أهل الحق هم الشهداء الذين يرزقون عند ربهم وهو المتقلدون بسيوفهم حول العرش وهم الذين اشترى الله منهم أنفسهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ [التوبة: ١١١] وآية التوبة هذه بالبيع الرابح والوعد الحق لها حضور بارز فى سورة القتال، راجع آية ﴿الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ وكيف استدعت قراءات قتلوا آية التوبة، فقد قرئت آية القتال والذين قتلوا وهو الذى فى التوبة ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١] وقرئت «قتلوا» بالبناء للمعلوم وهو الذى فى التوبة ﴿يُقْتَلُونَ﴾ وقرئ ﴿قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾بالبناء للمجهول وهو القراءة المشهورة، وهو المقابل فى التوبة لقوله تعالى: ﴿فَيُقْتَلُونَ﴾ بالبناء للمجهول،

وهذا ظاهر والجنة التى فى القتال هى جنة الشهداء لأنها متسلسلة من قوله تعالى فى شأن الشهداء ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ وجنة الشهداء هذه هى التى فى التوبة ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١] فتميزت هذه الجنة فى السورة التى أفردت بسورة القتال يعنى سورة الشهداء فى سبيل الله، فكان هذا مكان ذكر هذه الأنواع وهذه الأنهار، وقلت إننى لم أجب وإنما أشرت إلى ما يفتح لغيرى باب الجواب والله أعلم، وقد جاءت آية فى سورة الرعد يتفق رأسها مع رأس هذه الآية وهو قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥] وقد نزلت الرعد بعد القتال فتجاوزت ذكر الأنهار والسقيا وذكرت أكلها وظلها وليس فى القرآن ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ﴾ إلا فى هاتين الآيتين، وليس فى الرعد قتال ولا شهداء وإنما فيها الذين استجابوا لربهم والذين لم يستجيبوا، والذين يعلمون أن ما أنزل إليك من ربك الحق والذى هو أعمى..

وقد تنوعت عيون الجنة وتنوع شراب أهل الجنة وتنوعت آنيتها من كؤوس دهاق وأكواب وأباريق، وتنوعت أحوال الطائفين على أهل الجنة لهم مرة ولدان مخلدون، ومرة لؤلؤة منثور، وكل هذا يجب أن يجمع ويدرس وجمعه وتصنيفه ودراسته سهل والصعب هو بيان وجه ملاءمة كل لسياقه، وهل يصح أن نضع ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الطور: ٢٤] موضع ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ [الإنسان: ١٩] ولماذا؟ وهل يصح أن نضع ﴿مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: ٥] موضع ﴿مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾[الإنسان: ١٧]؟

وهل يصح أن يكون الكأس الدهاق مكان الأكواب والأباريق وما مناسبة كل فى موضعه؟ وأكرر أن هذا صعب جدا وهو جزء من جوهر الدرس البلاغى لأنه من صميم مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وياليت رجالنا الراكضين وراء الأسلوبين

يركضون فى هذه الروضات الدمثات كما قال ابن مسعود رضى الله عنه. وألاحظ أن آية مثل الجنة شغلت ببيان نعم الجنة ولم تشغل ببيان المنعمين بهذه النعم، كما أنها فصَّلت الشراب تفصيلا لا نظير له فى الكتاب العزيز، وأجملت موضوع الأكل الذى جاء فى جملة ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ والسؤال هو لماذا؟ والقرآن العظيم ينوع أحاديث الجنة فيذكر ما فيها من نعم كما هنا مرة، وكما فى سورة الرحمن فى قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦- ٤٩] إلى آخر الآية، وكلها فى النعيم الذى أعده ربنا لأصحاب الجنة، وهو غير نعيم الأنهار، وهذا كثير جدا ومتنوع جدا وأحيانا تهتم الآيات بذكر أهل الجنة المتلبسين بهذا النعيم كما فى قوله تعالى ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الطور: ١٧- ٢٠] إلى آخره، وهذا أيضا كثير جدا ومتنوع جدا ولاشك أن كل صورة من هذه الصور فيها من الأحوال والدقائق ما يتناسب مع سياق السورة، وليس فى التفسير ولا فى تحليل الشعر أصعب ولا أخفى من مناسبة هذه الأحوال للسياق، لايمكن أن يكون ذكر المتقين فى سورة الدخان مكان ذكر المتقين فى سورة الطور مع المشابهة القوية بينهما وبيان وجه ذلك صعب جدا، وقل مثل ذلك فى صور العذاب وصور الجحيم، من مثل وهم يصطرخون فيها ومثل فى عذاب جهنم خالدون، وخذوه فغلوه، وقطعت لهم ثياب من نار، إلى آخره، لماذا جاءت كل صورة من هذه الصور فى الموقع الذى جاءت فيه؟ وأشهد بأننى لا أستطيع أن أجيب عن هذا السؤال، لأن ما جاء فى علم المناسبة ليس هو جوابه، ومن السهل أن تجد رابط الآية بالآية أما لماذا قال فى الحج ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ [الحج: ١٩]، وقال فى الحاقة ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ [الحاقة: ٣٠، ٣١]، فليس له جواب إلا بعد معرفة غور

السورة، وهذا فوق تفسيرها، ومعرفة غور السورة محتاج إلى قدر من اللقانة فوق مقادير من العلم، ولا يجوز أن يدخل هذا الميـدان إلا المؤهلون وإلا كان عَبَثًا فى الكتاب الـعزيز، وقد خطر فـى نفسى أن أسكت عن هذا حـتى لا يجتـرئ عليه المبتدئون وأكرر أنى لا أعرف فى علم التفسير أخفى منه.

قوله سبـحانه ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ قوله سبـحانه ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ يجوز أن يكون معطوفا على كل الثمرات باعتبار المحل لأنه مبـتدأ وأصل الكلام لهم فـيها كل الـثمرات وزيدت «مِنْ» للدلالة عـلى معنى الاستقصاء، ويجوز أن يكون مبتدأ حذف خبره والأصل ولهم مغفرة من ربهم، وفى الوجهين هو من تمام جمله ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ وذكرت أن هذه الجملة أجـملت ما يؤكل بعـد تفصيل مـا يشرب، وتنوّع مـا يشرب أدل على التنعم وما يتصل بسـقيا أهل الجنة فى الكتاب أكثر مما يتـصل بطعامهم، ولحوم طيرهم، وفيـه إشارة لأهل الدنيا للاقتـصاد فى الطعام، والاكتفـاء منه بما يقيم الأود وأن المؤمن يأكل فى معى واحد، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء، هذا فيما أرى وجه التفصيل فى المشروب والإجمال فى المأكول، ثم إن جملة﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ وما عطف عليها مـعطوفة على جملة ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ ﴾ وداخله فى حكمها فإذا كانتِ بيانا لمثل الجنة كمـا قالوا فى إعرابها فهذه الجملة بيان لمثل الجنة لأن مثل الجنة ليس الأنهار فحسب وإنما الأنهار والأكل والمغفرة، وإن كانت حالا فهذه فى حكمها يعنى مـثل الجنة التى وعد المتقون حالة كونها أنهارا من ماء وأنهارا مـن لبن. . ولهم فيها من كل الثمرات ولهم مـغفرة كمن هو خالد فى النار، والإعـراب من أعرق وسائل معـرفة ارتباط المعانى بعـضها ببعض، وقـد زيدت فى الجملة المعطوفـة كلمة﴿ وَلَهُمْ ﴾ ولم تذكر فـى الجملة الأولى يعنى لم يكن الكلام مـثل الجنة التى وعـد المتقـون لهم أنهار من مـاء، وذلك لأن قوله سبحانه ﴿ وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ دال على أن الأنهار لهم، ودلالة وعد

المتقون على أن الأنهار لهم باقية معهم ولهم فيها من كل الثمرات، ولو جاء الكلام وفيها من كل الثمرات لفهم بأن كل الثمرات لهم، ولما بعدت جملة﴿ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ عن كلمة ﴿ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ جيء بكلمة لهم حتى يكون الكلام أظهر وأبين، وكلمة ﴿كُلِّ﴾ المقصود بها معناها الحقيقى وأن لهم كل الثمرات لا تحجب عنهم ثمرة مما يعلمون ومما لا يعلمون لأن الله وعدهم بما تعلم النفوس وما لا تعلم ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] وهذا يعنى أن قُرّة الأعين نفسها التى ليس فى دنيانا أعز منها، يُخفى الله لنا من قرة الأعين ما لا نعلم، الآية لا تتكلم فقط فى الذى به تكون قرة الأعين، وأن الله يدخر للصالحين من عباده ما لا يعلمون وإنما تتكلم أيضا عن قُرّة الأعين وأنه منها ما لا يعلمون، وقد أومات الآيات إلى أن أنهار الماء فى الجنة غير أنهار الماء فى الدنيا بدليل قوله: ﴿غَيْرِ آسِنٍ﴾ وما من ماء من ماء الدنيا إلا ويأسن إلى آخره، كذلك يقال فى الثمرات فثمر الجنة ليس بينه وبين ثمر الدنيا إلا الأسماء، فالنخل غير النخل والرمان غير الرمان، وكلمة كل هنا أخت كلمة ﴿كُلِّ﴾ التى فى قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢] من جهة الدلالة على الشمول بلفظ كل، ودخول من الزائدة المفيدة معنى الاستقصاء وأنه لا يغيب عنهم شيء، وأنهار الجنة عطف بعضها على بعض ثم عطف على مجموعها كل الثمرات والمغفرة، وقد ذكر المفسرون وجه ترتيب أنهار الجنة، وأنه تقدَّم فيها الماء لأنه أصل كل شيء حى، ثم اللبن لأنه غذاء، ثم الخمر لأنه لذَّة، ثم العسل لأنه شفاء، كأن الترتيب بدأ بالأعلى ثم الذى يليه، ويعكّر على هذا الوجة مجيء كلمة المغفرة فى آخر المثل، لأن المغفرة هى العطاء والنعمة والمنّ الذى لا يذكر معه عطاء ولا نعمة ولا مَنّ فليس أقر لعيون أهل الله من المغفرة والرضوان، لا يوضع بجوار المغفرة لا أنهار الماء ولا أنهار اللبن ولا كل الثمرات، لا يجد المؤمن لشيء بردا فى قلبه كإحساسه بأن الله غفر له، لأن الله لا يغفر إلا لمن يحب، وليس فوق

حب الله لعبده شيء، ولا تقر نفس بشيء كقرارها بالإحساس بحب الله لها، وليس للمؤمن فى دنياه مطلب يفوق مطلب المغفرة وهذه المغفرة هى التى أدخلته الجنة لأنه لا يدخل أحدنا الجنة بعمله وإنما يدخلها بتدارك الرحمة والمغفرة، وهذه المغفرة التى فى الآية مغفرة فى الجنة وليست مغفرة أفضت إلى الجنة، وإنما المتقون فى الجنة لهم أنهار ولهم ثمرات ولهم مغفرة فهى من عطايا الجنة ونعيمها، وهذا هو الذى أردته لما قلت إن مجيء المغفرة فى آخر وعد الله لعباده المتقين يعكِّر على وجه الترتيب الذى قد يفهم من كلام سادتنا العلماء.

ولم أعرف وجها لهذا الترتيب أقرب من أن يكون منظوراً فيه إلى كثرة الذكر فى الكتاب أو كثرة التناول من أهل الجنة، فإن السقيا المذكورة فى مواضع متفرقة من الكتاب تنصرف غالبا إلى الماء فهى كؤوس من معين، وعيون يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا، وهذا أكثر من ذكر اللبن وتناوله، كما أن ذكر اللبن الذى هو شراب وغذاء كما قال المفسرون يسبق ذكر الخمر التى هى لذة وهكذا.

والجنة ليست دار تكليف، ولا مجال فيها لذنب، فما وجه ذكر المغفرة فيها؟ وأقول أولا لم تأت كلمة ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ فى عداد نعيم الجنة فى الكتاب كله إلا فى هذه الآية، وكما اختصت الآية بذكر أنهار الجنة وأنهار من ماء ولبن وخمر وعسل، كذلك خُصّت هذه الجنة بأن فيها مغفرة وذكرت المغفرة فى الكتاب مع الجنة وليس فى الجنة فى آيات منها قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣] وقوله جل شأنه ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١] وجاءت المغفرة مع الفوز ومع الفضل ومع الرضوان وقد ذكر علماؤنا أن المغفرة التى فى الجنة والتى لم تذكر إلا فى هذه الآية المراد بها رفع التكاليف وأن من كمال نعيم الجنة أنه ليس فيها أمر، ولا نهى، وليس لأهلها حدود يقفون عندها، وإنما لهم كل ما تشتهى أنفسهم، وهذه نعمة فوق نعمة

أنهار الماء، واللبن، والعسل، والخمر، والأكل من كل الثمرات، وتفسير المغفرة برفع التكاليف لا تمنعه اللغة لأنه لا ذنب إلا بتكليف، وغير المكلف لا ذنب عليه، والمغفرة لا تكون إلا لذنب، والعلاقة بين المغفرة ورفع التكاليف علاقة مُسببيَّة، وتفسير المغفرة برفع التكاليف فيه مناسبة أخرى أظهر وهو أن أصحاب الجنة لم يدخلوها إلا لأنهم استمسكوا بالتكاليف فى حياتهم الدنيا وشدَّدوا واحتاطوا فى إنفاذ ما أمرهم الله به وفى ترك ما نهاهم عنه، وحملوا أوزار التكاليف بحب وقرب وخشية ورجاء وغبطة فكان من جزائهم فى الجنة رفع هذه التكاليف.

قلت إن سادتنا العلماء فسروا المغفرة برفع التكاليف وبيَّنْت ذلك وقد فسروا المغفرة فى الآية بمعنى الرضوان، لأن الله لا يغفر إلا لمن رضى عنه، فالمغفرة مسبَّبة عن الرضوان فعبر بها عنه، وهذا يعنى أن أهل الجنة ينعمون بما ذكرته الآية ثم ينعمون بالرضوان وهو فوق كل ما ذكرته الآية، وأكبر من كل ما ذكرته الآية، وهذا مَهْيعٌ جيد أعنى أن تذكر من المعانى والأحوال وأن تؤخر أفضلها وأسناها لتكون مسك ختامها، وتفسير المغفرة التى فى الجنة بالرضوان يرشحه آية آل عمران التى ذكر فيها الرضوان فى الجنة مكان المغفرة وذلك فى قوله تعالى: ﴿**قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ**﴾ [آل عمران: ١٥]، وقد جاء الرضوان فى الآية فى الموقع الذى جاءت فيه المغفرة فى آية القتال، ويلاحظ أن آل عمران ذكرت الأزواج المطهرة وأحسب ذلك لمناسبة الآية قبلها ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ**﴾ [آل عمران: ١٤] ولهذه الآية آية واحدة تناظرها فى الكتاب العزيز وذكر فيها الرضوان فى عداد نعيم الجنة وهى قوله تعالى﴿**وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ**﴾ [التوبة: ٧٢]، وقد جاء الرضوان أيضا فى آخر

أصناف النعيم كما جاء فى الآية السابقة، ووصف بأنه أكبر، وقد ذكرت المساكن الطيبة فى سورة التوبة موضع الأزواج المطهرة فى سورة آل عمران ولم أعرف وجه ذكر المساكن الطيبة هنا. وربما كانت إشارة إلى أن هؤلاء المؤمنين الذين بعضهم من بعض هم المهاجرون والأنصار، أو الأصل فيهم المهاجرون والأنصار لأن السورة تحلل مواقف كانت فى زمن النبوة وهؤلاء المهاجرين أخرجوا من ديارهم بغير حق، فناسب ذلك أن يكون فى جزائهم فى الجنة مساكن طيبة؟ أقول ربما، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ جملة ﴿هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ صلة الموصول، وجملة ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ جملة حالية من الاسم الموصول وقد لوحظ فيها اللفظ فى بناء الصلة ولوحظ فيها المعنى فى الجملة الحالية - وخلوده فى النار وهو فرد أنكى وأبشع، والجماعة فى سقيا الماء الحميم الذى يقطع الأمعاء رجوع إلى الأصل المقابل لوعد المتقون، وجملة ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ مرتب على ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾، وهذا المعنى المكون من الخلود فى النار وسقيا الحميم وتقطيع الأمعاء كل ذلك خبر المبتدأ الذى هو رأس الآية ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ وهى أطول آية فى السورة رأسها مبتدأ وعجزها خبر، وهذا الخبر هو الذى أوجب تقدير الاستفهام المحذوف، لأن الكلام لا يستقيم إلا به، والمعنى أمثل الجنة التى هذا حالها كمن هو خالد فى النار، وقد سبق بيان أنها تصوير حسِّى يؤكد معنى الآية السابقة لها وهى ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾، ولاحظ الإفراد فى ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾، ثم الجمع فى ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ وضعه بإزاء الإفراد فى ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ والجمع فى ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾، وهذا التصاقب فى البناء دال على التقارب الشديد فى المعنى وأن عجز هذه الآية راجع لعجز الآية السابقة لأن الخالد فى النار هو الذى زين له سوء عمله

والذين سقوا مـاء حميما هم الذين اتبعـوا أهواءهم، ووراء ذلك من التحذير من سوء العمل واتباع الهوى ما وراءه، والعلاقة بين رأس الآيتين، وهما الذى على بينة من ربه، ووعد الله للمتقين، فـيه إشارة إلى أن من اهتدى إلى الله وصار على بينة من ربه الذى هداه، وأكرمه يجب عليه أن يكون فى كل عمل يزاوله من عبادة وذكر وسلوك وتقلب فى الحياة يجب عليه أن يجعل كل ذلك وقاية بينه وبـين عذاب الله، ولا يكتفى أن يؤمن بالـله وما أنزل وإنما لابد أن يَدْخُلَ فى الذين يَجْعلون بينهم وبين عذاب الله وقاية.

ثم إنك تلاحظ فى بناء هذه الآية إشارة بالغة الإيجاز فى المبتدأ والخبر، لأن المبتدأ ذكر مثل الجنة والخبر لم يقابل ذلك بمثل النار، وإنما قابله بالمعذَّبين وكان يمكن أن يقال أمـثل الجنة التى حالها كذا كـمثل النار التى حالها كـذا أو أمثل الخالدين فى نعيم الجنة كمـثل الخالدين من النار، وإنما جاءت الآية على الوجة الذى جاءت عليه لتـدل على الأمرين معا، فالمبتدأ الذى هو مـثل الجنة يقتضى ذكر مثل النار فى الخبر، ومثل الخالدين فى النار فى الخبر يقتضى مثل الخالدين فى الجنة فى المبـتدأ وكأن مـثل النار فى الخبـر حذف لدلالة مثل الجـنة عليه، ومثل الخالدين فى المبتدأ حذف لدلالة الخبر عليه، وهذا من الإيجاز الذى قلما نجده فى غير البـيان الأعلى، ثم إن أوصاف الجنة فى الآية ﴿أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ إلى آخره هو الذى استدعى ذكر وسقوا مـاء حميما، وما كان يمكن أن يقـال كمن هو خـالد فى النار وهم مقـرنون من الأصفـاد مثـلا، أو وهم فى سلسلة ذرعها سبعـون ذراعا أو ما شئت مما فى النار، ولو جاء شيء من ذلك لافتـقدت الجـملة التطاعم بين طرفيـها، وماء الحـميم ذكـر فى آيات كثـيرة، وتقطيع ما فى بطونهم كذلك ذكر فى آيات وسـقيا أهل النار ذكر كل ذلك فى آيات كثـيرة ولم تجـمع آية فى الكتاب هذه العنـاصر فى نسق واحد وتـركيب واحد وجـملة واحدة، إلا فى هذه الآية. وقد سـبق أن ذكرنا مَا اخْـتصّتْ به الآية من ذكر أنهار الجنة، وما اختصت به من ذكر المغفرة، من حيث هى جزء

من نعـيم الجنة، وأن هؤلاء المنعـمين بهـذه الأنهار والخـالدين فى هذا النعـيم تسكن معهم المغفرة، والرضوان، وقلنا إنهـا جنة الشهداء الذى اختصت بهذا، وقابل ذلك نـار هؤلاء وجحيم هؤلاء، لأن الآيـة راجعة إلى الذين قـتلوا فى سبيل الله وهذه جنتهم، وراجعة إلى الصادين عن سبيل الله ثم قتلوا وضربت أعناقهم وهذه نارهـم، وكما أن لمن قتـلوا فى سبيل الله جنة مـتميـزة كذلك للذين قتلوا وهم يصدون عن سبيل الله نار متميزة، هذا والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦].

هذه الآية تنتقل انتقـالا واسعا إلى معنى آخر غـير المعنى الذى دارت حوله السورة من أولها إلى آخـر آية مثل الجنة، وبهذا الانتقال تُعدّ هذه مـفصلا من مفاصل معانى السورة، فكل الذى مضى يدور حول لقاء ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ بـ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وذكـر الحرب وتوابعـها، ثم ذكـر الشهـداء وجنة الشهداء وبجوار هذا الفرع المضىء بأخـبار الصادقين الصابرين الذين قتلوا فى سبيل الله خطٌّ آخر أسْوَد هو أخبـار الذين قتلوا وهم يصدون عن سبيل الله، وأن لهم التّـعْس والضلال وأنهم زين لهم سـوء أعمالهم وأنهـم خالدون فى النار يُسْقـون ماء حميمـا يقطع أمعاءهم، ثم طويت هذه الصـفحة وإن ظلت بمرمى قريب يقع عليهـا النظر، وقد ذكرت أن آية ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ بمثابة فاصلة لكل ما تـقدم من السورة وأن مثل الجنة تابع لهذه الآية، وأنه جاء على طريقة مبناها، وأن يُفَصِّل وعد الله للذين هم على بينة ووعيده سـبحانه للذين زين لهم سوء أعـمالهم، ثم دخلت بنا هذه الآية مـدخلا آخـر. والكلمة التى ابتـدأت بهـا الآية كلمة جليلة جـدا وهى ﴿وَمِنْهُم﴾ لأنهـا تقول لرسـول الله ﷺ ولنا إن أعـداءكم منهم من يحـمل

السلاح ومنهم من يسلك سبيلا آخر تراه يداخلكم ويدرس ما تدرسون ويتكلم بما تتكلمون به ثم يَطْعن فى دينكم طعنًا هو أوْبل وأفتك وأبشع من الذين يحملون السلاح فى وجوهكم لأن هؤلاء متسترون، وربما لبسوا ثيابكم وتكلموا بلسانكم، وخاطبوا العامة والخاصة منكم وخَطابهم يَحْملُ الشك والتلبيس، والتدليس، وإذا لم يصب خطابهم مرادهم من أهل العلم والعقل منكم أصاب مرادهم من ضعفائكم وصبيانكم ونسائكم، وهذا جيد جدا وكأنه نزل اليوم.

والواو فى قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ واو استئناف تعطف معنى على معنى، ولأهمية مضمون هذه الآية الكريمة وأهمية أن تَعقلها الأمة وأن تفتح بهذه الآية عيونها على الكذابين المنافقين المندسِّين فى الأمة بُنِىَ أسلوبها على غير ما بنى عليه أسلوب الآية السابقة لأنها وجهت الخطاب بهذا المضمون الرائع إلى رسول الله ﷺ، وهو رسولنا وسيدنا وأنْفذُنا وأعلمنا ويكفيه أن الله أنزل عليه الكتاب وأمره ببيانه ومع ذلك نبَّهَهُ ربه إلى هذه الطائفة الملبِّسة والمدلِّسة والتى قد يخفى أمرها على أمتك من بعدك فتحسبونهم مفكرين متنورين، ومثقفين مخلصين ويَعُدُّونهم من الصفوة، وهم أهل باطل وأهل ضلالة.

ولم يخاطب عليه السلام فى السورة قبل هذه الآية إلا فى آية، ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ وفيها من الغضب ما ترى، وكذلك فى هذه الآية من الغضب ما يدلل عليه قوله تعالى ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ قد سبق فى السورة خطاب الله للأُمَّة فى قوله ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وفى قوله ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ وخطاب الله للأمة فيه من الإكرام لها ما فيه، ولا ينْصَرِفُ عن مضمون هذا الخطاب إلا مخذول.

وهذه الإشارة التى تراها فى بناء الكلام على خطابه ﷺ فى آيتى ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ وقوله سبحانه ﴿وَمِنْهُم مَّن

﴿يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ تفيد أن أصحاب هذا السلوك الذى تتحدث عنهم الآية من طبقة الذين هم أشد قوة من قريتك وأنهم بمرمًى من هلاك الله لهم وهم أكثر ضررًا بالأُمَّةَ من الذين يرفعون سيوفهم فى وجه دين الله، وهم أصحاب الدرك الأسفل فى الجحيم.

ومن لطائف بيان الكتاب العزيز أنك تجد الكلام انتقل انتقالا ظاهرًا من باب من أبواب المعانى إلى باب آخر ثم تراه يبعث إشارة إلى قوة ربطه وتماسكه مع الكلام الذى سبق، وأنه وإن خالفه فى باب المعانى، فهو لا يزال ممسكًا به بدلالات ولفتات لغوية، وأرَدْتُ بذلك هذا الربط الظاهر بين هذه الآية التى دخلت بابًا جديدًا، وآية ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ وقد ذكرت أن هذه الآية بمثابة فاصلة لكل ما تقدم من السورة وأن مثل الجنة كان من تمام معناها، والآية التى معنا تعيد الفاصلة بلفظها ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ وتجد تقاربًا شديدًا فى المعنى بين الذى زين له سوء عمله فرآه حسنًا والذى طبع على قلبه لأن زينة سوء العمل فى قلب الضال الفاجر ثمرة من ثمار الطبع على القلب، فلا يرى الحسن حَسنًا والقبيح قبيحًا، وإنما يرى القبيح حسنًا، ويزين له ويُولَعُ به، وقد قالوا السيئة حَضَرَت حلاوتها، وغابت مرارتها، والحسنة حضرت مرارتها وغابت حلاوتها، وهذا الذى ضل أُولع بالسيئة وبحضور حلاوتها، وصارت هواه وصار متَّبعا لهذا الهوى، ثم إنك تجد رابطة قوية بين الآية التى انتقلت إلى معنى جديد وآخر الآية التى سبقتها، وابتعدت عن موضوعها، وذلك فى فاصلة آية مثل الجنة وهى قوله تعالى ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ والوصلة التى بين من يسقون ماء حميمًا وهذه الفئة المدلِّسة والكاذبة وصلة واضحة، ولو قلت إن كلمة ﴿وَمِنْهُم﴾ راجعة إلى الذين سقوا ماء حميمًا لم تكن مبعدًا كما أنك لو قلت إنها راجعة إلى من زين له سوء عمله

لم تكن مبعدًا وهكذا تجدها تلتئم مع الجماعة التى كان رأسها ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ وأنها تحدث عنهم لا من جهة أنهم يقولون قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه ولا من جهة أنهم يقولون إنا وجدنا آباءنا على أمة ولا من جهة لو كان خيرًا ما سبقونا إليه، ولا من أى جهة ذكرتها آل حم، وإنما هم قوم لبِسُوا ثياب أهل الإيمان وحضروا مجالس رسول الله ﷺ واستمعوا إليه ثم بدؤوا يشككون بعد هذا الدخول الموهم بأنهم يحرصون على طلب الحق. والملاحظ أن أعداء الدين حاربوه بصور مختلفة، حتى إن بعضها يتناقض فى الظاهر مع البعض؛ فهم فى سورة القتال يستمعون إلى رسول الله ﷺ ثم يقولون للذين أوتوا العلم ماذا قال؟ وهم فى فصّلت يقولون ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦] ولو وضَعْت هذين الموقفين بين يديك وفكرت فيهما لرأيت أن الذين قالوا لا تسمعوا لهذا القرآن نظروا إلى قوة تأثيره وأنه يَغْلِبُ من يستمع إليه، وأن هذا الذى يسمع أقرب إلى السلامة وأنه لو أدرك الحق فى القرآن آمن به ولهذا قالوا له (لا تسمع لهذا القرآن) أما موقف الذين يستمعون إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا؛ فهؤلاء قد اشتد عزمهم على الرفض، وأن قلوبهم لن تلين، وأن قوة تأثير القرآن لن تغلبهم، ولذلك وُصِفُوا بأن الله طبع على قلوبهم، كما تلاحظ فروقًا فى اللغة لها دلالة تؤكد الذى أقوله، وهو أنهم فى سورة فصلت قالوا ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ فكان النهى عن السماع وليس عن الاستماع يعنى لا تجعلوا هذا الصوت يصل إلى أسْمَاعكم وإنما سُدُّوا أسماعكم فى وجهه وهذا معنى﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت: ٥]، وفى سوره القتال جاء الاستماع وليس السماع ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ والسامع يسمعك ولو لم يقصده والمستَمع إليك هو القاصد للسماع والمحتشد له، وهذا يعنى أنهم كانوا يكونون فى صورة الحريص على أن يسمع من رسول الله ﷺ، ثم إنهم هنا يستمعون إلى من

أنزل عليه صلوات الله وسلامه عليه وفى فصلت يقولون ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ من أى قارئ، وتدقيق النظر فى مواقف أعداء الدين فى زمن نزوله يساعدنا على معرفة أعداء الدين فى زماننا لأن الذين يستمعون من رسول الله ﷺ ثم يهاجمون الدين ليسوا بعيدين عن الذين يقرؤون فى كتب التفسير والفقه والسُّنَّة ثم يهاجمون الدين، أو يعرضون فهمًا مغلوطا للدين وأنهم قرأوا، ودرسوا وحللوا، وهذه نتائجهم، هذه الآية تبين خطر الذين هم فى ثياب العلم الإسلامى، وقد ظهروا فى زماننا وزعموا أنهم يطبّقون الدراسات الحديثة من الألْسُنيَّه وغيرها على دراسة الكتاب ليستخرجوا منه فقهًا جديداً مخبوءا لا تستَخْرِجُه علوم المشايخ التقليدية إلى آخر ما تسمع إن كانت أذنك تسمع ما حولك، وقد أخبرنى أفغانى أثق فى دينه أن الحكومة الأفغانية الشيوعية زمن استعمار روسيا للأفغانستان كانت تبعث إلى الأزهر شبابًا أفغانياً شيوعياً ولهم أسماء إسلامية ليتخرجوا من كلية الشريعة وكلية أصول الدين وتكون مهمتهم فى أفغانستان الهجوم على الدين، وأقول هؤلاء هم الذين يستمعون إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا. وهذا من الذى يدعونى إلى المقاربة الضرورية بين معانى القرآن والواقع، وقوله سبحانه ﴿حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا﴾ فيها أمران الأول أن جلوسهم وإصغاءهم واحتشادهم للاستماع من رسول الله ﷺ طال لأن كلمة حتى تفيد أن الزمن والحدث الذى قبلها قد استوفى حظه، وبلغ غايته، والأمر الثانى أن الشرط الواقع بعد حتى يفيد ترتب جوابه عليه وهذا معناه، أنهم ما إن خرجوا من عندك حتى قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا، وكأنهم يعلنون فور خروجهم من مجلس رسول الله ﷺ التباس الأمر عليهم، وأنهم لم يفهموا عن هذا النبى مراده، وهذا طَعْنٌ آخر ليس من باب مثلا ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ [ص: ٥] وكل مما كان على شاكلته مما يدل على شىء قاله رسول الله ﷺ عليه وسلم وعقلوه عنه، ولكنهم يرفضونه، هؤلاء جاؤوا

بمذهب جديد فى الإنكار، وأن ما يقـوله ليس مما يفهم، وإنما هو كلام مُلْبس، وقد ذكر أكثر المفسرين أن سؤالهم هذا سـؤال استخفاف، وهو كما قالوا ولكنه ليس استخفـاف فى الظاهر، وإنما هو عندهم وفى ضميرهم سؤال اسـتخفاف، أما فى الظاهر فـهو سؤال استفـهام يعنى طلب فهم بدليل أنهم كـانوا يوجهون هذا السؤال لعلماء الصحابة، كما قال تعالى﴿ **قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ** ﴾ وأصحاب رسول الله ﷺ نجـوم هذه الأمة، بأيهم اقـتدينا اهتدينا، ومـع ذلك كان منهم العالم والأعلم وكانوا يتفاضلون فى أبواب العلم فهذا أعلم فى باب الفرائض، وهذا أعلم فى باب القضاء، وهذا أعلم فى باب الحلال والحرام، وهكذا، وكان هؤلاء يقصـدون إلى من شهـر بالعلم منهم، وقد سألـوا عبد الله بن عـباس، وقالوا له مـاذا قال آنفا، وسـألوا عبد الله بن مـسعود وسـألوا أبىّ بن كعب، ويبدو والله أعلم أن الصحابة المسؤولين لم يقطعوا بأن السؤال سؤال استخفاف، وأن هؤلاء منافقون، وكان عبد الله بن عـباس يقول أنا ممن سئـلت بـعد نـزول الآية، وهـذا مـعناه أن هؤلاء الذيـن كانوا يسـتمـعون إلى رسـول الله ﷺ كانوا يَبْلُغون الغاية فى إخفاء مـا فى نفوسهم، وأنه من زيادة التمويه والتدليس أنهم كانوا يسألون العلماء وأن هؤلاء العلمـاء لم يروا منهم ما يدل على نفاقهم وإلا واجهـوهم، وستـذكر الآيات بعد ذلك أنـهم كانوا متـستـرين جدا وأن رسول الله ﷺ لم يكن يعرفـهم، فضلا عن الصحابة، وأنهم كـانوا يخرجون معه فى الغزو، وهو لا يعـرفهم، وكتب السيرة مشحونة بهـذه الأخبار، وبعد آيات من هذه الآية سنجد قـوله تعالى ﴿ **وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ** ﴾ الآية وضعت لسيد الأمة علامـات يعرفهم بها وقوله ﴿ **وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ** ﴾ دلالة اللغة تـفيد أنه سـبحانه لم يشـأ أن يريه إياهم، والمعنى ولو نشاء أن نريكهم لأريناكهـم، ولكننا لم نشأ، ثم أشار الحق إلى أنه سبحانه سيعرفهم له عليه السلام بسيماهم وبلحن القول.

وقولهم ماذا قال آنفا: سؤال فـيه ريبة لأنهم لم يسألوا عن شىء محدد من

بين الأشياء التى تكلم فيها رسول الله ﷺ، وإنما سألوا عن كل ما قال، وكأنهم لم يعقلوا عنه شيئًا، وكان الصحابة رضوان الله عليهم يحسنون الظن وحسن الظن من حسن الطويّة، ومن خدعنا بالله انخدعنا، وقول ابن عباس أنا ممن سئل فيه إشارة إلى أننى ممن أحسنوا الظن بسؤالهم. والتعبير بضمير الغائب فى قولهم ﴿مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ وأنهم لم يقولوا ماذا قال رسول الله ﷺ فيه إشارة إلى أنهم لا يجدون فى أنفسهم ما يُعينهم على ذكر صفته ﷺ، وأنه نبى الله ورسوله، وأنهم يتحدثون عنه كما يتحدثون عن غيره من عامة الناس وخاصتهم، وكلمة ﴿آنِفًا﴾ قال الزمخشرى قال الزجاج: هى من استأنفت الشىء إذا ابتدأته، والمعنى ماذا قال فى أول وقت يقرب منا، وقال الشهاب: «آنفا» اسم فاعل على غير قياس، أو بتجريد فعله من الزوائد لأنه لم يسمع له فعل ثلاثى، بل استأنف وأتنف، وقال البيضاوى: هو من قولهم أنف الشىء لـمَا تقدم منه مستفاد من الجارحة، ومن دقيق الأسرار أن هذه الكلمة الشاملة لمعنى ماذا قال فى أول وقت يقرب منا كما قال الزمخشرى فى روايته عن الزجاج والشاملة لمعنى أنف الشىء لما تقدم منه يعنى أنف كلامه ﷺ، أقول موضع هذه الكلمة بهذا الشمول الجامع لأنف كلامه يعنى أول وأقرب كلامه بعنى آخره. يعنى أنهم لا يسألون عن أول كلامه ولا عن آخره، وإنما يسألون عن كلامه كله وأنهم لم يعقلوا شيئًا فى أوله ولم يعقلوا شيئًا فى آخره، ويضاف إلى ذلك الانتقال من الإفراد فى قوله ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ إلى الجمع فى قوله ﴿حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾، والسر فى ذلك والله أعلم أنهم جميعا قالوا ماذا قال ولم يفهم منهم أحد، وكان المتوقع أن يعقل البعض وأن يسأل من لم يعقل من عقل، ولكن هذا التعبير أشار إلى أنها جماعة منظمة، ولها برنامج وأنها تحضر لا لتسمع وإنما لتستمع وتظهر فى صورة المهتم بما يسمع، ثم إنها تسمع ممن أنزل الله عليه الكتاب وليس من عالم ولا صحابى، ثم تخرج وتعلن أنها لم تفهم شيئا لا فى أول كلامه ولا فى آخره، وهذا تشويش من نوع مَدْروس كهذه

التشويشات التى يشوِّش بها أهل زماننا على دين الله وهم موصوفون بأنهم نخبة وأنهم مجددون إلى آخر ما تراه حولك، وكأن جماعة آية ومنهم من يستمع إليك قد بعثت وانتشرت فى ربوع بلاد العرب، وأعادت هذا المذهب، هذا والله أعلم. ثم إننا لو نظرنا إلى قولهم ماذا قال آنفا، بحُسن ظن فلن نجد فيها الخطيئة الكبرى التى دلّت عليها جملة ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾لأنه ليس من الإثم أن يسأل الناس عن ما سمعوا، والذى جعل هذا السؤال مشحونا بما أغضب ربنا حتى قال ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ هو ما يعلمه سبحانه عنهم، وعن حقيقة سلوكهم، وعن حقيقة سؤالهم، وأن لهم باطنا غير هذا الظاهر؛ والذى نفض عن سؤالهم هذا الغطاء المموه هو الجملة بعده لأنها كلام من لا تخفى عليه خائنة عين ولا غائبة صدر.

وقد بدئت الجملة باسم الإشارة الدال على تمييز المشار إليه أكمل تمييز ويكون ذلك عند ذكر خبر شديد فى الخير أو فى الشر؛ وأن إحضار المحدّث عنه وتمييزه لمزيد من تحقيق إسناد الخبر إليه، تقول أولئك الذين هداهم الله، وأولئك الذين أضلهم الله، ثم إن البعد فى اسم الإشارة معناه إبعادهم عن حضرة الحق، وهو سبحانه يحدث عنهم، ثم إبعادهم عن الهداية، والصواب، والمحجة، واسم الموصول فى قوله جل شأن ﴿الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فيه إشارة إلى أن صلته أمر معلوم، وهذا شأن الصلة لأنها تعرف الموصول، والموصول فى الأصل نكرة، ولذلك اشترطوا فى الصلة أن تكون أمْرًا متعارفا مشهورًا لا يجهله أحد ولاينكره أحد، وهذا يعنى أن المخاطبين بهذه الجملة على هذا الكوكب يعلمون أن من الناس ناسًا طبع الله على قلوبهم، واتبعوا أهواءهم، والطبع على القلوب يعنى الختم عليها فلا ينفذ إليها شىء من نور البرهان، ولا من نور الهدى، وإنما يكون ذلك من الرحمن الرحيم لعلمه بأن هؤلاء لن يكون منهم هداية وأنهم لو رُدُّوا لعادوا لما نهوا عنه؛ ثم إنه سبحانه لم يعلمنا بأنه طبع على قلب فلان وإنما أمر ونهى وترك

عباده وَوَعدَ بأن يـأخذ باليد التى تمتد إليه وأنه يهدى إليـه من أناب؛ فمن أصرَّ إنما أصر باختياره هو، لأنه سبحانه لايكره على الدين ولا يكره على الكفر وإنما هدى عباده كل عباده بالعقل والبرهان وترك كلا وما يختار.

ونحن نفسر الطبع بالختم وهو تفـسير صحيح ووارد عن أهل العلم ولك أن تبـحث عن الفـرق بين طبع الله على قلوبـهم، وختم عـلى قلوبهم، ولك أن تقـول إن الخـتم من الخـاتم والخواتيم يمـكن أن تُفَض وتفـتح أبواب القلوب، والطبع من الطبـيعة وهذا أوغل فى الضـلال من الختم، لأن الطبيـعة كالخليـقة والسليـقة، وكأن الـضلال صار جـزءا من الماهيَّة وهـذا أشد، ومجىء جـملة «واتبـعوا أهواءهم» عـقب جملة «طبع الله عـلى قلوبهم» يشبـه مجىء جـملة و«اتبعـوا أهواءهم» عقب جملة «زين له سـوء عمله»، ويلاحظ أن الطبع على القلوب يشبه كـما قلت سابقا تزيين سوء العمل، وأقـول الآن شيئًا هو أن هذا التـرتيب أعنى بناء اتبـاع الأهواء على الطبع عـلى القلوب فى الآية التى مـعنا والرؤية المعكوسة التى يـزين فيه السوء فى الآية السـابقة، فيـه إشارة من الذى خلق سبـحانه وهو أعلم بخلقـه إلى أن سلطان العقل الذى يدمـره الطبع على القلوب إذا غـاب عن حيـاة الإنسان فَـرْدًا كان أو جـماعة تحـوَّلت الحيـاة إلى جحـيم؛ لأن اتباع الهـوى يعنى إطلاق حوابس الـنزوات والشهوات والـغرائز الإنسـانية؛ ثم يَتـحكَّمُ ذلك فى السلوك والسـيطرة على الإنسـان فتـراه يظلم ويكذب، وينهب، ويقـمع، ويسـتحل الدمـاء، والأموال والأعـراض، وليس الخطر فى اتبـاع الهوى أنه يقـود إلى الكفـر فحـسب مع أن هذه رأس الخطايا ولكنه بجـوار هذا لا يعرف الرحمـة، ولا العدل، ولا البـر، ولا الصدق، ولا الأمانة، لأن كل هذه الفضائل لاتنقاد إلا بالعـقل والحكمة والبصيرة؛ وهى سلوك الإنسـان السـوى الذى لم يطبع على قلبـه، والذى يرى الحـسن حـسنا والقبيح قبيحا، ويعـرف المروءات ومكارم الأخلاق؛ ويختارُ الوفاء على الغدر، والأمـانة بدل الخيـانة، والعدل بدل الظـلم، والبر بدل العـقوق، وهكذا تجـد الإنســان قـد صـار إلى نمطين نمط للعـقل عـنده سلطان، فـيـألف، ويُؤْلَف،

ويَصْدُق، ويَعْدِل، ويرحـم، ونمط غاب عقله وطبع عليه فـصار كله شرا وبلاء وغدرا، ولا يستطيع أحد أن يطيق الحياة معه.

الآية الكريمة تقول إذا غاب سلطان العـقل فليس له بديل إلا اتباع الهوى، وتقول من لم يتـبع عقله اتبع هواه، وليس له بديل ثان، واتبـاع الهوى يعنى إطلاق حوابس الشـر والبغى والفـجور والغدر، ومـا لا يطاق شره، لأن هذا الإنسان ألهمـه ربه فجوره وتقواه، وجعل سلطان الـعقل الهادى إلى الحق بابا موُصَدًا فى وجه فجوره، فإذا كُسِرَ هذا الباب فالويل للناس، وسلطان العقل يعنى سلطان المنطق والحـجة، والدليل، وكـل ذلك إذا استقـام سلك سبـيل الهدى، ومن سلك سبيل الهـدى زاده الله هدى، وهذا قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محـمد: ١٧] ويمكن أن تكون هذه الآية امتدادا لكلمة ﴿لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ وأن مجلسه صلوات الله وسلامه عليه كان يستـمع إليه قـوم صادقـون مخلصـون، وهم الذين أوتوا العلم؛ وهم الذين اهتدوا فزادهم الله هدى وأتاهـم تقواهم، وكان يستمع إليـه الذين قالوا ماذا قال آنفـا وهم الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم، وليس المقـصود جماعة بعينهـا وإنما هو مثال لكل من طلب الهدى واهتدى وكل من راغ وزاغ ولبَّس ودلَّس، فى الأزمنة كـلها والأمكنـة كلها، ولـو نظرت إلى الآيتين آية ﴿الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ وهذه الآية لوجدت أن الثانيـة هى الوجه المقابل للأولى، لأن اتبـاع الأهواء يقـابله الاهتـداء، وهذه المقـابلة تـزيد المعنى فى الصـورتين جـلاء، لأن الذين زادهم الله هدى، مع جـلال مـعناه يرجع إلى الذين طبع الله على قلوبهم فيـزيد الغضب غضبـا؛ والغضب فى الطبع على القلوب يزيد الإكـرام فى زادهم الله هدى جـلاء ومنّاً وإكرامـا، وهكذا ترى المعانى إذا حَسُن ضم بعـضها إلى بعض يكون هذا الضَّمُّ مفـيدًا من المعانى ما لو عبَّرت عنه الكلماتُ لطالت العبارة ولم تَفِ بما وفّاه هذا الضم.

وقد قامت هذه السورة على هذه المقابلات من أول ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهذا المنهج وإن كان ظاهرا فى الكتاب كله إلا أنه فى هذه السورة أظهر.

ولك أن تقول إن الواو فى قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ تعطف هذه الآية على قوله سبحانه ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾، لأنها هى الوجه المقابل لها، وهذا جيد ولك أن تقول إنها معطوفة على فاصلة الآية السابقة لأن هذه الفاصلة لخصت الآية السابقة تلخيصا رائعا، وهى قوله تعالى ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ ويكون الذين اهتدوا هو الوجه المقابل للذين طبع الله على قلوبهم.

وقد ذكر الشيخ الطاهر أن آية ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ اعتراضية؛ لأنه لحظ أن الآية بعدها ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ من تمام الحديث عن الذين قالوا ﴿مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾؛ وهذا حق ولكنه لا يقتضى أن تكون الآية اعتراضية لأنها ليست معترضة بين الذين قالوا ماذا قال آنفا، و﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ﴾ لأنها من تمام معنى آية ماذا قال آنفا لأنها الوجه المقابل لها والذى يزيد حسنه قبح ما يقابله، ويزيد ما فيه من قرب وتكريم ومَنٍّ للذين اهتدوا ما يقابله من غضب وإبعاد ومقت للذين طبع الله على قلوبهم، فآية والذين اهتدوا ممسكة بما قبلها، والجملة المعترضة ليست كذلك، العلاقة بين جملة ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ كالعلاقة التى بين ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠] ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] و﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، وما لا يتم المعنى إلا به فهو جزء من المعنى.

ومجىء اسم الموصول فى قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا﴾ يفيد أن الصلة أمر معلوم وأن ثمّة فريقا من الناس يقال لهم الذين اهتدوا كما كان الحال فى الذين

طبع الله على قلوبهم، وحذو البناء حذو واحد للإشارة إلى قوة الصلة بين النمطين، وأنهما وجهان متقابلان، وجه هو شر البرية ووجه هو خير البرية وكلمة ﴿اهْتَدَوْا﴾ الهمزة والتاء فيها للافتعال وفى الافتعال معنى إقبالهم على الهدى إقبال الصادقين الباحثين عنه، الجادين فى طلبه، وفيها معنى أنهم هُدُوا فاهتدوا، أى دعاهم ربهم، وأقام لهم البرهان ونصب لهم الأدلة، فنظروا بصدق نفس، فأدركوا فأجابوا، واستعمال مادة الهدى والاهتداء والهداية فى هذه المعانى الشرعية فيه إشارة إلى أن الطرق تتفرق بالناس، وأن الطريق المستقيم الذى هو صراط العزيز الحكيم هو وحده الطريق الذى يهدى إلى النجاة. والهداية فى أصل معناها الدليل على الطريق الواصل إلى المقصود، والمقصود هنا هو الإيمان والدال هو كلام رب العزة الذى يدعو عباده إلى دار السلام، فمن أجاب وجد الله معه، ومن حاد خُذل وطبع على قلبه، واتبع هواه، وخسر الدنيا والآخرة، وفاعل ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾ الأكثر والأشهر فى كلام العلماء أنه لفظ الجلالة الذى فى قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ وهذا رابط لفظى يضاف إلى الرابط المعنوى الذى ذكرناه؛ والمهم أن الذى طبع على قلوبهم هو الله الموصوف بكل كمال والمنزه عن كل نقص، لأن لفظ الجلالة جامع للكمالات كلها، فإذا طبع على قلوبهم دل ذلك على فرط ضلالهم، لأنه سبحانه لا يظلم، لأنه منزه عن كل نقص، ولأنه سبحانه صاحب الرحمة المطلقة، والعدل المطلق، والبر المطلق، وما كان لصاحب هذا الجلال أن يطبع على قلب فريق إلا وهو مستحق لذلك، ثم إن هذا المعنى نفسه يأتى مع ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾ وأن الذى يضع قدمه على أول طريق الهدى يعنى على أول طريق البحث عن الصواب والسداد ومعرفة ما دعاه ربُّه إليه؛ وقلبه خالص صادق، زاده الله هدى، وزيادة الهدى الآتية من جهة الموصوف بكل كمال والمنزه عن كل نقص، زيادة لا يعدلها شىء فى الدنيا. لايرجو من عرف الله شيئًا أفضل ولا أكرم من أن يهديه الله إلى طريقه سبحانه، فإذا منّ وأكرم وزاده هدى كان ذلك فوق كل

ما يتصور وفوق كل مـا يرجو، ثم إن فى الآية معنى أن الهدى فى القلب يربح وينمو ويزداد، كالإيمان الذى يزيد بالطاعة وينقص بـالمعصية، وكلمة ﴿اهْتَدَوْا﴾ فيها مـعنى أنهم طلبوا الهدى بصدق نفس، ووفرة نشـاط، وأنهم لا يفترون عن طلب الهدى، ومن كان هذا حاله رأيت الهدى فى قلبه يربو ويزداد.

وفعل زادهم هدى الذى فيه غايـة الإكرام للمقبلين على الله وقلوبهم وجلة له نظائر فى الكتاب العزيز؛ وهو فى كل موقع من مواقعه يستدعى نظائره لأنها عائلة من صور تكريم الله لعـباده الناظرين إليه، والراجين رحمتـه، والمشفقين من عـذابه، من ذلك قوله تعـالى ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ [الشورى: ٢٣] وهذا من أكرم مـا يجده العبد من ربه، والحسنة سُميّت حسنة من الحُسْن ومعنى «نزد له فيهـا حسنا» يجوز أن يكون زيادة فى الأجْر، ويجوز أن يكون نزد الحسنة حُسْنًا فى قلبه، فيقبل على مزيد من الحسنات، وكلما أقبل على مزيد من الحسنات وجد حُسْنَ الحسنات يزداد حُـسْنًا فى قلبه فيكون عاشقا للحسنات مولعا بالطاعـة؛ ثم يزداد عشقه عِشْقًا وَوَلَعُـه وَلَعًا حتى يكون ربانيا يقول للشىء كن فيكون، ومـثله قوله تعالى ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ [الشورى: ٢٠] وراجع يد الله سبـحانه وهى تزيد الحـسنة لهـذا المسكين الوجل حُـسْنًا، ثم وهى تزيد حَرث آخـرته حَرثًا، ثم تأمل جـملة من كان يريد حرث الآخرة، لأنه فيها أشياء عجيبة أولها أنه فى مرحلة الإرادة يعنى لم يبدأ مـرحلة العمل وإنمـا هو يريد فقط حـرث الآخرة، يعنى اتجه قـلبه إلى الله، وهو على أول الطريق ولكـنه صدق فى توجـهه وأخلص وتجـرد؛ ثم إنه يرُيد حرث الآخرة، وكلمة الحرث معناها تهيـئة الأرض ليلقى فيها البذر فينبت ويرعاه الحارث ويقـوم عليه بيقظة وهمّة حتى يبلغ الحـصاد، هذه الصورة التى ترى فيهـا الزارع يقوم على الأرض وينقيها من الآفات الضـارة بالبذور ويصفى النفس من هواجس الشيطان وخواطر الإثم، وهو لا يزال يُعـدُّ الراحلة للمسير

ولم يقطع مسافات، وإنما نوى وعزم وشدّ عَزْمه وهيأ راحلته للسير على طريق الله يجد الله عنده، ويرى يمين الله وهى تمتد إليه بالزيادة فى حرثه، وذكر الأئمّةُ البررة رضوان الله عليهم وألحقنا بهم كرامة نفس وقرة عين أن المراد بالحرث الثواب وإنما عبر عنه بسببه، وهو كما قالوا، وإنما أردت أن السبب كان بداية الطريق، وأن الله لا يأخذ بأيدى السائرين إليه فقط وإنما أيضا يأخذ بأيديهم قبل أن يبدأوا السير وحسبهم أن يعدوا رواحلهم بصدق نفس وخلوص قلب، والطريق طويل وآفاته كثيرة وصحبة الله هى العون وهى المدد.

قلت إن الأظهر أن يكون فاعل ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾ هو لفظ الجلالة فى قوله تعالى ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ وبيّنت ما وراء ذلك فى حدود ما أرى.

وذهب البعض إلى أن الفاعل هو قول رسول الله الذى استمع إليه الذين قالوا ﴿مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ وبذلك تدل الآية الكريمة على ضربين من ضروب الاستماع؛ ضرب طبع على قلوبهم فلم ينفذ إلى هذه القلوب شىء مما تسمع؛ وضرب آخر لا يسْتوعبْ ما يسمع فقط، وإنما يربو فى قلوبهم ويزداد، ولا يهتدى بالهدى الذى يسمعه فقط وإنما يربو الهدى فى قلوبهم ويزداد وهؤلاء هم الذين أوتوا العلم، وليس هذا شأنهم فيما يسمعون من الهدى فقط، وإنما هو شأنهم فيما يقرؤون ويدرسون ويدارسون لأن قلوب أهل العلم كأنها مزرعة خصبة أو أرض خصبة لا يبْقى العلم فيها كما سمعته واستوعبته، وإنما يربو ويزداد، وينبت علما جديدا وجليلا؛ وهؤلاء هم الذين صدقوا فى طلب العلم، وهم الذين صدقوا فى طلب الهدى، فمن أقبل على الحق، واستمع إليه من أهل الحق تجلت فى قلبه وعقله تجليات فاستمع واستنبط واستخرج وألقى طَبْع نفسه على ما يسمع؛ فاحتفظ بأصل ما سمع وزاد عليه ما هو منه، ولاحظ أن هذا الذى أقوله هو صريح دلالة الآية لأن الآية وصفتهم أولا بأنهم أوتوا العلم، أى أخذوه من نبعه الصادق، الأمين صلوات الله وسلامه عليه ثم ذكرت أن العلم أثمر فى قلوبهم ثمرتين الأولى هى الهدى، والثانية هى زيادة

هذا الهدى، فإذا كان الفاعل ما سمعوه من رسول الله ﷺ نتج لنا من السماع ثلاثة فوائد الأولى هى العلم والثانية هى الهدى بالعلم والثالثة هى زيادة ونمو وامتداد هذا الهدى، وهذا شأن من يطلب العلم ليَعْمل به لا ليتكلَّم به ولا ليكتبه فى كتاب ولا ليدرسه للطلاب، وإنما يُعلِّم به نفسه ويخوِّف به نَفَسَه قبل أن ينطق به لسانه، وقبل أن يجرى به قلمه، وخصوصًا علم الكتاب والسنة، لأن الآيات لم تنزل علينا لنتكلم بها، وإنما لنعمل بها؛ ولنزرعها فى قلوبنا، وعقولنا، وهذه هى الخطوة الأولى، وهى ضرورية، ثم نعلِّمها ونتكلم بها ونبلغها بألسنتنا أو بأقلامنا، فرق كبير بين أن نقرأ لنقول ونحاضر، ونجمع الناس حولنا، وأن نقرأ لنُعَلِّم أنفسنا أولا ثم نقول لغيرنا ونعلّم غيرنا وهذا هو الفرق بين تأثير موعظة الصالحين الخائفين الذين وعظوا أنفسهم قبل أن يعظوا غيرهم، وتأثير موعظة من يجمعون الكلام من هنا وهناك ليتكلموا به وليتفيهقوا أو يكوِّنوا حزبا.

قلت إن الآية صريحة فى أن السماع من رسول الله ﷺ، أفاد السامعين علمًا، وأفادهم هدى، وزادهم هذا السماع هدى على هداهم، وليس هذا بعيدا عن الوجه الأول لأن رسول الله ﷺ مبلغ عن ربه، وأن السماع منه يزيد هدى على سبيل المجاز، على حد قوله تعالى ﴿**وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا**﴾ [الأنفال: ٢]. والذى يقذف الهدى فى القلوب ويزيدها بالهدى هدى هو الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور.

والوجه الثالث فى بيان فاعل ﴿**زَادَهُمْ هُدًى**﴾ هو استخفاف المطبوع على قلوبهم، يعنى أن هذا الاستخفاف الذى أرادوا به التشكيك فى الدين، زاد أهل الدين هدى، وهذا الوجه مرجوح عند الشهاب، وقد مضى الشهاب على ذلك، ومرجوح عند غير الشهاب لأنهم ذكروه آخر الاحتمالات، وفيه معنى جيد وواقع فى كل زمان وفى زماننا هذا وهو أن أهل الدين حين يجدون تحدِّيًا لهذا الدين، وصَرْفًا عنه وتشكيكًا فيه يزدادون تمسكا وتشبثًا به ويزداد إيمانهم ويزداد هداهم ولا يشاد هذا الدين أحد إلا غلبه، وهذا ما أراه

حولى فقد كتب الله علىَّ أن أعيش فى ظل أنظمة سياسية همُّها الأول هو ضرب أصحاب الدين، وخصوصًا الذين يطالبون النظام بأن يُحلّ ما أحَلَّ الله، وأن يحرّم ما حرّم الله، هؤلاء يواجهون قمْعًا لا حدود لقسوته، وبشاعته، وإجرامه، ويُغيّبون فى معتقلات الفجرة وتتشرّدُ أُسَرُهم، ويُشَرَّدُ أطفالهم ولا يجدون عائلا، وتصبح الأم فى كرب، لأن الزوج كان يَسعى ليلا ونهارًا ليوفر لأولاده ما هو ضرورى، فإذا غاب فى غيابات سجون المجرمين، وهى لا تعلم عنه شيئًا، انقطع عنها كل شىء، وأطفالها من حولها إلى آخر البشاعات التى عاشتها مصر، وكل هذا ما كان يزيد أهل الهدى إلا هدى، والذين قالوا ماذا قال آنفا صورة للمحادين لدين الله فى كل زمان ومكان وتحديهم هذا هو الذى يزيد الذين اهتدوا هدى.

وقد كان الزمخشرى يدير تركيب الجملة القرآنية فى نفسه ويتبين وجوه الاحتمال؛ وقد هدى إلى معنى جليل لما قال: ويجوز أن يكون فاعل زادهم هدى هو قولهم ماذا قال آنفا لأنه أشار إلى أن التحديات لهذا الدين تزيد أهله قوة ومنعة وحبّاً وإقبالا ودفاعًا عنه، هذا والله أعلم.

وجملة ﴿ **وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ** ﴾ معطوفة على جملة ﴿ **زَادَهُمْ هُدًى** ﴾ ولاحظ الشبه فى البناء بين ﴿ **طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ** ﴾ و﴿ **زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ** ﴾ وكلاهما صلة الموصول، وهذا التصاقب فى الأبنية راجع إلى التصاقب فى المعانى وأن البناء على الاتجاهين المتقابلين أو النمطين المتباعدين بناء واحد، وأن الذين أتاهم تقواهم يحضرون عند القارئ اليقظ صورة الذين اتبعوا أهواءهم وهما متقابلان أشد التقابل لأن التقوى حجَازٌ ووقَاءٌ ووجَاء من اتباع الهوى، هذا شىء، والشىء الآخر أن جملة ﴿ **وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ** ﴾أبعد منالا وأعز مطلبًا من جملة ﴿ **زَادَهُمْ هُدًى** ﴾ مع عزها وسمْو مطلبها وأول ما تلاحظه فيها أن الحق جل وتقدس مدّ يده إليهم بتقواهم فآتاهم تقواهم، وكلمة ﴿ **وَآتَاهُمْ** ﴾ فيها تفضُّل وإكرام ليس فى ﴿ **زَادَهُمْ هُدًى** ﴾ لأنهم فى الآية السابقة طلبوا

الهدى واهتـدوا فزادهم الله هدى، وهم فى هذه الآية لم يطلبوا التـقوى وإنما أتتهم من يد الله من غـير طلب، لم يقل الحق اتقوا فـآتاهم تقواهم كمـا قال اهتـدوا فزادهم هـدى، وإنما جاءتهم التـقـوى نعـمه مـؤتنفـة من المنعم جل وتقدس، وكأنهم لما اهتدوا وزادهم الله هدى فتحت لهم خزائن الرحمة فأوتوا منها خير ما فيها، وهو التقوى، والتقوى هى الوقاية من عذاب الله.

والمهتـدى هو الذى حصل أصل الإيمان وإذا زاده الله هدى فقـد يؤخذ بذنب لم يُغْفَرْ له لتـعلقه بحقوق العبـاد مثلا بخلاف الذى أوتى التقوى فـهذا لا تمسُّه النار لأن التقوى هى الوقاية من عذاب الله، وهى غاية الغايات؛ هى بعد الإيمان وبعد الهدى وبعد زيادة الهدى، والساعـون إلى الله طريقهم محفوف بالمحاذير، والشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم، والويل من حصائد الألسنة، وكل هذا متوقع مع الذى اهـتدى وزاده الله هدى، أما الذى أوتى التقـوى فقد وصل إلى الغـاية وسلم من كل المحـاذير وسلم من كل أخطار الطريق، وليـس بعد إيتـاء التقوى غاية يسـعى إليها العبد إلا رضوان الله الذى هو أكـبر، والتقوى لا تنال إلا بالإحـسـان والإحـسان لا يـنال إلا بالإيمان والإيمان لا ينال إلا بالإسـلام، وراجع مـرة ثانية كلمـة ﴿وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ وكيف كـانت هدية من الله لهم، وكيف كـانت نعمة غـير مترقـبة، ثم راجع أنها بـشارة بحب الله لهم لأن الله يحب المتقين، وبشـارة بأنهم فى معيـة الله لأن الله مع المتقين وتأمل قيـمة هذه المعية، ثم هى بشـارة بحسنَ العاقبـة لأن العاقبة للمتـقين ثم هى بشارة بالولاية لأن الله ولىّ المتقين، ثم راجع ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾، ثم راجع ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ⁽١٥⁾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [الذاريات: ١٦] وفيه معنـى أن الله سبحانه آتاهم تقواهم ليأخـذوا بهذه الصفة التى هى التَّقْوى عطاءه لعباده المتـقين؛ أعنى كل ما وعد الله به المتقين صار لهم منه نصيـب لأن الله آتاهم تقواهم وألاحظ شـيئًا من المفـيد أن أنبـه إليه هو أن إكرام الـله لعبـاده الصالحين فى هذه السـورة إكرام مـتسع جـداً ومتنـوع جداً

ومتميز، راجع سيهديهم ويصلح بالهم، ويدخلهم الجنة عرفها لهم، وأن الله مولاهم، وأنه سبحانه يدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار، وأنهم على بينة من ربهم، ومثل الجنة، وأنه يزيدهم هدى وآتاهم تقواهم.

كما أن غضب الله ووعيده للفريق الآخر متميز جدا، وراجع الآيات وحدك، وأكتفى بالقول بأن تقطيع الأمعاء من ماء الحميم لم يذكر إلا هنا، ووجه هذا التميز فى الوعد والوعيد فى هذه الآيات أنها سورة القتال وأن الصالحين هم الشهداء أو هم الذين قاتلوا وقتلوا بالبناء للمعلوم وللمجهول فكان هذا ثوابهم، والفريق الآخر هو فريق الفجرة المحادين لدين الله والذين حملوا السيف فى وجه الحق، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ [محمد: ١٨].

هذه الجمل الثلاث مبتدئة بالفاء ولكل فاء من هذه الفاءات معنى وارتباط بموقعه، ومعانى هذه الفاءات خفية ودقيقة، ثم هى معان أساسية فى بناء الكلام، وبيان روابطه.

أما الفاء الأولى فإنها تعطف وترتب هذه الجمل الثلاثة على الذى قبلها وهذا العطف وهذا الترتيب هو اللحمة التى تمسك بها آيات السورة بعضها ببعض، وهى الشيء الذى يشد بناء السورة ويقيم هيئته وسمته والفاءان اللذان بعد هذه الفاء روابط داخل الآية، فهى تشد الجمل الداخلة فى بناء الآية ويمسك بعضها ببعض، ثم تكون الأولى مع البناء الكلى للسورة كما كانت الفاءان مع البناء الجزئى للآية، وهذا من دقائق بناء البيان فى الكتاب العزيز وإنك واجده فى الشعر ولكنه ليس على هذا الحد من متانة المعانى وسخائها وتماسكها. وقبل أن أبحث عن الذى ترمى نحوه الفاء الأولى من الكلام السابق أقول إنها دخلت على هل التى للاستفهام الإنكارى، وقد ألفنا الهمزة تدخل على حرف العطف

لأن الهمزة للاستفهام والاستفهام له الصدارة، وقد جاء مثله مع الهمزة ولكن بتقديم الهمزة على حرف العطف كما في قوله تعالى ﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧]، فلماذا التزم حرف العطف التأخير مع الهمزة، والتقديم مع هل وكلاهما من أدوات الاستفهام والاستفهام له الصدارة؟ ودخول حرف العطف على هل سواء كان هذا الحرف الفاء أو الواو كثير في الكتاب العزيز؟

والوجه الذي أراه هو أن الهمزة عريقة في الاستفهام؛ وهل ليست كذلك لأنها كانت تستعمل بمعنى - قد - وكانت تدخل عليها الهمزة، ومن كلامهم الأول أهل عرفت الدار؟ ثم طالت صحبتها للهمزة فتشربت منها معنى الاستفهام فاستغنى بها عن الهمزة، وقالوا إنها أخص بالدخول على الأفعال لاستصحاب معنى الأصل لأنها في الأصل كما قلت بمعنى قد، وقد لا تدخل إلا على الأفعال فكذلك هل التي بمعناها، ويكاد يكون هذا الكلام بحرفه للعلامة سعد الدين التفتازاني وأنا أحفظه لأنه نظر رفيع إلى اللغة ولم أجد وقفات للعلماء عند تشرب الكلمات بعضها من بعض وكيف تظل الكلمة تتشرب من الكلمة حتى تستوفي معناها ويستغنى بها عن التي سَقَتْها هذا المعنى؟ هذا تفكير لغوي نادر.

والذي يعنيني هنا هو بيان أن هل ليست عريقة في الاستفهام فاجترأت عليها حروف العطف، وأخذت منها الصدارة وزحزحتها إلى ما بعد الصدارة بخلاف الهمزة فإن حروف العطف لم تتعامل معها كما تعاملت مع هل، وهذا يشبه قول العلماء أن إنما بمعنى ما وإلا ثم يجيزون أن تقول إنما جاءني زيد لا عمر ويمنعون أن تقول ما جاء في إلا زيد لا عمر لأن شرط المنفي بلا ألا يكون منفيا قبلها بغيرها، فإذا قلت إنه منفي مع إنما بغيرها قالوا لك النفي بإنما نفي ضمني فتسامح أصحاب اللسان فيه، بخلاف النفي بحرف النفي فلم يتسامحوا فيه، وكل هذا من حكمة العربية التي نيطت عليها على حد عبارة أبي الفتح.

والكلام فى الجمل الثلاثة عن الفريق الذى بدأت به السورة وهم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ وهم الذين ﴿اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ وهم الذين ﴿كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ وهم الذين ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، وهم الذين ﴿لا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ وهم الذين ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾ وهم الذين ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ وهم ﴿الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾، هم هذا الخط الممتد من أول السورة إلى هذه الفاء وإنما بدأت السورة بهذا الفريق المظلم المطبوع على قلبه والمحارب لله ولرسوله؛ لأن السورة سورة قتال، ولا يجوز لنا أن ندخل أنفسنا فى قتال إلا فى قتال كتب علينا، وهذا الفريق الأسوأ كتب علينا القتال لأنه لم يكفر فحسب وإنما مارس الصد عن سبيل الله، وقد أُمِرْنا أن نقاتل من صدّ عن سبيل الله ليظل الناس أحرارا فى اتخاذ عقائدهم ثم بعد ذلك ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، و﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، والمطلوب فقط بيان الرشد من الغى، ثم يكون الإنسان حرا لا يُصدّ عن دين يختاره؛ إذن هذه الفاء تصل الآية بهذا الفريق الذى أظهرت منه السورة ما أظهرت من وجوه ضلاله، وطرف الحديث عن هذا الفريق المجاور للآية قوله تعالى ﴿أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾، وبينهما آية ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾، وتجاوز حرف العطف للذى قبله، وهو جاره وصاحبٌ بالجنب إلى البعيد فى المكان والقريب فى الجنس والطبقة والنمط، أقول هذا كثير جدا فى الكتاب العزيز وإن كنت أرى أن آية ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ من تمام آية ﴿أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ لأنها الصورة المشرقة المقابلة للصورة الداكنة -وبضدها تتميز الأشياء- وأن الفاء لا تعطف على ما هو من تمام الكلام على هذا الوجه، وإنما تعطف على الرأس وقد مرت صور كثيرة من هذا.

ونحن فى حاجة إلى أن نعيد استحضار ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ ومقابلة ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ لنزداد وعيًا بقوة المناسبة، والطبع على القلب يعنى إلغاء سلطان العقل الضابط للسلوك، واتباع الهوى يعنى إطلاق حوابس الغرائز والشهوات، وخروج الشيطان المارد من أغوار النفس، وتركه حرا طليقا بلا قيد، وهذا الشيطان المارد هو الذى سماه ربنا ﴿فُجُورَهَا﴾ فى قوله تعالى ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٧] وناهيك عن غياب سلطان العقل وتسلط هذا الفجور على السلوك واتباع الأهواء والغرائز والشهوات، ويقابل الذى اهتدى يعنى حَبْس هذا المارد وفتح الأبواب كلها لهداها وتقواها، وقد رضى الله عنه فأعطاه أمرين لم يُعط أحدا أفضل منهما وهما زيادة الهدى والتقوى، وقال فى الهدى ﴿زَادَهُمْ﴾ وقال فى التقوى ﴿وَآتَاهُمْ﴾ .. وهذه الثانية تعنى أن التقوى مِنَّة منه، ومحض تفضل، ثم تأتى آية فهل ينظرون والاستفهام معناه الإنكار وينظرون معناها ينتظرون وبقليل من التدبر نجد أن ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ جمدوا على هذه الحالة وتصلبوا، والأدلة من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وشمائلهم كلها تُنْذرهم، بالجحيم والخلود فى النار، وسقيا ماء الحميم الذى يقطع أمعاءهم وهم سادرون لا يفكرون ولا يتحركون، وصاروا ينتظرون الساعة أن تأتيهم بغتة من غير أن يفكروا ولو لحظة واحدة فى الذى يواجهون من هول الساعة وهول ما وراء الساعة، الآيات السابقة انتهت بهم إلى هذه الصورة، التى لا يجد عاقل لها تفسيرا، وقد قامت كل الأدلة على أنهم ينتظرون ما لا يطاق من الجحيم، وهم يعرفون ذلك، لأنهم كفروا بعد ما تبيّن لهم أنه الحق وكذبوا على الله وهم يعملون، وهذا عجيب وتعجيب من حالة غريبة لا يجد لها العقل تفسيرا. ومن هذا المعنى تدرك أن الآية الكريمة تغلق بابا لتفتح بابا وراءه وهو ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾.

وهل معناها الإنكار وأصل المعنى فلا ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة، وإنما جاء الكلام على ما جاء عليه لأن الاستفهام ينبِّهُ ويوقظ لأن القوم نائمون وعيونهم مفتوحة، وهذه العيون المفتوحة لا ترى إلا أخطارًا وأهوالا هى الساعة هى الموت والمفاجأة بالموت وما وراء الموت من أهوال، ومع هذا القوم سادرون وجامدون ومستقبلون لهذه الأهوال بقلوب طبع الله عليها وأهواء ابتلعتهم وذهبت بهم فى كل باب من أبواب الجور والظلم والبغى وافتقدوا إنسانيتهم، وكلمة «ينظرون» تفيد معنى النظر ومعنى الانتظار والنظر فيه معنى الرؤية وفيه معنى التدبر كما فى قوله تعالى: ﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧] لأن هذا رؤية ثم تفكّر وتدبُّر للقلب فى الذى تراه العين، وهكذا الحال هنا هم صاروا بمثابة من يرى الساعة وأهوالها، ولكنهم لا يفكرون فى كيفية النجاة من هذه الأهوال، وإنما ينتظرونها، وهم لا يشكون فى قدومها، ولا يشكون أيضا فى أن وقت مجيئها لا ينفع معه إيمان، لأنهم سمعوا من رسول الله ﷺ ووعوا ما سمعوا وقالوا ماذا قال آنفا استخفافا وتهكمًا.

ولا يجوز أن يداخلنا شك فى أن من تصفهم الآية وتتحدث عنهم بأنهم لا ينظرون إلا الساعة موقنين بأن ما سمعوه من رسول الله ﷺ هو كلام الله وأنه مبلغ عن ربه، وأنه عليه السلام حق، وأن الذى أنزل عليه حق، وأن الساعة حق، وأن الجنة حق، وأن النار حق إلى آخره.

قلت لا يجوز أن يداخلنا شك فى يقينهم فيما سمعوه وذلك لأنهم موقنون بأن البيان الذى يخاطبهم به ليس من كلام البشر، وأن كل خبر أخبرهم به كتاب ربنا مصحوب بدليله الذى لا يتطرق إليه احتمال وهو إعجازه البيانى وخرقه لما ألفوه فى بيانهم، وتجاوزه لقدراتهم وهم أعلم الناس بهذا ولا يجهله أحرارهم وعبيدهم ورجالهم ونساءُهم وكبيرهم وصغيرهم، لأن هذه القدرة على تميز الكلام ومعرفة فاضله وأفضله ومعرفة نهاية القدرة البيانية عند الناس ومعرفة حدها الذى لا يمكن أن تتخطاه، ومعرفة أن الذى يتلى عليهم قد تجاوز

هذه القدرة، كل ذلك أبين عندهم من عمود الصبح، ولهذا كفروا وقد تبين لهم الحق، ولهذا أيضا سماهم القرآن كفارا والكافر هو الساتر لشيء، وسمى الزارع كافرا لأنه يستر البذور فى الأرض، وسمى الليل كافرا لأنه يستر الأشياء بظلمته، وسمى الكافر كافرا لأنه يستر الحق الذى تبين له، وهؤلاء الذين لا ينظرون إلا الساعة هم عالمون بكل ما علمه الذين اهتدوا فزادهم الله هدى وآتاهم تقواهم، وهذا هو موضع العجب والتعجيب من شأنهم وهذا العجب والتعجيب متضمن فى كلمة هل، وكلمة هل هذه لا يسأل بها إلا عن النسبة سواء كان الاستفهام حقيقيا أو إنكاريا لأنها خاصة بالسؤال عن النسبة ومن المهم أن تتذكر أننا قلنا ما قاله العلماء من أن لها خصوصية بالفعل لأن أصلها أنها بمعنى قد، وقد لا تدخل إلا على الأفعال، وكذلك هل التى بمعناها ونضيف هنا أيضا شيئًا يزيد خصوصيتها بالأفعال وهو اختصاصها بالسؤال عن النسبة، والنسبة جزء من الفعل لأن كل فعل لابد له من فاعل يُنسب إليه فعل الفعل، فإذا قلت قام دل ذلك على أن هناك فاعل أسند إليه القيام وهذا ظاهر، ومعنى هذا أنها هنا داخلة على إسناد النظر إليهم وأن القصر الذى هو نتيجة دلالتها على الإنكار يعنى أنهم لا ينظرون إلى شىء أى شىء إلا إلى الساعة أن تأتيهم بغتة وهذا زيادة فى التعجيب والتعجب وأنهم لم يعد لهم نظر صالح، لأن ينظر لغير ذلك، وهذا التعجيب والتعجب جدير بأن يوقظ وينبه حتى يخرجوا من هذا التصلب الذى هم عليه.

وإذا سألنا وقلنا لماذا أوثرت هنا كلمة الساعة ولها أسماء أخرى كثيرة مثل القيامة والصَّاخّة والطامة، وهذا سؤال واجب ولا أشك أن وراء ذلك أسرارا وليس عندى منها إلا شىء واحد وهو أن هؤلاء الذين أداروا ظهورهم للأدلة القاطعة التى لا يجهلونها ولا ينكرونها يعلمون علم اليقين أن الله هو الذى خلقهم وأن أجلهم فى يد الذى خلقهم وأن لكل منهم ساعة لا يستأخر عنها ولا يستقدم فهل ينظر كل منهم إلى تلك اللحظة التى تفاجئه وإذا جاءته لا ينفعه إيمان؟ وكلمة الساعة هنا مبدل منه والبدل هو أن تأتيهم بغتة - وهو المقصود

بالحكم وليس الهول فى الساعة وحدها وإنما الهول الأكبر هو المباغتة بها والمفاجأة بها وهم غارقون فى اتباع أهوائهم واتباع شهواتهم ونزواتهم وضلالاتهم وبغيهم والانفلات الكامل من كل الضوابط الأخلاقية والإنسانية، الآية إذن تركز على عنصر المفاجأة وأنه المقصود بالحكم لأنه هو المناسب للغارقين فى الأهواء والمفاسد ورذائل الأخلاق، ولو جاءت الآية بدون هذا البدل وقيل فهل ينظرون إلا أن تأتيهم الساعة بغتة لسقط من الكلام معنى نظرهم إلى الساعة الذى انتقلوا منه إلى مباغتتها وهذا من الفروق الخفية فى بدل البيان، وقراءة إن تأتهم بغتة بكسر همزة إن تكون إن شرطية وجوابها فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم، وعلى هذه القراءة تكون جملة ﴿ **فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ** ﴾ جملة مستقلة ويكون النظر واقعا على الساعة، وهى المقصودة بالحكم وليس فى الكلام بدل، والقراءتان تفيدان معنيين يكون المقصود بالنظر فى واحدة هو المباغتة وفى الثانية هو الساعة التى هى الأجل وتصير جملة الشرط التى هى المقصود فى القراءة الأولى قاعدة المعنى فى الجملة الثانية يعنى أن تأتيهم بغتة فلا ينفعهم إيمان، ولابد أن تستحضر حقيقة وهى أن الله سبحانه لا يخوفهم بالساعة ولا يخوفهم بالذى بعد الساعة إلا وهو سبحانه يعلم أنهم يؤمنون أنه حق، لأن غير المؤمن بالبعث لا يخوف بعذاب وأن الذين قالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا كانوا يكابرون ويغالطون، وهكذا المنكرون للبعث فى كل زمان وأن كل من آمن أن الله خلقه لا يجوز فى العقل أن يؤمن بأنه تركه سُدى وأنه لا يبعث إلى الله ولا يرجع إليه، وخصوصا مع تضافر الأدلة ومصاحبة البيان المعجز من حيث هى دليل على كل معنى قاله القرآن ليست خاصة بجيل المبعث لأن الإعجاز لم يكن لهذا الجيل وحده وإنما كان للأجيال كلها إلى يوم القيامة، ولهذا قال العلماء إنما أمرنا بتلاوته ليظل إعجازه صوتا مسموعا بيننا، ومن يَلْتاثُ عليه بيانه من غير أهل اللسان العربى لن يلتاث عليه وجوه الإعجاز الأخرى، وقال سبحانه ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي**

﴿أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، والضمير عائد على القرآن الكريم وهذا يعنى أن كل جيل سيرى من آيات الله ما يعلم بها أن كتابه حق.

قلت لو علم الله أنهم لا يؤمنون بالبعث ما خوّفهم بالساعة، وقوله جل شأنه ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ جملة ثانية وتأمل العلاقة بين الجملتين تجد الجملة الثانية تنبه إلى معنى جد وهو أنكم لا تنظرون إلا الساعة وها هى علامات الساعة قد جاءت فالواجب أن تتنبهوا لأن الذى تنتظرونه قد ظهرت أوائله وتحت هذه الفاء شرط محذوف وتقدير الكلام إن كنتم لا تنظرون إلا الساعة فقد جاء أشراطها، وهى أخت الفاء التى فى قوله تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦] والتى فى قول الشاعر:

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ... ثم القفول فقد جئنا خراسانا

كأنه قال إن صح ما تقولون فقد جئنا خراسانا، وتسمى فاء الفصيحة لأنها أفصحت عن شرط مقدر وموقعها فى الكلام موقع جيد لأن تحتها شىء آخر ليس الشرط المقدر فحسب وإنما فيها قدر من اللوم والتجهيل كما فى الآية التى معنا وفيها شوب من التبرم والضجر كما فى بيت الشعر، وشىء آخر فى هذه الفاء فى الآية التى معنا يظهر لو عبرت عن الاستفهام بالنفى وقلت لا ينظرون إلا الساعة فقد جاء أشراطها يعنى إن صح أنهم ينظرون إليها فهذه علاماتها وقد جاءهم ما ينظرون إليه. فأى جديد فى موقفهم؟ ولك أن تنطق الذى تحت هذه الفاء لأنى أراها فوق معنى غزير، وقد استحسن عبد القاهر مواقعها ولعلها ومثلها مما ألهمه قوله الرائع فى أسرار المحذوف وفى المعانى التى يُبِينُ عنها هذا المختبئ البعيد عن الألسنة: «تراك أنطق ما تكون إذا لم تنطق وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن» وهذا من الكلام الذى لا تقع عليه ألسنة أهل العلم إلا بعد مكابدة وبعد إلهام من الله كفاء هذه المكابدة.

والأشراط العلامات جمع شرط، قال الشاعر

فَإن كُنْتِ قَدْ أزْمَعْتِ بالصُّرمِ بيننا فقد جَعَلَتْ أشْراطُ أوله تَبْدو

وإذا كان المراد بالساعة القيامة والنفخ فى الصور فقد ظهرت أشراط ذلك لأن بعثة رسول الله ﷺ من أشراط الساعة، نظرا لأنه خاتم الأنبياء والمرسلين وهذا إيذان بالنهاية، لأن الله سبحانه تعهد الناس من يوم أن خلقهم فبعث لهم رسله وأنبياءه، وأنزل كتبه، وأن الرسل منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك، ثم خُتمت كل هذه النبوات بمحمد صلوات الله وسلامه عليه فبعث عليه السلام فى نفس الساعة، ومن علاماتها التى ظهرت انشقاق القمر، اقتربت الساعة وانشق القمر، وإن كان المراد بالساعة هو نهاية الأجل لكل واحد منا نظرا لأن من مات فقد قامت قيامته، فإن أشراط ساعة كل منا كما قال العلماء الشيب والمرض، وهذا تنبيه لمن شابت نواصيه وهو فى الضلال، واتباع الهوى ولم يعد رحلته للقاء ربه، ومن خالطه الشيب ولم يقم على أمر الله ونهيه فليعد راحلته إلى النار.

وتذكر الساعة من أهل العبادة والذكر فِعْل محمود يرضاه الله وحثنا عليه رسول الله ﷺ، وتذكر الموت منه والإكثار من ذكر الموت لانتزاع النفس من الإغراق فى الدنيا، وهى خضرة حُلْوة كل ذلك من الطاعة، أما انتظار الساعة مع الطبع على القلب، واتباع الهوى، ورؤية أشراطها من شيب ومرض ثم لايرعوى من ينتظرها ولم يبادر بعمل الصالحات قبل مفاجأتها فهذا هو المذموم.

وروى عن الكلبى أنه ذكر من أشراط الساعة العامة التى هى النفخ فى الصور كثرة المال والتجارة، وشهادة الزور، وقطع الأرحام، وقلّة الكرام وكثرة اللئام، وكأن الكلبى يرى أن أشراط الساعة هى العوامل المؤدية إلى الفساد والإفساد، لأن الفساد والإفساد أذان يؤذن بالفناء والخراب على ربوات البلاد، والبُومُ لا يرعوى لأنه ليس للبُوم وطنٌ إلا الخرائب، فإذا قلّ الكرام فى قوم، وكثر لئامهم، وقطعت أرحامهم وفشا فيهم الزور وكثرت الثروة

فى يد اللئـام، كان كل ذلك شـاهدا على أفول نجـمهم وذهاب عـزهم وهذا حسن جدا.

بقى الفـرق بين الأشراط والعـلامات وإذا كنا نفـسر الأشـراط بالعلامـات فلماذا خصت هذه الآية بكلمة الأشراط؟

وأدع النظر فى هذا لك لأن المصـادر التى تعين على بيان هذا ليـست بين يدىّ وكلمة ﴿جَاءَ أَشْـراطُهَا﴾ تعنى أن السـاعة قـادمة وراء هذه الأشـراط وأن هذه الأشراط هى هواديهـا، وهى أعناقهـا، وكلمة ﴿جَاءَ﴾ لها دلالة من قـبيل جاء الحق، وجـاء الأجل، وجاءت السـاعة، وجـاء أمر ربك، وكل مـا هو من باب المعانى، وهذا غيـر وجاء أخوة يوسف، وجاء المعـذرون من الأعراب، وكأن الله سـبحـانه الذى بيده أمـر السـاعة قـد بعث هذه الأشراط وأرسـلها لينبـه عبـاده ولينذرهم، وكذلك جاء الحق، فيه أنه مرسل من قبل الله سبحانه كما يجىء أمره جل وتقدس، وهذا من المجاز الخفى الذى ترى وراءه سِراً يعلو به الكلام وينبل.

قوله جل شأنه ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ يتوقف بيان بناء هذه الجملة على ما قبلها؛ على بيان معناها، وكلمة ﴿فَأَنَّىٰ﴾ تأتى بمعنى من أين لك كما فى قوله تـعالى: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَذَا﴾ [آل عمـران: ٣٧] أى من أين وتأتى بمعنى كـيف كمـا فى قوله تعـالى: ﴿فَأْتُوا حَـرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِـئْتُمْ﴾ [البـقرة: ٢٢٣] والاستفـهام الذى فى كلمة ﴿فَأَنَّىٰ﴾ معناه النفى أى ليس هناك حـال تنفعهم فيها الذكرى إذا جاءتهم الساعة والمراد بالذكرى هنا الإيمان، وليس الذكر الذى هو التسبيح والتنزيه لأن هذا ينفع إذا جـاءت الساعة ويُبْعَثُ الذاكرُ حين يموت ذاكرا، لأن المرء يبعث على مامات عليه، والكلام فى الآية فى الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم وظلوا سادرين فى المعصـية والكفر واتباع الهوى وهم ينظرون الساعة ولم يتنبـهوا وجاءتهم الأشراط ولم يتنبهـوا فإذا جاءتهم الساعة وحضـرهم الموت فلا تنفعهم كلمة التوحـيد فى هذا الوقت لأن التوبة

إلى الله إذا حضر الموت لا تقبل، ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾ [النساء: ١٨].

قال أبو حيان: المعنى فكيف لهم الذكرى والعمل بها إذا جاءتهم الساعة وأصل الجملة أنى لهم الذكرى إذا جاءتهم الساعة، والذكرى المراد بها الإيمان كما قلت وهى مبتدأ مؤخر و«أنى» مبتدأ ثان، ولهم خبر المبتدأ الثانى والمبتدأ الثانى وخبره خبر المبتدأ الأول و﴿إِذَا جَاءَتْهُمْ﴾ ظرف معترض بين المبتدأ والخبر، وهى ظرف لنفى الانتفاع المفهوم من الاستفهام، وكلمة (أنى) التى هى مبتدأ ثان وتقدمت لأن الاستفهام له الصدارة هى أصل المعنى فى هذه الجملة، وبعد هذا البيان يمكن أن نرجع إلى بيان وجه تفريع هذه الجملة على جملة ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ التى هى متفرعة على جملة ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ﴾ ومعنى أنهم لم ينتفعوا بالذكرى يعنى الإيمان إذا جاءت الساعة أنهم رأوا الأشراط ولم يعدِّلوا موقفهم وصاروا على حالهم الذى وَصَفَته آية ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ والجملة الأولى تتضمن الحثَّ على النظر النافع للساعة، وليس النظر اللاهى والآية الثانية تتضمن مزيد حَث لأن الأشراط قد جاءت، والآية الثالثة نذير إلغاء الفائدة إذا أخرنا الإيمان إلى مجىء الساعة وهذا هو وجه تركيب الجمل الثلاثة وبناء بعضها على بعض، ويسهل علىّ أن أفهم ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ ثم أفهم فقد جاء ﴿جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ ثم أفهم﴿ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾، ما دامت الجمل معزولا بعضها عن بعض، والصَّعْب جدا هو وجه بناء الثانية على الأولى، ووجه بناء الثالثة على الثانية، وهو الباب الذى يدق فيه الصنع كما قال الشيخ الإمام.

وراجع ترتيب هذه الجمل الثلاث مرة ثانية لأن فى هذا الترتيب معنى تدركه الصفة ولا تحيط به المعرفة وأكرم ما يقع فى قلبك من كلام الله ليس هو الذى استخرجه العلماء لك وإنما هو الذى يقلبه لسانك ويستخرجه طبعك وتقع عليه معرفتك بأسرار كلام العرب.

ومما يتصل ببناء هذه الجمل بعضها على بعض ووجوه ترتيبها أنك تلاحظ ترتيبا فى جزئية من جزئيات هذه الجمل وهو أنها بدأت بانتظار الساعة ثم خطت خطوة فذكرت مجيء أشراطها، ثم خطت الثالثة وأفادت أنها جاءتهم ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ﴾ لأن فاعل جاءتهم هو الساعة، يعنى انتظار ثم مجيء علامات ما ننتظره ثم مجيئه، وآخر ما أقوله فيها هو مراجعة هذا الإيجاز الشديد الذى بنيت عليه الجمل الثلاث وأنها تكتب فى سطر واحد يطوى وراءه حياة جماعات غارقة فى الغفلة وهى تنظر بعيونها وتنتظر بقلوبها ساعة الواقعة القاصمة وتصر على أن تكون وهى تنظر وتنتظر على الحالة الموجبة لهلاكها وعذابها، وخلودها فى النار، تسقى ماء حميما يقطع أمعاءها، وما يفيده الاستفهام من إنكار هذه الحالة العجيبة، وأريد أن أشير إلى هذا الإيجاز وعليك أنت أيها القارئ أن تدخل فيه، كما أنه عليك أن تتبيّن معنى الفاء التى جاءت فى أنف الآية ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ والتى ارتبطت الجمل التى بعدها بها وصارت هذه الفاء المسؤولة عن المعنى الذى ترتب عليه ما بعدها، ولو قلت إنها راجعة إلى قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ تكون قد أصبت لأن ما بعدها أشبه بهذه الجماعة التى طبع على قلوبها واتبعت أهواءها، ولو قلت إنها معطوفة على رأس السورة ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ وما تفرع منه من أحوالهم التى ذكرتها السورة مثل الدعاء عليهم بالتَّعْس وقطع الأدبار، وأنه زُين لهم سوء عملهم إلى آخره تكون أيضا قد أصبت لأن هذا عرق السوء الذى جرى فى السورة ويقابله ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد: ١٩].

هذه الآية انتقلت فيها السورة من طريق المقابلة بين الفريقين الذين كفروا

والذين آمنوا إلى خطاب رسول الله ﷺ الذى بلّغ ما أمره الله به وكان هذا الانقسام من أثر بلاغه ﷺ، والذين آمنوا آمنوا بما أنزل عليه والذين كفروا بما أنزل عليه، وهذه الآية هى رأس ما أنزل عليه صلوات الله وسلامه عليه، لأنها شهادة الوحدانية وهى أفضل ما قاله عليه السلام وما قاله النبيون قبله، وهى رأس كل نبوّة وكل رسالة، وكل كتاب، وفيها الشهادة الثانية وهى الشهادة بأنه عليه السلام عبد الله ورسوله، ووجه دلالة الآية على ذلك هو خطابه عليه السلام بالوحدانية التى هى أصل رسالته وأهل بلاغه، فمن شهد بأنه عليه السلام بلغها فقد شهد بنبوته صلوات الله وسلامه عليه.

وأحرص على أمرين أُصيب فيهما أو لم أُصب، الأمر الأول علاقة الآية بالتى قبلها والتى تُلامِسُها والتى انتقل الكلام منها إليها، والأمر الثانى علاقة الآية بسياق المعانى فى السورة، وكشف الوشائج التى بينها وبين المكونات التى تكوّنت منها السورة ولماذا وقعت هنا وهل كان يمكن أن تتقدم أو تتأخر؟ ولماذا؟ وكل ذلك فيه ما هو ظاهر وما هو خفى وما هو سهل وما هو صعب.

أما علاقة هذه الآية بأختها التى سبقتها فهى لا شك علاقة ظاهرة بين الطرف الأخير للتى قبلها ورأس هذه الآية لأن آخر كلمة هناك هى ﴿**فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ**﴾ والمراد بذكراهم هو الإيمان كما أجمع المفسرون لأنه هو الذى لا يقبل إذا جاءت الساعة أما الذكر والتسبيح والاستغفار والتنزية فإنه مقبول أبدًا وحبذا هو عند الغرغرة، وحبذا هو إذا لم ينقطع إلا عند انقطاع النفس حتى يبعث صاحبه ذاكرا، وقوله سبحانه فى رأس هذه الآية ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ**﴾ هو الذكرى وكأن فاعلم أنه لا إله إلا الله هو شرح لهذه الذكرى، وهذا ظاهر، وإذا رجعت خطوة إلى الوراء رأيت الذين اهتدوا وزادهم الله هدى، وأتاهم تقواهم، إنما اهتدوا لما قالوا لا إله إلا الله، وأتاهم تقواهم لما استمسكوا بكلمة التقوى لأن لا إله إلا الله

هـى كلمة التقوى، وإذا رجعت خطوة ثانية إلى الوراء وجدت الذين طبع الله على قلوبهم واتبعـوا أهواءهم وهم الذين رفضوا لا إله إلا الله ورفـضوا بلاغ محـمد صلوات الله وسلامـه عليه، وهكذا تجد الآية من مـعدن الآيات التى كوّنت السورة، ومرتبطة بها على وجه ظاهر.

أما عـلاقة الآية بسيـاق السورة وعلاقـتها بـالموقع الذى وقعت فيـه ووجه تمكنهـا هنا خصوصـا، فهـو أنها تحمل مـعنى هو محض نبـوة محـمد ﷺ وخلاصة نبوات الأنبياء، والرسل من قبلـه، وما كان الناس فريقين فريق كفر وصدّ عن سبيل الله وفريق آمن وعمـل الصالحات وآمن بما نزل على محمد، ما كان هذان الفريقان إلا لما دعاهم صلوات الله وسلامه عليه إلى الله وحده، ونبذ مـا هم عليه من شـرك، ووثنية، ثم إنها وقـعت هنا خصـوصا لأن هنا مَفْصـلا مُهماً من مفاصل السـورة لأن هذه الآية الكريمة أغلقت باب الحديث عن الذين كـفروا وصـدوا وفـتحت باب الحـديث عن الذين أظهـروا الإيمان وأبطنوا الكفر، وكانت الآية الكريمة بمثابة راية ترفع عند هذا المفترق من حركة المعنى فى السـورة لتكون شـاهدا على الذين كـفـروا ظاهرا وباطنا وحـملوا السلاح فى وجه الذين آمنوا ولتكون أيضا شاهدا على الذين أعلنوا إيمانهم بها وأبطنوا كفرهم بها مع مـلاحظة أنك قد تشمُّ ريح النفاق من آية ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ﴾ ومما يعين على فـهم ما أقـوله أن تراجع مضـمون ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ وأن المعنى فى السـورة وهو ينتـقل من باب إلى باب يعـلن الجذر الذى تـتحـرك السورة حوله والذى يجرى فى كل كلام فيها.

ثم إنك تزداد اقـتـرابا مـن الآية إذا علمت أنه عليـه السـلام لـم يقل له ربه ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ إلا فى هذه الآية وخطابه عليه السلام بهذا الأمر قريب جدا من خطاب الله سبحانه لأبيه إبراهيم كما قال لربه ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة: ٢٦٠]،

وهذة آية من أكـرم كلام اللـه وأبرِّه وأبرده على النفس التـواقة إلى مـزيد من اليـقين، وإلى الإيمان الذى به تطمئن القلوب، فـقال له ربـه خذ ﴿أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ﴾ إلى آخره. . . وآخرها ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وإنما قال لإبراهيم ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ لأن إبراهيم طلب أن يريه الله سبحانه فعلا من أعظم أفعاله وهو إحياء الموتى فرأى إبراهيم فعلا لا يكون إلا من الله، وهذا معنى عـزيز يعنى متفـرد فى هذا الوجود لا يشبـهه شىء ولا شريك له فى ملكه وحكيم يفعل ما يفعل بعلم وحكمة ولم يخل أمر من أمره من حكمـة، وأبْرز ما نرى فـيه الحكمـة هو إحيـاء الموتى ورجوع الخلق إلـيه وحسابهم وثوابهم وعقابهم.

ثم إن رسول الله ﷺ لم يكن يجهل أنه لا إله إلا الله، ولم يطلب ما يطمئن به قلبه، ويـقول أهـل الـعـلم إن الأمـر بـفـعـل يزاوله المأمـور يـكـون المطلوب به الاستـمرار كـما فى قولـه تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾ [النساء: ١٣٦] و﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]، وهذا جيـد وإن كان يرد عليه أنه ﷺ مسـتمر على التـقوى ولا يتوقع منه غـير ذلك، ولهذا يمكـن أن نبحث لمثل هذا الأمر عـن علة مع هذه العلة وهى هنا تجـدُّد العلم بأنه لا إله إلا الله ولابد من ملاحظة أن الخطاب وإن كان موجها إلى رسـول الله ﷺ فالمقصود هو الأمة من ورائه إلى يوم أن ينفخ فى الصور، ومعنى تجـديد العلم بأنه لا إله إلا الله تجديد النظر فى الأدلة العقليـة المنصوبة فى السماء ذات الأبـراج والأرض ذات الفجاج وفى أنفسكـم إلى آخره، ثم تجديد النظر فـى الأدلة النقلية فى الكتـاب العزيز، وهو أحسن الحديث وهو المهيمن وهو المصدق لما بين يديه، وهو الذى ليس بعده حـديث يؤمن عليـه الناس، وهذا يعنى أن أهل الإيمان لا يجـوز أن يغـفلوا عن إيمانهم، لأن القلوب يُغَانُ عليها كما قال ﷺ، وأن تجديد النظر هو الذى يذهب بهذا الغَيْن ولهذا أُمرنا بالذكـر لأن الذكر يجدد الإيمان، ولاحظ أننا أمرنا بالذكر

فى الأحوال كلها ﴿قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣] وفى الأوقات كلها ﴿حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧] بكرة وأصيلا وناشئة من الليل وإدبار النجوم وعليك أن تستقصى الأوقات والأحوال التى ندبنا ربُّنا فيها لذكره، ثم تكرار ذكر الأدلة فى الكتاب ثم تكرار الأمر بالنظر والتفكر والتعقل والتدبر كل هذا لتجديد الإيمان وكل هذا تحت ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ ثم إننا أمرْنا باجتناب المعصية لأن كل ذنب تُنْكَتُ له فى القلب نكتة سوداء، ومن الذنوب ما يرتفع الإيمان من القلب حين مزاولتها لقوله عليه السلام «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن» إلى آخره، والإيمان يزيد وينقص وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وأظن والله أعلم أن قوله تعالى لرسوله الكريم ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ ليس بمعزل عن ذلك إذا لم يكن المراد منه ذلك، ثم إنه عليه السلام خوطب هذا الخطاب فى الكتاب العزيز ثلاث مرات هذه الآية واحدة منها، والباقيتان كان المأمور بعلمه فيهما ليس هو الوحدانية وإنما المأمور بعلمه تهديد الرافضين لأمر الله ونهيه، والأولى من الباقيتين فى سورة المائدة، وقد أمره ربه أن يحكم بين الناس بما أنزل الله ونهاه عن أن يتبع أهواءهم وحذره من أن يفتنوه عن بعض ما أنزل الله إليه ثم قال جل شأنه ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩] فالمأمور بالعلم به هو أن الله سبحانه يريد أن يُصبهم ببعض ذنوبهم وهذا من ألدِّ صور الغضب، لأن الله سبحانه وتعالى يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر، ولا يريد أن يصيب قوما ببعض ذنوبهم إلا إذا لجُّوا فى المعصية والمخالفة، والكبرياء، والاستعلاء، واقرأ الآية مرة ثانية وضَعها على الواقع حولك وراجع مراوغات الذين يعطلون الحكم بما أنزل الله ويحاربونه وكيف يتبعون أهواءهم؟ وكيف يصرفون الناس عن معانى آيات الكتاب العزيز التى تطالب الأمة بالحكم بما أنزل الله وكيف يؤلون وكيف يُلَبِّسون وكأن الآية نزلت فينا ونزلت الآن. واحذر أن تكون

مُغَفلا وأن تصدق الذين يزعمون أنهم يحكمون بما أنزل الله، وقد اتسعت ثرواتهم من أموال الشعب وينهبون ما يشاؤون ويستحلون ما يشاؤون ثم ينادى المنادى بقطع يد سارق العنزة فى الساحة الفلانية، ثم يجتمع الناس ويرون يد السارق الأكبر تقطع يد السارق الأصغر، هذه تمثيليات ومسلسلات وليست من الله فى شىء، وقد آنَ الأوان الذى يجب على الناس أن يقولوا فيه كفى كفى. والآية الثانية قوله تعالى فى سورة القصص ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠]، وحذو الكلام واحد فى الآيتين، وأن جملة فاعلم جواب شرط والشرط فى الآيتين قريب جدا فهو التولى فى آية المائدة يعنى رفض الحكم بما أنزل الله وهو عدم الاستجابة فى آية القصص وعدم الاستجابة شىء متوقع بل إنه لا يمكن أن يكون غيره وهو دعوتهم إلى أن يأتوا بكتاب من عند الله أهدى من كتابى محمد ﷺ وموسى عليهما السلام ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٩) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٤٩، ٥٠].

هذه مواقع خطاب الله سبحانه لنبيه ﷺ بقوله له ﴿فَاعْلَمْ﴾ ونحن مأمورون بهذا الخطاب من ورائه صلوات الله وسلامه عليه لأن كل أمر ونهى له عليه السلام المراد به الأمة إلا ما كان خاصا به، وكلمة «اعلم» دالة دلالة ظاهرة على أن ما يأتى بعدها له عند الله شأن، وأنها بمثابة تنبيه وإيقاظ وكان يمكن للكلام أن يأتى بدونها، وأن يقال لا إله إلا الله وأن يقال فى آية إبراهيم ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وهكذا لأنها ليست جزءاً من دلالة الوحدانية، كما كان يمكن أن يقال فإن لم يستجيبوا لك فإنما يتبعون أهواءهم وهكذا، وإنما جىء بها فى كل ذلك للإشارة إلى مزيد العناية بما يأتى بعدها وأن الله سبحانه يقوله ليعلم لأن العلم به له عند الله مكان.

وقد خوطبنا فى الكتاب العزيز بهذا الأسلوب كثيرًا كقوله تعالى ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، وقوله جل شأنه ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ [التوبة: ٢] ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٧] وفيها ما قلناه من الدلالة على أن ما يأتى بعد الأمر بالعلم مما يؤكده ربنا فى نفوسنا لأن له شأنًا فى ديننا ودنيانا.

وقد وَددَتُ أن أدرس الآيات التى ذكرت فيها كلمة «واعلموا» لأتبين خصوصية ما حثّنَا ربُّنا عليه بهذا التنبيه، وهذا الإيقاظ ، وأن أُضِيفَ إليها الآيات التى فيها كلمة (ألا) الاستفتاحية، وكلمة (هلا) التحضيضية وضمير الشأن لأن كل هذا يُرَادُ به التنبيه والإيقاظ لأتبين أيضًا المعانى التى ساقها لنا ربنا فى هذه الأساليب لأن هذا من حق ربنا علينا.

والفاء التى ابتدأت بها هذه الآية الكريمة ترتب ما بعدها على كل ما جاء فى السورة قبلها من ذكر للفريقين وأحوالهما، وثواب أهل الحق وعقاب أهل الباطل وهذا كلام علمائنا وهو كلام جيد لأنه يربط الجزء بالكل فى السورة ويشير إلى ما وراء ذلك من وحدة، وأن السورة ممسك بعضها ببعض، وإذا كان هذا فى بلاغة الكتاب فهو لا محالة فى بلاغة الشعر والنثر لأن الكتاب نزل بلسان عربى مبين، وقال أهل العلم إن عربية اللسان لا تعنى عربية كلماته وإنما تعنى أيضًا عربية طرائقه وأساليبه.

وقد فهم علماؤنا أيضًا من الآية الكريمة معنى جليلا آخر وهو أن الله جلّت حكمته يشرح لنا ضرورة أن نعلم قبل أن نعمل لأن العمل قبل العلم خبط عشواء، والمولى جلت آلاؤه لا يتقبل منا أى عمل إلا إذا جاء على وفق أمره ونَهْيه، فلا بد من علم أمره ونهيه، وإلا كان العمل باطلا، وهذا منهج يجب أن نوسِّعَه حتى فى دروسنا فإذا علمنا طلابنا قاعدة فلابد أن نعقبها بتعليم آخر هو تعليم العمل بها، فإذا علمته أن الفاعل مرفوع فلا بد أن أدرب لسانه على رفع الفاعل فى جملة من الجمل حتى تبدأ ملكته اللسانية تنحو

نَحْو كلام العرب، وقد لفتنى أن لسان العربية بنى على ذلك فالعلم والعمل من حروف واحـدة، وهذا يعنى شدَّة الارتباط بينهـما، وأهم من هذا أن اللام فى كلمة علم تقـدَّمت على الميم فى كلمة عمـل وهذا هو ترتيب اللام فى حروف الهجاء؛ وكأن كلمة علم فيها إشـارة فى بنائها اللغوى إلى تقدمها على العمل، وليس هذا من باب المصادفـة لأن اللغة تخلو من المصادفة، وإنما بنى فـيها كل شىء على أصْلٍ من أصول الحكمة، وهذا مما يجب أن نعلمه لأجيالنا.

وذكر الزمخشـرى أن سفيان بن عيينة سئل عن العلم فـقال ألم تسمع قوله حين بدأ به فقال ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ فأمر بالعـمل بعد العلم، وقال ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الحديد: ٢٠] إلى قوله ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد: ٢١]، وقال ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨] ثم قال بعد ﴿فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة:٢٣٥] وقال ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ [الأنفال: ٤١] ثم أمـر بالعمل بعد، وهذا كلام جليل جداً وأرانى شديد الولع بالبحث عن مثله لأنى أحبُّ أن أعْرف كـيف كان يفهم هذا الجيل مـا أنزله الله عليهم؛ وقبل ذلك كـيف كان يفهم بيان العربية وكيف كان تعى شعـر شعرائها، وبيان بيانها، وكيف فهم عن رسول الله وكيف فهم عن الله.

كل هذا يضىء لنا طريق الفـهم، وترى فى هذا النص أن ابن عيـينة وضع يده على معنى نفـيس جداً من طريق قريب جـداً وفَطِن إلى أن أمره سبـحانه وتعالى بالعلم، ثم أمره جلت قدرته بعد ذلك بالعمل، يعنى ضرورة أن يكون العلم قـبل العـمل، وقـد ذكـرت الكتب أن عـمـر بــن الخطاب لما طلب من رسول الله ﷺ أن يتـخذ من مقام إبراهيم مـصلى قبل نزول الآية، ولما طلب منه ضرب الحـجاب على أمهـات المؤمنين قبل نزول الآية، ثم صدّقـة ربُّه كان عمر يصدر فى كل هذا عن وجوه من الفهم للآيات، ولم يكن حَدْسًا يُلْقى فى القلب من غير توجيه لكلام من كلام الله، وقد شرح بعض المفسرين هذا؛ قلت

هذا لأن العلم الذى استخرجه جِيلُ الصحابة من كلام الله من أنفس العلم وأهداه لنا، ومن أبر العلم بنا، ولا يعلوه إلا علمان علم علمه؛ الله لنا فى كتابه وعلم أخذناه عن الحبيب المختار صلوات الله وسلامه عليه والمشكلة أنه مفرق فى الكتب.

قلت إن هذه الآية وقعت فى مفصل من أظهر مفاصل السورة لأنها تطوى صفحة الذين جاهروا بالكفر، وحملوا السلاح فى وجوهنا، وصدوا عن سبيل الله، وبدأت بعدها صفحة الذين فى قلوبهم مرض من أهل النفاق، وهم الذين يعيشون فينا، ويصلوت لقبلتنا، ويلبسون ثيابنا، ويكتبون بأقلامنا، وهم أخطر علينا من السابقين، والذى لم أقله هو لماذا كانت هذه الآية خصوصًا فى هذا المفصل؟ والآيات التى تقع فى مفاصل السور كثيرة أعنى متنوعة المعانى، فلماذا جاء هنا المفصل معبرًا عن الوحدانية والاستغفار؟

والجواب والله أعلم، هو أن أهل دين الله وهم الذين يؤمنون ويجاهدون بأموالهم وأنفسهم سيكونون بين هذين العدوين ما بقيت السموات والأرض، ومن يوم أن نزل الكتاب على سيد الخلق إلى يوم أن ينفخ فى الصور فقد كان عليه السلام والذين آمنوا معه بين عدو يحمل سلاحه فى وجوههم، وبين مُنَافقين مُنْدسِّين فى صفوفهم، ثم كان هذا نفسه هو حال الأجيال من بعده عليه السلام، وهكذا نحن اليوم، بين عدو ظاهر، وعدو خفى يسكن تحت جلدنا وليس لنا مَدَدٌ نستمد منه القوة والعزم، ونحن فى هذه المواجهات إلا الرجوع إلى العقيدة التى عقدنا عليها قلوبنا، وهى لا إله إلا الله نحامى عنها، ونحيا بها، ونموت بها، ونلقى الله عليها وأسْعَدُنا وأبَرُّنا وأصْلَحُنا من مات عليها، وبعث عليها يعنى مات وهو يقول لا إله إلا الله، وبعث على ما مات عليه، يَعْنى حين يُنْشَر يُنْشَر وهو يقول لا إله إلا الله، وهؤلاء أصحاب الفوز العظيم، الآية تشير إلى أن الطاقة التى يكون بها العزم الذى لا يلين، والحزم الذى لا يتردد، هو لا إله إلا الله، ثم تطهير القلوب بالاستغفار الدائم، وتجليتها بالذكر، وإزاله الرَّيْن، والغَيْن الذى قد يعلق بها بالاستغفار، لأن هذا الاستغفار هو الذى تَتَوهّجُ به لا إله إلا الله حتى تبلغ بالنفس أقصى ما يمكن

أن تبلغه من الشبات والقوة، ولما أرسل الحق جل وتقدس نبى الله موسى ومعه هارون إلى فرعون وكان فرعون أطغى أهل الأرض وأفجرهم وأشدهم سَفَكا وأشرسهم فى الباطل، وكان موسى وهارون يعرفان عنه هذا فقالا لربهما ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ [طه: ٤٥] فقال ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] ثم أوصاهما بالذكر وقال لهما ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ [طه: ٤٢] فهذا الذى فى الصدر من العزم والإصرار هو أول طريق النجاح فى مواجهة الباطل، وهذه القاعدة ليست مقصورة على مواجهة أصل الكفر، والنفاق، وإنما أيضًا يجب أن يكون لها وجود فى قلب كل من يواجه فسادًا، أو باطلا، سواء كان الفساد فى الفكر والرأى، أو كان فسادًا فى السياسة، والحكم، أو كان فى أى موقع يمكن أن يكون فيه، فإذا انعقدت قلوب أهل الصواب والحق على يقين ثابت أصابت وانتصرت وحقق الله على يديها الخير.

الآية تنص على معنى وتشير إلى معنى، أما المعنى الذى تنص عليه فهو أنه لا يدفع عن الحقيقة الخالدة التى هى حقيقة التوحيد، إلا مَنْ كانت هذه الحقيقة متوقدة بين جنبيه، ومالكة لأمره كله، وهى أحب إليه من نفسه، وماله وولده، لأن حبه لله ولرسوله ما كان يمكن أن يكون إلا بعد وجودها فى قلبه، فهى الطريق إلى حب الواحد الأحد، جل وتقدس وحب المبلغ عن الواحد الأحد صلوات الله وسلامه عليه، ثم إن هذه العقيدة المتوقدة فى القلب لابد من رعايتها، وصَوْنها، والقيام عليها، حتى لا يتسلل إليها ما من شأنه أن تَفْتُرَ به من ذنب وإن قلَّ، وهذا السياج هو الاستغفار الدائم وألا يفتر المرء فى ذلك، وأهل الله هم الذين يذكرون ويسبحون الليل والنهار ولا يفترون، وهؤلاء هم جند الله، وهؤلاء هم المنصورون، وإنا جندنا لهم المنصورون، هذا ما تنص عليه الآية الواقعة فى هذا المفصل أمَّا ما تشير إليه فليس يحصى وإنما أذكر منه ما أنا فيه، وهو أنك إذا كنت مؤمنا بصواب وداعيا إليه، فالواجب عليك أن تقف مع نفسك فى الوقت بعد الوقت لتراجع هذا الصواب الذى أنت مؤمن

به، فقد تكشف لك الأيام وجها من الوجوه التى تخالف هذا الذى أنت مُؤمن به، فإذا زادتك المراجعة إيمانا ويقينا كانت هذه المراجعة زيادة فى عزمك وإصرارك على دعوة الصواب التى أنت مؤمن بها وإذا رأيت فى وجهتك شيئا يجب أن يُعدَّل أو يُراجع فلا تتردد لأن الرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل، وهذه المراجعات يشير إليها فى الآية الاستغفار الذى يُنقى القلب من الأكدار ويُنقّى الرأى من الشوائب، هذا والله أعلم؟

بقى سؤال لماذا لم يقل لنا ربنا فاعلموا أنه لا إله إلا هو، وأمرنا عن طريق توجيه الأمر لسيدنا وقائدنا صلوات الله وسلامه عليه؟

ذكرت أن فى هذا إشارة إلى أهمية الأمر الذى لم يوجهه ربنا إلينا مباشرة وإنما وجهه إلى سيد خلقه صلوات الله وسلامه عليه، وفيه أيضا إشارة إلى أنه ليس هناك من يُستَثْنى من التذكير بالخير، والتحذير من الشر، وليس فوق التذكير بالوحدانية خير، وليس بعد الذنب شر، ولا يجوز لأحدٍ يُقال له اعلم أنه لا إله إلا الله أن يقول إنى أعلم، ذلك لأن العلم بهذه الحقيقة مختلف جدا، لأنها تعنى أن تعتقد أن الأمر كله لله، وأنه لايملك لك أحد شيئا، وهذا يعنى أن تعيش حرا قويا، داعيا إلى الخير، وإلى البر والرحمة والأمانة، والصدق، والعدل، وأن تعيش أيضا مواجها للباطل والفساد والغش والكذب والغطرسة والقهر، واللصوصية، هى كلمة واحدة لم تترك خيرا إلا دَعَتْ إليه، ولم تترك شرا إلا نهت عنه، وليست كلمة ترددها ألسنتنا، ونحن غاطسون فى الغش، والكذب، والتزوير، والتدليس، والسلب، والنهب، هى كلمة تزرع الأرض خيرا، وبرا، ورحمة، وعدلا، يذكّر بها الكبير، والصغير، وتقال لأكبر رأس كما تقال لأصغر رأس، وحسبك أن الله سبحانه وتعالى أمر بها أعلم الناس بالله وأشد الناس خشية لله، ومثلها واستغفر لذنبك، وهو المعصوم صلوات الله وسلامه عليه، وأمره بالاستغفار لذنبه فيه ضرورة أن يغسل الإنسان قلبه بالاستغفار والتوبة، وأن يكون قائما على حراسة نفسه حتى لا يواجه الباطل،

وفى قلبه من الإثم شيء، ولابد أن نذكر أن الآية وقعت فى المفصل بين ذكر الشاهرين سلاحهم فى وجه دين الله وبين الذين يبطنون الكفر ويظهرون الإيمان، وأنها وجّهت لسيد المجاهدين صلوات الله وسلامه عليه، وأن السورة سورة قتال بين فريقين فريق هو حزب الله، وفريق هو حزب الشيطان، وأن المجاهدين فى سبيل الله لابد أن تبرأ نفوسهم من كل أمراض قلوب أهل الباطل، وأنهم لم يجاهدوا لدنيا يصيبونها، وإنما هم مجاهدون لإعلاء الحق، والخير والعدل فى هذه الأرض فلابد من طهارة النفس، وقد قال عليه السلام، «إنه ليُغان على قَلبى، وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة» ويغان على قلبى يغام عليه ويُغَشَّى، والحديث رواه مسلم، وفيه أن الاستغفار لم يكن فقط لارتكاب معصية وإنما الغفلة عن الاستغفار والذكر والتسبيح من الذنب، وقد أمر عليه السلام بالاستغفار ولم يرتكب ذَنْبًا وفيه إشارة إلى أن الذنوب هجامة على القلوب، لو تركت هذه القلوب من غير حراسة، وأن الحراسة الواعية التى تدفع الذنوب هى الذكر والتسبيح والاستغفار.

قوله سبحانه ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ الأجرى فى كلام الله أن تذكر المؤمنات مع المؤمنين ويجرى الكلام على طريقة التغليب كما فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ١٠٤] والمراد نداء المؤمنين والمؤمنات، وقوله جل شأنه ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٧] وهم يستغفرون للمؤمنين والمؤمنات، وهكذا أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وقوله سبحانه ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ﴾ [التوبة: ١١٢] إلى آخره، فلماذا نصّ هنا على المؤمنات؟ والجواب أن هذا له نظائر فى الكتاب أيضا كما فى قوله تعالى ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وقوله سبحانه ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، وقوله ﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢] إلى آخره وهو كثير وإن كان التغليب أكثر.

ولم أقرأ كلاما لمن يؤخذ عنهم العلم فى ذلك، مع أنه موضوع جدير بالمراجعة وليس أمامى إلا أن أجتهد وإن كنت لست أهلا للاجتهاد، والاجتهاد من غير أهل الاجتهاد حرام فى الفقه والعقائد وليس حراما فى أى باب آخر من أبواب العلم، ومنه ما أنا فيه فإن أصبْتُ فذلك من فضل الله وعطائه وإن أخطأت كان خطئى أيضا مناً وعطاء إذا كان هذا الخطأ سبيلا إلى صواب غيرى، والمهم أن ذكر المؤمنين والمؤمنات بدل طريق التغليب فيه قدر من التفصيل ليس فى التغليب، فإذا قلت غفر الله للعمرين ووازنته بقولى غفر الله لأبى بكر وعمر وجدت الجملة الثانية فيها عناية أكثر بالشيخين الجليلين، لأن التفصيل مَظنّه العناية، ثم إن التفصيل أتاح لى أن أقدم ما أريد تقديمه، وهو أبو بكر أو الأب فى قولى رحم الله أباك وأمك بدل رحم الله أبويك، وأظن أن هذا ظاهر، ولو رجعت إلى ما فى الكتاب من ذكر المؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات إلى آخره لوجدت فى السياق مزيد عناية بالفريقين، ومزيد عناية بتمييزهما، فآية سورة الأحزاب إن المسلمين والمسلمات أولا ذُكرت فى سياق مخاطبة أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن، وقبلها ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٤] وهيأ ذلك لعدم ذكر الجمع بصيغة التغليب، ثم أتْبعتْ بما يدل على أن المقام مقام تفصيل، وذلك قوله سبحانه ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦] وكان يمكن أن يكتفى بذكر المؤمن عن ذكر المؤمنة كما فى آيات كثيرة ولكن المقام اقتضى ذلك لمناسبة نزول الآية وإن كان المقصود عموم اللفظ، أقول هذه واحدة، الثانية أن مقام الاستغفار يقتضى التخصيص وكأن الحق جل وتقدس يقول لسيد الأمة واستغفر لكل مؤمن ولكل مؤمنة، وهذا هو الأشبه بالمقام، ولم تقع كلمة الاستغفار على المؤمنين والمؤمنات إلا فى هذه الآية، والمستغفر هو رسول الله ﷺ والمستغفر لهم هم أحبابه الذين آمنوا بما أنزل إليه، وأنه الحق من ربهم، والذين خرجوا يجاهدون

أعداء دينه بأموالهم وأنفسهم، والذين اشترى الله منهم أنفسهم بأن لهم الجنة، والسورة سورة القتال فاقتضى إعلان حبِّه لهم بأن يستغفر لكل مؤمن ولكل مؤمنة، وقد وقع الاستغفار على الذين آمنوا من حملة العرش فى سورة غافر ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٧] هؤلاء حملة العرش يستغفرون للذين آمنوا وهذا نبى الأمة يستغفر لذنب كل مؤمن ومؤمنة، والإجمال بالأول أولى والتفصيل بالثانى أولى وهذا أيضا ظاهر. وشىء آخر فيه من الغِبْطة والمسرَّة ما لا يقادر قدره، وهو أننى أذنب ورسول الله الذى هو خير من خلق الله وبرأ يستغفر لذنبى، فى أى مقام أكون أنا إذا كان خير الخلق يستغفر لذنبى؟ ثم فى أى مقام أكون إذا كان استغفاره ﷺ لذنبى بأمر من الله الغنى الحميد الذى له ما فى السموات وما فى الأرض؟ ومن أكون أنا حتى يأمر رافع السموات من غير عمد ترونها رسوله الذى هو أحب خلقه إليه أن يستغفر لذنبى ولذنبك ولذنب كل من شهد الشهادتين إلى يوم أن ينفخ فى الصور؟ هل يعقل أن تغمض المؤمنات فى المؤمنين فى هذا المقام الذى فيه هذا القدر من التكريم والإكرام ورفع المقام؟ هذا ما رأيته والله أعلم.

وأعود إلى محاولة فهم الأمر بالاستغفار لذنب المؤمنين والمؤمنات لأدل فيه على شىء، وهو أنه من أظهر مظاهر حب الله، ورسوله، لهذه الأمة، وأن الله سبحانه يأمر رسوله بأن يغسل عنها ذنوبها باستغفاره لها، وهذا الحب من الله ورسوله لهذه الأمة هو الذى يفتح لها باب أن يكون الله ورسوله أحب إلى كل واحد منها مما سواهما، يعنى من نفسه وولده وأهله وهذه مسألة مهمة فى هذا السياق، وسأعود إلى بيانها بعد أن أقول إننا مأمورون بما أمر به رسول الله ﷺ وهو أن يستغفر كل واحد منا لذنبه وأن يستغفر كل واحد منا لذنب كل مؤمن ولذنب كل مؤمنة ممَّن فات ومَن هو آت إلى يوم القيامة، وهذا عجيب، يعنى أنا مطالب بأن أستغفر لذنب هذا الكذاب اللص

المدلس المغـرور، ولهذه الكذابة واللصـة والمدلّسة والمغـرورة، ولست وحدى الذى يستـغفر لهؤلاء بل إن رسـول الله ﷺ يستغفـر لذنوبهم بأمر من ربه، وليس هذا فحسب بل إن ملائكته وحملة عرشه ومن حولهم هم أيضا بإلهام من الله يستغـفرون لذنوب هـؤلاء النصابين الذين يملؤون الأرض سَلْبًـا ونَهْبًا ما دامـوا من أهل القبلة ويشـهدون الشهـادتين، ويدهشك أن تعلم أن ذنوبنا التى يستغفـرها لنا رسول الله وحملة العرش ومن حولهم ويستـغفرها بعضنا لبعض هى الكبائر لأن الصغائر مكفَّـرة باجتناب الكبائر، ثم هى الكبائر التى نموت ولم نتب عنها، لأن ما تبْنَا عَنْه يغفره الله لنا بالتوبة وهذا يجعلك ترى نفسك فى بحر غامر من فيض رحـمة الله، ومن حب الله ورسوله وملائكته المقربين وكل إخوانك المسلمين، ثم إن هذا وحده كـافٌ لأهل معرفة الله عن كل ما يغضبه لأن العبد الحيى يستحى أن يرى الله يمد يده له بالعطاء وهو يمد يده إلى ربه بالمعصية.

وقد قلـت هذا الذى اتَّسع علىَّ وأنا أُمهِّـد به لشىء هو الأهم عندى وهو أنك ترى هذا المشهـد الذى هو مشهد الـعطاء والحب واستغفـار الله ورسوله ومـلائكته المقـربين والمؤمنين لذنوب هذه الأمـة ترى فى هذا المشهـد تماسكا، وتحـاباً وتلاحُمًـا شديدا وقـويا حول لا إلـه إلا الله وغسل النفـوس من كل مايكدر هذه الحـقيقـة التى تملأ ما بين السمـاء والأرض نورا، فى مقام قـتال الذين كـفروا وصـدُّوا، ثمَّ تأتى على رأس آيات المنافـقين الذين هم كخـلايا سرطانيـة فى جسد الأمة، والآية تدعـو أهل الحق المؤمنين بأنه لا إله إلا الله بالتـمـاسك والتـآزر وطلب العـون من الله الذى أمـر ملائـكته فى قـدسـه بالاستغفار لهم، وأمـر خير خلقه، وأمرهم جميعا بأن يستـغفر بعضهم ذنب بعض، وأن يتـآزروا وأن يؤازر بعضـهم بعـضا المؤمـنون منهم والمؤمنات فى مواجهة أعداء الدين الذى هو أحب إليهم من أنفسهم وأولادهم وأهليهم.

هذا والله أعلم..

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ قال الزمخشرى «يعلم متقلبكم فى معاشكم، ومتاجركم، ويعلم حيث تستقرون فى منازلكم أو متقلبكم فى حياتكم ومثواكم فى القبور، ومتقلبكم فى أعمالكم، ومثواكم فى الجنة، والنار» انتهى كلامه، واللفظ يحتمل كل هذا، وما دام اللفظ يحتمله فلن تستطيع أن تَرُدَّ منه شيئًا ولك أن تختار معنى من غير أن ترد غيره، وإنما تقول كل هذا جائز وأختار كذا.

وهذه الجملة لها دلالة فى موقعها من حيث هى جملة حالية؛ ولها دلالة فى مبناها وتركيبها، ولها دلالة فى كلماتها، وهى جملة بالغة الثراء، وإنما نحدّث بما يتاح لنا، وأول الحديث فيها ابتداؤها بلفظ الجلالة الدال على كل كمال والمنزه عن كل نقص، وهو راجع إلى لفظ الجلالة فى جملة التوحيد، والواقع بعد حرف الاستثناء، الدال على قصر الألوهية على الموصوف بكل كمال والمنزه عن كل نقص والذى ليس كمثله شىء والذى لا يمكن عقلا أن يتكرر فى هذا الوجود ﴿وَلَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، ثم الإخبار عن لفظ الجلالة المتقدم فى الجملة بالفعل المضارع، وهذا التركيب يفيد الاختصاص بمعونة السياق، وأنه لا يعلم متقلبكم ومثواكم إلا هو سبحانه؛ وصيغة المضارع فى الفعل تفيد التجدد والحدوث، ومن الواجب أن أنبّه إلى أن التجدد والحدوث فى أفعال الحق وفى علمه وصفاته سبحانه يراعى فى معناه أنه ليس كمثله شىء فالتجدد لا يعنى أنه يحدث شيئًا فشيئًا لأن الله منزه عن ذلك، والحدوث لا يعنى الوجود بعد العدم، لأن الله منزه عن ذلك؛ وإنما سبحانه علم فى الماضى الذى لا أول له وفى الحال الذى لا يحيط بعلمه إلا هو، وفى المستقبل الذى لا نهاية له، لأنه سبحانه هو الأول الذى ليس قبله شىء، وهو الآخر الذى ليس بعده شىء، والمضارع هنا يعنى أنه سبحانه يعلم ما تتقلبون فيه وما تثوون إليه أنتم ومن بعدكم علما لا يحده زمان ولا مكان، وقد أشار الزمخشرى إلى المعانى المحتملة فى كلمتى ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ ويلاحظ أن الجملة الشريفة انتقل فيها

الكلام من خطاب الحق لرسوله إلى خطاب الحق لأمته ﷺ، وفى هذا الانتقال من خطاب الحق لخير خلقه، إلى خطاب الحق لخير أمة أخرجت للناس، تكريم ليس بعده تكريم مع تشريفه عليه السلام بتقديم خطابه، ثم إن هذه الجملة فيها شوب من التحذير لأن هذا العلم هو الذى عليه المعول فى ثواب من أطاع وعقاب من عصى ولابد من ملاحظة الإيجاز فى كلمتى ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ وأن كل ما يتقلب فيه كل واحد منا فى كل ساعة وكل يوم وكل ليلة من يوم أن نزل الكتاب إلى يوم أن ينفخ فى الصور كل ذلك يحيط الحق بعلمه، وعليك أن تتأمل أنت هذه السَّعة فى هذه الكلمة المفردة ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ وهذه السَّعة قائمة فى كلمة ﴿مَثْوَاكُمْ﴾ سواء كان المراد بها استقراركم فى منازلكم، أو استقراركم فى قبوركم، أو استقراركم فى الجنة أو فى النار، وإذا صرفناها إلى أحوال الآخرة سواء كانت فى قبوركم أو فى الجنة أو فى النار كانت مرتبة المعنى على﴿مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ لأن حالنا فى قبورنا أو فى الجنة أو فى النار هو ناتج حالنا فى التقلّب فى هذه الدنيا، ثم إن موقع هذه الجملة الحالية يعنى معنى زائدا فى الجملة الأم التى هى ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ وهذا المعنى الزائد هو أن هذه الجملة الأم حين أراجعها فى ضوء فهمى لإيجاز الكتاب العزيز، أجدها جامعة لأمرين الأول العقيدة وكل ما يتصل بها مما أتلقاه من أمر ونهى متوجه إلىَّ من الذى لا إله إلا هو، ودلالة جملة التوحيد على هذا دلالة ليست بعيدة لأن اليقين بأنه الواحد الأحد الفرد الصمد بوجب لا محالة لزوم طاعته وهو سبحانه لا يطاع إلا بما أمر، ووجوب التلقى الكامل والرضى الكامل بكل أمره ونهيه جلّ وتقدس، ثم تجد هذه الجملة جامعة أيضا لكل ما يزاوله كل إنسان على هذا الكوكب، لأن الذنب فيه إشارة إلى الاجتراء على ما نهى، والتقصير فيما أمر، وهذا المعنى المطوى فى الجملة الأم والذى لا يستخرج منها إلا بالمراجعة جلَّتهُ وكَشَفَتْهُ وأزالت حُجُبَه الجملة الحالية لأن معناها ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ فى الحال الذى تعلمون أنكم تحت مراقبة

دقيقة، وهى علم اللـه بكل متقلباتكم فى كل أمر من أموركم، وعلمـه سبحانه بمثواكم فى بيوتكم ومثواكم فى قبوركم ومثواكم فى الجنة، أو فى النار، والفائدة من هذه الجملة الحـالية تقتضى أن تكون فى علمك بـالوحدانية واستـغفارك من ذنبك مزاولا لحياتك العملية ومُنْخَرِطًا ليس فى العقيدة فحسب وإنما فى الشريعة أيضا، وفى الآية الشـريفة إشارة إلى أمور ثلاثة لا تستقيم حيـاة الناس إلا بها الأول وضع نظام يحدد الحلال والحرام وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ لأن الشهادة بها لا تقدم ولا تؤخر ما لـم يعقبها حسن الأخذ عن الله والقول سمـعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، والثـانى هو المراقبة التى لا يُفْلت منها شىء وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين وهو سبحانه عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض، وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ ثم الثواب والعقاب، وقد أشار إلى ذلك قوله جل شأنه ﴿وَمَثْوَاكُمْ﴾ وقد ذكرت أن علم الله بمتقلبهم ومثواهم علم قديم، يعنى قبـل أن يوجدوا وقبل أن يتقلبوا وأنه ليس لقَـبْله قَبْل وإنما هو من باب قولـه تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبـوت: ٣] فعلم الله بـالذين صدقـوا والكاذبين علم قـديم، ولكن المراد هنا العلم بالشىء بعـد وقوعـه، يعنى ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ علما واقعا على معلوم، وهو صدقهم ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ علما واقعا على معلوم هو كذبهم، وكذلك هنا والله يعلم متـقلبكم علما واقعا على معلوم هو ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ وسيأتى له نظير فى السورة.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ⦗٢٠⦘ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢٠، ٢١].

هاتان الآيتان مؤسستــان على الجملة الأم وهى قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ وراجع لتجد كل الجمل بعدها مـؤسسة عليها وسنبين ذلك إن شاء الله.

ولاحظ الربط المتين بينهــا وبين الآية التى قبلها لأن الذيــن آمنوا وقالوا لولا نزلت سورة هم الذين علــموا أنه لا إله إلا الله واستــغفروا لذنبــهم وللمؤمنين والمؤمنات، وكأن استغفارهم للمــؤمنين والمؤمنات كان ضربا من تقوية الأواصر بينهم استــعدادا للجهــاد الذى تمنوا نزول سورة تأذن لهم فيــه، وهذا مما يضاف إلى مناسبة فضل المؤمنات والنص عليهن، وآية ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ علم بعقيــدة وشريعة كما بينا وهذه الآية تتــجه إلى وصف ضرب من ضروب سلوكهم وهو الرغبة فى الجهاد فى سبيل الله وأن يأذن الله لهم فيه.

وموقع هــذه الآية فى بناء السورة لا يكفى أن تراه مـتمـثلا فى ذكـر فريق ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ وامتـداده فى السورة وأنهم هم الذين ضربوا الرقاب وشــدوا الوثاق وأنهم الذين سيدخلهم الله الجنة عــرفها لهم وأنهم الذيــن نصروا الله فنصرهــم إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾أقول لا يكفى هذا لأن هذه عــلاقات بين الجزئيات المكونة للسورة وهىَ مهمة جدا ولكنها ليست كل شىء لأن المهم هو النظر فى بناء الأغراض التى تكون فـصولا وأبوابا متسعة فى مــعانى السورة، وكيف قــامت هيأتهــا، وهذا يلزمه أن نرى ببــصائرنا وأبصــارنا صور مــعانى السورة التى تتــجاوز المعانى الجـزئية وكيف تتــابعت وكيف بنى بعضــها على بعض، وكيف أخـذ بعضــها بحجزة بعض، حـتـى تـرى السورة أو القــصيدة أو الرسالة وكأنها بُنيت بناء واحدا له هيــأته، وله نظامه وله شكله وله سمته، وله رفتْــهُ، وكل هذا من كلام الأئمــة رضوان الله عليــهم وألحقنا بهم كــرامة نفس وقرة عين.

والذى أراه هنا أن السورة إلى قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أشْبعت الحديث عن الفريقين اللذين افتتحت بهما السورة، وهما فريق الذين كفروا، وصدوا عن سبيل الله، والذين آمنوا وعملوا الصالحات، وآمنوا بما نزل على محمد، وهو الحق من ربهم، وبدأت هذه الآيات لتضيف اللبنة الثالثة أو الركن الثالث الذى يتم به البناء وهم الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، وكانوا مداخلين للفريقين السابقين فهم فى حقيقة ما انطوت عليه نفوسهم مع الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله، وهم فيما تنطق به ألسنتهم مع الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولذلك لابد من مراعاة هذا الجزء من أول ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ ثم تبدأ السورة بعد هذه الآية فى رد العجز على الصدر، وهذا القسم كله هو الذى أريده وأقول إنه من تمام بناء السورة لأنه هو الفريق الثالث أو الفريق الذى بَيْنَ بَيْن وهم المذبذبون وهم أصحاب الدرك الأسفل، ونلاحظ أن ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ واقع بينهما فأول السورة هم الذين كفروا وصدوا وآخر السورة هم الذين فى قلوبهم مرض، وهذا إيذان من الله لأهل اليقين بأن الله سبحانه جعلهم بين هذين الفريقين لتكون اليقظة دائمة والحراسة دائمة وإعداد القوة والمنعة كل ذلك دائم، وهذا هو معنى فضل وكرامة وجزيل ثواب العين الساهرة التى تحرس فى سبيل الله؛ يعنى عين المرابطين المجاهدين بالسيف والمرابطين المجاهدين بمداد العلماء الصادقين المنقطعين.

هذا هو موقع الآية فى سياقها مع الآية قبلها وفى سياقها مع فصول السورة، والواو التى بدأت بها الآية يمكن أن تكون واو استئناف يعطف بها معنى على معنى، والمضارع فى قوله سبحانه: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ولم يقل وقال الذين آمنوا للإشارة إلى أن قولهم هذا كان يتكرر منهم ويتجدد، وأن نفوسهم بقيت

زمنا طويلا وهى تتوق لأن يؤذن لها فى مواجهة غطرسة الصادين عن سبيل الله، والذين يفرضون معتقدهم على الناس، ويضربون كفرهم عليهم، ولم يتركوا كل امرئ وما يختار، كان السابقون يرون هذه الغطرسة ويَرَوْنَ تطاولهم على من كانوا لا يرفعون رؤوسهم فى مجالسهم، فتاقت نفوسهم للساعة التى يقمعون فيها هؤلاء ويردونهم إلى صوابهم، ومكث الذين كانوا لا يرفعون رؤوسهم فى مجالسهم وأنا أعنى أمثال أبى بكر الذى كان من أعز رجالات قريش وحمزة بن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب وغيرهم من أهل السابقة، كان هؤلاء يقولون لولا نزلت سورة ويكررون ذلك وينتظرون ساعته.

وكثير من المفسرين يقولون إن قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ شامل للذين آمنوا بألسنتهم، وقلوبهم، والذين آمنوا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم، وعليه يكون قوله سبحانه ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ فريقا من الذين آمنوا، وأنهم بالغوا فى إخفاء نفاقهم، وقالوا مع الصادقين لولا نُزّلت سورة فلما نزلت السورة ظهر نفاقهم، والآية تحتمل ذلك، وقال فريق إن الذين يقولون لولا نزلت سورة هم الصادقون فى إيمانهم وعليه يكون الذين فى قلوبهم مرض الفريق الذى لم يتمن نزول السورة، وإنما حدّثت الآية عنهم بعد نزول السورة ولم يُذكروا قبل نزولها، والآية أيضا تحتمل هذا وإن كان القول الأول هو الأشبة؛ لأن هؤلاء المنافقين جدُّوا فى إخفاء نفاقهم، حتى إنهم لم يُعْرَفُوا إلا بعد قول الله سبحانه لنبيه ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ﴾ وهذه الجملة تعنى أنهم كانوا غير معروفين وإنما عرفهم الله سبحانه بذكر علاماتهم ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾.

لاشك أن المعصية لاتنافى الإيمان، ولاشك أن الله سبحانه وتعالى حدَّث عن أهل المعصية بوصف الإيمان وأدخلهم فى قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ولكن النفاق ينافى الإيمان فإذا دخل المنافقون فى الذين وصفتهم بالإيمان يكون الوجه

أنهم آمنوا بألسنتهم ويكون وصفهم بأنهم آمنوا وصفا على سبيل المجاز، وتكون كلمة آمنوا فى قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ جامعة للحقيقة والمجاز، وإذا استقصينا كلمة ﴿آمَنُوا﴾ فى كلام الله وكلام رسوله ﷺ فهل نجدها قد جمعت المنافقين مع الصادقين فى صورة لا تحتمل إلا هذا الجمع، والصورة التى معنا ليست قاطعة فى أنها تشمل المنافقين بناء على اختلاف كلام المفسرين، وإن كان أبو حيان يؤكد أنها خاصة بالصادقين فى إيمانهم، وهذا مما يحتاج إلى تدقيق فراجعه وتدبره، وهذه الآية تدل دلالة لاشك فيها على أنها نزلت قبل آية ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ لأنه لا يكون لقاء وأمر بما يجب أن يكون فى هذا اللقاء إلا بعد الإذن بالقتال، والآية التى معنا يتمنى فيها الذين آمنوا نزول إذن بالقتال، وترتيب الآيتين فى السورة مخالف لترتيب النزول، فالتى تقدمت فى النزول تأخرت فى الترتيب وهذا كثير فى الكتاب حتى إن بعض الآيات الناسخة وهى بلاشك نزلت بعد المنسوخة نجدها فى الترتيب تذكر أحيانا قبل المنسوخة كما فى آية سورة البقرة عدة المتوفى عنها زوجها يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤] وهذه هى عدة المتوفى عنها زوجها وكانت الآية التى ذكرت بعد هذه وهى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة: ٢٤٠] قد نزلت قبل الآية السابقة ثم نسخت عدة الحول بعدة أربعة أشهر وعشرا، وهذا شبيه بالذى نحن فيه؛ وإن كان ليس هنا نسخ، ومواضع الآيات فى الكتاب العزيز مواضع توقيفية، فقد كان يؤمر عليه السلام بوضع الآية فى موضعها الذى هى عليه فى ترتيب المصحف، والحكمة التى وراء هذا لدرس البيان فيها نصيب كبير، وأكتفى بذكر ما أراه فى آيتى البقرة والقتال وقبل الكلام فيهما أنبه إلى أن معرفة ترتيب نزول الآيات معرفة يكتنفها كثير من الغموض وكثير من

الخلاف وكـذلك معرفة ترتيب نزول السـور، والذى اكتفى به من كـانوا قبلنا رحمـهم الله وألحقنا بهم كـرامة نفس وقـرة عين هو فتح باب دراسـة أسرار ترتيب السور فى المصحف، وأسرار مناسبـة الآيات، وقلت إنهم فتحوا الباب لأن الذى ذكروه مع تقديره قليل جدا من كـثير جدا، وبين أيدينا آيات ظاهرة فى أن ترتيبها فى المصـحف مخالف لترتيبهـا فى النزول سواء كانت مما جرى فيـه النسخ كآيتى البقـرة أو مما لم يجر فيـه النسخ كآيتى القـتال وهذا ظاهر ويمكن أن يكون مدخلا جيدا جدا لما خفى، هذا ما أردت أن أقدم به.

أما وجه تقديم آية عدة المتوفى عنها زوجها فى سورة البقرة على الآية التى تقدمت عليها فى النزول فإن موضعهـا جاء مناسبا جدا لأنها جاءت فى سياق آيات الأحكام التى شملت الإيلاء والطلاق، وأن المطلقـة تتربص ثلاثة قروء، وأنه إذا طلقها لا تحل له حتى تنكح زوجا غيره، وأن أمر الرحيم الرحمن هو إمساك بمعروف أو تسـريح بإحسان وأنه سبحانه نهى جـبابرة الرجال أن يمنعن مطلقاتهم أن يتزوجن بـعدهم وقد شدَّد النكير فى هذا لأنه سـبحانه يعلم أن من خلقـه خلقا لا قلـوب لهم، وأنهم يَعْضِلُون المـطلقات حـتى لا يلدن من غيرهم، وحتى لا تختلط دماء العرق المتميز بالباطل والبطش والسَّلْب والنّهب بأعراق رجال ربما كانوا أكرم منهم وأوفـى وأكمل، ثم ذكرت الآيات تفاصيل أحكام الرضاع، ولما فرغت الآيات من الطلاق وأحـكام المطلقات انتقلت إلى أحكام المتوفى عنها زوجها وهى أخت المطلقة، فذكرت عدتها ثم نَهَتْ عن أن تخطب فى عدتها، ثم أجازت التعريض بـالخطبة، ثم نهت نهيا قاطعا عن أن تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتـاب أجله، لأن إجازة التعريض قد يتوسع فيـها، وإنما ذكر ذلك مع المتوفى عنهـا زوجها لأنهـا مَظِنَّةٌ أن تطلب بخلاف المطلقة، وهذا هو السياق الذى اقتضى ذكـر المتوفى عنها زوجها، ثم أَشْعرتنا الآيات بنهـاية هذا الباب فـذكرت المحـافظة على الصلاة والصـلاة الوسطى، وطرفا من صـلاة الخوف، وبذلك انقطع السـياق، ثم ذكرت آية عـدة المتوفى

عنها زوجها التى نسختها الآية السابقة، وبقيت للتلاوة والتعبد مع نسخ حكمها لأنها شاهد صدق على السمع والطاعة.

وهذا شبيه بوجه مخالفة ترتيب التلاوة لترتيب النزول فى الآيتين فى سورة القتال لأن السورة بدأت بالعدوان من الذين كفروا، وأنهم لم يكتفوا بكفرهم، وإنما صدوا الناس، ومنعوهم من أن يعتقدوا ما يختارون، وما يقتنعون به وهذه محاصرة ظالمة، وعدوان ليس على الدين فحسب، وإنما على من يؤمنون به، وساق ذلك إلى ذكر الفريق المقابل، وهو الذى آمن، ثم كان اللقاء بين الذين اتبعوا الباطل والذين اتبعوا الحق من ربهم، وانجر الكلام إلى ما انجر إليه مما بيّناه، وجاء هذا المفصل واقتضى ذكر قول الذين آمنوا لولا نزلت سورة، وظنى والله أعلم بمراده أن المقصود مع هذا الخبر هو فتح باب الحديث عن المنافقين الذين سكنوا وتستروا فى الجماعة المؤمنة وصلُّوا صلاتهم، وصاموا صيامهم، وسكنوا تحت جلدهم، وإذا كان الكتاب العزيز قد ذكر المنافقين فى مواضع كثيرة وأفرد لهم سورة سماها سورة المنافقين وحذر منهم وقال فيهم ما قال فإن ذكرهم فى سورة القتال له شأن آخر لأن أخطر موقع لهم فى الجماعة المؤمنة هو صفوف القتال لأنهم يقاتلون مع من هم أشد الناس بغضا لهم، ومع من يرجون دحرهم وهزيمتهم ويرفعون سيوفهم فى وجه من يرجون انتصارهم، وهذا وإن كان من أبشع المواقف التى يرى فيها المنافق نفسه فإنه من أخطر المواقف على الجيش الذى اندسوا فيه.

قلت هذا لأن الكلام عنهم فى السورة كان لابد أن يكون جزءا أساسيا فى بنائها، وأن فتح هذا الكلام بذكر قول الذين آمنوا لولا نزلت سورة هو الذى كان بداية الزلزال الذى كشفهم ودلّ عليهم؛ وسواء قالوا مع المؤمنين لولا نزلت سورة أو لم يقولوا فإن نزول السورة فضح سرائرهم، وأزال أستارهم وكشف التلبيس والتدليس الذى عاشوا مع المسلمين زمانا وهم يحكمونه ويسترونه، وهذا يعنى أنهم لم يستطيعوا مقاومة التخاذل والحيرة والاضطراب

الذى أحاط بهم لما نزلت السورة، وكانوا لا يحـذرون من شىء كما يحذرون من أن تنزّل عليهم سـورة تنبئهم بما فى قلوبهم، ومن الغـريب الذى لا يقبله منطق أن يحذروا أن تنزّل عليـهم وفيهم سورة لأن هذا لا مـعنى له إلا معنى واحد وهو اليقين أن هذه السورة التى يحذرونها لا يمكن أن تكون إلا من جهة الله، وهذا يعنى أنهم يقطعون بأن القرآن كلام الله وأنه منزل على رسوله ويصرون على مـا هم عليه مع مـعاناتهم لـلحيـرة والاضطراب التى كانوا لا يسـتطيعـون إخفاءها، وأنها كانت تغلبهم حتى وهم ينظرون إلى رسول الله ﷺ ويكون نظرهم نظر الذى يُغْشى عليه من الموت، وكان هذا غريبـا لأن الصادقين كانوا يخفُّون إلى سلاحهم ومتاعهم وهم فرحون لأنهم ينصرون الله ورسوله، وهؤلاء يغشى عليهم من الموت.

ولما كان نـزول السورة المحكمـة التى يذكر فـيها القـتال لهـا هذا الأثر فى كشف هذه الجماعة الخطرة، والمتسترة فى صفوف الصادقين، اقتضى ذلك بيان أن نزول السورة كان استجابة لما تمنّاه الذين آمنوا.

وهذا الذى أراه فى وجه ذكر الآية المتقدمة فى النزول والمتأخرة فى التلاوة.

وأن الواجب تصفية الجيش من هذه العناصر الضارة، وكان رسول الله ﷺ يقول لهم ﴿**لَن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا**﴾ [التوبة: ٨٣] وليس فى الكتاب ذكر لنزول سـورة محكمة ذكر فيـها القتال استـجابة لطلب الذين آمنوا إلا فى هذا الموضع لبيـان أن السورة التى فضـحت سرائرهم لم تنزل إلا بطلب من الذين آمنوا، وهذا الطلب مفـهوم من قولهم ﴿**لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ**﴾ لأن لولا فيـها مـعنى التمنى والأصل فـيها الحض على فـعل شىء محـبوب والتمنى طلب المحبوب البـعيد، وإشراب الكلمة معنى التـمنى فيه إشارة إلى مزيد حـرصهم على نزول سـورة، حتى إن تعلقـهم الشديد بنزولهـا جعلهم يرون هذا النزول بعيدا، وقـد كان أهل الدين والنخوة يتحـرقون تغيظا لأنهم

يريدون الدفاع عن حقهم فى اختيار الحق الذى اختاروه وأنه ليس لهؤلاء المستكبرين أن يحولوا بينهم وبين ما يعتقدون، وهذا هو المعنى الذى وراء هذا التمنى، والتنكير فى كلمة ﴿سُورَةٌ﴾ له دلالة هى أن القوم يريدون سورة ليست من السور المعروفة التى تنزل وتحدّث عن الحلال والحرام وأدلَّة التوحيد وأدلة النبوة، والبعث والثواب والعقاب، وإنما يريدون سورة تأذن للذين ظُلمُوا أن يدافعوا عن أنفسهم، لأنه ليس أشق على الكريم من أن يُظْلم ثم تُغلُّ يده فلا يَنْتصِرُ، ولذلك تجد فى كلمة ﴿لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ مرارة صادرة عن نفوس صادقة وكيف نتصوَّر حمزة بن عبد المطلب وهو لا يستطيع أن يَرْفَع يَدَهُ فى وجه ظالمه؟ ومثله عليٌّ وأبو بكر وعمر، هؤلاء من سادة قريش، وظُلموا كما وصفتهم آية الحج ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ [الحج: ٣٩] وأن الإذن بالقتال لدفع الظلم، وليس لإدْخال الناس فى الدين، وإنما كان لإزالة الموانع التى تمنع الناس من الدخول فى الدين، وبعد إزالة المواقع يترك الناس وما يختارون، وقد بقى من شاء من النصارى على نصرانيته، ومن شاء من اليهود على يهوديته، والحرب كانت حربا للصد عن سبيل الله كما تدل الكلمة الأولى فى سورة القتال.

قوله جل شأنه ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ الفاء ترتب ما بعدها وهو نزول السورة المحكمة على ما قبلها وهو قولهم ﴿لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ والمراد بهذا الترتيب الدلالة على أنه إذا أنزلت سورة تحقيقا لرغبتهم كان كذا وكذا، وهذا يرجح أن الذين فى قلوبهم مرض دخلوا فى الذين قالوا لولا نزلت سورة، والذى ترتب على إنزال السورة كله فى شأن الذين فى قلوبهم مرض، وليس فيه كلمة فى شأن الصالحين مع أن الحديث عن إنزال السورة كان يعقبه أحيانا أن هذا الإنزال زاد الذين آمنوا إيمانا، وهم يستبشرون، والآيات التى تشبه هذه الآية آيات محدودة وكلها فيها ذكر للمنافقين، وكلها فى سورتى التوبة والقتال، وكلها مفتتحة بأداة الشرط إذا، مرّة بالواو وزيادة «ما»

كما فى قوله تعالى ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا﴾ [التوبة: ١٢٤] ومرة بدونها ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٨٦]، والتى معنا بالفاء لأن الإنزال هنا مرتب على قولهم لولا نزلت سورة، ولم يرتب إنزال على طلب إلا فى هذه الآية كما سبق أن أشرت، ولم توصف السورة فى هذه الآيات المتشابهة بأنها محكمة أو ذكر فيها القتال إلا هنا.

ووصف السورة بأنها محكمة يعنى أنها من المحكم وليست من المتشابه وأن ألفاظها ظاهرة الدلالة على معناها، وأنها لا تقبل التأويل، وأن أمر الجهاد فيها أمر ظاهر، لا يجوز صَرْفه إلى غيره، ثم إنها محكمة بمعنى أنها لا تنسخ لأن الجهاد قائم إلى يوم القيامة، وما تركه قوم إلا ذلوا، ومن مات ولم تحدثه نفسه بالجهاد مات على شعبه من شعب النفاق، وليس الجهاد اعتداء على أحد لأن الله لا يحب المعتدين، وإنما هو لحفظ الأرض، والعرض، ولبقاء القوة، والمنعة حتى لا يَطْمَع طامع مُغامِر فى خيرات الأمة، ومن أسوأ ما شاهدناه حذف آيات الجهاد من مقررات الدراسة لأن آلة القمع التى كانت تحكم البلاد والتى أشرنا إليها فى كتاباتنا السابقة أيام سطوتها كانت هذه الآلة موالية لألد أعداء الأمة، وقد أشرت إلى ذلك وهى فى عنفوان أيامها وفصَّلْتُه فى مقدمة كتاب الجاثية والأحقاف وتجدر الإشارة إلى أن كثيرا من أجزاء هذا الكتاب كتبت قبل ثورة الخلاص. وهذا ظاهر فى الكتاب.

وقوله سبحانه ﴿وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ معطوفة على جملة «أنزلت» لأنها من تمام الشرط لأن الذى سيأتى فى الجواب ليس مرتبا على نزول سورة محكمة فقط، وإنما مرتب على ذكر القتال أيضا؛ وربما كان هو الأهم، لأن المنافقين كانوا إذا أنزلت سورة من غير ذكر القتال كانوا يَزْدادون رجْسًا إلى رجْسهم أو ينظر بعضهم إلى بعض ويقولون هل يراكم من أحد، ولم تذكر آية أنهم ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت إلا هنا، وإنما كان ذلك لذكر القتال، ويلاحظ أن كلمة «ذكر فيها القتال» كلمة عامة، وليس فيها إلا ذكر القتال، فلم تذكر أنه ذكر

على سبيل الوجوب أم على سبيل الجواز، يعنى لم تشر إلى حكم من أحكامه، وإنما اكتفت بذكره، والأقرب فى الذى أراه أن تكون السورة المحكمة التى ذكر فيها القتال هى هذه السورة التى معنا لأنها محكمة، وذكر فيها القتال، ولاشك أن الكلام هنا مبنى على الإيجاز الشديد، وأنه سكت عن أشياء فى الأول للدلالة عليها فى الثانى، فالذين قالوا لولا نزلت سورة لم يذكروا شيئا يزيد عن أنها سورة ليست من سورة الأحكام المألوفة، وقوله سبحانه بعد ذلك «**سورة محكمة وذكر فيها القتال**» إشارة إلى أنهم أرادوا بقولهم لولا نزلت سورة، سورة فيها القتال الذى استشرفوا إلى الإذن به والذى لا أعرف سِرَّه هو لماذا لم يقولوا لولا نزلت سورة يذكر فيها القتال مع أنه مرادهم بلا ريب؟ وإذا قلت لى إن إضمار المعنى فى اللفظ إضمارا لا يخرجه منه إلا السياق لبعده عن دلالة الكلام وأحواله وتراكيبه لا يكون إلا حين يتفادى المتكلم إجراء هذا المعنى على لسانه وأن فى النطق به أمر يكرهه اللسان، وإذا كان كذلك فهل ترى فى القتال شيئًا يتفاداه الذين قالوا لولا نزلت سورة، وهم يتوقون إلى أن يؤذن لهم فى القتال لأنهم ظلموا؟ وجوابى أن سؤالك هذا يقرّبنى من معنى إذا لم يكن هو الجواب فهو منه بسبيل، وهو أن عقلاء أهل الإيمان الذين هم المهاجرون والأنصار وهم صفوة الأمة ونجمها الذى نهتدى به فى الضلالة يقولون لنا من خلال هذا الإضمار لا تطلبوا الحرب، ولا تكونوا من دعاتها لأن حَقْن الدماء أفضل من إراقتها، وحفظ النفوس أفضل من إضاعتها، فإذا كُتبتْ عليكم ولم تجدوا منها مناصا فخوضوا غمرتها بقوة ومنعة، واضربوا الرقاب، وشدوا الوثاق، حتى يضع العدو الذى أثارها أوْزاره من عدة وعتاد، ويسلِّم ويرفع يديه، ولك أن تلاحظ طرفا من هذا المعنى فى قوله تعالى ﴿**حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا**﴾ والمراد حتى يضع العدو أوزار الحرب، وإنما أسند إلى الحرب ما هو مسند إليه للإشارة إلى أنه هو الذى أثار الحرب، وهو الذى يثير الحرب، فإذا وضع أوزاره أى سلاحه وعتاده، فقد وضعت الحرب نفسها أوزارها أى

سلاحها، وعتادها، لأنكم لستم الجهة التى تثير الحروب، لأنكم لستم دعاة حرب، وإنما أنتم دعاة برٍّ وعَدْلٍ ورحمة، فإذا كتب عليكم القتال وأصبح لا مَنَاصَ فلابد مما ليس منه بد، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقوله جل شأنه ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ هذه الجملة جواب الشرط وفيها المَغْزَى والمقصود، وهو أن الجهاد يميز الله به الصادقين من الكاذبين، وهذا هو المدخل اللازم للحديث عن المنافقين الذى هو صلب هذا الجزء، وهو المدخل أيضا الذى اقتضى ذكر أحوال المؤمنين قبل نزول الإذن بالجهاد، وذكر الآية المتقدمة فى النزول ووضعها متأخرة فى التلاوة، وأؤكد أن هذا باب من أبواب أسرار البيان القرآنى لا يجوز أن يدخله إلا مَنْ تمرَّس على دراسة هذا البيان؛ وهذه فيها دلالات كثيرة نذكر منها ما نهتدى إليه وندع ما لا نهتدى إليه لمن يهتدى إليه، وأول ذلك كلمة ﴿رَأَيْتَ﴾ ودلالتها اللغوية تعنى أن مفعولها لاخفاء فيه، وأن نزول السورة المحكمة التى يذكر فيها القتال تكشف كل ستر عن وجوه المنافقين، وأنك تراهم بعينك رؤية لا يتسرَّب إليها شك، ثم إن المخاطب فيها يحتمل أن يكون سيد الأمَّة صلوات الله وسلامه عليه، وأن يكون من يصحُّ منه الرؤية، وهذا أظهر لأنه يعنى خطابه عليه السلام بها مع أمته ثم خطاب أمته بها إلى يوم أن ينفخ فى الصور، لأن النفاق باق فى الأمة ما بقيت السموات والأرض، لأنه خسيسة من خسائس النفس الإنسانية لم يسْلم منه إلا الأحرار الصرحاء، وليسوا أكثر الناس، وهذا يعنى أن يلتفت كل واحد منا حوله إذا نزل بالأمة ما يستوجب التضحية، ماذا يكون عليه الناس؟ هناك من يُعدُّ حقائبه لِيَرْحَلَ حيث تكون ثروته التى كوّنها من نهب الشعب، وهناك من يتخاذل ويمشى بجوار الحائط؛ وهناك من يَشُدّ عزمه لمواجهة النوازل، ويفدى أرضه وقومه بكل ما يملك، وهكذا لا تزال الأحوال قائمة ولا تزال سنَّه النفاق

قائمة لا تتبدل، وعموم الخطاب فى كلمة ﴿رَأَيْتَ﴾ يعنى أن المشهد الذى تراه والذى يراه من حولك يوم نزول الآية مشهد ثابت يراه من يأتى بعدكم جيلا فى إثر جيل إلى يوم القيامة، لأن النفاق هو وإن تطورت أشكاله تراه يوما باللسان ويوما بالقلم وتراه خطبا كاذبة مرة وتراه شعْرا يتلوى به منشده فى مجلس الممدوح الذى لا يستمع إليه غالبا لأنه يعلم أنه منافق كاذب ولو استمع إليه ربما لا يفهم لأن حظه من العلم حظ قليل نادر، وهكذا ترى الكثير كما قال أبو جعفر المنصور العبقرى النافذ لوفد وفد عليه وتنازعوا أشعار الثناء، وفيهم رجل واحد قدّم له النصح قال أبو جعفر كلمة جليلة هى من صلب معنى الآية «كلكم طالب صيد غير عمرو بن عبيد»، وطالب الضيد هؤلاء هم الذين فى قلوبهم مرض وإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال كان من أمرهم ما وصفت الآية، والأوطان لا تتقدَّم مطلقا بطالب الصَّيد، وإنما تتقدَّم فقط بمن كان على شاكلة عمرو بن عبيد، وهذا هو الذى جعلنى أستحسن أن يكون الخطاب لكل من تصح منه الرؤية، وأن الآية تقول نظفوا عيونكم من القذى حتى ترى الصادقين، وترى الكاذبين، لأن الكاذبين بارعون مهرة فى ارتداء ثياب الصادقين، حتى إن العالم بكل ذرة فى السموات والأرض والأصغر من ذلك سبحانه يقول لنا لِيُنَبِّهنَا إلى ضرورة أن ننظف عيوننا من القذى إنه سبحانه يبلو عباده ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين، وهو سبحانه ليس فى حاجة إلى إجراء هذا الاختبار لأنه هو خالقهم، وهو العالم بهم وإنما يُنَبهُنا إلى أننا سنواجه المبالغة فى التلبيس والتدليس، ولابد أن يكون المؤمن الذى هو من جند الله كيسًا فطنا، والذى يقال فى المخاطب فى قوله تعالى ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ يقال فى قوله سبحانه ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ فهم ينظرون إلى سيد الأمة صلوات الله وسلامه عليه أيام حياته ﷺ كما ينظرون إلى كل صادق فى مواجهة الشدائد والنوازل التى تعترى الأُمَّة يوم يعزم الأمر ويشتد، ويوم يجىء زمان الشدّ كما كان يقول أحرارنا فى جاهليتهم، ومن كلامهم الذى أحفظه

«جاء أوان الشَّدّ فاشتدى زيم»، وزيم فرس الشاعر فلم يشتد وحده وإنما اشتدت معه فرسه، وأصلح الله حال النائمين مع أننا فى أوان الشّدّ الذى كانت تشتد فيه الأفراس مع الفرسان، والتعبير عن المنافقين بقوله جل شأنه ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ تعبير شائع فى الكتاب العزيز شيوع التعبير عنهم بالمنافقين، ولكل مقام مقال، وفهم المقام المقتضى للمقال يوجب على أن أستخرج سرَّ إيثار كلمة ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ فى المواضع التى جاءت فيها وسر إيثار كلمة (المنافقين) فى المواضع التى جاءت فيها وأنا لا أستسهل هذا لأنه يوجب علىَّ أن أدرس السورة كاملة وأن أتعرف على سياقها السابق واللاحق حتى أقول ما يتبين لى بعد الدرس والمراجعة، والذى أراه هنا أن قوله جل شأنه ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هو المتلائم مع قوله نظر المغشى عليه من الموت، ولو قال رأيت المنافقين ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت لم يكن التلاؤم بين كلمة المنافقين والمغشى عليه من الموت على الحد الذى تراه فى الآية.

والمغشى أصلها مغشوى على وزن مفعول اجتمعت الواو والياء وسُبِقَتْ إحداهما بالسكون فقُلِبَتَ الواو ياء، وأدْغَمت الياء فى الياء وقلبت الضمة التى على الشين والتى تقابل العين فى الوزن كسرة، لتلائم الياء، وهو اسم مفعول من غشِىَ يغْشَى ومعنى غشى غطَّى كما فى قوله تعالى ﴿غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾ [لقمان: ٣٢] أى غطَّاهم وأخفاهم، والمغشى عليه هو المغطى عليه من الموت فى وقت مجىء سكرة الموت بالحق، والمعنى أنهم ينظرون إليك نظر الذى جاءته سكرة الموت، وغشّته أهوالها لأنهم كانوا متسترين فى ثياب أهل الإيمان؛ ولم يكن فى حسابهم أن يؤذن بالقتال، لأن الإذن بالقتال كان الأمر الصادم لهم والكاشف عن حقيقتهم والزور الذى هم فيه، ولابد أن تستحضر الحيرة والإرباك والاضطراب الذى يضطر فيه المنافق إلى أن يحمل السيف ليجاهد فى جيش هو عدوه المبين؛ وأن يقاتل أهل الكفر الذين هو منهم؛ وكيف يعمل سيفه فيمن هو منهم؟

وكـيف ينصر أعـداءه؟ كيف يقـاتل عن دين هو كـافر به ويقـاتل أهل دين هو منهم؟، الموقف بالغ الحـيرة ثم إنه مـا نافق وأظهر خـلاف ما أبطن إلا ليـسْلم، والمنافقـون أكثر الناس جـبنا، وخوفـا، وهلعًا ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافـقون: ٤] كل هذا يُتَـدبر لفهم المعـانى البعـيدة فى الآية والتـى اختصـرها التركيب المعجز فى هذه الكلمات الأربع، نظر المغشى عليه من الموت.

ولهذه الجملة الكريمة أخت شبيهة بها فى سورة الأحزاب وقد جاءت فى شأن المنافقين وفى مقام القتال وذلك فى قوله تعالى ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: ١٩] والخوف هو البـأس أى الحرب المذكـور قبلهـا فى قوله تعـالى ﴿وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الأحزاب: ١٨] ونظر المغشى عليه من الموت لم يذكر فى الكتاب العزيز إلا فى هاتين الآيتين آية الأحزاب وآية القتال، وإذا كانت الآيتان أختين فى البناء والمعنى والتصوير فإن السورتين أختان فى التسمية لأن الأحزاب تعنى غزوة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب: ٩، ١٠]، وقد ظهر فيهـا النفاق فى صورة واضحة ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ [الأحزاب: ١٢، ١٣] ووصفهم ربنا شر ما يوصف به مقاتل فى جيش وذلك فى قوله تعالى ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا﴾ [الأحزاب: ١٤]، وكل هذا يعنـى أن سورتى الأحزاب والقـتال يشتركـان فى بيان أحوال كثيرة للمنافـقين وهما سورتا حرب؛ وتقاربهمـا مقاربة واضحـة سورة التوبة التى تكلـمت كثيـرا عن المنافقين، وفيـها آيات كثيرة عن الحرب وعن تخاذل المنافـقين عن المشاركة، وأنهم يحلفون لرسـول الله ولمن معه

ليرضوهم وأنهم يعتذرون وأنهم مُخَلّفون وأن الله لايريد انبعاثهم معكم ولو وجدوا ملجأ أو مغارات أو مُدخلا لولوا إليها، وهم يجمحون، والملجأ المعقل، والمغارة التى تكون فى الجبل والمُدّخل السرب ينجحرون فيه، وكما وجدنا قرابة شديدة بين تسمية الأحزاب والقتال كذلك نجد قرابة شديدة بين اسميهما واسم التوبة، لأن المراد بالتوبة والله أعلم هو ما جاء فى آخر السورة من قوله سبحانه: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ [التوبة: ١١٧]، وكذلك تاب على الثلاثة الذين خلفوا وكل هذا كان فى حرب العُسرة.

والذى يعنينى من هذا كله هو أن أُبَيّن البيان عن أحوال المنافقين فى زمن القتال، وتلاحظ فرقا دقيقا بين التشبيهين مع أن التشبيهين يشتركان فى عناصر كثيرة، راجع: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: ١٩] وقوله سبحانه ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾، التشبيهان حذيا حَذْوًا واحدًا وهو بناؤهما على أسلوب الشرط «إذا» والتشبيهان واقعان فى جواب الشرط ورأس جواب الشرط فيهما هو كلمة ﴿رَأَيْتَ﴾ ومع ذلك تجد فرقًا جوهريا فى الجملتين؛ بيانه أن تشبيه الأحزاب يشبه دوران عيونهم وهم ينظرون إليك بدوران عيون الذى يغشى عليه من الموت، والمراد بالخطاب كل من يتأتى منه الخطاب؛ وليس خصوص المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، لأنه لو كان خاصا بالمصطفى صلوات الله وسلامه عليه لانتهت الدلالة بلحوقه بالرفيق الأعلى، وهذا لا يشك أحد فى فساده، وجملة تدور أعينهم جملة حالية والموقع الإعرابى موقع من المعنى يعنى رأيتهم ينظرون إليك والحال أن أعينهم تدور كالذى يغشى عليه من الموت، ومعنى تدور أعينهم تتقلب وتتحرك فى جهات مختلفة لا تثبت فى جهة ولا تستقر.

والفعل المضارع فى كلمة تدور يحضر الصورة حتى كأنك تراها، وهى تتقلب فى جهات مختلفة، هلعًا وخوَفًا وقد استدعى المضارع بعده فى صلة الموصول (الذى يغشى عليه من الموت) والذى يغشى عليه هو الذى لم تغلبْه غشية الموت وإنما هى الآن تغْشى عليه وهو يحتضر ولا يزال فى أول الاحتضار، وليس هو المغشى عليه الذى فى سورة القتال، وهذه الجملة الحالية ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ هى نتاج رؤية الخوف الذى هو البأس ورؤية الخوف التى أنتجت هذه الحالة غير إنزال سورة محكمة ذكر فيها القتال، الذى أنتج الحالة الأخرى التى فى سورة القتال لأن مغزى التشبيه ليس هو دوران عيونهم كدوران عيون الذى يغشى عليه؛ لأنه لم تذكر فى القتال كلمة ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ وإنما المغزى تشبيه نظرهم لمن ينظرون إليه ابتداء من سيد الثقلين صلوات الله وسلامه عليه ثم إلى كل من يصح أن ينظر إليه بنظر المغشى عليه، وقد بينا أن كلمة المغشى اسم مفعول يعنى وقع عليه فعل الغشية وغلبته الغشية ومن كان كذلك لا تدور عيناه وإنما تقفان على حالة واحدة ويوشك أن يكون فى آخر لحظات الاحتضار، وكلمة ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ تعنى أنه لا يزال حياً لأن الذى فى آخر لحظة لا ينظر إلى أحد ولذلك نجد الحدثين ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ و﴿الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ﴾ يتآزران فى بيان الحالة التى هى بين الموت والحياة، وليست الحالة التى هى أول حالة الاحتضار، والتى تكون فيها العيون تدور، وهذا ظاهر، والذى ليس بظاهر هو لماذا جاء تشبيههم عند إنزال سورة الإذن بالقتال بهذا التشبيه الذى هو أقرب إلى الموت، وجاء تشبيههم عند رؤية الحرب بالتشبيه الذى فيه حركة هى حركة الموت؟ ولاشك أن هذا سؤال ليس متعَسِّفًا وإن كنت لم أجد له جوابا فى كلام علمائنا الذين كانوا أقرب منا كثيرا إلى فهم أسرار الكتاب، والذى أراه أن المتابع لشأن المنافقين فى الكتاب العزيز يدرك أن أخطر ما وُجهوا به وأشقه هو نزول الإذن بالقتال، لأن الذى أغراهم بالنفاق هو رغبتهم فى مسالمة المسلمين،

وهم بالطبع مسالمون للذين كفروا، كما جاء فى سورة البقرة ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: ١٤] وهذا يعنى أنهم أشد الناس رهبة للصدام والقتال.

ثم إنهم أحكموا خُطَّة نفاقهم إحكامًا بالغًا حتى أن سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه، وأصدقهم، فراسة كان لا يَعْلَمهم، وقد أخبر الله بذلك في سورة التوبة ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠١] ومما زاد فى كثرتهم ما قام عليه الأمر فى أول الدعوة من المساهلة والمتاركة من قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤] وقوله جل شأنه ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ﴾ [الزخرف: ٨٩] وكثير من الآيات التى ذكر بعض المفسرين أن معناها نُسخ بآيات السيف، وكانت هذه المساهلة والمتاركة والبعد عن المنازعة مظلّة أمَانٍ من جانب المسلمين، كان يأرز إليها المنافقون ويأنسون بها، فلما نزلت آيات السيف، وأذن بالقتال كانت الصدمة التى أتت على ما قصدوا إليه من النفاق والمسالمة، وكان هذا أشد على نفوسهم من كل شيء، ولذلك شبهوا حال نزول السورة التى ذكر فيها القتال بنظر من صار أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، وهذا يكشف لنا سر تقديم كلمة (محكمة) على كلمة «ذكر فيها القتال» لأنها تعنى أولاً أنها لن تنسخ، وأنها محكمة يعنى بينة المعنى لا تقبل تأويلاً ولا جدلاً، يعنى أصبح السيف لازما، وأصبح القتال مكتوبًا، وأصبحت المدافعة عن دين الله حقاً واجبًا على كل من دخل فيه، وهذا يعنى أن من دخلوا فى الدين ظاهراً وباطنًا لا يجدون حرجًا فى ذلك، لأن الله اشترى منهم أنفسهم بأن لهم الجنة وأنهم استبشروا بنعمة الشهادة، والبلوى مع هؤلاء الذين يعلمون أن الله يعلمهم وإن كان الناس لا يعلمونهم حتى الذى ينزل عليه الوحى لا يعلمهم لأنهم مردوا على النفاق ودرّبوا عليه.

وهذه حالة يفاجأ فيها المنافق المريض القلب يعنى الذى ليس له عزم بما لم يدخل فى حسابه يوم نافق، وهى تخالف حال المنافق الذى رأى البأس وأن مشهد البأس بالغًا ما بلغ من الرعب والفزع كان متوقعًا؛ لأن الإذن بالسيف قد هدم الجدار القديم الساتر لأهل النفاق، فالذى يراه في البأس ترجع صعوبته إلى شدة البأس وليست إلى المفاجأة بوجود البأس وهذه حالة أخرى، والفرق بين الحالتين هو الذى استدعى الفرق بين التشبيهين.

فجاء فى الأحزاب ﴿ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾، وجاء فى القتال ﴿ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ وهو نظر تشخص فيه الأبصار ولا تدور وإنما تشخص من الجبن والهلع والغيظ كما ذكر الزمخشرى.

وقوله سبحانه ﴿ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ هذه الفاء التى بنيت عليها الجملة ترتب ما بعدها وهو دعاء عليهم على ما قبلها وهو ما لم تُعبِّر عنه الجملة السابقة تعبيرًا مباشرًا وإنما أشارت إليه بوصف نظرهم وما يراه الرائى فى عيونهم وأنه لما نزل الإذن بالجهاد كانت عيونهم كعيون المغشى عليه من الموت، واكتفت الجملة بهذا، والمراد ما وراء ذلك مما خلع قلوبهم وكَشْف سَتْرهم وأنَّهم أصْبحوا فى مواجهة لم تَتَوقّع وهى الدفاع عن دين هم ألدُّ أعدائه، وما وراء كل ذلك من دلالات؛ وكلمة ﴿ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ حمَّالة أوجه، وقد فسَّرها المفسرون تفسيرًا مختلفًا فقالوا إن أولى من الوَلْى وهو القرب، والجملة دعائية والدعاء فيها بمكروه كما يدل السياق، وهذا يعنى أن يكون المقصود بالأولى الذى هو القرب ما يكرهون والمعنى قرَّب الله منهم ما يكرهون، ومن الوَلْى بمعنى القرب قول الشاعر:

يكلِّفُني لَيْلَى وقد شَطَّ وَلْيُها وعادَتْ عوادٍ بيننا وخُطُوبُ

أراد قلبه وأنه يكلفه صاحبة بَعُدَ قربُها وعَدَتْ العوادى بينهما.

والبيت الذى قبله:

طحا بك قلب فى الحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب

وقال الأصمعى: أولى له قاربه ما يهلكه، وهو فعل ماضٍ فيه ضمير مستتر هو الهـلاك، قال ثعلب: لم يقل أحـد فى أولى أفضل ممـا قال الأصمـعى، وأستحسن هذا التفسير، لأنه أفزعـهم قرب الجهاد فقيل لهم قرّب الله منكم ما تكرهون؛ وقرّب إليكم الهـلاك، ويلاحظ فى كلام الأصمعى أن الذى فى أولَى ضمير مستتر يعنى لم يذكر مـعها الهلاك، وإنما نَشَّ عليها السياق معنى الهلاك كمـا نَشَّ على قولهم بُعْدًا لأن البعـد يراد به البعد عن الخيـر أو البعد عن الشر، وإنما السياق صرفه للبعد عن الخـير وقَرنه فى مواضع كثيرة بالسحق الذى هو الهلاك.

وفـسر أولى لهم بمعنـى وَيْلٌ لهم والمعنى هلاك لهم ثم قـدمت اللام على الياء وهذا كثير فى الكلام مثل جَـبَذَ وجَذَبَ وأيِسَ ويَئِسَ ولهذا قالوا إن أولى على وزن أفلع.

وهذان التفسـيران يعنيان أن المعنى ينتهى عند هذه الجـملة الدعائية وهى آخر الآية ويكون قوله سبحانه ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ كلام مستأنف وهذا ما عـليه الأكـثر والفـرق بين الوجهين السـابقين أن الأول دعاء عليـهم بأن يقترب منهم ما يكرهون والثانى دعاء عليهم بالهلاك، وهما من باب واحد، وإن اختلف المدخل.

وذكر البعض أن قـوله تعالى: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ مبتـدأ وخبره ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ واللام التى فى قوله سبحانه ﴿لَهُمْ﴾صلة أولى وهى بمعنى الباء أى أولى بهم طاعة وقول معروف، وعلى قول الأكثر وأن المعنى ينتهى عند الدعاء عليهم يكون﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ كلام مستأنف، يكون طاعـة مبتدأ وقول معـروف معطوف عليه والخبـر محذوف أى طاعـة وقول معروف خـيرٌ لهـم، وهذا الوجه هو الذى بدأ به الزمـخشرى، والطاعة هى الانقـياد لإذن الله فى الجهاد، والقول المعروف هو القـول الذى لا ينكره أحد وإنما يعرفه الكافة وهو

الذكر والتسبيح وإعداد النفس لملاقاة العدو، وملاقاة العدو من أوقات الذكر ﴿فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ [الأنفال: ٤٥] ولا يزال المجاهدون يهللون ويكبرون وإن كان جهادهم الآن للعدو الأقرب الذين هم الحكام الظلمة، لأن الأمة ملَّت من وجود هؤلاء الذين يمثلون جذوع نخل خاوية، إلا من الخطف والسلب، والقمع وسفك دماء الشعب الأعزل، وإنهم ليتناصرون فى ذلك ولم تتحرك فرقة عسكرية لمناصرة من يقاتلون العدو المغتصب، وإنما تحركت لمناصرة الحاكم على شعبه.

وذكر الزمخشرى بأسلوب التمريض أن قوله تعالى: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ حكاية قولهم يعنى أنهم لما نظروا نظر المغشى عليه من الموت قالوا طاعة وقول معروف، أى أمرنا طاعة وقول معروف وإنما قالوا ذلك نفاقًا وكذبًا بدليل قوله تعالى: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ وبدليل نظر المغشى عليه من الموت وبدليل ما بعده وهو قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

وقد قرأ أبى «يقولون طاعة وقول معروف» وقد ذكر الزمخشرى هذه القراءة القاطعة بأنها من قولهم ومع ذلك ذكر هذا الوجه القائل بأنها من قولهم بصيغة التمريض، يعنى قال (وقيل) ولا تظن أن قراءة أبىّ تلغى القول بأن التقدير طاعة وقول معروف خير لهم، أو تلغى القول بأن طاعة وقول معروف خبر المبتدأ الذى هو «أولى لهم» ولا تظن أيضًا أن النحاة لا يعتبرونها فيما ذهبوا إليه من وجوه المعنى، لأن علماءنا يوجهون كل قراءة على وفق الوجوه التى تحتملها غير ناظرين إلى القراءات الأخرى، بمعنى أنهم وهم يفسرون غير قراءة أبى يقولون الذى ذكرته عنهم، فإذا جاؤوا إلى قراءة أبى شرحوها بما تدل عليه غير ناظرين إلى ما قالوه فى غيرها، وهذا مسلك جيد، لأنه به تتعدد وجوه المعانى بتعدد وجوه القراءات ، وتتكاثر الوجوه التى يتحملها الذكر الحكيم لأنه من رحمة الله أن يكون حمّال أوجه، وتعدد القراءات يعنى تكاثر المعانى التى تحملها كل قراءة.

قوله سبحانه ﴿فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ هذه الآية من آيات الكتاب العزيز التى لها وقع فى القلب ووقع أيضًا فى واقع الحياة، لأنك ترى مجالات كثيرة تدفعك إلى أن تتمثل بهذه الآية الكريمة، وذلك لأنها بنيت على عنصرين من العناصر التى لا تستقيم الحياة إلا بهما، العنصر الأول العزم المؤسس على الفهم الواعى، والمؤسس أيضًا على الحزم الصادق، وكم من وجوه الفساد فى حياة الناس لا يواجهها إلا هذا العزم الصادق، وهذا الفهم النافذ، العنصر الثانى هو عنصر الصدق، الذى ترى النفس فيه تتجرد من كل شىء إلا من الذى ينصر الصواب والحق، فلا تلبيس ولا تَدْليس ولا تلفيق ولا نفاق ولا طلب منفعة ولا طلب ذكر، وإنما هو الصدق الذى يعلم الله حدود صفائه، ونقائه، ودوافعه، ومقاصده، وعليك أن تنظر إلى أى مَدَى يكون هذا الصدق نافعًا فى حياة الناس، وباعثًا للهمم الصادقة، وشاداً للعزائم القوية، هذه الآية لو نزعت من سياقها وسارت فى الناس مسير الأمثال لكانت نجمًا يهتدى به.

وهذه الفاء التى فى رأس هذه الآية مرتبة لها على ما قبلها، وانظر إلى ما قبلها تجده وجهًا مقابلا لما بعدها لأن ما بعدها هو العزم والصدق، وما قبلها هو الخور والضعف والتخاذل والتماوت الذى أصاب هذا الفريق لما نزلت سورة ذكر فيها القتال، ثم هو النفاق وهو أبشع الكذب وأخسه وأحَطّهُ دَرَكًا، إذن هذه الفاء ربطت بين صورتين متناقضتين أشد التناقض، وهذا من مواقعها الحسان، لأنها رتبت النقيض على النقيض، ولم ترتب المسبب على السبب، أو الشىء على ما هو منه بسبيل، وإنما عَرضتُ الأسوأ المنبوذ المخذول المغضوب عليه، والمدعو عليه بالوَيْل، ثم رتبت عليه ذكر الأفضل المرغوب فيه الآية السابقة بيَّنَتْ الناكبين عن الصراط، وهذه الآية بيّنَتْ الذين استقاموا على الصراط، وراجع تركيب الجملة لأنك ستجد فيها ضربًا من سبك الكلام هو أشبه وأقرب يشد العزم، لأن الجملة مكوَّنة

من أداه شرط وبعـدها الشرط، ثم يأتى الجـواب وهو مكوَّن من أداة شرط، وبعدها الشرط، وبعـد الشرط الجواب المؤكد باللام، فهو تركيـب يتداخل فيه شرط فى شرط، وهذا ضرب من الكلام يشد بعضه بعضًا كهذا العزم، الذى يشد أطراف النفس، ويجعلها فى عـقْد واحد، وكلمة ﴿عَزَمَ الأَمْرُ﴾ راجعة إلى ذكـر القتـال الذى كـان فى السـورة وأن السورة لما نزلـت تخاذل القـوم وتفرقت نفوسهم بدداً؛ وصار عـزمهم هباء وهذا يعنى أن عزم الأمر فى الآية أشْبَه بحـال الحرب إن لم يكن هو، وأن وقت ملاقاة الأمـة لعدوها هو وَقْت الشدَّ ووقت العَـزْم ووقت الصدق، وكلمـة عَزم الأمرُ التى هى فـعل الشرط كلمة عـالية النفـاسة لأن الأمر لا يَعْـزمُ وإنما يعزم الناسُ فى أمـرهم أو يعزم الناس أمرهم، وانتقال إسناد كلمة عزم من الناس الذين هم الأصل إلى الأمر صاغ معنى جديدا؛ وصورَّ صورة أخرى، لأنك ترى فيه الأمر هو الذى يَعْزمُ وكأنه اشتد واحْتَدَّ وصار الأمر صاحب عزم، وانتقل العزم من الناس إليه كما ينتقل الفعل إلى الزمان، فى ليل قائم ونهار صائم، وإلى المصدر فى مثل جدّ جدٍّه، وهذا الانتـقال هو المجاز فـى الإسناد الذى يصفه العلمـاء بأنه كنز من كنوز البـلاغـة، وكلمـة (إذا) التى هـى أداة شرط دالـة دلالة ظاهرة على أن الأوقات والأزمان والأحوال المقتضية عزيمة الأمـر كثيرة، ومتوقعة، وقلت إنها وإن كانت تـشبه أن تكون نـصا فى القتـال بمعونة الـسياق فـإن إطلاق اللفظ وإرساله فى فضـاء المعانى يجعله صالحـا لكل مقام من المقامـات التى تقتضى العزيمة، مـثل مقامـات الإصلاح، وضرب أنف الفسـاد، والمفسدين، وكـسر أذرع الطواغيت التى يُرْهبـون بها شعوبهم، ويسـرقون أموالهم ثم يتـصدقون عليـهم بمالهم الذى سرقـوه منهم، إلى آخر مـا هو حولك وحـولى وكله لا منجاة منه إلا بكلمة واحدة وهى العزم الذى لا يلين.

والفاء التى فى قـوله تعالى: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾ هى الواقعـة فى جواب الشرط وتفيد تأكيد ترتب الجواب على الشرط، وهذا الجواب كما قلت مكون من شرط وجوابه، والمراد إثبـاته فى هذه الجملة المركبة تركيـبا هو ذاته مركب

مع أخرى هو الخيرية لهم، وهذا التركيب المركب جعلها مشروطة بشرطين الشرط الأول العام هو عزم الأمر فى الأمة، يعنى مجيء وقت الشد والعزم الذى يُنقذُ البلاد فيها أشرفُ وأكرمُ وأصدقُ أبنائها، والشرط الثانى جاء شرطا فى الجواب واحترازا ثانيا قبل أن يأتى الوعد بالخيرية لهم وهو الصدق الذى يصدق الإنسان فيه ربَّه، وكان يمكن أن يكون الكلام فإذا عزم الأمر وصدقوا الله كان خيرا لهم، ويكون الشرط مكونا من أمرين مجيء وقت الشدّ والصدق، ويكون هذا كلاما متماسكا ولكنه سيكون أقل شداً وتماسكًا وستكون عقدته أقل، وقد قلت إن شدَّ عُقْدة تركيب هذه الجملة هو من شد عقدة العزم، وأنه يلامح قول أبى الفتح، الذى ذكر فيه تصاقب المبانى وتصاقب المعانى، وهذا التعبير الذى افترضته بديلا لما جاءت عليه الآية ليس فيه معنى امتناع الجواب الذى هو الخيرية، لامتناع الصدق، الذى هو الشرط، والذى أضاف هذا المعنى هو كلمة «لو» الدالة على امتناع جوابها لامتناع شرطها، وهى أخت «لو» التى فى قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ [الواقعة: ٦٥] والمعنى لم نجعله حطاما لأننا لم نشأ أن نجعله حطاما، واللام فى الآيتين لتوكيد الجواب أى لتأكيد امتناعه لامتناع الشرط، والمقصود الأصلى فى الآية التى معنا هو جواب «لو» أعنى نفى الخيرية لهم لنفى صدقهم، إذا عزم الأمر، والقاطع بنفى الخيرية لهم هو كلمة «لو» ولو قلنا إذا عزم الأمر وصدقوا كان خيرا لهم لم يكن فى العبارة معنى أنهم لم يصدقوا، وإنما فيها أنهم فى الوقت الذى يحصلون فيه الشرطين تكون لهم الخيرية، وهذا لا يتناسب مع الآية التى بعدها وهى قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ لأن اللعن لا يكون إلا مع نفى الخيرية المترتب على نفى الصدق المفاد من كلمة «لو» وهكذا نجد أن حرف «لو» هو عمود المعنى فى هذه الجملة العالية.

وكلمة ﴿صَدَقُوا اللَّهَ﴾ فيها معان أولها ذكر لفظ الجلالة، وهذا اللفظ يفيد تربية المهابة فى القلوب حتى فى قلوب الصادين عن سبيل الله، لأنهم يعرفون الله وإذا سألتهم عن من خلقهم قالوا الله، وإذا سألتهم عن خالق

السموات والأرض قالوا الله، وإذا سـألتهم عن الذى يسوق الرياح وينزل الماء قالوا الله، والقرآن ملىء بذلك وكثير منهم صد عن سبيل الله؛ مع أنه مؤمن بالله، ولكنه يكفـر بأن محمدا صـلوات الله وسلامه عليـه رسول الله، وهم الذين يقولون لو شاء ربنا لأنزل إلينا ملائكة أو لـو كان رسولا لأنزل الله معه ملك أو جـعل له كنزا إلى آخره، وكل هـؤلاء تَجِدُ للفظ الجـلالة مهـابة فى قلوبهم، وهذا من أسرار هـذا الاسم، ثم إن الله موصوف بكل كـمال ومنزه عـن كل نقـص، وهـذا يدعـو العـقلاء إلى الصـدق معه؛ ويلحق المعاب بمن لا يَصْدُقُون مع الموصوف بـكل كمال والمنزه عن كل نقص، ثم فى هذا اللفظ شىء آخر، وهو أن صـدقـه هو الصـدق الذى لا يلابسـه كـذب ولا غـش، ولا نفـاق وقد يَكْذِبُ المرء نفـسـه ولكنه لا يستطـيع أن يكذب على الله لأنه يعلم مـا تخفى الصـدور، وشىء آخر فى هذا اللفظ الذى يُذهب اللـه بذكره الحزن والهم والغم ويفرج الله به الكرب هذا الشىء الآخر هو الدلالة على أن العزم المذكور فى الشرط الأول عزم من الله بسـبيل، فهو عزيمة من عزائم الله التى يحتشد لها أهل الإيمان بالله، وهى فى الآية وإن كـانت عزيمة قتال فإنها لا تمنع من كل عـزم فيه مَـرْضاةُ الله فى أى باب من أبواب الحـياة، وفى أى سلوك، فدفع الظلم عن الناس فيه عزيمة من عزائم الله، وكلمة الحق لسلطان فاجر فيه عزيمة من عزائم الله، ودفع سيطرة العدو التاريخى على الأمة وعلى أرضها وعلى سـياستهـا وتعليمها وثقـافتها عزيمة من عـزائم الله، وكل عمل صالح هو عزيمة من عزائم الله حتـى إزالة الشوك عن الطريق خشية أن يؤذى المسلمين إلى آخره، أما كلمة ﴿صَدَقُوا﴾ فهى أخت كلمة «صدقوا» فى سورة الأحزاب فى قـوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] وقـد أشَرْتُ إلى عناصـر مشتـركة بين سـورتى الأحزاب، والقتال، وأن هذا الاشتراك لاحق باسم السـورتين لأن الأحزاب قتال والقتال مواجـهة أحـزاب، وذكر المنافـقين فى السورتين ظـاهر والذى يعنينى هنا هو

وصف أهل الله فى السورتين وأنه وصف واحـد، وهو الصدق لأن من وجد الصدق فى قلبه، وجد الله معه، لأن الله وعدنا بأنه مع الصادقين، وأكرر أن هذا ليس فى مـقاتلة العـدو الخارجـى فحسب وإنما أيضا فى مـقاتلة العـدو الداخلى الذى هو الفساد والقمع والقهـر والغطرسة وسلب أموال الشعوب ثم التصـدق عليهم بالنـذر من أموالها إلى آخـر ما نرى، وليس هو غـايتى وإنما غايتى أن الأحـزاب ذكرت الرجـال الذين صدقـوا ما عاهدوا الله عـليه وهذا العهد هو العـزم، أو هو عزم الأمر المذكور معنا فى الآية، لأن العـهد عزم، وشـد، واحتـشاد، وهذا هو المقـتـضى الأول للصدق، وهو الذى لا يواجـه الشعب عدوه المسلح بالسلاح إلا به، ولا يواجه الشعب عدوه المسلح بالسلطة المغتصبة إلا به، ولا سبيل إلى مواجهة العدو المسلح بالسلاح تحت قيادة العدو المسلح بالسلطة، لأن هذه مواجهة خاسرة واسأل التاريخ يمدك بأصدق الجواب هذا والله أعلم.

قوله تـعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢] من العناصر التى أقف عندها حتى أدرك شـيئًا من حاق فقهها هذه الفاءات لأنها شوابك وروابط بين المعانى، ولا يجوز أن نقول إنهـا تعطف كـذا على كذا من غـيـر أن نبيِّن الذى يربـط المعطوف بالمعطوف عليه، وحين يظهر لى هذا أشعر أن ضوءا سطع على الآيات؛ وأننى أصبحت أن أدرك أكثـر، وقبل أن أذكر وجه هذه الفـاء أشير إلى الالتـفات الذى بنيت عليه الآية، وأن الحديث عنهم كان بطريق الغيبة من أول قوله سبحانه ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ إلى قوله جـل شأنه ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ كل هذا حـديث عنهم ثم جاء الحـديث إليـهم وخطابهم بالحقـيقة الـتى فى هذه الآية وهى إفسادهم فـى الأرض وقطع الأرحام، وفى هذا غضب ظاهر، ومجـابهة ظاهرة ورَمْى فى وجوههم بحقيـقة سلوكهم فى الأرض، وربما عدت إلى مـعان أخرى وراء هذا الالتفـات، ولكن هذا القدر

من معناه يساعد على فهم سر هذه الفاء وأن كل الذى مضى فى شأنهم من أول نزول سورة يذكر فيها القتال هو وصف لما أضاعوا به آخرتهم، وأنهم رفضوا الطاعة، وقول المعروف، ولم يصدقوا الله فى وقت الشدة وعزيمة الأمر، وفى وقت الحاجة إلى الرجال الذين يصدقون ما عاهدوا الله عليه، وهذه الفاء بين هذه الأحوال وأحوالهم التى يضيعون بها دنياهم، ويخسرون بها أنفسهم، وهى الإفساد فى الأرض، وتحويل حياة الناس على هذا الكوكب إلى ظلمات لأن الإفساد يعنى الظلم بدل العدل، والعقوق بدل البر، والتخلف بدل التقدم، والفقر بدل الغنى، والخراب بدل العمار، والغدر بدل الوفاء، والقَسْوة بدل الرحمة، إلى آخر ما لا يحصى ولا تستقصى من وراء كلمة الفساد التى نعيشها ونعيش معها السلب والنهب والغش والنفاق والقمع والغطرسة، إلى آخره، ثم إنهم لم يكتفوا بإطلاق شياطين الفساد والإفساد التى تظلم حياة الناس وإنما يضيفون إلى ذلك قطيعة الأرحام التى هى جزء من الفطرة فهم لم يفسدوا حياة الناس فحسب، وإنما يفسدون أيضا نفوس الناس، فلا تراحم، ولا بِر، ولا تعاطف، ولا تآزر، إلى آخر ما تصير به الحياة أبشع من الغابة لأنك ترى فى عالم الحيوان الأب والأم يرأمان أولادهما، ويحفظان لهما الرحم، هؤلاء الجبناء المخلوعة قلوبهم لما نزلت آية القتال هم الذين يَصْنعون فى الأرض كل هذا الخراب، ويصنعون فى الإنسان كل هذا الخراب، وبهذا يظهر عطف هذا الجزء من المعنى على الجزء الذى قبله، والذى خربوا فيه آخرتهم، وكان الالتفات هنا ولم يكن هناك لأن تخريبهم لآخرتهم يعود وبَالُه ونكالُه وعذابُه عليهم، أمّا تخريبهم فى الأرض فإن ذلك عائد على كل حيٍّ فيها حتى الحيوان، والطير، وقد رأيته بعينى يعود على تربة الأرض وعلى طينها، فلم تعد تنبت ما كانت تنبته، شؤمهم فى الدنيا شُؤم عامٌّ على الأرض ومن فوق الأرض، وشؤمهم فى الآخرة فى قبورهم، وفى الجحيم الذى يتقلبون فيه، وهذا كما قلت سر من أسرار هذا الالتفات.

وكلمة هل معناه التحقيق وهى أخت هل فى قوله تعالى ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى

﴿الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُوراً﴾ [الإنسان: ١] يعنى قد أتى والجملة بعدها ثابتة والمعنى تأكيد أنكم تفسدون فى الأرض وتقطعون أرحامكم، وإنما عبّر عن الإثبات والتحقيق بالاستفهام للتنبية، والإيقاظ وليعودوا إلى أنفسهم، ويقروا بهذه الحقيقة، وأنه ليس هناك حيف عليهم، وليس هناك افتيات عليهم حين يخبر عنهم بأنهم يفسدون فى الأرض، ويقطعون أرحامهم، وكلمة «عسيتم» هى كلمة عسى مسندة إلى ضمير المخاطبين، وهذه لغة أهل الحجاز لأن تميما لا تسند عسى إلى الضمائر، وإنما يقولون عسى أن تفعل، وعسى أن تفعلوا، ومنه قوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً﴾ [النساء: ١٩] ومعنى عسى الرجاء وخبرها أن تفسدوا فى الأرض، والرجاء بالمعنى الذى تدل عليه اللغة مستحيل على الله لأنه سبحانه إذا أراد شيئا قال له كن فيكون، وإنما خاطب سبحانه خلقه بما يخاطبون أنفسهم، والمراد والله أعلم أن من يرقب أحوالكم ويرى تقلباتكم، وأنكم إذا ذكر القتال تخاذلتم وتماوتّم، وأنكم لستم من أهل العزم ولستم من أهل الصدق، من يرقب ذلك منكم يتوقع أن تكونوا مفسدين فى الأرض، ومقطعين للأرحام، وذكر ابن المنير أن الرجاء المسند إلى الله فى كلامه سبحانه وتقدّس المراد به الإسناد إلى الناس، وقال الزمخشرى: «فإن قلت ما معنى: فهل عسيتم أن تفسدوا فى الأرض؟ قلت معناه هل يتوقع منكم الإفساد؟ فإن قلت فكيف يصح هذا فى كلام الله عز وجل، وهو عالم بما كان وما يكون؟ قلت معناه أنكم لما عهد منكم أحقاء بأن يقول لكم كل من ذاقكم وعرف تمريضكم، ورخاوة عقدتكم فى الإيمان، يا هؤلاء ما ترون هل يتوقع منكم إن توليتم أمور الناس وتأمرتم عليهم لما تبين منكم من الشواهد ولاح من المخايل أن تفسدوا فى الأرض، وتقطعوا أرحامكم، تناحرا على الملك وتهالكا على الدنيا» انتهى كلام الزمخشرى.

ولب هذا النص هو قوله «إنكم لما عهد منكم أحقاء بأن يقول لكم كل من

ذاقكم وعرف رخاوة عقدتكم فى الإيمان...» إلى آخره، لأنه صريح فى أن الرجاء المسند إلى الحق جل وتقدس المراد به النسبة إلى الخلق، وهو أصل كلام ابن المنير، وكلام كثير من أهل العلم، وكان الزمخشرى كما وصفه ابن المنير خرِّيت أساليب، أراد بصيرا بطرق الكلام بَصَرَ الخريت بطرق الصحراء لأن الخِرِّيت هو العرّاف بمخارم الصحراء ومخارجها.

وجملة ﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ جملة معترضة بين اسم عسى وخبرها، وقد فسّرها العلماء تفسيرين: قالوا توليتم معناه أعرضتم عن الجهاد وخرجتم من صفوف المجاهدين، وهو قريب من التولى يوم الزحف، ورجح هذا الوجه كثير من المفسرين، ولم يرض الطاهر إلا به، ولم يرجّحْه فقط وإنما جعله الوجه ورفض غيره، والذين يرجحون يعتبرون المقابل مرجوحا، يعنى هو وجه يحتمله الكلام ولكن غيره أرجح منه.

والوجه الآخر هو أن يكون معنى توليتم يعنى ولاكم وُلاة السُّوء وصارت لكم ولاية على الناس، وهذه انتقالة كبيرة بهم، وأن الكلام انتقل بهم من قوله ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت، لأنهم سمعوا سورة ذكر فيها القتال إلى ولاية أمر الناس وأن هؤلاء الخوارين الذين عرفوا برخاوة عقدة الإيمان صاروا من السَّادة والقادة، والمهم أن كثيرا من المفسرين قالوا به ولم يجيزوه فقط، وإنما قدمُوه على القول الأول وذكروا القول الأول بصيغة التمريض ومنهم الزمخشرى.

وكان رفض الطاهر لهذا الوجة مؤسسًا على أنه يذهب بالجملة بعيدا عن سابقتها بُعْدًا يفقدها المناسبة والتقارب الواجب بين الكلام، وأن عُقدة الكلام تنفك بهذا الوجه من التفسير، قال رحمه الله: «ومن المفسرين من حمل التولى على أنه مطاوع ولاه إذا أعطاه ولاية أى ولاية الحكم والإمارة على الناس وبه فسّر أبو العالية والكلبى وكعب الأحبار، وهذا بعيد من اللفظ ومن النظم، وفيه تفكيك لاتصال نظم الكلام وانتقال بدون مناسبة» انتهى كلام الطاهر رحمه الله.

والوجه الذى ردَّ هذا القول مقتبس من كلام الزمخشرى فى مواضع أخرى لأنه هو الذى شَاعَ فى كلامه التحذيرُ من تَبْتِير النظم، وهذه هى الفكرة الأم فى كلام الطاهر، وكان الطاهر عالما يحصِّل العلم بغزارة ثم يَنْفذ فيه بنفاذ، وكان عقله عِدْل علمه رحمه الله، وكان إذا بان له الرأى لا يسأل عن مخالفه، وإنما ينحاز إليه وإن خالف من كان فى طبقة أبى العالية، والكلبى وكعب الأحبار، اللهم ارحمه وألحقنا به كرامة نفس وقرة عين.

وتفكيك نظم الكلام الذى ذكره الطاهر كان مُقْنعا لى أوّل نظرى فى الآية، ثم لما هُدِيتُ إلى ما بَيَّنْته فى حديثى عن الفاء، وأنها تعطف ما بعدها على ما قبلها عطف معنى، وأن ما بعدها هو أنهم يخسرون دنياهم، وأن ما قبلها هو خسارة آخرتهم لم يعد لفكرة تبتير النظم وجود، لأن الآية تذكر أحوالهم فى الدنيا وأنهم يفسدون ويقطعون الأرحام، سواء كان التولى بمعنى الانصراف عن أهل العزيمة، والصِّدْق مع الله، أو كان التولى بمعنى الولاية، المهم أنهم انخرطوا فى أهل الدنيا الذين لاحظ لهم فى الآخرة، ومما يجب أن تراجعه أنت أيها القارئ أن الزمخشرى صاحب التحذير من تبتير النظم وتفكيكه، الذى أخذه عنه الطاهر رجح التولى من الولاية، وذكر التولى بمعنى الإعراض بصيغة التمريض، وكأن الطاهر يخالفه بما تعلَّمه منه. ورأى فى كلام الزمخشرى ما يقوى به الوجه الذى ذكرته وذلك قوله ﴿تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ تناحرا على الملك وتهالكا على الدنيا، وهذا ظاهر فى أن القوم خرجوا من صفوف المجاهدين الذين يطلبون ما عند الله بأنفسهم، إلى صفوف المتهالكين على الدنيا، وأنهم كما قال الزمخشرى «انخذلوا وكاعوا وشق عليهم وأسقط فى أيديهم لما نزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال، وأن هذا الجبن والهلع والفزع الذى اعتراهم لما كانوا بصدد الجهاد الذى أجْرُه عند الله ذهب كله ودخلوا فى باب التناحُر والتهالك على الملك فى هذه الفانية»، وكلمة (كاع) تأتى كثيرا فى كلام الزمخشرى ومعنى كاع عن الشىء هابه، وبابه باع يقال كاع يكيع إذا هاب وجُبُن وتخاذل.

قلت إن جملة ﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ التى جرى فى معناها هذا الخلاف جملة معترضة وأصل الكلام فهل عسيتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم، بمعنى هل يتوقع منكم من يرى تقلبكم وسلوككم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم، وهل معناها التحقيق كما قلت وسواء فَسَّرتَ إن توليتم بالتولى والإعراض أو بالولاية فلن يكدِّرَ التفسير هذا المعنى، ولاحظ دلالة كلمة ﴿إِن﴾ التى تأتى فى المعنى النادر ولها هنا معنيان لأنك إن فَسَّرت التولى بمعنى الإعراض أفادت أن هذا الإعراض مما لا ينبغى أن يكون إلا نادرا، وإذا فسرت التولى بمعنى الولاية أفادت أن الأصل فى هذا أن لا يكون إلا نادرا، لأن تولى مثلكم لأمر من أمور الناس لا يكون من حكومة رشيدة ولا من حاكم عاقل، أما المراد بقطع الأرحام فأنا لا أفهم منه خصوص قطع الأرحام، وإنما أفهم منه إفساد أخلاق الناس، وتدمير معانى الخير فى نفوسهم، وآخر ما يدمر هو قطع الرحم، وإذا كان التدمير قد بلغ قطع الرحم فمعنى هذا أنه بلغ الغاية، وأن ذَبْحَ النفس الإنسانية بكل فضائلها قد وصل إلى الحلقوم، وعليك أيضا أن تتدبر كيف يصل الإفساد إلى الإنسان نفسه، وإلى داخل هذه النفس، وهذا أخطر ما يصل إليه الإفساد، لأنه يدمر الإنسان ويدمر كل معنى إنسانى فيه، حتى الرحم الذى هو من الفطرة، وإذا بقى الإنسان بعافيته استطاع أن يصلح ما أفسده الإفساد، فإذا بلغ الإفساد الإنسان فقد بلغ السيل الزبى، وليس لها من دون الله كاشفة، وهذا ما ألاحظه بل ألاحظ أن الإفساد متجه إلى الإنسان أولا، وهناك إشارة قرآنية إلى أن الإفساد وقطيعة الرحم من أبشع ما يمارس فى حياة الناس، هذه الإشارة هى أن سورة الرعد نزلت بعد سورة القتال وليس بينهما فاصل، وهناك آية من أعظم آيات الله فى سورة الرعد وضَعَتْ الحدود الفاصلة بين من يعلم أنما أُنزِلَ إليك من ربك الحق، والأعمى يعنى الذى لا يرى أن ما أنزل إليك من ربك الحق، وذكرت أخلاق الفريق الأول، وأنهم يُوفون بعهد الله ﴿وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ [الرعد: ٢٠، ٢١] إلى آخر ما ذكرت، ثم أخلاق الفريق الأعمى فى هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥] وهذه الآية كلها فى سورة القتال، لأن الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه فيها قدر كبير من قوله تعالى ﴿فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ﴾ لأن عهد الله عزيمة من عزائم الله، وعدم نقضه هو صدق الله فيه.

ثم ذكرت ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل، والرحم من أرفع ما أمر الله به أن يوصل، وهذه الجملة ترشح تفسيرى لقطع الرحم، وأنها تعنى قطع كل وصل يصل النفس بالخير، وأن الرحم آخر ما يقطع، وأن فساد النفس حين يصل إلى قطع الرحم يكون قد وصل إلى الحلقوم، وقد أمرَنا ربنا بأن نصل أرحامنا وغير أرحامنا من إخوننا، ومن نحب فى الله، ومن فقرائنا، وأهل الحاجة فينا، يعنى أن تصل أيدينا إلى كل من يحتاج منا، ونحن مع أهل الله جسد واحد، إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء، وهذا التداعى هو ما أمر الله به أن يوصل، وهذا حسبى، لأنى أريد أن أنتقل إلى معنى آخر هو هذا الربط الواضح فى الآية الكريمة بين التخاذل عن الجهاد، من جهة والإفساد فى الأرض وقطيعة الرحم من جهة أخرى، وهذا الربط ظاهر لا يحتاج إلى بيان، وفى مقابله أن أُمّةً تحتشد للجهاد والمدافعة عن النفس والأرض والعرض وكل ما يدفع الناس عنه ويحملون السلاح لحمايته يكثر فيها الصلاح والإصلاح ويكثر فيها وصل ما أمر الله به أن يوصل.

والذى أفهمه من هذا أن احتشاد الأمة حول الجهاد لا يعنى الرغبة فى الاعتداء لأن الله سبحانه لا يحب المعتدين، وإنما يعنى الإصرار على توفر القدرة لرد العدوان وحماية النفس، والأرض، وأى شعب لا يتغلغل فيه الجهاد بهذا المعنى فهو شعب قد تهيأ للاستعمار أو هو شعب عنده القابلية

للاستعمار على حد تعبير مالك بن نبى رحمه الله، وهذا تعبير مخفّف لأن التعبير غير المخفف هو أنه شعب قابل للعبودية وأن يُغْلَب على ترابه، وأن يُقْهر على أرضه.

وتغلغل روح الجهاد لا معنى لها ما لم يَحْرِصْ الشعب على صناعة آلة الدفاع عن نفسه بيده، لأنه لو اعتمد على شرائها فإن جهات بيع السلاح الآن تشترط قيوداً على استعماله، فكل السلاح الذى فى يد شعوب العرب الغنية محظور على رصاصة واحدة منه أن تتجه جهة تحرير بيت المقدس، نعم يمكن أن تتجه إلى صدر طهران، وهذا يعنى أنها صفقات ليس المقصود منها إلا إفراغ أموال العرب الحكماء الراشدين فى خزائن مصانع الأسلحة المفتوحة لإسرائيل، ولا يعنينا أن نطيل الكلام فى هذا لأن كل من يتكلم عن الفساد وسوء السياسة يُعَدُّ مثيراً للفتنة، ونسأل الله السلامة، المهم هو حرص الشعب الواعى على أن تكون أدوات حَرْبه من صنع يديه وليس هذا غريبًا بل إن افتقاده هو الغريب، وإلف الشعوب العربية على أن تستورد كل شىء ليس غريبًا فحسب وإنما هو الشاذ، ودالٌّ دلالة قاطعة على التخلف، وإذا أصرَّ الشعب على أن تكون أداته التى يدافع بها عن أرضه وعرضه من عمل يده فقد أصرّ على التقدم العلمى والصناعى، لأنه ليس فى زماننا أسرع من أدوات الحرب فى التطور والتقدم، وكل تقدم وراءه أبحاث علمية واجتهادات علمية واختراعات لا ينام القائمون عليها، ووراء كل ذلك تعليم حىّ وأجيال من طلاب العلم المتفوقين والتى تزود مراكز البحث بالطاقات العقلية التى تتهيأ بدورها للدخول فى معمعة البحث والتقدم إلى آخره، ومجتمع يحتشد هذا الاحتشاد لا ترى فيه فساداً ولا ترى فيه قطيعة وإنما هو تعاون وتآزر وجدّ وفكر وتفوق واستنهاض لأقْصَى ما فى النفس الإنسانية من طاقات مبدعة وجيدة، وهذا أكرم ما فى النفس، ولن ترى مع هذا قيادة سياسية غبية ولا جاهلة ولا فاشلة ولا عصابة لصوص ولا طبقة مفسدين، لأن المجتمع

بفكره وتفوقه أضاء كل ما حوله ولم يترك سردابًا مظلمًا للخفافيش الذى ترى بلادى قد صارت عُشّاً كبيرًا لهم. وإذا قلت لى ماذا تعنى بقولك بلادى؟ قلت لك هى كل بلاد العرب والمسلمين، قلت إن الآية رتبت الفساد والإفساد على التخاذل عن الجهاد وهذا منطوق الآية، وقلت إن هذا يعنى أن وجود روح الجهاد تعْنى مطاردة الفساد والإفساد وحضور الصلاح والإصلاح وهذا مفهوم الآية ، وقلت إن تمام الجهاد أن يصنع الشعب قَوَّته ومنعته، وآلة دفاعه عن أرضه وعرضه بيده وهذه بديهة، وقلت إن ذلك يعنى توهج الحياة العقلية والتقدم العلمى والصناعى، وهذا أيضًا بديهة، وقلت إن مجتمعًا تشرق فيه شمس المعرفة لا تسكن فيه الخفافيش، وأريد بكل هذا ألا تظن أننى أبْتَعَدُ عن الآية وأنا أقول ما أقول، لأن الحديث عن الآية بمعزل عن ما تدل عليه يتبوأ به صاحبه مقعدًا فى النار، ونسأل الله أن يأخذ بأيدينا على الطريق الذى يرضاه.

قوله سبحانه ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ هذه الآية بطابعها وبنائها على اسم الإشارة الذى يشير إلى أن اسم الإشارة هذا جدير بما يأتى بعده بسبب ما جاء قبله، تأتى غالبًا فى نهاية معان جزئية وكأنها مقطع يقفل به باب معنى جزئى، وقد مضى له نظير فى قوله تعالى ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ فقد أنهى جزءًا من الحديث عن الذين يستمعون إليه عليه السلام فإذا خرجوا من عنده ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾، والعَلَمُ فى هذا الموقع وبيانُ الذى أريده قوله تعالى فى أول البقرة ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥] فقد أَنْهَتْ هذه الآية ذات الطابع المشارك لما نحن فيه فى البناء؛ الحديث عن المتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة إلى آخره، وهذا مهيع من مهايع الذكر الحكيم يتناثر فى كثير من السور، وهو جدير بأن يستقصى ويدرس.

ثم يلاحظ أن الذى جاء بعد أخت هذه الآية فى السورة على مهيع وطريق

الذى جاء بعدها، فهناك ﴿ **فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً** ﴾ وهنا ﴿ **أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ** ﴾ فالاستفهام المقترن بالفاء والذى فيه معنى التوبيخ والتشهير واللفت إلى الخطأ الفادح الموبق لهم كل ذلك وغيره فى الآيتين، وشىء آخر هو أن الآية الأولى ذكرت أن الله سبحانه طبع على قلوبهم واتبعوا أهواءهم، وهذه الآية ذكرت أن الله سبحانه لعنهم فأصمهم وأعمى أبصارهم، وتدبر الآيتين ترى أن المعنى فيهما يقتضى الترتيب الذى جاءتا عليه فى المصحف لأن الثانية لعنة والأولى طبع على القلوب، والثانية بمثابة الجزاء والأولى بمثابة الذنب، الطبع أولا واللعن ثانيًا، واتباع الهوى أولا وأصمهم وأعمى أبصارهم ثانيًا، واسم الإشارة هنا راجع إلى الذين رأيتهم ينظرون إليك نظر المغشىّ عليه من الموت، وما أنجر إليه الحديث عنهم إلى قوله سبحانه ﴿ **أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ** ﴾ واسم الإشارة الحامل لكل هذه المعانى إنما حملها ليبرر بها استحقاقهم للعنة وأن الله لا يظلم أحدًا، وأن لعنته سبحانه لا تقع إلا على من زاول من الأعمال ما يجعله جديرا بهذه اللعنة، فهؤلاء قد بلغ سوؤهم ذروته فى الإفساد فى الأرض وتقطيع الأرحام، وكأن اسم الإشارة فى هذا الموقع ونظائره بمثابة برهان ودليل على استحقاقه ما يأتى بعده، ويلاحظ أن هذه الآية انتقل فيها الكلام من طريق الخطاب فى قوله ﴿ **فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ** ﴾ إلى طريق الغيبة وهذا الالتفات يفيد الكلام تطرية وإيقاظًا، ثم يفيد أن هذه الآية التى تحدث عن جزاء هؤلاء المنافقين لها شأن يجب أن يلتفت إليه لأن الالتفات وإن اختص عمومه بالتطرية والإيقاظ فإن لكل موقع منه فائدة تختص بالموقع وأرى الفائدة هنا هى مزيد لفت إلى خطر هذه الطبقة أعنى الذين فى قلوبهم مرض الذين هم المنافقون لأنهم عرق سوء ممتد فى كل الأجيال وفى كل الجماعات وهم الذين يفسدون فى الأرض ويقطعون الأرحام، وليس بلازم أن يكون ذلك بأيديهم فى الأحوال كلها، وإنما يكون ذلك بأيدى المجرمين الذين يزيف المنافقون حقائقهم ويلبِّسونها على الناس كهذا الذى نقرؤهُ ونسمعه من جماعات المنافقين، وأحيانا

وأنا أسمع أو أقرأ أتأسف ليس على سقوطهم لأن هؤلاء لا يعرفون معنى الرفعة ولا يأنفون من السقوط وإنما يؤسفنى أنى أرى اللغة تقاد إلى جحيم المعانى وأن ألفاظها الشريفة العالية تسقط فى مستنقع الخِسَّة بألسنة وأقلام الذين لم يرتضعوا مصةً واحد من ثدى حرة، وكلمة (نجيبة) فى قاموس العربية لم توصف بها المرأة لوصف فى ذاتها، وإنما يُكْسِبهُا هذا الوصف ولدُها النجيب فصارت الأم فى لغتنا توصف بوصف مَنْ ولَدَت، فإذا كانت ولدت خسيسا منافقا انتقل وصفه هذا إليها، والمنافق لا عرض له، والمنافق تعْسًا له، ولم يفسد حياتنا كهؤلاء المنافقين هم الغطاء الكاذب للحكام الجهلة، والغطاء الكاذب للفساد فى الحكم، والفساد فى التعليم، والفساد فى كل شىء، هم السبب الحقيقى للتخلف، والفقر والمرض الذى نحن فيه، وكل هذا وأكثر منه يشير إليه الالتفات الذى بُنيت عليه الآية لأن الآية لا يقول أحد أن معناها مرتبط بالذين لما أُنزلت السورة التى ذكر فيها القتال نظروا نظر المغشى عليه من الموت لأنها إن كانت كذلك فهى آية تاريخ وليست آية تكليف، واسم الموصول فى قوله سبحانه ﴿الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ يشير إلى أن هذه الصلة التى هى لعنة الله والواقعة على جماعة صلة معلومة مشهورة، متداوله، وأن الذين عليهم اللعنة المعلومة بين الناس هم أولئك الذين يستصحب اسم الإشارة أوصافهم من قوله تعالى ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ واللعن معناه الإبعاد والطرد من الرحمة.

وقوله سبحانه ﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ الجملة الثانية معطوفة على الجملة الأولى والجملة الأولى وما عطف عليها مرتبة على جملة الصلة ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ ومن أجل أن تدرك حقيقة هذا الترتيب لابد أن تراجع مرة ثانية معنى لعنهم ومعنى أصمهم وأعمى أبصارهم، واللعن هو الإبعاد عن رحمة الله كما قلت، وأصمهم يعنى ذهب بسمعهم ذهابا لا عودة بعده، لأنهم صاروا صُماً وذهاب السمع على هذا الوجه مع ذهاب البصر تأكيد لمعنى اللعن لأنه يعنى أنه إبعاد لا اقتراب بعده، لأن وسيلتى الإدراك الهادى إلى

الحق قد أُعْدمـتا، فلا سبيل إلى الهدى، ولابـد من ملاحظة لفظ الجلالة فى قوله سبـحانه﴿ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ﴾ أى الموصوف بكل كـمال والمنزه عن كل نقص، وهو سبـحانه لا يلـعن إلا من يستـحق اللعن لأن لعن من لا يستـحق اللعن نقص وظلم والله منزه عن ذلك، وإنمـا قدّم ﴿ فَأَصَمَّهُمْ ﴾ لأن المنادى الذى ينادى للإيمان أن آمـنوا بربكم وآمنوا بما أنزل علـى مـحـمـد وهو الحق، هو الكتاب العزيز، نعم هناك له فى الكـون أدلة منصوبة على أنه الواحد، ولكن عدم الانقيـاد لها لم يكن موجبـا للعذاب لأن الله سبحانه أخـبر بأنه لم يكن مُعَـذبًا حتى يبعث رسـولا، وبعد ما نزل الـكتاب ولفت إليهـا وأوجب أخذ البرهان منها، صارت أدلة تكليفـية كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، والذى لا كلام فيه هـو أن القـرآن العـظيم هو البرهان الأنور وهـو الحجة القاطعة وهو الذى لا تشك آذان هذا الجيل فى أنه ليس من كـلام الناس، وأنه كلام الله لا ريب فيه، وأنه هدى للمتقين، فإذا كان غضب الـله عليهم قد أصمهم عن سماعه فلا أمل البتَّة فى هدايتـهم، وهذا يرجع بنا إلى أصل ضلالهم لما نظروا إليك نظر المغشىّ عليه من الموت لأن السورة المحكمة التى ذكر فيها القتال آية قاطعة وقاهرة، وهذا يعنى أن الذى ذكر القتال فى السورة هو الله البارئ المصور وأن الانصـراف عـنها انصـراف عـن البـارئ المصور سبحـانه، وهم يعلمون ذلك ولا يشكون فيه لأن كل مـن سـمع ما أنزله الله علـى نبيه من هذا الجيل كان لا يشك فى أنه كلام الله يسـتوى فى ذلك الأحرار والعـبيد والرجـال والنساء ومن كـان من العرب ومن كـان من غـير العـرب كسـحيم وبلال وصهـيب وغيرهم، وكل هذا يبين حجم عنادهم، وحجم خـلافهم ومقدار غضب الحق عليهم، لأن هذه الآية من أشد آيات الغضب لأنها لم تكتف باللعن وإنما أكدته على الوجه الذى رأيت، وإذا وضعتها بإزاء الآية التى سـبقتها وهى قوله تعالى ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ وجدت الغضب فيـها أكثر

والمقت فيـها أشد لأن الذى هنا لَعْنٌ وذِهابٌ بالسمع وذهابٌ بالبـصر، وهناك طبع فقط، ثم إنك تلاحظ شـيئا آخـر هو أنك حين تضيف أصمـهم وأعمى أبصارهم إلى الطبع على القلوب تجد الكلام استـوفى الثلاثة التى هى صفات عتـاة الباطل والتى جاءت فى أول البـقرة ثم تناثرت فى الكتـاب العزيز وهى الطبع على القلوب والأسماع وجعل الغشاوة على الأبصار، وهى أيضا الأكنة على القلوب والوقر فى الآذان والحجاب الذى يحجبهم عن الحق.

ولا يجوز أن أدع آيـة الذين فى قلوبهم مرض، الذين هم أهل النـفاق من قبل أن أذكر بأن المنافقين حولك وحولى لا يزال فى آذانهم صمم فلا يسمعون الحق الذى تصـرخ به الشـعـوب التى تطالب بالتـخلص من الفـسـاد والظلم والقمع والخطف والبطش من العصابة التى يحمـيها حرس من النفاق وحرس من القمع، فى آذانهم صمـم فلا يسمعون هذه النداءات، وأعـينهم عمى فلا ترى السلب والنهب وإنما حسـبهم أنهم يصيـبون من هذا السلب والنهب وأنا أسمع أصواتهم، وحناجرهم تعلو بأوصاف الحكمة والبطولة لكل أفاك، وأرى عيونهم وهم يتكلمـون فلا تخطئنى الغشاوة التى جـعلها الله على أبصارهم، وأنا لا أعـذل هؤلاء لأن من باع شرفـه لا يؤاخذ ولا يناقش ولا أعـذل أهل القمع والسلـب والنهب لأن من باع ضميـره ووطنيتـه لا يناقش ولا يؤاخذ، وإنما أعذل الشعب الذى هو صاحب حق ثم ترك حقـه نهبا لهذه العصابات، وهذا حسبى.

قوله تعالى ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

قلت إن آية ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ كأنها تُشَيِّع معنى محدودا من معانى السورة وتغلق بابه وهذا ظاهر، وهذه الآية تفتح باب معنى جزئى آخر من معانى السـورة والمطلوب هو مراجعة الفرق بين هذه الآية والآية التى قبلهـا، ويلاحظ أن الآية التى قبلها المسـند إليه فيهـا اسم الإشارة

وهو حامل لكل ما مضى من أول قوله تعالى ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ وأن الذى مضى هو حديث عن موقفهم الذى كان ثمرة عدم اليقين، أو عدم الإذعان والانقياد، فهم لأنهم غير مذعنين نظروا إليك نظر المغشى، وهم لم يَصْدقوا الله إذا عزم الأمر، وهم إن تولوا يفسدوا فى الأرض ويقطعوا أرحامهم، هذا هو جنس المعانى التى أغلق بابها، والآن نفتح باب السبب فى أنهم دخلوا باب عدم الإذعان والقبول الذى قادهم إلى هذه الرذائل؟ وكأن آية ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ ترجع إلى ما قبل ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، لأنهم لم يكونوا كذلك إلا لأنهم لم يتدبروا القرآن، هذه الآية هى السبب فى المعانى قبلها، ولو رتبت الآيات على وفق ترتيب الأحداث لذكرت آية ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ﴾ قبل آية ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ولكن نظام البيان العالى يقدم ما يقدم ويؤخر ما يؤخر على وفق سياق المعانى، وليس على وفق ترتيب الأحداث، وسياق المعانى أن السورة بدأت بذكر فريقين فريق صد عن سبيل الله، وفريق قاتل فى سبيل الله، ثم انتقل الكلام إلى الفريق الذى هو بين بين، وهو فريق المنافقين، والذى به يتم الحديث عن المكونات الثلاثة للمجتمع فريق كَفَر، وفريق آمن، وفريق نافق، ونحن لا نزال الآن مع الفريق الذى نافق، وإنما سبق جزء من سلوكه، ونحن الآن مع سبب سلوكه، وهو أنه لم يتدبر القرآن تدبرا يفضى به إلى الانقياد، وهذه الهمزة فيها معنى الإنكار ولكنه ليس الإنكار الذى ينفى النفى الذى دخلت عليه لأنه إنكار توبيخى لا ينفى الواقع وإنما ينفى الانبغاء، يعنى أنكم لم تتدبروا وما كان ينبغى لكم ألا تتدبروا، وفيها مع الإنكار التجهيل والتشهير، والتنبيه على الخطأ لأن رجلا منكم تعرفونه وتعرفون صدقه وقرأ عليكم كلاما قال لكم هو كلام الله وهو حجة نبوتى وأنتم تعلمون كلامه، وقد بلغ فيكم أربعين سنة، وواجهتموه بالسيف، وكان عليكم قبل هذه المواجهة أو قبل هذه المخادعة أن تتدبروا كلامه، ولو تدبرتموه لاتخذتم الموقف الذى هو أشبه بأهل الرأى والحكمة.

وهذه الفاء التى دخلت عليها الهمزة مؤذنة بمحذوف يرتَّبُ عليه ويُعْطَفُ عليه ما بعدها ولابد أن يكون ملائما لذلك، وقد ذكرت أن هذا صعب وأن تقدير المحذوف فى القرآن صعب لأن الذى تقدره يكون كلاما عاريا من كل حسن بالنسبة للكلام الذى قدرته فيه؛ مهما اجتهدت فى أن تجوّد، ولك أن تقول إن الأصل أغلبكم الحسد فلم تتدبروا ما أخبركم به صاحبكم أنه حجة نبوته؟ أو أغابت حكمتكم فلم تتدبروا دعواه؟ والتدبر معناه النظر بالفكر الواعى لأدبار الأمور الذى تنتهى إليه عند رؤية أوائلها، وهى كلمة سخية جدا لأن فيها التفكر الواعى، والحدس الواعى، الذى تراك فيه منقادا إلى معرفة أعجاز الأمور يعنى نهاياتها عند رؤية هوادبها يعنى أعناقها، وأوائلها، والقوم لم يحسنوا ذلك ولو أحسنوه لقادهم حَدسُهم الذى لا شك فيه أن القضية ستُحسم لصالح هذا النبى الكريم لأن تدبر ما أنزله الله عليه يَهْدى إلى أنه الحق، وأنه ينفع الناس، وأن ما هم فيه زَبَدٌ والزَّبَدُ يذهب جفاء، وأن ما هم فيه باطل وأن الحق يدفع تُرِّهات الباطل كما كانوا يعتقدون ويقولون، وقد كان ما كان وجاء نصر الله والفتح ورأى المصطفى صلوات الله وسلامه عليه قومه وغير قومه يدخلون فى دين الله أفواجا، وأفهم كل ذلك من كلمة تدبر لأنها تعنى معرفة أدبار الأمور والتيقظ الواعى هو الذى يدرك نهاياتها عند رؤية أوائلها أو هو الذى يظن بك الظن كان قد رأى وقد سمع.

وتدبر القرآن يقطع بأنه كلام الله، وكان هذا القطع قريبا جدا من الجيل الذى نزل فيه، ولهذا كان عليه السلام لا يزيد فى الدعوة إلى دين الله عن قراءة آيات ممَّا أنزله الله عليه، وقد بين القرآن هذا فى قوله تعالى: ﴿**إِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ**﴾ [التوبة: ٦] وهذا صريح فى أن السماع تقوم به الحجة،، ولما سئل أبو سفيان فى جاهليته عن رأيه فيما يسمع من رسول الله ﷺ قال لو كان هذا من كلامنا لعرفناه، وما دام ليس من كلامهم فهو كلام الله وهذا ظاهر ومتعالم، ثم إن الإعجاز فى الكتاب

العزيز قائم إلى يوم القيامة وإدراكه ممكن فى كل جيل، وفى كل أمة إلى يوم القيامة، وهذا أيضا ظاهرا وكل من يحاول إدراك الإعجاز فى الكتاب العزيز يجده قريبا منه، ثم إنه ليس معجزا ببلاغته فحسب، وإنما هو معجز بكل الوجوه التى ذكرها العلماء القدماء والمحدثون، ولا أجد وجها لدفع القول بالإعجاز العلمى لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣] ، والضمير فى قوله: ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ يعنى القرآن ومعناه أن الناس سيكتشفون آيات الله فى الآفاق وفى أنفسهم بتطوّر العلوم حتى يتبين لهم أن القرآن حق لأنه أومأ إليها.

وفى سورة النساء آية أخت هذه الآية، وسياقها شبيه بسياقها، وفيها بيان أكثر وهى قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] والمقصود قوله ولو كان من عند غير الله إلى آخره، لأن فيه معنى جليلا جدا، وهو أن فيه دلالة قاطعة على أنه لم يَصدرْ عن نفس إنسانية لأن كل ما يصدر عن النفس الإنسانية لا يخلو من الاختلاف، والمراد بالاختلاف التلوُّن، وأنه مرة يَقوى، ومَرّة يَضْعُف، ومرة يَعْلو، ومرة يهبط شأن كل ما يكون من الناس، حتى إنك لا يمكن أن ترى قصيده أو رسالة أو خطبة كلها على مستوى واحد من القوة والمتانة والسداد، والإصابة، وإنما أنت واجد لا محالة فيها كلاما تقول فيه لو قال كذا لكان أفضل، وافتقاد هذا التلوُّن وهذا الاختلاف فى الكتاب العزيز دليل على أنه كلام الذى ليس كمثله شىء.

وسياق هذه الآية فى النساء يشبه سياق القتال لأن قبلها قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (٨١) أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨١، ٨٢].

وراجع صورة القوم الذين يقولون طاعة فإذا خرجوا بيَّتوا غير الذى يقولون، وراجع معها صورة المنافقين فى القتال وقوله تعالى فى القتال ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾. وقوله تعالى: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ هذه جملة من مبتدأ وخبر والخبر الجار والمجرور مقدم لأن القلوب هى موضع العناية، وهى رأس الكلام الذى رأيناه فى قوله تعالى ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ والتنكير فيها يشعر بأنها قلوب منكر أمرها فى الغَفْلة، والغباء، وافتقاد الوعى وإضافة الأفعال إليها فيه معنى أنها أقفال صُنِعَتْ لهذه القلوب وقُدِّرَت على أقدارها، وكلمة «على» تدل على استعلائها وتمكنها وليس للقلوب أقفال فى الحقيقة، وإنما هى أقفال على سبيل المجاز، فقد صوّرت العبارة القلوب فى صورة ما تودع فيه الأشياء ولها باب يفتح ويُغلق، ثم استغنى عن هذا التشبيه ورمز إليه بإضافة الأقفال إلى القلوب على سبيل الاستعارة التخييلية التى هى قرينة المكنية وكلمة (أم) التى بُنيت عليها الجملة بمعنى بل والهمزة، وتقدير الكلام بل أعلى قلوب أقفالها، والمراد بالاستفهام المتضمن فى كلمة أم الإثبات وأن على القلوب أقفالها، وفرق كبير بين أن تقول أم على قلوب أقفال، والذى جاءت عليه الآية، لأن الإضافة أفادت أن لكل قلب قفْلا لا يَصْلُح إلا له ليحكم إغلاقه، والإضراب الذى فى كلمة بل المضمرة فى كلمة أم إضراب انتقالى، وليس إبطاليا، لأن ما قبل «أم» ثابت ولم تبطله أم، وهذا يعنى أن الجملتين ثابتتان، لم يتدبروا القرآن، وعلى القلوب أقفالها، والجملة الثانية آكد من الجملة الأولى، لأنها تعنى أنهم لو تدبروا القرآن فلن يصل إلى قلوبهم منه شىء، لأن القلوب عليها أقفالها، والكلام يترقى فى تصوير ضلالهم، كالذى تراه فى قوله تعالى ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ [لقمان: ٧]، والثانية آكد لأنها تعنى أنه لو أراد السماع فلن يسمع لأن الوقر فى أذنيه يمنع ذلك، ويحتمل الكلام شيئا آخر، وهو أن يكون الإضراب إضرابا إبطاليا، وأن تكون كلمة أم أبطلت النفى فى

تدبر القرآن وإبطال نفى التدبر يعنى إثبات التدبر وأنهم تدبروا القرآن واستيقنوا أنه كلام الله ولكن الذى حال بينهم وبين الانقـياد هـو أقفال القلوب، وهـذا ما أومأ إليه كلام سيدنا أبو سفيان لما ذكر إسلامه وأن الله فتح قُفْل قلبه، لأنه كان فى عـنفوان جـاهليـته وقيـاداته الجيـوش والأحـلاف والأحـابيش لقـتال رسول الله ﷺ يقول فى ذكر القرآن لو كان من كِلامنا لعرفناه، وكان ﷺ يقرأ القرآن على القبائل فى مواسم الحج وكانت لهم تعليـقات قاطعة بشهادتهم أنه ليس من كلام الناس، ثم يعتذرون عن الدخـول فى الدين بعزوفهم عن معاداة قومه صلى الله عليه وسلم، لأنهم كانوا يَرَوْن أن من آمن به عليه السلام فعليه أن يعد العدة لعداوة قريش، وكان العرب لا يرغبون فى ذلك، والسيرة الحلبية فيها كثير من هذه التعليقـات، والتعقيبات التى وصف بها رؤساء الوفود ما سـمعوا من كـلام الله، وإخراجهـا ودراستهـا ضرورى لأنهـا تعد بابا من أبواب الإعجاز، كمـا أنها تعدّ بابا من أبواب دراسة الذائقة البيـانية عند جعل المبعث لمن يريد أن يتعرف على هذا الجانب المهمل فى دراستنا الأدبية.

قولـه سبحـانه ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ** ﴾ [محمد: ٢٥].

اختلف المفـسرون فـى تحديد هـؤلاء الذين ارتدوا عـلى أدبـارهم مـن بعد ما تبين لهم الهدى، فقالوا هم اليهود ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى، وقد رأوه ﷺ على الحد الذى جاء وصفه فى التوراة، فآمن منهم من آمن كـعبـد الله بن سلام رضى الله عنـه، وارتد من ارتد بمعنى أنه رجع عن الهدى الذى بان له لما رأى وصفـه عليه السلام، وقالوا هم المنافـقون، وقالوا هم فريق من المنافقين، ولفظ الآية يحتـمل كل ذلك كما يحتمل كل من ارتدَّ وتوقَّف فى قبول الحق بعد ما تبين لـه إلى يوم القيامة. وهذا هو الأقرب لأنه ليس فى لفظ الآية ما يحدد معناها بزمـان معين ولا برجال معينين، وإنما هى مطلقة فى الزمان كله، وفى الأجيال كلها وهذا من الإعجاز، لأنها وإن نَزَلَتْ

فى حادثة معينة، تراهـا قد صيغَتْ صياغة شامـلة للزمان والمكان والأجيال، كمـا تقول فى الأدب إن الحدث الإقليـمى الخاص يصيـره الموهوب جزءاً من الأدب الإنسانى، وهذا فـقط للتقريب لأن لله المثل الأعلى ليس كـمثله شىء ولكلامه المثل الأعلى ليس كمثـل كلامه كلام، والارتداد على الأدبار لا يعنى أنه دخل فى الدين ثم خـرج منه على حـد مفـهـوم الردّة فى الفقـه وإنما هو شامل أيضًا مـا تبين له الهدى ثم رجع، ولم يدخل فيه بعـدما تبين له، يعنى وقع فى قلبه أنه الحـق ثم رفض الانقياد والدخـول، وكان هذا هو حال أكـثر العرب إذا لم يكن حـال كل العرب، لأنهم لما سمعوا مـا أنزل عليه صلوات الله وسلامه عليه لم يشكوا أنه كلام الله، وخبر عـتبة بن ربيعة مشهور، وأنه لما سـمع من رسول الله ﷺ أول سـورة فصلت ووصل رسـول الله ﷺ إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ وضع يده على فم رسـول الله ﷺ وناشـده الرحم، لأنـه لم يشك أن هذا الإنذار إنذار من الله المالك لكل شىء، وخاف على قومه من صاعقة عاد وثمود، ثم إن عتـبة الذى تبين له الحق على هذا الوجـه خرج لقتـال رسول الله ﷺ فى بدر، ومات كافرًا، كل هؤلاء يدخلون فى الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الحق، وليس فى لفظ الآية ما يمنع ذلك.

وآيات الله التى طالبَ خلقه بالإيمان عليها آيات بيّنات يُحَصِّلُها كل مكلف بالإيمان عالـمًا كان أوغير عالم، فليس فيها جدل، ولا تنطس، ولا غموض، وإنما هى كمـا وصفهـا ربنا آيات بينات، وهذا يعنى أن كل من تبين آيات الله البينات ولم يدخل فى دين الله فـهو داخل فى الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى.

وهذا المعنى الذى هو الأظهر للآية يجعلهـا خارجة وصادرة من تحت آيةُ أم على قلوب أقفالها، لأن أقفال القلوب كما ذكرها أبو سفيان هى حوابس اتباع الهدى بعدما تبين؛ يعنى هى ما يسميه علماؤنا الصوارف، التى صرفت القوم

عن الإيمان بعد ما استيقنوا أن ما يتلوه عليهم سيدنا المصطفى هو كلام الله وهو حجته القائمة على خلقه، وما دامت هذه الآية خارجة من رحم تلك الجملة السابقة فإن موقعها الذى بنى على الاستئناف والتوكيد يُصْبح أمرًا ظاهرًا، وكأنها جواب عن سؤال أثارته الجملة السابقة وهو ما الذى وضع الأقفال على هذه القلوب التى تدبرت الكتاب واستيقنته فجاء الجواب ظاهرًا جداً وهو أن الشيطان سوّل لهم وأملى لهم.

ولابد من مراجعة كلمات الآية كلمة كلمة: وأول هذه المراجعة هو أن كلمة إن تفيد توكيد نسبة الخبر للمبتدأ، أو خبرها لاسمها، واسمها هو الموصول الممتد الصلة وامتداد الصلة تراه فى الارتداد، وأنه ارتداد على الأدبار، وأنه ارتداد بعدما تبين الهدى كل هذا هو الاسم وليس داخلا فى حيز إن لأنها تؤكد نسبة الخبر إلى الاسم، وهذا الخبر هو الشيطان سوّل لهم، وأملى لهم، وهذا الخبر أيضًا لا يدخل فى حيز التوكيد لأن كلمة إن لا تؤكد مبتدأ ولا خبرا، وإنما تؤكد نسبة إسناد الخبر إلى المبتدأ وهذا من دقائق العربية الشريفة، فالذى يَنْصَبُّ إليه التوكيد هو تسويل الشيطان وإملائه للذين ارتدوا على أدبارهم، وانصباب معنى إن على هذا الجزء من أجزاء الجملة يشير إلى أنه معنى غريب يحتاج السامع فيه إلى توكيد لأنه مما ينكره المخاطب لأن انصراف الإنسان العاقل عن الحق بعدما تبين له؛ من الغرائب التى لا تقبلها العقول، والآية تقول نعم هو من الغرائب التى لم تكن لتكون لولا أن الشيطان سوّل لهم وأملى لهم، وهذا هو معنى التوكيد.

ولو أدرت النظر فى طرفى الجملة لرأيت جملة الخبر دالة على حدث وقع قبل الحدث الدال عليه جملة اسم إن، لأن الشيطان سوّل لهم وأملى لهم فارتدوا على أدبارهم ، ولو بُنِيت الجملة على وفق ترتيب وقوع الحدث لقلت إن الذين سوّل لهم الشيطان وأملى لهم ارتدوا على أدبارهم من بعدما تبين لهم الهدى، ولم تأت الآية على هذا الوجه الذى اقتضاه ترتيب الأحداث

وإنما جاءت على الوجه الذى اقتضاه السياق لأن السياق يحاسب ويحاكم الناس على ما فعلوه، فالذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت، وإن تولوا أفسدوا فى الأرض، وقطعوا أرحامهم، ولم يتدبروا القرآن، وتمكنت من قلوبهم الصوارف التى عبر عنها بالأقفال، وكان لكل قلب قفل ليس للآخر لأن لكل قلب صارفًا خاصّاً به، ولو أن الشيطان سوّل وأملى ولم يستجيبوا له ما كانت عليهم مؤاخذة، وإنما المؤاخذة فى أنهم ارتدوا عن الهدى بعدما تبين لما سوّل الشيطان لهم، هذا سياق ينظم سلوك الناس ويُبيِّن أخطاءهم التى أوجبت لعنتهم، وعذابهم، وأن الله أصمهم، وأعمى أبصارهم.

ثم إننا نلاحظ فى جملة اسم إن خصوصيات: أولها وقوع هذه المعانى فى صلة الموصول، وهذا دال على أن هذا الضرب من البشر معلوم للمخاطبين وأن من نزلوا فيهم يعرفونهم يعنى يعرفون أن قومًا ارتدوا على أدبارهم بعدما تبين لهم الهدى؛ والقرآن لا يخاطب جيل المبعث وحده، وإنما يخاطب الأجيال كلها إلى يوم القيامة، ونحن نَعْرِف كما عرف من قبلنا وكما سيعرف من بعدنا أن فريقًا من الناس يرون الحق رؤية العين ويرتدون عنه لصوارف زيَّنَها لهم الشيطان، أعنى لأن قلوبهم لم تخلص بفتح التاء وضمها للحق، وإنما لهم أهواء تتعارض مع الحق فيُنَاصِبُون الحقَّ العداءَ، وهذه طائفة باقية فى بنية المجتمعات ما بقى الناس، وكلمة ﴿ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم﴾ قلت إنها ليست مقصورة على الذين كفروا بعد إيمانهم، وإنما تشمل من استمسكوا بكفرهم بعد ما تبين لهم أن ما يدعوهم إليه ربنا هو الحق، هذا شىء والشىء الآخر أن فرقًا بين ردّ وارتدّ، لأن رد معناه رجع إلى ما كان عليه كما فى قوله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ﴾ [القصص: ١٣]، وكما فى قوله جل شأنه ﴿إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠] والمعنى يردونكم فترتدوا، وصيغة الافتعال التى منها كلمة ﴿ارْتَدُّوا﴾ تدل على

الاحتفال والاحتشاد وأنهم ردوا بموفور قوة ونشاط، وفيها إيماءة بعيدة إلى وجه بناء الخبر ووجه هذه الإماء، هو أنها تشعر بأن راداً ردهم فارتدوا وأن هذا الرادّ له عليهم سلطان، وهو رأس جـملة الخبر ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ والشيطان له سلطان على الذين لم يؤمنوا، وليس له سلطان عـلى الذين آمنوا وكلمة ﴿عَلَىٰ أَدْبَارِهِم﴾ فيها معنى ليس فى قولنا ارتدوا على أعقابهم لأن ذكر الأدبار هنا فيه إهانة كـتلك الإهانة التى فى قوله تعـالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ (١٥) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ١٥، ١٦]، وكلمة ﴿فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ﴾ غيـر فلا تولوهم الأعـقاب، أو فـلا تفروا منهم، لأن تـولية الأدبار للعـدو فيه مـزيد من الإهانة، ولذلك كررت الآية جـملة ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ﴾، وقوله سبحانه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ فيه تشهير بهم وأن هذا الارتداد بعدما تبين الهدى وليس هذا مـرادى، وإنما أريد كلمتى «تبيَّن لهم الهدى» وتبين غير كلمة بان أو ظهـر لأن تبين فيها قدر من زيادة الظهور، أولا لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، وثانيًا لأن تبين على وزن تفـعل، وفيها إشـارة بأنهم جـدّوا فى التـبين، وأقطع بأن كل من كـانوا فى زمن المبـعث لما سمعوا خبـر بعثة رسول الله ﷺ جدُّوا فى التعرف على الحقـيقة لأن الأمر أمر يَهُمّهُم وما حـملوا السيوف فى وجهه إلا لأنه أمر يهمـهم ولما قطعوا أرحامهم بالسيوف إلا لأمر يهمهم، وكان الواحد منهم يكون فى صف رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخوه أو أبوه أو ولده فى صف المشـركين، وهذا أشد ما عاناه هذا الجيل، ولا يمكن أن يحدث هذا من قبل أن يتـبيَّنُوا جَلِيَّة أمره ﷺ، وأنهم ناصبوه وهم يعلمون أنه نبى الله، صلوات الله وسلامـه عليه، حتى بنى حنيفة الذين قادهم نبيهم الكذاب مسيلمة لحرب رسول الله ﷺ قال له أحدهم، والله إنك لكاذب وإنك لتعلم أنك كاذب، وإنك لتـعلم أننا نعلم أنك كاذب، ولكن كاذب ربيعـة أحب إلينا من صادق مضر، فـوصف رسول الله ﷺ أنه صادق،

وهذا ظاهر ولا أخطئ رؤيته فى كلمة ﴿تَبَيَّنَ﴾ ثم إن قوله تعالى: ﴿مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ فيه بيان ظاهر للذى تجلَّى لهم، وظهر، وأنه الهدى الذى هو المصدر، وفرق بين تبيَّن لهم الهادى إلى الصراط المستقيم، وتبين لهم الهدى نفسه الذى هو المصدر، ثم إن هذا المبتدأ أو اسم إن الدال على هذه المعانى الغنيَّة والإشارات الظاهرة يقتضى خبرًا يفسر سر هذا الارتداد الذى كان بعد الإدراك القاطع للحق الهادى والذى لا يجوز لعاقل أن ينصرف عنه فضلا عن أن ينصرف إلى محاربته، ولهذا جاءت جملة الخبر وفيها إشارات كثيرة أولها أن رأس هذه الجملة هو كلمة ﴿الشَّيْطَانُ﴾ الذى هو رأس كل شر، ورأس كل قبيح، والذى يُبَشِّع الله به صورة العذاب فى قوله تعالى فى الشجرة التى تخرج فى أصل الجحيم ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات: ٦٥] ولا يزال الشيطان رأس كل شرٍّ ورأس كل رذيلة ورأس كل قبيح، هكذا هو فى الأمم كلها، وموقعه فى رأس الجملة له دلالة لا يجوز إغفالها لأن الذى قلب هؤلاء الذين تبينوا الهدى ورأوه رأى عين، وردهم إلى الباطل لا يكون إلا من قوة مُتسلِّطة غالبة، وقوله تعالى ﴿سَوَّلَ لَهُمْ﴾ معناه زيّن لهم، وسهّل لهم، والتزيين يعنى جعل سوء العمل الذى هو الارتداد حسنًا، وتسهيل ذلك تذليله، وتيسير الوصول إليه، وكلمة سوَّل أبعد غورا من زين وسهَّل، ولم تأت فى القرآن الكريم مسندة إلى الشيطان إلا فى هذه الآية، وجاءت مسندة إلى النفس الأمارة بالسوء فى ثلاث آيات اثنتان منها فى خطاب يعقوب عليه السلام لأبنائه مرة فى شأن يوسف فى قوله تعالى: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨] ومرة فى شأن أخوة يوسف عليه السلام فى قوله تعالى: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف: ٨٣] ومرة على لسان السامرىّ الذى أضل قومه وجعل لهم من حُلىّ المصريين التى سرقوها أيام خروجهم من مصر وأنه صنع لقومه منها عجلا له

خوار فقال هذا إلهكم وإله موسى فلما قال له موسى ما خطبك يا سامرى فقال السامرى ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ [طه: ٩٦] هذه مواقعها فى الكتاب العزيز وهى مواقع تصف أخبث وأخس ما تعالجه النفس الإنسانية ،وراجع لتتبين ثم عد إلى قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ﴾ لتتبين أخبث، وأخس ما زينه لهم، وما سهله لهم، ثم وهو الأهم عطف جملة ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ على ﴿سَوَّلَ لَهُمْ﴾، وهذا معناه أن الشيطان الذى هو رأس الشر رأى أن سوَّل الذى هو إثارة أخَسٍّ وأخبث غرائز النفس الإنسانية ليس كافيا فى ردهم عن الحق بعدما تبين فأضاف إلى ذلك إملاءه لهم يعنى إمهاله لهم، وإغراءه لهم بامتداد العمر وطول الأمل، والأمد.

ولست مخطئًا إذا قلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ لابد أن يكونوا قد تدبَّرُوا القرآن لأنه هو الطريق الوحيد لبيان الهُدى، وأن احتشاد الشيطان لردهم وارتدادهم كان بعملين وليس بعمل واحد، لأنه رأى أن ﴿سَوَّلَ لَهُمْ﴾ لا يكفى فأضاف ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ وهذا قاطع فى أنه كان يصدُّهم بقوة عن الهدى الذى تبين لهم وأنه لم ينقلهم إلى الردّة إلا بعد مكابدة منه، والفرق ظاهر بين أن يقال زين لهم الشيطان، وأن يقال سوّل لهم، وأملى لهم، وأن هذا الثانى لابد أن يكون فى مواجهة توجههم إلى الهدى وأنه يمكن أن يستمروا عليه، وهذا ما أفصح عنه كلمة تبين وكلمة الهدى، وراجع المعانى وتدبرها وتذوقها أعنى كررها حتى تتذوقها.

ثم إننى أجد شيئًا آخر يشبه هذا فى الكتاب العزيز، وهو تفزعهم من سماع القرآن وتناديهم فى قومهم وقولهم لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه، ولا يمكن أن يكون ذلك إلا لما لحظوه من قوة تأثير هذا القرآن وأنه يغلبهم على أنفسهم، وقد ذكرت ذلك فى تفسير سورة فصلت والذى أريده ولم أقله هو ما ظهر لى فى آية الجاثية.

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ [الجاثية: ٧، ٨] والذى فى آية لقمان ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ [لقمان: ٧] وكلمة أصرَّ مستكبرا وأختها ولى مستكبرا فيها دلالة ظاهرة على أنه سمع ما يُثيره ويزعجه ويُفزعه ويغلبه، والذى يسمع آيات الله تتلى عليه يدرك منها الحق ويتبين فيها الهدى وليس إلا هذا، وليس لهذا معنى إلا معنى واحد وهو أن سماع الحق مفزع له وتبين الهدى مزعج له، ويلاحظ أن التولى مقترن بالاستكبار وكذلك الإصرار مقترن بالاستكبار، وهذا يفيد معنى آخر وهو أن الهدى والحق يهددان استكباره واستعلاءه وعُتوه لأنه لا محالة يذعن للحق إذا آمن به، ويصير واحدا من الناس الذين يستعلى عليهم ويستكبر عليهم، وهذا مانع بل هو المانع الذى أشارت إليه آية غافر ﴿ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ﴾ [غافر: ٥٦]، وهذا التولى المستكبر وهذا الإصرار المستكبر ليس بعيدا عن قوله سبحانه هذا ﴿ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾ وهذا الذى أزعجهم فولوا مستكبرين أو أصروا مستكبرين ليس بعيدا عن ارتدادهم عن الحق بعدما تبين، هذا والله أعلم.

قوله سبحانه ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٦].

هذه الآية ترتبط بالآية قبلها باسم الإشارة لأنه عائد على قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم ﴾ وهو أقرب إلى الخبر الذى هو الشيطان سوّل لهم وأملى لهم، والذى بعد اسم الإشارة سبب للذى قبلها، لأن قولهم للذين كرهوا ما أنزل الله سنطيعكم فى بعض الأمر هو الذى فتح باب الشيطان، فدخل عليهم وسوّل لهم وأملى لهم، وأرانى شديد العناية بالكلمة الأولى فى الآية والكلمة الأولى فى الجملة لأن الكلمة الأولى فى الآية وَجْه الآية والكلمة الأولى فى الجملة أنف الجملة، وكثيراً ما تكون واواً أو فاء

وتكون بمثابة علامة على الطريق الذى تذهب فيـه الآية لتُمْسك بأختها، واسم الإشارة هنا شبيه بنظائر له فى السورة كوّنَتْ هذه النظائر سمتا لُغوياً جَرَى فى السورة، انظر إلى هذه الآيات، ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ ﴾.

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾.

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾.

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ ﴾.

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ ﴾.

اسم الإشارة أحضر الذى مضى ثم جاءت الباء المفيدة للسببية ثم جاءت الجملة المؤكدة بإن لأنها فى الحقيقة جواب عن سؤال يقول لماذا كان ما كان؟

وهذا الحذو هو الذى بنيت عليه الآيات التى تكررت فى السورة فشاع فيها وصار من سمتها وقد اختلف كلام المفسرين فى تحديد الذين قالوا سنطيعكم فى بعض الأمر والذين قيل لهم ذلك، فقالوا اليهود قالوا للمشركين، أو المشركون قالوا لليهود، أو المنافقون قالوا لليهود، أو اليهود قالوا للمنافقين، والآية أطلقت الكلام ولم تقيّده فصار صادقًا على كل من قال للذين كرهوا ما أنزل الله سنطيعكم فى بعض الأمر، ثم إن المفسرين اختلفوا أيضًا فى بيان (**بعض الأمر**) فقالوا هو نفى التوحيد، أو هو نفى النبوة، أو هو القعود عن نصرة المسلمين، والآية أيضا أطلقت ولم تُقَيِّد فصارت صادقة على كل من تواطأ مع أعداء الدين على الاتفاق فى شأن من شؤون الدين، لأن الأمر هنا لا شك أنه أمر من أمور الدين وأن الاتفاق مع الذين كرهوا ما أنزل الله، وطاعتهم لهم فى بعض الأمر تعنى فى بعض ما هو فى غير صالح الدين.

ومن المفيد أن نضع آية ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي

﴿بَعْضِ الأَمْرِ﴾ بجوار ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ⑧ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ لنرى المآل الواحد الجامع للذين كرهوا ما أنزل الله مع الذين ليسوا منهم، وإنما قالوا لهم سنطيعكم فى بعض الأمر، وأن الكفر الصراح المحادّ لدين الله ليس أبشع من التحالف مع هذا الكفر الصراح والاتفاق معهم فى محاربة دين الله فى بعض الأمر، لأن من حارب آية من آيات الله فقد حارب الآيات كلها، ومن تواطأ مع الذين كرهوا دين الله فى شىء واحد فقد صار منهم، لأن كراهيته لهذا الشىء الواحد الذى تواطأ معهم عليه بمثابة كراهيته للدين كله، لأن الدين إما أن يؤخذ كله أو يترك كله أما أن نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض فليس هذا مما يقبله الله سبحانه، لأنكم لو كنتم جميعًا على قلب أتقى رجل فيكم ما زاد ذلك فى ملكه شيئًا؛ ولو كنتم جميعًا على قلب أفجر رجل فيكم ما نقص ذلك من ملكه شيئًا، فإما أن تكون خالصا لله أو خالصًا للشيطان، أما أن تكون مع حزب الشيطان فى شىء تتفق معهم على أن تطيعهم فيه؛ ثم تتستر فى ثياب أهل الإسلام فذلك مردود، وأنت مع من اتفقت معهم على الطاعة فى بعض الأمر.

وقد قلت إن الكلمات مطلقة فلم تحدد جماعة اتفقوا على كراهية ما أنزل الله ولا جماعة اتفقوا معهم فى بعض وإنما بقيت الآيات ذات دلالات مفتوحة تستقبل ما تأتى به الأيام.

واضح أن الآية توشك أن تكون نصاً فى تكفير من يتحالفون مع الذين يكرهون ما أنزل الله على الطاعة فى بعض الأمر الضار بالدين، وهذا ظاهر ولا شك فيه، والذى غير ظاهر وفيه شك وأرجو أن يكون الجواب فيه بالنفى هو حكم المتحالفين منًا مع الذين يكرهون ما أنزل الله على إبعاد الدين عن السياسة، مع أننى الآن فى سورة اسمها سورة القتال، ولا شأن للمسلم فى خاصة نفسه بالقتال، لأن القتال شأن سياسى بحت، وأمره فى يد أعلى سلطة فى الدولة، والقول بأن الإسلام إسلامان إسلام سياسى وهو مرفوض، وغير سياسى وهو الصلاة فى مساجدكم وبيوتكم ثم خلع رداء الإسلام فى الشارع أو فى الشارع السياسى إلى آخر ما نسمع، أقول أولا: هل هذه التصنيفة للإسلام وأنه سياسى وغير سياسى

تصنيفة صحيحة؟ وإذا كان هناك فى جوهر الإسلام ما يمكن أن يسمى إسلامًا سياسيًا هل مطاردته والاتفاق مع الذين يكرهونه على قمع المطالبين به وتخريب أموالهم وبيوتهم وتشريد أطفالهم ورميهم فى سراديب تحت الأرض لا يَرَوْنَ فيها الضوء طول عمرهم؛ أو التخلص منهم بالقتل وادعاء أنهم قتلوا أنفسهم، أقول هل هذا العمل مع الاتفاق على الدول المساندة للنظام يُعَدُّ من الداخل فى آية الذين سوّل لهم الشيطان وأملى لهم؟، وسؤال آخر هل الاتفاق مع الذين كرهوا ما أنزل الله على حذف آيات الجهاد من المقررات المدرسية، ومن الأزهر، وحذف الآيات التى تصف عقائد النَّصارى بالتثليث كقوله ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] أو كقوله سبحانه ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧]، وما جاء فى القرآن فى شأن بنى إسرائيل مثل ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [المائدة: ٧٨] ومثل ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ [المائدة: ٦٤]، حذف كل ذلك وتغييبه عن مناهج الدرس وتخريج جيل يغنى بأناشيد الحُبّ والسلام مع من يدمرون بيوت إخواننا على أطفالهم، وشيوخهم، ونسائهم، هل يدخل هذا ضمن الذين قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم فى بعض الأمر؟ وأخيرًا هل يدخل فى هذا تواطؤ الذين يدعون أنهم حماة السنة ثم يحرمون على الناس فى المساجد الكلام عن الغزو الصليبى لأفغانستان وتدمير بيوتها على رؤوس شيوخها وأطفالها ونسائها؟ اللهم إنك تعلم أنى أرجو أن أكون مخطئا حين أقول إن إطلاق كلمات الآية وتنديدها باللفظ الصريح بالذين يطيعون الكارهين لما أنزل الله فى بعض الأمر حين أقول إن هذا يدخل فيه الحكام المتحالفون على الطاعة فى بعض الأمر المنافى لدين الله ومن يسمون أنفسهم ليبراليين أو علمانيين أو يساريين ويتفقون مع الكارهين والمتحالفين مع الكارهين، فى شن تلك الحروب المحادة لدين الله، والذين يتسترون وراء مثل قولهم نحن لا نمنع أحدا من التدين، ولكن فى المسجد والبيت، أما فى السياسة فإن الدين أسْمَى وأرْقى من أن ندخله فيها، وهى قائمة على الخداع وليس على الأخلاق، ومن عيوبى أننى أزدرى كل

من يتمـذهب بمذهب صاغـه غيـره، ولو كان هناك يسار عـربى نبت فى أرض العرب ولم يأت من هناك ليـتعَرّب عندنا لقبلتــه، ولو كان هناك ليبراليـة عربية نشأت فى ترابنا وصنفناها نحن لقبلتُها لأنى خلقت أكره التقليد، ومرد ذلك إلى الثقـافة الإسلاميـة التى غرست فى نفسى أن المقـلد أذل من العنزة الجرباء تحت الشمال البليل، وهذه كلمـة الزمخشرى صاحب العـقل الفَذّ؛ ومما غرس ازدراء التقليد فى نفسى ما كان مـثل قول أبى الفتح كن خليل عقلك وأبا عمرو فكرك أراد لا تتبع الخليل بن أحـمد ولا تجعله عقلك وإنما أنت خليل عـقلك ولا تتبع أبا عمرو بـن العلاء وتجعله فكرك، وإنما كن أنت أبا عمـرو فكرك، ونسأل الله سبـحانه وتعـالى أن يقذف فى قلوبنا الزراية بالتـقليد، وأهله، وأن يجـعل منا القمم العالية التى تبدعُ ولا تقلد وتعطى ولا تأخذ.

وقد عبّرت الآية عن الذين كفروا بالذين ﴿كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾، والفرق أن التعبير بالكراهية فيه غـضب أكثر، وقد تكرر فى السورة مرتين مرة بذكر الذين كرهوا ومرة بذكـر الذين أطاعوا الذين كرهوا وكل ذلك فيـه إعلان الغضب، والكافـر بالذى تؤمن به قـد يسالمك وتـسالمه، أمـا الكاره للذى تؤمن به فـإن مسالمته بعيـدة، والسورة سورة قتال فتكرر فيها مـوجب القتال، وهو الكراهية ويستوى الكاره لما أنزل اللـه مع المتحالف لهذا الكاره، سواء كـان تحالفا على كل الأمر، أو تحـالفا على بعض الأمـر، لأن فريق الله وحزب الـله هو المبرأ براءة كـاملة من التـعـاون مع الكـارهين لما أنزل الله، مع أنه لا حـرج فى أن يتعـاون مع الكافرين بما أنزل الله إذا سالمـوا وتعايشوا وجنحـوا للسلم، وقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ قرئت بفتح الهمـزة والأسرار جمع سر والإسرار بكسر الهمزة مصدر أسر إسرارا، والقراءتان تفيدان معنيين أسرارهم بالفتح تعنى الأسرار التى يتكاتمونهـا؛ والتى كانت بينهم فى الغرف المغلقة كـالتى كانت بين قيادتنا الحكيمة والرشيدة كما يصفها أبناء الإماء؛ وعدونا الألد، المهم أنها أسرار لا تذاع ويتكتم عليـها لأنها تحـالفات فى الظلام وتسـرُّب أسرارها مما يُفْـشلُها،

والقراءة الثانية تفيد أن الله يعلم ما تنطوى عليه سرائرهم مما لا يُطْلِعُ بعضهم بعضا عليه، فقد يتحالفون على الطاعة فى بعض الأمر، ونفوسهم مطوية على أشياء لا يعرفها الطرف الآخر، والجملة حالية يعنى أنهم قالوا ما قالوا للذين كرهوا ما أنزل الله والحال أن الله يعلم أسرارهم التى اتفقوا عليها وأسرارهم التى هى فى سُوَيْداء قلوبهم مما لا يعلمها بعضهم عن بعض، وهذه الآية كانت صادمة لهم لأنها لما قرأها رسول الله ﷺ علموا منها أن الله قد أطلع نبيه على ما كان منهم؛ ولو كانوا ممن يقودهم البرهانُ لرأوا فى ذلك برهانا صادقًا على نبوته ﷺ ولكنهم قوم رجعوا إلى وثنيتهم بعد ما تبين لهم الهدى، وكان الهدى حين يظهر لهم يزعجهم ويولون مستكبرين، وآيات كثيرة حدثهم فيها الكتاب عن الذى فى ضمائرهم ولكن على القلوب أقفالها.

وهذه الجملة الحالية بنيت على تقديم لفظ الجلالة، ولاحظ أنه كرر مرتين فى هذه الآية، المرة الأولى قوله «**كرهوا ما نزل الله**»، فدل على مزيد تبشيع لهذه الكراهة الغبية التى تكره ما أنزل الله، والله سبحانه موصوف بكل كمال ومنزه عن كل نقص، والذى نزله كلامه، وكلامه سبحانه موصوف بكل كمال، ومنزه عن كل نقص، ولا يكرهه إلا الموصوف بكل نقص والمنزه عن كل كمال؛ ثم جاء لفظ الجلالة فى رأس الجملة الحالية لتكون الجلالة والمهابة رأس الجملة الحالية، وهذا يُعلى ما فيها من معنى التهديد والغضب الذى عبرت عنه الآية بعدها: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ**﴾ والغضب فى جملة. ﴿**وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ**﴾». تراه فى موضعين منها، الأول أن الله يعلم ما يتسارون به من تآمر على دينه وإن كانت الطاعة فى بعض الأمر، والثانى أن الله يعلم ما يسرونه فى أنفسهم مما لا يُطْلِعُ بعض بعضًا عليه، وهو لا محالة فى منازعة دين الله ومحادّة الله ورسوله، وتجد مَلْمَحًا من الإهانة والتجهيل والدونية فى قولهم ﴿**لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ**﴾. لأن الطاعة فيها معنى ليس أن يقولوا مثلا نتفق معكم أو نتعاون

معكم أو نتحالف معكم لأن الطاعة انقياد واستسلام وغالبا ما يكون من الأدنى إلى الأعلى، وقد رفضوا الانقياد إلى الهدى بعد ما تبين؛ ورفضوا الانقياد لما أنزل الله وهو الحق من ربهم، وفيه برهان صدقه الذى لا يخطئهم، وهذا هو موضع الإهانة والتشهير لأنهم أطاعوا الضلال، والباطل، ولم يرفضوا الهدى والحق وإنما تآمروا عليه تآمر المطيع المنقاد.

ولا تنس ما لا يجوز أن يُنْسى وهو تنزيل الآية على الذى نحن فيه لأننا نتلو الكتاب لا لأنه أخرج من قبلنا من الظلمات إلى النور فقط؛ وإنما أيضا لأنه يخرجنا نحن من الظلمات إلى النور، وأى محاولة تمسك بالدلالة القرآنية وتربطها بأقوام مخصوصين، أو بزمان النزول هى محاولة غير دقيقة لأن أحوال النزول وأسباب النزول مما يجب أن يعتبر فى الفهم، والمهم الاعتقاد أن المقصود الأصلى بالنسبة لنا هو أخذ العبرة، وهذه العبرة تراها مطابقة لواقعنا وكأن الآية نزلت فينا، قلت هذا لتراجع كيف تصل أصابع العدو التاريخى سواء كان من اليهود أو من غيرهم إلى واقعنا؟ وكيف تسمح لها الجماعات التى نسميها حكاما؟ وكيف تصل إلى تغييب ما تريد تغييبه حتى فى مناهجنا وكيف تُضْرِمُ فى البلاد بواسطة الإعلام وغيره العداوةُ لما يسمى (الإسلاميين)؟ مع أننا جميعا إسلاميون وكيف يُقمع الذين يقولون إن الإسلام هو المكوّن الأول لهذه الأمة، وقد أصبح الحديث عن الذى تعانيه الشعوب الإسلامية فى أفغانستان وغيرها حديثا غير مقبول؟ حتى الدعاء لهم على المنابر منعته بعض الأنظمة. وكان هذا من طاعتها للذين كرهوا ما أنزل الله لأن عروشها محميَّة بجيوش الذين كرهوا ما أنزل الله، وكل ذلك نراه بعيوننا ولا تَنْطقُ به ألسنتنا، ونسأل الله أن يخرجنا من هذه الظلمات وأن يَفُكَّ حبسة ألسنة أهل الحق. بكسر قبضة أهل الباطل.

قوله تعالى ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢٧، ٢٨].

الأول: هو الوقوف مع هذه الفاء لأنها تفيد ترتيب ما بعدها وهو بداية

التعذيب والإهانة التى يبدأ من عند عتبة دخول اليوم الآخر؛ أو الذى يبدأ عند فراشه الأخير الذى يضطجع عليه ضجعة الموت؛ وعند قيام قيامة الواحد من هذه الجماعة، لأن من مات فقد قامت قيامته، أقول هذه الفاء ترتب الصورة التى بعدها على ما قبلها، وتفرّعه عليه، والذى قبلها ممسك بعضه ببعض، فلو قلت إنها مرتبة على الجملة الحالية ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ وما فيها من غضب، وتهديد، يكون كلامك صحيحا لأن هذه الجملة الحالية ممسكة بالجملة التى هى حال منها، وهى قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾، ثم إن هذه الجملة مرتبطة بالآية قبلها التى هى ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم﴾ لأنها بمثابة العلة والسبب لها، وهكذا ترى المعانى يسلمك بعضها إلى بعض؛ حتى تصل إلى الذين فى قلوبهم مرض، وهذا ظاهر، ولو قلت إن هذه الفاء ترتب معنى على معنى وأنها إيذان بدخول الكلام مدخلا جديدا هو أحوال الآخرة، وأنه مرتب على معنى هو أحوالهم فى الدنيا، وروغانهم من الجهاد، ورخاوة عقدتهم، وأن كراهيتهم للجهاد هى التى تصنع منهم عصابة الفساد فى الأرض إلى آخره كان كلامك هذا صحيحا.

وكلمة ﴿فَكَيْفَ﴾ يسأل بها عن الحال والمقصود بالسؤال هنا ليس معنى واحدا وإنما يدل على جملة من المعانى منها التعجب من هذه الحالة؛ وبيان ما فيها من أهوال؛ وهو يعالج سكرات الموت ويُضْرَبُ ضربات إهانة، وإذلال، وأنه فى آخر ساعته فى الدنيا يُذَلّ ويُهانُ؛ وفى أول لحظات استقباله للآخرة يُذلُّ ويُهان؛ وأن الأمر لم يكتف بأهوال الموت، والنزع، وهو من أشد الأحوال، والأهوال، والفزع والخوف ويضاف إليه هذا الضرب المهين، ومن المفيد أن نستحضر أنه كان قد تبين له الهدى فارتد عنه وسوَّل له الشيطان وأملى له، وكل ذلك الآن ينتهى، وهو يعلم أنه سيواجه العذاب، لأنه مستيقن كل ما جاء فى الكتاب حول العقاب، والأهوال إلى آخر ما تفصح لك عنه هذه الحالة التى يفتح لك تأملها وتأمله فيها ومراجعتك لحياته التى

من أجلهـا راغ من الجهاد، والتى من أجلـها تآمر مع الذين يكـرهون ما أنزل الله، وهو الآن بين يدى الملائكة يضربون وجهه إلى آخره.

وجـملة ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ جـملة حـاليـة وهى المقـصـودة بالاستفهام المفعم بالمعانى؛ وقـد ذكرت منها ما ذكرت وتوفية الملائكة لهم ليس فيـها شىء عجيب؛ لأن الملائـكة تتوفى الناس جميـعا، وإنما العجـيب ما فى جملة الحال، والفعل المضارع ﴿يَضْرِبُونَ﴾ تصوير للحالة وإحضار لها ويستوى فى ذلك أن تستحضر الصورة من الماضى أو من المستقبل المهم أنه يجعل الحدث يقع وكـأنك تراه بعـينك، وكـأنه يقـال لك ها هو وها هى الملائكة يضـربون وجوههم وأدبارهم، ومن المفيد أن نتصور الملائكة وهم يتوفون الطيبين ويقولون لهم سلام عليك ويقـولون لهم لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بـالجنة، والطيبون لم يفعلوا شيئًا غير مألوف، وإنما تبين لهم الحق فانقادوا وأطاعوا، وقالوا للذى خلقهم وهداهم سمـعنا وأطعنا غفرانك ربنا، وهم فى هذا يتصرفـون التصرف الذى يتصرفه كل من ليس شاذا ولا مستكبرا ولا متعنتا، يعنى كانوا ماضين مع الفطرة، رأوا الهـدى فـاهتـدوا ليس إلا، بخـلاف هؤلاء، والذى يرى الطريق الواضح المسـتقيم فـيسلكه يكون أهدأ وأهنـأ من الذى تتفرق به الـسبل، وإنما خصوا وجوههم وأدبارهم بالضرب لأن الوجه موضع التكريم وموضع الكرامة، ونحن نقول كرم الله وجـهه، ونقول فلان وجه قـومه؛ وهـم وجوه الناس ويوم القيامة تبـيض وجوه، وتسود وجوه، ولأنهم استقـبلوا الهدى بوجوههم وتبين لهم وراغوا، وزاغـوا، ونافقوا من أجل مـا فى صدورهم من كـبر، يعنى من أجل أن تبقى وجـاهتهم فى الناس، لأن الاستكبار إيغـال فى طلب الوجاهة، والضـرب على الأدبـار أدخل فى باب الإهانة، وأذل وأقـذع لهــذه النفـوس المستكبرة، ولأنهم ولوا الهـدى أدبارهم، وهذه الآية تكررت فى الكتاب العزيز مرتين؛ فى هذه السورة ومـرة فى سورة الأنفال ؛وقد جـاءت فى شأن المنافقين ولـم تبن على الاستفـهام كهذه وإنما بنيت على الشـرط، قال تعالى ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ

حَكِيمٌ (٤٩) وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٤٩، ٥٠]، وجواب الشرط هنا محذوف ولك أن تقول تقديره لرأيت ما لا يحاط بوصفه، وسخاء حذف الشرط كسخاء معنى الاستفهام لا تدركه بالتقدير الذى قدرته، وإنما تدركه بالتأمل، والتدبر، لأنها صورة لا حدود لشناعتها، وفيها ما تدركه الصّفة ولا تحيط به المعرفة، ومن المفيد أن نذكر أن القرآن العظيم جعل هذه الصورة خاصة بالمنافقين، وجعل هذه الإهانة خاصة بالمنافقين، كما جعلهم فى الدرك الأسفل من النار، وكلمة الأسفل هنا كلمة لها دلالة، لأن هذا الصنف من الناس هو الصنف الأخس والأخبث والأسفل، القرآن الكريم علمنا أن المنافق منحط، وأغرانا باحتقاره، وأنه ليس له وجه واحد، وإنما له وجهان يلقى هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه ولذلك ضربته الملائكة حين موته على وجهه، ولم أعرف أنى أحتقر أحدا كاحتقارى للمنافقين، وأراهم أهم أسباب تخلف البلاد، وأهم أسباب تسلط الطغاة، وأهم أسباب الفساد فى البلاد، وقد كثروا فى الزمن الذى عشت فيه كثرة مفزعة، لأن النفاق يكثر فى زمن التسلُّط والاستبداد، والتسلُّط والاسْتبداد لم يكن فى زمانى خاصاً بشعب عربى دون شَعْب، وإنما سلط الله على العرب سفهاءهم وجهّالهم، وأغبياءهم، وأُحِيط كلٌّ سفيه وكل جاهل، وكل غبىّ بكتيبة من المنافقين؛ شرعوا أقلامهم ليحدثونا عن حكمتهم وعن رشدهم، وعن نزاهتهم، وعن عطائهم للأوطان، وكنت أقول ماذا سيكون الحال لو أننا عشنا من غير هؤلاء المنافقين عشر سنوات؟ وكنت أرى أن هؤلاء لو غابوا عشر سنوات لتغيرت خريطة هذا العالم، وكنت أقرأ شعرا فى مدح الأغبياء الحاكمين؛ وأقطع أنهم لم يفهموا منه شيئًا، ولو شرح لهم ما فهموا الشرح، وأسأل نفسى كيف حبَّر من حبَّر؟ وجوَّد من جوّد؟ وهو يعلم أنه يُكلِّم إذْ يُكلِّم أعجما، ولكن النفس الساقطة المولعة بالدنايا تراها تمارس الدنايا والسقوط فى الدنايا حُبّاً فى ذلك، ونسأل الله العافية.

قوله تعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ اسم الإشارة عائد على الصورة السابقة ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ وما بعد اسم الإشارة بيان للسبب والعلة، ومجيء إن المؤكدة التى دخلت عليها باء السببية فيه إشارة إلى أن ما بعد إن كأنه جواب سائل قال لماذا تضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم؟ وهم فى حالة النزع وهى حال شدة؟ ولماذا توخت الملائكة هذه اللحظة؟ والجواب بيان لشدة الغضب والمقت وأنهم هم الذين استغضبوا الله عليهم؛ لأنهم قصدوا إلى ما يسخطه وكرهوا رضاه فكان ما كان، وضع تسلسل الكلام بعضه إزاء بعض، تجد أولا الشيطان سوَّل لهم، وأملى لهم، لأنهم قالوا للذين كرهوا ما أنزل الله سنطيعكم فى بعض الأمر، وهنا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم لأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه، ولاشك أن المعانى تترقّى وتتصاعد، وأن ضرب الملائكة الوجوه والأدبار فى ساعة النزع أدل على الغضب والمعاجلة بالعذاب من تسويل الشيطان وإملائه لهم، وأن سبب ضرب الوجوه والأدبار أبشع من سبب تسويل الشيطان، هناك قالوا للذين كرهوا ما أنزل الله سنطيعكم وهنا اتبعوا ما أسخط الله، وهو أوسع من طاعتهم للذين كرهوا ما أنزل الله فى بعض الأمر، واتباع ما يسخط الله فيه أنهم كان يتقصُّون ذلك، ويبحثون عنه لجلب المزيد من سخط الله، وكأنهم فى محادة مكشوفة، وحرب مكشوفة مع الله، وهذا أبشع ما يزاوله مخلوق فى مواجهة الخالق، هذا اتجاه عكس الفطرة لأن الله سبحانه خلق الجن والإنس ليعبدوه، ولم يخلق هؤلاء لينازعوه، ويحادوه ويحاربوه.

ثم إن جملة ﴿اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ أشمل من جملة ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ﴾ بل هى أشمل الجمل التى حُذيت على حَذوها فى السورة وهى خمس جمل، الأولى ﴿اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ وهو جزء من

معنى هذه الجملة، والثانية ﴿كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ وهو أيضا جزء لأنه ليس فيه اتباع ما أسخط الله؛ وكراهية الرضوان وإنما هو كراهية الكتاب وهذا بشع جدا، وإنما الذى معنا أتمّ فى جلب المقت والغضب، وهكذا نجد هذه الجملة أوفى الجمل الخمس فى التحدي وقصد الإساءة إلى المنعم جل وتقدس.

كل الذين آمنوا يحذرون سخط الله؛ ويجتنبون ما يكرهه سبحانه، وإذا غفلوا أو ضَعفوا تابوا وأنابوا، وهؤلاء يبحثون عن ما يسخطه ليفعلوه وهذا دال على أنهم لم يتركوا منكرا إلا اقترفوه، وهذا هو معنى اتباع ما يسخطه سبحانه، وهناك مناسبة بين اتباع ما يسخطه وطاعتهم للذين يكرهون ما نزل الله فى بعض الأمر، هذه المناسبة هى أنهم يمدون أيديهم بالطاعة للذين يكرهون ما نزّل الله، ويمدون أيديهم لله بما يسخطه سبحانه، وهذه مفارقة عجيبة، ثم إن عباد الله لا يبحثون عن شىء أكرم ولا أعلى ولا أرْضى ولا أحب إليهم من رضوان الله، ولذلك نقول فى الدعاء رضى الله عنه؛ وقد سبق ذكر الآيات التى ذكرت ما أعدَّه الله لعباده الصالحين فى الجنة، وذكر أن الله أعدّ لهم الرضوان وأن الرضوان من الله أكبر، وهؤلاء الهالكون يكرهون هذا الرضوان، وهذا شذوذهم عن الأسوياء العلماء الأتقياء من الخلق، والفرق بينهم وبين الصالحين، والصديقين والشهداء فرق لا يُحدّ، وهذه الآية من أوجز ما جمع أحوال الخارجين على خالقهم وأنهم لم يزاولوا أسوأ فى هذين الأمرين، اتباع ما يسخطه، وكراهية رضوانه، وهذا يرجع بنا إلى أن صورة الملائكة وهم يضربون وجوههم وأدبارهم عند الموت؛ لم تذكر فى الكتاب إلا فى موضعين، هذا موضع منها، وأن هذه الصورة النادرة جاءت بإزاء علة نادرة ومفعمة بسوء الأدب وسوء التحدى، وسوء المغاضبة للحق جل وتقدس، ومن دقيق ورقيق كلام علمائنا أنهم استنبطوا من اتباع ما أسخط الله وكراهية رضوانه خصوص ضرب الملائكة على الوجوه والأدبار، قالوا لأن من اتبع شيئًا وَجَّه إليه وجهه، ولما وجهوا وجوههم إلى ما أسخط الله ضربت

الملائكة وجوههم عند النزع، ومن كره شيئًا انصرف عنه، وولاه دبره، وهؤلاء كرهوا رضوان الله فانصرفوا عنه وولوه أدبارهم، فضربت الملائكة هذه الأدبار التى تولت عن رضوان الله، المهم عندى أن أرى عقل العالم وهو يراجع ويستوى عندى أن يصيب وأن يخطئ، ذكر الزمخشرى أن ابن عباس قال: لا يتوفى أحد على معصية الله إلا يُضْرَبُ من الملائكة فى وجهه ودُبُره، هل يجوز حمل هذا على ظاهره وأن الملائكة يضربون وجوه وأدبار العصاة من المؤمنين كما يضربون وجوه وأدبار أهل المعصية الكبرى التى هى الكفر، والتى هى أكبر من الكبرى وهى النفاق لأنه كفر زائد مخادعة؟ أقول يعكر على هذا قوله سبحانه ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ لأن العصاة من أهل الإيمان ليسوا كذلك، ثم هل يجوز أن يكون ابن عباس أراد الكفر وعبر عنه بالمعصية لأنه فى الحقيقة معصية؟

والجواب أن هذا جائز، وجائز أيضا أن يكون أخرج كلامه رضوان الله عليه مخرج التحذير لأهل الإيمان من المعصية لأن الغفلة تغرى باتباع المعصية حتى يقترب المقترف للمعاصى من المُتَتَبِّع لما يسخط الله، كهؤلاء الذين يصومون ويصلون ويقتلون الناس فى السراديب والأقبية التى أعدها النظام لمن يعارضونه؛ ويألف هؤلاء قمع الناس وتعذيب الناس وقتل الناس حتى إن أحدهم ليفعله فى نهار رمضان، وهو صائم، هؤلاء ومن يأمرهم بذلك أو يرضى منهم بذلك سائرون فى طريق اتباع ما يسخط الله، ومن يكره رضوانه وابن عباس ينبه إلى ضرورة نفى الغفلة والرجوع عن المعصية.

قوله سبحانه ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ هذه الفاء ترتب ما بعدها وهو حبط الأعمال على ما قبلها وهو اتباع ما يسخط الله وكراهية رضوانه، والمعنى القريب هو أن من اتبع ما أسخط الله وكره رضوانه لا محالة لا يقبل منه عمل فما وجه ذكر هذه الجملة؟

والجواب هو أن اتباع ما أسخط الله وكراهية الرضوان وصف سلوكهم

وتصرفهم الذى له صلة بالدين، وللقوم تصرفات أخرى بعيدة عن هذا مثل تقلبهم فى حياتهم، وبيعهم وشرائهم، ومواثيقهم وحربهم وسلمهم إلى آخره، وهم فى هذا مختلفون جدا كأن يكون منهم الصادق، والكاذب، والوفى، والغادر، والبر والفاجر، وصاحب المروءة، والنخوة وابن الكريمة ومنهم النذل الساقط، وهكذا منهم من يحمل الكلَّ ويكسبُ المعدوم ويعين على نوائب الدهر، وهذه من أخلاقهم فى الجاهلية، ووصفت أمُّنا خديجة رسول الله ﷺ بها قبل أن يبعث، ووصف ابن الدُّغُنَّة بها أبا بكر قبل إسلامه، وهذه المكارم والفضائل قد يُظَنُّ أنها تنفعه فى شىء، وقد نفعت من دخل فى دين الله مع أنه عملها، وهو وثنى، وقد قال رسول الله ﷺ لحكيم بن حزام بن خويلد ولعمرو بن وائل بن العاص، وخالد بن الوليد بن المغيرة قال لكل واحد منهم أسْلَمْت على ما أسْلَفت من خير.

وفى الآية إشارة خفية إلى شىء من المفيد أن أُنبه إليه، وهو أن أعمالهم التى أحْبطها الله لأنهم اتبعوا ما أسخطه أعمال كبيرة لأن الله سبحانه ذكر إبطالها فى سياق العقوبة على أبشع معصية، وهى اتباع ما أسخط الله وكراهية رضوانه، ولا تكون عقُوبة هذه الأعمال البشعة إلا عقوبةً تعدلها، وهذا يعنى أن حبط أعمالهم عندهم شىء عظيم، ولا يكون كذلك إلا لضخامتها وأهميتها، ودخولها فى باب الخير، وكثير من أهل مكة ممن قتلوا كفاراً كان لهم من البر ما لا يقادر قدره، وكان لهم من الوفاء، والرحمة، والقرى فى زمن المحل ما لا يقادر قدره، واقرأ رثاء أوس بن حجر لفضالة بن كَلَدَة الأسَدىّ وراجع أخلاق الرجل وكَرَمَه وعقْله وحكْمته وكيف بكاه ذوو الحاجات وبكَتْهُ.

ذاتُ هِدْم عارٍ نَواشِرُها ... نُصْمِتُ بالماء تَوْلَبًا جَدَعا

وأقرأ معلقة زهير، وراجع ما كان يفعله هرم بن سنان، والحارث ابن خارجه بن سنان من مكارم أهل الجاهلية وهى مكارم مذهلة وهؤلاء ماتوا قبل زمن البعثة ولو أدركوا زمن المبعث لكانوا مثل أبى بكر وعمر والذى أريده أن

قوله تعالى ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ فى موقعها هذا تلفتُ إلى أنها أعمال كبيرة وجليلة والحبط بسكون الباء والحبط بفتحها أن تأكل الدابَّة ما يَسْتوبل من المرعى حتى تنتفخ بطنها، وفى الحديث «إن مما يُنْبتُ الربيع ما يقتل حبطًا أو يُلم». وقد جاء فى السورة أضل أعمالهم، وأحبط أعمالهم، جاءت الأولى فى آيتين فى قوله تعالى فى مفتتح السورة ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ وجاءت فى قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾وجاءت الثانية فى قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾، وفى قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾.

والسؤال الآن ما الفرق بين أضل أعمالهم وأحبط أعمالهم، وما مناسبة كل فى موضعها؟ وجواب السؤال الأول سهل لأن المادة اللغوية تجيب عنه لأن الضلال ضد الهدى، والضال حىٌّ ولكنه سلك غير طريق الهدى والراحلة الضالة غابت وسلكت الشعاب، والأصل أن تكون حيَّة، وهذا بخلاف الحبْط لأنه يعنى الهلاك، والعمل الضال هو الذى ضلّ صاحبه أو ضله صاحبُه فلم ينتفع به، والعمل المحبط هو العمل الذى هلك وفنى وانتهى أمره.

أما مناسبة الموقع فذلك مما لا يسهل جوابه، لأن أعضل ما فى البيان ليس هو أن تقول هذا معناه كذا، وإنما أن تقول لماذا وقع هنا، لأنك فى الحقيقة تبحث عن عرق نسبه الذى جمع بينه وبين ما قبله، والبحث فى الكلام عن عروق النسب، أو عروق الذَّهب كما كان يسميها البحترى بحث يحتاج إلى يقظة شديدة، ويحتاج إلى فطنة وألْمعيّة وفراسة، وهذا لا يتاح إلا للقليل، وما كل ما شبهَ بالرَّحْلِ شِمْلاَنُ، وأجد صعوبة شديدة فى هذا، وأحيانا أكتفى بالسؤال وأقول إن السؤال من العلم، ثم إننى كَلِفٌ جدا بهذا الباب الصعب، وحاولته فيما أعالج من دراسة الشعر، وأحيانا يتوافى لى كالضياء وأحيانا يغيب.

والذى أراه هنا أن كلمة ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ جاءت مع الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله، ثم لما أضيف إلى ذلك فى الآية الأخيرة ﴿وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ﴾ جاءت كلمة ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ فآذن ذلك بأن حبط العمل أدل على أَشَدِّ الغضب. والفعلان مُسندان إلى ضمير ذى الجلال جل وتقدس، وأنه يعاقب بحبْطِ العمل إذا زاد الذنب، ثم إن كلمة أحبط أعمالهم جاءت مع كراهيتهم لما أنزل الله فى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ والكراهية لما أنزل الله معصية زائدة عن الكفر، فقد يكفر الكافر بالحق، ويدع الحق وأهله، أمَّا الكراهية والبغضاء فإنها تعنى المنازعة والمشاقة لرسول الله بعد ما تبين لهم الحق كما فى الآية الأخيرة، التى جاء فيها حَبْط العمل. والآية التى معنا فيها مع الكفر خسيستان مُسْتَبْشعتان الأولى: اتباع ما أسخط الله، والثانية كراهية رضوانه جل وتقدس، وهذا كما قلت زائد عن الكفر لأن اتباع ما يُسخطُ الحق جل وتقدس، إيغال فى العداوة، ووجود لفظ الجلالة فى الجملة يزيد هذا الأمر شناعة، ثم إنهم لكفرهم لم يطلبوا رضوانه وهذا أمر مألوف، وغير المألوف أن يكرهوا رضوانه، وهم يتقلبون فى نعمه، أقول مواقع أحبط أعمالهم فيها شدة مَقت وشدة غضب، لأنها جاءت فى سياق أكثر إساءة، وأكثر إثارة وأكثر مغاضبة، وقد سبقت الإشارة إلى مثل هذا والله أعلم.

قلت إن الكفر والصدَّ جاء معهما الإضلال فلما زيد عليهما ﴿وَشَاقُّوا الرَّسُولَ﴾ وُضع الإحباط مكان الإضلال، فدل ذلك على أن عقوبة الإحباط أشد من عقوبة الإضلال، وهذا الطريق فى التحليل يؤدى إلى معرفة فروق ملتبسة كثيرة مثل العذاب الأليم والعذاب العظيم، والعذاب الشديد، والعذاب من الرجز الأليم إلى آخره، ولو تتبعنا مواقعها فى ضوء ما سبقها لعرفنا الفروق التى يجب أن نستكشفها، وأسرار البيان فى الكتاب لا تزال بكرا ولا عليك إذا قلت وأسرار بيان العربية كذلك لا يزال بكرا، ويبقى شىء واحد وهو كلمة

ثالثة تُضَمُّ إلى كلمتى الإضلال والإحباط المسندتين إلى الحق جل جلاله وفى إسنادهما له سبحانه مزيد غضب والكلمة الثالثة هى كلمة الإبطال، ولم أعرف أن إبطال العمل أو الأعمال أسندت إلى الله سبحانه وتعالى فى الكتاب العزيز لأن الله سبحانه لم يبطل عملا من أعمالنا وإنما نحن الذين نبطل أعمالنا؛ إذا تجاوزنا محاذير حذّرَنَا منها ربنا كما فى قوله تعالى: ﴿لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤] فعرفنا ربنا أن المنّ والأذى يبطل الصدقة، وكما قال تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ وهنا أطلق عوامل إبطال الأعمال ولم يحددها، لأنها كثيرة وآفاتها متعددة منها الرياء وهشاشة الإخلاص لله رب العالمين، ومنها أنّها لم تقع على الوجه الذى حدده ربنا، فتدخل الآفة على صلاتى بآفة دخلت على وضوئى، أو على ثيابى، وعلى طهارة مكانى، أو على تقصيرى فى فريضة من فرائض صلاتى، وآفة حجِّى راحلة الحرام إلى آخره، فالنهى عن إبطال الأعمال راجع لأوامر ونواه كثيرة.

الله سبحانه وتعالى يضل الأعمال ويحبط الأعمال ونحن الذين نبطل الأعمال، هذا والله أعلم.

قوله جل شأنه ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٢٩: ٣١].

كلمة ﴿أَمْ﴾ التى ابتدأت بها هذه الآيات تُشِيرُ إلى أن الكلام انتقل إلى مقطع جديد من مقاطع المعانى، ورأس هذا المقطع الجديد هو حسبان الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم، وذكر الذين فى قلوبهم مرض ووضعه موضع الضمير، إيذان بأن حَدِيثًا جديدًا عن هؤلاء يبدأ بذكر كلمة ﴿أَمْ﴾، ويلاحظ أن ذكرهم بدأ بهذه الصفة ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ

فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ ثم مضى هذا القسم كله، وهو بذكرهم بالضمير الراجع عليهم، سواء كان ضمير غيبة أو ضمير خطاب، وهذا القسم الأول تناول موقعهم من الجهاد، وأنهم تخاذلوا، ونظروا نظر المغشى عليه من الموت، ولم يصْدُقوا الله، وأنّهم هم مصدر الفساد فى الأرض، وأن إشاعة روح الجهاد تعنى محاصرة الفساد فى المجتمع، لاحتشاد الناس نحو غاية نبيلة، وإشاعة روح الاستسلام والقول بأن موازين القوى ليست فى صالحنا هى التى تتسعُ معها رقعة الفساد فى المجتمع، لأن هذه الثقافة تكسر نفوس الناس، وتكسر نَخْوتهم، وإذا كُسِرَتْ النخوة ظهر الفساد وشاعت الرذائل، وتلاحظ أن الآيات أسست كل هذا السلوك المدَمّر للمجتمع على مرض القلوب فهو الجالب للخوف من القتال، وهو الجالب لخور العزائم، وهو الجالب للفساد، وهو الجالب للارتداد عن الحق بعد ما تبين، وهو الجالب لخيانة الأوطان، والتآمر مع أعدائها على الطاعة فى بعض الأمر، وهو الجالب لاتباع ما يُسْخط الله، وكراهية رضوانه، وهذه الجملة هى نهاية السوء ﴿اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ وليس فى السوء أسوأ من أن تبحث عن ما يُسْخِط البارى جل وتقدس لتتبعه، وليس فى البغضاء أبشع من بغض رضوان الخالق الرازق الباسط المنعم جل جلاله، كل هذا فى الجزء الذى سبق وبنى على ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ وهذا القسم الجديد أعاد كلمة ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ليبيّن أنّه مَقَطع جديدٌ فى شأن هذه الخليقة التى هى أوْبل ما يصيب المجتمعات ويدمِّرها بالفساد الوبيل، ويلاحظ أن الكتاب العزيز ذكر المنافقين فى مواطن كثيرة وفى كل موطن ترى المنافقين فيه من زاوية جديدة، وسورة القتال لم تذكرهم بلفظ النفاق، بل وليست فيها هذه الكلمة، وإنما ذكرتهم بمرض القلوب، وكل الذى فيها حولهم صادر عن هذا المرض، فنظر المغشى عليه من الموت نظر صادر من تحت جملة ﴿فِي

قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، وخور العزم وانتقاصه، وحل عُقدته صادر عن مرض القلوب، وعدم التدبر صادر عن مرض القلوب، والارتداد عن الحق بعد ما تبين لا يكون إلا من مرض العزم والحزم، والتصميم الذى يحول بين القلب وبين الاستمساك بما تبيّن، وهكذا تجد الفصل الذى تكلم عنهم فى السورة يَرْشَحُ مرض القلوب على كل ما فيه، وهذه زاوية من زواياهم غير زاوية ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤] وغير زاوية ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] وغير الزاوية التى ذكر بها المنافقون فى سورة الفتح التى بعد القتال فى قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ [الفتح: ٦].

وهكذا تراجع ذكر المنافقين فى كل موقع تجد له وجها غير الوجه الذى مضى، ثم إنك تجد طابع السورة قد طبع ذكر المنافقين فيها، فالذى فى الفتح ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ [الفتح: ١١]، ويَرُدُّ القرآن ويقول لهم ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢] ثم يعود إلى ذكرهم ويقول ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ [الفتح: ١٥] ثم يقول ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ﴾ [الفتح: ١٦]، وهكذا تجد الفتح ومَنْ خرج ومَنْ تخلَّف تُلْقِى رداءها على ذكر المنافقين، وتجد هذا ظاهرا جدا فى القتال، فهم أولا فى قلوبهم مرض، فليسوا مهيئين للقتال؛ ثم تجد الشوابك بينهم وبين ما جاء فى السورة فقولهم ﴿لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ راجع إلى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ⑧ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ وتجد أيضا فى ذكر المنافقين ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ وكراهية ما أنزل الله

ليست بعيدة عن كراهية رضوانه، وأحبط أعمالهم فاصلة الكلامين، وحذو البناء الذى تكلمنا عنه فى جملة ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ كل هذا يُدْخِلُ ذكر المنافقين فى القتال تحت عباءة السورة، ونظمها، وسياقها، وهذا باب جليل جدا من أبواب البيان القرآنى، لم يدرس على الوجه الذى يستَقصى مواقعه، ويكشف أسراره قلت إن كلمة﴿أَمْ﴾ تدل على أن الكلام انتقل لأنها بمعنى بل والهمزة، وبل معناها الإضراب، والإضراب هنا انتقالى وليس إبطاليا لأن الكلام الذى مضى انتقل عنه من غير إبطال له، والهمزة معناها الاستفهام الإنكارى، وليس المقصود إنكار الحسبان، لأنه واقع منهم، وإنما المقصود إنكار الانبغاء يعنى هو كان وما كان ينبغى أن يكون، ورحم الله الأئمة فقد أحسنوا استخراج معانى أدوات هذا اللسان، والمعنى الذى بعد أم والذى ينقل إليه الكلام مختصر جدا، وملخص فى هذه الجملة «**حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم**». وانتهى الكلام لأن الذى سيأتى بعد هذا ليس داخلا فى حسبانهم ولا فى أعمالهم ولا فى أقوالهم وإنما هو حديث من الحق لرسوله فى شأنهم.

وهذه الجملة المختصرة جملة سخية جداً. والكلام انتقل فيها من ظاهرهم إلى باطنهم، راجع من أول نظر المغشى عليه من الموت تجد أفعالا وأقوالا، ثم تجدك هنا مع حساب آخر، هو ظنهم أن أضغانهم التى دفنوها فى مطاوى ضمائر نفوسهم ستظل هناك بعيدة مُخْتبئة، ولن تخرج، وتجد مرض قلوبهم يرشح على الجملة لأنهم حسبوا أن الله لن يخرج هذه الأضغان، مع أنهم منذ لحظة كانوا يتبعون ما أسخط الله، وكانوا يكرهون رضوانه، وهم يعلمون أنه سبحانه يعلم أسرارهم، ويعلم دفائن أضغانهم، ومع كل ذلك أدَّاهُمْ حُسبانهم إلى حسبان أن الله لن يخرج أضغانهم، فلو سألتهم على أى أساس حسبتم هذا الحسبان؟ هل عاهدتم الله ألا يفضح سرائركم؟ هل اعتقدتم أن اتباع ما يسخطه وأن كراهيتكم رضوانه من أعمالكم التى تطلبون من الله بها أن يستر ضغائنكم؟ تأمّل فى هذا تجد طريقة التعبير هى بعينها المرض لأنها معيوبة، وليس فيها عافية العقول.

والأضغان جمع ضغينة وهى البغضاء المستكنة فى القلب وهى الحقد الدفين فى القلوب وهى الدِّمن الغائرة، وكان العرب يقولون «قد ينبت المرعى على دِمَن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هى» والعلماء يفسرون مرض القلوب بالحسد والبغضاء والأحقاد، ولهذا تجد تطاعما شديدا جدا بين الفاعل والمفعول فى الجملة الشريفة بل والفعل أيضا، فالفعل هو الحسبان وهو الظن وليس اليقين ثم الفاعل ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ والمفعول هو ذاته المرض (الأضغان).

وكلمة الأضغان لم تأت فى الكتاب العزيز إلا فى موضعين ذكرا فى هذه السورة؛ هذه الآية وآية بعدها فى شأن الصَّدقة ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ وهذه الآية فيها شىء زائد على النفاق الذى هو إبطان الكفر وإظهار الإيمان، لأن هذا وإن كان خسيسة أصلها مرض القلوب التى تلجأ إلى المراوغة، والتذبذب بين الفريقين، فإن فيها أمرا أهول وهو الضغينة والبغضاء وتحرق الأكباد على أهل الإيمان، وتعجب من وجود دفائن البغضاء فى قلوبهم على أهل الإيمان، لأنهم لو كانت عقولهم صريحة واقتنعت بأن أهل الإيمان هؤلاء آمنوا بالباطل، واعتقدوه حقا لما امتلأت قلوبهم بغضا لهم، وإنما كانت تمتلئ قلوبهم إشفاقا عليهم، لأنهم جماعة ضُلِّلت، وهذا يعنى أن وجود هذه الأضغان ليس له دلالة إلا دلالة واحدة وهى أن أهل الإيمان على حق وعلى هدى من ربهم، وأن أصحاب هذه الضغائن يعلمون ذلك؛ لأنهم وصفوا قبل ذلك بأنهم ﴿تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ وهذا أيضا من المرض لأن حقدك على المهتدى ومَنْ تَعْتَقِدْ أنت أنّه مُهتد لا مبرر له لأنه يمكنك أن تهتدى كما اهتدى، وأن تكون من جماعته.

وكلمة «أن». فى قوله سبحانه ﴿أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ هى أن المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف، والتقدير أنه لن يخرج الله أضغانهم، وضمير الشأن راجع إلى ما بعده وَليس إلى ما قبله، وهذا هو سر

أثره فى الكلام وأنه يمنح الكلام نبلا وفخامة كما قال العلماء، لأنه حين يواجه النفس وهى لا تعرف له مَرْجعًا فى الذى مضى تتحير فى معرفة دلالته وتستشرف لمعرفة هذه الدلالة، فإذا وقعت على المراد به فى الجملة بعدها تمكن فيها وتقرر وتأتل، لأنك أعلمت به بعد التهيئة والتوطئة، وليس إعلامك الشىء بغتة غفلا كإعلامك بعد التهيئة والتوطئة وهذا كلامهم، وإنما ذكرته لأنه يشير إلى أن ما دخل عليه ضمير الشأن له فى معنى الكلام شأن، والحق جل جلاله يلفتنا إلى أنهم حسبوا هذا الحسبان القريب، وكلمة ﴿يُخْرِجَ﴾ غير كلمة يظهر أو يعلم لأن دلالتها على الإظهار أظهر ثم فيها إشارة إلى أن هذه الأضغان كأنها صارت جسدا يخرج من الصدور، وأنهم أحكموا إخفاءها وإخراج الشىء يحتاج إلى معالجة ليست فى إظهاره، ووقوع هذه الآية عقب الآية التى قبلها ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ فيه تشهير بغفْلَتهم، وجهلهم، وعَمَاهُمْ، لأن الله سبحانه يعلم ما يكون منهم، ولما قالوا للذين كرهوا ما أنزل الله سنطعيكم فى بعض الأمر، أخبر الله نبيه بذلك وسمعوا الآية وسمعوا أيضا أن الله يعلم أسرارهم أى التى تكون بينهم وبين الذين كرهوا ما أنزل الله فى الحجرات المغلقة، ويَعْلَم أيضا إسرارهم بكسر الهمزة يعنى ما يداخل نفوسهم مِمَّا لا يطلعون عليه أحدا، ثم هم بعد ذلك يحسبون أن الله لن يخرج أضغانهم، هذا تعجب من أحوالهم وكشف لمزيد الغفلة والعجز عن التدبر، والاستنباط.

قوله سبحانه ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ هذه الواو يمكن أن تكون واو الحال وتكون هذه الجملة الحالية قيدًا للجملة الأولى يعنى حسبوا أن لن يخرج الله أضغانهم، والحال أن لو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم، وهذا جيد وفيه تجهيل لهم فى حال حسبانهم. ويمكن أن تكونَ عاطفة للجملة بعدها على قوله سبحانه ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ ويكون المعنى الذى بعدها مضموما إلى المعنى الذى قبلها، وليس جزءا منه؛ ومجىء جملة ﴿وَلَوْ

نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ﴾ فى إثر جملة ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ فيه إشارة إلى أنهم حسبوا ذلك لأنهم يحسبون أيضا أن الله لا يعلم أضغانهم فجاءت الجملة الثانية لتدل على أن الله سبحانه لو شاء أن يضع أيديكم وعيونكم عليهم لفعل، ولكنه لم يشأ فلم يفعل، ولو هذه تفيد امتناع جوابها، لامتناع شرطها، والجواب هو لأريناكهم، وهو مؤكد باللام كالجواب الذى فى قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ [الواقعة: ٦٥]، ولكننا لم نجعله لأننا لم نشأ ومفعول المشيئة فى مثل هذا الطريق محذوف وجوبا لدلالة جواب الشرط عليه، والأصل لو نشاء أن نريكهم لأريناكهم ولو نشاء أن نجعله حطاما لجعلناه حطاما والعربى لا ينطق بهذا؛ والسؤال الآن لماذا لم يشأ الحق أن يريه صلوات الله عليه الذين فى قلوبهم مرض، وأن يريه أضغانهم، ليحذرهم عليه السلام وليسلم أهل الله من شرورهم؟ وجواب هذا سيتضح بعد تحليل القسم الثانى من جملة الجواب وهو قوله تعالى ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ وهنا انتهى الجواب وما يأتى بعده كلام مستأنف وهذه الفاء تعطف ما بعدها على قوله تعالى ﴿لَأَرَيْنَاكَهُمْ﴾ وتكررت اللام الواقعة فى جملة الجواب الأولى للتأكيد، وهذه الفاء دالة على أن الجملة بعدها مرتبة على الجملة قبلها والمعنى لو أريناكهم لعرفتهم بسيماهم، ولهذا الترتيب لا تصلح هذه الجملة أن تكون جوابا، لأننا لو قلنا لو نشاء لعرفتهم بسيماهم لأفاد كلاما آخر وهذا يشبه مثال عبد القاهر فى هذا المعنى وهو إن جاء زيد سلمت عليه وخرجت جملة الجواب الثانية (خرجت) مرتبة على جملة الجواب الأولى ولهذا لا يصح أن تقول إن جاء زيد خرجت إلا إذا أردت معنى آخر، ولهذا قالوا إن هذا الطريق يضمر شرطا محذوفا أى إن جاء زيد سلمت عليه وإن سلمت عليه خرجت، وكذلك المعنى هنا لو نشاء لأريناكهم ولو أريناكهم لعرفتهم بسيماهم، والسيمى بكسر السين أصله الوِسْمَى أى العلامة تقدمت السين التى هى عين الكلمة على الواو التى هى فاء الكلمة فصار السِّومى ثم قلبت الواو ياء

لمناسبة الكسرة قبلها فصار السيمى وأصله مثال من الوسم، والمراد فلعرفتهم بوسمهم وشكلهم يعنى لو نشاء لوضعناهم تحت بصرك فرأيت أعيانهم وأشكالهم ووسمهم الذى هو هيأتهم التى لا تختلط بغيرهم، وكان العرب يَسِمُون إبلهم وكان لكل قبيلة وسم يعرفه الناس، فإذا ضلَّ بعير عَرَف الناس أنه من إبل بنى فلان وإذا وردت الإبل الماء عرف الناس أنهار إبل بنى فلان، ولهذا ذِكْر كثير فى أشعارهم، وأن هذا الوسم كان يفسح لها الطريق إلى الماء.

والآن أجيب عن السؤال الذى يقول لماذا لم يشأ الله أن يريكهم فتعرفهم بسيماهم؟ ولا أعرف لذلك جوابا إلا جوابا واحدا هو لطف الله وستره الذى يُلقيه على عباده، بمنِّه سبحانه وفَضْله؛ ولو اتبعوا ما أسْخَطه وكَرِهواْ رضوانه، ولاشك أن نعم الله وعطاءه لم ينقطع عن من كفر وحارب وكره ما أنزل، ولو تصورت أن الله سبحانه كشف ستره عن هؤلاء وجعلهم فى الناس عراة يرى الناس أضغانهم، لكان هؤلاء فى جحيم، ثم إن لهم إخوانا وأرحامًا وأعمامًا وأخوالا وربما أولادا وآباء فى صفوف المؤمنين، ولاشك أن هذا كان لو كان أشد على قلوب زويهم من أهل الإيمان، ولا ننسى أن هذا مجتمع واحد، وأنهم أبناء رجل واحد، وأن اللحْمة بينهم لحمة لحم ودم، ولما وقع فى نفسى هذا المعنى الذى هو ستر الله ألد عدائه الذين يتبعون ما أسخطه سبحانه ويكرهون رضوانه ويتآمرون مع من كرهوا ما أنزل الله اغرورقت عيناى ثم فيه وجه من وجوه الإعجاز لم نتكلم فيه كثيرا وهو أن عطاء الله لمن كانوا على ما وصف جل وتقدس لايمكن أن يصدر عن نفس إنسانية لأنها يتوقد غيظها على من يتبع ما يُسْخطها ويكره رضاها، وأن هذه المشاعر الإنسانية لا تسمح لصاحبها أن يكرم وأن يستر مَنْ كان على هذه الحال معه، لأن للنفس سعة لاتستطيع أن تتجاوزها، ولها زرع لا تستطيع أن تتخطاه؛ ولا يفعل ذلك بالإنسان إلا من خلق الإنسان، ورعاه وهو فى رحم أمه. ودفعنى هذا إلى إعادة قراءة ما قبله من أول قوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ**

﴿فِي بَعْضِ الأَمْرِ﴾ و﴿اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ جل وتقدس، وقلت إن موقع هذه الآيات هنا له دلالة أخرى هى التهيئة لهذا الستر وهذا المنّ، ومدُّ اليد بالعطاء لهذه الجماعة التى زاولت أخس وأخبث وأبشع ما يزاوله المخلوق مع خالقه. وهذا المعنى ليس بعيدا عن الذى نقوله فى الدعاء «**أبوء بنعمتك علىّ وأبوء بذنبى**» فالحق ينعم والعبد يذنب ويعود العبد إلى ربه بذنبه ويعود من ربه بعطائه ،ثم إن العبد يجعل هذا وسيلة له يتوسل بها إلى ربه ليغفر له ذنبه، وكأنه لا يتوسل إلى الله بالعمل الصالح فحسب وإنما يتوسل بذنوبه وعدم شكره، ومثل هذا لا يكون إلا مع الله ومن الله.

قوله سبحانه ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ .

هذا كلام مستأنف واللام فيه لام القسم وجواب القسم هو المضارع المؤكد بنون التوكيد الثقيلة، وقد نفى الحق جل وتقدّس أن يعرفهم رسول الله ﷺ معرفة حسيّه بتعيين الله لهم، وحَثَّ على معرفتهم معرفة اجتهادية بتفقد كلامهم ومعرفة لحنهم، وهذا معنى جليل جدا ودعوة رائعة ليقظة الأمة وحسن تدبرها، وحسن وَعيها حتى تحسن أن تعرف ما تسمع وأن تدرك مما تسمع أخفى ما فى نفس صانع البيان مما يحاول إخفاءه ويجتهد فى دفنه بعيدا حتى يخفى عن الذى لا يخفى عليه شىء سبحانه.

الحق سبحانه لم يضع أيدينا على مواطن الخطر حولنا، وإنما طلب منا أن نجتهد نحن فى ذلك، ولابد أن نرى بعيوننا، ونفكر بعقولنا، وأن نعرف الأخطار المحيطة بوعينا نحن، وهذا هو طريق بناء الأمة، الخطر أن نرى بغير عيوننا، وأن نفكر بغير عقولنا، ولن يتقدم شعب يسلك هذا السبيل، والجملة العظيمة وإن كانت فى حادثة محدودة، فإن دلالاتها أوسع وأعمق، لابد أن تعرفوا أنتم وأن تفكروا أنتم، ولحن القول كما يقول الزمخشرى نحوه وأسلوبه والمراد بنحوه الجهة التى ينحو البيان نحوها، يعنى لابد أن تكون لكم بصيرة

نافذه تنفذ فى غور ما تسمعون وما تقرؤون، هناك معان وعلامات غائرة وغاطسة فى أغوار البيان وعليكم أن تستخرجوها، ويلاحظ أن القوم حسبوا أن لن يخرج الله أضغانهم وما يكتمونه فى ضمائرهم، فأشارت الآية إلى أنهم هم الذين سيخرجون أضغانهم وأنك أيها المخاطب ستدرك ذلك فى لحن قولهم، وأن كلامهم سيميل مَيْلَة بعد ميلة نحو هذه الأضغان وسيدل عليها.

وقد نقل الزمخشرى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال فى لحن القول «هو قولهم مالنا إن أطعنا من الثواب؟ ولا يقولون ما علينا إن عصينا من العقاب». وهذا يعنى أن لحن القول ليس بحثا فى بناء الكلام، عن وديعة أخفوها هناك، وإنما هو معرفة جهة الحديث، وأن المتكلم يكثر من ذكر شىء ويهمل شيئًا، وأن الدارس للكلام الذى يفهم لحنه ويحسن قراءته وتحليله يقف عند الذى يذكره، ويحاول أن يستخرج من عنايته بما يكرره سِراً من أسرار نفسه، ويقف عند الذى لم يذكره، ويحاول أن يستخرج من تركه وإهماله لهذا الباب سرا من أسرار نفسه، وهكذا يدرس الدارس ما قيل؛ وما كان يمكن أن يقال، ولماذا قال القائل ما قال؟ ولماذا ترك ما كان يمكن أن يقال؟ وهذا يفتح بابا جديدا فى تحليل الشعر والأدب، وكان ﷺ يسمع ما يقولون ويستحضر المقابل الذى كان يمكن أن يقولوه، ويجعل هذا سبيلا لتمييز المنافقين من الصادقين، كان المنافقون يسألون عن الثواب لأنه هو الهاجس الأصلى، والجذر النفسى عندهم، لأنهم لم ينافقوا إلا جَلْبًا للمصلحة، وأهل الله يسألون عن العقاب لأن قلوبهم وجلة وهم مستيقنون أن من زُحْزِحَ عن النار فقد فاز، فدل كلام الفريقين على سر نفس كل فريق، وأخرج الذين فى قلوبهم مرض سِرَّ نفوسهم بألسنتهم، وسر نفوسهم هى أضْغانُهم، قال الزمخشرى «وقيل اللحن أن تلحن بكلامك أى تميله إلى نحو من الأنحاء ليفطن له صاحبك كالتعريض والتورية قال:

ولقد لحَنْتُ لكم لكيما تَفْقَهُوا   واللَّحْنُ يَعْرِفُه ذَوُوا الألْبَاب

وقد أحسن الزمخشرى لما ذكر هذا الوجه بصيغة التمريض، لأن الذين فى قلوبهم مرض لم يميلوا كلامهم ليفطن لمعناهم من يريدُ أنْ يَفْطن له، لأنهم إن فعلوا ذلك يكونوا قد كشفوا أنفسهم، ولأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن حوله لا يخفى عليهم لحن القول بهذا المعنى، وفى الجملة القرآنية العظيمة إشارة حسنة جداً هى وضع الظرفية مكان السببية فى قوله سبحانه ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ ولم تقل الجملة الكريمة ولتعرفنهم بلحن القول، فرق بين أن تعرفه فى لحنه وأن تعرفه بلحنه، الأول أبحث عنه فى لحنه لأنه غاطس فى هذا اللحن، وساكن فيه، والثانى أعرفه بلحنه يعنى حين أجد هذا اللحن يكون هذا اللحن سبيلا إلى وصولى إليه.

وأكرر أن هذه الآية تشحذ الهمة للتدقيق فى تحليل البيان، حتى تتجاوز ما يدل عليه ظاهر البيان إلى ما هو فى باطنه، وأن الإنسان له ظاهر وباطن، وظاهره ظاهر وباطنه خفى وللغته ظاهر وباطن، وظاهرها ظاهر، وباطنها خفى والمهم البحث عن هذا الخفى، أَقْرأُ شروح ديوان أبى الطيب وأَنْتفعُ بها، ثم يروعنى من يقول من شراحه إن أبا الطيب كان يهجو كافورا فى قصائد مديحه له، ثم يضع يدى على لحن قول أبى الطيب الذى أخرج فيه ازدراءه لكافور، أو يقول لى لم تكن خَوْلَةُ أُخت سيف الدولة مجرد شقيقة صاحبه سيف الدولة، وإنما كان لقلب الشاعر علق بها ثم يضع يدى على نميمة لغة أبى الطيب على هذا العلق، وكان من أبرع الناس فى هذا الباب المرحوم محمود شاكر وابن عباس لما قال النص الذى أورده الزمخشرى حدَّثنَا من ورائه حديثا آخر وهو أنك وأنت تدرس شعر الشاعر عليك أن تتعرف على أبواب معانيه لترى هل كان مهموما بالإنسان الذى أشْقَتْهُ أيامُ الشَّقَاء التى نعيشها؟ وأنه كان مهموما بذات هدم عار نواشرها؟ أم أن قلبه كان معلقا بالقصور يُحبِّر المدائح لأميرنا، ويرقص وهو يُنشدها بين يديه،وينفض فى حضرته مِذْرَوَيْه وأيضا يُحبِّر القصائد فى كلب أميرنا، إذا رام أميرنا أن يسمع حر القصيد فى مدح كلبه المحبَّب له، ابن عباس يقول افتحوا أبواب المعانى

وانفذُوا فيها بسرٍّ نفوسكم لتفتح لكم أبواب الشعر وتكشف لكم عن أسرار نفوس شعرائكم، وافطنوا إلى ما يكون فى البيان كالهَمْس أو كمَسْرى النفس فى النفس كما يقول شيخ أهل البيان، وقد ذكر البقاعى فى تفسير لحن الكلام كلاما موجزًا جداً وأفضل من كل الذى قلته قال رحمه الله «لحن القول ما يبدو من عرض الكلام وخفيات الخطاب، وما لم يُرد المتكلم أن يظهره، ولكنه يغلبه فلا يقدر على كتمه» انتهى كلامه، وراجع كلمة «خفيات الخطاب» واعلم أنها اللؤلؤة التى نبحث عنها فى تحليل البيان، ثم راجع مالم يرد المتكلم أن يظهره، ولكنه يغلبه فلا يقدر على كتمه. وأسأل كيف يغلبه؟ وكيف يتمَرَّدُ عليه لسانه؟ وكيف يكون نميمة على سر نفسه؟ مرة ثانية كيف يتمرّد اللسان ويغلب صاحبه ويدل على السر المخبوء الذى يجتهد صاحبه فى أن يظل مكنونا؟ هل ترى أن الكلام يصدر من أعماق الضمير الذى فيه السر المخبوء وأن هذا الكلام لا مفر له من أن يَحْمِلَ ريحا من ريح هذا السر المخبوء؟ وهل ترى أن اللسان الذى طرفه عند الشفتين له طرف آخر مغروس فى ضمير النفس، وأن ما يراه هناك عند جذره الأول لابد أن يَرْشَح عند أسلته التى تضرب على مخارجها فتحدث بالذى عندها؟ كلمة «نميمة الأسلوب» كلمة عالية جدا ويستعملها المحققون النبهاء الذين يجتهدون فى استخراج الحقائق قبل أن يصدروا الأحكام.

قلت إن جملة ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ ليست معطوفة على ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ لأنها ليست داخلة فى حيز «لو»، وإنما هى جملة مستأنفة معطوفة على ما قبلها عطف معنى على معنى، ويجوز أن تكون معطوفة على جملة ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ﴾ لأنها قسيمتها، لأن الأولى معناها لن تراهم لأننا لم نشأ أن تراهم والثانية تقول عليك أن تعرفهم باجتهادك يعنى لن تراهم بعينيك وإنما ستعرفهم بأذنيك وليست القضية هى إخفاءهم لأن معرفتك لهم أمر سيقع ولكن القضية هى وسيلة المعرفة، وأنه لابد أن نحتشد لها وأننا لن نقدمها إليك من غير سعى منك إليها، لأنك خلقت لتسعى وخلق الناس جميعا للسعى ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ [التوبة: ١٠٥].

قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾.

موقع هذه الجملة ومبناها ليس من السهل أن يُدْرَكَ كُنْهُه، لأنها بُنِيتْ على الالتفات وانتقل الكلام فيها من حديث الذين فى قلوبهم مرض وحسبانهم أن الله لن يخرج أضغانهم، وإخبار الحق بأنه لن يدل على أعيانهم لأنه لم يشأ ذلك سبحانه سترا على عُصَاته ومن يتبعون ما يسخطه ويكرهون رضوانه ثم دل رسوله ومن معه ودلنا أيضا على أن سبيلنا إلى معرفة مرضى القلوب حولنا هو لَحْنُ قولهم لأنهم هناك فى لحن هذا القول إلى آخره، ثم فجأة التفت ربنا إلينا وأخبرنا أنّه يعلم أعمالنا، والعجيب أن هذه الجملة الخاصة بنا، والتى تبدأ حديث ربنا إلينا عَنَّا وليس عن مرضى القلوب جاءت من تمام الجملة التى هى فى نهاية حديث مرضى القلوب، لأنهم لم يذكروا فى السورة بعد كلمة ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ وكأن هذه الجملة طوت صفحتهم بعد ما دَلَّت الأمة على المدخل الذى يدخلون منه إلى معرفة طويا نفوسهم، ثم إن هذه الجملة الحالية كما قلت مفصولة المعنى عن الذى قبلها، أو هى مفصل من مفاصل المعنى، وأنها فاصلة الآية التى هى فيها مع أنها على غير المشهور من أحوال الفواصل، لأن الفاصلة غالبا ما تكون متضمنة لمعنى الآية التى هى فاصلة لها، وهذه الجملة أو الفاصلة تتضمن من الذى قبلها قوله تعالى ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾، لأن هذه المعرفة من أعمالنا التى دلت الجملة على أن الله يعلمها، وكأنها تدعونا إلى التحرى فى هذه المعرفة أعنى معرفة أعدائنا لأنها معرفة قائمة على الاجتهاد، والاستنباط والاعتماد على لحن القول، وأننا مظَّنة أن نخطئ وأن ندخل فى الذين فى قلوبهم مرض من ليسوا منهم، أو نخطئ فيفوتنا إدراك من هم منهم، وهذا باب مهم، أعنى باب معرفة الأمة لأعدائها، ولا تزال القضية قائمة ونسمع أن أعداءنا التاريخيين والذين هَدَّمُوا بلادنا ولا يزالون صاروا أصدقاءنا، هكذا يقولون وهكذا يقول كبارنا وهكذا تقول كثير من الأقلام الخائنة، الجملة إذن تتضمن هذا الجانب

السياسى البالغ الأهمية، لأن الأمة إذا أخطأت فى معرفة عدوها واختلط عليها الأمر، وصادقت العدو التاريخى، وعادت وقاطعت الصديق التاريخى كما هو الآن تكون قد سارت إلى المهلكة بقيادة من يقود، ونفاق من ينافق، وكذب من يكذب، وصَمْت من يَصْمت، وإن أردت مثالا لذلك فانظر إلى بلد إسلامى كبير وقديم وولد فى أرضه أكابر علمائنا، كان رأسه منذ زمن رأسا مواليا لعدونا التاريخى وكنا أصدقاء له وكان له فى أرضنا ودٌّ شديد؛ فلما سقط رأسه الموالى لعدونا وظهرت فيه رأسٌ أخرى تنازع عدونا عاديناه وقلنا إنه يمثل خطرا مذهبيا علينا؛ لأنه شيعى ونحن حماة السنة، وإذا قلت إنه كان بالأمس شيعيا، وكان له منّا ما كان، وكل الذى اختلف هو موقف القيادة الجديدة من عدونا الذى هو الآن صديقنا، وإذا أضفت إلى ذلك سؤالا آخر وقلت أى الأمرين أخطر على مذهب أهل السنة ياحماة السنة، هؤلاء الجيران الذين هم شيعة منذ بدء التاريخ، ولم يَهْدموا علينا بَيْتًا؟ أم جحافل جند اليهود والنصارى الساكنة على أعز تراب لنا ولم يُفزِّع طائرُهم بكلمة ولا بحصاة؟ لو قلت هذا قطع لسانك وخُسفت بك الأرض أو دهستك سيارة فى الطريق قضاء وقدرا، أطلت فى هذا لأن الآية تؤكد ضرورة معرفة العدو معرفة لا تخطئه أعنى الآية تعالج قضية الساعة ولا أستطيع أن أبعدها عنها لأن هذا من كتمان ما حدثنا به ربنا، ثم إن هذه الجملة التى هى فاصلة الآية السابقة تعد جذرا للآية بعدها ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ لأن هذه الآية جزء من معنى الجملة لأن علم أعمالنا شامل للجهاد والصدق والأخبار.

قلت إن الالتفات لَفْتٌ لمعنى الجملة وإشارة إلى أنها عند الله بمكان؛ وبناؤها على لفظ الجلالة فيه معنى أعظم لأنك حين ترى لفظ الجلالة هو رأس الجملة يدلك ذلك على أن الذى يأتى بعده هو شأن من شؤون الجلال والكمال، وهو هنا علم الله بأعمالنا؛ وهو علم لا يتم بكماله إلا له سبحانه، كما يبعث فيك

المهابة، لأن لفظ الجلالة هو الفاعل الأول فى تربيـة المهابة، ولو ذكرته وحده وردّدته وحده، ثم إن التـجدُّد فى الفعل المضـارع هنا لا يعنى تجدد العلم لأن علم الله قديم لأنه صفته سبحانه، وإنما الذى يتجدد هو أعمالكم وعلمه بهذه الأعمال، وهى مقترنة بحـدوثها منكم، يعنى اقتران العلم بالمعلوم، ولا أقف عند هذه السهولة، والعذوبة، التى تراها فى الفعل والمفعول، والتى تجدها فى لسانك وأنت تقول «يعلم أعمالكم» وليس هذا من الجناس وإنما هو من الملحق به كما فى قوله تعالى ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٨]، وقد وقفت كـثيرا لأبحث عن سـرٍّ خطاب ربنا لنا بهذه الجمـلة والآية بعدها وبناء هذه الجـملة على ما بُنِيَتْ عليـه، ثم بناء الآية بعـدها على القسم والـتوكـيد وتكرار الابتـلاء، لماذا جاء هـذا عقب الحـديث عن الذين فى قلوبهم مـرض وكراهيتهم لرضوان الله وانطواء قلوبهم على الأحقاد والدِّمن؟

ولم أقع فى المصادر التى بـين يدى على كلام فى هذا، ولم أجد مـا أقوله إلا شيـئًا واحـداً وهو تحذير ربنا لنا مـن الاغترار بسـلامة قلوبنـا من أمراض النفاق، واجتـهادنا فى الابتعاد عن مـا يُسْخطه سبحـانه، وإلحاحنا فى طلب رضوانه، وولعنا بذلك، حتى إننا لا نطلب فى دنيانا ولا فى آخرتنا مطلبا أعز علينا من رضاه سبـحانه، لا يجوز أن يَغرنا هذا ونَقْعُـد عن الأعمال لأن كل هذه من غير أعمال هى أشبه بالـمُنى، وليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل، ومرة ثانية: الكلام السابق دار حول مرض القلوب وفساد اليقين فإذا كنتم قد برئتم من مرض القلوب وفـساد اليقين فلا تطلبوا ما عند الله بهذا وإنما العمل، وذروته فى الآية الجهاد، والصـبر، والكلام بعد ذلك سيَنْحو مَنْحًى آخر، ويبـدأ برد عجز السورة على صـدرها وهذا هو وجه تسكين هذه الآية فى موقعها بعد الذى سبقها، والله أعلم.

وشىء آخر أراه فى سر هذا الموقع وهو التحذير من أن يتسلّل لعملكم ما تبطل به الأعمـال، وشرط قبـول الأعمال كمـا قال العلمـاء أن تقع على وفق الشروط

الشرعيـة، فالصلاة لها شـروط وفرائض وأركان والوضوء لـه شروط وفرائض وأركان وكذلك الزكاة والحج والصوم، وكل أعـمال البر لا تقبل إلا إذا جاءت على الوجه الذى أُمْرنا به، والشرط الـثانى الذى هو الأقرب إلى موقع الآية هو أن تكون خالصة خلـوصا كاملا لله رب العالمين لأنه لو داخلـته لمحة من الرياء لضاعت، فـقد أُصلى أو أتصـدق وقلبى مع الله بنسبـة تسعة وتـسعين وهناك واحـد فى المائة نظرت فـيـه إلى الناس، هذا الواحـد فى المائة يدمِّـر صـلاتى وزكاتى، لأن الله لا يقبل الشركة مهما قل نصيب الشركاء، لأن جلاله سبحانه أعظم وأجل وأكرم من أن يزاحـمه شريك فـيما يتقـرب إليه عبـده به ولو كان واحدا فى الألف، وإذا وجد هذا الواحـد فى الألف فقد وجد معـه ما يساويه من أمراض القلوب، وهذا من أخطر ما يواجه العاملين لأن الشيطان يجرى من ابن آدم مجـرى الدم، ولو قضيت عمـرك فى العبادة وعمل الصـالحات وتعليم العلم وتعلّمه وخامر قلبك شىء من الرغـبة فى ثناء الخلق، فقد ضاع منك كل شىء نعم من حقك أن تحرص على أن يكون لك لسان صـدق كما حرص أبونا إبراهيم عليـه السلام ولكن ليس عن طريق توجـه النفس بأعمـال البِرِّ إلى هذا مهمـا قل مقداره ولعل هذا المعنى الذى خامر نـفوسنا فى صدر هذه الآية وفى سِرِّ موقعها قد رشحّ لقوله تعالى فى آخر الآية ﴿وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾.

ثم إن جملة ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ لا تستطيع أن تقول إنها وعد لأن فيها شوبا من التحذير ولا تستطيع أن تقول إنها وعـيد لأن فيها شوبا من البشارة، وإنما هى صالحة لـهذا كله والمهم أن تعمل وبين عينيك أن الله يعلـم ما تعمل فإذا كنت حريصـا على أن يرى الله منك خيرا، وأن يعلم منك خيـرا فالباب مـفتـوح لك، وعين الله مـعك حيث كنت، سـواء كنت فى مكتـبك أو فى مـصنعك أو فى درسك أو على عـرش ملكـك، عين الله ترى البـارَّ فى برهّ وترى الفاجـر فى فجوره. واستَـخْفِ منها ما شـئت ومهمـا استخفـيت فهى مَعَك، ووراء هذا من الرضى بأهل البر مـا وراءه، ومن البشارة بأهل الصلاح ما وراءه، ومن الغضب على أهل الفجور ما وراءه.

قوله تعالى ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾.

الابتلاء معناه الافتتان والتمحيص، والله سبحانه وتعالى يبتلى عباده بالخير والشر ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون﴾ [الأنبياء: ٣٥] ويبتليهم بالحسنات والسيئات ﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون﴾ [الأعراف: ١٦٨].

وقد جاء الابتلاء مؤكدا بالقسم والنون فى آيات محدودة منها هذه الآية وآية فى سورة البقرة: ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات﴾ [البقرة: ١٥٥]، وآية فى آل عمران ﴿لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾ [آل عمران: ١٨٦]، وآية فى سورة المائدة: ﴿يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد﴾ [المائدة: ٩٤]، وقد ذكر المبتلى به فى الآيات التى هى أخت آية القتال فالمبتلى به فى البقرة الخوف والجوع، والمبتلى به فى آل عمران الأموال والأنفس، والمبتلى به فى المائدة هو الصيد، وتبقى سورة القتال لم يذكر فيها المبتلى به وإن كان السياق يشير إلى أنه القتال بدليل ذكر المجاهدين والصابرين.

وأكثر ما يكون الابتلاء بما للنفوس به علقة كالأموال، والأنفس، والثمرات، والصيد، وما على الأرض من زينة، ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا﴾ [الكهف: ٧] وهذا كله اختبار لحال العبد هل يجد علقه لنفسه تغلب تعلقها بمرضاة ربها ونصرة دينه، وإنفاذ أمره، ونهيه؟ والمطلوب هو ألا يعلو على النفس شىء ينازع فيها علوَّ ذى الجلال والانقياد له، وهذا هو الاختبار الحقيقى ويكون بالخير والشر، لأن الخير إذا استغرق النفس وتلهّت به وأسرعت خطاها نحوه وتباطأت خطاها نحو مرضاة ربها

كانت هذه الحالة إشـارة مفزعة لمن غلبه عطاءُ ربه على مـرضاة ربه، وكذلك الشر إذا أحاط بالنفس وشغلهـا وهمها وكدّرَها فانصرفت إليه انصـرافا قاصر من انصرافهـا إلى ذكر ربها كان ذلك أيضا إشـارة مفزعة إلى أن شيئًـا ما قد قاصـر خطاها فى مرضـاة ربها، المطلوب أن يكون ذكـر الله والانقيـاد لأمره ونهـيه هو الذى فـوق النفس وليس فـوقـه شىء، وكل شىء دونه وهذه هى الطاعة وتمام العبودية لله رب العالمين.

وهذا التوكيد الذى نراه للابتـلاء فى الآيات يبين أن ابتلاء الله لنا بما يبتلينا به عند الله بمكان، وأن علينا أن نسأل أنفسنا دائمـا أين أمر الله ونهيه فى هذه النفوس؟ وفى أى درجة هو؟ وهل نطمـئن إلى أن الله ورسوله أحب إلينا من كل ما سواهما حتى النفس والأهل والولد؟ لأن علو حب الله فى قلوبنا على كل شىء ليس ببعيد عن معنى الابتلاء كما شرحته.

ثم إن الأصل الذى لا يداخله ريب هو أنه سبحانه عليم بنفوسنا ولا حاجة له إلى هذا الابتلاء؛ وهـذا الابتلاء لا يزيده علما جل وتقـدَّس، وإنما يعلمنا سبحانه أنه لا يؤاخذنا بما علمـه عنا، وإنما يؤاخذنا بما يكون منا؛ هو سبحانه يعلم المجاهدين والصابرين منَّا من قـبلِ أن نخلق فى الذرِّ لأن علمه قديم لا أول له ولكنه جلت آلاؤه وعظم عَـدله وبرُّه لا يجازينا إلا بما عـملنا ويبتلينا ليـتمـيز الذين جاهدوا وصابروا والذين ليسوا كذلك.

وكلمة الابتلاء هنا شديدة الصلة بأختها التى مضت فى السورة ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ ولو دققت قليـلا لوجدت أصل التكليف من هذا الباب لأن الله سبحانه كلفنا بما كلفنا به وهو يعلم القاسطين منا والذين تحروا رشدا، ولكنه لا يؤاخـذنا بما علمه منا ولكن بما عملناه، ثم فى هذا إشارة أخرى مرسلة إلينا وهى أنكم لا تحاسبوا الناس بالظنون، ولا بما تتوقعـون، ولكن حاسبوهم على الوقـائع التى على الأرض، هذا فى بيان هذه الآية مع أخواتهـا فى الكتاب العزيز فإذا رجـعنا إليها فى موقـعها من

السورة وجدناها امتدادا للآية قبلها ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ وهى من الآية قبلها من باب ذكر الخاص بعد العام لأن معرفة المجاهدين منا والصابرين جزء من معرفة أعمالنا لأن أعمالنا أوسع وأشمل.

وآية ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ هى بداية حديث الحق إلينا نحن أهل الإيمان وحديث الحق إلينا الذى بدأ بالالتفات امتداد لقوله تعالى ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ لأن نزول السورة التى ذكر فيها القتال أنتج فريقين: فريقا نظروا إليك نظر المغشى عليه من الموت، وقد انتهى الحديث عنهم بقوله تعالى ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ والفريق الآخرهم أهل الحق؛ وآية ولنبلونكم من تمامه، ويلاحظ أن ثمّة ضربا من التشابك يَشُدّ حديث أهل الحق إلى حديث ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ لأن الحديثين من تمام ويقول الذين آمنوا، وهذا التشابك تجده فى شيئين الأول أن الجملة الأم ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ جاءت فاصلة الآية الأخيرة فى ذكر الفريق الأول وكان يمكن أن تكون رأس آية ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ وهذا الربط فى تكوين الآيات لا يجوز إهماله، والربط الثانى هو أن البناء اللغوى لقوله تعالى ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ قريب جدا من البناء اللغوى فى قوله تعالى ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ ولو قلت إن قوله تعالى ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ معطوف على قوله سبحانه ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ﴾ لهذا الشبه اللفظى لم تكن مخطئًا مع ملاحظة أن ثمّة جامعًا بين الجملتين لأن الكلام يؤول إلى أن ولتعرفنهم فى لحن القول، وهذا شأنك معهم «ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين» وهذا شأنكم معنا.

ثم إن ابتلاء الحق وتمحيصه لهذه الجماعة المؤمنة مناسب جدا لنزول السورة المحكمة التى ذكر فيها القتال والتى ميزت الذين فى قلوبهم مرض وأن خلو قلوبكم من المرض ليس هو النهاية وإنما هناك ابتلاء وتمحيص فلا تركنوا إلى سلامة قلوبكم من المرض ويغركم ذلك لأن الخلوص الكاملَ لله رب العالمين

له منازل ومقامات، وعليكم أن تقطعوا هذه المنازل وهذه المقامات، وهذا من سعى الآخرة ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [الإسراء: ١٩] وقد جاء الابتلا لبيان أيكم أحسن عملا ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الكهف: ٧]، وفى قوله سبحانه ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك: ٢] وعن النبى ﷺ أنه تلاها فلما بلغ قوله تعالى ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ قال: أيكم أحسن عملا وأورع عن محارم الله، وأسرع فى طاعة الله والأحسن عقلا هو الأحسن فهما عن الله، وقد جاء الابتلاء لبيان الصبر والتقوى كما فى آل عمران ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٨٦] كما جاء للصبر وحده كما فى قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥] ولم يكن الابتلاء للجهاد والصبر إلا فى هذه الآية ولو وضعت أيكم أحسن عملا بدل المجاهدين والصابرين لاختل البيان لأن المقام مقام سورة محكمة ذكر فيها القتال.

وكلمة حتى فى قوله سبحانه ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ لا تدل على الغاية لأن العلم ليس نهاية الابتلاء وإنما هى بمعنى اللام أى لنعلم المجاهدين منكم والصابرين، أى لنعلم علما يتعلق بالمعلوم.

والعلم فى هاتين الجملتين صالح لأن يكون المراد به المجازاة، والمعنى والله يجازيكم بأعمالكم ويجازيكم بجهادكم وصبركم، ويمكن أن يراد به التحذير لأنك حين تعلم أن الله يعلم عملك فلابد أن تحذر حتى لا يعلم منك قبيحا. ولا كذبا ولا نفاقا، واحرص على أن يعلم منك الطيب الصالح الذى يرضاه.

ومن الذى يجب أن نلتفت إليه فى الآية أن الجملة الأولى قالت ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ والجملة بالثانية قالت ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ﴾،

والمقصود أنه قال فى الأولى «يعلم» من غير أن يبتلى، وقال فى الثانية. إنه يبتلى ليعلم سبحانه، فما وجه ذلك وما وجه تجاورهما؟ والجواب الذى عندى هو أن اقتران هاتين الجملتين يُفيدُ أمرين الأول؛ علمه المحيط بكل عمل عامل منكم. وهذا هو مقتضى الألوهية وهذه هى الآية الأولى؛ والثانى أنه لا يحاسبكم إلا على ما كان منكم، وهذا مقتضى العدل وهذه هى الآية الثانية وقد ذكرت ذلك وإنما أردت هنا أن أشير إلى أن الذى ذكرته من دلالات هذا الاقتران ثم إن هذا الاقتران يفيد أيضًا أن أجل أعمالكم هو الجهاد، والصبر، لأنهما خصًّا بالذكر من الأعمال التى هى أشمل وأوسع، والمجاهدون فى الله يهديهم الله سبله ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] والصابرون يرون الله سبحانه فى معيتهم ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣] والصابرون مبشرون ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ والصابرون يحبهم الله ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦] والصبر فى الجهاد هو أفضل أنواع الصبر، وكذلك الصبر فى مواجهة الباطل والفساد والاستبداد وتخليص الأوطان من العصابات التى تفسد مقدرات الشعوب وتشغلها عن بناء مستقبلها حتى تأخذ أُمَّةُ الشهداء مكانتها.

وقوله سبحانه ﴿وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ من المهم أن نفهم علاقة معنى هذه الجملة بمعنى الجملة قبلها، ولن نفهم ذلك إلا إذا فهمنا معنى ابتلاء الأخبار ما المراد به؟ هل المراد به التمحيص؟ وإذا كان فما قيمة تمحيص أخبارنا؟ واترك الآن مسألة أن الله سبحانه وتعالى عليم بكل شىء لأننا قلنا إن الله جلت حكمته لم يحاسبنا على ما علمه منا وإنما يحاسبنا على ما عملناه. نعم إن كل ما عملناه ونعمله داخل فى علمه، ولكن عدله هو ألا يؤاخذ إلا بما اكتسبنا، وهذا يعنى أن المراد بتمحيص الأخبار المعرفة الدقيقة لأخباركم أى لممارساتكم؛ وما اكتسبتم وما انتويتم ويلاحظ أن كلمة الابتلاء فى الكتاب العزيز كان مفعولها هم الناس مثل ليبتليكم ومن هذا المفعول وقوع الابتلاء على الأنفس ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ [يونس: ٣٠]

وعلى ما فى الصدور ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤] والابتلاء هنا غير التمحيص لأن التمحيص عطف عليه والمراد به الاختبار مثل ولنبلونكم يعنى نختبر المخبوء داخل الصدور ونبتليه بالخير والشر ليتميز طيّبُه من خبيثه، وكذلك تبلى السرائر كما فى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩] أى تختبر لتخرج دفائنها، وهذه من أعظم آيات البلاغة لأن السرائر المطوية البعيدة تبتلى وتخرج دفائنها وأسرارها، ولم يقع الابتلاء على الأخبار إلا فى هذه الآية، وبعبارة أخرى لم يخرج الابتلاء فى صيغ القرآن الكريم عن الإنسان ونفسه وسرائره وصدره إلا فى هذه الآية، وشىء آخر وهو أن كلمة ﴿أَخْبَارَكُمْ﴾ لم تأت فى الكتاب العزيز إلا فى هذه الآية وفى آية أخرى فى سورة التوبة وسياقها قريب من هذه الآية لأنها جاءت فى شأن الذين يستأذنون رسول الله ﷺ وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف، قال تعالى ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٩٤] والمراد بالأخبار هنا هو ما أضمروه مخالفا لما أظهروه، وأن اعتذارهم اعتذار كاذب، وأنهم قعدوا لأنهم كذبوا الله ورسوله.. ثم جاء الخبر مجموعا أيضا ومضافا إلى المفردة الغائبة فى سورة الزلزلة ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ وهذه مواقع كلمة الأخبار فى الكتاب العزيز، وثلاثتها تعنى دقائق الأخبار وخفايا الأسرار وتبقى الجملة التى معنا وفيها شىء ليس فى التوبة ولا فى الزلزلة لأن الذى فى التوبة هو أن الله أنبأنا أخباركم، وأعلمنا دفائن نفوسكم والذى فى الزلزلة هو أن الأرض حدثت أخبار ما فى باطنها لأن الله أوحى لها، أما الذى معنا فليس حديثا ولا أنباء وإنما هو ابتلاء، وهذا هو الذى أغمض المعنى لأن الأنباء بالأخبار ظاهر، وكذلك الحديث عنها أما ابتلاء الأخبار فهو شىء آخر.

هل الأخبار هنا مجاز عن العمل لأنها مسببة عن الأعمال؟ وعبِّر بالمسبب عن السبب كما قالوا (أسْنمة الإبل فى سحابه) يريدون الماء والأسنمة مسببة عن الماء لأنها كانت بالمرعى إلى آخره؟ ويكون المعنى حينئذ أن الله يعلم أعمالكم وأن الله يبتليكم ليعلم المجاهدين الصابرين ويبتلى أعمالكم.

وعلى هذا الوجه تكون جملة ﴿وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ من عطف العام على الخاص لأن المجاهدة والصبر جزء من الأعمال المعبر عنها بالأخبار؟

وهل يمكن أن يكون المراد بالأخبار ما يتناقله الناس عنكم ويرويه بعضهم لبعض، وفى هذه الأخبار المتناقلة عنكم الصحيح والزائف، وأن الله سبحانه وتعالى هو الذى يعلم صحيحها وزائفها، ويكون فى هذا إشارة إلى أن منكم من له حيلة وحيل ليحوط نفسه بهالة من الأخبار، والروايات التى ترفع قدره وهو ليس كذلك، وأن هذا الزيف الذى هو أشبه بأكاذيب الإعلام لا قيمة له، لأن الله سبحانه وتعالى يبتلى هذه الأخبار، ويمحِّصُها ويحاسبكم على صحيحها وليس على زائفها؟ ويكون معنى الجمل الثلاث أن الله سبحانه يعلم أعمالكم التى تعملون، ويبتليكم ليعلم الذين يزاولون أحب الأعمال إليه، وهو الجهاد، والصبر، وهذا من تمام معنى يعلم أعمالكم، ثم تأتى الجملة الثالثة لتفيد أنه يبتلى أقوالكم، بمعنى يعلم حقائقها ودفائنها، وتكون الجملة الثالثة فى بيان علمه بالأقوال وتقابل الجملة الأولى التى هى فى بيان علمه بالأعمال، وإنما عبِّر عن علمه بالأقوال بالابتلاء لأن الأقوال يكثر فيها التلبيس والتدليس، والكذب، فقد يتحدث المجرم بلسان المصلح ويتحدث الخائن بلسان المجاهد، وعالم الأقوال عالم حافل ومتسع جدا وهو أوسع ألف مرة من عالم الأفعال، والألسنة تصنع بطولات كاذبة وتصنع فضائل زائفة، ومروءات لا أصل لها. إلى آخره، ولهذا جاء الابتلاء معها لأنها أشد حاجة إلى الابتلاء من الأعمال ولأن تصفيتها من الأكدار صعب وتنقية الصدق من الكذب ونقض الحق من الباطل كل ذلك صعب جدا، هذا ما عندى، وفى

الجملة شيء آخر بعيد وأرجو أن يستطيعه غيرى. ويبقى أن أقول إنها تتضمن إشارة ظاهرة إلى أن نحرص على أن يكون لنا فى الناس خبر حسن يرضاه الله ويبلوه سبحانه فيجد فى ابتلائه قلوبا لا تعرف وجهًا إلا وجْهه ولا تنظر إلا إليه، وأن الله سبحانه يحب من عباده من يحب عباده، ويسعى هو بذاته جل وعلا فى مصلحة ومرضاة من يسعى فى مصالح عباده ومرضاة عباده، ومن دعاء إبراهيم عليه السلام «**واجعل لى لسان صدق فى الآخرين**»، ورحم الله إبراهيم عليه السلام فقد قال لسان صدق ووراء ذلك رفضه لألسنة الكذب والباطل والتزوير، ومن شأن الصالحين أن يرفضوا ذكرا مصنوعا وإنما يريدون أن تكون أعمالهم وأخبارها المروية هى لسان الصدق الباقى لهم. وليس هذا من باب المباهاة، وإنما لأن الصالحين من عباد الله إذا ذكروا من سبقهم ممن لهم فيهم لسان صدق جدوا جدّهم وشدّوا شدّهم واستَنُّوا بسنتهم وفى هذا من عمل الصالحات ما لا ينقطع به العمل بالموت.

وكان الفُضَيْل إذا قرأ قوله تعالى ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ** ﴾ [محمد: ٣١] بكى وقال اللهم لا تبلنا فإنك إن بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا وعذبْتنا، ونقول اللهم آمين وهذا من لسان الصدق الذى جعله الله لفُضيْل.

قوله سبحانه: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ** ﴾.

هذه الآية بداية نهاية السورة ورد العجز فيها على الصدر ظاهر لأنها أعادت مطلع السورة بلفظه، ووضعت اليد على علاقة المطلع بالمقطع.

وهذا يعنى أن الآية قبلها كانت مؤذنة بنهاية السورة، وأن هذا الإيذان تراه إذا قرأت الآية قراءة أخرى فى ضوء هذه الحقيقة الجديدة وهى الإيذان بالنهاية، وحينئذ سترى هذا الإيذان فى الدلالة المفتوحة فى الجمل الثلاث

الأولى ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ ودلالتها المفتوحة هى أن هذه حقيقة ولكل واحد منكم أن يختار عمله فى ضوء هذه الحقيقة، وهى أنه سيضع عمله تحت سمع الله وبصره، والجملة الثانية ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ وهى مفتوحة الدلالة لأنها حقيقة باقية وعلى كل واحد فيكم أن يراجع حقيقة إيمانه ليعلم أين يقع به إيمانه من هذه الحقيقة؟ هل هو من هذه الطبقة التى خصها ربنا بالذكر وهم أهل الجهاد، وأهل الصبر؟ ثم تأتى الآية الثالثة ﴿وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ وتقول أيضا إن ألسنة الناس منها ما يقع على أعمالكم الصالحة ويرويها، ومنها ما يقع على أعمالكم القبيحة ويرويها، ومنها ما يروى من غير أن يقع على شىء، والحق جل وتقدّس يبتلى كل هذه الأخبار، ويميّز صحيحها من زائفها، وأنتم تحت هذه المظلّة فلينظر كل منكم أنى يحب أن يضع نفسه؟ أقول هذه معان نفثتها هذه الآية الأخيرة فى هذه الجمل الثلاث لما بدأت لاتلتفت إليها وإنما تلتفت إلى مطلع السورة، وقد بنى الكلام فى الآية على الاستئناف، والآية جملة واحدة وحذوها حذو آية المطلع، وكلماتها أكثرها من كلمات آية المطلع، وقد أضافت معانى فى جملة المبتدأ المكون من الاسم الموصول وصلته، وقابلها إضافة معانى لجملة الخبر والكلامان متقاربان جدا.

ثم إنك لو نظرت إلى علاقتها بالجملة قبلها لوجدت رباطا قويا جدا لولا التشابه فى الحذو والكلمات مع جملة المطلع لكانت أشبه ما تكون بالكلام قبلها لأنها من تمامه، وبيان ذلك أن الآية قبلها مؤسسة على معنى أن الله يعلم أعمالكم، ومن تمام هذا المعنى أن تقول ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ [محمد: ٣٢] لأن أعمالكم التى يعلمها والتى يحاسبكم عليها لا تنفعه ولا تضره، وأنه سبحانه يثيب على أعمال البر لأن البر فيكم رحمة بكم ويعاقب على الجور والفجور لأن الجور والفجور فيكم ظلم شديد لكم.

هذا وجه من وجوه ربطهـا بالآية قبلها، ووجه آخر وهـو أن الآية قبلها خطاب من الله للذين آمنوا فيه من التحذير مـا فيه، وأنه بيان من الله لنا وأننا بظاهرنا وباطننا وأفعالنا وأقوالنا تحت سـمع الله وبصره، ثم تأتى هذه الآية لتحدثنا عن الفريق المقـابل وشأن الله معـهم، والمعنى إذا كان الله سـبحانه يعلم أعـمالكم ويبلو أخباركم فإن هؤلاء المحادين والمشاقين لن يضروه وسيحبط أعمالهم.

ومواقع الاستئناف مـواقع لفت، وتنبيه، وإيقاظ كمواقـع الالتفات ومواقع التوكيد، ومواقع التكرار، وهذه الآية فيها استـئناف وفيها توكيد وفيها تكرار، ثم هى مَفْـصِل من مفاصل السـورة. وبداية مقطعـها كمـا قلت، وهى أيضا انتقال مـن معنى قد انتهى، وهو المعنى الذى بدأ بقـوله تعالى ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ [محمـد: ٢٠] وهم المؤمنون ظاهرا وباطنا والمؤمنون ظاهرا، فـقط، الذين فى قلوبهم مـرض، والكلام انتـقل هنا إلى المجـاهدين بالكفر والصّدِّ، والمشـاقة، وهذا هو الصّنْف المقابل، وهذا يجعلـنا نعيد النظر فى آخـر آية فى شأن الذين قـالوا لولا نزلت سورة، وأنهـا ركزت واهتـمت وأكّدت أنكم تحت سمع الله وبصره، واحذروا من داء الذين مرضت قلوبهم، والذين خالطوكم، واعلمـوا أن الله يعلم أعمالكم ويبـتليكم ليصطفى منكم، أهل الجهـاد والصبـر، كما أنّه يعلـم أخباركم وأقـوالكم كل هذا فى خطاب المؤمنين فى سـياق الذيـن فى قلوبهم مرض، وإنمـا أثاره الانتقـال إلى الذين كفروا ظاهرا وباطنا، وقد نجد آية بعيدة عن آية وتثير فيها معنى لولا هذه الآية الأخيرة لما أُثير هذا المعنى فى الآية الأسبق.

وقد ذكر الكفـر ومعه الصّد كثيـرا فى آيات الكتاب، كما جاءت مـشاقة الله ورسوله فى آيات قـريبة جدا من هذه الآية، ولم تجتـمع هذه الثلاثة التى هى الكفر والصد ومشاقـة الرسول، إلا فى هذه الآية، ولذلك كانت من أشد الآيات وأدلها على الـغضب. وزاد ذلك وأوقد الغـضب فيه أنهـم فعلوا هذه المنكرات بعد ما تبين لهم الهدى.

وكلمة شاقوا الرسول من كلمات الكتاب العزيز الواقعة موقعا متمكنا جدا لأن معناها متسع. وشاقوه عليه السلام أدخلوا عليه المشقة، ونازعوه، وحاربوه، وكذبوه، ورفضوا برهانه الأنور، ونازعوا أصحابه الذين رأوا الهدى فاهتدوا، ولم يقفوا عند كفرهم بالهدى، الذى تبين وإنما ناصبوه صلوات الله وسلامه عليه وناصبوا من آمن به.

وقد جاءت المشاقة فى الكتاب العزيز فى صور منها شاقوا الله ورسوله، ومنها شاقوا الله، ومنها شاقوا الرسول.

وقد قالوا إن لفظ الجلالة يذكر فى هذا المقام لبيان أن مشاقة رسوله ﷺ عنده بمكان وأن من شاق رسوله فقد شاقه، لأنهم فى الواقع كانوا يشاقون رسول الله ﷺ، لأن المنازعة والمشاقة والمحاربة والمحادة كل ذلك كان بينهم وبين أهل الإيمان وأنهم كانوا يردون النبوة، ويقولون لو شاء الله لأنزل ملائكة، وقلة قليلة منهم كانت ترد الألوهية، ويقولون ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وقد وصف بنو قريظة وبنو النضير فى سورة الحشر بأنهم شاقوا الله ورسوله، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٤].

وهذا التشابه أغرى بعض المفسرين بالقول بأن الآية التى معنا تعنى بنى قريظة، وبنى النضير، ويلاحظ أن آية الحشر لم يذكر فيها الكفر والصَّد، مع المشاقة، وإنما ذكرت المشاقة وحدها، وهى متضمنة للكفر، والصَّد، وإنما ذكر الثلاثة هنا تصريحا لأننا أولا فى سورة القتال، وثانيا لزيادة التشنيع والتشهير بهذا الفريق المحارب لأهل الإيمان.

وفى سورة الأنفال آية شبيهة بآية الحشر. وقد نزلت فى بدر ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ

فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ١١، ١٢].

والشبه بين الآيتين شبه ظاهر والفرق بينهما أيضا فرق ظاهر لأن آية الحشر تحدثنا عن أن الله سبحانه وتعالى أخرجهم من ديارهم من بعد ما ظَنُّوا أنهم مانعتهم حصونُهم؛ وأن الله سبحانه قذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم. ثم ذكر سبحانه علة ذلك ﴿بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وهذا مقام غير مقام الأنفال وهذا الحدث الغريب العجيب الذى لم يكن مع أهل الكتاب وهو نزول الملائكة فى أرض المعركة والله سبحانه وتعالى يوحى لهم ويدلهم على ما يعملون وهم ينفذون أمره ووحيه، وهناك حقيقة تكررت فى الموقفين وهى فى الأنفال ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [الأنفال: ١٢] وفى الحشر ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ [الحشر: ٢]، وهذا مما ينصر الله به عباده الصالحين، والفرق الذى نغمض بيانه هو أن الله سبحانه قال فى الحشر ﴿وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾وقال فى الأنفال ﴿وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ١٣] لماذا زاد فى الأنفال ذكر رسوله ﷺ؟ هل لخطاب الملائكة مدخل فى زيادة لفظ رسوله فى الأنفال؟ وأنه سبحانه يعلمهم أن رسوله منه بمكان، وأنهم هم من عقاب الله الذى ينزله بأعدائه، وأعداء رسوله؟ وأنه ليس هناك من يوصف بشديد العقاب إلا هو سبحانه، وأن عقابه الشديد ليس لمن يشاقه وحده، وإنما أيضا لمن يشاق رسوله لأن من عصى رسوله فقد عصاه ومن عاند رسوله فقد عانده؟

واكتفت الحشر بذكر مشاقة الله لأن اليهود أهل كتاب يعلمون أن الله سبحانه لا ينازعه أحد ولا يشاقه أحد، وأن من فعل ذلك فقد ارتكب خرقا

وسلك سفهًا وجَهْلا، فأشار ذكـر لفظ الجلالة وحده إلى أن من شاق رسوله فقد شاقه وعمد إليه سبحانه وحده بهذه المشاقة وهذا له ما له في نفوس اليهود.

وقوله سبـحانه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ قيد أشـاع معنى الغضب والتجهيل، والاستخفاف بهؤلاء الذين جمعت لهم الآية أسوأ ما يجتمع لناس وهو الكفر والصد والمشاقة وقـد ذكرت هذه الجملة في خبر الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد مـا تبين لهم الهدى، وأن الشيطـان سوّل لهم، وأملى لهم، والتكرار يعنى مزيد الحفاوة بالمعنى الذى يتكرر، وهذا واضح لأن هذه الجملة تكاد تكون لب الغـضب الذى فى الآية، وهى وإن كانت بعـد ثلاث سوءات هن أم السوءات إلا أنهـا زادت الأسوأ سـوءا؛ لأن هذا كله كان بعـد ما تبين لهم الهـدى، وكأنهم قبل أن يتـبين لهم الهدى لم يـحتشـدوا هذا الاحتـشاد لمشاقة رسول الله ﷺ، الجملة الشريفة التى تكررت تشير إلى أنهم عمدوا إلى الأسوأ بعـد ما ظهر لهم الحق، وكان ظـهور الحق يقتضى الانقـياد والإيمان، والانخراط فى أهل الحق، ولكنهم سلكوا الطريق المضاد للفطرة، ويلاحظ أن كلمة ﴿تَبَيَّنَ﴾ . تعنى الظهور الذى لا يلتبس، والمعرفة التى لا يحوم حولها شك، ثم إن تقديم الجار والمجرور ووقـوعه معترضا بين الفـعل والفاعل يشير إلى مـزيد من العناية بهم، وبيان حـالهم، ثم إن كلمـة الهدى تعنى المصـدر وكأن ذات الهدى هو الذى تبيَّن لهم، وليست علامة من علاماته.

وقوله سبـحانه ﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾خبر إن، وهو مغـاير للخبـر الذى فى الآية السابقـة؛ لأن الذى هناك ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥] وبمراجعة الخبرين يلاحظ أن خبر الآية السابقة ذكر علة الارتداد بعد ما تبين لهم الهدى، وهنا ذكر نتيـجة المشاقة بعد ما تبين لهم الهـدى، وهذه خطوة متـقـدمة عن الخطوة الأولـى، وكأن الحـدث يتحـرك ويتمدّد، وقد ذكرت هناك أن الارتداد ليس معناه الردَّة بعد الدخول فى الدين والذى هنا يقـوى هذا الاسـتنتـاج لأن الذى هنا قـاطع بأنهـم لم يدخلوا فى

الدين؛ وأن تبيّن الهدى فى الآيتين لم ينتج عنه اتباع للهدى، والأولون تآمروا مع الذين كرهوا ما أنزل الله، وقالوا لهم سنطيعكم فى بعض الأمر، واتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه والآخرون كفروا وصدوا وشاقوا الرسول.

وقوله سبحانه ﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ يلاحظ فى الآية أنهم شاقوا الرسول، ولم يذكر لفظ الجلالة فى مشاقتهم كما فى الأنفال ﴿شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وكما فى الحشر وقد جاءت بلفظ الأنفال ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وقد نبَّهْتُ إلى أن لفظ الجلالة يُؤتى به هنا للدلالة على أن مشاقة الرسول عند الله بمكان، ولما لم يذكر لفظ الجلالة الدال على هذا المعنى الذى فيه إكرام لرسول الله ﷺ، جاء الخبر بقوله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ والمراد كما قال العلماء لن يضروا رسول الله شيئًا. نفت الآية الضرر عن رسول الله بنفى الضرر عن الله، وذكر البيضاوى أن هذا أحد وجهين؛ والوجه الأول هو أنهم لن يضروا الله شيئًا بكفرهم، وهذا الوجه هو ظاهر لفظ الآية وإن كانت مشاقتهم لرسول الله ﷺ ترجح الرأى الأول، ويكون الكلام على حذف المضاف، قال البيضاوى «لن يضروا الله بكفرهم وصدّهم أو لن يضروا رسول الله بمشاقته وحذف المضاف لتعظيمه وتفظيع مشاقته» وعقب الشهاب الخفاجى فى حاشيته على البيضاوى بقوله «وحذف المضاف وهو رسوله لتعظيمه بجعل مضرته وما يَلْحَقُهُ كالمنسوب لله فيدل على التعظيم باتحاد الجهة؛ وكذلك للتفظيع أى عده فظيعا عظيما مهولا حيث نسب إلى الله ظاهرا ومعنى اتحاد الجهة، أن المَضَرَّة إلى رسول الله نسبتُ إلى الله».

وقوله سبحانه ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾ ليس المعنى أنه سبحانه سيحبط أعمالهم فى المستقبل لأن الله سبحانه يحبط أعمالهم فى الأوقات كلها، ولهذا قال الشهاب إن هذه السين زائدة لتأكيد المعنى، ومن معنى الآية أنه سبحانه يحبط أعمالهم يوم القيامة والمراد أعمال البر التى كانت تكون منهم

مثل إغـاثة الملهوف، وحمل الكلّ، وصلة الرحم، وكثـرة الجود فى زمن الجَدْب، ورعاية ذات الهِـدْم العارى نواشرها، وكانت لهم فضـائل عظيمة فى الجاهلية، ومن أسلم أسلم على ما سلف منه من مـعروف كما قال ﷺ لحكيم بن حزام، أقول إن الجملة الشريفة صالحة لأن تدل على هذا المعنى، وأن يكون جزءا من دلالتها، وليس كل دلالتـها، وتكون هذه السين تشبه السين التى فى قول سـيدنا إبراهيم عليـه السلام، ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخـرف: ٢٦، ٢٧]، وقد سـبق القول بأن إحباط العمل فيـه غضب أشد من إضلاله، لأن الإضلال يَعْنى بقاء العـمل، وإنما ضل طريقـه إلى صاحبـه أو ضَلَّ صاحـبه طريقـه إليه بخلاف الإحباط فإنه يعنى الهـلاك (إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا) وقد ذكرت ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا﴾ جـاء معهـــم الإضلال فى أول آية فى السورة ولما زادت الآية مـشاقة رسول الله ﷺ جاء الإحـباط، وهذا ظاهر والذى أريده هو محـاولة تحديد العـلاقة بين الجملتين الـواقعتين فى الخبر ﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾ وقبل أن أحـاول بيان أو تبين العلاقة أشير إلى أن توارد جـملتين فى الخبر شائع فى السورة ويوشك أن يكون من سمتها راجع هذه الأخبار: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾. ﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾. ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾. ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾. ﴿طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾. ﴿أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾. ﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾.

﴿سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾. ﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾.

هذا وإذا قلنا إنهم لن يضروا الله شيئًا بكفرهم وسيحبط أعمالهم ومكايدهم التى يكيدون بها للإسلام ورسوله، يكون المعنى ظاهرا وتكون الجملة الأولى إشارة إلى أن وبال كفرهم راجع إليهم ولن يضروا دين الله وأن الله سبحانه الذى لا يصل إليه شىء من أذاهم جل وتقدّس هو الذى يدمر كل محاولاتهم فى مشاقة الرسول وفى الكفر والصد.

وإذا قلنا بحذف المضاف وأن المقصود بقوله جل شأنه لن يضروا الله لن يضروا رسول الله يكون المقصود بقوله سبحانه بعدها وسيحبط كل أعمالهم ومكايدهم فى الدنيا وأعمال البر التى يرجون بها المثوبة أو يتوهمون فيها المثوبة يوم القيامة، وجملة ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾ تغنى عن المعنى الظاهر فى قوله ﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ لأن القادر على أن يحبط أعمالهم لا يضره شىء من هذه الأعمال، هذا والله أعلم، وكان المعطوف يؤكد المعطوف عليه مع التغاير الذى هو من لوازم قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾.

جاءت آية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بين آيتين فى شأن ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وكأنها اعترضت بينهما لمزيد بيان أحوال الصادين عن سبيل الله والمشاقين لرسول الله أو الصادقين والذين ماتوا وهم كفار، والآية وإن بَدَتْ كأنها معترضة هى فى الحقيقة جزء من معنى ما قبلها ووطاء لما بعدها لأن من تمام بيان أحوال الذين كفروا وصدوا وشاقوا الرسول أن يوضع بإزائهم وفى مقابلتهم الذين أطاعوا الله وأطاعوا الرسول وجعلوا أعمالهم فى هذه الطاعة التى تنافى الصد والمشاقة، ثم هى مع كونها من تمام معنى ما قبلها، توطئ لذكر هذا الفريق حين يحكم إغلاق باب الرحمة ويضيِّع كل أمل فى الرجعة ويموت وهو كافر، وهكذا نرى الصادقين المخلصين الطائعين وكأنهم

إضاءة مشرقة بين ظلمتين ظالمتين وكـأنك حين تنتقل من الذين كفروا وصدوا وشاقوا إلى الذين آمنوا وأطاعوا وأتقنوا الأعمـال الصالحات تنتقل من الأسوأ الأسود إلـى الأفضل الأنور، ثم مـا تلبث أن تنتقل من الأفـضل الأنور إلى الأسوأ الأسود، وهكذا ترى الآيات تعرض عليك المعنى من جهتيه المختلفتين المتـباعدتـين، تريك الأسوأ ثم الأحـسن، ثم الأسوأ فى تتـابع، وعليك أن تختـار، فإذا اختـرت الأحسن الأنور وجدت يد اللـه عندك تهديك إلى دار السلام، وإن اختـرت الأسوأ الأسود بقيت فى الظلمـه نعمه. وهذا أسلوب عال فى الدعوة، وليس فى القرآن إلا البلاغ، هذا شىء وشىء آخر وهو أننا قلنا إن الآية الأولى راجـعـة إلى مطلع السـورة وأنهـا من رد العـجـز على الصدر، وكـذلك آية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ راجـعة إلى الآية الـثانيـة وهى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ وراجع الآيتين لترى ما بـينهما ولاحظ أن قوله تعالى هنا ﴿وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ هو من تمام عمل الصـالحات هناك، وقوله سبـحانه هنا ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ هو من قوله ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ ثم إن قوله هنا ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ بعد قوله ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ هو من قوله هناك ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ بعد قوله ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وتأمل كيف يكون رجوع آية إلى آية ليس فى المعنى فقط وإنما فى المبنى أيضا وإن دق هذا وخفى.

قلت إن الكتاب العزيز يسلك بنا أيسر سـبيل وأخصره للفهم والإقناع وأنه يمسك بالصـورة ذات الوجهين المتبـاعدين جـدا ويُديرها لنا فيريـنا مَرَّةً الذين كفروا وصـدوا وشاقـوا الـرسـول وهو الأبْشع والأشنع لأنهم فعلوا ذلك بعد ما تبين لهم الهدى، ثم يديرها لنا مَرَّة ثانيـة فيرينا صورة الذين آمنوا وأطاعوا

وأحسنوا عمل الصالحات، وهم الذين اهتدوا وزادهم الله هدى، وهكذا، وأول ما يلاحظ فى بناء هذه الآية هو أن الحق جل وتقدس تحدث عن الذين كفروا فى الآية السابقة وسيتحدث عنهم فى الآية اللاحقة؛ بطريق الغيبة الذى فيه إبعادهم عن مقام الخطاب العالى الذى يخص الله به عباده الصالحين فى هذه الآية، وهذا الالتفات يعنى معنى اللفت والعناية والتهيئة ومجيئه بين طريق الغيبة قبله وبعده كأنه إظهار وتجلية وإبراز للمقصود به، وهو تقريب هؤلاء وتكريمهم ورفعهم إلى مقام خطاب الحق جل وتقدس، وهناك خطابان فى الكتاب العزيز خطاب المخلوق للخالق، كالذى تراه فى قوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] وفيه شوق من العبد للارتقاء إلى خطاب ربه، وشوق إلى الاقتراب، والوجود فى مقام القرب، وخطاب الخالق لعبده كالذى تراه هنا حيث ترى أن مالك السموات والأرض والذى له الكبرياء فيهما وله الحمد فيهما وله الملك فيهما، هو الذى يقترب من عباده الصالحين، فإذا أضَفْتَ إلى هذا نداءهم بهذه الصيغة التى ينادى الله بها خلقه، والمكونة من حرف النداء الذى للبعيد والله سبحانه وتعالى قريب من كل منادى، ثم هى مكونة أيضا من كلمة (أى) التى هى وصلة لنداء ما فيه الألف واللام، والتى يتغشاها الإبهام حتى يزيله المُحَلَّى بأل فيتحقق بذلك معنى الإشارة التى تكون بالبيان بعد الإبهام، ثم يضاف إلى ذلك حرف (ها) الذى لا معنى له إلا التنبيه، وناهيك به فى هذا المقام، أقول إذا حلَّلْتَ إقبال الحق على عباده الصالحين ونداءه لهم بهذا النداء الذى قال عنه علماؤنا إنه جرى فى الكتاب العزيز لأن الله سبحانه إنما ينادى عباده لأمر له خطر وله بال.

ثم إنه سبحانه ناداهم بأحب أوصافهم إليهم فليس أحب إلى المؤمن من أن يكون مؤمنا حقا، وأن يكون إيمانه على الوجه الذى يرضاه ربه، فإذا نودى من ربه بهذا الوصف دل هذا النداء على أن الله قبل منه إيمانه، والمؤمن ليس له مطمع فوق هذا، ولو وضعت فى يمينه خزائن الأرض فلن يكون أسْعد حالا من حاله حين يستشعر أنه عند الله من الذين آمنوا، وأن يكون الحق قد

ناداه بهذا الوصف، ثم إن مجيء هذا الوصف صلة للموصول يشير إلى أنهم عرفوا بذلك وشهروا به، وهم الذين تَبَيَّن لهم الهدى كما تبين لغيرهم ولكنهم لم يرتدوا على أدبارهم، وإنما استمسكوا بالهدى الذى تبين لهم، ولا بأس أن تقول إن كلمة آمنوا هنا فيها تعريض خفى لما فى الآية قبلها وهم الذين كفروا، وصدوا وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى، ولا بأس أيضا من أن تقول إن وصية الله لهم بطاعته فيها إشارة خفية إلى الذين كفروا، وأن وصية الله لهم بطاعة رسوله فيه إشارة إلى قُبْح المشاقة لرسوله، وأن وصية الله لهم بألا يبطلوا أعمالهم فيه إشارة إلى قوله سبحانه ﴿سَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾ ولو رأيت فى شىء من ذلك تكلفا فادع الله أن يغفر لنا، لأننا لا نرى فيه تكلفا، وإنما نرى التكلف فى عدم التنبيه إليه، ثم إن هذا النداء المحبَّب الذى فيه تكريم، وقرب، بذكر أحب ما نحب أن يصفنا ربنا به أعقبه أمر بطاعته وطاعة رسوله، ويجب أن تذكر أن توطئة الأمر بذكر النداء قبله، من أهم مظاهر العناية بالمأمور به، وأن تذكر أيضا قول الكملة رضوان الله عليهم إن الله لم يناد عباده بصيغة يا أيها إلا لأمور عظام، وهذه الأمور العظام هنا هى هذا المعنى الشامل للدين كله وهو طاعة الله وطاعة رسوله، والفرق بين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] ونظائرها مما نادانا الله فيه وحَثّنا على فروع الدين فرق شاسع جدا لأن الآية التى معنا لم تترك أمرا ولا نهيا ولا فرضا ولا سنة ولا نفلا ولا مندوبا إلا حَثَّنا عليه، هذا شىء. والشىء الآخر، هو أن أهل العلم قالوا إن الأمر بالطاعة يحتمل وجوها فقد يكون أمرا بالعمل بعد الإيمان، والطاعة إنفاذ ما أُمِرُوا بفعله، والكف عما أُمروا بتركه، وقد يكون الأمر بالطاعة أمرا بالاستمرار مثل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ويكون فى هذا إشارة واضحة إلى ثوابين ثواب الطاعة، وثواب الاستمرار على

الطاعة، لأنك لا تجيب أمرا من أمـر الله إلا أثابك عليه، وشىء آخر فى الأمر بالطاعة هو مقترن بما قيل فى انتـقال الكلام إلى طريق الخطاب الذى فيه التفات إلى هذه الجماعة الصـالحة، والذى فيه إكرام لها بندائهـا بأحب أوصافها وذلك لأن أمر ربنا لـنا بطاعته وراءه حب آخـر وعطاء آخر هو أن هذه الطاعـة تورثنا جنته التى لا تعلم نفس ما أخفاه الله لنا فيها من قرة عين والتى لنا فيها رضوانه الذى هو أكبر، والتى لنا فيها إكرامه لنا بتـجلياته ورؤيته رؤية لانُضَامُ فيها كما لا نُضَامُ فى رؤية البدر، وإذا نظرت إلى الأمـر بالطاعة من هذه الزاوية لا تراها تكليفا ومـشقَّة لأن الله سبحانه ما جـعل علينا فى الدين من حرج، ثم هو جل شأنه يريد بكم اليـسر ولا يريد بكم العسـر، وإنمـا تـرى الأمـر بالطاعـة دعـوة مـن الله إلى الجنـة التى لكم فيها ما تشتهون ولكـم فيها ما تدعون، ولكم فيها ما لا عين رأيت ولا أذن سـمعت ولا تعلم نفس مـا أخفى لكم فـيهـا من قرة عين، وإذا كان الأمر بالطاعة يفضى إلى هذا فهو أمر صادر عن حُبٍّ ليس فوقه حبٌّ وصادر عن عطاء ليس فوقه عطاء وعن إكرام ليس فوقه إكرام.

لاشك أن طاعة الله تعنى طاعة رسول الـله لأنه صلوات الله وسلامه عليه مبلـغ عن ربه، وقد بلغنا بوجـوب طاعتنا لربنا، وحين نـنقاد لهذا نـكون قد أطعناه فيما بلَّغ؛ وقد أمرنا ربنا بالصلاة والصيام والحج والبر والصدق فوجب علينا إنفاذ أمـره، ومن هذه الأوامر الأمـر بطاعته سـبحانه فـوجب إنفاذ هذا الأمر، ولم يبق علينا شىء بعـد طاعة الله، والسؤال مرة ثانيـة لماذا أمرنا ربنا بطاعة رسوله؟ والشـرع شرع الله والأمر أمره سبحـانه، والأمر بالطاعة يعنى الامتثال والانقياد بمجرد سماع الأمر من غير حذلقة ولا سؤال لماذا؟ وليس إلا ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥] وليـس سمعنا واقتنعنا ولا سمعنا وتدبّرنا ليس بين السماع والطاعة واسطة أى واسطة.

والخلاصة هى ما الحكمة فى الأمر بطاعة الرسول؟

وقبل أن أجيب عن هذا أقول جاء فى الكتاب العزيز ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا

الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا﴾ [المائدة: ٩٢]، ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ [النور: ٥٤]، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ [التغابن: ١٣]، هذه أوامر بطاعة الله ورسوله مع تكرار كلمة أطيعوا، وجاء فى الكتاب أمر بطاعة الله ورسوله من غير تكرار كلمة أطيعوا. وهذه آياتها ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢]، وفى آل عمران أيضا ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢]، وفى الأنفال ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١] وفيها أيضا ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠]، وفيها ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وفى المجادلة ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المجادلة: ١٣].

هذه هى الآيات التى أَمَرَتْنَا بطاعة الله وطاعة رسوله تكرر فعل الطاعة مع الرسول فى خمس آيات منها الآية التى معنا ولم يتكرر فعل الطاعة مع الرسول فى ست آيات، وجاء الأمر بطاعة الرسول من غير ذكر لفظ الجلالة فى آية واحدة هى قوله تعالى فى سورة النور: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦]، وليس فى القرآن أطيعوا الله من غير ذكر الرسول فلم يأمرنا سبحانه بطاعته إلا أمرا مقترنا برسوله الكريم، وهذا عجيب ويبين منزلته ﷺ عند ربه، أما لماذا أمر بطاعة الرسول وحده؟ ولماذا كرر الطاعة فى المواضع التى كررها فيها؟ ولماذا لم يكررها فى المواضع التى لم يكررها فيها؟ فهذا باب لا أستطيع أن أتكلم فيه إلا بعد تحليل السور التى ورد فيها الأمر بالطاعة مع التكرار وعدمه وهى آل عمران والنساء والمائدة والأنفال والنور والتغابن والمجادلة، وهذا يحتاج إلى مراجعات كثيرة

وخصوصا السور الطوال لأن الكشف عن الأسرار لا يتأتى إلا بالرؤية الواضحة لكل ما فى السورة؛ ولست من الذين يتكلمون فى مثل هذا الشأن إلا بعد المحاولة الطويلة لوضع اليد على السر، وكلام المفسرين مع بالغ تقديره غير كلام الدارسين، وفرق كبير بين تفسير سورة القتال ودراسة سورة القتال، وقد استطاع المفسرون أن يفسروا القرآن كله ولم أعرف دارسا درس القرآن كله، فرق بين أن تقرأ سورة البقرة فى أى كتاب من كتب التفسير وأن تقرأها فى النبأ العظيم للمرحوم عبد الله دراز.

وأعود إلى محاولة بيان وجه تكرار كلمة الطاعة مع رسول الله ﷺ فى السورة التى معنا، وأول ما يبدو لى أن هذا التكرار لمزيد عناية بطاعة رسول الله ﷺ. ودعا إلى مزيد هذه العناية ما جاء فى الآية قبلها من قوله تعالى ﴿وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ فاقتضى المقام لَفْتًا إلى مقام الرسول الذى شاقوه؛ فلم يقل جل شأنه ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ وإنما قال أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، هذا وجه، ووجه آخر هو أن السورة تسمى سورة محمد وهذا مقام مزيد إكرامه، ثم هى فى مقطع السورة ترجع إلى قوله تعالى فى المطلع﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ مع أن هذا مفهوم من قوله سبحانه ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ لأن إيمانهم الذى ذكر أولا يعنى الإيمان بما نُزّل على محمد، وكان هذا الحديث عنهم والذى فيه تأكيد وتكرير إيمانهم بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم تهيئة لملاقاة الذين كفروا فى الحرب وضرب الرقاب؛ وهو صلوات الله وسلامه عليه قائد هذه الجماعة فى هذا اللقاء، فاقتضى هذا أيضا النص على ذكر الطاعة، فضلا عن أن السورة سورة القتال وطاعة القيادة فى القتال أمر واجب.

ذكرت أن الله أمرنا بطاعة رسوله ﷺ فى اثنى عشر موضعا من كتابه، ووجه ذلك تأكيد أن قوله عليه السلام وفعله وتقريره أصل من أصول الدين، وأن السنة المطهرة مصدر من مصادر التشريع، وأن بيانه ﷺ للناس ما نزل

إليهم لا يَعْنى فقط الشرح والتفسير، وإنما يعنى وهو الأهم تفصيل ما أجمل، ويعنى أيضـا تشريعـات استَقَلَّتْ بهـا السنة؛ وقد أمـرنا ربنا بالصـلاة والزكاة والحج وهذه من أركان الدين، ولم يحدد الكتاب الفرائض المكتوبة فى الصلاة ولا عدد ركعـات كل فريضة ولا أركانها ولا هيـأتها، وإنما كان كل ذلك من السنة، وكذلك الزكاة التى هى أخت الصلاة وقَرينَتَـها؛ وقد جعلها الله قرينة الصلاة للإشارة إلى اقتران حقوق الفقراء الذين هم مصارف الزكاة بحق الله، لأن الصلاة حق خالص لله، والزكـاة حق خالص يؤخذ من أغنائنا ويُرَدّ إلى فقرائنا؛ فجعل سبحانه هذين الحقين مقترنين، وكما أن الصلاة هى الفرق بين المؤمن والكافر فإن الزكاة تأتى وراء ذلك فى مراتب الدين العظيم دين التكافل والتراحم، والمهم أن الله سبحـانه أمرنا بالزكاة ولم يبيّن لنا الأنواع التى تجب فـيها الزكـاة، ولا مقـادير الزكاة وإنما بَـيَّنتْ السنة ذلك، وكان المأخـوذ عن رسـول الله ﷺ فى هذين الركـنين الجليلين أكـثـر من المأخـوذ عن الكتـاب العزيز، وهذا من وجوه الأمر بطاعته صلوات الله وسلامه عليه.

وجاء فى السنة تحريم الجـمع بين المرأة وعمتها، والمرأة وخـالتها، والذى فى الكتاب تحـريم الجمع بين الأختين، ومثل هذا كـثير كمنع ميـراث القاتل، وأن اختلاف الدين كذلك يمنع التوارث، ولولا أمر ربنا لنا بطاعة رسوله ﷺ لذهب شطر الدين، وإنما كـان للسُّنة فى دين الـله هذا المدخل العظيم وكـان يمكن أن تنزل آيات فى الدين كله لأن الحق جل وتقـدّس يكرم بذلك صفـوته من خلقه وجعل الشهادة بالوحدانية لله رب العالمين مقترنة بالشهادة بنبوته ﷺ.

وهناك شىء آخر لولا أننى أقتـصد جدا فى استعمال كلمـة الإعجاز لقلت إنه من الإعجاز، وهو ما نجم فى زماننا هذا وهو زمن عجيب ترى فريقا يقول إن السـنة غير ملزمة لنـا؛ لأنها قراءة رسول الله للكتاب؛ يعنى فهمه للكتاب وما يسـتخرجه منه، وهو عليـه السلام يقرأ الكتـاب فى ضوء عصره وثقـافة عصره وأحوال عصره، وكل هذا له الأثر الواضح فى فهمه للكتاب واستنباطه منه، ونحن نقرأ الكتاب فى ضوء علومنا وثقافتنا وأحوالنا فنفهم الكتاب فهما

آخر، وهكذا كل زمان يُقْرأُ فيــه الكتاب بأدوات هذا الزمان وعلوم هذا الزمان فتتـباين القراءات ويختلف المفـهوم، وكتب هالك فى زماننا أنه يسـتخرج من الكتاب إسـلاما آخر غير الإسـلام السياسى وغيـر إسلام الإرهاب والتطرف، والخلاصة أنه ليس هناك ثبات لدلالة الكتاب العزيز، وإذا كان الفقه الذى بيننا كفقه مالك والشافعى هو ثمرة قـراءة فقهاء العصور الأولى فالواجب أن يكون لنا فقه هو ثمـرة قراءتنا نحن، ونحن أقدر على كشف حـقائق الكتاب، لأن وسائلنا العلمية تطورت وأصْبحتْ الألسنيات الحديثة قادرة على أن تضىء من جوانب المعنى ما كان مبهما على من سبقنا.

هذا جـانب يدحضـه أمر ربنا لنا بطاعـة رسوله، وهذا الكلام الفـاشل له رواج لأن التعليم لم يُربِّ عقولا قادرة على نفى الزيف، ولأن الأنظمة فى يد من لا علم عندهم لا بعلوم الديـن، ولا بعلوم الدنيا، ولا بعلوم السـياسـة؛ وإنما هم أقرب إلى العصابات منهم إلى الحكام، وهذا ما تكشفه الأيام، وكل هذا روّج لهـذا الكلام الفـارغ وسُـمّى على وسـائل الإعـلام التى هى ملك للشعوب المسلمة تنويرا وتحديثا للخطاب الدينى إلى آخره، وخطره على الجيل الجديد الذى يستقبل الحياة وهو صـفحة بيضاء خطر عظيم، والأمر الآخر أنه نجم فينا أيضا من لا يقول هذا القول؛ وإنما يقول قولا آخر وهو أننا قرآنيون، ونعبـد ربنا بالذى أنزل علينا، والأحاديث التى تمثل السـنة المتواتر فيـها قليل، والخلاف فيهـا أكثر من الاتفاق، والحكمة أن نُغْلق بابها وحـسبنا كتاب ربنا، وهذا أيضا يدحضه أمر ربنا لنا بطـاعة رسوله لأن السنة إذا لم يكن لها وجود كان هذا الأمر أمـرا فى فراغ جل الله عن ذلك، وأعرف بعض هؤلاء مـعرفة قريبه وهم لا قيمـة لهم ويدهشنى رواجهم؛ والقول بأن لهم أفكارا. ويتزامن مع إبعاد السنة عن الدين إبعـاد القرآن عن السياسـة، ولا يخدعنك أن النظام الذى يبعد الدين عن السيـاسة يطارد الذين يُبْعدُون السنة عن الدين، لأن هذا من عمل المسرح، وليس له صـلة بالحقيقة، ثم إنك ترى إصـرار نظام العصابة على إبعاد الدين عن السياسة وقمع من يخالف ذلك ومطاردته وتصفيته إن لزم

الأمر يتزامن مع حذف آيات الجهاد من مقررات التعليم، لأنها تعكر صفو الوُدّ بين اليهود وعصابتنا الذين يصرون على أن يكونوا ولاة أمورنا، ويحدثوننا عن الشرعية، ثم ترى ذلك الذى هو حذف آيات الجهاد حتى ينشأ جيل موادع لأبناء صهيون يتزامن مع بكاء عجايز الإلحاد من كتاب السلطة لأنهم يرون أسلمة التعليم، والتعليم يجب أن يكون بعيدا عن الأسلمة وعن الدين، لأن العلم لا وطن له، ولا دين له، وهكذا نرى سلسلة شيطانية تتابع حلقاتها، والذى يقطع رأسها أمر ربنا لنا بطاعة رسول الله ﷺ وكأن هذه الآيات نزلت فى زماننا ولزماننا والله غالب على أمره، والذين يكتبون فى التفسير والحديث وعلوم الدعوة لا يقبل الله منهم إلا إذا عرفوا ما يجرى حولهم لأن أهم ما فى الكتاب العزيز هو التباسه بالواقع الذى نعيشه.

قوله سبحانه ﴿وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ هذه الجملة الثالثة فى ترتيب جمل الآية الأولى ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ والثانية ﴿أَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾. والثالثة هذه الجملة، جملتان أمر بطاعة، وجملة نهى عن إبطال أعمال هذه الطاعة، والأولى أمر بطاعة الله وهو الأصل، وذكر لفظ الجلالة بدل ضمير العظمة لأن الآمر بالطاعة هو الله، وللفظ الجلالة فى نفوس من آمن سِرٌّ غريب جداً من أسراره أنه يذهب الحزن والخوف ويُهدِّئ الرَّوع ويُفْسح الأمل وينفرج به الضيق، وتتغير به حالة النفس، وإذا قلت الله الله الله واستمر لسانك وقلبك مع لفظ الجلالة، وجدت شيئًا قد حدث فى نفسك، قلت إن تكرار لفظ الجلالة فى الكتاب له سر والحق جل جلاله فى الآية التفت إلى أهل الإيمان وقال لهم أطيعوا الله، ونقل الخطاب من الغيبة الذى كان مع الذين شاقوا الرسول إلى الخطاب تكريما لأهل الطاعة، ومع هذا الانتقال من الغيبة إلى الخطاب انتقل عن طريق التكلم فى قوله تعالى ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ﴾ إلى الغَيْبة فى قوله ﴿وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وكذلك فى هذه الآية وهذه العناصر الموقظة والمُنبهة لا يجوز أن نُغْفِلها لأنها مُوزَّعة فى

الكلام توزيعا يظهر ويخفى، ولها فى نفوسنا ما لها، وإن كنا عند التحليل لا نستوفيها، لأن القيمة البلاغية تفعل فى النفس وتستوى أن نفطن لها فى التحليل أو لا نفطن، لأن فعل الفن البلاغى فى نفوس السامعين شىء والعلم به شىء آخر، ولهذا ترى غير العارفين بفنون البلاغة من عامة السامعين وخاصتهم يتأثرون بالكلام المتقن المبنى على السداد والإصابة فى التكوين البلاغى، ومواطن الفنون البلاغية فى الكلام ليست هى فقط مواطن الحسن فيه.

قلت إن الأمر بطاعة الله أمر عام وشامل لكل ما أمر الله به ونهى عنه، وكذلك الأمر بطاعة رسوله، وأن الأمر بالطاعة غير الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان، لأن الطاعة شاملة لكل ما فى النبوات، وكذلك بُنِيَت هذه الجملة على النهى لأن النهى عن إبطال أعمالنا نهى شامل لكل عمل، وفرق بين ﴿وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ وقوله سبحانه ﴿لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤] أو ﴿لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠] أو﴿وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: ٣٧] لأن كل هذه المنهيات من باب السلوك المعيَّن فى باب معين، نهانا الله عنه، أما لا تبطلوا أعمالكم فليس هناك عمل من أعمالنا خارج عنها، يدخل فيها لا تبطلوا صلواتكم، ولا تبطلوا صيامكم، ولا تبطلوا حجكم، ولا تبطلوا زكاتكم إلى آخر ما نعمل ونزاول، لأن كل ما نعمله إن صدر عن نية نبغى بها وجه الله فهو من أعمال الآخرة، فالدرس الذى هو تكليف فى مقابل أجر يأخذه المدرس لو قصد فيه إلى نفع أبناء الوطن يدخل باب القربات، والتجارة التى يراعى فيها الحلال والحرام تدخل باب القربات؛ لأن العمل نفسه مع صرف النظر عن نوعه عبادة، ولهذا صارت هذه الجملة بالغة السعة ولو نبه المؤمنون إلى هذا لرأوا حياتهم كلها لله رب العالمين، وهم يزاولون ما يزاولون من تجارة وسياسة وصناعة إلى آخره.

وليس فى الكتاب العزيز إسناد إبطال أعمال الذين آمنوا إلى الله جل وتقدس، وإنما نحن أهل الإيمان الذين نبطل أعمالنا، والله سبحانه وتعالى يضل أعمال الكافرين ويحبطها كما أنه يبطل أعمال الذين كفروا كما فى قوله ﴿مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ﴾ [يونس: ٨١] وكما فى قوله سبحانه ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ [الأنفال: ٨].

وهذه الجمل الثلاث المكونة لهذه الآية التى هى من أشمل آيات الكتاب العزيز وأوسعها فى المعنى وأوجزها فى اللفظ فيها شىء آخر نبهت إليه فى الجملتين الأولى، والثانية وهو اقتراب الحق من عباده المؤمنين؛ وأمرهم بطاعته، وطاعة رسوله ليدخلوا فى الذين يتقبل الله أعمالهم، ويضاعف أجرهم ويدخلهم الجنة عرّفها لهم، وكذلك يقال هناك لأن الحق جل وتقدس حين يقول لى ولك لا تبطل عملك؛ يدلنى هذا على أنه سبحانه يَضَعُنى أنا وأنت فى صفوف الذين يُثبتهم ويزيدهم من فضله، وأننا حين لا نبطل العمل يتقبله منًّا، وحين يتقبله نكون من المتقين أى الذين اتقوا عذابه بهذا العمل، وهكذا تجد الجملة الكريمة تحذر من شىء وفى الوقت ذاته تُبَشِّر الذى يأخذ حِذْره، فليس هناك ترهيب إلا تحته ترغيب.

ولسعة معنى هذه الآية اختلفت توجيهات العلماء لها، وقد نزلت كما نزل غيرها قبل أن يكتمل الدين، وقبل أن تنزل آية ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾، ففهم أصحاب رسول الله ﷺ أنها نهى عن الكبائر، وأن الكبائر تبطل أعمالهم. قال ابن عمر «كُنَّا نرى أنه ليس شىء من حسناتنا إلا مقبولا، حتى نزل قوله ﴿وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ فقلنا ما هذا الذى يبطل أعمالنا فقلنا الكبائر الموجبات، والفواحش، حتى نزل قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] فكففنا عن القول فى ذلك، فكنا نخاف على من أصاب الكبائر ونرجو لمن لم يصبها» انتهى كلام ابن عمر،

وقوله رضى الله عنه فكففنا عن ذلك يعنى عن الاعتقاد بأن الكبائر تبطل الأعمال لأن الله سبحانه أدخلها ضمن ما يغفره من الذنوب جل وتقدّس؛ وما دامت داخلة ضمن ما يغفره ربنا فلا يجوز الاعتقاد بأنها تبطل الأعمال الصالحة.

ومذهب المعتزلة أن الكبائر تبطل الأعمال لأنهم يعتقدون أن مرتكب الكبيرة مخلد فى النار وما دام مخلدا فلا قيمة لأى عمل صالح قام به.

وروى أن أمنا عائشة رضى الله عنها بلغها أن زيد بن أرقم رضى الله عنه عقد عَقْدًا تراه عائشة حراما فقالت أخبروا زيدًا أنّه أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ إن لم يترك فعله هذا، وكان رسول الله ﷺ غزا تسع عشرة غزوة، غزا زيد معه منها سبع عشرة غزوة، وكان هذا مما استشهد به المعتزلة، وأهل السنة وبقية الأمة يرون أن الحسنات يذهبن السيئات وليست السيئات يذهبن الحسنات، وهذا مما دل عليه الكتاب والسنة لما اكتمل الدين وأن الكبائر لا تبطل الأعمال، وأن مرتكبها إن تاب منها قبل موته وحسنت توبته تاب الله عليه وغفر له، وإن مات ولم يَتُب فأمره موكول إلى الله إن شاء سبحانه غفر له هذه الكبيرة من غير توبة؛ لأن الله سبحانه وعد بأنه يغفر ما دون الشرك لمن يشاء هو جل وتقدس، ويدخل مرتكب الكبيرة الذى لم يَتُب منها فى جملة من شاء أن يغفر الله لهم وأمره متروك إلى الذى هو أعلم بأحوال عباده.

لا خلاف بين أهل السنة والأشاعرة، والماتريدية فى هذا الشأن وربما كان إجماع الأمة غير المعتزلة، وحديث أمنا عائشة فى أمر زيد بن أرقم المجاهد الصادق لا يعكر على مذهب أهل السنة والجماعة، لأنها أولا نَصَّتْ على جهاده مع رسول الله ﷺ، وهذا يعنى أن اقتران العَقْد الذى تراه عائشة حراما لا ينصرف فى كلامها إلا إلى الجهاد، دون غيره من أعمال هذا الصحابى الكريم، هذا وجه ووجه آخر وهو أن عائشة أرادت تحذير زيد فأخرجت كلامها على هذا الوجه حتى تكفه رضوان الله عليه مما تراه حراما، والرجل من أهل الجهاد أو أهل السابقة فى الخير.

قلت إن الذى عليه الجماعة أن الحسنة تكتب ولا تذهب بها سيئة وأن الله سبحانه يضاعفها إلى سبعمائة ضعف ويزيد لمن يشاء ثم يزيد الحسنة حُسْنًا حتى تَتَحبَّبَ إلىَّ الحسنات وإلى من رحمه من عباده، وهداه، وأن النهى عن إبطال الأعمال بيَّنه عبد الله بن عباس بقوله: ﴿لَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ بالرياء، والسمعة وعنه بالشك والنفاق، وقيل بالعجب، وهذا الذى قاله ابن عباس هو أخفى وأكثر ما يتهدد الأعمال، لأن الرياء قد يدبُّ دبيبا خفيا إلى نفوس الصالحين ولو اجتهد العامل أن يجمع قلبه ونفسه فى ابتغاء وجه الله ثم اخترقته وسَوْسة واحدة مما يوسوس فى صدور الناس أفسدت عليه عمله كله، ولابد أن يكون ممن وصفهم ربنا بقوله: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ۝١٩ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾ [الليل: ١٩] والنفى والاستثناء هنا قاطع فى نفى كل شىء إلا وجه ربه الأعلى، وفى سورة الكهف ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠] وهذا باب صعب جدا ويجب أن يكون بين عَيْنَى كل عامل، فلو كنت معلما واجتهدت فى ابتغاء وجه ربك الأعلى ثم خامرك وسواس العجب بنفسك دمّر هذا الوسواس جَهْدك كله، من أول يوم وقفت فيه تُعلِّم إلى آخر يوم، وقل مثل ذلك فى كل عمل يزاوله المسلم، وقد سبق أن بينا أن كل عمل المسلم عبادة لو أراد هو أن يكون عبادة، وأراد أن يكون فى بيعه وشراؤه ومعمله ومكتبه كله عبادة كأنه فى صلاة بل وفى محراب إن شاء ذلك.

والأمر الآخر الذى يجب أن نذكر به فى بيان جملة ﴿لَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ هو أن كل ما أمر الله به وكل ما نهى عنه له ضوابط شرعية تحدّدُه وترْسُم له طريق الصحة والقبول، فالصلاة لها فرائض وأركان ولها سنن ومُسْتَحبات ولها شروط ولها مبطلات، وهكذا الزكاة لها ضوابط والحج والصوم والفرض والنفْل، وشرط قبول العمل أن يكون واقعا على الوجه الذى شرعه ربنا لأن الدين امتثال وانقياد فلا يجوز أن نضيف شيئًا وإن كنت تراه برآ؛ ولا أن تنقص شيئا، وهذا يوجب

على كل من نطق بالشهادتين ودخل فى دين الله أن يكون مُلمّاً بهذا كله، يعنى لابد أن يعلم فرائض الوضوء وسنته ومستحباته، وفرائض الصلاة وسنتها إلى آخره، فلا تجد مسلما يحرص على عمله إلا وعنده ما يزيل الأمِّيَّة فى هذا الجانب الفقهى، ولهذا وجب أن يكون الفقة مُيَسَّرا جدا، وقريبا من أفهام العامة وهذا من الواجب الذى يجب أن يقوم به الفقهاء، وهكذا بيّن أهل العلم أن إبطال العمل إما بالخدش فى خلوصه لله رب العالمين أو بالخدش فى ضوابطه الفقهية، والذين تكلموا فى هذة الآية من ابن عمر وابن عباس لم يذكروا الضوابط الفقهية من حيث هى شرط فى قبول الأعمال، لأن هذا ظاهر وإنما ذكرها المفسرون فى أول سورة الملك ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك: ١] وكان الشاغل هنا هو استشهاد المعتزلة بالآية على مذهبهم.

قال الطاهر: الذى جاء به القرآن وبيّنته السنة الصحيحة أن الحسنات يذهبن السيئات، ولم يجئ إن السيئات يذهبن الحسنات، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]

وقال البيضاوى: معنى الآية ولا تبطلوا أعمالكم بما أبطل به هؤلاء كالكفر والنفاق، والعجب، والرياء، والمَنِّ، والأذى ونحوها، وليس فيه دليل على إحباط الطاعات بالكبائر، وعقب الشهاب على هذا بقوله: «إنه تَوْطئة للرد على الزمخشرى حيث استدل بالآية على مذهبه من أن الكبيرة الواحدة تبطل مع الإصرار الأعمال، ولو كانت بعدد نجوم السماء، بأنه لا دليل فيها لأنه لما نهاهم عن إبطال الأعمال بعد الأمر بطاعة الله ورسوله، دل ذلك على أن المراد بالمحبط عدم طاعته ظاهرا أو باطنا بالكفر والنفاق وهو ليس بمحل اختلاف، أو المراد بإحباط أعمالهم تعقيبها بما يبطلها كتعقيب العمل بالعجب به، أو الصدقة بالمَنّ والأذى، لأنه المتبادر منه؛ وللتصريح به فى آيات وآثار أخرى، فيحمل عند الإطلاق عليه، كما أشار إليه فى الكشف» انتهى كلام الشهاب رحمه الله ورضى عنه.

بقى فى الجملة الشريفة معنى أشار إليه الطاهر ويبدو أنه استخرجه من كلام الفقهاء، هذا الوجه هو النهى عن قطع العمل الذى داوم عليه العبد من القربات والنوافل؛ كأن يكون من ديدنك قراءة قدر من القرآن أو صلاة عدد من الركعات غير المكتوبة، أو رعاية يتيم، أو ما شئت من أعمال البر، والنَّهىُ مُوَجَّه إلى ترك هذه الأعمال ما دمت قادرا عليها، وليس المراد النهى عن قطع الأعمال المفروضة لأن استمرارها واجب بالأمر بها، فالاستمرار فى الصلاة واجب بقوله تعالى ﴿أَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ [الأنعام: ٧٢] والاستمرار فى الصوم واجب بقوله تعالى ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وهذه الآية تدعو إلى الاستمرار فى النوافل سواء كان هذا الاستمرار على سبيل الوجوب، أو على سبيل الندب، على حد الخلاف بين العلماء الذى سوف نبيِّنه، وقبل بيانه أُشير إلى أمرين: الأمر الأول هو أننا لو حملنا قوله تعالى: ﴿وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ على معنى لا تَقْطَعُوا نوافلكم وقرباتكم التى ليست من الفرائض وإنما دَاوَمْتُمْ عليها، يكون فى كلمة تبطلوا مجازا له دلالة خفية ومبشرة لأن الإبطال سيكون مجازا عن القطع، والشبه بين القطع والإبطال هو عدم النفع فى كل، وإنما قال سبحانه لا تبطلوا مكان لا تقطعوا للإشارة إلى قبول هذه النوافل التى اعتدتم عليها، وكأنها عملت وقبلت وأنتم الذين أبطلتموها؛ ويظهر الفرق الذى أريده بين قولك لصاحبك لا تقطع نوافلك ولا تبطِل نوافلك، التعبير الثانى أدخل فى الدلالة على قبول النوافل التى كانت ديدنك؛ وكأنك لم تقطع امتدادها وإنما تبطله، والذى مضى منها مقبول عند الله، أنت حين تداوم على رواتب النوافل فأنت تعمل عملا غير معطل فإذا قطعت فقد أبطلت.

والأمر الآخر هو أن الله سبحانه يحثنا فى هذه الجملة الكريمة على النوافل بعد ما حثّنا فى التى قبلها على الفرائض، وإذا كان الحث على الفرائض دعوة من الله لنا إلى الدخول فى غمار الرحمة والعطاء والفوز، فإن الحث على النوافل أو الفضائل دعوة إلى الدخول فى الذى ليس أقل من ذلك، وهو ما عبر عنه قوله جل شأنه فى

الحديث القدسى «لا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه». وفرق بين أن يحب العبد ربَّه وأن يحب الله عبده، لأن حب العبد لله شرط فى الإيمان، لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وهذا الحب الذى هو شرط فى الإيمان يقذفه الله فى قلب عبده مع إيمانه، فالإيمان بالله وحده وأنه هو الخالق والرازق والمالك والباسط والقابض كل ذلك يورث العبد محبَّة ربّه ومحبَّة رسوله ﷺ الذى بلَّغنا عن ربه، ومن أحب الله أحب رسوله، وأحب أيضا كل من يحب الله ورسوله، وهذا كله يقع فى القلب من غير أن يطلبه العبد وهذا كله من أسرار الإيمان، أما حُبُّ الله للعبد فذلك شأو آخر يُنَال كما فى الحديث القدسى بالتقرُّب إلى الله بالنوافل، وهذه النوافل هى وسيلة العبد وراحلته التى يرحل عليها فى طلب هذه المحبّة، فإذا رزق العبد حَبّ ربه له كان سمعه وبصره وكان أيضا من الكوكبة التى إذا استعاذت بالله أعاذها، وإذا أقسمت على الله أبرها وإذا طلبت من الله أعطاها، وإذا استنصرته سبحانه نصرها.

وهذه الجملة الكريمة تدعونا إلى هذا المقام الذى نفوز به فى الدنيا قبل الفوز فى الآخرة، وإذا كان الأمر بالطاعة وأداء ما يجب والبعد عما نهى يصل بالعبد إلى أن يكون فى اللذين لا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين فإن هذه الجملة تدعونا إلى أن نكون من الذين لو أقسموا على الله لأبرهم وليس بعد هذا مطلب.

والمهم أن الآية تحتمل كل هذا، وذكر الطاهر أن بعض فقهائنا أسسوا على هذا وجوب الاستمرار فيما بدأه العبد من النوافل لأن الآية تفيد النهى عن ترك العبد ما بدأه من النوافل، وقال أبو حنيفة إن النفل يجب بالشروع فيه، ونسب ابن الأعرابى فى الأحكام مثله إلى مالك، وذكر الطاهر بعض التفاصيل المنسوبة إلى مالك ثم قال ولم ير الشافعى وجوبا بالشروع فى شىء من النوافل وهو الظاهر، ولم يدفع الطاهر أصل المعنى الذى هو المراد بقوله تعالى ﴿وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ يعنى النهى عن قطع العمل الذى تتقربون به إلى الله مما لم يفرضه عليكم.

قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [محمد: ٣٤].

منطوق هذه الآية امتداد للآية الأسبق ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾ وهذه الآية كما ترى انتهت بالدلالة على أنهم لما كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول لن يضروا الله شيئا وأن الله سبحانه يحفظ رسوله والمؤمنين من مشاقتهم، ويحبط أعمالهم، ويجعل تدبيرهم فى صورة كريهة لأن الحبط أن تأكل الدابة من كلأ مستوبل حتى ينتفخ جنباها وتموت، وأعمالهم فى كيد أهل الحق يصير بمثابة الجيف، وهذا شأنهم مع أهل الإيمان فى الدنيا، وما داموا شاقوا الرسول فى زمنه فلابد أن يتوقع أهل الحق أنهم يشاقونهم فى كل زمان، وأن كل جيل من أجيال أهل الحق يقابله جيل من أجيال أهل الباطل يكيد له، ويكفر بالحق، ويصد عنه، ويشاقق أهله، وهذا ما عليه زماننا وما عليه كل زمان مضى وكل زمان سيأتى، وإذا كان أهل الحق قائمين عليه كما كانوا فى الزمن الأول رأوا الله جل وتقدس يجعل مُضَارَّة أهل الباطل لأهل الحق مضَارَّةً له سبحانه، وإذا كانوا لن يضروا الله شيئًا فلن يضروا أهل الحق شيئًا لأن مضارة أهل الحق مضارة لله، وإذا كان سبحانه قد أحبط عملهم زمن نبيه صلوات الله وسلامه عليه فإنه سيحبط عملهم فى كل جيل ما دام جيل أهل الله قائما على أمره سبحانه، وهذا وعد أكيد من الله بنصرة أهل الحق فى الدنيا، وأن الضر الذى يرتبه أهل الباطل لن يصيبهم منه شىء لأنه سبحانه هو الصادّ والمدافع عن أهل الحق، لأنه سبحانه يدافع عن الذين آمنوا، هذا هو الحق الذى وقفت عنده الآية الأسبق، ولم تتخطَّ الحياة الدنيا وإنما سكتت عنها لأن هؤلاء المشاقين تبين لهم الهدى وصار فى صدورهم يقين بأنهم على باطل، وأن ما يشاقونه هو الحق، وربما فعل هذا الهاجس فى نفوسهم فِعلا أقوى فخلعوا باطلهم، ودخلوا فى دين الله، وهذا

هو الذى كان إلا فيمن قضى الله عليهم بالهلاك قبل إسلامهم، وعجيب جدا أن تسكت هذه الآية عن عذاب الآخرة ولم تقض على الذين شاقوا بدخول النار، وإنما تترك الباب مفتوحًا لعلّ وعسى.

وتأتى هذه الآية لتؤكد وتضيف أمرين: الأول الموت على الكفر والثانى العقاب الشديد المعبر عنه بقوله تعالى: ﴿فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾. وهذه هى الخطوة التى امتدت إليها هذه الآية، وما كان يمكن أن يكون الخبر الذى هنا مكان الخبر الذى هناك، ويكون الكلام إن الذين كفروا وصدوا وشاقوا الرسول فلن يغفر الله لهم، لأنها تكون حينئذ أغلقت الباب فى وجوههم لأن الله سبحانه لن يغفر إلا لمن مات على الكفر، وما عداه فهو داخل فى المغفرة المقيدة بالمشيئة، ومن عَدْل الله الذى يحدثنا عنه حتى تَقَر قلوبنا به أنه سبحانه لما أهلك القرى الظالمة يبين لنا أنه سبحانه علم من أحوالهم أنّهم لن يؤمنوا ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ [يونس: ١٣]، راجع النفى فى قوله: ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ ولم يقل سبحانه ولن يؤمنوا وإنما قال: ﴿وَمَا كَانُوا﴾ يعنى الشأن فيهم أنهم لن يؤمنوا، وأن الإيمان بالنسبة لهم بعيد لن ينالوه، وهذا النفى قريب من النفى فى قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ [يونس: ١٥] أى أن هذا غير ممكن ولا يدخل فى الوسع.

وراجع ما اتفقت فيه الآيتان من ذكر إن المؤكدة الداخلة على الاسم الموصول وجملتى الصلة ﴿كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ثم تنفرد كل آية بجملة فى الصلة الأولى﴿وَشَاقُّوا الرَّسُولَ﴾ والثانية ﴿ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾، ثم يختلف الخبر اختلافا شديدا بسبب اختلاف هاتين الجملتين. وكثير ممن شاق الرسول فى زمانه ﷺ صار من خير أصحابه وخير جنده، ومن أحب الناس إليه، وقد جاء الخبر فى الأولى من غير فاء ﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾

وجاء فى الثانية بالفاء ﴿فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ والفاء تدل على قوة وتأكيد ربط الخبر بالمبتدأ وتُشْرِبُ الاسم الموصول معها معنى من معانى الشرط كأنه قيل إن ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم..

وقد ذكر البيضاوى فى الآية كلمة جليلة قال رحمه الله «هى عامة فى كل من مات كافرا» وإن صَحَّ نزولها فى أصحاب القليب، وتدل بمفهومها على أنه قد يغفر لمن لم يمت على كفره سائر ذنوبه، والجيد فى هذا تقليب المعنى على وجوهه المنطوقة والمفهومة التى هى غالبا ما تكون عكس المنطوقة وهو جانب مهمل فى درس تحليل البيان من كلام الله وكلام الناس. وقد تجد رأس الآية بعيدا عن آخر الآية السابقة من جهة دلالة المنطوق فإذا التفت إلى المفهوم وجدت الكلام متشابكا أتم التشابك، فإذا نظرت إلى مفهوم آية الطاعة وجدته منطوق آية ﴿ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ وإذا نظرت إلى منطوق آية الطاعة وجدته مفهوم آية ﴿وَشَاقُّوا الرَّسُولَ﴾، وهذا جيد جدا وكانت هذه التقليبات الباحثة عن وجوه المعانى والروابط ديدن كثير من المفسرين، فإذا كان البيضاوى قد فهم من مفهوم قوله تعالى ﴿فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ أن من لم يمت كافرا يمكن أن يغفر الله له ذنوبه، فالرازى سبق إلى بيان علاقة ﴿فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ بآية ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ ورأى أن قوله تعالى: ﴿فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ يدل بمفهومه على أن الله يغفر لمن أبطل عمله لأنه لم يمت وهو كافر، وحيئنذ ستكون المغفرة محض تفضل منه سبحانه لأن العمل صار باطلا، قال فى تعقيبه على قوله تعالى: ﴿فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ «إن الله لا يغفر الشرك وما دون ذلك يغفره إن شاء حتى لا يظن ظان أن أعمالهم وإن بطلت لكن فضل الله باق يغفر لهم بفضله، وإن لم يغفر لهم بعملهم» انتهى كلامه، لاحظ قوله: «إن أعمالهم وإن بطلت لكن فضل الله باق» يعنى إذا لم تكن قد أبقيت لك عند الله بقية صالحة فقل يا ربى إننى إذ لم تكن لى بقية من عمل

فلى بقية فى فضلك الباقى، فلا تحرمْنى من بقية الفضل، وكان الرازى مع شدة خوفه وتحرزه واسع الرجاء جدا فى الله رب العالمين، وهذه من المراتب العالية التى ترى الوجل فيها يشتد والرجاء فيها يتسع، وهذا من العلم الحقيقى بالله رب العالمين وأنه شديد العقاب وأنه غفور رحيم.

قوله سبحانه ﴿ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ هذه الجملة شرط فى الخبر ﴿فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ ولو لم تذكر لوجب تقديرها وليس فى الكتاب العزيز خبر عن جماعة بنفى المغفرة عنهم إلا من ماتوا وهم كفار، أو علم الله منهم ذلك كما فى قوله سبحانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً﴾ [النساء: ١٣٧]، وقد قال سبحانه هنا ﴿وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً﴾ لأنهم ﴿آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾، ومن كان كذلك لا ينقصه الهدى لأنه مصر على الكفر؛ ومصر على الزيادة منه، ومثله قوله جل شأنه ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٨] وقد وضع فيها الظلم موضع ﴿ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾.

وجاء مثل هذا فى شأن المنافقين فى قوله تعالى فى سورة التوبة ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]، وقد سبق هذا قوله تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ [التوبة: ٧٧] وهذا قاطع فى أنهم يموتون وهم منافقون، وفى سورة المنافقون قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المنافقون: ٦] وقوله سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ يعنى أنهم يموتون وهم فاسقون؛ كما أنها سبقت بقوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣].

وكل من شهد الشهادتين ومات على ذلك فهو داخل فى قوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] وهو سبحانه عليم بخفايا النفوس.

وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ التى فى قوله تعالى ﴿ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ تدل على التباعد
بن ما قبلهـا وما بعدها، وليست مـثل ثم التى للاستبعاد فـى قوله تعالى فى
ل الأنعام ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ
ذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]لأن ثم فى هذه الآيـة مسبـوقة بما
نقض مـا بعدها، فـالذى خلق السمـوات والأرض وجعل الظلمـات والنور
راهين وحدانيته قاطعـة؛ وطريق الإيمان به لا يلتبس؛ ومع ذلك الذين كفروا
دلون، آية القـتال ليست من هذا لأن ما بـعدها من جنس ما قبلهـا فالذى
بلها الكفـر والصد والذى بعدها الموت وهم كفار، وكلمة ثم تفـيد معنى أن
يغالهم فى الباطل وتماديهم فيه وقد كانت لهم فُسحة للرجوع وخصوصا أنهم
تبيّن لهم الهدى، ولكنهم لجوا حتى ماتوا وهم كفار وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ هنا تلفت
إلى جملة ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ لأن دلالتها على الاستبعاد والإغراق
ى الضلالة والغلو فى العناد يكون ذلك كله أظهر إذا اسـتحضرنا أنهم الذين
شاقوا الرسول من بعد مـا تبين لهم الهدى وإنما لم يخبر عنهم هناك بأنهم لن
يغفر الله لهم لمنحهم الفـرصة عسى أن يرجع منهم من يرجع، وقد رجع من
رجع كـما قلت، وبقى المصـرون وهم الذين لن يغفـر الله لهم، وتجد الـفاء
الدالة على تأكيد نسبة إسناد الخـبر إلى المبتدأ تتشارب مع دلالة ﴿ثُمَّ﴾ الدالة
على الإيغال فى الباطل والتهالك فيه؛ وتتشارب أيضا مع﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ
الْهُدَى﴾ وهذا من خفىّ أسرار البيان.

ثم إن الإخبار بأن الله سـبحانه لن يغفـر لهم فيه تهديد ووعيـد بالعقاب
الشـديد، لأنه يلزم عدم المغـفرة وقـوعُ العذاب؛ ولك أن تقـول إن هذا من
الكناية وأن فـضله على التصـريح بوقوع العـذاب وأنه سبحـانه لم يقل إن
الذين كفروا وصـدوا عن سبيل الله وماتوا وهم كفـار لهم عذاب شديد لأن
النَّص على عدم المغفرة مع تفاصـيل الكبائر الثلاثة التى ارتكبوها وهى الكفر

والصد يعنى الضلال والإضلال، وليس أبشع من أن تَضلَّ إلا أن تُضلّ كل ذلك تفظيع للذنوب وإحضار لها ثم النص على أنها لن تغفر، مع شناعتها وبشاعتها، وهذا أهول فى بيان العقاب، وأقعد فى بيان العدل، وأن هذه ذنوبه وأنها لن تغفر، وأن العقاب واقع عليها، إن القرآن العظيم حين يتحدث عن الذنوب للدلالة على العقاب إنما يقدم الذنب قبل العقوبة لأن لا عقوبة إلا بذنب ولا يجوز أن تزيد العقوبة عن الذنب ليعلمنا ربنا أننا إذا عاقبنا الظالم عقوبة تزيد مثقال ذرة عن ظلمه نصبح نحن الظالمين ويصبح هو المظلوم، وهذا هو أساس العدل الذى تؤسس عليه حياة الناس، وليس بالبطش والقمع والتعذيب والإرهاب الذى يمارسه القتلة الذين اسمهم حكام. بقى شىء يحسن التنبيه إليه وهو أن هناك أصولا فى الدين تتكرر فى الكتاب والسنة ليتذكرها المسلم؛ ويذكرها كلما قرأ كلام الله وكلام رسوله صلوات الله وسلامه عليه حتى تكون متجدِّدة دائما فى قلوب أهل الدين مثل ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨] فلا يجوز لأحد أن يقول إن هذا من المعلوم بالضرورة فلماذا يحدثنا ربنا عنه؟ ومثله أن الحمد لله. . والكبرياء لله والملك كله لله والمرجع إلى الله ومثله المبعث والحساب، والجنة والنار والأمر بالصلاة، وإيتاء الزكاة، والنهى عن الظلم والفواحش ما ظهر منها وما بطن، وذكر الله وتسبيحه، فى الأوقات كلها، ليس المقصود من هذا أن نعلمه وإنما المقصود أن نظل ذاكرين له، ومذكِّرين به، لأنه هو الطارد للغفلة، والحاثّ على الطاعة، والكاف عن المعصية، المقصود أن تتولج هذه الحقائق فى اللحم والدم، وأن تصلح بها المضغة التى فى الجسد والتى يكون صلاح الجسد كله بصلاحها، وفساد الجسد كله بفسادها.

قوله جل شأنه ﴿فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥].

الفاء التى هى رأس هذه الآية وعينها التى ترى بهـا ما خلفها تفرّع وترتّب هذه الآية على كل ما قـبلها من أول الـسورة؛ ولو وضـعـتهـا بإزاء كل آية لوجدتها ملتئمةً بها بل وممسكة بها، قل إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كـفار فلن يغفر الله لهم فـلا تهنوا تجد الآية كأنها رُتّبت عـليها وقل والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما أنزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم فلا تهنوا، وهكذا.

ثم إنها وإن كانت مُمْسكَةً بكل آيات السورة فهى أشدُّ امتساكا بقوله تعالى ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ لأن هذه الآية التى معنا تتـحدث حديثا مـباشرا عن منعة الأمـة وقوتها وشوكـتها وإعدادها مـا استطاعت من قـوة ورباط الخيل لتـدرأ بقوتها طمع الـطامعين فى أرضـها، وثرواتهـا، وهذا من معـنى قوله سـبحـانه ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦٠] يـعنى قوة دفـاع وليست قوة عـدوان واعتـداء لأن الله لا يحب المعتدين، وهذه من آيات المقطع التى تمسك بكل خـيوط معانى السورة، ولا ترد عجزها إلـى صـدرها فحسب وإنما تـرد عـجزها إليها كلها، أو هـى جمع لكل ما انتشر من معانى السورة وتضمين له، هذا شىء.

وشىء آخر وهو أنها امـتداد للآية الأسبق: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾، ولو قلت بعدهـا: ولا تهنوا لوجدت أنهـا امتداد ظاهـر للنهى الذى بعد الأمـر. والذى هو ولاتبطلوا أعمـالكم، ولاشك أن الوهن لا يدخل عليكم إلا من باب إبطال أعمالكم، ثم إن إبطال أعمـالكم لا يدخل عليكم إلا من باب التـفريط أو المسـامحة أو المسـاهلة فى طاعة الله ورسوله.

ثم راجع مرة ثانية وثالثـة ورابعة تجد آية فى شأن ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ﴾ ثم آية فى شأن ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ ثم آية فى شأن

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ ثم آية فى شأن ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾، يعنى كلمة فى شأن الكفر وأهله ثم كلمة فى شـأن الإيمان وأهله ثم يعود الكلام إلى شأن الكفر وأهله ثم يعود إلى شأن الإيمان وأهله، وهذه المبـادلة أو هذه الثنائية فى المناقلة لا أعرفها فى كـلام العرب وربما كانت من مبتكرات القرآن كـما كان يقول الطاهر، وحسبى أننى نبـهت إلى هذا الظاهر وعليك أنت أن تحلل وأن تدرس وأن تعلل، وأعـود إلى الآية الكريمة وأقول إن الـله سبـحانه وتعـالى نهـانا عن الوهن وهو الضعف فى مواجـهة العدو، كما نهانا عن الشـرك، وأكل الربا، والفواحش، ما ظهر منها وما بطن، وأن نجعل لله أندادا، وهذا يعنى أن الـقوة والمنعة فى مواجهة العدو من شطر الـدين، والآية من آيات القتال ولم ترد فـى القرآن الكريم إلا فى شأن القـتال، وقد جاءت فى ثلاث آيات هذه واحـدة منها والثانيـة كانت فى آل عمـران قال سبـحانه ﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ [ال عمران: ١٣٩، ١٤٠].والثانية فى سورة النساء جاءت عقب صلاة الخوف قال سبحانه: ﴿وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

قال هذا فى ابتغاء القوم لأن الحرب قائمة، وصلى فريق من المسلمين صلاة الخوف، وكان الفريق الآخر من ورائهم إذا سجدوا، وجاءت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا، هذا مشهد فى ميدان الحرب وكل فريق يبتغى عدوه، والنهى عن الوهن فى ابتغائهم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون.

وآية آل عمران فيها كلمة ﴿وَلا تَحْزَنُوا﴾ وليست فى القتال ولا فى النساء لأن العدو قد نال منهم بدليل قـوله تعالى بعدها ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ والقرح بفتح القـاف الجرح يأتى من الخارج وبضمـها الجرح يأتى من داخل الجـسد، وكلـمة القـرح فى الآية اسـتعـارة حسنة جـدا لأن للحروب جراحات.

والآية التى معنا ليست متعلقة بحال جراحات كآية آل عمران ولا بصلاة خوف كآية النساء وإنما هى مطلقة ونهى فى الأحوال كلها عن الوهن، وأن نَضعُفَ فى مواجهة العدو وأن نفزع وأن نكون أول الفريقين فى طلب السلام والموادعة وإيقاف القتال، وهذا هو تفسير العلماء للوهن، والوهن الذى نهينا عنه كما نهينا عن المنكرات وعن الفواحش يوجب علينا أن نعرف المكونات التى إذا حققناها نكون قد اجتنبنا الوهن الذى نهانا الله عنه، ونكون قد حققنا وصف ربنا لنا بأننا الأعْلَوْن ونكون قد هيأنا أنفسنا لمعية الله لنا ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾.

والآية فيها تخليتان من صفتين هما أخسّ وأدون ما توصف بهما أمة، الوهن والضراعة فى طلب السلم وفيها تحليتان بصفتين من أعز ما توصف بهما أمة وهما العلو، والثقة الكاملة الناجمة من الإحساس بمعية الرحمن الرحيم لها.

ثم إن الخطاب فى الآية الكريمة خطاب للأمة فى كل أقطارها وفى كل أزمانها وكل أجناسها وهذا التوحد فى خطابها يجعلها شيئًا واحدا ويلغى ما بينها من فروق فى الأجناس والأقطار والأزمان وراجع مرة ثانية وحدة الخطاب لأبيضها وأسودها وكيف تلغى وحدة الخطاب كل هذه الفروق؟.

ولا شك أن الأفراد المخاطبين بهذا الخطاب الذين هم مثلى ومثلك لا يستطيعون نفى الوهن عن الأمة، لأن ذلك ليس فى أيديهم ولا يستطيعون الامتناع عن الدعوة إلى السِّلم لأنهم ليسوا أصحاب القرار فى هذا، ولكنهم يستطيعون أن يطالبوا أصحاب القرار بهذا مطالبة حاسمة وهذا هو وجه تكليف الله لنا، لا أشك فى أننى وأنت داخلان فى النهى عن الوهن ولا أشك فى أن مطالبة الحق لى ولك بالنهى عن الوهن، تعنى تكليفى وتكليفك بمخاطبة أصحاب القرار السياسى بالنهى عن الوهن وأنه بموجب هذه الكلمة ﴿فَلا تَهِنُوا﴾ قد وجب على الأمة كلها أن تقف فى وجه صاحب القرار وتطالبه بالنهى عن الوهن والدعوة إلى السلم، وأن تكون حاسمة فى ذلك وأن تكون

ضاغطة عليه إما أن يفعل أو يترك الأمر لمن يقدر على أن يفعل، خطاب القرآن للأمة فيما هو من الشأن العام يعنى تكليف الأمة بفعل ما هو من الشأن العام، يعنى تكليفها باتخاذ القرار لأنها هى مصدر القرار والنظام الذى لا يستجيب لهذا يكون بقاؤه تعطيلا لإنجاز ما خوطبت فيه الأمة، ولا يجوز أن نفهم أن هذا النهى موجه إلى قيادات الأمة لأنهم هم القادرون على ذلك، أقول لا يجوز هذا لأن لفظ الآية شامل لكل أفراد الأمة وحظ قيادتها من هذا الخطاب كحظ غيرها، لأن إبعاد الشعب وتغييبه عن هذا الخطاب ليس هو منهج الإسلام، فليس فى الإسلام تهميش الشعوب، وإبعادها عن الساحة.

قلت إن تهميش الشعوب ليس منهج الإسلام بدليل هذه الآية التى أفهم منها ضرورة مشاركة أفراد الأمة فى أخطر قضاياها وهى قضية منعة الأمة، وقوتها فى مواجهة عدوها، وقد فطن أبو بكر وعمر إلى هذا المعنى وقال كل منهم فى أول خطاب للأمة بعد بيعته إن رأيتمونى على صواب فأعينونى وأن رأيتمونى على خطأ فقومونى.

هذا كله مدخل والمطلوب الأهم هو كيف ننفى الوهن عن الأمة وكيف تكون قوية مستعلية غالبة لا تدعو إلى السلم، بمعنى لا تكون بادئة بهذه الدعوة لأن الإجابة إلى السلم ليس فيها محظور إن جنح العدو لها، المهم أن تكون الأمة قوية ذات منعة وذات شوكة إن صالحت صالحت وهى قوية، وإن حاربت حاربت وهى قوية وإن عاهدت عاهدت وهى قوية، لأن وجود المنعة والقوة لا تعنى الحرب ولا تعنى الاعتداء، لأن الله أخبرنا أنه لا يحب المعتدين، وولى الأمر الصادق الصالح للولاية والتى اختارته الأمة اختيارا حُراً واقتنعت به هو مفَوضٌ من قبلها بقرارات الحرب والسلم، والمعاهدة والمهادنة، أما الذين فرضوا أنفسهم على مواقع القيادة، واغتصبوا هذه المواقع وتشبثوا بها حتى يكبهم الموت على مناخرهم؛ وقتلوا شعوبهم بالرصاص الحى لما طالبوهم بالتخلى، هؤلاء ليسوا مفوضين فى شىء وإنما هم مغتصبون لكل

شيء، وأول خطوة في نفي الوهن عن الأمة ألا تكون قوتها وعتادها وسلاحها وخبرة رجالها في الحرب أقل درجة واحدة عن عدوها المنازع لها. والمشاق لها، والصاد عن دينها، لأنها إذا نزلت درجة واحدة عن مستوى قوة العدو وعُدَّته وعَتَاده دخلت في الوهن المنهى عنه.

والخطوة الثانية أن تكون الأعلى وهذا لا يكون إلا بتفوقها على عدوها وقوته ومنعته وعتاده، وقد كانت الأمة على هذا الحال وبقيت عليه طول تاريخها إلى أن سقطت الخلافة الإسلامية في أوائل القرن العشرين، ولم تستطع دولة أوربية وحدها إسقاطها وإنما تحالفت الدول الأوربية عليها حتى أسقطتها ومن يومها لم تتمكن الشعوب الإسلامية من امتلاك هذه المنعة وهذه القوة الغالبة، المستعلية، وهذا أيضا باب آخر يجب أن يدرس دراسة صحيحة وأن تعرف أسبابه وأن تكون بين يدى أجيال الأمة لأن وضع التاريخ الصحيح بين أيدى الأجيال من الأهمية بمكان وهو حق لهم علينا.

وأول شيء في امتلاك المنعة والقوة أن تمتلك الأمة صناعة آلة هذه القوة وهذه المنعة وأن تصنع ذلك بأيديها، وعلى أرضها؛ ومن ثرواتها، وأن لا نلاحق عَدُوَّنا في تطوير ذلك وإنما نسبقه وندعه هو الذى يلاحقنا لأن نفى الوهن لا يكون إلا مع السبق واللاحق التابع المسبوق هو الذى في الوهن ولا يجوز لأحد أن يتوهم أننا لسنا قادرين على ذلك لأن الله الذى خلقنا كلفنا بنفى الوهن عن أنفسنا، وهو سبحانه لا يكلف نفساً إلا وسعها، ولا يكلف أمة إلا وسعها، وهو الذى قال لنا **«وأنتم الأعلون»** أى الغالبون والعجزة أصحاب الزمانة في العقل لا يكونون **«أعلون»**، وأخبرنا سبحانه بأننا خير أمة ولا خيرية مع الجهل والغباء، ثم إنّ هذه الصناعة المتطورة والتى هى أسرع ما نراه الآن في تسابق الأمم والتى توجب علينا الآية أن نكون سابقين فيها لا تقوم إلا على أسس علمية ومراكز بحوث أكثر تقدما وتطوراً، لأن هذه الصناعات المتطورة هى ثمرات هذه البحوث وهذه الاختراعات وهذه الكشوف المتطورة، وهذا يعنى ليس إحداث نهضة في

التعليم المتردى فقط وإنما يوجب أن يكون أقوى وأسبق وأفضل من التعليم فى الأمم المنازعة لنا، والتى تغتصب ديارنا وتهدم بيوتنا على رؤوسنا، وأن يكون ذلك من أول مراحل التعليم إلى نهاياتها وأن يكون تعليما قادرا على فرز وتمييز وإنتاج عقول متفوقة قادرة على الكشف والاختراع والإبداع وأن تكون سابقة فى ذلك كله، وليس هذا أمرا بعيد المنال لأن من أبنائنا من كان كذلك لما هاجر إلى البلاد التى ليس على رأسها جهلة أغبياء لا يعرفون إلا القمع والبطش والغطرسة والسلب والنهب، وعندهم استعداد أن يحرقوا شعوبهم إذا نازعوهم سلطانهم، لسنا متخلفين أيها السادة الكبار وإنما أنتم المتخلفون وفرضتم علينا تخلفكم.

ومن المضحكات فى زماننا أننا حصرنا الإبداع فى القصة والرواية وآداب التسلية، ولم نتكلم عن الإبداع فى العلوم وكأن الإبداع فى علوم الفيزياء والرياضيات وعلوم الطب وعلوم الصنائع ليس لنا سبيل به، ونعطى جوائزنا للمبدعين فى القصة والرواية والحكاية، ونقوم بها ونقعد، مع أن روح الاجتهاد من حقائق الدين، والاجتهاد مصدر من مصادر التشريع، ثم إنه لم يكن اجتهادا فى الفقه وحده وإنما كان اجتهادا فى العلوم كلها، وليس الاجتهاد أن تُحَصِّل وإنما الاجتهاد هو الخطوة التى بعد التحصيل هو أن تنتج معرفة وأن تكون المعرفة التى حصلتها مزروعة فى عقلك وقلبك تنتج منتوجات من جنس ما حصلت فإن كنت فقيها أنتجت فقها وإن كنت نحويا أنتجت نحوا وإن كنت رياضيا أنتجت رياضه وهكذا، وهذا ممكن جدا ولكنه لا يكون إلا بالانقطاع والصبر والمثابرة، وفى بيئة تحترم هذا وتفتح لهم الأبواب لأنهم هم الأجل من الملوك، أما أن تفتح أبواب الملوك والسلاطين للمنافقين والدجالين فهذا هو الذى يفضى إلى ما نحن فيه.

اقرأ الخريطة التى حولك قراءة جيدة ثم اقرأ آية ﴿فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ واسأل أى شىء عطل هذه الآية ولن تجده إلا الجهل القابع فوق رأس

الهرم، واعلم أن عز الأمـة فى هذه الآية وعز الشعب الذى أنت منه فى هذه الآية وعزك وعز أبنائك وأحفادك فى هذه الآية، وأن الذى عطلها هو عدو عز الأمـة وعدو عـز شعـوبها وأبنـائها وأحـفادها، ولا مناص ولا خـلاص إلا بالخلاص منه.

وحين نسمع أو نقرأ أن العدو الألد ومَنْ وراءه من أصدقائه وأعدائنا يضمن ويضمنون معه تفـوقه العسكرى على الشعوب العربية مجـتمعة يذهلك أن هذا العدو ومَنْ وراءه كأنهم يُطبـقون قوله تعالى ﴿وَلا تَهِنُوا﴾ ونحن الذين نزلت لهم وفيهم هذه الآية نقول لا دين فى السيـاسة والمنافقون والكذابون والمضللون يتعصـبون ويتشنجون ويقولون لا دين فى السـياسة، وهذه الآية الكريمة تنقض هذا القول نقـضا ظاهرا لأنها تدعو الجـميع حكاما ومحكومين أن يـرفضوا أن يكونوا فى الدرجة الثانية فى سُلَّم التقـدم، بل وترفض أن يكون معهم غيرهم فى الدرجة الأولى، لأنهم لابد أن يكونوا الأقوى من كل من تـنازعه نفسه أن ينازعهم، وتدعو الحكام والمحكومين إلى أن يعدوا القوة والمنعة التى لا يستطيع عدو قهرها، وهذا من صميم العـمل السياسى إلا إذا قلنا إن شأن الحرب ليس شأنا سياسيا، وسورة القتال من أولها إلى آخرها شأن سياسى لأنها شأن قتال، وكنت على أن ألمَّ بهذا إلماما سـريعا لأتبين الذى يميزها عن آل حم التى رأيت كل سورها بعضها من بعض، فلما رأيتها شأنا سـياسياً بحتًا أطلت الكلام فيها لأبين للجيل القـادم أن إبعَاد الدين عن السـياسة لا أصل له، وأنه بمثـابة إبعاد الدين عن الدين، وقد كثر القول فى أنه لا دين فى السياسة حتى أوشك الجيل الذى نشأ فـى ظل هذه الثقافـة المزيَّفة أن يُصـدِّق هذا الباطل وابتـعد مـشايخ السلطان عن القضية لأنهم لا يستطيعـون تأييدها نظرا لظهُور بطلانها، واكتفوا بكتمان الحق، وجعلوه بدلاً من شهادة الباطل والله يغفر لنا ولهم.

والفعل المضارع فـى قوله تعالى ﴿وَلا تَهِنُوا﴾ يعنى التـحذير من أن يَدِبَّ إليكم الوهن فى أى وقت مـن الأوقات التى تستـقبلـونها واحـذروا من أن

تغلبكم ظروف وأحوال وتقلبات، وأن يشغلكم ذلك أو غيره عن أن تقوموا على قوتكم ومنعتكم؛ وأن تفتروا لحظة واحدة، يتقدم عليكم عدوكم فيها قيد نملة، لأن السياق والصراع فى تطوير آلة الحرب هو الحاصل على الرقم الأول فى ترتيب إنجازات الأمم؛ لأن القدرة على حماية الدار والوطن والأهل والتراب هى الواجب الأول، واحذروا أن تعتمدوا فى إعداد قوتكم على غيركم، لأن الله أمركم أن تعدوا لهم وإعداد الشىء غير شرائه لأن إعداده أن تعده بيدك، والواجب أن تكونوا أسبق الناس فى كل المهارات اللازمة للتقدم العلمى والصناعى يعنى أول الناس فى الإنتاج وليس أول الناس فى الاستهلاك، هذا شىء من وجه دلالة المضارع ومثله ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ يعنى احذروا أن تغفلوا حتى تصبحوا مضطرين فى لحظة إلى الدعوة إلى السَّلْم لأن العدو قهركم، وهذا بخلاف الجملة الحالية الإسمية ﴿وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾ لأن علو هذه الأمة حال دائم ومستمر من لحظة دخولها فى دين الله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لأنه علو راجع إلى إيمانها بالحق، الذى أنزله الله على محمد، ولا ينبغى لمن هداهم الله إلى الحق ورفع قدرهم به وجعلهم خير أمة أخرجت للناس وكان سبحانه بجلاله وعزه وسلطانه معهم أن يقعدوا أو يتهاونوا ويتساهلوا فى الجد والتحصيل والعمل الدائم الدؤوب فى إعداد قوتهم ومنعتهم وأن، يغفلوا حتى يتسرب إليهم الوهن ويضرعوا لقوة الباطل والفجور، ويدعو إلى السلم، جملة ﴿وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ فيها إثارة للعزائم وحفز لها حتى ترفض أن يكون أعداء الله لهم سبق فى العلم، والصناعة، والاختراع، وعمارة الأرض، ثم يأتى الأعلون والذين هم فى معية الله بعدهم، هذا المعنى الجليل لو سكن فى ضمير العالم فى معمله، والصانع فى مصنعه، والباحث فى ميدانه، والطالب فى مدرسته، وجامعته، والأستاذ المعلم وهو بين طلابه، لأحدث حضور هذا المعنى فى هذه المشاهد كلها تغبيرات يجب أن تحدث فى حياة هذه الأمة، والذى نحن عليه الآن

يجب أن يتغير، وجملة ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ جملة فيها معنى أن العبء المطلوب منكم القيام به وهو أخذ الحياة مأخذ الجد فى الأمر كله ابتداء من أول سلم التعليم وإثارة قدرات أجيالكم والدخول فى معمعان التقدم العلمى دخول المصريِّين على السبق والتفوق مع ملاحظة أن التفوق فى صناعة عدة الحرب وضرورات تفوق القوة والمنعة وألا يداخلها وَهَن ليس شيئًا يوجد وحده، وإنما هو داخل منظومة كاملة لا يتقدم إلا بتقدمها ولا يتميز إلا بتميزها، ولا يتفوق إلا بتفوقها، هذه المنظومة تشمل كل مجالات الحياة فى الفكر والعلم، والصناعة، والزراعة، والصحة إلى آخره، وهذا كله ممكن لأن غيرنا حصله، ولكنه يحتاج إلى الجد الذى لا يعرف التهاون؛ والصبر الذى لا يعرف الملل وحسبنا أن يكون الله معنا يعنى الله معك فى معملك ومعك فى قاعة درسك وأنه يرى أعمالنا ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ [التوبة: ١٠٥] وهذه الدَّعة التى نحن فيها وهذا الاسترخاء الذى نحن فيه لا يتلاءم مع جوهر الدين الذى ليس فيه بعد الإيمان الذى هو تحصيل القلب لمعنى الشهادتين إلا العمل، وبعد أداء الفرائض من صلاة وصيام وزكاة وحج تتسع دائرة العمل الصالح حتى تراه فى كل موضع قدم فيه عمل يباشره المسلم؛ يستوى فى ذلك بيعه وشراؤه وزرعه وحصاده، وفقهه وذكره، ومعمله ومصنعه، ومكتبه، كل هذا هو الإسلام، والمهم أن يكون القلب عامرا بالإيمان ومراقبا لله فيما يأخذ وفيما يدع، وبذلك تتحول الأرض كلها إلى مسجد ويتحول كل عمل إلى عبادة، ولك أن تبحث عن الثروة وتعمل لها بشرط واحد هو شرط إنسانى وهو أن تكون أمينا غير غادر ولا غاش ولا كاذب ولا أجد أحدًا يلقى الله بعمل أفضل من عمل عالم مسلم قلبه عامر بالإيمان والعدل والبر وقد اكتشف بابا من أبواب العلم يدفع به أذى أو يفتح به باب خير، ويقينى أن هذا هو ميدان علم الدعوة ولو سمعت القوى السياسية الإسلامية إلى النصح لوجب أن تكون دعوتها إلى العلم والعمل والاجتهاد واكتشاف المواهب

الخلاقة المبـدعة التى تتقدم بهـا الصناعة وتتقدم بهـا أداة الحرب التى تنفى عن الأمـة الوهن والضراعـة والدعوة إلى السلم، وأن تـنتج مجـاهدين فى الفكر والكشف وصناعـة آلة التقدم الـذى به تصبح الأمة كـما وصـفها ربـنا، وأنها ليـست من الأمم الأعلون وإنما هى وحـدها الأعلون، كمـا هو دلالة تعـريف الطرفين فى قوله سـبحانه ﴿وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾ وكذلك يجب أن يفـعل الإخوان المسلمـون وكل جمـاعة تنتـمى إلى الإسلام، وهذا هو البـاب الذى يجب أن ندفع الأمـة نحوه وليس اللغـو السـياسى الذى يسـتنفـذ الطاقات فى الثـرثرة الإعلامية وأسواق الكلام والبعبـعة التى أعادت إلى الأمة أسواق عكاظ بعد ما أفرغتها من مضموناتها، لأن أسواق عكاظ كان كلامها زاخرا بالحكمة ومكارم الأخلاق، وأسواق عكاظ التى صَنَعتْها الأنظمة المدلّسة لتتلهى بها الشعوب هى جعـجعة قائمـة على التلبيس والتدليس حـتى خسرَت فيـها الكلمة شرفـها لما جرت بها ألسنة الكذبة الأنذال وجرت بها أقلام المنافقين العبيد.

الدعوة إلى الله والحـركات الإسـلامية يجب أن تكون دعـوتهم إلى العلم المتقـدم، والعمل المتـقدم، وأن مداد العلمـاء يوزن بدماء الشـهداء، وأن من الذنوب ذنوبا لا يغـفـرها إلا السـعى والعـمل والضـرب فى الأرض، وأن رسول الله ﷺ قال للعابد المنقطع فى المحراب أخوك الذى يسعى فى الأرض خير منك، لو شاع هذا ويجب أن يشيع وكان هذا شاغل السلفيين والجهاديين والقطبيين وغـير ذلك من الأسـماء والألقاب التى تملأ السـاحة وتتـعايش مع الجهل والتخلف والوهن والدعوة إلى السلم، أقـول إذا شاع هذا وتغيرت لغة الخطاب وأصابت حقيقة جوهر الدين وهى حقيقة تقدمية جدا بالمعنى الصحيح وليس بالمعنى الزائف فلن يسـتطيع دجَّال سيـاسى أن يخدع الأمة ويقـول لها الإسلام مكانه المسجد وليس له مكان فى الشـارع السياسى، هو هناك حبيس المحراب كـما فعلت عـصابة الجاهل الغـبى، وفى كل قطر جاهل غـبى وحوله عصابة تؤكد للناس أن بقاء الأمن والأمان والاستقرار وعز الأوطان مرهون ببقاء

الجاهل الغبى وعصابته من حوله، وإلا أكل البلاد يأجوج ومأجوج، وقد قالوا قديما: الحقُّ يَطْرُدُ تُرَّهات الباطل، ودعوة الإسلام الصريحة إلى نفى الوهن عن الأمة وأن تدعو إلى السلم وهى الأمة الأعلى التى معها الله دعوة يجب أن تعمل على تحقيقها؛ وتحقيقها لا طريق له إلا التفوق العلمى الذى لا تسبقنا فيه الأمم والانقطاع للبحث والدرس فى المكتبة والمعمل والمصنع حتى نفاجئ العدو بما لا يطيقة، ولن نكون الأعلى إلا بذلك كله؛ وهذه دعوة الله التى أراها فى هذه الآية وهذا هو شاغل الدعاة الحقيقيين والإسلاميين الحقيقيين والإخوان المسلمين الحقيقيين والسلفيين الحقيقيين، والجهاديين الحقيقيين، ومن المدهش أن السلفية لما ظهرت على الساحة كان مطلبها لإصلاح حال الأمة هو تدمير القبور والمطالبة بهيئة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهذه إهانة للسلفية لأن السلفية والجهادية والإسلامية هى ﴿فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ أعجب كيف يفكر هؤلاء جميعا ومدارسنا خراب والأمية دخلت حرم الجامعة وزحفت على الدراسات العليا وعلى أعضاء هيئة التدريس وقد عشنا نحن الحروب النووية والبيولوجية والطائرات التى تضرب أهدافها بدون طيار فأى شىء ستكون عليه آلات الحرب فى الزمن الذى يعيش فيه أولادنا وأحفادنا والمتخرجون من خرائب التعليم الذى خربته عصابات الجهلة الذين فى أيديهم مقدرات البلاد، كيف نسكت عن هذا ونطالب بتدمير قبور الأولياء؟ هذا هو حديث خرافة يا أم بغل.

وأدع هذا إلى قوله تعالى ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾.

لاشك أن الأعمال هنا هى الأعمال التى تحققون بها نَفْى الوهن عنكم، وتحققون بها القوة والغلبة التى لا تكونون معها أول من يمد يده داعيا إلى المسالمة، والموادعة مع عدوه؛ وهى الأعمال التى تحققون بها حقيقة ما وصفكم الله به وأنتم الأعلون، وتحققون بها شرف معية الله لكم، ومن أساليب الكتاب العزيز أنه يأمرنا بشىء هذا الشىء لا يمكن أن نحققه إلا إذا قمنا

بأشياء هى السبيل الوحيد لتحقيقه فالله سبحانه وتعالى حين يأمرنا بالصدقة وإيتاء ذى القربى وإطعام المسكين فى يوم ذى مسغبة، لن نستطيع أن نفعل ذلك إلا إذا سعينا فى تحصيل المال وصرنا قادرين على إنفاذ أمر الله بالمال الذى حصلناه، ثم إننا لن نستطيع أن نفعل ذلك أيضا إلا إذا تحرينا الحلال فى كسبنا، لأن الصدقة من غير المال الطيب لن تكون مقبولة، وبهذا يكون الأمر بالصدقة متضمنًا هذه الأحوال التى قبل الصدقة. وكذلك الحال هنا يأمرنا ربنا بنفى الوهن حتى لا يستشعر العدو منا ذلك؛ وهذا لا يتأتى إلا بأن نوفر بعقولنا وبأيدينا ما يضمن لنا تفوقنا على العدو، والعدة الآن ليست سيوفا ورماحا ودروعا وإنما هى أداة متطورة، وقائمة على بحوث علمية متطورة، ثم إن القوة والمنعة ليست قوة الدفاع وحدها، وإنما هى عناصر القوة المتكاملة فى الأمة، فى الاقتصاد والزراعة، والكفاية، والعلم، وكل ما به تكون الأمة أقوى؛ وهذا هو معمعان الآية، وهذه ميادين العمل التى تدفعنا الآية إليها دفعا، وهذا هو العمل الذى قال لنا ربنا إنه لن يتركم أعمالكم، أى لن ينقصكم أعمالكم، أما ما افترضه الله علينا من صلاة وزكاة وصيام فإن ربنا جل وتقدس بيَّن لنا ضرورة توفر أمرين لقبوله وهو الصحة فى آدائها والنية الخالصة فى التوجه بها إلى الله، وهذا يعنى قبولها وأنها تسقط عنا مسؤولية أدائها، وهذه الأعمال نحن الذين نبطلها بإغفال شروطها، وفرائضها إلى آخره، ولا أظن أنها مرادة هنا، ومن الصعوبات التى تمثل عقبات أن ثقافة التبعية والأخِذ عن الغير شاعت وتأصَّلت وصارت لا تنكر، وإزاحة هذا ووضع البديل وهو أن يكون لنا سبق فى الفكر، والعلم، والاختراع، حتى تأخذ عنا الأمم، ولا نأخذ عنها، صار هذا بعيدا لأن ثقافة الأخذ عن الغير أصَّلَتْ فى النفوس معنى العجز، وأننا لم نؤهّل لهذا السبق، لأن ثقافة الإسلام الصحيحة التى تراها فى هذه الآية غابت وصار الإسلام صَوْمًا وصلاة وزكاة ومسجدا يعنى غزت الفكرة المسيحية الإسلام، وكما حوصرت

المسيحية فى سراديب الكنائس حاول الأغبياء حصر الإسلام فى محاريب المساجد، وكل هذا يجب أن يذهب وأن تحل ثقافة هذه الآية محله، وثقافة هذه الآية تفسر العمل الذى لا يُنْقِصُه ربنا ،لايَتِرُه بالعمل الذى تنتقل به الأمة من العالم غير الأول إلى العالم الأول، وإلى الصدر منه، وهذا هو العمل الذى يراه الله ورسوله، والعمل الذى وعد ربنا بأنه لن يتره، وهو عمل شاق ومنظم وشامل لكل أفراد الأمة وممتع وله حلاوة كحلاوة الإيمان، وله كتائب ككتائب المجاهدين المرابطين على حدودها، لأن هؤلاء المرابطين على حدودها لن يكون رباطهم رباطا إلا بما تقدمه كتائب العلماء من كشوف واختراعات وبما تنتجه مصانعنا من آلة بها يكون المرابط مرابطا؛ ولو كان المرابط بيده آلة متخلفه فلن يكون رباطه رباطا، ولو كانت بيده آلة مُسْتَوْرَدَة من مخازن أسْلحة العدو فلن يستطيع توجيه آلته إلا الجهة التى اشترطت شركات توريد السلاح أن توَجَّه إليها، ولهذا نجد عندنا أسلحة كثيرة جدا والمجاهدون فى سبيل تحرير بيت المقدس لا يسمح لهم بطلقة رصاص واحدة منها، لأن تفريغ خزائننا من ثرواتنا ووضعها فى أيدى صُناع الأسلحة كان مطلوبا أولا وكان مشروطا بشرط حاسم وهو ألا تتوجه إلى إسرائيل وإنما تتوجه فقط إلى صدور الأمة من إخواننا الشيعة لأننا نحن حماة السنة، ليس من اليهود وإنما من الشيعة، وهذا المنطق المزيف يروجه الإعلام مع أن هذا الجزء من الأمة الذين هم شيعة يعيشُ معنا منذ زمن بعيد ولم يحدث بيننا وبينهم شىء، وكنا أصدقاء لما كان ملكهم صديقا لأصدقائنا فى البيت الأبيض، فلما ذهب وجاءت جماعة خاصمت البيت الأبيض، فجأة تكلمنا عن خطر الشيعة، وكل هذا يروج على الشعوب لضعف مستوى التعليم ولفساد الثقافة الشائعة التى تغمس فيها أقلام المنافقين وألسنة الكذبة السياسيين؛ وتأمل وجوه المنافقين المحللين يطل لك منها الغباء والسفه والخساسة أيضا و«يتركم». مضارع وتر يتر تره كوعد يعد عدة، ووتره يتره إذا أخذ منه شيئًا صار بعد أخذه كأنه وتر أى أُفرد ويقال وتره فى أخيه أو ابنه أى جعله يبقى وحده، وكذلك وتره فى

ماله صيَّره كأنه بقى وحده من غير مال، ووتره فى عمله أضاع هذا العمل حتى صار عامله يقف وحده من غير عمله، قال الزمخشرى: «وحقيقته أفردته، من قريبه أو ماله من الوتر وهو الفرد فشُبِّه إضاعة عمل العامل وتعطيل ثوابه بوتر الواتر وهو من تصحيح الكلام، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله، وماله، أى أفرد عنهما قتلا ونَهْبًا» انتهى كلام الزمخشرى.

وكلمة ﴿يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ لم تأت فى الكتاب العزيز إلا فى هذه الآية والسؤال عن سر مجيئها هنا؟ ولماذا لم تكن ولن يحبط أعمالكم أو لن ينقص أعمالكم؟

وجواب هذا منه ما هو ظاهر وما هو خفى أما الظاهر فإن التِّرة فى استعمالاتها تقترب جدا من سياق الحرب وهذه الآية واقعة فى المعمعة وكأن الله سبحانه يخاطب أهل المعمعة، ويقول لهم لا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون، والعرب يقولون وترت الرجل إذا قتلت له قتيلا من أخ أو حميم، وهذا السياق سواء كان المراد إعداد المنَعة والقوة أو كان القوم فى المعمعان، والمعنيان صالحان وهما معا من دلالة الجملة، أقول كلمة ﴿يَتِرَكُمْ﴾ من معان هذا السياق وهذا هو الظاهر أما المعنى الخفى فهو ما تراه من أن هذا التركيب وضع الأعمال موضع الأخ أو الابن، وأن صاحب الأعمال يصير وَحدَه بعد إنقاصها كما يصير من وُتِر أخاه أو ابنه وحده، وهذا فيه تنزيل الأعمال من نفس عاملها منزلة الشىء الذى هو جزء من النفس، فهى أعمال عزيزة جدا، وكأن عاملها حين ينجزها ويخرجها كأنما أخرج جزءا من نفسه، لأنها تخرج وفيها كَدُّه وكَدْحُه وعمره وعقلُه ونفسُه، أو كما يقول المرحوم محمود شاكر فى حديثه عن العمل وإتقانه وأنه «لا يُفصَم عَنْه حين يُفْصَم إلا مطويا على حشاشة من سِرٍّ نفسه وحياته، موسوما بلوعة متضرمة على صَبْوةٍ فنِيَتْ فى عشرته ومعاناته». القوس العذراء ص٢٩

وهذا شأن العمل الذى يحتشد له علماء الأمة، وحكماؤها، وأفرادها جميعا، والذى من شأنه ينفى الوَهَنَ عن الأمة، لأن كلمة نفى الوهن هذه وراءها من المكابدات والجهود ما لا يقادر قدره، كتائب العلماء التى تعيش مرابطة فى محاريب العلم تستكشف ومن ورائهم كتائب تُعدّ لتملأ فراغهم أو تتقدم معهم والجهود التى تبذل على كل ذَرَّة تراب فى أرض الأوطان حتى تتحقق القوة، والعزة والمنعة لهذه الأوطان وهذه غايات يسعى إليها كرام العلماء وكرام العاملين ويرعاها كرام المسؤولين ويجدون مع كل صعوبة لذَّةً ومتعةً هى لذة الكشف ومتعة المعرفة والإحساس الذى يسكن فى داخل النفس، وهو ابتغاء العِزّة والمنعة والتقدم، والتفوق للأوطان، وكل هذا غاب لأن زمام أمر البلاد فى يد جهال لا تطمح نفوسهم نحو هذه الآفاق، ولا ترى اسما من أسمائهم يذكر إلا فى مجالات الثراء وأن فلانا الغبىّ الجاهل ترتيبه كذا فى أثرياء العالم، وهذا البلاء هو سبب التخلف ولابد من قطع دابره، ولابد من التغيير وبقاء الحال على ما هو عليه ليس وراءه إلا الطوفان. كلمة ﴿يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ كلمة سخية بحبكم لأعمالكم وأنها منكم بمنزلة نفوسكم وأبنائكم وإخوانكم، وهذا لا معنى له إلا معنى هو وراءه وليس فى مَتْنه، هذا المعنى هو إتقان العمل حتى يُفْصَم حين يُفصم وهو مطوى على حشاشة من سر نفس عامله، وهذا هو سَبيل الإتقان، وهذا هو سبيل التقدم، وهذا هو سبيل تحقيق أمر الله فى هذه الآية، ونفى الوهن عن أمه الشهادتين وهى خير أمة وهم الأعلون من أعظم القربات، ولم أر فيما قلت كلمة واحدة خارجة عن دلالة الآية، وحين يغيب هذا عن وعى الدعاة ويتكلمون فى رضاع الكبير أو زيارة القبور، وأن الأشاعرة يتأولون فى آيات الصفات إلى آخر ما ترانا مشغولين به من غير أن يحملنا خطوة واحدة إلى الأمام فاعلم أن رحانا لا تزال تدور على غير طحين وأن المطلوب شىء واحد وهو أن تُسْمَع جعجعتها.

قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٦].

موقع هذه الآية التى تتحدث عن اللعب واللهو بعد آية الجدّ فى الأمر والاجتهاد فى الجهاد كما قال الرازى موقع يحتاج إلى مزيد من المراجعة، ولا شك أن آية ﴿فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾ من أظهر آيات الكتاب الداعية إلى حَشْد طاقات الأُمَّة وجمع نفوس، وعقول علمائها وأحرارها ووجوب التفافهم نحو أنبل غاية، وضربهم أروع المثل لأجيالهم القادمة، وتأكيد أن قوة الأمة وهيبتها واقتدارها وازدهارها وتقدُّمها بعلم علمائها وازدهار صنائعها بعقول وأيدى أبنائها كل ذلك من فروض العين، وليس من فروض الكفاية، وأنه لابد أن يقوم به كل فرد فى موقعه الذى هو فيه، وتأتى آية ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ لتضع البديل العَبَثى الذى يُفْضِى بالأمة إلى الوهن والضراعة؛ وأن هذين هما الطريقان طريق القوة والمنعة ودحر أى عدوان، وطريق اللهو واللعب المفضى إلى الضعف والتخاذل والضراعة بطلب السلام والمسالمة من عدو لا يَمْنَحُكَ السلامَ إلا ومعه الذل والغطرسة والسيطرة والاستلاب.

والغريب أن الطريق الأول حاضر حضورا كاملا عند عدونا، والطريق الثانى حاضر حضورا ظاهرا عندنا، اتجهوا هم بكل طاقاتهم إلى البحث والتصنيع والتقدم، واتجهنا نحن إلى الملاعب، حتى حسب الجيل الجديد أن فوز فريق الكرة هو الغاية، والنظام يكرِّم الذى جاء بَهدَفِ الفوز، ولا يكرم الشاب النَّابه صاحب براعة الاختراع، والأصوات التى تتصدى لهذا الطوفان من اللعب واللهو أصوات ضائعة فى صخب الكذابين، والمنافقين، لاشك أنك تجد مفارقة متسعة جدا بين هاتين الآيتين، آية هى غاية الجد وغاية التَّفانى فى عمل جماعة تعمل فيه عقول رائعة، وأيدى رائعة، بروح الإيثار، وليس

الأثرة، وإنكار شديد للذات الضيقة الأفق، وإحضار باهر للذات التى تحرص على أن تعيش حُرَّة قادرة، وأن تعيش أجيالها حرَّه قادرة فى وطن مصونُ لا يَطمع فيه مُغامر، والحياة الدنيا فى هذه الآية حياة جادة، وكادَّة ومُستَشْرفة نحو الأفضل دائما، وآية تريك الحياة الدنيا وهى فارغة لاهية عابثة ضائعة ليس فيها طموح وليس فيها فكر، وليس فيها لذه الاستشراف، والمجاهدة والمرابطة، وكأن القرآن العظيم يقول لنا ليس أمامكم طريق ثالث لأنكم إذا نزلتم عن الدرج الأول درجة واحدة أصْبَحْتُم مغلوبين ضارعين، ولن يرحمكم عدوكم، وستصيرون كالذين فى أول الدَّرَج، هذا أو الطوفان. ولم أعرف فى الكتاب العزيز آية حثَّت الأمة على التفوق والمنَعة والغَلَبة وحذرتها من الوَهَن، وحَشَدَتْ طاقتها لتكون قوتها ومنعتها بعقولها وبأيديها كآية ﴿**فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ**﴾ وآية ﴿**إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ**﴾ تكررت فى الكتاب ولكنها لم تسبق بما فى آية ﴿**فَلا تَهِنُوا**﴾، وإنما جاءت فى كل مواقعها مسبوقة بذكر الذين أنكروا البعث والذين كفروا، وكأن ذكر الحياة الدنيا بعد آيات أهل الضلالة للإشارة إلى أن الذى أضلهم هو شدة ولَعِهم بهذه الحياة الدنيا، وأنها أغْوَتْهم وأغْرَتهم وأن لهم فيها رياسة وعلوا واستكبارا وهى ما هى إلا لهو ولعب، وقد جاء ذلك فى سورة الأنعام فى قوله تعالى: ﴿**قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٣١) وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ**﴾ [الأنعام: ٣١، ٣٢] وفى سورة العنكبوت: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (٦٣) وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ**﴾ [العنكبوت: ٦٣، ٦٤].

وفى سورة الحديد: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٩) اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾[الحديد: ١٩، ٢٠].

وهذه هى مواقـعها فى الكتـاب العزيز ولا تجـد مسافـة بينها وبين الآية قبلها، كما تجد ذلك فى سورة القتال، وموقـعها فى كل مواقعها غير القتال موقع مألوف، وهو التهوين بأمر هذه الدنيا التى صـرفتهم زينتها، وصرفهم لَهْوها ولَعِبُها عن الحق المبين، والذى فى القـتال شىء آخر. لأن الآية قبلها ﴿ فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ ﴾ تحث على غـاية الجـد، وذروة الكفـاح، والكد، والبحث فى أسرار هذا الوجود واكتشاف قوانينه، والملاحقة التى لا تهدأ فى ذلك، حتى تكون الأمة سابقة متمكنة مقتدرة على من تحدثه نفسه منازعتها، والاستيلاء على ذرة رمل واحدة من أرضها، وهذه المساعى لا يسعاها إلا أكرم الرجـال، وأنبل الأحـرار، الذيـن يأنفـون أن يعيـشوا إلا تحـت مـظلتهم، وأن لا تحـميـهم إلا سواعـدهم، وألا يتقـدمـوا خطوة إلا بعقـولهم هم، وبأيديهم هم، فى وأن يكون ما سواهم عـالة عليهم، وألا يكونوا هم عالة على غيرهم، أى شأن من شئونهم، هذا شىء، واللعب واللهو شىء آخر، الأولون هم أهل عـمارة الأرض، وهم الأحقـاء بخلافـة الله فى الأرض، والآخرون لاهون لاعبون عـابثون لا قيمة لهم، وكأنهم يعيـشون العمر كله فى مدينة الملاهـى، التى يصنعها لنا نـظامنا المتآمر علينـا مع عدونا، والتى يصرفنـا بها عن الخيـر، الذى نحن قادرون عليـه، وعن الإبداع الذى نحن قادرون عليـه، وإذا طلب علماؤنا إعداد مـدن علمية تعـيش فيهـا الكتائب المنقطعة لإعـداد القوة والمنعة انصرف الـنظام عنهم، وأدار لهم ظهره وولى وجهه نحـو مدينة الملاهى، وانصرف الهلافيت إلى مـا انصرف إليه، وربما غمزوا دعاة مدائن العلم.

وقد ذكر بعض علمائنا أن الإخبار عن الدنيا باللعب واللهو من باب التشبيه وأن الدنيا التى هى مدة العمر تشبه اللعب واللهو من جهة أنها لا فائدة منها ما لم يكن للإنسان غايات نبيلة يسعى إليها كهذا الهدف النبيل الذى حددته جملة ﴿فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ لأن أحرار الرجال لا تراهم إلا سُعَاةً لتحقيق هذه الغاية، وقد اعتبر علماؤنا جملة ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ تعليلا لآية ﴿فَلا تَهِنُوا﴾ وأن العمل فى تقوية أركان دعائم الأمّة بالعلم، والجد سببه أَنَفَةُ الأحرار الكرام من أن يعيشوا حياة لاهية لاغية عابثة، وأنهم يجدون أنفسهم فى حياة الجد، والكد، والانقطاع لتحقيق القوة والمنعة القادرة على جَدْع أنف من يرمى ديارهم بحصاة، لأنهم يعلمون أن حياة العبث واللهو، حين يتحول الوطن بفعل القيادات الجاهلة الفاشلة إلى ما يشبه مدينة ملاهى، هذه الحياة العبثية لا تنتهى بهم إلا إلى نهاية واحدة هى أن يكونوا عبيدا خدما لعدوهم والخدمة والعبودية الآن تطوّرت فقد تكون عبدا خادما وأنت شامخ الأنف مُشْمَخِر، وحسبك من العبودية وذل الخدمة أنك تعيش تحت مظلة حماية عدوك الألد الذى يسكن فى أرضك بقوته ومنعته وعتاده وأنت تمرُّ عليه، وتضرب له التَّحية والسلام، هذه عبودية أسوأ من عبودية سوق النخاسة لأن عبيد سوق النخاسة كانت تحميهم سيوف سادتهم ونحن وسادتنا تحمينا سيوف عدونا الألد ومات عنترة، واختطف شيبوب، قلت هذا وجه جيِّد من وجوه تحليل آية إنما الحياة الدنيا، وأنها تشبيه وتعليل لآية الجادين الكرام الذين يعملون تحت مظلة ﴿فَلا تَهِنُوا﴾.

قلت: قوله تعالى ﴿فَلا تَهِنُوا﴾ من أقوى آيات الكتاب التى تحث الأمة على أن تكون قوتها ومنعتها هى القوة الأولى والمنعة الأولى فى هذا الكوكب لأنها لو كانت الثانية لأوهنتها الأولى، وبقى أن أبين شيئًا وهو أن هذه القوة التى لا تقهر قد أمرها ربها بالعدل والبر والرحمة ولم يترك خيرا إلا أمرها به، ولم يترك شرا إلا نهاها عنه، فليست قوة قهر، ولا سيطرة، ولا غطرسة،

ولا نهب ثروات، ولا تدمير بيوت على رؤوس ساكنيها، ثم هى قوة لا تعتدى لأن الله لا يحب المعتدين ولا تقطع شجرا، ولا زرعا، ولا تُصيبُ امرأة، ولا طفلا، ولا شيخا، ولا رجلا لا يحمل السلاح، ولا تجهز على جريح، يعنى قوة فيها معانى البطولة والمروءة والشهامة، والنخوة، وبها يعتدل الميزان فى الأرض، ولابد لهذا الوجود من وجودها، لتواجه عَسْف قوة الشر المسيطرة على هذه الأرض، ومن أجل أن تعرف مكارم الأخلاق التى تتأسَّسُ عليها القوة التى لا تهنُ والتى أمرنا الله بها كما أمرنا بالصوم والصلاة والزكاة فانظر إلى قوله عليه السلام «فى كل ذات كبد رطبة أجر». .

وقوله صلوات الله وسلامه عليه «دخلت امرأة النار فى هرة حبستها لا هى أطعمتها، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض». وقوله صلوات الله وسلامه عليه «رأيت رجلا يتقلب فى الجنة بسبب غصن شوك أزاله عن الطريق خشية أن يؤذى المسلمين». لتعرف الفرق بين قوة الرحمة والبر والعدل، وقوة القهر، والغطرسة، والشر، القائمة الآن فى الأرض.

قوله سبحانه ﴿**وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ** (٣٦) **إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ**﴾ [محمد: ٣٦، ٣٧].

اقرأ الآيتين مرة ثانية ورأس الآية الأولى هو قوله تعالى ﴿**إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ**﴾ وهذه الرأس من تمام معنى آية ﴿**فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ**﴾ وتأمل نسق الآيتين، وضع يدك على التصاقب الشديد الذى بينهما فى الحذو والبناء، ومن أسرار بيان القرآن أنك ترى نَسَقًا مَصقولا على أتمِّ ما يكون من وجوه صنعة البيان ثم تراجع فيظهر لك أن هذا النسق الذى هو أتم ما يكون فى صنعة البيان ليس صنعة لسان، وإنما هو صَنْعة المعانى، وأنها هى التى اختارت هذا النسق، لأن المعنى ما كان له أن يكون على الوجه الذى هو عليه إلا إذا جاء على هذا النسق، وكان علماؤنا الذين أخذنا ونأخذ عنهم يقولون أسرار بلاغة القرآن، يضيفون صفات الجودة والبلاغة المعجزه إلى القرآن

ولا يضيفونها إلى القائل جل وتقدس لأنه سبحانه لا يوصف إلا بما وصف به نفسه نقـول كما قال علماؤنا هذه الكلمـة القرآنية من الفصاحـة العالية، ومن الإيجاز العالى، ومن البلاغة المبينة ثم نقف عند هذا ولا نتجاوزه.

والذى أردته فى الآيتين أن كل آية بدأت بأداة الشـرط ﴿إن﴾ وفعل الـشرط فيها جملتان: الأولى ﴿تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا﴾ والثانية ﴿يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ﴾ وجواب الشرط فى الأولى كـلمتان فـعليتـان فعلهمـا مضـارع جواب الأولى ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ وجواب الشرط فى الثانية جملتان فعليتان فعلهما مضـارع ﴿تَبْـخَلُوا وَيُخْـرِجْ أَضْـغَـانَكُمْ﴾ وهذا النسق اللفظى اجـتلبـه المعنى واستـدعاه، وهذا ظـاهر، وهذا التصـاقب فى المبانى ووراءه تصـاقب ظاهر فى المـعانى لأن جـملة ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا﴾ هـى رأس المـعـنى فى الآيـتين؛ لأن ما بعـدها جواب لها ومـا بعد ما بعـدها متـفرع عن جوابهـا وخارج من هذا الجواب، ولهذا كانت الآيتان شيئًـا واحدا وهذا وجه تصاقب المعانى، وقد ذكر الطاهر ابن عاشور أن الواو التى فى رأس الآية الأم تعطف مـا بعدها على قوله تعالى: ﴿فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ وهذا جيد لأن هذه الآية من مـعدن فلا تهنوا لأن الإيمان والتقوى لا يكتمـلان، إلا إذا كانا يحملان هَمَّ الأُمَّة ويذودان عنهـا الوَهَنُ والضراعـة وطلب السلم، ومـدّ اليد الضـارعـة المغلوبة المهزومـة للعدو، ولا تجد قائدا سكن فى قلبه الإيمان، وسكنت فيه التقوى إلا وهو يصر على أن يكون عـاليا على عـدو الله بقوتـه، ومنعتـه، لأنه يأنف أن يذل والله معه، هذا القائد المؤمن الذى سكنت التقـوى فى قلبه لن يظل غافلا حتى تدور رحا الحرب، وإنما هو الذى يعد للحرب عتادها، ويعقل قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وتأمل كلمة ﴿مَّا اسْتَطَعْتُم﴾ وكيف أمرنا ربنا أن نبلـغ غاية ما عندنا من قـدرات فى الإعداد، ولابـد أن تكون القدرات قـدرات تدخل فى الإعـداد، وأولها فى زماننا العلم والتصنيع المؤسس على العلـم الذى تنتجه عقولنا، ثم تأمل كلمة ﴿مِّن قُوَّةٍ﴾ وكيف جاءت نكرة لأن قوة الحرب تتغـير بسرعة فائقة والنكرة هنا تـفيـد العـمـوم الذى يتنـاسب مع كل زمن، ثم قـوله تعـالى: ﴿وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ وكأنها تشيـر إلى أعداء الله فى زماننا وفى كل زمان، لأن كلمة﴿وَآخَرِينَ﴾ شاملة لكل أعداء الله الذيـن يأتون بعد أعداء الله فى زمن الجيل الأول، ثم ذكر النفقه فى سبيل الله، أى فى باب الجهاد، وقد جاء ذلك فى الآية التى بعد هذه ﴿ هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [محـمد: ٣٨] وآية الأنفال هذه تفـتح باب فهم آية القتال، وأعـود إلى بيان العطف الذى أشار إليـه الطاهر بعد بيـان الربط بين الإيمان والتقوى من جـهة وآية ﴿فَلا تَهِنُوا﴾ لأن المعطوف الذى بعد الـواو جمل كثـيرة عطف بعضـها على بعض، والجملة المعطوف عليـها عطفت عليها جـمل وأن الذى سيعطف هى مجموعـة الجمل التى بعد الواو، على مجموعة الجـمل المعطوف عليها، وضع العـائلتين المتعـاطفتين بين عـينيك، وابحث عن المناسبـة التى وراء هذا العطف ولا تهـمل دلالة كلمـة (العطف) ومـا وراءها من مـعنى الاقتـراب، والجـمل المعطوف عـليـهـا هى: فـلا تهنوا. . وتدعـوا إلى الـسلم. . وأنتم الأعلون. . والله معكم. . ولن يتركم أعمالكم، وراجعـها وانظر إلى ما فيها من رضى من الله سبـحانه، ومن اقتراب من هذه الفئـة التى تعمل على نفى الوهن عن أمة التوحيد، وأمة القـرآن، وأمة الحق، وأمة الشهادتين، تجد هذا الاقتراب والعطف عليـهم فى نصحه سبحانه لهم بألا يَهنوا، حـتى يطمع فيهم عدوهم، وإذا طمع فيهم وهم فى حالة وهـن فالويل لهم من عدو لا يرحمهم، ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨]، ثم الإقبـال عليهم وشـد أزرهم بقوله ﴿وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، ثم

التحالف معهم على النصر وأنهم يصبرون فى أقوى مَعِيَّة (والله معكم) ثم البشارة لهم بأن كل ما يعملونه فى هذا الباب هو باق لا ينقص منه شيء، هذه هى الجماعة المعطوف عليها وهذا هو ما يلاحظ فيها من تجليات وأضواء.

والجماعة المعطوفة هى: وإن تؤمنوا.. وتتقوا.. يؤتكم أجوركم.. ولا يسألكم أموالكم.. إن يسألكموها.. فيحفكم.. تبخلوا.. ويخرج أضغانكم..

ولاحظ تغيير الموقف وأن المعاتبة والمخاشنة هنا ظاهرة، وأول ما ترى هذا فى قوله فى رأس الجملة ﴿ وَإِن تُؤْمِنُوا ﴾ والحديث لأمة الشهادتين الذين هم الأعلون، والذين معهم الله، يحفظ لهم كل عمل يعملونه فى المحافظة على منعة وقوة أهل الحق، لأن أهل الباطل وهم الأكثر إِلْبٌ على أهل الحق، ولابُدَّ أن تكون لهم شوكة، وقدرة وحماية وهيبة، الكلام هنا يبدأ بأداة الشرط التى تكون فى المعنى النادر، وكأن الإيمان منهم والتقوى فى حكم الأمر القليل النادر، وقد قلنا إن الإيمان والتقوى هنا إيمان عزيز، وتقوى عزيزة لأنه لا يجعل وَكْده وكَدَّه فى زيادة قوة الأُمَّة إلا من أَحَبَّها وجعل حاجتها فوق حاجته، ويمكن أن نقول إن الإيمان العزيز النادر لا يتصالح ولا يتعايش مع الوَهَن، وأن التقوى التى هى تقوى الله لاتتصالح ولا تتعايش مع تقوى غيره، وأن من اتقى الله لا يَتَّقِى غيره، وأن من كان كذلك لا يمد يدا ضارعة يدعو إلى السلم، وإنما يكون بيَن أمرين لا ثالث لهما النصر أو الشهادة، وأن قوله سبحانه ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ قريب من قوله جل شأنه ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ وفى قول: ﴿ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴾ مخاشنة ظاهرة لأنه تَسَلْسَل وتولّد من رحمها كل ما فى السورة بعدها. وكأنه جيء بهذه الجملة ليرتب عليها الجملة التى بعدها والتى تحتضنها أداة الشرط الدالة على أن ما يأتى بعدها مشكوك فيه لتكون جذرا أو أمّاً تتولد منه بقية الجمل فى السورة، لأنه يترتب على سؤالهم أموالهم بخلهم، وإخراج أضغانها، وأنهم يدعون لينفقوا فى سبيل الله فيبخل

منهم من يبخل، ثم تكون هـذه العبارة التى لا أظن أن الأمة خـوطبت من ربها الذى هو معها خطابا أشدَّ منه، وهو قوله تعالى ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محـمد: ٣٨]، أقول إن المخاشنة بدأت تقـوى من قوله تعالى: ﴿وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ التى أعيدت فى صياغة ثانية هى صياغة الشرط التى صارت جـذرا خرج منه كل مـا بقى من السورة، وخرج مـنه أشد خطاب خاطبنا به ربنا، وهو خطاب تهديد واسـتئصال لأنه سبحانه لا يستـبدل بنا قوما غيرنا إلا إذا استأصلنا كما استأصل الأمم المكذبة، ولاشك أنه من المحير جدا أن أبدأ بقوله تعالى: ﴿فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ وأن أتذوق هذا الاقتراب من الحق جل وتقدّس لهذه الأمة، ثم أنتهى إلى التهـديد بالاستئصال، وهذا أصعب ما فى هذه الآيات حتى ذكر الطاهر أن أقوال المفسرين اضطربت فيها ونرجو من الله أن يرينا خيطهـا الأبيض والمهم أن هذا الغضب المتفـرد فى خطاب الأمة إنما جاء فى سياق تساهلها فى إعداد قوتها ومنعتها لتبقى دائمًا أمة الأعلون.

ومن المهم أن تتـذكر الجـملة التى وصَـفَتْ الحيـاة الدنيـا بالعبث واللهـو واللعب، وأنها وقعت بين هذين المعنيين الكبـيرين الكريمين، معنى ضرورة أن يعمل كل أبناء أمة الحق على نفى الوهن عنها، وأن تدعو إلى السلم، ومعنى المعاتبة الشديدة على الاستمساك بأموالهم التى هى مال الله جعلكم مستخلفين فيه، وأن اعـتراض جملة وصف الدنيا بـاللهو، واللعب، بين هذين يعنى أن الإنسان الذى يحترم إنسـانيته ويحترم معنى خـلافة الله له فى عمارة الأرض يأبى أن تكون حيـاته فى الدنيا لهوا ولعبـا، ويأبى إلا أن يكون من الداعمين للحق والعدل والبر، والرحمة فى هذه الأرض، بتقوية منعة أمة الخير، والبر، والعـدل، والرحمـة، والآمرة بكل مـعروف، والناهيـة عن كل منكر، وهذا جيد، وجيد أيضا أن نلتفت إلى هذا الشرط ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا﴾ وأن مجيئه عقب إنما الحياة الدنيا لعب ولهو فيه إشارة قريبة إلى أن عبثية هذه الحياة الدنيا لا تكون إلا عند الفارغين من الإيمان بالحق، وأن الـقلوب التى يسكنها الإيمان

لا تعرف إلا الجد، والكد، والعمل، الذى يراه الله ورسوله فلا تحوم حولها ملاهى اللعب واللهو، وإذا كان وجود آية اللعب واللهو يشير إلى أن ما بعدها يْحَصِّنُ من عبثها الإيمان فإنها أيضا تشير إلى أن ما قبلها يْحَصِّنُ من عبثها الاشتغال بالأمر الجد، الذى لا جد أجدّ منه وهو العمل على تقوية الأمة وشد أزرها، ويلاحظ أن الإيمان فى قلب المؤمن يضاعف قوته القتالية ﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦٦] وهذا هو أثر الإيمان فى تكوين روح وقوة المجاهد، وهو كذلك فى تقوية روح وقوة العالم، والصانع، القائمين على إعداد المنعة والقوة؛ وإذا قلت إنه بالإيمان يصير المجاهد باثنين فلك أن تقول إنه بالإيمان أيضا يصير العالم بعالمين والصانع بصانعين والزارع بزارعين، وأن مَنعة الأمة لابد أن تجرى فى هذا كله، فليس هناك جيش قوى إلا إذا كان وراءه صناعة قوية، ومعامل قوية، وزراعة قوية، وهكذا كل مناشط الحياة، ولك أن تقول أيضا، إن الإيمان العزيز النادر الذى فى قوله تعالى: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا﴾ بعد قوله ﴿وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾، فى سياق القتال هو الإيمان الذى دفع أصحابه إلى بَيْع أنفسهم لله، ذلك البيع الربيح الذى جاء فى سورة التوبة ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١] وإذا كانت آية التوبة تفيد أن القوم باعوا أنفسهم وأموالهم، فإن آية القتال هذه والتى ظهرت فيها المخاشنة والمعاتبة من الله سبحانه لم تكن فيها المخاشنة والمعاتبة للأمة كلها وإنما كانت هناك شريحة لم تبخل بشىء، وقد أشارت إليها الآية فى قوله تعالى: ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ فالذين بخلوا فريق منا وليسوا كلنا، ولك أن تقول إن المخاشنة والتهديد بالاستئصال وأن يبدل سبحانه بنا قوما غيرنا إنما هو للذين لم يتوهج إيمانهم، ومن لم يبلغوا ذروة العطاء، ولم يبيعوا أنفسهم لله، وذلك لأن الجد قد جد؛ والأمة فى معمعة القتال وفى مواجهة الصادين عن سبيل الله، والمشاقين لله ولرسوله، وهذا وقت لا يجوز لأحد فيه أن يبخل بنفس ولا مال.

وقوله سبحانه ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ جواب ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٧٩] وإعطاء ربنا لأجر العمل الصالح وفى الذروة منه الإيمان والتقوى أمر معلوم، وإنما نص عليه هنا لأن الإيمان هنا عزيز نادر لوقوعه بعد إن الشرطية وكذلك التقوى لأنه إيمان القائمين على شد أزر الأمة وتقوية منعتها وهيبتها واقتدارها إيمان الرجال الأبطال المرابطين وليسوا جنرالات البزنس وأن أجره أجر متميز، هو أجر الذين قال لهم ربنا فى سورة التوبة ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ﴾ [التوبة: ١١] وقد سبق أن بينا العلاقة بين ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١] وقراءة آية ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾، فقد قرئت قاتلوا وقتلوا بالبناء للفاعل هذا شيء وشيء آخر هو أن تحصيل الإيمان العزيز النادر والتقوى العزيزة النادرة اللذان يفضيان بصاحبهما إلى البيع الربيح، ليس إلا عطاء من الله ومنّاً، ولولا الله ما اهتدينا، ومن يهده الله فلا مضل له فهذا الإيمان نعمة ونعمت النعمة وهذه التقوى نعمة، ونعمت النعمة؛ ولو طوى الحق السموات والأرض ووضعها فى يمين عبده لما كان ذلك عدل الإيمان العزيز النادر، والتقوى العزيزة النادرة، ثم يكون المَنّ الذى لا يكون إلا منه والعطاء الذى لا يكون إلا منه سبحانه وهو ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ على إيمان لم يكن إلا منه وعلى تقوى لم تكن إلا منه وهذا وذاك من النعم الغامرة، وأقول إن هذا يهيئ للعتاب واللوم الذى فى الجملة الثانية ﴿وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ وهذه الجملة فى ظاهرها وباطنها لَوْمٌ ومَعَاتبة وتنبيه، وإيقاظ بل وإلهاب وتهييج، وبيان ذلك أن المال الذى فى أيدينا هو عطاء ربنا ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] وأنه فى الحقيقة مال الله جعلنا مستخلفين فيها، فإذا سألَنا مَالَنا فهو فى الحقيقة يسألنا ماله الذى جعلنا مستخلفين فيه، وقد غَفَلنا عن هذا وأمسكنا مالنا وتشبّثنا به، وقد دعا داعى الجدّ؛ ونادى المنادى حيّ على الجهاد، والجهاد بالنفس وبالمال، فلا يجوز لمن رزق الهدى ورزق المال

ورزق الإيمان النادر الذى هو ذروة الإيمان، ورزق التقـوى العزيزة النادرة، أن تمسك يده بماله، وقـد دعا داعى الجد ونادت الأمـة حىَّ على الجـهاد، ولا ننسى أن هذه سـورة القتـال وسورة الاحـتـشاد بالنفس، والمال، وإعـداد القوة، والمنعة التى ترهب عـدو الله وعدونا، فيتردَّدُ عـدوها ألف مرة قبل أن يوجه إليـها سـيفه، ثم إن الـثروة التى هى المال ما لـم تكن للأمة قوة تحـميـها استباحها عدوها، والله سبـحانه حين يسألنا المال لإعداد القوة إنما سألنا من مالنا ما يحفظ مالنا، وما يحفظ ترابنا، وما يحفظ أعراضنا، وما يحفظ أمننا، وأمن أجيالنا من بعدنا، لأن وهن الأمة يجـعل ذلك كله غنيمة باردة لعدو لا يرقب فينا إلا ولا ذمه، «**إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء**» ثم إنهم لا عهد لهم ولا ذمـة لهم، وإنما يكون لهم عهد وتكون لهم ذمة بقـوتنا ومنعتنا، وأن نقوم جـميعا، ونقـعد وشاغلنا هو التـقدم العلمى، والصناعى الذى به تفـاجئ قوتنا عـدونا، هذا أو اللعب واللهو والعـبث الذى غمرتنا فيه قيادات جاهلة:

يَسُـوسُـون الحيـاةَ بغيـر عَـقْلٍ ... فَـيَنْفُـذُ أمـرُهم ويُقـالَ سَـاسَـه

فـأفٍّ من الحـيـاةِ وأفٍّ منـهم ... ومن زمن ريـاسـتـه خـسـاسـه

ورحـمك الله يا أبا العلاء قلت هـذا فى زمنك والأمة غـالبة ومـاذا كنت تقول لو كتب الله عليك ما كتبـه علينا ونحن نرى الغِربْانَ السُّودَ على مقاعد السيادة والسياسة.

هذا ما أفهـمه وهو مما يجب أن يراجع أما ما قاله أهل العلم فـقد اختلف كلامهم: قـالوا معنى﴿ **وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ** ﴾ ظاهر الآية ينفى أنه سبـحانه يسألنا كل أمـوالنا، والمراد أنه يسألكم بعض أموالكم الذى هو مـقدار الزكاة، وقالوا لا يسألنا أموالنا لأنه سبحـانه غنى عنا، وأنه سبحانه يؤتينا ولا يسألنا، نعم إنه سبحانه يسألنا أن ننفقها فى إعداد العدة للدفاع عن أنفسنا، فإذا بخلنا

بها على إعداد العدة المتمثلة فى العلم المتقدم والصناعة المتقدمة أصابنا الوهن، ومددنا يدا ضارعة تطلب السلم. وحينئذ يستبيح العدو كل شيء ويضع يده على كل شيء وما دمنا بخلنا بالبعض لحماية الكل فإن هذا البخل يؤدى إلى ضياع الكل وترى الآن أن العدو الذى لا يُشك فى عداوته والذى يحرق المصحف يَضَع يده على منابع الثروة فى بلادنا، ويقول الكذابون الخونة إنه صديق لنا، وقد اسْتَرحْنا إلى هذا الكذب وهذا التلبيس ودخلنا فى حياة اللعب واللهو، وأدرنا ظهورنا إلى نفى الوهن الذى أمرنا ربنا به، وقال ولا تهنوا كما قال ولا تقتلوا أنفسكم، ولا تقربوا الفواحش، ما ظهر منها وما بطن، ولا تقتلوا أولادكم، يعنى أن الصياغة التى نهانها بها عن الشرك والقتل وارتكاب الكبائر هى ذاتها الصياغة التى نهانا بها عن الوهن، والغريب العجيب المضحك المبكى أن أبعد قياداتنا عن إعداد القوة تملأ الدنيا ضجيجا بأنهم يحكمون بما أنزل الله، والخطر أن جحافل المغفلين من الشباب الصالح المُغفَّل الفارغ يصدقون ذلك، ويولون وجوههم شطرهم، وغدا سيصدع فجر الصدق ظلمة الكذب، وسيهال الناس لأن الحقيقة مرعبة جدا. وقالوا لم يسألنا أموالنا لأنه ليس لنا أموال، وإنما أموالنا هى عطاء من الله واستخلاف منه كما قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

والآية تحتمل كل هذا وأرجو أن تحتمل ما قلته.

ورد الطاهر القول الذى يقول لم يسألنا كل أموالنا وإنما سألنا مقدار الزكاة الواجبة، ورأى الطاهر أن السياق لا يتناسب مع هذا قال رحمه الله: «وأما تفسير سؤال الأموال المنفى بطلب زكاة الأموال فصرف للآية عن مهيعها فإنَّ الزكاة مفروضة قبل نزول هذه السورة، لأن الزكاة فرضت سنة اثنتين من الهجرة على الأصح» انتهى كلامه رحمه الله.

ومنطوق الآية نفى سؤال الأموال ومفهومها أنه يسألنا بعض الأموال، وهذا

البعض فسره البعض بأنه الزكاة وفسره الطاهر بأنه المال الذى ليس زكاة وإنما هو التبرع للإنفاق فى الجهاد ومدافعة الوهن والذل عن الأمة لأنها إذا أصابها الوهن لا يسكت العدو إلا بذلها، وإهانتها؛ وجعلها له تابعة ضارعة، ورحم الله الطاهر الذى رأت عينه بعض ما رأته عيوننا؛ لأنه مات قبل أن يرى الأهوال التى نراها، وحسبنا أننا نرى قوة العدو تربض على أرضنا بحجة حمايتنا، ولست أعرف العدو الذى تحمينا منه قوات العدو الألد؟ هذا ما أراه وأقول كما قال الأول:

فأصْبَحْتُ والغولُ لِى جَارَةٌ فَيَا جَارَتَا أنْتِ مَا أهْوَلاَ

وأذكر بالمعنى الجليل الذى أراه فى الآيات وهو أن الله سبحانه وتعالى يعطى، ثم يثيب على العطاء الذى أعطاه، يعطى الهدى والإيمان والتقوى ثم يثيب على الهدى والإيمان والتقوى، ويعطى التوجه إلى البر وعمل الصالحات والذكر والتسبيح نبهتنا ثم يثيب على ما أعطى، ثم يسألنا أموالنا التى هى من عطائه فنبخل، وهذا مما تنبّهنا إليه الآيات، ويقول الطاهر إن جملة الجواب الأولى ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ ليست مقصودة وإنما المقصود الجملة بعدها وهى ﴿وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ وإنما ذكرت الجملة الأولى من باب الإدماج قال رحمه الله «إن جملة يؤتكم أجوركم إدماج وأن المقصود من جواب الشرط هو جملة ﴿وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾» والإدماج الذى ذكره الطاهر المراد به عند البلاغيين أن يضمّن كلام سيق لمعنى معنى آخر كما فى قول الشاعر يصف الليل بالطول:

أُقَلِّبُ فيه أجفانى كأنِّى أعُدُّ به على الدهر الذنوبا

فقد ضمّن وصف الليل وهو ما سيق البيت له الشكاية من الدهر، وحمل الآية على هذا، يعنى أن قوله «لا يسألكم أموالكم» هو مقصود الآية، ثم أدمج فى ذلك أنه سبحانه يؤتكم أجوركم، ولك أن ترى أن قوله تعالى: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا﴾ يستدعى جملة ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ أكثر مما يستدعى الجملة التى بعدها، ولهذا قدمت لأن الآية بشأنها أعنى، والله سبحانه وتعالى يؤتينا ولا يسألنا ونحن نسأله

ولا نؤتيه، لأنه غنى عن العالمين، وقبل أن يؤتينـا أجرنا أعطانا الإيمان العزيز النادر، والتقوى العزيزة النادرة، ثم أعطانا أجرهما ثم سترنا ولم يسألنا أموالنا لأنه علم أن فينا ضعفا، فلم يسألنا ما يكشف ستره عن ضعفنا.

قوله سبحانه ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾.

أشرت إلى التـصاقب الذى بين هذه الجـملة والجملة التى قبلـها فى المبنى والمعنى وهى كما نرى جملة مكونة من أربع جمل جعلها النظم الشريف بمثابة المفردات، فلا تستقل واحدة منها بمعنى لأنها ركبت بواسطة أداة الشرط تركيبا سلبها مـعانيها المستقلة وأدخل جـملتها فى معنى عام هو المقـصود من جملة الشرط، وهذا اللون من النظم هو الذى سماه الشيخ عبد القاهر النمط العالى والبـاب الأعظم، والذى لا ترى سلطان المزية يعظم فى شىء كـعظمـه فيـه، وهذه الجملة المكونة من الجمل الأربع واقعة فـى معنى تعليل الجملة الأخيرة، الداخلة فى تكوين الجملة قبلها، والتى حذيت على حذوها؛ وأنه سبحانه لم يسألنا أمـوالنا لأنه لو سألنا أموالنا وأحـفانا فى السؤال بخلنا وأخـرج البخل أضغاننا، وهذا هو معنى أن الله سبحانه علم فينا ضعفا فلم يسألنا ما يكشف ستـره عنا، لأننا نعلم أن المال ماله، وجعلنا مـستخلفين فـيه، ونعلم أنه من نعمه علينا، وما بنا من نعمة فمنه سبحانه، وليس لأحد فى الأرض على أحد منَّة ونعمة، إلا أن يكون قد اختاره الله وأجـرى نعمته لعبده على يديه، ومع هذا اليقين يغلبنا ضَعْفُنَا ونَبـخل بمالنا ونُمْسكُه ولا نجيب به داعى الله، وهذا هو الضعف الذى ستره بستـره؛ ويعلمنا به شيئًا من مكارم الأخلاق؛ وهو ألا يكلف بعضنا بعضـا بما يشق عليه، حتى يجيب بعضنـا بعضا بطيب نفس، لأن الله سبحانه لم يشق علينا فيمـا أعطانا، فليس من الحكمة أن يكلف بعضنا بعضا بما يفضى بنا إلى الرفـض، والعصيان حـتى لا يُخْرج بعضنا أضـغان بعض، وهذا من الأدب العالى ومن مكارم الأخلاق الواسعة الأفق.

وهذه الجملة بجـملها الأربع الداخلة فى تكوينهـا مؤسسة كـما قلت على

الجملة الأخيرة من التى قبلهـا، ولعل هذا هو الذى أغرى الطاهر بالقول بأنها هى المطلوب الأهم، وأن ما قبلها جاء مُدْمَجًا فيها.

ويلاحظ أن هذه الجملة الواقعة موقع العلة والسـبب من التى قبلها يتشارب فيها معنيان، قلما رأيتهما يتـشاربان فى كلام الناس؛ لأنهما معنيان مُتْناقضان المعنى الأول الغضب الذى يبلغ غايته فى قـوله سبحانه ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ والثانى الستر والرحمة ومـلاحظة ما فينا من ضعف، ترى ذلك وغيره فى أنه لا يسألنا ما يوقعنا فى حَرَج المعصية، ويكشف ضَعْفَنا أمام أنفسنا وبين يديه، وأن ستره جل وتقدّس يَسْتُر ضَـعْفى عن نفسى، حتى لا أخجل من الذى أنا فيـه، ويبقى غطاء سَتْر عيب النَّفْس عن النفس، وهـذا من أكرم الكرم ومن أحسن محاسن الأخلاق.

وكلمـة ﴿يَسْأَلْكُمُـوهَا﴾ أخت كلمـة ﴿أَنُلْزِمُكُمُـوهَا﴾ [هود: ٢٨] وقد سمعت من بعض شـيوخنا أن طول وثقل كلمة ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾، مُعَبّر عن ثقل الإلزام، ومثله قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ﴾ [التوبة: ٣٨]، وأن التثـاقل فى كلمة اثاقلتم يصور ثقل التـخاذل، وعدم النهوض والإسـراع إلى أمر الله، وكنا نرى ذلك مما يدخل فى باب تصاقب الألفاظ لتصاقب المعـانى الذى فتحه أبو الفتح ولم يسلكه أحد بعده، وأنَّه قال إن الهمزة أثقل من الهاء ولذلك جاءت فى (الأز) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣] بخلاف الهاء فقد جاءت فى الهز تقـول هزته الريح، ولهذا جاز لنا أن نقول إن كلمة (إن يسـألكموها) تـفيـد معنـى ثقل سؤال كل الأمـوال أو أكـثرها، وكلمـة ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ الفاء تعنى ترتيب الإحـفاء على السؤال وأن الإحفـاء جزء من الشرط لا يتم الشرط إلا به لأن الجواب الذى هو «تبـخلوا ويخرج أضغانكم» مـرتب عليهـما مـعا، والإحـفاء فى السـؤال، قال الراغب هو الإلحـاح فى

المطالبة، يقال أحفَيْتُ السؤال وأحفَيت فلانا فى السؤال قال تعالى: ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ﴾ وقال الزمخشرى الإحفاء المبالغة وبلوغ العناية فى شىء وأحفاه فى المسألة إذا لم يترك شيئًا من الإلحاح، وأحْفَى شاربه إذا استأصله، ولم تأت هذه الكلمة بهذا المعنى إلا فى هذه الآية والمراد فيجهدكم بطلب الكل كما قال البيضاوى، وقد فسَّر الشهاب كلمة البيضاوى بقوله يشق عليكم طلبه كله، وما دام هذا علة قوله: ﴿وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ فالمعنى والله أعلم لا يسألكم أموالكم سؤالا فيه إحفاء لكم وإلحاح، أو فيه استئصال لأموالكم من قولهم أحفى شاربه إذا استأصله، وهذا راجع إلى قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] أى لا تطالب الناس بما يشق عليهم، وهذا موجه إلى كل ذى سلطان، وأن المنعم بالنعم كلها لا يشق على الناس ولا يفرض عليهم فروضا تُحفيهم وتستأصل أموالهم، والواجب الرفق بالناس فلا تفرضوا عليهم فروضا تخرج أضغانهم، لأن هذا من المَفْسَدة؛ والويل لمن أخرج من الناس أضغانهم، وهذا معنى ظاهر فى الآية، ولابد من ملاحظة أن السياق سياق حرب، ومدافعة عن النفس، والمال، والأرض، والعرض، ومع ذلك كان هناك خط يجب الوقوف عنده، وأن لا نتجاوزه لأننا إذا تجاوزناه أخرجنا من القلوب أضغانها، وليس من الحكمة فى شىء أن تَسْتخرج أيها المسؤول أضغان قلوب المواطنين لأنك إن فعلتها فلن تأمَن على نفسك وملكك، وهذا من باب السياسة التى تحكمها الحكمة، والتى لا يدركها سادتنا الأغبياء، وقوله سبحانه ﴿تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ تحتاج إلى مراجعة لأن جواب الشرط إذا كان مكونا من جملتين عطفت الثانية فيهما على الأولى احتمل الكلام وجهين: الأول أن تكون الجملة الثانية مرتبة على الشرط وصالحة لأن تكون وحدها جوابا لهذا الشرط، كما تقول إن جاءنى فلان كسوته وأعطيته، فإن جملة أعطيته صالحة لأن تكون جوابا، وأن تقول إن

جاءنى فلان أعطيته، والوجه الثانى أن تكون الجملة الثانية ليست مرتبة على فعل الشرط وإنما هى مرتبة على جملة الجواب الأولى، كما تقول إن جاء فلان سلّمت عليه وخرجت، فإن الخروج ليس مرتبا على مجىء فلان، وإنما هو مرتب على المرتب عليه وهو السلام، وقالوا إن هذا الضربْ من الكلام منطو على شرط مقدر وكأنك قلت إن جاء فلان سلمت عليه وإن سلمت عليه خرجت، وهذا كله ملخص من كلام جليل للشيخ عبد القاهر الجرجانى وقد سبق ذكره.

ونعود إلى الآية ونقول: هل ترتيب جملة ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ على الشرط الذى هو السؤال الذى فيه إحفاء، وأن المعنى أن يسألكموها فيحفكم يخرج أضغانكم، أم أن إخراج الأضغان مرتب على جملة الجواب التى هى البخل وأن الذى يخرج الأضغان ليس هو السؤال، وإنما هو البخل، والمعنى إن يسألكموها فيحفكم فتبخلوا وإن تبخلوا يخرج أضغانكم؟

كلام الزمخشرى فيه إشارة لجواز الأمرين لأنه قال فى بيان فاعل يخرج يجوز أن يكون الضمير لله عز وجل أى يُضْغنكم بطلب أموالكم، وعلى هذا الوجه يكون إخراج الأضغان مرتبا على الشرط الذى هو السؤال وقال أو للبخل وهذا يعنى أن البخل هو الذى أخرج الأضعان، وأن إخراج الأضغان مرتب عليه وأن أصل الكلام وإن تبخلوا يخرج البخل أضغانكم؛ وأن الكلام على شرطين، والبيضاوى يقول والضمير فى يخرج لله تعالى يجيز أن يكون الضمير لله تعالى أو للبخل أو للسؤال، والطاهر يجيز ما أجازه الزمخشرى، وأبو حيان يقول والفعل مسند إلى الله تعالى أو إلى الرسول أو إلى البخل، ومثل هذا قاله الألوسى، وقال ابن كثير قال قتاده فى علم الله تعالى أن إخراج الأموال إخراج الأضغان، وصدق قتادة فإن المال محبوب، ولا يُصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه، انتهى كلامه، وكل هذا الكلام مؤسس على القاعدة التى لخصتها من كلام عبد القاهر ولا يفهم على وجهه إلا بفهمها.

وإذا كان مآل المعنى واحدا فى الوجهين فإن ثمَّة فَرْقًا فى صورة المعنى؛ هناك فرق بين أن يخرج السؤال الأضغان. وأن يُفْضى السؤال إلى البخل والبخل هو الذى يخرج الأضغان، وكلمة الأضغان كلمة شديدة، وبعيد أن تكون ضغنا على الدين، لأن الله سبحانه لا يقبل إيمان مؤمن ما لم يكن الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وسواهما النفس والمال والأهل والولد فلا يكن دين فى قلب مسلم وفى هذا القلب شىء أحب إليه من الله ورسوله؛ يعنى من دين الله، ومن أصحاب رسول الله ﷺ من جاؤوا ليعرضوا عليه كل أموالهم فأخذ بعضها وردّ لهم البعض، وما زاد على الثلث، والثلث كثير، ثم إن المجاهد يخرج للجهاد ومُبْتَغيًا بروحه وجه الله، والروح أغلى من المال وقد ذكر العلماء أن الضغن هو الحقد الشديد، واستشهدوا بالآية ولا أستطيع أن أتصور أن يكون سؤال كل المال مما يورث المسلم ضغينة على دين الله، لأن هذا يتنافى مع آية التوبة ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

هذه الآية هى المختبر الذى يختبر كل منا بها دينه، إن كان كل ما ذكره ربنا فى الآية أحبَّ إلينا من الله ورسوله، فنحن خارج الجماعة ولا دين إلا بتحقيق هذه الحقيقة، ولهذا أرى أن قوله تعالى ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ مما أخرج مخرج الإلهاب والإثارة والتهييج كما فى قوله تعالى ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وكما فى قوله جل شأنه ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤- ٤٦] وكل هذا مما لا يمكن أن يكون، وهكذا إخراج الأضغان لا يمكن أن يكون، لأنه ليس فى قلب المؤمن ضغن على دينه مهما

كانت درجة إيمانه، فضلا عن أن يكون من أهل الإيمان العزيز النادر، ومن أهل التقوى، إذا وجد الضّغن على الدين فلا يوصف صاحبه إلا بالمنافق، ومن الأمر الإلهى فى هذا الدين أنه إذ سكن فى قلب لم يبق شىء أعز على القلب منه، حتى الولد فضلا عن المال والأهل، قلت إن قوله تعالى ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ من باب الإثارة والإلهاب والتهييج وهذه كلمات الزمخشرى فى غير هذه الآية، وإنما جاء الكلام على هذا الوجه لإعداد الأمة لبذل كل شىء إذا جاء وقت الجد وصارت فى مواجهة العدو الألد، واحتاجت أمتنا إلى أموالنا وأنفسنا وأولادنا حتى لا نهنْ ولا نَدْعوا إلى السَّلْم، ونحن الأعلون والله معنا، ومما يزيد الإلهاب إلهابا ويزيد الإثارة إثارة كلمة (يخرج) لأن فى طىّ دلالتها أن فى قلوبكم أضغانا وأحقادا ساكنة ونائمة ومحبوسة ومكبوتة، وأن هذا التكليف المتجاوز للحد الشرعى الذى هو الزكاة فى الوقت المتجاوز للحد المعتاد الذى هو وقت المصادمة والمواجهة مع العدو الألد هو الذى سيخرج هذه الأضغان المحبوسة المكبوتة، فرق بين يخرج أضغانكم وينشئ أضغانكم وربما كنتم أنتم مخدوعين فى أنفسكم، ولم تعرفوا ما فيكم من ولع بالثروة حتى إن هذا الولع ولَّد فى هذه النفوس أضغانا على من ينتزعها من أيديكم، الآية إذ تَحْفُر فى نفوسنا عن دفائن الجاهلية التى ربما كانت هناك متروكة ومَسْهو عنها، حتى يثيرها هذا الموقف.

وقد وجدت فى كلام عَلمائنا ما يجعل القول بأن الكلام بنى على التغليظ والإثارة والإلهاب والتهييج مقبولا، فقد ذكروا أن الآية فى شأن الإنفاق فى سبيل الله الذى هو الجهاد وأنها أخت آية التوبة ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (٣٨) إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٨، ٣٩]، وراجع قوله سبحانه ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ﴾ وقوله ﴿يُعَذِّبْكُمْ

عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ وقوله ﴿ وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾، وهذه الجملة بلفظها جاءت فى الآية التى بعد هذه والتى هى من تمامها وهى قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ وهذا آخر كلام فى السورة، وختمت بها ليبقى رنينها فى الآذان، لاشك أن آية التوبة بُنِيَتْ على الإثارة والإلهاب والتهييج لأن هؤلاء الذين قال لهم ربهم يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم هم الذين ناداهم ربنا بأحب وصف يوصفون به وهو الإيمان، والله سبحانه لا يستبدل بأهل الإيمان قوما غيرهم.

وشىء آخر أراه لم أقرأه فى كتب من نأخذ عنهم العلم، وذلك مما يدعو إلى مراجعته وهو أننى أجد شبها آخر بين هذه الآية وقوله تعالى فى وسط السورة ﴿ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾، هذا الشّبه هو أن هناك موقفين من مواقف الاختبار والابتلاء والفرز والتمييز، الموقف الأول مشروعية القتال الذى أفرز وميَّز الذين فى قلوبهم مرض، والموقف الثانى موقف نفى الوهن عن الأُمّة ونفْى أن تَدْعُوا إلى السَّلْم، ومطالبتها بأن تكون قويَّة مستعلية فى موقف يجعلها فى شرف معيَّة الله، وأن ذلك لا يكون أبدًا إذا كان سلاحها من يد غيرها وإذا كان العلم الذى تؤسسُ عليه صناعتها وتفوقها علما مستوردا من علوم الآخرين، ولابد أن تكون صانعة العلم ولابُدَّ أن تكون هى صانعة الآلة، ولن تنْفى الوهن عنها إلا بهذا وهذا باب آخر يحتاج إلى ما يحتاج إليه من مال وعتاد وانقطاع للبحث، وتضحيات كثيرة، وهو موقف فَرز آخر، لا يُختبر فيه الرجال القادرون على حمل السلاح، وإنما يختبر فيه رأسُ المال لأن التقدم العلمى لا يتحرك خطوة واحدة، إلا بثروات كثيرة، وبذل هذه الثروات واجب لحماية الأرض، والعرض، والدين، والنفس، والجاهليون قالوا «من

لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم». وقالوا بسلاحه وليس بسلاح غيره، هناك قتال وهنا إعداد ما استطعتم من قوة ليس فى وقت القتال وإنما فى الأوقات كلها؛ وكما أن هناك فَرْز واختيار حين تدور رحا الحرب، كذلك هنا اختيار وفَرز حين لا تدور رحا الحرب وإنما حين تدور رحا نَفى الوهَن عن الأمة.

وأجد ريح هذا الوجه فيما ذكره بعض علمائنا واستبعده البعض وهو أن الله سبحانه إذا سألنا أموالنا سؤال إلزام وسؤالا يستأصِل كل أموالنا فإن هذا سيخرج أضغان الضّعَفاء مِنا ونَرَى ونسمع منهم أحقادهم على دين الله وبذلك تقع الفتنة بين المسلمين، لأن الذين لم يستخرج السؤال أضغانهم سيتعرضون للذين استخرج سؤال كل المال أضغانهم؛ وقلت إن هذا فيه ريح الوجه الأخير الذى قلت إنه قريب من آية ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾ لأن هذا الوجه يرى أن الآية أفْرَزَتْ صنفين، صنفا ضعيفا استخرج السؤال أضغانه؛ وصنفا قويا لم يستخرج السؤال أضغانه، وهذا قمين بوقوع الفتنة بين المسلمين أو بين هاتين الطائفتين وهذا بتمامه ما كان لما نزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال، هذا والله أعلم.

بقى فى الآية كلمتان كلمة قالها الرازى وهو رجل صالح فيما نراه مما كتب قال «إذا أعْطَيْتَ مال زكاتك كاملا غير منقوص ولم تزد شيئًا فأنت لا تزال فى حيز البخل، والذى يُخْرِجك من حيز البخل أن تزيد على الزكاة؛ لأنك أمام واجبين: واجب الزكاة، وواجب المروءة، فإذا كان مقدار الزكاة يؤدى واجب الزكاة، فإن للمروءة حقا عليك» وهذا كلام جيد ورحم الله كل من رأى المروءة من الدين.

والكلمة الثانية قالها الطاهر وهى «أن كلام المفسرين فى هذه الآيات إلى آخر السورة يعرب عن حيرة فى بيان مراد الله» انتهى كلامه، ولولا أن الله أمرنا بالتدبر والاجتهاد لسكتنا لأن الحديث عن مراد الله باب صَعْب جدا ونرجو أن يعلم فى قلوبنا خيرا حتى يعفينا من زللنا.

قوله تعالى ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

هذه الآية فيها معنيان المعنى الأول ينتهى عند قوله تعالى﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾، والمعنى الثانى يبدأ من قوله تعالى ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾ إلى آخر السورة وقد بُنيتْ الجمل فى القسم الأول بناء واحدا حتى تفيد المعنى الأول؛ ثم هو كلام مستأنف سيقَ مسَاق الدليل، والعلة والسبب، للذى قبله وهو قوله تعالى: ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا﴾، ووجه الدليل هو أنكم تبخلون بأموالكم إن سألكم الله هذه الأموال بدليل أنكم تدعون إلى ما دون ذلك وهو الإنفاق فى سبيل الله فمنكم من يبخل، وقد سبق أن ذكرت أن جملة ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا﴾ سيقت مساق العلَّة لقوله تعالى ﴿وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ أى أنه سبحانه لا يسألكم أموالكم لأنكم إن سئلتم أموالكم بخلتم، وهكذا ترى الجمل ممسكا بعضها ببعض ومَبْنِيا بعضها على بعض؛ لتكوِّن صورة معنى، أصله «وإن تؤمنوا وتتقوا»، وتصير كل هذه الجمل من توابع هذا المعنى الأم، وتنتهى عند قوله تعالى ﴿وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾، وتبدأ جملة أخرى تعالج حالة أخرى هى الحالة المقابلة لتؤمنوا وتتقوا وهى ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾، وهذا المعنى المقابل لا يعطف على الكلام الذى سبقه لأن الكلام الذى سبقه هو آخر الكلام الذى جاء هذا يقابله وإنما يعطف على رأس المعنى وهو قوله تعالى ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا﴾، ويصير الكلام بشقيه هكذا وإن تؤمنوا وتتقوا يكن كذا وكذا وإن تتولوا يكن كذا، وهذا نسق عجيب وكثير فى كلام الله ترى المعنى يمتد حتى إذا ما انتهى جاء بعده معنى برأس جديدة تعطف هذه الرأس وتوابعها على رأس المعنى السابق وتوابعه، ويكون بين عينيك خطان خط يعطيك المعنى الأول بألوانه وأحواله، وخط يعطيك المعنى الثانى بألوانه وأحواله.

وراجع مرة ثانية تجد الذين حصلوا الإيمان ستر الله ضعفهم فلم يسألهم كل أموالهم، ولم يكلفهم بما يوقعهم فى حرج معصيته، وإنما يأخذ منهم العفو، ويبقى ستره على ضعف نفوسهم، ولو كشف هذا الستر لخرج من تحت الستر شرٌّ ما يخرج وهو الأضغان، ومع هذا الإكرام بسَتْرِ الضعف تجد شوب الغضب الذى يكون بعضه معاتبة ناعمة، كقوله تعالى ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا﴾ ثم يشتد فجأة ويكون غضبا مُدَمْدمًا ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ وهذا كله مع ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهذه المحاذير التى يكون بها ضعف الإيمان، ويصل الضعف إلى مرحلة مخيفة هى خروج الأضغان. والخط الثانى موجز جدا لأنه مع الذين تولوا عن الإيمان، وهؤلاء لن يستأصل أموالهم، وإنما يستأصلهم بأموالهم، ويستبدل بهم غيرهم، وهكذا تنتهى السورة بالذين تولوا كما بدأت بالذين كفروا وصدوا وتنتهى أيضا بالمحاذير، التى فى طريق ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾، وأن أمامهم مواقف واختبارات وابتلاءات يعلم الله بها الذين صدوا ويعلم الكاذبين.

هذا إجمال لبيان علاقات الجمل ومواقع بعضها من بعض أما تكوين الجمل وما داخل بِنْيتها؛ وبيان المقصود من أحوال هذا الذى داخل البناء فهو الباب الأدق، واللغة هى النافذة التى نُطلُّ منها على معان وأحوال ومرام؛ وليس لنا من سبيل إلى الإطلال عليها إلا من هذه النافذة، وأول ما تراه فى الجملة الأولى ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ كلمة (ها) هى التى للتنبيه، وليس لها فى كلام العرب معنى محدَّد، وإنما معناها فقط الإثارة والتنبيه، والإيقاظ، وهذا لا يكون فى الكلام إلا إذا كان المعنى الذى يأتى بعدها له شأن أيُّ شأن، وإذا كان الحق جل وتقدس هو الذى يُنَبِّه إلى هذا الشأن فحسبك به وكافيك به، ثم إن هذا التنبيه منصب على ضمير المخاطبين، وكأن الكلام الذى له شأن

أى شأن يخصكُم أنتم، ثم إن هذه الهاء التى انصب معناها على ضمير المخاطبين تعود مرة ثانية فى قوله ﴿هَؤُلاءِ﴾ لأن اسم الإشارة هو ﴿أُوْلاءِ﴾ والهاء للتنبيه وقد جاءت بدون الهاء فى قوله تعالى: ﴿هَا أَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ﴾ [آل عمران: ١١٩] وهذه الهاء الثانية منصب معناها على ما انصب عليه معنى الأولى؛ لأن المقصود باسم الإشارة هو أنتم وكأنه قال ها أنتم ها أنتم، ولكن وضع اسم الإشارة موضع الضمير لمعنى جليل هو تمييز المشار إليه أكمل تمييز، ولا يكون ذلك فى كلامهم إلا إذا كان المقصود الإخبار عنه بخبر له شأن؛ وإنما قصد بتمييزه أن يقع الخبر عليه بعد هذا التمييز ليُشعر السامعَ بأنه هو المقصود قصده، وكل هذا يؤكد تهويل معنى جملة ﴿تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ وكل هذا تهويل وتقطيع على من يُدْعى للإنفاق فى سبيل الله الذى هو الحرب هنا ثم يَبْخل مع أن هذا المال الذى يُدعى إلى إنفاقه هو الذى سيحميه، ويحمى ماله، وعياله، وولده وعِرضه، ومن ضنّ بماله على حماية نفسه وما له وداره وعِرْضه فقد أوشك أن يقع فى الخيانة العُظمى، وهذا هو المعنى الذى قدمت له الآيات بما قدَّمت.

والآية تحتمل وجوها من الإعراب وفى كل وجه دلالة؛ والآية تحتملها جميعا لأن كل المعانى التى تفيدها وجوه الإعراب المختلفة قائمة فى الجملة وإلا لتعين وجه واحد هكذا فى الكلام كله.

وقالوا إن قوله تعالى ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ﴾ يمكن أن تكون جملة تامة؛ وبناؤها على تعريف الطرفين، ووجود حَرْفَىْ التَّنْبيه فى طَرَفيها يفيد معنى أنكم موصوفون بوصف، وهذه الإشارة إلى الوصف تثير فى نفس السامع تشوقا إلى هذه الصفة، فيأتى قوله تعالى ﴿تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ ويكون هذا جوابا عن التساؤل الذى يدور فى نفس السامع. وهذا

يعنى وقوع الصفة فى النفس موقعا حميدا، لأنها أُخبرت به بعدما استشرفت إليه، وتطلعت إليه، وقد قالوا إن إخبارك عن الشىء بعد التهيئة له ليس كإخبارك عنه بَغْتَةً غُفلا، والوجه الثانى من وجوه الإعراب أن يكون قوله تعالى ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ﴾ مبتدأ وقول ﴿تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ هو الخبر، ويكون فى الكلام تأكيد المبتدأ وتمييزه وإيجاد نوع من الإثارة نحوه، وهذا يعنى أن الخبر الذى هو جملة ﴿تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا﴾ له شأن أى شأن وأنه خبر غريب. وعجيب أن يكون هؤلاء خصوصا وهم أهل الإيمان العزيز النادر، يُدْعَون لإنفاق أموالهم للدفاع عن كيانهم فيبخلون.

والوجه الثالث ذكره الزمخشرى وهو أن يكون قوله سبحانه ﴿هَؤُلاءِ﴾ اسم موصول وجملة ﴿تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾، صلة الموصول والمعنى ها أنتم الذين تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل، وفى هذا الوجه معنى أنكم عرفتم بهذه الصلة، وشهرتم بها، كما هو الشأن فى التعريف بالصلة وفى هذا قدر من اللَّوْم والتنبيه والإلهاب ليس فى غيره، ووجوه الإعراب هى معان كامنة فى الكلام لا يفتحها إلا الإعراب.

ومن المهم أن أشير إلى شىء وهو أن حرف التنبيه وتكراره وما داخل بناء الجملة من خصوصيات؛ وإن كان للدلالة على العناية بمعنى الجملة فهو أيضا دال على العناية بالمعنى الذى جاءت هذه الجملة علَّةً له، وهو قوله تعالى ﴿وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا﴾، لأن هذا هو أصل المعنى ولك أن تصوغ الكلام على وجه آخر وتقول إذا كنتم إذا دُعيتُم لتنفقوا فى سبيل الله فيبخل منكم من يبخل فكيف يسألكم أموالكم سؤالا يحفيكم فيه؟ وكل عناية بالجملة التى هى علة هى فى الحقيقة عناية بالجملة الأصلية المعللة بهذه الجملة، فقوله تعالى ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]

توكيد الجملة التى هى علة الأمْر وذكر الزلزلة وإضافتها إلى الساعة والإخبار عنها بأنها أمر عظيم كل هذا يعنى أن الأمر بالتقوى هو الشأن الذى جاء هذا من أجله.

وقد ذكر علماؤنا أن الآية من سد الذرائع، وهو باب جليل من أبواب الرحمة، ومعناه أن نترك المباح الذى قد يُفْضِى بنا إلى غير المباح، والله سبحانه وتعالى ترك أن يسألنا أموالنا لأنه يعلم ضعفنا وأنه إذا سألنا بخلْنا فلم يشأ سبحانه أن يوقعنا فى حرج المعصية، وعاتبنا وخَاشنًا ثم رفع الحرج عنا؛ وسدّ الذريعة، وراجع مرة ثانية الآية الأصل، والآية السبب لأن الأصل ترك سؤال الأموال وفاعل السؤال المنفى هو الحق جل وتقدس، والسبب هو أننا دعينا إلى الإنفاق فى سبيل الله فبخل بعضنا، والدعاء للإنفاق المبنى فعله للمجهول ﴿تُدْعَوْنَ﴾ أقل فى الإلزام من سؤال الأموال والحق هو السائل؛ فكان بخل بعضنا سبيلا لنفى السؤال عن الكل، فهو سبحانه لم يترك سؤالنا أموالنا لأننا جميعا نبخل وإنما لأن بعضنا يبخل، وقوله فى الآية الأولى ﴿تَبْخَلُوا﴾ معناها فيبخل بعضكم بدليل ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ والواقع يقول إن من أصحاب رسول الله ﷺ من حمل إليه كل ماله كما تقدم، ولمسة الرحمة التى أريد التنبيه إليها فى هذه الآيات المليئة بالغضب؛ هى أن الله سبحانه يترك سؤال الكل من أجل ستر البعض، لأنه لو سألنا كل أموالنا، وكل أولادنا وكل أرواحنا، فلا شك أن كثيرا منا سيفعل وهم الذين اشترى منهم أنفسهم وأموالهم فى سورة التوبة، وبعضنا لن يفعل فمن أجل ستر هذا البعض رفع الحرج عن الكل وسبحان من هذا كلامه. قوله سبحانه ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ﴾ هذه الجملة خارجة من الجملة التى قبلها ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ كما أن ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا﴾ خارجة من التى قبلها، وهذا من فنون البلاغة المسكوت عنها، وذكر علماؤنا أن المعنى يبخل بأجره وثوابه، وهو فى أشد الحاجة إلى هذا الأجر وهذا الثواب،

وهذا وجه يحتمله الكلام، ويحتمل وجهـا آخر وهو الأشبه بالسياق ذكره الظاهر، وهو أن سؤال الأموال يجوز أن يكون للحرب وأن الكلام مسوق مساق التوبيخ؛ أو مساق التنبيه على الخطأ من الشح ببذل المال فى الجهاد الذى هو محل السياق، وفسّر قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ﴾ بقوله «إذ يتمكن عدوه من التسلط عليه فعاد بخله بالضُّر عليه»، وهذا هو الأظهر لأن الكلام فى قوله تعالى: ﴿فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ والسورة سورة القتال والمطلوب مدافعة العدو وكسر شوكته حتى لا يطمع فى أرضنا وأموالنا ودمائنا فإذا بخلنا بالمال وإعداد العُدَّة لدَفْعه ودَحْرِه نكون قد فتحنا بوابة البلاد له، وحينئذ لا حرمة لمال، ولا لدم، ولا لأرض والذى يبخل بماله عن إعداد هذه العدة، هو فى الحقيقة يبخل بماله عن المدافعة عن ماله، ولم يرد هذا الأسلوب على هذا الوجه فى هذا المعنى إلا فى هذه السورة، وكثر ذكر الإنفاق فى الكتاب وكان يكون مثل قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦] أو يقال ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [الحديد: ١٨] أو يقال ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١] أما الحث والتخويف والمعاتبة إلى آخر ما نراه فى الآيات فلم يرد إلا فى سياق إنفاق المال فى تأكيد قوة الأمَّةُ ومَنَعتها؛ حتى لا يداخلها الوَهَن وتكون البادئةَ بالدعوة إلى السلم، وقال سبحانه ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١]، يعنى نسالم إذا سالموا ودَعَوْا هم إلى السِّلم وكل هذا يوجب أن نكون الأسبق فى تطوير آلة الحرب، وما يلزم ذلك من تفوق فى العلوم، والصناعة إلى آخر ما فى هذا الباب، وليس لنا من سبيل إلا هذا والحصر الذى بنيت عليه الجملة يفيد أنه لا يبخل عن أحد إلا عن نفسه، وهذا جيد ويثبت فى الأمة حقيقة رائعة وهى أن دعم القوة الحامية للأمة والتى تتمثل الآن فى البحث والمعمل والمصنع

وما يستتبع ذلك من وسائل القوة هو دعم لقوة الإنسان المفرد، وأن القعود عن ذلك والتراخى فيه هو قعـود عن نصرة نفسى، وأن دفع عدوان العدو هو دفع عن بيتى، وعن أهلى وولدى، ومالى ونفسى، وكلمة حماية الأوطان ليس لها معنى إلا حـماية الأفراد، فردا فـردا، وحماية الدور، دارا، دارا، وهذا جـيد ووراءه شرط لا بد من تحقـيقه، وهو أن يكون الفرد المواطن ممتلئًـا بالإحساس بأن الأرض أرضه، والتـراب ترابه، وأن لا تكون هناك عصابة مـغتصبـة لهذا الوطن، من أبنائه، ويشعر الفرد أنه غريب وهو على أرضه؛ وهذا يعنى حماية الأوطان من سَطْو العصـابات التى تسرق حكمهـا، ثم إن بذلى لمالى من أجل حماية دارى ونفسى يـوجب أن تكون البلاد فى يد الأمناء، وهذا يكشف سرا فى معنى إسناد سؤال المال لله سبحانه يعنى أن ما نبذله لحماية أوطاننا يقع فى يد الله، وهذه إشارة إلى وضعه فى موضـعه النافع، وأن القيادة الطاهرة حين يوضع فيها مال هذا الإنفاق كأنما وضع فى يد الله؛ وكل هذا وراءه جهاد آخر للشعوب لأن تقوية المَنَعَة ونَفْى الوَهَن فى زمان صارت فـيه القوة علما وكشفا وبحثا وانقطاعا لا يكون مع قيادة جاهلة متخلفة، وهذا التفسير للآية لا يصادم ما قاله كثير من العلماء إن البـخل معناه البخل على نفسه بالأجر الذى هو فى أشد الحاجـة إليه، لأن كل هذا يحتمله الكـلام وكلها معان بعضـها من بعض لأن قوة المنعة للأُمَّة باب من أبواب الجهاد، والإنفاق فيها إنفاق فى سبيل الله.

وقد سـكت المفسـرون عن هذا الذى قلته ونبـه إليه الطاهر لأن الأمـة فى أزمانهم كانت قوية حامية، ولم يكن فيها ضعف يشغلهم، لأن الفرس دخلوا فى دين الله، وكانوا من جنـود الله وبقيت الروم وكانت قـوة المسلمين رادعة لهم والتاريخ والشعر ملىء بهذا.

قوله سبـحانه ﴿ **وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ** ﴾ هذه الجملة هى نـهاية الكلام الذى بدأ بقولـه تعالى: ﴿ **وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ** ﴾ وهى فاصلة شاملة لمعنى الكلام قبلهـا، وقد تكررت هذه الجملة فى الكتاب العزيز وفـيها

دلالة ثابتة؛ وتطوف حولها دلالات ثانوية تتولد من السياق والمقام الذى ذكرت فيه، أما الدلالة الثابتة فهى ما يدل عليها صريح اللفظ؛ وهى جملتان معرفتا الطرفين وهذا التعريف يفيد القصر، فالله سبحانه هو الغنى والغنى مقصور عليه، فليس له عند أحد حاجة وهو الغنى المطلق، وليس فى الكون غنىٌّ إلا وله حاجة عند غيره، وهذا الغنَى المطلق المقصور على الله سبحانه هو من باب ليس كمثله شيء لأنه ليس فى الوجود شيء يستغنى هذا الغنى المطلق، أما نحن فنحن فقراء فقرا عاما وشاملا، وليس الفقر فقر المال فحسب، لأن الكل فقير إلى الطعام وفقير إلى الشراب وفقير إلى الهواء، وفقير إلى أن يتنفس، وفقير إلى أن ينظر، وإلى أن يسمع، وإلى أن يتحرك، وإلى أن يفكر، وإلى أن يتعلم، وإلى أن يتكلم، وهكذا تجد أننا مغموسون فى الفقر، فإذا استغنينا من جانب أطغانا الاستغناء فى هذا الجانب، ونسينا أننا فقراء فى جوانب لا حدود لها، وقد ذكرت ظاهر ما نحن فقراء إليه، وتركت فقرنا لما هو فى داخلنا؛ وأن مكوناتنا وخلايانا ووظائف أعضائنا كل ذلك وهو لا حصر له نحن فى أشد الحاجة إليه، لأنه لو دخله أى قدر من الاختلال لأصابنا خلل عظيم، ولو قلت خلق الإنسان فقيرا لم تكن قد أخطأت لأنه خلق على ذلك وبنى عليها ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥] ولو وضعت وأنتمَ الفقراء بإزاء ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه لوجدت مناسبة لطيفة لأنك تبخل عن نفسك وأنت الفقير، والأصل ألا تبخل عليها بما يسدُّ فقرها فى أى باب من أبواب فاقتها. هذا هو المعنى الثابت لهذه الجملة، أما ما يستخرجه السياق حولها من أطياف وظلال، فهى هنا فى سياق إعداد القوة والمنعة وسؤال الأموال للجهاد، والدعوة للإنفاق فى سبيل الله، والسياق هنا مُحتَشدٌ احتشادا لا نظير له فى الكتاب فى دعوة الأُمَّة إلى أن تكون ذات قوة وذات مَنعة تحمى أرضها، وثرواتها، وأعراضها، لأن عدوها إن يقدر عليها لا يراعى فيها عهداً ولا ذِمَّة ويعلم الله ما فى قلبه من بغضاء

على هذا الدين وأهله، وهذا السياق يبرز جانبا من فقرنا، وهو الفقر إلى هذه القوة، وهذه المَنَعة وأنه أظهر أنواع الفقر، هذا شيء مما يثيره السياق من جملة ﴿أَنتمُ الْفُقَرَاءُ﴾ أما ما يستخرجه من الجملة الأولى وهي الأكرم والأسْمَى باعتبار مدلولها، فهو أن هذا الغنى الغنى المطلق والذى لا يحتاج إلى شيء، ويحتاج إليه كل شيء، هو الآن يسألكم أموالكم، ويصيرُ سبحانه سائلا وأنتم مسؤولون من أجل بقائكم، ومن أجل عزكم ومن أجل منعتكم، ومن أجل ألا تهنوا وتدعوا إلى السلم، وأنتم الأعلون، يسألكم سبحانه وتعالى مالكم لا لِتَصبُّوه فى خزائن مصانع آلات الحرب فى ديار أعدائكم، وإنما لتنفقوه على علمائكم ومراكز أبحاثكم ومعاملكم ومصانعكم ولتقوم هذه المصانع على أرضكم وبعقولكم وجهودكم، لأن القوة والمَنَعَة فى أن تقوم على أرضكم، وليس فى أن تستوردوها من أعدائكم، لأن قيامها على أرضكم وبجهود علمائكم هو الذى ترهبون به العدو، هذا المقام الذى هو مقام عزكم وغلبتكم وتفوقكم ترون الله فيه يسألكم ليحققّه لكم، وحين أَنْظر إلى الآية من هذه الزاوية أجد ما فيها من خشونة وتعنيف ولَوْم قد ذهب وبقى فيها اقتراب الله منّاً وحِرْصَه علينا، ومَدَّه يده لأيدينا لنبنى قوتنا بأيدينا ويده معنا، ومما يؤكد هذا المعنى أنَّه ليس فى الكتاب إسناد السؤال إلى الحق جل وتقدس ووقوعه على المال إلا فى هذه الآية ،ليس فى القرآن﴿لا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ إلا فى هذه السورة التى هى سورة القتال، وإلا فى هذا الموقع منها الذى هو موقع إعداد القوة والمنعة، ونَفْى الوهن، والدعوة إلى السلم، ونحن الأعلون والله معنا، هذه المعانى الجليلة لم تجتمع فى موقع من الكتاب العزيز إلا هنا وليس فى مقامات الدعوة إلى إنفاق المال وهو كثير جدا فى الكتاب أقول ليس فيه ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ﴾ إلا هنا لتأكيد معنى طالما أغفلناه وهو أن الوطن وقوته الحامية ليس وَحْدَه هدف العدو الملعون وإنما أنفسنا هى هدف العدو الملعون، كل واحد منا وكل بيت من بيوتنا وكل طفل من أطفالنا كل

ذلك بالتفصيل هدف هذا العدو الملعون الذى زُرع فى أرضنا ودبّت فيه كل القوة، ودبّ فينا كل الضعف، وبلغ الاستخفاف بالعقول مبلغا عظيما جدا تراه فى الذى يكتبه العبيد من أن العدو الحقيقى والخطر الحقيقى هو شيعة إيران وليس اليهود، مع أننى لا أعرف أن إيرانا وجهت رصاصة واحدة إلى صدر أحدنا، ولم أعرف يوما مر دون أن يسفك اليهود دَمَ واحد منا، ولم أعرف فى القرآن سؤال الله للأموال سؤالا يحفيها يعنى يتنقصها أو يستأصلها إلا فى مقام إعداد القوة والمنعة التى تحمى الأنفس والأموال والأعراض، لأن الله يعلم بغضاءهم لنا وأننا لن نعيش على الأرض كراما إلا بهذه المَنعة التى لا تهن وقد كانت الأمة فى تاريخها كله ممنوعة بهذه المنعة.

قوله سبحان: ﴿إِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾.

قلت: إن هذه الجملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ لا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ وأنها الوجه المقابل للإيمان، والتقوى وأن الذى مضى هو بيان لأحوال من آمن واتقى، يعنى إن تُؤمنوا وتتقوا يكن كذا وكذا إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾، وعلى هذا الوجه يكون التهديد بالاستئصال فى هذه الآية ليس موجها إلينا، وصيغة تَتولوا بتائين جاءت فى الكتاب العزيز فى ثلاثة مواضع، موضع بمعنى التولى عن الحرب وذلك فى قوله تعالى فى سورة الفتح ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٦] وجاءت فى سورة هود بمعنى التولى عن الإيمان وذلك فى قوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢] وهذه الآية

الثالـثة تصلح للمـعنيين إما التـولى عن الإيمان؛ وتكون مقـابلة للذين آمنوا واتقـوا كما بـينا، وصالحـة لأن تكون بمعنى التولى عن مـا فى الآيات من النهى عن الوهن، وإعداد الـقوة، والمنعة، والنهى عن أن تبـدأ بالدعوة إلى السلم، والنهى عن البـخل بالنفقة التى قـد تَسْتَوْعبُ المال كلَّه لإعـداد قوة الأمة وهيبتـها، وفى الأثر ما يرجح ذلك فقد روى أن الصحابة فـهموا أنها خطاب للأمة وأن رسـول الله ﷺ لما تلاها قالوا ومن يستبـدل بنا؟ قال أبو هريرة فضـرب رسول الله ﷺ على منـكب سلمان الفارسـى، ثم قال هذا وقومه هذا وقومه. قال الشيخ الطاهر قال الترمذى حديث غريب.. وروى الطبرانى فى الأوسط: هذا حديث على شرط مسلم، وزاد فيه والذى نفسى بيـده لو كان الإيمان منوطا بالثـريا لتناوله رجـال من فارس، قـال الطاهر: وأقـول هو يدل على أن فـارسـا إذا آمنوا لا يَرْتَدُّون، وهو من دلائل نبـوة النبى ﷺ، فـإن العـرب ارتد منهم بعض القـبائل، بعـد وفـاة النبى ﷺ، وارتد البَرْبَر بعد فتح بلادهـم اثنتى عشرة مرّة فيما حكاه الشـيخ أبو محمد بن أبى زيد ولم يرتد أهل فارس بعد إيمانهم، انتهى كلام الطاهر، وإذا كان الطاهر استخرج من هذا الأثر دليل النبـوة لأن فارسا لم ترتد والسياق ليس سيـاق ردة وإنما استقـام كلام الطاهر لدلالته على قـوة إيمان أهل فارس، وأن هذه القوة عصـمتهم من الردة أقول إذا كان هذا مـوقف الطاهر فهل يصح أن أؤسِّسَ عليه موقفا آخر، وأقول هذا الحديث من دلائل النبوة لأن سياق الآيات سياق حَاثٌّ على حَـشْد الأمة كل طاقاتها لتقوية منعـتها، ونفى الوهن عنها، وأنهـا إن تولّت عن ذلك ولم تفعله يسـتبـدل الله بها قـوما آخـرين هم أهل فـارس، أقول الذى أراه الآن أن أهل فـارس يصرون إصـرارا جازمـا لا يلين على نَفْى الوهن عنهم بمشـروعهم النوَّوى وكل المسـيحيين واليـهود فى أوربا ضدَّهم ويُؤلبـون الناس عليهم، وهم مُـصممِّـون يواجهـون كل ذلك بعزيمة جذاء ومـوقف لايلين، وهذا هو موضـوع الآية وسيـاقهـا الذى ضرب فـيه رسول الله ﷺ على منكب سيدنا سليمـان وقال هذا وقومه، وقال لو كان الإيمان

منوطا بالثـريا لتناوله رجـال من فارس، والغـريب أن قيـاداتنا ومن ورائهم المنافقـون اصْطفواُ مع اليهود والنـصارى فى مواجهــة إيران التى تحقق هذه الآية وتنفى الوهن عن الأمـة ويكذبون ويقولون إن قـوة إيران تهدد العالـم العربى، ويسكتون عـن قوة إسرائيل، وكـأنها لا تهـدد، ويكذبون أيضا ويتـحدثون عن خطر المدّ الشيعى وأنا على يقين أنهم لا يستطيعون كتابة نصف صفحة عن الفكر الشيـعى، بل إن معتـقلاتنا غاصة بـأهل السنة، والذين يخافون ويخـوفوننا من خطر المد الشيعى هم الذين يدمرون أهل السنة، ويحاصرون كل من يتحدث عن الدين والسـياسـة، والغريب أيضـا أن إيران حين ملكها صـديقا لأمـيركـا كنا أصدقاء، ولم يـكن هناك حديث عن خطر المد الشيعى، وكـأن إيران كانت سنُّة والمزعج أن الشعوب تبتلع هذه المتناقضات، وهى لا تدرى؛ ولما ظهر كذب خطر المد الشيعى أخذوا يتحدثون عن النزعة الفارسية، وإذا نظرنا إلى هذا الوجه وهو أن جملة ﴿إِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ خطاب للأمة كانت فى الآية إشارة لا يجوز إهمالها وهى استعمال كلمة ﴿تَتَوَلَّوْا﴾ فى التولى عن نفى الوهن عن الأمّة وإعداد قـوتها ومَنعتها، وقدرتها على حـماية أرضها، وثرواتها وشعوبهـا، وهذه الكلمة شاع استعمالهـا فى التولى يوم الزحف، وقد أخبرنا سبحانه ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٦]، وهذا يعنى أن القـعـود عن إعــداد قـوة الأمـة هو من باب التـولـى يوم الزحف وأن هؤلاء المفُرطين فى هذا يبوؤون بغضب من الـله ومأواهم جهنم وبئس المصير، وهذا نفسه عذاب من قتل مـؤمنا متعمدا ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[النساء: ٩٣].

وهذا من حقـائق الدين التى لا يجوز أن تغـيب، ويجب أن يسمعـها كل مسؤول، وأن يعلمها كل مسلم، وأن نتكـلم بها وأن ننكر جميعا ترك بوابات

بلادنا مفتوحة فضلا عن أن يُحتَلَّ بقواعـد للعدو، ثم إن التهديد بالاستئصال المفهوم من قـوله تعالى: ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ تهديد ليس بعده تهديد، وهو أقوى من التهديد المصاحب لكلمة ﴿تَتَوَلَّوْا﴾ وقد جاء مثله فى غير هذا السياق، من ذلك قوله تعالى فى سورة فاطر ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ وجـاء بلفظه فى سـور إبراهيم ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [١٩، ٢٠]، هذا غضب ربنا علينا حين لا نـستجيب لقـوله ولا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم، وقد نهـانا عن منكرات كثيرة ولم يكن غضبـه علينا على هذا الحد الذى نراه هنا لأن وهن الأمة يفضى إلى ضيـاعها وقد نهانا ربنا عن عـوامل أخرى كثيرة تُفْضى إلى هذا الوهن، كـما فى قوله تعالى: ﴿وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ وذهاب الريح هو الوهن.

وللرازى ملحظ جيد فى إعراب الجملة المعطوفة على الجواب ﴿ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ وقد نقله الطاهر ونبه إلـيه، وملخصه أن الجملة الفـعلية المعطوفة على جواب الشرط يجـوز فيها الجزم والرفع، تقول إن ألق فـلانا أعطه حقه وأشكره على ما سلف منه يجوز أن أجزم أشكره على أنه معطوف على أعطه وحيـنئذ يكون الشكر مـتعلقـا باللقاء وداخـلا فى الشرط، ويجـوز أن أرفع (أشكره) على أنه خبـر مبتدأ مـحذوف أى وأنا أشكره، وحينئـذ يخرج عن حيز الشرط ويُفيدُ أنك تشكره لقـيته أم لم تلقه، وقد جاءت هذه الآية بجزم ﴿ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ لأنها داخـلة فى حيـز الشرط، لأنهـا مترتبـة على الجـواب وليس على الشـرط لأنه لا يصح أن نقـول «وأن تتـولوا لا يكونوا أمثالكم»، لأن المعـنى إن تتـولـوا يسـتبدل قـومـا غيركم وإن استبدل لا يكونوا أمثـالكم وهـى فـى هذا تشـبه قوله تـعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ

بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [فاطر: ١٦] فالإتيان بالخلق الجديد ليس مترتبا على المشيئة وإنما هو مترتب على الإذهاب وهذا بخلاف قوله تعالى: ﴿وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران: ١١١] جملة ثم لا ينصرون مرفوعة، قال الرازى لماذا خُصّت آية القتال بالجزم والرفع فيها جائز وخصت هذه الآية بالرفع والجزم فيها جائز ثم أجاب رحمه الله بأن ثم لا ينصرون غير متعلق بالشرط لأن المعنى لا ينصرون قاتلتموهم أو لم تقاتلوهم، والآية التى معنا المعطوف فيها متعلق بالشرط لأنكم إذا لم تتولوا لن يستبدل الله غيركم، وما دام سبحانه لن يستبدل غيرهم فلا وجه لذكر لا يكونوا أمثالكم، لأن هذا المعطوف متوقف على الاستبدال والاستبدال متوقف على التولّى، انتهى كلامه رحمه الله مخلصا.

ولو انتقلت إلى سورة الفتح ستجد إشارة ظاهرة إلى أن القوم استجابوا لله وفتح لهم الفتح الأكبر المبين وأتم الله عليهم النعمة وأنزل السكينة على هؤلاء المؤمنين وازدادوا إيمانا مع إيمانهم كما ستجد هناك المنافقين الذين لا يزالون متشبثين بأمراضهم ولو تفصيت الفتح لوجدت كثيرا فيها كأنه نموٌّ لمعان جاءت فى القتال، هذا والله أعلم.



فهرس الكتاب

الزمر

(٢٧ - ٥٠٣)

محمد - القتال

(٥٠٥-٨٥٠)

●●●